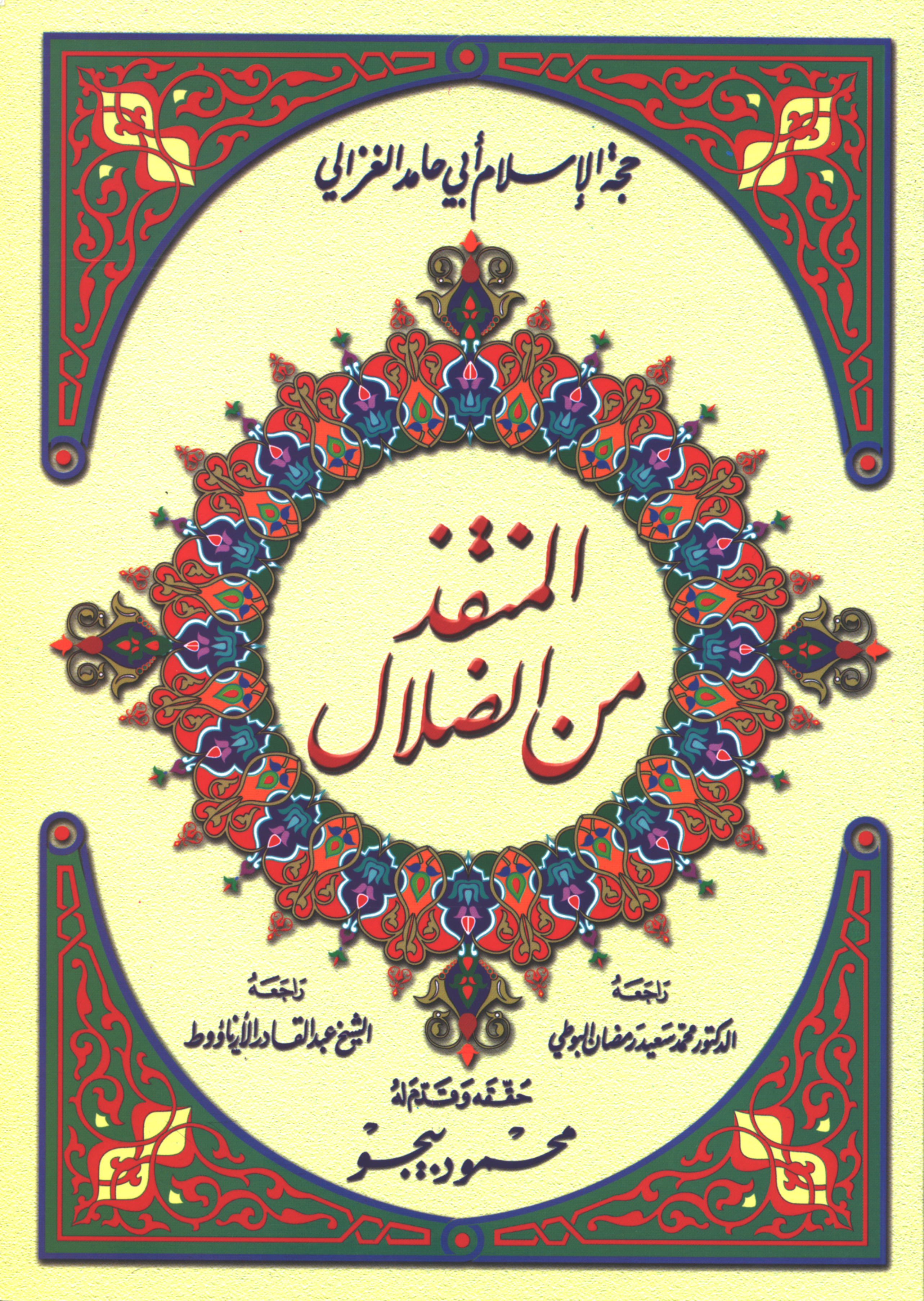

حجة الإسلام أبي حامد الغزالي
المنقذ من الضلال
راجعه
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
راجعه
الشيخ عبد القادر الأرناؤوط
حققه وقدم له
محمود بيجو

حجة الاسلام أبي حامد الغزالي

المنقذ من الضلال

حققه وقدم له

محمود بيجو

راجعه

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الشيخ عبد القادر الأرناؤوط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه سيدنا محمد ابن عبد الله الذي بعثه للبشرية هادياً ونذيراً ، وداعياً إلى الخير ، أنقذ به الإنسانية من ظلمات الجهل إلى نور العلم ،

أما بعد :

فإني لما أيقنت في نفسي أن هذا الكتاب (المنقذ من الضلال) أنفع الكتب وأجلّها إن فهم حق الفهم ، وأدرك حق الإدراك اهتممت به ، وشرعت في العمل فيه ، وإخراجه للناس في طبعة جديدة ، وقدّمت له بمقدمة بينت فيها العلاقة الوثيقة بين « المنقذ من الضلال » و « المنهج » لديكارت ، ثم دعمت آرائي بالوثائق وأرقام المخطوطات التي كانت موجودة عند ديكارت ، وما كان موجوداً عند أصدقائه المقربين ، والتي مازالت موجودة في مكتبات أوربا إلى يومنا هذا .

ومنذ ذلك الوقت واصلت البحث راغباً في الوصول إلى قرار في هذا الأمر ، أعني الصلة بين الغزالي وديكارت ، ولقد توصلت إلى حقائق لا يمكن أن يرتاب فيها إلا المنهزمون نفسياً أمام ضغط الغزو الفكري ، والشعور بالنقص تجاه هؤلاء الأقزام الذين غلا قومنا غلواً شنيعاً في تمجيدهم ، والإشادة بذكرهم والاستخذاء لهم ، ويجعلون قولهم فوق كل قول ، وكلمتهم عالية على كل

كلمة ، وأنهم ظنوا أن ديكارت هذا قد اهتدى إلى ما لم يهتد إليه أحد من أساطين علماء الإسلام وباحثيه ، ولقد جهلوا أن المستشرقين هم طلائع المبشرين الذين أغاروا على العالم الإسلامي ، ووقع تحت يدهم آلاف مؤلفة من المخطوطات النفيسة والمنتقاة ، ووزعت في جميع أرجاء أوربة وأديرتها ومكتباتها وجامعاتها ، وقد تمت عملية إخصاب الفكر الأوربي وهو بسبيل يقظته ، وتلمس طريقه ، تمت عملية الإخصاب هذه في منطقتين :

الأولى : إسبانيا وفي مدينة طليطلة منها بخاصة .

والثانية : صقلية ، وجنوب إيطاليا في عهد النورمان وأشهرهم « رجال الثاني » المتوفى سنة ١١٥٧ م و « فريدريك الثاني » المتوفى سنة ١٢٥٠ م .

فقد كانت هاتان المنطقتان نقطتي التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة ، وبين العقل الأوربي الناشيء لأنهما على الحدود بين دار الإسلام وبين أوربا .

يبدأ هذا التبادل برحلة « جر بيردي أورياك » الذي أصبح فيما بعد بابا باسم « البابا سلفستر الثاني » ومن الثابت أنه زار إسبانيا وأمضى بها ثلاث سنوات من سنة (٩٦٧ – ٩٧٠ م) بجوار أسقف (فتش) فكان لهذه الرحلة أثرها البالغ في اهتمام « جربير » بالعلم العربي ومحاولة نشره في أوربا المسيحية ، وبلغت طليطلة مكانة كبرى على أيدي ملوكها « بني ذي النون » ونقل إليها آلاف المجلدات من المشرق ، وشجع على قيام حركة نقل الكتب العربية إلى اللاتينية إما بتوسط اللغة العبرية ، أو اللغة الدارجة الرومانية ، وعلى رأس هؤلاء مطران طليطلة « ريمندو » (١١٢٦ – ١١٥٢ م) وتلاه خلفاؤه من المطارنة حتى استمرت هذه الحركة طوال أكثر من قرن ، وقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن « مدرسة المترجمين » في طليطلة ، وأول ما اهتم به الأوربيون هو العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية ، وبقيت الدراسة

في أوربا تافهة كل التفاهة ، محصورة في فئة من الرهبان ، وكان على رأسهم الشماس « دومنجو غنصالبه » المتوفى سنة (١١٨٠ م) وبرز نشاطه ما بين (١١٣٠ – ١١٧٠ م) ويعد من أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الإسبانية العامية ، فقد كانت الطريقة في الترجمة أن يقوم يهودي مستعرب بترجمة النص العربي شفوياً إلى اللغة الإسبانية العامية ، ثم يتولى « غنصالبه » الترجمة إلى اللاتينية وبين ما ترجمه « غنصالبه » على هذا النحو بعض مؤلفات الفارابي ، وابن سينا والغزالي .

أما المركز الثاني للتبادل الثقافي فكان كما قلنا في « صقلية » بعد أن استولى النورمان عليها سنة (٤٨٤ هـ) وكان العرب قد فتحوها سنة (٢٧٢ هـ) فبدأت فيها حركة مناظرة لحركة طليطلة وإن تأخرت عنها بعشرات السنين ، كما اشترك في حركة الترجمة من العربية مترجم إيطالي فذ هو « جيراردو اللريموني » سنة (١١١٤ – ١١٧٨ م) الذي رحل إلى طليطلة طمعاً في دراسة العلوم الفلكية .

واستمرت حركة الترجمة في طليطلة في القرن الثالث عشر وأمَّ طليطلة علماء أوربا الكبار مثل « ميخائيل أسكوت » الذي شارك أيضاً في حركة الترجمة ، فترجم لابن سينا ، ومن بين كبار المترجمين نذكر « ماركوس » شماس طليطلة الذي ترجم من العربية بعض مؤلفات « جالينوس » الطبية كما ترجم القرآن الكريم ، وبعض الكتب في علم التوحيد كما نذكر « هرمانوس المانوس » الذي ترجم « ابن رشد » على الأخلاق « لأرسطو » سنة (١٢٤٠ م) وتلخيص الخطابة « لابن رشد » وفي عهد « الفونسو الحكيم » انتشرت حركة الترجمة من العربية إلى الإسبانية الناشئة ، وكان لهذا أثره العظيم ليس فقط في تقدم الدراسات العلمية في إسبانيا ، ومنها إلى أوربا كلها ، وخصوصاً في قيام اللغة الإسبانية .

ومن هذا كله يتبين مدى حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية والإسبانية ، مما سيكون له أخطر الأثر في بعث العلم والأدب في أوربا »[1] .

فأوربة كانت ساقطة في حمأة العصور الوسطى المظلمة ، كانوا في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، لا دين يجمعهم ، حتى جاء عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي (١٦٠٠ م) ، وبتأثير من نقل المخطوطات وترجمتها إلى اللاتينية عن طريق إسبانيا وصقلية ، وعن طريق الرهبان وتلامذتهم ، وظهر رجال يطلبون العلم والمعرفة من أمثال « روجر بيكون » الانجليزي ، (١٢١٤ – ١٢٩٤ م / ٦١١ – ٦٩٣ هـ) ، ممن تعلموا العربية ، وجاهدوا في التعلم جهاد المستميت بصبر ودأب ، ليزيحوا عن أنفسهم وأهليهم غوائل الجهل ، وكان منهم ذلك الرجل الذكي « توما الإكويني » الإيطالي ، (١٢٢٥ – ١٢٧٤ م/ ٦٢٢ – ٦٧٣ هـ) استطاع هذا الرجل أن يحصّل قدراً كبيراً من المعرفة والعلم ، وكان متكئاً اتكاءً كاملاً على القدر الذي استطاع أن يفهمه ويظفر به من عند كتاب الإسلام وعلمائه وفلاسفته ومتكلميه كابن رشد وابن سينا والغزالي وغيرهم ، ولكن كان العائق عن أن تؤتي هذه النهضة ثمارها يومئذ أن لغة الرهبان ثم العلماء كانت هي اللاتينية القديمة ، وكانت أوربا كلها تتكلم لغات كثيرة مختلفة ، ولهجات شديدة التباين ولكنها لغات قلقة في دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فأصبح الرهبان والعلماء يسيرون في طريق ، ورعايا الرهبان في طريق آخر ، فهم قطيع ينعق فيه ناعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون[2] .

كان كل مدد اليقظة ، مستجلباً من علوم المسلمين ، وكان السبيل إلى

(١) انظر دور العرب في تكوين الفكر الأوربي للدكتور عبد الرحمن بدوي .

(٢) انظر « المتنبي » للأستاذ محمود محمد شاكر . (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) .

ذلك معرفة لسان العرب ، ولقد كان للسان العرب السيادة المطلقة على العالم ، وكان هذا اللسان معروفاً معرفة جيدة لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية ، وفي قلب أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس ، وكان لا بد لهم من أن يزداد عدد الذي يعرفون اللسان العربي ويجيدونه زيادة وافرة ، لحاجتهم يومئذ إلى أن يعتمدوا اعتماداً مباشراً على الاتصال بالعلم الحي في علماء الإسلام ، لكي يتمكنوا من حل الرموز اللغوية الكثيرة المسطرة في الكتب العربية .

وقد ظهر منهم رجل استطاع أن يضع لهم منهجاً فكرياً وهو « ديكارت » الفرنسي (١٥٩٦ – ١٦٥٠ م) فمن خلال دراستي لكتاب « المنقذ من الضلال » استطعت أن أصل إلى أن الرجل استطاع أن يحصّل ما حصّل إنما باعتماده على الغزالي الذي سبقه بخمسة قرون ، وأريد أن أقف بالقارىء في هذه المرحلة من مراحل « منهج الغزالي الفكري » ، وأقارن بينه بين « منهج ديكارت » فإننا خلال دراستنا لكتاب « المنقذ » نصل إلى أنه ليس من الممكن أن نجد في أي مؤلف أوربي إيضاحاً لمذهب التشكك الذي يقول به الفلاسفة ، له وضوح هذا الذي قاله الغزالي .

ولنسمعه وهو يتحدث عن نفسه ، وهو يقص قصة جهاده في انتزاع نفسه من الآراء التي رضعها طفلاً ، يقول الغزالي : « قلت لنفسي : إن ما أسعى إليه هو معرفة حقائق الأشياء ، وإذن فالضروري لي هو أن أتبين معنى المعرفة . وكان واضحاً جلياً عندي أنه لا بد من وجود نوع من المعرفة للأمر المطلوب التعرف عليه يجلو عنه كل شك ، بحيث يصبح وقوع الخطأ أو توهم الخطأ فيه أمراً مستحيلاً . وليس يغني فيما تحققت لي معرفته أن يكون في غير حاجة إلى جهد لإقناع غيري به ، ولكن يجب أن يتوفر له من السلامة ما يحميه من قيام احتمال الخطأ فيه ، فهذا الشرط وثيق الاتصال بمعرفته ، حتى لو قام برهان

ظاهري على بطلانه ، إذ أن هذا البرهان الظاهري يسقط تلقائياً لعدم قيام شبهة حول ما أعرفه تسمح بظن وقوع الخطأ فيه ، مثال ذلك أني إذا عرفت أن العشرة أكثر من الثلاثة فإني إذا قال لي قائل : بل هو العكس فالثلاثة أكثر من العشرة ، ثم أقام البرهان على صدق دعواه من زعمه أنه قادر على أن يحوِّل عصاه إلى حيَّة ، ثم صنع ذلك فعلاً ، فإن اقتناعي بخطئه لا يتذبذب . قد أعجب بسعة حيلته ومهارته ولكني لا أشك في سلامة معرفتي » .

« وقد أصبحت مقتنعاً بأن العلم الذي لا يحصل لي على هذه الحالة من التمام ، ولا يتهيأ لي معه هذا اليقين ، لا يمكن الاطمئنان إليه ولا التأكد منه ، والعلم الذي لا يقين معه لا يجدر به أن يدعى علماً » .

« وأخذت أراجع حالة علمي على ضوء هذا المنهج فوجدته مجرداً من كل هذه الشرائط ، فليس هو إذن جديراً باسم العلم ما لم يكن لبلوغ العلم وسيلة أخرى تبلغ إلى اليقين به غير هذه الوسيلة ، وقلت : لعلها تكون في تحقيق العلم عن طريق الحواس ، وعن طريق المباديء المسلم بصحتها وظننت أن شهادتها لا مراء فيها ولا شك » .

« غير أني حينما أخذت في امتحان الأمور عن طريق الحواس ، وعن طريق التأمل لأرى إن كان من الممكن أن أصل بها إلى القطع ، وعن طريق التأمل لأرى إن كان من الممكن أن أصل بها إلى القطع وتبديد الشك ، تكاثرت علي الشكوك وتزاحمت حتى بددت كل يقيني . فقد رحت أسأل نفسي من أين تأتيني الثقة بالأمور الحسيَّة ؟ ولما كان أقوى حواسنا البصر ، فقد وجدت أنني أنظر إلى الظل فأراه ثابتاً لا ينتقل ، فأحكم عليه بالبراءة من الحركة ، غير أني لما رجعت إلى مكانه بعد ساعة وجدته مفارقاً مكانه ، فهو لا يختفي فجأة ، ولا يتحرك عاجلاً ، وإنما ينسحب شيئاً فشيئاً ، قليلاً قليلاً فلا يبقى ثابتاً أبداً ، وأنا إذا نظرت إلى النجوم بدت لي صغيرة كأنها الدراهم ولكن

البراهين الحسابية تقنعنا بأنها أكبر من الأرض . وهذه وأمثالها تصدر الأحكام عليها عن طريق الحواس لكن العقل يرفضها ويبطلها ، وهجرت الحواس بعد أن تزلزلت ثقتي بها » .

« ورحت أقول لنفسي : لعل اليقين لا ينال إلا بأحكام العقل ؛ أي من طريق المباديء الأولى : من قبيل أن العشرة أكثر من الثلاثة ، ثم ردَّت على الحواس قائلة : أي أمان لك في ثقتك بالعقل ، وهل هي إلا من قبيل الثقة بنا ؟ لقد اعتمدت علينا فتقدم العقل فكذبنا ، ولو لم يكن العقل موجوداً فلقد كان ممكناً أن تمضي علينا ، فما يؤمنك أن يكن في الوجود شيء سوى العقل ، يقوم منه مقامه منا فيكذب أحكامه بمثل ما كذب هو أحكامنا ؟ وعدم ظهور هذه القوة لنا ليس دليلاً على عدم وجودها » .

« وتلبثت طويلاً أجاهد عبثاً إيجاد رد لهذا الاعتراض ، وزادت متاعبي عندما فكرت في النوم ، فرحت أقول لنفسي : لقد ترى الأحلام فتراها في النوم حقيقة ، وتجدها متساوقة فلا تتطرق إليك شبهة تبطلها ، فإذا أنت استيقظت عرفت أنها لم تكن إلا أطيافاً وخيالات فما يدريك أن ما تراه هنا في يقظتك ليس إلا من قبيل الأحلام ؟ » .

« كل حالة حق في لحظتها ، ويبقى في الإمكان أن تعرض لك حالة ثالثة تكون منك بالقياس إلى ما تراه في يقظتك ، بمثل ما كانت حالتك في اليقظة بالقياس إلى حالتك في الحلم ، وحينئذ تكون يقظتك الحالية ليست إلا نوماً بالقياس إلى تلك الحالة العليا التي يمكن أن تكون »[1] .

ويعقب عليها دريبر بقوله :

« ليس من الممكن أن تجد في أي مؤلف أوروبي إيضاحاً لمذهب

(١) (تاريخ تكون أوربا الفكري ح ٢ ص ٤٩ لدريبر) .

« التشكك » الذي يقول به الفلاسفة ، له نصوع هذا الوجه الذي قدّمه به هذا العربي ، وليس في الإمكان حقاً أن تقدم القضية بطريقة أفضل ، وقوّة عارضة الرجل تتبدى في مفارقته الفذة لغموض الكثرة من الكتّاب الميتافيزيقيين . وليس من مقصدي أن نقنع بهذا القسم من مسيرة العالم المسلم الفكرية ، وإنما أريد أن آخذ سبيل المقارنة بين « الطريقتين » على نحو التجزئة وسأقدم السيرة التي سارها « ديكارت » لأنتهي إلى رسم منهجه بمثل ما صنع دريبر في تقديم السيرة الفكرية التي سارها الغزالي – نقلاً عن الغزالي نفسه – لينتهي إلى منهجه العام وقد رآه دريبر دون شك ، وألمح إليه من الوحدة بين المسيرتين الفكريتين اللتين يفرق بين صاحبيهما خمسة قرون » .

وكما نقلت حديث الغزالي عن سيرته الذهنية عن عالم أوروبي كذلك لكي تتم المعادلة في التقديم .

يقول الأسقف جورو وأستاذ الفلسفة القديمة في كتابه « دراسات تحليلية للكتّاب الفلسفيين » عن ديكارت :

« ونظر ديكارت فوجد أنه قد بذل من الزمان الكثير في دراسة اللغات وفي قراءة الكتب القديمة : تواريخها وخرافاتها ، فالخرافات تحمل على تصور كثير من الوقائع غير الممكنة ممكنة الوقوع ، والتواريخ ، حتى أشدها أمانة ، تغفل أحط الظروف تألقاً ، وهي بهذه الحالة لا تكون تامة . وبدا له أن « البيان » والشعر طرح نفسي أكثر منهما ثمرات للدرس .

وكان يقدر الرياضيات ولكنه لم يكن يرى لها وجهاً حقيقياً للاستعمال ، ويوقر علوم الدين ، ولكنه كان يرى أنها غير ضرورية لتخليص النفس ، ثم أنه كان يعتقد أن الفلسفة لا تنطوي على أمر واحد كف الناس عن المجادلة فيه ، وأن العلوم التي تنهض على قاعدة من الفلسفة ليست بأثبت من الفلسفة .

وحملت هذه التأملات كلها ديكارت على أن يهجر دراسة الآداب ،

ليلتمس الحقيقة في ذاته ، أو يقرأها في كتاب الدنيا ، ولذا شغل نفسه الجزء الباقي من شبابه في الترحل ، غير أنه رأى في أخلاق الناس وعاداتهم ، وفي آراء الفلاسفة ، التناقضات الكثيرة فقر عزمه على أن يدرس نفسه ، وأفاده هذا الدرس أكبر الفائدة »[١] .

هذه الأزمة الفكرية التي وقع فيها ديكارت هي نفسها التي مر بها الغزالي وعرض الغزالي علمه على مقاييس التحقيق الممكنة لكي يصل فيه إلى الحقيقة ، وهو نفسه العرض الذي عرض فيه ديكارت على نفسه معارفه التي حصلها في سني دراسته ، وانتهاء الغزالي من هذا العرض لمعارفه إلى الشك في صوابها ، هو الذي انتهى إليه ديكارت في استعراضه علومه التي حصلها في المدرسة على نفسه وتأملاته .

ولكن نجد الفرق تماماً بينهما في ظاهرتين :

الأولى : أن الغزالي يشير إلى علمه جملة ، وإلى معارفه تعميماً ، وبها من الأنواع ما يقدمه عرض ديكارت للمعارف التي حصّلها ديكارت في مدرسته لا مراء ، وعمل ديكارت في هذه النقطة لا يعدو أن يكون شرحاً بالأمثلة ، أما إيجاز الغزالي فيأتي اعتماداً على مستوى الصورة المحصّلة للأستاذ في نفسه عن علمه وعند الناس .

والناحية الثانية : هي تفصيل الغزالي في بيان المقاييس التي عرض عليها علمه من الحواس ثم الإدراك ، ثم العقل ، وإيجاز التلميذ الجديد ، ذلك في وثبات متباعدة مبعثرة بين شعب موضوعه ، ولعل ذلك راجع إلى أنه لم يكن يريد أو يسيغ في مطلع حياته رفض الدنيا ، والالتجاء إلى دير يعيش فيه معيشة الزهاد بمثل ما انتهى إليه الغزالي .

(١) (انظر : ديكارت ، خطاب عن الطريقة ص ٧ — ٩) .

وهاتان الظاهرتان نفسهما هي المشير إلى أن ديكارت كان ينهل من منهل لم يهيأ له بعد بحكم تجربته الضيّقة التي لا يمكن أن تظفر به إلى هذه التأملات التي إنما تقود إليها سعة التجربة في الحياة الطويلة ، « فديكارت » يصطنع الحيرة التي لم توجد في حياته بعد أسبابها ، ولا مهيئات النفس والعقل الوقوع فيها .

ونحن إذا نظرنا إلى دوافع الغزالي إلى الشك وجدنا أمراً جسيماً تتضاءل إلى جانبه هذه الدوافع التي يقول ديكارت أنها حيرته وحملته على ترك المدرسة في مرحلة الصبا ، وقبل الإجازة الأولى ، فقد تكاثرت الفرق الإسلامية المتناهضة على فكر الغزالي في عصره حتى كادت تضله ، وحتى وجد نفسه في شبه الشك فيها جميعاً ، فالتطابق في النظريتين قائم ، وبتفاصيله والمسار فيهما واحد ، والقول بتكلف ديكارت ادعاء الوقوع في هذه الحيرة المفضية إلى التشكك في حقائق الأشياء ، حكم له مبرراته ، والقول بأنه ينقل انطباعاته عن الغزالي قول لا تجني فيه .

ولنخطو بعد هذه الخطوة إلى غيرها ، يقول ديكارت : إنه وجد نفسه يبحث عن الحقيقة في نفسه ، وفي كتاب الوجود ، وإنه في هذا السبيل وجد أن الرحلة للتعرف على الحقيقة بين الناس في مختلف البلاد هي الوسيلة لتحقيق معرفته ، فنهض إليها ، وهذا تصوير لحياة الترحل التي عاشها الغزالي .

لقد كان ترحل الغزالي في سبيل العلم ، وتلك كانت ظروف تجاربه الواسعة المحصلة في عالم يترامى بين خراسان في أقصى الشرق من فارس حتى الغرب من مصر ، وكان يرجو أن يرتحل إلى المغرب الأقصى فيجمع بذلك بين أطراف العالم المتحضر في أيامه وإنما حال بينه وبين ذلك وفاة الأمير « يوسف بن تاشفين » رحمه الله تعالى ، فلم يتجاوز الإسكندرية .

فأين تقع رحلات ديكارت من رحلات الغزالي ؟ يقول مترجمه :

« ولد رينيه ديكارت في لاهاي من إقليم تورين – فرنسا وتلقى دروسه

في مدرسة لافليش وكان يقوم عليها الجزويت ، ومع أنها كانت مدرسة من أشهر المدارس الأوربية فإنه عندما بارحها في السادسة عشرة من عمره لم يكن راضي النفس عن دراسته . يقول : « لقد وجدت نفسي مثقلة بالشكوك والأخطاء حتى لقد رحت أظن أني لم أفد شيئاً من سعيي إلى التعليم إلا أني أزداد من يوم إلى يوم كشفاً لجهلي » هذه الصورة هي أقرب إلى متاعب الرجل ومشاغله التي إنما تنضجها السن . خرج هائماً على وجهه مدة إثني عشر عاماً متتابعة ، لا يهدأ له بال ، باحثاً ، كما نقول عن مهمته وعمله ، حيناً في الحياة بين الناس ، وحيناً في الترحل ، وحيناً في المعسكرات بين الجنود » ولعل مترجم المنقذ فهم من سيرة الغزالي عندما فارق نيسابور إلى نظام الملك فيقول : وخرج إلى العسكر ، فظن أنه دخل سلك الجيش فأقحم ديكارت في سلك الجيش ولم يفهم أن المنطقة التي لقي الغزالي فيها نظام الملك هي العسكر .

فقد كان ديكارت صبياً فاشلاً مافي ذلك شك ، فقد فارق المدرسة في السادسة عشرة من عمره ، وفارقها في هذه السن الباكرة لا علم له إلا النزر اليسير الذي يتاح جمعه للصبي في مثل سنه بدءاً من طفولته ، وفارقها غير مرضي عنه ، ولا راضياً ، يتخذ من موارد لا نعرفها ، وفي سن المراهقة المريضة طريقة إلى ممازجة الدنيا والناس ، ويقضي أيامه متنقلاً مسافراً ، لا في تحصيل علم مدرسي لأنه كان ساخطاً على هذا العلم المدرسي ، ولكن للتعرف على الحياة ، وإشباعاً للنفس بمخالطة المجهول في تلك السن الغضة .

وتحت ضغط والده الذي راح ينصحه باتخاذ عمل يملأ به هذا الفراغ الذي كان يعيشه ، واختار له الانضواء في جيش من جيوش أمراء ذلك الزمان ، فاستجاب أخيراً لتوسلات أبيه فدخل تحت السلاح لمدة أربع سنوات ، وهي المدة التي قضاها الغزالي في عسكر نظام الملك قبل الترحل إلى دمشق وبعد أن اشترك في حصار لاروشيل هجر حرفة الجندي وعقد العزم على أن يتفرغ

للتأمل والنظر ، فانسحب إلى هولانده ، وعاش عيشة العزلة في أمستردام ، ولاهاي ، وليدن وفي ايجمونت العذبة الحلوة الهادئة » .

هذه الادعاءات بأن الفتى الغرير الذي لم يتم تحصيله العلمي فضاق بها ، فإن مثل هذه الادعاءات بأنه كان هارباً من علوم مدرسته التي لم يتذوق بعد منها إلا ما لا يرتقي على ما يحصله الطالب في المرحلة الوسطى من المدرسة الثانوية ، فإن الزعم بأنه تشكك في العلوم الإنسانية كلها زعم باطل يلجأ إليه صاحبه تمحكاً ليخفي من ورائه سر الخيبة التي نزلت به في مستهل شبابه ، وأقل ما يقال في تفسير حالته أنه ابتداء من السادسة عشرة من عمره لم يقرأ كتاباً ، مكتفياً بقراءة كتاب الحياة على حد زعم مترجمه نقلاً عنه ، وإذا كان ديكارت يقول : « إنه شاهد في تجواله الذي اتصل منذ خروجه من المدرسة إلى أن التحق بالجندية نزولاً على توسلات أبيه أي في مدة خمس سنوات ، شاهد أخلاق الناس ، ولمح تضارب الآراء الفلسفية ، وعاد بعد ذلك العلم مرتزقاً في جيش دوق ناسو ، ثم دوق بافاريا لمدة أربع سنوات ، بل إنه بعد ذلك حضر حصار لاروشيل فمتى أتيح لهذه الحياة على تعبير صاحب النبذة التي مررنا بها حالاً أن تعطيه فرصة الاطلاع على فلسفات الفلاسفة ، ولمح التناقضات بينها ، والالتجاء آخراً إلى الاعتكاف لينظر لنفسه طريقة توصله إلى حقائق الوجود من حوله ، وتهديه إلى العمل العلمي السليم ؟ متى أتيح له ذلك وأبوه يرى ضياعه ، ويلتمس له منه مخرجاً بالعمل جندياً متطوعاً ، أو مرتزقاً بجيش أمير من أمراء المقاطعات الأوروبية ؟

إن لهؤلاء تحت تأثير التعصب القومي والعنصري أن يكيفوا التعليلات كيفما حلالهم ، ولكنها تظل أبداً مهتزة ثم تتهافت عند عرضها على الوقائع الصلبة في حياة ديكارت لقد فشل ديكارت في المدرسة ، وخرج منها في السادسة عشرة لا يملك من أسباب العون على التفكير المستقل في مرحلة تكونه

الحيوية والتعليمية ، ما يحمله على التشكك في علوم لم يحصلها بعد . ثم اس... لحياة لا يمكن أن نعتبرها مهيئة لحياة فكرية حقيقية فضلاً عن حياة تثمر الثمرة الخصبة التي قدم من صورها ما يتفق تماماً مع ما رآه « الغزالي » الفيلسو... المسلم المؤمن ، المجرب ، المبتلى للبحث العلمي ، الضارب في أعماقه النافذ البصر فيه ، الحاد الذكاء إلى حد الإعجاز ، وقد قدم الغزالي منها ما قدم في أواخر عمره ، وبعد أن حصل من العلوم وكتب فيها ما كان جديراً حقاً بأن يدعو صاحبه إلى التأمل ، وتقليب وجوه النظر والحيرة في التماس « الحقيقة الأبدية » .

وغريب حقاً أن نجد هذا التوازي التام بين حياتي رجلين : عاش أحدهما حياته كلها في القرن الميلادي الحادي عشر ، وعاش الثاني حياته كلها تقريباً في القرن السابع عشر ، وترك الأول ما ترك من آثار اتصلت بالأوربيين منذ مطلع عصر نهضتهم ، وترجم القساوسة منها إلى اللاتينية ما ترجموا مما كان موجوداً بين يدي ديكارت وغيره ، فالغزالي هو العالم المسلم الفيلسوف الهازم للفلسفة هدماً للإلحاد الذي ترتب عليها ، العالم الذي يكتب « تهافت الفلاسفة » فيرد عليه فيلسوف مسلم مثله ، يعيش في إسبانية التي كان القساوسة الأوروبيون يحجون إلى جامعاتها الإسلامية ليتعلموا ، وليلتمسوا النور نجاة بأنفسهم من حلكة الظلام الذي كان يعيشون فيه ، لا غرابة إذن في أن يلفت هذا العالم المسلم الذي يزلزل بعقله القوي ، مكانة فلاسفة اليونان الذين راحت أوروبا تسمع من أعمالهم وأسمائهم خلال القرون الوسطى من الجامعات الإسلامية ، وأثناء الحروب الصليبية ، وطبيعي أن تترجم فلسفته التي تخرج الإلهيات بالعمل العقلي ، وأن تأخذ مكانها بين ذخائرهم لأنها يمكن أن تتحول في أيديهم إلى سلاح ترد به الكنيسة عن نفسها ما تشهره عليها الفلسفة والنظر من حرب اتصلت حتى هزمت الكنيسة فراح قساوستها يحاولون المصالحة بينها وبين دينهم فيعجزون ، وطبيعي أن يخلو ديكارت إليها في هولندا .

كان الغزالي معروفاً من غير شك في أوروبا ، وكانت ترجماته إلى اللاتينية موجودة في خزانات أمرائها وملوكها ، ومن أخطر الأدلة على هذا ، هذا التوازي الدقيق بين حياة « الغزالي » وحياة « ديكارت » ، وبين « منهج الغزالي » الفكري وبين منهج « ديكارت » الذي لم يثبت في حياته السابقة لتقديم « المنهج » أنه كان مؤهلاً ، أو متفرغاً للعمل العلمي الهادي إليه قبل أن يعلنه .

وكلما مضينا في طريق المقارنة بين ما يدعى بـ « منهج ديكارت » و « منهج الغزالي » نزداد يقيناً بأن ديكارت لم يصنع أكثر من تقديم « منهج الغزالي » في ترجمته اللاتينية مع مس رفيق من التعديلات والتحوير لا يبدل من حقيقته شعرة ، فكل تأملاته أو اعتراضاته أو الردود على هذه الاعتراضات لا تخرج عن عناصره الصلبة التي قدمها في كتابه « المنقذ من الضلال » ووضحت بعض قضاياه في « تهافت الفلاسفة » .

ذلك هو الغزالي يوم رسم منهجه العقلي العامل ، وخط طريقته في الوصول إلى الحقيقة التي ترد إليه ما تفرق من شتات نفسه ، وترد إلى مجتمع أمته ما تشتت من أمر عقيدتها ، والرجل الذي جد في التحصيل ، وجد في الفهم ، وجد في الإثمار بما لا يكاد يتحقق لقادة الأمم إلا فلتة واستثناء .

كان يرى في نفسه القدرة على العمل لمواجهة تيارات الزيغ الهادرة بعد أن جرب من سُرها ما جرب حتى كادت تبتلعه ، فهو يقنع نفسه بالعودة إلى نشر العلم بعد أن فارقه مختاراً : « لعل الله قد ندبك على رأس القرن لإصلاح ما اعوج من عقيدة أمتك » . ثم يجد من السلطان دفعاً فيمضي .

وهل رأيت إلى « المعيار » الذي اختاره لسبر غور الحقائق الوجودية ؟ معيار دقيق عجيب ، هو المثال الكامل الذي لا يمكن أن يقع عليه إلا الرجل الذي خلق في آفاق الفكر الإنساني ، وابتلى تجاربه ، فحقيقة العلم عنده هي

« العلم اليقيني » يقول : (وظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب معه لتقدير ذلك ، بل إن الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً » .

وهذا الحد للحقيقة هو ما ترجمه ديكارت بعبارته (الجلي المتميز) ذلك أن الزلزال الفكري الذي كانت قد بعثته الصراعات الفكرية بين الفرق حتى استعمل السفسطة كان لا يمكن مواجهته إلا على أساس واضح ثابت من عمل معيار لا تقوم له معارضة .

تلك هي العوامل الهائلة التي جرفت بالغزالي إلى تقديم الشك في حقيقة علمه الواسع العميق العريق ، وذلك كان معيار العلم اليقيني عنده ، وذلك لتحقيق غايتين :

الأولى : إعراء خصمه من أردية المغالطة والثانية : وضع الحقيقة التي إذا انتهى إليها لم يبق مجال للمجادلة فيها بعد أن عرضها قبل خصمه على هذا « المعيار » فلا يقع من ورائه سلاح في يد هذا الخصم .

لقد أبى الغزالي أن يقدم لخصمه الحقيقة إلا بعد أن تتساقط عنها كل أستار الشك ، كان اختياره الدواء بعد تشخيص الداء ، فهو لا يريد أن يداور ، ولا أن يحاور ، ولكن يريد أن يسبق خصمه إلى ما سيواجهه به ، ولذلك قدم الشك ، فأين من هذا كله ما زعم ديكارت ، حين جاء إلى انتحال « منهج الغزالي » في الشك المنهجي ؟ ولنسمع ديكارت وهو يقتفي أثر الغزالي في تقديمه مبررات دخوله عليه ، ثم انظر معياره فيه ، والأمثلة التي يقدمها « للعلم اليقيني » وقسها وناظر بينها وبين ما قدمه الغزالي فيقول ديكارت : « على أني ما كنت أستهين بالأعمال التي يقوم بها الطلبة في مدارسهم فلقد كنت

أعرف ضرورة اللغات التي تحصل هناك لفهم الكتب القديمة ، وكنت أعرف أن الخرافات تنبه العقول ، وأن الإنجازات المرموقة في التواريخ تسمو بتلك العقول ، وأنها لو قرئت بإمعان تعين على تكوين الحكم ، وإن قراءة كل كتاب جيد بمثابة الحديث مع رجل من أكثر أبناء القرون المواضي أمانة ، بل إنه للحديث المدروس الذي يكشف فيه صاحبه عن خير ما عنده من فكر ، وإن « لعلم البيان » من القوة والجمال ما لا يعلى عليه ، وإن للشعر رقة وعذوبة فاتنتين ، وإن الرياضيات ابتكارات دقيقة جداً ، وهي أقرب إلى إشباع نهم الدارس لها منها إلى تذليل الأعمال وتخفيف الأعباء عن الناس ، وإن كتب الأخلاق تشتمل على كثير من المعارف ، وقدر كبير من الحث على الفضائل فهي كبيرة الفائدة ، وإن الإلهيات تعلمك كيف تكسب السماء ، وإن الفلسفة تسخر لك أداة للحديث في كل شيء حديثاً أقرب إلى صورة الحقيقة ، وتجعلك موضع الإعجاب من الذين يقعون في منزلة دون منزلة العلماء ، وإن التشريع والطب وغيرهما من العلم يؤديان إلى الشرف والشهرة والمال ، وإنه يجب النظر فيها جميعاً حتى أوغلها في الخرافة للوقوف على قيمتها الصحيحة وللاحتراز من الخطأ ، غير أني وجدت آخر المطاف أني أعطيت اللغات وقتاً طويلاً ، ولقراءة الكتب القديمة والتواريخ والخرافات ، وإن الحديث إلى أبناء القرون الأولى لا يزيد فائدة على الترحل .

فمن الخير التعرف على عادات الناس في الشعوب المختلفة حتى يتيسر علينا تقويم عاداتنا ، وحتى لا نظن أن كل ما خالف عاداتنا شيء يدعو إلى السخرية ، وأنه مناهض للعقل ، كما يحكم أولئك الذين لم يروا شيئاً ، لكن الإنسان عندما يطيل الترحل يغدو غريباً في وطنه ، وعندما يزيد فضول الرجل حتى يحمله على الشغف بما كانت تمارسه القرون المواضي ، فإنه يصبح شديد الجهل بما يمارس هنا في وطنه .

وزيادة على ذلك فإن الخرافات تحمل على تخيل إمكان ما ليس ممكناً ، وأصدق التواريخ إن هي لم تبدل قيم الأشياء أو لم تزدها على حقيقتها لتصيرها مغرية لقارئها فإنها تكاد كلها تجنح إلى إغفال الظروف السيئة ، والأقل تألقاً . وينشأ عن فعلها هذا أن ما نبقيه لا تبدو على حقيقته فيسقط الذين يقرؤونها ويكيفون سلوكهم على غراره في تظرفات كتابنا القصاصين المتجولين ويتلمسون تقليد نماذج فوق طاقتهم وكم كانت تعجبني الرياضيات ، لما تمتاز به من الدقة ، ومن ثبات المقدمات غير أني لم أعرف حتى اليوم مكاناً لاستخدامها .

وكنت أبجل ديانتنا ، وأزعم أن غيرها لا يكسب رضا السماء ، ولكن بعد أن عرفت أوثق المعرفة أن الطريق إليها « السماء » ليس أقل انفتاحاً في وجه أكثر الناس جهلاً منه في وجه أكثرهم علماً وأن الحقائق التي تتنزل من السماء وحياً ، ويسوق الإيمان بها صاحبه إلى السماء ، تقع فوق مستوى ذكائنا ، فإني لم أجرؤ على إخضاعها لضعف تفكيري ، وانتهيت إلى أن النظر فيها ، والنجاح فيه يحتاجان إلى مدد استثنائي من السماء ، إلى أن أكون أكثر من إنسان » . (المنهج ص ٦ — ٧) .

وهذا الكلام يتناقض مع محاولته العقلية في إثبات وجود (الله) ويمضي في تناسق مع تفكير الغزالي في الإلهيات .

وسرُّ جرأته على الكنيسة هو ما اقتنع به من نظرات الغزالي إلى الوحي المنزل من السماء ، وما ساقه فيها من التدليل على سلامته مع عزلته عن التفكير القياسي الذي يجري عليه الفلاسفة وهدمه مسالكهم في « الإلهيات » .

والتفاوت الهائل بين تصوفه المستعار من معالجات « الغزالي » للأدلة الدينية ونوعها وبين نظراته الفجة إلى علومه التي حصل منها ماحصل في المدرسة الثانوية ، هي السراج المضيء الذي يضع المأخوذ تحت رائعة النهار .

ودعوى الخروج من هذه المقدمات التافهة إلى « الشك المنهجي » أشبه شيء « بالفأر الذي تمخض فولد جبلاً » فما أصغر المقدمات بالقياس إلى النتيجة ، هذا مع ملاحظة أنه كتب يوم كتب « المنهج » وهو في سن الحادية والأربعين لتغطية فشله المدرسي . ولننظر إليه وهو يترجم كلام الغزالي عندما يصور تحصيله للعلم وسعيه الدائب إليه « ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ قبل العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجَسور لا خوض الجبان الحذور ... المنقذ .

لننظر إليه وهو يترجم هذا النص : « ومن أجل ذلك فإني ما كدت أبلغ السن التي ظننت أنها تسمح لي بالخروج على الإذعان لمعلمي حتى هجرت هجراً تاماً دراسة الأدبيات ، منقطعاً عن الدخول في طلب علوم لم أجدها في نفسي أو في كتاب الدنيا الأكبر ، فاتخذت الترحل بقية شبابي لأرى في التجوال الدروس والجيوش ، ولأختلف إلى أناس من كل صنف ومن كل حال ، ولأقتطف التجارب المختلفة ، وألقي بنفسي في غمار اللقاءات التي اختارها لي حظي ، جاعلاً وكدي تحصيل الفائدة ما قدرت على استخلاصها من أعمال الفكر في كل ما لقيته ، ذلك أن قد بان لي أني أقدر على استجلاء الحقيقة عن طريق تحصيل نظرة كل رجل في مخالطة أعماله التي تشغله فإذا هو أخطأ الحكم عليها لقي عتاب خطئه ، وكنت على تحصيل ذلك أقدر من المشتغل في مكتبه بالأدبيات مخالطاً تأملاته التي لا ثمرة لها ... وكانت تلح علي دائماً الرغبة الحادة في التمييز بين الحق والباطل حتى أكون على بينة في أعمالي ولأمضي آمناً في هذه الحياة ، ومن الحق أني وأنا لا أصنع في تلك المرحلة أكثر من ملاحظة سلوك غيري ، لم أكن أجد فيه ما يطمئنني إليه ، وإني لاحظت فيه من التباين قدر ما لاحظته قبلاً من التباين بين آراء الفلاسفة » .

كل العناصر الأساسية في أقوال الغزالي عن مخالطته أصحاب المذاهب الفكرية الرئيسية في الدولة الإسلامية نقلها « ديكارت » هنا ، مكيفاً لها على قياس إمكانيات الحياة الأوروبية في مطلع عصر النهضة ، والأوساط التي كان ديكارت في ثقافته المدرسية المحدودة يستطيع أن يتصل بها في ظروف الرحلة التي اختارها لنفسه بعد أن آثرها على التحصيل المدرسي أو التلقائي .

فلم يكن ديكارت يومئذ لا من حيث تهيؤه الخاص ، ولا كانت الحياة الأوروبية يومئذ ليعيناه على نقل الصورة التي مرت بها حياة الغزالي بأكثر من هذه الصورة المكيفة .

وإنك لواجد صراحة ونقلاً مباشراً من هذه الفقرة من حديث الغزالي عن نفسه إذ يقول :

« وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل » قول ديكارت : « وكانت تلح علي الرغبة الحادة في التمييز بين الحق والباطل » .

وإنك لتكشف عبارته : « ومن الحق أني – وأنا لا أصنع في تلك المرحلة أكثر من ملاحظة سلوك غيري – لم أكن أجد فيه ما يطمئنني إليه ، وأني لاحظت فيه من التباين قدر ما لاحظته قبلاً بين آراء الفلاسفة » .

فأي فلاسفة عرفهم « ديكارت » في رحلته المدرسية القصيرة يمكن أن يوازن بينهم وبين هذه الفئات التي كان يخالطها في ترحله الطويل ؟ .

وأما قوله في نقائص العلوم المدرسية التي كان يحصلها ، وزهده في أن يكون طبيباً ، أو مشرعاً مع ماعسى أن يجلب له عملهما من جاه ومن غنى ، « فلم يكن المال ولا الجاه المتوقعان من تحصيل تلك العلوم كافيين لحملي على تعلمها ، فإني بفضل الله لم أشعر بالحاجة إلى اتخاذ العلم مهنة في سبيل الإثراء ، ومع أنني لا أزعم أني أحتقر الجاه تعالياً وجموداً ، فقد كنت قليل الاكتراث به ، حتى أني لم أمد بنظري إلى تحصيل الألقاب الباطلة » المنهج ص ٨ ؛ فهو

صدى قول الغزالي : « ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من كل الجوانب ، ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار » المنقذ .

ولننظر إلى الغزالي عندما يقول : « والعلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الوهم أو الغلط من قبيل العشرة أكثر من الثلاثة » جاء ديكارت على أثره فقال : « لكنني إذا ذهبت إلى تدبر شيء شديد البساطة ، يسير يتصل بالحساب والهندسة كقولي « إن الاثنين مضافةً إلى الثلاثة تؤلف خمسة ، وإلى أشياء أخرى من هذا القبيل » .

وحوَّل ديكارت صورة القدرة الخارقة على أداء معجزة قلب العصا ثعباناً أو الحجر ذهباً ، إلى صورة إله مضلل يضع في عقله طبيعة خاصة مضللة ، ثم رفض وجود هذا الإله المضلل ، أخذها ديكارت عن الغزالي أخذاً مباشراً .

يقول الغزالي عن معجزة عيسى من إحياء الموتى : أنها لا تصلح دليلاً عقلياً على صحة النبوة ، ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلي ، النظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف الناظر دلال المعجزة على الصدق مالم يعرف السحر ، والتمييز بينه وبين المعجزة ، ومالم يعرف أن الله لا يضل عباده » .

المعجزة عند الغزالي حقيقة ، وإن اشتبهت بالسحر ، لأن صانع المعجزة يقدمها بعون من الله ، والله لا يضل عباده ، أما الساحر فيقدمها بخداع الأبصار ، وهو الذي تحول عند « ديكارت » إلى « مضلل » .

هذه ملامح مشتركة بين صورة الغزالي وبين الصورة التي أدرج ديكارت نفسه تحتها ، وإن كانت على حالة (كاريكاتير) فإن الأصل لا يغيب عن

العارف أبداً ، وكلها محاولات لنقل جوهر الفكرة ، متنكرة بثوب مزيف .

ولنخطو خطوة أخرى : « فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل ، فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل كلاماً وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله عليه السلام عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ .

فقال : هو نور يقذفه الله في القلب ، فقيل : وما علامته ؟ فقال : التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود » .

هذا هو الإله الذي استلهم « ديكارت » من إضاءاته الطريق للغزالي الوحي بالقول عن الإله المضلل الذي لو أنه وجد فرضاً فليس بالموجود اعتقاداً ، وبذلك يمكن الاطمئنان إلى المعلومات العقلية المنكشفة المستفادة من العلوم الأساسية الضرورية التي أطال في تفصيل القول فيها ديكارت في غير حاجة إلى الإطالة . وهو يردد كلمة « النور الطبيعي » الذي يرى فيه صاحبه الحقائق الأولية مجردة من الاضطراب ومن اللبس ، وهذا التطابق الكامل بين ما دعي بـ « منهج ديكارت » و « منهج الغزالي » مأخوذ من قول الغزالي : « ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر

المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيَّق رحمة الله الواسعة » وقد عقب الغزالي على حديث رسول الله ﷺ « إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره ... » فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب ذلك الكشف .

وهذا هو الذي أوقع في نفس ديكارت ذلك المعنى ، فهو الذي يستنجد به في إثبات وجود الله كفكرة أولية منبجسة في النفس بهدي من وجود الله ، ومشهودة على ضوء « النور الإلهي » الذي يدعوه « بالنور الطبيعي » فوجودها بالنفس دال على وجود الله ، ومن حجبت هذه الفكرة عنه فهو محروم من ذلك « النور الطبيعي » . هي نفس الفكرة التي يرى الغزالي في ضوئها كل « الضرورات العقلية » التي يقبلها على أنها مُسَلّمات .

وقد أشار الغزالي إلى الأحلام في مستهل حديثه عن قوى الإدراك التي حاول أن يستخدمها في تحصيل الحقائق اليقينية التي يستحق أن تعد عنده علماً أميناً يقينياً ، وقد تابعه ديكارت في ذلك ، جارياً على نفس الترتيب الذي جرى عليه الغزالي من تقديم حكم العقل على الحواس بعد التشكك في تمام سلامة إدراكها ، ومن الاطمئنان إلى الحقائق الرياضية بأكثر من الاطمئنان إلى أحكام العقل في غيرها . ومضى إلى الأحلام باعتبارها حالة من حالات الإدراك تقع من حيث الثبات دون حالة اليقظة (انظر تأمله الأولى) .

يقول في المنهج :

« ولكن تجارب كثيرة قد هدمت شيئاً فشيئاً اطمئناني إلى الحواس فقد لاحظت مرات كثيرة أن الأبراج التي تبدو لي من بعيد مستديرة ، كانت تظهر لي من قريب مربعة ، وأن التماثيل الضخمة القائمة فوق قمم الأبراج تظهر لي صغيرة عند تأملها من أسافل الأبراج ، وفي عدد لا ينتهي مما لقيته منها قابلت الغلط في الأحكام التي قامت عندي بالاعتماد على الحواس الخارجية ،

وليس فيما اعتمدت عليه من الحواس الخارجية فحسب ، بل في الحواس الداخلية أيضاً » . (المنهج ١٢٠) . وهذا الكلام ترجمة قول الغزالي عندما شك في إدراكه الحسي :

« فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، إلى أن يقول :

« من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ؟ وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار الدينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته » .

هذه بعض أصداء صوت الغزالي في قلب ديكارت ، تتجاوب من جانب إلى جانب في كتابه « المنهج » فهل بعد هذا من اعتراف مسند بالأدلة ؟

لقد هرب ديكارت ، أو تصرف بعض التصرف في ترجمة عبارة الغزالي « المعلوم المنكشف » بقوله : « الجلي المتميز » ، فيقول عنه : « أي الذي لا يقبل الشك أو يحتمله » فيرجع بذلك إلى قول الغزالي :

« فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه الوهم والغلط ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . » . وكذلك راح ديكارت يحاول رفض الدليل غير الموضوعي على زيف الحقيقة المنكشفة من قبيل « أن العشرة أكثر من الثلاثة » باختراع الإله المضلل آخذاً إياه كذلك من قول الغزالي : « والله لا يضل عباده » .

مما سبق تبين لنا بما لا شك فيه بأن « ديكارت » قد أغار على « الغزالي »

غارة لم يرع فيها شيئاً ، ولم يقم اعتباراً لأية قيمة . فهو إنما مثال ورقي للغزالي الفيلسوف المسلم ، لا يمضي خطوة واحدة إلا على أثر خطوة من خطواته . وليس في صفوف السلوك الإنساني ما هو أحقر من سلوك « ديكارت » في انتحاله لنفسه علم الغزالي ، وفكر الغزالي . وليس أبشع من اصطناعه مواقفه ، وتجاربه ، وانصهاره النفسي في حمى معاناته ومكابداته ، ذلك الانصهار المؤمن الذي تمخض عن هذا المنهج ، وبناه لبنة لبنة ، وقطعة قطعة ، وانتهى به إلى نتائجه التي استيقنها الغزالي فرضي بها ، واطمأن إليها عقلاً وروحاً .

ولو أن « ديكارت » لم يكن الشخصية التافهة الهينة في الاعتبار الإنساني فاقتضاه تكوينه وعقله أن يقدر أنه قد يقف يوماً أمام محكمة التاريخ ، فتكشف زيفه ، وهو أن أمره لما غلا هذا الغلو في إقامة نفسه مقام سواه . لكنه كان شخصاً فاشلاً ، لم يلق النجاح في المدرسة ولم يفلح في حياته ، ثم وجد الفرصة المتألقة يوم عثر على « الغزالي » بين تلك اللقى الشاردة من الكتب الغريبة المثيرة لنهم « القارىء » على ما قال هو في وصفها ، فوجد فيها الضالة التي اهتبلها ردت عليه اعتباره ، فيلسوفاً ، يستطيع من فوق قمة فكرها أن يواجه زملاء الدراسة الذين كانوا ، بحكم النجاح الذي لم يحققه لنفسه وحققوه هم لأنفسهم يقعون بحيث يحسدهم فصيرتهم هم حاسديه .

إن التطابق الكامل بين حياة « الغزالي » والصورة التي سيقت على أنها حياة « ديكارت » ، وبين فكر الغزالي ، وما دعي بفلسفة ديكارت ، والغموض المشبوه الذي يحلق حول حياة ديكارت ، كل ذلك وقائع ثابتة تشهد بأن ما دعي بديكارت ، إنما هو شخصية قُدَّت على غرار شخصية « الغزالي »[1] .

دمشق ٢٨/ ٤/ ١٩٩٢ — محمود بيجو

(١) انظر المدخل إلى التاريخ والأدب العربيين للدكتور نجيب محمد البهبيتي .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فهذا كتاب « المنقذ من الضلال » للإمام أبي حامد الغزالي ، وهو كتاب صغير في حجمه ، عظيم في مادته ، جمع فيه مؤلفه رحمه الله عصارة تجربته الفكرية ، وتجواله في ذلك العالم المديد الفسيح ، وارتقائه من إحترام المحسوس والمعقول إلى الشك فيهما ، ثم نقده لعلم الكلام والفلسفة على السواء وإقباله أخيراً إلى طريق المتصوفة واطمئنانه إلى طريقهم وأنه من أصوب الطرق للتقرب إلى الله ، وبأنه المنهج الأفضل في تلقي المعرفة اليقينية .

حياة الغزالي :

ولد الإمام الغزالي في منتصف القرن الخامس الهجري في طوس ببلاد فارس ، ولد هذا الإمام والفتن الدينية والسياسية تعصف بأمن البلاد ، فالفوضى المذهبية ، وعدم القدرة على الإستقلال في الحكم عليها واستخلاص الصواب من بينها ، فسيطر على الجو الفكري العام الإرتيابية والزندقة ، والتحلل من الدين والأخلاق .

وكانت الاتجاهات الرئيسية الأربعة في صراع رهيب لا ينتهي ولا يعرف له قرار ، وكان يوجد أيضاً بين علماء الدين أنفسهم بعض من لم يلتزموا إلتزاماً تاماً بأوامر الدين ، ولذلك كانوا أمثلة سيئة لغيرهم ، أما أنصار الفلسفة فكانوا يرون

أن الدين شيء خاص بالعامة فقط ، ويشعرون أنهم أرفع من ذلك ، مما دعاهم إلى إهمال التكاليف الدينية .

في هذا الجو المسموم المحموم ، ولد الإمام الغزالي كتلبية لحاجة المجتمع إلى شخصية قوية فذة يجنبه مزالق الردى ، ومهاوي الضلال ، ويقود السفينة إلى بر الأمان وسط هذه العواصف الهائجة المائجة ، فقد كان ضالةَ الناس المنشودة .

ولد الإمام الغزالي سنة (٤٥٠ هـ) (١٠٥٨ م) في مدينة طوس من أعمال خراسان ، وكان والده محباً للعلم والعلماء ، فقيراً متصوفاً لا يأكل إلا من عمل يده في غزل الصوف ، ولما مات ترك ولديه في رعاية صديق له ، حيث أتيح لهما الفرصة لتلقي التعليم الضروري التقليدي حتى نفد ما تركه لهما من ميراث ، فأوصاهما أن يواصلا تعليمهما في إحدى المدارس الموجودة حينذاك . حيث تتاح لهما الفرصة للحصول على التعليم المجاني والقوت .

تلقى علومه في طوس وجرجان حتى بلغ العشرين ، ثم ارتحل إلى نيسابور ، وهناك التقى إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني ، ووجد فيه المعرفة بكل أبعادها وشمولها ، فلزمه وأكبّ على تحصيل العلم بجد متصل ، وجهد دؤوب ، وعقل متفتح ، وقد كان لإمام الحرمين في ولاية (ألب أرسلان السلجوقي) ، وفي وزارة (نظام الملك الطوسي) ، أعظم مركز ديني ، وقد بنيت له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور ، وتولى الخطابة بها ، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة ، وانتهت إليه رئاسة الأصحاب ، وفوض إليه الأوقاف ، وبقي على ذلك قرابة ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع . مسلّم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة ، وكان تلامذته يومذاك قرابة أربع مئة[1] .

وبعد أن برع في العلوم والمعارف تاقت نفسه إلى مجالس نظام الملك وكانت

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٦١/١ .

مجالسه ندوات علمية ، وقد استطاع الغزالي أن يبهر الجميع بسعة علمه ، وسرعة بديهته ، مما ملأ قلب نظام الملك حباً وإعجاباً به ، فعينه مدرساً في المدرسة النظامية في بغداد ، وكانت أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي ، وكان الإنتساب إليها شرفاً وفخراً للطالب والمتخرج ، وكانت وظيفة التدريس فيها مجداً للعالم ، وشهادة علمية ليست فوقها شهادة ، وكانت معقلاً من معاقل السنة ، يدافع عن عقيدة أهل السنة ، وبقي فيها قرابة أربع سنوات من (٤٨٤ هـ – ٤٨٨ هـ) . وهو طور الأستاذية حيث عاش حياة المعلم دائماً ، وقد اعترف الجميع هناك للغزالي بقوة الحجة واتساع المعرفة ، وقد أمضى الغزالي تلك السنوات في عقد مجالس المناظرة والجدل بغية الوصول إلى الحقيقة مع التلاميذ والأتباع . ويبدو أنه قضى تلك الفترة يكتب ويؤلف ويدرس الفرق الأربعة التي تقاسمت الساحة الفكرية فيما بينها آنذاك من معتزلة ، وباطنية ، وفلاسفة ، وصوفية . ولقد اطلع الغزالي على فكر عصره كله وقبل عصره حتى أصبح دائرة معارف وقد وصفه الدكتور إبراهيم بيومي مدكور « وثقافة الغزالي خصبة متنوعة ، عميقة وشاملة ، فهو فقيه ، وأصولي ، متصوف ، وأخلاقي ، متكلم وفيلسوف » .

وقال فيه فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغي : « وإذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام ، وإذا ذكر ابن عربي خطر بالبال رجل صوفي له في التصوف آراء لها خطرها . وإذا ذكر البخاري ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدره وقيمته .

يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي المتكلم إمام السنة وحامي حماها ، والغزالي الإجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ، والغزالي الفيلسوف ، أو الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالي المربي ، والغزالي الصوفي الزاهد .

وإن شئت فقل : (إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء ، نهم إلى جميع فروع المعرفة) .

إذن لقد واجه الغزالي التيارات الفكرية التي كانت على الساحة وقد جعلها أربع فرق وهم المتكلمون ، والفلاسفة ، والتعليمية ، والصوفية .

وقال : « إن الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذَّ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته » .

ولا يمكن أن تكون جميع هذه الآراء صحيحة ، لأن بينها إختلافاً وتناقضاً فأجهد نفسه غاية الإجهاد في تقصي الحقيقة بين هذه الفرق ، لأنه كان حريصاً على معرفة الحق من بين هذه الآراء ، فأقبل عليها بالبحث والتفتيش ، وتحكيم العقل ، فحصّل آراء كل فرقة ، وردّ عليها ، وتفحّص عقيدة كل فرقة ، وميَّز المحق من المبطل ، والمتسنن من المبتدع ، فقال :

« ولم أزل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغَّل في كل مظلمة ، وأتهجَّم على كل مشكلة ، وأتقحَّم كل ورطة ، وأتفحَّص عن عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار كل طائفة ، لأميِّز بين محق ومبطل ومتسنن

ومبتدع »[1] .

والقيام بمثل هذا العمل الشاق يتطلب أن يكون لدى المرء استعداد فطري وقد وهب الله الإمام الغزالي هذا الإستعداد فيقول : « وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري ، وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة على قرب عهد من الصبا »[2] .

فترك التقليد جانباً ، وطرح العقائد الموروثة ، وتجرَّد من كل رأي مسبق ، وأقبل على الآراء المتباينة ووضعها على بساط البحث . لاختيار ما يثبت جودته وصلاحيته ، وترك ما عدا ذلك .

هنا تظهر أزمة الغزالي النفسية ، أو الروحية ، أو الفكرية . وشكه في كل شيء حصَّله طول هذه المدة من عمره . والشك لايظهر فجأة وإنما يأتي هيِّناً ليِّناً خفيّاً ، حتى أن صاحبه لايعيره أي اهتمام ، ثم يقوى ويشتد وينمو ويكبر حتى يملك على الإنسان نفسه .

لقد ألح عليه الشك ولكن السؤال الذي ينبغي أن نجد له جواباً هو متى بدأ هذا الشك ؟ وما هي حقيقة هذا الشك ؟

اختلف العلماء حول تحديد الفترة التي بدأ الشك يدب دبيبه إلى نفس الغزالي ، ولعل الصواب هو في الفترة التي عاشها في كنف أستاذه إمام الحرمين في « نيسابور » فيقول الدكتور سليمان دنيا : « وعندي أن الشك قد لعب مع الغزالي دورين هامين :

دور كان فيه الشك خفيفاً سمحاً من النوع الذي يعتري كثيراً من الباحثين .

(١) المنقذ : ص ٢٦ .
(٢) المنقذ : ص ٢٦ .

ودور كان فيه الشك عنيفاً هداماً . من الصنف الذي يعتري كبار الفلاسفة والمفكرين .

أما الدور الأول فيتمثل في أن الغزالي رأى أمامه فرقاً متعددة ، وآراء متنابذة متباينة ، فرأى أن ينصف من نفسه ومن هذه الفرق جميعاً ، فألغى سلطة الآراء الموروثة واطّرح قداستها ، وأخذ يبحث عن الحق من بين هذه الفرق ، فشكه في هذه المرحلة يتشخص – إن صح هذا التعبير – في أي هذه الفرق على حق ؟! ولكن بأي ميزان يوزن هذا الحق ؟. هذا ما لم يدر بخلده في ذلك الوقت »[1] .

شك الغزالي وسلاحه الوحيد العقل والحواس ، فأحس تضارب الأدلة كما حدَّث في كتابه « جواهر القرآن » قال حاكياً عن قوم : « وتناقضت عندهم ظواهر الأدلة ، حتى ضلوا وأضلوا » ثم قال عن نفسه : « ولسنا نستبعد ذلك فلقد تعثرنا في أذيال هذه الضلالات مدة » فكان لا بد أن يفحص الأدلة ويفحص موازين الحقيقة فقال : « فما دام العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً مَنْ يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل منه إلا التعجب من كيفية

(١) وعندي : لو أن الإمام الغزالي كان متمكناً من الكتاب والسنة لوجد فيهما الميزان العادل لكل هذه الآراء المتباينة المتناقضة . ولخرج من هذه الأزمة بل قُلْ لما تعرض لهذه الأزمة المرهقة ، ويبدو أن بضاعته في السنة كانت مزجاة كما قال عن نفسه ، ونجد مصداقها في الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي كثرت في كتبه وخاصة « إحياء علوم الدين » .

قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمته فلا ، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لاثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لاأمان معه فليس بعلم يقيني »[1] .

إلى هنا ما زال الغزالي معوّلاً على العقل والحواس ، ولكنه سرعان ما اكتشف خداع الحواس فألغى العلم الذي يأتيه من طريق الحواس فقال :

« فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات ، ومن أين الثقة بها ؟ وأقوى الحواس حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذِّبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته »[2] .

وسرعان ما قاد الشك إلى أن يشكك في العقل فقال : « قالت لي المحسوسات : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذَّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا تجلّى كذّب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذَّب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته »[3] .

لقد نفض الإمام الغزالي يده من الحواس والعقل كليهما ولم يبق سوى إلحاح الشك القوي الذي يكاد يخنقه فلما وصل إلى هذا الضيق لم يلبث الأمر أن

(١) المنقذ : ص ٢٨ .
(٢) المنقذ : ص ٢٩ .
(٣) المنقذ : ص ٣٠ .

اتسع فقال يصف حاله : « فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلَّمة لم يمكن تركيب الدليل ، فأعضل الداء ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لابحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والإعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل ولا ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة . فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة »[1] .

إذن لقد عاد الإمام الغزالي وعادت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، وهي طريقه إلى العلم اليقيني ولكن أيٌّ من هذه الفرق المتصارعة على حق ؟ فما دام الإمام قد وصل إلى حقيقة العلم وحقيقة الميزان فما عليه إلا أن يوزن هذه الآراء المتباينة المتناقضة ويستخلص منها الحق من الباطل وبدأ بدراسة هذه المذاهب الفكرية وبدأ بعلم الكلام ثم بالفلسفة ، ثم مذهب التعليمية (أصحاب الإمام المعصوم) ومربعاً بمذهب الصوفية .

١ — المتكلمون

نشأ علم الكلام بتأثير الفلسفة اليونانية التي لم تكن إلا مجموعة ظنون لاتقوم على أساس علمي ، وطلسمات تبهر الإنسان حتى إذا فحصها لم يجدها شيئاً ، وكان المسلمون في غنى عن ذلك بما في الكتاب والسنة من علم محكم ، وبيِّنة واضحة ، ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك ، فالتزموا بما علَّمهم الرسول ﷺ فكُفُوا المؤونة ، وسعدوا بالثمرة ، فوفَّروا ذكاءهم وقوَّتهم

(١) المنقذ : ص ٣٢ .

وجهادهم في غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا في الدين بلب اللباب ، ولكن المعتزلة كانوا أسرع فئات المجتمع افتتاناً بمنطق اليونان ، وكانت ذات فطنة وذكاء حاد ، ولكنه ذكاء ليس فيه عمق ونبوغ ، وقد أخطأ كثير منهم في فهم حقيقة الدين ، وأسرفوا في تمجيد العقل ، فجاءت مباحثهم مستعجلة وفجة ، وحاولوا إخضاع الدين للمنطق اليوناني وتأولوا القرآن على آرائهم ، وقد أوقف مدهم رجل منهم عاش بينهم أربعين سنة يحمل لواء دعوتهم وهو الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى ، ثم تبعه آخرون كأبي منصور الماتريدي ، والباقلاني ، وغيرهم ، واستطاعوا أن يهزموهم في معترك العلم والعقل ، ويغيروا اتجاه الطبقة المثقفة ، وهؤلاء هم الذين عناهم الغزالي في بحثه في علم الكلام . ولما لم يجد الغزالي شفاءه في علم الكلام يمم شطر الفلسفة .

٢ — الفلاسفة

انتقلت الفلسفة اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية بتوجيه من المأمون الخليفة العباسي وبجهد من المترجمين ، فأقبل الغزالي على الفلسفة لأنه رأى أن الذي يريد أن يحكم على علم من العلوم عليه أن يعرف كنهه ويحيط بمقاصده وكلياته حتى يساوي أعلم الناس بذلك العلم ، فأقبل على الفلسفة يدرسها دراسة عميقة ثم تناولها بالتحليل والتقسيم ، وذكر أصناف الفلاسفة ، وأقسام علومهم ، وما يمس الدين من آرائهم وبحوثهم ويتصل به ، وما لايمسه ولا يتصل به تحليلاً علمياً ، وقسم علومهم إلى ستة أقسام :

١ — رياضية ، ٢ — منطقية ، ٣ — طبيعية ، ٣ — إلَهية ، ٥ — سياسية ، ٦ — خلقية .

وبعدما درس الغزالي جميع هذه العلوم دراسة عميقة شاملة يئس من أن ينال بغيته في هذه العلوم . فيقول :

« ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه ، وتزييف ما يزيف منه . علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب . ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات »[1] .
وخاصة في خوضها في الإلَهيات وهي أبحاث في الوثنية اليونانية ، أفاضوا عليها صبغة من الفن وهي وثنية تعارض التوحيد ، وهي تشتمل على ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لاحقيقة لها ولا معنى . ولقد كانت الأمة في غنى عن الإشتغال بهذه الفلسفة الخرافية ، ولكنهم انبهروا ببراعة اليونان في المنطق والطبيعيات والرياضيات ، فأقبلوا على هذه الفلسفة الإلَهية في شيء من التمجيد والتقديس ، وكأنهم ليسوا أصحاب كتاب ، وكان على رأس هؤلاء الفلاسفة يعقوب الكندي (٢٥٨ هـ) والفارابي (٣٣٩ هـ) وابن سينا (٤٢٨ هـ) .

ولم تكن هناك ناحية من نواحي الحياة الفكرية إلا وقد تأثرت بهذا التحول ووجدت طبقة تستهزيء بالدين وتزدريه في غير احتشام وفي غير كتمان ، ومنهم من لم يكن يملك الشجاعة الأدبية ليعلن ما أعلنه غيرهم ، فكانوا يظهرون الإسلام وهم يبطنون الكفر والإلحاد .

٣ ـ الباطنية

وهم فئة نشأت بانتشار الفلسفة ، والإضطراب الفكري الذي كان يسود المجتمع الإسلامي نتيجة صراع الفلسفة وعلم الكلام ، فهبت ريح الباطنية واجتمع حولهم أناس بدوافع شتى وأغراض مختلفة ، ومهما كانت الدوافع والأغراض فقد كسبت الباطنية شيعاً وأنصاراً ، وأصبحت مؤسسة سرية يرهب جانبها وتخشى غائلتها ، وتحسب لها الحكومات الحساب الكبير . واستعملوا العنف والسلاح حتى اغتالوا نظام الملك الطوسي ، ومن بعده فخر الملك ، ودسّوا في العلم والأدب ، وتأثرت بهم العقول والنفوس ، حتى تجاسر الناس

(١) المنقذ : ص ٥٢ .

على تأويل النصوص والقطعيات ، وتحريف الأصول والمحكمات ، ووجد في الناس إقبال غريب على الإلحاد والتطرف في الإعتقاد . وهم لا يعترفون للعقل بأي دور في مجال المعرفة ، وإنما هم يتلقون العلم والمعرفة من الإمام المعصوم وقد سماهم الغزالي « بالتعليمية » إشارة إلى أساس نظريتهم وهي التعليم ، فأقبل الغزالي على الباطنية ودرس عقائدهم وعلومهم ووصل إلى أنه « لاحاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة »[1]. رفض الغزالي تعاليم الباطنية وأصابها في الصميم ، وبرهن أن نظرية التعليم من الإمام المعصوم تناقض نفسها بنفسها وهذا يجعل « رتبة هذه الفرقة أخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال ، إذ لانجد فرقة ينقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه »[2] .

٤ ـ الصوفية

بعد أن نفض الغزالي يده من المتكلمين والفلاسفة والباطنية ونقدهم وكشف عوارهم ، ومزق أستارهم ، لم يبق أمامه سوى الصوفية وهم أمله الأخير في الحصول على السعادة واليقين . فبدأ بدراسة كتبهم دراسة جادة ، وحصّل ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتّعلم والتسامع ، ويواجه الغزالي مشكلة جديدة ، وأزمة نفسيه عنيفة فظهر له على أثرها أن أخصَّ خواص الصوفية ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم . بل بالذوق والحال وتبدل الصفات فيقول :

« فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لاأصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصّلته . ولم يبق إلا ما لاسبيل إليه بالسماع والتعلم ،

(١) المنقذ : ص ٥٣ .
(٢) انظر فضائح الباطنية ص٥٢١ — ٥٢٣ .

بل بالذوق والسلوك » . ووجد أن الطريق الصوفي لايتلاءم بأي حال من الأحوال مع الواقع الذي يعيشه ويسعى وراءه من جاه ومال وشهرة فيقول وهو يصور صراعه النفسي :

« ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من كل الجوانب ، ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال »[1] .

وبقي في هذا الإصطراع النفسي ستة أشهر حتى غلب على أمره ، وأفلت الزمام من يده ، وانتقل من الإختيار إلى الإضطرار ، حتى سهلت عليه مفارقة الأهل والدار ، ونفض يده من الجاه والمال ، وخرج من بغداد يطلب السعادة الروحية والمعرفة الحقيقية حتى أكرمه الله بها فيقول :

« فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الإختيار إلى الإضطرار »[2] .

واستقر على طريق الصوفية حيث يصف الغاية التي وصل إليها والنتيجة التي نالها في هذه الرحلة الشاقة والبحث المضني وراء المعرفة الحقيقية والسعادة الروحية فيقول :

« ودمت على ذلك عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره ينتفع به . إني علمت أن

(1) المنقذ : ص ٦٢ .
(2) المنقذ : ص ٦٣ .

الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور مشكاة النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به »[1] .

وبعد هذا التجوال آن للغزالي أن يخرج من خلوته لأنه لم يخلق ليعيش لوحده ، ومن آتاه الله من الإمكانات العظيمة والقدرة على رد أباطيل الفلسفة التي تسلطت على عقول الناس ، والفساد الأخلاقي الذي أصيب به المجتمع الإسلامي ، خرج الغزالي وقام بهذه المهمة العظيمة بعد أن تهيأ لها علمياً وفكرياً وعملياً فيقول :

« رأيت نفسي ملبة لكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ، أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء »[2] . ولكنه يصور لنا حالة التردد التي ظهرت له ثانية هل يخرج من العزلة أم يبقى ؟ فيقول :

« انقدح في نفسي أن ذلك — محاربة الفساد ، والرد على الفلاسفة والباطنية متعين في هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟ ثم قلت في نفسي : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك

(1) المنقذ : ص ٦٤ — ٦٥ .
(2) المنقذ : ص ٧٥ .

أهل الزمان بأجمعهم ، وأنّى تقاومهم ؟ فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر » .

ونوى بينه وبين نفسه الإستمرار على العزلة ، ولكن الله أراد له أن يخرج فأتاه أمر من السلطان ، وأمره أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور ، وانضم إلى ذلك مشاورة جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله سبحانه على رأس هذه المئة » .

وخرج الغزالي من عزلته ، وبدأ يزاول عمله من تدريس وتأليف ودعوة في « نيسابور » ، ولكن شتان بين الحالتين ، فهو الآن يقوم به بأمر من الله ، متجرداً عن طلب الجاه وحظوظ النفس فقال :

« وأنا أعلم أني – وإن رجعت إلى نشر العلم – ما رجعت ، فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني ، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري »[1] وكان ذلك سنة (٤٩٩ هـ) ولكن « فخر الملك » اغتيل بيد باطني سنة [٥٠٠ هـ] وعاد الغزالي إلى العزلة ثانية على أثر هذه الحادثة . ولست أدري هل للإغتيالين إغتيال نظام الملك ثم من بعده فخر الملك دخل في اتجاه الإمام الغزالي وسلوكه هذا المسلك أم لا ؟ وبقي في طوس إلى أن توفي رحمة الله عليه سنة [٥٠٥ هـ] بعد أن بنى بجوار بيته مدرسة لطلبة العلم ، وداراً للصوفية وظل عاكفاً على التربية والتعليم ،

(١) المنقذ : ص ٧٧ .

والإشتغال بالدين وقراءة القرآن ، ومجالسة أرباب القلوب ولم ينقطع عن التأليف والإنتاج . بقيت نقطة طالما غفل عنها الباحثون في فكر الغزالي والكاتبون لسيرته إلا قليلاً منهم ، وهي أثر الغزالي في الفكر المعاصر ، وقبل أن نحاول السير في هذا الطريق علينا أن نفهم مدى العلاقة بين منهج ديكارت أبو الفلسفة الحديثة من ناحية ، وفرنسيس بيكون أبو المنهج التجريبي . من ناحية أخرى ، وبين منهج الغزالي لقد عاش ديكارت أبو الفلسفة الحديثة في حالة الشك التي عاشها الغزالي مع فارق كبير بين طبيعة الشك لدى الفيلسوفين ، فالشك عند الغزالي كان عقلياً ونفسياً ، وتجربة وجدانية عميقة أثرت في منحى حياة الغزالي ، وجعلته ينتقل من حالة إلى حالة انتقالاً نفسياً قبل أن يكون فكرياً ، ولكن طبيعة الشك عند ديكارت جاء ذهنياً بارداً لاحرارة فيه ، تناول الأمر من السطح دون أن يمس قلبه وضميره ، بل قد أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنَّ ديكارت قد اطلع على مجمل فكر الغزالي كحد أدنى ، وتفاعل مع هذا الفكر ، وترجمه إلى لغته ونسبه إلى نفسه ، فإن من يقرأ « مقالة عن المنهج » أو « تأملات » ديكارت فسوف يجد فقرات بأكملها من « المنقذ من الضلال » للغزالي ، وخير من قام بهذه المقارنة هو الدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه « المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت » ، طرح فيه قضية تأثر ديكارت بالغزالي ، وهل قرأ ديكارت « منقذ » الغزالي أم لا ؟ وكتب الدكتور زقزوق نتائج بحثه في هذه القضية في مقدمة الطبعة الثانية حيث كشف عن أن أحد الباحثين التونسيين وهو « عثمان الكعاك » قد عثر بين محتويات مكتبة ديكارت الخاصة بباريس على ترجمة لكتاب « المنقذ » للغزالي ووجد أن ديكارت قد وقف عند عبارة الغزالي الشهيرة « الشك أول مراتب اليقين » ووضع تحتها خطاً أحمر ثم كتب على الهامش ما نصه « يضاف ذلك إلى منهجنا »[1] .

(١) انظر المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت . للدكتور محمود حمدي زقزوق الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ص ٦ =

وليس هناك أي مجال للتشكيك في صحة هذه المقارنة والرواية التي أكدت صدق الإحتمال الذي ذهب إليه بعض العلماء وعلى رأسهم الدكتور زقزوق .

وقبل أن أنقل شيئاً من هذه المقارنة لابد أن أعرِّف بالرجلين الذين قام الفكر الأوربي المعاصر على منهجيهما ، وكان لهما أثراً كبيراً في النهضة الأوربية .

فرنسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦ م)

يعتبر فرنسيس بيكون فيلسوف الطريقة العلمية التجريبية قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن ، انتقل العالم الأوربي من العصور الوسطى المظلمة إلى عصر الثورة العلمية ، ولابد من إشارة موجزة إلى أن الذي سبقه في وضع أسس هذا المنهج هو روجر بيكون ، الذي عاش ما بين (١٢١٩ — ١٢٩٢ م) وكان قد درس اللغة العربية ، والعلم العربي ، والعلوم العربية في أكسفورد على يد خلفاء معلميه العرب في الأندلس ، وكان لايمل من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية ، وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ومن المعروف أن المنهج العلمي التجريبي قد نشأ في ظل الإسلام في جامعات الأندلس والشرق ، وليس من العدل والإنصاف أن ينسب هذه المنهج إلى روجر بيكون ومن بعده فرنسيس بيكون فلم يكونا إلا رسولين من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا ، ويشير روجر بيكون إلى ابن الهيثم ويستشهد به وبابن سينا والكندي وغيرهم .

لقد رأى فرنسيس بيكون أن مفاهيم الماضي ومناهجه لم يقوما على أساس صلب وإنما على مكانة قائليها ، لذلك ألح على أن تغيير المناهج أمر لابد منه لأنه

= وانظر (محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي) عنابة الجزائر (١٣٩٦ — ١٩٧٦ م) ص ٣٣٣ من المجلد الأول . وانظر أيضاً « المدخل إلى دراسة التاريخ والأدب العربيين » للنجيب محمد البهبيتي دار الثقافة في المغرب .

سيفضي إلى عقلية جديدة وفكر جديد وهذا مصداق ما قاله الغزالي في « المنقذ » .

« والعارف العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله ، سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من تضاعيف كلام أهل الضلال » . ويقول في « ميزان العمل » :

« ومن الناس من يقولون الرأي عن هوى ، ثم يتعللون بأنه مذهب فيلسوف معروف كأرسطو وأفلاطون ، والأغلب أن من يسمع لهم لايطالبهم ببرهان لموافقة قولهم لطبعه » .

ويرى بيكون أن الإنسان الذي يريد أن يكون قادراً على التفكير الحر لابد له من التخلص من أربعة أشياء :

١ — التخلص من الأفكار التي تصور الذات الإلَهية بزعيم قبيلة ، أو شيخ عشيرة ، يأمر وينهى ويصرف شؤون الناس وحوله من يطيعون وينفذون .

٢ — التخلص من الأهواء الشخصية والميول السياسية والمطامع الذاتية .

٣ — عدم إطلاق الشعارات التي لم يؤيدها دليل ، والتخلص من الكلمات الرنانة الجوفاء التي تخاطب العواطف .

٤ — رفض الموروث الفلسفي الخاطىء الذي لاتؤيده التجربة ولا يسنده الواقع .

ولقد رأى بيكون أن النفس إذا تحررت من الأهواء والشهوات والعقل إذا تخلص من إسار الموروثات يمكن أن تعطي ظواهره تفسيرات سليمة . لاأريد أن أطيل البحث والمقارنة بين طرح هؤلاء وبين فكر الغزالي فهذا له مجال آخر

ولكن الذي يريد أن يعرف الحق يستطيع أن يصل إليه بسهولة ويسر ولين ورفق .

والآن أريد أن أصل إلى ديكارت أبي الفلسفة الحديثة (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) يعتبر واضع اللبنة الثانية في صرح الفكر بعد أن وضع بيكون اللبنة الأولى ، بوضعه الطريقة التجريبية في تكوين المعرفة . وقد قام بالمقارنة بين منهج الغزالي ومنهج ديكارت خير قيام الدكتور محمود حمدي زقزوق كما ذكرت آنفاً لنستمع إلى ديكارت وهو يروي قصته لعلنا نضع أيدينا على نقاط هامة يقول : إنه اعتكف ذات مرة ، في يوم برد قارس ، أمام مدفئة حجرية ، وأخذ يفكر في هذا الكون وما ينطوي عليه من أسرار ، فوصل به تفكيره إلى نتيجتين : أولاهما أنه يشك في صحة كل المبادىء الموروثة المتحدرة من السابقين ، وأن المنطق السليم يقتضي الإنطلاق من مبادىء مسلَّم بها ، لا تقبل الجدل ، فيبني عليها صرح العلم من جديد . والنتيجة الثانية التي توصل إليها هي أن عليه هو نفسه أن يحصل على المعرفة الحقيقية وأن يبدأ العلم من جديد ، وذلك بأن يرسم لنفسه برنامجاً مفصلاً متكاملاً .

وأوى إلى فراشه ، بعد أن أشبع ذهنه بسلامة الخطة التي اختطها لنفسه ، فرأى في منامه كأنه في شارع طويل مجهول تتقاذفه ريح صرصر عاتية ، وهو مقعد لايقوى على الوقوف ، يئن من وجع في ساقه . ولما أفاق من نومه أوَّل رؤياه بأنها تحذير له من السير في دروب السابقين واقتراف أخطائهم . ثم أغفى فأيقظه هزيم رعد وشرر يتطاير من حوله ، وأفاق فقال في نفسه : هذه رؤيا ثانية ، وأوَّلها بأن روح الحق قد هبطت عليه وحمَّلته رسالة له في الحياة . وأغفى مرة أخرى ، فرأى كأنه واقف وفي يده قاموس ، ثم كتاب يدله على أي مسلك في الحياة يسلك ، ثم يأتيه وجه غريب يوقظه بأبيات من الشعر فينهض ويؤول رؤياه هذه بأن طريق المعرفة الحقة قد فتحت له .

هذه الرؤى فيها تصنع وافتعال ظاهران ولعله افتعل هذه الرؤى ليغطي على أخذه — بعد اهتدائه إلى « المنقذ » — من فكر الغزالي . وأريد أن أنقل شيئاً من المقارنة التي عقدها الدكتور زقزوق .

ماهية العلم

لقد قال الغزالي : « إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟» .

وقال ديكارت في « القواعد » : « إن الأداة الحقيقية لكل علم وكذلك المنهج كله يتمثلان في بحث ما يأتي : ما هي المعرفة وما هو المدى الذي تمتد إليه ؟» .

يقول الغزالي عن العلم اليقيني : « العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم » ويقول ديكارت : « إنه يجب على المرء في أثناء البحث عن الحقيقة أن يرفض كل علم لايكون واضحاً وضوحاً مطلقاً » .

المعرفة الحسية

يقول الغزالي : « من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ... الخ فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً » .

ويقول ديكارت : « كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء

وأوثقها قد اكتسبته من الحواس أو بواسطة الحواس . غير أني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الإطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة » .

وهكذا يمضي الدكتور زقزوق في بحثه ، وجاء الباحث التونسي « عثمان الكعاك » ليحسم كل أوجه الإحتمالات بأن وجد نسخة مترجمة من « المنقذ من الضلال » في مكتبة ديكارت الخاصة . مما لم يترك أي مجال للشك أو التشكيك في تأثر ديكارت بالغزالي .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

وأتقدم بالشكر لكل من فضيلة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على ما بذلا من جهد أثناء مراجعة الكتاب . فجزاهما الله خيراً .

كلمة شكر

أقدم خالص شكري لفضيلة الدكتور محمود حمدي زقزوق عميد كلية أصول الدين بالقاهرة وأستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر وحالياً الأستاذ في كلية الشريعة جامعة قطر . الدوحة الذي تفضل بتزويدي بالمعلومات التالية حول تأثر ديكارت بالإمام الغزالي :

هناك شواهد كثيرة تشير إلى إمكان تعرف ديكارت على أفكار الغزالي حول الشك المنهجي إما بطريق مباشر أو غير مباشر . وأحدث ما توصل إليه الباحثون حول هذا الموضوع ما ذكره الصديق الدكتور عبد الصمد الشاذلي المحاضر بجامعة جوتنجن بألمانيا في مقدمة ترجمته لكتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي إلى الألمانية ، والتي صدرت هذا العام (١٩٨٨) في سلسلة « المكتبة الفلسفية » الشهيرة في هامبورج ألمانيا . فقد أشار إلى أن هناك حقيقة ثابتة تتمثل في أن بعض المستشرقين الذين كانت تربطهم صلة صداقة بديكارت كان لديهم النص العربي لكتاب المنقذ من الضلال للغزالي ومن بين هؤلاء الأصدقاء كان المستشرق الشهير جاكوب جوليوس **Jakob Golius** (١٥٩٦ — ١٦٦٧) ، كما كان لدى ليفنيوس فارنر **Levinius Warner** — وهو تلميذ لجوليوس المشار إليه — مخطوط لكتاب المنقذ من الضلال . وقد آل هذا المخطوط عام ١٦٦٥ إلى حوزة مكتبة جامعة ليدن بهولاندا ، ولا يزال هناك حتى اليوم في مكتبة جامعة ريك بليدن تحت رقم **Or . 946 (1)** . ومعروف أن ديكارت قد توفي عام (١٦٥٠) وفضلاً عن ذلك لايزال هناك حتى اليوم في قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية في باريس تحت رقم **1331 (Fol. 25—24)** مخطوط لكتاب المنقذ من الضلال كان معروفاً

المنقذ من الضلال

في فرنسا في العصر الذي عاش فيه ديكارت . وقد أثبت البحث مؤخراً تأثر ديكارت بالغزالي ، فقد قرر المؤرخ التونسي المرحوم الأستاذ عثمان الكعاك في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر في عام ١٩٧٦ أنه عثر على ترجمة لاتينية من القرن الرابع عشر لكتاب (المنقذ من الضلال) للغزالي في مكتبة ديكارت بدار الكتب الوطنية الفرنسية في باريس ، وأنه استحضر بالفعل صورة من هذه الترجمة ، ووجد أن ديكارت قد كتب بخط يده تعليقاً على الأجزاء الخاصة بالشك يقول فيه : « يضاف هذا إلى منهاجنا » . (راجع في ذلك ص٣٣٣ من الجلد الأول من « محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي ») — عنابة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

وقد أفاد الصديق الدكتور عبد الصمد الشاذلي — الذي قام بترجمة (المنقذ من الضلال) إلى الألمانية — أفاد بأنه كتب إلى المكتبة الوطنية الفرنسية يستفسر عن الترجمة اللاتينية لكتاب (المنقذ من الضلال) والتي أشار إليها الأستاذ الكعاك ، وقد تلقى رداً من المكتبة المذكورة في ١٩٨٥/٨/٢٩ وفيه تنفي المكتبة وجود مثل هذه الترجمة كما تنفي أيضاً أن يكون لديها ما يسمى بمكتبة ديكارت .

وقد أفاد الأستاذ الدكتور محمد عبد الهاي أبو ريده بأنه كانت هناك محاولة عربية استهدفت الوصول إلى الترجمة اللاتينية لكتاب المنقذ . ولكن هذه الجهود باءت بالفشل نظراً لأن المسؤولين الفرنسيين قد تنبهوا للأمر فسحبوا النسخة من المكتبة ومنعوا عرضها .

وهكذا لم يبق هناك من سبيل إلا محاولة العثور في مخلفات المرحوم عثمان الكعاك على المصورة التي أشار إليها للترجمة اللاتينية لكتاب المنقذ . فلعل الله يوفق أحد الباحثين من الأخوة التونسيين للإهتمام بهذا الموضوع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلالة .

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أبثّ[1] إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب[2] وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين[3] المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الإرتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يفاع[3] الإستبصار ، وما استفدته ، أولاً من علم الكلام ، وما اجتويته[4] ، ثانياً من طرق أهل التعليم ، القاصرين[4] لدرك الحق على تقليد الإمام وما ازدريته[5] ، ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته ، آخراً من طريقة التصوف ، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة وما ردّني إلى معاودتي « بنيسابور » بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه : اعلموا — أحسن

---

(١) أبث إليك : أذكرها لك وأظهرها وأطلعك عليها .

(٢) غائلة المذاهب : فسادها وشرها .

(٣) تباين : اختلاف وتفرق . يفاع : ما ارتفع عن الأرض .

(٤) اجتويته : كرهته وبغضته ، القاصرين : الحاصرين الذين حصروا معرفة الحق على تقليد الإمام .

(٥) ازدريته : حقرته ، وعبته .

الله تعالى إرشادكم ، وألان للحق قيادكم — أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة[1] في المذاهب على كثرة الفرق ، وتباين الطرق . بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »[2] . وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلوات الله عليه ، وهو الصادق المصدوق حيث قال : « سَتَفْتَرِقُ أُمتي ثَلاثاً وسَبْعِين فِرْقَةً ، النَّاجِيةُ مِنْها واحدةٌ »[3] فقد كان ما وعد أن يكون ولم أزل في عنفوان شبابي — منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين — أقتحم لجّة هذا البحر العميق[4] ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجّم على كل مشكلة[5] ، وأتقحّم كل ورطة[6] ، وأتفحّص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميّز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع[7] ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطّلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا

(١) الأمة : الأئمة المجتهدون ، اختلاف الناس .

(٢) الروم [٣٢] والمؤمنون الآية [٥٣] .

(٣) قطعة من حديث رواه أبو داوود رقم (٤٥٩٦ و٤٥٩٧) في السنة ، باب شرح السنة ورواه أيضاً أحمد في « المسند » (١٠٢٤) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ورواه الترمذي باب ما جاء في افتراق الأمة رقم (٢٦٤٢) في الإيمان من حديث أبي هريرة وقال الترمذي : حديث أبي هريرة حسن صحيح وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك انظر جامع الأصول (١٠ / ٧٤٩٠)

(٤) هذا البحر العميق : يقصد بحر المعرفة .

(٥) مشكلة : ما لايفهم حتى يدل عليه دليل من غيره .

(٦) ورطة : كل أمر تعسر النجاة منه ، والأمر الغامض العميق الغور .

(٧) [illegible] : صاحب بدعة وهو الاختراع في الدين .

وأترصد[1] ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً[2] معطّلاً[3] إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني[4] ، من أول أمري ؛ وريعان عمري ، غريزة وفطرة[5] من الله وضعها في جِبِلّتي[6] لاباختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصِّبا ، إذ رأيت : صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التَّنَصُّرِ ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التَّهَوُّدِ ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَواهُ يُهَوِّدَانِهِ ، ويُنَصِّرَانِهِ ، وَيُمَجِّسَانِهِ »[7] فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة[8] بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات فقلت في نفسي : أولاً إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم

(١) أترصد : أراقب .

(٢) الزنديق : من يظهر الإيمان ويتجمل به ويبطن الكفر (فارسية معربة) .

(٣) المعطّلة : فرقة تقول : بأن الله عالم بذاته ، سميع بذاته لا بصفة زائدة فهم معطلون للصفات .

(٤) دأبي وديدني : عادتي وشأني .

(٥) الفطرة : الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه ، والطبيعة السليمة التي لم تشب بعيب . وفي اصطلاح الفلاسفة ! استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل .

(٦) الجبلة : الخلقة والطبيعة .

(٧) أخرج الشيخان البخاري رقم (١٢٩٢) و(١٢٩٣) و(١٣١٩) . ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة . وفي بعض الألفاظ « ما من مولود » ولفظ مسلم : « فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه » ولفظ البخاري « فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّساه » . وفي رواية عند مسلم : فقال رجل : يارسول الله أرأيت لو مات قبل ذلك ؟ قال : « الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِين » .

(٨) العارضة : المتناقضة ، العالقة بدون روية .

ما هي ؟ فظهر لي : أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم[1] ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين[2] ، مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه — مثلاً — من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإني إذا علمت : أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته ، فلا ، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني »[3] .

---

(١) الوهم : ما يقع في الذهن من الخاطر والتخيل .

(٢) اليقين في الفلسفة : اطمئنان النفس إلى حكم مع الاعتقاد بصحته .

(٣) هذه هي النظرة العلمية المنهجية التي وصل إليها بعده بخمسة قرون كلٌ من « ديكارت ، وفرانسيس بيكون » اللّذان يعتبران فاتحة العصر الحديث في الفكر الأوروبي ، وذلك بوضعهما المناهج الجديد وهذا المناهج الذي وضعاه لايكاد يختلف في نقطة واحدة مع ما أورده الغزالي في كتبه ، وخاصة كتابه هذا « المنقذ من الضلال » . ولعلهما اطلعا على فكر الغزالي واستفادا منه واقتفيا أثره في منهجهما . ومن الثابت أن هذا المنهج التجريبي قد نشأ — في ظل الإسلام — في جامعات الأندلس والشرق ، يقول « بريفولت » في كتابه : « بناء الإنسانية » :
إن روجر بيكون ، درس اللغة العربية ، والعلم العربي ، والعلوم العربية في مدرسة أُكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب في الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميّه « فرنسيس بيكون » الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن « روجر بيكون » إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قطٌ من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي ، هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر « بيكون » قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس ، في لهف ، على تحصيله في ربوع أوربا » . فهل يفهم محترفو الغزو الفكري ؟!

مدخل السفسطة وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات[1] ، والضروريات[2] .

فقلت : الآن بعد حصول اليأس لامطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات[3] وهي الحسيات ، والضروريات ، فلابد من إحكامها[4] أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لاغدر فيه ، ولا غائلة له .

فأقبلت بجد بليغ ، أتأمل المحسوسات والضروريات ، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول : من أين الثقة بالحواس ؟ وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة — بعد ساعة — تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة ، بل بالتدريج ذرة ، ذرة ، حتى لم يكن له حالة وقوف . وتنظر إلى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . هذا ، وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ويكذّبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيباً

---

(١) الحسيات : ما تدركه الحواس (المحسوسات) .

(٢) الضروريات : البدهيات والمسلّمات .

(٣) الجليات : الواضحات .

(٤) إحكامها : إتقانها .

لاسبيل إلى مدافعته[1] فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً ، فلعله لاثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لايجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لايكون قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً .

فقالت الحواس : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذَّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلى كذَّب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذَّب الحس في حكمه ، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته !!

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً وأيدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم : أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل . فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك

(١) إن ما قد ظنّه الغزالي خطأً وقعت فيه حاسة البصر ثم صححه حاكم العقل ، إنما هو خطأ في الإستدلال العقلي لافي الإدراك الحسي ، وذلك أن نفي الحركة عن الظل إنما كان الخطأ هو من هذا الاستدلال ، لأن الذي نبهني للخطأ بعد ذلك هو لقطة حسية أخرى جاءتني عن طريق المشاهدة — والمشاهدة إدراك بحاسة البصر — بعد ساعة كما يقول الإمام الغزالي . وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ ، لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ﴾ الفرقان [٤٥ — ٤٦] وانظر تفسير الآية .
وكذلك رؤية الكوكب صغيراً في مقدار دينار فالخطأ هنا أن أستدل مما أراه نتيجة لاتلزم بالضرورة عنه ، بل الواجب المنهجي هو أن أقول : إن حجم الكوكب في رؤيتي هو كحجم الدينار ، أما ماذا يكون حجمه في الحقيقة فطريق العلم به طريق آخر . بعد أن أحسب بعد الكوكب عني ، ومعرفة كل الأمور المتعلقة بالموضوع . وقد بيّن ذلك الإمام الغزالي بقوله : « ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار » .

حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها[1] .

ولعل تلك الحالة ، ما تدَّعيه الصوفية أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم أحوالاً لاتوافق هذه المعقولات ، ولعل تلك الحالة هي الموت ، إذ قال رسول الله ﷺ : « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا »[2] . فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ويقال له عند ذلك :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[3] .

(١) لقد شك الإمام الغزالي في جميع المعلومات التي سبق له أن حصَّلها عن طريق الحواس أو عن طريق العقل ، ثم بدأ بأوليات يقينية تستمد يقينها من إدراكه المباشر ، وهذه « الأوليات » هي حقائق واضحة بذاتها يستحيل أن تكون موضع شك لأن نفيها إنما يأتي إثباتاً لها فإذن ليس من ثبوتها بد . إن هذا الطريق الذي سلكه الإمام الغزالي ثم رسمه لنا إنه طريق الشك المنهجي الذي سلكه من بعده « ديكارت » الفيلسوف الفرنسي المشهور .
وقد أثبت مؤخراً المؤرخ التونسي الأستاذ « عثمان الكعاك » في ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر عام ١٩٧٦ أنه قد عثر على ترجمة لاتينية من القرن الرابع عشر لكتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي في مكتبة ديكارت بدار الكتب الوطنية الفرنسية في باريس ، وأنه استحضر بالفعل صورة من هذه الترجمة ، ووجد أن ديكارت قد كتب بخط يده تعليقاً على الأجزاء الخاصة بالشك يقول فيه « يضاف هذا إلى منهاجنا » راجع ص٣٣٣ من المجلد الأول من « محاضرات ومناقشات في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي » عنابة الجزائر ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

(٢) حديث لاأصل له ، وقد أورده الغزالي في « الإحياء » (٢٣/٤) وقال الحافظ العراقي : لم أجده مرفوعاً وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب . وقال العجلوني في « كشف الخفاء » (٤١٤/٢) هو من قول علي رضي الله عنه ، لكن عزاه الشعراني في « الطبقات » لسهل التستري .

(٣) سورة (ق) الآية [٢٢] .

فلما خطر لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية[1] . فإذا لم تكن مسلَّمة لم يمكن تركيب الدليل . فأعضل الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لابحكم النطق والمقال . حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والإعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيَّق رحمة الله تعالى الواسعة .

ولما سئل رسول الله ﷺ ، عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى : (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ)[2] قال : « هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْقَلْبِ » .

فقيل : « وما علامته » ؟

قال : « التَّجافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، وَالإِنَابَة إِلَى دَارِ الخُلُودِ »[3] .

وهو الذي قال ﷺ فيه :

« إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ »[4] فمن

(١) العلوم الأولية : الحقائق الواضحة بذاتها غير المحتاجة إلى برهان لبيان صدقها .

(٢) الأنعام الآية [١٢٥] .

(٣) ذكر الحديث ابن كثير في « تفسيره » (١٧٤/٢) من رواية عبد الرزاق وابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ، عن أبي جعفر المدائني الهاشمي مرسلاً ، وأبو جعفر الهاشمي المدائني واسمه عبد الله بن مسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب ليس بثقة ، وذكره ابن كثير أيضاً من رواية ابن أبي حاتم ، من حديث عبد الله بن مسعود منقطعاً ومتصلاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ، ثم قال : فهذه طرق للحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً والله أعلم ، وانظر « الدر المنثور » (٤٤/٣ و٤٥) .

(٤) رواه أحمد في مسنده (١٧٦/٢ و١٩٧) والترمذي رقم (٢٦٤٤) في الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه =

ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ، ويجب الترصد له كما قال ﷺ :

« إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ ، أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا »[1] والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي إلى طلب مالا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة ، فإنها حاضرة ، والحاضر إذا طلب نفر واختفى ، ومن طلب مالا يطلب فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

= الأمة ، وابن حيان رقم (١٨١٢) . موارد الظمآن ، والحاكم في مستدركه (٣٠/١) وصححه ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن . ولفظه « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » .

(١) ذكر هذا الحديث الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٢٣١/١٠) من رواية الطبراني في الأوسط والكبير ، عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه وقال في آخره : وفيه من لم أعرفهم ، ومن عرفتهم وثقوا ، وذكره أيضاً في « المجمع » (٢٣١/١٠) من رواية الطبراني عن أنس رضي الله عنه ، وفي إسناده ضعف أيضاً ، ولكنه حسن بهذا الشاهد .

وورد حديث آخر بسند حسن « افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم » .

أصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ ـ المتكلمون : وهم يدَّعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢ ـ الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالإقتباس من الإمام المعصوم .

٣ ـ الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ ـ الصوفية : وهم يدَّعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذَّ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لامطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ، إذ من شرط المقلد أن لايعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ، وهو شعب لايرأب[1] وشعث[2] لايلم بالتلفيق[3] والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة . فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق . مبتدئاً بعلم الكلام . ومثنياً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعلم الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

(١) شعب لايرأب : الشَّعْبُ : انفراج بين الجبلين ، يرأب : يصلح ، وهو صدع لايصلح .

(٢) شعث : الشَعَثَ : ما تفرق من الأمور وشَعِثَ القوم : تفرقوا .

(٣) التلفيق : لفَّق بين الثوبين : لأم بينهما بالخياطة . ولفَّق الحديث : زخرفه وموَّهه بالباطل . فهو ملفَّق .

علم الكلام ـ مقصوده وحاصله[1]

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصَّلته ، وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنَّفت فيه ما أردت أن أصنِّف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي ، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقد ألقى الله تعالى ، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرَّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة[2] ، على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله ، فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب[3] عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على

(١) نشأ علم الكلام بتأثير الفلسفة اليونانية التي لم تكن إلا مجموع ظنون وتخمينات لاتقوم على أساس علمي ، وكان المعتزلة أسرع الناس افتتاناً بمنطق اليونان وحاولوا إخضاع الدين للمنطق اليوناني فتأولوا القرآن على آرائهم ، وكان المسلمون في غنى عن ذلك بما في الكتاب والسنة من علم محكم ، وبينة واضحة ، وقد استطاع أن يقهرهم ويهزمهم في معترك العلم والعقل رجل منهم عاش معهم أربعين سنة هو الإمام أبو الحسن الأشعري ثم أبو منصور الماتريدي وقد غيروا اتجاه الطبقة المثقفة وهؤلاء هم الذين عناهم الإمام الغزالي في بحثه هذا .

(٢) أهل البدع المحدثة : يقصد الإمام الغزالي « المعتزلة » وهم أهل البدع المحدثة ومنها دعوة (خلق القرآن) ، (والمنزلة بين المنزلتين) فإنهما من محدثات الأمور التي قال عنها رسول الله ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور » لأنه ابتداع في الدين لم تكن على أيام رسول الله ﷺ ولا عهد الصحابة رضوان الله عليهم .

(٣) الذب : الدفاع .

مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى تسليمها ، إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار وكان أكثر خوضهم في استخراج تناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلّماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لايسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً ، فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً .

نعم لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة ، تشوّق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور[1] وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض[2] وأحكامها . ولكن لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق . ولا أُبعِدُ أن يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الأمور التي ليست من الأوليات ، والغرض الآن : حكاية حالي ، لا الإنكار على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ؛ وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر .

(١) كالباقلاني والجويني .

(٢) الجوهر : في الفلسفة ما قام بنفسه ، والعَرَض : ما يقوم بغيره . ولقد تناول هذا في « تهافت الفلاسفة » فقال : قد يختلفون على لفظ بجرد وطريقة استعماله كاختلافهم على الاسم « جوهر » حين يشيرون به إلى الله ، فيقول بعضهم عن « الجوهر » إنه « الموجود لا في الموضوع » أي أنه القائم بنفسه الذي لايحتاج إلى مقوم يستند إليه ، ويرد عليهم آخرون بقولهم : إن الجوهر إنما يتميز في مكانه فيقول الغزالي : إننا إذا اتفقنا على معنى اللفظ ، بأنه هو قيام الموجود بنفسه دون حاجة منه إلى سواه ، فماذا يهم إذا أطلقنا على مثل هذا الموجود اسم « جوهر » أم لم نطلقه ؟ إنما يكون من قبيل البحث اللغوي الذي لاضير علينا منه » .

الفلسفة

أحاصيلها ، ما يذم منها وما لايذم ، وما يكفر فيه قائله ، وما لايكفر ، وما يبدَّع فيه وما لا يبدَّع ، وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ، وما مزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق — وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم .

ثم إني ابتدأت — بعد الفراغ من علم الكلام — بعلم الفلسفة ، وعلمت يقيناً : أنه لايقف على فساد نوع من العلوم ، من لايقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته فيطّلع على ما لم يطّلع عليه صاحب العلم ، من غوره[1] وغائله ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدَّعيه من فساده حقاً . ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك ، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم — حيث اشتغلوا بالرد عليهم — إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد ، لايظن الإغترار بها بعاقل عامي ، فضلاً عمن يدَّعي دقائق العلم ، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية[2] .

فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من

(١) غوره : عمقه ، قعره .

(٢) رمي في عماية : الرمي في ظلمة دون معرفة .

الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة ، على منتهى علومهم في أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطّلعت على ما فيه من خداع ، وتلبيس وتحقيق وتخييل ، اطلاعاً لم أشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم ، فإني رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً وهم — على كثرة أصنافهم — يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل ، تفاوت عظيم ، في البعد عن الحق والقرب منه .

أصناف الفلسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم

اعلم أنهم — على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم — ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : الدهريون ، والطبيعيون ، والإلهيون .

الصنف الأول : الدهريون وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا : أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة .

والصنف الثاني : الطبيعيون وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات . فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، مما اضطروا معه إلى الإعتراف بفاطر حكيم ، مطّلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح ، وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لاسيما بنية الإنسان .! إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم — لاعتدال المزاج — تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا إنهماك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ،

لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

والصنف الثالث : الإلَهيون وهم المتأخرون منهم مثل « سقراط »[1] وهو أستـاذ « أفلاطـون »[2] و« أفلاطـون » أستـاذ « أرسطاطالـيس »[3] و« أرسطاطاليس » هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذَّب لهم العلوم ، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من علومهم ، وهم بجملتهم ، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم (وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)[4] بتقاتلهم . ثم رد « أرسطاطاليس » على « أفلاطون » و« سقراط » ومن كان قبلهم من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى من رذاذ كفرهم ، وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من

(١) سقراط : فيلسوف يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ومؤسس فلسفة الأخلاق ، حكم عليه بأن يشرب السم بعد محاكمة جرت له بتهمة خروجه على قوانين الدولة وتهكمه بوثنية اليونان وآلهتها وقال للقضاة آنذاك : إن هذا الحكم يقلقكم أكثر مما يقلقني ، ولما حاول تلامذته اختطافه رفض وقال لهم : أتريدون سقراط أم فكر سقراط ؟ قالوا : نريد فكر سقراط ، فقال : إذا هربت ماتت أفكاري وإذا بقيت عاشت أفكاري .

(٢) أفلاطون : فيلسوف يوناني ولد سنة ٤٢٩ وتوفي ٣٤٧ ق . م وهو تلميذ سقراط احتل مكانه بعد مصرعه وهو صاحب نظرية (المُثُل) المعروفة وقد ترجم من كتبه « محاورات » و« طيماوس » و« الجمهورية » وفي الأخير يبين أن الطبقة الحاكمة يجب أن يكونوا فلاسفة .

(٣) أرسطاطاليس : فيلسوف يوناني (٣٨٤ — ٣٢٢) ق . م وهو تلميذ أفلاطون ولكنه استطاع أن يطغى على أساتذته ، واعتبره الناس أعظم شخصية فلسفية ويلقب بـ « المعلم الأول » وتلقب مدرسته بمدرسة « المشائين » له كتاب « الأخلاق » و« الكون والفساد » و« السياسة » و« الطبيعة » وقد ترجمت كتبه إلى العربية .

(٤) الأحزاب الآية [٢٥] .

المتفلسفة الإسلاميين . « كابن سينا »[1] و« الفارابي »[2] وأمثالهما . على أنه لم يقم بنقل علم « أرسطاطاليس » أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لايفهم ، وما لايُفْهَمُ كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة « أرسطاطاليس » ، بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ — قسم يجب التكفير به .

٢ — وقسم يجب التبديع به .

٣ — وقسم لايجب إنكاره أصلاً ، فلنفصله .

(١) ابن سينا : هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا ولد بقرية من قرى بخارى سنة (٣٧٠ هـ — ٤٢٨) اشتغل بالفلسفة حتى أتمها ، ثم تفرغ لدراسة الطب حتى نبغ فيه وفاق أطباء عصره وألف فيه كتابه العظيم « القانون في الطب » وهو لم يجاوز ست عشرة سنة ، ثم رجع إلى دراسة المنطق والفلسفة ودرس فلسفة أرسطو ولما وصل إلى كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو لم يفهم منه شيئاً ، حتى وقع في يده كتاب « أغراض ما بعد الطبيعة » لأبي نصر الفارابي ، ووصل به إلى فهم ما أغلق عليه وكان سبباً في دراسته لكتب الفارابي وتأثره بفلسفته أكثر من غيره . وله في الفلسفة « الشفاء » و« الإشارات والتنبيهات » وغيرها .

(٢) الفارابي : هو أبو نصر محمد بن محمد الفارابي ، ولد بفاراب في أطراف فارس مما يلي بلاد الترك (٢٦٠ هـ — ٣٣٩ هـ) نشأ بها وتعلم التركية والفارسية والعربية واليونانية والسريانية ، ثم انتقل إلى بغداد فدرس الفلسفة . وكان يمتاز على غيره بحسن العبارة ، ووضوح الفكرة ، وتناول كتب أرسطو بالدرس ، حتى نبغ في استخراج معانيها والوقوف على أغراضها ، ويقال : إنه قرأ كتاب « النفس » لأرسطو مائة مرة ، ثم رحل في آخر حياته إلى حلب قاصداً سيف الدولة الحمداني ، وكان يؤثر عيشة التقشف والزهد ، ولشدة ولعه بأرسطو لقب بـ « المعلم الثاني » كما كان أرسطو يلقب « المعلم الأول » وكان موسيقياً بارعاً ، وله كتب كثيرة أهمها كتابه « المدينة الفاضلة » و« الجمع بين الحكيمين » أي أفلاطون وأرسطو .

أقسام علومهم

اعلم : أن علومهم — بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه — ستة أقسام رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلَهية ، وسياسية ، وخلقية .

أما الرياضية : فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق منه شيء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لاسبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان : الأولى : من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسنة فيكفر بالتقليد المحض ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجورهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين ، وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه[1] .

وإذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة

(١) كأنه يصور — وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية ورد فعلها في كثير من ضعاف العقول والمتكايسيس في عصره — عقلية النشيء الجديد ، وكثير من المتعلمين في القرن العشرين ، الذين خضعوا لبراعة الأوربيين في العلوم الطبيعية والاختراعات ، ورأوا ما هم عليه من إلحاد وزندقة وتفسخ خلقي ، فظنوا أنه الطريق الأقوم ، وقلدوهم فيه تقليد القرود .

البراعة والسبق ، وإن كان الحمق والجهل يلزمهم في غيرها . فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلَهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جرَّبه وخاض فيه . فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحد بالتقليد ، ولم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، والشهوة الباطلة ، وحب التكايس عل أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها . فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادىء علومهم سرى إليه شرُّهم وشؤمهم ، فقلَّ من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم . فأنكر جميع علومهم وادَّعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً ، ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية . وقوله ﷺ :

« إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله تَعَالَى لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ الله تَعَالَى وَإِلَى الصَّلَاةِ »[1] .

وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص ، أما قوله عليه السلام :

(١) رواه البخاري رقم (١٠٠٩) في الكسوف ، ورقم (٣٠٣١) في بدء الخلق . ومسلم رقم (٩٠١)/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

« لكِنَّ اللهَ إِذَا تَجَلَّى لِشَيءٍ خَضَعَ لَهُ »[1] فليس توجد هذه الزيادة في الصحيح أصلاً . فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً ، بل هي النظر في طرق الأدلة[2] والمقاييس[3] ، وشروط مقدمات البرهان[4] ، وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه . وأن العلم إما تصور[5] وسبيل معرفته الحد[6] ، وإما تصديق[7] وسبيل معرفته البرهان ، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة ، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الإستقصاء في التعريفات والتشعيبات ، ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل « أ » « ب » لزم أن بعض « ب » « أ » أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية[8] . وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر ؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الإعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه الذي يزعم أنه

---

(١) هو جزء من حديث طويل ، رواه النسائي (١٤١/٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وهو حديث مضطرب الإسناد والمتن ، وانظر ما قاله العلماء في هذا : انظر (النسائي) (١٤١/٣ — ١٤٤) .

(٢) الدَّليل : هو الذي يلزم لمعرفته معرفة شيء آخر .

(٣) القياس : قول مركب من قضيتين أو أكثر متى سُلِّم لزم عنه لذاته قول آخر . مثل كل إنسان فان وسقراط إنسان فإن هذا يستلزم القول بأن سقراط فان .

(٤) البرهان : قياس مؤلف من مقدمات يقينية . وعند الرياضيين : ما يثبت قضية من مقدمات مسلَّم بها (ج) براهين .

(٥) التصور : عند المناطقة إدراك المفرد : أي معنى الماهية من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات .

(٦) الحد : المانع والحاجز بين الشيئين ، وفي اصطلاح المناطقة : القول الدالُّ على ماهية الشيء .

(٧) التصديق : إدراك الحكم أو النسبة بين طرفي القضية .

(٨) هذه القضايا المعروفة في منطق أرسطو فقد قسم القضايا إلى قسمين قضايا موجبة وقضايا سالبة وقسّم كل منهما بدوره إلى قسمين موجبة كلية وموجبة جزئية وسالبة كلية وسالبة جزئية .

موقوف على مثل هذا الإنكار ، نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الإنتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل ، وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين ، فيستعجل بالكفر قبل الإنتهاء إلى العلوم الإلَهية . فهذه الآفة أيضاً متطرقة إليه .

٣ — وأما علم الطبيعيات : فهو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة : كالماء والهواء والتراب والنار ، وعن الأجسام المركبة ، كالحيوان والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها وامتزاجها ، وكذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان ، وأعضائه الرئيسية والخادمة ، وأسباب استحالة مزاجه وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها ، وأصل جملتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لاتعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لافعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ — وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ولقد قرب مذهب « أرسطاطاليس » فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا ، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب « التهافت » أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم :

١ — إن الأجساد لاتحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لاجسمانية[1] .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية : فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

٢ — ومن ذلك قولهم : « إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات » ، فهو أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه :

(لَايَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)[2] .

٣ — ومن ذلك قولهم : بقدم العالم وأزليته ، ولم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل . وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات ، لابعلم زائد على الذات وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك[3] .

---

(١) لقد بحث ذلك علماء العقيدة والكلام وأطالوا البحث وقالوا : إن الحشر يكون عن طريق تجميع الذرات من التفرق والشتات ويدل على هذا المعنى أيضاً قوله جل جلاله : (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بلى ، قادرين على أن نسوي بنانه) [القيامة : ٣ — ٤] ويحشر الإنسان بعد تجميع أجزائه الأصلية التي بها استقبل الحياة ، والمثوبات والعقوبات جسمانية لأن الجنة والنار شيئان ماديان وليستا مجرد وهم يطوف بالنفس أو الروح وحدهما . والآيات القرآنية تدل على أن نعيم الجنة حسي مادي يلقاه الجسد والروح معاً وعذاب جهنم حسي مادي أيضاً يلقاه الجسد والروح معاً . انظر كتاب « كبرى اليقينيات الكونية » بحث (يوم القيامة وأحداثه) وتفصيل ذلك للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي . ص٣٣٨ — ٣٦٣ .

(٢) سورة سبأ الآية [٣] .

(٣) المعتزلة : فرقة نشأت في العصر العباسي أسسها « واصل بن عطاء » ، وسموا بالمعتزلة لأن رئيسهم اعتزل حلقة « الحسن البصري » ، وهي فئة افتتنت بمنطق اليونان ، وأسرفوا في تمجيد العقل ، وحاولوا إخضاع الدين لمنطق اليونان ، وتأولوا القرآن على آرائهم فجاءت مباحثهم فجة ، والخطأ الكبير الذي وقعوا فيه وبددوا طاقات العلماء هو بحثهم في العقائد بمنهج الفلسفة لأن منهج الفلسفة مغاير لمنهج العقيدة لأن طبيعة الفلسفة الإغريقية وثنية فقد نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير ، واستمدت جذورها من هذه الوثنية . فأحدثوا في الدين ما ليس منه « كخلق القرآن » و« المنزلة بين المنزلتين » وغيرهما فإنهما =

وقد ذكرنا في كتاب « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين به فساد رأي من يتسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ — وأما السياسيات : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والإيالة السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء عليهم السلام .

٦ — وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى ، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق الناس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرَّحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم . ولقد كان في عصرهم بل في كل عصر جماعة من المتألهين لايخلي الله سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الأرض كما ورد في الخبر حيث قال ﷺ : « بِهِمْ تُمْطَرُونَ ، وَبِهِمْ تُرْزَقُونَ »[1] ومنهم كان أصحاب الكهف وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن ، فتولَّد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان :

آفة في حق القابل ، وآفة في حق الراد .

١ — أما الآفة التي في حق الراد فعظيمة : إذ ظنت طائفة من الضعفاء

= من البدع التي قال فيها رسول الله ﷺ : « إياكم ومحدثات الأمور » .

(١) أما الأوتاد فلم يصح فيهم شيء عن النبي ﷺ ، وأما الأبدال فقد ورد فيهم بعض الأحاديث وفيها أنه بهم يستسقى الغيث ، وبهم يمطرون ، وبهم يرزقون ، وبهم ينصرون ، ولكن ليس فيها حديث صحيح ، ولكن بمجموع هذه الأحاديث يدل على أن للحديث أصلاً ، ولذلك يقال : فلان من الأبدال أي كلما مات من هؤلاء أبدل الله مكانه ، وانظر « مجمع الزوائد » (١٠/٦٢ و٦٣) .

أن ذلك الكلام إذا كان مدوَّناً في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ، ينبغي أن يهجر ولا يذكر بل ينكر على كل من يذكره إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذي يسمع من النصراني قوله : « لاإله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصارى » ، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول ، أو باعتبار إنكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره ، ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول ، يعرفون الحق بالرجال ، لاالرجال بالحق . والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، حيث قال : « لاتعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله » ، والعارف العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول : فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من تضاعيف كلام أهل الضلال ، عالماً بأن معدِن الذهب الرغام[1] . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلّاب[2] وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج . مهما كان واثقاً ببصيرته ، ويمنع — من ساحل البحر — الأخرقُ ، دون السبَّاح الحاذق ، ويصد عن مس الحيَّة الصبي دون المعزِّم[3] البارع . ولعمري ! لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل ، وتمام الآلة في تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلال وجب حسم الباب

(١) قال المتنبي (ديوانه ٤/١٩١) :

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم ولكن معدِن الذهب الرغام

والمعدِن : مكان كل شيء وأصله ومبدؤه ، والرغام التراب .

(٢) القلّاب : هو الذي يقلب الحقائق وهنا مزيف النقود .

(٣) المعزِّم : الرَّاقي ، عزَّم الرَّاقي : قرأ العزائم .

في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن ، إذ لايسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها أصلاً ، وإن سلموا عن هذه الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض — على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين — طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم ، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل ، مع أن بعضها من مولَّدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية ، وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه ، مؤيداً بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ويترك ؟! فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن وأخبار الرسول ﷺ وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية لأن صاحب « إخوان الصفا »[1] أوردها في كتابه مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله ، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بإيداعهم إياه كتبهم . وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغمر[2] .

فلا يعاف العسل ، وإن وجده في محجمة الحجَّام ، ويتحقق أن المحجمة

(١) إخوان الصفا : جمعية سرية قامت في العراق في القرن الرابع الهجري وكان أصحابها متأثرين بالأفلاطونية الحديثة ، والفيثاغورية الحديثة ، وكانوا يريدون أن يضعوا للناس مذهباً جديداً يجمع بين الفلسفة اليونانية وبين العبادات الشرعية الإسلامية وخرجوا على الناس بخليط فيه حكمة اليونان وتنظيم الأديان وصنفوا في ذلك خمسين رسالة تشمل جميع أجزاء الفلسفة سموها « رسائل إخوان الصفا » وكتموا أسماءهم وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة . ليجعلوها قنطرة إلى الباطنية انظر « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي . و« إخوان الصفا » لعمر الدسوقي .

(٢) الغمر : الجاهل الذي لم يجرِّب الأمور .

لاتغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع عنه مبنيَّة على جهل عامي منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته ، فإذا عدمت هذه الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه لايكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار ، وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . فإذا نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه وإن كان باطلاً ، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقاً ، فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! هذه آفة الرد .

٢ ــ والآفة الثانية آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم « كإخوان الصفا » وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها وقبلها ، وحسَّن اعتقاده فيها ، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظنه مما رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج إلى الباطل . ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر . وكما يجب صون من لايحسن السباحة على مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب . وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيَّات ، يجب صون الأسماع عن مختلط الكلمات[1] ، وكما يجب على المعزّم أن لايمس الحيَّة بين يدي ولده الطفل ، إذا علم أنه سيقتدي به ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذّره منه ، بأن يحذر هو في نفسه ولا يمسها بين يديه ، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله ، وكما أن المعزّم الحاذق إذا أخذ الحيَّة وميَّز بين الترياق والسم ، واستخرج منها الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على

(١) ولذلك غضب رسول الله ﷺ عندما رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوراة ، وقوله : « ... وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » (رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر) .

المحتاج إليه . وكذا الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده في كيس القلَّاب ، وأخرج منه الإبريز الخالص ، وطرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيِّد المرضي على من يحتاج إليه ، فكذلك العالم . وكما أن المحتاج إلى الترياق ، إذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه مستخرج من الحيَّة التي هي مركز السم وجب تعريفه ، والفقير المضطر إلى المال ، إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلّاب ، وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض ، هو سبب حرمانه الفائدة التي هي مطلبه ، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيِّد لايجعل الجيِّد زيفاً ، كما لايجعل الزيف جيِّداً ، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل ، لايجعل الحق باطلاً ، كما لايجعل الباطل حقاً ، فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

مذهب التعليم وغائلته

ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهُّمه وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات ، وكان قد نبغت[1] نابغة التعليمية ، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، فعنّ[2] لي أن أبحث في مقالاتهم ، لأطّلع على ما في كنانتهم[3] . ثم اتفق أن ورد عليَّ أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم[4] . فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحثاً من خارج ، ضميمة[5] للباعث من الباطن ، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر ، لاعلى المنهاج المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغتي في تقرير حجتهم ، فقال : « هذا سعي لهم ، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها » . وهذا الإنكار من وجه حق ، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي رحمهما الله تصنيفه في الرد على المعتزلة ، فقال الحارث : « الرد على

---

(١) نبغت : ظهرت .

(٢) فعنَّ لي : خطر لي .

(٣) كنانتهم : جعبتهم .

(٤) هو كتاب « المستظهري » .

(٥) ضميمة : دعماً وانضماماً إلى الشي .

البدعة فرض » فقال أحمد : « نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها ، فيم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه » ؟

وما ذكره أحمد بن حنبل حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . نعم ، ينبغي أن لايتكلف لهم شبهة لم يتكلفوها ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلي ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم ، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم ، ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسي أن يظن فيَّ الغفلة عن أصل حجتهم ، فلذلك أوردتها ، ولا أن يظن بي أني — وإن سمعتها — لم أفهمها ، فلذلك قررتها .

والمقصود ، أني قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : أنه لاحاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت تلك البدعة — مع ضعفها — إلى هذه الدرجة ، ولكن شدة التعصب دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به ، فجاحدوهم في دعواهم : « الحاجة إلى التعليم والمعلم » ، وفي دعواهم أنه : « لايصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم » وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه ، بل الصواب الإعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لابد وأن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد ﷺ فإذا قالوا : « هو ميِّت »

فنقول : « ومعلمكم غائب » فإذا قالوا : « معلمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل » فنقول : « ومعلمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم » إذ قال الله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[1] ، وبعد كمال التعليم لايضرُّ موت المعلم كما لايضر غيبته[2] .

فبقي قولهم : « كيف تحكمون في ما لم تسمعوه ؟ أبالنص و لم تسمعوه ، أم بالإجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف » ؟

فنقول : نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن[3] . أن نحكم بالنص عند وجود النص ، وبالإجتهاد عند عدمه . بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصي البلاد إذ لا يمكنه أن يحكم بالنص ، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وأن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا

(١) المائدة الآية [٤] .

(٢) نعم غاب شخص رسول الله ﷺ ولكنه تركنا على محجة بيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك ، لقد ترك القرآن بين أيدينا وحديثه ﷺ — وهديه العملي ، وسيرته الكريمة كل ذلك بين أيدينا فلن نحتاج إلى من يرشدنا ويحل ما أشكل علينا لأن الحلول بين أيدينا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين .

(٣) يشير إلى الحوار الذي دار بين رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن ، فقد سأله رسول الله ﷺ : « بم تقضي يامعاذ ؟ فقال : بما في كتاب الله ، قال : فإن لم تجد قال : بما في سنة رسول الله ﷺ قال : فإن لم تجد قال أجتهد رأيي ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله » .

رواه أبو داود رقم (٣٥٩٢ و٣٥٩٣) في الأقضية والترمذي رقم (١٣٢٧ و١٣٢٨) في الأحكام وقال الترمذي : ليس إسناده عندي بمتصل . وقد ضعّفه المحققون من المحدثين وصححه الفقهاء و علماء الأصول .

أن يصلي بالإجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، فيفوت وقت الصلاة . فإذن ، جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « إنَّ الْمُخْطِيءَ فِي الإجْتِهَادِ لَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ وَلِلْمُصِيبِ أَجْرَانِ »[1] فكذلك في جميع المجتهدات ، وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير ، فربما يظنه فقيراً باجتهاده وهو غني باطناً بإخفائه ماله ، فلا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ ، لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه . فإن قال : « ظن مخالفه كظنه » فأقول : « هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة يتبع ظنه وإن خالفه غيره » فإن قال : « فالمقلد يتبع أبا حنيفة والشافعي رحمهما الله أم غيرهما » ؟ فأقول : « فالمقلد في القبلة عند الإشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، فكيف يصنع ؟ فسيقول : « له مع نفسه إجتهاد في معرفة الأفضل الأعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الإجتهاد ، فكذلك في المذاهب » فرد الخلقَ إلى الإجتهاد — ضرورة — الأنبياءُ والأئمة مع العلم بأنهم قد يخطئون[2] ، بل قال رسول الله ﷺ :

« أَنَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ »[3] . أي أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه . ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ : إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

رواه البخاري (٢٦٨/١٣) في الاعتصام : باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ رواه مسلم رقم (١٧١٦) في الأقضية باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ .

(٢) الأنبياء معصومون لأنهم لايقرون على الخطأ فالوحي يصحح الخطأ إن وقع ، ولذلك لايجوز أن نقول إن الأنبياء يخطئون . وهذا ما قاله الغزالي ص٥٣ .

(٣) لم أعثر في كتب الحديث على هذا الحديث وإنما الذي ثبت في « الصحيحين » أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ولعلَّ بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

رواه البخاري (٢١٢/٥) في الشهادات : باب من أقام البينة بعد اليمين . ورواه مسلم رقم (١٧١٣) في الأقضية : باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة .

للأنبياء في مثل هذه المجتهدات فكيف يطمع في ذلك ؟. ولهم ها هنا سؤالان :
أحدهما قولهم : هذا وإن صح في المجتهدات فلا يصح في قواعد العقائد ، إذ
المخطىء فيه غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟ فأقول : « قواعد العقائد يشتمل
عليها الكتاب والسنة ، وما وراء ذلك من التفصيل ، والمتنازع فيه ، يعرف الحق
فيه بالقسطاس المستقيم . وهي الموازين التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، وهي
خمسة ذكرتها في كتاب « القسطاس المستقيم » فإن قال : « خصومك يخالفونك
في ذلك الميزان » فأقول : ولا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ، إذ
لايخالف فيه أهل التعليم ، لأني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف
فيه أهل المنطق ، لأنه موافق لما شرطوه في المنطق وغير مخالف له ، ولا يخالف
فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ، وبه يعرف الحق في
الكلاميات » . فإن قال : « فإن كان في يدك مثل هذا الميزان فلم لاترفع الخلاف
بين الخلق ؟ » ، فأقول : « لو أصغوا إليَّ لرفعت الخلاف بينهم ، وذكرت طريق
رفع الخلاف في كتاب « القسطاس المستقيم » فتأمله لتعلم أنه حق وأنه يرفع
الخلاف قطعاً لو أصغوا ولا يصغون إليه بأجمعهم ! بل قد أصغى إلي طائفة ،
فرفعت الخلاف بينهم .

وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلم لم يرفع إلى الآن ؟
وَلِمَ لم يرفع علي رضي الله عنه وهو رأس الأئمة ؟ أو يدعي أنه يقدر على حمل
كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟ ولأي يوم أجَّله ؟ وهل
حصل بين الخلق بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان
يخشى من الخلاف نوع الضرر لاينتهي إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد وإيتام
الأولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الأموال . وقد حدث في العالم من
بركات رفعكم الخلاف من الخلاف ما لم يكن بمثله عهد . فإن قال : « ادعيت
أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والإختلافات
المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا

فرق بينك وبينهم » وهذا هو سؤالهم الثاني ، فأقول : وهذا أولاً ينقلب عليك ،
فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير : بم صرت أولى من
مخالفيك ، زأكثر أهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعري ! بماذا تجيب ؟ أتجيب
بأن تقول : إمامي منصوص عليه ، فمن يصدقك في دعوى النص ، وهو لم
يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك
وتكذيبك . ثم هب أنه سلَّم لك النص ، فإن كان متحيراً في أصل النبوة ، فقال :
هب أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول : الدليل على صدقي أني
أحيي أباك ، فأحياه ، فناطقني بأنه محق ، فبماذا أعلم صدقه ؟ و لم يعلم كافة
الخلق صدق عيسى عليه السلام بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة
ما لايدفع إلا بدقيق النظر العقلي ، والنظر العقلي لايوثق به عندك ، ولا يعرف
دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ، وما
لم يعرف أن الله لايضل عباده . وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه
مشهور فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ و لم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ! فيرجع
إلى الأدلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الأدلة وأوضح منها .
وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، لو اجتمع أولهم وآخرهم على
أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه . وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة
ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ،
وما لايسبق سريعاً إلى الأفهام ، فلا يصلح للإفحام . فإن قال قائل : « فهذا
هو القلب ، فهل عنه جواب ؟» فأقول : « نعم ! جوابه أن المتحير لو قال :
أنا متحير و لم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : أنت كمريض » ،
يقول : « أنا مريض ولا يعيِّن مرضه ويطلب علاجه » فيقال له : « ليس في
الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معيَّن . من صداع أو إسهال أو
غيرهما » فكذلك المتحير ينبغي أن يعيِّن ما هو متحير فيه ، فإن عيَّن المسألة
عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة ، التي لايفهمها أحد إلا ويعترف بأنه

الميزان الحق ، ويفهم منه أيضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم علم الحساب ، نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه . وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهري » أولاً ، وفي كتاب « حجة الحق » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عرض عليَّ ببغداد ، وفي كتاب « مفصل الخلاف » الذي هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً ، وهو جواب كلام عرض عليَّ بهمدان ، وفي كتاب « الدرجة » المرقوم « بالجداول » رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض عليَّ بطوس ، وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم وإظهار الإستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به . بل المقصود أن هؤلاء ، ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طالما جربناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلّها ! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ، وقالوا : « إنه لا بد من السفر إليه » والعجب أنهم ضيَّعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتضمخ[1] بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله ، وبقي متضمخاً بالخبائث . ومنهم من ادَّعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة « فيثاغورس » وهو رجل من قدماء الأوائل ومذهبه أرك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه « أرسطاطاليس » ، بل استرك كلامه واسترذله ، وهو المحكي في كتاب « إخوان الصفا » وهو على التحقيق حشو الفلسفة .

(١) متضمخاً : ملطخاً بالطيب أو غيره مكثراً منه .

فالعجب ممن يتعب طول العمر في تحصيل العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث[1] ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء أيضاً جرَّبناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم ، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قوي مفحم ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال : « هات علمه وأفدنا من تعليمه !» وقف وقال : « الآن إذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فإنما غرضي هذا القدر فقط » . إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه . فهذه حقيقة حالهم فأخبرهم تقلهم[2] فلما جرَّبناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً .

(١) المستغث : الذي لاغناء فيه ولا طائل تحته .

(٢) تقلهم : تبغضهم ، خبر الشيء : بلاه وامتحنه وعرف خبره على حقيقته وسبر الشيء : بمعنى خبره .

طرق الصوفية[1]

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليَّ من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي[2] رحمه الله ، وكتب « الحارث المحاسبي »[3] ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد »[4] و« الشبلي »[5]

(١) نشأت الطرق الصوفية كمدارس تربوية تهدف إلى تزكية النفس وترقيتها وتصعيدها والإرتفاع بها من دنس الأخلاق المذمومة والتخلص من شرك النفس الأمارة بالسوء والوصول إلى النفس الراضية المطمئنة . فيدخلون النور وعند ذلك لا بد للفيوضات أن تنزل عليهم ، وتفيض عليهم من أسرار الخلق فهذه ثمرة من ثمرات التصوف .

(٢) أبو طالب المكي : الإمام الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي ، المكي المنشأ ، العجمي الأصل ، كان مجتهداً في العبادة وقال الخطيب : قال لي أبو طاهر العلاف : وعظ أبو طالب ببغداد ، وخلّط في كلامه وحفظ عنه أنه قال : ليس على المخلوقين أضر من الخالق ، فبدَّعوه وهجروه ، توفي في جمادى الآخرة سنة (٣٨٦ هـ) .

(٣) الحارث المحاسبي : هو أبو عبد الله بن أسد المحاسبي . عديم النظير في زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالاً ، بصري الأصل ، مات ببغداد سنة (٢٤٣ هـ) وقد دخل في شيء يسير من الكلام ، فنقم عليه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما وهجره فاختفى مدة وكان عالماً بالفقه والحديث والأصول وعرف مذاهب النساك .

(٤) الجنيد : الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي القواريري هو شيخ الصوفية ، ولد سنة (نيف وعشرين ومئتين) وتفقه على أبي ثور ، وسمع من السري السقطي وصحبه ، ومن الحسن بن عرفة ، وصحب أيضاً الحارث المحاسبي ، وأبا حمزة البغدادي وأتقن العلوم ، ثم أقبل على شأنه ، وتأله وتعبد ونطق بالحكمة وقال أحمد بن عطاء : كان الجنيد يفتي في حلقة أبي ثور . وروي عنه أنه قال : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ الكتاب ، ويكتب الحديث ، ولم يتفقه ، لايقتدى به توفي سنة (٢٩٧ هـ) .

(٥) الشبلي : شيخ الطائفة ، أبو بكر ، الشبلي البغدادي . قيل : اسمه دلف بن جحدر وقيل : جعفر بن يونس ، =

و أبي يزيد البسطامي[1] قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لايمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . وكم من الفرق أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان ؟ وبين أن تعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من [illegible] ، وبين أن تكون سكران ! بل السكران لايعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها ، وهو فاقد الصحة . فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن تكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا !.

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لاسبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق[2] والسلوك[3] . وكان قد حصل معي — من العلوم التي مارستها

= وقيل جعفر بن دلف ، أصله من الشبلية ، ومولده بسامراء . وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة ، [illegible] وصار من شأنه ما صار وكان فقيها [illegible] وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن ، لكنه [illegible] . فيقول أشياء يعتذر عنه ، مثل : ما علامة العارف ؟ قال : صدره مشروح ، وقلبه مجروح ، وجسمه مطروح توفي ببغداد سنة (٣٣٤ هـ) عن نيف وثمانين سنة .

(١) أبو يزيد البسطامي : سلطان العارفين ، أبو يزيد ، طيفور بن عيسى البسطامي ، أحد الزهاد ، يروى عنه أنه قال : لو نظرتم إلى من أعطي من الكرامات حتى يطير ، فلا تغتروا به حتى تروا كيف هو عند [illegible] وحفظ الحدود [illegible] وقال : لو صفا لي تهليلة ما باليت بعدها . وذكر أنه قال بوحدة [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني[1] بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي ، لابدليل معين مجرد ، بل بأسباب وقرائن وتجارب لاتدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأني قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الإختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلُّ العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى . لاتصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فإن

(١) اليقين : إذا استولى الاعتقاد والعلم على القلب ولم يكن معه ما [illegible] أثراً في القلب ، معرفة فسميت هذه المعرفة يقيناً . وقيل : اليقين : هو المشاهدة . وقيل : كل [illegible] القلوب نسب إلى اليقين .

لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار !

ثم يعود الشيطان ويقول : « هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة » .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الإختيار إلى الإضطرار ، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة إلي ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة ، وتعدى إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهمِّ الملمِّ » . ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي « يجيب المضطر إذا دعاه » وسهَّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطَّلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوِّز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب ديني ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس في الإستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من

جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة كان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والإنكباب علي ، وإعراضي عنهم ، وعن الإلتفات إلى قولهم ، فيقولون : « هذا أمر سماوي ، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم » . ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين . فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه . ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين لاشغل لي إلا العزلة والخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصَّلته من كتب الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي ، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي . ثم تحرَّكت فيَّ داعية فريضة الحج ، والإستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، فسرت إلى الحجاز . ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه . فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعيشة ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لايصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة . لكني مع ذلك لاأقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به . إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم

أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلاً . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة . فماذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها — وهي أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء[1] بالكلية في الله ؟!

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الإختيار والكسب من أوائلها . وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه . ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات[2] ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لايمكنه الاحتراز عنه .

---

(١) الفناء : هو أن يفنى عن الحظوظ ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ، فناء عن الأشياء كلها شغلاً بما فني به ، والحق يتولى تصريفه ، فيصرفه في وظائفه وموافقاته ، فيكون محفوظاً فيما لله عليه ، مأخوذاً عمّا له وعن جميع المخالفات ، فلا يكون له إليها سبيل ، وهو العصمة وذلك معنى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) الحديث . انظر التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٢٣ .

(٢) المشاهدة والمكاشفة والبصيرة والمعاينة : أسماء مترادفة على معنى واحد ، وإنما تحصل التفرقة في كمال الوضوح لافي أصله ، فمنزلة البصيرة من العقل منزلة نور العين من العين ، والمعرفة من البصيرة منزلة قرص الشمس لنور العين فتدرك بذلك الجليات والخفيات . وهذا ما حدث لسيدنا حارثة عندما قال : كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، اتصلت رؤيته بالغيب وارتفع ما بينه وبين الغيب من الحجب .

وعلى الجملة ، ينتهي الأمر إلى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول[١] ، وطائفة الاتحاد[٢] ، وطائفة الوصول[٣] ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب « المقصد الأسنى » . بل الذي لابسته تلك الحالة لاينبغي أن يزيد على أن يقول :

---

(١) الحلول : وهو أن يقال : إن الرب حل في العبد أو العبد حل في الرب تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً ، وهذا لو صح لما أوجب الاتحاد ، ولا أن يتصف العبد بصفات الرب فإن صفات الحال لا تصير صفة المحل ، بل تبقى صفة الحال كما كان . ووجه الاستحالة فيه أمران أحدهما النسبة التي بين الجسم وبين مكانه الذي يكون فيه وذلك لايكون إلا بين جسمين فالبريء عن معنى الجسمية يستحيل في حقه ذلك . والثاني : النسبة التي بين العرض والجوهر فإن العرض يكون قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه فدع عنك ذكر الرب تعالى في هذا العرض فإن كل قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب تعالى . وهو غلط وقع فيه النصارى حيث رأوا ذلك في ذات عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله .

(٢) الاتحاد : وهو أظهر بطلاناً لأن قول القائل إن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات كأن نقول : زيد وحده وعمرو وحده ثم قيل : إن زيداً صار عمرواً واتحد به فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهما موجوداً أو كليهما معدومين أو زيد موجوداً وعمرو معدوماً أو بالعكس . فإن كانا موجودين فلم يصر أحدهما عين الآخر بل عين كل واحد منهما موجود وإنما الغاية أن يتحد مكانهما وذلك لايوجب الاتحاد فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا يتباين محالها ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة ولا يكون قد اتحد البعض بالبعض ، وإن كانا معدومين فما اتحدا بل عدما ولعل الحادث شيء ثالث وإن كان أحدهما معدوماً والآخر موجوداً فلا اتحاد إذ لا يتحد موجود بمعدوم فالاتحاد بين الشيئين مطلقاً محال وهذا جار في الذوات المتماثلة فضلاً عن المختلفة ، فأصل الاتحاد إذاً باطل .

وهذا غلط وقع في ظن النصارى حين تصوروا اتحاد اللاهوت بالناسوت .

(٣) الوصول : هو أن يتكشف له حلية الحق ، ويصير مستغرقاً به فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله تعالى وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه فيكون كله مشغولاً بكله مشاهدة وهمّاً لايلتفت في ذلك إلى نفسه ليعجز ظاهره بالعبادة وباطنه بتهذيب الأخلاق وكل ذلك طهارة وهي البداية وأما النهاية أن ينسلخ من نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو .

انظر المقصد الأسنى للإمام الغزالي . ص ٧٣ وما بعد .

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ ۞ فَظُنَّ خَيْرَاً وَلَاتَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ[١]

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الإسم ، وكرامات الأولياء ، هي على التحقيق ، بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ حين أقبل إلى جبل « حراء » حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » .

وهذه الحالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها . فمن لم يرزق الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، إن أكثر الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الإيمان فهم القوم لايشقى جليسهم . ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب « إحياء علوم الدين » . والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان .

فهذه ثلاث درجات : « يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ »[٢] . ووراء هؤلاء قوم جهال ، هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ويسخرون ، ويقولون : العجب ! إنهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾[٣] .

ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم ، « حقيقة النبوة وخاصيتها » ولابد من التنويه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها .

---

(١) هذا البيت لابن المعتز انظر ديوانه ٢١٩ .

(٢) المجادلة الآية [١١]

(٣) سورة محمد الآية [illegible]

حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم : أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة . خلق خالياً ساذجاً لاخبر معه من عوالم الله تعالى ، والعوالم كثيرة لايحصيها إلا الله تعالى ، كما قال : « وما يَعْلَمُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »[1] وإنما خبره من العوالم بواسطة الإدراك وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، واللين ، والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حس اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان والأشكال ، وهو أوسع عالم المحسوسات . ثم ينفتح له السمع ، فيسمع الأصوات والنغمات ، ثم يخلق له الذوق . وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات ، فيخلق فيه التمييز ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده . فيدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات ، لايوجد منه شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، وأموراً لاتوجد في الأطوار التي قبله . ووراء العقل طور آخر تفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل ، وأموراً أخر ،

---

(1) المدثر الآية [٣١]

العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز . من إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز ، وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم إلَّا أنه طور لم يبلغه و لم يوجد في حقه ، فيظن أنه غير موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوانَ والأشكالَ ، وحكي له ذلك ابتداء ، لم يفهمها و لم يقربها . وقد قرَّب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم نموذجاً من خاصيَّة النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحاً وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : « إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميِّت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب » — لأنكره ، وأقام البرهان على استحالته وقال : « القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لايدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لايدرك مع ركودها أولى وأحق . وهذا نوع قياسي يكذِّبه الوجود والمشاهدة فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي ، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لايدركها العقل .

والشك في النبوة ، إما أن يقع في إمكانها ، أو في وجودها ووقوعها ، أو في حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها ووجودها . ودليل وجودها وجود معارف في العالم لايتصور أن تنال بالعقل ، كعلم الطب والنجوم ، فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لاتدرك إلا بإلهام إلَهي ، وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة فمن الأحكام النجومية ما لايقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الأدوية فتبيَّن بهذا البرهان ، أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لايدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لأن النبوة

عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا فقطرة من بحرها ، إنما ذكرناها لأن معك نموذجاً منها ، وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة ، فإنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم . وذلك الأنموذج تحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين ، أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع ، فإنك إذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون الشافعي رحمه الله فقيهاً ، وكون جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لابالتقليد عن الغير . بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما . فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة ، وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق ﷺ في قوله :

« مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »[1] وكيف صدق في قوله :

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث « الإحياء » : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » وضعفه . انظر « الإحياء » (٧١/١) .

« مَنْ أَعَانَ ظَالِماً سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ »[1] وكيف صدق في قوله :

«مَنْ أَصْبَحَ وَهُمُومُهُ هَمٌّ وَاحِدٌ كَفَاهُ اللهُ تَعَالَى هُمُومَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ »[2] .

فإذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف ، حصل لك علم ضروري ولا تتمارى فيه . فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة ، لامن قلب العصا ثعباناً ، وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، و لم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله تعالى إضلال فإنه (يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)[3] .

وترد عليك أسئلة المعجزات ، فإذا كان مستند إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكالات والشبهة عليها ، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري لايمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذي يخبرك جماعة بخبر متواتر لايمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لايدري ولا يخرج من جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد . فهذا هو الإيمان القوي العلمي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية فهذا القدر من حقيقة النبوة ، كاف في الغرض الذي أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

(١) رواه ابن عساكر عن ابن مسعود . انظر كنز العمال .

(٢) رواه ابن ماجه رقم (٢٥٧ و٤١٠٦) وروايته « من جعل الهموم همّاً واحداً ، همّ آخرته (همّ المعاد) كفاه الله همّ دنياه . ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا ، لم يبال الله في أيّ أوديتها هلك » . وقال في « الزوائد » : إسناده ضعيف فيه نهشل بن سعيد قيل : إنه يروي المناكير . وقيل بل الموضوعات .

(٣) فاطر الآية [٨] .

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لاأحصيها ، مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول الإيماني : أن للإنسان بدناً وقلباً ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو (إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[1] وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي ، كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾[2] وأن الجهل بالله سم مهلك ، وأن معصية الله بمتابعة الهوى ، داؤه الممرض ، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي ، وأنه لاسبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطَّلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة بأن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء ، لايدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لاببضاعة العقل . وكما أن الأدوية تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص ،

---

(١) الشعراء الآية [٨٩] .

(٢) البقرة الآية [١٠] ، والمائدة الآية [٥٥] .

فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب ، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى أن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطَّلع عليها إلا بنور النبوة . ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لاعن سر إلَهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية . وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها وزوائد هي متمماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل وتصرفه ، إن عرفنا ذلك ، وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعمى عن درك ما يدرك بعين النبوة ، أخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين . فإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الخلوة والعزلة ، ثم رأينا فتور الإعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ، وضعف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

١ — سبب من الخائضين في علم الفلسفة .

٢ — وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ — وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ — وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإني تتبعت مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره وقلت له : « مالك تقصر فيها فإن

كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ، فإنك لاتبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لانهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لاتؤمن ، فأنت كافر ، فدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به تجملاً بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع » .

فقائل يقول : « إن هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى . وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جراً إلى أمثاله . وقائل ثان : يدَّعي علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترق عن الحاجة إلى العبادة !.

وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة ! وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : « الحق مشكل ، والطريق متعسرة والإختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي . والداعي إلى التعليم متحكم لاحجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك » ؟

وقائل خامس يقول : « لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنني قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وإن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والإسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير ، مستغن فيها عن التقليد ! » .

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلٓهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي . وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لايترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور ، وإذا قيل له : « إن كانت غير صحيحة فلم تصلي ؟» فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد » . وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق » فيقال : « فلم تشرب الخمر ؟» فيقول : « إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك ، وإني أقصد به تشحيذ خاطري » . حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : « إنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً »[1] فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان ، والتزام العبادات ، أن استثنى شرب الخمرة لغرض التشافي ، فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم ، وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب ، ورأيت نفسي مليَّة[2] بكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ، أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء . انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم . فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض

(١) تشافياً : طلباً للشفاء .

(٢) ملية : ألب بالمكان لزمه وأقام به واجتمعوا فيه .

الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ! ثم قلت في نفسي : متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنّى تقاومهم فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر .

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى أن حرَّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لابتحريك من خارج . فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة ، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والإستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، و لم ترخص لنفسك عسر معاناة الخلق والله سبحانه وتعالى يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَايُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[1] ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2] ويقول عز وجل بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يٓس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ .. إلى قوله إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾[3] فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على

(١) العنكبوت الآية [١] .
(٢) الأنعام الآية [٢٤] .
(٣) يس الآية [١١] .

رأس هذه المائة فاستحكم الرجاء . وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مئة[1] ، ويسَّر الله الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربع مئة ، وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، وبلغت العزلة إحدى عشر سنة وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد ، والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و« قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ »[2] وأنا أعلم أني ، وإن رجعت إلى نشر العلم ، فما رجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . أما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأصل إلى مرادي أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأني لم أتحرك ، لكنه حرَّكني ، وإني لم أعمل ، لكنه استعملني ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهدني ثم يهدي بي ، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني

(١) يشير الإمام الغزالي إلى الحديث الشريف « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها » .

رواه أبو داود رقم (٤٢٩٢) والحاكم (٥٢٢/٤) والبيهقي في معرفة السنن والآثار ص٥٢ . ويفهم من سياق الحديث أن الإمام الغزالي يعتقد أنه هو المكلف بهذه المهمة وأنه بعث على رأس المئة الخامسة وهذا ما أجمع العلماء عليه . انظر طبقات الشافعية وللسيوطي أرجوزة في ذلك .

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ورواه أحمد في « المسند » (١٦٨/٢) وروايتهما :

« إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف شاء » .

اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه ، ونعود الآن إلى ما ذكرناه من أسباب ضعف الإيمان بذكر طريق إرشادهم وإنقاذهم من مهالكهم . أما الذين ادَّعوا الحيرة من أهل التعليم فعلاجهم ما ذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره في هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرهما . وإنما قدَّمنا هذه المقدِّمة لأجل ذلك وأننا أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم . ونحن نبيِّن لكل عالم بفن من العلوم — كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه — برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوَّى أوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وإنما هو مؤمن بحكم له طالع مخصوص ، يقتضي طالعه أن يكون متبوعاً ، وليس هذا من النبوة في شيء ، بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات ، فإن لم يجوّز هذا ، فقد أقمنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده . وإن جوَّز هذا ، فقد أثبت أن هنا أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذِّبها ويقضي باستحالتها . فإن وزن دانق من الأفيون سم قاتل لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته والذي يدَّعي علم الطبيعة ، يزعم أنه ما يبرد من المركبات ، إنما يبرد بعنصري الماء والتراب فهما العنصران الباردان . ومعلوم أن أرطالاً من الماء

والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن إلى هذا الحد . فلو أخبر طبيعي بهذا و لم يجرِّبه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالته أن فيه نارية وهوائية والهوائية والنارية لا تزيدها برودة ، فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد ، فإن انضم إليه حاران فبأن لايوجب ذلك أولى » ويقدر هذا برهاناً ! وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلَهيات ، مبني على هذا الجنس ! فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وربما لم يألفوه قدروا استحالته ، ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة ، وادّعى مدَّعٍ ، أنه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : « هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة يوضع في بلدة ، فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى شيئاً من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟» لقال : « هذا محال وهو من الخرافات !» وهذه حالة النار ، ينكرها من لم ير النار إذا سمعها . وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي : « قد اضطررت أن تقول في الأفيون خاصية في التبريد ، ليست على قياس المعقول بالطبيعة . فلم لايجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لايدرك بالحكمة العقلية ، بل لايبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟» قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل :

يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينها . وتضعها تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج . وقد أقروا بإمكان ذلك وأوردوه في « عجائب الخواص » وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوماً مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل أو في عرضه أو على التأريب[1] .

(١) التأريب : القراءة من الزاوية اليمنى العلوية إلى الزاوية اليسرى التحتية أو على العكس .

ب	ط	د	٢	٩	٤
ز	ه	ج	٧	٥	٣
و	ا	ح	٦	١	٨

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ثم لايتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة وسببها اختلاف هذه الأوقات . وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة . والعجب أنّا لو غيّرنا العبارة إلى عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الأوقات ، فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، أو في الطالع أو في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديق ذلك سبب ، إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، لعله جرّب كذبه مئة مرة . ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : « إذا كانت الشمس في وسط السماء ونظر إليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب !» فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم وقد جرّب كذبه مرات !.

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الإعتراف بأنها خواص — معرفتها معجزة لبعض الأنبياء — فكيف ينكر مثل ذلك ، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قطُّ بالكذب ! ولم لايتسع لإمكانه ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات ، ورمي الجمار وعدد أركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً . فإن قال : « وقد جرّبت شيئاً من النجوم

وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ، وهذا لم أجربه به ، فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟ وإن أقررت بإمكانه ؟ فأقول : « إنك لاتقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء فقد جرّبوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك » .

على أني أقول : « وإن لم تجرّبه ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والإتباع قطعاً . فإنّا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل و لم يجرِّب المرض ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك » . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مراً كريه المذاق ، أن يتناول أو يكذّب ؟ ويقول : « أنا لاأعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، و لم أجرِّبه !» فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : « فبم أعرف شفقة النبي ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟» فأقول : وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لاتتمارى فيه » .

ومن نظر في أقوال الرسول ﷺ ، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللين واللطف ، إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجملة إلى ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري ، بأن شفقته ﷺ على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده . وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال ، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه القرآن على لسانه ، وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لايدركه إلا الخواص ، والأمور التي

لايدركها العقل . فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ .

فجرِّب وتأمل القرآن وطالع الأخبار ، تعرف ذلك بالعيان . وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

وأما السبب الرابع – وهو ضعف الإيمان بسبب سيرة العلماء فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدهما : أن نقول : « إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر ، ولحم الخنزير والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله ، لالعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ، فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لايناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين .

وكم من مؤمن بالطب لايصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه ضار « أو على الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا محمل هفوات العلماء » ، والثاني أن يقال للعامي : « ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه . وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له وهو ممكن . فهو وإن ترك العمل ، يدلي بالعلم . وأما أنت أيها العامي ! إذا نظرت إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك » .

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي لايقارف معصية إلا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً . إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سم مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرف ذلك ، لايبيع الخير بما هو أدنى منه . وهذا العلم لايحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لايزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى . وأما العلم

الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لاينفك عنها البشر في الفترات وذلك لايدل على ضعف الإيمان . فالمؤمن مفتن توَّاب وهو بعيد عن الإصرار والإكباب .

هذا ما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما ، لابطريقه .

نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لاينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لايعبد إلا إياه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرست الكتاب

الصفحة


المنقذ
من الضلال


دار الفتح
للطباعة والنشر والتوزيع
الأردن - عمان - العبدلي - هاتف : ٤٦٤٦١٩٩


دار التقوى
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا . دمشق . حلبوني . هاتف ٢٢٤٩١٠٧ - ٠٩٣٢٠٦٠٠٧

بسم ا الر ن الرحيم وبه نستع

ا مد رب العا والصلاة والسلام على أشرف ا رسل سيدنا مد صلى ا عليه وسلم وعلى آله الطي الطاهرين وأصحابه الغر ا ياm الذين لو هذا الدين ووصلوه لنا كما عوه وعقلوه وعلى سادتنا ا لفاء الراشدين أ بكر الصديق وعمر الفاروق أم ا ؤمن وعثمان بن عفان ذي النورين وعلي بن أ طالب أبو ا سن وا س سيد شباب أهل ا نة وزوج بنت رسول ا صلى ا عليه وسلم فاطمة الزهراء رضي ا عنهم ا ع ورضوا عنه.

اما بعد فاعلم ر ك ا وهداك ا الرشد ان هذا الدين قد خدمه العلماء الذين هم ورثة الانبياء كما قال عنهم ا صطفى صلى ا عليه وسلم من حديث أ الدرداء رضي ا عنه فقد سودة الصحف وعُبدة الطرق من كثرة ترحا م طلب العلم وسهرهم الليا تدوينه وترتيبه وتأليفه فجزاهم ا خ ا زاء وهاهي ا كتبات العا الإسلامي وسائر اطراف ا عمورة تشهد م ا سطروه.

ومن فأ موقع الامام ا مام حجة الإسلام أ حامد مد ابن مد ابن مد ابن ا د الغزا الطوسي (ا تو عام س و س مائة من هجرة ا صطفى صلى ا عليه وسلم) ر ه ا قد وضعت خطة للس عليها وهي دم كل من الباحث ودراسي فكره بتقد مؤلفته ودراسات كتبت عنه وليس الغرض من ا وقع إلا مساعدة هذه الطائفة من غ كسب مادي لوجه ا تعا راجياً ر ةُ ومغفرةُ وعفوهُ يوم لا ينفعُ مالاً ولا بن إلا من أتى ا بقلب سليم. وليس الغرض من نشر هذه ا ؤلفات سرقة حق أحد أو حجب رزق عن أحد أو قرصنة حق أو تفريط كل من هذا بل العكس كل العكس فأن معظم ا واد هذا ا وقع نادر الوجود وقد قاسيت اشد ا تاعب وخاطرت بنفسي سبيل اقتناء مؤلف نادر وماقالة كتبت دورية ليس توجد الإ دهاليز ا كتابات ا امعية هنا وهناك. كل هذه ا هود ا بذولة والكلفة ا مولة حالت وجرت نفسي فتأملت حال الطالب ذو ا وارد القليلة الأماكن البعيدة وا له من أن مع هذه ا وارد فجمعتها أولاً صورتا ووضعتها صدقة ن أراد أن يستفيد ليكون على بينة. فأذا كنت صاحب هذه ا ادة ولا تريد نشرها ا وقع فعليك بأبلاغي وسوف أزيلها من ا وقع مع فجوة القلب وكسر ا اطر فيعلم ا أن لا أريد ان اظلم حق احد وغاي هي مرضاة ا وا عون العبد ما دام العبد عون أخيه.

والسلام

مد ابن ا اعيل حزين
مشرف ا وقع والقائم عليه
عنوان ا وقع: (http://www.ghazali.org) بريد ا شرف: (mh@ghazali.org)

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا

بسم الله الرحمن الرحيم

(كتاب قواعد العقائد ، وفيه أربعة فصول)

الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة التى هى أحد مبانى الاسلام فنقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدىء المعيد الفعال لما يريد ذى العرش المجيد والبطش الشديد الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المعرف إياهم أنه فى ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلى لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لا نهاية له قيوم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم. التنزيه: وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكين والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قربا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شىء شهيد إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس فى ذاته سواه ولا فى سواه ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار وإتماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم . الحياة والقدرة : وأنه تعالى حى قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون فى قبضته وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالايجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته. العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بل

ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده وسعى من أجله بشكوكه العارضة له فيسمى موحدا لأنه عارف به يقال جدلى ونحوى وفقيه ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو . وأما من استغرق علم التوحيد قلبه واستولى على جملته حتى لا يجد فيه فضلا لغيره إلا على طريق التبعية له ويكون شهود التوحيد لكل ماعداه سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالعادة فى سائر العلوم فهذا يسمى موحدا ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه . فأما الصنف الأول وهم أرباب النطق المفرد فلا يضربون فى التوحيد بسهم ولا يفوزون منه بنصيب ولا يكون لهم شىء من أحكام أهله فى الحياة إلا مادام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق للسانه كما يفرد القول

يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر فى جو الهواء ويعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال . الارادة : وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوة على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها مريدا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن . السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام يرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق. الكلام: وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق وأن موسى ﷺ سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرض وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والارادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات. الأفعال: وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فكل ماسواه من إنس وجن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان فى الأزل موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق فى الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطول بالانعام والاصلاح لا عن لزوم فله الفضل والاحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده

فوجب

عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجل . وأما الصنف الثانى وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ يخبر عن توحيد الله عز وجل أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله الله للنبىء عنه فقبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل فنسبوا إلى التوحيد وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذى هو منهم وبمنزلة من كثر سواد قوم فهو منهم . وأما الصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها فرأوا على كل منها خطا منطبعا فيها ليس بعربى ولا سريانى ولا عبرانى ولا غير ذلك من أجناس الخطوط فبادر إلى قراءة من لم يستعجم عليه وتعلمه منهم من استعجم عليه فاذا هو الخط الإلهى المكتوب على صفحة

فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به . معنى الكلمة الثانية : وهى الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبى الأمى القرشى محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والانس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ماقرره منها وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلا الله مالم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك محمد رسول الله وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة وأنه لايتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد فى قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك (١) وهما فتانا القبر (٢) وسؤالهما أول فتنة بعد الموت (٣) وأن يؤمن بعذاب القبر (٤) وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على مايشاء ، وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقا لتمام العدل وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله (٥) وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوى بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار (٦) وأن يؤمن بالحوض للورود

---

(١) حديث سؤال منكر ونكير الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أبى هريرة إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير وفى الصحيحين من حديث أنس إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه الحديث (٢) حديث إنهما فتانا القبر أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتانى القبر فقال عمر أترد علينا عقولنا الحديث (٣) حديث إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت لم أجده (٤) حديث عذاب القبر أخرجاه من حديث عائشة إنكم تفتنون أو تعذبون فى قبوركم الحديث ولهما من حديث أبى هريرة وعائشة استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر (٥) حديث الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طباق السموات والأرض البيهقى فى البعث من حديث عمر قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان الحديث وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأبى داود من حديث عائشة أما فى ثلاثة مواطن لايذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل زاد ابن مردويه فى تفسيره قالت عائشة أى حى قد علمنا الموازين هى الكفتان فيوضع فى هذه الشئ ويوضع فى هذه الشئ فترجح إحداهما وتخف الأخرى والترمذى وحسنه من حديث أنس واطلبنى عند الميزان ومن حديث عبد الله بن عمر فى حديث البطاقة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة الحديث وروى ابن شاهين فى كتاب السنة عن ابن عباس كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها (٦) حديث الايمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر الشيخان من حديث أبى هريرة ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم ولهما من حديث أبى سعيد ثم يضرب الجسر على جهنم زاد مسلم قال أبو سعيد إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقى فى الشعب والبعث من حديث أنس وضعفه وفى البعث من رواية عبيد بن عمير مرسلا ومن قول ابن مسعود الصراط كحد السيف وفى آخر الحديث مايدل على أنه مرفوع .

كل مخلوق النطبع فيه من مركب ومفرد وصفة وموصوف وحى وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن ومظلم ونير وهو الذى يسمى تارة بعلامة وتارة بسمة وتارة بأثر القدرة وتارة بآية كما قال الشاعر ولا أدرى عن سماع أو رؤية قلب : وفى كل شئ له آية تدل على أنه واحد فلو قرءوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه وشرحه أبدية مالكه والتصريف له بالقدرة على حكم الارادة بما سبق فى ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير فتركوا الكتابة والمكتوب وترقوا إلى معرفة الكاتب الذى أحدث الأشياء وكونها ولايخرج عن ملكه شئ منها ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ولا انتقلت إلى الحرية عن رق استعباده فوجدوه كما وصف نفسه - ليس كمثله شئ وهو السميع البصير - فخلصت لهم

حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط (١) من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدآ عرضه مسيرة شهر ماؤه أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء (٢) فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر (٣) وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش فى الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقرّبون فيسأل الله تعالى (٤) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين (٥) ويسأل المبتدعة عن السنة (٦) ويسأل المسلمين عن الأعمال (٧) وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد

(١) حديث الايمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون مسلم من حديث أنس فى نزول ــ إنا أعطيناك الكوثر ــ هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب وسهل بن سعد أنا فرطكم على الحوض ومن حديث ابن عمر أماما لكم حوض كما بين جرباء وأذرح . وقال الطبرانى كما بينكم وبين جرباء وأذرح وهو الصواب وذكر الحوض فى الصحيح من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبى ذر وجابر بن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء (٢) حديث من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء من حديث عبد الله بن عمرو ولهما من حديث أنس فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء وفى رواية لمسلم أكثر من عدد نجوم السماء (٣) حديث فيه ميزابان يصبان من الكوثر مسلم من حديث ثوبان يغتّ فيه ميزابان يمدّانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق (٤) حديث الايمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش فى الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب البيهقى فى البعث من حديث عمر فقال يا رسول الله ما الايمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله الحديث وهو عند مسلم دون ذكر الحساب وللشيخين من حديث عائشة من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى ــ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ــ قال ذلك العرض ولهما من حديث ابن عباس عرضت علىّ الأمم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب . ولمسلم من حديث أبى هريرة وعمران بن حصين يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب زاد البيهقى فى البعث من حديث عمرو بن حزم وأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر بعده هذه الزيادة فقال فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى هكذا وفرج عبد الرحمن بن أبى بكر بين يديه الحديث (٥) حديث سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين . البخارى من حديث أبى سعيد يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته الحديث . ولابن ماجه يجيء النبى يوم القيامة الحديث وفيه فيقال هل بلغت قومك الحديث (٦) حديث سؤال المبتدعة عن السنة ابن ماجه من حديث عائشة من تكلم بشىء من القدر سئل عنه يوم القيامة . ومن حديث أبى هريرة مامن داع يدعو إلى شىء إلا وقف يوم القيامة لازما لدعوة مادعا إليه وإن دعا رجل رجلا وإسنادهما ضعيف (٧) حديث سؤال المسلمين عن الأعمال أصحاب السنن من حديث أبى هريرة إنّ أول مايحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته الحديث وسيأتى فى الصلاة .

التفرقة والجمع وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها باذنه وإيجاده عن غيره وعقلت أنها علقت توحيده فسبحان من يسرها لذلك وفتح عليها بما ليس فى وسعها أن تدركه إلا بهو هو اللطيف الخبير لكن الصنف الثالث لم يقصر كل منهم أن يعرف نفسه موجدا لديه فيما لايزال وهم المقرّبون والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل وهم الصدّيقون وبينهما تفاوت كثير . وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم فلأن العقلاء بأسرهم لايخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده فأما من عدمت عنده فهو كافر إن كان فى زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول علمها إليه أو فى فترة يتوجه عليه فيها التكليف وهذا صنف مبعد عن مقام هذا

في النار موحد[(١)] وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجلّ فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان[(٢)] وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم[(٣)] وأن يحسن الظنّ بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله عز وجلّ ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين[(٤)] فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

الفصل الثاني في وجه التدريج إلى الارشاد وترتيب درجات الاعتقاد . اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان فمن فضل الله سبحانه على قلب الانسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرّد والتقليد المحض نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقي إليه فلابد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار

---

(١) حديث إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله الحديث (٢) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء وقد تقدم في العلم وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدري من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه وفي رواية من خير وفيه فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط الحديث (٣) حديث أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي البخاري من حديث ابن عمر قال كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ولأبي داود كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم زاد الطبراني ويسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينكره (٤) حديث إحسان الظنّ بجميع الصحابة والثناء عليهم الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي وللشيخين من حديث أبي سعيد لاتسبوا أصحابي . وللطبراني من حديث ابن مسعود إذا ذكر أصحابي فأمسكوا.

الكلام وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا في عقده أو عالما به والمقلدون هم العوام وهم أهل المرتبة الثانية في الكتاب فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصنفه دون النبوّة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ فالذي لم يبلغ وكان على قرب هم المقرّبون وهم أهل المرتبة الثالثة والذين بلغوا الغاية التي أعدّت لهم وهم الصديقون وهم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والاثبات ومحصور بين المبادي والغايات ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليسَ هم من أهله إلا بانتساب كاذب ودعوى غير صافية ثم لابدّ من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث مزيد شرح وبسط بيان تعرف منه ما أذن الله حقيقة

العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم فى الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كالقاء بذر فى الصدر وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فان ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده ومايفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهى ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانا فناهيك بالعيان برهانا فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامى فى الثبات كالطود الشامخ لاتحركه الدواهى والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليدا كما تلقف نفس الاعتقاد تقليدا إذ لافرق فى التقليد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شىء والاستدلال بالنظر شىء آخر بعيد عنه ثم الصبى إذا وقع نشوء على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال ـ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ـ وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصديقين والمقربين وإليه الإشارة بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث فضل به الخلق وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفى الاستضاءة بنور اليقين وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة وكما لاتنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه . مسئلة : فان قلت تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه فاعلم أن الناس فى هذا غلوا وإسرافا فى أطراف فمن قائل إنه بدعة وحرام وإن العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فانه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعى رضى الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمى المعتزلة يقول لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ماخلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما لاأقدر أن أحكيه وقال أيضا قد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام . وحكى الكرابيسى أن الشافعى رضى الله عنه سئل عن شىء من الكلام فغضب وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله ولما مرض الشافعى رضى الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له من أنا فقال حفص الفرد لاحفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه وقال أيضا لوعلم الناس مافى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أوغير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولادين له قال الزعفرانى قال الشافعى حكمى فى أصحاب

الكلام

كل مرتبة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجريه الواحد الحق على القلب واللسان

(بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم)

فأقول أرباب النطق المجرد أربعة أصناف أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لم يعتقدوا معنى مانطقوا به لما لم يعلموه لا يتصورون صحته ولا فساده ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأه ولا صوابه إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه إما لبعد همتهم وقلة اكتراثهم وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به أو يبدو لهم مايلزمهم من الاعتقاد والعمل وما بعد ذلك فان التزموها فارقوا راحات أبدانهم العاجلة وفراغ أنفسهم وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدرة من خوف

الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام وقال أحمد بن حنبل لا يفلح صاحب الكلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً فى الرد على المبتدعة وقال له ويحك ألست تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث. وقال أحمد رحمه الله علماء الكلام زنادقة وقال مالك رحمه الله أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت وقال مالك رحمه الله أيضاً لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء فقال بعض أصحابه فى تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا وقال أبو يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق وقال الحسن لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون[1]» أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستنجاء [2] ، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم[3] ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال أمسكوا [4] عن القدر، وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم وهم الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التى لم تعهدها الصحابة رضى الله عنهم فالأمر فيه قريب إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التى تورد على القياس لما كانوا يفقهونه فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها فى مباح وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعنى به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء فى الشرع فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً وقد قال الله تعالى ـ قل هاتوا برهانكم ـ وقال عز وجل ـ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ـ وقال تعالى ـ قل هل عندكم من سلطان بهذا ـ أى حجة وبرهان وقال تعالى ـ قل فلله الحجة البالغة ـ وقال تعالى ـ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ـ إلى قوله ـ فبهت الذى كفر ـ إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه فى معرض الثناء عليه وقال عز وجل ـ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ـ وقال تعالى ـ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ـ وقال تعالى فى قصة فرعون ـ وما رب العالمين . إلى قوله ـ أولو

(١) حديث هلك المتنطعون مسلم من حديث ابن مسعود (٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء مسلم من حديث سلمان الفارسى (٣) حديث ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم ابن ماجه من حديث أبى هريرة تعلموا الفرائض وعلموها الناس الحديث والترمذى من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت (٤) حديث نهاهم عن الكلام فى القدر وقال أمسكوا . تقدم فى العلم .

عقاب ترك ما علموا لزومه ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب أو يعرض عليه ولكنه ينهى عنه مخافة أن يتطلع منه على ما يغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة والأشربة والأنكحة أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها أو يرتكبها على رقيه وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها فيدع قراءة الطب رأساً . ومثل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به هل اعتقدوه فيقولون لا نعلم فيه ما يعتقد وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير والانخراط بإظهار القول فى الجم الغفير ولا نعرف هل ما قلناه بالحقيقة من قبيل العرف والنكير ولا شك أن هذا الصنف الذى أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسئلة الملكين أحدهم فى القبر إذ يقولان من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون قولا فقلته

جئتك بشيء مبين ـ وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى ـ لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ وفي النبوة ـ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ـ وفي البعث ـ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ـ إلى غير ذلك من الآيات والأدلة ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى ـ وجادلهم بالتي هي أحسن ـ فالصحابة رضي الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلمهم فقال ما تنقمون على إمامكم قالوا قاتل ولم يسب ولم يغنم فقال ذلك في قتال الكفار أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب فقالوا لا فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان وروى أن الحسن ناظر قدريا فرجع عن القدر وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية وناظر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يزيد ابن عميرة في الإيمان قال عبد الله لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة فقال له يزيد بن عميرة يا صاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة فقال ابن مسعود صدقت والله إنها مني زلة فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة فيقال أما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور إما ادخارا ليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تشحيذا للخواطر فنحن أيضا نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين . فإن قلت فما المختار عندك فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعني بقولي لذاته أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار والبيع وقت النداء وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور وكأكل الطين وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال فإن تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنعود إلى علم الكلام ونقول إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل

مشكوك

فيقولان » لا دريت ولا تليت وسماه النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب والصنف الثاني نطق كما نطق الذين من قبلهم ولكنهم أضافوا إلى قولهم ما لا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد وذلك مثل ما قالت السبابية طائفة من الشيعة القدماء ان عليا هو الإله وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه وكانوا في زمنه فحرق منهم جماعة وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة وقد روينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة » . والصنف الثالث نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الردة واستنبطوا خلاف ما ظهر منهم من الإقرار وإذا رجعوا إلى أهل

مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد الحق وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العامي يمكن أن يزول اعتقاده باللطف في أسرع زمان إلا إذا كان نشؤه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الندور في أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسدا ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا في موضعه وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة.

وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالاصلاح وأما العامي المعتقد للبدعة فينبغي أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين إذ العامي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرون على دفعه فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عامي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويتربص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سببا لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت

الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . الصنف الرابع قوم لم يعرفوا التوحيد وما نشأوا عليه ولا عرفوا أهله ولا سكنوا بين أظهرهم ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خوطبوا بالأمر المقتضي للنطق بالشهادتين والاقرار بهما فقالوا لا نعلم مقتضى هذا اللفظ ولا نعقل معنى المأمور به من النطق فأمروا أن يظهروا الرضا وفهموا بلا مهلة فسكنوا إلى ما قيل لهم ونطقوا بالشهادتين ظاهرا وهم على الجهل بما يعتقدون فيها فاخترم أحدهم من حينه من قبل أن يأتي منه استفهام أو تصور يمكن أن يكون له معه معتقد

إليهم وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فان كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت فى نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذى ذكرناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد وهو قدر خمسين ورقة وليس فيه خروج عن النظر فى قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين فان أقنعه ذلك كفّ عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالبا والمرض ساريا فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ماقدر له فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه فأما الخارج منه فقسمان أحدهما بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الادراكات وعن الخوض فى الرؤية هل لها ضدّ يسمى المنع أو العمى وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترّهات المضلات والقسم الثانى زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضا استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا فى حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضا . ولو قال قائل البحث عن حكم الادراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضا وذلك هوس فانّ الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التى يذم فيها والحال التى يحمد فيها والشخص الذى ينتفع به والشخص الذى لا ينتفع به .

فان قلت مهما اعترفت بالحاجة إليه فى دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما ومالم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم ولو ترك بالكلية لاندرس وليس فى مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم يتعلم فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضا من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فان الحاجة ما كانت ماسة إليه فاعلم أن الحق أنه لا بد فى كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل بدفع شبه المبتدعة التى ثارت فى تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فان هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر فالعالم ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال إحداها التجرد للعلم والحرص عليه فان المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية الذكاء والفطنة والفصاحة فان البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه . الثالثة أن يكون فى طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه فان الفاسق بأدنى شبهة ينخلع عن الدين فان ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السدّ الذى بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه

وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة فى الكلام إنما هى من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة فى القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل فى التقسيمات والتدقيقات التى لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس فاذا قابله مثله فى الصنعة قاومه، وعرفت أن الشافعى وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذى نبهنا عليه وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناظرة الخوارج

فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عزّ وجل والحكم عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار تحكم على غيب الله سبحانه وربما كان من هذا الصنف فى الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا إلى النطق فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ثم يدعوا إلى تفهم المعنى بكل وجه فلا يتأتى منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه كأنما تخاطب بهيمة ومثل هذا أيضا فى الوجود كثير ولا أحكم على أحد مثله بخلود فى النار ولا بعد أن هذا الصنف بأسره أعنى المخترم قبل تحصيله العقد مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول تعالى: فرغت شفاعة الملائكة والنبيين وبقيت شفاعتى . وهو أرحم الراحمين فيخرج

وما

وما نقل عن عليّ رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال ، نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والاقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله عز وجلّ تفيض على من يتعرّض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله [مسئلة] فإن قلت هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلي يبدو أولا وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسرّ الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسرّ وعلن بل الظاهر والباطن والسرّ والعلن واحد فيه فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئا وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترقّ إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظاهرا وباطنا وحدا ومطلعا [1] » وقال عليّ رضي الله عنه وأشار إلى صدره إن ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم [2] » وقال صلى الله عليه وسلم « ماحدّث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم [3] » وقال الله تعالى ـ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ـ وقال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العالمون بالله تعالى [4] » الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا [5] » فليت شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر فلم لم يذكره لهم ولاشك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل ـ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهنّ ـ لو ذكرت تفسيره لرجمتوني وفي لفظ آخر لقلتم إنه كافر . وقال أبو هريرة رضي الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم « مافضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر في صدره [6] » رضي الله عنه ولاشك في أن ذلك السرّ كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره وقال سهل التستري رضي الله عنه للعالم ثلاثة علوم علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر وقال بعضهم للربوبية سرّ لو ظهر لبطلت النبوة وللنبوة سرّ لو كشف لبطل العلم وللعلماء بالله سرّ لو أظهروه

من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكون في أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجلّ والحديث يطول وهو صحيح وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى وحكم الصنف الأول والثاني والثالث أجمعين أن لا يجب لهم حرمة ولا يكون لهم عصمة ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين فإن عثر عليهم في الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

[فصل] ولما كان اللفظ المنبئ عن التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به في حكم الشرع منفعة ولا لصاحبه بسببه نجاة إلا مدة حياته عن السيف أن يراق دمه واليد أن تسلط على ماله

(١) حديث إن للقرآن ظاهرا وباطنا الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢) حديث نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم الحديث تقدم في العلم (٣) حديث ماحدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم الحديث تقدم في العلم (٤) حديث إن من العلم كهيئة المكنون الحديث تقدم في العلم (٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجاه من حديث عائشة وأنس (٦) حديث مافضلكم أبو بكر بكثرة صيام الحديث تقدم في العلم .

إذا لم يعلم خفي حاله حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع في البيوت ولا يحضر في المجالس أي مجالس الطعام ولا تشتهيه النفوس إلا مادام منطويا على طعمه صونا على لبه فاذا أزيل عنه بكسر أوعلم منه أنه منطو على فراغ أوسوس أو طعمه فاسد لم يصلح لشيء ولم يبق فيه غرض لأحد وهذا لاخفاء في صحته والغرض بالتمثيل تقريب ماغمض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه وليس من شرط المثال أن يطابق المثل به من كل وجه فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقا للواحد المراد منه .

[فصل] فان قلت فما الذي صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر والبحث حتى تعلموا أوهن الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله

لبطلت الأحكام وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليـ
بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه وملاك الورع النبـ
[مسئلة] فان قلت هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظا
والباطن فان الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال الشرع وهو قول من قال إن الحقيقة خلا
الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقـ
ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحدا . فا
أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما وينجر إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة و
غرض هذه الكتب فان العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقيها بالقبول والتصد
بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فان ذلك لم يكلف به كافة الخلق ولولا
من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في الشـ
الأول من الكتاب وإنما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا انجر الكلام
تحريك خيال في مناقضة الظاهر للباطن فلابد من كلام وجيز في حله فمن قال إن الحقيقة تخالف الشر
أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التي يختص بها المقربو
بدركها ولا يشاركهم الأكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام : القـ
الأول أن يكون الشيء في نفسه دقيقا تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعلـ
أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك وإخفاء سر الر
وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه[1] من هذا القسم فان حقيقته مما تكل الأفهام
دركه وتقصر الأوهام عن تصور كنهه ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلى الله عليه و
فان من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه ولا يـ
أن يكون ذلك مكشوفا لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بآداب الشـ
فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه
يذكر رسول الله ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع منا
توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بنـ
مقايسة ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه بل لذة الجماع
ذكرت للصبي أو العنين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما
التحقيق والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجـ
والأكل . وبالجملة فلا يدرك الانسان إلا نفسه وصفات نفسه مما هي حاضرة له في الحال أو مما كانت له
قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا في الشرف والكمال فليس في قوة البـ
إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصد
بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به
الجلال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[2] » ولـ

(١) حديث كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح الشيخان من حديث ابن مسـ حين سأله اليهود عن الروح قال فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا الحد

(٢) حديث لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده .

المعنى أنى أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله ولذلك قال بعضهم ماعرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل وقال الصديق رضى الله عنه الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله تعالى ولعل الاشارة إلى مثله فى قوله صلى الله عليه وسلم « إن لله سبحانه سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره [1] » القسم الثانى من الخفيات التى تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ماهو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين وسر القدر الذى منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجعل وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق فى نفسه وقد أضر سماعه بقوم إذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم وقد ألحد ابن الراوندى وطائفة من المخذولين بمثل ذلك وكذلك سر القدر لو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا إذ تقصر أفهامهم عن إدراك مايزيل ذلك الوهم عنهم ولو قال قائل إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ولعلها كانت قريبة فى علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم .
القسم الثالث : أن يكون الشىء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب وله مصلحة فى أن يعظم وقع ذلك الأمر فى قلبه كما لو قال قائل رأيت فلانا يقلد الدر فى أعناق الخنازير فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الانسان لم يكن معه در ولا كان فى موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس فى ذلك ومن هذا قال الشاعر:

رجلان خياط وآخر حائك ... متقابلان على السماك الأعزل
لازال ينسج ذاك خرقة مدبر ... ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فانه عبر عن سبب سماوى فى الاقبال والادبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التى تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجلدة على النار [2] » وأنت ترى أن ساحة المسجد لاتنقبض بالنخامة ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء

(١) حديث إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور وإسناده ضعيف . وفيه أيضا من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك قال إن بينى وبينه سبعين حجابا من نور ، وفى الأكبر للطبرانى من حديث سهل بن سعد دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة ولمسلم من حديث أبى موسى حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ولابن ماجه شىء أدركه بصره .
(٢) حديث إن المسجد لينزوى من النخامة الحديث لم أجد له أصلا .

وهم فى الظاهر قادرون على ذلك وما المانع الحق الذى منعهم وأبعدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم مشقة فاعلم أن هذا السؤال يفتح بابا عظيما ويهز قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من القصد ولكن لابد إذا وقع فى الأسماع ووعته قلوب الطالبين واشتاقت إلى سماع الجواب عنه أن نورد فى ذلك قدر مايقع به الكفاية وتقنع به النفوس بحول الله وقوته، نعم ماسبق فى العلم القديم لاتجرى بخلافه المقادير فهم من ذلك بارادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية والشيم الدنايية والطباع السبعية وغلبتها عليهم والملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب كذلك قال عليه الصلاة والسلام والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده وأعدها لأن

الجلدة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه رأس حمار [1] » وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة والحمق ومن رفع رأسه قبل الامام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فانهما متناقضان وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلي أو شرعي أما العقلي فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن [2] » إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين فلم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية عن القدرة التي هي سر الأصابع وروحها الخفي وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا في تفهيم تمام الاقتدار ومن هذا القبيل في كنايته عن الاقتدار قوله تعالى - إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون - فان ظاهره ممتنع إذ قوله كن إن كان خطابا للشيء قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها . وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى - أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها - الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هي القلوب وأن بعضها احتملت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل والزبد مثل الكفر والنفاق فانه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فانه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث ، وفي هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر . القسم الرابع : أن يدرك الانسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب والأول كالظاهر والثاني كالباطن وذلك كما يتمثل للانسان في عينه شخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ولا يكون الأخير ضد الأول بل له استكمال له فكذلك العلم والايمان والتصديق إذ قد يصدق الانسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع بل للانسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة الأول تصديقه بوجوده قبل وقوعه والثاني عند وقوعه والثالث عند تصرمه فان تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقق به قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالاضافة إلى ما قبل ذلك ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها ففي هذه الأقسام الأربعة تفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام. القسم الخامس : أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتد لم تشقني قال سل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال، ومن هذا قوله تعالى - ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين - فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لهما حياة وعقلا وفهما للخطاب وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف

(١) حديث أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الامام الحديث أخرجاه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن مسلم من حديث عبد الله بن عمرو .

تكون خذائن علمه ومشارق مكنوناته ومهبط ملائكته ومغاني أنواره ومهاب نفحاته ومجال مكاشفاته ومجاري رحمته وهيأها لتحصيل المعرفة به فمتى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله إذ هي الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والموصلون إليه وعنه بالباقيات الصالحات ولولا تلك الأخلاق المذمومة التي حلت فيهم وهي التي ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها وهي لا تخلو من خير تنزل به ويكون معها خبيثا حلت حل الخير في ذلك القلب بحلولها وإنما هي لما خبثها وجدت قلب خاليا ولو حينا من الدهر وزمنا نزلت عليه ودخلته وثبتت ما عندها من الخير عنده فان لم يظهر على الملائكة ما زعجها عنه

بحرف وصوت وتقولان أتينا طائعين والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين إلى التسخير ومن هذا قوله تعالى ـ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ـ فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحان الله ليتحقق تسبيحه والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدسا بذاته وشاهدا بوحدانية الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وكما يقال هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده في أطواره فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر ولذلك قال تعالى ـ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ـ وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى ـ وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ـ وقوله تعالى ـ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ـ وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير وفي الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم ـ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ـ زعموا أن ذلك كله بلسان الحال وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه حتى منع تأويل قوله ـ كن فيكون ـ وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل مكوَّن حتى سمعت بعض أصحابه يقول إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله في أرضه(١) » وقوله ﷺ « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله صلى الله عليه وسلم « إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن(٢) » ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر والظن بأحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والنزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسما للباب ورعاية لصلاح الخلق فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزجر وتشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون أمروها كما جاءت حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء، الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سميعا بصيرا وأولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة ولكن أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ

(١) حديث الحجر يمين الله في الأرض الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر (٢) حديث إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه وأجد نفس ربكم من قبل اليمن ورجاله ثقات .

من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة ثبتت عنده وسكنت فيه ولم تبرح عنه وعمرته بقدر سعة البيت وانشراحه من الخير فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها واستعانت بغيرها حتى يمتلئ البيت من متاعها وجهازها وهو الإيمان بالله والصلاح وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك ويثبت فيه خلقا مذموما لا يوجد إلا في الكلب وهو متاع الشيطان قاتله الله وطرده عن ذلك المحل فإن جاء الشيطان بمدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك نصره وهو عزم اليقين من قبل الروح انهزم الملك وأخلى البيت ونهب المتاع وخرب البيت بعد عمارته وأظلم بعد نوره وضاق بعد

المحسوسة وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويذيب الشحوم ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ماورد فى الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لايدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لايطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهى لا بالسماع ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ماهى عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ماشاهدوه بنور اليقين قرروه وماخالف أولوه فأمامن يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلايستقر له فيها قدم ولايتعين له موقف والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد فى هذه الأمور داخل فى علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التى حررناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك فى الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى فى الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق فلنورد فى هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ماحررناه لأهل القدس وسميناه الرسالة القدسية فى قواعد العقائد وهى مودعة فى هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب .

الفصل الثالث : من كتاب قواعد العقائد فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس فنقول : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم للتأسى بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين فجمعوا بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول وعرفوا أن كلتى الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهى أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول . الركن الأول فى معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول وهى العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقرا على مكان وأنه يرى وأنه واحد . الركن الثانى فى صفاته ويشتمل على عشرة أصول وهو العلم بكونه حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما منزها عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة . الركن الثالث فى أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول وهى أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأن له تعالى تكليف مالا يطاق وأن له إيلام البرىء ولا يجب عليه رعاية الأصلح وأنه لا واجب إلا بالشرع وأن بعثة الأنبياء جائزة وأن نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات . الركن الرابع فى السمعيات ومداره على عشرة أصول وهى إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الأول من أركان الإيمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار

انشراحه وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى وضل واهتدى فإن قلت : فميز لى أصناف هذه الأخلاق المذمومة التى صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معانى التوحيد ومنعهم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها فاعلم أن الأخلاق التى لايجتمع معها الملائكة فى قلب واحد كثيرة والتى فى قلوب هؤلاء منها معظمها وهى الطمع فى غير خطير والحرص على فان حقير . وأما الصنف الأول فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة ما يشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم مارغبوا فيه من راحاتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم فأبقوا أمرهم على ماهم عليه . وأما الصنف الثانى والثالث فصدهم أيضا خوف وجزع وحرص على ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول

ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ـ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ـ وقال تعالى ـ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس ؟ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ـ وقال تعالى ـ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ـ وقال تعالى ـ أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ـ إلى قوله ـ للمقوين ـ فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره ولذلك قال الله تعالى ـ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ـ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا لا إله إلا الله وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله فان ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدإ نشوهم وفي عنفوان شبابهم ولذلك قال عز وجل ـ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ـ وقال تعالى ـ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ـ فإذن في فطرة الانسان وشواهد القرآن ما يغنى عن إقامة البرهان ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول من بداهة العقول أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه والعالم حادث فإذن لا يستغنى في حدوثه عن سبب أما قولنا إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب فجلى فان كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره. فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص وأما قولنا العالم حادث فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى : الأولى قولنا إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار فان من عقل جسما لا ساكنا ولا متحركا كان لمتن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبا . الثانية قولنا إنهما حادثان ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارئ منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه على ما سيأتى بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس . الثالثة قولنا ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهى النوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لا نهاية له محال ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترا أو شفعا ووترا جميعا أو لا شفعا ولا وترا ومحال أن تكون شفعا ووترا جميعا أو لا شفعا ولا وترا فان ذلك جمع بين النفي والاثبات إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر ومحال أن يكون شفعا لأن الشفع يصير وترا بزيادة واحد وكيف يعوز ما لا نهاية له واحد ومحال أن يكون وترا إذ الوتر يصير شفعا بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها ومحال أن يكون لا شفعا ولا وترا إذ له نهاية فتحصل من

ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ومواساة إيلافهم أن تنقطع واستثقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفرارا من شرائطه وما يصحبه من الأعمال والوظائف إذ يمتلوه والكلب ما ذم لصورته وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الخسائس والجزع من الصبر على ما بعده من الفضائل حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب فان قلت فكيف آمن من كفر وأطاع من عصى واهتدى من ضل إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابحة وذئاب عادية وسباع ضارية وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهي لا تدخل موضعا يحل فيه شيء مما ذكرنا وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فلم

هذا أن العالم لا يخلو عن الحودث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة. الأصل الثاني: العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحي. وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضا إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذي سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه. الأصل الثالث: العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ولو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده فان كان الضد للمعدم حادثا كان محالا إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته للحادث حتى يدفع وجوده بل الدفع أهون من القطع والقديم أقوى وأولى من الحادث. الأصل الرابع: العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم فان سماه مسم جوهرا ولم يرد به المتحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى. الأصل الخامس: العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر وإذا بطل كونه جوهرا مخصوصا بحيز بطل كونه جسما لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام فان تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطا في الاسم مع الاصابة في نفي معنى الجسم. الأصل السادس: العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل لأن العرض ما يحل في الجسم فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكون محدثه موجودا قبله فكيف يكون حالا في الجسم وقد كان موجودا في الأزل وحده وما معه غيره ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ولأنه عالم قادر مريد خالق كما سيأتي بيانه وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فاذن لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء بل هو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور مقدره والمصور مصوره والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته. الأصل السابع: العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات فان الجهة إما فوق وإما أسفل وإما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الانسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا والآخر يقابله ويسمى رأسا فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس واسم السفل لما يلي جهة الرجل حتى إن النملة التي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتا وإن كان في حقنا فوقا وخلق للانسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى في الغالب فحدث اسم

اليمين

هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الايمان على هذا المفهوم. فاعلم أن هذا يستدعي أصنافا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام للعلوم والقول والمعنى في جواب ما سألت عنه ان للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عدمات كما أن للملائكة لما عن القلوب غيبات ولتواتر الخير عليها فترات فاذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ولو زمنا ما فر ودخل فيه وأراه ما عنده من الخير فان صادف منه قبولا ولما عرض عليه من الخير تشوقا ونزوعا أورد عليه ما يملأ ويستغرق له وإن صادف منه صحوا وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة بالأخلاق الكلابية استغاثة رحل عنه وتركه ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملك أو نزغة شيطان. فان قلت: فأي بيت فهم

اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التي تلي اليمين يمينا والأخرى شمالا وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك إليه فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها فالجهات حادثة بحدوث الانسان ولو لم يخلق الانسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة فكيف كان في الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة أوكيف صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له أبأن خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس أوخلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل وكل ذلك مما يستحيل في العقل ولأن المعقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر أومختص بالجواهر اختصاص العرض وقد ظهر استحالة كونه جوهرا أو عرضا فاستحال كونه مختصا بالجهة وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا في الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له وهو محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أوأصغر منه أوأكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء وفيه أيضا إشارة إلى ماهو وصف المدعو من الجلال والكبرياء تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فانه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء . الأصل الثامن . العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذي لاينافي وصف الكبرياء ولايتطرق إليه سمات الحدوث والفناء وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن ـ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ـ وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى ـ وهومعكم أينما كنتم ـ إذحمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » على القدرة والقهر وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله في أرضه » على التشريف والإكرام لأنه لوترك على ظاهره للزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسما مماسا للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال ومايؤدي إلى المحال فهو محال . الأصل التاسع : العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ـ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ـ ولا يرى في الدنيا تصديقا لقوله عز وجل ـ لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ـ ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام ـ لن تراني ـ وليت شعري كيف عرف المعتزلي من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ولعل الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غيرمؤد إلى المحال فان الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم فاذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك. الأصل العاشر : العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فرد لاند له انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والاختراع لامثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناويه وبرهانه قوله تعالى ـ لوكان

عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب وأي كلب أذهل بيت القلب كلب الخلق أو بيت اللبن وكلب الحيوان فاعلم أن الحديث خارج على سبب ومعناه وجملته أن المقصود بالإخبار هو بيت اللبن وكلب الحيوان معلوم ولا يبتك في ذلك ولكن يستقرأ منه ماقلناه ويستنبط من مفهومه مانبهناك عليه ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ولا تنكر في ذلك إذ دل عليه العلم وجملة الاستنباط ولم تمجه القلوب المستضاءة ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة فلا تكن جاحدا ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى ما في معناه ومشابه له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « رب مبلغ أوعى من سامع وحامل

فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ـ وبيانه أنه لوكانا اثنين وأراد أحدهما أمرا فالثانى إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن إلهـا قادرا وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثانى قويا قاهرا والأول ضعيفا قاصرا ولم يكن إلهـا قادرا .

(الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول)

الأصـل الأول : العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله ـ وهو على كل شىء قدير ـ صادق لأن العالم محكم فى صنعته مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان منخلعا عن غريزة العقل ومنخرطا فى سلك أهل الغباوة والجهل . الأصل الثانى : العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات ـ لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ـ صادق فى قوله ـ وهو بكل شىء عليم ـ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى ـ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ـ أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب فى دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشىء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف . الأصل الثالث : العلم بكونه عز وجلّ حيا فان من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس فى غمرة الجهالات والضلالات . الأصل الرابع : العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدئ المعيد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضـده وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين ولو أغنى العلم عن الإرادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد فى الوقت الذى سبق العلم بوجوده لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه . الأصل الخامس : العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء وكيف لا يكون سميعا بصيرا والسمع والبصر كمال لا محالة وليس بنقص فـكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتمّ من الصانع وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والـكمال فى خلقه وصنعته أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له ـ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ـ ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله تعالى ـ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ـ وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما . الأصل السادس : أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غـيره والـكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدلّ عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم :

إن الـكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول لسانى حادث ولـكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم

فاقطع

فقه إلى من هو أفقه منه» سؤال : فان قلت فقد قال النبى صلى الله عليه وسـلم « لا تدخل الملائـكة بيتا فيه صورة » وعلم السبب الذى جاء هذا الحديث عليه وفيه فهل يعدى عن سببه ويترقى منه إلى مثل ما ترقى من الحديث الآخر فهذا كما قيل الحديث شجون وأتبعنا هـذا الباب ما يقرب منـه ويعد علينا التخلص عنه نعم يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ويكون هـذا الحديث منبها عليه وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة وعبدت من دون الله عز وجلّ وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضى بذلك ونقص إدراك من دان به حين قال مخبرا عن إبراهيم عليه السلام حيث قال ـ أتعبدون ما تنحتون والله خلقـكم وما تعملون ـ فـكان امتناع الملائـكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ما عبد

فاقطع عن عقله طمعك و كف عن خطابه لسانك ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شئ وأن الباء قبل السين فى قولك بسم الله فلا يكون السين التأخر عن الباء قديما فنزه عن الالتفات إليه قلبك فلله سبحانه سر فى إبعاد بعض العباد - ومن يضلل الله فماله من هاد - ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام فى الدنيا كلاما ليس بصوت ولاحرف فليستنكر أن يرى فى الآخرة موجودا ليس بجسم ولالون وإن عقل أن يرى ماليس بلون ولاجسم ولاقدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل فى حاسة السمع ماعقله فى حاسة البصر وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع مادل عليه من العبارات وإن عقل كون السموات السبع و كون الجنة والنار مكتوبة فى ورقة صغيرة ومحفوظة فى مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئى فى مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار فى الحدقة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءا بالألسنة محفوظا فى القلوب مكتوبا فى المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لوحلت بكتاب الله ذات الكلام فى الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه فى الورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها فى الورق ولاحترق . الأصل السابع : أن الكلام القائم بنفسه قديم و كذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم مايجب للذات فلا تعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل فى قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولايزال فى أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لايخلو عنها ومالايخلو عن الحوادث فهو حادث وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالقها مشاركا لها فى قبول التغير ويبنى على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هى الأصوات الدالة عليه وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما فى قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذى قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذى دل عليه قوله عز وجل - اخلع نعليك - بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم. الأصل الثامن : أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر فهكذا ينبغى أن يفهم قدم علم الله تعالى . الأصل التاسع : أن إرادته قديمة وهى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ولو حدثت فى غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست فى ذاتك و كيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى و كذلك الارادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة . الأصل العاشر : أن الله تعالى عالم بعلم حى بحياة قادر بقدرة ومريد بارادة ومتكلم بكلام وسميع بسمع وبصير يبصر وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة وقول القائل عالم بلا علم كقوله غنى بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم فان العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل وكما لايتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل كذلك لايتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة فى العقل لاينفك بعض منها عن البعض فمن جوز انفكاك العالم عن العلم

من دون الله سبحانه أو ماحكى به ماهو على مثاله ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناه الله ليكون مهبطا للملائكة ومحلا للذكر ومعرفة عبادته وحده دون غيره فاذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقر به الملائكة أيضا . فان قيل فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموما وما ذكرته تعليلا ينبغى أن لا يقتضى إلا منافرة ماعبد أو ما نحت على مثاله . قلنا تشابهت الصور المنحوتة كلها فى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح فلما كان هذا المعنى الجامع لماوجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة . فان قيل فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها وإنما المقصود الثوب الذى رقمت فيه .

فليجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لافرق بين هذه الأوصاف .

(الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول)

الأصل الأوّل : العلم بأن كل حادث فى العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لاخالق له سواه ولا محدث له إلا إياه خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له فى قوله تعالى ـ الله خالق كل شئ ـ وفى قوله تعالى ـ والله خلقكم وماتعملون ـ وفى قوله تعالى ـ وأسرّوا قولكم أوجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ـ أمر العباد بالتحرّز فى أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإضمارهم لعلمه بموارد أفعالهم واستدلّ على العلم بالخلق وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لاقصور فيها وهى متعلقة بحركة أبدان العباد والحركات متماثلة وتعلق القدرة بها لذاتها فما الذى يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها أو كيف يكون الحيوان مستبدا بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب فكيف انفردت هى باختراعها دون رب الأرباب وهى غير عالمة بتفصيل مايصدر منها من الاكتساب هيهات هيهات ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات . الأصل الثانى : أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لايخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له فإنها خلقت مقدورة بقدرة هى وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا وكيف تكون جبرا محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية أو كيف يكون خلقا للعبد وهو لايحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى فى الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلا بها وهى عند الاختراع متعلقة به نوعا آخر من التعلق فبه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها . الأصل الثالث : أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه فلا يجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته ومنه الشر والخير والنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والنكر والفوز والخسران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لاراد لقضائه ولامعقب لحكمه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ـ لايسئل عما يفعل وهم يسألون ـ ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن وقول الله عزوجل ـ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ـ وقوله تعالى ـ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ـ ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصى والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها وإنما هى جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه والجارى على وفق إرادة العدو أكثر من الجارى على وفق إرادته تعالى فليت شعرى كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والإكرام إلى رتبة لوردت إليها رياسة زعيم ضيعة لاستنكف منها إذ لو كان مايستمر لعدو الزعيم فى القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته والمعصية هى الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علوا كبيرا ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له . فان قيل فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد

فان قيل فما بال الثياب رخص فى محو كآتها بالتصوير وذات أنواط فى الضرب مشهورة معلومة فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما فى السنة فاخر ثيابها وحلىّ نسائها لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط حتى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلىّ رضى الله عنه ولم يعبدوا ما نحت على شكل النبات فلم تعبد من هذه الاذات روح فما أبعدعن دركها من حرّمه الله تعالى إياها فلله الحمد وهو أهله .

قلنا

قلنا الأمر غير الإرادة ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه فقال له أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ولو لم يكن آمرا لما كان عذره عند السلطان ممهدا ولو كان مريدا لامتثاله لكان مريدا لهلاك نفسه وهو محال . الأصل الرابع : أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال إذ هو الموجب والآمر والناهي وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب والمراد بالواجب أحد أمرين إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار أو ضرر عاجل كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلا فان أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرضه للضرر وان أراد به المعنى الثاني فهو مسلم إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم وان أراد به معنى ثالثا فهو غير مفهوم وقوله يجب لمصلحة عباده كلام فاسد فانه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي الألباب . الأصل الخامس : أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه خلافا للمعتزلة ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه وقد سألوا ذلك فقالوا ـ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ـ ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده . الأصل السادس : أن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافا للمعتزلة لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ويدل على جواز ذلك وجوده فان ذبح البهائم إيلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة . فان قيل إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه . فنقول من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أنه يتضرر بتركه فهو محال وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذا خرج عن المعاني المذكورة للواجب . الأصل السابع : أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وليت شعري بما يجيب المعتزلي في قوله إن الأصلح واجب عليه في مسئلة نعرضها عليه وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين فان الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ويجب عليه ذلك عند المعتزلي فلو قال الصبي يارب لم رفعت منزلته علي فيقول لأنه بلغ واجتهد في الطاعات ويقول الصبي أنت أمتني في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلته فيقول الله تعالى لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا هذا عذر المعتزلي عن الله عز وجل وعند هذا ينادي الكفار من دركات لظى ويقولون يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهلا أمتنا في الصبا فانا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم فماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند

[بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد]

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة وشده بالبراهين فقد انقسموا في الوجود إلى ثلاثة أصناف أحدهم صنف اعتقدوا مضمون ما أقروا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسروه في أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم واعتياص طرق ذلك عليهم ويقع عليهم اسم الموحدين وتحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين رضي الله عنهم ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه والمعروف عنه ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجاج بل تركوا على ما هم عليه وهؤلاء

هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال . فإن قيل فهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحا لا يليق بالحكمة . قلنا القبيح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحا عند شخص حسنا عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض البارى سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف فى ملك الغير وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال وهل هذا إلا مجرد تشه يشهد بخلافه ما قدفرضناه من مخاصمة أهل النار ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح ، وأما الحكيم منا يراعى الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد به فى الدنيا ثناء وفى الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى . الأصل الثامن : أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل خلافا للمعتزلة لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب العبث وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال فى حقه تعالى فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد بل الكفر والإيمان والطاعة والعصيان فى حقه تعالى سيان وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له فى الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه وليس فى المآل إلا الثواب والعقاب ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية فى حقه يتساويان إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر . فإن قيل فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه فإذا قال المكلف للنبى إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندى إلا بالنظر ولست أقدم على النظر أدى ذلك إلى إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم . قلنا هذا يضاهى قول القائل للواقف فى موضع من المواضع إن وراءك سبعا ضاريا فإن لم تبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقى فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائى ولا ألتفت ورائى ولا أنظر ما لم يثبت صدقك فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادى المرشد فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن وراءكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا لى صدقى بالالتفات إلى معجزتى وإلا هلكتم فمن التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن هلك الناس كلهم أجمعون وإنما على البلاغ المبين » فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله فى المستقبل والطبع يستحث على الحذر من الضرر ومعنى كون الشيء واجبا أن فى تركه ضررا ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف للضرر المتوقع فإن العقل لا يهدى إلى التهدف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما فى تقدير الواجب ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر فى الآخرة . الأصل التاسع : أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام خلافا للبراهمة حيث قالوا لا فائدة فى بعثتهم إذ فى العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدى إلى الأفعال المنجية فى الآخرة كما لا يهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبى بالمعجزة .

الأصل

عنـدى معذورون يعدهم مقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولا يخرجون عن مقتضى هـذه الآيات بحال وسنبدى لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم وسلامة توحيدهم إن شاء الله عز وجل . والصنف الثانى اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق واعتقدت مع ذلك أنواعا من المخاييل قام فى مخيلتها أنها أدلة وطأتها براهين وليست كذلك وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه فضلا عمن دونهم فإن وقع إلى هـذا الصنف من يزعزع عليهم تلك المخاييل بالقدح ويبطلها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ولا أصغوا لما يأتى به ويترفعوا إلى أن يجاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم أو رداءة الاعتقاد

الأصل العاشر: أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر (١) وتسبيح الحصى (٢) وإنطاق العجماء (٣) وماتفجر من بين أصابعه من الماء ومن آياته الظاهرة التي تحدّى بها مع كافة العرب القرآن العظيم فانهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدّفوا لسبيه ونهبه وقتله وإخراجه كما أخبر الله عزّ وجلّ عنهم ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه هذا مع مافيه من أخبار الأولين مع كونه أميا غير ممارس للكتب والإنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى ـ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ـ وكقوله تعالى ـ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ـ ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ماعجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى فمهما كان مقرونا بتحدى النبي ﷺ ينزل منزلة قوله صدقت وذلك مثل القائم بين يدى الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فانه مهما قال للملك إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقعد على خلاف عادتك ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله صدقت

الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول: الحشر والنشر (٤) وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن ومعناه الاعادة بعد الافناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الانشاء قال الله تعالى ـ قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ـ فاستدل بالابتداء على الاعادة وقال عز وجل ـ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ والاعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول. الأصل الثاني سؤال منكر ونكير (٥) وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به فهم الخطاب وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك مايشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له فان النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات مايحس بتأثيره عند التنبه وقد كان رسول الله ﷺ يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لايسمعونه ولا يرونه (٦) ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فاذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه .

(١) حديث انشقاق القمر متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس (٢) حديث تسبيح الحصى البيهقي في دلائل النبوّة من حديث أبي ذر . وقال صالح بن أبي الأخضر ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أبي ذر (٣) حديث إنطاق العجماء أحمد والبيهقي باسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في البعير الذي شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أهله وقد ورد في كلام الضب والذئب والحمرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل (٤) حديث الحشر والنشر الشيخان من حديث ابن عباس إنكم لمحشورون إلى الله الحديث ومن حديث سهل يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء الحديث ومن حديث عائشة يحشرون يوم القيامة حفاة ومن حديث أبي هريرة يحشر الناس على ثلاث طرائق الحديث ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أفتنا في بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر الحديث وإسناده جيد (٥) حديث سؤال منكر ونكير تقدم (٦) حديث كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لايسمعونه ولا يرونه البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ياعائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى مالا أرى قلت وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك وغيرهم .

وعندهم أن جميع تلك المخايل في باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال فمنهم من يعتقد دليله مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلوم ومنهم من يكون دليله خبرا له ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ولعمري انهم ينبغي إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقعوا في شيء من الضلال أن يتركوا على ماهم عليه ولا يحركوا بأمر آخر بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ في نفوسهم بدعة يعسر انحلالها أو يقعوا في تكفير مسلم وتضليله بل هناك أسباب كثيرة . واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس فمن رغب في أكلتها لم يقنع بدونها وإذا حصل له ذلك قوي به ومن قنع بأيسرها ولم تطمع همته إلى ماهو أعلى

الأصل الثالث : عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى ـ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ـ واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر (١) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور فانّ المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الادراك إليها . الأصل الرابع : الميزان وهو حق قال الله تعالى ـ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ـ وقال تعالى ـ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه ـ الآية ووجهه أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب . الأصل الخامس : الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحدّ من السيف قال الله تعالى ـ فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون ـ وهذا ممكن فيجب التصديق به فان القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الانسان على الصراط . الأصل السادس : أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى ـ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين ـ فقوله تعالى أعدّت دليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ولا يقال لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى ـ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ـ . الأصل السابع : أن الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفى هذا وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الاجماع وذلك مما لا يستجرئ على اختراعه إلا الروافض واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وما جرى بين معاوية وعلىّ رضى الله عنهما كان مبنيا على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الامامة إذ ظنّ علىّ رضى الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدى إلى اضطراب أمر الامامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الاغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك ، وقد قال أفاضل العلماء كل مجتهد مصيب وقال قائلون المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلا . الأصل الثامن : أن فضل الصحابة رضى الله عنهم على حسب ترتيبهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة (٢) وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحى والتنزيل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف ، الأصل التاسع : أن شرائط الامامة بعد الاسلام والتكليف خمسة الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش (٣) » وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالامام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى

(١) حديث استعاذ من عذاب القبر أخرجاه من حديث أبى هريرة وعائشة وقد تقدم .
(٢) حديث الثناء على الصحابة تقدم .
(٣) حديث الأئمة من قريش النسائى من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر .

من ذلك ضعف ولكنه يعيش عيش الطفيف وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها أو يجدها ولكنها تكون مشابة بمن جاء بعضرة بدعة وسموم كفر فلا تذهل عما يشار لك إليه وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان وقلما بين الصنف الثانى والأول من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يعتقدونه دليلا غير أنهم أوثق رباطا من الأولين لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا وانحلّ رباط عقدهم وهؤلاء في الأغلب لا سبيل إلى انحلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون فلهذا كانوا أحسن حالا . والصنف الثالث أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم وقدموا النظر أيضا ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومعهم من الذكاء والفطنة والتيقظ ما لو نظروا لعلموا ولو استدلوا

الانقياد إلى الحق . الأصل العاشر : أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدّى للامامة وكان فى صرفه إثارة فتنة لاتطاق حكمنا بانعقاد إمامته لأنا بين أن نحرك فتنة بالاستبدال فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على مايفوتهم من نقصان هذه الشروط التى أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذى يبنى قصرا ويهدم مصرا وبين أن نحكم بخلوّ البلاد عن الامام وبفساد الأقضية وذلك محال ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البغى فى بلادهم لمسيس حاجتهم فكيف لانقضى بصحة الامامة عند الحاجة والضرورة فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هى قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لرهط البدعة فالله تعالى يسدّدنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

[الفصل الرابع من قواعد العقائد] فى الايمان والاسلام ومابينهما من الاتصال والانفصال ومايتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل [مسئلة] اختلفوا فى أن الاسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه فقيل إنهما شيء واحد وقيل إنهما شيئان لايتواصلان وقيل إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر ، وقد أورد أبو طالب المكى فى هذا كلاما شديد الاضطراب كثير التطويل فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل مالا تحصيل له فنقول فى هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين فى اللغة ، وبحث عن المراد بهما فى إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما فى الدنيا والآخرة ، والبحث الأول لغوى والثانى تفسيرى والثالث فقهى شرعى . البحث الأول : فى موجب اللغة والحقّ فيه أن الايمان عبارة عن التصديق قال الله تعالى ــ وما أنت بمؤمن لنا ــ أى بمصدّق والاسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالاذعان والانقياد وترك التمرّد والاباء والعناد وللتصديق محل خاص وهو القلب واللسان ترجمان وأما التسليم فانه عام فى القلب واللسان والجوارح فان كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الاباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح فموجب اللغة أن الاسلام أعم والايمان أخصّ فكان الايمان عبارة عن أشرف أجزاء الاسلام فاذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا . البحث الثانى : عن إطلاق الشرع والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل . أما الترادف ففى قوله تعالى ــ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ــ ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد وقال تعالى ــ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ــ وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس [1] » وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّة عن الايمان فأجاب بهذه الخمس [2] وأما الاختلاف فقوله تعالى ــ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ــ ومعناه استسلمنا فى الظاهر فأراد بالايمان ههنا التصديق بالقلب فقط وبالاسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح ، وفى حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الايمان فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره

(١) حديث بنى الاسلام على خمس أخرجاه من حديث ابن عمر (٢) حديث سئل عن الايمان فأجاب بهذه الخمس ، البيهقى فى الاعتقاد من حديث ابن عباس فى قصة وفد عبد القيس تدرون ما الايمان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام » والحديث فى الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد وأن تؤتوا خمسا من المغنم .

لتحققوا ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ولكنهم آثروا الراحة ومالوا إلى الدعة واستبعدوا طريق العلم واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه وقنعوا بالقعود فى حضيض الجهل فهؤلاء فيهم إشكال عند كثير من الناس فى البديهة ويتردّد فى حالهم النظر وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين فى العوام على الاطلاق من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن فنهم من لم ير أنهم مؤمنون ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم ولعلك تقول إن مذهبهم المشهور أن المحلّ لايخلو عن الصفات إلا إلى ضدها فمن لم يحكم له بالإيمان حكم عليه بالكفر كما أن من لم يحكم له بالحركة حكم عليه بالسكون وكذلك

وشره فقال فما الاسلام. فأجاب بذكر الخصال الخمس(١) » فعبر بالاسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل وفى الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم « أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال صلى الله عليه وسلم أومسلم فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) » وأما التداخل فما روى أيضا أنه سئل « فقيل أى الأعمال أفضل فقال صلى الله عليه وسلم الاسلام فقال أى الاسلام أفضل فقال ﷺ الايمان(٣) » وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة لأن الايمان عمل من الأعمال وهو أفضلها والاسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيمانا والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة أما الاختلاف فهو أن يجعل الايمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة والاسلام عبارة عن التسليم ظاهرا وهو أيضا موافق للغة فان التسليم ببعض محالّ التسليم ينطلق عليه اسم التسليم فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فان من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامسا وان لم يستغرق جميع بدنه فاطلاق اسم الاسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ـ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ـ وقوله ﷺ فى حديث سعد « أو مسلم » لأنه فضل أحدهما على الآخر ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين وأما التداخل فموافق أيضا للغة فى خصوص الايمان وهو أن يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا والايمان عبارة عن بعض مادخل فى الاسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى عنيناه بالتداخل وهو موافق للغة فى خصوص الايمان وعموم الاسلام للكل وعلى هذا خرج قوله الايمان فى جواب قول السائل أى الاسلام أفضل لأنه جعل الايمان خصوصا من الاسلام فأدخله فيه وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعا فان كل ذلك تسليم وكذا الايمان ويكون التصرف فى الايمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر فى معناه وهو جائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفا لاسم الاسلام ومطابقا له فلا يزيد عليه ولا ينقص وعليه خرّج قوله ـ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ـ البحث الثالث : عن الحكم الشرعى، والاسلام والايمان حكمان أخروى ودنيوى . أما الأخروى فهو الاخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان(٤) »

---

(١) حديث جبريل لما سأله عن الايمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته الحديث أخرجاه من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر الحساب فرواه البيهقى فى البعث وقد تقدم (٢) حديث سعد أعطى رجلا عطاء ولم يعط الآخر فقال له سعد يارسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم الحديث أخرجاه بنحوه (٣) حديث سئل أىّ الأعمال أفضل فقال الاسلام فقال أى الاسلام أفضل فقال الايمان أحمد والطبرانى من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الأخير قال رجل يارسول الله أى الاسلام أفضل قال الايمان وإسناده صحيح (٤) حديث يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان أخرجاه من حديث أبى سعيد الخدرى فى الشفاعة ، وفيه اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه الحديث ، ولهما من حديث أنس فيقال انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان لفظ البخارى منهما ، وله تعليقا من حديث

الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ماله من الصفات. قلنا فلئن صح ذلك فى الصفات التى هى أعراض فقد لا يصح فى الأوصاف التى هى أحكام الايمان والكفر والهداية والضلال والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الاعراض وإنما ذكرت لك هذا فى معرض الشك فى شعوب ما نورد على ذلك ومنهم من أوجب لهم الايمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وعجزهم عن العبادة ووجوب العبادة فى الشرع جار على هذا النحو وهؤلاء لم يخالفوا للذكورين قبلهم لأن أولئك سلبوا الايمان عمن لم يصدر اعتقاده عن دليل وهؤلاء أوجبوا الايمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة فى صحة الايمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتمال وزادوا على أنفسهم أنهم ألموا بقول من جعل المعارف

وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يترتب وعبروا عنه بأن الايمان ماذا هو فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثا وهو العمل بالأركان ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلاخلاف فى أن مستقره الجنة وهذه درجة . والدرجة الثانية أن يوجد اثنان وبعض الثالث وهو القول والعقد وبعض الأعمال ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر فعند هذا قالت المعتزلة خرج بهذا عن الايمان ولم يدخل فى الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد فى النار وهذا باطل كما سنذكره . الدرجة الثالثة أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح وقد اختلفوا فى حكمه فقال أبو طالب المكى العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الاجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى ـ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الايمان وإلا فيكون العمل فى حكم المعاد والعجب أنه ادعى الاجماع فى هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جحوده لما أقر به(١) » وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد فى النار بسبب الكبائر والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات فى الحال فهل هو فى الجنة فلا بد أن يقول نعم وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل فنزيد ونقول لو بقى حيا حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات فهل يخلد فى النار فان قال نعم فهو مراد المعتزلة وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الايمان ولا شرطا فى وجوده ولا فى استحقاق الجنة به وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلى ولا يقدم على شىء من الأعمال الشرعية فنقول فما ضبط تلك المدة وما عدد تلك الطاعات التى بتركها يبطل الايمان وما عدد الكبائر التى بارتكابها يبطل الايمان وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمنا بينه وبين الله تعالى وهذا مما اختلف فيه ومن شرط القول لتمام الايمان يقول هذا مات قبل الايمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان » وهذا قلبه طافح بالايمان فكيف يخلد فى النار ولم يشترط فى حديث جبريل عليه السلام للايمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتى الشهادة وعلم وجوبها ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة ونقول هو مؤمن غير مخلد فى النار والايمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الايمان فلا بد أن يكون الايمان موجودا بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الايمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة » ولا ينعدم الايمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب وقال قائلون القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخبارا عن القلب بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر وقد غلا فى هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة أن يقول بلسانه لا إله إلا الله

أنس يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان وهو عندهما متصل بلفظ خير مكان إيمان (١) حديث لا تكفروا أحدا إلا بجحوده بما أقر به الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد لن يخرج أحد من الايمان إلا بجحود ما دخل فيه وإسناده ضعيف .

كلها ضرورية ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما عجزت العامة عن سرد الدليل وتعظم العبارة عنه وأنه لا تجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول إنما افتقر الناس إلى النسبية ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم فى تفهيمها بالزوال إلى ما ألفوه من العبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى الفيئة ومثال هذا كمن نسى شيئا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد

محمد رسول الله ولكن لم يصدق بقلبه فلا نشك فى أن هذا فى حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلد فى النار ولا نشك فى أنه فى حكم الدنيا الذى يتعلق بالأئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه وعلينا أن نظن به أنه ماقاله بلسانه إلا وهو منطو عليه فى قلبه وإنما نشك فى أمر ثالث وهو الحكم الدنيوى فيما بينه وبين الله تعالى وذلك بأن يموت له فى الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن فى يدى فهل يحل لى بينى وبين الله تعالى أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر فى حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له فى نفسه بينه وبين الله تعالى والأظهر والعلم عند الله تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى الله عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه والصلاة فعل ظاهر فى الدنيا وإن كان من العبادات والتوقى عن الحرام أيضا من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » وليس هذا مناقضا لقولنا إن الإرث حكم الاسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو مايشمل الظاهر والباطن وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغى أن يظن القاصر فى العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده فى فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم فى العلوم . فإن قلت فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم . فأقول شبهتهم عمومات القرآن أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل ـ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ـ ولقوله عز وجل ـ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ـ الآية ولقوله تعالى ـ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها . إلى قوله : ـ فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ـ فقوله كلما ألقى فيها فوج عام فينبغى أن يكون كل من ألقى فى النار مكذبا ولقوله تعالى ـ لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ـ وهذا حصر وإثبات ونفى ولقوله تعالى ـ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ـ فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى ـ والله يحب المحسنين ـ وقال تعالى ـ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ـ ولا حجة لهم فى ذلك فإنه حيث ذكر الايمان فى هذه الآيات أريد به الايمان مع العمل إذ بينا أن الايمان قد يطلق ويراد به الاسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة فى معاقبة العاصين ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان » فكيف يخرج إذا لم يدخل ومن القرآن قوله تعالى ـ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى ـ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها ـ وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى ـ ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ـ وقال تعالى ـ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ـ فهذه العمومات فى معارضة عموماتهم ولا بد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يعذبون[1] بل قوله تعالى ـ وإن منكم إلا واردها ـ كالصريح فى أن ذلك لابد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى ـ لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ـ أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى ـ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ـ أى فوج من الكفار وتخصيص العمومات

(١) حديث تعذيب العصاة البخارى من حديث أنس ليصيبن أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها الحديث ويأتى فى ذكر الموت عدة أحاديث .

قريب

ذلك فذكر فإنه يقال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه لكنه ناس له أو غافل عنه ولولا عرفانه به ما وجد عدم الانكار وسرعة الألفة عنه وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الايمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك وأى الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس من غرضنا فى هذا الموضع وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه فى الاحياء أهل الغلول والأغلال فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك فى مراقى الزلف ما يغنى فيها بإذن الله عز وجل .

[فصل فى بيان أصناف أهل الاعتقاد]

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تتمة ماجرى فلتعلم أن ما منهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضرورى فأصفى الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان

قريب ومن هذه الآية وقع للأشعرى وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها . وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى ـ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ـ وقوله تعالى ـ والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وقوله تعالى ـ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ـ ثم قال ـ ثم ننجى الذين اتقوا ـ وقوله تعالى ـ ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم ـ وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالايمان وقوله تعالى ـ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ـ وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى ـ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ـ فينبغى أن تبقى له مشيئة فى مغفرة ماسوى الشرك وكذلك قوله عليه السلام « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وقوله تعالى ـ إنا لانضيع أجر من أحسن عملا ـ وقوله تعالى ـ إن الله لايضيع أجر المحسنين ـ فكيف يضيع أجر أصل الايمان وجميع الطاعات بمعصية واحدة وقوله تعالى ـ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ـ أى لايمانه وقد ورد على مثل هذا السبب . فان قلت فقد مال الاختيار إلى أن الايمان حاصل دون العمل وقد اشتهر عن السلف قولهم الايمان عقد وقول وعمل فما معناه . قلنا لايبعد أن يعد العمل من الايمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الانسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لاتبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الايمان كالرأس من وجود الانسان إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال ﷺ « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن[1] » والصحابة رضى الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة فى الخروج عن الايمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بانسان أى ليس له الكمال الذى هو وراء حقيقة الانسانية . (مسئلة) فان قلت فقد اتفق السلف على أن الايمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فاذا كان التصديق هو الايمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان . فأقول السلف هم الشهود العدول ومالأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن فى فهمه وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الايمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشىء لايزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الانسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن فهذا تصريح بأن الايمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان . فان قلت فالاشكال قائم فى أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة فأقول إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الاشكال فنقول : الايمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه : الأول أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الاعتقاد عقدة على القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخى كالعقدة على الخيط مثلا ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودى وصلابته فى عقيدته التى لايمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصرانى والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك فى عقده كالأول ولكنهما متفاوتان فى شدة التصميم وهذا موجود فى الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر فى نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقى الماء فى نماء الأشجار ولذلك قال تعالى ـ فزادتهم إيمانا ـ وقال تعالى ـ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ـ وقال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبى هريرة .

الايمان على ما يكل عليه فى الغالب لكنه على طريق التفاوت كما سبق . الحالة الثانية أن لايعتقدوا إلا بعض الأركان مما فيه خلاف إذا نفر ولم تصف إليه فى اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط أو يعتقد أنه موجود حى لاغير وأمثال هذه التقديرات ويخلو عن اعتقاد باقى الصفات خلوا كاملا لايخطر بباله ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ولكن التقدير الذى يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره . الحالة الثالثة أن يعتقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة ويكون فيما يعتقد فى باقى الصفات على ما لايوافق الحق ماهو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح فالذى يدل عليه العلم ويستنبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى

فيما يروى فى بعض الأخبار «الايمان يزيد وينقص[1]» وذلك بتأثير الطاعات فى القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه فى أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت فى السكون إلى عقائد الايمان فى هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد فى اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملا مقبلا أو ساجدا لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الاعمال عليها فيؤكدها ويزيدها وسيأتى هذا فى ربع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب فان ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعنى بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال:

رق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فان هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضا اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن يكف عنها بالتكلف فهذا وجه زيادة الايمان بالطاعة بموجب هذا الاطلاق ولهذا قال على كرم الله وجهه: إن الايمان ليبدو لمعة بيضاء فاذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فاذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى ــ كلا بل ران على قلوبهم ــ الآية. الاطلاق الثانى: أن يراد به التصديق والعمل جميعا كما قال صلى الله عليه وسلم «الايمان بضع وسبعون بابا[2]» وكما قال صلى الله عليه وسلم «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» وإذا دخل العمل فى مقتضى لفظ الايمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك فى زيادة الايمان الذى هو مجرد التصديق هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه. الاطلاق الثالث: أن يراد به التصديق اليقينى على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكنى أقول الأمر اليقينى الذى لاشك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس الى أن الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لاشك فى واحد منهما فان اليقينيات تختلف فى درجات الايضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها وقد تعرضنا لهذا فى فصل اليقين من كتاب العلم فى باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الاعادة وقد ظهر فى جميع الاطلاقات أن ماقالوه من زيادة الايمان ونقصانه حق

(١) حديث الايمان يزيد وينقص ابن عدى فى الكامل وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب اللحى يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجه موقوف على أبى هريرة وابن عباس وأبى الدرداء (٢) حديث الايمان بضع وسبعون بابا وذكر بعد هذا فزاد فيه: أدناها إماطة الأذى عن الطريق البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة الايمان بضع وسبعون زاد مسلم فى رواية وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها فذكره ورواه بلفظ المصنف الترمذى وصححه.

والله أعلم على سبيل نجاة ومسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام وسواء فى ذلك الصنف الأول والثانى من أهل الاعتقاد ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه وأما أهل الحالة الثانية وهى الاقتصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر معه مع الخلو من اعتقاد سائر الصفات التى للكمال والجلال وأركانهما فالمتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم فى صورة المسئلة مايخرج صاحب هذا العقد عن حكم الايمان والاسلام والمتأخرون مختلفون فكثير خاف أن يخرج من اعتقد وجود الله عز وجل وأظهر الاقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الاسلام ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه لو سئلوا واستكشفوا عن الله عز وجل هل له إرادة أو بقاء أو كلام

وكيف

وكيف لا وفي الأخبار « أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفي بعض المواضع في خبر آخر « مثقال دينار[1] » فأي معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت (مسئلة) فإن قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن إن شاء الله والاستثناء شك والشك في الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه فقال سفيان الثوري رحمه الله من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقا فهو بدعة فكيف يكون كاذبا وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه ومن كان مؤمنا في نفسه كان مؤمنا عند الله كما أن من كان طويلا وسخيا في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من كان مسرورا أو حزينا أو سميعا أو بصيرا ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله ولما قال سفيان ذلك قيل له فماذا نقول قال قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأي فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن وقيل للحسن أمؤمن أنت فقال إن شاء الله فقيل له لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق عليّ الكلمة وكان يقول ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع عليّ في بعض ما يكره فمقتني وقال اذهب لا قبلت لك عملا فأنا أعمل في غير معمل وقال إبراهيم بن أدهم إذا قيل لك أمؤمن أنت فقل لا إله إلا الله وقال مرة قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة وقيل لعلقمة أمؤمن أنت قال أرجو إن شاء الله وقال الثوري نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندري ما نحن عند الله تعالى فما معنى هذه الاستثناءات فالجواب أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في خاتمته أو كماله ووجهان لا يستندان إلى الشك . الوجه الأول الذي لا يستند إلى معارضة الشك الاحتراز من الجزم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى ـ فلا تزكوا أنفسكم ـ وقال ـ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ـ وقال تعالى ـ انظر كيف يفترون على الله الكذب ـ وقيل لحكيم ما الصدق القبيح فقال ثناء المرء على نفسه والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم به تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية كما يقال للإنسان أنت طبيب أو فقيه أو مفسر فيقول نعم إن شاء الله لا في معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر وهو التزكية وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء . الوجه الثاني : التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ـ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ـ ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى ـ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ـ وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون[2] » واللحوق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار بعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمني فإذا قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لا تشككك وإذا قيل لك فلان سيزول مرضه ويصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى

---

(١) حديث يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار متفق عليه من حديث أبي سعيد وسيأتي في ذكر الموت وما بعده (٢) حديث لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين الحديث مسلم من حديث أبي هريرة .

أو ما شاكل ذلك وهل له صفات معنوية ليست هي هو ولا هي غيره ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يعقلون وجه ما يخاطبون به وكيف يخرج من اعتقد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم قد رفع القتال والقتل وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها وهذه الكلمات لا تقتضي أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر وعلى البديهية من غير نظر ثم سمعنا عمن قالها في صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيئات الأعمال البدنية والكف عن أذى المسلم ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ولا هل الله تعالى عالم بعلم أو عالم بنفسه وهو باق ببقاء أو باق بنفسه وأشباه

معنى الرغبة وكذلك العدول إلى معنى التأدب بذكر الله تعالى كيف كان الأمر . الوجه الثالث مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم ـ أولئك هم المؤمنون حقا ـ فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الايمان لا في أصله وكل انسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر والشك في كمال الايمان حق من وجهين : أحدهما من حيث إن النفاق يزيل كمال الايمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه . والثاني أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدرى وجودها على الكمال أما العمل فقد قال الله تعالى ـ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ـ فيكون الشك في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ـ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ـ فشرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى ـ أولئك الذين صدقوا ـ وقد قال تعالى ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ وقال تعالى ـ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ـ الآية وقد قال تعالى ـ هم درجات عند الله ـ وقال ﷺ « الايمان عريان ولباسه التقوى[1] » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم « الايمان بضع وسبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق » فهذا ما يدل على ارتباط كمال الايمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله صلى الله عليه وسلم « أربع من كنّ فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر[2] » وفي بعض الروايات « وإذا عاهد غدر » وفي حديث أبي سعيد الخدري « القلوب أربعة: قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلب عليه حكم له بها[3] » وفي لفظ آخر « غلبت عليه ذهبت به » قال عليه السلام « أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها[4] » وفي حديث « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا[5] » وقال حذيفة رضي الله عنه « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[6] » وقال بعض العلماء أقرب الناس من النفاق من يرى أنه بريء من النفاق وقال حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الايمان وكماله وهو خفيّ وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه بريء منه فقد قيل للحسن البصري يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق وقال هو أو غيره لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا

(١) حديث الايمان عريان تقدم في العلم (٢) حديث أربع من كنّ فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث القلوب أربعة قلب أجرد الحديث أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه (٤) حديث أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر (٥) حديث الشرك أخفى في أمتي من دبيب النملة على الصفا أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى وسيأتي في ذم الجاه والرياء (٦) حديث حذيفة كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا الحديث أحمد باسناد فيه جهالة وحديث حذيفة المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث البخاري إلا أنه قال شر بدل أكثر .

سده العارف ولا يدفع ظهور هذه إلا معاند أو جاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبى أن يذعن لتعلم ما زاد على ما عنده لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخلود في النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ولعلك تقول قد قال في مواطن أخرى إلا بحقها ثم تقول اعتقاد باقي الصفات التي بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعزّ وكماله من حقها ثم هي من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يعتقدها وأما من خلا من اعتقادها ولم يقو له أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ وفي مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر هذا وأنت

وسمع

«وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا يسمع أكنت تتكلم فيه فقال لا فقال: كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم»(١) وقال صلى الله عليه وسلم «من كان ذا لسانين فى الدنيا جعله الله ذا لسانين فى الآخرة» وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه» وقيل للحسن إن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق وقال والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحب إلىّ من تلاع الأرض ذهبا وقال الحسن إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه إنى أخاف أن أكون منافقا فقال لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن المنافق قد أمن من النفاق وقال ابن أبى مليكة أدركت ثلاثين ومائة وفى رواية خمسين ومائة من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخافون النفاق وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا وأكثروا الثناء عليه فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا يارسول الله هو هذا الرجل الذى وصفناه فقال صلى الله عليه وسلم أرى على وجهه سفعة من الشيطان، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبى صلى الله عليه وسلم: نشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك فقال اللهم نعم(٢)» وقال ﷺ فى دعائه «اللهم إنى أستغفرك لما علمت ولما لم أعلم فقيل له أتخاف يارسول الله فقال ومايؤمننى والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد قال سبحانه ـ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون(٣)» قيل فى التفسير عملوا أعمالا ظنوا أنها حسنات فكانت فى كفة السيئات وقال سرى السقطى لو أن إنسانا دخل بستانا فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة فقال السلام عليك ياولىّ الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيرا فى يديها فهذه الأخبار والآثار تعرفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفى وأنه لايؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر فى المنافقين وقال أبو سليمان الدارانى سمعت من بعض الأمراء شيئا فأردت أن أنكر فخفت أن يأمر بقتلى ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبى التزين للخلق عند خروج روحى فكففت وهذا من النفاق الذى يضاد حقيقة الايمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله فالنفاق نفاقان أحدهما يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك فى زمرة المخلدين فى النار والثانى يفضى بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصدّيقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية والأمن من مكر الله والعجب وأمور أخر لايخلو عنها إلا الصدّيقون .

الوجه الرابع : وهو أيضا مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فانه لايدرى أيسلم له الايمان عند الموت أم لا فان ختم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ولو سئل

(١) حديث سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال أرأيت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحمد والطبرانى بنحوه وليس فيه ذكر الحجاج (٢) حديث كان جالسا فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا الثناء عليه فبيناهم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء الحديث أحمد والبزار والدارقطنى من حديث أنس (٣) حديث اللهم إنى أستغفرك لما علمت ومالم أعلم الحديث مسلم من حديث عائشة اللهم إنى أعوذ بك من شر ماعملت ومن شر مالم أعمل ولأبى بكر بن الضحاك فى الشمائل فى حديث مرسل وشر ما أعلم وشر مالا أعلم ..

تسمع عن الله عزّ وجلّ يقول فى الآخرة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان وذكر من المثقال إلى الذرة والخردلة من الايمان إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط لما يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين لأن التقدير وقع فى الايمان لا فى الأعمال فان قلت فان من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الايمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ولم يقصدها دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها قلنا قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونبهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تعسف ولو استقصى مع كثير منهم القول فى ذلك لبدا له أنه تسبب إلى مايظهر له من تصوره عن معرفة شرطها فى إيمان غيره ولآزمن حسه الركون إلى مارأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب

الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال أنا صائم قطعا فلو أفطر فى أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الايمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه والعاقبة مخوفة ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التى لاتظهر إلا بظهور المقضى به ولامطلع عليه لأحد من البشر فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر فى الحال ماسبقت الكلمة بنقيضه فمن الذى يدرى أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى وقيل فى معنى قوله تعالى ـ وجاءت سكرة الموت بالحق ـ أى بالسابقة يعنى أظهرتها . وقال بعض السلف إنما يوزن من الأعمال خواتيمها وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحلف بالله مامن أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك وقيل هى عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين لو عرضت علىّ الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لا أدرى مايعرض لقلبى من التغير عن التوحيد إلى باب الدار . وقال بعضهم لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بينى وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد وفى الحديث «من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل(١)» وقيل فى قوله تعالى ـ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ـ صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك ـ وقد قال تعالى ـ ولله عاقبة الأمور ـ فمهما كان الشك بهذه الثابة كان الاستثناء واجبا لأن الايمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة وما فسد قبل الغروب لايبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الايمان بل لايبعد أن يسأل عن الصوم الماضى الذى لايشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقى هو المقبول والمقبول غائب عنه لايطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء فى جميع أعمال البرّ ويكون ذلك شكا فى القبول إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لايطلع عليها إلا رب الأرباب جلّ جلاله فيحسن الشك فيه فهذه وجوه حسن الاستثناء فى الجواب عن الايمان وهى آخر مانختم به كتاب قواعد العقائد تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(كتاب أسرار الطهارة وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة، وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطافه، وأعدّ لظواهرهم تطهيرا لها الماء المخصوص بالرقة واللطافة ، وصلى الله على النبى محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجينا بركاتها يوم المخافه ، وتنتصب جنة بيننا وبين كل آفه . أما بعد : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «بنى الدين على النظافة (٢)»

(١) حديث من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل الطبرانى فى الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبى سليم تقدم والشطر الأوّل روى من قول يحيى بن أبى كثير رواه الطبرانى فى الأصغر بلفظ من قال أنا فى الجنة فهو فى النار وسنده ضعيف .

(كتاب الطهارة)

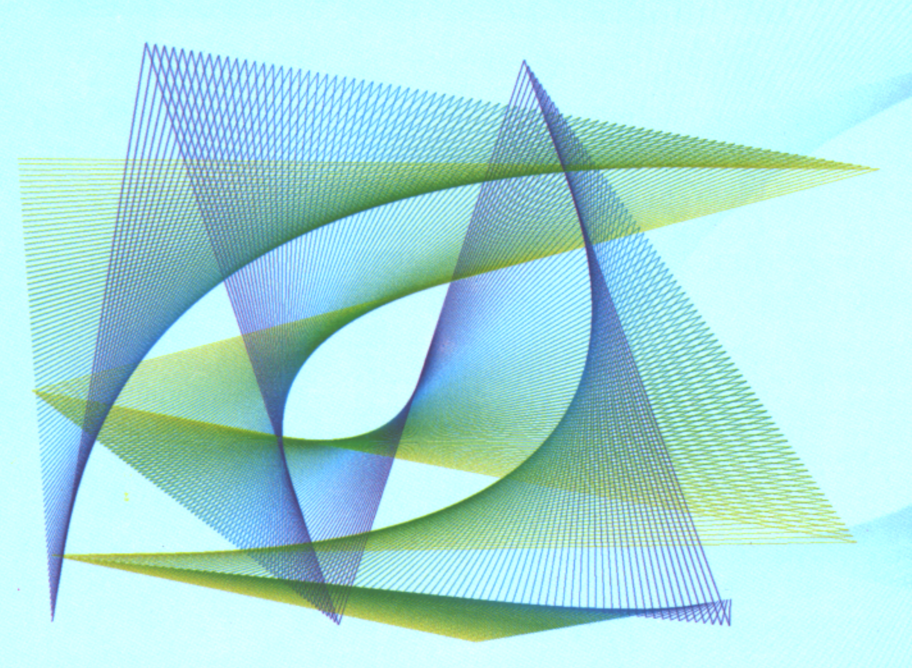
(٢) حديث بنى الدين على النظافة لم أجده هكذا وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة تنظفوا فان الاسلام نظيف والطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود النظافة تدعو إلى الايمان.

ولعدل عن مذهبه ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم لم يقوا اسم الكفر عليهم ثم يعرضوا على الاستتابة إن كانت من مذهبه ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق فاذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ماقالوه ونقص ماقالوا إليه فلنرجع الى مانحن بسبيله ونستعين بالله عزّ وجلّ وأما أرباب الحالة الثالثة وهى اعتقاد البدعة فى الصفات أو بعضها فان حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا وإسلامهم حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه اذ لم يقعوا فيه بوجه تصديق يقطعهم عن إيصال العذر لأن هؤلاء قد حصل لهم فى العقد ماهو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم وأصيبوا فيما وراء ذلك فان أمكن ردهم فى الدنيا وزجرهم عنه أن أظهروا المنع عن الاقلاع والرجوع

الاقتصاد في الاعتقاد

لحجة الإسلام

الإمام محمد أبي حامد الغزالي



شرح وتحقيق وتعليق

الدكتورة إنصاف رمضان



الطبعة الأولى
1423 هـ - 2003 م



للطباعة والنشر والتوزيع

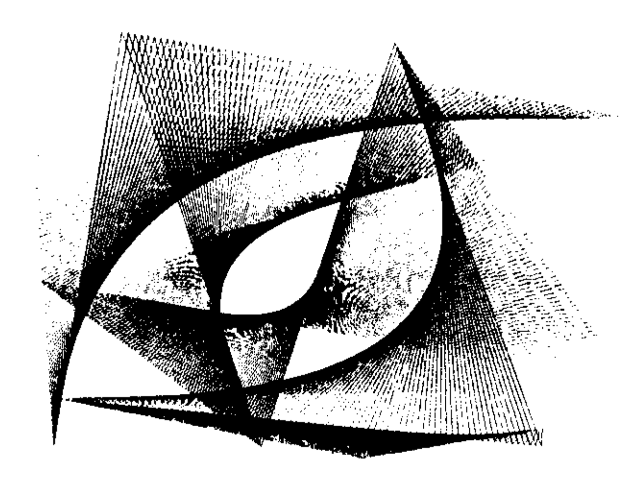
دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان
ص.ب: 14/6364
خليوي: 833 814 3 961+
فاكس: 171 377 1 961+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

الاقتصاد في الاعتقاد

لحجة الإسلام
الإمام محمد أبي حامد الغزالي



شرح وتحقيق وتعليق
الدكتورة إنصاف رمضان



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

مرّ على الإنسانيَّة حينٌ من الدهر، عاشتْ فيه حياة جاهليَّة ملؤها الفوضى والاضطراب والأهواء والأطماع، الأمر الذي هوى بها إلى دركْ الشقاء والعذاب وما جَعَلَها تتطلّعُ إلى فجر جديد يعيد إليها التوازن الفكري والنفسي والاجتماعي حيث تنعم بالهدوء والاستقرار، وتحلّق في آفاق الطهر والفضيلة والمعرفة، وقد انبلج هذا الفجر ببعثة الأنبياء وخاتَمُهم محمد (ص) حيث ارتقى بالإنسانيَّة من الجهل إلى المعرفة ومن التنابذ والتدابر إلى المحبّة والوحدة، من الضياع والضلال إلى مستوى الهدف والغاية، قال الله تعالى:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف 157).

فبجهودهم وجهادهم بنوا صرح حضارة شامخةٍ، وغدوا منارةً للأجيال المتطلّعة إلى الهدى والنور، على مرّ العصور والدهور.

وعندما يضْعُفُ ارتباط المُسْلم بدينه ويُؤْثِر الركض خلف شهواته متأثراً بأولئك الذين امتهنوا إضلال البشريّة وبث الشكوك والشبهات في النفوس والعقول - يعود كابوس الضلال يقض مضجع الإنسانيّة من جديد، إلاّ أن ذلك المشعل الذي حمله الأنبياء تركوه لمن بعدهم من العلماء إرثاً يتوارثونه خلفاً عن سلفٍ لينيروا به الطريق ويدحروا به الظلام، هؤلاء العلماء يقومون مقام الأنبياء في نشر الهداية ونصرة الحق ودحر الباطل.

قال عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء. وإن الأنبياء لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً، ولكنهم ورَّثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

---

(1) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبّان في صحيحه من حديث أبي الدرداء.

وأبو حامد الغزالي أحد هؤلاء الأفذاذ الذين خاضوا المعركة الأبديّة المعلَنَة بين الحقّ والباطل وعَرَف أهوالَها وأخطارَها وأشفق على الأجيال المؤمنة من مغبّتها، وكان كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» الدواء الناجع والبلسم الشافي لهذا المرض العضال، وقد بعد العهد بيننا وبين عصر المؤلّف، الأمر الذي جعَل لغة الكتاب تختلف عن لغة العصر الذي نعيش فيه، وقد رأيت أن أقوم بشرْحِ عبارات الكتاب وتبسيطها؛ ليستفيد القارىء الفائدة المطلوبة من معلومات الكتاب وإرشاداته.

والله سبحانه أسأل، أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

إنصاف رمضان

ترجمة الغزالي

لقد تطوَّر علم الكلام بتفعيل من عقول الفلاسفة عبر الزمن، وكان هذا العلم وسيلة - بيد بعضهم - للتضليل، ومتاهة يضيع فيها من أراد الوصول إلى الحقيقة بيسر وأمان.

إلاّ أنَّ هناك فئةً اهتمت بالشرع الحنيف، وآمنت أن لا تناقض فيه مع العلم بحقائقه الثابته والراسخة، ورأت أنَّ على العقل - الذي أناره العلم وتوهج بالدين - واجباً شرعياً نحو الأجيال القادمة، فقاموا بإيضاح المبهم، وسهلوا الصعاب أمام العامة، كي لا تضطرب عقائدهم، ويعيشوا في ضياعٍ وهم يبحثون عن الحقيقة التي يبغون.

وأبو حامد الغزالي رائد لهؤلاء العلماء. حيث أعاد البحث من جديد لكل القضايا المتعلقة بالعقيدة والشريعة، وقال فيها كلمته التي كانت ولا تزال الكلمة المسموعة، التي يصغي إليها علماء المسلمين إلى يومنا هذا، فكيف نشأ هذا العالم الجليل؟ وكيف وصل إلى ما وصل إليه؟

عصره:

لقب أبو حامد الغزالي بحجة الإسلام، وزين الدين، وعالم العلماء، ووارث الأنبياء... وهو فيلسوف ومتصوف من خراسان. وقبل الاطّلاع على ولادته ونشأته لابد من إضاءة لعصره الذي نشأ فيه.

نشأ الغزالي في عصر مضطرب، اشتدت فيه المنازعات السياسية والفكرية، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في العصر العباسي الثالث - الذي يعتبر عصر انحلال وضعف في المجال السياسي والعسكري، وانحطاط وفوضى في الأخلاق، وجمود وخمول في الفكر للأسباب التالية:

1 - نشاط الحركات الإسماعيلية والدعوات الفاطمية.

2 - قوة شوكة العناصر التركية، حيث استولت على بغداد وبسطت سلطانها على العراق قبل مولد الغزالي بثلاث سنوات.

3ـ تأسيس الدولة السلوجقية على يد طغرل بك الذي فتح بغداد، وغدا السلاجقة أصحاب السلطان في عهد الغزالي.

4ـ وباعتبار السلاجقة بعيدين عن الدين وعلومه فقد استعانوا بالعلماء، وقربوا إليهم الفقهاء، لذلك أخذ السباق يتزايد بين أولئك الذين تراكضوا للوصول إلى أهل النفوذ، ومن أجل ذلك ظهرت تيارات من الدس والكيد، وعصفت رياح الخصومة، وغلبت روح الحقد والحسد في النفوس.

5ـ ظهور حسن الصباح مؤسس جماعة الحشاشين، التي ضمّتْ فيما بعد فرقاً بعيدة عن الإسلام

6ـ ومقابل كل ذلك قامت مدارس نظامية من قبل حفيد طغرل بك (إلب أرسلان) بنيّة الدفاع عن الدين، والذّود عن كيان السنة.

حياته:

ولد أبو حامد الغزالي محمد بن أحمد سنة 450هـ/ 1058م بمدينة طوس بخراسان، وكان أبوه رجلاً فقيراً، يعملُ في غزل الصوف ويبيع ما يغزله في دكان بسوق الصوّافين، فسمي بالغزّالي نسبة إلى حرفته، ومنهم من يقول ينسب إلى (غزالة) وهي قرية من قرى طوس، فيكون اسمه الغزالي بتخفيف الزاي وقد غلب على أبي حامد هذا اللفظ الأخير. وكان والد الغزالي ذا تقوى وورع يميل إلى الفقهاء ويحضر مجالسهم، ولما أحس بدنو أجله عهد بولديه إلى صديق له من المتصوفة طالباً إليه أن يعنى بتربيتهما وتعليمهما، فانتسبَ مع أخيه إلى مدرسة لدراسة الفقه والتعمق فيه.

بدأ أبو حامد الدراسة بطوس وتابعها بجرجان ثم انتقل إلى نيسابور عام / 470هـ/ ثم اتصل بالجويني المعروف بإمام الحرمين وظل بقربه حتى وفاته.

درس إلى جانب الفقه المذاهب على إختلافها، وتعلّم الجدل والمنطق كما درس الفلسفة فكان أفضل الجميع. وبعد وفاة أستاذه الجويني اتجه إلى العراق وامتهن التدريس في بغداد لمدة ست سنوات، وإلى جانب التدريس اشتغل بالتفكير والتأليف

في الفقه والكلام، وفي الرد على الفرق المنتشرة آنذاك من باطنيَّة وإسماعيليَّة وفلسفيَّة، ثم تعمق في دراسة الفرق فأتقن علم الكلام وألّف في هذه الفترة من حياته كتاب (مَقاصد الفلاسفة) و(تهافت الفلاسفة) و(المستظهرين). فارق بغداد سنة 488هـ ثم دخل الشام وأقام فيها مدة سنتين عاش فيها حياة التصوف؛ لأنَّه رأى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصَّةً، وأنَّ سيرتهم أحسنُ السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق... فعاش في خَلوة وعزلة ورياضة ومجاهدة، يعتكف في منارة مسجد دمشق طيلة النهار.

ثم إنتقل إلى بيت المقدس يدخل كل يوم الصخرة ويغلق بابها على نفسه. ثم توجه إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج. وفي هذه الفترة من العزلة ألّف عشرات الكتب كان أهمَّها (إحياءُ علوم الدين). ثم عاد بأمر من السلطان إلى نيسابور، حيثُ عمل فيها بالتدريس من جديد. ثم تركه بعد سنتين، ليعود إلى مسقط رأسه في طوس وليؤسس مدرسة للفقهاء بالقرب من داره. وكانت وفاته فيها سنة 505هـ/ 1111م عن عمرٍ قدرُه أربع وخمسون سنة.

حياته الفكرية

واللافت في حياة الغزالي ذلك التعطُّشُ إلى جميع أنواع المعرفة، وطلبُ الوصول إلى اليقين، والوقوفُ على حقيقة الأشياء.

قال في كتاب (المنقذ من الضلال) الذي ألّفه في آخر حياته: (ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أبان السن على الخمسين، أقتحم لُجةَ هذا البحر العميق... وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار كلٍّ مذهب وطائفة، لأميِّز بين كلِّ محقّ ومبطل، ومتفنِّن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته،

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطّلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته).

إن التعطش إلى درك حقائق الأمور كان فيه غريزةً وفطرة، فلاحظ أولاً أن كثيراً من معتقدات الإنسان تأتيه عن طريق التقليد فقد لفت نظره أن أولاد النصارى لا يشبّون إلا على التنصر، وأولاد اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود كما أن أولاد المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام. بينما سمع الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، فميز بين الفطرة والتقليد: فالفطرة - برأيه وكما عرفها في كتابه ميزان العمل - بأنها الحالة التي يكون فيها الإنسان مجرداً عن العقائد الوراثية والآراء التلقينية القومية.

أما التقليد فهو ما يأخذه الإنسان عن الوالدين والأساتذة، ويقبل به دون أن يعرضه على محك عقله ونظره، وهو للعوام والجماهير ولا يليق بالخاصة وطلبة العلم الذين عليهم بالنظر والاستدلال، والبحث الحر والاستقلال الفكري.

ورأى الغزالي أن إيثار تقليد على تقليد وهم وحمق، وضلال وخرق، لذلك راح يميز بين التقليدات وأوائلها التلقينات، وسعى إلى معرفة حقيقة العلم وهنا يقول: (فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقاربه إمكان الغلط والوهم بل يصبح مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً) ويضيف: (فإني إن علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، وقال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها وشاهدت ذلك فيه، لم أشك بسببه في معرفتي ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه. فأما الشك فيما علمته فلا!)[1].

وهكذا فقد مر الغزالي بأزمات نفسية وعقلية ودينية، وراح يشك في كل شيء. شك في الدين ففقد إيمانه به، وذلك عندما كان في بغداد، ولم تمكنه وظيفته

(1) المنقذ صفحة 10.

الرسمية وصفته (كإمام) من أن يجاهر بشكه، فاحتفظ فيه لنفسه، وظل يعلم غيره الكلام الأشعري والفقه الشافعي ويؤلف بينهما.

وخرج من شكه؛ لأن فكره الثاقب وذكاءه الحادّ، وتعطشه إلى المعرفة اليقينية. . . لم يمكنه من البقاء طويلاً في هذه الحالة، فلم تدم أكثر من شهرين.

وشك أيضاً في الحسيات والعقليات وأفصح الغزالي عن مراحل هذه الأزمة التي عاشها عقله قائلاً: (فانتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً وأخذ يتسع الشك فيها ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي إنك تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة، بعد ساعة، تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكام، ويكذبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته، فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً، موجوداً أو معدوماً، واجباً محالاً. فقالت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه. وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته. فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟ فَبِمَ تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل صوراً بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها، لكن يمكن أن

تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوماً بالنسبة إليها؟ فإذا وردت تلك الحالة، تيقنت أن الحالة ما يدّعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم، التي لهم، إذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم، أحوالاً لا توافق هذه المعقولات. ولعل تلك الحالة هي الموت، إذ قال رسول الله ﷺ: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا). فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن[1].

ولم يكن شك الغزالي شكاً منهجياً كشك ديكارت مثلاً؛ لأن الغزالي شك في كل شيء، أما ديكارت فإنه فرض الشك في كل شيء. وفيما نرى ديكارت يهتدي إلى حقيقة لا يسعه الشك فيها، وهي حقيقة وجوده، لأنه (يفكر)؛ ولأن التفكير لا يكون لغير موجود، ويعيدُ بنيان معارفه كلها على هذه الحقيقة البديهية، التي لم يتسرب الشك إليها، نرى الغزالي يخرج من شكه بعون من الخارج، أي من الله تعالى الذي قذف في صدره نوراً دله على طريق الخروج مما هو فيه، دون حاجة إلى أدلَّة وبراهين.

إن هذه الأزمة التي مر بها الغزالي كانت نهاية مرحلة من مراحل حياته، وبداية مرحلة جديدة، تركت بصمة مضيئة في تاريخ الفكر الإسلامي؛ لأنها جعلت للتصوف وللحياة الروحية الباطنة في الإسلام، محلاً واسعاً إلى جنب الفقه الذي يتمسك بالحرف ويستند إلى معطيات العقل.

وقد لاحظ الغزالي أن الفكر الديني - في عهده - قد غمره الجدل الفقهي، ودقائق الكلاميين الملتوية. ورأى أن الخطر على الدين يأتي من عنصرين من عناصر النشاط في العلوم الشرعية وهما: الدقائق الجدلية في العقائد، والتعريفات الملتوية في الفقه. ورأى فيهما الخطر المحدق بالديانة القلبية النفسية، لذلك هب يدافع عن الدين بتنمية الشعور الديني، وجعله غذاء للنفوس بدل استخدام طرائق الجدل والكلام.

(1) المرجع السابق صفحة 11 - 12.

أهم مؤلفاته:

يعتبر الغزالي من أغزر مفكري الإسلام وله مؤلفات عديدة في مختلف العلوم، فكتب في الفلسفة والمنطق والكلام والفقه والتصوف والتفسير والأخلاق والآداب - وأشهر كتبه:

أ - المطبوعة:

1 - إحياء علوم الدين.
2 - تهافت الفلاسفة.
3 - الاقتصاد في الاعتقاد.
4 - محك النظر.
5 - مقاصد الفلاسفة.
6 - المنقذ من الضلال.
7 - فضائح الباطنية.
8 - التبر المسبوك في نصيحة الملوك. كتبه بالفارسية وترجم إلى العربية.
9 - الولدية.
10 - منهاج العابدين.
11 - الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة.
12 - المستصفى في علم الأصول.
13 - الوجيز في فروع الشافعية.
14 - أسرار الحج.
15 - الإملاء عن شكايات الإحياء.
16 - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.
17 - عقيدة أهل السنة.
18 - ميزان العمل.

19 ـ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

20 ـ إلجامُ العوام عن علم الكلام . . .

2 ـ المخطوطة :

1 ـ معارج القدس في أحوال النفس .

2 ـ المنخول في علم الأصول .

3 ـ المعارف العقلية .

4 ـ البسيط . في الفقه .

5 ـ الفرق بين الصالح وغير الصالح .

6 ـ ياقوت التأويل في تفسير التنزيل .

وله كتب عديدة بالفارسية .

خطة الكتاب

وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، قد اشتمل على أربعة تمهيدات تجري مجرى التوطئة والمقدمات ، وعلى أربعة أقطاب تجري مجرى المقاصد والغايات .

التمهيد الأول : في بيان أن هذا العلم من المهمات في الدين .

التمهيد الثاني : في بيان أنه ليس مهماً لجميع المسلمين بل لطائفة منهم مخصوصين .

التمهيد الثالث : في بيان أنه من فروض الكفايات لا من فروض الأعيان .

التمهيد الرابع : في تفصيل مناهج الأدلة التي أوردها في الكتاب .

وأما الأقطاب المقصودة ، فأربعة تقتصر على النظر في الله تعالى . فالناظر إلى العالم لم ينظر فيه من حيث أنه عالم وجسم وسماء وأرض ، بل من حيث أنه صنع الله سبحانه . والناظر في النبي ﷺ لم ينظر فيه من حيث إنَّهُ إنسان فاضل وعالم . . . بل من حيث إنَّه رسول الله . ومن نظر في أقواله لم ينظر من حيث إنَّها أقوال ومخاطبات وتفهيمات . . بل من حيث إنَّها تعريفات بواسطته من الله تعالى .

فلا نظر إذاً إلا في الله ، ولا مطلوب سوى الله وجميع أطراف هذا العلم ، يحصرها في النظر في ذات الله تعالى ، وفي صفاته سبحانه ، وفي أفعاله عز وجل ، وفي رسول الله ﷺ وما جاءنا على لسانه من تعريف الله تعالى . فهي إذا أربعة أقطاب :

القطب الأول : النظر في ذات الله . وذلك لبيان وجوده وأنه قديم ، وأنه باق ، وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، ولا محدود بحد ، ولا هو مخصوص بجهة ، وأنه مرئي كما أنه معلوم وأنه واحد .

القطب الثاني : في صفات الله تعالى . وفيه يبين أنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم ، وأن له حياة وعلماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً وكلاماً ، ويذكر أحكام هذه الصفات ولوازمها ، وما يفترق فيها وما يجتمع فيها

من الأحكام، وأن هذه الصفات زائدة على الذات وقديمة وقائمة بالذات، ولا يجوز أن يكون شيء من الصفات حادثاً.

القطب الثالث: في أفعال الله تعالى: وفيه سبعُ دعاوى وهي أنه لا يجب على الله تعالى التكليف ولا الخلق ولا الثواب على التكليف، ولا رعاية صلاح العباد، ولا يستحيل منه تكليف ما لا يطاق ولا يجب عليه العقاب على المعاصي، ولا يستحيل منه بعثه الأنبياء عليهم السلام، بل يجوز ذلك. وفي مقدمة هذا القطب بيان معنى الواجب والحسن والقبيح.

القطب الرابع: في رسل الله، وما جاء على لسان رسولنا محمد ﷺ من الحشر والنشر والجنة والنار والشفاعة وعذاب القبر، والميزان والصراط، وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: في إثبات نبوة محمد ﷺ.

الباب الثاني: فيما ورد على لسانه من أمور الآخرة.

الباب الثالث: في الإمامة.

الباب الرابع: في بيان القانون في تكفير الفرق المبتدعة.

التمهيد الأول

في بيان أن الخوض في هذا العلم مهم في الدين

إن صرف الهمة إلى ما ليس بمهم، هو غاية الضلال ومنتهى الخسران، سواء كان - المنصَرَفُ إليه بالهمة - من العلوم أو من الأعمال، وأهم الأمور لكافة الخلق نيل السعادة الأبدية، واجْتنابُ الشقاوة الدائمة، وقد بيَّن الأنبياء للخلق بأن لله تعالى على عباده حقوقاً ووظائف في أفعالهم وأقوالهم وكذلك في عقائدهم. فمن لم ينطق لسانه بالصدق، ولم ينطو ضميره على الحق، ولم تتزين جوارحه بالعدل... آل إلى النار. ثم لم يقتصروا على مجرد الإخبار بل استشهدوا على صدقهم بأمور غريبة وأفعال عجيبة خارقة للعادات، خارجة عن مقدورات البشر. فمن شاهدها، أو سمع أحوالها بالأخبار المتواترة صدَّقهم. بل غلب على ظنه بأول السماع - وقبل أن يمعن في تمييز المعجزات - ذلك وهذا الظن البديهي، ينزع من قلبه الطمأنينة، ويملؤه بالخوف، ويحذِّره مغبة التساهل والإهمال، ويتقرر عنده أن الموت آتٍ لا محالة، وأن ما بعد الموت مغيَّب عن أبصار الخلق، وأن ما أخبر به هؤلاء لا يخرج عن الإمكان. فلا بد من الحزم للوصول إلى حقيقة هذا الأمر. فمثل هؤلاء مع العجائب التي أظهروها - للدلالة على صدقهم - وقبل البحث عن تحقق قولهم، كمثل شخص يخبرنا عند خروجنا من دارنا ومحل استقرارنا، أن سَبُعاً من السباع قد دخل الدار، وأنَّ علينا أن نأخذ حذْرَنا منه. فإنا بمجرد السَّماع إذا رأينا ما أخبرنا عنه - ذلك الشخص - في محل الإمكان والجواز، لم نفكر بالدخول ونبالغ في الاحتراز. فالموت هو المستقر والوطن قطعاً، فكيف لا يكون الاحتراز لما بعده مهماً؟ فمن أهم المهمات إذن البحث عن قوله - الذي قضى الذهن بإمكانه - أهو محال في نفسه وغير قابل للتحقق، أم هو حق لا شك فيه؟

فمثلاً قوله: (إن لكم رباً كلفكم حقوقاً وهو يعاقبكم على تركها ويثيبكم على فعلها، وقد بعثني رسولاً إليكم لأبيِّن ذلك لكم). يلزمنا ـ لا محالة ـ أن نعرف أن لنا رباً أم لا؟ وإن كان فهل يمكن أن يكون حياً متكلماً حتى يأمر وينهى ويكلف ويبعث الرسل، وإن كان متكلماً فهل هو قادر على أن يعاقب ويثيب إذا عصيناه أو أطعناه، وإن كان قادراً فهل هذا الشخص بعينه صادق بقوله: (أنا الرسول إليكم)؟

فإذا اتَّضح ذلك لزمنا ـ لا محالة إن كنا عقلاء ـ أن نأخذ حذْرَنا ونستحقر هذه الدنيا الفانية، فالعاقل من ينظر لعاقبته ولا يغترُّ بعاجلته.

ومقصود هذا العلم ـ كما تقدم ـ إقامة البرهان على وجود الله سبحانه وصفاته وأفعاله، وصدْقِ الرسل وكل ذلك مهم، لا غنى عنه لأي عاقل.

التمهيد الثاني

(في بيان الخوض في هذا العلم إن كان مهماً.. فهو في حق بعض الخلق ليس بمهم بل المهم لهم تركه)

إن الأدلة التي حررها الغزالي؟ في هذا العلم تجري مجرى الأدوية التي تعالجُ مرض القلوب. والطبيب الذي يستعملها إن لم يكن حاذقاً ثاقب العقل رصين الرأي.. كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه. وعلى كل من أراد تحصيل مضمون هذا الكتاب، والاستفادة من هذه العلوم أن يعْلَم أن الناس أربع فرق:

الفرقة الأولى: آمنت بالله وصدقت رسوله واعتقدت الحق وأضمرته، واشتغلت بالعبادة تارة وبالصناعة تارة أخرى، فهؤلاء ينبغي عليهم أن يتركوا الاستحثاث على تعلم هذا العلم، فإن النبي ﷺ لم يطالب العرب ـ في مخاطبته إياهم ـ بأكثر من التصديق، ولم يفرق بين أن يكون هذا التصديق بإيمان تقليدي أو بيقين برهاني، وهؤلاء مؤمنون حقاً فلا ينبغي أن تشوش عقائدهم، فإنهم لو اطلعوا على هذه البراهين وما عليها من الإشكالات وحلها لم يؤمن أن تعلق بأفهامهم مشكلة من المشكلات وتستولي عليها ولا تمحى عنها بما يذكر من طرق الحل. ولهذا لم ينقل عن الصحابة الخوض في هذا الفن لعدم احتياجهم إليه لا بتدريسٍ ولا تصنيف، بل كان شغلهم بالدعوة إلى الله وعبادته، وحمل الخلق على ما يرشدهم ويحقق مصالحهم في أحوالهم وأعمالهم ومعاشهم فقط.

الفرقة الثانية: طائفة مالت عن اعتقاد الحق كالكفرة والمبتدعة. وهؤلاء لا ينفع معهم إلا السوط والسيف. فأكثر الكفرة أسلموا به.

وبالعودة إلى تاريخ المسلمين نجد أنه لم تقع ملحمة بين المسلمين والكافرين إلا وكان نتيجتها دخول جماعة من أهل الضلال في الإسلام ومالوا إلى الانقياد، بينما لم نجد مناظرة أو مجادلة إلا وأسفرت عن زيادة إصرار وعناد، لأن نور العقل كرامة

لا يخص الله بها إلا الآحاد من أوليائه، والغالب على الخلق القصور والإهمال، فهم لقصورهم لا يدركون براهين العقول كما لا تدرك الشّمسَ أبصارُ الخفافيش، وهؤلاء تضرُّ بهم العلوم كما تضرُّ رياح الورد بالجُعل. وفي مثل هؤلاء قال الإمام الشافعي رحمه الله.

فمن منح الجهّال علماً أضاعَهُ ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الفرقة الثالثة: طائفة اعتقدوا الحق تقليداً وسماعاً ولكن خصوا بذكاء وفطنة، فتنبهوا من أنفسهم لإشكالات تشككهم في عقائدهم، أو سمعوا شبهة من الشبهات وحاكت في صدورهم، فهؤلاء يجب التلطف في معالجتهم بإعادة طمأنينتهم، وإماطة شكوكهم بما أمكن من الكلام المقنع، المقبول عندهم، فإن زال شكه فلا ينبغي أن يشافه بالأدلة المحررة على مراسم الجدال؛ لأن ذلك ربما يفتح عليه أبواباً أخرى من الإشكالات. أما إن لم يقتنع إلا بكلام يسير على محك التحقيق، فيجوز أن يشافه بالدليل الحقيقي، وذلك على حسب الحاجة وفي موضع الإشكال على الخصوص.

الفرقة الرابعة: طائفة من أهل الضلال، ينغرس فيهم الذكاء والفطنة، ويتوقّع منهم قَبُول الحق. فهؤلاء يجب التلطف بهم في استمالتهم إلى الحق وإرشادهم إلى الاعتقاد الصحيح، لا في معرض المحاجّة والتعصب، لأن ذلك يزيد من دواعي الضلال ويهيج بواعث التمادي والإصرار. وأكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوامّ، بتعصب جماعة من جهّال نظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء. فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ورسخت في نفوسهم الاعتقادات الباطلة، وعسر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها. والمجادلة والمعاندة داء محض لا دواء له. فعلى المتدين أن يتحرز، وليترك الحقد والضغينة وينظر إلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وليستعنْ بالرفق واللطف في إرشاد من ضل من هذه الأمة.

التمهيد الثالث

(في بيان أنَّ الاشتغال بهذا العلم من فروض الكفاية)

إن الاشتغال بهذا العلم والتبحُّر به، ليس من فروض الأعيان، وإنما هو من فروض الكفايات، لأنه لا يجب على كافة الخلق إلا التصديق وتطهير القلب عن الريب والشك بالبرهان. وهو فرض عين في حق من اعتراه الشك لإزالته.

إن إزالة الشكوك في أصول العقائد واجبة، والشك غير مستحيل وإن كان لا يقع إلا في الأقل، والدعوة إلى الحق بالبرهان مهمة في الدين. وقد يثور مبتدع ويتصدى لإغواء أهل الحق بإفاضة الشبهة فيهم، فلا بد ممن يقاوم شبهته بالكشف ويعارض إغواءه بالتقبيح... ولا يمكن ذلك إلا بهذا العلم. لذا فلا بد من وجود من يشتغل بهذا العلم من كل قطر، ليقاوم دعاة المبتدعة ويستميل المائلين عن الحق ويُصفّي قلوب أهل السنة من عوارض الشبهة. وإذا خلا قطر من هؤلاء أثم أهل القطر كافّة.

التمهيد الرابع

(في بيان مناهج الأدلة التي انتهجها الغزالي في كتابه)

لقد اقتصر الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد) على ثلاثة مناهج :

المنهج الأول:

السبر والتقسيم . وهو حصر الأمر في قسمين ثم يتم إبطال أحدهما فيلزم ثبوت الثاني .

فإذا قلنا :	العالمُ إمَّا حادث وإمَّا قديم	م ك أصل أو علم
	ومحال أن يكون العالم قديماً	م ص أصل أو علم
	فيلزم أن يكون حادثاً	ن النتيجة أو المطلوب

إن المطلوب الذي حصلنا عليه استفدناهُ من علمين آخرين ، كل علم يسمى أصلاً ، وإنَّ المطلوب يسمى دعوى مع وجود خصم وإلا فيسمى فائدة أو فرعاً بالإضافة إلى الأصلين (العلمَين) . ولا يمكن أن نحصل على المطلوب إلا من علمين هما أصلان . أي من مقدمتين وليس كل علمين أو أصلين يمكن أن نحصل منهما على المطلوب . وبمعنى آخر فليس كل مقدمتين يمكن الحصول منهما على نتيجة إلا إذا وقع بينهما إزدواج على وجه مخصوص وشرط مخصوص .

قواعد القياس وشروطه:

أولاً : قاعدتا التركيب :

ويشترط فيهما ما يلي :

1 ـ يجب أن يتركَّبَ القياس من ثلاث قضايا : مقدَّمتَين ونتيجة .

2 ـ يجب أن يتركَّبَ القياس من ثلاثة حدود هي : (أكبر وأوسط وأصغر) ويشترط في الحد الأوسط أن يأتي في المقدمتين بالمعنى نفسه بحيث يربط بين الحد الأكبر والحد الأصغر .

ثانياً : قاعدتا الاستغراق :

ويشترط فيهما ما يلي :

1 ـ يجب استغراق الحد الأوسط في إحدى المقدمتين على الأقل .

2 ـ يجب أن لا يستغرق حد في النتيجة ما لم يكن مستغرقاً في إحدى المقدمتين على الأقل .

فمثلاً نقول :	كل الأبطال أقوياء	/م . ك/
	كل جندي بطل	/م . ص/
	كل جندي قوي	/ن/

ثالثاً : قاعدتا الكيف :

ومن شروطهما :

1 ـ لا إنتاج من مقدمتين سالبتين ؛ لأن الحد الأوسط لا يربط بين المقدمتين .

2 ـ إذا كانت إحدى المقدمتين سالبة فيجب أن تكون النتيجة سالبة .

فمثلاً نقول :	ليس كل الطلاب حاضرين	/م . ك/
	سمير طالب	/م . ص/
	ليس سمير حاضراً	/ن/

نتائج قواعد القياس:

1 ـ لا إنتاج من مقدمتين جزئيتين سواء كانتا سالبتين أو موجبتين ، أو إحداهما سالبة والأخرى موجبة .

2 ـ إذا كانت إحدى المقدمتين جزئية فلا بد أن تكون النتيجة جزئية أيضاً .

فمثلاً نقول :	كل الطلاب حاضرون	/م ك/
	بعض المجتهدين طلاب	/م ص/
	بعض المجتهدين حاضرون	/ن/

المنهج الثاني:

إذا أقر الخصم بالأصلين أو العلمين فلا بد له أن يقر بالمطلوب ، لأنه لا يمكن أن يقر بالأصلين ثم ينكر صحة الدعوى أو المطلوب فهذا محال . ويمكن ترتيب الأصلين على شكل قياس منطقي على النحو التالي :

كل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث	/ م ك/
والعالم لا يخلو عن الحوادث	/ م ص/
العالم حادث	/ ن/

المنهج الثالث:

ويقضي بعدم التعرض لثبوت صحة دعوانا أو مطلوبنا أو قضايانا، بل ندعي أن دعوى الخصم مستحيلة، وأن دعواه تفضي إلى المحال، وما يفضي إلى المحال فهو محال لا محالة.

ومثاله أن نقول:

إن دورات الفلك لا نهاية لها.

وأن ما لا نهاية له قد انقضى وفرغ منه.

إن دورات الفلك قد فرغ منها وانقضت وهذا محال.

إن إقرار الخصم بالأصلين يعتمد على عدة مدارك هي:

1 - الحسيات.

2 - العقل.

3 - التواتر.

4 - القياس.

5 - السمعيات.

6 - معتقدات الخصم ومسلماته.

1 - الحسيات:

والمقصود بها ما يدرك بالمشاهدة الظاهرة والباطنة:

مثال:	كل حادث له سبب	/ م ك/	أصل أول
	في العالم حوادث	/ م ص/	أصل ثاني
	العالم له سبب	/ ن/	نتيجة أو مطلب.

إن هذا العالم ندركه بالمشاهدة الظاهرة بكل ما فيه من أشخاص وحيوانات ونباتات وغيوم وأمطار ومن الأعراض كالأصوات والألوان.. أما ما يدرك

بالمشاهدة الباطنة، كالأفراح والآلام والهموم والغموم في القلب.. فإن كل ذلك لا يمكن إنكاره.

2 - العقل المحض:

أي ما يقرُّه العقل ويدركه.

كأن نقول	كل ما لا يسبق الحوادث فهو حادث	/ م ك/	أصل أول
	العالم لا يسبق الحوادث	/ م ص/	أصل ثاني
	العالم حادث	/ ن/	مطلب

إن الإنسان العامل لا يمكن أن ينكر أحد الأصلين أو إحدى المقدمتين (ما لا يسبق الحوادث فهو حادث)؛

لأن ما لا يسبق الحوادث إما أن يكون مع الحادث أو بعده، ولا سمكن غير ذلك، فإن ادَّعى أحدهم غير ذلك كان منكراً لما هو بديهي في العقل، وإن ادَّعى أيضاً ما هو مع الحادث أو بعده ليس بحادث فهو أيضاً منكر للبديهة.

3 - التواتر:

كأن نقول	كل مت جاء بالمعجزة فهو صادق	/ م ك/
	محمد ﷺ جاء بالمعجزة	/ م ص/
	محمد ﷺ صادق	/ ن/

فإن قال أحدهم: لا نسلّم بأن محمداً جاء بالمعجزة. فيمكن الرد عليه بأن محمداً ﷺ جاء بالقرآن الكريم، والقرآن معجزة، فمحمد ﷺ جاء بالمعجزة.

وقد ينكر أحدهم أيضاً، أنه لا يسلم بأن محمداً ﷺ قد جاء بالقرآن. فيرد عليه بأن القرآن الكريم وصل إلينا بالتواتر، كما حصل لنا العلم به وبوجوده وبنبوته ﷺ وبكل الأنبياء والرسل عليهم صلاة الله أجمعين بالتواتر أيضاً.

4 - القياس:

وهو أن نجعل أحد الأصلين (أحد العلمين أو المقدمتين) أصلاً في قياس آخر. لقد ثبت أن العالم حادث، فيمكن أن نجعل هذا الأصل أصلاً لقياس فنقول:

كل حادث له سبب	/ م ك/	أصل أول
العالم حادث	/ م ص/	أصل ثاني
العالم له سبب	/ ن/	مطلب

5 ـ السمعيات :

وهو ما ثبتتْ صحته بإجماع الأمة ونقل إلينا عن طريق السمع . فيكون السمع مانعاً من الإنكار .

6 ـ معتقدات الخصم ومسلّماته :

إن كل ما يعتقد به الخصم ويسلم به ، يمكن أن نتخذه في قياسنا ، ولا يمكن للخصم أن ينكر ذلك .

إن هذه المدارك الستَّة المذكورة ، تتفاوت من حيث الانتفاع بها في المقاييس النظرية ، وذلك حسب الأشخاص على النحو التالي :

1 ـ المدركات الحسية والعقلية : يمكن أن يستفيد منها جميع الناس إلا من لا عقل له ، أو لا حس له ، ففاقد البصر مثلاً لا ينتفع بالمشاهدة الحسية ، وفاقد السمع لا ينتفع بالأدلة السمعية .

2 ـ وأما التواتر : فإنه ينفع من تواتر إليه الخَبَر ، فإن لم يتواتره ولم يصل إليه ، فلا يقدر إثبات ما لم يتواتر عنده ، ورب شيء يتواتر عند قوم ولا يتواتر عند آخرين . فمسألة قتل المسلم بالذمي عند الشافعي متواترة عند الفقهاء من أصحابه ، دون العوام من المقلّدين ، وهكذا في كثير من المسائل .

3 ـ أما الأصل (العلم) المستفاد من قياس آخر : فهو لا ينفع إلا مع من قدر معه ذلك القياس .

4 ـ وأما مسلمات المذاهب : فإنها لا تنفع الناظر بل تنفع المناظر مع من يعتقد ذلك المذهب .

5 ـ وأما السمعيات : فإنها تنفع وتفيد من يثبت السمع عندَه .

صفة السمْع : صفة أزليَّةٌ قائمة بذات الله تعالى غيرُ منفصلة عنه ويمكن الكلام عن صفة السمع من ثلاث جهات :

1 ـ معنى السمع .

2 ـ دليل وجوب اتِّصافه بالسمع .

3 ـ ما تتعلّق به صفة السَمع .

1 ـ معنى السمع : إنّ صفةَ السمع ـ كما مرَّ سابقاً ـ هي صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى غيرُ منفصلة عنه ، وهي صفة واجبة في حق الله تعالى . وصفة السمع لله تعالى تختلف عن السمع عند الإنسان الحادث ؛ لأن الله من صفاته مخالفته للحوادث ، أي لا يشبه مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

فالسمع الذي يوصف به الإنسان هو قوة مودعة في العصب في صماخ الأذن ، يدرك بها الأصوات ، ولا مانع أن يدرك الإنسان غير الأصوات إذا وهبه الله القدرة على ذلك ، كما سمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى الذي ليس بصوت ولا حرف .

فصفة السمع عند الله تعالى تختلف عن صفة السمع للمخلوق الحادث (الإنسان . .) إذ يستحيل في حقه تعالى أن يكون سمعه كسمع الإنسان . .

وقد ذكر المحقِّقون : أنَّ صفة السمع لله تعالى زائدةٌ على صفة العلم .

2 ـ دليل وجوب صفة السمع لله تعالى : فإنه يدل على ذلك الشرع والعقل .

أ ـ أما الدليل الشرعي النقلي : فهو ما ثبت في الكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة .

فمن القرآن الكريم : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (1) .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (2) .

وقوله : ﴿ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ (3) .

وقوله أيضاً : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (4) .

وقوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (5) .

---

(1) سورة المجادلة آية / 1/ .

(2) سورة الشورى آية / 11/ .

(3) سورة الشعراء آية / 15/ .

(4) سورة طه آية / 46/ .

(5) سورة مريم آية / 42/ .

والدليل من السنة الشريفة: ما رواه أبو موسى الأشعري بقوله: كنا مع النبي ﷺ فجعلنا في وهدة من الأرض فرفع الناس أصواتهم بالتكبير فقال: (يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً. فقال: - وكنت قريباً منه - يا عبدَ الله بنَ قيس ألا أدلُّك على كلمة من كنز الجنة؟ قلت بلى. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله السميع البصير)[1].

ب - وأما الدليل العقلي على أن الله متصف بصفة السمع: فهو أن السمع كمال، والسميع أكمل مما لا يسمع، ولو لم يتصف الله تعالى بالسمع للزم النقص في حقه، والنقص محال على الله، فيستحيل على الله عدم اتِّصافه بالسمع. وقد أكد ذلك إبراهيم عليه السلام حين قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾[2]. فلو كان الله لا يتَّصف بالسمع لاحتجَّ قومُ إبراهيمَ عليه بأنَّه هو أيضاً يعبد ما لا يسمع ولا يبصر.

3 - **تعلُّق صفةِ السمْع**: إنَّ صفةَ السمع لله تعالى تتعلق بجميع الموجودات، سواء منها القديم (كذاته تعالى وصفاته). أو الحادث (كجميع المخلوقات) وسواء في ذلك الأصوات وغيرها. وهذا رأي السنوسي.

ومنهم من قال: إن صفة السمع تتعلق بالمسموعات، سواء كانت المسموعات في حقنا (وهي الأصوات) أو المسموعات في حقه تعالى (وهي الموجودات عامة) فمتعلق صفة السمع عند الفريقين واحد. فالله تعالى يسمع كلاً من الأصوات والذوات، بمعنى أنَّ كلاً منها منكشف له يسمعه. وهذا ما يجبُ اعتقادُه.

إنَّ الانكشافَ بالسمع غيرُ الانكشاف بالبصر، وإنَّ كلاً منهما غيرُ الانكشاف بالعلم، ولكلٍّ واحدٍ منها حقيقة نفوض علمها إلى الله تعالى.

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى ج/ 4/ صفحة 398.

(2) سورة مريم آية / 42/.

صفةُ البصر:

صفة أزلية قائمة بذات الله غير منفصلة عنه، تُدركُ إدراكاً تاماً لا عن طريق التخيل والتوهم، ولا عن طريق تأثر حاسة ووصول شعاع.

ويمكن الكلام عن صفة البصر من ثلاث جهات أيضاً:

1 - معنى البصر.

2 - دليل وجوب اتِّصافه تعالى بصفة البصر.

3 - ما تتعلّق صفةُ البصر.

1 - **معنى البصر**: إن صفة البصر صفة واجبة في حق الله تعالى، وهي صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى غير منفصلة عنه. وإنّ صفة البصر لله تعالى تختلف عن صفة البصر للإنسان الحادث؛ لأن الله تعالى لا يشبه مخلوقاته. فصفة البصر عند الإنسان وغيره من أنواع الحيوان هي قوة مخلوقة في العينين تدرك الأضواء والأشكال وغير ذلك، وإن هذا المعنى محال على الله تعالى؛ لأنه يستدعي التركيب.

2 - **أما الدليل الشرعي والعقلي على وجوب صفة البصر لله تعالى فهو:**

من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[1].

وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[3].

وقوله أيضاً: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4].

هذه الآيات تدل على أن الله تعالى سميع بغير جارحة.

(1) سورة طه آية / 46/.

(2) سورة طه آية / 33، 34، 35/.

(3) سورة الشعراء آية / 218 - 219/.

(4) سورة التوبة آية / 105/.

وأما الدليل من السنة : فهناك أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : (إنكم لا تدعون أصمَّ) .

والدليل العقلي على وجوب صفة البصر لله تعالى : هو ما ذكرناه في إثبات صفة السمع .

فنقول : إن عدم البصر نقص ، فلو لم يتصف الله تعالى بالبصر لكان ناقصاً . والنقص مستحيل في حقه جل جلاله ، وهو منزه عن النقص فثبت نقيضه وهو اتصافه بالبصر .

3 ـ أما ما تتعلق به صفة البصر :

فبعض العلماء يقول : إن صفة البصر تتعلق بالموجودات عامة ، سواء منها القديم والحادث ، فالقديم (كذات الله وصفاته) والحادث (كالمخلوقات عامة) .

ومنهم من قال : إن صفة البصر تتعلق بالمبصرات ، وهذه العبارة تحتمل معنيين :

أ ـ المبصرات في حقنا .

ب ـ المبصرات في حقه تعالى (بذاته وبجميع المخلوقات والموجودات) وحتى المخلوقات الخفية جداً التي لا نراها . كما قال أحدهم :

يا من يرى مدَّ البعوض جناحَهُ	في ظلمة الليل البهيم الأَلْيَل
ويرى نياطَ عروقها في نحرها	والمخَّ في تلك العظام النحَّل
امننْ عليَّ بتوبة أمحو بها	ما كان منِّي في الزَّمان الأوَّل

وقول أحدهم أيضاً إن الله يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء .

القطب الأول
(في النظر في ذات الله تعالى)
وفيه عشر دعاوى

الدعوى الأولى:

إن الله تعالى يتصف بكل صفات الكمال ، منزه عن جميع صفات النقص .

هذه الصفات تلتقي ضمن عشرين صفة رئيسية ، وتقسم إلى أربعة أقسام هي :

1 ـ الصفة النفسية الذاتية : وهي صفة الوجود .

2 ـ الصفات السلبية : وهي الوحدانية ، والقدم ، والبقاء ، مخالفته للحوادث ، قيامه بالنفس .

3 ـ صفات المعاني : وهي القدرة والإرادة ، والعلم ، والكلام والسمع والبصر والحياة .

4 ـ الصفات المعنوية : وهي كونه تعالى : قادراً ، مريداً ، عليماً ، متكلماً ، سميعاً ، بصيراً ، حياً .

صفة الوجود:

والوجود يعني : ثبوت الشيء وتحققه . فالوجود صفة ثبوتية يدل الوصف بها على الذات دون معنى زائد عليها . فهي واجبة له تبارك وتعالى لذاته لا لعلة أي إنَّ غيره لم يؤثر في وجوده .

أما الوجود غير الذاتي ـ مثل وجودنا ـ فهو بفعله تعالى .

الوجود الكامل والوجود الناقص:

إن وجود الله تعالى وجود كامل ذاتي ، أي موجود لذاته لا لعلة مؤثرة فيه .

ومن خصائص الوجود الكامل أنه لا يقبل العدم .

أما الوجود الناقص: فهو وجود كل ما سوى الله، ووجوده مستمد من غيره، ومتوقف على الموجد له ومن خصائص الوجود الناقص أنه يقوم بين عدمين: عدم سابق قبل وجوده، وعدم لاحق، أي بعد فنائه.

الأدلة العقلية على وجود الله تعالى:

إن الأدلة على وجود الله تعالى كثيرة أهمها:

1 ـ دليل البداهة.

2 ـ دليل الخلق.

3 ـ دليل القدرة.

4 ـ دليل الغاية.

5 ـ دليل المنطق.

6 ـ دليل العلم الحديث.

دليل البداهة والفطرة:

إن مسألة وجود الله هي مسألة وعي، فالإنسان له وعي يقيني بوجود الله وحقيقته الذاتية. ويعتبر الشعور الفطري في الإنسان بوجود الله تعالى من أقوى الأدلة، والشعور الفطري هو الدليل إلى معظم المعارف مهما تقدمت العلوم، كالشعور بالألم والجوع والعطش والأمومة، والوجدانات والعواطف.. كل ذلك نشعر بوجوده ولا نحتاج إلى دليل نبرهن عليه. وكذلك فإن شعورنا الفطري بوجود الله لا يحتاج إلى دليل أو برهان. كما قال الفيلسوف الفرنسي ديكارت: أنا أفكر إذاً أنا موجود، وأنا موجود إذن الله موجود.

إن الشعور بوجود الله تعالى مشترك بين كل الناس، ويقوم في نفس كل إنسان طفل أو كبير، بدائي أو متحضر، عالم أو جاهل، رجل أو إمرأة، باحث أو فيلسوف عبقري، خبير أو فنان أو... كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك وهو أن الله موجود وأنه حق. قال تعالى:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[1].

وقال أيضاً:

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾[2].

كمون هذه الفطرة وتجليها عند الشدائد:

إن فطرية الإيمان بالله تعالى قد تخفى في خبايا النفوس وحناياها، ولكن الإنسان يستجيب لنداء فطرته عندما تواجهه الأخطار والشدائد. ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[3].

إنحراف الفطرة:

قد يصيب الفطرة ـ التي فطر الله الناس عليها ـ بعضُ الآفات والعاهات، فتشوهها وتخرجها عن طبيعتها، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ حين قال: (كل إنسان يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[4]. قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[5].

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)[6].

---

(1) سورة الروم آية / 30/.

(2) سورة البقرة آية / 138/.

(3) سورة يونس آية / 22/

(4) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب 46 ـ الباب السادس، الحديث رقم 25.

(5) سورة الروم آية / 30/.

(6) حديث صحيح مسلم ج1 ـ ص314، وما بعدها.

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2].

فإذا انحرفت الفطرة وتشوهت كان لابد من إقامة البراهين والأدلة على وجود الله تعالى، لتعود الفطرة إلى سلامتها وصحتها وأصالتها. ولو ترك الإنسان وشأنه من غير أن يعترض سبيله معترض، فإنه ينشأ مؤمناً بوجود خالقه ومعترفاً بحاجته إليه، يحس ويشعر بهذا الإيمان في أعماق نفسه، من غير حاجة إلى دليل وبرهان، بل يتحقق ذلك بداعي الفطرة السليمة الصافية.

أقوال بعض الفلاسفة والعلماء في وجود الله تعالى:

يقول ديكارت: أنا موجود. فمن أوجدني ومن خلقني؟ أنا لم أوجد ذاتي ونفسي فلا بد من خالق، وهذا الخالق لابد أن يكون واجب الوجود، وغير مفتقر إلى من يوجده، أو يحفظ عليه وجوده، ولا بد أن يكون متصفاً بكل صفات الكمال. هذا الخالق هو الله بارئ كل شيء.

ويقول باسكال: كان يمكن أن لا أكون لو كانت أمي قد ماتت قبل أن أولد حياً. فلست إذاً كائناً واجب الوجود، ولست دائماً ولا نهائياً. فلا بد من كائن واجب الوجود دائم لا نهائي، يعتمد عليه وجودي ألا وهو الله، الذي ندرك وجوده إدراكاً أولياً، بدون أن نتورّط في جدل البراهين العقلية ولكن على الذين لم يقدر لهم هذا الإيمان القلبي، أن يسعوا للوصول إليه بعقولهم.

ويقول ألبرت أنشتاين: صاحب النظرية النسبية:

إن جميع أصحاب النظريات الدينية في كل العصور قد عرفوا بهذا النوع من الإيمان ومن الشعور الديني الذي لا ينتمي إلى نحلَة؛ لأن الله لا يتمثل في أمثلة بشرية. وإنني أرى أن أهم وظيفة من وظائف الفنّ والعلم، هي أن يوقظ هذا الشعور، وأن يبقيه حياً في الذين تهيّؤوا له.

(1) سورة الزمر آية /38/ .

(2) سورة إبراهيم آية /10/ .

وقال سنسر: إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك وأن الأديان كانت أول من أتى بهذه الحقيقة العلوية ولقنتها للناس.

وقال أحدهم:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وقال الآخر:

فوا عجباً كيف يعصي الإله ... أو كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيء له آيةٌ ... تدلّ على أنّه واحدُ!!

دليل الخلق «أو السببية»

قانون السببية: إن الشيء الساكن لا يتحرك إلا بمحرك يحركه. وإنَّ المعدوم لا يوجد إلا بموجد يوجده. وإنَّ تعطيل قانون السببية تعطيل لأحكام العقل ومبادئه.

ومبادئ العقل هي: مبدأ الهوية، ومبدأ السببية، ومبدأ الغائية، ومبدأ الحتمية.

والأدلة على مبدأ السببية كثيرة جداً منها:

أنه لكل سبب مسبب، ولكل حادثة سبب، وكذلك خلق الإنسان والكون وكل ما في الوجود لابد له من سبب أو صانع...

فإذا كان لكل مصنوع صانع كالأبنية والقصور والأدوات والمخترعات... وهذه كلها لا يمكن أن توجد من تلقاء نفسها، ولا بد من صانع موجد لها، فكيف بهذا العالم والكون الفسيح بكل ما فيه لا يكون له موجد صانع؟!

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[1].

وكما قالت امرأة عندما سئلت عن وجود الله ودليلها على ذلك: إن البعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير. فسماءٌ ذات أبراج وأرض ذات فجاج،

(1) سورة الروم آية /22/ .

وبحار ذات أمواج . . . ألا تدل على الواحد القهار! وقد وجِّهتْ إلى قانون السببية ـ أو دليل الخلق ـ عدة اعتراضات منها :

الاعتراض الأول :

يقال: إن هذا الكون لم يخلقه أحد وإنما وجد عن طريق المصادفة :

الرد على الاعتراض: إن المصادفة عشوائية وقد تحدث مرة واحدة ولا تحدث كل مرة. وهل من المعقول أن يكون هذا الكون بنظامه الدقيق، وهذا الإنسان وما فيه من أجهزة وأعضاء تعمل بدقة . . أن يكون وجودهما صدفة؟! ثم إن الصدفة عمياء عشوائية ليست قانوناً ثابتاً، والمصادفة تتنافى مع العلم والعقل والمنطق السليم القائم على الأسباب والمسببات.

الاعتراض الثاني :

يقال: إن هذا الكون ليس له خالق، بل هو موجود من القدم ليس لوجوده بداية.

الرد على الاعتراض: إن الكون والعالم قديم إذن حسب إقرارهم أي إنَّ الأزلية لابد منها، فهي إما أن تنسبها إلى حي أو ميت. والكون أو العالم الذي نعيش فيه موجود. وإننا نرى أن هذا العالم يتعرض للفناء والزوال والعدم، وهو مرتبط بزمان ومكان معين. فالعالم وجد بعد أن لم يكن موجوداً، أي هو حادث، والحادث ليس بقديم، فلا بد من خالق أزلي ليس له بداية، حي عالم بكل شيء، قوي قادر هذا الخالق لابد أن يكون هو الذي أوجد العالم من العدم. وبما أن هذا العالم يتعرض للزوال والعدم فيستحيل عليه أن يكون قديماً. وهذا يبدو واضحاً من خلال القياس التالي:

كل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم	/م. ك/
العالم جاز عليه العدم	/م. ص/
العالم يستحيل عليه القدم	/ن/

دليل القدرة:

إذا تأملنا هذا الكون أدركنا أنَّ هناك ذاتاً خالقة مدبرة لها قدرة غير محدودة تدير هذا الكون وتسيره وتتجلى هذه القدرة في بديع صنع الخالق، وفي دقة الصنع والخلق والإبداع، كما تتجلى في صنع الإنسان والحيوان والنبات بأنواعه. قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

دليل الغاية:

إن الله تعالى خلق العالم وكلَّ ما فيه من إنسان وحيوان ونبات، وأوجد لهم كل ما يحتاجون إليه من ضروريّات الحياة بشكل لا يمنع استمرارها على الأرض. فخلق الهواء والماء والغذاء والشمس . . للضياء والتدفئة والإنماء . .

وهناك أدلة نقلية كثيرة من القرآن الكريم، تشير إلى عناية الله بمخلوقاته. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾[2].

وقال النبي ﷺ لعمران بن الحصين: (كم لك من إله؟ قال: عشرة. قال: فمن لغَمِّكَ وكربك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك؟ قال: الله. قال ﷺ: ما لك من إله غيرُه)[3].

دليل العلم الحديث:

لقد وصل العلم الحديث إلى اكتشافات لم يجد لها تفسيراً. فاضطر العلماء إلى ردها إلى الله سبحانه وتعالى صراحة أو ضمناً. وهناك أمثلة كثيرة على ذلك

---

(1) سورة الرعد آية / 4 / .

(2) سورة الملك آية / 30 / .

(3) أخرجه

منها: الجاذبية الأرضية، وعمل القلب، والطاقة الكهربائية وإنتاج النحل للعسل، وبناء أقراص الشمع بشكل هندسي . . .

دليل المنطق:

يستدل علماء المنطق على وجود الله تعالى بما يلي:

يقسم المعلوم إلى ثلاثة أقسام: مستحيل الوجود لذاته، وواجب الوجود لذاته، وممكن الوجود.

أولاً: مستحيل الوجود لذاته: أي لا يطرأ عليه الوجود أبداً ولا يمكن أن يوجد؛ لأن العدم من لوازم ماهيته فمثلاً: اجتماع الأضداد يستحيل وجودها. أو كأن يكون العدد زوجاً وفرداً بآن واحد.

ثانياً: واجب الوجود لذاته: وهو الموجود لذاته دون افتقار إلى موجود يوجده، وله صفات القدرة والعلم والإرادة والبقاء والوحدانية والكلام. . . ألا وهو الله.

ثالثاً: ممكن الوجود: وهو الذي لا وجود له لذاته ولا عدم له لذاته، وإنما يوجد إذا وجد من يوجده، ويبقى عدماً إذا لم يوجد مسبب لوجوده.

إن العالم وجميع ما في الكون هو ممكن الوجود، وبما إن العالم موجود إذاً لا بد من موجد أوجده. ألا وهو الله لأن:

1 ـ مستحيل الوجود لا يمكن أن يوجد ممكن الوجود؛ لأن مستحيل الوجود غير موجود، فكيف يمكن لغير الموجود أن يكون سبباً للوجود؟!

2 ـ إن ممكن الوجود لا يمكن أن يوجد نفسه؛ لأنه يلزم من ذلك تقدم الشيء على نفسه وهذا محال.

3 ـ فلم يبق إلا واجب الوجود، الذي هو الموجد لممكن الوجود ولجميع المخلوقات الممكنات. إن واجب الوجود هو الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم . . . .﴾[1].

(1) سورة الزمر الآية / 38/.

الأدلة العقلية على وجود الله تعالى:

إن الأدلة العقلية على وجود الله تعالى من القرآن والسنة كثيرة جداً.

1 ـ فقد ورد في القرآن الكريم اسم الجلالة (الله) (2706) مرة. ما عدا أسماء الله الحسنى. هذا التردُّد لاسم الذات، ولأسماء الله الحسنى يستحيل أن يكون لذات لا وجود لها.

2 ـ وقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنه أرسل رسله إلى الناس ولا يرسل إلا من كان موجوداً.

3 ـ وقد أخبر الله كل رسول أنه إذا آمنوا واتقوا نصرهم الله. ولا ينصر إلا من كان موجوداً. قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[1].

4 ـ وذكر الله تعالى أنه سيعذب من لم يؤمن بوجوده ولا يعذب إلا من كان موجوداً. قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾[2].

إن هذا الكون الذي يحيط بنا، وهذا العالم الذي نعيش فيه مقطوع بوجوده.

وإن وجود هذا العالم لا يخرج عن ثلاث فرضيات فهو:

1 ـ إما أن يوجَد هو نفسه وهذا محال؛ لأن العدم لا ينتج الوجود.

2 ـ وإما أن يوجِدَ هو نفسه وهذا محال عقلاً، لوجوب تقدم الشيء على نفسه.

3 ـ وإما أن يخلقه الله تعالى، وهذا أمر معقول لا محيص عنه. قال تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[3].

(1) سورة محمد الآية / 7/.

(2) سورة الحاقة الآية / 30 ـ 31 ـ 32/.

(3) سورة الطور الآية / 35 ـ 36/.

قال أبو نواس:

تـأمل فـي ريـاض الأرض وانظـر ... إلـى آثـار مـا صنـع المليـكُ

عيـون مـن لجـين شـاخصات ... بـأحداق كمـا الذهـب السبيكُ

علـى قُضُـب الزبرْجَـد شـاهداتٌ ... بـأن اللـهَ ليـس لـه شـريكُ

وأن محمـداً خـيرُ البرايـا ... إلـى الثقلـين أرسـله المليـكُ

وجود الله تعالى

إن وجود الله تعالى حقيقة علمية لا تخضع للتجربة والمشاهدة وإنَّ السبيل لمعرفتها والتأكد من وجودها والتحقق منها، يكون بإحدى طريقتين:

1 - طريقة التدرج من الأدنى: وهو الانتقال من التأكد من صحة القرآن الكريم كخبر نقل إلينا، ثم التأكد من صدق من أتى به وهو محمد ﷺ. ثم التأكد من صدق أمين الوحْي جبريل الذي نقله عن الله تعالى.

ويتم التأكد عن طريق التلازم البين، والقياس، والقياس التام. كل ذلك يدلنا على وجود الله تعالى.

2 - طريقة التدرج من الأعلى: وهو الانتقال من البرهان على وجود الله تعالى إلى البرهان على صدق الرسل والأنبياء وصدْق الوحي وما بعثوا به من تكاليف. والإيمان بهم يدلنا على الإيمان بالكتب السماوية والرسالات وبالقرآنِ الكريم أنه كلام الله، والإيمان بكلام الله يدلنا على الإيمان بما يتضمنه من أوامر وأحكام وأخبار ونواهٍ وتشريعات وأخلاق وعبادات.. وأن البرهان على وجود الله يكون بالأدلة والمبادئ الفطرية، والحقائق التي أجمع العلماء على أنها هي ذاتها براهين، وتسمى بالحقائق البدهية.

فالبدهية إذاً: كل قضية لا تحتاج إلى برهان لأنها واضحة بذاتها. وهي عامة تنطبق على كل العلوم والحقائق.

وهذه الحقائق البدهية هي:

1 - بطلان الرجحان بدون مرجح.

2 - بطلان الدور.

3 - بطلان التسلسل.

4 - قانون العلة الغائية أو قانون التناسق والنظام الكوني.

1. بطلان الرجحان بدون مرجح:

والرجحان بدون مرجح: هو تحول وتغير الشيء عن وصفه ونسقه الأول وتحوله من حال إلى حال بدون مؤثر ولا محول ولا مغير.

هذا الأمر من الأمور الواضحة البطلان، إذ أنه لابد لتحويل الشيء من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع آخر، من محول أو مؤثر أو مغير يحوله ويغير وضعه..

والمثال على ذلك العالم. إذ أنه من النوع الممكن أي إنَّ العقل يجزم بأن العالم ممكن وجوده وعدم وجوده ويمكن أن توجد أسباب تعْدِمُهُ من أصله. فوجود العالم ليس أمراً محتماً وضرورياً، وليس هو أمراً لازماً، فلا بد من مؤثر خارجي يرجح فيه أحد جانبي الإمكان. إما العدم أو الوجود، وهذا المؤثر الخارجي هو الله تعالى الذي رجح جانب الوجود في العالم - على جانب العدم.

فإذا قيل: إن هذا العالم وجد بذاته دون مؤثر من الخارج وهذا يعني أن العالم وجد بدون مرجح له ينقله من حالة العدم إلى حالة الوجود، وهذا باطل؛ لأن الكون أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. أي كان عدماً، فكانت كفة العدم هي الأرجح، ومن ثم انعكس الأمر، ورجحت كفة الوجود على كفة العدم، وإذا قلنا: إنَّ العالم وجد بقوة ذاتية فيه دون حاجة إلى موجد. فذلك يعني أن كفة الوجود رجحت على كفة العدم بدون أي عامل أثر على هذا العدم وحوله إلى وجود، وهذا باطل عقلاً؛ لأن القول بأن العدم المطلق قد تحول فجأة إلى وجود يتفاعل ويتوالد دون مسبب أو مؤثر خارجي، أمر باطل عقلاً.

ولعل قائل يقول: إن العالم قديم لا أول له ولا سبق للعدم عليه، وبذلك لا توجد إلا كفة واحدة ألا وهي الوجود ولكن يمكن الرد على ذلك ببرهان بطلان التسلسل.

2. بطلان التسلسل:

والمقصود بالتسلسل: أن المخلوقات متوالدة عن بعضها إلى ما لانهاية، بحيث يكون كل منها معلولاً لما قبله، وعلة لما بعده، دون أن تنبع هذه السلسلة من علة واجبة الوجود تكون سبب التأثير المتولِّد عنه كلُّ المخلوقات. إن هذا الفرض باطل

بحكم العقل لاستحالته بالضرورة؛ لأن كل المخلوقات الممكنة مهما طالت في توالدها، لا تخرج عن كونها ممكنة.

والممكن لابد لرجحان أحد طرفَيْ الإمكان فيه من مرجح، فحلقات السلسلة لا تأثير ذاتي في واحدة منها؛ لأن كلاً منها أوجدتها الحلقة السابقة، ولابد من مؤثر خارجي أعد السلسلة من بدايتها بالحياة، وراحت تنتقل من حلقة إلى أخرى، وإلا لابد من الجزم بأحد الأمرين:

1 - إما فقدان السلسلة كلها إذا لم يثبت وجود المؤثر الذي قذف فيها الحياة.

2 - أو أن السلسلة موجودة وأن الذي أوجدها هو واجب الوجود.

إن الأمر الأول باطل؛ لأن الحِسَّ، والواقع والمشاهدة يكذبانه؛ لأن العالم موجود فعلاً؛ وأن توالد العلل شيء مرئي ومحسوس.

وأما الأمر الآخر - وهو أنه لابد من مصدر آخر وهب العالم الحياة والقدرة على التوالد والتطور - فهو حتمي.

والأمثلة الواقعية حول ذلك كثيرة منها:

1 - أنّ الأصفار المتتالية لا قيمة لها إذا لم تنته بعدد يملك قيمة ذاتية.

2 - أنّ فرض التسلسل منقوضٌ بالحس والمشاهدة نفسها لأننا جميعاً نعلم أن هناك مخلوقات نوعية انقرضت وانتهت، ولو صح أن المخلوقات تتسلسل إلى ما لانهاية - أي أن تكون كل حلقة علة لما بعدها ومعلولة لما قبلها - لما انقرضت هذه المخلوقات والموجودات إذ كيف تنقرض. وهي علة لما بعدها؟! فهذا إخلال بنظام التسلسل المزعوم وطبيعته.

3. بطلان الدور:

والدور يعني: أن الشيء يتوقف وجوده على وجود شيء آخر، وأن هذا الشيء الآخر متوقف وجوده على الشيء الأول. فكل منهما أوجد الآخر. وهذا محال عقلاً؛ لأنه لابد من موجد واجب الوجود لا يتعلق وجوده على وجود شيء آخر.

والمثال على ذلك بسيط ويتجلى في القول التالي: إنَّ البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، فإن وجود كل منهما متوقف على وجود الآخر، فلا بد من مؤثر خارجي أوجدهما.

وقيل: إن العالم حادث وله علة أثرت في إيجاده. هذه العلة هي التفاعل الذاتي المتدرج من أبسط الموجودات والعناصر إلى أعلاها تعقيداً.

فالعالم مكون من سديم وهواء وأبخرة وغازات وعناصر الحياة الأولية من هيدروجين وأوكسجين وكربون ومركبات عضوية، وموجودات حية... إن هذا العرض يستلزم الدور، وهذا باطل عقلاً؛ لأنه من أوجد السدم والهواء... الخ؟!

قانون المصادفة: يقولون: إنّ العالم وجد صدفة، وإنَّ اجتماع العلل بمعلولاتها، ارتبطت ببعضها صدفة. فالتقاء العين بالبصر صدفة، وإلتقاء الأذن بالسمع صدفة، والرئة بالتنفس صدفة.. وهكذا بالنسبة إلى كل ما في العالم.

إن القول بالمصادفة قول باطل لأن:

1 ـ المصادفة لا تحصل إلا مرة واحدة.

2 ـ المصادفة غير مبنية على نظام أو قانون ثابت دقيق.

3 ـ المصادفة عشوائية لا تعقل.

وإننا نرى أن هذا العالم يسير وفق قوانين ونظم ثابتة ودقيقة، فلا بد من وجود منظم لهذا الكون وكل ما فيه. هذا المنظم هو الله تعالى.

4. العلة الغائية (قانون النظام الكوني والتناسق)

القياس أو الاستقراء التام: هو استخراج علة الشيء أو سببه ثم نلتمس ما يشبه هذا الشيء من الأشياء الأخرى، واشتراكها معه في علة واحدة، فنقيس الشيء الثاني على الأول، في الحكم عليه من تأثير تلك العلة. إن مبدأ القياس يقوم على:

1 ـ قانون العليّة: أي إنّ لكل معلول علة، ولكل أثر مؤثِّراً.

2 ـ قانون التناسق والنظام الكوني:

إن المظاهر الجزئية للكون ـ وإن اختلفت أشكالها ـ ترتبط بعلل غائية من شأنها أن تثبت التناسق والانسجام فيما بينها.

فالعالم وما فيه من مخلوقات وكائنات، يبين لنا التنسيق في تركيبه وأجزائه، والتنظيم الدقيقُ في قوانينه من الذرة إلى المجرة.

فالأرض والجاذبية فيها، والإنسان وتكوينه (العين والبصر، السمع والأذن، الرئة والتنفس، القوى المدركة والأحاسيس لمعرفة العالم واستخدامه...) كل ذلك يشير إلى عظيم المنظم المنسق الخالق، ألا وهو الله تعالى.

فظهور العلة الغائية. دليل قطعي على وجود مدبر مصمم لهذه المخلوقات ألا وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

صفة وجود الله تعالى

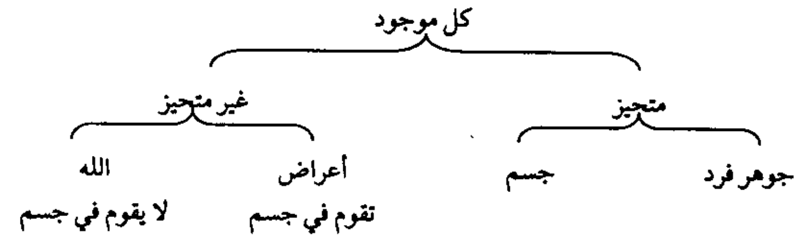
الله تعالى موجود وللبرهان على وجوده نقول :

كل حادث له سبب	مقدمة كبرى
العالم حادث	مقدمة صغرى
العالم له سبب	نتيجة

ونعني بالعالم : كل موجود سوى الله تعالى .

ونعني بالموجود سوى الله تعالى : الأجسام كلها وأعراضها وأنَّ كلاً موجود إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز .

ويوضح ذلك المخطط التالي :



ولابد من الإشارة إلى أن :

الجوهر هو: ما يقوم بذاته ولا يحتاج إلى شيء آخر يقوم به مثل : (الأجسام، الأرواح، وكل ما له وجود مستقل قائم بذاته) . والجوهر يقسم إلى :

1 - جوهر فرد : وهو الموجود الذي لا يقبل التجزئة وهو في الحوادث الجزء الذي لا يتجزأ .

2 - الجسم : وهو الموجود المركب من جوهرين فردين أو أكثر ويقبل التجزئة .

العَرَض: هو ما يقوم بغيره ويحتاج إلى شيء آخر يقوم به . وهو تابع في وجوده لوجود الجوهر . ومن الأعراض : الألوان والهيئات ، والحركة والسكون .

والعَرَض يحتاج إلى محلٍّ يقوم فيه ، أي يحل في المتحيز بالذات .

المعدوم: إذا كان غير جائز الوجود فهو المستحيل .

أما إذا كان جائز الوجود فهو الممكن أو الجائز .

إن الأجسام والأعراض يمكن معرفتها بالمشاهدة حيث لا يمكن نكرانها ، أما الموجود الذي ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر متحيز فإنه لا يدرك بالحس والمشاهدة بل يعرف بالدليل . هذا الموجود هو الله تعالى . أما دليل وجوده ما يلي :

كل حادث له سبب	/ م ك/	أصل أول
العالم حادث	/ م ص/	أصل ثاني
العالم له سبب	/ ن/	مطلب . نتيجة

1 - فإذا قال الخصم : من أين عرفت أن كل حادث له سبب (الأصل الأول)؟

ويكون الجواب: إن هذا الأصل يجب الإقرار به ؛ لأنه ضروري في العقل أوليّ ، أي من مبادئ العقل الفطرية الأولية البديهية . علماً أن مبادئ العقل هي : مبدأ السببية ، مبدأ الحتمية ، مبدأ الغائية ، مبدأ الهوية .

ولعل الخصم لم يتضح له ما نريد بلفظ الحادث ولفظ السبب ومعناهما . فإذا عرف الخصم معنى الحادث ومعنى السبب صدّق عقله بالضرورة بأن لكل حادث سبباً .

والحادث: ما كان عدماً ثم صار موجوداً .

ولو تساءلنا : هل كان وجوده قبل أن يوجد محالاً أم كان ممكناً؟

وللجواب نقول : إن كان محالاً فهذا باطل؟ لأن المحال لا يوجد أبداً؛ لأنه مستحيل الوجود .

وإن كان ممكناً - وهو المقصود - أي إنَّه كان عدماً ثم صار موجوداً ، وإن وجوده لم يكن لذاته وإنما كان مفتقراً لموجد يرجح وجوده على العدم ، أو ينقله من حالة العدم إلى حالة الوجود .

أما السبب : فهو المرجح الذي يكون سبباً لنقل الممكن من العدم إلى الوجود . وهذا المرجح هو الله تعالى .

2 - فإذا قال الخصم : من أين عرفتم أن العالم حادث؟ (الأصل الثاني) وما هو الدليل على حدوث العالم؟

يكون الجواب: إن هذا الأصل - وهو أن العالم حادث - ليس بأولي فطري بدهي في العقل ، بل لابد من البرهنة عليه ببرهان منظوم من أصلين ، أو علمين أو مقدمتين .

ونحن نعلم أن العالم يتألف من أجسام وجواهر، وأن كل جسم حادث فنقول:

كل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث	/ م ك/	أصل أول
العالم لا يخلو من الحوادث	/ م ص/	أصل ثاني
العالم حادث	/ ن/	ن مطلب

وللبرهان: على الأصل الأول والثاني نقول:

ـ كل جسم لا يخلو من الحوادث؛ لأنه لا يخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان. (أي أعراض متغيرة حادثة).

ـ أما ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث؛ لأن الجوهر ـ بالضرورة ـ لا يخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان: أما الحركة فحدوثها محسوس بالمشاهدة.. وليس المقصود من الحركة عين الجوهر، وإلا لكان نفي الحركة هو نفي عين الجوهر.

ـ فإذا قال الخصم: كيف عرفتم أن الحركة حادثة؟ لعلها كانت كامنة ثم ظهرت.

نجيب: إن الجوهر لا يخلو عن كمون الحركة فيه أو ظهورها وهما حادثان، فالعالم لا يخلو من الحوادث إذاً العالم حادث.

ـ فإذا قال الخصم: فلعل الحركة انتقلت إلى الجسم أو الجوهر من موضع آخر، والحركة عرض فبم عرفتم بطلان القول بانتقال الأعراض؟

نجيب: يبدو لنا بطلان إنتقال الأعراض من معرفة حقيقة العرض، ومعرفة حقيقة الإنتقال.

فالإنتقال هو إنتقال الجوهر من حيز إلى حيز، وأن الجوهر يختص بالحيز، أي يحتاج إلى حيز يقوم (يوجد) به زائد على ذات الجوهر.

أما العرض فيختص بالمحل أي يحتاج إلى محل يقوم به أي إنَّ المحل لازم للعرض. فنحن لا ندرك العرض في نفسه أو في ذاته؛ لأن العرض لا يقوم بذاته فلا بد من شيء آخر أو محل يقوم به. فكيف ينتقل العرض من حيز إلى حيز؟ بل كيف انتقلت الحركة ـ التي هي عرض ـ إلى الجسم من موضع آخر كما يدعي الخصم؟!.

وهناك ثلاثة أدلة لإثبات صحة الأصل الأول وهي:

1 ـ دوران الأفلاك المتناهية:

يقول الغزالي: إن الشمس وبقية الكواكب لها دورات فلكية خاصة متناهية، ومختلف بعضها عن بعض. فدورة الشمس مرة كل سنة، ودورة زحل مرة كل (30) سنة، ودورة المشتري مرة كل (12) سنة وإن بعض الكواكب الثابتة دورتها مرة كل (36) ألف سنة: هذه النسبة المتناهية والمختلفة بين دوراتها تتنافى مع أزلية العالم. هذه الدورات المتناهية حدثت في زمان متناه. فما كان له بداية كان له نهاية وبالتالي لا يكون قديماً أزلياً. فالعالم إذن حادث وليس بقديم.

2 ـ طبيعة الأعداد:

إن هذه الدورات الفلكية إما أن تكون شفعاً أو وتراً، لذلك وجب أن تكون متناهية؛ لأن اللامتناهي ليس شفعاً ولا وتراً، ولا يمكن أن يوجد عددان ليس كل منهما شفعاً ولا وتراً.

3 ـ دليل الإمكان:

إن القول بأن العالم ممكن لا يعني بالضرورة أنه أزلي. فالعالم ممكن بمعنى أنه يحتمل الوجود والعدم. وبما أن العالم من صنف الممكنات فيصح في العقل وجوده وعدمه، وبما أنه موجود فعلاً، فلا بد أن يتعرض للعدم، وأنه كان عدماً وتحول من حالة العدم إلى الوجود، والذي ينتقل من العدم إلى الوجود ليس أزلياً بل هو حادث مخلوق.

ـ فإذا قال الخصم: إن مقدورات الله تعالى لا نهاية لها وكذا معلوماته، والمعلومات أكثر من المقدورات ـ فذات الله تعالى وصفاته معلومة له.

يكون الجواب: إن لفظ المعلومات والمقدورات ليس المراد منها واحداً. فالمقدورات تعني، أن للّه تعالى صفة يعبر عنها بالقدرة يتأتّى بها الإيجاد.

والمعلومات تعني: أن لله تعالى صفةً يعبر عنها بالعلم. وليس المقصود بالمعلومات إثبات أشياء تسمى معلومات لا نهاية لها فهذا محال؛ لأن الأشياء هي الموجودات وهي متناهية.

الدعوى الثانية :

صفة القدم

وهي صفة أزلية قائمة بذات الله غير منفصلة عنه . إن معنى القدم الذاتي هو عدم الأولية ، أي إنَّ الله تعالى لا أول لوجوده ؛ لأنه تعالى مصدر هذه الكائنات وموجد هذه الموجودات ، فهو سابق عليها لا يتقدمه شيء .

وإذا لم يكن الله قديماً أزلياً ، كانَ حادثاً ، ولو كان حادثاً ، لاحتاج إلى محدث ، ومحدثه احتاج إلى محدث وهكذا إلى غير نهاية . فيلزم إما الدور أو التسلسل وكل منهما محال .

فالله تعالى واجب الوجود ، ووجوده لذاته لا لموجود أوجده . فالوجود من خصائصه الذاتية ، وإنَّ وجوده تعالى غير مسبوق بعدم . فهو قديم أزلي والقدم معنى زائد على الذات ، فهو قديم بقدم زائد عليه .

أما الدليل النقلي على قدم الله تعالى فقوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] .

(1) سورة الحديد الآية 3 .

الدعوى الثالثة :

صفة البقاء

وهي صفة أزلية قائمة بذات الله ، ليست هي عين الذات ولا منفصلة عن الذات . فالله باق لا يفنى ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه . والقدم استمرار الوجود وعدم الآخرية ، فلا آخر لوجوده تعالى ، أي يستحيل عليه ضد هذه الصفة وهي الفناء . فالباقي هو الذي لا آخر لوجوده باق إلى غير نهاية ، إليه مرجع جميع الكائنات ومنتهى مصير المخلوقات . فلو جاز على الله العدم لاستحال عليه القدم ، وقد ثبت لنا قدمه تعالى فلا يجوز أن يقبل الفناء . قال تعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[1] .

وقال أيضاً : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[2] .

ولو انعدم الله لافتقر عدمه إلى سبب طارئ ، ولافتقر إلى مرجح يبدل الوجود بالعدم ، وهذا محال ؛ لأنه يؤدي إلى الدور أو التسلسل .

(1) سور الرحمن الآية / 27/ .

(2) سورة البقرة الآية / 255/ .

الدعوى الرابعة :

الله ليس بجوهر

إن الله تعالى ـ الذي صنع العالم ـ ليس بجوهر متحيز لأنه قد ثبت قدمه ، ولو كان متحيزاً لكان لا يخلو عن الحركة في حيزه أو السكون فيه .

فإن قيل : بم تنكرون على من يسميه جوهراً ولا يعتقد أنه متحيز ؟

يكون الجواب : إن العقل لا يمنع إطلاق الألفاظ من حيث اللغة ، إذا لم يعتقد صاحب اللغة أن لفظ الجوهر هو الاسم الحقيقي لله ، أما إذا أطلق لفظ الجوهر على الله على سبيل الاستعارة فلا مانع .

أما من حيث الشرع : فلا يجوز إطلاق اسم في حق الله تعالى إلا بإذن . وبما أنه لم يرد فيه إذن فيحرم إطلاق لفظ الجوهر على الله . وهذا التحريم بنهي ، فإن لم يرد فيه نهي فتنظر : إن كان هذا اللفظ يوهم الخطأ في صفات الله فهو حرام . وإن كان اللفظ لا يوهم خطأ في صفات الله فيحكم بتحريمه أيضاً ؛ لأنه لم يرد فيه إذن ؛ لأن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية .

الدعوى الخامسة :

الله ليس بجسم

إن الله يتصف بأنه لا يشبه مخلوقاته . فهو مخالف للحوادث . فالله ليس بجسم ؛ لأن كل جسم مؤلف من جوهرين متميزين أو أكثر ، وبما أن الله تعالى ليس بجوهر ـ كما تقدم ـ فيستحيل أن يكون جسماً ؛ لأنه لو كان جسماً لكان مقدراً بمقدار مخصوص ولاحتاج إلى مخصص ومرجح ، ويتصرف فيه ويقدره بمقدار مخصوص ، وبالتالي يكون مصنوعاً لا صانعاً ، ومخلوقاً لا خالقاً . وهذا مستحيل في حق الله تعالى .

الدعوى السادسة :

الله ليس بعرض

إن الله تعالى ليس بعرض لعدة أسباب :

1 ـ لأن العرض يستدعي وجوده ذاتاً تقوم به وهذه الذات إما جسم أو جوهر .

2 ـ ولأن العرض لا يقوم بذاته بل يحتاج إلى جسم يقوم به .

3 ـ ولأن العرض صفة ، والله تعالى يتصف بصفات تطلق على الذات الموصوفة لا على الصفات .

فمثلاً : الله صانع العالم . فالصنع مضاف إلى الذات التي تقوم بها الصفات لا إلى الصفات . كأن نقول نجار . فَصنْعَةُ النجارة تضاف إلى ذات النجار الذي يجب أن يتصف بعدة صفات حتى يكون صانعاً للنجارة .

الدعوة السابعة

الله ليس في جهة من الجهات

إن الجهات مستحيلة على غير الجواهر والأعراض ، وبما أن الله تعالى ليس بجوهر ولا عرض ، فيستحيل عليه أن يكون في جهة .

وسبق أنْ قلنا إنَّ الحيز هو المكان الذي يختص به الجوهر ، إلا أن الحيز يصبح جهة إذا أضيف إلى شيء آخر متميز . فالجهات الستُّ المعروفة (فوق وأسفل ويمين وشمال وأمام وخلف) تَعني كون الشيء في حيز يلي إحدى هذه الجهات .

وقولنا إنَّ الشيء في حيز يعني :

1 ـ أن هذا الشيء يختص بهذا الحيز بحيث يمنع مثله أن يوجد بحيث يكون هو . وهذا هو الجوهر .

2 ـ أو أن يكون هذا الشيء حالاً في الجوهر ، فيقال مثلاً : إنه بجهة لكن بطريق التبعية للجوهر . فالعرض إذاً يكون في جهة بطريق التبعية للجوهر .

فإذا قال الخصم : إنَّ الله في جهة ـ كما هو للجوهر والعرض فهذا كذب على الله ومستحيل ، ولا يجوز أن يكون الله في جهة ، أي غير ممكن وذلك من وجهين :

1 ـ لأن الجهة التي تختص بالله لا تختص به لذاته فاختصاصه ببعض الجهات ليس بواجب لذاته ، والجهات كلها متساوية بالإضافة إلى المقابل للجهة .

فإذا قيل إن الله اختص بجهة فوق ؛ لأنها أشرف الجهات . نجيب : إنما صارت الجهة جهة فوق لأنه خلق العالم في هذا الحيز الذي خلقه . وعندما خلق الله العالم لم يكن هناك فوق ولا تحت أصلاً لأن جهة فوق وتحت مشتقات من الرأس والرجل وعندما خلق الله العالم لم يكن هناك حَيوانٌ إذ ذاك ، حتى تسمى الجهة التي تلي الرأس فوقاً والمقابل لها تحتاً .

2 ـ ولو كان الله تعالى في جهة لكان محاذياً لجسم العالم. وإن كل محاذٍ إما أن يكون أصغر منه أو أكبر أو مساوياً له. وكل ذلك يوجب التقدير بمقدار ويحتاج إلى مخصص. وهذا محال في حق الله تعالى.

فإن قيل: إذا لم يكن الله مخصوصاً بجهة فوق. فلماذا ترفع الوجوه والأيدي إلى السماء أثناء الدعاء شرعاً وطبعاً؟ ولماذا قال النبي ﷺ للجارية عندما أشارت إلى السماء: أنتِ مؤمنة؟

يكون الجواب:

1 ـ إن رفع الأيدي والوجوه إلى السماء أثناء الدعاء تعظيم بالإشارة إلى جهة العلو التي هي أعلى الجهات وأرفعها في الاعتقادات. وإن الإنسان عادة يفصح عن علو رتبة غيره وتعظيم ولايته أو شأنه فيقول هو في السماء السابعة، فهو يشير إلى علو الرتبة بأن يستعير لذلك علو المكان.

فالقلب يتوجه إلى الله تعظيماً، والجوارح في ذلك خدم وأتباع ولا يمكن للجوارح إلا أن تشير إلى الجهات. وهذا هو السر في رفع الوجوه إلى السماء عند قصد التعظيم.

وبما أن أرزاق الله تنزل من السماء، فلذلك تتوجه الأيدي والوجوه إلى السماء بالدعاء لطلب الرزق. قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1].

2 ـ وأما جواب النبي ﷺ للجارية عندما أشارت إلى السماء بقوله: أنت مؤمنة. فإن تلك الجارية كانت خرساء. حيث سألها النبي ﷺ من ربك فأشارت إلى السماء، أن الله ربها، وليست هي من عبدة الأوثان والأصنام التي في الأرض، فأعتقها النبي ﷺ.

فإن قيل: إن نفي الجهة يؤدي إلى المحال، وهو إثبات موجود تخلو عنه الجهات الست، فهو ليس داخل العالم ولا خارجاً عنه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه وذلك محال.

---

(1) سورة الذاريات، آية /22/.

والجواب:

1 ـ إن كل موجود يقبل الاتصال فوجوده لا متصلاً ولا منفصلاً أمر محال.

2 ـ وإنَّ كل موجود يقبل الاختصاص بالجهة، فوجوده مع خلو الجهات عنه أمر محال.

3 ـ أما الموجود الذي لا يقبل الاتصال ولا الاختصاص بالجهة فهذا أمر غير محال فخلو الله تعالى عن هذين الشرطين ـ الاتصال والاختصاص بالجهات ـ فوجوده تعالى ليس بمتحيز ولا هو في متحيز.

ـ فإذا قال الخصم: إن وجود موجود ليس بمتحيز ولا هو في متحيز أمرٌ غيرُ مفهوم. نجيب:

1 ـ إذا كان غير مفهوم تصوراً أو تخيلاً وتوهماً فهذا صحيح؛ لأن التصور صورة عن الواقع..

2 ـ وإن كان قولهم ـ غير مفهوم ـ يعني غير معقول أي غير معلوم بدليل العقل ـ أي محال ـ فقد قدمنا الدليل على ثبوته عقلاً بما يلي:

إن كل متحيز حادث	/ م ك/ مقدمة كبرى
كل متحيز يفتقر إلى محدث غير حادث	/ م ص/ مقدمة صغرى
كل متحيز يفتقر إلى محدث غير حادث وغير متحيز وهو الله	/ ن/ نتيجة

الدعوى الثامنة :

الله تعالى ليس في مكان

إن الله تعالى منزَّه أن يوصف بالاستقرار على العرش؛ لأن كلَّ متمكن على جسم ومستقر عليه، هو مقدر لا محالة، فهو إما أن يكون أكبر أو أصغر أو مساوياً.

ولو جاز أن يماسه جسم من هذه الجهة لجاز أن يماسه من سائر الجهات وبالتالي لا يستقر على العرش إلا جسم ولا يحل فيه إلا عرض. وقد تبين أن الله تعالى ليس بجسم ولا عرض.

فكيف نفسر إذاً الآيات التالية والأحاديث:

1 - ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[1]. أي هيمن واستولى بقدرته.

2 - قوله ﷺ: (ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا)[2]. أي برحمته.

3 - وقوله ﷺ: (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن)[3]. إشارة إلى القدرة على التقليب كما يشاء.

4 - قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[4]. أي عليم بكم محيط بأحوالكم.

5 - قوله تعالى في الحديث القدسي: (من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[5]. والهرولة من الله إلى العبد تعني الكرامة والإنعام والرحمة. وكأنه تعالى أراد أن يقول: إن رحمتي ونعمتي أشد انصباباً إلى عبادي من طاعتهم إلي.

ولتأويل هذه الآيات والأحاديث التي توهم التشابه نجد آراء مختلفة:

(1) سورة طه الآية / 5/ .
(2) رواه البخاري برقم / 1094/ وأبو داود برقم 1315.
(3) رواه مسلم.
(4) سورة الحديد الآية / 4/ .
(5) رواه مسلم.

رأي المعتزلة: مذهب التأويل - مذهب الخلف - فقد استخدم المعتزلة التأويل لهذه الآيات والأحاديث التي توهم التشابه، تأويلاً يليق بكمال الله تعالى.

رأي أهل السنة: مذهب التفويض - مذهب السلف - فقد اقتصر أهل السنة على تفسير هذه الآيات والأحاديث تفسيراً إجمالياً دون تفصيل ودون تأويل. بل اكتفوا بظواهر النصوص، وذلك أسلم للعقيدة والإيمان.

أما الغزالي: فيقول: الناس في هذا الأمر - بالنسبة إلى الآيات التي توهم التشابه - فريقان:

1 - العوام: وهم يفهمون ظواهر هذه الآيات فقط.

2 - العلماء: فإنهم يفهمون أن في هذه الآيات والأحاديث استعارة ومجازاً، وذلك للتقريب إلى الأذهان، ويمكن تأويلها وتفسيرها بما يليق بكمال الله مع سلامة العقيدة.

الدعوى التاسعة :

الوحدانية

الوحدانية: صفة أزلية قائمة بذات الله غير منفصلة عنه .

فالله تعالى واحد . أي لا يقبل القسمة ، أي لا كمية له ولا جزء ولا مقدار ، فهو غير قابل للانقسام إلى أجزاء وليس مكوناً من أجزاء ، وما لا كمية له لا نتصور انقسامه ، والله تعالى لا نظير ولا شبيه له في رتبته ، ولا ند له ولا مثيل أو شريك .

قال تعالى في سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فهذه الآية تنفي عن الله التعدد والكثرة .

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ : وتنفي العجز والضعف .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ : تنفي العلة والمعلولية .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [1] : وتنفي الشبيه والنظير .

فلو كان لله تعالى ندٌّ أو شبيه أو نظير أو شريك لكان مثله ، وهذا محال . أي لكان مساوياً له في الحقيقة والصفات .

ووجه استحالة كونه مثله ، أنَّ كل اثنين هما متغايران فإن لم يكن تغاير واختلاف لم تكن الاثنينيَّة . فإنا لا ندرك سوادين إلا في محلين ، أو في محل واحد في وقتين . فيكون أحدهما مفارقاً ومغايراً للآخر في المحل والوقت ، وكذلك تغاير الحركة واللون .

فإن فرض سوادان في جوهر واحد وفي حالة واحدة ، كان ذلك مستحيلاً إذ لم تعرف الاثنينيَّة .

فإذن وجود ند أو شريك أو شبيه لله تعالى مساوٍ له في الحقيقة والصفات أمرٌ مستحيلٌ؛ لأنه إذا ارتفع كل فرق واختلاف ، ارتفع العدد بالضرورة ، ولزمت الوحدة .

---

(1) سورة الإخلاص الآية / 1 ـ 4/ .

وإذا قيل : إنَّ هذا الند أو الإله الشبيه ، يخالفه بكونه أرفع منه . فَنَقولُ: إنَّ الإله الأرفع هو الإله الحقيقي ، والآخر ليس بإله لأنه ناقص . وإن كان أدنى منه كان محالاً أيضاً ؛ لأن ذلك نقص . ونحن نعبر بالإله عن أجلِّ الموجودات وأرفعها ، فلا يكون الأجلُّ إلا واحداً . ولا يتصور إلهان اثنان متساويَيْنِ في صفات الجلال ، إذ يرتفع عند ذلك الافتراق ويبطل التعدد .

استحالة تعدد الآلهة:

قد يقول أحدهم : إن هذا العالم ليس من صنع خالق واحد ، بل هو مخلوق خالقَيْنِ ، أحدهما خلق السماوات والأرض ، أو أحدهما خلق الجمادات ، والآخر خلق الأحياء ، فما المستحيل في ذلك؟ وما وجه الاستحالة؟ يكون الجواب : إن توزيع الخلق لهذه المخلوقات بين عدة آلهة أمر مستحيل؛ لأن تقسيم الخلق إلى جواهر وأعراض بين خالقين متماثلين ، أمر مستحيل لأنه لا فرق بينهما ، إذ لا تتحقق الاثنينيَّة .

فإذا كان أحدهما أقدر من الآخر ، فالإله الحقيقي هو الذي يتصف بالقدرة . والإله الآخر ليس بإله ؛ لأنه عاجز ، والعجز نقص ، والإله لا يتصف بالنقص . ويكون الإله الأقدر ليس بحاجة إلى الإله الأقل قدرة . والإله القادر على خلق شيء قادر على خلق مثله .

وإذا كان أحدهما قادراً على خلق الجواهر ، والآخر قادراً على خلق الأعراض ـ وهما مختلفان ـ فهذا أيضاً محال ؛ لأن العرض لا يستغني عن الجوهر ، والجوهر لا يستغني عن العرض . فيكون فعل كل منهما موقوفاً على الآخر . فإذا خلق الجوهر ، ولا يستطيع أن يخلق العرض فهذا عجز ، والعاجز لا يكون قادراً ولا إلهاً .

وإذا قيل : إذا أراد أحدهما خلق الجوهر ، وساعده الآخر بخلق العرض وكذا بالعكس . . فإن هذه المساعدة هي دليل عدم القدرة والإله لا يتصف بالعجز .

فإن قيل : إن أحد الآلهة يخلق الخير والآخر يخلق الشر ، فإن هذا هوس ؛ لأن الخير والشر ليسا خيراً وشراً لذاتهما ، وإنَّ القدرة على الشيء قدرة على مثله .

فإحراق جسم المسلم بالنار شر، وإحراق جسم الكافر في النار خير. فالخير والشر من حيث ذاتهما متماثلان.. فالإلـه الخالق للخير قادر على أن يخلق الشر.. ولا حاجة لوجود إله آخر.

وهذا ما أراده الله تعالى بقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1].

فالوحدانية هي عدم التعدد في الذات والصفات والأفعال.

1ـ أما وحدانية الذات: فتعني أن الله تعالى ليس مؤلفاً من أجزاء أو من مادة أو من أعراض. فإن كان غير مؤلف من أجزاء أو من مادة أو من أعراض. فإن كان غير مؤلف من أجزاء فلا ينفصل عنه أجزاء. ولو كان مؤلفاً من أجزاء لافتقر إلى هذه الأجزاء في وجوده، والله تعالى منزه عن الافتقار إلى شيء، فليس له والد ولا ولد ولا صاحبة ولا شريك في ملكه ولا مثيل ولا ند ولا ولي من الذل.

فالله تعالى ليس جزءاً من غيره ولا ينفصل عنه جزء، أي لم يلد ولم يولد، أما المخلوقات فهي مؤلفة من أجزاء، والله لا يشبه مخلوقاته، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

2ـ وأما وحدانية الصفات: فتعني أن صفات الله تعالى لا تشبه صفات مخلوقاته، فعلم الله ليس كعلم الإنسان لأن علم الله غير محدود، قائم بذاته، قديم بقدمه غير مكتسب.. وهكذا بقية الصفات كالقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر والحياة ـ فإنها ليست كصفات الإنسان.

والله تعالى ليس له من كل نوع من هذه الصفات إلا صفة واحدة، إذ ليس له قدرتان ولا علمان ولا إرادتان كما أنه ليس لغيره صفة كصفته تعالى.

3ـ وأما وحدانية الأفعال: فتعني أن الله تعالى يتصرف في ملكه وحده دون أن يشاركه في ملكه أحد، وليس لأحد غير الله تعالى فعل من الأفعال. فالأفعال كلها ـ خيرها وشرها مبدعها وخالقها وفاعلها ـ هو الله وحده لا شريك له. فهو المتفرِّدُ بالخلق والإبداع، المستقل بالإيجاد لا رب غيره ولا وجود سواه:

(1) سورة الأنبياء: الآية / 22/ .

وفي كل شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنَّهُ واحدُ

وسورة الإخلاص جمعت فيها وحدانية الذات والصفات والأفعال، ونفت أنواعاً ثمانية من الكفر كما تقدم.

الأدلة على وحدانية الله تعالى:

أولاً: دليل النظام الكوني:

إن هذا الكون يدل على أنه يسير حسب نظام عام متكامل. وهذا يدل على أن المنظم واحد. قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] وللعلماء على ذلك برهانان وهما:

1. برهان التمانع:

لو صح أن هناك أكثر من إله لتعددت الآلهة، ولأمكن أن يكون بينهما تمانع في الخلق والإرادة. فلو اختلف الإلهان بأن يريد أحدهما إيجاد وخلق شيء، ويريد الآخر إعدامه حينئذ:

أ ـ إما أن يتم مرادهما معاً وتتحقق إرادة كل منهما، وهذا باطل لاجتماع الضدين معاً ـ الوجود والعدم ـ أي إيجاد الشيء وعدمه معاً.

ب ـ وإما أن لا يتم مرادهما معاً ولا تتحقق إرادتهما، بل تحققت إرادة أحدهما ولم تتحقق إرادة الآخر، وهذا باطل أيضاً، لعجز من لم تتم إرادته، والعجز صفة ضعف ونقص، والله منزه عن النقص؛ لأن الإله الذي يتصف بالعجز ليس إلهاً، فتبطل ألوهية أحدهما، وتثبت وحدانية الله تعالى.

2. برهان التوارد: أي حالة الاتفاق.

فلو اتفق الإلهان على إيجاد شيء ما، وتحققت إرادتهما في إيجاد هذا الشيء فإنه يكون قد اجتمع مؤثران في إيجاد هذا الشيء فإنه يكون قد اجتمع مؤثران على أثر واحد وهذا باطل. أو يتم إيجاد الشيء بإرادة أحدهما وهذا باطل أيضاً لعجز الآخر، فتثبت وحدانية الله تعالى.

(1) سورة الأنبياء: الآية / 22/ .

ثانياً : دليل الاستغناء :

لنفرض جدلاً أن هناك عـدداً مـن الآلهـة . وليكونـا اثنيْـنِ أحدهمـا (أ) والآخـر (ب) فنقول :

1 ـ إما أن يكون الإله (أ) محتاجاً إلى الإله (ب) لعجزه .

2 ـ وإما أن يكون الإله (أ) غير محتاج إلى الإله (ب) .

فإذا كان الإله (أ) محتاجاً إلى الإله (ب)، لم يكن الإله (أ) إلهاً لعجزه . والله لا يتصف بالعجز ؛ لأنها صفة نقص ، والله لا يتصف بالنقص بل بالكمال .

وإذا كـان الإله (أ) لا يحتـاج إلـى الإلـه (ب) ويقـوم بتدبيـر الكـون وحـده . يكـون الإلـه (ب) ليس لـه عمـل ، ومـا هـذا الإله الـذي لا عمـل لـه ؟! فيثبـت بذلـك وحدانية الله تعالى .

الوحدانية: هي سلب الكثرة في الذات والصفات والأفعال . أي عدم .

1 . الاثنينيَّة (في الذات): أي في ذاته تعالى .

فوحدانية الذات تنفي عنه تعالى الكم المتصل والمنفصل أي تنفي العدد في الذات ـ متصلاً كـان أو منفصـلاً ـ أي تنفي التركيب في ذاته تعالى . أي ليست ذاته تعـالى مركبـة مـن أجـزاء متصـل بعضهـا ببعـض ، وإلا كـان مشـابهاً للحـوادث والوحدانية ، تنفي أيضاً وجود ذات أخرى تماثل الذات العلية .

2 . عدم الاثنينيَّة في (الصفات): إن وحدانية الصفات تنفي عن الله الكم المتصل والمنفصل فيها ، أي تنفي العدد متصلاً أو منفصلاً ، أي إنَّـهُ تعالى لـه قدرة واحدة وإرادة واحدة وعلم واحد وسمع وبصر واحد ، وصفة كلام واحدة ، وحياة واحدة ، وليس ثم من يتصف بصفات الألوهية سواه .

3 . وعدم الاثنينيَّة في (الأفعال): أي إنَّـه تعـالى متصف بوحدانيـة الأفعـال ، إذ ليس ثم من له فعل من الأفعال سواه تعالى . وكل ما سواه عاجز لا تـأثير لـه في شيء من الأشياء .

الدعوى العاشرة :

رؤية الله تعالى

يقول الإمام الغزالي : إنَّ الله تعالى مرئي لوجوده ووجود ذاته . إذ إنَّ رؤية الله تعـالى ليس لفعلـه ولا لصفـة مـن صفاتـه ؛ لأن كـلَّ موجـودِ ذات ، واجـب أن يكـون مرئياً ، كما أنه واجب أن يكـون معلومـاً . أي إنَّ اللـه تعـالى مـن حيث ذاتـه ووجـوده مستعدٌّ لأن تتعلق الرؤية به ، أي واجـب ورؤيتُـه بـالقوّة لا بـالفعل وبالتـالي فـإن رؤيـة الله تعـالى ممكنـة جـائزة عقـلاً . فـإن امتنـع وجـود الرؤيـة لأمـر آخـر خـارج عـن ذاتـه تعـالى ، كـأن يعجـز الإنسـان عـن رؤيتـه تعـالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[1] .

فالكلام في مسألة رؤية الله تعالى يمكن بحثها من ثلاثة جوانب :

1 ـ الجانب الأول : هل رؤية الله تعالى جائزة ممكنة عقلاً أم مستحيلة؟

2 ـ الجانب الثاني : هل دلت الأدلة النقلية والسمعية على إمكانية رؤيته في الدنيا؟

3 ـ الجانب الثالث : هل دلت الأدلة النقلية والسمعية على إمكان رؤيته تعالى في الآخرة؟

الأول ـ والإجابة على الجانب الأول يكون من عدة جوانب :

مذهب المعتزلة : يرى المعتزلة أن العقـل لا يجيز رؤيـة اللـه تعـالى وأن العبـاد لا يرون ربهم . فالله لا يرى لأنه ليس في جهة .

فإذا كان الله مرئياً فهو في جهة من الرائي	/ م ك/
وكون الله في جهة أمر مستحيل	/ م ص/
فكون الله مرئياً أمرٌ مستحيلٌ	/ ن/

مذهب أهل السنة : يقول الإمام الغزالي :

إن رؤية الله تعالى ممكنة عقلاً ، وإنَّ العقـل لا يحيـل رؤيـة العبـاد ربـهم . وإنمـا الرؤية هي قوة يجعلها الله في الإنسان متى يشاء وكيف يشاء بدون كيفيـة ولا حصـر .

(1) سورة الأنعام الآية / 103/ .

وهي ليست كرؤية الأشياء والأجسام، وبالرغم من أن الله تعالى ليس بجسم ولا متحيز في مكان وليس في جهة فإنه من الممكن أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر كما ورد في الأحاديث.

ـ والمعتزلة إن كانت تنفي رؤية الله تعالى عقلاً؛ لأنهم اعتبروا أن رؤية الله كرؤية الأجسام والجواهر والأعراض. وبما أن الله تعالى مخالف للحوادث أي لا يشبه مخلوقاته، أي إنَّ الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، وليس بمكان ولا جهة فرؤيته تعالى ممكنة؛ لأن هذه الرؤية تختلف عن رؤية الإنسان للأجسام والأشياء.

ولا يمكن أن نقيس الله تعالى بالمقاييس المادية المحسوسة.

ـ وإن المعتزلة أنكرت الرؤية؛ لأنهم لم يعرفوا معنى الرؤية الحقيقية.

وظنوا أن الرؤية هي النظر إلى الأشياء والأجسام بالعين المجردة بالبصر، وقالوا بأن الرؤية هي انطباع صورة المرئي في الحدقة. وهذا يعني انحصار المرئي في جهة معينة من المكان حتى يمكن اتجاه الحدقة إليه.

وبما أن الله تعالى ليس في جهة، ولا في مكان، وليس هو بجسم ولا جوهر ولا عرض، إذن الرؤية مستحيلة في حقه تعالى وغير جائزة ولا ممكنة عقلاً.

الرد على المعتزلة:

يقول الإمام الغزالي: لا يشترط أن تكون الرؤية بالعين وإن الرؤية أعم من أن تكونَ إنطباعاً لصورة المرئي في الحدقة. وإنَّ قول المعتزلة: إنَّ الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض وإنَّهُ تعالى ليس في مكان ولا جهة. قول صحيح. ولكن قد لا تكون الرؤية بالعين فقط! بل قد تكون بالقلب أو العقل قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[1].

فإذا أدركنا الشيء بالعقل نقول: أننا أبصرناه ولنا أن نقول: علمنا الشيء بقلبنا أو بعقلنا ودماغنا، أي أدركناه وعرفناه.

(1) سورة الحج الآية / 46/ .

فالرؤية هي: إدراك ومزيد كشف ومعرفة وعلم.

وإنَّ التصور والتخيل نوع من الرؤية. فالإنسان يتصور الله ويتخيله. ولكن رؤيته الحقيقية هي أوضح وأكمل من الصورة في الخيال.

فيمكن أن نُغمِض العين مثلاً ونتصور صورة الصديق على سبيل التخيل، ولكن ـ إذا فتحنا البصر أدركنا أن الصورة الحقيقية للصديق أوضح وأكمل من الخيال فتكون الرؤية الحقيقية كشفاً واستكمالاً للصورة في الخيال.

ـ فرؤية الله ممكنة عقلاً؛ لأنها كشف واستكمال لمعرفة الإنسان لربه. ولكن هذا الكشف لا يكون في هذا العالم بل في الدار الآخرة.

الثاني ـ أما الإجابة على الجانب الثاني والقائل: هل هناك من الأدلة السمعية النقلية ما يدل على رؤية الله تعالى في الدنيا؟ ـ فتكون كالتالي:

مذهب المعتزلة: يرى المعتزلة أنه ليس هناك من الأدلة السمعية ما يثبت رؤية الله تعالى في الدنيا. بل هناك من الأدلة ما يثبت عدم إمكان رؤية العباد ربهم في الدنيا. ومن هذه الأدلة:

1 ـ قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[1].

فقد نفى الله تعالى أن يدركه أحد بالأبصار، والإدراك بالأبصار هو الرؤية، فالرؤية مستحيلة غير ممكنة.

2 ـ وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[2].

ـ لقد أجاب الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بقوله: لن تراني وفيه نفي الرؤية.

(1) سورة الأنعام الآية / 103/ .

(2) سورة الأعراف الآية / 143/ .

ومن جهة ثانية فقد علق إمكان الرؤية على استقرار الجبل، وقد علم الله تعالى أن الجبل لن يستقر وسيصبح دكاً. إذاً فقد علق الرؤية على أمر مستحيل في الواقع، وهو استقرار الجبل، فالرؤية مستحيلة.

ثم إن كلمة (لن) تعني النفي المؤبد. أي لن تراني في الدنيا أبداً. وهذا تفسير الزمخشري وهو من المعتزلة.

مذهب أهل السنة: يقول الإمام الغزالي:

1ـ إن رؤية الله تعالى جائزة عقلاً، وهذه الرؤية ليست لرؤية بعضنا لبعض! فهي ليست بكيفية من كيفيات الحوادث من مقابلة وجهة، وتحيز، وهي ليست بانحصار المرئي عند الرائي بحيث يحيط به وذلك لإستحالة الحدود والنهايات على الله.

وقد خص الله تعالى عباده المؤمنين بالرؤية وخاصة الأنبياء. منها رؤية موسى ربه وطلبه ذلك حيث قال: رب أرني أنظر إليك.. وهذه الآية دليل على إمكان رؤية الله في الدنيا لسببين:

1ـ أنّ موسى عليه السلام لم يطلب الرؤية من الله إلا وهو يعلم أنها ممكنة قابلة للوقوع والحصول. ولو كانت مستحيلة لكان موسى عليه السلام أولى من المعتزلة بمعرفة ذلك.

2ـ أنّ سؤال موسى عليه السلام في الدنيا، دليل على عدم معرفته بوقوع وقت هذه الرؤية. والأنبياء لا يعرفون من الغيب إلا ما عرّفهم الله به. فسيدنا موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية وهو يرتجي الإجابة في أي وقت.

3ـ أنّ الله تعالى علق رؤيته لموسى على أمر ممكن جائز وهو استقرار الجبل وما علق على ممكن لابد أن يكون ممكناً. فالرؤية ممكنة.

4ـ أنّ كلمة (لن) في الآية ليست للتّأبيد بل هي للتأكيد.

5ـ رؤية الصالحين والعارفين ربهم في الدنيا. فالإمام أحمد بن حنبل قال: إنّه رأى ربه في المنام تسعاً وتسعين مرة، فقال: والله إن رأيته تمام المئة لأسألنه. فرآه. فقال: سيدي ومولاي ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إليك؟ قال تعالى: تلاوة كلامي. قال: يارب بفهم أم بغير فهم؟ قال: يا أحمد بفهم وبغير فهم.

وقال بعض الصوفية: إنّه رأى ربه في المنام على وصفه، فقيل له: كيف رأيته؟ قال: انعكس بصري في بصيرتي فصرت كلي بصراً فرأيت من ليس كمثله شيء.

2ـ هناك فريق آخر من أهل السنة قالوا بعدم إمكان رؤية الله تعالى في الدنيا؛ لأنه لم ترد أدلة سمعية عن إمكان رؤيته تعالى في الدنيا، أما في الآخرة فنعم. والذي جاء من الأدلة السمعية هو عدم إمكان رؤية الله في الدنيا منها:

1ـ عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (اعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا).

2ـ عن عائشة رضي الله عنها وقد سألها مسروق عن رؤية النبي ﷺ ربه فقالت:

ـ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب. (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار).

ـ ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب. (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً).

ـ ومن حدثك أن محمداً كتم فقد كذب. (يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك)

3ـ ومن الأدلة أيضاً عدم إمكان رؤية موسى عليه السلام ربه في الدنيا. (لن تراني) فإن قول الله تعالى: (لن تراني) هو دفع لما التمسه موسى في أن يراه. فلو طلب من الله رؤيته في الآخرة لما قاله له: لن تراني لأن الرؤية ممكنة في الآخرة وغير ممكنة في الدنيا. أي إنك لن تراني في الدنيا، ولكن ستتحقّقُ لك الرؤية في الآخرة.

الثالث ـ أما الإجابة على الجانب الثالث ـ هل هناك من الأدلة السمعية ما يثبت رؤية الله في الآخرة؟ فتكون كالتالي:

مذهب المعتزلة: حيث نفوا رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأن الرؤية غير ممكنة عقلاً فهي مستحيلة في الدنيا والآخرة كما بينوا في أدلتهم. (لا تدركه الأبصار..).

فالمعتزلة لم يتمكنوا من إثبات الرؤية، وخالفوا قواعدَ الشرع، وظنوا أن إثبات الرؤية هو إثبات الجهة وهذا مستحيل في حق الله تعالى.

فهؤلاء تغلغلوا في التنزيه محترزين من التشبيه فأفرطوا.

أما المشبّهة فقد أثبتوا الجهة لله تعالى احترازاً من التعطيل فشبهوا الله بمخلوقاته وهؤلاء أفرطوا. واعتدل أهل السنة والجماعة، ووفقهم الله تعالى للحق فتفطنوا للمسْلك القَصْد وعرفوا أن الجهة منفية عن الله تعالى. وأن الرؤية ثابتة؛ لأنها رديف العلم وهي ـ أي الرؤية ـ تكملة للعلم وانكشاف . . .

مذهب أهل السنة والجماعة:

يرى أهل السنة أن رؤية الله تعالى في الآخرة واجبة وثابتة بالأدلة السمعية الكثيرة. منها قول الله سبحانه وتعالى:

1 ـ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [1].

2 ـ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [2] وهي النظر إلى وجه الله تعالى.

3 ـ ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [3]. أي لا يرون ربهم عقوبة لهم.

4 ـ قال النبي ﷺ: (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) [4].

وقد أجمع الصحابة الكرام على وقوع الرؤية يوم القيامة.

(1) سورة القيامة الآية / 22/ .

(2) سورة يونس الآية / 26/ .

(3) سورة المطففين الآية / 15/ .

(4) رواه

القطب الثاني
القسم الأول
صفات المعاني

بالموازنة بين صفات المعاني والصفات المعنوية نلاحظ أنها:

صفات المعاني هي: القدرة، والإرادة، والعلم، الكلام، السمع، والبصر، والحياة.

والصفات المعنوية هي: قادر، مريد، عليم، متكلم، سميع، بصير، حي.

وصفات المعاني هي صفات أزلية قائمة بذات الله غير منفصلة عنه. وهي صفات وجودية؛ لأنها متحققة موجودة بذات الله تعالى.

وصفات المعاني قائمة بذات الله زائدة على الذات موجبة له حكماً.

أما الصفات المعنوية فهي نتاج لصفات المعاني.

ـ إن المعتزلة خالفوا أهل السنة في مسألة صفات المعاني، فأنكروا وجود هذه الصفات فقالوا:

1 ـ إن الله عالم بدون أن يتصف بصفة العلم، والله تعالى قادر دون أن تسند إليه صفة القدرة . . . وهكذا وقد حملهم على هذا أن إسناد هذه الصفات الذاتية إلى الله تعالى يستلزم تعدد الذوات القدماء بقدر تعدد الصفات. ومن يعتقد ذلك كافر.

2 ـ وقالوا: إن عالميته وقادريته واجبة لذاته تعالى فلا تحتاج لوجودها إلى القدرة والعلم.

3 ـ وقالوا: إن الله كامل بذاته فيلزم إذا قلنا إنّ عالميته ثابتة بواسطة العلم فيه. فيكون ناقصاً بذاته مستكملاً بواسطة غيره. وهذا باطل بالاتفاق.

ـ والواقع أن هذه الأقوال كلها أوهام جسّمها المعتزلة وذلك لتحميلهم العقل أكثر من طاقته في هذه المسائل. فإن المحال في تعدد القدماء أن تتعدد الذوات القديمة لا أن تتعدد الصفات لذات واحدة.

ـ وإن العالمية ليست إلا إسناد صفة العلم نفسه إلى الله . فليس هناك محتاج ومحتاج إليه ، وبذلك نعلم أن إسناد صفة العلم أو القدرة أو الإرادة أو إلى الله لا يعني أبداً استكماله بغيره . والدليل على ذلك أن الله تعالى أسند إلى ذاته صفة العلم فقال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾[1] .

ومن الطبيعي أن نقيس صفات الله الأخرى على هذه الصفات فنسند إليه تعالى صفة الحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والحياة إذ لو كان العلم غير ثابت لله تعالى ، لما نسب الله ذلك إلى نفسه ، ولما عبر به عن المعلوم ؛ لأن التعبير بالعلم عن المعلوم دليل صحة نسبة العلم إليه تعالى .

صفة القدرة:

هي صفة أزلية قائمة بذات الله زائدة على الذات غير منفصلة عنه . يتأتى بها إيجاد كل الممكنات أو إعدامها ، أو تكيفها . هذه الصفة تتعلق بالأشياء تعلقاً صلوحياً من حيث إيجاد كل ممكن أو إعدامه أو تكيفه ، وتتعلق بالأشياء أيضاً تعلقاً تعجيزيّاً . من حيث تنفيذ الإيجاد والإعدام والتكييف . ويستحيل على الله ضد هذه الصفة وهي العجز .

إن صفة القدرة واحدة ، ولكن إذا نظرنا إلى تعلقها الصلوحي : فهو تعلق أزلي قديم . وإذا نظرنا إلى تعلقها التعجيزيّ : فهو تعلق حادث . أي أن كلا التعلقين عائدان إلى قدرة واحدة ، وإنما الحادث هو التعلق التعجيزيّ بالأشياء . أما صفة القدرة ذاتها فهي قديمة على كل حال .

الدليل العقلي على صفة القدرة:

يقول الإمام الغزالي : إنَّ محدث هذا العالم قادر . وهذا العالم المحكم المرتّب المتقن وفق نظام دقيق ، الذي يشمل كل أنواع العجائب والآيات ، المحير للعقول والألباب يدل ويشير على أنه لم يصدر عن ذات عاجزة ؛ لأنَّها لو كانت عاجزة

---

(1) سورة البقرة الآية / 255/ .

لعجزت عن خلق أبسط الأشياء ، ومن ثم لعجزت بالتالي عن خلق هذا الكون وما فيه من أنظمة وقوانين ومجرات وعوالم . إذن هذا العالم المنظم الدقيق يشير إلى خالق قادر .

ونقول حسب ترتيب هذا القياس :

كل فعل محكم صادر من فاعل قادر	/ م ك/	أصل أول
العالم فعل محكم	/ م ص/	أصل ثان
العالم صادر من فاعل قادر	/ ن/	نتيجة ، مطلب

يقول الإمام الغزالي : في أي الأصلين النزاع؟

ـ فإذا قال الخصم : لم قلتم أن العالم فعل محكم؟

يكون الجواب : إننا نقصد أنه محكم ؛ لأنه يسير وفق أنظمة دقيقة مرتبة من الذرة إلى المجرة ، فخلق الإنسان وترتيبه وأعضاؤه الظاهرة والباطنة يشير إلى وجود الخالق القادر . وهكذا كل ما في الكون من عجائب الإتقان . فهذا الأصل : أن العالم فعل محكم تدرك معرفته بالحس والمشاهدة ، ولا يمكن جحد ذلك .

ـ وإذا قال الخصم : بم عرفتم أن كل فعل محكم ففاعله قادر؟

نجيب : يقول الإمام الغزالي : إن الإنسان يمكنُهُ معرفة هذا العالم بأنه فعل محكم وأن فاعله قادر ، ويعرف ذلك عن طريق العقل ، وبالفطرة والبديهة . فالعقل يصدق به بغير دليل ، ولا يمكن لعاقل أن يجحد ذلك أو ينكره .

ومع ذلك يقول الإمام الغزالي سنجرد دليلاً يقطع دابر كل جحود ومعانِدٍ فنقول : نعني أن الله قادر وأن هذا العالم المحكم المنظم هو من إبداعه وخلقه . فهذا العالم المحكم إما :

1 ـ أن يكون صادراً عن ذات الله وهذا محال ؛ لأنه لو كان صادراً عن ذات الله لكان قديماً مثله .

2 ـ أو يكون صادر عن قدرة وصفة زائدة عن الذات وهذا هو الصحيح .

ـ فإذا قال الخصم : إن صفة القدرة قديمة ، والعالم حادث ليس بقديم . نجيب : بأن هذا الأمر يتعلق بأحكام الصفات ومتعلقاتها . وهذه الأحكام هي :

1 ـ أن صفات الله تعالى ليستْ هي عين الذات ولا منفصلة عن الذات بل هي زائدة على الذات .

2 ـ أن صفات الله تعالى قديمة وليست حادثة .

3 ـ أن صفات الله تعالى قائمة بذاته .

4 ـ أسماء الله المشتقة عن الصفات صادقة عليه أزلاً وأبداً .

أما متعلقات الصفات فهي :

1 ـ القدرة والإرادة : تتعلقان بالممكنات فقط إيجاداً وإعداماً .

2 ـ العلم والكلام : تتعلقان بالواجبات والممكنات والمستحيلات .

3 ـ السمع والبصر : تتعلقان بالموجودات فقط .

4 ـ الحياة : لا تتعلق بشيء ؛ لأنها صفة خاصة بذات الله .

فصفة القدرة متعلقة بجميع المقدورات والممكنات كلها التي لا نهاية لها . ولا يخفى ذلك . إذاً لا نهاية للمقدورات . وإن العالم من هذه الممكنات إذاً فإن قدرة الله تعالى القديمة تتعلق به ، فنقلته من حالة العدم إلى حالة الوجود .

ـ فالإمكان مستمر أبداً والقدرة واسعة لجميع الممكنات التي لا نهاية لها .

ونعني بالممكنات التي لا نهاية لها أن خلق الحوادث بعد الحوادث لا ينتهي .

ـ وإذا أردنا أن نبرهن أن قدرة الله تتعلق بكل وجميع الممكنات نقول :

لقد ثبت أن صانع هذا العالم واحد وهو الله .

1 ـ فإما أن يكون بإزاء كل مقدور قدرة . والمقدورات لا نهاية لها ، فيلزم وجود قدرة متعددة لا نهاية لها وهذا محال كما سبق في إبطال دورات لا نهاية لها .

2 ـ وإما أن تكون القدرة واحدة ، فيكون تعلقها بمقدورات لا نهاية لها ؛ لأن القدرة على خلق الشيء قدرة على خلق مثله . فإذا كان الله قادراً على فعل شيء فهو قادر على فعل مثله .

والنتيجة: أنه مهما تعددت المقدورات ، فإنها تتعلق بالقدرة الواحدة وأن الإمكان لا ينحصر في عدد .

ـ فإذا قال الخصم : هل خلاف المعلوم مقدور ـ أي ممكن ـ ؟

يكون الجواب : أنه ثبت أن كل ممكن مقدور ، وأن المحال ليس بمقدور فهل خلاف المعلوم محال أم ممكن ؟

يمكن معرفة ذلك إذا عرفنا معنى (المحال والممكن والواجب) .

فإذا قلنا مثلاً : إن العالم إما أن يكون واجباً أو ممكناً أو محالاً .

1 ـ أما كون العالم واجب : إذا اعتبر تعلق الإرادة القديمة به فهو واجب الوجود بغيره ـ أي بالله ـ لا جائز .

2 ـ أما كون العالم محال : إذا اعتبر عدم تعلق الإرادة به فيكون حدوثه ووجوده محالاً ؛ لأنه يؤدي إلى حدوث حادث بلا سبب ولا مرجح .

3 ـ أما كون العالم ممكناً : إذا لم نعتبر معه وجود الإرادة ولا عدمها أي ننظر إلى ذات العالم فقط ، فيكون له وصف الإمكان .

ـ وهناك ثلاث مسائل أو فروع بالنسبة إلى قدرة الله تعالى وهي :

الفرع الأول

إذا رجعنا إلى قول الخصم : هل خلاف المعلوم مقدور ؟

نجيب : إن خلافَ المعلوم غير مقدور . ويمكن التمثيل على ذلك بما يلي :

إذا سبق في علم الله أن زيداً سيموت في صبيحة يوم السبت فهل خلق الحياة لزيد صبيحة يوم السبت أمر ممكن أم غير ممكن ؟

الجواب :

1 ـ إن خلق الحياة لزيد ممكن بالنظر إلى عملية الخلق ذاته دون الالتفات إلى غيره ، أي إنَّ الخلق ممكن لذاته .

2 ـ وإن خلق الحياة لزيد محال غير ممكن إذا كانت عملية الخلق متعلقة بعلم الله . فإذا لم يمت زيد في صبيحة يوم السبت وبقي على قيد الحياة ، فعند ذلك ينقلب علم

الله جهلاً؛ لأن الله تعالى علم أن زيداً سيموت صبيحة يوم السبت . . ومن المحال أن ينقلب علم الله جهلاً .

فتبين إذاً أن الخلق ـ خلق الحياة لزيد ـ أمر ممكن لذاته محال لغيره ، أي أمر محال للزوم استحالته في غيره ، وهو استحالة إنقلاب العلم جهلاً .

3 ـ فحياة زيد مقدورة أي ممكنة من حيث إمكان الحياة ـ أي من حيث إنَّها حياة فقط ـ ومن حيث عدم قصور أو ضعف في ذات القدرة الإلهية .

4 ـ وإنَّ حياة زيد غير مقدورة وغير ممكنة من حيث تعلقها بعلم الله ؛ لأن الله يعلم أن زيداً سيموت في هذا الوقت ـ أي السبت مثلاً ـ .

فخلاف المعلوم غير مقدور ؛ لأنه ثبت لدينا أن الله تعالى يتصف بصفة العلم ، فهو يعلم كل ما في هذا الكون ، ويعلم الممكنات والواجبات والمستحيلات ، أي إنَّ صفة العلم تتعلق بكل هذه الواجبات والممكنات والمستحيلات ولا شيء منها يكون غير معلوم لله تعالى . فالله يعلم كل الممكنات والمقدورات فكيف يكون خلاف المعلوم مقدوراً؟ أي كيف يكون ما لا يعلمه الله أمراً مقدوراً ممكناً ، وهذا محال ، إذاً فخلاف المعلوم غير مقدور .

الفرع الثاني :

علاقة القدرة الإلهية بالقدرة الإنسانية .

ـ إذا قال الخصم : هل مقدورات الإنسان ـ أي أفعاله ـ وسائر الأحياء والحيوانات ـ أي أفعالها ـ هي مقدورة لله أم لا ؟

فإن كانت أفعال الإنسان غير مقدورة لله تعالى ـ أي لا تتعلق بقدرة الله تعالى ـ فهذا ينافي عموم تعلق القدرة ـ أي تعلق قدرة الله بكل الممكنات .

وإن كانت أفعال الإنسان مقدورة لله تعالى ، لزم كون مقدور بين قادرين ـ أي إنَّ الفعل بين قادرين : قدرة الله تعالى وقدرة الإنسان ـ وهذا محال .

ويجيب الغزالي: لقد انقسم الناس في هذا الأمر فئاتٍ وأحزاباً منهم :

الجبرية: الذين نفوا عن الإنسان القدرة والإرادة ، ورفعوا عنه التكاليف ، فهو مسير لا مخير ، وغير مسؤول عن أفعاله ؛ لأنه لا حرية له ولا اختيار ، ولا يسند إليه أي عمل لا خلقاً ولا كسباً ، فهو كالريشة في مهب الريح ، وإنَّ الله تعالى يخلق أفعاله كلها خيراً وشراً ، وإنما تنسب الأفعال إلى الإنسان مجازاً .

الرد على الجبرية:

أجمع العلماء أن هذا المذهب ضلال واضح وقد يؤدي إلى الكفر ، إذ إنَّه ينسب الشر والكفر إلى الله . وتعالى الله علواً كبيراً أن يجبر الإنسان على الكفر ثم يحاسبه عليه ، أو يجبره على فعل الشر والظلم ثم يعاقبه عليه . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[1] . وقال أيضاً : ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾[2] .

وقد أبطل مذهب الجبرية أيضاً العقل والبديهة ؛ لأن كل ما يناقض العقل مردود .

وإن كان الإنسان مجبوراً لا إرادة له ولا قدرة له في أفعاله ، فعليه أن لا يشتم من شتمه ولا يضرب من ضربه ولا يعاقب من أساء إليه . وقد شنع عليهم الشاعر مذهبهم فقال :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

المعتزلة:

لقد أنكر المعتزلة تعلق قدرة الله بأفعال العباد وقالوا : إن الإنسان يخلق أفعاله بقدرة أودعها الله فيه . مُخيَّر بجميع أفعاله . فهو يؤمن ويكفر ويطيع ويعصي بإرادته ومشيئتِهِ الحرة . فكل أعماله التكليفية التي هي مناط الثواب والعقاب ، الصادرة عنه بقدرته ومشيئته . . هي مخلوقة له لا لله .

الرد على المعتزلة:

1 ـ لقد أجمع العلماء على بطلان مذهبهم ؛ لأن فيه تخطيأً وتجاوزاً لمقام العبد ، وتعجيزاً لمقام الألوهية .

---

(1) سورة آل عمران الآية / 182/ .

(2) سورة الكهف ، الآية / 49/ .

2 ـ لقد أجمع السلف رضي الله عنهم ـ أنه لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه وأن قول المعتزلة ـ بأن الإنسان يخلق أفعاله ـ إنكار لما أجمع عليه السلف .

3 ـ إن المعتزلة نسبوا خلق الأفعال إلى قدرة الإنسان ـ أو سائر الأحياء ـ مع أن الإنسان وسائر الأحياء من المخلوقات . . تتصف بقدرة وإرادة محدودة ، وكذلك تتصف بعلم محدود .

والأمثلة على ذلك كثيرة من أفعال الحيوانات :

أ ـ كالعنكبوت : التي تنسج من البيوت أشكالاً غريبة يعجز المهندس عن استدارتها وتوازي أضلاعها وتناسب ترتيبها ونحن نعلم بالضرورة ـ الفطرة ـ أن العنكبوت لم تنسج بيوتها عن علم ومعرفة ، وقد عجز المهندس من معرفة ذلك أو عمل مثله .

ب ـ وكذلك النحل : التي تشكل بيوتها على شكل سداسي ، دون بقية الأشكال ؛ لأن الشكل السداسي له خاصية دلت عليها البراهين الهندسية ، لا توجد في غيره . وهذا الشكل السداسي مبني على عدة أصول وقواعد منها :

1 ـ الشكل السداسي هو أقرب الأشكال إلى المستديرة .

2 ـ الشكل السداسي . . إذا وضعت الأشكال السداسية متجاورة متلاصقة لا يبقى بينها فُرج وفراغات معطلة . والنحل يحتاج إلى بيوت لا خلل ولا فُرجٌ بينها تتسع لأكبر عدد ممكن لذلك سخرها الله تعالى لاختيار الشكل السداسي لصناعة بيوتها .

ترى هل عرف النحل كل الأشكال الهندسية حتى اختار الشكل السداسي ، أم سخره الله تعالى لصنع ما هو مضطر إليه؟ وقد عجز كبار العقلاء والمهندسين عن معرفة دقائق هذه الأمور من عجائب خلق الله تعالى المنفرد بالإبداع والإيجاد والخلق . وفي هذا الكون الكثير الكثير من العجائب مما يملأ الصدور إيماناً بعظمةِ الله وقدرته وجلاله .

فكيف تقول المعتزلة وأمثالهم : إنَّ الإنسان وسائر المخلوقات تخلق أفعالها ، فيساهمون مع الله في خلق وإبداع واختراع مثْلِ هذه العجائب والآيات؟!

مذهب أهل السنة والجماعة:

لقد قال هؤلاء : إن الجبر محال باطل ، وإن الخلق والاختراع اقتحام هائل .

وإنما الحق هو إثبات قدرتين على فعل واحد ـ أي قدرة الله وقدرة الإنسان ـ كفعل الكتابة . إن كلَّ فعلٍ يتوقف على أمرين :

1 ـ وجود آلات ووسائل الفعل ومقوماته كأعضاء الإنسان والوسائل المستخدمة .

2 ـ اكتساب الفعل وانبعاثه عن إرادة الإنسان وقدرته التي أودعها الله فيه .

فالكتابة مثلاً : لابد لها من وسائل : كالقلم والورق ، وأعضاء الإنسان كاليد والأصابع والحركة . . . فالله تعالى خلق الإنسان وخلق له القدرة والإرادة والحركة والأعضاء والحواس والأعصاب . . وخلق كل الوسائل الممكنة والأدوات . . وما على الإنسان إلا أن يكتسِبَ الفعل اكتساباً فيستخدم ما خلقه الله له في عمل الكتابة .

فالقصد والعزيمة والكسب من الإنسان ، وخلق الفعل وأسبابه من الله . فيحاسب الإنسان على الكسب والقصد لا على خلق الفعل . قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (1) .

وقال أيضاً : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (2) .

وقال أهل السنة والجماعة أيضاً : إن وجود مقدور بيْنَ قادرين أمر ممكن ، أي قدرة الله وقدرة الإنسان . واختلاف قدرة الله وقدرة الإنسان واختلاف وجه تعلقهما بشيءٍ واحد أمر ممكن غير مستحيل .

ـ فإذا قال الخصم : ما الذي حملكم على إثبات مقدور بيْنَ قادرين؟ نقول :

كل حادث ممكن /م ك/

فعل العبد حادث /م ص/

فعل العبد ممكن /ن/

ونقول أيضاً :

(1) سورة المدثر ، الآية / 38/ .

(2) سورة البقرة ، الآية / 286/ .

كل ممكن تتعلق به قدرة الله تعالى	/ م ك/
فعل العبد ممكن	/ م ص/
فعل العبد تتعلق به قدرة الله تعالى	/ ن/

إذاً ففعل العبد إن لم تتعلق به قدرة الله تعالى ـ كما تقول المعتزلة ـ فهو محال.

1 ـ فإذا قال الخصم: كيف يكون مقدور بين قادرين؟

يكون الجواب: إن الله تعالى خالق لأفعال العبد وليس للعبد إلا الكسب فقط. فهو يكسب أفعالاً بقدرة أودعها الله فيه. فالله تعالى: (هو الخالق للقدرة ـ قدرة العبد ـ وخالق للمقدور ـ الحركة ـ معاً. أي إنَّ قدرة الله تعالى هي التي أوجدت قدرة الإنسان، وأوجدت المقدور (الحركة، الكلام، المشي. . .) فالله تعالى هو الذي يخلق أفعال عباده بقدرته، والإنسان ليس له إلا الكسب ولا يعتبر خالقاً لأفعاله.

2 ـ وإذا قال الخصم: إن قدرة الإنسان المخلوقة الحادثة لابد أن تتعلق بالمقدور ـ أي الحركة مثلاً أو الفعل ـ من حيث التأثير والإيجاد؛ لأن النسبة بين المقدور والقدرة كنسبة المسبب إلى السبب، وهو كونه به.

يكون الجواب: إن القدرة الحادثة المخلوقة متعلقة بالمقدور. أي إنَّ قدرة الإنسان متعلقة بالفعل (الحركة، الكتابة) قبل وقوع الفعل؛ لأن عدم تعلقها به قبل وقوع الفعل أمر محال، والقدرة متعلقة بالمقدور أيضاً عند حدوث الفعل؛ لأن التعلق عند الحدوث يعبر عنه بالوقوع به.

3 ـ وإذا قال الخصم: إن معنى تعلق القدرة قبل وقوع المقدور أن المقدور إذاً وقع بها.

يكون الجواب: إن هذا التعلق ليس في الحال، بل هو انتظار تعلق، فيقال: إنَّ القدرة موجودة وهي صفة لا تعلق لها، ولكن ينتظر لها تعلق إذا وقع المقدور بها.

4 ـ فإذا قال الخصم: معنى ينتظر التعلق أي متهيئة لوقوع المقدور بها.

يكون الجواب: الواقع أنه لا معنى للتهيؤ إلا انتظار الوقوع بها، وذلك أنه لا يوجب التعلق في الحال.

ويقول الإمام الغزالي: فكما يعقل عندكم وجود قدرة متعلقة بالمقدور، والمقدور غير واقع بها، كذلك يعقل عندنا وجود قدرة، والمقدور غير واقع بها ولكنه

واقع بقدرة الله. فلم يخالف مذهبكم مذهبنا، إلا قولنا أنها وقعت بقدرة الله تعالى. إذ كيف يمكن وقوع مقدور بقدرة حادثة ـ قدرة الإنسان ـ بدون قدرة الله تعالى؟! إذ إنَّ قدرة الإنسان الحادثة هي مقدورة الله تعالى.

5 ـ وإذا قال الخصم: إن وجود القدرة التي لا يقع بها مقدور هي والعجز بمثابة واحدة.

يكون الجواب: كما ساقه الإمام الغزالي:

إن قدرة الله تعالى مطلقة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1]. وهي متعلقة بكل الممكنات ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2].

ولا يمكن أن ننسب العجز إلى الله فهو محال. فلا بد من إثبات قدرتين متفاوتتين، قدرة أعلى وقدرة أضعف وأشبه بالعجز. وأنت بين خيارين:

أ ـ إما أن تثبت للعبد قدرة توهم نسبة العجز له من وجه.

ب ـ وإما أن تثبت لله تعالى قدرة توهم نسبة العجز له ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾[3]؛ لأن ذلك محال.

الفرع الثالث:

إذا قال الخصم ـ المعتزلة ـ: إن أهل السنة يدَّعون أن قدرة الله تتعلق بكلّ الممكنات والحوادث. وإنَّ أكبر ما في العالم من الحركات والأفعال يتولد بعضها من بعض بالضرورة.

يكون الجواب: إن معنى التولد أو مفهوم التولد، أن يخرج جسم من جوف جسم كما يخرج الجنين من بطن الأم، وكما يخرج النبات من بطن الأرض. وهذا محال بالنسبة للأعراض، إذ لا يتولد بعضها من بعض.

---

(1) سورة البقرة، الآية / 20/ .

(2) سورة يس، الآية / 82/ .

(3) سورة الإسراء، الآية / 43/ .

فمثلاً: تولد حركة الخاتم بحركة اليد. إذ ليس لحركة اليد جوف حتى يتولد منه، وتخرج منه حركة الخاتم!

والذي يحدث هو أن حركة الخاتم كامنة في حركة اليد، فإذا تحركت اليد تحرك الخاتم بحركة اليد، وهذا يدرك بالمشاهدة؛ لأن حركة اليد دون حركة الخاتم أمر محال. والمحال غير مقدور.

- فإذا قال الخصم: نعني بالتولد وجود موجود عقيب موجود حادث به. أي لا نعني بالتولد خروج جسم من جوف جسم آخر. فأين الإشكال؟ وما الدليل على بطلان ذلك؟

يكون الجواب: الدليل على بطلانه ما دل على بطلان كون القدرة الحادثة موجودة! لأنه من المستحيل حصول مقدور بقدرة حادثة، فكيف يمكن حصول مقدور بما ليس بقدرة؟ وإستحالة ذلك يرجع إلى عموم تعلق القدرة - أي إنَّ قدرة الله تعالى تتعلق بكل المقدورات - أي لا يمكن أن يقوم الإنسان بقدرته بأي فعل بدون قدرة الله تعالى؛ لأن قدرة الله متعلقة بقدرة الإنسان؛ ولأن خروج المقدور عن القدرة - أي حصول المقدور بغير قدرة محال - وأمر مُبطلٌ لعموم تعلق القدرة، بل موجب للعجز والتمانع [1].

والخلاصة: إنَّ كل الحادثات، جواهرها وأعراضها الحادثة منها (في الأحياء والجمادات - واقعةٌ بقدرة الله. وهو - الله - المستبد باختراعها وإيجادها وخلقها. ولا يقع (يوجد) بعض المخلوقات ببعض، بل الكل يقع - يوجد ويخلق - بالقدرة أي بقدرة الله تعالى.

صفة العلم:

ويقصد بها أن الله عالم بجميع المعلومات الموجودات والمعدومات فالموجودات إما أن تكون قديمة أو تكون حادثة، والقديم له ذات وصفات. ومن عَلِمَ غيره فهو بذاته وصفاته أعلم. أي يجب ضرورة أن يكون بذاته وصفاته أعلم إن ثبت أنه عالم بغيره.

---

(1) لأن قدرة الله تعالى تتعلق بكل الممكنات. هذه القدرة مطلقة لا يعجزها شيء أو يمتنع عنها إيجاد شيء.

فإن قيل: هل لمعلوماته نهاية؟ يكون الجواب: لا؛ لأن الموجودات في الحال - وإن كانت متناهية - فإن الممكنات في المستقبل غير متناهية، والممكنات التي ليست موجودة يمكن أن يوجدها أو لا يوجدها. فيعلم إذاً ما لا نهاية له.

فمثلاً نقول ضعف الاثنين أربعة، وضعف الأربعة ثمانية، وضعف الثمانية ستة عشر إلى ما لا نهاية له، والإنسان لا يعلم من مراتبها إلا ما يقدره بذهنه، إذاً فمعرفة أضعاف أضعاف الاثنين، هو عدد واحد يخرج عن الحصر، وكذلك كل عدد. فكيف غير ذلك من النسب والتقديرات.

صفة الحياة:

وتعني أن الله حي وهو معلوم بالضرورة، ولم ينكر أحد أنَّ اللّه حيٌّ ممن أعترف بكونه تعالى عالماً قادراً؛ لأن كون العالم القادر حياً ضروري، إذ لا نعني بالحي إلا ما يشعر بنفسه ويعلم ذاته وغيره، والعالم بجميع المعلومات، والقادر على جميع المقدورات كيف لا يكون حياً؟!

صفة الإرادة:

الإرادة لغة: هي مطلق القصد.

والإرادة اصطلاحاً: هي صفة أزلية قديمة قائمة بذات الله غير منفصلة عنه وتتعلق بكل الممكنات ويستحيل على الله ضدها.

ومن شأن الإرادة تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من إيجاد أو إعدام أو تكييف، بقطع النظر عن مؤثر خارجي سواء ظهرت هذه الممكنات إلى حيز الوجود أم لم تظهر.

إن معنى الإرادة: هو إيجاد الممكن على مقتضى علم الله الأزلي من حيث الشكل والزمان والمكان.

وقد سبق في علم الله الأزلي مثلاً: أنه سيخلق محمداً ﷺ على هيئة كذا في مكان كذا في زمان كذا. فتعلقت إرادة الله بذلك.

والممكن يشمل الخير والشر وقد قيل: هل تتعلق إرادة الله تعالى بالخير والشر وبالحسن والقبيح؟

يرى بعض العلماء أنه يجوز نسبة الشر إلى الله تعالى في مقام التعليم والعبرة، لا في غيره، كخلقه القردة والخنازير.

الإرادة الصلوحيَّة والإرادة التعجيزية:

إن صفة الإرادة لله تعالى واحدة وقديمة، ولكن الذي يختلف فيها اعتبار التعلق وعدمه.

فإذا نظرنا إلى معنى التعلق الأزلي القائم بذات الله الصالح المتعلق بالممكنات تكون الإرادة صلوحيّة.

وإذا نظرنا إلى تعلق الإرادة بمراد من المرادات تكون الإرادة تعجيزيَّة.

والسؤال: كيف يكون تعلق الإرادة الإلهية بالممكنات قديماً؟ كالإرادة الصلوحية العامة مع أننا نسميها تعجيزيَّة؟

يكون الجواب: إن تعلق الإرادة الإلهية بإيجاد الشيء أو إعدامه، هو تعلق قديم ولا يمكن أن يكون حادثاً. إذ لو كان حادثاً لكان الله غير عالم ببعض ما يريد خلقه وفعله في المستقبل وهذا محال. أي من المستحيل أن يكون الله غير عالم بما يريد خلقه، ويثبت بذلك عكسه وهو أن الله يعلم.

إن الله تعالى يعلم من الأزل كل ما سيفعله أو سيخلقه في الوقت والحين. وهذا يعني بالبداهة أن إرادة الله التعجيزيَّة مصاحبة لعلمه القديم. وأن كلمة (التعجيزيَّة) يخيل للإنسان أن معناها الخلق والظهور وهو حادث، وهذا صحيح بالنسبة للقدرة. أما بالنسبة للإرادة فالتعجيز هو محض تعلق الإرادة بالممكنات سواء ظهرت إلى الوجود أم لم تظهر بعد.

وقد تتعلق إرادة الله بالممكنات فقط ولا تتعلق بالمستحيلات والواجبات.

أما إرادة الإنسان فَقَدْ تتعلق بعمل من الأعمال، ثم يطويه عن التنفيذ أمر ما، فتسمى إرادته هذه تعجيزيَّة.

- <u>يقول الإمام الغزالي:</u> إن الله تعالى مريد لأفعاله أي إنَّ الفعل الصادر عن الله هو من الممكنات، أي يمكن أن يوجد ويمكن أن لا يوجد.

1 - فلا يكفي ذات الفعل لوجوده. أي لترجيح وجوده على عدمه؛ لأن نسبة الذات - ذات الفعل - إلى الضدين (وجوده وعدمه) واحدة.

2 - وكذلك لا تكفي القدرة لوجود الفعل؛ لأن نسبة القدرة إلى الضدين واحدة.

3 - وكذلك لا يكفي العلم لوجود الفعل؛ لأن العلم يتبع المعلوم ويتعلق به على ما هو عليه، ولا يجعل أحد الممكنين مرجحاً على الآخر.

<u>مثال:</u> إن الله تعالى يعلم أن وجود هذا العالم أو الكون في الوقت الذي وجد فيه كان ممكناً. وأن وجوده بعد ذلك وقبل ذلك كان مساوياً له في الإمكان؛ لأن هذه الإمكانات متساوية.

فتعلق العلم بوجود العالم في الوقت الذي وجد فيه - لعلة تعلق الإرادة له - فتكون الإرادة للتعيين علة، ويكون العلم متعلقاً به تابعاً له. ولو جاز أن يكتفي - وجود الفعل - بالعلم عن الإرادة، لأكتفى به عن القدرة. وبالتالي لكان العلم يكفي في وجود أفعالنا دون أن تحتاج إلى الإرادة وهذا محال.

- فإذا قال الخصم: إن ذات الفعل لا تكفي لوجوده، فلا بد من القدرة، والقدرة لا تكفي أيضاً فلا بد من الإرادة.

<u>يكون الجواب:</u> إن الإرادة لا تكفي؛ لأن الإرادة القديمة عامة التعلق، كالقدرة، فنسبتها إلى الأوقات واحدة ونسبتها إلى الضدين - الوجود والعدم - واحدة.

<u>مثال:</u> فإذا وجدت الحركة بدلاً عن السكون فلأن الإرادة تعلقت بالحركة لا بالسكون..

ولكن هل كان يمكن أن تتعلق الحركة بالسكون؟

فإن قيل: لا. فهو محال؛ لأن الإرادة القديمة تتعلق بكل الممكنات.

وإن قيل: نعم. فهما متساويان أي إنَّ الحركة والسكون تتعلقان بالإرادة القديمة.

ـ فإذا قال الخصم: ما الذي أوجب تخصيص الإرادة القديمة بالحركة دون السكون؟ فلا بد من مخصص، والمخصص يلزمهُ مخصص. . وهكذا بتسلسل التخصص إلى غير نهاية.

يكون الجواب: هذا السؤال غير معقول. وقد حيّر عقول أصحاب الفرق ولم يوفق للحق ـ إلا أهل السنة والجماعة.

وأما الفرق التي أجابت على هذا السؤال فهي:

1ـ الفلاسفة: قالوا: إن ذات الله قديمة، وإنّ العالم وجد لذات الله تعالى. وليس لله تعالى صفة زائدة عن الذات. فلما كانت الذات قديمة، كان العالم قديماً، وكانت نسبة العالم إلى الله كنسبة المعلول إلى العلة. فالفلاسفة نفوا صفات المعاني.

2ـ المعتزلة: إن المعتزلة نفوا صفات المعاني أيضاً خوفاً من تعدد الذوات. وقالوا: إن العالم حادث بإرادة حادثة حدثت له في الوقت الذي حدث فيه، لا قبله ولا بعده. (هذه الإرادة حدثت له لا في محل، أي إنّ الله ليس محلاً للحوادث).

3ـ المشبّهة أو المجسمة: قالوا: إن العالم حادث، حدث بإرادة حادثة، حدثت في ذات الله. وهؤلاء هم القائلون بكون الله محلاً للحوادث.

4ـ أهل السنة والجماعة: قالوا: إن العالم حادث في الوقت الذي تعلقت به الإرادة القديمة بحدوثه في ذلك الوقت من غير إرادة ومن غير تغير صفة القديم (أي إنّ العالم حادث عن الإرادة القديمة).

الرد على الفرق السابقة:

ـ الرد على الفلاسفة:

إن الفلاسفة قالوا بقدم العالم؛ لأنه صادر عن الذات القديمة. وهذا القول محال؛ لأن العالم فعل صادر عن الله. والفعل لا يمكن أن يكون قديماً. ومعنى الفعل: أنه لم يكن ثم كان. فإن كان قديماً موجوداً مع الله أبداً فكيف يكون فعلاً؟ فإذا كان العالم قديماً، فإننا نراه مخصوصاً بمقدار مخصوص ووضع مخصوص. ويبدو ذلك من أمرين:

1 ـ حركة الأفلاك: بعضها مشرقية ـ أي من المشرق إلى الغرب ـ وبعضها مغربية ـ أي من المغرب إلى المشرق ـ .

فكيف يلزم من الذات القديمة أو من دورات الأفلاك القديمة ـ وهي قديمة عند الفلاسفة ـ أن تتعين جهة عن جهة أو أن تعرف جهة من جهة؟ وهذا لا جواب له عندهم.

2 ـ يقولون: إنّ الفلك الأقصى ـ وهو الفلك التاسع عند الفلاسفة ـ هو المحرك لجميع السموات، يتحرك بين قطبين شمالي وجنوبي.

والقطبان: هما عبارة عن نقطتين متقابلتين على الكرة، الثابتتين عند حركة الكرة على نفسها.

والجواب: كيف يمكن تعيين نقطتين من بين سائر النقاط على سطح الكرة؟ إذ يمكن أن تكون كل منطقة في الكرة قطباً. .

إذاً لابد من وصف زائد على الذات الإلهية، وهي الإرادة التي من شأنها أن تخصص الشيء عن مثله.

الرد على المعتزلة:

1 ـ يقول الغزالي: إن المعتزلة قالوا: إن الله تعالى مريد بإرادة حادثة له لا في محل. وإنّ العالم حادث حدث بإرادة حادثة له لا في محل: إذ نفوا عن الله صفات المعاني القديمة القائمة بذات الله.

ولكن إذا لم يكن هناك إرادة قديمة قائمة بذات الله فكيف يكون مريداً بلا إرادة؟ هذا محال طبعاً. كمن يقول مثلاً: إنه مريد بإرادة قائمة بغيره. .

2 ـ إذا كان العالم حادثاً بإرادة حادثة. فلم حدثت هذه الإرادة في هذا الوقت على الخصوص؟

وللإجابة نقول:

أ ـ إن كانت حدثت بإرادة أخرى، فهذا يلزم أن هذه الإرادة الأخرى حدثت بإرادة أخرى، وهذا ما يلزم التسلسل إلى غير نهاية وهذا محال.

ب ـ وإن كانت حدثت بلا إرادة، فإن العالم حدث في هذا الوقت على الخصوص بلا إرادة؛ ولكن العالم يفتقر إلى إرادة لحدوثه.

الرد على من قال إنَّ الله مَحلٌ للحوادث:

إن الذين قالوا بحدوث إرادة في ذات الله غير متعلِّقَةٍ بالحادث، قد دفعوا أحد الإشكالين: وهو كون الله مريداً بإرادة في غير ذاته، ولكنهم زادوا إشكالاً آخر، هو كون الله تعالى محلاً للحوادث. وهذا القول يوجب حدوث الله. وهذا مستحيل؛ إنَّه ثبت أن الله قديم وليس بحادث.

أهل السنة والجماعة: قالوا: إن كل الحوادث حدثت بإرادة قديمة تعلقت بها. هذه الإرادة هي صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله.

ـ فإذا قال قائل: لم ميّزت الإرادة الشيء عن مثله؟

نجيب: كقول القائل: لم كان العلم علماً؟ ولم كان الممكن ممكناً والواجب واجباً؟ وهذا السؤال محال؛ لأن العلم علم لذاته وكذلك الممكن والواجب وسائر الذوات. وكقول القائل أيضاً: لم كانت الإرادة إرادة والقدرة قدرة؟ وهذا السؤال أيضاً محال.

متعلّق صفة الإرادة:

معنى التعلق: ما يقتضي أو يستلزم أمراً زائداً على القيام بعملها. متعلقات صفات المعاني: قد مرت سابقاً.

أما متعلقات الإرادة: فإنها تتعلق بكل الممكنات؛ لأن كل حادث حدث بقدرة الله، وكل حادث يحتاج إلى إرادة. وكل من يتصف بالقدرة على الحدوث تجب له الإرادة.

فكل مقدور مراد	/م ك/
كل حادث مقدور	/م ص/
كل حادث مراد	/ن/

فالقدرة: تقتضي مقدوراً يتأتى بها إيجاده وإعدامه.

والإرادة: تقتضي مراداً مخصَّصاً بها.

وهما ـ القدرة والإرادة ـ تتعلقان بالممكنات فقط.

والعلم: يقتضي معلوماً.

والكلام: يقتضي معنى يدُلّ عليه.

وهذانِ ـ العلم والكلام ـ يتعلقان بالممكنات والواجبات والمستحيلات.

والبصر: يقتضي لذاته لذاته مبصراً يبصر به.

والسمع: يقتضي لذاته مسموعاً يسمع به.

وهذان يتعلقان بالموجودات.

والحياة: لا تتعلق بشيء إذ ليس لها علاقة بالأشياء، وإنما هي معنى قائم بذات الله تقوم بها بقية الصفات.

ـ رأي المعتزلة: فهم يقولون: إن المعاصي كلها والشرور والآثام حادثة واقعة بغير إرادة الله. بل هو كاره لها.

ويقولون: إن الإنسان يخلق أفعاله بقدرته وإرادته التي أودعها الله فيه.

ويقولون أيضاً: إن الله تعالى يأمر بما أراد وينهى عما يكره إذ أنَّ بين أمره وإرادته تلازماً لا يقبل إنفكاكاً. وقد حملهم على ذلك أن كثيراً مما يريده الله لا يتحقق، وكثيراً لا يريده يتحقق، وفي ذلك نقص وعجز؛ والله منزه عن العجز والنقص.

ـ رأي أهل السنة والجماعة: يقول الإمام اللقاني في قصيدة الجوهرة:

وقـــــدرة إرادة وغـــــايرت   أمـراً وعلمـاً والرضـا كمـا ثبـت

فلا يقع شيء في الكون إلا بإرادة الله تعالى. وإلا كان ثمة ما في الوجود فوق إرادته ومشيئته، وهذا عجز. والله منزه عن العجز.

وإن إرادة الله تعالى تتعلق بكل أمر ممكن فتخصصه ثم تبرزه القدرة وتوجده حسب ما تعلقت به الإرادة، سواء كان هذا الأمر حسناً أو قبيحاً، خيراً أم شراً... وهذا التعلق لا يستلزم شيئاً من القسر والإجبار بالنسبة لأفعال العباد وتكليفهم، فالله

تعالى خالق لأفعال العباد، وإن الإنسان المكلف شرعاً، له كسب الفعل بالاختيار الحر. فالإنسان يحاسب على الكسب لا على الخلق.

الفرق بين الإرادة والرضا والأمر والنهي:

إن إرادة الله تعالى تتعلق بكل أمر ممكن. وهذا التعلق لا يستلزم شيئاً من القسر والإجبار لأفعال العباد وتكليفهم.

فخلق الشر أو الضار، كالسم مثلاً: لا يستلزم تناول العباد له. وعلى هذا يقال: إن الله تعالى يريد الخير والشر والكفر والإيمان، والطاعة والعصيان، والمحبوب والمكروه، ومعنى ذلك: أن إرادة الله تعالى تعلقت بها ثم أوجدتها القدرة. وهذا من كمال مرتبة الألوهية.

- فإذا قال الخصم: كيف يأمر الله بما لا يريد؟

وكيف يريد شيئاً وينهى عنه؟

وكيف يريد الفجور والمعاصي والظلم..؟

يكون الجواب: إن الإرادة مغايرة للرضا، والأمر والنهي والمحبة والكراهية.

فالرضا: هو قبول الشيء والإثابة عليه، وكذلك المحبة والأمر.

فالرضا والمحبة والأمر: يتعلق كل منها بالأمر المستحسن المحبوب ولا يتعلق كل منها بالقبيح المكروه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[3].

---

(1) سورة النحل الآية / 90/ .

(2) سورة الزمر الآية / 7/ .

(3) سورة الحجرات الآية / 7/ .

إذاً إن كل شيء في الوجود يقع بعلم الله وإرادته من خير أو شر أو كفر أو إيمان، أو طاعة أو معصية...

وإن كل الفواحش والمنكرات والمعاصي والكفر والفسوق.. تقع بإرادة الله تعالى، ولكن لا تكون بأمره ولا رضاه ولا محبته وإن كانت متعلقة بإرادته.

فالله تعالى يريد الإيمان والخير والطاعة ويأمر بها ويرضاها ويريد الكفر والشر والمعصية ولا يأمر بها ولا يرضاها وينهى عنها ويبغضها.

- فإرادة الله تعالى عند أهل السنة، غير العلم والرضا والأمر، فالإرادة لا تستلزم الأمر ولا الرضا بالشيء المراد فالله تعالى يريد الخير ويأمر به، ويريد الشر ولا يأمر به ولا يرضى عنه مع علمه بذلك. وكذلك فإن الله يريد الإيمان ويأمر به، ويريد الكفر ولا يأمر به ولا يرضى عنه وينهى عنه.

فالله تعالى مثلاً: أراد لأبي جهل ما أراده أبو جهل لنفسه. أي أراد لأبي جهل الكفر؛ لأن أبا جهل أراد الكفر لنفسه، ولكن الله تعالى لم يأمر أبا جهل بالكفر ولم يرض عنه، بل نهاه عن الكفر وأمره بالإيمان.

فالإنسان في كل أفعاله الاختيارية إنما يتحرك ضمن دائرة الإرادة الإلهية. وهذا لا يتنافى مع كونه مختاراً مريداً في أفعاله وتصرفاته، وبين كونه لا يتخطى ولا يتجاوز الإرادة الإلهية.

أما الآية التي تقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

إن معنى هذه الآية: أنه لولا إرادة الله تعالى ومشيئته لما كانت إرادة الإنسان التي منحه الله إياها والتي بواسطتها يتصرف بحرية واختيار. فإرادة الإنسان هبة إرادة الله له بأن جعله حراً مختاراً.

قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2].

---

(1) سورة الإنسان الآية / 30/ .

(2) سورة الكهف الآية / 29/ .

وقال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[2].

وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[3].

صفة الكلام:

أجمع المسلمون على أن الكلام صفة لله تعالى. وأن الله متكلم. فصفة الكلام صفة قديمة ثابتة لله تعالى بإجماع الأمة وتواتر النقل عن الأنبياء، وهذا الإجماع لا خلاف فيه لأحد من المسلمين.

فصفة الكلام صفة أزلية قديمة قائمة بذات الله غير منفصلة عنه. ويستحيل على الله ضدُّها. وهذه الصفة لله هو بها آمر وناهٍ، ومخبر عنها بما أوحاه إلى رسله الكرام كالقرآن والتوراة والإنجيل.

وهذه الصفة لله تعالى ليست بحرف ولا صوت.

والأدلة على صفة الكلام لله تعالى كلها نقلية لقول صاحب جوهرة التوحيد:

حياته كذا الكلام السمع ثم البصر بذا أتانا السمع

ويمكن إثبات صفة الكلام لله تعالى بما يلي:

1 ـ من أقوال النبي ﷺ. والنبي هو الرسول المبلغ لرسالة المرسل (وهو الله تعالى). ومن يستحيل الكلام في حق الله تعالى فإنه يستحيل أن يصدق الرسول فالمكذب بالكلام، لابد أن يكذب بتبليغ الكلام. والرسالة عبارة عن تبليغ الكلام، والرسول هو المبلغ عن الله تعالى.

2 ـ ويمكن إثبات صفة الكلام أيضاً بأن الكلام يصدر عن متكلم، والمتكلم يكون حياً، والكلام للحي كمال. وكل كمال للمخلوق هو واجب الوجود للخالق. أي الأولى أن يكون الله متكلماً؛ لأنه حي.

---

(1) سورة الدهر الآية / 3/ .

(2) سورة الشمس الآية / 7 ـ 8/ .

(3) سورة البلد / 8 ـ 10/ .

ـ وإذا قال الخصم: هل كلام الله صوت أو حرف؟

1 ـ لأن كلام المخلوقات ـ الناس ـ يتألف من ألفاظ أي من أحرف وأصوات.

2 ـ وأن كلام المخلوقات ـ الناس ـ هو القدرة على إيجاد أصوات وحروف في نفس القادر.

3 ـ أو أن الكلام يراد به معنى ثالثاً؟

أولاً: فإن كان الكلام أصواتاً وأحرفاً فهي حادثة ومخلوقة، وهي كمالات بالنسبة للمخلوق، ولكن يستحيل قيامها في ذات الله.

ثانياً: إذا أريد بالكلام القدرة على إيجاد وخلق الأصوات فقط، فالله تعالى قادر على خلق الأصوات في نفسه، ولكن يصير محلاً للحوادث. وهذا محال. فيستحيل أن يكون متكلماً.

ثالثاً: إذا أريد بالكلام معنى ثالثاً غير مفهوم، فإن إثبات ما لا يفهم محال.

الجواب: إن كون الله محلاً للحوادث محال، وبالتالي لا يكون متكلماً بهذا الاعتبار. ولكننا نقول عن الإنسان: إنَّه متكلم باعتبارين هما:

1 ـ متكلم بالصوت والحرف.

2 ـ متكلم بكلام النفس، الذي ليس بصوت ولا حرف، وهذا كمال، وهو في حق الله تعالى غير محال، ولا هو دال على الحدوث. ونحن ـ أهل السنة ـ لا نثبت لله تعالى إلا كلام النفس، كما لا يمكن إنكار كلام النفس بالنسبة للإنسان، بالإضافة إلى القدرة على الصوت والألفاظ والأحرف. قال الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ـ وإذا قال الخصم: إن كلام النفس هو العلم بنظم الألفاظ والعبارات وتأليف المعاني على وجه مخصوص؛ لأنه ليس في القلب إلا معانٍ معلومة تحوَّل إلى ألفاظ مسموعة (وهذا أيضاً يسمى علم معلوم الألفاظ) وهو من عَمل الفكر. فهل الكلام الذي تقصدونه غير العلم بالألفاظ والمعاني والفكر؟

وإيضاح ذلك هو: أن الكلام إما أن يكون أمراً أو نهياً أو خبراً أو استخباراً.

1 ـ فالكلام الذي هو خبر: هو اللفظ الذي يدل على علم في نفس المخبر. فهو يعلم اللفظ ويعلم المعنى المحسوس.

2 ـ والكلام الذي هو استخبار: هو دلالة على أن في النفس طلباً ومعرفة.

3 ـ أما الكلام الذي هو أمر: فهو دلالة على أن في النفس طلب فعل المأمور.

4 ـ والكلام الذي هو نهي: هو دلالة على أن في النفس طلب عدم فعل المأمور.

ولا يعقل أمر آخر عن هذه الأقسام للكلام. ولكن هناك أمور محالة على الله تعالى كالأصوات.

وأمور موجودة لله تعالى: كالإرادة والعلم والقدرة وما عدا ذلك غير مفهوم.

الجواب: إن مفهوم الكلام الذي نريده هو معنى زائد على العلم بالألفاظ والمعاني والفكر. ولنذكر ذلك في قسم واحد من أقسام الكلام (الأمر والنهي والخبر والاستخبار) ولنأخذ الأمر، فنقول: إن كلمة قم مثلاً: هي لفظ يدل على معنى، وإنَّ هذا المعنى هو في نفسه كلام.

ولا حاجة في تقسيم الكلام إلى أقسام (آمر، وأمر، مأمور...) أو نقول: إن الأمر هو إرادة الآمر. فقد يكون الأمر ولا تكون الإرادة لامتثال الأمر.

ـ فإن قيل: إن الأمر لا يكون أمراً حقيقة، ولكن موهم أن يكون أمراً.

الجواب: إن هذا القول باطل من وجهين:

1 ـ الوجه الأول: إن الأمر ليس وهماً بل حقيقة؛ لأن الأمر هو طلب الامتثال، فهو آمر ولكنه غير مريد للامتثال.

2 ـ الوجه الثاني: إن الأمر هو إرادة الامتثال، ولكن أحياناً قد يأمر الإنسان ولا يريد الامتثال. بل يكرهه لسبب ما.

فمثلاً: إن الذي يأمر الغلام بالقيام أمام السلطان، وهو لا يريد امتثال الغلام للقيام؛ لأن في ذلك هلاكه. فمن المستحيل أن يريد ما فيه هلاكه.

فالكلام هو جنس مخالف للعلوم والمعلومات والإرادات والاعتقادات.

1 ـ فما يجب في حق الله تعالى هو الكلام القديم الذي هو معنى قائم بذات الله زائد على العلم بالألفاظ والمعاني...

2 ـ أما الحروف والألفاظ فهي حادثة وهي دلالات على الكلام؛ لأن الدليل غير المدلول. والدليل لا يتصف بصفة المدلول فالمدلول الحادث لا يمنع من كون الصانع قديماً وليس مستبعداً ولا مستحيلاً، وأن تدل الحروف الحادثة على صفة قديمة.

ولما كان كثير من الناس لم يعرفوا من الكلام إلا الحروف والأصوات ولم يعرفوا أن الكلام هو كلام النفس أو المعنى القائم بالنفس.

وهؤلاء الناس استبعدوا أموراً كثيرة تتعلق بالكلام، أي بصفة الكلام لله تعالى. نذكر منها الأسئلة والاستبعادات التالية.

الاستبعاد الأول:

سؤال: كيف سمع موسى عليه السلام كلام الله؟ فهل سمع صوتاً وحرفاً؟ فإن سمع صوتاً وحرفاً فلم يسمع كلام الله. إذاً؛ لأنه ليس بصوت ولا بحرف. وإن لم يسمع صوتاً وحرفاً فكيف يسمع كلام الله الذي ليس بصوت ولا حرف؟!

الجواب: إن موسى عليه السلام سمع كلام الله الذي ليس بصوت ولا حرف. وهو صفة أزلية قائمة بذات الله غير منفصلة عنه. أما كيف سمع موسى كلام الله؟

يكون جوابه: إن السمع نوع من الإدراك وهو معرفة والسمع كبقية العمليات (الرؤية ـ الذوق ـ الشم ـ اللمس ـ الإدراك ـ التصور...) وإنَّ سماع الإنسان العادي لكلام الله أمر متعذر، وكان ذلك السماع من خصائص النبي موسى عليه السلام ـ كليم الله..

ولا نستطيع أن نسمع الإنسان كلام الله، أو نشبه له ذلك الكلام بشيء من مسموعاته. فالأصم مثلاً: لا يعرف ما هي الأصوات؛ لأنه لم يسمعها، فلغة التعبير متنوعة كلغة الإشارات والرموز والأحاسيس والذوق والبصر والشم واللمس والسمع...) فموسى عليه السلام، سمع كلام الله تعالى بكيفية تختلف

عن كيفية سمعنا نحن وإن تعذر معرفتنا لكيفية سماع موسى عليه السلام كلام الله لا يعني عدم كلام الله، أي لا يعني أن الله لا يتّصفُ بصفة قديمة أزلية قائمة بذاته وهي الكلام. كما أن ذاته تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وكما أن رؤيته تعالى تخالف رؤية الأجسام والأشياء كذلك كلامه يخالف الحروف والأصوات ولا يشبهها.

الاستبعاد الثاني:

هل كلام الله تعالى حالٌّ في المصاحف أم لا؟

فإذا كان حالاً في المصاحف فكيف يحمل القديم في الحادث.؟

وإن كان غير حالٍّ في المصاحف فهذا خلاف الإجماع. (والمصحف فيه كلام الله ولا يجوز أن يمسَّهُ إلا المطهرون).

<u>الجواب:</u> إن كلام الله تعالى القديم محفوظ في القلوب مكتوب في المصاحف مقروء بالألسنة.

أما الورق والحبر والكتابة والحروف والأصوات فكلُّها حادثة لأنها أجسام وأعراض في أجسام.

فإن صفة الكلام القديمة لا تعني الذات الإلهية: فالكلام المكتوب في المصاحف لا يعني ذات الله. بل الحروف والكلمات والأصوات التي تحمل المعاني القديمة.

مثال: إذا كانت كلمة النار مكتوبة في المصحف ليس معنى ذلك أنها ذات النار، وإلا لاحترقت الأوراق أو لاحترق المصحف.

ولو لفظ الإنسان كلمة النار، لا يعني ذات النار، وإلا لاحترق لسانه، فحقيقة النار التي هي جسم حار. ولفظ النار والصوت دليل عليها.

كذلك الكلام القديم القائم بذات الله هو المدلول لا ذات الدليل، والحروف أدلة وهذه الأدلة لها حرمة شرعاً لذلك وجب احترام المصحف؛ لأن فيه دلالة على صفة الله تعالى.

الاستبعاد الثالث:

هل القرآن الكريم كلام الله تعالى أم لا؟

فإن قيل لا: فهذا خرق للإجماع.

وإن قيل نعم. فالقرآن ليس بحروف ولا أصوات والقارئ للقرآن يقرأ كلمات وحروفاً وأصواتاً.

<u>الجواب:</u> هناك قرآن وقراءة، ومقروء.

أما المقروء: فهو كلام الله تعالى - القديم القائم بالنفس -.

أما القراءة: هي فعل ابتدأه القارئ بعد أن لم يكن - وهو أمر محسوس حادث.

أما القرآن: فهو المقروء. أي كلام الله القديم غير المخلوق وإن أريد به القراءة. فالقراءة حادثة؛ لأنها لم توجد قبل القارئ. وما لا يسبق وجود الحادث فهو حادث.

الاستبعاد الرابع:

أجمعت الأمة على أن القرآن معجزة للنبي ﷺ. والقرآن هو كلام الله تعالى وهو سور وآيات لها مقاطع ومفاتح. فكيف يكون للقديم مقاطع ومفاتح؟ وكيف ينقسم إلى سور وآيات؟ وكيف يكون القرآن معجزة؟ مع العلم أن المعجزة هي فعل خارق للعادة، وكل فعل هو مخلوق حادث. فكيف يكون القرآن - الذي هو معجزة - والتي هي فعل خارق للعادة، كلام الله القديم؟

<u>الجواب:</u> إن كلام الله قديم، وما يحويه القرآن من سور وآيات ومقاطع ومفاتح، ليست إلا عبارات تدل على الصفة القديمة. التي هي المقروء والقراءة. فإذا اشترك الاسم امتنع التناقض.

مثال: إن الله قديم، والله تعالى يقول: حتى عاد كالعرجون القديم. فاسم القديم مشترك بين معنيين. كذلك القرآن المقروء والقراءة.

1 - إذا أريد به - أي كلام الله - المقروء، دلّ على أن القرآن هو كلام الله سبحانه القديم غير المخلوق.

2 ـ وإذا أريد به إرادة القراءة فهي حادثة. قال النبي ﷺ: (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الترنم بالقرآن) والترنم يكون بالقراءة.

وأما كون القرآن معجزة. فالمعجزة هي فعل الله. والقديم لا يكون معجزاً.

الاستبعاد الخامس:

يقال: لا مسموع الآن إلا الأصوات. وكلام الله مسموع الآن بالإجماع، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[1].

الجواب: إن مسموع موسى عليه السلام، صفة قديمة قائمة بذات الله تعالى.

أما مسموع المشرك هو أصوات دالّة على تلك الصفة. وكما نعلم أن الكلام:

1 ـ هو كلام النفس ـ أو المعنى القائم بالنفس ـ.

2 ـ هو الألفاظ الدالة على المعنى. وهي أيضاً تسمى كلاماً.

3 ـ ويسمى الكلام أيضاً العلم. يقال: سمعت علم فلان أي كلامه الدال على علمه.

4 ـ ويسمى الكلام أيضاً المسموع ـ أي الكلام المفهوم المعلوم ـ كأن نقول: سمعت كلام الأمير على لسان رسوله، فالمسموع: هو كلام الرسول الدال على كلام الأمير.

فما يسمعه المشركون هو الكلام الدال على صفة الكلام القديمة.

(1) سورة التوبة. الآية /6/.

القسم الثاني
أحكام صفات الله تعالى

الحكم الأول: إن صفات الله تعالى ليست هي عين الذات بل منفصلة عن الذات.

الحكم الثاني: إن صفات الله تعالى قائمة بذاته.

الحكم الثالث: إن صفات الله تعالى قديمة وليست حادثة.

الحكم الرابع: إن أسماء الله تعالى المشتقة عن الصفات صادقة عليه أزلاً وأبداً.

الحكم الأول:

صفات الله تعالى ليست عين الذات بل زائدة عن الذات أي أن صفات الله السبع أي صفات المعاني وهي (القدرة، والإرادة والكلام والعلم والسمع والبصر والحياة) ليستْ هي الذات بل هي زائدة على الذات.

رأي المعتزلة:

إن المعتزلة نفت صفات المعاني فقالوا:

1 ـ إن القديم هو ذات واحدة قديمة ولا يجوز إثبات ذوات قديمة متعددة.

2 ـ إن الله عالم قادر حي مريد. . لا يدل على كونه يتصف بصفة العلم والقدرة والحياة والإرادة. .

3 ـ وزعموا: أن العلميّة هي حال للذات وليست بصفة.

4 ـ وقالوا: إن الإرادة يخلقها في غير محل، والكلام يخلقه في جسم ويكون هو المتكلم به. فالكلام مثلاً. قالوا فيه: إن الله تعالى يخلق في ذات النبي ﷺ سماع أصوات منظومة. إما في النوم وإما في اليقظة، ولا يكون لتلك الأصوات وجود من الخارج، بل هي في سمع النبي ﷺ، كما أن النائم يسمع أصواتاً لا وجود لها في الخارج، وأن الحاضر اليقظان لا يسمع ما يسمعه النائم.

5 ـ وزعموا: أن النبي ينتهي صفاء نفسه إلى سماع أصوات ورؤية صور عجيبة لا يراها ولا يسمعها من حوله من الصحابة أو الناس. كأن يرى الملائكة ـ جبريل عليه السلام مثلاً ـ وكأن يسمع القرآن منه، والصحابة حوله لا يرون ولا يسمعون.

ويقول الإمام الغزالي رداً على المعتزلة:

إن مذهب المعتزلة مذهب الضلال. وهم يقولون إن الله عالم، حي، قادر، مريد، وأن العلمية القادرية هي حال للذات وليست بصفة. ولكن إن كان الله عالماً لابد أن يكون له علم، أي يتصف بصفة العلم.

وإن قول المعتزلة: إن قيام العلم بذات الله يوجب للذات حالة تسمى عالمية. فالعالمية هي حال للذات وليست بصفة، إن كلام المعتزلة هذا ليس إلا هوساً محضاً. بل إن العلم هي الحالة، ولا معنى لكون الله عالماً إلا كون الذات على صفة، وحال تلك الصفة هي العلم.

والذي يمكن أن نقوله للفلاسفة والمعتزلة: هل المفهوم من قولنا عالم، نفس المفهوم من قولنا موجود؟ وإن كلمة عالم فيها إشارة إلى الوجود وزيادة. أي وجود الله، والزيادة هي كونه عالماً.

ـ فإن قالوا: ـ الفلاسفة والمعتزلة ـ لا يعني قولنا عالماً أي موجوداً. فهذا مستحيل. أي من المستحيل أن يكون عالماً ليس موجوداً، فإذا كان في مفهوم عالم زيادة، فتلك الزيادة هي صفة العلم.

ولكن: هل هذه الزيادة ـ الصفة ـ مختصة بذات الموجود أم لا؟

ـ فإن قالوا ـ الفلاسفة والمعتزلة ـ لا. ليست الصفة مختصة بذات الموجود، فهذا القول محال؛ لأنه إذا لم تكن الصفة مختصة بذات الموجود، فكيف تكون وصفاً له؟

ـ أما إن قالوا: نعم. أي إنَّ الصفة مختصة بذات الموجود، فنحن لا نعني بالعلم ـ الصفة ـ إلا هذه الزيادة المختصة بالذات الموجودة الزائدة على الوجود، التي يشتق للموجود منها اسم العالم. فالنزاع بيننا يعود إلى اللفظ.

وإذا قلنا للفلاسفة:

هل معنى قولنا: قادراً. نفس معنى قولنا: عالماً أم غيره؟.

1 ـ فإذا كان نفس المعنى. فكأننا قلنا: قادر قادر فإنه تكرار محض.

2 ـ وإذا كان معنى قادر غير معنى عالم فهذا ما نريده. فقد أتيتم ـ أيها الفلاسفة ـ بمفهومين: أحدهما يعبر عنه بالقدرة، والآخر يعبر عنه بالعلم.

فإنكاركم يعود إلى اللفظ. أي إنَّ هذه الصفات ليست هي عين الذات، بل هي زائدة على الذات.

ـ فإذا قال الخصم ـ الفلاسفة والمعتزلة ـ:

1 ـ إن قولكم كلمة أمر، هي نفس وعين كلمة آمر وناه ومخبر، فهذا تكرار محض.

وإن كان غيره فليكن له كلام هو أمر، وكلام آخر هو نهي، وكلام آخر هو خبر.

وليكن خطاب كل شيء مفارقاً لخطاب غيره.

2 ـ وإن قولكم: إن مفهوم عالم بالأعراض، هو نفس وعين ومفهوم عالم بالجواهر أم غيره؟. أي كونه عالماً بالأعراض غير مفهوم كونه عالماً بالجواهر.

فإن كان المفهوم عينه أو ذاته. فليكن الإنسان مثلاً العالم بالجواهر عالماً بالأعراض بنفس وبعين ذلك العلم، حتى يتعلق علم واحد بمتعلقات مختلفة لا نهاية لها.

وإن كان مفهوم عالم بالأعراض غير مفهوم عالم بالجواهر فليكن لله علوم مختلفة متعددة لا نهاية لها.

وكذلك الكلام والقدرة والإرادة وكل صفة لا نهاية لمتعلقاتها وينبغي أن لا يكون لأعداد تلك الصفة نهاية. وهذا محال.

فإذا جاز أن تكون صفة واحدة ـ صفة الكلام مثلاً وهي الأمر وهي النهي وهي الخبر. . . ـ وتنوب عن هذه المختلفات ـ كما يزعم أهل السنة ـ جاز أن تكون صفة واحدة تنوب عن العلم والقدرة والحياة. . وكل سائر الصفات وإذا جاز ذلك، جاز أن تكون الذات الإلهية نفسها كافية وتنوب عن الصفات كلها. ويكون فيها معنى القدرة والعلم والإرادة والكلام وسائر الصفات، من غير زيادة، أي من غير أن تكون هذه الصفات زائدة على الذات. وعند ذلك يلزم مذهب المعتزلة والفلاسفة.

<u>الجواب:</u> يقول الغزالي رداً على المعتزلة والفلاسفة:

إن هذا السؤال يحرك قطباً عظيماً من إشكالات الصفات. وقد كعّ (أي جبن وضعف) عنه أكثر المحصلين، وعدلوا إلى التمسك بالكتاب والسنة والإجماع، ولم يجيبوا إلا بما ورد به الشرع فقالوا:

إن هذه الصفات ورد بها الشرع. إذ دل الشرع على صفة العلم الواحد، أما الزائد على الواحد لم يرد، ولا نقول به.

إن هذا الجواب غير شاف للأسباب التالية:

1 ـ لأنه ورد في الشرع: الأمر والنهي والخبر والتوراة والإنجيل والقرآن. فما المانع أن يقال: الأمر غير النهي والقرآن غير التوراة.

2 ـ وورد في الشرع أيضاً: أن الله يعلم السر وأخفى والعلانية والظاهر والباطن والرطب واليابس.. إلى آخر ما يشتمل القرآن عليه.

ورد الغزالي على المعتزله بقوله:

إن كل فريق من العقلاء، يعترف بأن هناك أمراً زائداً على ذات الله الخالق سبحانه. وهذا الأمر الزائد هو الذي يعبر عنه بأنه عالم قادر مريد متكلم... فمنهم من أفرط ومنهم من فرّط، ومنهم من اقتصد واعتدل.

الفلاسفة: هم الذين فرطوا واقتصروا على ذات واحدة تؤدي جميع هذه المعاني وتنوب عن كل الصفات.

المعتزلة والكرامية: هم الذين أفرطوا. فبعض المعتزلة وبعض الكرامية / المرجئة/ أثبتوا صفة لا نهاية لآحادها، من العلوم والكلام والقدرة بحسب متعلقات هذه الصفات.

أهل السنة والجماعة: هم الذين اعتدلوا واقتصدوا. فقالوا: إن ذات الله تعالى غير صفاته. فصفاته زائدة على الذات. حتى أن الصفات متباينة فيما بينها.

فالقدرة غير العلم وغير الإرادة وغير الكلام، وكذلك الحياة وهكذا الصفات السبع.

فإن كانت الصفات متباينة مختلفة فيما بينها. فبالأحرى والأولى أن تكون الذات مباينة للصفات.

فالمباينة والاختلاف بين الذات والصفات، أشد من المباينَة بين الصفتين.

تقول المعتزلة: أنتم تقولون: إنَّ صفات الله تعالى غير ذاته. ونحن إذا قلنا: (الله تعالى) فإننا ندلل بهذا القول على الذات مع الصفات لا على الذات بمجردها؛ لأن اسم الله تعالى لا يصدق على ذات أخلوها عن صفاته الإلهية.

فمثلاً: لا يمكن أن نقول: الفقه غير الفقيه؛ لأن البعض ليس هو عين الكل، وليس هو غير الكل. فالفقه ليس هو عين الفقيه ذاته. ولا يوجد فقه بغير فقيه.

ولكن لو قيل: إن الفقه غير الإنسان. فهذا جائز؛ لأن الإنسان لا يدل على صفة الفقه. أما الفقيه فإنه يدل على صفة الفقه.

فلا يجوز إذاً أن يقال: إن الصفة غير الذات التي تقوم بها الصفة.

فصفات الله تعالى ـ إذاً ـ ليست هي عين الذات، وليست منفصلة عن الذات، بل هي قائمة بذات الله.

يقول الغزالي: نحن نريد أن نخص المعتزلة بأن نبيِّن لهم الفرق بين المقدرة والإرادة فنقول:

لو جاز أن يكون الله قادراً بغير قدرة، جاز أن يكون مريداً بغير إرادة، ولا فرق بينهما.

ـ فإذا قال المعتزلة: هو قادر لنفسه لذلك كان قادراً على جميع المقدورات. ولو كان مريداً لنفسه لكان مريداً لجميع المرادات وهذا محال؛ لأن المتضادات لا يمكن إرادتها على الجمع. أما القدرة فيجوز أن تتعلق بالضدين.

الجواب: يقول الغزالي رداً على المعتزلة: قولوا ـ أيها المعتزلة ـ إن الله مريد لنفسه، ثم يختص ببعض الحادثات المرادات. كما قلتم: إن الله قادر لنفسه ولا تتعلق قدرته إلا ببعض الحادثات.

ألم تقولوا: إن جميع أفعال الإنسان والأحياء خارجة عن قدرته وإرادته جميعاً؟! فإذا جاز ذلك في القدرة عندكم جاز في الإرادة أيضاً.

أما الفلاسفة: فإنهم ناقضوا أنفسهم في صفة الكلام من وجهين:

1 - قالوا: إن الله متكلم مع أنهم لا يثبتون كلام النفس ولا الأصوات في الوجود. وإنما يثبتون سماع الصوت في أذن النبي ﷺ من غير صوت من الخارج.

2 - إن ما ذكروه في أن النبي ﷺ يسمع أصواتاً وألفاظاً لا يسمعها مَنْ حوله. كالنائم الذي يسمع أصواتاً وكلاماً لا يسمعه اليقظان.

إن قولهم هذا رَدٌّ للشرع كله؛ لأنه إذا رددنا معرفة النبي ﷺ لكلام الله إلى التخيل الذي يشبه أضغاث الأحلام فلا يثق به النبي ﷺ ولا يكون ذلك علماً، وأنَّ ما يدركه النائم خيال لا حقيقة.

الحكم الثاني:

(صفات الله تعالى قائمة بذاته)

أهل السنة والجماعة:

يقول الإمام الغزالي: إن صفات الله تعالى كلها قائمة بذاته، ولا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته. سواء كان في محل، أم لم يكن في محل.

رأي المعتزلة: حيث قالوا:

1 - إن صفات الله تعالى لا تقوم بذاته. ولكن الله يحدث في ذاته وصفاته، وليس هو محلاً للحوادث. وهذه الصفات لا توجد في محلّ.

2 - إن الكلام لا يقوم بذات الله؛ لأن الكلام حادث والله ليس محلاً للحوادث، ولكن الكلام يقوم بجسم والمتكلم به هو الله سبحانه.

والبرهان على أن صفات الله تقوم بذاته هو: أن الله تعالى هو صانع هذا العالم لأنه كما تقدم في القياس:

كل حادث له سبب	/ م ك/
والعالم حادث	/ م ص/
العالم له سبب	/ ن/

وإن هذا الخالق الصانع للعالم، لابد أن يتصف بصفة كذا وكذا... أي إنَّ الله تعالى على صفة كذا. ولا فرق بين كونه تعالى على صفة كذا وبين قيام الصفة بذاته.

فإذا قلنا: مريد. أي قامت بذاته تعالى صفة إرادة واحدة وكذلك قولنا: متكلم. أي قامت بذاته تعالى صفة الكلام الواحدة. فإذا لم تكن الصفات قائمة بذات الله فكيف يتصف بها؟ وكيف نقول: إنَّهُ مريد قادر عالم متكلم...

فإذا لم يقم بذات الله كلام فهو ليس متكلماً.

المعتزلة: يقولون: إنَّ الله يحدث إرادة أو قدرة أو علماً، أي يحدث صفة لا في محل؛ لأن الله ليس محلاً للحوادث.

الرد على المعتزلة: فلو جاز وجود صفة لا في محل. فلم قالوا بخلق الأصوات في محل؟ فلتخلق الأصوات في غير محل، فإذا لم يعقل الصوت إلا في محل؛ لأنه عرض وصفه فكذلك الإرادة، والقدرة..

ولكن لما كان أول المخلوقات يحتاج إلى الإرادة، والمحل مخلوق. لم يمكنهم تقدير محل الإرادة موجوداً قبل الإرادة، فإنه لا محل قبل الإرادة إلا ذات الله تعالى فلا بد أن تكون الإرادة قائمة بذات الله.

المجسمة والمشبّهة: يقولون: إن للَّه إرادة وقدرة في ذاته الله تعالى، فهو محل للحوادث، لأنه: يستحيل وجود إرادة في غير محل.

ويستحيل كون الله مريداً بإرادة لا تقوم به.

ويستحيل حدوث إرادة حادثة به بلا إرادة.

هذه الاستحالات الثلاث جلية واضحة تدرك ببداهة العقل.

الرد عليهم: إن الله تعالى يتصف بصفات قديمة أزلية ليست هي عين الذات ولا منفصلة عن الذات، ولكنها قائمة بالذات.

فكيف يكون الله متكلماً ولا تقوم صفة الكلام بذاته؟

وكيف يكون قادراً مريداً عليماً. ولم تقم صفة القدرة والإرادة، والعلم بذاته تعالى.

الحكم الثالث:

ـ صفات الله تعالى قديمة.

إن صفات الله تعالى كلّها قديمة، أي قديمة بالذات، أي قديمة بذاتها. فقدمها بقدم الذات الإلهية. ومعنى قدمها ذاتي، أي ليست بممكنة في نفسها، فصفات المعاني لا تنفك عن الذات؛ لأنها ليست بغير الذات. فلا يعقل قيام الذات بدونها ولا وجودها ـ أي الصفات ـ بغير الذات المقدسة.

فلا يصح أن نقول: بأنها ممكنة في نفسها، أو أن الذات العلية علّة فيها، وإن صفات المعاني ليست بغير الذات، وليست أيضاً هي عين الذات ـ كما مر سابقاً ـ وإلا لزم أن تكون الذات صفات وهذا باطل. وبالتالي بطل ما ذهب إليه المعتزلة من قولهم: إن الله قادر بذاته، حي بذاته، عالم بذاته... لا بصفات زائدة على الذات (وهي صفات المعاني: القدرة والإرادة والعلم...) وذلك لئلا يلزم تعدد القدماء وهذا محال.

الجواب: إن المحال هو تعدد الذوات، أما تعدد الصفات لذات واحدة فليس بمحال بل هو الواجب. فصفات الله تعالى قديمة، ولو كانت حادثة لكان الله محلاً للحوادث وهذا محال.

والأدلة التي تثبت أن الله تعالى ليس محلاً للحوادث هي:

الدليل الأول:

إن كل حادث هو جائز الوجود. والقديم الأزلي هو واجب الوجود. فلو كانت صفاته حادثة، لكان ذلك مناقضاً لوجوب وجوده تعالى. فالجواز والوجوب متناقضان. فكل ما هو واجب الذات، من المحال أن يكون جائز الصفات فالله تعالى قديم وصفاته قديمة.

الدليل الثاني:

إذا كان الله تعالى محلاً للحوادث كان ما يلي:

أن يوجد حادث يستحيل وجود حادث قبله. هذه الاستحالة لقبول الحادث في ذاته تعالى فالله قديم فكيف يكون محلاً للحوادث؟

1 ـ فالله يستحيل أن يكون محلاً للحوادث لذاته؛ لأنه واجب الوجود. فإذا كان من المستحيل أن يكون محلاً للحوادث أزلاً فيستحيل أن ينقلب المحال جائزاً.

2 ـ والله يستحيل أن يكون محلاً للحوادث لأمر زائد عليه لأن كل زائد ممكن تقدير عدمه، فيلزم منه تواصل الحوادث، وجودها وعدمها، أبداً، وهذا محال؛ لأنه لا يمكن أن ينقلب المحال إلى جائز.

فإذا قال الخصم: إن كلامكمْ هذا: إنَّ الله ليس محلاً للحوادث يبطل بحدوث العالم، وقد كان ممكناً قبل حدوثه. ويستحيل حدوثه أزلاً. ولكن لم يستحل حدوثه جملة، في الوقت المخصص له.

الجواب: يقول الغزالي رداً على المعتزلة:

ليس من المستحيل إثبات ذات واجبة الوجود.

وإن العالم ليس له ذات قبل حدوثه؛ حتى نقول: إنَّه قابل للحدوث أو غير قابل. وهذا خلاف ما قالته المعتزلة: إنَّ العالم له ذات في العدم قديمة قابلة للحدوث. فيطرأ عليها الحدوث بعد أن لم يكن.

1 ـ والذي يمكن قوله: إنَّ العالم فعل من أفعال الله وقدم الفعل محال؛ لأن القديم لا يكون فعلاً.

2 ـ وإن الخلق والإيجاد: هو تعلق قدرة الله بوجود المقدور. هذه التعلقات هي المسماة بصفات الأفعال. وهي حادثة لأنها عبارة عن التعلق التنجيزي للقدرة وهو حادث.

الدليل الثالث:

والدليل الثالث على أن اللّه ليس محلاً للحوادث هو:

أنه لو كان محلاً للحوادث لقدرنا مثلاً قيام حادث بذاته تعالى، لاستحال زواله؛ لأن القديم لا يعدم.

فإن قيل: الخلق والإيجاد من صفات الله تعالى ـ صفات الأفعال ـ فكيف يتصف الله بالحوادث؟

الجواب: إن هذه الأمور ـ الخلق والإيجاد ـ اعتبارية تعرض للقدرة. فكما أن الله تعالى يوصف بالصفة النفسية ـ الوجود ـ، ويوصف بالصفات السلبية ـ الوحدانية والقدم والبقاء . . . ـ ويوصف بالصفات المعنوية ـ كونه قادراً مريداً عليماً . . . ـ باتفاق كل المذاهب. كذلك يوصف بالصفات الاعتبارية ـ أي صفات المعاني ـ التي اختلف فيها أهل السنة والجماعة مع المعتزلة على النحول التالي:

فقال أهل السنة: إن الله تعالى يوصف بصفات المعاني.

وقال المعتزلة: إن الله لا يوصف بصفات المعاني أي نفوا صفات المعاني عن الله تعالى.

إذاً: إن كون الله يتصف بصفات المعاني، لا يلزم أن يكون محلاً للحوادث، أو قيام الحوادث به، ويتضح ذلك من صفة الكلام مثلاً. فنقول: هل صفة الكلام قديمة قائمة بذات الله غير منفصلة عنه؟ أم أن صفة الكلام حادثة تحل بذات الله؟

ـ **رأي الكرامية (المرجئة):** إن الله تعالى متكلم في الأزل ويقصدون: أن الله تعالى قادر على خلق الكلام في ذاته. وقد أحدث في ذاته قول (كن) ولابد قبل إحداثه (كن) كان ساكتاً. إذاً سكوته قديم.

ـ **رأي الجهمية:** ـ نسبة إلى جهم بن صفوان ـ: إن الله أحدث في ذاته علماً. وقول جهم يعني: أنه لابد أن يكون الله تعالى ـ قبل أن يحدث في ذاته علماً ـ غافلاً وبالتالي تكون غفلته قديمة.

الجواب: ويرد الغزالي على الجهمية والكرامية بقوله:

إذا كان سكوت الله وغفلته قديمة فيستحيل زوالها لأنه لا يمكن زوال القديم وعدمه. أي أن يصير عدما.

ـ فإذا قال الخصم: إن السكون ليس شيئاً. بل يعني عدم الكلام. والغفلة تعني عدم العلم. فإذا وجد الكلام لم يبطل ولم يَزُلْ شيء. إذا لم يكن إلا ذات الله القديمة وهي باقية، ولكن أضيف إليها موجودٌ آخر هو الكلام والعلم.

الجواب: إن قول الخصم: إن السكوت عدم الكلام، والغفلة عدم العلم، وهما ليسا بصفة لله تعالى. كقول القائل مثلاً: إن السواد هو عدم البياض وليس بصفة. والسكون هو عدم الحركة وليس بعرض! وهذا محال.

والخصوم يعترفون أن السكون هو وصف زائد على عدم الحركة، ومن يدعي أن السكون هو عدم الحركة، لا يستطيع إثبات حدوث العالم، فظهور الحركة بعد السكون إذاً هو الذي يدل على حدوث المتحرك الذي هو العالم، فالحركة والسكون حالتان لشيء واحد.

وظهور الكلام بعد السكوت يدل على وجود المتكلم، فالسكوت والكلام حالتان لذات واحدة ـ الله ـ أي إنَّ الذات لا تتغير في كلا الحالتين، فوجود العلم وعدمه، أو وجود الكلام وعدمه لا يوجب ذاتين.

1 ـ فالقديم ـ أي الله ـ هو ذات قبل حدوث الكلام ويعبر عن هذه الحالة بالسكوت. وبعد حدوث الكلام يعبر عنها بالكلام. فالسكوت والكلام وجهان مختلفان لذات مستمرة الوجود بالحالتين. وللذات هيئة وصفة وحالة عند كونه ساكتاً، كما أنه له هيئة عند كونه متحركاً.

2 ـ والسكوت هو إنفكاك عن الكلام ـ وهو حال للمنفك ينعدم فيه الكلام. وحال الانفكاك تسمى هيئة أو صفة أو وجود أو عدم. ففي حالة السكوت ينتفي الكلام، والمنتفي قديم، والقديم لا ينتفي سواء كان حالاً أو ذاتاً أو صفة. وليست الاستحالة لكونه ذاتاً بل لكونه قديماً. وبالتالي لا ينتفي العلم؛ لأنه مع القديم.

إذاً فالكلام والعلم وسائر الصفات قديمة قدم الله قائمة بالذات غير منفصلة عنه.

ـ فإن قيل: إن الخصم لا ينازع في صفة الحياة والكلام ولكن النزاع في:

1 ـ الصفات الثلاثة التالية : القدرة والإرادة والعلم .

2 ـ وفي معنى الصفات التالية : العلم والسمع والبصر ـ عند من يثبتها ـ .

ـ وإن قيل أيضاً : إن صفة القدرة والإرادة والعلم ، لابد أن تكون حادثة ، ويجب أن تقوم بذات الله تعالى فيلزم أن يكون الله محلاً للحوادث ، ويستحيل أن تقوم بغيره ؛ لأنه لا يكون متصفاً بها .

ـ مذهب الجهمية :

1 ـ صفة العلم : يقول جهم بن صفوان : إن العلم بالحوادث هو علم حادث ؛ لأن الله تعالى الآن يعلم أن العالم كان قد وجد قبل . والله تعالى يعلم في الأزل أن العالم كان قد وجد ، فإذا لم يكن عالماً بأن العالم قد وجد ، كان جهلاً لا علماً . وإذا لم يكن عالماً وهو الآن عالم . فقد ظهر حدوث العلم وهكذا القول في كل حادث .

2 ـ أما الإرادة : فيقول جهم بن صفوان : إن الإرادة حادثة فلو كانت قديمة لكان المراد معها قديماً .

3 ـ وأما الكلام : فإنه حادث ، فكيف يكون قديماً وفيه إخبار عن الماضي ، إذ كيف قال الله في الأزل : (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه) ولم يكن قد خلق نوحاً بعد وكيف قال في الأزل لموسى : (اخلع نعليك) ولم يخلق موسى بعد . وبالتالي : كيف أمر ونهى من غير مأمور ولا منهي؟ فإن ذلك محال ، أن يأمر وينهى في القدم . فلا بد أنه صار آمراً ناهياً بعد أن لم يكن . فهذا معنى كونه محلاً للحوادث .

فالمعتزلة : قالوا بحدوث إرادة في غير محل .

والكرامية : قالوا بحدوث إرادة في ذاته . وعبروا عنها :

بأنه يخلق إيجاداً ـ أي قدرة ـ في ذاته عند وجود كل موجود أو عند حدوث كل حادث . وهذا راجع للإرادة .

الجواب : الرد على الكرامية والجهمية والمعتزلة :

يقول الإمام الغزالي : إن الله تعالى يتصف بصفات المعاني وهي : القدرة والإرادة والعلم والكلام والسمع والبصر والحياة .

1' ـ العلم :

إن الله تعالى عَلِمَ من الأزل بوجود العالم في وقت وجوده ، وإن صفة العلم واحدة ، ومقتضاها أن الله يعلم من الأزل بأن العالم يكون من بعد ، ويعلم بأنه كائن ، ويعلم بأنه كان بعد أن لم يكن .

هذه الأحوال الثلاثة للعالم ـ قبل وجوده ، وعند وجوده وبعد وجوده ـ تكون مكشوفة لله تعالى ، ويعلم ذلك فصفة العلم لم تتغير ، وإنما المتغير هو أحوال العالم .

فعلم الله الواحد القديم الموجب بالإحاطة بالحوادث بأنها ستكون ، وأنها كائنة ، وأنها قد كانت قبل وجودها ، وعند وجودها ، وبعد وجودها .

وعلى هذا تقاس بقية الصفات : السمع والبصر .

والدليل القاطع هو : أن العلم لا يتعدد بتعدد الحوادث والذوات فكيف يتعدد بتعدد حادث واحد أو ذات واحدة؟

(علم الله بالعالم قبل وجوده وعند وجوده وبعد وجوده)

وإذا كان علم الله الواحد يفيد الإحاطة بذوات وحوادث مختلفة متباينة . فمن أين يستحيل أن لا يفيد علمه الواحد الإحاطة بأحوال ذات واحدة؟ (ماضي حاضر ومستقبل) .

فيلزم الجهمية : أن تعترف بصفة علم واحدة تتعلق بمعلومات مختلفة لا نهاية لها . فلو حدث لله تعالى علم بكل حادث لكان ذلك العلم لا يخلو أن يكون :

1 ـ إما غير معلوم وهذا محال لأنه حادث . فكيف يكون غير معلوم وهو أولى أن يكون متضحاً له في ذاته؟ إذاً فيتضح ويتبين لنا : أنه لا يجوز أن لا يعلم الحوادث المباينة لذاته .

2 ـ وإن كان معلوماً :

أ ـ فإما أن يفتقر إلى علم آخر ، وكذلك يفتقر العلم إلى علم آخر لا نهاية له وهذا محال لبطلان التسلسل .

ب ـ وإما أن لا يفتقر إلى علم آخر، بل يعلم الحادث فتكون ذات العلم واحدة ولها معلومان هما:

ـ أحدهما ذات العلم، والآخر ذات الحادث.

فيلزم حواز علم واحد يتعلق بمعلومين مختلفين.

فكيف لا يجوز لعلم واحد أن يتعلق بأحوال معلوم واحد؟ مع كونه صفة لعلمٍ واحد ونزّهها عن التغير؟ وهذا لا مخرج منه.

2' ـ الإرادة:

إن إرادة الله تعالى قديمة ولكن تتعلق بكل الممكنات الحادثة، ويستحيل أن تتعلق الإرادة القديمة بالقديم أي من المستحيل أن يكون العالم قديماً؛ لأن إرادة الله تعلقت بإحداثه لا بوجوده في القدم.

فإذا قالت الكرامية: إن الله يحدث في ذاته قدرة في حال حدوث العالم فبذلك يحصل حدوث العالم في ذلك الوقت.

الجواب: نقول للكرامية (المرجئة): ما الذي خصص الإيجاد الحادث في ذاته بذلك الوقت؟ إن ذلك يحتاج إلى مخصص، وبالتالي يحتاج المخصص إلى مخصص آخر، وهذا باطل؛ لأنه يؤدي إلى التسلسل.

ومن قال منهم: إن الله يحدث ويوجد في ذاته قدرة بقوله للعالم (كن) وهو صوت والصوت حادث. يكون الجواب: إن هذا القول محال من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: استحالة قيام الصوت بذات الله.

الوجه الثاني: إن كلمة (كن) حادثة فإن حدثت هذه الكلمة من غير أن يقول الله (كن) فليحدث العالم من غير أن يقول له كن. وإن افتقرت كلمة كن لحدوثها إلى قول آخر، لافتقر هذا القول الآخر إلى قول ثالث، والثالث إلى رابع ويتسلسل إلى غير نهاية وهذا محال.

فلا يمكن أن يحدث الله تعالى في ذاته بعد كل حادث في كل وقت كلمةَ (كن) فتجتمعِ آلاف آلاف الأصوات في كل لحظة.

ومعلوم أن الكاف والنون لا يمكن النطق بهما في وقت واحد، بل ينبغي أن تكون النون بعد الكاف لأن الجمع بين الحرفين محال. وإن جمع الأحرف إن لم يكن مرتباً لم يكن قولاً مفهوماً ولا كلاماً. فكما يستحيل جمع حرفين مختلفين في وقت واحد، كذلك يستحيل جمع حرفين متماثلين. فلو وضعنا (ألف ألف) ك، ك، ك، . . . لا يعقل ولا يفهم منها شيء.

وكذلك لو وضعنا ألف ألف نون ن، ن، ن . . . لا يعقل ولا يفهم منها شيء.

الوجه الثالث: إن قول الله تعالى (كن) هو خطاب مع العالم إما في حالة العدم، أو في حالة الوجود.

1 ـ فإن كان في حالة العدم، فالمعدوم لا يفهم الخطاب فكيف يمتثل ويتكون بقول الله تعالى له كن؟

2 ـ وإن كان الخطاب في حالة الوجود: فالكائن الموجود كيف يقال له كن؟

3' ـ الكلام:

هو صفة قديمة قائمة بذات الله غير منفصلة عنه وإن المعتزلة أنكروا كون الكلام صفة قديمة قائمة بذات الله، واستبعدوا قول الله تعالى: (فاخلع نعليك) و(إنا أرسلنا نوحاً) وذلك لتقديرهم أن الكلام هو أصوات وألفاظ، وهي محالة في حق الله تعالى، ولكن ليس بمحال عندهم كون الكلام إذا فهم أنه كلام النفس أو المعنى القائم بالنفس.

الجواب: يقول الإمام الغزالي: يقوم بذات الله تعالى خبر عن إرسال نوح (فقبل إرساله قال: إنا نرسله) (وبعد إرساله، قال: إنا أرسلنا).

إن معنى الإرسال القائم بذات الله تعالى لا يختلف باختلاف الأحوال، وإن اختلفت الألفاظ باختلاف الأحوال.

فالكلام حقيقته خبر متعلق بمخبر ذلك الخبر، فلا يختلف باختلاف الأحوال (قبل إرسال نوح عليه السلام أو بعد إرساله).

وكذلك قوله: (اخلع نعليك). فكلام الله تعالى يشمل: الأمر والنهي والخبر والاستخبار. وكلام الله تعالى لموسى عليه السلام (اخلع نعليك) هو أمر، والأمر:

طلب متعلق بذات الأمر لا بالمأمور (سواء وجد أم لم يوجد) إذ يجوز أن يقوم الأمر - كلام الله - بذاته - بذات الله - قبل وجود المأمور - وهو موسى عليه السلام. فإذا وجد المأمور (موسى عليه السلام) كان مأموراً بذلك الأمر بعينه من غير تحديد أمر آخر.

إذاً. إن كلام الله تعالى - من حيث المعنى والمدلول - قديم. ومن حيث اللفظ حادث. أي إنَّ المعنى القائم بالنفس قديم والألفاظ الدالة عليه حادثة.

- فإذا قال الخصم: تقولون يا أهل السنة والجماعة: إن الله تعالى آمر ناه في الأزل.

فإن قلتم آمر: فكيف يكون آمراً لا مأمور له؟

وإن قلتم غير آمر في الأزل: معنى ذلك أنه أصبح آمراً بعد أن لم يكن آمراً.

الجواب: يأتي على لسان الغزالي بقوله:

- إنه من المختار أن نقول: إن كلام الله يتعلق أحد طرفيه بالمعنى، والآخر يتعلق باللفظ.

أما كلام الله من حيث المعنى. فقد ثبت أن الله قديم وصفة الكلام قديمة متعلقة بذات الله. أي إنّ المعاني قديمة. فالله تعالى آمر ناه من الأزل قبل وجود المأمور. كما أنه قادر عالم قبل وجود المقدور والمعلوم. فالله القادر يستدعي مقدراً معلوماً لا موجوداً. أي لا يشترط أن يكون موجوداً. وكذلك فإن الله الآمر يستدعي مأموراً معلوماً. وأن الأمر يستدعي مأموراً وآمراً، فالآمر هو الله. والمأمور قد يكون موجوداً أو غير موجود - معدوماً - والمأمور يستدعي أن يكون معلوماً ولكن لا يشترط أن يكون موجوداً.

فالآمر: هو الله تعالى.

والمأمور: هو موسى عليه السلام في المثال السابق.

والأمر: هو قوله لموسى: اخلع نعليك.

فالله يعلم من الأزل أنه يقول لموسى: اخلع نعليك. وإن لم يكن موسى موجوداً بعد.

فكلام الله تعالى يستدعي مأموراً - موسى عليه السلام - معلوماً، وإن لم يكون هذا المأمور موجوداً. فيشترط أن يكون المأمور معلوماً، ولكن لا يشترط أن يكون موجوداً. بل يكون معدوماً غير موجود.

مثال - 1 -: كأن يقدر شخص في نفسه أن يقول لولده اطلب العلم. على تقدير أن الابن موجود. فإذا وجد الابن وخلق له عقل وعلم بما في نفس الأب بحيث لا يحدث للابن علم باقتضاء طلب العلم إلا بلفظ يدل على الاقتضاء الباطن. فيقول الأب للابن بلسان: اطلب العلم دلالة على الاقتضاء الذي في ذاته، سواء حدث القول والكلام في الوقت أو كان قديماً بذات الأب قبل وجود الابن.

وهكذا يجب أن نفهم كلام الله القائم بذاته تعالى، فتكون الألفاظ الدالة عليه حادثة، والمدلول قديماً، سواء وجد المخاطب المأمور أم لم يوجد.

مثال - 2 -: قد يأمر الأب ولده على سبيل الوصية بأمر ثم يتوفى الأب فينفذ الولد وصية أبيه. فيقال امتثل أمر والده. والأمر معدوم بعد وفاة والده، ومع ذلك يطلق اسم امتثال الأمر.

فلا يستبعد امتثال المأمور للأمر، حيث لا وجود للأمر ولا للآمر وكذلك لا يستبعد أبداً كون الأمر أمراً قبل وجود المأمور به، أي لا يستبعد أن يأمر الله تعالى موسى بقوله (اخلع نعليك) وموسى عليه السلام لم يكن مخلوقاً ولا موجوداً بعد.

الحكم الرابع:

(أسماء الله تعالى المشتقة من صفاته صادقة عليه أزلاً أبداً)

إن أسماء الله تعالى المشتقة من صفاته - أي صفات المعاني السبع - صادقة عليه أزلاً وأبداً. فالله تعالى في القدم حيٌّ قادرٌ عالمٌ مريدٌ سميعٌ بصيرٌ متكلِّمٌ.

أما أفعال الله المشتقة من صفاته، كالرزاق الخالق، المعز المذل، فقد اختلف فيها. ولكن إذا توضح الأمر وكشف الغطاء، تبين استحالة الخلاف فيه.

والقول الجامع: إنَّ أسماء الله تعالى التي يسمى بها أربعة:

الأول: ما يدل على ذاته تعالى كالموجود. وهذا صادق عليه أزلاً أبداً.

الثاني: ما يدل على ذاته تعالى مع زيادة صفة سلب.

كالقديم: فإنه تسلب عنه الحدوث، أي إنَّ وجوده غير مسبوق بعدم أزلاً.

والباقي: فإنه يدل على وجود الله وسلب العدم والفناء عنه آخراً. أي ليس بعده شيء.

والواحد: فإنه يدل على وجود الله تعالى وسلب الشريك والتعدد.

والغني: فإنه يدل على الوجود وسلب الحاجة.

هذه الأسباب صادقة علمية أزلاً أبداً؛ لأنه ما يسلب عنه يسلب لذاته فيلازم الذات على الدوام.

الثالث: ما يدل على الوجود وصفة زائدة من صفات المعاني (كالحي والقادر والمتكلم، والمريد والسميع والبصير والعالم) وما يرجع إلى هذه الصفات السبع كالآمر، الناهي، الخبير.

فهذه الأسماء تصدق عليه أزلاً أبداً؛ لأن صفات الله تعالى قديمة.

الرابع: ما يدل على وجوده تعالى مع إضافة فعل من أفعاله: مثل الجواد، الرزاق، الخالق، المعز، المذل. هذه الأسماء ـ أسمال الأفعال ـ المشتقة من صفاته تعالى مختلف فيها.

ـ فمنهم من قال: إن هذه الأسماء صادقة عليه أزلاً إذ لو لم يصدق لكان اتصافه بها يوجب التغير.

ـ ومنهم من قال: إن هذه الأسماء لا تصدق عليه أزلاً إذ لا خلق ولا إيجاد في الأزل، فكيف يكون خالقاً؟ والذي يكشف ويوضح لنا هذا الخلاف أو هذا القول، بأن أسماء الله لا تصدق عليه أزلاً. إذ يصدق اسم الخالق على الله في الأزل؛ لأن كل ما يشترط لتحقيق فعل الخلق موجود في الأزل.

مثال: إن السيف في الغمد يسمى صارماً.

وعند حصول القطع به يسمى صارماً أيضاً.

فالسيف في الغمد صارم بالقوة. والسيف عند حصول القطع صارم بالفعل.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الخالق، الرزاق، الجواد هذه الأسماء تصدق على الله في الأزل. فقدرة الله وإرادته، تتعلق بالخلق والإيجاد أزلاً أبداً، ولكل الممكنات فعندما تتحقق عملية الخلق بالفعل، لم يكن قد تجدد أمر في الذات. بل كل ما يشترط لتحقيق فعل الخلق موجود في الأزل. ويتحقق فعل الخلق عند إيجاد المخلوق أو الشيء.

القطب الثالث
في أفعال الله تعالى

(أفعال الله جائزة ولا يوصف شيء منها بالوجوب)

يتم في هذا القطب تناول ما يلي:

1 ـ يجوز لله تعالى أن لا يكلف عباده.

2 ـ يجوز لله تعالى أن يكلف عباده ما لا يطاق.

3 ـ يجوز لله تعالى إيلام عباده من غير جناية ولا عوض.

4 ـ لا يجب على الله تعالى رعاية الأصلح لعباده.

5 ـ لا يجب على الله تعالى ثواب الطاعة وعقاب المعصية.

6 ـ لا يجب على العباد شيء بالعقل وإنما بالشرع.

7 ـ لا يجب على الله بعثه الرسل، وليس بعثه الرسل محالاً بل جائزاً، ويمكن إظهار صدق الأنبياء بالمعجزة.

هذه الأبحاث والأمور تبنى على البحث عن معنى الواجب والحسن والقبيح والعبث والسفه، والحكمة.

الواجب:

يطلق لفظ الواجب على القديم: إنَّهُ واجب، وعلى الفعل لا محالة وعلى الشمس إذا غابت وغربت يقال: إنَّها واجبة أو وجبت. أما الواجب الذي بمعنى الفعل لا محالة:

1 ـ نطلق اسم الواجب على ما في تركه ضرر ظاهر (في الآخرة، أو في الدنيا).

فبالنسبة للآخرة: الواجب أداء الفرائض وامتثال الأوامر والتقيد بالشرع.

وبالنسبة للدنيا: الواجب على الجائع الذي يتعرض للموت أن يأكل.

2 ـ نطلق اسم الواجب على ما يؤدي عدم وقوعه إلى أمر محال.

مثال: ما علم وقوعه، فوقوعه واجب. وإذا لم يقع يؤدي إلى قلب العلم جهلاً، وذلك محال.

الحسن والقبح:

إن الفعل بالنسبة إلى الفاعل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ أن يوافق الفعل ويلائم غرض الفاعل وهدفه. فيسمى الفعل حسناً.

2 ـ أن لا يوافق الفعل، وينافر غرض الفاعل وهدفه فيسمى الفعل قبيحاً.

3 ـ أن لا يكون للفاعل في فعله أو في ترك فعله غرض ولا هدف، فيسمى الفعل عبثاً.

وقد يسمى الفعل بالنسبة لغير الفاعل أيضاً، إذا حقق غرضه أو لم يحقق حسناً أو قبيحاً.

ويختلف معنى الحسن والقبح باختلاف الأحوال في حق شخص واحد، ويختلف في حال واحد بالأغراض، أي إذا اختلفت الأغراض والأهداف. فرب فعل يوافق الشخص من وجه ويخالفه من وجه آخر. فالحسن والقبح: يعبّران عن أمرين إضافيين يختلفان بالإضافات ـ عن صفات الذوات التي لا تختلف بالإضافة. وهما نسبيان، فقد يكون الشيء حسناً في حق زيد، وقبيحاً في حق عمرو. أما ذات الشيء، أو الشيء في حد ذاته لا يختلف فيه اثنان: فلا يمكن أن يكون الشيء أسود في حق زيد، وأبيضَ في حق عمرو؛ لأن الألوان ليست من الأوصاف الإضافية.

فلفظ الحسن: له ثلاثة معانٍ اصطلاحية:

1 ـ الحسن: كل ما يوافق الغرض والهدف عاجلاً أو آجلاً / أعم/.

2 ـ الحسن: كل ما يوافق الغرض في الآخر، وهو الذي حسّنه الشرع ووعد بالثواب عليه.

3 ـ الحسن: كل ما يقابل القبيح. / أخص/.

وقد يقال: فعل الله حسن كيف كان. مع أنه لا غرض في حقه. ومعناه: أنه لا تبعة عليه في فعله، ولا لائمة. وأنه فاعل في ملكه ما يشاء.

الحكمة:

فتطلق على معنيين:

1 ـ الإحاطة المجردة بنظم الأمور ومعانيها الدقيقة والجليلة والحكم عليها بأنها كيف ينبغي أن تكون حتى تتم منها الغاية المطلوبة. أي (معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه في الواقع، والعمل بمقتضاها مع الإصابة بالقول والعمل) أو فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الشكل الذي ينبغي.

2 ـ أن تنضاف ـ إلى العلم ـ القدرة على إيجاد الترتيب والنظام وإتقانه وإحكامه، فيقال حكيم من الحكمة، عليم من العلم. ويقال حكيم من الأحكام وهو نوع من الفعل.

وهناك ثلاث غلطات في معنى الحسن والقبح . . . يجب الوقوف عندها للخلاص من إشكالات تغتر بها طوائف كثيرة.

<u>**الغلطة الأولى:**</u> عدم النظر إلى رأي الغير / الحكم المطلق على الشيء النظرة الذاتية لا النظرة الغيرية.

إن القبح من حيث الواقع نسبي اعتباري؛ لأن كثيراً من الناس يطلقون اسم القبيح على ما يخالف أغراضهم، وإن وافق أغراض الآخرين. فيطلقون على الفعل مطلقاً بأنه قبيح. ويقولون: إنَّه قبيح بعينه. والصحيح أنه قبيح في حق صاحبه؛ لأنه مخالف لغرضه وليس قبيحاً في ذاته، فهو يضيف القبح إلى ذات الشيء ويحكم عليه بالإطلاق.

<u>**الغلطة الثانية:**</u> العادة والألفة في استقباح القبح وعدم مراعاة الأحوال النادرة الخاصة.

قد يطلق الإنسان اسم القبيح على ما هو مخالف للأغراض في جميع الأحوال إلا في حالة نادرة. فقد يحكم الإنسان على شيء مطلقاً بأنه قبيح لذهوله عن الحالة النادرة، ورسوخ غالب الأحوال في نفسه. فيطلق على الكذب أنَّه قبيح في كل الأحوال وإنّ الكذب قبيح لذاته فقط، لا لمعنى زائد عليه، وسبب ذلك غفلته عن ارتباط مصالح كثيرة بالكذب في بعض الأحوال.

الغلطة الثالثة: سَبْقُ الوهم إلى العكس مع وضوحه للعقل، وذلك بسبب قدم الألفة والتخلق بأخلاق منذ الصبا.

إن إقتران الأشياء ببعض الأمور يستدعي الظن بأن هذه الأشياء لا محالة مقرونة بتلك الأمور بشكل مطلق دائماً.

مثلاً: إن الذي نهشتهُ الحية أو الثعبان مرة، يخاف من الحبل المبرقش اللون الذي يشبه الحية. فإذا رأى الحبل سبق له الوهم إلى العكس. وحكم بأنه مؤذ فينفر الطبع منه، وذلك تبعاً للوهم والخيال، مع أن العقل يكذب به.

والذي احترق لسانه بالماء الحار، ينفخ على اللبن ظناً منه أنه حار.

إذاً: إن إقدام الناس وإحجامهم في أقوالهم وعقائدهم وأفعالهم تابع لمثل هذه الأوهام والخيالات...

أما اتّباع العقل الصرف الخالص فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى الذين أراهم الله تعالى الحق حقاً وقواهم على اتباعه.

وهناك أمثلة كثيرة منها: ما يتعلق بالعوام، والمتعلمين فيما يتعلق بالمعتقدات والآراء والمذاهب - كالغزالي والأشعري - إن طبع هؤلاء يغلب عليهم في تحسين القبيح، أو تقبيح الحسن، وذلك بسبب ما تخلقوا به من أخلاق منذ الصبا.

يقال: إن الحسن والقبح يرجعان إلى موافقة أو مخالفة الأغراض والأهداف والغايات، ولكن قد نرى العاقل يستحسن ما لا فائدة له فيه، ويستقبح ما له فائدة فيه.

كإنقاذ حيوان أو إنسان يشرف على الهلاك، بتقديم شربة ماء، استحسان ذلك الفعل، أو استقباح مثل حمل الكافر على الإيمان بالسيف، أو حمل الإنسان على النطق بكلمة الكفر.

الجواب:

1 - إن ترجيح الإنقاذ على الإهمال في حق من لا يعتقد الشرع والثواب هو دفع للأذى وهو عمل إنساني، والإنسانية طبع يستحيل الانفكاك عنه، ويقود لها الشعور بأن لو كان الإنسان المنقذ هو نفسه معرَّضاً للهلاك، لاستحسن من ينقذه، واستقبح إهمال الناس له.

فالإنسان بحكم الفطرة والطبع، مجبول على فعل الخير، وإن لم يكافأ عليه، أو يثاب أو يثني عليه أحد. ولكن قوى النفس قد تطيع الأوهام والتخيلات بحكم العادات وإلفتها فالتذكر والتصور والتخيل يبعث في الإنسان الإقدام على الشيء أو الإحجام عنه.

وإن حمل المؤمن على النطق بكلمة الكفر تحت السيف. فإن العاقل لا يستقبح ذلك أبداً، وإنما يستقبح الإصرار. أما إذا استحسن الإصرار فذلك لسببين هما:

1 - اعتقاده أن الثواب على الصبر أكثر.

2 - التمسك بالدين وامتداحه على ذلك ولذة الإيمان.

الدعوى الأولى:

(ما يجوز في أفعال الله تعالى)

يجوز لله تعالى أن يخلق الخلق، وليس واجباً عليه. وإن خلقهم فيجوز أن لا يكلفهم، وإذا كلفهم فلم يكن ذلك واجباً عليه.

رأي المعتزلة:

إنه يجب على الله خلق العباد، وتكليفهم بعد الخلق.

الرد على المعتزلة: إن الخلق والتكليف بعد الخلق واجب على الله، أمر غير مفهوم؛ لأن المفهوم عندنا من لفظ الواجب ما ينال تاركه ضررٌ عاجلاً أو آجلاً. والضرر محال في حق الله تعالى. وليس في ترك الخلق والتكليف لزوم محال، إلا أن يقال عدم الخلق والتكليف يؤدي إلى خلاف ما سبق به علم الله الأزلي، وما سبقت به مشيئة الله في الأزل فهذا حق، وهو واجب، وهو بهذا التأويل واجب؛ لأن الإرادة إذا فرضت موجودة، والعلم إذا فرض متعلقاً بالشيء، كان حصول المراد والمعلوم واجباً لا محالة.

فإن قيل: إن الخلق والتكليف واجب على الله، لفائدة تعود على الخلق، لا لفائدة ترجع إلى الخالق.

يكون الجواب: إن التكليف لفائدة الخلق للتعليل، والحكم المعلل هو الوجوب. فما معنى الحكم؟ وما معنى الوجوب؟ هل له معنى رابع؟

1 ـ ما في تركه قدر ظاهر في الآخرة.

2 ـ ما في تركه ضرر في الدنيا.

3 ـ ما يؤدي عدم وقوعه إلى أمر محال. وما علم وقوعه فوقوعه واجب، فإن لم يقع يؤدي إلى انقلاب العلم جهلاً وهذا محال، فلا بد أن يقع. إننا لا ننكر أن في الخلق للخلق فائدة، وكذلك للخلق في التكليف فائدة، أما بالنسبة إلى الله فليس له في الخلق والتكليف فائدة. إذاً ليس واجباً عليه خلق الخلق وتكليفهم، وله أن يخلقهم في الجنة متنعمين، من غير همٍّ ولا ضرر ولا غم وألم.

فمعنى الفائدة هو الثواب الذي يناله المؤمن من التكليف والله قادر على أن يوصل الإنسان إلى النعيم والثواب من غير تكليف.

فإن قيل: الثواب إذا كان باستحقاق، أي بالتكليف كان ألذ من أن يكون بالامتنان والابتداء.

الجواب: من أين للعبد أن يتكبر على الله، ويترفع عن منته تعالى عليه، فنعوذ بالله من عقل ينتهي إلى هذا التفكير، والوسواس، ومن أين وجد العبد القدرة على الطاعة وامتثال التكليف، حتى شعر بلذة الثواب. أليس الله منّ عليه بالقدرة وأداء الفرائض والواجبات، حتى حصل على الثواب.

الدعوى الثانية:

(يجوز لله تعالى أن يكلف عباده ما يطيقون وما لا يطيقون)

رأي المعتزلة: إن التكليف هو كلام الله المخاطب للإنسان المكلف، فإن كان الخطاب من المخاطب دون المخاطَب سمي تكليفاً. وإن كان مثله سمي التماساً، وإن كان فوقه سمي دعاء وسؤالاً والتكليف: إما أن يكون لفظاً وهو مذهب الخصم ـ المعتزلة ـ إذ ليس من المستحيل أن يكلف السيد عبده وهو يعلم أنه لا يستطيع

الامتثال. فهذا التكليف من السيد للعبد قد يستقبحه الإنسان العاقل. ولكن ما يستقبح من الإنسان لا يستقبح من الله تعالى.

ـ وقد يقول الخصم: إن التكليف الذي لا ينفذ ولا يمتثل مما لا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه عبث. والعبث محال على الله تعالى.

الجواب: هذه الدعاوى الثلاث يمكن الرد عليها بما يلي:

1 ـ الدعوى الأولى: أنّ التكليف أن لا يكون فيه فائدة فنحن ـ أهل السنة ـ لا نسلم به، فلعل في التكليف فائدة اطلع الله عليها. وليست الفائدة هي الامتثال والثواب عليه، فقد تكون الفائدة في إظهار أمر الله. وما يتبعه من اعتقاد التكليف. فقد ينسخ الأمر قبل الامتثال.

أ ـ فعندما أمر الله إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، نسخ هذا الأمر قبل امتثال الأمر، وفداه بذبح عظيم.

ب ـ وأمر الله أبا جهل بالإيمان، وأخبر أنه لا يؤمن، وخلاف خبره محال. أي خلاف المعلوم محال وقوعه.

2 ـ الدعوى الثانية: أنّ ما لا فائدة فيه عبث. فهذا تكرير عبارة. وقد بينا أن ما لا فائدة فيه فهو عبث. فهل يفهم من العبث غير ذلك؟

3 ـ الدعوى الثالثة: أنّ العبث على الله محال.

هذا القول فيه تلبيس وإشكال واختلاط. من حيث المعنى. فقد نطلق اسم العابث مجازاً لا حقيقة. كأن نقول: الريح عابثة بتحريكها الأشجار، إذ لا فائدة لها فيه.

فالعبث عبارة عن فعل ما لا فائدة فيه، ممن يتعرض للفوائد. وأفعال الله تعالى لا تتعرض للفوائد، فالعبث محال على الله تعالى.

الدعوى الثالثة :

يجوز لله تعالى إيلام عباده بغير جناية ولا عوض كإيلام الأطفال والحيوانات . . . ولا يلزم عليه ثواب .

رأي المعتزلة :

إن إيلام الله للعباد من غير ذنب ولا جناية ، أمر محال ؛ لأنه قبيح . وذلك بقولهم : يجب على الله فعل الصلاح والأصلح للعباد . وهذا تجاوز من المعتزلة بالنسبة لأفعال الله . وقد دل على بطلان قولهم ومذهبهم نفي الوجوب على الله تعالى .

رأي أهل السنة : إن إيلام الله تعالى للعباد وللأطفال والحيوانات . هو أمر مقدور ومشاهد محسوس . وإن فعل الله تعالى في إيلامه العباد فيه حكم .

فإذا قال الخصم : إن إيلام العباد بغير جناية ولا ذنب ظلم . نجيب : إن الله تعالى منزه عن الظلم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ .

والظلم يكون ممن يتصرف أو يعتدي على مُلك غيره والله تعالى يتصرف في ملكه كيف يشاء . فإن يعذّب فبمحض العدل ، وإن يغفر فبمحض الفضل .

الدعوى الرابعة :

لا يجب على الله فعل الصلاح والأصلح . بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد

رأي المعتزلة : لقد أوجب المعتزلة على الله في أفعاله رعاية الأصلح . فقالوا : يجب على الله فعل الأصلح .

الرد على المعتزلة : يقول الإمام الغزالي : إن مذهب المعتزلة باطل ، ويدل على بطلانه ما دل على نفي الوجوب على الله تعالى في أفعاله . فهو فعّال لما يريد (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) . وكما قال اللقاني في جوهرة التوحيد :

وقولهم فعل الصلاح واجب ... عليه زور ما عليه واجب

فلو وجب على الله فعل الصلاح لما خلق الكافر الفقير في الدنيا ، المغرَق في العذاب الأليم في الآخرة .

ولو وجب على الله فعل الأصلح ـ كما يرى المعتزلة ـ لوجب عليه أن يميت الإنسان الكافر صغيراً أو مجنوناً ؛ لأن ذلك أصلح له لعدم التكليف وعدم العذاب .

وقد جرت مناقشة بين أبي الحسن الأشعري ، وأبي علي الجبائي ، في شأن ثلاثة إخوة . مات أحدهم صغيراً ، ومات الثاني كبيراً صالحاً ، ومات الثالث كبيراً كافراً . فإن العدل عندهم أن يخلد الكافر البالغ في النار . وأن يكون للبالغ المسلم في الجنة رتبة فوق رتبة الصبي المسلم .

فإذا قال الصبي المسلم : يا رب لم حططت رتبتي عن رتبته؟ فيقول : لأنه بلغ فأطاعني وأنت لم تطعني بعد البلوغ . فيقول : يا رب لأنك أمتني قبل البلوغ . فلم لم تمدني بالحياة حتى أبلغ فأطيعك وأنال رتبته؟ لمَ حرمتني هذه الرتبة أبد الآبدين وكنت قادراً أن توصلني إليها؟

فيقول : علمت أنك لو بلغت لعصيت وما صلحت وأطعت وتعرضت لعقابي وسخطي فرأيت أن هذه الرتبة النازلة أولى بك وأصلح لك من العقوبة .

فينادي الكافر البالغ من الهاوية : يا رب أوَ ما علمتَ أني إذا بلغت كفرت؟ فلو أمتني في الصبا وأنزلتني في تلك المرتبة النازلة لكان أحب إلي وأصلح لي من تخليد النار فلم أحييتني وكان الموت خيراً لي؟ ! فلا يبقى له جواب ! ومعلوم أن هذه الأقسام الثلاثة موجودة . وبه يظهر أن الأصلح للعباد كلهم ليس بواجب ولا هو موجود .

الدعوى الخامسة :

(لا يجب على الله ثواب الطاعة وعقاب المعصية)

يقول الغزالي : إذا كلف الله العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب . فإن شاء أثابهم وإن شاء عاقبهم وإن شاء غفر لجميع المذنبين والعصاة ، وعاقب جميع المؤمنين .

ـ فإذا قال الخصم : إن تكليف العباد مع القدرة على الثواب ثم ترك الثواب ـ أي عدم ـ إثابتهم ـ أمر قبيح .

الجواب : يقول الغزالي :

إذا عنيتم بالقبح أنه مخالف لغرض المكلّف فالله تعالى منزه عن الأغراض .

فإذا قال الخصم: يجب على العباد شكر الله تعالى، لأنهم عباد، وقضاء لحق نفسه.

ويجب على الله الثواب ـ أي إثابة العباد ـ على الشكر.

الجواب: هذا القول محال على الله تعالى؛ لأن المستحق ـ إذا وفى لم يلزمه فيه عوض، وإلا للزم على العبد والرب الثواب والشكر، وأن يكون كل منهما مقيداً بحق الآخر، وهذا يستلزم تسلسلاً إلى غير نهاية وهو محال.

ـ فإذا قال الخصم من المعتزلة ـ: يجب على الله إثابة المؤمن المطيع وعقوبة الكافر والعاصي ـ وهذا مبدأ من مبادئ المعتزلة وهو مبدأ الوعد والوعيد ـ أي إنَّ الله تعالى وعد المؤمن المطيع بالثواب والجنة والمغفرة، وأوعد الكافر والعاصي والمذنب بالعقوبة. والله تعالى لابد أن يفي بوعده ووعيده، ولا يخلفه؛ لأن الخلف نقص والله تعالى منزه عن النقص.

وقالوا: يجب على الله أن يعاقب الكافر والعاصي أو مرتكب الكبيرة، وأن يخلده في النار.

الرد على المعتزلة: إن قول المعتزلة بالوعد والوعيد، وأنه يجب على الله عقوبة العاصي... جهل بكرم الله وعفوه ورحمته ومغفرته، وجهل بما تقتضيه العقول والشرع والعادات والأعراف التي تدعو كلها إلى العفو والصفح وعدم الانتقام والعقوبة. هذا في حق الإنسان، وهو في حق الله تعالى أولى. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[2].

ثم وعد الله تعالى المؤمنين بالثواب، فإنه يفي بوعده قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾[3].

(1) سورة الزمر الآية / 53/ .

(2) سورة طه الآية / 82/ .

(3) سورة الزمر الآية / 74/ .

ولكن إذا أوعد العصاة والمذنبين بالعقاب فإن وعيده تعالى تابع لمشيئته، فإن شاء عاقب وعذب وإن شاء غفر وأثاب، وليس في خلفه بوعيده نقص بل كرم وفضل من الله تعالى إذا غفر للمذنب العاصي ولم يعذبه.

الدعوى السادسة:

(لا يجب على العباد شيء بالعقل بل بالشرع)

فلو أنه لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله تعالى.

رأي المعتزلة: إن مجرد وجود العقل يكفي أن يكون الإنسان مسؤولاً ومكلفاً ويجب عليه معرفة الله وأحكامه الشرعية وإن لم يكن هناك مشرع. أي من غير وساطة الأنبياء والرسل والكتب.

فالله تعالى يطالب المكلفين بفعل ما فيه نفعُهم حسب إدراك عقولهم، ويطالبهم بترك ما فيه ضررهم حسب إدراك عقولهم. فقد رجحوا العقل على الشرع وقالوا:

ما رآه العقل حسناً فهو في الشرع حسن. وما رآه العقل قبيحاً فهو في الشرع قبيح.

يقول الغزالي رداً على المعتزلة:

إن العقل يوجب النظر والبحث وطلب المعرفة، لفائدة عاجلة أو آجلة.

ـ فإذا قال الخصم: إن العقل يوجب النظر وطلب المعرفة سواء لفائدة عاجلة أو آجلة أو بدون فائدة.

يكون الجواب: أنتم أيها المعتزلة تؤكدون على أهمية العقل، وإن العقل لا يأمر بالعبث. فعمل العقل في البحث والنظر وطلب المعرفة من غير فائدة فهو عبث. والعقل لا يأمر بالعبث.

ولكن إذا كان في عمل العقل ـ بالنظر وطلب المعرفة ـ فائدة فإما:

1 ـ أن ترجع هذه الفائدة إلى المعبود ـ الله ـ وهذا محال لأنه تعالى تقدس عن الأغراض والفوائد.

2 ـ وإن كانت الفائدة ترجع إلى العبد، فهذه الفائدة إما إن تكون في الحال عاجلة، أو في المآل آجلة أما الفائدة في الحال: فهو تعب لا فائدة منه. (أي جهد العقل في البحث عن المعرفة من غير الشرع).

وأما الفائدة في المآل فالمتوقع عندكم الثواب.

ولكن أيها المعتزلة من أين عرفتم أن الإنسان يثاب على فعله ـ البحث والنظر العقلي ـ أو يعاقب عليه.

فإذا قال الخصم ـ المعتزلة ـ:

إن الإنسان الذي يعمل عقله في التفكير والبحث وطلب المعرفة، يخطر بباله أن له رباً إن شكره أثابه وأنعم عليه، وإن كفر نعمه عاقبه على ذلك. ولا يخطر بباله أبداً أن يعاقبه على شكره ـ أي على جهده العقلي وبحثه وطلبه للمعرفة...

الجواب: يقول الإمام الغزالي:

إن الثواب والعقاب في حق الله تعالى سيّان أما بالنسبة للإنسان فلا. فالثواب يشعر الإنسان بالارتياح والسعادة. والعقاب يشعره بالألم وعدم الرضا فإذا كان الثواب والعقاب في حق الله تعالى سواء، فترجيح أحد الجانبين محال.

وربما يخطر ببال الإنسان أن يعاقب على الشكر لأمرين هما:

1 ـ أنه أتعب نفسه بما لا فائدة لله فيه، فقد أتعب عقله وفكره وقلبه في البحث والنظر.

2 ـ إنه من الفضول أن يبحث الإنسان بعقله وتفكيره عما لم يؤهل له. كالبحث والتعرف على دقائق صفات الله وأفعاله وأسراره وحكمته في أفعاله.

ومن أين عرف العبد أو الإنسان أنه مستحق لهذا المنصب؟ ومن أين عرف أن العقل يستطيع أن يعرف الله من غير وساطة الأنبياء والكتب ومن غير الشرع؟ لأن:

1 ـ العقول تختلف فبعضها يستحسن وبعضها يستقبح.

2 ـ إن العقل الواحد يختلف في الفعل الواحد.

3 ـ وقد يتغلب الهوى على العقل.

فالمقياس الحقيقي للمعرفة هو الشرع لا العقل.

والذي حمل المعتزلة على ترجيح العقل على الشرع، وقدرته على البحث والمعرفة أوهام رسخت فيهم رسوخ العادات.

فإذا قال الخصم: إن لم يكن للعقل القدرة على المعرفة فإن ذلك يؤدي إفحام الرسول إذا أتى بالمعجزة وقال: انظروا فيها.

فإذا لم يكن للعقل القدرة على النظر والتفكير، فكيف يقول لهم الرسول انظروا؟ وبالتالي لا يكون النظر والتفكير واجباً ويستحيل إدراك العقل للمعجزة أو إدراكه للشرع.

الجواب:

إن هذا السؤال مصدره الجهل بحقيقة الوجوب وقد بينا سابقاً الواجب ـ وهو ما كان في تركه ضرر عاجل أو آجل، أو ما يؤدي عدم وقوعه إلى أمر محال، أي ما علم وقوعه فوقوعه واجب.

فالوجوب: هو ترجيح جانب الفعل على ترك الفعل، وذلك لدفع ضرر بسبب الترك.

إن الموجب هو المرجح وهو الله تعالى. فإذا ربط الله تعالى العقاب بترك التفكير والنظر وإعمال العقل كان من المرجح إعمال العقل والتفكير والنظر وعدم تركه.

فالله تعالى أخبر النبي ﷺ بأن الإيمان مسعد والكفر مهلك. وأخبره بأن الله غني عن العالمين سعدوا أم شقوا. وشأن الرسول أن يبلغ ويرشد الناس إلى طريقة المعرفة. فمن نظر فلنفسه ومن قصّر فعليها. فالمعرفة تكون بالشرع لا بالعقل.

ـ وإذا قال الخصم: هذا يعني أن العقل هو الموجب للمعرفة من حيث سماعه لكلام الله، يتوقع عقاباً فيحمله العقل على الحذر، ولا يحصل ذلك إلا بالنظر، فيوجب على العقل النظر والتفكير.

الجواب: تبين أن الوجوب هو رجحان العقل وعدم تركه. فالموجب: هو الله؛ لأنه هو المرجح.

والرسول: هو المخبر عن الترجيح.

والمعجزة: دليل على صدق الرسول في الخبر.

والنظر: سبب في معرفة الصدق.

والعقل: آلة النظر.

والفهم: هو معنى الخبر.

والطبع: يستحث على الحذر بعد فهم المحذور بالعقل.

فالمحذور لا يفهم إلا بالعقل.

ولكن العقل لا يفهم بنفسه بل بسماعه من الرسول. والرسول لا يرجح الفعل على الترك بنفسه بل الله تعالى هو الذي يصدق الرسول، وما جاء بالشرع.

فالمعرفة لا تكون بالفعل بل بالشرع. إذاً لا يجب على الله شيء بالعقل بل بالشرع.

الدعوى السابعة:

(لا يجب على الله تعالى بعثَةُ الرسل، وليست بعثَةُ الرسل محالاً بل جائزاً)

يجوز في حق الله تعالى أن يبعث الرسل وليس ذلك محالاً، ويكون ذلك عن طريق تبليغهم، ولا يكون إلا بتكليم الله لهم بواسطة الوحي.

وقد ثبت أن الله تعالى يتصف بصفة الكلام القديمة القائمة بذات الله غير المنفصلة عنه.

والله قادر على أن يدل على كلام النفس بخلق ألفاظ وأصوات وغيرها من الدلالات لتبليغ الرسل خبر السماء ورسالة الله.

والله تعالى قادر أن يقرن هذه الرسالة بفعل خارق للعادة - وهي المعجزة - ليؤكد صحة الرسالة وصدق الرسول، وليس ذلك محالاً على الله.

كل ذلك يرجع إلى كلام النفس وإيجاد ما هو دلالة على الكلام. وما هو مصدق للرسول - المعجزة - . . .

ولكن هناك ثلاث شبهٍ يمكن ذكرها والرد عليها وهي:

1 - الشبهة الأولى:

إذا بعث الله النبي بما يوافق العقول، فالعقول غنية عن ذلك، وتكون بعثة الرسول عبثاً. وهذا محال في حق الله تعالى.

وإذا بعث الرسول بما يخالف العقول، فيستحيل تصديق العقول بما جاء به الرسول أو قبوله.

2 - الشبهة الثانية:

إن بعثَةَ الله للرسل ليست عبثاً. ولكن لابد من معرفة صدقهم.

فلو شافه الله الخلق بأن يصدقوا الرسل وكلمهم جهاراً فلا حاجة إلى الرسول.

وإن لم يشافههم بتصديق الرسل، فلا بد من دلالة على صدقهم بفعل خارق للعادة، وهو المعجزة.

ولكن قد لا تتميز المعجزة عن السحر والطلاسم، وبالتالي لا يتحقق العلم بالتصديق.

3 - الشبهة الثالثة:

فإذا عرفنا كيف نُميز بين المعجزة والسحر والطلاسم فمن أين نعرف صدق الرسالة؟

فلعل الرسالة فيها شيء من الإضلال والإغواء وهذا غير محال على الله عندكم؛ لأن العقل لا يحسّن ولا يقبّح. أي لا يستطيع أن يعرف ما هو حسن في الشرع وما هو قبيح.

فإذا لم يعرف العقل ما هو الحسن وما هو القبيح في الشرع فلا يستطيع أن يعرف صدق الرسل قط.

الرد على الشبهات

1 - الرد على الشبهة الأولى: وهي القول بأنه لا حاجة لبعثة الرسول: لأن العقول غنية عن ذلك.

الجواب:

إن هذه الشبهة ضعيفة، لأن النبي ﷺ أخبرنا بما لا تشتغل العقول بمعرفته، وهي ليست غنية عن ذلك، ولا تستطيع العقول أن تعرف ما لم يأت به الشرع وتخبر به الرسل.

ولكن العقل إذا عُرِّف فهم وصدق وانتفع بالسماع فيجتنب الهلاك والضرر، ويقصد ما يسعده، فيستدل على صدق الرسول بالشرع والمعجزات وبعض القرائن والحالات.

فالعقل يعجز عن معرفة ما لم يأت به الشرع، فبعثة الرسل جائزة غير مستحيلة، والعقل ليس غنياً عن ذلك.

2ـ **الرد على الشبهة الثانية:** وهي عدم التمييز بين المعجزة والسحر والطلاسم وغيرها.

الجواب:

إن العقل لا يجيز بأن السحر يؤدي إلى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وشق البحر، وقلب العصا..

وإن العقل لا يجيز قول من يدعي أن كل مقدور لله تعالى فهو ممكن تحصيله بالسحر.

هذا القول مستحيل بالضرورة.

فالمعجزة هي فعل خارق للعادة يجريه الله على يد الرسول بعد تحدي المنكرين له. فالمعجزة غير السحر.

3ـ **الرد على الشبهة الثالثة:** وهي تصور الخصم الإغواء والإضلال من الله تعالى للعباد بقولهم: لعل الرسالة فيها شيء من الإضلال والإغواء. فكيف يمكن معرفة صدق الرسل؟

الجواب:

إن من صفات الأنبياء: الأمانة والصدق وتبليغ الرسالة... والذكاء والفطنة والعصمة...

فالنبي مأمون على رسالة الله تعالى.

والنبي يعرف الرسالة ومعناها، ويعرف وجه الدلالة والنبي صادق يبلغ ما أوحاه الله إليه بأمانة ولا يتقول على الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1].

لذلك لم ينكر أحد صدق الأنبياء من هذه الجهة، بأن جعلهم الله رسلاً وأخبرهم بأن يبلغوا الناس ذلك. ولكن الذي أنكروه هو ما جاء به الأنبياء من معجزات وخوارق عادات وقالوا بأنها سحر مبين. أو أنكروا وجود رب وإله متكلم آمر ناه مصدق مرسل.

ـ **فإذا قال الخصم:**

أ ـ لنفترض أن العباد رأوا الله بأعينهم وسمعوه بآذانهم يقول هذا رسول بعثته ليخبركم بطريق سعادتكم وشقاوتكم فما الذي يضمن أنه أغوى الرسول والمرسل إليه.

ب ـ ولو قدر عدم إرسال الرسول، وقال الله مشافهة وعياناً ومشاهدة لعباده: إن نجاتكم في الصلاة والصوم والزكاة... وإن هلاككم في تركها. فبم نعلم صدقة؟ لأن الكذب عندكم ليس قبيحاً لذاته!

الجواب:

إن الكذب محال على الله تعالى، مأمون عليه والكذب يكون في الكلام. وكلام الله تعالى ليس بصوت ولا حرف حتى يلتبس به، بل هو معنى قائم بنفسه تعالى. فالكذب في كلام النفس محال.

ـ فإذا قال الخصم: هل تجيزون الكرامات؟

الجواب:

لقد اختلف الناس في ذلك، ولكن الكرامات من الممكنات، فهي جائزة، وتكون الكرامة بخرق عادة بدعاء إنسان، أو عند الحاجة.

---

(1) سورة الحاقة الآية / 44 ـ 46/.

فالكرامة: تظهر بخرق عادة ـ كالمعجزة ـ ولكن من غير تحدٍّ.

أما المعجزة: فهي فعل خارق للعادة يظهر على يد مدَّعي النبوة عند تحدي المنكرين له.

فإن لم يكن دعوى فقد يظهر الفعل الخارق للعادة على يد فاسق.

فإذا قال الخصم: هل من المقدور إظهار المعجزة على يد كاذب؟

ـ الجواب:

إن الأنبياء من صفاتهم الصدق. وإن الله تعالى يؤيد الأنبياء والرسل بالمعجزات المقرونة بالتحدي تصديقاً لنبوتهم، وتصديق الكاذب محال. وكل من قال له الله أنت رسولي، خرج عن كونه كاذباً. فمن المحال الجمع بين قول الله تعالى: صدقت أنت رسولي. وبين كونه كاذباً.

إن تأييد الله تعالى للرسول بالمعجزة يعني أنه يقول له: صدقت أنت رسولي.

إذاً ليس من المقدور أن يظهر الله المعجزة على يد كاذب.

القطب الرابع

ـ الباب الأول ـ

(في إثبات نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ)

وقبل إثبات نبوة محمد ﷺ لابد من إضاءة حول النبوة وحاجة الناس إلى الأنبياء والرسل

النبوة والرسالة:

إن معنى الجائز عقلاً في حقه تعالى، إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ابتداء من آدم عليه السلام، وانتهاء بمحمد ﷺ، وإن هذا الإرسال ليس واجباً عليه ولا مستحيلاً بل بمحض فضله وإحسانه الخالص.

والنبوة تعني: وصول خبر من الله تعالى بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده. فالنبوة إذاً: علاقة بين الوحي والأنبياء.

أما الرسالة: فهي تكليف الله تعالى أحد أنبيائه بإبلاغ الناس شرعاً أو حكماً.

فالرسالة إذاً: علاقة بين النبي وسائر الناس.

فالنبوة إذاً: أشرف من الرسالة، لأنها صلة النبي بخالقه والرسالة صلة النبي بالناس.

الفرق بين النبوة الرسالة:

1 ـ قال بعض العلماء: إن النبوة والرسالة كلمتان مترادفتان. ذات مدلول واحد، فكل نبي رسول وكل رسول نبي. فالرسول رسول بالنظر لما بينه وبين الناس والنبي يسمى نبياً لما بينه وبين الله تعالى. وكلاهما متلازمان. وقد ذهب هذا المذهب القاضي عياض وغيره من المالكية.

2ـ وقال بعض العلماء: إنَّ النبوة والرسالة غير متلازمتين، ولا مترادفتَيْن. فالنبي من أوحى الله إليه بأمر سواء كلِّفَ بتبليغه أم لا. والرسول هو من أوحى الله إليه بـأمرٍ وكلفه بتبليغه.

ومن هذا يتبين لنا ما يلي:

1' ـ الأنبياء والرسل بشر مثلنا:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[1].

والأنبياء والرسل تجري عليهم الأعراض البشرية، التي لا تنقص من مراتبهم العلية، ولا يعلمون من الغيب إلا ما يطلعهم الله عليه. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[2].

2' ـ الرسول ذكر وليس بأنثى:

فلا يجوز أن يكون الرسول أنثى، إذ لم يحدث أن أرسل الله رسولاً امرأة. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[3].

وما روى أن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء مثل سارة ومريم وأم موسى.. لقوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[4].

وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾[5].

وقوله أيضاً: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[6].

(1) سورة فصلت الآية / 6/ .
(2) سورة الفرقان الآية / 20/ .
(3) سورة الأنبياء الآية / 7/ .
(4) سورة هود الآية / 71/ .
(5) سورة القصص الآية / 7 .
(6) سورة آل عمران الآية / 42/ .

هذه الآيات وإن دلت على أن الله أوحى إلى النساء، إلا أن وحيه شمل التوجيه والتشريف لا النبوة والتكليف بنشر رسالة أو دين؛ لأن الوحي إلى سارة وأم موسى لم يكن فيه شيء من التشريع. وأن الوحي إلى مريم كان مدحاً لها بأنها صديقة، ولم يمتدحها لأنها نبية. قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾[1].

3' ـ الحرية:

لابد للرسول من أن يكون حراً؛ لأن العبودية مطعن يطعن الكفار به الرسل، فضلاً عن أنها قيد لا يتفق ومهمة الرسول التي أرسل من أجلها بينما لا يشترط ذلك في النبي.

4' ـ المدنية:

فلا بد أن يكون الرسول من أهل المدن قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾[2]؛ لأن أهل المدن أكثر دراية بسياسة الناس. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[3].

بينما لا يشترط أن يكون النبي من أهل المدن.

5' ـ التبليغ:

يؤمر الرسول بتبليغ الشريعة إلى من أرسل إليهم، والتي أوحى الله بها إليه، بينما النبي لا يؤمر بتبليغ رسالة أو بما أوحي إليه.

وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل:

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل في أزمنة متعاقبة ليهدوا الناس إلى الله العلي القدير، ويرشدوهم إلى الخير الذي يضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة.

(1) سورة المائدة الآية / 75/ .
(2) سورة يوسف الآية / 109/ .
(3) سورة آل عمران الآية / 159/ .

وقد اعتبر الله تعالى الإيمان بهم أحد الأركان الخمسة للإيمان الذي نص عليها الحديث الشريف. فقد أتى جبريل - عليه السلام - إلى النبي ﷺ وسأله عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وبالقدر خيره وشره)[1].

وقد أمر الله تعالى بأن يؤمنوا بأنه أرسل جميع الرسل فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾[2].

كما علينا أن نؤمن بجميع الرسل الذين ذكرهم القرآن الكريم دون تفريق بينهم؛ لأنهم جميعاً نزل عليهم الوحي. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[4].

حاجة الناس إلى الرسل:

1 - الهداية إلى معرفة الخالق:

إن الإنسان قد ضل في معرفته للخالق. فظنه تارة الشمس أو القمر أو الكواكب، وتارة ألّه بعض المخلوقات الموجودة على الأرض... وهكذا كان يتخبط في الضلال. فاقتضت الحاجة أن يرسل الله الرسل ليرشدوا الناس ويعرفوهم على الإله الخالق الواحد الأحد. وقد قام الرسل بهذه المهمة فعلاً.

(1) رواه.

(2) سورة آل عمران الآية / 179/.

(3) سورة النساء الآية / 152/.

(4) سورة البقرة الآية / 185/.

2 - إطلاع الإنسان على الغيبيات التي تتعلق به:

إن الإنسان يجهل العوالم غير المادية التي تكمن خلف هذا العالم المادي. فهو لا يعلم شيئاً عن عالم الآخرة والقبر والحساب والبعث والجنة والنار والملائكة.. فهي بعيدة عن عقله وأحكامه، لذلك لابد من الرسل التي تؤكد للناس حقيقة هذه الأمور ووجودها، حتى يؤمنوا بها إيماناً لا يداخله شك. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[1].

3 - إيجاد منهاج صالح يكفل للإنسان السعادة:

إن علم الإنسان محدود ولا يستطيع أن يحيط بما هو كائن ولا بما كان ولا يعلم ما سيكون. لذلك لا يستطيع أن يصنع نظماً ثابتة دائمة موضوعية مطلقة؛ لأن الإنسان يقع تحت تأثير العاطفة كالمحبة والكراهية والبغض والأنانية والسلطة... لذلك لابد إله منزه عن كل صفات البشر، يحيط بعلمه كل شيء ليضع تشريعاً للبشرية ثابتاً يصلح لكل زمان ومكان، ولا بد من الرسل لتنقل تشريع الله تعالى من السماء إلى الأرض، بوحي من الله لتبليغ الناس.

4 - حاجة الناس إلى قدوة صالحة:

يحتاج الناس إلى قدوة صالحة ونماذج بشرية تكون مثالاً يحتذى به في السلوك والأخلاق. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾[3]. وقال: (وإنك لعلى خلق عظيم)[4]. كما قال أيضاً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[5].

(1) سورة آل عمران الآية / 179/.

(2) سورة الأنعام الآية / 90/.

(3) سورة الأحزاب الآي / 21/.

(4) سورة القلم الآية / 4/.

(5) سورة إبراهيم الآية / 4/.

الحكمة من إرسال الرسل:

ورب سائل يسأل: ما الحكمة من إرسال الرسل؟

وللجواب نقول: إنَّ هناك حكماً متعددة لإرسال الرسل هي:

1 ـ تعليم الناس:

إن وراء هذا العالم المادي المحسوس عوالم أخرى لا تقع تحت حواس الناس مع أنها موجودة، مثل: عالم الملائكة، والجن، والبرزخ، والقبر، وعالم البعث، والحشر، وعالم الجنة والنار... ولولا إخبار الرسل الناس بهذه العوالم، لما علموا عنها شيئاً.

2 ـ تنظيم العلاقة بين الله والناس بواسطة العبادة:

إن الرسل يعلمون الناس كيفية صلتهم بالله، عن طريق العبادات التي شرعها لهم، من صلاة وصيام وحج وذكر ودعاء واستغفار... ولولا الرسل لما عرف الإنسان كيفية العبادة والصلة باللّه تعالى.

3 ـ تنظيم العلاقة بين الناس بالتعامل المثالي:

إن الرسل يعلمون الناس كيفية التعامل بينهم، فينظمون العلاقات مع بعضهم البعض في البيت والسوق والدولة، والبيع والشراء... لأن الناس مختلفون فيما بينهم في هذه القضايا، ويرفض كل فريق التنازل لغيره.

4 ـ حاجة الناس إلى القدوة الخيرة المثالية:

إن القدوة الحسنة لا توجد إلا في الأنبياء والرسل. وقد أرسل الله تعالى الرسل ليقيموا الحجة على الناس يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1].

لذلك فإن الله تعالى لا يعذب أقواماً حتى يرسل إليهم رسولاً يهديهم إلى الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2].

(1) سورة النساء الآية / 165/ .

(2) سورة الإسراء الآية / 15/ .

وقال: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1].

الحاجة إلى نبوة محمد ﷺ:

والحاجة إلى نبوة محمد ﷺ تتجلى في الأمور التالية:

1 ـ فساد المجتمع العربي قبل النبوة:

لقد ساد في المجتمع العربي قبل الإسلام، العصبية القبلية والثأر والفجور والربا والزنى والعبودية والظلم... بالإضافة إلى الدعوات الخطيرة، والانقياد إلى الأشرار في غير البلاد العربية مثل فارس والروم.

2 ـ عجز الديانات الأخرى عن مكافحة الشرور وفساد المجتمع:

وذلك لأن ديانة إبراهيم عليه السلام ضاعت، والديانة النصرانية دخل عليها من التحريف ما أخرجها عن أصولها الأولى، وأدخلها في متناقضات فكرية لا يقرها عقل... وأنَّ الديانة اليهودية قد أصابها من التحريف أكثر ممّا أصاب النصرانية.

3 ـ العداوة بين الديانة اليهودية والنصرانية:

فقد كانت المعاملة بين أصحاب الديانتين على أساس الحقد والحسد، فقد قتل اليهود في زمن هرقل بطاركة أنطاكية، وقتل يهود صور نصارى فلسطين. وكانت النصارى بالمقابل يحتقرون اليهود، لذلك عجزت الديانتان عن القيام بالإصلاح بسبب عداوة كل منها للأخرى.

دلائل نبوة محمد ﷺ:

لقد أيد الله سبحانه وتعالى نبيه محمد ﷺ بعدة معجزات هي:

1 ـ القرآن الكريم:

فقد حوى القرآن الكريم آيات ومعجزات أعجزت العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله. فإذا كان الإنسان يعجز عن الإتيان بالقرآن فهذا دليل على أنه ليس من صنع البشر، بل هو من صنع الله تعالى، وصل إلى محمد ﷺ بواسطة جبريل، ولا طريق

(1) سورة فاطر الآية / 24/ .

إلى ذلك إلاَّ طريق الوحي. إذاً فمحمد ﷺ رسول الله أرسله للناس كافة، وقد فعل القرآن في النفوس ما لم يستطع أن يفعله كل مصلحي العالم، فكان دليلاً على أنه كلام الله، أرسله الله إلى نبيه محمد ﷺ.

2' ـ المعجزات المادية:

إن معجزات رسول الله ﷺ أكثر من أن تحصى. وأهمها: الإسراء والمعراج، إخباره ﷺ بالمغيبات، إنشقاق القمر، نبع الماء من بين أصابعه، تكثير الطعام، سرعة إجابة دعائه...

3' ـ سيرته الشريفة:

فقد كان رسول الله ﷺ الإنسان الكامل في عدة ميادين منها:

1 ـ ميدان الأخلاق: فقد كان ﷺ أحسن الناس خلقاً يتصف بالصدق والأمانة والرحمة والوفاء و...

2 ـ ميدان الفكر: وكان ﷺ أنضج الناس فكراً ومحاكمة وأبعدهم نظراً وحكمة.

3 ـ ميدان السياسة: كما كان ﷺ حكيماً متبصراً بأمور السياسة ويتجلى ذلك مثلاً في صلح الحديبية.

4 ـ ميدان القيادة العسكرية: وكان ﷺ القائد الملهم، والمخطط الناجح ومن خططه الاستعداد الدائم للحرب، والاهتمام بالقوة المعنوية، واستطلاع أخبار العدو، والانقضاض على العدو وقبل استكمال دعوته والقضاء على القوة الاقتصادية للعدو، واستشارة ذوي الرأي والخبرة، والسرية الكاملة في العمليات العسكرية، ونشر البلبلة في صفوف العدو، والوصول للنصر بأقل التكاليف، وتقدير العدو ومعرفته.

5 ـ تدبير الشؤون العامة: وكان ﷺ يتصف بالبداهة، ويدل على ذلك قصة وضع الحجر الأسود في مكانه. وتوزيع الغنائم على المهاجرين من أهل مكة، وإرضاء الأنصار والدعاء لهم.

6 ـ ميدان الأسرة: استطاع ﷺ تحقيق الانسجام بين تسع نسوة كن عنده.

7 ـ ميدان الفصاحة والبلاغة: فقد كان ﷺ أفصح الناس وقد أوتي جوامع الكلم وقد حققت أحاديثه الشريفة ذلك.

8 ـ ميدان الحكم والتشريع: وكان ﷺ المنفذ المشرع النافذ البصيرة.

4' ـ بشارة الكتب السماوية وبقية الرسل به:

قال تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ ﴾[2].

وقد ثبت في التوراة والإنجيل اسمه ونسبه وزمن بعثته ومكانها.

ـ 1 ـ اسمه: ورد في التوراة والإنجيل كما يلي:

أ ـ المعزي: وتعني محمداً أو أحمد.

ب ـ مشتهى كل الأمم هو حمدون: وتعني تحمده كل الأمم وهو محمد ﷺ.

ـ 2 ـ نسبه: فلقد صرحت التوراه أنه ﷺ من نسل اسماعيل عليه السلام. وصرح إنجيل (برنابا) إنَّ العهد صرَّح باسماعيل لا باسحاق. ولم يظهر من نسل اسماعيل ـ عليه السلام ـ غير محمد ﷺ.

ـ 3 ـ زمن بعثته: كان معروفاً عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى. قال أحد يهود الشام: يا معشر اليهود ما الذي أخرجني من أهل الخمر (الشام) إلى أهل البؤس والجوع (الحجاز) قالوا: أنت أعلم. قال: إني قدمت هذه الأرض أتوكف (أتوقع) خروج نبي قد أظل زمانه، هذه أرض مهاجره، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه.

4 ـ مكان بعثه: لقد حددته التوراة، وهو الديار التي يسكنها قيدار بن اسماعيل عليه السلام.

---

(1) سورة الصف الآية / 6/.

(2) سورة الأعراف الآية / 157/.

ورغم هذا وذاك فقد أنكر العيسويون واليهود وغيرهم نبوة محمد ﷺ ويمكن إثبات نبوته ﷺ لهؤلاء الفرق الثلاث كما يلي :

1 ـ الفرقة الأولى العيسوية :

وهؤلاء قالوا عن النبي ﷺ هو رسول للعرب فقط لا إلى غيرهم .

الرد عليهم:

إن قولهم هذا باطل من عدة جوانب :

أ ـ لقد اعترفوا بكونه رسول حقاً، ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ لا يكذب .

ب ـ وقد ورد عن النبي ﷺ أنه مبعوث إلى الثقلين، وقد بعث رسلاً ـ من قبله ـ إلى كسرى وقيصر وسائر ملوك العجم، وتواتر ذلك منه، وهذا يعني أن قولهم باطل ومحال؛ لأنه متناقض .

2 ـ الفرقة الثانية اليهود :

وقد أنكروا صدق النبي ﷺ وزعموا أن لا نبي بعد موسى عليه السلام، وهذا ما جعلهم ينكرون بقوة نبوة محمد وعيسى عليهما السلام .

ونبدأ بإثبات نبوة عيسى عليه السلام؛ لأننا إذا أردنا إثبات نبوة محمد ﷺ فربما عقولهم لا تدرك إعجاز القرآن، لكن عقولهم لا تقصّر عن إدراك إعجاز إحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص . . . وهؤلاء نقول لهم: لم تفرقون بين من يستدل على نبوته وصدقه بإحياء الموتى، وبين من يستدل على نبوته بقلب العصا ثعباناً؟

إن اليهود قد ضلوا بشبهتين :

الأولى قولهم: النسخ محال في نفسه؛ لأنه يدل على البدء والتغيير، وذلك محال على الله تعالى .

والثانية قولهم: قد قال موسى عليه السلام: عليكم بديني ما دامت السماوات والأرض . وقد قال: إني خاتم الأنبياء .

الرد على الشبهة الأولى:

وأفضل رد على شبهة النسخ وإبطالها هو فهم النسخ .

فالنسخ: عبارة عن الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت المشروط استمراره بعد لحوق خطاب يرفعه .

فمثلاً: قول السيد لعبده: قم . فيفهم العبد أنه مأمور بالقيام مطلقاً، وأن الواجب في استمرار القيام حتى يأمره السيد بالقعود . فليس شرطاً أن يبين السيد للعبد مدة القيام، أو يفهم العبد أن سيده قد ظهرت له مصلحة كان لا يعرفها والآن قد عرفها فأمره بالقعود . بل يجوز أن يكون قد عرف مصلحة القيام، وعرف أن الصلاح في أنه لا ينبه العبد عليها، ويطلق الأمر له إطلاقاً، حتى يستمر على الإمتثال، ثم إذا تغيرت مصلحته أمره بالقعود . فهكذا ينبغي أن يفهم إختلاف أحكام الشرائع . فإن ورود النبي ﷺ ليس بناسخ لشرع من قبله بمجرد بعثته، ولا في معظم الأحكام، إلا في بعض الأحكام، كتغير القبلة، وتحليل المحرم . . .

فهذه المصالح تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، فليس فيه ما يدل على التغير، ولا على الإستبانة بعد الجهل، ولا على التناقض .

وبالنسبة لليهود: لو اعتقدوا أنه لم يكن هناك شريعة من زمن آدم إلى زمن موسى عليه السلام . لم ينكروا وجود نوح وإبراهيم وشرعهما . وفي هذا لا يختلفون عمن ينكر نبوة موسى عليه السلام وشرعه . وكل ذلك إنكار لما علم بالتواتر .

الرد على الشبهة الثانية:

والشبهة الثانية سخيفة من وجهين :

1 ـ لو صح ما قالوه عن موسى لما ظهرت المعجزات على يد عيسى عليه السلام، فإن ذلك تصديق بالضرورة . فكيف يصدق الله سبحانه بالمعجزة من يكّذب قول موسى عليه السلام ـ أنه لا نبي بعدي ـ وهو مصدق له؟

2 ـ وهذه الشبهة لُقنوها بعد بعثة محمد ﷺ وبعد وفاته ولو كانت صحيحة لاحتج اليهود بها، وقد حملوا بالسيف على الإسلام، وكان ﷺ مصدقاً بموسى عليه السلام، وقد حكم على اليهود بالتوراة، في حكم الرجم وغيره، مع أنه لم

يعرض عليه من التوارة شيء من الأحكام، ولم يطلع عليها، وهذا دليل نبوته.

فما الذي صرفهم عن محمد ﷺ وعن الإيمان به؟

ومن المعلوم أن اليهود لم يحتجوا به؛ لأن ذلك لو كان لكان مفحماً لا جواب عنه، وأنهم لم يتركوه مع القدرة عليه وكانوا يحرصون على الطعن في شرعه بكل ممكن، حماية لدمائهم وأموالهم ونسائهم.

فإذا ثبت عليهم نبوة عيسى عليه السلام، أثبتنا نبوة محمد ﷺ بما نثبتها على النصارى الذين أنكروا القرآن.

الفرقة الثالثة:

وهؤلاء يجوزون النسخ لكنهم ينكرون نبوة محمد ﷺ من حيث أنهم ينكرون معجزته في القرآن، وفي إثبات نبوته بالمعجزة طريقتان:

الأولى: التمسك بالقرآن: فلا معنى للمعجزة إلا ما يقترن بتحدي النبي عند استشهاده على صدقه، على وجه يعجز الخلق عن معارضته. وتحديه للعرب مع شغفهم بالفصاحة وإغراقهم فيها متواتر، وعدم المعارضة معلوم، إذ لو كان هناك من يعارض لظهر. إذ إنّ أرذل الشعراء لمّا تحدوا بشعرهم وعارضوا، ظهرت المعارضات والمناقضات الجارية بينهم. إذاً يمكن القول:

أ ـ لا يمكن إنكار تحديه ﷺ بالقرآن.

ب ـ لا يمكن اقتدار العرب على الفصاحة.

ج ـ لا يمكن إنكار حرصهم على دفع نبوته بكل ممكن حماية لدينهم ودمهم ومالهم وتخلصاً من سطوة المسلمين وقهرهم.

د ـ ولا يمكن أيضاً إنكار عجزهم؛ لأنهم لو قدروا لفعلوا فالعادة قاضية بالضرورة بأن القادر على دفع الهلاك عن نفسه يشتغل بدفعه، ولو فعلوا لظهر ذلك ونقل.

ـ وبمثل هذه الطريقة تثبت نبوة عيسى.

فإن قيل: ما وجه إعجاز القرآن؟ قلنا: الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب في خطبهم وأشعارهم، والجمع بين هذا

النظم وهذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر. وجزالة القرآن قضى ـ كافة العرب ـ منها العجب، ولم ينقل عن واحد منهم أنه طعن في فصاحته.

نعم ربما نجد للعرب خطب وأشعار فيها جزالة، وربما ينقل عن بعض من قصد المعارضة، مراعاة هذا النظم بعد تعليمه من القرآن، ولكن مع ركاكة كما يحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال: الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل وخرطوم طويل... فهذا وأمثاله ربما يقدر عليه مع ركاكة يستهزئ بها الفصحاء.

إن هذا مع شهادة كافة العرب بفصاحة القرآن يجعله معجزاً وخارجاً عن مقدور البشر.

فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن، ولو قصدت ذلك لقدرت عليه، أو منعتها العوائق عن الاشتغال بذلك.

يكون الجواب: إن هذا هوس! فإن دفع تحدي المتحدي بنظم الكلام أهون من الدفع بالسيف، مع ما جرى على العرب من المسلمين ـ في معرض التحدي ـ بالأسر والقتل والسبي وشن الغارات. فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات.

مثال: فلو قال نبي: آية صدقي أني في هذا اليوم أحرك أصبعي ولا يقدر أحد من البشر على معارضتي. ولم يعارضه أحد في ذلك اليوم، ثبت صدقه، وكان فقد قدرتهم على الحركة مع سلامة الأعضاء من أعظم المعجزات.

وإن فرض وجود القدرة، وفقد داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات. فهذا طريق تقدير نبوته على النصارى. ومهما تشبثوا بإنكار شيء من هذه الأمور الجليلة فلا يصح إلا الاشتغال بمعارضتهم بمثله في معجزات عيسى عليه السلام.

الطريقة الثانية: أن إثبات نبوته ﷺ بجملة من الأفعال الخارقة للعادات التي ظهرت عليه، كانشقاق القمر ونطق العجماء، وتفجر الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في كفه، وتكثير الطعام القليل وغيره من خوارق العادات كما مر سابقاً، والتي تؤكد وتدل على صدقه.

- **فإن قيل:** آحاد هذه الوقائع لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر.

الجواب: ذلك أيضاً. إن سلم - فلا يقدح في العرض مهما كان المجموع بالغاً مبلغ التواتر، ومثله في ذلك كشجاعة علي (ﷺ) وسخاوة حاتم، فإنهما معلومان بالضرورة على القطع تواتراً، وآحاد تلك الوقائع لم تثبت تواتراً، ولكن يعلم من مجموع الآحاد على القطع، ثبوت صفة الشجاعة والسخاوة، فكذلك هذه الأحوال العجيبة بالغة جملتها مبلغ التواتر.

فإن قال قائل من النصارى: هذه الأمور لم تتواتر عندي لا جملتها ولا آحادها.

الجواب: لو انحاز يهودي إلى قطر من الأقطار ولم يخالط النصارى، وزعم أنه لم تتواتر عنده معجزات عيسى عليه السلام، وإن تواترت فعلى لسان النصارى وهم مهتمون به بماذا يجيبون؟ وهم بالتأكيد سيقولون: ينبغي أن يخالط القوم الذين تواتر ذلك بينهم حتى يتواتر ذلك إليه فإن الأصم لا تتواتر عنده الأخبار، وكذا المتصامم.

وهذا هو الجواب لأي واحد ينكر التواتر لمعجزات النبي ﷺ على هذا الوجه.

الباب الثاني
بيان وجوب التصديق بأمور ورد بها الشرع وقضى بجوازها العقل

المقدمة:

إن من الأمور أموراً تعلم بالضرورة - أي الفطرة - مباشرة ومنها ما لا يعلم بالضرورة.

1 - أما ما يعلم بالضرورة: مثل البديهيات والمسلمات، فإن الإنسان يعرفها معرفة مباشرة، لا تحتاج إلى استدلال وبراهين؛ لأنها صادقة واضحة بذاتها، لا تحتاج إلى براهين.

2 - أما ما لا يعلم بالضرورة: فإنه ينقسم إلى قسمين:

1 - ما يعلم بدليل العقل دون الشرع: أي معرفة عقلية.

2 - ما يعلم بالشرع دون العقل: - أي عن طريق النقل - مثل معرفة الغيبيات أو السمعيات.

3 - ما يعلم بالعقل والشرع معاً: مثل رؤية الله تعالى، وخلق الله تعالى للمخلوقات.

ما يعلم بدليل العقل دون الشرع:

كمعرفة حدوث العالم، ومعرفة حدوث المحدث (الله) وصفاته إن معرفة كل هذه الأمور تثبت بالعقل وإن لم تثبت بالشرع، لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]. أي أنها آيات وأدلة واضحة - على وجود الله - لأصحاب العقول الناضجة. وهذا رأي المعتزلة وغيرهم.. الذين يرون أن العقل قادر على معرفة الله، ومعرفة الحقائق...

(1) سورة فصلت الآية / 53/ .

(2) سورة آل عمران الآية / 190/ .

وإن ما ثبت صحته في الشرع، فإن صحة هذه المعرفة مبنية على ما ورد في الشرع، ألا وهو كلام الله تعالى.

مع العلم أن المقصود بكلام الله، هو المعنى النفسي القائم بذات الله، وهو قديم قدم الله تعالى، أما الألفاظ فهي حادثة. وهناك أدلة عقلية تثبت أن القرآن الكريم هو كلام الله النفسي؛ فإذا ثبت صحة ذلك عقلاً، ثبت لنا أن القرآن الكريم - الذي هو كلام الله - هو الشرع، وبذلك تثبتُ صحة الشرع.

ويمكن إثبات صحة الكلام أيضاً بأنه صادر عن متكلم، والمتكلم يكون حياً، وأن الكمال للحي كمال، وكل كمال للمخلوق يكون واجب الوجود للخالق، أي الأولى أن يكون الله تعالى متكلماً لأنه حي.

فلابد من ضرورة معرفة الله المحدث الخالق، القادر، العالم، المريد، الحي... حتى يسمع لكلامه، ومعرفة كل ما يستند إلى هذا الكلام، كبعثة الرسول المخبر عن كلام الله.

ما يعلم بالشرع دون العقل:

أي السمعيات أو الغيبيات. فإنها تعلم بمجرد السمع عن طريق النقل. وتكون تلك المعرفة بالوحي والإلهام، كمعرفة ما ورد عن الحشر والنشر والثواب والعقاب والجنة والنار...

ما يعلم بالعقل والشرع معاً:

وهو كل ما هو واقع في مجال العقل. أي ما هو جائز عقلاً وليس بمستحيل وثبت ذلك في الشرع، كرؤية الله تعالى في الآخرة، وانفراد الله تعالى بالخلق. وبمعنى آخر فإن إثبات صحة ذلك يكون عن طريق الشرع، أيْ إنَّ الله تعالى قال فيه كذا وكذا... كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

ويأتي العقل ليؤكد هذا الحكم، ويثبت صحة ما ورد في الشرع.

(1) سورة القيامة الآيتان / 22 - 23/.

ولكن كل ما ورد به الشرع - كالسمعيات أو الغيبيات - ينظر به على النحو التالي:

1 - إن كان ما ورد به الشرع جائزاً عقلاً، أي ممكناً وليس مستحيلاً - يجب التصديق به.

أ - فإذا كانت الأدلة السمعية صحيحة قطعاً وجب التصديق به قطعاً.

ب - وإذا كانت الأدلة السمعية ظنية، وجب التصديق به ظناً، ويحتاج إلى البحث عن الطرق العقلية.

إن وجوب التصديق باللسان والقلب، عمل ينبى على الأدلة الظنية كسائر الأعمال، ولكن يجب ويصح التصديق به قطعياً، إذا ثبت بالأدلة العقلية.

فمثلاً: إن الصحابة رضي الله عنهم، أنكروا على من يدعي كون الإنسان خالقاً لأفعاله أو لشيء من الأشياء، أو عرض من الأعراض... وذلك لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

فكانوا ينكرون على من يدعي ذلك باعتمادهم على ما ورد في الشرع، قبل البحث عن الطرق العقلية.

ولكن - إذا نظرنا إلى الآية، فإننا نرى أنها دليل عام قابل للتخصيص، فلا يكون عمومه إلا مظنوناً. بالبحث عن الطرق العقلية يصبح هذا الدليل قطعياً.

2 - وأما ما قضى العقل باستحالته - أي غير جائز وغير ممكن عقلاً - فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به؛ لأنه لا يتصور أ ن يشمل السمع (الشرع) على أمور مقطوع بصحتها ومخالفة للعقل. فظواهر الآيات والأحاديث التي توهم التشبيه لا يقطع بصحتها، والصحيح منها يجب تأويله. أي إنَّ تلك الآيات قابلة للتأويل.

3 - وأما ما توقف العقل عنه - من الأمور والأشياء - فلم يأمر بجوازه ولا استحالته، وجب التصديق به أيضاً إذ تكفي الأدلة السمعية الشرعية. أي إذا توقف العقل عن معرفة الشيء، من حيث كونه جائزاً ممكناً أو مستحيلاً، فيجب أن ينقاد للشرع، ويجب أن يصدق ما جاء في الأدلة السمعية. فلا يشترط إذاً في وجوب التصديق، قضاء العقل بالتجويز، (أي كون الشيء أو الأمر جائزاً أو ممكناً

(1) الأنعام، الآية / 102/.

عقلاً)؛ لأن هناك فرقاً بين القول: إن هـذا الأمر جائز (عقلاً). وبين القـول: لا أدري إن كان هذا الأمر محالاً (غير جائز) أو جائز.

- فالقول الأول: - إنَّ هذا الأمر جائز على الله - أي يجوز في حق الله تعالى كل الممكنات.

- والقول الثاني: - إنَّ هذا الأمر غير جائز على الله - أي مستحيل في حقه تعالى.

فالقول الأول: معرفة بالجواز والممكنات.

والقول الثاني: عدم معرفة بعدم الجواز، أي عدم معرفة بالاستحالة.

إن كلاً من القسمين - القول الأول والثاني - أي (الجواز وعدم الجـواز) فـي حق الله تعالى، يجب التصديق بهما أي يجب التصديق ومعرفة ما يلي:

أ - ما يجب في حق الله تعالى: أي كل الصفات والأفعال.

ب - ما يجوز في حق الله تعالى: أي كل الممكنات.

ج - ما يستحيل في حق الله تعالى: ما كان ضد صفاته.

الفصل الأول

ما يأمر ويقضي العقل به والتصديق بما جاء في الشرع

لقد جاءنا الشرع عن طريق النبي ﷺ، بما أوحاه الله لـه، بواسطة جبريل عليه السلام، بأمور يجب التصديق بها. وخاصة المغيبات التي لا سبيل للعقل أن يبرهن على صحتها، بل أمر بالتصديق بها؛ لأنها من الممكنات التي يصح في العقل وجودها أو عدم وجودها ووقوعها.

الحشر والنشر:

الحشر هو إعادة الخلق ثانية. أي البعث بعد الموت، وقد دلت على صحة ذلك الأدلة الشرعية المقطوع بصحتها، وأنَّ الحشر والبعث من الممكنات وذلك بدليل الابتداء: أي إن الذي يبدأ الخلق قادر على أن يعيده ثانية، فالإعادة خلق ثان، ولا فرق بينه وبين الابتداء. قال تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

فإن قيل: هل تعدم الجواهر والأعراض ثم تعاد جميعاً؟ أم تنعدم الأعراض دون الجواهر وتعاد الأعراض فقط؟

والجواب: إنَّ كل ذلك ممكن. وليس في الشرع دليل على تعيين أحد الممكنات فمن الممكن:

1 - **الوجه الأول:** انعدام الأعراض دون الجواهر، وإعادة الأعراض بعد الممات، فتعاد الأعراض بعينها، أو تعاد إليها أمثالها، فإن كل عرض يتجدد هو غير الآخر؛ لأنه ليس من شرط الإعادة فرض إعادة الأعراض وهذا باطل، لما ورد في الكتاب والسنة.

---

(1) سورة يس الآيتان 78، 79.

2 ـ الوجه الثاني: ومن الممكن انعدام الجواهر والأعراض وإعادتها ثانية. أي أن تعدم الأجسام ثم تعاد ثانية أي تخترع مرة ثانية.

فإن قيل: فبم يتميز المعاد عن الخلق الأول؟

وما معنى القول: إنَّ المعاد هو عين الأول؟ وهذا يعني أن الخلق الثاني هو نفس الخلق الأول، مع أنه لم يبق للمعدوم عين أو ذات، حتى يعاد ثانية ويخلق مرة أخرى بعد موته.

الجواب:

إن المعدوم ينقسم في علم الله إلى قسمين:

1 ـ معدوم سبق له الوجود.

2 ـ معدوم لم يسبق له وجود.

وينقسم العدم في علم الله الأزلي إلى قسمين:

1 ـ عدم سيكون له وجود.

2 ـ عدم لا يمكن أن يوجد.

وعلم الله شامل وقدرته واسعة لا يمكن إنكارها فمعنى الإعادة إذاً: هي إيجاد أو وجود العدم الذي سبق له الوجود.

والمثل أو النظير يعني: أن يخترع الوجود لعدم لم يسبق له وجود، فهذا معنى الإعادة، أي إعادة أعراض تماثل الأعراض الأولى.

ـ وبما أن الخصوم من الفلاسفة، يقرون ببقاء النفس وعدم فنائها، فلا بد لهذه النفس بعد مفارقتها الجسد ـ وبعد فنائه ـ لا بد لها من بدن أو جسد من الأجساد ترجع إليه، فيلزمهم وجوب التصديق بالإعادة، أي خلق الأجساد ثانية بعد فنائها وموتها.

عذاب القبر:

إن عذاب القبر دلت عليه أدلة مقطوع بصحتها، وهي الأدلة الشرعية المتواترة عن النبي ﷺ، وعن الصحابة الكرام.

فمن هذه الأدلة: أدعية النبي ﷺ التي تشير إلى الإستعاذة من عذاب القبر. كحديث صاحبي القبرين اللذين كانا يعذبان.. ومنها أدلة قرآنية كقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1].

إن عذاب القبر أمر ممكن، أي جائز عقلاً، فيجب التصديق به. ووجه إمكانه أمر ظاهر، إلا أن المعتزلة ينكرونه للأسباب التالية:

1 ـ يقولون: إنَّنا نرى الميت مشاهدة وهو غير معذب.

2 ـ يقولون: أن الميت ربما تأكله السباع والطير والوحوش... وهذا الكلام مرفوض.

الرد على المعتزلة:

1 ـ إن مشاهدة شخص الميت، ما هي إلا مشاهدة لظواهر الجسم فقط. أما العقاب، فقد يكون لجزء من الجسم، أو من الباطن دون أن يرى المشاهد عذابه؛ لأنه ليس من ضرورة العذاب ظهور حركة في ظاهر البدن.

والمثل في هذا مثل النائم: حيث إنَّ الناظر إليه، لا يشاهد ما يدركه النائم في نومه من عذاب أو ألم، وإذا انتبه النائم وأخبر عما كان له في نومه، فإن من لم يجر له عهد بالنوم، لن يصدق أخباره وبالتأكيد سينكر كل ما سمعه من ذلك الرجل؛ لأنه لم ير تحركاً بجسمه أثناء النوم!

2 ـ وأما ذلك الميت الذي أكلت السباع والطيور جسمه، فسيغدو بطن السبع قبراً له. فإعادة الحياة إلى جزء من الميت كان ليشعر بالعذاب، وهذا أمر ممكن. فلا يشترط لكل متألم أن يدرك الألم في جميع بدنه.

سؤال منكر ونكير:

وهو أمر حق يجب التصديق به؛ لأنه أمر ممكن. وورد الشرع به. وإن سؤال منكر ونكير لا يستدعي إلا أن يفهم الميت منهما، بصوت أو بغير صوت.

---

(1) سورة غافر الآيتان / 45، 46/ .

والفهم يستدعي ويستوجب الحياة، ويكفي الفهم بجزء من البدن، وإن إحياء جزء من البدن لفهم السؤال والإجابة عليه، أمر ممكن ومقدور عليه أي إنَّ الله قادر أن يعيد الحياة لجزء من جسم الميت ليجيب منكراً ونكيراً عند السؤال.

- وقد يسأل سائل: إننا نرى الميت ولا نشاهد منكراً ونكيراً ولا نسمع صوتهما ولا صوت الميت في الجواب!

الرد:

إن من ينكر ذلك، يلزم منه أن ينكر مشاهدة النبي ﷺ لجبريل - عليه السلام - وسماعه كلامه. ولا يستطيع مصدق الشرع أن ينكر ذلك.

والله سبحانه وتعالى خلق للنبي ﷺ سمعاً ومشاهدة لجبريل عليه السلام، ولم يخلق للصحابة الحاضرين عنده، ولا لعائشة رضي الله عنها - سمعاً لصوت جبريل ولا مشاهدة لشخصه. وإنكار ذلك إنكار لقدرة الله الواسعة المطلقة الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وما فيهما من العجائب فضلاً عن خلق الإنسان وما فيه من عجائب.

الميزان:

والميزان حق لا ريب فيه، وقد دلت عليه الأدلة السمعية المقطوع بصحتها؛ لأنه من الممكنات فوجب التصديق به.

فإن قيل: كيف توزن الأعمال - وهي أعراض - وقد انعدمت؟ والمعدوم - عادة - لا يوزن!

وإن قيل: إن إعادة الأعراض أمر مستحيل. إذ كيف تعاد حركة يد الإنسان وهي طاعته في الميزان؟ أيتحرك بها الميزان - فيكون ذلك حركة الميزان لا حركة يد الإنسان! أم لا تتحرك، فتكون الحركة قد دخلت في جسم ليس هو متحرك بها؟ وهو محال...

الجواب:

إن النبي ﷺ قد سئل عن هذا فقال: (توزن صحائف الأعمال فإن الكرام الكاتبين، يكتبون الأعمال في صحائف هي أجسام، فإذا وضعت في الميزان خلق الله تعالى في كفتها ميلاً بقدر رتبة الطاعات وهو على ما يشاء قدير).

فإن قيل: ما فائدة وزن الأعمال؟ وما معنى المحاسبة؟

الجواب:

لا نطلب لفعل الله فائدة؛ لأنه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)

أما الفائدة بالنسبة للعبد هي: أن يشاهد مقدار أعماله ويعلم أنه مجزيٌّ بها بالعدل، أو يتجاوز الله عنه باللطف.

الصراط:

والصراط هو حق أيضاً، والتصديق به واجب؛ لأنه أمر ممكن ورد به الشرع.

والصراط هو: جسر ممدود على متن جهنم، يرد إليه كافة الخلق ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[1] فإذا مروا عليه قيل للملائكة: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[2] فإن قيل: كيف يمكن المرور على الصراط، وقد روي أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف؟

الجواب:

إن كان هذا السؤال صادراً ممن ينكر قدرة الله تعالى، فإن الكلام حول إثبات قدرته تعالى المطلقة قد فرغ منه في إثبات صفات الله تعالى والأدلة عليها.

وإن كان هذا السؤال صادراً من معترف بقدرة الله تعالى، فإن الجواب يكون: بأن المشي على الصراط ليس بأعجب من المشي في الهواء أو على الماء. والله تعالى قادر على خلق قدرة للإنسان على اجتياز الصراط، أو المشي على الماء والهواء، ولا يخلق في ذات الإنسان هوياً أو سقوطاً إلى الأسفل. ولا يخلق في الهواء انحرافاً وخللاً. فإذا أمكن هذا في الهواء، فالصراط أثبت من الهواء بكل حال.

---

(1) سورة مريم الآية / 71/ .

(2) سورة الصافات الآية / 24/ .

الفصل الثاني

هناك أمور وأبحاث لا حاجة ولا ضرورة للخوض فيها والبحث عنها، ولا معصية في عدم معرفتها، أو عدم العلم بأحكامها. إلا أنه يمكن البحث في ثلاثة فنون، منها العقلي واللفظي والفقهي.

ـ **أما العقلي:** كالبحث عن القدرة الحادثة ـ قدرة الإنسان وتعلقها بالضدين ـ أو تتعلق بالمختلفات ـ أي هل تتعلق قدرة الإنسان بعقل مباين لمحل القدرة. .

ـ **واللفظي:** كالبحث عن الرزق. . . والإيمان. . . والتوفيق والخذلان. . وما حدودها وما مسبباتها.

ـ **وأما الفقهي:** كالبحث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومتى يجب؟ وعن التوبة وحكمها. . إلى ما شابه ذلك. .

إن كل هذه الأبحاث ـ العقلية، واللفظية، والفقهية ـ وما يشابهها. . ليست مهمة في الدين. بل المهم في الدين أن ينفي الإنسان الشك عن نفسه فيما يتعلق بذات الله، وصفاته وأفعاله وأحكامها، وما يجب في حق الله وما يجوز وما يستحيل.

المسألة الأولى ـ العقلية :.

كاختلاف الناس في من قتل على النحو التالي:

هل يقال أنه مات بأجله؟ وإن لم يقتل. فهل كان يجب موته أم لا؟

هذا الفن من العلم لا يضر تركه. ولكن يتم الإشارة إليه وإلى طريق الكشف فيه.

يقول الإمام الغزالي:

1ـ كل شيئين لا إرتباط لأحدهما بالآخر، ثم اقترنا في الوجود، فليس يلزم من تقدير نفي أحدهما نفي الآخر.

مثال (1): لو مات زيد وعمرو معاً. ثم قدرنا عدم موت زيد. لم يلزم منه عدم موت عمرو، ولا وجود موته.

مثال (2): إذا مات زيد عند كسوف القمر. فإننا لو قدرنا عدم الموت لزيد، لم يلزم عدم الكسوف بالضرورة. ولو قدرنا عدم الكسوف، لم يلزم عدم موت زيد؟ لأنه لا ارتباط لأحدهما بالآخر.

2ـ أما الشيئان اللذان بينهما علاقة وارتباط فهما ثلاثة أقسام:

1ـ أن تكون العلاقة بينهما متكافئة. كالعلاقة بين اليمين والشمال، والفوق والتحت. . فهذا يلزم فقد أحدهما عند تقدير فقد الآخر؛ لأنه لا يمكن أن يقوم أحدهما إلا بالآخر.

2ـ أن لا يكون بين الشيئين تكافؤ، ولكن لأحدهما رتبة التقدم، كتقدم الشرط على المشروط.

مثال: إذا ارتبط علم الشخص مع حياته، وارتبطت إرادته مع علمه، فيلزم لا محالة من تقدير انتفاء الحياة انتفاء العلم.

ومن تقدير انتفاء العلم انتفاء الإرادة.

ويعبر عن هذا بالشرط: وهو الذي لابد منه لوجود الشيء ولكن ليس وجود الشيء به بل عنه ومعه.

3ـ وأن تكون العلاقة بين الشيئين علاقة العلة والمعلول. فيلزم من تقدير عدم العلة عدم المعلول، إن لم يكن للمعلول إلا علة واحدة. وإذا كان للشيء عدة علل فيلزم من تقدير نفي كل العلل نفي المعلول.

ولا يلزم من تقدير نفي علة بعينها نفي المعلول مطلقاً، بل يلزم نفي معلول تلك العلة على الخصوص.

وبالعودة إلى مثال القتل والموت نقول:

إن موت الإنسان لابد له من علة أو أكثر. ففقدان علة ما لا يعني عدم موته؛ لأن للموت عللاً، كالمرض أو القتل أو السم. . (تعددت الأسباب والموت واحد). فالقتل مثلاً: هو عبارة عن حز الرقبة، وافتراق في أجزاء رقبة المضروب. ولكن ليس بين حز الرقبة والموت أي ارتباط. فإذا قدر نفي الحز فإنه لا يلزم منه نفي الموت؛ لأن

للموت عللاً كثيرة. فقد يموت بعلة غير حز الرقبة. ولا ينتفي الموت إلا إذا انتفت كل العلل المسببة له.

- فإذا كان الحز للرقبة هو العلة الوحيدة للموت، وليس ثمة علة أخرى، فلا يجب من تقدير عدم الحز، عدم الموت. وهذا هو الحق عند أهل السنة.

- وإذا كان الله تعالى يخلق ويوجد الأشياء، من عدم بلا تولد، فلا يكون مخلوق علة مخلوق. ونقول: إن الموت أمر أوجده - خلقه - الله تعالى مع الحز. فلو انتفى الحز وليس ثمة علة أخرى، وجب انتفاء المعلول الذي هو الموت، لا انتفاء جميع العلل. وبناء على هذا، فإن من قتل ينبغي أن يقال: إنَّه مات بأجله، لأن الأجل هو عبارة عن الوقت الذي خلق الله فيه موته، سواء كان معه حز رقبة - قتل - أو كسوف قمر، أو نزول مطر... أو لم يكن؛ لأن كل هذه الأمور مقترنات - اقترنت بالموت - وليست مؤثرات - سبباً للموت ولكن اقتران بعضها يتكرر بالعادة، وبعضها لا يتكرر.

المسألة الثانية. اللفظية:.

كاختلاف الناس في الإيمان، إن كان يزيد وينقص، أم كان على رتبة واحدة.

وهذا الاختلاف يعود إلى أن هذا اللفظ من بين ثلاثة معان وهي:

1 - فقد يكون معبراً عن التصديق اليقيني البرهاني. والدليل على ذلك: أن من عرف الله تعالى بالدليل ومات عقيب معرفته، فيحكم بأنه مات مؤمناً. والإيمان بهذا المعنى: لا يزيد ولا ينقص.

2 - وقد يكون معبراً عن التصديق التقليدي. إذا كان جزماً. والدليل على ذلك: تصديق الصحابة لرسول الله ﷺ. فقد كانوا يصدقونه من غير نظر في أدلة الوحدانية، ووجه دلالة المعجزة، وكان عليه الصلاة والسلام يحكم بإيمانهم. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾[1] أي بمصدق. ولم يفرق بين تصديق وتصديق. وهذا الإيمان يزداد وينقص.

(1) سورة يوسف الآية / 17/.

3 - وقد يكون معبراً عن التصديق مع الفعل أو العمل. والدليل على ذلك: قوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن). متفق عليه.

وقوله أيضاً: (الإيمان بضع وسبعون شبعة. أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق...). مسلم.

وهذا الإيمان يزداد وينقص بتفاوت العمل.

وسبب تفاوت الإيمان - زيادة ونقصاناً - في المعاني السابقة هي:

- أن الإيمان - بمعنى التصديق اليقيني البرهاني - لا يتصور زيادته ولا نقصانه؛ لأن اليقين إن حصل بكماله فلا مزيد عليه، وإن لم يحصل بكماله فليس بيقين.

- وهو بمعنى التصديق التقليدي فلا يجحد التفاوت فيه؛ لأن الواحد منهم - مع كونه جازماً في اعتقاده - تكون نفسه أطوع لقبول اليقين.

- وهو بمعنى التصديق مع العمل، فإن الإيمان يزداد وينقص، فهو يزداد بالطاعات وينقص بالمعاصي.

وإذا أردنا أن نغير ونشكك من واظب على الطاعات فإننا نجده عصياً على ذلك، بينما يكون العاصي لله أو من لم تطل مواظبته على العمل أطوع للتغيير. فالمواظبة على الطاعات لها أثر في تأكيد الاعتقاد التقليدي ورسوخه في النفس، حتى أن العادات تقضي ذلك. فالذي يرحم اليتيم، يشعر زيادة في تأكيد الرحمة في قلبه، وكذلك التواضع...

- وقد اختلفوا في معنى الرزق أيضاً على النحو التالي:

<u>المعتزلة:</u> فقد رأوا أن الرزق مخصوص بما يملكه الإنسان، وأنه لا رزق لله على البهائم.

<u>الرد عليهم:</u> إن الظلمة يموتون وقد عاشوا عمرهم لم يرزقوا.

<u>وقال أهل السنة:</u> الرزق هو ما ينتفع به الإنسان حيث كان.

وينقسم الرزق إلى:

1 - حلال.

2 - حرام.

ثم إنهم أطالوا في حد - تعريف - الرزق، وحد النعمة. والمهم هو: أن لا يضيع الإنسان الوقت في البحث عن مثل هذه المسائل والأمور، بل عليه أن يهتم بالأمور الأهم.

المسألة الثالثة - الفقهية -:

واختلفوا في الفاسق: هل له أن يحتسب؟

الجواب: إن الفاسق له أن يحتسب وسبيله التدرج في التصوير. وهو أن نقول: هل يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يكون الآمر والناهي معصوماً عن الصغائر والكبائر جميعاً؟

إن هذا لا يشترط؛ لأن ذلك مخالف للإجماع. فالأنبياء هم المعصومون عن الكبائر، وعرف ذلك عنهم شرعاً. أما عن الصغائر فمختلف فيه، إذ لا يوجد في الدنيا معصوم عنها. وعلى هذا فإن من يرتكب الصغائر يجوز له أن ينهى عن الكبائر. فلابس الحرير من الرجال - مثلاً - يجوز له أن يمنع غيره من الزنى وشرب الخمر...

- ورب سائل يسأل: هل يجوز لمرتكب الكبائر أن يمنع الكافرين من الكفر ويقاتلهم عليه؟

الجواب: نعم يجوز له ذلك.

فإن قيل: لا. فقد فرقوا الإجماع؛ لأن جنود المسلمين فيهم العصاة والمطيعون، ولم يمنعوا من الغزو لا في عصر النبي ﷺ، ولا في عصر الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

فإن قالوا: نعم. فنقول: هل لشارب الخمر أن يمنع من القتل أم لا؟ فإن قيل لا. فإننا نجيب: ما الفرق بين هذا ولابس الحرير الذي يمنع من الخمر؟ والزاني يمنع من الكفر؟ ولو كانت كبائر، فالكبائر متفاوتة في عظمها!

فإن قالوا: نعم. وضبطوا ذلك بأن جعلوا المقدم على منكر، لا يمنع غيره عن مثل هذا المنكر، ولا فيما دونه، وله أن يمنع عن المنكرات التي فوق المنكر الذي يرتكبه هو.

إن هذه الضوابط والأحكام الموضوعة لا مستند لها.

فكم من زانٍ يمنع غيره من شرب الخمر، مع أن الزنى كبيرة فوق كبيرة الخمر. وقد يشرب ويمنع غلمانه من الشرب قائلاً: ترك ذلك واجب علي وعليكم، والأمر بترك المحرم، واجب علي مع الترك. فلي أن أتقرب بأحد الواجبين، ولم يلزمني مع ترك أحدهما ترك الآخر ناسياً قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾(1) ولكن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر غير جائز، بل هو واجب. كما أن ترك المنكر بالنسبة للمتحتسب واجب أيضاً. ولا يلزم ترك أحد هذين الواجبين، ترك الآخر.

فإن قيل: يلزم من ذلك أمور شنيعة، كأن يزني الرجل بامرأة، مكرهاً لها على ذلك ويقول: لا تكشفي وجهك لأني لست محرماً لك، والكشف لغير المحرم حرام، وأنت مكرهة على الزنى مختارة في كشف الوجه فأمنعك من هذا!

إن هذه الحسبة شنيعة جداً لا يصير إليها عاقل.

وكذلك قوله: إن الواجب علي شيئان: العمل والأمر للغير، وأنا أتعاطى أحدهما وإن تركت الثاني. كمن قال:

- إن الواجب على الوضوء دون الصلاة، وأنا أصلي وإن تركت الوضوء.

والمسنون في حقي الصوم والتسحر، وأنا أتسحر وإن تركت الصوم؛ السحور شرط للصوم متقدم على المشروط في الرتبة.

وكذلك الوضوء بالنسبة للصلاة. ولهذا نقول: فإن نفس المرء مقدمة على غيره، فليهذب نفسه أولاً ثم غيره، أما إذا أهمل نفسه واشتغل بغيره كان ذلك عكس الترتيب الواجب. وقد قيل:

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم

(1) سورة البقرة الآية / 44/ .

بخلاف ما إذا هذّب نفسه، وترك الحسبة وترك تهذيب غيره. فإن ذلك معصية ولكن لا تناقض فيه.

وكذلك الكافر: فليس له ولاية الدعوة إلى الإسلام ما لم يسلم هو بنفسه.

فلو قال: الواجب علي شيئان: ولي أن أترك أحدهما دون الثاني. لم يكن منه.

ويمكن أن نتساءل:

هل حسبة الزاني بالمرأة ومنعها من كشف وجهها حق أو باطل؟

والبرهان القاطع في ذلك: أن قوله لها: لا تكشفي وجهك إنه حرام. ومنعه إياها بالعمل (قول وفعل) إما أن يكون حراماً أو واجباً أو مباحاً.

1 - فإن قلتم: واجب. فهو المقصود.

2 - وإن قلتم: مباح. فله أن يفعل ما هو مباح.

3 - وإن قلتم: حرام. فما هو مستند تحريمه؟ وقد كان واجباً قبل اشتغاله بالزنى. فمن أين يصير الواجب حراماً باقتحامه محرماً؟ وليس في قوله الأخير، صدق عن الشرع بأنه حرام، وليس في نهيه لها عن كشف وجهها إلا المنع من اتّحاد ما هو حرام - الزنى وكشف الوجه؛ لأن كلاهما حرام - والقول بتحريم واحد منهما محال.

وليس هذا كالصلاة والوضوء، فإن الصلاة هي المأمور بها وشرطها الوضوء. فهي بغير وضوء معصية وليست بصلاة، بل تخرج عن كونها صلاة وهذا القول لم يخرج عن كونه حقاً، ولا الفعل خرج عن كونه منعاً من الحرام. والسحور عبارة عن الاستعانة على الصوم بتقديم الطعام ولا تعقل الاستعانة من غير العزم على إيجاد المستعان عليه.

أما القول بأنّ تهذيبَ نفس المحتسب عن المعاصي شرط لحسبته وشرط حتى يكون محتسباً، وحتى يحق له أن يمنع الكافرين الكفر.. وتهذيبه لنفسه عن الصغائر شرط لمنع غيره عن الكبائر.. فهو خرق للإجماع.

- وإن حمل الكافر كافراً آخر بالسيف على الإسلام. فلا يمنعه كفره من أن يحمل هذا الكافر الآخر على اعتناق الإسلام ودعوته إليه. وله أن يقول للكافر الآخر: عليك أن تقول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وله أيضاً أن يأمر غيره من الكفار بالنطق بالشهادتين، وإن لم ينطق هو بهما؛ لأنه لم يثبت أن نطقه بالشهادتين شرط لحسبته.

الباب الثالث
في الإمامة

إن البحث في الإمامة ليس من فن المعقولات، ولا من المهمات، بل إنها مثار للتعصبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض ولو أصاب، فكيف إذا أخطأ؟ ويمكن بحث هذا الموضوع وإيجاز القول فيه من ثلاثة أطراف أو جوانب.

1 ـ الطرف الأول: وجوب نصب الإمام.

2 ـ الطرف الثاني: شروط الإمام والإمامة.

3 ـ الطرف الثالث: عقيدة أهل السنة في الصحابة والخلفاء الراشدين.

الطرف الأول: وجوب نصب الإمام:

إن وجوب نصب الإمام مأخوذ من الشرع لا من العقل أولاً، ومأخوذ من إجماع الأمة ثانياً. ولما فيه من فوائد ودفع للأضرار في الدنيا.

ـ والبرهان القطعي الشرعي على وجوب نصب الإمام يكون على الشكل التالي:

إن نظام أمر الدين مقصود لصاحب الشرع، محمد ﷺ	**م ك**
لا يحصل نظام الدين إلا بإمام مطاع	**م ص**
صاحب الشرع هو الإمام المطاع	**ن**

ـ وللبرهان على أن نظام الدين لا يحصل إلا بإمام مطاع تقول:

نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا	**م ك**
نظام الدنيا لا يحصل إلا بإمام مطاع	**م ص**
نظام الدين لا يحصل إلا بإمام مطاع	**ن**

ـ وإن قيل: نظام الدين لا يحصل إلا بخراب الدنيا؛ لأن الدين والدنيا ضدان والاشتغال بعمارة أحدهما خراب الآخر.

والجواب يكون: إن لفظ الدنيا قد يطلق على جميع ما هو محتاج إليه الإنسان قبل الموت، وهذا لا يخالف الدين.

ونقول:

إن نظام الدين - بالمعرفة والعبادة - لا يتوصل إليه إلا بصحة الأبدان والأمن. م ك

إن صحة الأبدان والأمن - بما فيها المال والحياة - لا تتحقق إلا بسلطان مطاع. م ص

نظام الدين لا يتحقق إلا بسلطان مطاع. نتيجة

إذن: نظام الدنيا شرط لنظام الدين.

والسلطان ضروري في نظام الدنيا. ونظام الدين ضروري في الفوز بسعادة الآخرة، وهو مقصود الأنبياء قطعاً، فكان وجوب نصب الإمام من ضروريات الشرع، الذي لا سبيل إلى تركه.

الطرف الثاني: من يجب تعينه من سائر الخلق لينصب إماما؟ أو بمعنى آخر ما هي شروط الإمام؟

شروط الإمام:

لا يمكن تعيين الإمام بالنص؛ لأنه لابد من تميزه بخصائص تميزه عن سائر الخلق، وهذه الخصائص يمكن تقسيمها إلى نوعين:

1- خصائص في نفسه.

2- خصائص من جهة غيره.

الصفات الخاصة الذاتية النفسية للإمام:

1 - الأهلية: أي أن يكون كفئاً لتدبير الخلق وحملهم على مراشدهم.

2 - العلم والورع:

3 - الخصائص المميزة للقضاة: ومنها:

الذكورة، والبلوغ، والعقل، والحرية، وسلامة النطق، والسمع والبصر، والعدالة، والنزاهة...

4 - النسب من قريش: وعلم هذا الشرط بالسمع، حيث قال النبي ﷺ: (الأئمة من قريش).

5 - التولية أو التفويض من غيره: أي يفوض شخص من قبل الإمام فيصبح مطاعاً.

والتولية لا تكون إلا عن طريق:

أ - التنصيص، من جهة النبي ﷺ.

ب - التنصيص من جهة إمام العصر. بأن يعين لولاية العهد شخصاً من أولاده، أو سائر قريش.

ج - وإما أن يكون بالتفويض. وإن كان لأكثر من رجل فلا بد من اجتماعهم وبيعتهم وإتفاقهم على التفويض حتى تتم الطاعة.

فإذا لم يوجد - بعد وفاة الإمام - إلا رجل قرشي واحد، وفيه كل صفات الإمام. فإمامته صحيحة وتجب طاعته.

- فإن تعين الإمام بسبب قوته وشوكته وكفايته.. وإن نازعوه على الإمامة وأثاروا الفتن فالأفضل مبايعته وتفويضه.

وإذا لم تتوفر الشروط في الإمام وكان قادراً على تأمين المعاش والمعاد، وتحقيق الأمن وعدم القتال والمحاربة ولم يكن عالماً ولكنه يراجع العلماء ويعمل بقولهم ففيه رأيان:

أ - يجب خلعه واستبداله بمن يتوفر فيه جميع الشروط من غير إثارة فتن أو قتال.

ب - يجب طاعته والقبول بإمامته، إذا خشيت الفتن والحروب. وقيل: لو لم تتوفر صفة العدالة وغيرها من الصفات هل تقبل إمامته؟

الجواب: نعم؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات فتقبل إمامته استمراراً لحياة العباد، وعدم تعطيل معاشهم. فإن لم نقبل بإمامته وانعقادها نكون أمام ثلاثة أمور:

1 - أن تعزل القضاة وتبطل الولايات، ولا تنفذ أمور الولاة في الأقطار، ولا تبرم العقود والأنكحة ويمنع الناس من التصرفات المنوطة بالقضاة... وهذا أمر مستحيل؛ لأن فيه تعْطيلاً لسُبُلِ عيش العباد، وهلاك للجماهير.

2 ـ أو أن يقدم الناس على إبرام العقود والأنكحة والمعاملات والتصرفات . . . ولكن يقدمون على ذلك بالحرام .

3 ـ وإما أن نقول بحكم انعقاد الإمامة مع فوات شروط لضرورة الحال ؛ لأنه ـ كما هو معلوم ـ أن البعيد مع الأبعد قريب ، وأهون الشرين خير ، ويجب على العاقل اختياره .

فإن قيل : إن التنصيص بالإمامة من النبي ﷺ ، أو من الخليفة ، واجب لقطع دابر الاختلاف كما ادعت بعض الإمامية .

الجواب: لو كان التنصيص واجباً ، لنصَّ عليه رسول الله ﷺ ؛ لأنه ﷺ لم ينص على ذلك ، ولم ينص عليه عمر رضي الله عنه ، بل ثبتت إمامة أبو بكر وإمامة عثمان وإمامة علي رضي الله عنهم بالتفويض . فإن قيل : إن النبي ﷺ نص بالإمامة لعلي رضي الله عنه ، لقطع النزاع ولكن الصحابة كابروا النص وكتموه .

الجواب: بم تنكرون على أن النبي ﷺ نص بالإمامة لأبي بكر ، فأجمع الصحابة على موافقة النص ومتابعته . وهذا أقرب من تقدير مكابرتهم النص وكتمانه . فإن البيعة تقطع دابر الإختلاف ، والدليل عليه عدم الاختلاف في زمن أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم . وقد توليا البيعة . وعلى العكس كان الخلاف كثيراً في زمان علي رضي الله عنه مع اعتقاد إمامته ، أنه تولَّى الإمامة بالنص .

الطرف الثالث: عقيدة أهل السنة في الصحابة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

إن للناس آراء في الصحابة والخلفاء الراشدين ، لدرجة التطرف والإسراف والمبالغة سلباً وإيجاباً .

1 ـ فمنهم من بالغ بالثناء حتى ادعى العصمة للأئمة .

2 ـ ومنهم من تهجم على الصحابة طعناً وذماً .

3 ـ ومنهم من اعتدل واقتصد .

وعلى المسلم أن يسلك طريق الاقتصاد في الاعتقاد . والقرآن الكريم أثنى على المهاجرين والأنصار ، وتواترت الأخبار بتزكية النبي ﷺ إياهم بألفاظ مختلفة . كقوله : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) . وقوله : (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم) فيجب عدم إساءة الظن بهم . وما ورد عنهم من أحوال تخالف مقتضى حسن الظن فهو من تأويل المتعصبين .

لذلك يجب إنكار كل ما لم يثبت في حقهم جميعاً ، وما ثبت يستنبط له تأويل أو عذر لم نطلع عليه ، ولا بد من حسن الظن بهم . فالخطأ في حسن الظن بالمسلم ، أسلم من الصواب بالطعن فيه . والسكوت أسلم من الطعن والكذب والوقوع بالغيبة والبهتان .

أما الخلفاء الراشدون : فهم أفضل من غيرهم ، وترتيبهم في الفضل عند أهل السنة كترتيبهم في الإمامة .

فإذا قلنا : إن فلاناً أفضل من فلان ، فمعنى ذلك أن مكانته عند الله أرفع في الآخرة .

ولكن هذا القول غيب لا يطلع عليه إلا الله ورسوله ـ إن أطلعه الله عليه ـ ولا توجد نصوص قاطعة شرعية متواترة تقتضي هذا الترتيب في الفضل بل الذي نقل متواتراً هو الثناء عليهم جميعاً .

والفضل عند الله يعرف بالأعمال . وهذا مشكل أيضاً فكم من شخص مزين بالعبادات الظاهرة ، وهو في سخط الله ، لخبث باطنه . وكم من شخص يحكَم بسوء مظهره وهو عند الله ذو مكانة ، لما في قلبه من خلق وحسن نية .

ولكن إذا ثبت أنه لا يعرف الفضل إلا بالوحي ولا يعرف الفضل من النبي ـ ﷺ ـ إلا بالسماع ، وأولى الناس بالسماع ـ الصحابة ـ ما يدل على تفاوت الفضائل ، الصحابة الملازمون لأحوال النبي ﷺ ، وقد أجمعوا على تقديم أبي بكر (ر) . ثم نص أبو بكر على عمر . ثم أجمعوا بعده على عثمان . ثم على علي رضي الله عنهم

جميعاً. وليس يظن منهم الخيانة في دين الله لغرض من الأغراض وكان إجماعهم على ذلك من أحسن ما يستدل به على مراتبهم في الفضل. ومن هذا اعتقد أهل السنة هذا الترتيب في الفضل، ثم بحثوا عن الأخبار فوجدوا فيها ما عرف به مستند الصحابة وأهل الإجماع في هذا الترتيب.

الباب الرابع
بيان من يجب تكفيره من الفرق

وللفرق في هذا مبالغات وتعصبات، فكل طائفة تنتهي - أحياناً - إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي تنتسب إليها. وإذا أردنا الوصول إلى الحقيقة فعلينا أن نعلم أولاً:

المسألة الفقهية:

والأصل المقطوع بها: أن كل من كذب محمداً ﷺ فهو كافر، أي مخلد في النار بعد الموت ومستباح الدم والمال في الدنيا.

حيث أنه تقرر في أصول الفقه وفروعه أن كل حكم شرعي يدعيه مدعٍ فإما أن يعرفه بأصل من أصول الشرع من إجماع أو نقل أو بقياس على أصل. وكذلك كون الشخص كافراً إما أن يعرف بأصل أو بقياس على ذلك الأصل. والتكذيب الموجب للتكفير مراتب شتى أهمها:

1ً - الرتبة الأولى:

تكذيب اليهود والنصارى وأهل الملل كلهم من المجوس وعبدة الأوثان وغيرهم فتكفيرهم منصوص عليه في الكتاب ومجمع عليه بين الأمة وهو الأصل وما عداه كالملحق به.

2ً - الرتبة الثانية:

تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات، والدهرية المنكرين لصانع العالم، فهؤلاء كذبوا النبي وغيره من الأنبياء. فهم - أي البراهمة - بالتكفير أولى من النصارى واليهود. والدهرية أولى بالتكفير من البراهمة لأنهم أضافوا إلى تكذيب الأنبياء إنكار الله - الذي أرسل الأنبياء - ومن ضرورته إنكار النبوة.

3ً ـ المرتبة الثالثة :

الذين يصدقون بالصانع والنبوة والنبي . ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع . وهؤلاء هم الفلاسفة ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاثة مسائل :

1 ـ إنكارهم لحشر الأجساد والتعذيب بالنار والتنعُّم في الجنة بالحور العين والمأكول والمشروب والملبوس .

2 ـ قولهم : إن الله لا يعلم الجزئيات وتفصيل الحوادث وإنما يعلم الكليات ، وإنما الجزئيات تعلمها الملائكة السماوية .

3 ـ قولهم : إن العالم قديم ، وإن الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة مثل تقدم العلة على المعلول ، وإلا فلم تر في الوجود إلا متساويين . وهؤلاء إذا أوردوا عليهم آيات القرآن ؛ زعموا أن اللذات العقلية تقصر الأفهام عن دركها ، فَمَثُلَ لهم ذلك باللذات الحسية وهذا كفر صريح . والقول به إبطال لفائدة الشرائع وسد لباب الاهتداء بنور القرآن واستبعاد للرشد من قول الرسل فإنه إذا جاز عليهم الكذب لأجل المصالح بطلت الثقة بأقوالهم ، فما من قول يصدر عنهم إلا ويتصور أن يكون كذباً وإنما قالوا ذلك لمصلحته .

فإن قيل : فلم قلتم مع ذلك بأنهم كفرة؟

الجواب : لأنه عرف قطعاً من الشرع أن من كذب رسول الله ﷺ فهو كافر وهؤلاء مكذبون ثم معللون للكذب بمعاذير فاسدة وهذا لا يخرج الكلام عن كونه كذباً .

4ً ـ الرتبة الرابعة :

المعتزلة والمشبهة والفرق كلها سوى الفلاسفة ، وهم الذين يصدقون ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ، ولا يشتغلون بالتعليل لمصلحة الكذب بل بالتأويل ، ولكنهم مخطئون في التأويل . فهؤلاء يجب الاحتراز من تكفيرهم ؛ لأن الخطأ من ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دم مسلم . قال النبي ﷺ :

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمداً رسول الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها) .

وهؤلاء انقسموا إلى فئتين :

1 ـ مسرفين وغلاة .

2 ـ مقتصدين .

5ً ـ الرتبة الخامسة :

من ترك التكذيب الصريح ، ولكن ينكر أصلاً من أصول الشرعيات المعلومة بالتواتر من رسول الله ﷺ . كقول القائل : أنا معترف بوجوب الحج ولكن لا أدري أين مكة وأين الكعبة ، ولا أدري أن البلد الذي تستقبله الناس ويحجونه ، هل هي البلد التي حجها النبي ﷺ ووصفها القرآن؟ فهذا ينبغي أن يحكم بكفره ؛ لأنه مكذب ولكنه محترز عن التصريح ، وإلا فالمتواترات تشترك في دركها العوام والخواص ، وليس بطلان ما يقوله كبطلان مذهب المعتزلة ، فإن ذلك يختص لدركه أولوا البصائر إلا أن يكون هذا الشخص قريب العهد بالإسلام ولم يتواتر عنده بعد هذه الأمور فيمهله إلى أن يتواتر عنده . ولا نكفره لأنه أنكر أمراً معلوماً بالتواتر . كأن ينكر غزوة من الغزوات مثلاً فلا يلزم تكفيره لأنه ليس تكذيباً في أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به كالحج والصلاة وأركان الإسلام .

6ً ـ الرتبة السادسة :

وتشمل كل من ينكر ما علم صحته بالإجماع مثل (النظام) الذين أنكروا كون الإجماع حجة قاطعة في أصله . وقالوا : ليس يدل على استحالة الخطأ على أهل الإجماع دليل عقلي قطعي ولا شرعي متواتر لا يحتمل التأويل .

فكل ما يستشهد به ـ من الأخبار والآيات ـ له تأويل بزعمهم ، وهو في قولهم خارق لإجماع التابعين . ويعتبر هذا في محل الاجتهاد منهم ، وفيه فتح لبابه ، وهذا يمكن أن يؤدي إلى أمور شنيعة . فمثلاً لو قال قائل : يجوز أن يبعث رسول بعد نبينا

محمد ﷺ. فبهذا يكون قد أبعد تفكيره عن التوقف - في إرسال الأنبياء بعده ﷺ - وهذا مستحيل. ودليل استحالة ذلك - عند البحث - مستمدة من الإجماع لا محالة. فإن العقل لا يحيله، أما ما ورد حول هذا من أقوال نحو قوله ﷺ: (لا نبي بعدي)، وقوله تعالى عنه ﷺ أنه: (خاتم النبيين)، فيمكن أن يؤله على النحو التالي:

لقد أراد الله سبحانه وتعالى بخاتم النبيين بأنه لا يكون بعده ﷺ نبي من أولي العزم من الرسل.

فإن قالوا: (النبيين) كلمة عامة، فإنه لا يبعد تخصيص العام.

أما قوله ﷺ (لا نبي بعدي) لم يرد به الرسول، وفرّق بين النبي والرسول، وقال أن النبي أعلى رتبة من الرسول إلى غير ذلك من أنواع الهذيان.

والرد على هذا القائل: أن الأمة فهمت بالإجماع - من هذا اللفظ ومن قرائن أخرى - أنه أفهم عدم نبي بعده أبداً وعدم رسول أبداً، وأنه ليس فيه تأويل ولا تخصيص ومنكر هذا لا يكون إلا منكراً للإجماع. والمجتهد في ذلك يحكم بموجب ظنه يقيناً وإثباتاً.

والمفروض أن يكون هناك أصولٌ يأتي عليها التكفير، وبناء عليها يكون الحكم، لا أن يكون بموجب الظن. كما أن المقصود هو التأصيل دون التفصيل.

فإن قيل: السجود بين يدي الصنم كفر. فهل هو أصل آخر؟

الجواب: لا. فإن الكفر يكمن في اعتقاده تعظيم الصنم وفي ذلك تكذيب لرسول الله ﷺ والقرآن الكريم، ويعرف اعتقاده (تعظيم الصنم) تارة بتصريح اللفظ، ويعرف تارة أخرى بالإشارة إن كان أخرس، ويعرف أيضاً بفعل يدل عليه دلالة قاطعة كالسجود، حيث لا يحتمل أن يكون السجود لله قبالة الصنم غير آبه به وغافل عنه، أو غير معتقد لتعظيمه.. إن ذلك يعرف بالقرائن.

إن الفقهاء لم يتعرضوا لمثل هذه الأبحاث، والمتكلمون لم ينظروا فيه نظراً فقهياً؛ لأن النظر في الأسباب الموجبة للتكفير من حيث إنّها أكاذيب وجهالات ما هو

إلا نظر عقلي. ولكن النظر من حيث تلك الجهالات مقتضية بطلان العصمة، وإنما الخلود في النار نظر فقهي وهو المطلوب.

وأخيراً إن كتاب الاقتصاد في الاعتقاد - الذي كتبه الإمام الغزالي - مبني على حذف الحشو والفصول المستغنى عنها، والتي تخرج عن أمهات العقائد وقواعدها، واقتصر على الأدلة الواضحة الجلية التي تدركها أكثر الأفهام، ليكون اسم الكتاب هو الغاية والقصد الذي سعى إليه.

والحمد لله رب العالمين

المراجع المعتمدة

1 ـ القرآن الكريم

2 ـ صحيح البخاري

3 ـ صحيح مسلم .

4 ـ الموطّأ .

5 ـ رياض الصالحين الإمام النووي الدمشقي .

6 ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول . محمد الحكيم الترمذي .

7 ـ إحياء علوم الدين . (حجة الإسلام) الغزالي .

8 ـ العقيدة الإسلامية . د. مصطفى الخن . محي الدين مستو . دار ابن كثير ، دمشق بيروت 1990 .

9 ـ حياة وأخلاق الأنبياء . أحمد الصباحي عوض الله دار اقرأ / 1985/ .

10 ـ نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم . د. حسن ضياء الدين عتر ، دار الشائر الإسلامية .

11 ـ العقيدة للإمام أحمد بن حنبل ، برواية أبي بكر الخلال ، دار قتيبة 1988 .

12 ـ ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة . د. عبد الرحمن حسن حبنكة ، دار القلم .

13 ـ القضاء والقدر في الإسلام . د. محمد فاروق الدسوقي ، دار الدعوة ، الإسكندرية .

14 ـ سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين منه ، عبد الكريم عثمان ، دار الفكر ، دمشق .

15 ـ العقيدة الإسلامية . د. عبد الرحمن حسن حنبكة . دار القلم ، دمشق .

16 ـ ضوابط المعرفة . د. عبد الرحمن حسن حنبكة ، دار القلم ، دمشق .

17 ـ كبرى اليقينيات الكونية . د. محمد سعيد رمضان السيوطي .

18 ـ تاريخ الفكر العربي . د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين .

19 ـ التفكير الفلسفي في الإسلام . د. عبد الحليم محمود 1968 ، جار النصر للطباعة ، القاهرة .

20 ـ تاريخ الفلسفة العربية . د . حنا الفاخوري .
21 ـ الاستعداد للموت وسؤال القبر . زين الدين بن علي الميباري ، دار الترمذي ، سورية ، حمص .
22 ـ محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن / إبراهيم خليل أحمد ، دار المنار ، القاهرة 1989 .
23 ـ الروح / ابن القيِّم الجوزية . دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1986م .
24 ـ الله عباس محمود العقاد .
25 ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه . عباس محمود العقاد .
26 ـ ضحى الإسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي .
27 ـ أصل الإنسان وأسرار وجوده ، باسمة كيال ، دار مكتبة الهلال . 1990 .
28 ـ كتاب التوحيد . د . عبد المجيد الذنداني ، دار الخير / بيروت ـ دمشق / .
29 ـ شرح جوهرة التوحيد ، الشيخ بكري رجب 1997م .
30 ـ شرح الخريدة البهية ، الشيخ أحمد بن محمد الدردير العدوي 1994م .
31 ـ حاشية اللقاني على الجوهرة
32 ـ الملل والنحل ، للشهرستاني .
33 ـ الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها . عبد الله سراج الدين ، مكتبة التراث الإسلامي ، حلب ، 1984 .
34 ـ قاموس المحيط / الفيروز أبادي .
35 ـ العقيدة والمعرفة . زيغريد هونكة ، ترجمة : عمر لطفي العالم ، 1987 دار قتيبة .

الفهرس

جدول بالخطأ والصواب

الصفحة	الخطأ	الصواب
25	لا سمكن	لا يمكن
25	كل مت	كلُ مَنْ
39	الأدلة العقلية	الأدلة النقلية .
39	يوجد هو نفسه	يوجد بغير خالق وهذا محال غير معقول
48	تعجيزية	تنجيزية
55	متميز	متحيّز
65	واجب	فواجب
65	ورؤيته	رؤيته
68	لرؤية	كرؤية
72	تعجيزياً	تنجيزياً
72	التعجيزي	التنجيزي
89	لذاته لذاته	لذاته
103	المقدرة	القدرة
112	حواز	جواز
155	والتصديق	هو التصديق
161	لم يلزم عدم موت زيد؟	لم يلزم عدم موت زيد .
178	أن يؤله	تأويله

يعالج هذا الكتاب جميع مسائل ما وراء الطبيعة معالجة فلسفية مستندة إلى القواعد الإسلامية و لا تشذ عنها ويثبت حقائقها إثباتاً عقلياً .

و يمثل هذا الكتاب عمل الغزالي البنائي في حقل ما وراء الطبيعة و يعتبر أوسع مؤلف له من حيث موضوعه.

و قد خصص الغزالي هذا الكتاب للبحث العقلي عن قواعد العقائد و إجلاء للحقيقة و إيضاحاً للعقيدة الصحيحة مع بيان العلاقة بين أحكام الشرع و العقل و التأكيد على أنه لا معاندة بين الشرع المنقول و الحق المقول فالعقل مع الشرع نور على نور فلا إفراط و لا تفريط بل الواجب المحتوم في الاعتقاد ملازمة الاقتصاد و الاعتماد على الصراط المستقيم

بسم ا   الر   ن الرحيم وبه نستع

ا   مد   رب العا   والصلاة والسلام على أشرف ا رسل   سيدنا   مد صلى ا   عليه وسلم وعلى آله الطي   الطاهرين وأصحابه الغر ا ياm   الذين لو هذا الدين ووصلوه لنا كما   عوه وعقلوه وعلى سادتنا ا لفاء الراشدين أ   بكر الصديق وعمر الفاروق أم   ا ؤمن   وعثمان بن عفان ذي النورين وعلي بن أ   طالب أبو ا سن وا   س   سيد شباب أهل ا نة وزوج بنت رسول ا   صلى ا   عليه وسلم فاطمة الزهراء رضي ا   عنهم ا   ع ورضوا عنه.

اما بعد فاعلم ر   ك ا   وهداك ا   الرشد ان هذا الدين قد خدمه العلماء الذين هم ورثة الانبياء كما قال عنهم ا صطفى صلى ا   عليه وسلم من حديث أ   الدرداء رضي ا   عنه فقد سودة الصحف وعُبدة الطرق من كثرة ترحا م   طلب العلم وسهرهم الليا   تدوينه وترتيبه وتأليفه فجزاهم ا   خ   ا   زاء وهاهي ا كتبات   العا   الإسلامي وسائر اطراف ا عمورة تشهد   م   ا سطروه.

ومن   فأ   موقع الامام ا مام حجة الإسلام أ   حامد   مد ابن   مد ابن   مد ابن ا   د الغزا   الطوسي (ا تو   عام   س و   س مائة من هجرة ا صطفى صلى ا   عليه وسلم)   ر   ه ا   قد وضعت خطة للس   عليها وهي   دم كل من الباحث   ودراسي فكره بتقد   مؤلفته ودراسات كتبت عنه وليس الغرض من ا وقع إلا مساعدة هذه الطائفة من غ   كسب مادي لوجه ا   تعا   راجياً ر   ةً ومغفرةً وعفوهُ يوم لا ينفعُ مالاً ولا بن   إلا من أتى ا   بقلب سليم. وليس الغرض من نشر هذه ا ؤلفات سرقة حق أحد أو حجب رزق عن أحد أو قرصنة حق أو تفريط   كل من هذا بل العكس كل العكس فأن معظم ا واد   هذا ا وقع نادر الوجود وقد قاسيت اشد ا تاعب وخاطرت بنفسي   سبيل اقتناء مؤلف نادر وماقالة كتبت   دورية ليس توجد الإ   دهاليز ا كتابات ا امعية هنا وهناك. كل هذه ا   هود ا بذولة والكلفة ا مولة حالت وجرت   نفسي فتأملت حال الطالب ذو ا وارد القليلة   الأماكن البعيدة وا   له من أن   مع هذه ا وارد فجمعتها   أولاً   صورتا ووضعتها صدقة   ن أراد أن يستفيد ليكون على بينة. فأذا كنت صاحب هذه ا ادة ولا تريد نشرها   ا وقع فعليك بأبلاغي وسوف أزيلها من ا وقع مع فجوة   القلب وكسر   ا اطر فيعلم ا   أن   لا أريد ان اظلم حق احد وغاي   هي مرضاة ا   وا   عون العبد ما دام العبد   عون أخيه.

والسلام

  مد ابن ا   اعيل حزين

مشرف ا وقع والقائم عليه

عنوان ا وقع: (http://www.ghazali.org) بريد ا شرف: (mh@ghazali.org)

كتاب

الأربعين في أصول الدين

في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق

تأليف

الإمام حجة الإسلام أبي حامد الغزالي

طبعة جديدة مصححة مخرجة الآيات والأحاديث

عُني به وصححه وخرج أحاديثه

عبد الله عبد الحميد عرواني

مراجعة الشيخ الدكتور

محمد بشير الشقفة

دار القلم

دمشق

طبعة دار القلم الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

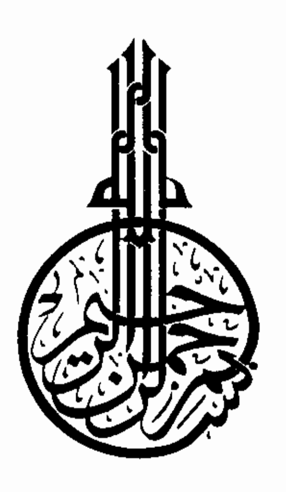
الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



تقديم الكتاب

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، الذي بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وشرع سبيل العلم سبيلاً يوصل إلى الجنات، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد: فإن الإسلام الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ديناً قائمٌ على أركان ثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان، كما في حديث جبريل عليه السلام الذي رواه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولقد كان الدين كاملاً في حياة الصحابة رضي الله عنهم، مع تفاوتهم في درجات العلم الذي حملوه عن رسول الله ﷺ، وكذلك كان الأمر في قرون الخيرية الثلاثة، وقد بدأ نوع من الاختصاص منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم، فقد روى أبو يعلى في (مسنده) عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ: «أقضاهم علي، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»، وأخذ هذا الاختصاص، يزداد وضوحاً، فأصبحت تجد عالماً يهتم بالفقه من حيث أصوله وفروعه، وآخر يهتم بتفسير القرآن الكريم، وآخر يهتمُّ بأمور العقائد والوقوف في وجه المبتدعة وأهل الضلال، بينما آخر يهتمُّ بتحقيق مقام الإحسان، وتنوير القلوب وتهذيب الأخلاق.

ومن هنا بدأت تظهر مؤلفات في أصول الفقه وفروعه، والتفسير، والحديث، والعقائد، ومؤلفات تتحدث عن تزكية النفس وتطهير القلوب من الأخلاق الرديئة وباطن الإثم، وتحليتها بأنواع الفضائل الموصلة إلى رضوان الله تعالى. ومن أعظم هذه المؤلفات كان في نهايات القرن الخامس كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي رحمه الله تعالى، والكتاب لكبر

حجمه قد يعسر تناوله على عامة طلاب العلم، ولذلك ألف الإمام الكتاب الذي بين أيدينا كتاب (الأربعين في أصول الدين) وجعله خلاصة كتاب (الإحياء) وزبدته، وهو على صغر حجمه ضم بين دفتيه الأصول الأربعين: في العقائد، وأسرار العبادات، والأخلاق المذمومة التي يجب التخلص منها، والأخلاق المحمودة التي يجب التخلق بها للوصول إلى النجاة في الآخرة، ورضوان الله تعالى. ونحن نقدمه اليوم لعله يروي قلوباً ظمأى للطمأنينة في هذا العصر الذي طغت فيه المادية والشهوات حتى أماتت القلوب، ويمد أرواحاً متشوقة إلى مقامات المعرفة واليقين والسير في دروب التزكية التي سار عليها أول الأمة فصلحوا وأصلحوا.

عملي في هذا الكتاب:

١ ـ تصحيح نص الكتاب، وقد اعتمدت في ذلك على النسخة التي حققها السيد محيي الدين صبري الكردي الكانيمشكاني السنندجي رحمه الله تعالى، استناداً إلى أربع نسخ خطية في الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ، ثم عثر على نسختين مخطوطتين في الخزانة النورية لصاحبها العالم المحقق نور الدين بك مصطفى رحمه الله تعالى، وظهرت الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ، وطبعتها مطبعة الاستقامة ونشرتها المكتبة التجارية الكبرى بمصر، وقابلت هذه النسخة على نسخة دار الآفاق الجديدة المطبوعة في بيروت ـ لبنان ١٩٨٠م، كما تمت قراءة الكتاب كاملاً على شيخنا الدكتور محمد بشير الشقفة ـ حفظه الله تعالى ـ مما زاد في ضبطه وتصحيحه.

٢ ـ بعد الانتهاء من تجهيز الكتاب للطبع استطعنا بتوفيق الله سبحانه الحصول على صورة مخطوطة للكتاب في مركز جمعة الماجد للتراث ـ في دبي ـ وتم تدقيق الكتاب عليها مرة أخرى. والمخطوطة الأصل موجودة في مكتبة جامع الزيتونة ـ في تونس.

٣ ـ ترقيم الآيات القرآنية وعزوها إلى السور الكريمة.

٤ ـ تخريج أحاديث الكتاب استناداً إلى (تخريج الإمام العراقي

لأحاديث الإحياء) طبعة دار قتيبة الأولى ـ دمشق ـ ١٩٩٢م، وكذلك تخريج الإمام الزبيدي في كتابه (إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين) طبعة دار الكتب العلمية الأولى بيروت ـ لبنان ١٩٨٩م. وبعض المراجع الحديثية الأخرى.

٥ ـ تفسير بعض المصطلحات أو الكلمات اعتماداً على كتاب (التعريفات) للإمام الجُرجاني تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري ـ طبعة دار الكتاب العربي، الأولى بيروت ١٩٨٥م، وكتاب (الكليات) لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري ـ طبعة مؤسسة الرسالة الثانية ـ بيروت ١٩٩٣م، وبعض الكتب الأخرى.

٦ ـ توضيح بعض الكلمات التي اعتقدنا أنها بحاجة إلى توضيح.

٧ ـ في النسخ المطبوعة جميعها وردت كلمة (فصل) في وسط الصفحة فَصَلَ بها الإمام بين مقاطع حملت معاني مختلفة وقد استبدلتها بعناوين صغيرة تُفْصِحُ عن مقصود كل مقطعٍ (وفصلٍ من هذه الفصول).

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب قارئه، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل. وصلى الله وسلم وبارك على خير خلق الله تعالى سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه الكرام البررة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ
١٥ يوليو (تموز) ١٩٩٩م

عبد الله عبد الحميد عرواني

الإمام الغزالي

موجز سيرته رحمه الله تعالى

الإمام الغزالي أشهر من أن يعرَّف، بيد أن هذا لا يمنعنا من أن نقدم بين يدي الكتاب موجزاً عن حياة الإمام رحمه الله تعالى.

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الطوسي، الملقب بزين الدين، ولد بطوس[1] من إقليم خراسان عام ٤٥٠هـ.

كان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، فلمّا حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له من أهل الصلاح، فلما مات أقبل صديقه على تعليمهما إلى أن فني النزر اليسير الذي خلّفه أبوهما، قال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأا إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما.

ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما.

قرأ الغزالي في صباه طرفاً من الفقه ببلدة (طوس) على الإمام أحمد الراذكاني، ثم سافر إلى (جرجان) ليأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، فسمع منه وكتب عنه، وعلّق عنه (التعليقة) ثم رجع إلى طوس.

(١) طوس: تقع الآن إلى الشمال من مدينة مشهد الإيرانية، خط عرض ٣٦،٣٠ شمالاً، وخط طول ٥٩،٣١ شرقاً، وبها أطلال تاريخية. فيها قبر الخليفة العادل المجاهد هارون الرشيد، بالإضافة إلى قبر الإمام الغزالي رحمهما الله تعالى.

قال الإمام أسعد الميهني: سمعت الغزالي يقول: قُطِعَت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إلي مُقَدَّمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها، وعرفت علمها، فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلي المخلاة. قلتُ: هذا مستنطق أنطقه الله تعالى ليرشدني به في أمري، فلما وافيت (طوس) أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت[1] جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قُطع الطريق علي لم أتجرد من علمي.

ثم إن الغزالي قدم (نيسابور)[2] ولازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) وجدَّ واجتهد، حتى برع في المذهب الشافعي والخلاف، والأصول (أصول الدين ـ وأصول الفقه)، والمنطق، وقرأ الفلسفة وأحكم كل ذلك وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم.

وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً، أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

(١) يحاول التربويون الآن في عصرنا التقليل من شأن الحفظ، ويقولون إنه من المهارات العقلية الدنيا تقليداً للغربيين، ناسين أن علماءنا الذين كانوا أساتذة وعباقرة العالم، بدؤوا أول أمرهم بحفظ القرآن الكريم وسائر العلوم ثم تفتقت أذهانهم بعد ذلك بعجائب الفهوم والاستنباطات وأنواع العلوم، وإني لأتساءل كيف يتفتق ذهن الإنسان بالفهم والاستنباط (والعمليات العقلية العليا) إذا كان ذهنه خالياً وعقله فارغاً، ولذلك لم تعد تجد في الساحة الفكرية أديباً كالرافعي مثلاً ولا شاعراً كشوقي وحافظ وأبو ريشة وأمثالهم.

(٢) تسمى الآن في إيران بـ (نيشابور) وتقع إلى الجنوب الغربي من مدينة مشهد الإيرانية عاصمة إقليم خراسان خط عرض (٣٦,٠٣) شمالاً، وخط طول (٥٩,٠٦) شرقاً.

وكان شديد الذكاء، سديد النظر، مفرط الإدراك، قويَّ الحافظة، بعيد الغور، غوَّاصاً على المعاني الدقيقة، حتى وصفه أستاذه الجويني بقوله: الغزالي بحر مغدق.

بقي الغزالي في نيسابور حتى توفي إمام الحرمين عام٤٧٨ هـ فخرج إلى المخيم السلطاني، قاصداً الوزير نظام الملك[١]، الذي كان مجلسه محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء. وظل الإمام الغزالي في المخيم السلطاني حتى عام ٤٨٤ هـ حيث ولِّي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، فسار إلى العراق ليقوم بهذه المهمة.

قَدِمَ الإمام بغداد وقد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فاستقبل استقبالاً حافلاً، ودرَّس بالنظامية، وبلغ أوج مجده العلمي فيها، وصار إمام العراق بعد إمامة خراسان كما يقول معاصره عبد الغافر الفارسي[٢].

بعد مرور أربع سنوات والإمام في بغداد في قمة مجده العلمي وقع التحول الكبير في حياته، يقول متحدثاً عن نفسه: «... ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأنَّ رأس ذلك كله: قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق» انظر تمام رحلته في كتابه (المنقذ من الضلال).

---

(١) نظام الملك: هو الحسن بن علي الطوسي (٤٠٨ ـ ٤٨٥ هـ)، وزير عالم، عالي الهمة، اتصل بـ (ألب أرسلان) فاستوزره، فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، ولمّا مات خلفه ابنه (ملك شاه) فاستوزر نظام الملك، فأحسن في وزارته تدبير الملك رحمه الله تعالى، ولما توفي رثاه أحد الشعراء فقال:

كانَ الوزيرُ نظامُ المُلْكِ لؤلؤةً ... يتيمةً صاغَها الرَّحمنُ مِنْ شَرَفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تُدْرِكِ الأيَّامُ قيمتَها ... فردَّها غَيرةً منهُ إلى الصَّدَفِ

(٢) عبد الغافر بن إسماعيل خطيب نيسابور وإمامها، كان إماماً حافظاً محدثاً ثقةً (٤٥١ ـ ٥٢٩هـ) كان معاصراً للإمام الغزالي وترجم له ترجمة وافية.

وهكذا غادر الإمام بغداد في شهر ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمئة، فحج وتوجه إلى الشام، فأقام عشر سنين قضى بعضها في بيت المقدس، وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة، ورياضة ومجاهدة للنفس، واشتغالاً بتزكيتها، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، وفي دمشق كان يعتكف في المنارة الغربية طول النهار، كما كان يكثر الجلوس في زاوية الشيخ نصر المقدسي بالجامع الأموي والتي أصبحت تسمى بالغزالية.

ثم عاد الإمام بعد تلك العزلة التي استمرت عشر سنين إلى بلدة طوس، ليتابع العزلة سنة أخرى. وتحت إلحاح الولاة وتكرار طلبهم بالخروج إلى الناس، خرج إلى نيسابور ليدِّرس في المدرسة النظامية فيها وكان ذلك في شهر ذي القعدة ٤٩٩ هـ.

لم تطل إقامته في نيسابور، وكانت المدة التي درّسها في النظامية يسيرة، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في طوس، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم، وخانقاه للصوفية[١]، ووزع وقته على وظائف: من ختم القرآن، ومجالسة لأهل القلوب، وتدريس لطلبة العلم، وإدامة صلاة وصيام، بحيث لا تخلو لحظاته ولحظات مَنْ معه عن فائدة.

وكانت خاتمةُ أمرِه إقبالُه على حديث المصطفى ﷺ ومجالسةُ أهله، ومطالعة الصحيحين: البخاري ومسلم، اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق في ذلك الفن بيسير من الأيام كما قال عبد الغافر.

توفي بـ(طوس) يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة، سنة خمس وخمسمئة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

مصنفاته:

عدَّ الإمام الزبيدي من مؤلفات الإمام أكثر من سبعين كتاباً، منها (٢٣) كتاباً مطبوعاً.

---

(١) خانقاه الصوفية: المبنى الذي يسكن فيه المنقطعون للذكر والعلم والعبادة.

مجدد القرن الخامس الهجري :

عد كثير من العلماء الإمام الغزالي رحمه الله تعالى مجدد القرن الخامس الهجري، ذكر ذلك الإمام مرتضى الزبيدي في كتابه (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين) الجزء الأول، ص٣٥[١].

ويقول السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ : (لا شك أن الإمام الغزالي من نوابغ الإسلام وعقوله الكبيرة، ومن كبار قادة الفكر ورجال الإصلاح والتجديد الذين لهم فضل كبير في بعث الروح الدينية، وإيقاظ الفكر الإسلامي، والدعوة إلى حقائق الإسلام وأخلاقه، وفي مقاومة الغزوات الفكرية . .)[٢].

* * *

(١) انظر الدراسة الوافية عن الإمام الغزالي للأستاذ صالح أحمد الشامي ـ من سلسلة أعلام المسلمين ـ إصدار دار القلم بدمشق.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ الجزء الأول، ص٢٤٧ ـ الطبعة السادسة ١٩٨٢م ـ دار القلم ـ الكويت.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف رحمه الله تعالى

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله أجمعين.

أما بعد : ولعلك تقول هذه الآيات التي أوردتها في القسم الثاني تشتمل على أصنافٍ مختلفةٍ من العلوم والأعمال، **فهل** يمكن تمييزُ مقاصدِها وشرحِ جُمَلها على وجه من التفصيل والتحصيل، يمكن التفكّر في كل واحدة منها على حيالها ليعلم الإنسان تفصيل أبواب السعادة في العلم والعمل، ويتيسر عليه تحصيل مفاتيحها بالمجاهدة والتفكر (**فأقول**) نعم ذلك يمكن، فإنه ينقسم جملُ مقاصدِها إلى علوم وأعمال، والأعمال تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والباطنة تنقسم إلى تزكية وتحلية. **فهي** أربعة أقسام : علوم وأعمال ظاهرة وأخلاق مذمومة تجب التزكية عنها. وأخلاق محمودة تجب التحلية بها. وكل قسم يرجع إلى عشرة أصول واسم هذا القسم : (كتاب الأربعين في أصول الدين) فمن شاء أن يكتبه مفرداً فليكتب فإنه يشتمل على زبدة علوم القرآن.

* * *

القِسْمُ الأَوّلُ

في جمل العلوم وأصولها

العقائد

- الأصل الأول : في الذات (ذات الله سبحانه وتعالى).
- الأصل الثاني : في التقديس.
- الأصل الثالث : في القدرة.
- الأصل الرابع : في العلم.
- الأصل الخامس : في الإرادة.
- الأصل السادس : في السمع والبصر.
- الأصل السابع : في الكلام.
- الأصل الثامن : في الأفعال.
- الأصل التاسع: في اليوم الآخر.
- الأصل العاشر : في النبوّة.

القِسْمُ الأوّلُ

في جمل العلوم وأصولها

العقائد

الأصل الأوّل: في الذات

فنقول: الحمد لله الذي تعرَّفَ إلى عباده بكتابه المنُزل، على لسان نبيه المرسل، بأنه في ذاته واحدٌ لا شريك له. فردٌ لا مِثْل له. صمدٌ لا ضِدَّ له. متوحِّدٌ لا نِدَّ له. وأنه قديمٌ لا أول له. أزلي لا بداية له. مُسْتَمِرُّ الوجود لا آخر له. أبدي لا نهاية له. قيوم لا انقطاع له. دائم لا انصرام له. لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال. لا يُقضى عليه بالانقضاء والانفصال، بتصرم الآماد. وانقضاء الآجال. بل هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

* * *

الأصل الثاني: في التقديس[١]

وأنه ليس بجسم مصوَّر. ولا جوهر[٢] محدود مقدَّر. وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام. وأنه ليس بجوهر ولا تحُلُّه الجواهر، ولا بِعَرَض[٣] ولا تحلُّه الأعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود. وليس كمثله شيء ولا هو مثلُ شيء. وأنه لا يحدُّه المقدار، ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه السموات، وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله[٤]، وبالمعنى الذي أراده، استواءً منزّهاً عن المماسّة والاستقرار، والتمكن والحلول[٥] والانتقال.

لا يحملـه العرش، بل العرش وحَمَلتُـه محمولون بلُطفْ قدرتـه، ومَقْهورون في قَبْضته، وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية[٦] لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، بل هو رفيع الدرجات على العرش، كما أنه رفيع الدرجات على الثرى.

---

(١) التقديس: التنزيه.

(٢) الجوهر: ما قام بنفسه وكان له حدٌّ ومقدار.

(٣) العَرَض: ما يقوم بغيره، كصفات الأشياء، كالألوان وغيرها.

(٤) قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]، والتعبير القرآني بـ(ثم) يشعر أن الاستواء حدث بعد إذ لم يكن فهو من صفات الأفعال كالخلق والرزق، وليس من صفات الذات القديمة، فلا مجال لما يتوهمه المشبِّهة والمجسمة من استواءٍ على العرش الحادث، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٥) في المطبوعة: التحول.

(٦) هذه الفوقية ليست كما يتوهم بعضهم فوقية حسيّة مكانية، فالله سبحانه منزه عن المكان والزمان، فكما أنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فكذلك كل صفة من صفاته لا تشبه صفات الخلق.

وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبيد من حَبْل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، إذ لا يماثل قربُه قربَ الأجسام، كما لا يماثل ذاتُه ذاتَ الأجسام.

وأنه لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء. تعالى عن أن يَحْوِيَهُ مكان، كما تقدَّس عن أن يحدَّه زمان، بل كان قبل أن خَلَقَ الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان.

وأنه باينٌ بصفاته من خلقه، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، وأنه مقدس عن التَغَيُّرِ[١] والانتقال، لا تحله الحوادث، ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نُعوت جلاله منزَّهاً عن الزوال، وفي صفاتِ كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال.

وأنه في ذاته معلومُ الوجود بالعقول، مرئيُّ الذات بالأبصار، نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار، وإتماماً للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

* * *

---

(١) في المطبوعة: التغيير، وأثبتنا ما في المخطوطة وهو الصحيح.

الأصل الثالث: في القدرة

وأنه حيّ قادر جبّار قاهر. لا يعتريه قُصور ولا عَجْز، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت. وأنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له القدرة والسلطان والقهر، والخلق والأمر، والسموات مطوياتٌ بيمينه، والخلائق مقهورون في قبضته.

وأنه المتفرِّد بالخلق والاختراع. المتوحد بالإيجاد والإبداع، خَلَقَ الخلقَ وأعمالَهم، وقدّر أرزاقهم وآجالهم، لا يشُذ عن قبضته مقدور، ولا يعزُبُ عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.

* * *

الأصل الرابع: في العلم

وأنه عالمٌ بجميع المعلومات، محيطٌ بما يجري من تخوم[١] الأرضين إلى أعلى السموات، لا يَعْزُب[٢] عن علمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذَّر في جوّ الهواء. ويعلم السرَّ وأخفى، ويطَّلِع على[٣] هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلي، لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال، لا بعلم متجدِّد حاصل في ذاته بالحلول[٤] والانتقال.

* * *

(١) التخوم والتُّخمُ: الحد الفاصل بين أرضين، والمعالم يُهتدى بها في الطريق.

(٢) عَزَبَ: عزوباً، بَعُدَ وخفي.

(٣) على ما في هواجس (كما في مخطوطة مركز جمعة الماجد).

(٤) في المطبوعة: التحول.

الأصل الخامس: في الإرادة

وأنه مريدٌ للكائنات، مدبِّر للحادثات، فلا يجْري في الملك والملكوت قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عِرْفان أو نُكْر، فوز أو خسر، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، إلا بقضائه وقَدَرِهِ، وحكمه ومشيئته. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

لا يخرج عن مشيئته لفتةُ ناظر ولا فَلْتةُ خاطر، بل هو المبدئ المُعيد، الفّعال لما يريد، لا رادّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، ولا مَهْرَب لعبد عن معصيته إلاّ بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمعونته وإرادته، لواجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين، على أن يحركوا في العالم ذرة أو يُسكِّنوها دون إرادته ومشيئته عجزوا عن ذلك.

وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته. لم يزل كذلك موصوفاً بها، مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قَدَّرها، فوُجِدَت في أوقاتها كما أراد في أزله، من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وَفْق علمِهِ وإرادته، من غير تبدل ولا تغير.

دبّر الأمور بلا ترتيب أفكار وتربص زمان فلذلك لا يشغله شأن عن شأن سبحانه وتعالى.

اعلم[1] أن هذا المقام مَزَلَّةُ الأقدام، ولقد زلَّت فيه أقدام الأكثرين، لأن تمام تحقيقه مستمدّ من تيّار بحر عظيم وراء بحر التوحيد، وهم يطلبونه

(١) من قوله: «اعلم» وحتى قوله: «واحذر من التمثيل والتشبيه» غير موجود في المخطوطة.

بالبحث والجدال. ولقد قال رسول الله ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هُدًى إلا أوتوا الجدل»[1]، ويستدلون بآيات القرآن مؤوِّلين وليسوا من أهل التأويل، ولو نال كل واحد مقام التأويل، لما قال ﷺ داعياً لابن عباسٍ رضي الله عنهما: «اللهمَّ فَقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل»[2]. ولما قال يعقوب ليوسفَ على نبينا وعليهما السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٦]. قال صاحب (الكشّاف) في تفسيرها: يعني معاني كتب الله، وسُنن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وما غَمُضَ واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها تُفَسِّرُها لهم وتشرحها، وتدلُّهم على مُودَعات حِكَمِها.

وإنما زلت أقدام الأكثرين في هذا المقام، لأنهم يتَّبعون الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم. وهؤلاء ليسوا براسخين فيه، بل هم قاصرون عاجزون، فلقصورهم لم يطيقوا ملاحظة كُنْهِ هذا الأمر. فأُلجموا عما لم يطيقوا خوض غمراته بلجام المنع مع سائر القاصرين، فقيل لهم اسكتوا، فما لهذا خُلقتم ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القَدَر. فغضب عليه السلام حتى أحمر وجهُه الشريف. فقال: «أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلتُ إليكم؟ إنما هَلَك من كان قبلكم، حين تنازعوا في هذا الأمر. عزمتُ عليكم، في هذا الأمر أنْ لا تنازعوا فيه»[3].

وعن أبي جعفر قال: قلت ليونس بن عبيد: مررتُ بقوم يختصمون في القدر، فقال: لو همَّتْهُم ذنوبُهم ما اختصوا في القدر، وامتلأ مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله، وكان زيتهم صافياً حتى يكاد يضيء ولو لم

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري، دون قوله: «وعلمه التأويل» وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٣) رواه الترمذي. وللحديث شواهد من حديث أنس أخرجه أبو يعلى، وحديث عبدالله بن عمرو، أخرجه أحمد في المسند، وابن ماجه.

تمسسه نار، فاشتعل نوراً على نور، فاشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها، فـأدركوا الأمور كما هي عليـه. فقيل لهم: تأدبوا بآداب الله واسكتوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا، فلذلك أمسك عمر لما سئل عن القدر، فقال للسائل: بحرٌ عميق لا تَلجْه. ولما كرر السؤال قال: طريق مظلم لا تسْلُكْهُ. ولما كرر ثالثاً قال: سِرُّ الله قد خفي عليك فلا تَفْتِشْهُ.

ومن أراد معرفة أسرار الملكوت فليلازم بابَهم بالمحبة والإخلاص والصدق والإعراض عن أعدائهم، والامتثـال بأوامرهم والسَّـعْي فيما يرضيهم.

وكذلك من أحب معرفة أسرار الربوبية، فليلازم باب الله عزَّ وجلّ بالمحبة والإخلاص، والصدق والتعظيم، والحياء والامتثال بالأوامر، والانتهـاء عن المعاصي، والمجاهدة والإقبـال بكنه الهِمَّة، والتعرُّض لنفحاتِـه لقوله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضـوا لها»[1]، والسعي فيما يرضي.

وإنْ لم يطق ذلك، فعليه أن يعتقد في هذا البحث ما عليه أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ وأصحابُه، حيث قالوا: إحداثُ الاستطاعةِ في العبد فعلُ الله، واستعمال الاستطاعةِ المُحْدَثةِ فعلُ العبد حقيقةً لا مجازاً.

والقَدَرية أنكروا قضاء الله، ورأوا الخير والشر من أنفسهم. أرادوا بذلك تنزيه الله عن الظلم وفعل القبيح، ولكنهم ضَلُّوا إذ نسبوا العَجْزَ إلى الله تعالى في ضمن ذلك، ولم يدْروا.

والجبرية اعتمدوا على القضاء، ورأوا الخير والشر من الله ولم يروا من أنفسهم فعلاً، كما لم يَرَوْا من الجمادات. أرادوا بذلك تنزيه الله تعالى

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر، والطبراني في الأوسط عن محمد بن مسـلمة، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج عن أبي هريرة واختلف في إسناده، وله شاهد ورد بلفظ: «افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته»، وسنده حسن.

عن العجز فضلّـوا، إذ نسـبوا الظُّلمَ إليه تعالى في ضمن ذلـك وأضلوا سفهاءهم. فكانوا يعصون الله، وينسبون إلى الله، ويبرئون أنفسهم عن الذم واللوم كالشيطان حيث قال: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

فالحاصل أن القدرية أثبتوا الاختيار الكليَّ للعبد في جميع أفعال العباد، وأنكروا قضاءَ الله تعالى وقدره بالكلية في الأفعال الاختياريـة. والجبرية نَفَوا الاختيار بالكلية في أفعال العباد، واعتمدوا على القضاء والقدر، فينبغي للباحث معهم أن يضربهم، ويمزِّق ثيابهم وعمائمهم ويخدش وجوههم، وينتف أشعارهم وشواربهم ولحاهم، ويعتذر بما اعتذر هؤلاء السفهاء في سائر أفعالهم القبيحة الصادرة منهم.

والمعتزلة أضافوا الشر فقط إلى أنفسهم، وأثبتوا لأنفسهم الاختيار الكلِّي تحرُّزاً عن نسبة القبح والظلم إلى الله، ولكن نسبوا إلى الله تعالى العجزَ في ضمن ذلك ولم يدروا، فتعالى الله عن ذلك عُلُواً كبيراً.

وأما أهل السنة والجماعة، فتوسطوا بينهم، فلم يَنْفوا الاختيَار عن أنفسهم بالكليَّة، ولم ينفوا القضاء والقدر عن الله تعالى بالكليَّة، بل قالوا: أفعال العباد من الله من وجه، ومن العبد من وجه. وللعبد اختيار في إيجاد أفعاله.

واعلم أن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه: قضاء الطاعات، وقضاء المعاصي، وقضاء النعم، وقضاء الشدائد.

والمذهب المستقيم في ذلك، إذا قضى للعبد الطاعةَ فعليه أن يستقبلَه بالجهد والإخلاص حتى يكرمه الله بالتوفيق والهداية، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] يعني الذين جاهدوا في طاعتنا وفي ديننا لنوفقنَّهم لذلك.

وإذا قَضَى المعصيةَ، فعليه أن يستقبله بالاستغفار والتوبة والندامة من صميم الفؤاد. لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وإذا قضى النعمةَ، فعليه أن يستقبلَه بالشكر والسخاء حتى يكرمه بالزيادة لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا قضى الشِدّة، فعليه أن يستقبله بالصَّبر والرضاء حتى يعطيه الكرامة في الدار الآخرة، لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وذَكَرَ الفاضل الإمام مولانا علاء الدين في شرحه للمصابيح: الفرق بين القضاء والقدر: هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ، إجمالاً لا تفصيلاً، والقَدَر هو تفصيل قضائه السابق بإيجادها في المواد الخارجية واحداً بعد واحد. وقيل: القضاء هو الإرادة الأزلية، والعناية الإلـٰهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص. والقَدَر تَعلُّقَ تلك الإرادة بالأشياء في أوقاتها الخاصَّة.

ثم إن المسلمين في القدر على اختلاف. منهم من ذهب إلى أن كلّ ما يجري في العالم من الخير والشرّ والأفعال والأقوال بقضاء الله وقدره، ولا اختيار للعباد فيه، ويسمَّى هذا القول جَبْرية. والجبْر هو القهر والإكراه. فيقولون: أجبر الله عباده على أقوالهم وأفعالهم من غير اختيار منهم فيها، ويزعمون أن إضافتها إليهم إضافتها إلى الجمادات. في مثل قولنا: دارت الرَّحا وجَرَى الميزاب. وهذا المذهب باطل، لأنهم إن قالوا هذا القول ليسقطوا عن أنفسهم التكاليف، وشبَّهوا أنفسهم بالصبيان والمجانين في عدم جَرَيان الخطاب بهم، فقد كفروا، لأن مذهبهم يُفْضي إلى إبطال الكتب والرسل. وإن قالوا ذلك لتعظيم الله وتحقير أنفسهم وعجزهم عن دفع قضاء الله، فهم مُبْتدعون لمخالفتهم الإجماع.

ومنهم من ذهب إلى أن كل ما يصدر عن العباد عُقَيْبَ قصدهم وإرادتهم يكون واقعاً بقدرتهم واختيارهم، ولا يتعلق بها بخصوصها قدرة الله وإرادته، ويسمّى هؤلاء قَدَرية لنَفْيهم القَدَر لا لإثباتهم. وهذا المذهب أيضاً باطل لأنهم إن قالوا هذا القول عن اعتقاد جواز العَجْز عن التقدير لله

تعالى، فهم كافرون، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإن قالوا عن خطأ اجتهاداتهم وتنزيه الحق عن تقدير أفعالهم القبيحة وخلقها، فهم مُبْتدعون لمخالفتهم الإجماع. ومن هذه الطائفة من يقول: الخير بتقدير الله، والشر ليس بتقديره.

والمذهب الحق هو أن المؤثِّر مجموع القدرتين: قدرة الله، وقدرة العباد[1]، فالأفعال الصادرة عن العباد كلُّها بقضاء الله وقدره ولكن للعباد اختيار، فالتقدير من الله والكَسْب من العباد، وهذا المذهب وسط بين الجبر والقدر، وعليه أهل السنة والجماعة. انتهى كلامه.

وذكرنا في كتاب (المقصد الأقصى): تدبير[2] رب الأرباب ومسبِّب الأسباب، أصل وضع الأسباب، ليتوجه إلى المسببات(**حُكْمُه**). **ونصبُه الأسبابَ** الكلية الأصلية الثابتة المستقرة التي لا تزول ولا تحول كالأرض والسموات السبع والكواكب والأفلاك وحركاتها المتناسبة الدائمة التي لا تتغيَّر ولا تنعدم إلى أن يبلغ الكتاب أجله(**قضاؤه**)، كما قال: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢].

وتوجيهه هذه الأسباب ـ بحركاتها المناسبة المحدودة المقدَّرة المحسوبة إلى مسببات الحادثة منها لحظة بعد لحظة (**قَدَرُهُ**). **فالحكم**: هو التدبير الأول الكلِّي، والأمر الأزلي الذي هو كلَمْح البصر.

والقضاء: هو الوضع الكلِّي للأسباب الكلية الدائمة.

والقَدَر: هو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدّرة المحسوبة إلى مسبباتها المعدودة المحدودة بقدرٍ معلوم لا يزيد ولا ينقص، ولذلك

---

(١) مقصود الشيخ يفسره ما ذكره الإمام الغزالي في الإحياء في توضيح معنى قدرة العباد حيث قال بعد الحديث عن انفراد الله سبحانه بخلق أفعال العباد: (الاقتصاد في الاعتقاد هو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً، وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب).

(٢) مبتدأ، خبرُهُ حكمه.

لا يخرج شيء عن قضائه وقدره.

ولا تفهم ذلك إلا بمثال: ولعلك شاهدت صندوق الساعات التي بها تتعرف أوقات الصلّوات وإن لم تشاهده، فجملة ذلك أنه لا بدّ فيه من آلة على شكل أسطوانة تحوي مقداراً من الماء معلوماً، وآلة أخرى مجوفة موضوعة فيها فوق الماء، وخيط مشدود أحد طرفيه في هذه الآلة المجَّوفة، وطرفه الآخر في أسفل ظرف صغير موضوع فوق الآلة المجوَّفة، وفيه كُرَة وتحته طاس، بحيث لو سقطت الكرة وقعت في الطاس وسمع طنينها، ثم تثقب أسفل الآلة الأسطوانية ثقباً بقَدْرٍ معلوم ينزل الماء منه قليلاً قليلاً فإذا انخفض الماء انخفضت الآلة المجوَّفة الموضوعة على وجه الماء، فامتد الخيط المشدود بها فحرك الطرف الذي فيه الكرة تحريكاً يقرّبه من الانتكاس إلى أن ينتكس، فتتدحرج منه الكرة وتقع في الطاس وتطنّ، وعند انقضاء كلّ ساعة تقع واحدة، وإنما يتقدر الفصل بين الوقعتين بتقدير خروج الماء وانخفاضه وذلك بتقدير سَعَة الثقب الذي يخرج منه الماء، ويعرف ذلك بطريق الحساب. فيكون نزول الماء بمقدار مُقَدَّر معلوم، بسبب تقدير سعة الثُقبة بقدر معلوم، ويكون انخفاض أعلى الماء بذلك المقدار وبه يَتَقَدّر، وانخفاض الآلة المجوفة وانجرار الخيط بها المشدود، وتَولّدُ الحركة في الظرف الذي فيه الكرة، وكل ذلك يتقدّر بتقدر سببه، لا يزيد ولا ينقص. ويمكن أن يجعل وقوع الكرة في الطاس سبباً لحركة أخرى، وتكون الحركة الأخرى سبباً لحركة ثالثة. وهكذا إلى درجات كثيرة، حتى تتولد منها حركات عجيبة مقدرة بمقادير محدودة. وسببها الأول نزول الماء بمقدار معلوم.

فإذا تصورت هذه الصورة، فاعلم أن واضعها يحتاج إلى ثلاثة أمور:

أولها: التدبير وهو الحكم بأنه ما الذي ينبغي أن يكون من الآلات والأسباب والحركات حتى يؤدي إلى حصول ما ينبغي أن يحصل؟ وذلك هو(الحكم).

والثاني: إيجاد هذه الآلات التي هي الأصول، وهي الآلة الأسطوانية لتحوي الماء، والآلة المجوَّفة لتوضع على وجه الماء والخيط المشدود بها والظرف الذي فيه الكرة والطاس الذي تقع فيه الكرة وذلك هو(القضاء).

الثالث: نَصْب سَبَب يوجب حركةً مقدرة محسوبة محدودة. وهو ثقب أسفل الآلة ثقبة مقدرة السّعة، ليحدث بنزول الماء منها حركة في الماء تؤدي إلى حركة وجه الماء بنزوله، ثم إلى حركة الآلة المجوَّفة الموضوعة على وجه الماء بنزوله، ثم إلى حركة الخيط، ثم إلى حركة الظرف الذي فيه الكرة، ثم إلى حركة الكرة، ثم إلى الصدمة بالطاس - إذا وقع - ثم إلى الطنين الحاصل منها، ثم إلى تنبيه الحاضرين واستماعهم، ثم إلى حركتهم في الاشتغال بالصلوات والأعمال عند معرفتهم بانقضاء الساعة، وكل ذلك يكون بقَدْر معلوم ومقدارٍ مقدَّر، بسبب تقدر جميعها بقدْر الحركة الأولى، وهي حركة الماء.

فإذا فهمتَ أن هذه الآلاتِ أصولٌ لا بدَّ منها للحركة، وأن الحركةَ لا بدَّ من تقدرها ليتقدَّر ما يتولَّد منها، فكذلك فافهم حصول الحوادث المقدَّرة التي لا يتقدَّم منها شيء ولا يتأخَر، إذا جاء أجلها، أي حضر سببها. وكل ذلك بمقدار معلوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

فالسموات والأفلاك والكواكب والأرض والبحر والهواء، وهذه الأجسام العظام في العالم كتلك الآلات، والسبب المحرك للأفلاك والكواكب والشمس والقمر بحساب معلوم، كتلك الثقبة الموجبة لنزول الماء بقَدْر معلوم، وإفضاء حركة الشمس والقمر والكواكب إلى حصول الحوادث في الأرض، كإفضاء حركة الماء إلى حصول تلك الحركات المفضية إلى سقوط الكرة المعرّفة لانقضاء الساعة، ومثال تداعي حركاتِ السماء إلى تغيير الأرض، هو أن الشمس بحركتها[1] إذا بلَغَتْ إلى المشرق

(١) فيما يظهر لنا.

فاستضاء العالم، وتيسَّر على الناس الإبصار، فيتيسَّر عليهم الانتشار في الاشتغال، فإذا بلغتْ المغرب تعذَّر عليهم ذلك، فيرجعوا إلى المساكن. وإذا قَرُبتْ من وسط السماء وسامتَت[1] رؤوس أهل الأقاليم حميَ الهواء واشتد القيظ وحصل نضجُ الفواكه، وإذا بَعُدَت حصل الشتاء واشتد البرد، وإذا توسطت حصل الاعتدال فظهر الربيع وأنبتت الأرض وظهرت الخضرة.

وقِس بهذه المشهورات التي تعرفها الغرائب التي لا تعرفها، فاختلاف هذه الفصول كلها مقدَّرة بقَدر معلوم، لأنها منوطة بحركات الشمس والقمر، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥]، أي حركتها بحساب معلوم فهذا هو(التقدير). ووضع الأسباب الكلية، هو (القضاء)، والتدبير الأول الذي هو كلمح البصر، هو (الحكم).

وكما أن حركة الآلة والخيط والكرة ليست خارجة عن مشيئة واضع الآلة، بل ذلك هو الذي أراده بوضع الآلة، فكذلك كل ما يحدث في العالم من الحوادث، شرُّها وخيرها، نَفعها وضرّها، غير خارج عن مشيئة الله تعالى، بل ذلك مراد الله تعالى ولأجله دبَّر أسبابه، وهو المعني بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] وتفهيم الأمور الإلـٰهية بالأمثلة العرفية عسير. ولكن المقصود من الأمثلة التنبيه، فدَعْ المثال وتنبَّه للغرض، واحذر من التمثيل والتشبيه[2].

* * *

(١) سامتت: قابلت وقربت.

(٢) من قوله: (اعلم ص٢٢ السطر قبل الأخير وحتى هنا غير موجود في مخطوطة جمعة الماجد)

الأصل السادس: في السمع والبصر

وأنه تعالى سميعٌ بصيرٌ، يسمع ويرى، لا يعزُب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئيّ وإن دق، ولا يحجب سمعَه بُعْدٌ، ولا يدفع رؤيتَه ظلامٌ، يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير أصمخة[1] ولا آذان، كما يعلم من غير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة، إذ لا تشبه صفاتُه صفاتِ الخلق كما لا تشبه ذاتُه ذاتَ الخلق.

* * *

(١) أصمخة: جمع صمخ، وهو باطن الأذن المفضي إلى الرأس.

الأصل السابع: في الكلام

وأنه متكلمٌ آمرٌ ناهٍ، واعدٌ متوعِّدٌ بكلامٍ أزليٍّ قديم، قائمٍ بذاتـه، لا يشبه كلامُه كلامَ الخلق، كما لا يشبه ذاته ذَوات الخلق. فليس بصوت يحدث من انسلال هواء واصطكاك[1] أَجْرام، ولا حَرفٍ ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان.

وأن القرآن والتوارة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله، وأن القرآن مقروء بالألسنة، مكتوب في المصاحف، محفوظ في القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق.

وأن موسى ـ عليه السلام ـ سمع كلام الله بغير صوتٍ ولا حرفٍ، كما يرى الأبرارُ ذاتَ الله ـ سبحانه ـ في الآخرة من غير جوهر ولا شكل ولا لون ولا عَرَضْ. وإذا كانت له هذه الصفات، كان حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً، بالحياة والعلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر والكلام، لا بمجرد الذات[2].

* * *

(١) اصطك الشيئان: صك أحدهما الآخر، أي دفعه بقوة، أو ضربه (الوسيط).

(٢) وهذا اعتقاد المعتزلة إذ ينفون صفات المعاني (العلم، والقدرة والإرادة...)، ويثبتون الصفات المعنوية (كونه سبحانه عليماً، قديراً مريداً..)، ومذهبهم مردود بالأدلة من القرآن والسنة.

الأصل الثامن: في الأفعال

وأنه لا موجودَ سواه إلا وهو حادث بفعله، وفائض من عدله، على أحسن الوجوه وأكملها، وأتمها وأعدلها.

وأنه حكيم في أفعاله، عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد. إذ العبد يُتصوَّر منه الظلم بتصرفه في مِلكِ غيره ولا يُتَصوَّر الظلم من الله تعالى ـ سبحانه ـ فإنه لا يُصادِف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً.

فكل ما سواه من إنس وجن، وشيطانٍ ومَلَكٍ، وسماء وأرض، وحيوان ونبات، وجوهر وعَرَضٍ، ومُدرَكٍ ومحسوس، حادثٌ اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً وإنشاءً، بعد أن لم يكن شيئاً، إذ كان في الأزل موجوداً وحده، ولم يكن معه غيره. فأحدث الخلق إظهاراً لقدرته وتحقيقاً لما سبق من إرادته ولما حقَّ في الأزل من كلمته، وهي قوله: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرَف»[1] لا لافتقاره إليه، ولا لحاجته.

وأنـه متفضـل بـالخلـق والاختـراع والتكيـف، لا عـن وجـوب، ومتطول[2] بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان، إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب، ويبتليَهم بضروب الآلام والأوصاب[3]. ولو فعل ذلك لكان منه عدلاً ولم يكن[4] منه قبيحاً ولا ظلماً.

(١) قال جماعة من الحفاظ ليس بحديث، وقال القاري: معناه صحيح. وهو غير موجود في المخطوطة.

(٢) متطول: متفضل متمنن.

(٣) الأوصاب: جمع وصب وهو المرض الدائم وقد يطلق على التعب.

(٤) في المخطوطة: ولم يكن ذلك في حقه تعالى قبحاً وظلماً.

وأنه يثيب[١] عباده على الطاعات بحكم الكرم والعدل لا بحكم الاستحقاق واللزوم، إذ لا يجب عليه فعل، ولا يتُصور منه ظلم، ولا يجب لأحد عليه حق.

وإن حقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه، لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلّغوا أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤوا به.

* * *

(١) يثيب: يجزي ويعطي.

الأصل التاسع: في اليوم الآخر

وأنه تعالى يفرّقُ بالموت بين الأرواح والأجسام، ثم يعيدها إليها عند الحشر والنشور فيبعث من في القبور ويُحصِّل ما في الصدور. فيرى كلّ مكلّف ما عمله من خير أو شر مُحْضراً، ويصادف دقيق ذلك وجليّه مسَطَّراً، في كتاب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويُعرِّفُ كلُّ واحدٍ مقدارَ عمله، خيره وشره بمعيار صادق، يعبَّر عنه بالميزان وإن كان لا يساوي ميزان الأعمال ميزان الأجسام الثقال، كما لا يساوي الأسطرلاب[١] الذي هو ميزان المواقيت، والمسطرة التي هي ميزان المقادير، والعَروض الذي هو ميزان الأشعار، سائر الموازين.

ثم يحاسبُهُم على أفعالِهم وأقوالِهم، وسرائرهم وضمائِرِهم، ونياتِهم وعقائِدِهم، مما أبدَوْهُ أو أخفوه، فإنهم يتفاوتون فيه إلى مُناقَشٍ في الحساب، وإلى مُسامحٍ فيه، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب.

وأنهم يساقون إلى الصراط وهو جسر ممدود بين منازل الأشقياء ومنازل السعداء، أحدُّ من السيف، وأدقُّ من الشّعرة، يخفّ عليه من استوى في الدنيا على الصراط المستقيم الذي يوازيه في الخفاء والدقة، ويتعثر به من عدل عن سواء السبيل المستقيم إلا من عُفي عنه بحكم الكرم.

وأنهم عند ذلك يُسألون، فَيَسْألُ الله تعالى[٢] من شاءَ من الأنبياءِ عن تبليغِ الرسالةِ، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين، ومن شاء من

(١) الأسطُرلاب: جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ومعرفة الوقت والجهات الأصلية. (وسيط)

(٢) زيادة من المخطوطة.

المبتدعة عن السنّة، ومن شاء من المسلمين عن أعمالهم، فيسأل الصادقين عن صدقهم، والمنافقين عن نفاقهم.

ثم يُساق السعداء إلى الرحمن وفداً، والمجرمون إلى جهنم وِرْداً، ثم يأمر بإخراج الموحِّدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويخرج بعضهم قبل تمام العقوبة والانتقام بشفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء ومن له رتبة الشفاعة.

ثم يستقر أهل السعادة في الجنة مُنَعّمين أبد الآبدين، ممتّعين بالنظر إلى وجه الله تعالى.

ويستقر أهل الشقاوة في النار مردّدين تحت أنواع العذاب، مُبْعَدين عن النظر بالحِجَاب إلى وجه الله تعالى، ذي الجلال والإكرام.

* * *

الأصل العاشر: في النبوة

وأنه تعالى خلق الملائكة وبعث الأنبياء، وأيّدهم بالمعجزات.

وأن الملائكة كلهم عباده ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ[١] ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[٢]﴾ [الأنبياء: ٢٠] وأن الأنبياء رسله إلى خلقه. وينتهي إليهم وحيه بواسطة الملائكة فينطقون عن وحي يوحى لا عن الهوى.

وأنه بعث النبيَّ الأميَّ القرشيّ محمداً ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم، والجن والإنس، فنسخ بشرعه الشرائع، وجعله سيد البشر، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد، وهو قولُ: (لا إلـه إلا الله) ما لم يقترن بها شهادة الرسول، وهو قولُ: «محمد رسول الله»

وألزم الخلق تصديقَه في جميع ما أخبر به عنه في أمر الدنيا والآخرة، وألزمهم اتّباعه والاقتداء به فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]. فلم يغادر شيئاً يقرّبهم من الله سبحانه، إلا أمرهم به، ودلَّهم على سبيله. ولا شيئاً يقربهم إلى النار، ويبعدهم عن الله تعالى إلا نهاهم عنه، وعرَّفهم طريقه. وإنّ ذلك أمور لا يُرشد إليها مجرد العقل والرأي والذكاء، بل هي أسرار يكاشف بها من حظيرة القدس قلوب الأنبياء.

والحمد لله على ما أرشد وهدى، وأظهر من أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والصلاة والسلام على محمد المصطفى، خاتم الأنبياء، وعلى آله وأصحابه، وسلم كثيراً.

---

(١) يستحسرون: يتعبون ويكلون.
(٢) فَتَرَ فُتوراً: لانَ بعد شدّة، أو سكن بعد حِدَّةٍ ونشاط (الوسيط).

خاتمة في التنبيه على الكتب التي تطلب فيها حقيقة هذه العقيدة:

اعلم أن ما ذكرناه هو الحاصل من علوم القرآن، أعني جمل ما يتعلق منها بالله واليوم الآخر. وهي ترجمة العقيدة التي لا بد أن ينطوي عليها قلب كل مسلم، بمعنى أنه يعتقده ويصدق به تصديقاً جزماً، ووراء هذه العقيدة الظاهرة رُتبتان:

إحداهما: معرفة أدلة هذه العقيدة الظاهرة من غير خوض على أسرارها.

والثانية: معرفة أسرارها ولباب معانيها وحقيقة ظواهرها.

والرتبتان جميعاً ليستا واجبتين على جميع العوام، أعني أن نجاتهم في الآخرة غير موقوفة عليهما، ولا فوزهم موقوف عليها، وإنما الموقوف عليهما كمال السعادة. وأعني بالنجاة الخلاص من العذاب، وأعني بالفوز الحصول على أصل النعيم، وأعني بالسعادة نيل غايات النعيم.

فالسلطان إذا استولى على بلدة وفتحها عنوة، فالذي لم يقتله ولم يعذبه فهو ناج وإن أخرجه عن البلدة، والذي لم يعذبه ومع ذلك مكّنه من المقام في بلدته مع أهله وأسباب معيشته فهو مع ذلك فائز بالنجاة، والذي خلع عليه وأشركه في ملكه واستخلفه في مملكته وإمارته فهو مع النجاة والفوز سعيد. ثم زيادة درجات السعادات لا تنحصر.

واعلم أن الخلق في الآخرة ينقسمون إلى هذه الأصناف، بل إلى أصناف أكثر منها، وقد شرحنا ما أمكن من شرحها في كتاب التوبة فاطلبه فيه، في كتاب (إحياء علوم الدين).

والرتبة الأولى من الرتبتين، وهي معرفة أدلة هذه العقيدة، وقد أودعناها (الرسالة القدسية) في قدر عشرين ورقة، وهي أحد فصول كتاب قواعد العقائد من كتاب الإحياء.

وأما أدلتها مع زيادة تحقيق وزيادة تأنق في إيراد الأسئلة والإشكالات، فقد أودعناها في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) في مقدار مئة ورقة، فهو كتاب مفرد برأسه، يحتوي لباب علم المتكلمين. ولكنه أبلغ في التحقيق، وأقرب إلى قرع أبواب المعرفة من الكلام الرسمي الذي يصادف في كتب المتكلمين. وكل ذلك يرجع إلى الاعتقاد لا إلى المعرفة، فإن المتكلم لا يفارق العامي إلا في كونه عارفاً. وكون العامي معتقداً. بل هو أيضاً معتقد عرفَ مع اعتقاده أدلة الاعتقاد، ليؤكد الاعتقاد ويُسَمِّره[1]، ويحرسه عن تشويش المبتدعة، لا ليحلَّ عُقْدة[2] الاعتقاد إلى انشراح المعرفة.

فإن أردت أن تستنشق شيئاً من روائح المعرفة صادفت منها مقداراً يسيراً مبثوثاً في كتاب الصبر والشكر وكتاب المحبة وباب التوحيد من أول كتاب التوكل وجملة ذلك من كتاب الإحياء. وتصادف منها قدراً صالحاً يعرفك كيفية قرع باب المعرفة في كتاب(المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى) لا سيما في الأسماء المشتقة من الأفعال.

وإن أردت صريح المعرفة بحقائق هذه العقيدة من غير مجمجة[3] ولا مراقبة، فلا تصادفه إلا في بعض كتبنا المضنون بها على غير أهلها. وإياك أن تغترَّ وتحدث نفسك بأهليته، فتشرئب[4] لطلبه، فتُستهدف للمشافهة بصريح الرد، إلا أن تجمع ثلاث خصال:

إحداها: الاستقلال في العلوم الظاهرة ونيل رتبة الإمامة فيها.

والثانية: انقلاع القلب عن الدنيا بالكلية بعد محو الأخلاق الذميمة، حتى لا يبقى فيك تعطش إلا إلى الحق، ولا اهتمام إلا به، ولا شغل إلا فيه، ولا تعريج إلا عليه.

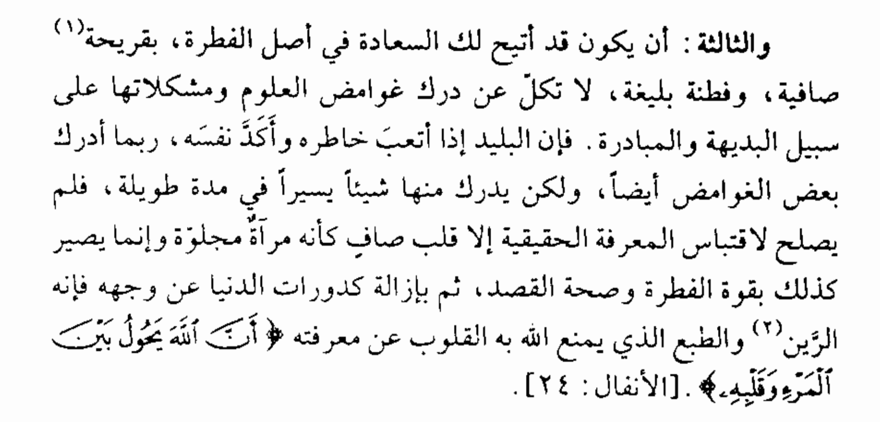
---

(١) في المطبوعة يستمره والتصحيح من المخطوطة ومعنى يُسَمِّره أي: يشده (كما في القاموس المحيط).

(٢) في المطبوعة: ولا تنحل عقيدة. والتصحيح من المخطوطة.

(٣) مجمجة: مَجْمَجَ الكلامَ: لم يبينه.

(٤) اشرأبَّ للشيء: مد عنقه لينظر إليه.

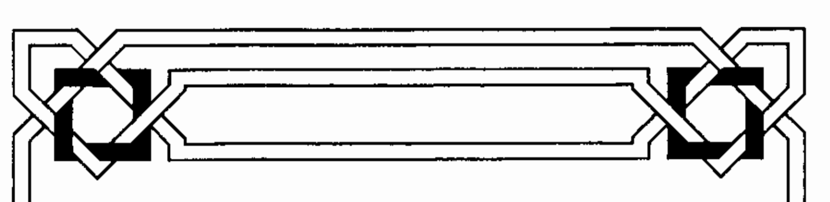


والثالثة: أن يكون قد أتيح لك السعادة في أصل الفطرة، بقريحة[1] صافية، وفطنة بليغة، لا تكلّ عن درك غوامض العلوم ومشكلاتها على سبيل البديهة والمبادرة. فإن البليد إذا أتعبَ خاطره وأَكَدَّ نفسَه، ربما أدرك بعض الغوامض أيضاً، ولكن يدرك منها شيئاً يسيراً في مدة طويلة، فلم يصلح لاقتباس المعرفة الحقيقية إلا قلب صافٍ كأنه مرآةٌ مجلوّة وإنما يصير كذلك بقوة الفطرة وصحة القصد، ثم بإزالة كدورات الدنيا عن وجهه فإنه الرَّين[2] والطبع الذي يمنع الله به القلوب عن معرفته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾. [الأنفال: ٢٤].

* * *

(١) القريحة: الطبع. (المحيط)

(٢) الرين: ران الثوب ريناً: تطبع وتدنس، وران على قلبه الذنب: قسا قلبه لاقتراف الذنب بعد الذنب. والران والرين: الغطاء والحجاب الكثيف، والدَّنس، وما غطى القلب من القسوة. (الوسيط).



القِسمُ الثّاني

في الأعمال الظاهرة

- الأصل الأول : في الصلاة.
- الأصل الثاني : في الزكاة والصدقة.
- الأصل الثالث : في الصيام.
- الأصل الرابع : في الحج.
- الأصل الخامس : في قراءة القرآن.
- الأصل السادس : في ذكر الله عزَّ وجلّ.
- الأصل السابع : في طلب الحلال.
- الأصل الثامن : في القيام بحقوق المسلمين.
- الأصل التاسع : في الأمر بالمعروف.
- الأصل العاشر : في اتباع السنة.

القِسمُ الثّاني
في الأعمال الظاهرة

وهي عشرة أصول:

الأصل الأول: في الصلاة

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وقال النبيُّ ﷺ: «الصلاةُ عماد الدين»[١]، واعلم أنك في صلاتك مناج ربك، فانظر كيف تصلي، وحافظ فيها على ثلاثة أمور لتكون من جملة المحافظين على الصلاة والمقيمين لها، فإن الله تعالى إنما يأمر بالإقامة ويقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [طه: ١٤]، و﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وليس يقول صلِّ أو صلُّوا. ويثني على المحافظين على الصلاة فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

الأول: المحافظة على الطهارة، بأن يُسْبِغَ[٢] الوضوء قبل الصلاة، وإسباغها أن يأتي بجميع سنُنَها وأذكارها المروية عند كل وظيفة منها ويحتاط أيضاً في طهارة ثيابه، وطهارة بدنه، وطهارة الماء الذي يتوضأ به احتياطاً لا ينفتح عليه باب الوسواس فإن الشيطان يوسوس في الطهارة فيضيع أكثر أوقات العبادة[٣].

واعلم أن المقصود من طهارة الثوب ـ وهو القِشْرُ الخارج ـ ثم من طهارة البدن ـ وهو القشر القريب ـ طهارةُ القلبِ ـ وهو اللب الباطن.

وطهارة القلب عن نجاسات الأخلاق المذمومة، أهم طهارة كما

---

(١) رواه البيهقي عن ابن عمر بسند ضعيف ورواه الطبراني والديلمي.

(٢) يسبغ: يتم.

(٣) في المخطوطة: فإن الشيطان بوسواس الطهارة يضيع أوقات أكثر العُبّاد.

سنذكرها في القسم الثالث.

لكن لا يبعد أن يكون لطهارة الظاهر أيضاً تأثير في إشراق نورها على القلب فإنك إذا أسبغتَ الوضوء، واستشعرتَ نظافة ظاهرك، صادفت في قلبك انشراحاً وصفاءً كنت لا تصادفه من قبل، وذلك لسر العلاقة التي بين عالم الشهادة وعالم الملكوت. فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته. وإنما هبوطه إلى عالم الشهادة كالغريب عن جبلّته.

وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح، فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب. ولذلك أُمروا بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التي هي من عالم الشهادة، ولذلك جعلها رسول الله ﷺ في الدنيا ومن الدنيا. قال: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث...»[1] الحديث. فلا يستبعد أن يفيض من طهارة الظاهر أثر على الباطن. ففي بدائع صنع الله أمور أعجب من هذا.

إذ قد عرف بالتجربة، أن المُجامع في حال المباشرة، لو أدمن النظر إلى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه، مال لون المولود إلى ذلك اللون الذي غلب عليه، وأن الجنين أول ما يتحرك في البطن، تميل صورته إلى الحسن، إن كانت الأم مشاهدة في تلك الحالة لصورة حسنة، بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها. ولذلك أمر رسول الله ﷺ المباشر عند مباشرته أن يُحضرَ في قلبه إرادةَ إصلاح المولود، ويدعو الله بذلك فيقول: «اللهمَّ جنّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا»[2] حتى يفيض الله سبحانه مبادئ الصلاح على الروح التي يخلقها عند إلقاء البذر في محل الحرث بواسطة الصلاح الغالب على قلب الحارث، كما

(١) رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد وضعفه العقيلي، ولكن لم يرد في الحديث لفظة (ثلاث)، ولا في شيء من طرقه كما ذكر الحافظ ابن حجر وقال: لفظ ثلاث يفسد المعنى.

(٢) رواه الجماعة عن ابن عباس.

يفيض الله النور بواسطة المرآة المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآة.

وها نحن الآن نقرع باباً عظيماً من معرفة عجائب صنع الله في الملك والملكوت. وإلى قريب منه يرجع سر الشفاعة في الآخرة فلنجاوزه.

فغرضنا الآن ذكر الأعمال دون المعارف، وقد أشممناك شيئاً يسيراً من أسرار الطهارة الظاهرة، فإن كنت لا تصادف بعد الطهارة وإسباغ الوضوء شيئاً من الصفاء الذي وصفناه، فاعلم أن الدَّرَنَ الذي عرض على قلبك من كدورات شهوات الدنيا وشواغلها، اقتضى كلال[1] حس القلب فصار لا يحس باللطائف والأشياء الخفية اللطيفة، ولم يبق في قوته إلا إدراك الجليات إن بقي، **فاشتغل بجلاء قلبك وتصفيته، فذلك أوجب عليك** من كل ما أنت فيه.

المحافظة الثانية: أن تحافظ على سنن الصلاة وأعمالها الظاهرة، وأذكارها وتسبيحاتها، حتى تأتيَ فيها بجميع السنن والآداب والهيئات، كما جمعناها في كتاب (بداية الهداية)[2]. فإن لكل واحد منها سراً، وله تأثير في القلب كما نبهنا عليه في تأثير الطهارة، بل أشدّ وأبلغ، وشرح ذلك يطول. وأنت إذا أتيت بذلك انتفعت به وإن لم تعلم أسراره، كما ينتفع شارب الدواء بشربه، وإن لم يعرف طبائع أَخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه.

واعلم أن الصلاة صورة صوّرها ربّ الأرباب، كما صور الحيوان مثلاً، فروحها النية والإخلاص وحضور القلب، وبدنها الأعمال، وأعضاؤها الأصلية الأركان، وأعضاؤها الكمالية الأبعاض[3] فالإخلاص والنية فيها يجري مجرى الروح، والقيام والقعود يجري مجرى البدن، والركوع والسجود يجري مجرى الرأس واليد والرجل، وإكمال الركوع والسجود

(١) كلال: تعب، إعياء.

(٢) وهو كتاب مستقل للإمام. (مطبوع)

(٣) الأبعاض: جمع بعض، وهو الجزء من الشيء.

بالطمأنينة وتحسين الهيئة، يجري مجرى حسن الأعضاء وحسن أشكالها وألوانها، والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجري مجرى آلات الحس المودعة في الرأس والأعضاء كالعينين والأذنين وغيرهما، ومعرفة معاني الأذكار وحضور القلب عندها، يجري مجرى قوة الحس المودعة في آلات الحسّ كقوة السمع وقوة البصر والشم والذوق واللمس في معانيها.

واعلم أن تقربك بالصلاة، كتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصيفة[1] إلى السلطان. واعلم أن فقد النية والإخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة، والمهدي للجيفة الميتة مستهزئ بالسلطان فيستحق سفك الدم.

وفقد الركوع والسجود، يجري مجرى فَقْدِ الأعضاء، وفقد الأذكار يجري مجرى فقد العينين من الوصيفة، وجدْع الأنف والأذنين، وعدم حضور القلب وغفلته عن معرفة معاني القرآن والأذكار كفقد السمع والبصر مع بقاء جِرم الحدقة والأذن. ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفة، كيف يكون حاله عند السلطان.

واعلم أن قول الفقيه في الصلاة الناقصة ألفاظها وسننها: إنها صحيحة، كقول الطبيب في الوصيفة المقطوعة أطرافها: إنها حية وليست بميتة. فإن كان ذلك كافياً في التقرب بها إلى السلطان ونيل الكرامة منه فاعلم أن الصلاة الناقصة صالحة أيضاً للتقرب بها إلى الله سبحانه ونيل الكرامة.

وإن أوشك أن يُرَدّ ذلك على المُهدي ويُزْجر، فلا يبعد مثل ذلك في الصلاة، فإنها قد تُردّ على المصلي كالخرقة الخَلِقة[2] كما ورد في الخبر[3].

---

(١) الوصيف: الخادم (غلاماً كان أو جارية)، وربما قيل للجارية وصيفة.

(٢) الخلقة: البالية.

(٣) أخرج الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسي والبيهقي في الشُّعب من حديث عبادة بن الصامت: «... ومن صلى لغير وقتها، ولم يسبغ =

واعلم أن أصلَ الصلاةِ التعظيمُ والاحترامُ، وإهمالُ آداب الصلاة يناقض التعظيمَ والاحترام.

المحافظة الثالثة: أن تحافظ على روح الصلاة، وهي الإخلاص وحضور القلب في جملة الصلاة واتصاف القلب في الحال بمعانيها، فلا تسجد ولا تركع إلا وقلبك خاشع متواضع على موافقة ظاهرك، فإن المراد خضوع القلب لا خضوع البدن، ولا تقل: «الله أكبر» وفي قلبك شيء أكبر من الله تعالى، ولا تقل: «وجَّهت وجهي» إلا وقلبك متوجه بكل وجهه إلى الله ومعرض عن غيره. ولا تقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢]، إلا وقلبك طافح بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر. ولا تقل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وإلا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك، وأنه ليس إليك ولا إلى غيرك من الأمر شيء. وكذلك في جميع الأذكار والأعمال، وشرح ذلك يطول، وقد شرحناه في كتاب الإحياء فجاهد نفسك في أن تردّ قلبك إلى الصلاة حتى لا تغفل من أولها إلى آخرها، فإنه لا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها، فإن تعذر عليك الإحضار ـ وما أراك إلا كذلك ـ فانظر، فإن كان قدر الغفلة مقدار ركعتين، فلا تُعِدِ الصلاة ولكن افهم أن النوافل[1] جوابر الفرائض، فتنفّل بمقدار أن يحضر القلب فيها في مقدار ركعتين، فكلما زادت الغفلة، زد في النوافل حتى يحضر قلبك، مثلاً في عشر ركعات بمقدار أربع ركعات وهو قدر فرضك، فمن رحمة الله عليك أن قبل منك جُبْران الفرائض بالنَّوافل. فهذه أُصول المحافظة على الصلاة.

* * *

= وضوءها، ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، عرجت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله، لفت كما يلف الثوب الخلق، فيضرب بها وجهه» الإحياء: ١/ ٢٢٥.

(١) النوافل: جمع نافلة وهو ما تفعله مما لم يفرض عليك أو يجب عليك فعله من العبادات والنوافل أيضاً العطايا. ورد «جبر نقصان الفرائض بالنوافل» رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه.

الأصل الثاني: في الزكاة والصدقة

قال الله سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال رسول الله ﷺ: «هلك الأكثرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا»(١).

فاعلم أن إنفاق المال في الخيرات أحدُ أركان الدين، وإنما سر التكليف به بِعَدد أي بعدد ما يرتبط به من مصالح البلاد والعباد، وسد الخلات(٢) والفاقات فإن المال محبوب الخلق، وهم مأمورون بحب الله، ويَدَّعون الحب بنفس الإيمان، فجعل بذل المال معياراً لحبهم، وامتحاناً لصدقهم في دعواهم، فإن المحبوبات كلَّها تُبذل لأجل المحبوب الأغلب حبّه على القلب، فانقسم الخلق فيه إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: الأقوياء، وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوا ولم يدخروا لأنفسهم شيئاً فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب، كما فعل أبو بكر الصديق، إذ جاء بماله كله فقال له: رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لنفسك»؟ فقال: «الله ورسوله» وقال لعمر رضي الله عنه: «ماذا أبقيتَ لنفسك»؟ قال: «مثله»، أي مثل ما أتيت به، فقال ﷺ: «بينكما مثل ما بين كلمتيكما»(٣).

الطبقة الثانية: المتوسطون وهم الذين لم يقدروا على إخلاء اليد عن المال دفعة واحدة، ولكن أمسكوه لا للتنعم، بل للإنفاق عند ظهور محتاج

(١) رواه الإمام أحمد في المسند.
(٢) الخَلات: جمع خلَّة وهي الحاجة والفقر.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله: «بينكما مثل ما بين كلمتيكما».

إليه، فهم يقنعون في حق أنفسهم بما يقوّيهم على العبادة، وإذا عرض محتاج بادروا إلى سد خَلّته وحاجته، ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وإنما غرضهم الأظهر في الإمساك ترصُّد الحاجات.

الطبقة الثالثة: الضعفاء، وهم المقتصرون على أداء الزكاة الواجبة، فلا يزيدون عليها ولا ينقصون منها، فهذه درجاتهم، وبذل كل واحد على مقدار حبه لله، وما أراك تقدر على الدرجة الأولى والثانية، ولكن اجتهد حتى تجاوز الدرجة الثالثة إلى أواخر طبقات المقتصدين المتوسطين، فتزيد على الواجب ولو شيئاً يسيراً، فإن مجرد الواجب حدّ البخلاء. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾ [محمد: ٣٧] أي يستقصي عليكم فتبخلوا. فاجتهد أن لا ينقضي عليك وقت إلا وتتصدق بشيء وراء الواجب. ولو بكسرة خبز، فترتفع بذلك عن درجة البخلاء. فإن لم تملك شيئاً فليست الصدقة كلها في المال، لكن كل كلمة طيبة، وشفاعة ومعونة في حاجة، وعيادة مريض، وتشييع جنازة، وفي الجملة أن تبذل شيئاً مما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام، لتطييب قلب مسلم. فيكتب جميع ذلك لك صدقة.

وحافظ في زكاتك وصلاتكَ وصدقتك على خمسة أمور:

الأول: الإسرار، فإن في الخبر: «أن صدقة السر تطفئ غضب الرب»(١)، «والذي يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعة الذين يظلّهم الله يوم لا ظل إلا ظله»(٢)، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وبذلك تتخلص عن الرياء، فإنه غالب على النفس وهو مهلك، ينقلب في القلب ـ إذا وضع الإنسان في قبره ـ في صورة حية أي يؤلم إيلام الحيّة، والبخل ينقلب في صورة عقرب. والمقصود في كل الإنفاق الخلاص من رذيلة البخل، فإذا

(١) رواه الترمذي وقال: حسن.
(٢) متفق عليه.

امتزج به الرياء، كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية، فما تخلص من العقرب ولكن زاد في قوة الحية، إذ كل صفة من الصفات المهلكات في القلب إنما غذاؤها وقوتُها إجابتها إلى مقتضاها.

الثاني: أن تحذر من المنّ، وحقيقته أن ترى نفسك محسناً إلى الفقير متفضلاً عليه، وعلامته أن تتوقع منه شكراً، أو تستنكر تقصيره في حقك وممالأته عدوك استنكاراً يزيد على ما كان قبل الصدقة، فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلاً، وعلاجه أن تعرف أنه المحسن إليك بقبول حق الله منك. فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب، وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، ولذلك كانت الزكاة مطهرة، إذ بها حصلت الطهارة، فكأنها غُسالة نجاسة، ولذلك ترفَّع رسول الله ﷺ وأهل بيته من أخذ الزكاة. وقال عليه السلام: «إنها أوساخ أموال الناس»[1] فإذا أخذ الفقير منك ما هو طُهْرة لك فله الفضل عليك. أرأيت لو كان فَصَّاد فَصَدك مجاناً، وأخرج من باطنك الدم الذي تخشى ضرره في الحياة الدنيا أكان الفضل لك أم له؟ فالذي يُخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها في الحياة الآخرة أولى بأن تراه متفضلاً.

الثالث: أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، وقال الله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وقال ﷺ: «إن الله لا يقبل إلا الطيب»[2] يعني الحلال، فإن المقصود من هذا إظهار درجة الحب، والإنسان يؤثر الأحب إليه بالأنفس دون الأخَسّ.

الرابع: أن تعطي بوجه طلق مستبشر، وأنت به فرحان غير مستكره. قال رسول الله ﷺ: «سبق درهم مئة ألف»[3] وإنما أراد ما يعطيه عن بشاشة

(١) روى مسلم في صحيحه: «إن الصدقة أوساخ الناس» وهي تطهير للمال ولكنها من جانب آخر حق للفقير طيبة له.

(٢) رواه الترمذي بلفظ: «إن الله طيب يحب الطيّب».

(٣) أخرجه النسائي وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة.

وطيبة نفس من أنْفَسِ مالِهِ وأجوده، فذلك أفضل من مئة ألف مع الكراهة.

الخامس: أن تتخير لصدقتك محلاً تزكو به الصدقة. وهو المتقي العالم الذي يستعين بها على طاعة الله عزَّ وجلّ وتقواه، أو الصالح المعيل ذو الرحم. فإن لم تجتمع هذه الأوصاف فتزكو الصدقة بآحادها أيضاً. ورعاية الصلاح أصل الأمور، فما الدنيا إلا بُلْغةٌ[1] للعبَاد وزاد لهم إلى المعاد، فليُصرَف إلى المسافرين إليه، المتخذين هذه الدار منزلاً من منازل الطريق. قال رسول الله ﷺ: «لا تأكلْ إلا طعام تقيٍّ ولا يأكل طعامَكَ إلا تقيّ»[2].

* * *

(١) البلغة: ما يكفي من العيش.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

الأصل الثالث: في الصيام

قال رسول الله ﷺ يقول الله سبحانه: «كل حسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعفٍ، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به»[١] وقال عليه السلام: «لكل شيءٍ بابٌ وبابُ العبادة الصوم»[٢].

وإنما كان الصوم مخصوصاً بهذه الخواص لأمرين:

أحدهما: أنه يرجع إلى كفّ نفسي، وهو عملٌ سريٌ لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى لا كالصلاة والزكاة وغيرها.

والثاني: أنه قهر لعدو الله، فإن الشيطان هو العدو. ولن يقوى العدو إلا بواسطة الشّهوات، والجوع يكسر جميع الشهوات التي هي آلة الشيطان، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الشيطانَ ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاري الشيطان بالجوع»[٣]، وهو سر قوله ﷺ: «إذا دَخَلَ رمضَانُ فُتِحَت أبوابُ الجنان، وغُلِّقت أبوابُ النيران، وصُفِّدت الشياطين، ونادى منادٍ: يا باغيَ الخير هلمَّ، ويا باغي الشر أَقْصِر»[٤]

واعلم أن الصوم، بالإضافة إلى مقداره، على ثلاث درجات، وبالإضافة إلى أسراره، على ثلاث درجات:

أما درجات مقداره: فأقلها الاقتصار على شهر رمضان، وأعلاها صوم داود عليه السلام، وهو أن تصوم يوماً وتفطر يوماً. ففي الخبر

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد بسند ضعيف.
(٣) متفق عليه دون قوله: «فضيقوا مجاريه بالجوع».
(٤) أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم صححه على شرطهما.

الصحيح[١]، أن ذلك أفضل من صوم الدهر، وأنه أفضل الصيام وسرّه أن من صام الدهر صار الصوم له عادة، فلا يحس بوقعه في نفسه بالانكسار، وفي قلبه بالصفاء، وفي شهواته بالضعف، فإن النفس إنما تتأثر بما يردُ عليها لا بما مَرَنَت[٢] عليه، فلا يبعد هذا، فإن الأطباء أيضاً ينهون عن اعتياد شرب الدواء. وقالوا: «من تعود ذلك لم ينتفع به إذا مرض، إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به».

واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان، وهو سر قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم فقال عليه الصلاة والسلام: «صُمْ يوماً وأَفْطِرْ يوماً». فقال أريد أفضل من ذلك فقال عليه السلام «لا أفضلَ من ذلك»[٣]، ولذلك لما قيل لرسول الله ﷺ: «إن فلاناً صام الدهر» فقال عليه السلام: «لا صامَ ولا أَفْطَر»[٤]. كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لرجل كان يقرأ القرآن يُهذْرِمُهُ[٥]: «إن هذا ما قرأ القرآنَ ولا سكَت».

وأما الدرجة المتوسطة فهو أن تصوم ثلث الدهر ومهما صمت، الاثنين والخميس وأضفت إليه رمضان، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام، وهو زيادة على الثلث، لكن لا بد أن ينكسر يوم من أيام التشريق، وترجع الزيادة إلى ثلاثة أيام، ويتصور أن ينكسر في العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام، فترجع الزيادة إلى يوم واحد، فتأمل حسابه تعرفه. فلا ينبغي أن ينقص من هذا القدر صومك، فإنه خفيف على النفس، وثوابه جزيل.

(١) متفق عليه.
(٢) مرنت: اعتادت وألفت.
(٣) متفق عليه.
(٤) أخرج النسائي نحوه، والترمذي، وإسناده صحيح.
(٥) الهذرمة: الإسراع في القراءة والكلام.

وأما درجات أسراره فثلاث:

أدناها: أن يقتصر على الكفّ عن المُفطِّرات، ولا يكف جوارحه عن المكاره، وذلك صوم العوام وهو قناعتهم بالاسم.

الثانية: أن تضيف إليه كف الجوارح، فتحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر بالرّيبة وكذا سائر الأعضاء.

الثالثة: أن تضيفَ إليه صيانة القلبِ عن الفكر والوسواس، وتجعله مقصوراً على ذكر الله عزَّ وجلّ، وذلك صومُ خصوصِ الخصوصِ وهو الكمال في الصوم.

ثم للصيام خاتمة بها يَكْمُلُ، وهو أن يفطر على طعامِ حلالٍ لا على شُبْهة، وأن لا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضَحْوة، فيكون قد جمع بين أكلتين دفعة واحدة، فتثقل معدته وتقوى شهوته، ويبطل سرّ الصوم وفائدته، ويُفضي إلى التكاسل عن التهجّد، وربما لم يستيقظ قبل الصبح، وكلّ ذلك خُسران وربما لا توازيه فائدة الصوم.

* * *

الأصل الرابع: في الحج

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال ﷺ: «من ماتَ ولم يحجَّ، فليمُتْ إن شاءَ يهودياً وإنْ شاء نصرانياً»[١]، وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس...»[٢]. الحديث.

وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها في كتاب الإحياء. وننبهك الآن على آداب دقيقة، وأسرار باطنة.

أما الآداب فسبعة:

الأول: أن ترتادَ للطريق رفيقاً صالحاً، ونفقةً طيبةً حلالاً، فالزادُ الحلالُ ينور القلبَ، والرفيقُ الصالحُ يذكّر الخيرَ ويزجرُ عن الشر.

الثاني: أن يخلّيَ يده عن مال التجارة كيلا يتشعب فكره، وينقسم خاطره ولا يصفو للزيارة قصده.

الثالث: أن يوسع في الطريق بالطعام ويطيّب الكلام مع الرفقاء والمُكاري[٣].

الرابع: أن يترك الرَّفَثَ[٤] والجِدَال والتحدّث بالفضول في أمر الدنيا، بل يقصر لسانه ـ بعد مهمات حاجاته ـ على الذكر[٥] وتلاوة القرآن.

---

(١) أخرجه ابن عدي والترمذي وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر.
(٣) المكاري: صاحب الدواب التي يؤجرها للمسافرين.
(٤) الرفث: قول الفحش.
(٥) في المطبوعة: الفكر.

الخامس: أن يركب زاملة[1] دون المحمل، ويكون رثَّ الهيئة أشعث أغبر، غير متزين، بل على هيئة المساكين، حتى لا يُكتَبَ في جملة المُترفِّهين[2].

السادس: أن ينزل عن الدابة أحياناً ترفيهاً للدابة وتطييباً لقلب المكاري، وتخفيفاً للأعضاء بالتحرك، ولا يحمّل الدابة ما لا تطيق، بل يرفق بها ما أمكن.

السابع: أن يكون طيّبَ النفس بما أنفقَ من نفقةٍ، وبما أصابَهُ من تعب وخسران، وأن يرى ذلكَ من آثار قبول الحج فيحتسب الثواب عليه.

وأما أسراره فكثيرة نرمز منها إلى فنّين:

أحدهما: أنه وُضِعَ بدلاً عن الرّهبانية التي كانت في المِلَل كما ورد به الخبر[3]. فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمة محمد ﷺ فشرّف البيت العتيق، وأضافه إلى نفسه، ونَصَبَه مقصداً لعباده، وجعلَ ما حوالَيْه حرماً لبيته تفخيماً لأمره، وجعلَ عرفات كالميدان على فِنَاءِ حَرَمِهِ وأكّد حرمة الموضع بتحريم صيدِهِ وشجرِهِ ووضَعَه على مثال حضرة الملوك ليقصده الزُّوَّارُ من كل فج عميق، شعثاً[4] غُبْراً[5]، متواضعين لرب العالمين، خضوعاً لجلاله، واستكانةً لعزَّتِهِ، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت، أو يحويه مكان، ليكون ذلك أبلغَ في رقِّهم وعبوديتهم. ولذلك كلفهم أعمالاً غريبة لا تناسب الطبعَ والعقلَ، ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية، وامتثال الأمر من غير معاونة باعثٍ آخرِ، وهذا سر عظيم في

(١) في المطبوعة: راحلة، والزاملة: هي الناقة يحمل عليها متاعه ويركب غيرها.
(٢) في المطبوعة: المترفين.
(٣) سئل رسول الله ﷺ عن الرهبانية والسياحة فقال: «أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شَرَف» رواه أبو داود عن أبي أمامة.
(٤) في المطبوعة: ضعفاء.
(٥) غُبْر: جمع أغبر، ومعنى أغبر ما لونه الغبرة، وهي هنا كناية عن التقشف وإذلال النفس.

الاستعباد. ولذلك قال ﷺ: «لَبَّيْكَ بحَجةٍ حقاً تعبّداً ورقّاً»[1].

الفن الثاني: إن هذا السَّفَر وُضِعَ على مثال سَفَرِ الآخرة، فلْيتذَكَّر المريدُ بكل عملٍ من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازياً له، فإن فيه تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر المستبصر.

فتذكَّر من أول سَفَرِكَ عند وَداعِكَ أهلَكَ، وداع الأهلِ في سكرات الموت، ومن مفارقة الوطن الخروجَ من الدنيا، ومن ركوب الجمل ركوبَ الجنازة، ومن الالتفاف في أثواب الإحرام الالتفاف في أثواب الكفن، ومن دخول البادية إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هَوْلِ قُطّاع الطريقِ سؤالَ مُنكَرٍ ونكير[2]، ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه، ومن انفرادِكَ عن أهلك وأقاربكَ وحشةَ القبرِ ووحدتَهُ، ومن التلبية إجابة داعي الله عزَّ وجلّ عند البعث، وكذلك في سائر الأعمال فإن في كل عمل سراً وتحته رمزاً، يتنبه له كل عبد بقَدْرِ استعداده للتنبه، بصفاء قلبه وقصور همه على مهمات الدين.

* * *

(١) أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس.
(٢) الملكان اللذان يسألان الميت في قبره.

الأصل الخامس: في قراءة القرآن

قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ عبادَةِ أمتي قراءةُ القرآن»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لو كانَ القرآنُ في إهاب ما مستَّه النار»[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من شفيع أفضلُ منزلةً عندَ اللهِ يومَ القيامةِ منَ القرآنِ لا نبيٌّ ولا ملكٌ ولا غيرُه»[٣]، وقال عليه السلام: «يقول الله سبحانه: من شَغَلتْه قراءةُ القرآنِ عن دعائي ومسألتي أعطيتُه أفضلَ ثوابِ الشاكرين»[٤].

واعلم أن لقراءة القرآن آداباً ظاهرة وأسراراً باطنة.

أما الآداب الظاهرة فثلاثة:

الأول: أن تقرأه باحترام وتعظيم، ولن تلزَم الحرمةُ قلبكَ ما لم تلزم هيئةُ الحرمةِ ظاهرَكَ، وقد عرفتَ كيفيةَ علاقة القلبِ بالجوارحِ ووجهَ ارتفاعِ الأنوار منها إليه.

وهيئة الحرمة: أن تجلس وأنتَ على الطهارةِ ساكناً مطرقاً مستقبلَ القبلةِ غيرَ متكئ ولا متربع ولا نائم، كما تجلس بين يدي المقرئ، وتقرأهُ بترتيلٍ وتفخيمٍ وتُؤَدَةٍ حرفاً حرفاً من غير هذرمة. قال ابن عباس ـ رضي الله

---

(١) رواه أبو نعيم من حديث النعمان بن بشير، وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل بن سعد. وأحمد والدارمي من حديث عقبة بن عامر. ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي من حديث عصمة بن مالك بإسناد ضعيف.

(٣) رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً، وروى مسلم من حديث أبي أمامة نحوه.

(٤) روى الترمذي نحوه وقال: حسن غريب. ورواه ابن شاهين بلفظ المؤلف.

عنهما ـ: «لأن أقرأ إذا زُلْزِلَتْ» «والقارعة» أتدبَّرهما أحب إلي من أنْ أقرأَ «البقرة وآل عمران» تهذيراً.

الثاني: أن تتشوقَ في بعضِ الأوقاتِ إلى أقصى درجاتِ الفضل فيه، وذلك بأن تقرأهُ في الصلاةِ قائماً، خصوصاً في المسجد، وبالليلِ، لأن القلبَ في الليلِ أصفى لأنـه أفرغ. فإنكَ وإن خلوتَ بـالنهارِ فَتَرَدُّد الخلقِ وحركاتهم في أشغالهم، تُحرّك باطنَكَ، وتشغلكَ، خصوصاً إن كنت تتوقع أن تُطْلَبَ لشغلٍ من الأعمال والأشغال. وكيفما قرأته، ولو مضطجعاً من غير طهارة فلا تخلو عن الفضل، فإن الله تعالى أثنى على الجميع، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. ولكن ما ذكرناه في زيادة الفضل.

فإن كنتَ من مريدي الآخرة، فلا يسهل عليك ترك الفضل، وقد قال علي ـ رضوان الله عليه ـ «من قَرأ القرآن وهو قائمٌ في الصلاة، فله بكلِّ حرفٍ مئةُ حسنة، ومن قرأ القرآنَ في غير صلاةٍ وهو على طهارة، فخمس وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء، فعشر حسنات».

الثالث: في مقدار القراءة، وله ثلاث درجات:

أدناها أن يختم في الشهر مرة، وأقصاها أن يختم في ثلاثة أيام مرة. وقال ﷺ: «من قَرَأَ القرآنَ في أقلّ من ثلاث لم يَفْقَهْه[١]» وأعدلُها أن يختم في الأسبوع مرة. وأما الختم في كل يوم فغيره مستحب.

وإياكَ أن تتصرف بعقلك فتقول: ما كان خيراً ونافعاً فكلما كان أكثر كان أنفع. فإن عقلك لا يهتدي إلى أسرار الأمور الإلـٰهية. وإنما تتلقاها قوة النبوة، فعليك بالاتّباع فإن خواص الأمور لا تدرك بالقياس.

أو ما ترى كيف نُدِبْتَ إلى الصلاة ونُهيتَ عنها جميع النهار وأُمرت بتركها بعد الصبح وبعد العصر وعند الطلوع وعند الغروب والزوال وذلك

---

(١) رواه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمر، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ينتهي إلى قدر ثلث النهار وكيف وأثر الفساد ظاهر على قياسك هذا، فإنه كقول القائل: الدواء نافع للمريض، فكلما كان أكثر كان أنفع. وأنت تعلم أن كثرة الدواء ربما يقتل.

وأما الأسرار الباطنة فخمسة:

الأول: أن تستشعر في أول قراءتك عظمة الكلام باستشعار تعظيم المتكلم، فتُحضِرَ في قلبكَ العرشَ والكرسيَّ، والسمواتِ والأرضَ وما بينهما، من الملائكة والجن، والإنس والحيوانات، والنباتات والمعادن. وتتذكر أن الخالق لجميعها واحد، وأن الكلَّ في قبضةِ قدرتهِ، متردِّدٌ بين فضله ورحمته، وأنك تريد أن تقرأ كلامه وتنظر به إلى صفة ذاته، وتطالع جمال علمه وحكمته، وتعلم أنه كما لا يمس ظاهر المصحف إلا المطهّرون بظواهرهم، وهو محجوب عن غيرهم، فكذلك حقيقة معناه وباطنه، محجوب عن باطن القلب، إلا إذا كان مطهراً من كل رجس وخبث من خبائثِ الباطن، وبمثل هذا التعظيم كان عكرمة، إذا نشر المصحف ربما غُشي عليه، يقول: «هذا كلام ربّي، هذا كلام ربي».

واعلم أنه لولا أنَّ أنوار كلامه العزيز وعظمته غُشِّيت بكسوة الحروف لما أطاقت القوة البشرية سماعه لعظمته وسلطانه وسبحات نوره[1]، ولولا تثبيت الله عزَّ وجلّ موسى ـ عليه السلام ـ لما أطاقَ سماعَهُ مجرداً عن كِسوةِ الحروف والأصوات، كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حتى صار دكاً دكاً.

الثاني: أن تقرأ بتدبر معانيه إن كنت من أهله، وكل ما يجري لسانك به في غفلة فأعِدْه، ولا تَعدَّهُ من عملِكَ، لأن الترتيلَ في الظاهر للتمكن من التدبر. قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «لا خيرَ في عبادةٍ لا فقهَ فيها، ولا في قراءة لا تدبُّرَ فيها».

وإيـاك أن تصير مشغوفاً بعدد الختمات على نفسك، فلأن تردد آية

(١) سبحات نوره: سبحات وجه الله: أنواره، وسبحة الله: جلاله (الكليات).

واحدةً ليلةً تتدبَّرُها خير لك من ختمتين، فقد قرأ رسول الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم، فردَّدها عشرين مرةً»[1]. وقال أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ: «قام رسول الله ﷺ بنا ليلة، فقام بآية يردِّدها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]»[2]، وقام تميم الداري ليلة بقوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١] وقام سعيد بن جبير ليلة بقوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. ولعل الأليق بك ما قاله بعض العارفين إذ قال: «لي في كل جمعة ختمة، ولي في كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة، ما فرغت منها بعد». وذلك بحَسْبِ درجاتِ التدبّر، فإن القلبَ في بعض الأوقات لا يحتمل التدبر الطويل، فليكن للتدبر الطويل ختمة خاصة.

الثالث: أن تجتني في تدبركَ ثمارَ المعرفةِ من أغصانها، وتقتبسها من أوطانها، ولا تطلبِ الترياقَ من حيثُ تطلبُ منه الجواهر، ولا الجواهرَ من حيث يطلب منه المسك والعود، فإن لكل ثمرةٍ غصناً، ولكل جوهرٍ معدناً، وإنما يتيسر لك هذا بأن تعرف الأصنافَ العشرةَ التي حصرنا فيها أقسام القرآن، وهي عشرة معادن.

فما يتعلق من القرآن بالله تعالى، وبصفاته وأفعاله، فاقتبس منه معرفة الجلال والعظمة.

وما يتعلق بالإرشاد إلى الصراط المستقيم فاقتبِسْ منه معرفةَ الرحمةِ والعطفِ والحكمةِ.

وما يتعلق بإهلاك الأعداء فاقتبس منه معرفة العزّة والاستغناء والقهر والتجبر.

وما يتعلق بأحوال الأنبياء، فاقتبس منه معرفة اللطف والنعمة والفَضل والكرم. وكذلك في كل صنف ما يليق به. فلا تنظرنَّ إليه بعين

(١) رواه أبو ذر الهروي في معجمه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.
(٢) رواه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

واحدة، وشرحُ ذلك يطول.

الرابع: أن تتخلى عن موانع الفهم وهي الأكنّة[1] التي تمنع من الفهم. قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]. وقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الشياطينَ يحومون على قلوبِ بني آدم لنَظَروا إلى ملكوتِ السماء»[2].

واعلم أن معاني القرآن من جملة الملكوت، وإنما حروفها من عالم الشهادة، والأكنّة التي يُبتلى بها المتقي المتعطش إلى الحقّ نوعان، أما ما ابتلي به ضعيف الإيمان من حجاب الشك والجحود، وأما ما ابتلي به المنهمك في الدنيا من حجاب الشهوات المستغرقة للقلب، فذلك جليّ لا يخفى كونه مانعاً من فهم لطائف القرآن واقتباس أنواره فبها حُجِبَ أكثر الخلق.

وأما العُبّاد المتجرّدون لطريق الله عزَّ وجلّ، فيحجبون بنوعين آخرين:

أحدهما: الوسواسُ الصارفُ للقلب إلى التفكيرِ في النيةِ كيف كانت في الابتداء هل بقيت الآن، وهل هو مخلِصٌ في الحال؟ هذا إن كان في الصلاة، أو الوسواس الصارف للهمّ إلى تصحيح مخارجِ الحروف والتشكك فيها وإعادتها لأجل ذلك، وهذا يجري في الصلاة وغيرها، فكيف يطالع أسرار الملكوت قلبٌ محجوبٌ مصروفٌ إلى مطالعةِ الشفتينِ وكيفيةِ انطباقهما واللسان والحنك وكيفية انسلال الهواء من اصطكاكهما؟ وهو معنى تقطيع الحروف وتصحيحها.

النوع الثاني: التقليد لظواهر معاني القرآن والجمود عليها، وذلك حجاب عظيم عن الفهم، ولست أعني به التقليدَ الباطل، كتقليد المبتدع،

(١) أكنة: أغطية أو ستائر، وهي الحجب التي تحجب الأشياء وتحول دون رؤيتها.
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة بنحوه.

بل التقليد الحق أيضاً. فإن الحق الذي كُلِّفَ الخلقُ اعتقادَهُ له درجات، وله مبدأ ظاهر وهو كالقشر في المثال، وله غور باطن وهو كاللُّباب. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً، وحداً ومطلعاً»[1]. فالجامد على الظاهر الظانّ أنه ليس وراءه مرقىً يرتقى إليه. كيف يتصور أن تنكشف له الأسرار، فقد كُلِّف الخلقُ مثلاً أن يعتقدوا أن الله تعالى يُرى، ولكن للرؤية ظاهر وسرّ، فمن اعتقد أن رؤية الله تعالى مناسبة للرؤية التي يألفها الإنسان في هذا العالم، كيف يتصور أن يتطلع على سرّ قوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكيف يفهم أن ذلك ممتنع في هذه الحياة الدنيا بهذه العين الموقوفة على ملاحظة الجهات والأقطار وكيف يدرك قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] مع قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. ويكفيك هذا المثال الواحد، فلسنا نكشف لك أكثر من هذا، ولسنا نقصد في هذا الأصل إلا التلويحات لمبادئ الأسرار تشويقاً للمستعدين لها.

الخامس: أن لا تقتصر على اقتباس الأنوار، بل تضيف إليها اقتباس الأحوال والآثار، وذلك أن لا تقرأ آية إلا وأن تصير بصفتها، فيكون لك بحسبِ كل فهمٍ حالٌ ووجدٌ:

فعند ذكر الرحمة، وعند المغفرة، تستبشر كأنك تطير من الفرح.

وعند ذكر الغضب وشدة العقاب، تتضاءل كأنك تموت من الفزع.

وعند ذكر الله وأسمائه وعظمته تتطأطأ وتتصاغر حتى كأنك تنمحق من مشاهدة الجلال.

وعند ذكر الكفار ما يستحيل عليه من ولد وصاحبة، تنكسر وتغض صوتك كأنك تنطمس من الحياء، وكذلك في كل صنف من الأصناف العشرة، وذلك يطول.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود.

وليظهر أثر ذلك على جَوارحك من بكاءٍ عندَ الحزنِ، وعرقِ جبينٍ عند الحياءِ، واقشعرارِ الجلدِ، وارتعاد الفرائص عند الهيبة والجلال، وانبساط في الأعضاء واللسان والصوت عند الاستبشار وانقباض فيها عند الاستشعار.

فإذا فعلت ذلك اشترك في نيل حظ القرآن، جميعُ أعضائك، وفاضت آثار القرآن على عوالمك الثلاثة، أعني: عالَم الملكوت[1]، وعالَم الجبروت[2]، وعالَم الشهادة[3]. واعلم أنك مركبٌ من العوالم الثلاثة ففيك من كل عالم جزء.

واعلم أنَ محضَ أنوارِ المعرفة تفيضُ من عالَمِ الملكوتِ إلى سرّ القلب، لأنه أيضاً من الملكوت، وأما آثارها من الخشية والخوف والسرور والهيبة وسائر الأحوال، فإنها تهبط من عالم الجبروت، ومهبطها الصدر الذي هو عالم الجبروت، وهو عالَم آخر من عوالمك، كنَّينا عنه بالصدر كما كَنَّينا عن الأول بالقلب، لأن عالم الجبروت بين عالم الملكوت وعالم الشهادة، كما أن الصدر بين القلب والجوارح، وأما البكاء والشهيق والاقشعرار وارتعاد الفرائص فتنزل من عالم الشهادة، ومهبطها الجوارح لأنها من عالم الشهادة، وما أراك تفهم من القلب غير اللحم الصنوبري الشكل، ومن الصدر غير العظم المحيط به، فإنك لا تدرك من كل شيء إلا غلافه وقشره، وما أبعدك عن درك الحقائق، فإن هذا يوجد للبهائم والميت، ولا تنزل عليه أنوار المعارف والعلوم ولا آثارها من الخشية والهيبة والسرور.

---

(١) عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس. التعريفات للجُرجاني.

(٢) عالم العظمة أي عالم الأسماء والصفات الإلـٰهية وعند الأكثرين عالم الأوسط (أي بين الملك والملكوت) وهو رأي الإمام الغزالي كما يقول بعد أسطر. انظر التعريفات للإمام الجرجاني.

(٣) عالم المحسوسات ويعبر عنه أيضاً (بعالم الملك).

فإن أردت أن تستنشق شيئاً من روائح هذه الأسرار ـ وما أراك تريد ـ فقد أخذ الشيطان بمخنقك بحبال الشّهوات، فعليك بباب التوحيد من أول كتاب التوكل إن أردته(في الإحياء).

واعلم أن القرآن كالشمس، وفيضانُ أسرارِ المعارف منه على القلب كفيضان أنوارِ الشمسِ على الأرض، وسريانُ آثار الخوف والخشية والهيبة وسائر الأحوال منه على الصدر كسريان حرارة الشمس في باطن الأرض، تابعاً لإشراق الأنوار، فإن الخشية أثر نور المعرفة، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] فانتشار الحركات والتغيرات إلى الجوارح من البكاء والعرق والاقشعرار والارتعاد، منبعثٌ من آثار الخشية، وسائرُ الأحوالِ، كحركة أجزاء الأرض بتصاعد الأبخرة والأدخنة منها، بتصعيد حرارة الشمس، فالحركةُ تبعُ الحرارة، والحرارة تبعُ النور، والنورُ تبعُ وقوع المحاذاة بين الأرض والشمس.

فاجتهد بأن تحاذي بوجه قلبك شطر شمس القرآن وتستضيء بأنواره. كذلك فإن لم تطق ذلك فاصغِ إلى النداء الوارد من جانب الطُّور الأيمن، فإن آنست من جوانبه ناراً، فخذ منه قبساً وأشعل منه سراجاً، فإن كان زيتك صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فإذا مسته النار انبعث منه الضياء، ووجدت على النار هدى، وقام في حقك مقام الشمس المنتشرة الإشراق والضياء، والله يهدي من يشاء والله واسع المغفرة.

* * *

الأصل السادس: في ذكر الله عزَّ وجلّ في كل حال

قال الله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، وقال ﷺ: «لذكرُ اللهِ بالغداةِ والعشي أفضلُ من حَطْمِ السيوفِ في سبيلِ الله ومن إعطاءِ المالِ سَحّاً»[1]، وقال ﷺ: «ألا أنبئكُم بخيرِ أعمالِكُم وأزكاها عند مليككُم، وأرفعِها في درجاتِكُم، وخيرٌ لكم من إعطاء الورقِ والذهب، وخيرٌ لكم من أن تَلْقَوْا أعداءكم فتضربوا أعناقَهُم ويضربُوا أعناقَكُم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: «ذكرُ الله»[2]، وقال ﷺ: «سَبَقَ المُفَرِّدُون سَبَقَ المفَرِّدون» فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ فقال: «المُسْتَهْتَرون بذكر الله، وضَعَ ذكرُ اللهِ عنهمْ أوزارَهُمْ فَوَرَدوا القيامةَ خِفافاً»[3].

واعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكرَ أفضلُ الأعمال، ولكنْ له أيضاً قشورٌ ثلاثة، بعضها أقربُ إلى اللبِّ من بعض، وله لبٌّ وراء القشور الثلاثة. وإنما فَضْلُ القشور لكونها طريقاً إليه.

فالقشر الأعلى منه، ذكر اللسان فقط.

والثاني: ذكر القلب إذا كان القلب يحتاج إلى مراقبة حتى يحضر مع الذكر، ولو ترك وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار.

والثالث: أن يستمكنَ الذكرُ من القلب ويستوليَ عليه، بحيث يحتاجُ

(١) قال العراقي: رويناه من حديث أنس بسند ضعيف وهو معروف من قول ابن عمر رضي الله عنهما كما رواه ابن عبد البر في التمهيد.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده: من حديث أبي الدرداء.

(٣) رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ورواه الطبراني عن أبي الدرداء. ورواه مسلم بلفظ قريب. والمُسْتهتر بالشيء: الذي فُتن به ولزمه غير مبالٍ بنقد. (الوسيط).

إلى تكلفٍ في صرفِهِ عنه إلى غيره. كما احتيجَ في الثاني إلى تكلفٍ في قرارِهِ معه ودوامِهِ عليه.

والرابع: وهو اللُّبابُ ـ أن يستمكنَ المذكورُ من القلب، وينمحيَ الذكر ويخفى، وهو اللُّبابُ المطلوب. وذلك بأن لا يلتفت إلى الذكر ولا إلى القلب. بل يستغرق المذكورُ جملتَه، ومهما ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر، فذلك حجاب شاغل، وهذه الحالة التي يعبر عنها العارفون بالفناء، وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظواهرِ جوارحه، ولا من الأشياء الخارجة عنه، ولا من العوارض الباطنة فيه. بل يغيب عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك، ذاهباً إلى ربه أولاً، ثم ذاهباً فيه آخراً.

وإن خطر له في أثناء ذلك أنه فني عن نفسه بالكلية فذلك شوب[1] وكدورة. بل الكمال في أن يفنى عن نفسه، ويفنى عن الفناءِ أيضاً، فإن الفناءَ عن الفناءِ غايةُ الفناءِ.

وهذا قد يظنه الفقيه الرسمي، أنه طامات[2] غير معقولة[3]، وليس كذلك، بل هذه الحالة لهم ـ بالإضافة إلى محبوبهم ـ كحالتك في أكثر الأحوال بالإضافة إلى محبوبك من جاه أو مال أو معشوق، فإنك قد تصيرُ مُسْتغرقاً لشدةِ الغضبِ بالفكر في عدوك، ولشدة التفكرِ في معشوقكَ، حتى لا يكونَ فيك مُتَّسعَ لشيءٍ أصلاً، فتُخاطبُ فلا تَفْهَم، ويَجْتازُ بين يديك غيرُكَ فلا تراهُ وعيناكَ مفتوحتان، ويُتكلم عندَكَ فلا تَسمَعْ وما بأُذنيك صَمَمٌ، وأنت في هذا الاستغراق غافل عن كل شيء وعن الاستغراق أيضاً. فإن الملتفت إلى الاستغراق مُعرضٌ عن المستغرق به.

وإنما سمَّوا هذه الحالة فناءً، وإن كان الشخص والطَّلَلُ باقيين لأن

(١) الشوب: ما اختلط بغيره من الأشياء. أي مازال في نفسه شوائب وكدورة.

(٢) طامات: جمع طامة وهي الداهية، أو جمع طَمَّة: وهي الضلال والحيرة. (الوسيط)

(٣) حتى لا تكون من هؤلاء راجع كتاب العبودية للإمام ابن تيمية، ص٤٤ ط. دار الكتب العلمية الأولى ١٩٨١م. وقد نقلنا فقرات منه في بحث التوكل. فانظرها ص٢٣٧.

الأشخاصَ والأطلالَ بل سائرُ المحسوساتِ ليس لها حقيقةُ الوجود(١)، بل الوجود الحقيقي لعالَمِ الأمرِ والملكوت. والقلب من عالم الأمر. قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]، والقوالبُ من عالم الخلق، وأعني بالقلب اللطيفة الذاكرة العارفة التي هي مهبط الأنوار الإلـٰهية دون القلب الظاهر، فإن ذلك من عوالم الخلق، فلا يفهم من هذا إشارة إلى قِدَم الروحِ وحدوث القالب بل هما حادثان، إنما أعني بالخلق ما تقع عليه المساحة والتقدير، وهي الأجسام وصفاتها. وأعني بعالم الأمرِ ما لا يتطرق إليه التقدير. والعالم الجِسمانيُّ ليس له وجود حقيقي، بل هو من ذلك العالم كالظل من الأجسام، وليس لظل الإنسان حقيقة الإنسان، وليس للشخص حقيقة الوجود، بل هو ظل الحقيقة، والكل من صنع الله تعالى.
قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴾ [الرعد: ١٥]. وسجودُ عالَمِ الأمرِ طَوعٌ لله، وسجودُ الظلال كُرْهٌ، وتحته سرٌ بل أسرار، تحرك أوائلها سلسلةَ المجانين الحمقى، فضلاً عن أواخرها، فلنتجاوزها. فقد أفهمناك ما أرادوه بالفناء. فدع عنك الغيبة والتكذيب بما لم تحط بعلمه كما قال تعالى: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾ [الأحقاف: ١١]، فإذا فهمت الفناء في المذكور فاعلم أنه أول الطريق، وهو الذهاب إلى الله عزَّ وجلّ، وإنما الهُدى بعده، أعني بالهُدى هُدى الله كما قال الخليل ـ صلوات الله عليه ـ ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩].
فأول الأمر ذهاب إلى الله ثم ذهاب في الله، وذلك هو الفناء والاستغراق به، ولكن هذا الاستغراق أولاً يكون كبرقٍ خاطف قلَّ ما يثبت ويدوم، فإن دام ذلك صار عادة راسخة وهيئة ثابتة، عرَج به إلى العالم الأعلى وطالع الوجود الحقيقي الأصفى، وانطبع فيه نقش الملكوت وتجلى له قدس اللاهوت(٢).

(١) في المخطوطة: الملأ.
(٢) اللاهوت: الألوهية، علم اللاهوت: علم يبحث عن العقائد المتعلقة بالله تعالى. (الوسيط).

وأول ما يتمثل له من ذلك العالم: جواهر الملائكة، وأرواح الأنبياء والأولياء في صور جميلة، يفيض إليه بواسطتها بعض الحقائق ـ وذلك في البداية إلى أن تعلوَ درجته عن المثال، فُيكافَحُ بصريح الحق في كل شيء.
فإذا رُدّ إلى هذا العالم المجازي الذي هو كالظلال، نظر إلى الخلق نظر مترحِّم عليهم لحرمانهم من مطالعة جمال حظيرة القدس، وتعجب منهم في قناعتهم بالظلال، وانخداعهم بعالم الغرور وعالم الخيال، فيكون معهم حاضراً بشخصه، غائباً بقلبه، متعجباً هو من حضورهم، ويتعجبون هم من غيبته.
فهذه ثمرة لُباب الذكر، وإنما مبدؤها ذكر اللسان، ثم ذكر القلب تكلفاً، ثم ذكر القلب طبعاً ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر. وهذا سرّ قوله ﷺ: «من أحبَّ أن يَرتعَ في رياضِ الجنةِ فليكثر ذكرَ الله عزَّ وجلّ»(١)، بل سر قوله: «يفضل الذِّكرُ الخفُي على الذكر الذي تسمعُهُ الحَفظةُ سبعين ضعفاً»(٢).
واعلم أن كل ذكر يَشعر به قلبُكَ، تسمعه الحفظة، فإن شعورهم يقارن شعورك، وفيه سر، حتى إذا غاب ذكرك عن شعورك بذهابك في المذكور بالكلية، فيغيب ذكُركَ عن شعورِ الحفظةِ، وما دام القلبُ يشعر بالذكر، ويلتفت إليه، فهو معرضٌ عن الله عزَّ وجلّ، وغير منفكٍّ عن شركٍ خفيٍ حتى تصير مستغرقاً بالواحد الحقّ فذلك هو التوحيد.
وكذلك القول في المعرفة فمن طلب المعرفة للمعرفة فقد قال بالثاني، ومن وجدها، كمثل أن لا يجدها بل يجد المعروف بها، فهو الذي استمكن من حقيقة الوصال، وحلَّ بُحبوحة حظيرة القدس.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف. ورواه الترمذي بلفظ: «إذا مررتم برياض الجنة..»، وقال: حديث حسن غريب.
(٢) أخرج البيهقي في شعب الإيمان: «يفضل عمل السر على عمل العلانية».

فإن قلت: فلم اختُصَّت هذه المكاشفاتُ بحالِ الفناءِ؟ فاعلم أن هذه قصة يطول فيها نظرُ الناظر، وذلك إذا تأملت لم تقصّر عن أن تُدرك كونَ الحواسِّ وعوارضَ النفسِ وشهواتها جاذبة إلى هذا العالم المحسوس، وهو عالم الزور والغرور، ولذلك ينكشف صريح الحق بالموت، لبطلان سلطان الحواس والخيالات المولية بوجه القلب إلى عالم السفل.

فإن قصّر عنك سلطانُ الحواس بالنوم، طولعت بشيء من الغيب على قدر استعدادك وقبولك وهمّتك، ولكن بمثال يحتاج إلى التعبير[1]، وما عندي أنك لم تصادف من نفسك رؤيا صادقة اطلّعت بها على أمرٍ مُستقبل، لكن الخيال لا يفترُ في النوم، وإن ركدت الخيال، فلذلك يضعف الاطلاع ولا يخلو من شَوْب المثال.

وأما الفناء فعبارة عن حالةٍ تركدُ فيها الحواس ولا تشتغل، ويسكن فيها الخيال ولا يُشوِّش. فإن بَقِيَتْ في الخيال بقيةٌ مغلوبةٌ، لم يؤثر إلا في محاكاة ما يتجلى من عالم القدس، حتى يتمثل الأنبياء والملائكة والأرواح المقدسة في قوالب الخيال.

فهذه أمور نبهت عليها لتكون متشوقاً إلى أن تصير من أهل الذوق لها. فإن لم تكن، فمن أهل العلم بها، فإن لم تكن، فمن أهل الإيمان بها ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وإياك أن تكون من المنكرين لها فتلقى العذاب الشديد، إذا كوشِفتَ بالحق عند سكرات الموت الذي كنت منه تحيد، وقيل لك: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة قٓ: ٢٢].

واعلم أن الإيمان والعلم والذوق ثلاث درجات متباعدة:

فإن العنّين[2] مثلاً يتصور أن يصدق بوجود شهوة الوقاع لغيره، بأن يقبل ذلك ممن يحسن ظنه به، ولا يتهمه بالكذب، وذلك إيمان.

(١) أي تفسير الرؤيا.

(٢) العنين: من لا يأتي النساء عجزاً.

ويتصور أن يعلم بالبرهان وجوده لغيره، وهو علم. ومأخذه قياس أن ينظر إلى شهوته للطعام مثلاً فيقيس بها شهوة الوقاع، وكل ذلك بعيد عن إدراك حقيقة الشهوة بوجودها له.

وكذلك المرض يعرفه العامي الصحيح ويؤمن به، ويعرفه الطبيب الصحيح بالبرهان وهو علم، ومن لم يصر مريضاً لم يحصل له الذوق.

فكذلك القول في الفناء في التوحيد. فالذوق مشاهدة، والعلم قياس، والإيمان قبول بحسن الظن مع الانفكاك عن التهمة.

فاجتهد أن تصير من أهل المشاهدة[1]. فليس الخبر كالمعاينة.

فإن قلتَ: فقد عظَّمتَ أمرَ الذكر فهل هو أفضل أم قراءة القرآن؟ فاعلم أن قراءة القرآن أفضل للخلق كلّهم إلا للذاهب إلى الله عزَّ وجلّ، وهو أفضل للذاهب إلى الله في جميع أحوال بدايته، وفي بعض أحواله في نهايته، فإن القرآن وهو المشتمل على صنوف المعارف والأحوال والإرشاد إلى الطريق، فما دام العبد مفتقراً إلى تهذيب الأخلاق وتحصيل المعارف، فالقرآن أولى به فإن جاوز ذلك واستولى الذكر على قلبه بحيث يرتجى له أن يُفضي به ذلك إلى الاستغراق، فمداومة الذكر أولى به، فإن القرآن يجاذب خاطره، ويَسْرح به، في رياض الجنة. والمريد الذاهب إلى الله تعالى لا ينبغي أن يلتفت إلى الجنة ورياضها، بل ينبغي أن يجعل همه هماً واحداً، وذكره ذكراً واحداً، حتى يدرك درجة الفناء والاستغراق، فلذلك قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وكذلك من ينتهي إلى درجة الاستغراق ولا يدوم ولا يثبت عليه، فإذا رُدَّ إلى نفسه فقد تنفعه تلاوة القرآن، وهذه حالة نادرة عزيزة كالكبريت الأحمر، يُتحدث به ولا يوجد فتكون تلاوة القرآن أفضل مطلقاً، لأنه أفضل في كل حال، إلا في حال من شغله المتكلم عن الكلام، إذ لُبابُ القرآن معرفة المتكلم بالقرآن، ومعرفة

(١) والذي ورد في الحديث الصحيح: «أن تعبد الله كأنك تراه».

جماله والاستغراق به. والقرآن سائق إليه وهادٍ نحوه، ومَن أشرف على المقصد لم يلتفت إلى الطريق.

فإن قلتَ: فأيّ الأذكار أفضل؟ فاعلم أن الأفضل ـ كما ذكرناه ـ استيلاء المذكور على القلب. وهو شيء واحد لا كثرة فيه، حتى يختار أفضله، وذلك عين الجمع والتوحيد. وإنما التفرقة والكثرة قبل ذلك، فذلك ما دمت في مقام الذكر باللسان أو القلب، وعند هذا قد ينقسم الذكر إلى الأفضل وغير الأفضل وفضله بحسب الصفات التي يعبَّر عنها بالأذكار.

والصفات والأسماء الواردة في حق الله سبحانه، تنقسم إلى ما هو حقيقة في حق العباد، ومؤولة في حقه سبحانه. كالصبور والشكور والرحيم والمنتقم وإلى ما هو حقيقة في حقه سبحانه وإذا استعمل في حق غيره كان مجازاً.

فمن أفضل الأذكار: (لا إلـه إلا الله الحيُّ القيوم)، فإن فيه اسم الله الأعظم، إذ قال ﷺ: «اسم الله الأعظم في آية الكرسي وأول آل عمران»[1]، ولا يشتركان إلا في هذا، وله سرّ يدقّ[2] عن فهمك ذكره. والقَدْر الذي يمكن الرمز إليه أن قولك: لا إلـه إلا الله يشعر بالتوحيد. ومعنى الوحدانية في الذات والرّبية[3] حقيقي في حق الله عزَّ وجلّ، غير مؤوّل، بل هو في حق غيره مجاز ومؤوّل. وكذلك الحي، فإن معنى الحي هو الذي يَشْعُرُ بذاته ويعلم ذاته. والميت هو الذي لا خبر له من ذاته، وهذا أيضاً حقيقي لله تعالى غير مؤوّل. والقيوم: يشعر بكونه قائماً بذاته، وأن كل شيء قيامه به، وهذا أيضاً حقيقي لله عزَّ وجلّ غير مؤوّل، ولا يوجد لغيره [بل لا يتصور لغيره][4].

---

(١) روى ابن ماجه والترمذي عن أسماء بنت يزيد قوله ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين وإلهكم إله واحد وفاتحة آل عمران ألم الله لا إلـه هو الحي القيوم»، قال الترمذي: حديث حسن. وأخرج الطبراني وابن مردويه: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور: (البقرة ـ آل عمران ـ طه).

(٢) يخفى ويغمض.

(٣) الربوبية.

(٤) زيادة من المخطوطة.

وما عداها من الأسماء الدالة على الأفعال كالرحيم والمُقْسِطِ والعَدْل وغيره، فهو دون ما يدل على الصفات، لأن مصادر الأفعال هي الصفات، والصفات أصل والأفعال تَبَع. وما عداها من الصفات التي تدل على القدرة والعلم والإرادة والكلام والسمع والبصر، فذلك مما يظن أن الثابت منها لله عزَّ وجلّ مفهوم ظواهرها. وهيهات، فإن المفهوم من ظواهرها أمور تناسب صفات الإنسان وكلامه وقدرته وعلمه وسمعه وبصره، بل لها حقائق يستحيل ثبوتها للإنسان، فيستخرج من هذه الأسامي بنوع من التأويل. فهذه يُنَبِّهُكَ على ما يحتمله فهمُك من اختصاص هذه الكلمات بكونها أعظم، ويقرب منه قولك: (سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر) لأن (سبحان الله) للتقديس[1]، وهو حقيقي في حقه. فإن القدس الحقيقي لا يتصور إلاّ لهُ تعالى. وقولك: (الحمد لله) يشعر بإضافة النعم كلها إليه، وهو حقيقي إذ هو المتفرد بالأفعال كلها تفرداً حقيقياً بلا تأويل. وهو ـ تبارك وتعالى ـ المستوجبُ الحمدَ وحدَه. إذ لا شركة لأحد معه في فعله أصلاً، كما لا شركة للقلم مع الكاتب في استحقاق المحمدة عند حسن الخطّ.

واعلم أن كل من سواه ممن ترى منه نعمة، فهو تعالى مُسخِّرٌ له كالقلم، فهذا مثال ينبهك على تفرده باستحقاق الحمد. وقولك: (لا إلـه إلا الله). فقد عرفت أنه التوحيد الحقيقي. وقولك: (الله أكبر)، فليس المعني به أنه أكبر من غيره. إذ ليس معه ـ سبحانه ـ غيره[2] حتى يقال أكبر منه، بل كل ما سواه فهو نور من أنوار قدرته[3]، وليس لنور الشمس مع الشمس رتبة المعيّة، حتى يقال: إنها أكبر منه. بل رتبة التبعية. بل معناه أنه ـ عزَّ وجلّ ـ أكبر من أن يُنال بالحواس، أو يُدرَكَ جلالُهُ بالعقل والقياس، بل أكبرُ من أن يُدرِكَ كُنْهَ جلالِهِ غيرُهُ، بل أكبر من أن يعرِفَهُ غيرُه، فإنه لا يعرف الله ـ تبارك

---

(١) للتنزيه.

(٢) من حيث الوجود والذاتي، فوجود ما سواه من المخلوقات وجود عرَضي لا يقارن مع وجود الحق سبحانه.

(٣) أي من آثار القدرة.

وتعالى ـ إلا الله . فإن منتهى معرفة عباده، أن يعرفوا أنه يستحيل منهم معرفته الحقيقية، ولا يعرف ذلك أيضاً بكماله إلا نبي أو صدِّيق . أما النبيّ ﷺ فيعبر عنه ويقول : «لا أُحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك»(١)، وأما الصِّدِّيق فيقول : «العجز عن درك الإدراك إدراك»، فإن تشوَّقت إلى زيادة تحقيق في هذا المعنى واستنكرت قولي : لا يعرف الله إلا الله، فاطلب معرفة حقيقته بالبرهان من كتاب(المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى) ويكفيك الآن هذا القدر من الرموز إلى أسرار الذكر، وفضل الأذكار منها .

* * *

(١) أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه .

الأصل السابع: في طلب الحلال

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١]، والحرام خبيث وليس بطيب . فقد قرن ـ عزَّ وجلّ ـ أكل الطيبات بالعبادات .

وقال رسول الله ﷺ : «طلب الحلال فريضة على كلِّ مسلم بعد الفريضة»(١) أي بعد فريضة الإيمان والصلاة، وقال ﷺ : «من أكل الحلال أربعين يوماً نوَّر الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(٢) وفي رواية أخرى : «زهّده الله في الدنيا»، وجاء «إن لله مَلَكاً على بيت المقدس، ينادي كل ليلة : من أكل حراماً لم يُقبل منه صَرْفٌ ولا عَدْل»(٣) . فالصَّرفُ : النافلة، والعدل : الفريضة . وقال ﷺ : «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم، وفي ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله صلاته ما دام عليه منه شيء»(٤) .

وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا(٥)، وصُمْتُمْ حتى تكونوا كالأوتاد، لم يقبل الله ذلك منكم إلا بورع حاجز» وقال : العبادة مع أكل الحرام كبنيان على السِّرْقين(٦) .

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بسند ضعيف . وقال الهيثمي : حسن .
(٢) لم يرد بهذا اللفظ وإنما ورد : «من أخلص . . » رواه أبو نعيم في الحلية .
(٣) قال العراقي : لم أقف له على أصل . وللديلمي : «من أكل لقمة من حرام لم تقبل له صلاة . . » الحديث منكر .
(٤) رواه أحمد عن ابن عمر بسند ضعيف .
(٥) الحنايا : الأقواس .
(٦) السِّرقين : الزبل والكلمة فارسية معربة .

طيب المطعم وصفاء القلب:

اعلم أن طيبَ المطعم[1] له خاصية عظيمة في تصفية القلب وتنويره وتأكيد استعداده لقبول أنوار المعرفة، وفيه سر لا يحتمل هذا الكتاب ذكره. ولكن ينبغي أن تفهم أن درجات الورع أربعة:

الدرجة الأولى: هي التي يجب الفِسْق باقتحامها، وتزول العدالة بزوالها، وهي التي يحرّمها فتوى الفقهاء.

الثانية: ورع الصالحين، وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم، وإن أفتى المفتي بحلِّهِ بناءً على الظاهر، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «دع ما يَريبُك إلى ما لا يريبك»[2].

الثالثة: ورع المتقين: قال النبي ﷺ: «لا يبلغُ العبدُ درجةَ المتقين حتى يتركَ ما لا بأسَ به حذراً ومخافةً ممَّا بِهِ بأسٌ»[3]، وقال عمر رضي الله عنه: «كنا ندعُ تسعةَ أعشارِ الحلالِ مخافةَ الوقوع في الحرام». ومن هذا الأصل كان بعضُهم إذا استحق مئةَ درهمٍ اقتصر على تسعة وتسعين، ويتركُ الواحدَ حاجزاً بينه وبين النار لخوف الزيادة.

وكان بعضهم يأخذ ما يأخذ بنُقصان حبةٍ، ويعطي ما يعطي بزيادةِ حبةٍ. ولذلك أخذ عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه أنفه حذراً من ريح المسك لبيت المال كان يوزن بين يديه، وقال: «هل يُنْتَفَعُ إلا بريحه؟».

ومن ذلك أن يتورع عن الزينة وأكل الشهوات، خيفة من أن تغلبَ النفسُ فتدْعوَه إلى الشهوات المحظورة.

ومن ذلك، ترْك النظر إلى تجمُّلِ أهل الدنيا، فإنه يحرك دواعي الرغبة في الدنيا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١] ولذلك قال عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ:

(١) أي حلاله.
(٢) رواه أحمد والنسائي وابن حبان والترمذي وصححه.
(٣) رواه الترمذي والحاكم، وابن ماجه. وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

«لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريقَ أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم». ولذلك قال السلف: «من رقّ ثوبه رق دينه».

فالحلال الطلق الطيب كل حلال انفكَّ عن مثل هذه المخالفة، ولم يحذر فيها آفة[1].

الرابعة: ورعُ الصدّيقين، وهو الحذر عن كل ما لا يراد بتناوله القوة على طاعة الله تعالى، أو كان قد يتطرق إلى بعض أسبابها معصية.

فمن ذلك ما حكي أن ذا النون المصري كان محبوساً جائعاً، فبعثت إليه امرأة صالحة من طيّب مالها طعاماً على يد السجان، فلم يأكل منه واعتذر بأنه جاءني على طبقِ ظالم أي يدِ السجّان.

ومن ذلك أن بِشْراً الحافي كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها السلاطين. وأطفأ بعضهم سِراجاً أشعله غلامه من بيتِ ظالم. وشرب بعضهم دواء فأشارت إليه امرأته بالمشي والتردد. فقال: هذه مشية لا أعرف لها وجهاً، وأنا أحاسب نفسي على جميع حركاتي.

وهذه رتبة أقوام وفَوْا بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، فعدّوا كل ما لم يكن لله تعالى حراماً. وليس هذا من عُشّك[2] وعشٌ ناصحك، فادرج واجتهد أن تفيَ بورع العُدول الذي تفتي به الفقهاء.

نعم ينبغي أن تضيف إليه شيئين:

أحدهما: أن تحذر عن مواقع غرورهم، ولا تلتفت إلى قولهم: «من وهب في آخر السنة مالَهُ زوجَتَهُ، واستوهب منها مالَهَا، سقطت الزكاة عنهما» فإنهم إن عَنَوْا به أن السلطان لا يطالبهم بالزكاة، لأن مطمح نظره

(١) في المطبوعة (ولم يوجد فيها) وهو تصحيف.
(٢) العش: بيت الطائر، والمقصود هنا ليس من مرتبتك.

ظاهر الملك فهو صدق، ودرجة الفقهاء وفتواهم ذكر ما يتعلق بالظواهر فيحكمون بالبراءة عن الزكاة إذا سقط طلب الساعي، ويحكمون بصحة الصلاة إذا امتنع القتل على السلطان بجريان صورة الصلاة.

إذ ليس بأيديهم من القوانين إلا القانون الذي يستعمله السلطان في السياسة لينتظم أمر المعيشة الدنيوية التي هي منزل من منازل الطريق كما سبق.

وأما أنت، إذا كنت تنظر فيما ينفعك غداً عند جبّار الجبابرة، وسلطان السلاطين، فلا تلتفت إلى هذا. واعلم أن مقصود الزكاة إزالة رذيلة البخل فإنه مهلك، كما قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاعٌ، وهوى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ»[1]. وهبةُ مالِ الزكاةِ لأجلِ دَرْءِ الزّكاة، تجعلُ الشحَّ مطاعاً، فإنه يصير مُطاعاً بإجابته إلى ما يقتضيه. وقبل هذا لم يكن مطاعاً فكيف يكون ذلك مُنجياً؟

وكذلك من يسيء معاشرةَ زوجتِهِ حتى تنفكَّ له من المَهر، فلا يحلُّ له المهرُ بينَه وبينَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإن كان الفقيهُ يفتي بسقوطِ المهر وصحةِ الإبراء. لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وليس هذا طيبة النفس بل طيبة القالب. والفقيه لا يُمَيِّزُ بين الأمرين، لأن شغفه بقطع الخصومات الظاهرة لا غير.

والحجامةُ وشربُ الدواءِ البشيعِ لا تطيب به النفسُ بل يطيب به القالب، وكذلك كلّ ما يأباهُ الطبعُ ويريدهُ العقلُ لمصلحة البدن في العاقبة. وهذا باب طويل، وأصله أن لا تستحلّ مال غيرك إلا برضاءِ مطلقٍ صافٍ.

وينبغي أن لا تأكلَ من السؤال، فإن سألتَ فاحذر أن تسألَ على الملأ. فربما يعطي بالحياء، وذلك ليس مقروناً بالرضاء، فإن المستحي يؤثر ألَم إزالـةِ الملك على ألَمِ الحياءِ. ولا فرق بين أن تأخذ مالَهُ بضرب ظاهره

(١) أخرجه البزار والطبراني وأبو نُعيم والبيهقي بسند ضعيف.

بالسوط، وبين أن تأخذه بضربِ باطنِهِ بسوطِ الحياء، فالكل مصادرة.

واحذر أيضاً أن يعطيَكَ بالدِّين، وذلك بأن يعطيَكَ لظنه أنك ورعٌ تقيٌ فتأكل بالدّينِ، ويكون من شرط حلّه أن لا يكون في باطنِك ما لو اطلع عليه المعطي لامتنع من الإعطاء، فلا فرق بين من يأخذ بالتصوّف والتقوى، وليس هو متصفاً به باطناً، وبين من يزعم أنه علوي[1] ليعطى وهو كاذب، وكل ذلك حرامٌ عند ذوي البصائر، وإن أفتى الفقيه بالحل بناءً على الظاهر، بالشرع الشريف الناظر إلى الظاهر[2].

الثاني[3]: أن تراجعَ قلبَكَ وإن أفتَوْك، فإن الإثم حزّازُ القلوب، فالذي يضرك ما حاكَ في قلبكَ، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «استفْتِ قلبَكَ وإن أفتَوْك»[4]، ولهذا سر يطول ذكره.

ولكن اعلم على الجملة أن المحذور من الحرام إظلام القلب، والمطلوب من الحلال تنويره، وذلك يتشعب من اعتقادك لا مِنْ نفس المعتقَد. فمن وطئ امرأةً على ظن أنها أجنبية فإذا هي منكوحته حصل إظلامُ القلب، ولو وطئ أجنبية على ظن أنها زوجته لم يحصل إظلام القلب. وكذلك في النجاسات والطهارات، فالمؤثر في تنوير القلب همّكَ واعتقادك. فما أُمرتَ بأن تصليَ وثوبك طاهر، بل أن تصليَ وأنت تعتقد أنه طاهر. فاستشعار الطهارة مؤثّر في إشراق القلب. وإن لم يكن على وَفْق الحال. ولذلك نقول: إن من صلى ثم تذكر أنه كان معه نجاسة. فليس عليه الإعادة على الأصح، لأنه ﷺ، خلع نعليه في أثناء صلاته لما أخبره جبريل ـ عليه السلام ـ بأن عليهما قذراً واستمر فيها. ولذلك يشدد الأمر على المُوسْوسَ، فإنه ما لم يطمئن قلبه باعتقاده الطهارة، فيجب عليه الاستقصاء والمعاودة.

(١) أي من نسل علي رضي الله عنه (أي من آل بيت رسول الله ﷺ).
(٢) بالشرع الشريف... إلخ إضافة من المخطوطة غير موجود في المطبوع.
(٣) مما ينبغي أن تضيفه إلى الورع.
(٤) رواه البخاري في التاريخ، ورواه أحمد.

وأولئك قوم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فهلكوا باستقصائهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «هلَكَ المتنطّعون»[1]، فكذلك في الحلال، أنت مُتَعبّدٌ بما يطمئن إليه قلبُكَ، لا بما يفتي به المفتي، فاسْتفْتِ قلبك.

أموال الدنيا ليست كلها حرام:

إياك أن تشدّدَ على نَفْسِكَ فتقول: أموالُ الدنيا كلها حرام، وقد أخبثتها الأيدي العاديَة[2]، والمعاملات الفاسدة، فأقنع بالحشيش مترهباً، أو أتناول من الجميع متوسعاً، لا أفصل فيه بين حلال وحرام. بل اعلمْ قطعاً أن «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات»[3].

كذلك كان في عصر رسول الله ﷺ وكذلك يكون أبدَ الدهرِ، فاستمد من السر الذي ذكرناه، فإنك غير متعبَّد بما هو في نفسه حلال، بل بما هو في اعتقادك حلال، لا تعرف سبباً ظاهراً في تحريمه، فقد توضأ رسول الله ﷺ من مزادة[4] مشرك، وتوضأ عمر ـ رضي الله عنه ـ من جرة نصرانية، ولو عطشوا لشربوا منه، وشرب الماء النجس حرام، ولكن استصحبوا يقين الطهارة، ولم يتركوها لتوهم النجاسة.

وكذلك كلُّ مالٍ صادفتَه في يدِ رجلٍ مجهول عندك حاله، فلك أن تشتري منه وتأكل من ضيافته، تحسيناً للظن بالمسلم، فإن الأصل أن ما في يده فهو حلال، وما تصادفه في يد رجل عرفته بالصلاح فهو أولى بأن تعتقده حلالاً.

نعم يجب الحذر مما تصادفه في يد سلطان ظالم. أو رجل عرفته بالرّبا أو بيع الخمر، فيجبُ الحذر منه حتى تسألَ وتستقصيَ، وتعرف من أين حصل له، فإن ظهر لك جهة حصوله وأنه حلال، فلك أخذه، وإلا فلا،

(١) المتنطعون: المتشددون، والحديث: رواه الإمام مسلم من حديث ابن مسعود.
(٢) العادية: الظالمة.
(٣) بيّن: ظاهر. وهذا جزء من حديث رواه البخاري ومسلم.
(٤) مزادة: وهي الراوية التي تصنع من الجلد. والحديث أخرجه البخاري ومسلم.

اعتماداً على علامة الظاهر، وهي قرينة حاله، وهذا إذا كان أكثر أمواله كذلك. فإن كان أكثرها حلالاً فلك أن تأكل منه، وإن تركته فذلك وَرَع. فقد كتب بعض وكلاء ابن المبارك من البصرة إليه يسأله عن معاملة رجل يعامل السلطان، فقال: «إن كان لا يعاملُ غيرَ السلطان فلا تعامله، وإن كان يعاملُ غيرَهُ أيضاً فعامِلْه».

وبالجملة، الناس في حقك ستة أقسام:

أحدها: أن يكون مجهولاً، فكُلْ من ماله والحذر ليس بواجب. بل هو محض الورع.

الثاني: أن تعرفه بالصلاح فكلْ منه ولا تتورع، فالورعُ فيه وسوسة. فإن أدى إلى الأذى والإيحاش فهو معصيةٌ وحرام، لما فيه من الإيذاء، ولما فيه من سوء الظن بالرجل الصالح.

الثالث: أن تعرفَه بالظلم والربا حتى علمتَ أن كلَّ مالِهِ أو أكثرَهُ حرام كالسلاطين الظلمة وغيرهم، فمالُهُم حرام.

الرابع: أن تعرف أن أكثر أمواله حلال، ولكن لا يخلو من حرام، كرجل له تجارة وميراث، وهو مع هذا في عمل السلطان، فلك الأخذ بالأغلب، لكن الترك من الورع المهم.

الخامس: أن يكون مجهولاً عندك، ولكن ترى عليه علامة الظلم، كالقباء والقلنسوة وهيئة الظلمة، فهذه علامة ظاهرة توجب الحذر، فلا تأكل من ماله إلا بعد التفتيش.

السادس: أن ترى عليه علامة الفسق لا علامة الظلم، كطول الشارب، وانقسام شعر الرأس قَزَعاً[1]، ورأيته يشتم غيره، أو ينظر إلى امرأة. فإن علمت له مالاً موروثاً أو تجارة لم يحرم ماله بذلك، وإن كان أمره مجهولاً

(١) قزعاً: جمع قزعة وهي القطعة أو الخصلة من الشعر. أي يحلق جزءاً ويبقي جزءاً وهو منهي عنه.

عندك فهذا فيه خطر، لأن علامة الفسق أضعف دلالة من علامة الظلم، ولكن الأظهر عندي أنه لا يحرم ماله لأن ظاهر اليد والإسلام يدل على الملك دلالة أظهر من دلالة هذه العلامات على التحريم. وليست هذه الدلالة أقوى من دلالة النصرانية والمجوسية على نجاسة الماء، ولم يلتفت إليهما رسول الله ﷺ ولا عمر ـ رضي الله عنه ـ.

أما علامة الظلم، فتضاهي[1] ما إذا رأينا ظبية تبول في ماء، ثم وجدنا الماء متغيراً، فأمكن أن يكون من طول المُكْثِ، وأمكن أن يكون من البول، فإنه يجب اجتنابه إحالة على السبب الظاهر. ثم وراء ذلك كله، عليه أن يستفتي قلبه، فإذا وجد في قلبه حزازة فليجتنبه، فالإثم حزاز القلوب[2] وحكاك بالصدور.

ولكن ههنا دقيقة[3] يغفل عنها أهل الورع، وهي أنه حيث يكون الترك من الورع أو من حزازة في النفس، فلا يجوز الترك والسؤال بحيث يؤذي. فالمجهول إذا قَدَّم إليك طعاماً، فإن سألته من أين؟ استوحش وتأذى والإيذاء حرام. وسوء الظن حرام. وإن سألت غيره بحيث يدري زاد الإيذاء وإن سألت بحيث لا يدري فقد تجسست وأسأت الظن، وبعض الظن إثم، وتساهلت بالغيبة والتهمة، وكل ذلك حرام، وترك الورع ليس بحرام، فليس لك إلا التلطف بالترك، فإن لم يكن إلا بإيذاء، فعليك أن تأكل. فإن طيبة قلب المسلم وصيانته عن الإيذاء أهم من الورع، فإياك أن تكون من القرّاء المغرورين الذين لا يدركون دقائق الورع.

واعلم أن رسول الله ﷺ أكل من صدقة بريرة[4] ولم يسأل عن

(١) تضاهي: تشبه.
(٢) حزاز: ما لا يطمئن إليه القلب. كما ورد في الحديث الذي رواه البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) يريد مسألة دقيقة.
(٤) بريرة: اسم صحابية رضي الله عنها. أي أكل من الصدقة التي أعطيت لبريرة.

المتصدق. وكان رسول الله ﷺ تُحمل إليه الهدايا فيقبل ولا يسأل. نعم سأل في أول قدومه إلى المدينة عما حُمِل إليه هل هو صدقة أو هدية؟ لأن ذلك ليس فيه إيذاء، ولأن قرينة الحال كانت تقتضي الإمكان في الصدقة والهدية على وتيرة واحدة.

وكان ﷺ يُدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل ولم ينقل السؤال إلا نادراً في محل الريبة.

فإن قلت: فإن وقع طعام حرام[1] في سوق فهل يُشترى من ذلك السوق؟ فأقول: إن تحققت أن الحرام هو الأكثر فلا تشتر إلا بعد التفتيش، وإن علمت أن الحرام كثير وليس بالأكثر فلك الشراء، والتفتيش من الورع.

ولقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ يشترون في أسفارهم من الأسواق، مع علمهم بأن فيها أهل الربا والغصب وأهل الغلول[2] في الغنيمة، وكانوا لا يتركون المعاملة معهم.

وهذا الباب يستدعي شرحاً طويلاً (فإن رغبت فيه فطالع كتاب الحلال والحرام من كتب الإحياء لتشهد عند مطالعته بأنه لم يصنف في فنه مثله في التحقيق والتحصيل والإحاطة بجميع التفاصيل).

* * *

(١) كأن يكون مالاً مغصوباً.
(٢) الغلول: الذي يأخذ من الغنيمة دون علم الإمام ودون وجه حق.

الأصل الثامن: في القيام بحقوق المسلمين وحسن الصحبة معهم

وهو ركن من أركان الدين، إذ الدين معناه السفر إلى الله تعالى. ومن أركان السفر حُسْنُ الصحبةِ في منازلِ السفر مع المسافرين، والخَلْقُ كلُّهم في سفر، يسير بهم العمر سير السفينة بركّابها.

واعلم أن الإنسان في الدنيا إما أن يكون وحده، أو يكون مع خواصه من أهل وولد وقريب وجار، أو يكون مع عموم الخلق. فهذه ثلاثة أحوال، وعليه حسن الصحبة، وأداء الحقوق في جميع هذه الأحوال.

الحالة الأولى: أن يكون وحده. وليعلم أنه بنفسه عالَمٌ، وأن باطنَه يشتمل على أصناف من الخلق مختلفي الطباع والأخلاق، فإن لم يحسن صحبتهم ولم يقم بحقوقهم هلك. وأصناف جنود الباطن كثيرة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وقد استقصينا بعض ذلك في كتاب عجائب القلب (في الإحياء).

ونذكر الآن أمراء الجنود ورؤوسها فنقول:

فيك شهوة تجذب بها إلى نفسك النافع، وغضب تدفع به عن نفسك الضار، وعقل تدبر به الأمور وترعى به الرعية.

فأنت باعتبار غضبِكَ كلبٌ، وباعتبار شهوتِكَ بهيمة، كالفرس مثلاً، وباعتبار عقلك مَلِكٌ، وأنت مأمور بالعدل بينهم، والقيام بحقوقهم، والاستعانة بهم، لتقتنص بمعونتهم سعادة الأبد.

فإن رُضتَ الفرس[١] وأَدَّبْتَ الكلبَ، وسخرتهما للملك تيسر لك

(١) من الرياضة يقال راض المهر إذا ذلله.

الظفر بما طلبت.

وإنْ سَخَّرتَ العقلَ في استنباط الحيل لتحصِّل ما يتقاضاه الكلبُ بغضبه ولجاجه[١]، والفرسُ بحِرْصِهِ وجَشَعِهِ أوفيتَ على العطب، فضلاً عن إدراك مقصود الطلب، فصرت منكوساً فاجراً ظالماً. لأن الظلم وَضْعُ الشيء في غير موضعه.

ولو رأيت شخصاً جُعل في طاعته ملك وكلب وخنزير، فلم يزل يضطر الملكَ إلى أن يسجدَ للخنزير والكلبِ. فهل تراه ظالماً مستوجباً اللعنة؟

ولو كوشِفْتَ بحالِك عند منامك أو عند فنائك عن نفسك ـ كما وصفناه في الاستغراق بالله ـ لرأيتَ كلَّ من أطاع شهوته وغضبه، ساجداً لكلب وخنزير، إذ لم يكن الكلب كلباً لصورته بل لمعناه. وكذلك ترى نفسك بعد الموت، لأن المعاني في عالم الآخرة تستتبع الصور ولا تتبعها، فيتمثل كلُّ شيء بصورة توازي معناه بمقتضى عالم الآخرة، فيُحشر المتكبرون في صِغَرِ الذر[٢] يطؤهم من أقبل وأدبر. والمتواضعون أعزّاء.

وأما هذا العالم، فعالم التلبيس[٣] فقد يودع معنى الخنزير والكلب في صورة الإنسان فلا تغتر به، فإن ذلك ينكشف يوم تُبلى السرائر، فعليك أن تُحسن صحبة رفقائك الثلاثة، فتكسر شَرَهَ الشهوةِ بسطوة الغضب، وتفل من غلواء الغضب بخداع الشهوة، وتسلط أحدهما على الآخر، فإن ذلك بليغ جداً في تقويمهما، حتى ينقادا للعقل والشرع، فيستعملهما العقل بحيث ينتفع بهما. كما يستعمل الصائدُ الفرسَ والكلبَ عند الحاجة، ويسكنهما عند الاستغناء. وشرح هذه الرياضة والصحبة طويل ذكرناه في كتاب رياضة النفس من (كتاب إحياء علوم الدين).

(١) اللجاج: لجَّ في الأمر: لازمه وأبى أن ينصرف عنه، أو تمادى في الخصومة.
(٢) الذر: صغار النمل. روى البزار بإسناد حسن حديثاً سيورده الإمام في الكِبْر.
(٣) التلبيس: إخفاء الحقيقة.

الحالة الثانية[١]: صحبتك مع عموم الخلق. وأقل درجات حُسنِ الصحبة كفّ الأذى عنهم. قال رسول الله ﷺ: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ من لسانهِ ويدِهِ»[٢]. وفوق ذلك أن تنفعهم وتحسن إليهم. قال النبي ﷺ: «الخَلْقُ كلُّهم عيالُ الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله»[٣]. وفوق ذلك أن تحتمل الأذى منهم وتحسن مع ذلك إليهم، وذلك درجة الصدِّيقين. قال رسول الله ﷺ لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: «إن أردتَ أن تسبقَ الصِّديقين فصِلْ من قَطعَكَ، وأعط مَن حَرمكَ واعفُ عمَّن ظَلَمَكَ»[٤] هذه جملة الأمر.

وتفصيل هذه الحقوق كثيرة، ونقتصر من جملتها على عشرين وظيفة.

فمنها: أن لا تحبّ للناس إلا ما تحب لنفسك: قال عليه السلام[٥]: «من سره أن يزحزح عن النار، فلتأته منيّتُهُ وهو يشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه».

ومنها: أن يتواضع لكل أحد ولا يفتخر عليه: فإن الله لا يحب كل مختال فخور، وإن تكبَّر عليه غيره، فليحتمل. قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ومنها: أن يوقِّر المشايخ ويرحم الصبيان: قال عليه السلام: «ليسَ منّا منْ لم يَرْحَمْ صغيرَنا ولم يُوَقِّر كبيرَنا»[٦]، وقال عليه السلام: «من إجلال

(١) في المخطوطة قدم الحالة الثالثة فجعلها ثانية، والحالة الثانية جعلها ثالثة.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه أبو يعلى والبزار والطبراني.
(٤) روى البيهقي حديثاً قريباً منه عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال العراقي: رواه ابن مردويه بأسانيد حسان.
(٥) روى مسلم نحوه؛ والخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظه.
(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد بسند حسن؛ وأبو داود ورواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف؛ ورواه الإمام أحمد.

الله تعالى إكرامُ ذي الشَّيبةِ المسلم»[١]، وقال ﷺ: «ما وقّر شابٌ شيخاً لسنّه إلاّ قيّض الله له في شيبته مَن يوقِّرُهُ»[٢]، وهذا يبشره بطول الحياة مع الأجر.

ومنها: أن تكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه: وقال ﷺ: «أتدرون على مَن حُرِّمت النار؟» قالوا: الله ورسولُهُ أعلم، قال: «على الهيِّن اللَّين السَّهلِ القريب»[٣]، وقال ﷺ: «إن الله يحبُّ السَّهلَ الطَّلْقَ»[٤].

ومنها: إصلاح ذات البين بين المسلمين: ولو بالمبالغة والزيادة في الكلام. قال ﷺ: «ليس بكذَّاب مَن أصلحَ بينَ الاثنين، فقال خَيْراً أو نَمَى خيراً»[٥]، وقال ﷺ: «ألا أُخبركم بأفضلَ من درجةِ الصيام والصلاة والصدقة؟»، قالوا بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفسادُ ذات البَين هي الحالقة»[٦].

ومنها: أن لا تسمع بلاغات الناس بعضَهم على بعض، ولا تبلّغ بعضهم ما تسمع من بعض: قال ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ قتَّات»[٧]، وقيل: من نمّ إليك نمّ عنك.

ومنها: أن لا تزيد في الهِجْرةِ عند الوحشة على ثلاثة أيام: قال ﷺ: «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يَهْجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ»[٨]. وقال ﷺ: «من أقال مُسلماً عَثْرَتَهُ أقالَ الله تعالى عَثْرَتَهُ يومَ القيامةِ»[٩].

ومنها: أن تحسن إلى كلّ أحدٍ كان أهلاً لذلك أو لم يكن، قال ﷺ:

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن.
(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث غريب.
(٣) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب؛ وأبو داود.
(٤) أخرجه البيهقي بسند ضعيف.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) رواه أحمد؛ وأبو داود، والترمذي وقال: حديث صحيح.
(٧) متفق عليه (والقتات: النمام).
(٨) متفق عليه.
(٩) رواه أبو داود؛ والحاكم؛ وأحمد، وابن حبان وصححه.

«اصنع المعروفَ إلى مَن هو أهلُهُ وإلى غير أهلِهِ، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله، وإن لم تُصِبْ أهلَهُ كنت من أهلِهِ»[١].

ومنها: أن تخالق كلّ صنف بأخلاقهم: ولا تلتمس من الجاهل والغبي ما تلتمس من الوَرِع العالم. قال داود ـ عليه السلام ـ: «إلـٰهي كيف لي أن يُحبني الناس وأسلم فيما بيني وبينك؟» فأوحى الله سبحانه إليه: «خالقْ أهل الدنيا بأخلاق الدّنيا، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة».

ومنها: أن تُنزِلَ الناسَ منازِلَهم: فتزيدَ في إكرام ذي المنزِلةِ، وإن كانت منزلته في الدنيا، فإن رسول الله ﷺ بسط رداءَهُ لبعضهم، وقال: «إذا جاءكم كريمُ قومٍ فأكرموه»[٢].

ومنها: أن تَستُرَ عوراتِ المسلمين: قال ﷺ: «لا يرى امرؤٌ من أخيه عورةً فيستُرَها عليه إلا دَخَلَ الجنةَ»[٣]. وقال ﷺ: «يا معشرَ من آمنَ بلسانِهِ ولم يدخُلِ الإيمانُ في قلبه، لا تغتابوا المسلمينَ ولا تتبعوا عوراتِهِم، فإن من يتَّبعْ عورة أخيه المسلم يتبع اللهُ عورتَه، ومن يتبع الله عورتَه يفضحْهُ ولو في جوف بيته»[٤].

ومنها: أن تتقيَ مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن، وألسنتهم عن الغيبة، وروي «اتقوا مواضعَ التُّهم»[٥]، وكلم رسول الله ﷺ إحدى نسائه، فمرَّ به رجل، فسلم عليه فلما مر دعاه، فقال: «يا فلان هذه زوجتي صفية»، فقال: يا رسول الله من كنت أظن فيه فإني لا أظنُّ فيك، فقال: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ»[٦].

---

(١) ذكره الدار قطني في العلل وهو ضعيف؛ ورواه القضاعي مرسلاً بسند ضعيف.
(٢) رواه ابن ماجه وأبو داود والحاكم وصحح إسناده.
(٣) رواه الطبراني في الأوسط والصغير والخرائطي بسند ضعيف.
(٤) أخرجه أبو داود بسند جيد والترمذي وحسنه.
(٥) قال العراقي: لم أجد له أصلاً؛ وقال الزبيدي: أخرج الزبير بن بكار عن عمر رضي الله عنه قال: من تعرض للتهم فلا يلومن إلا نفسه: اتحاف: ٨/ ٥٢٤.
(٦) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود.

ومنها: أن تسعى في قضاء حوائج المسلمين ولو بشفاعة: قال ﷺ: «اشفعوا إليّ تُؤجَرُوا، فإني أريدُ الأمرَ فأؤخِّرهُ كي تَشْفَعُوا إليَّ فتؤجَروا»[١]. وقال ﷺ: «من مشى في حاجةِ أخيه ساعةً من ليلٍ أو نهارٍ، قضَاها أو لم يَقْضِها، كانَ خيراً له من اعتكافِ شَهرين»[٢]، وقال ﷺ: «قيامُكَ مع أخيكَ ساعةً، خيرٌ من اعتكافِكَ سنة»[٣].

ومنها: أن تبادر بالسلام على كل مسلم وتصافحه ليكون لك فضل البداية: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان فتصافَحا، قُسِمَتْ بينهما سبعون رحمةً تسع وستون لأحسَنِهما بِرّاً»[٤].

ومنها: أن ينصرَ أخاهُ في غَيْبته فيردَّ عن عِرْضِهِ ومالِهِ: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ ينصرُ مسلماً في موضع يُهْتَكُ فيه من عِرْضِهِ وتُسْتَحَلُّ حُرْمَتُهُ إلا نَصَرَهُ اللهُ في موطنٍ يحبُّ فيه نُصْرَتَهُ، وما مِنْ أحدٍ يَخذُلُ مُسلماً في موضعٍ تُهْتَكُ فيه حُرمَتُهُ إلا خَذَلَهُ اللهُ في موضعٍ يحبُّ فيه نُصْرَتَهُ»[٥].

ومنها: أن تداريَ أهلَ الشرِّ لتسْلَمَ منهم: قالت عائشة رضي الله عنها: استأذنَ رجلٌ على رسولِ الله ﷺ فقال: «ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة» فلمّا دخلَ ألانَ له الكلام. فقلت: له يا رسول الله قلتَ ما قلتَ ثم ألنت له في القول فقال: «أي عائشة إن شرَّ الناسِ منزلةً عندَ اللهِ من تركه أو وَدَعَهُ الناسُ اتقاء فُحْشِهِ»[٦]. وقال ﷺ: «ما وقى المرءُ به عِرْضَهُ فهوَ له صَدَقَة»[٧]. وقال ﷺ: «خالِطُوا الناسَ بأعمالهم، وزايِلُوهُمْ بالقلوب»[٨].

---

(١) رواه أبو داود والنسائي.
(٢) أخرجه الحاكم وصححه.
(٣) رواه الديلمي عن أنس مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٤) رواه الطبراني؛ والخرائطي بسند ضعيف.
(٥) رواه أحمد وأبو داود؛ والضياء بلفظ مختلف.
(٦) متفق عليه، واللفظ للبخاري.
(٧) أخرجه أبو يعلى وابن عدي وضعفه.
(٨) رواه في الإحياء أثراً؛ ورواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات بلفظ: «خالطوا الناس وزايلوهم».

ومنها: أن تحذَرَ مجالسةَ الأغنياء، وتكثر مجالسة المساكين: قال ﷺ: «إياكُم ومجالسةَ الموتى» قيل: ومَنْ هُمْ؟ قالَ: «الأغنياءُ»[1]. وقال ﷺ: «اللهمَّ أحيِني مِسكيناً، وأمِتْني مِسكيناً، واحشُرْني في زُمْرَةِ المساكين»[2]. وكان سليمان ـ عليه السلام ـ إذا رأى في المسجد مسكيناً جلس إليه وقال: «مسكينٌ جالسَ مسكيناً». وقال موسى ـ عليه السلام ـ: «إلـٰهي أين أطلُبُكَ؟ قال: عند المنكَسِرَةِ قلوبُهُم مِنْ أجلي».

ومنها: أن لا يجالسَ إلا مَنْ يُفيدُهُ في الدِّين فائدة، أو من يستفيد منه: فأما أهلُ الغَفْلةِ فيحذر منهم. قال ﷺ: «الوحدةُ خيرٌ من الجليسِ السوءِ، والجليسُ الصالحُ خيرٌ من الوحدة»[3]، وإذا أكثر مجالسة أهل الغفلة فينُتَقَصُ من دِينه بكلّ جلسة شيء، فليقدِّر أنَّ كلَّ واحد منهم لو كان يأخذ منه في كل جلسة سِلْكاً من ثوبه، أو شعرةً مِنْ شعر لِحيتهِ، أما كان يحذره خِيفَةَ أن يصيرَ على القربِ أمردَ عارياً، فالحذرُ لأجل الدين أَوْلى.

ومنها: أن يعودَ مرضاهُمْ، ويشيِّع جنائزَهم ويزورَ قبورهم، ويدعوَ لهم في الغَيبة، ويشمِّتَ العاطسَ، ويُنْصِفَ الناسَ مِنْ نفسه، وينصحَ إذا استُنْصِحَ: إلى غير ذلك من حقوق كثرت فيها الأخبار، آثرنا فيها الاختصار.

وجملتها: أن تعمل في حقهم، ما تحب أن يُعمل في حقك من إحسان واهتمام وكفّ أذى.

الحالة الثالثة: الصُّحبَةُ مع من يُدلي ـ سوى عموم الإسلام ـ بخاصيةٍ، كجوار أو قرابة أو ملك: قال ﷺ: «إذا رميتَ كلبَ جارك فقد آذيته»[4]. وقال ﷺ: «أولُ خَصْمَيْن يوم القيامة جاران»[5]، وقيل له ﷺ: إن فلانة

(١) أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصحح إسناده؛ (أي شغلتهم دنياهم عن آخرتهم).
(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه؛ والترمذي وقال: غريب.
(٣) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان، ورمز السيوطي إلى صحته.
(٤) قال العراقي: لم أجد له أصلاً، وسكت عنه الزبيدي.
(٥) أخرجه أحمد والطبراني بسند ضعيف.

تصومُ النهارَ وتصلي الليلَ وتؤذي جيرانها فقال: «هيَ في النار»[1].

وقال ﷺ: «أتدرونَ ما حقُّ الجارِ؟ إن استعانَ أعنتَه، وإن استقرضَكَ أقرضْته، وإن افتقَرَ جُدتَ عليه، وإن مرضَ عُدتَه، وإن ماتَ اتَّبعت جنازتَه، وإن أصابَهُ خيرٌ هنأته، وإن أصابَتهُ مصيبةٌ عزّيتَه، ولا تستطيلُ عليه بالبناء فتحجبَ عنه الريحَ إلا بإذنه، وإذا اشتريتَ فاكهةً فاهدِ له، وإن لم تفعلْ فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدُكَ ليغيظَ بها ولدَهُ ولا تؤذه بقُتارِ قِدْرِك إلا أن تَغْرِفَ له منها، أتدرون ما حقُّ الجارِ؟ والذي نفسي بيدِه لا يبلغُ حقَّ الجارِ إلا من رَحِمَهُ الله»[2].

وأما القرابة: فقد قال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا الرحمن، وهذه الرَّحِم، شققتُ لها اسماً من اسمي، فمن وصلَها وصلتُه، ومن قطعَها بتتُّه»[3]، وقال ﷺ: «صِلَةُ الرَّحِمِ تزيدُ في العُمُر»[4]، وقال ﷺ: «توجد رائحةُ الجنة على مسيرةِ خَمْسمئةِ عام، ولا يجدُ ريحَها عاقٌ ولا قاطعُ رحم»[5]. وقال ﷺ: «برُّ الوالدين أفضلُ من الصلاةِ والصيامِ والحجِ والعمرةِ والجهاد في سبيل الله عزَّ وجلّ»[6]، وقال ﷺ: «بر الوالدة على الولد ضعفان»[7]، وقال ﷺ: «ساووا بين أولادكم بالعطية»[8].

(١) رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد.
(٢) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وابن عدي بسند ضعيف. والقُتَار: رائحة ما يطبخ في القِدْر.
(٣) متفق عليه (رواه البخاري ومسلم) من حديث عائشة. انظر تمام تخريجه في الإتحاف: ٧/ ٢٨٠.
(٤) رواه القضاعي عن ابن مسعود، وفي الحديث المتفق عليه «من سره أن يُنسأ له في أثره ويوسع عليه رزقه فليصل رحمه».
(٥) روى أحمد «لا يدخل الجنة عاق لوالديه»؛ وفي حديث آخر «لا يدخل الجنة قاطع رحم».
(٦) قال العراقي: لم أجده هكذا، ولكن معناه ورد في حديث رواه الطبراني بسند حسن.
(٧) غريب بهذا اللفظ، وفي معناه حديث متفق عليه.
(٨) رواه الطبراني وابن عساكر والخطيب في تاريخ بغداد. (الفتح الكبير، وإتحاف السادة المتقين).

وأما المملوك: فقد قال فيهم ﷺ: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، أطعموهم مما تأكلون، واكسُوهُم مما تلبَسون، ولا تكلِّفُوهم من العملِ ما لا يُطيقون، فإن الله ملَّكَكُم إياهُم، ولو شاءَ لملَّكَهُم إياكم»[1]، وقال ﷺ: «إذا كَفى أحدَكم مملوكُه طعاماً فكفاه حَرَّه وعلاجَه وقرَّبه إليه فليُجْلِسْهُ فليأكلْ معه، أو ليأخُذ لقمةً فليُروِّغها، وليضَعْها في يدِهِ، وليقُلْ كُلْ هذه»[2]. وسئل ﷺ: «كم نعفو عن المملوكِ في اليوم والليلة؟ قال: سبعينَ مرة»[3] فجملة حق المملوك أن يُشركَه في طُعمتَهَ وكِسْوَتَه، ولا يكلّفه فوقَ طاقَتِه، ويعفو عن زلَّتِهِ، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء، ويعلِّمه مُهمَّاتِ دينه.

وأما حقوق المنكوحة (الزوجة): فتزيد على هذا، إذ يجبُ لها ـ مع القيام بواجباتها ـ حسنُ العِشْرة والمُطايَبةُ. قال رسول الله ﷺ: «خيرُكُمْ خيرُكم لأهله، وأنا خَيرُكُمْ لأهلي»[4]. وكان ﷺ: من أفكهِ الناس مع نسائه، والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى.

[اتخاذ الإخوان في الله تعالى]

من أصول الدين في أمر الصحبة اتخاذ الإخوان في الله عزَّ وجلّ. قال الله تعالى لبعض أنبيائه: «أما زهدُكَ في الدنيا فقد استعجلتَ الراحة، وأما انقطاعُكَ إليَّ فقد تعززت بي، فهل واليتَ فيَّ ولياً، وهل عاديتَ فيَّ عدواً؟» وقال ﷺ: يقول الله يوم القيامة: «أينَ المتحابُّون لجلالي؟ اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يومَ لا ظلَّ إلا ظلِّي»[5]. وأوحى الله سبحانه إلى عيسى ـ عليه السلام ـ: «لو أنك عبدتني بعبادة أهل السّموات والأرض وحبٌّ في الله ليسَ، وبغضٌ في الله ليسَ، ما أغنى عنكَ ذلكَ شيئاً». وقال ﷺ: «إنَّ حولَ العرشِ منابرُ

(١) روي متفرقاً في عدة أحاديث ورواه البخاري في الأدب المفرد.
(٢) متفق عليه مع اختلاف لفظه.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب.
(٤) رواه الترمذي وصححه.
(٥) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة.

من نور، عليها قومٌ لباسُهُم نور، ووجوهُهُم نور، وليسوا بأنبياء ولا شُهداء، يَغْبِطُهُم النبيونَ والشهداءُ». فقالوا: يا رسول الله حَلِّهم لنا من هم؟ فقال: «المتحابُّون في الله، والمتَجَالِسُون في الله، والمتزَاورون في الله عزَّ وجلّ»[1].

واعلم أن كل حب لا يتصور دون الإيمان بالله واليوم الآخر، فهو حب في الله تعالى، ولكنه على درجتين:

إحداهما: أن تحبه لتنال منه في الدنيا نصيباً يوصلك إلى الآخرة، كحبك أستاذَكَ وشيخَكَ، بل تلميذك الذي ينمو علمك بتعليمه، بل خادمك الذي يفرّغُ قلبك عن كنس بيتك، وغسل ثوبك، لتتفرغ بسببه لطاعة الله تعالى، بل المنفق عليك من ماله، إذا كان غرضك من ذلك إفراغ القلب لعبادة الله تبارك وتعالى.

الثانية: وهي أعلى، أن تحبه لأنه محبوبٌ عند الله عزَّ وجلّ ويحب الله، وإن لم يتعلق به غرضٌ لكَ في الدنيا والآخرة من علم أو معونة على دين أو غيره، وهذا أكمل، لأن الحب إذا غَلب تَعدَّى إلى كلّ من هو من المحبوب بسبب، حتى يحب الإنسان محب محبوبه ومحبوب محبوبه، بل يميز بين الكلب الذي هو في سكة محبوبه[2]، وبين سائر الكلاب، وإنما سراية الحب بقَدْرِ غلبة الحب، ومن أحب الله لم يُمْكنْه أن لا يحبّ عباده الصالحين المرْضيين عنده، إلا أن ذلك قد يقوى حتى يحملَ على أن يسلكَ بهم مسلك نفسه، بل يؤثرهم على نفسه، وقد يقصّر عن ذلك، وفضلهم عنده ينقسم بقدر درجته وقوته.

وكذلك يُبْغض لا محالة من يعصيه، ويخالف أمره، ويظهر أثر ذلك في مجانبته ومهاجرته له، وتقطيبه الوجه عند مشاهدته، ولذلك قال ﷺ:

(١) أخرجه النسائي ورجاله ثقات.
(٢) رأى المجنونُ في البيداءِ كلباً ... فَجَرَّ لَهُ مِنَ الإحْسَانِ ذَيْلا
فَلامُوهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ... وقَالُوا: قَدْ أَنَلْتَ الكَلْبَ نَيْلا
فَقالَ: دَعُوا المَلامَةَ إنَّ عَيْني ... رَأَتْهُ مَرَّةً في حَيِّ لَيْلَى

«اللهمَّ لا تجعل لفاجرٍ عليَّ يداً فيحبّه قلبي»[1] حذراً من أن يقدح ذلك في البغض في الله.

وبالجملة من لا يصادف من نفسه الحب في الله، والبغض في الله، بهذه الأسباب، فهو ضعيف الإيمان. وهذا له تفصيل وتحقيق، فاطلبه من كتاب الصحبة والأخوّة في الله تعالى من كتاب (إحياء علوم الدين).

* * *

(١) أخرجه ابن مردويه والديلمي وأبو موسى المديني بإسناد ضعيف.

الأصل التاسع: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]. وقال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٩].

وقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في خطبته: «أيُّها الناس إنكم تَقرؤون هذه الآية وتتأولونها على خلاف تأويلها»، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدِرُ أن ينكرَ عليهم فلم يفعلْ إلا أوشكَ أن يعمَّهُمُ اللهُ بعذاب من عندِهِ»[1]. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال رسول الله ﷺ: «عُذِّبَ أهلُ قريةٍ فيها ثمانية عَشَر ألفاً، أعمالُهُم أعمالُ الأنبياء» قالوا: يا رسولَ الله كيفَ ذلك؟ قال: «لم يكونوا يغضَبُونَ لله عزَّ وجلَّ، ولا يأمرونَ بالمعروفِ، ولا يَنْهَوْنَ عن المُنكرِ»[2].

[الساكت عن المنكر شريك لفاعله]

كلُّ من شاهدَ منكراً ولم ينكرْهُ وسكتَ عنه، فهو شريكٌ فيه. فالمستمعُ شريكُ المغتابِ، ويجري هذا في جميع المعاصي، حتى في مجالسة من يلبس الديباج، ويتختم بالذهب، ويجلس على الحرير. والجلوس في دار أو في

(١) رواه أصحاب السنن وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) قال العراقي: لم أقف عليه مرفوعاً؛ ولكن الزَّبيدي في الإتحاف قال: روى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعاني «أوحى الله إلى يوشع بن نون..».

حَمّامٍ على حيطانها صور أو فيها أوان من ذهب أو فضة، أو الجلوس في مسجدٍ يسيء الناس الصلاة فيه، فلا يُتِمُّون الركوعَ والسجودَ، أو الجلوس في مجلس وَعظٍ يجري فيه ذكر البدعة، أو في مجلس مناظرة ومجادلة يجري فيها الإيذاء والإيحاش بالسَّفه والشتم.

وبالجملة، من خالط الناس كثرت معاصيه، وإن كان تقياً في نفسه، إلا أن يترك المداهنة ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويشتغل بالحسبة[1] والمنع، وإنما يسقط عنه الوجوب بأمرين:

أحدهما: أن يعلمَ أنه إن أنكر لم يُلتفَت إليه ولم يُترَكِ المنكر ونُظر إليه بعين الاستهزاء، وهذا هو الغالب في منكراتٍ ترتكبُها الفقهاء، ومن يزعم أنه من أهل الدين فههنا يجوز السكوت، ولكن يستحب الزجر باللسان، إظهاراً لشعار الدين، مهما لم يقدر على غير الزجر باللسان، ويجب أن يفارق ذلك الموضع، فليس يجوز مشاهدة المعصية بالاختيار، فمن جلس في مجلس الشرب فهو فاسق وإن لم يشرب، ومن جالس مغتاباً أو لابِسَ حريرٍ أو آكل رباً أو حرام، فهو فاسق فليقم من موضعه.

والثاني: أن يعلم أنه يقدر على المنع من المنكر بأن يرى زجاجة فيها خمر فيرميها فتكسر، أو يسلب آلة الملاهي من يده ويضربها على الأرض، ولكن يعلم أنه يُضرب أو يُصاب بمكروه فههنا يُستَحَبُّ الحسبة لقوله تعالى: ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]. ولا يجب إلا أن المكروه الذي يصيبه له درجات كثيرة يطول النظر فيها، (ذكرناها في كتاب الأمر بالمعروف من الإحياء).

وعلى الجملة: فلا يسقط الوجوبُ إلا بمكروهٍ في بدنه بالضرب، أو في مالِهِ بالاستهلاك، أو في جاهِهِ بالاستخفاف به بوجه يقدح في مروءته.

فأمّا الخوْفُ من استيحاش المنكَرِ عليه وخوف تعرضه له باللسان

(١) الحسبة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعداوته له، أو توهم سعيه له في المستقبل بما يسوؤه أو يحول بينه وبين زيادة خير يتوقعها، فكلّ ذلك موهُومات وأمور ضعيفة لا يسقط الوجوب بها.

[عمدة الحسبة]

عمدة الحسْبَة شيئان:

أحدهما: الرفق واللطف، والبداية بالوعظ على سبيل اللين لا على سبيل العنفِ، والترفع والإدلالِ بدالّة الصلاح، فإن ذلك يؤكد داعية المعصية، ويحملُ العاصي على المناكرة وعلى الإيذاء. ثم إذا آذاه ولم يكن[1] حَسَنَ الخلق غضبَ لنفسه، وتركَ الإنكار لله تعالى، واشتغل بشفاء غليله منه، فيصير عاصياً، بل ينبغي أن يكون كارهاً للحِسبة، يودّ لو ترك[2] المعصيةَ بقول غيره، فإنه إذا أحب أن يكون هو المتعرض، كان لما في نفسه من دالة الاحتساب وعزته.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يأمرُ بالمعروف ولا ينهى عن المنكرِ إلا رفيقٌ فيما يأمرُ به، رفيق فيما ينهى عنهُ، حليمٌ فيما يأمرُ به، حليمٌ فيما ينهى عنه، فقيهٌ فيما يأمرُ به، فقيهٌ فيما ينهى عنه»[3].

ووعظ المأمونَ ـ رحمةُ الله عليه ـ واعظٌ بعنف فقال: «يا رجل ارفق فقد بعث الله تعالى من هو خير منك إلى من هو شرّ مني فأمره بالرفق فقال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. وروى أبو أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ، فقال: أتأذن لي بالزنا؟ فصاحَ الناسُ به. فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «أقرُّوه أقرُّوه أُدنُ مني» فدنا منه. فقال عليه الصلاة والسلام: «أتحبُّه لأمّك؟» فقال لا، وجعلني الله

(١) أي المحتسب هو الآمر بالمعروف.

(٢) العاصي.

(٣) قال العراقي: لم أجده هكذا وللبيهقي في الشعب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف» انظر تمام الكلام عنه في الإتحاف: ٨/ ١٠١.

فداك، قال عليه السلام: «كذلكَ الناسُ لا يُحِبُّونه لأمهاتهم»، ثم قال: أتحبّه لابنتِك؟»، قال: لا، قال: «كذلكَ الناسُ لا يُحِبُّونه لبنَاتِهم»، حتى ذكر له الأختَ والعمةَ والخالةَ، ويقول عليه السلام: كذلكَ الناسُ لا يحبُّونَه»، ثم وضع يده على صدره وقال: «اللهمَّ طهِّرْ قَلْبَهُ واغفِرْ ذَنْبَهُ وحَصِّنْ فَرْجَهُ»[1]. فلم يكن بعد ذلك شيء أبغض إليه من الزنا.

وقال بعضهم للفُضَيل[2]: إن سفيان بن عيينة[3] قبل جوائز السلطان، فقال: ما أخذ منهم إلاّ دون حقه، ثم خلا به وعاتبه بالرفق، فقال سفيان: «يا أبا علي، إن لم نكن من الصالحين فإنا نحب الصالحين».

العمدة الثانية: أن يكون المحتسب قد بدأ بنفسه فهذبها، وترك ما ينهى عنه أولاً، قال الحسن البصري: «إذا كنتَ تأمرُ بالمعروف فكن من آخذِ الناس به وإلا هلكتَ». فهذا هو الأوْلى حتى ينفعَ كلامُه وإلا استهزئ به، وليس هذا شرط لازم، بل يجوزُ الاحتساب للعاصي أيضاً. قال أنس: قلنا يا رسول الله: ألا نأمرُ بالمعروفِ حتى نعمل به كلِّه؟ ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبَه كلَّه؟ قال عليه الصلاة والسلام: «بلى مُرُوا بالمعروفِ وإن لم تَعْمَلُوا به كلِّه، وانهَوْا عن المنكرِ وإن لم تجتنبوهُ كلَّه»[4].

وقال الحسن البصري: يريد أن لا يظفر الشيطان منكم بهذه الخصلة، وهو أن لا تأمروا بالمعروف حتى تأتوا به كله، يعني أنَّ هذا يؤدي إلى حسم باب الحِسْبَة. فَمَنْ ذا الذي يُعصم عن المعاصي؟

* * *

(١) رواه أحمد بإسناد جيد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) الفُضيل بن عياض رضي الله عنه: أحد سادة العباد والزهاد، ت١٨٧هـ.

(٣) سفيان بن عيينة: من سادات العلماء في الفقه والحديث وأسماء الرجال، ت١٩٨هـ.

(٤) رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه.

الأصل العاشر: في اتّباع السنة

اعلم أنَّ مفتاحَ السعادةِ اتّباعُ السُّنَّةِ والاقتداءُ برسول الله ﷺ في جميع مصادِرِه ومواردِه، وحركاتِه وسكناتِه، حتى في هيئةِ أكلِه، وقيامِهِ ونومِه وكلامِه. لستُ أقولُ ذلك في آدابه في العبادات فقط، لأنه لا وجه لإهمال السُّنن الواردة فيها، بل ذلك في جميع أمور العادات. فبذلك يحصل الاتباع المطلق، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

فعليك أن تلبسَ السراويل قاعداً، وتتعمَّمَ قائماً، وتبتدىءَ باليمين في تنعُّلِكَ، وتأكلَ بيمينك، وتقلّمَ أظفارَكَ، وتبتدىء بمُسبِّحة[1] اليد اليمنى، وتختم بإبهامها، وفي الرِّجل تبتدئ بخنصر اليمنى، وتختم بخنصر اليسرى. وكذلك في جميع حركاتك وسكناتك. فقد كان محمد بن أسلم[2] لا يأكل البطيخ، لأنه لم ينقل إليه كيفية أكل رسول الله ﷺ. وسها بعضهم فابتدأ في لبس الخف باليسرى، فكفَّر عن ذلك بكُرٍّ[3] حنطة.

فلا ينبغي أن تتساهل في أمثال ذلك فتقول: هذا مما يتعلّق بالعادات، فلا معنى للاتباع فيه، لأن ذلك يُغلق عليك باباً عظيماً من أبواب السعادة.

[أسرار الاتباع]

لعلك تشتهي الآن الوقوف على السبب المرغب في الاتباع في هذه

(١) المُسَبِّحة: السبّابة.

(٢) محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد أبو الحسن الطوسي: من حفاظ الحديث، اشتهر بالصلاح، ونعته الذهبي: بشيخ المشرق. ت٢٤٢هـ

(٣) الكر: نوع من المكاييل يساوي نحو أربعين إردباً. والإردبّ = ٢٤ صاعاً = ١٥٠كغ.

الأفعال وتستبعد أن يكون تحت ذلك أمر مُهم يقتضي هذا التشديد العظيم في المخالفة.

فاعلم أن ذكر السر في آحاد تلك السُّنن طويل لا يحتمل هذا الكتاب شرحه. لكن ينبغي أن تفهم أن ذلك ينحصر في ثلاثة أنواع من الأسرار:

السرّ الأول: إنّا قد نبّهناك في مواضع على العلاقة التي بين الملك والملكوت[1] وبين الجوارح والقلب، وكيفية تأثر القلب بعمل الجوارح، فإن القلب كالمرآة، ولا تتجلى فيه حقائق الحق[2] إلا بتصقيله وتنويره وتعديله.

أما **تصقيله** فبإزالة خبث الشهوات وكدورة الأخلاق الذميمة.

وأما **تنويره** فبأنوار الذكر والمعرفة، ويعين على ذلك العبادة الخالصة إذا أُدّيت على كمال الخدمة بمقتضى السُّنة.

وأما **تعديله** فبأن يجري في جميع حركات الجوارح على قانون العدل، إذ اليد لا تصل إلى القلب حتى تقصد بتعديله وتُحْدِثَ فيه هيئة معتدلة صحيحة لا اعوجاج فيها، وإنما التصرف في القلب بواسطة تعديل الجوارح وتعديل حركاتها، ولهذا كانت الدنيا مَزْرعة الآخرة، ولهذا تعظم حسرة من مات قبل التعديل، لانسداد طريق التعديل بالموت، إذ تنقطع علاقة القلب عن الجوارح. فمهما كانت حركات الجوارح، بل حركات الخواطر أيضاً موزونة بميزان العدل، حدث في القلب هيئة عادلة مستوية، تستعد لقبول الحقائق على نعت الصحة والاستقامة، كما تستعد المرآة المعتدلة لمحاكاة الصور صحيحة من غير اعوجاج.

ومعنى العدل: وضع الأشياء مواضعها ومثاله أن الجهات مثلاً أربعة، وقد خُصَّ مِنْها جهَةُ القِبْلَةِ بالتشريف. فالعدل أن تُستَقبل في أحوال الذِّكْرِ

(١) المُلْكُ: عالم المحسوسات، والملكوت: عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس. التعريفات للجُرجاني.

(٢) في المطبوعة (الأشياء).

والعبادةِ والوضوءِ وأن تنحرفَ عنها عند قضاءِ الحاجةِ، وكشفِ العورةِ، إظهاراً لفضل ما ظهر فضْلُهُ.

ولليمين زيادة على اليسار ـ غالباً لفضل القوة ـ فالعدل أن تفضلها على اليسار، وتستعملها في بعض الأعمال الشريفة، كأخذ المصاحف والطعام، وتترك اليسار للاستنجاء وتناول القاذورات.

وقَلْمُ الظفر مثلاً، تطهير لليد، فهو إكرام، فينبغي أن تبتدئ بالأكرم والأفضل، وربما لا يستقل عقلك بالتفطُّن للترتيب في ذلك وكيفية البداية، فاتبع فيه السنّة وابتدئ بالمُسبّحة من اليمنى. لأن اليد أفضل من الرِجل، واليمنى أفضل من اليسرى. والمسبّحة ـ التي بها الإشارة في كلمة التوحيد ـ أفضل من سائر الأصابع. ثم بعد ذلك تدور من يمين المسبّحة. وللكفّ ظهر ووجه، فوجهه ما تقابله، فإذا جعلت الكفّ وجه اليد، كان يمين المسبّحة من جانب الوسطى، فقدّر اليدين متقابلتين بوجهيهما، وقدّر الأصابع كأنها أشخاص، فتدور بالمقراض من المسبِّحة إلى أن تختم بإبهام اليمنى كذلك فعل رسول الله ﷺ[1].

والحكمة في ذلك ما ذكرناه، فإذا أنت تعوّدت رعاية العدل في دقائق الحركات صارت العدالة والصحة هيئةً راسخةً في قلبك، واستوت صورته، وبذلك تستعد لقبول صورة السعادة. ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة صٓ: ٧٢]. فروح الله عزَّ وجلّ[2] مفتاح أبواب السعادة، ولم يكن نفخها إلا بعد التسوية. ومعنى التسوية يرجع إلى التعديل. وفي ذلك سر طويل يطول شرحه، وإنما نريد الرمز إلى أصله.

(١) قال الإمام في الإحياء: ولم أرَ في الكتب خبراً مروياً في ترتيب قَلْمِ الأظافر، ولكن سمعت أنه ﷺ بدأ. . .»، قال العراقي: لم أجد له أصلاً (انظر: إتحاف: ٢/ ٦٥٤).

(٢) إضافة الروح إلى الله عزَّ وجلّ إضافة تشريف وملك، كما نقول: عن الكعبة المشرفة (بيت الله)؛ إذ كل ما عدا الله عز وجل مخلوق حادث، وكما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] فباتفاق المفسرين هو جبريل عليه السلام.

فإن كنت لا تقوى على فهم حقيقته، فالتجربة تنفعك، فانظر إلى من تعوّد الصدق كيف تصدق رؤياه غالباً لأن الصدق حصل في قلبه هيئة صادقة تتلقى لوائح الغيب في النوم على الصحة.

وانظر كيف تكذب رؤيا الكذاب بل رؤيا الشاعر لتعوُّده التخيلات الكاذبة فاعوجَّ لذلك صورة قلبه. فإن كنت تريد أن تلمح جناب القدس، فاترك ظاهر الإثم وباطنه، واترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، واترك الكذب حتى في حديث النفس أيضاً، تجد الفلاح والنجاة.

السرّ الثاني: أن تعلم أن الأشياء المؤثرة في بدنك بعضها إنما يُعقَلُ تأثيرها بنوع من المناسبة إلى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، كقولك: إن العسل يضرُّ المحرور وينفع البارد مزاجه. ومنها ما لا يدرك بالقياس، ويعبَّر عنه بالخواص، وتلك الخواص لم يوقف عليها بالقياس، بل مبدأ الوقوف عليها وحي أو إلهام. فالمغناطيس يجذب الحديد. والسَّقَمُونْيَا[1] تجذب خلط الصفراء من أعماق العروق، لا على القياس، بل بخاصية وقفَ عليها إما بالإلهام أو بالتجربة الصادقة.

وأكثر الخواص عرفت بالإلهام وأكثر التأثيرات في الأدوية وغيرها من قبل الخواص.

فكذلك، فاعلم أن تأثيرات الأعمال في القلب، تنقسم إلى ما يُفهم وجه مناسبته، كعلمك بأن اتباع الشهوة الدنيوية يؤكد علاقته مع هذا العالم، فيخرج من العالم منكوس الرأس مولّياً وجهه إلى هذا العالم إذ فيه محبوبه.

وكعلمك أن المداومة على ذكر الله تعالى تؤكِّد الأُنس بالله تعالى، وتوجب الحب حتى تعظم اللذة به عند فراق الدنيا، والقدوم على الله سبحانه. إذ اللذة على قدر الحب، والحب على قدر المعرفة والذِّكر.

ومن الأعمال ما يؤثر في الاستعداد لسعادة الآخرة أو لشقاوتها

(١) السَّقَمُونيا: نبات يُستخرج منه دواء مسهل للبطن ومزيلٌ لدُودِهِ. (المعجم الوسيط)

بخاصية ليست على القياس، لا يوقف عليها إلا بنور النبوة. فإذا رأيت النبي ﷺ قد عدل عن أحد المُبَاحَيْنِ إلى الآخر، وآثره عليه مع قدرته عليهما، فاعلم أنه اطلع بنور النبوة على خاصية فيه، وكوشفَ به من عالم الملكوت، كما جاء في الأثر: «يا أيها الناسُ إنَّ الله أمرنَي أن أعلِّمَكم مما علَّمَني، وأؤدِّبَكم مما أدَّبَني، فلا يُكثرنَّ أحَدُكُمُ الكلامَ عند المُجَامَعَةِ، فإنه يكون منه خَرَسُ الولد، ولا ينظُرَنَّ أحدُكم إلى فَرج امرأته إذا هو جَامَعَها، فإنه يكون منه العمى، ولا يُقبِّلن أحَدُكُم امرأتَهَ إذا هو جامَعَها فإنه يكون منه صمم الولد، ولا يُديمنَّ أحدُكُم النظرَ في الماء فإنه يكون منه ذهاب العقل»[1].

وهذا مثال مما ذكرناه وأردنا تنبيهك على اطلاعه على خواص الأشياء، بالإضافة إلى أمور الدنيا لتقيس به اطلاعه ﷺ على ما يؤثر بالخاصية في السعادة والشقاوة.

فلا ترضى لنفسك أن تصدق محمد بن زكريا الرازي[2] المتطبب فيما يذكره من خواص الأشياء في الحجامة والأحجار والأدوية، ولا تصدق سيد البشر محمد بن عبد الله الهاشمي المكِّي المدنيّ ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فيما يخبر به عنها.

وأنت تعلم أنه ﷺ مكاَشف من العالم الأعلى بجميع الأسرار، وهذا يُنَبِّهكَ على الاتباع فيما لا تفهم وجه الحِكْمةِ فيه على ما ذكرناه في السرّ الأول.

السر الثالث: إن سعادة الإنسان أن يتشبه بالملائكة في النزوع عن الشهوات، وكسر النفس الأمّارة بالسوء، ويبعد عن مشابهة البهيمة المهملة سدى التي تسترسل في اتباع الهوى بحسب ما يقتضيه طبعها من غير حاجز.

ومهما تعوَّد الإنسان في جميع الأمور أن يفعل ما يشاء من غير حاجز،

(١) قال في تذكرة الموضوعات: فيه عبد الله بن أذينة راوي الموضوعات؛ قال ابن حبان وابن الجوزي: موضوع.
(٢) الرازي: فيلسوف، من الأئمة في صناعة الطب (ت: ٣١٣هـ) (الأعلام للزركلي).

ألفَ اتباع مراده وهواه، وغلب على قلبه صفة البهيمة، فمصلحته أن يكون في جميع حركاته ملجماً بِلجامٍ يَصُدُّه عن طريق إلى طريق. كيلا تنسى نفسه العبودية، ولزوم الصراط المستقيم. فيكون أثر العبودية ظاهراً عليه في كل حركة. إذ لا يفعل شيئاً بحسب طبعه بل بحسب الأمر. فلا ينفك في جميع أحواله عن مصادمات الرياضة[1] بإيثار بعض الأمور على بعض.

ومن ألقى زمامه في يد كلب مثلاً حتى لم يكن تصرفه وتردده بحكم طبعه بل بحكم غيره، فنفسه أقْوم إلى قبول الرياضة الحقيقية، وأقرب وأقوى ممن جعل زمامه في يد هواه، يسترسل بها استرسال البهيمة.

وتحت هذا سرّ عظيم في تزكية النفس، وهذه فائدة تُحَصَّل بوضع الشارع ﷺ كيفما وضعه.

والفائدة الحِكَمية أو الخاصية لا تتغير بالوضع، فإن المقصود أن لا يكون[2] مخليءَ مع اختياره، وذلك المقصود يحصل بالمنع عن أحد الجانبين أيّ جانب كان، وفي مثل هذا يتصور أن تختلف الشرائع لأنه ثمرة الوضع.

فيكفيك هذه التنبيهات الثلاث على فضل ملازمة الاتباع في جميع الحركات والسكنات.

[اتباع السنة في العبادات]

هذا التحريض الذي ذكرته إنما هو في العادات. وأما في العبادات، فلا أعرف لترك السنة من غير عذر وجهاً إلا كفر خفيٌ أو حمق جليٌ، بيانه أن النبي ﷺ إذا قال: «صلاةُ الجماعة تَفْضُلُ صلاةَ الفَذِّ[3] بسبع وعشرينَ دَرَجَةً»[4]. فكيف تسمح نفس المؤمنين بتركها من غير عذر؟ نَعم، يكون

(١) أي مجاهدة النفس؛ وفي المطبوعة بدل الرياضة (الزمان).
(٢) أي الإنسان.
(٣) الفذ: الفرد.
(٤) الحديث متفق عليه.

السبب في ذلك إما حمقٌ أو غفلةٌ بأن لا يتفكر في هذا التفاوت العظيم.

ومن يستحمق غيره ـ إذا آثر واحداً على اثنين ـ كيف لا يستحمق نفسه إذا آثر واحداً على سبع وعشرين، لا سيما فيما هو عماد الدين ومفتاح السعادة الأبدية.

وأما الكفر، فهو أن يخطر بباله أن هذا ليس كذلك، وإنما ذكره للترغيب في الجماعة، وإلا فأيُّ مناسبة بين الجماعة وبين هذا العدد المخصوص من بين سائر الأعداد؟ وهذا كفر خفيٌّ قد ينطوي عليه الصدر، وصاحبه لا يشعر به.

وما أعظم حماقة من يصدق المنجم والطبيب في أمور أبعد من ذلك، ولا يصدق النبي المكاشَف بأسرار الملكوت! فإن المنجم لو قال لك: إذا انقضى سبعة وعشرون يوماً من أول تحويل طالعك، أصابتك نكبة فأحترز في ذلك اليوم واجلس في بيتك، فلا تزال في تلك المدة تستقر[1] وتترك جميع أشغالك. ولو سألت المنجم عن سببه لقال لك: إنما قلت ذلك لأن بين درجة الطالع وموضعُ زُحَلْ سبعاً وعشرين درجة، فتتأخر النكبة في كل درجة يوماً أو شهراً.

فإذا قيل لك: هذا هَوسَ، إذ لا مناسبة له فلا تصدقن به، فلا يخلو قلبك عن الاستشعار، وتقول في أفعال الله تعالى عجائب لاتُعَرفُ مُناسَبَتُها، ولعلها خواصٌ لا تدرك. وقد عُرف بالتجربة أن ذلك مما يؤثر، وإن لم تُعَرفْ مناسبته. ثم إذا آل الأمر إلى خبر النبوة عن الغيب، أنكرت مثل هذه الخواص وطلبت المناسبة الصريحة. فهل لهذا سبب إلا شرك خفيّ، لا بل كفر جليّ، إذ لا محمل له سواه؟.

وسبب هذا التكاسل كله، أنك لا يُهِمُّكَ أمرُ آخرتك، فإن أمرَ دُنْيَاكَ لما كان يُهِمُّكَ، فتحتاط فيه بقول المنجم والطبيب، وبالاختلاج[2] والفأل

(١) في المطبوعة: تستشعر (وهو خطأ، والتصحيح من المخطوطة).
(٢) الاختلاج: اختلج في صدري. خطَرَ مع شكٍّ، ويقصد ما يتشاءم منه كاضطراب الجفن.

والأمور البعيدة عن المناسبة غاية البعد.

وتنقاد إلى الاحتمالات البعيدة، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، ولو تفكرت لعلمت أن هذا الاحتياط بالخطر الأبدي أَلْيق.

فإن قلت: ففي أي جنس من الأعمال ينبغي أن تُتّبَعَ السنة؟ فأقول: في **كل ما وردت به السنة**. والأخبار في ذلك كثيرة، وذلك كقوله ﷺ: «من احتجم يوم السبت والأربعاء فأصابه برص فلا يلومَنَّ إلا نفسه»[١] وقد احتجم بعض المحدِّثين يوم السبت. وقال: هذا الحديث ضعيف، فبرص وعظم ذلك عليه، حتى رأى رسول الله ﷺ في المنام فشكا إليه ذلك، فقال لِمَ احتجمت يوم السبت؟ فقال: لأن الراوي كان ضعيفاً. قال: أليس كان قد نقل عنّي؟ فقال: تُبت يا رسول الله. فدعا له رسول الله ﷺ بالشفاء فأصبح وقد زال ما به.

وقال ﷺ: «من احتجمَ يومَ الثلاثاءِ لسبعَ عَشرةَ من الشهر كان له دواء من داء سنة»[٢].

وقال ﷺ: «من نامَ بعدَ العصرِ فاختُلسَ عقلُهُ فلا يلومَنَّ إلا نفْسَه»[٣].

وقال ﷺ: «إذا انقطعَ شِسْعَ نَعلِ أحدِكُمْ فلا يمشِ في نعلٍ واحد حتى يُصلِحَ شسْعَه»[٤].

وقال ﷺ: «إذا وَلَدَتِ امرأةٌ فليكُنْ أولَ ما تأكُلُ الرُّطبَ، فإن لم يكن فتمرٌ، فإنه لو كانَ شيءٌ أفضلَ منه لأطعَمَهُ الله عزَّ وجلّ مريمَ حين وَلَدت عيسى عليه السلام»[٥]. وقال ﷺ: «إذا أُتي أحدكم بالحلواء فليصب منه،

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي.

(٢) رواه الطبراني وابن حبان بأسانيد ضعيفة، وقد روى أبو داود والحاكم في المستدرك حديثاً قريباً منه حكم السيوطي بصحته.

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده؛ وقال السيوطي: ضعيف.

(٤) رواه مسلم والنسائي والبخاري في الأدب المفرد؛ وشِسْعُ النعل: سير من جلد يمسك النعل.

(٥) أخرجه عثمان الدارمي بلفظ «أطعموا نفساءكم الرطب فإن لم يكن فالتمر»؛ وفي سنده ضعف وانقطاع.

وإذا أُتي أحدكم بالطيب فليمَسَّ منه»[١]. وأمثال ذلك في العادات كثيرة، ولا يخلو شيء منها عن سرّ.

خاتمة: في ترتيب الأوراد تنعطف على الأصول العشرة:

اعلم أن هذه العبادات التي فصلناها، منها ما يمكن الجمع بينها، كالصوم والصلاة والقراءة. ومنها ما لا يمكن الجمع بينها، كالقراءة والذكر والقيام بحقوق الناس والصلاة.

فينبغي أن يكون من أهم أمورك توزيع أوقاتك على أصناف الخيرات من صباحك إلى مسائك، ومن مسائك إلى صباحك.

وتعلَّم أن مقصودَ العباداتِ تأكيدَ الأنسِ بذكر الله عزَّ وجلّ، للإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور. ولن يَسْعدَ في دار الخلود إلا من قَدِمَ على الله سبحانه محباً له، ولا يكون محباً له إلا من كان عارفاً به، مُكْثِراً لذكره، ولا يحصل المعرفة والحب، إلا بالفكر والذكر الدائم، ولن يدوم الذكر في القلب، إلا بالمذكّرات، وهي العبادات المستغرقة للأوقات على التعاقب. وباختلاف أصنافها زيادة تأثير في التذكير، ومنع الملالِ، وسقوطِ أثرِهِ عن القلب بالدوام الذي ينتهي إلى حدّ الاعتياد.

نعم، إن كنت والهاً بالله عزَّ وجلّ، مستغرقاً به، لم تفتقر إلى ترتيب الأوراد، بل وِرْدُكَ واحد، وهو ملازمَةُ الذكرِ. وما أراك تكون كذلك، فإن ذلك من أعز الأمور. فإن لم تكن والهاً مُستَهْتَراً. فعليك أن ترتِّبَ أورادَكَ:

فأحد الأوراد هو من وقت انتباهك من النوم، إلى طلوع الشمس. وينبغي أن تجمَعَ في هذا الوقت الشريف بعد الفراغ من الصلاة بين الذكر والدعاء والقراءة والتفكّر، فإن لكل واحد أثراً آخر في تنوير القلوب، وتعرف كيفية ذلك وتفصيله من كتاب (بداية الهداية)[٢]، وكتاب (ترتيب

---

(١) ورد في الصحيحين: «كان النبي ﷺ لا يرد الطيب».

(٢) وردت الإشارة إليه سابقاً، وهو كتاب مستقل للإمام الغزالي رحمه الله. (مطبوع)

الأوراد)[1]، وكذلك تفعل بين الطلوع والزوال، وبين الزوال والغروب وبين الغروب والعشاء، فإنها من أشرف الأوقات، لأن النشاط إنما يتوفر بأن تميّز ورد كلّ وقت، لتكون في كل وقت عبادة أخرى تنتقل من بعضها إلى بعض، هذا إن كنت من العُبّاد.

فإن كنت معلّماً أو متعلماً أو والياً، فالاشتغال بذلك[2] في بياض النهار، أفضل من العبادات البدنية، لأن أصل الدين العلم الذي به يحصل التعظيم لأمر الله سبحانه، والنفع الذي يصدر عن الشفقة على خلق الله تعالى.

وكذلك إن كنت مُعيلاً محترفاً، فالقيام بحق العيال بكسب الحلال أفضلُ من العبادات البدنية، ولكن في جميع ذلك لا ينبغي أن تخلو وتنفكَّ عن ذكر الله تعالى، بل تكون كالمُستَهْتَر[3] بمعشوقه، المدفوع إلى شغل من الأشغال لضرورة وقته، فهو يعمل ببدنه، وهو غائب عن عمله، حاضر بقلبه مع معشوقه. حُكي عن أبي الحسن الجُرجاني أنه كان يعمل بالمسحاة[4] دائماً وكان يقول: «أعطينا اليد واللّسان والقلب، فاليد للعمل، واللسان للخلق، والقلب للحق» ولنقتصر على هذا القدر في قسم الأعمال الظاهرة، ففيه الكفاية إن شاء الله تعالى.

* * *

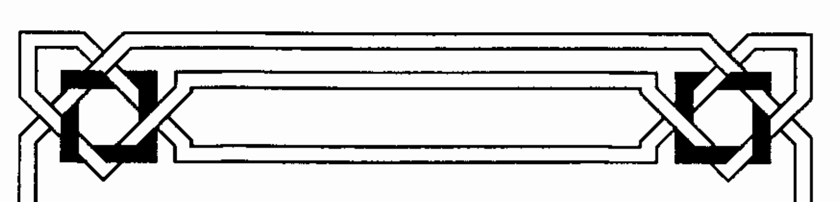
---

(١) من كتب إحياء علوم الدين.

(٢) أي بالتعليم أو التعلم أو تصريف شؤون الناس، ومن هذا تعلم خطأ من يشيعون أن الإمام الغزالي يدعو إلى الانقطاع والعزلة والإعراض الكامل عن شؤون الحياة.

(٣) المُستَهْتِرَ بالشيء: المولَعُ به لا يبالي بما فُعلَ فيه، وقد استُهترَ بكذا: أي فُتِنَ به وذهب عقله فيه. (مختار القاموس)

(٤) المسحاة: المجرفة.



القِسْمُ الثَّالِثُ

في تزكية القلب عن الأخلاق المذمومة

القسم الثالث

في تزكية القلب عن الأخلاق المذمومة

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤]، وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩]، والتزكية هي التطهير. وقال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شطرُ الإيمان»[١] فافهم منه أن كمال الإيمان، بتزكية القلب عما لا يحبه الله عزَّ وجلّ، وتحليته بما يحبه الله تعالى.

فالتزكية شطر الإيمان. وكيف يشتغل بالطهارة من لا يعرف النجاسة. فلنذكر الأخلاق المذمومة، وهي كثيرة؛ ولكن نحتاج أن نَرُدّ شُعَبَها إلى عشرة أصول:

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

الأصل الأول: في شَرَهِ الطعام

وهو من الأمهات، لأن المعدةَ ينبوعُ الشهوات، إذ منها تتشعب شهوةُ الفرَج. ثم إذا غلبت شهوة المأكول والمنكوح، يتشعب منها شره المال، إذ لا يُتَوَصَّل إلى قضاء الشهوتين إلا به، ويتشعب من شهوة المال شهوة الجاه، إذ يعسر كسب المال دونه. ثم عند حصول المال والجاه وطلبهما، تزدحم الآفات كلها. كالكِبْر والرياء والحسد والحقد والعداوة وغيرها. ومنبع جميع ذلك البطن. فلهذا عظَّم رسول الله ﷺ أمرَ الجوع، فقال عليه السلام: «ما من عمل أحبَّ إلى اللهِ تعالى مِنَ الجُوعِ والعَطَشِ»[1]. وقال: «لا يدخلُ ملكوتَ السَّماءِ من ملأ بطنه»[2]، وقال عليه السلام: «سيدُ الأعمالِ الجوع»[3] وقال عليه السلام: «الفِكْرُ نصفُ العبادة، وقلةُ الطعام هي العِبادة»[4]، وقال عليه السلام: «أفضلُكم عند الله تعالى أطولُكمُ جوعاً وتفكراً، وأبغضكم إلى الله تعالى كلّ أكول شروب نؤوم»[5]. وقال عليه السلام: «ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنِهِ، حَسْبُ ابنُ آدمَ لُقَيماتٍ يُقمْنَ صُلْبَه، وإنْ كانَ لا محالة فثُلُثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابِهِ وثُلثٌ لنَفَسِهِ»[6]، وقال عليه السلام: «إن الشيطانَ ليَجرِي من ابن آدمَ مجرى الدَّم، فضيّقوا مجاري الشيطان بالجوعِ والعَطَشِ»[7]، وقال عليه السلام: لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «أديموا قَرْعَ بابِ الجنَّةِ يُفتحَ لكم» قالت: كيف نديمُ؟ قال عليه السلام: بالجوعِ والظمأ»[1]، وقال عليه السلام: «كُلُوا واشربُوا في أنصافِ البطونِ، فإنه جُزْءٌ من النُّبوة»[2].

---

(١) ورد في تعظيم أجر الصوم أحاديث قدسية وأحاديث شريفة كثيرة صحيحة.
(٢) قال العراقي: لم أجده. وأقره الزبيدي في اتحاف السادة المتقين.
(٣) قال العراقي: لم أجده، ولم يعقب الزبيدي.
(٤) قال العراقي: لم أجده، ولم يعقب الزبيدي؛ لو نظرنا إلى هذه المرويات دون نسبتها إلى النبي ﷺ لوجدنا معانيها صحيحة.
(٥) قال العراقي: لم أجده، ولم يعقّب الزبيدي.
(٦) أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح؛ والنسائي وابن ماجه، هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ وهو يكفي في هذا الباب.
(٧) متفق عليه دون قوله «فضيقوا مجاري الشيطان..».

[السر في تعظيم الجوع]

لعلك تشتهي أن تعلم السرّ في تعظيم الجوع ومناسبته لطريق الآخرة. فاعلم أن له فوائد كثيرة، ولكن يرجع أصولها إلى سبع:

إحداها: صفاء القلب ونفاذ البصيرة، فإن الشِّبَعَ يورث البلادة ويعمي القلب. قال ﷺ «من أجاعَ بطنَه عظُمَت فِكْرَتُهُ وفَطِنَ قلبُهُ»[3]. ولا يخفى أن مفتاح السعادة المعرفة، ولا تُنال إلا بصفاء القلب، فلذلك كان الجوع قرع باب الجنة.

الثانية: رقة القلب، حتى يُدرك به لذةَ المناجاة، ويتأثرَ بالذكر والعبادة. وقال الجُنيد: «يَجعلُ أحدُكم بينه وبين قلبِهِ مخلاةً من الطعام ويريد أن يجدَ حلاوةَ المناجاة». ولا يخفى عليك أن أحوال القلب من الخشية والخوف والرقة والمناجاة والانكسار بالهيبة، من مفاتيح أبواب الجنة، وإن كان باب المعرفة فوقه، والجوع قرع لهذا الباب.

الثالثة: ذُلُّ النفسِ وزوالُ البَطَر والطغيان منها، فلا تُكسَرُ النفسُ بشيء كالجوع. والطغيان داع إلى الغفلة عن الله تعالى، وهو باب الجحيم والشقاوة والجوع، إغلاق لهذا الباب. وفي إغلاقِ بابِ الشقاوة فتحُ باب السعادة. ولذلك لّما عُرضت الدنيا عليه ﷺ قال: «لا بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت صَبَرْتُ، وتَضَرَّعتُ، وإذا شبعت شكرت»[4].

---

(١) قال العراقي: لم أجده، ولم يعقب الزبيدي في اتحاف السادة المتقين.
(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف؛ وروى الترمذي عنه ﷺ: «أجوع يوماً وأشبع يوماً».
(٣) قال العراقي: لم أجده، وسكت عنه الزبيدي.
(٤) رواه الترمذي بلفظ «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يارب، =

الرابعة: أن البلاءَ من أبواب الجنة، لأن فيه مُشاهدةَ طعمِ العذاب، وبه يعظمُ الخوفُ من عذاب الآخرة، ولا يَقْدِرُ الإنسان على أن يعذِّب نفسه بشيء كالجوع، فإنه لا يحتاج فيه إلى تكلف، وترتبط بها فوائد أخرى، فيكون مشاهداً بلاء الله تعالى على الدوام.

الخامسة: ـ وهي من كبار الفوائد ـ كَسْر سائر الشهوات التي هي منابع المعاصي، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، قال ذو النون[1] ـ رضي الله عنه ـ «ما شبعتُ قطُّ إلا عَصيتُ أو همَمْتُ بالمعصية». وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أولُ بدعةٍ حدثَتْ بعد رسول الله ﷺ الشِّبَعُ، إن القومَ إذا شَبعتْ بطونهم، جَمَحَتْ بهم نفوسُهُم إلى الدنيا».

السادسة: خفة البدن للتهجد والعبادة، وزوال النوم المانع من العبادة، فإن رأس مال السعادة العمر، والنوم ينقص العمر إذْ يمنع من العبادة، وأصله كثرة الأكل.

قال أبو سليمان الداراني: «من شبع دخل عليه ست آفات: فَقْدُ حلاوة العبادة، وتَعَذُّر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق، لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباعاً، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد وهو يدور حول المزابل».

السابعة: خفة المؤنة وإمكانُ القناعةِ بقليلٍ من الدنيا، وإمكان إيثار الفقر، فإنّ من تَخَلَّصَ من شره بطنِهِ لم يَفْتَقِرْ إلى مالٍ كثير، فيسقط عنه أكثر همومُ الدنيا، فمهما أرادَ أن يستقرضَ لقضاءِ شهوةِ البطنِ، استقرضَ من نفسِهِ، وتَرَكَ شهواتِهِ. كان إذا قيلَ لإبراهيم بن أدهم ـ رحمة الله عليه ـ في شيء إنه غالٍ. قال: «أرْخِصوه بالترك».

= ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك» وقال: حديث حسن؛ وفي مسند أحمد عن أبي أمامة نحوه. ورواه الطبراني في الكبير.

(1) كذا في الإحياء أيضاً. وفي المطبوعة: علي بدل ذي النون، وذو النون المصري: عالم رباني توفي سنة ٢٤٥هـ ويعد من الطبقة الأولى في العلماء الربانيين.

[التدرج في التقليل من الطعام]

لعلك تقول: قد صار الشِّبع والإكثارُ في الأكل عادة، فكيف أتركها؟

فاعلم أن ذلك يسهل على من أراده بالتدريج، وهو أن يُنقص كل يوم من طعامه لقمة، حتى يُنقصَ رغيفاً في مقدارِ شهر، فلا يظهر أثره، ويصير التقليل عادته. ثم إذا أذْعنت بالتقليل، فلك النظر في الوقت والقدْر والجنس. أما القدْر، فله ثلاث درجات:

أعلاها ـ وهي درجة الصديقين ـ الاقتصار على قدر القوام، وهو الذي يخاف النقصان منه على العقل أو الحياة، وهو اختيار سَهْل التستريّ[1]، وكان يرى أن الصلاة قاعداً لضعفه بالجوع، أفضل من الصلاة قائماً مع قوة الأكل.

الثانية: أن تقنع بنصف مُدٍّ كل يوم وهو ثُلث البطن، وعلى ذلك كانت عادة عمر ـ رضي الله عنه ـ وجماعة من الصحابة، إذ كان قوتهم في الأسبوع صاعاً من شعير.

الثالثة: المد الواحد، وما جاوز ذلك فهو مشاركة مع أهل العادة وميل عن طريق السالكين المسافرين إلى الله تعالى، وقد يؤثِّر في المقادير اختلاف الأحوال والأشخاص، وعند ذلك فالأصل فيه أن يمدّ اليد إذا صدق جوعه، ويكفّ وهو بعد صادق الاشتهاء. وعلامة صدق الجوع أن تشتهي أيّ خبز كان من غير أُدْم[2]، فإذا استثقل الأكل بغير أدم، فهو علامة الشبع.

وأما الوقت، ففيه أيضاً ثلاث درجات:

أعلاها: أن يطوي[3] ثلاثة أيام فما فوقها فقد كان الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يطوي ستَّةَ أيامٍ. وإبراهيم بن أدهم والثوري سبعاً. وبعضهم انتهى إلى

(1) من أكابر العلماء الربانيين توفي سنة ٢٨٣هـ.

(2) أدم: ما يؤدم به ويُستمرأ به الخبز، أي ما يؤكل مع الخبز. الأُدْمُ: الإدام.

(3) يطوي: يجوع. والطي الاستمرار بالصوم.

أربعين يوماً، وقيلَ من طوى أربعينَ يوماً ظهرت له لا محالة أشياء من عجائب الملكوت، ولا يمكن ذلك إلا بالتدريج. وأما الأوسط بأن يطويَ يومينِ، والأدنى بأن يأكل في اليوم مرة واحدة، فمن أكل مرتين لم تكن له حالة جوع أصلاً، فيكون قد تَرَكَ فضيلةَ الجوع.

وأما الجنس، فأعلاه خبز البُرّ[1] مع الإدام مطلقاً، وأدناه خبز الشعير بلا إدام، والمداومة على الإدام مكروه جداً. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ لولده كلْ مرةً خبزاً ولحماً، ومرة خبزاً وسمناً، ومرة خبزاً ولبناً، ومرة خبزاً وملحاً، ومرة خبزاً قَفَاراً[2]. فهذا تنبيه على الأحسن في أهل العادة. وأما السالكون الطريق، فقد بالغوا في ترك الإدام، بل في ترك الشهوات جملة، حتى كان بعضهم يشتهي الشهوة عشر سنين وعشرين سنة، وهو يخالف نفسه ويمنعها شهواتها. وقد قال النبي ﷺ: «شِرارُ أمتي الذين غُذُوا بالنعيم ونَبَتَتْ عليه أجسامُهم، وإنما هِمَّتُهم ألوانُ الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام»[3]. وقد شرحنا طريق السلف في ترك الشهوات [في كتاب كسر الشهوتين (من إحياء علوم الدين)].

* * *

(١) خبز البر: خبز القمح.
(٢) قَفَار: غير مأدوم.
(٣) قال العراقي: رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب ورواه أبو نعيم في الحلية (انظر تمام تخريجه في اتحاف الزبيدي: ج٩/ ٥٧).

الأصل الثاني: في شَرَهِ الكلام

وذلك لا بد من قطعه، فإن الجوارحَ كلَّها تؤثِّرُ أعمالُها في القلبِ، لكن اللسان أخص بذلك لأنه يؤدي عن القلب ما فيه من الصور، فتقتضي كل كلمة صورة في القلب محاكية لها، فلذلك إذا كان كاذباً حصل في القلب صورة كاذبة، واعوجَّ به وجه القلب، وإذا كان في شيء من الفضول مستغنىً عنه، اسودّ به وجه القلب وأظلم، حتى تنتهي كثرة الكلام إلى إماتة القلب. ولذلك عظَّم رسول الله ﷺ أمر اللسان فقال: «من يَتَوَكَّلْ لي بما بين لَحَيَيْه ورِجْلَيهِ أتوكلْ له بالجنة»[1]. وسُئِلَ عن أكثر ما يدخل النار، فقال عليه السلام: «الأجوفَان: الفَمُ والفَرجُ»[2]. قال عليه السلام: «وهل يَكُبُّ الناسَ على مناخرِهم إلا حَصَائِدُ ألسنتهم؟»[3]. وقال: «من صَمَتَ نَجَا»[4]، وقال له معاذ: أي الأعمال أفضل؟ فأخرج لسانه ووضع عليه يده وقال: «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»[5]. وقال عليه السلام: «من كانَ يؤمنُ بالله واليوم الآخرِ فليقُلْ خيراً أو ليَصْمُتْ»[6]، وقال عليه السلام: «من كَثُرَ كلامُهُ كثُرَ سَقَطُهُ، ومن كثُرَ سَقَطُه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به»[7]. ولهذا كان الصديق ـ رضي الله عنه ـ يضع حجراً في فيه ليمنع نفسه من الكلام.

(١) اللحيان: منبت اللحية أو عظم الحنك، والحديث رواه البخاري في صحيحه.
(٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي وصححه.
(٣) أخرجه ابن ماجه والترمذي وصححه والحاكم وقال صحيح.
(٤) أخرجه الطبراني بسند جيد؛ والترمذي بسند ضعيف.
(٥) أخرجه البيهقي بسند حسن والطبراني وابن أبي الدنيا.
(٦) متفق عليه. عن أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه أحمد جزءاً من حديث عن أبي شريح الكعبي.
(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية بسند ضعيف؛ ورواه البيهقي موقوفاً على عمر رضي الله عنه.

[آفات اللسان]

اعلم أن للّسان عشرين آفة شرحناها في كتاب آفات اللسان(في الإحياء) ويطول ذكرها، ويكفيك العمل بآية واحدة. قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ [النساء: ١١٤]. ومعناه أن لا تتكلم فيما لا يعنيك، وتقتصر على المهم، ففيه النجاة.

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: استشهد غلام منا يوم أحد فوُجد على بطنه حجراً مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: «هنيئاً لك الجنة يا بنيّ». فقال رسول الله ﷺ: «وما يُدريكِ لَعَلَّهُ كانَ يتكلمُ فيما لا يُعنيه، ويمنعُ ما لا يَضُرُّه»[١].

وحدُّ ما لا يعني هو: الذي لو تُرك لم يفُتْ به ثواب، ولم تُنتجَزْ به ضرورة.

ومن اقتصر من الكلام على هذا قلّ كلامه، فلْيحاسِبِ العبدُ نفسَه عند ذكرِهِ ما لا يعنيه، إنه لو ذكر الله تعالى بدل تلك الكلمة كان ذلك كنزاً من كنوز السعادة، فكيف يسمح العقل بترك كنز مكنوز، وأخذ مَدَرة[٢]، هذا لو لم يكن فيه إثم. فإن كان إثم، فقد استبدل بترك كل كنز أخذ شعلة من النار.

ومن جملة ما لا يعني حكاية الأسفار وأحوال أطعمة البلاد وعاداتهم، وأحوال الناس، وأحوال الصناعات والتجارات، وهو من جملة ما ترى الناس يخوضون ويستلذون به.

[تفصيل بعض آفات اللسان]

لعلك تريد أن تعرف تفصيل بعض هذه الآفات، فاعلم أن الغالبَ

(١) أخرجه الترمذي من حديث أنس مختصراً وقال: غريب. ورواه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف؛ وروى الطبراني في الأوسط نحوه بإسناد جيد.

(٢) المدرة: قطعة من الطين أو الحجر.

على الألسنةِ من جملة العشرين آفة خمسة: الكذب، والغيبة، والمماراة، والمدح، والمزاح.

الآفة الأولى الكذب: وقد قال ﷺ: «لا يزالُ العبدُ يكذبُ ويتحرى الكذبَ حتى يُكتبَ عندَ الله كذاباً»[١]، وقال ﷺ: «ويلٌ لِلَّذي يُحَدِّثُ فيكذبُ ليَضْحَكَ منهُ الناسُ، ويلٌ له ويلٌ له»[٢].

وقيل: يا رسول الله، أيزني المؤمن؟ أيسرق المؤمن؟ قال عليه السلام: «قد يكون ذلك»، فقيل له: أيكذب؟ فقال: لا إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»[٣]. وقال عليه السلام: «ألا أنبئكم بأكبَرِ الكبَائرِ»، فقلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالديْنِ»، وكانَ مُتَّكئاً فَجلَسَ وقال عليه السلام: «ألا وقولُ الزُّورِ»[٤]، وقال عليه السلام: «كلُّ خَصْلةٍ يَطْبَعُ اللهُ عليْها المؤْمنَ إلا الخيانَةَ والكَذِبَ»[٥].

[متى يُرخَّصُ في الكذب؟]

اعلم أن الكذبَ حرامٌ في كلِّ شيءٍ، إلا لضرورة، حتى قالت امرأة لولدها الصغير: تعال حتى أعطيك، فقال النبي ﷺ: «وماذا كُنْتِ تُعْطينه لو جاءَ؟» قالت: تَمْرة. قال: «أما لو لم تَفْعلي كُتِبَتْ عليك كذبة»[٦].

فليحذر الإنسان الكذبَ حتى في التَّخَيُّلِ وحديثِ النفسِ، فإن ذلك يثبت في النفس صورة معوجَّة حتى تكذبَ الرؤيا، فلا تنكشفُ في النوم

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه؛ ورواه أحمد في مسنده.

(٣) أخرجه ابن عبد البَرّ في التمهيد بسند ضعيف والآية رقم (١٠٥) من سورة النحل؛ ورواه ابن عساكر.

(٤) متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف؛ وابن عدي في مقدمة الكامل؛ وروى أحمد نحوه؛ وفي رواية البزار وأبي يعلى يطبع المؤمن على كل خلة.. ورجاله رجال الصحيح.

(٦) رواه أبو داود وأحمد ورجاله ثقات.

أسرار الملكوت، والتجربة تشهد بذلك.

نعم إنما يُرخَّصُ في الكذب إذا كانَ الصدقُ يُفضي إلى محذور آخر أشد من الكذب، فيباح كما تباح الميتة إذا أدى تركُها إلى محذورٍ أشد من أكلها، وهو فوات الرُّوح.

قالت أم كلثوم ـ رضي الله عنها ـ: «ما رَخَّص رسول الله ﷺ في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجلُ يقولُ القولَ يريدُ الإصلاح، والرجلُ يقول القولَ في الحَرْب، والرجلُ يحدِّثُ امرأتَه»[1]. وهذا لأن أسرارَ الحرب لو وقَفَ عليها العدوُّ اجترأ، وأسرارُ الزوج لو وقَفَتْ عليها المرأةُ نشأ منها فسادٌ أعظمُ من فسادِ الكذِبِ، وكذلك المتخاصمان تدوم بينهما المعصية والعداوة، فإذا أمكن الإصلاح بكذب، فذلك أولى.

فهذا ما ورد فيه الخبر، وما في معناه: كذبُ الإنسانِ ليسترَ مالَ غيره عن ظالمٍ أو إنكارُهُ لِسِرِّ غيره، بل إنكاره لمعصيةِ نفسه عن غيره، فإن المجاهرة بالفسق وإظهاره حرام، وكذلك إنكاره جناية نفسه على غيره لتطييب قلبه، وكذلك إنكاره مع زوجته، أن تكون ضرّتها أحبَّ إليه، وكل ذلك يرجع إلى دفع المضرّات.

ولا يباح لجلب زيادةِ مالٍ وجاهٍ، وفيه يكون كذب أكثر الناس.

ثم إذا اضطُرَّ إلى الكذب فليعدل إلى المعاريض[2] ما أمكن حتى لا يعوِّد نفسه الكذب.

كان إبراهيم بن أدهم إذا طُلب في الدار قال لخادمته: قولي له اطلبه في المسجد. وكان الشعبي يخطّ دائرة، ويقول لخادمته: «ضعي الإصبع

(١) رواه مسلم بألفاظ قريبة منه؛ وليس الأمر على إطلاقه في حديث الرجل لامرأته. (انظر شرح الحديث في شرح مسلم للإمام النووي)؛ ورواه أحمد قريباً من لفظ المؤلف.

(٢) المعاريض: جمع معراض، وهو التورية بالكلام يقول شيئاً ويعني شيئاً آخر، ولكن لا يجعل ذلك عادته بل يلجأ إليها عند الضرورة الملجئة، وما أورده الإمام الغزالي عن إبراهيم بن أدهم أو الشعبي فلم يكن ذلك ديدنهم رضي الله عنهم.

فيها وقولي: ليس ههنا». وكان بعضهم يعتذر عند الأمير ويقول: منذ فارقتك ما رفعت جنبي من الأرض إلا ما شاء الله تعالى. وكان بعضهم يُنكر ما قال، فيقول: إن الله ليعلمُ ما قلتُ من ذلك من شيء. فيوهم النفي بحرف «ما» وهو يريد غير ذلك. وتباح المعاريض لغرض خفيف، لقوله ﷺ: «لا تدخل الجنة عجوز»[1]، ونَحمِلُك على ولد البعير»[2]، وفي عيني زوجك بياض»[3]، لأن هذه الكلمات أوهمت خلاف ما أراد، فيباح مثل ذلك مع النساء والصبيان لتَطيِبَ قلوبهم بالمزاح، وكذلك من يمتنع عن أكل الطعام فلا ينبغي أن يكذب ويقول: لا أشتهي إذا كان يشتهي، بل يعدل إلى المعاريض. قال النبي عليه السلام لامرأة قالت ذلك: «لا تجمعي كذباً وجوعاً»[4].

الآفة الثانية الغيبة

قال الله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقال عليه السلام: «الغِيبَةُ أشدُّ من الزّنى»[5]، وأوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ من ماتَ تائباً من الغيبةِ فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار. وقال ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على قوم يَخمشُون وجُوهَهُمْ بأظفارهم، فقيل لي: هؤلاء الذينَ كانوا يغتابُونَ الناسَ»[6].

واعلم أن حدّ الغيبة ـ كما بيّنه رسول الله ﷺ أن تذكرَ أخاكَ بما يكرهه لو بَلَغَه، وإن كنت صادقاً، سواء ذكرت نقصاناً في نفسه، أو عقله، أوثوبه،

(١) رواه الترمذي من حديث الحسن مرسلاً.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه.

(٣) أخرجه الزبير بن بكار وابن أبي الدنيا.

(٤) رواه الطبراني وابن أبي الدنيا؛ ورواه أحمد من حديث أسماء ابنة يزيد بلفظ لا تجمعن.

(٥) أخرجه ابن حبان في الضعفاء؛ وابن أبي الدنيا؛ وابن مردويه في التفسير وقال السيوطي: ضعيف.

(٦) رواه أبو داود مسنداً ومرسلاً والمسند أصح.

أو فعله، أو قوله، أو داره، أو نسبه، أو دابته، أو شيئاً مما يتعلق به، حتى قولك: إنه واسع الكم، أو طويل الذَّيل، حتى ذُكر عند رسول الله ﷺ رجل فقيل: ما أعجزه، فقال عليه السلام: «اغتبتموه»[١]. وأشارت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بيدها إلى امرأة أنها قصيرة. فقال عليه السلام: «اغتَبْتِها»[٢].

فبهذا يعلم أن الغيبة لا تقتصر على اللسان، بل لا فرق بين أن يحصل التفهيم باليد أو بالرمز أو بالإشارة أو بالحركة أو بالمحاكاة، أو التّعريض المُفْهِم، كقولك: إن بعض أقربائنا وبعض أصدقائنا كذا وكذا.

واعلم أن أخبث أنواع الغيبة غيبة القرّاء[٣]، يقولون مثلاً: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان لطلب الدنيا. أو نعوذ بالله من قلة الحياء، وهم يفهمون المقصود بذلك. يقولون: ما أحسن أحوال فلان لولا أنه بُلِيَ بمثل ما ابتلي به أمثالنا، وهو قلة الصبر عن الدنيا، فنسأل الله تعالى أن يعافينا، وغرضهم بذلك الغيبة، فيجمعون بين الغيبة والرياء، وإظهار التشبه بأهل الصلاّح في الحذر من الغيبة. وهذه خبائث يغترّون بها وهم يظنون أنهم تركوا الغيبة.

وكذلك قد يغتابُ واحدٌ فيغفلُ عنه الحاضرون فيقول: سبحان الله ما أعجَبَ هذا، حتى ينتبهَ القومُ إلى الإصغاء، فيستعملُ ذكرَ الله في تحقيقِ خبثه.

ويقول: قلبي مشغول بفلانٍ تابَ اللهُ علينا وعليه، وليس غرضُهُ الدعاءُ بل التعريفُ. ولو قصدَ الدعاء لأخفاهُ، ولو اغتمَّ قلبُهُ لأجله لكتم عيبه ومعصيته. كذلك المستمع، قد يُظهر تعجباً من كلام المغتاب حتى يزيد نشاطُه في الغيبة، «والمستمعُ أحدُ المغتابَيْن»، كذلك قال رسول الله ﷺ[٤]. فكيف إذا حرَّك نشاطه بالتعجب؛ وكذلك قد يقول دع غيبة فلان وهو بقلبه

(١) أخرجه الطبراني بسند ضعيف.
(٢) رواه أحمد، وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آخر.
(٣) طلبة العلم، أو العلماء.
(٤) أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

غير كاره لغيبته إنما غرضه أن يُعرف بالتورع، وذلك لا يُخرجه عن إثم الغيبة ما لم يكرهها بقلبه ويُورطه في إثم الرياء، بل يخرج من الإثم بأن يكرهه قلبه، ويكذِّب المغتاب ولا يصدّقه عليه، لأنه فاسق يستحق التكذيب.

والمسلم المذكور بالغيبة يستحق إحسان الظنّ به قال رسول الله ﷺ: «إن الله حَرَّمَ من المسلم دَمَه وعِرْضَه ومالَه وأن يُظنّ به ظنُّ السوء»[١]. فالغيبة بالقلب حرام، كما أنه باللسان حرام إلا أن يضطرّ إلى معرفته بحيث لا يمكنه التجاهل.

[متى يرخص بالغيبة؟]

إنما يُرَخَّصُ في الغيبة في ستة مواضع:

الأول منها: المتظلم يذكر ظلمَ الظالمِ عندَ سلطانٍ ليدفعَ ظلمَه، فأما عند غير سلطان وعند غير مَن لا يقدر على الدفع فلا.

اغتيبَ الحجاج عند بعض السلف، فقال: إن الله لينتقمُ للحجاج ممن اغتابه، كما ينتقمُ من الحجاج لمن ظلمه.

الثاني: الذي يستعان به على تغيير المنكر يجوز أن يذكر له أيضاً.

الثالث: المستفتي إذا افتقر إلى ذكر السؤال كما قالت هند للنبي ﷺ: إن أبا سفيان، رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، وهذا كله شكاية، ولكن إنما يحل إذا كانت فيها فائدة.

الرابع: تحذير المسلم من شر الغير إذا علم، أنه لو لم يذكره لقبلت شهادته، كما يذكر المزكّي إذ يعامل ويناكح فيتضرر به فيذكر لمن يتوقع ضرره به فقط.

الخامس: أن يكون معروفاً باسم فيه عيب كالأعمش والأعرج، فالعدول إلى اسم آخر أولى.

(١) أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف؛ ورواه مسلم وابن ماجه بلفظ «كل المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه»؛ ولأبي داود بلفظ قريب من لفظ مسلم.

السادس: أن يكون مجاهراً بذلك العيب لا يكرهه أن يذكر، كالمخنث وصاحب الماخور[1]. وقال الحسن: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى، والفاسق المعلن بالفسق، والإمام الجائر، وهؤلاء يجمعهم أنهم مجاهرون لا يكرهون الذكر، والصحيح أن ذكر الفاسق بمعصية يخفيها ويكره ذكرها لا يجوز من غير عذر.

[علاج النفس لتكفَّ عن الغيبة]

علاج النفس في كفّها عن الغيبة أن يتفكر في الوعيد الوارد فيها في قوله ﷺ: «إنَّ الغيبةَ أسرعُ في حسناتِ العبدِ من النارِ في اليبَس»[2].

وورد أن حسنات المغتاب تنقل إلى ديوان المظلوم بالغيبة، فينظر في قلة حسناته وكثرة غيبته، وأنه ينتهي إلى إفلاسه على القرب، ثم يتفكر في عيوب نفسه، فإن كان فيه عيب فيشتغل بنفسه عن غيره، وإن كان قد ارتكب صغيرة فليعلم أن ضرره من صغيرة نفسه أكثر من ضرره من كبيرة غيره، وإن لم يكن فيه عيب، فيعلم أن جهله بعيوب نفسه أعظم عيب. ومتى يخلو الإنسان من عيب؟ ثم إن خلا منه فليشكر الله تعالى بدلاً من الغيبة، فإنّ ثَلْبَ الناس وأكل لحم الميتة، من أعظم العيوب، فليحذر منه.

ثم مهما سبق لسانه إلى الغيبة، فينبغي أن يستغفرَ الله تعالى، ويذهب إلى المغتاب ويقول: ظلمتُكَ فاعف عني، فيستحله، فإن لم يصادفه فليكثر من الثناء عليه، ومن الدعاء له، ومن الحسنات، حتى إذا نُقل بعضها إلى ديوان المظلوم بقي له ما يكفيه، فهي كفَّارة الغيبة[3].

---

(١) الماخور: بيت الريبة والدعارة.

(٢) قال العراقي: لم أجد له أصلاً؛ وقال الزبيدي: رواه ابن أبي الدنيا من قول الحسن البصري.

(٣) وردت أحاديث كثيرة في الترهيب من الغيبة (في الصحاح)؛ انظر: كتاب الترغيب والترهيب: ج٣/ ٥٠٢ وما بعدها؛ والغيبة والنميمة من أخطر الآفات الاجتماعية التي انتشرت في زماننا، وقلَّ من يتنزه عنهما نسأل الله عزَّ وجلّ أن يعيننا على تركهما.

الآفة الثالثة المِرَاءُ والمجادلة

قال ﷺ: «من تركَ المراءَ وهو محقٌّ بنيَ له بيتٌ في أعلى الجنة، ومن تركه وهو مُبطل بني له بيتٌ في رَبَضِ الجنة»[1] وهذا لأن الترك على المحق أشد.

وقال عليه السلام: «لا يستكملُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتى يَدَعَ المراءَ وهو محقٌ»[2]. وحدّ المراء هو الاعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، والباعثُ عليه تارةً الترفع بإظهار الفضل، وسببُه خبث الرعونة، وإما السَّبُعيَّةُ[3] التي في الطبع المتشوفةُ إلى تنقيصِ الغيرِ وقهره.

فالمراء والمجادلة تقوية لهذين الخبيثين المهلكين، بل الواجب أن يصدق ما سمعه من الحق، ويسكت عما سمعه من الخطأ، إلا إذا كان في ذكره فائدة دينية، وكان يُسمَعُ منه، فيذكرُهُ برفقٍ لا بعنفٍ.

الآفة الرابعة المزاح

والإفراط فيه يكثر الضحك، ويميت القلب، ويورث الضغينة، ويسقط المهابة والوقار. قال ﷺ: «إن الرجلَ ليتكلمُ بالكلمةِ يُضحكُ بها جلساءَهُ فيهوي بها أبعدَ من الثريا»[4]، وقال عليه السلام: «لا تمارِ أخاكَ ولا تمازِحْهُ»[5].

واعلم أن اليسير منه في بعض الأوقات لا بأس به، لا سيما مع النساء والصبيان تطييباً لقلوبهم، نُقِلَ ذلك عن رسول الله ﷺ لكنه قال: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»[6]، ويعسر على غيره ضبط ذلك.

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف.

(٣) السبعية: نسبة إلى السبع، وهي الطبيعة الحيوانية.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند حسن، وروى الشيخان نحوه.

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب.

(٦) رواه أحمد، والترمذي بلفظ قريب وقال: حسن صحيح.

وقد رُوي أنه سابَقَ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ بالعَدْو[١]. وقال عليه السلام لعجوز: «لا يدخل الجنةَ عجوز»[٢]، أي لا يبقى عجوز في الجنة. وقال لصبيّ: «يا أبا عُمير ما فعل النُّغَير؟»[٣]، والنغير ولد العصفور كان يلعب به الصبي. وقال ﷺ لصهيب وهو يأكل التمر: «أتأكلُ التمرَ وأنت رَمِدٌ؟»[٤]، فقال: إنما آكل بالشق الآخر، فتبسم رسول الله ﷺ. فهذا وأمثاله من الفاكهة لا بأس بها بشرط أن لا يتخذها عادة.

الآفة الخامسة المدح

كما جرت به عادة الناس عند زيارة المُحْتَشمين[٥] من أبناء الدنيا، وكما جرت به عادة القصّاص والمذكرين، فإنهم يمدحون من يحضر مجالسهم من الأغنياء.

وفي المدح ست آفات: أربع على المادح، واثنتان على الممدوح.

أما المادح:

فالآفة الأولى فيه: أنه قد يفرط فيه، فيذكره بما ليس فيه، فيكون كذّاباً

الثانية: أنه يُظهر له من الحب ما لا يعتقده فيكون منافقاً مرائياً.

الثالثة: أنه يقول ما لا يتحققه، فيكون مجازفاً، كقوله: إنه عَدْل، وإنه وَرِعٌ، وغير ذلك مما لا يتحقق فيه، مَدَحَ رجلٌ بين يدي رسول الله ﷺ رجلاً، فقال عليه السلام: «ويحكَ قطعتَ عُنُقَ صاحِبكَ، إنْ كان لا بدَّ من كونِ أحدِكُمْ مادحاً أخاه فليقل: أحسب فلاناً ولا أزكّي على الله أحداً، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك»[٦].

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه.
(٢) أخرجه الترمذي وقد تقدم.
(٣) متفق عليه.
(٤) أخرجه ابن ماجه والحاكم ورجاله ثقات.
(٥) أي الأكابر والسلاطين، ذوي الجاه والحشمة.
(٦) متفق عليه من حديث أبي بكرة بنحوه؛ وأخرجه ابن أبي الدنيا بلفظ المؤلف؛ ورواه=

الرابعة: أن يفرح الممدوح به، وربما كان ظالماً فَيعصي بإدخال السرور على قلبه. قال ﷺ: «إن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق»[١]. وقال الحسن: «من دعا لفاسق بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله». فالظالم الفاسق ينبغي أن يُذم لتفتر رغبته في الظلم والفسق.

وأما الممدوح، فإحدى الآفتين فيه: أن يُحدث فيه كِبْراً أو إعجاباً وهما مهلكان. ولذلك قال عليه السلام: «قطعتَ عنقَ صاحبك».

الثانية: أن يفرح به، فيفتر عن العمل، ويرضى عن نفسه. قال ﷺ: «لو مشى رجلٌ إلى رجلٍ بسكينٍ مُرْهَفٍ، كان خيراً له من أن يُثنيَ عليه في وجهه»[٢].

وأما إذا سلم المدح من هذه الآفات في المادح والممدوح، فلا بأس به، وربما يُندب إليه. قال ﷺ: «لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لَرَجح»[٣]، وقال ﷺ: «لو لم أُبعث لَبُعثتَ يا عمر»[٤]. وقد أثنى على كثير من الصحابة إذ علم أن ذلك يزيد في نشاطهم ولا يُورثهم عُجْباً.

[كيف ينجو الممدوح؟]

حقٌّ على الممدوح أن يتأمل في خطر الخاتمةِ، ودقائق الرياءِ، وآفاتِ الأعمال، ويتذكر ما يعرفه من نفسه من القبائح الباطنة، لا سيما في أفكاره وحديث نفسه، ما لو عرفه المادح لكفَّ عن المدح.

= أبو داود وابن ماجه بألفاظ قريبة منه.
(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي بسند ضعيف.
(٢) قال العراقي: لم أجد له أصلاً، وسكت الزبيدي في الإتحاف.
(٣) أخرجه ابن عدي والديلمي من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بإسناد صحيح.
(٤) أخرجه أبو منصور الديلمي وهو منكر. والمعروف «لو كان بعدي نبي لكان عمر» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فينبغي أن يُظهرَ كراهة المدح ويكرهَهُ بالقلب. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «أحثُوا الترابَ في وجوهِ المدَّاحين»[١].

وقال بعضهم لّما أُثني عليه: اللهمَّ إن عبدك هذا تقرَّب إليَّ بمقتك، وأنا أُشهدك على مقته.

وقال عليّ رضي الله عنه لمَّا أُثني عليه «اللهمَّ اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون».

* * *

(١) أخرجه مسلم بلفظ: «احثوا في وجوه المداحين التراب».

الأصل الثالث: في الغضب

اعلم أنَّ الغضبَ شعلة نارٍ اقتُبِسَت من نارِ الله الموقدة، التي تَطَّلع على الأفئدة، ومن غلب عليه فقد نزع إلى عِرْق الشيطان فإنه مخلوق من النار.

وكسْر شدَّة الغضب من المهمات في الدين. قال ﷺ: «ليس الشديدُ بالصُّرَعَة، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضب»[١]، وقال عليه السلام: «الغضبُ يفسدُ الإيمان كما يفسدُ الصبرُ العسل»[٢]، وقال عليه السلام: «ما غضبَ أحدٌ قطُّ إلا أشفى على جهنم»[٣]، وقال رجل: يا رسول الله، أي شيء أشد؟ قال: «غضبُ الله»، قال: فما ينقذني من غضبِ الله؟ قال: «أن لا تغضب»[٤]. وقال رجل لرسول الله ﷺ: «مُرني بعمل وأقلل، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تغضب، فأعاد على رسول الله ﷺ مراراً وهو يقول: لا تغضب»[٥]، فكيف لا تعظم آفة الغضب وهو يحمل في الظاهر على الضرب والشتم وإطالة اللسان، وفي الباطن، على الحقد والحسد وإظهار السوء والشماتة والعزم على إفشاء السرّ وهتك الستر، والفرح بمصيبة المغضوب عليه والغم بمسرته. وكل واحدة من هذه الخبائث مهلك.

[علاج الغضب]

عليك في صفة الغضب وظيفتان:

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الطبراني والبيهقي بسند ضعيف.
(٣) رواه البزار وابن عدي بإسناد ضعيف.
(٤) أخرجه أحمد وابن عبد البر وصححه ابن حبان.
(٥) رواه البخاري والترمذي.

إحداهما: كسره بالرياضة، ولست أعني بكسره إماطته[1] فإنه لا يزول أصله ولا ينبغي أن يزول، بل إن زال وجب تحصيله، لأنه آلة القتال مع الكفار، والمنع من المنكرات، والتكثير من الخيرات، وهو ككلب الصائد، إنما رياضته في تأديبه حتى ينقاد للعقل والشرع فيهيج بإشارة العقل والشرع، ويسكن بإشارتهما ولا يخالفهما، كما ينقاد الكلب للصياد. وهذا ممكن بالمجاهدة، وهو اعتياد الحلم والاحتمال مع التعرض للمُغضِبَات.

الثانية: ضبط الغضب عند الهيجان بالكظم، ويعين عليه علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلمَ أنه لا سبب لغضبه إلا أنه أنكر أن يجري الشيء على مراد الله لا على مراده، وهذا غاية الجهل. والآخر أن يعلم أن غضب الله عليه أعظم من غضبه، وأن فضل الله أكبر، وكم عصاه وخالف أمره؛ فلِمَ يغضب عليه إن خالفه غيره، فليس أمره عليه ألزم على عبده وأهله ورفقته من الله عليه.

وأما العمل: فهو أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إذ يعلم أن ذلك من الشيطان، فإن لم يسكن، جلس إن كان قائماً، ويضطجع إن كان قاعداً، كذلك ورد الخبر[2]، فاختلاف الحال[3] يؤثر في التسكين. وإن لم يسكن فيتوضأ. قال عليه الصلاة والسلام: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خُلقَ من النار، وإنما تُطفأُ النارُ بالماءِ، فإذا غضبَ أحدُكُم فليتوَضَّأ»[4]، وقال عليه السلام: «ألا إن الغضب جمرةٌ في قلب ابن آدم، ألا ترونَ إلى حمرةِ عينيه، وانتفاخِ أوداجه، فمن وجد من ذلك شيئاً فليضرب خدّه بالأرض»[5]. هذه إشارة إلى تمكين أعز الأعضاء من أذلّ

(١) إزالته.
(٢) أخرج ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح حديثاً بهذا المعنى وأحمد في مسنده؛ وأبو داود وابن حبان.
(٣) أي من قيام إلى قعود، إلى جلوس، إلى اضطجاع.
(٤) أخرجه أبو داود وأحمد والطبراني في الكبير.
(٥) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

المواضع، لينكسر الكِبْرُ، فإنه السبب الأعظم في الغضب، ليعلم أنه عبدٌ ذليل فلا يليق به الكبر.

قال رسول الله ﷺ: «إن الرجلَ ليدركُ بالحِلْم درجةَ القائمِ الصائمِ، وإنه ليُكتَبُ جباراً وما يملكُ إلا أهلَ بيته»[1]، وقال ﷺ: «من كَظَم غيظاً ولو شاء أن يمضيَهُ أمضاهُ، ملأ الله تعالى قلبه يوم القيامة أمناً وإيماناً»[2]، وقال عليه السلام: «ما من جُرعةٍ أحب إلى الله تعالى من جُرعةِ غيظٍ يكظمها عبد، وما كظَمَها عبدٌ إلا ملأ اللهُ جوفَه إيماناً»[3].

* * *

(١) أخرجه الطبراني بسند ضعيف؛ ورواه أبو نعيم في الحلية.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف؛ وروى الترمذي نحوه بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا وفيه ضعف؛ وفي كظم الغيظ وردت أحاديث في الصحاح.

الأصل الرابع: في الحسد

قال رسول الله ﷺ: «الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ»[1]، وقال عليه السلام: «ثلاثٌ لا ينجو منهن أحد: الظنُّ، والطيرةُ، والحسدُ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك، إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تَطيَّرت فامض، وإذا حَسَدْتَ فلا تبغ»[2]. وقال عليه السلام: «دَبَّ إليكم داءُ الأممِ قَبْلَكُم الحسدُ والبغضاءُ، والبغضاء هي الحالقة»[3]. وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: «الحاسد عدو لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي».

واعلم أن الحسد حرام وهو: أن تحب زوالَ النعمةِ من غيرِكَ، أو تحب نزول مصيبة به.

ولا تحرم المنافسة، وهي أن تَغبطه وتشتهي لنفسك مثله، ولا تحب زوالها منه.

ويجوز أن تحب زوالَ النعمةِ ممن يستعين بها على الظلم والمعصية، لأنك لا تريد زوال النعمة، وإنما تريد زوال الظلم. وعلامته أنه لو ترك الظلم والمعصية لم تحب زوال نعمته.

وسبب الحسد إما الكِبْرُ، وإما العداوة، وإما خبث النفس، إذ يبخل بنعمة الله على عباده مِن غير غرض فيه له.

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد ضعيف؛ والخطيب بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا وفي سنده ضعيفان وللطبراني نحوه.

(٣) أخرجه الترمذي ورواه البزار بإسناد جيد؛ انظر صحيح الترمذي؛ والترغيب والترهيب: ٣/ ٤٢٤ـ٤٢٥.

[علاج الحسد]

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلب، ومرض القلب لا يُداوى إلا بمعجون العلم والعمل.

فأما العلاج العلمي: فهو أن يعلم أن حسده يضره ولا يضر محسوده بل ينفعه، أمّا إنه يضره فهو، أنه يُبطل حسناته، ويعرضه لسخط الله تعالى، إذ يسخط قضاء الله ويشح بنعمته التي وسعها من خزائنه على عباده، وهذا ضرر في دينه.

وأما ضرره في دنياه، فهو أنه لا يزال في غم دائم وكمد لازم، وذلك مراد عدوه منه، فإن أهم أغراض عدوه وأكمل النعمة عليه، حزن حاسده، فقد كان يريد المحنة لعدوه فحصلت له.

والحسود لا يخلو قط من الغم والمحنة، إذ لا يزال أعداؤه أو واحد منهم في نعمة. وأمّا إنه ينفع عدوه ولا يضره، لأن النعمة لا تزول بحسده، وأنه يضاعف حسناته، إذ تُنْقَلُ حسناتُ الحاسدِ إليه، لا سيما إذا طوّل اللسان فيه، فإنه مظلوم من الحاسد، فقد طلب الحاسد زوال نعمة الدنيا منه، فأضاف إليه نعمة الآخرة، وحَصَّلَ لنفسه مع عذاب الدنيا عذاب الآخرة، فهو كمن رمى عدوه بحجر فلم يصب عدوه، وعاد إلى عينه فأعماها، وزادت عليه شماتة عدوه إبليس، فإنه فاتته النعمة وفاته الرضاء بالقضاء. ولو رضي به لكان فيه ثواب، لا سيما إذا حسد على العلم والورع. فإن محب العلم يعظم ثوابه.

وأما العلاج العملي: فهو أن يعرفَ حكمَ الحسد وما يتقاضاه من قول وفعل، فيخالفه ويعمل بنقيضه، فيثني على المحسود، ويظهر الفرح بنعمته، ويتواضع له. وبذلك يعود المحسود صديقاً له، ويزايله الحسد، ويتخلص من إثمه وألمه. قال الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

[كيف تتخلص من إثم الحسد]

لعلّ نفسك لا تطاوعك على التسوية بين عدوك وصديقك، بل تكره مساءة الصديق دون العدوّ، وتحب نعمة الصديق دون العدوّ. وتقول: لستُ مكلفاً بما لا أطيق، فإن لم تقدر على ذلك فعليك أن تتخلص من الإثم بأمرين:

أحدهما: أن لا تظهر الحسد بلسانك وجوارحك وأعمالك الاختيارية، بل تخالف موجَبَها.

والثاني: أن تَكْرهَ من نفسكَ حبَّها زوالَ نعمةِ الله تعالى عن عبدٍ من عباده. فإذا اقترنت الكراهة عن باعث الدين بحب زوال النعمة الذي اقتضاه الطبع، اندفع عنك الإثم، وليس عليك تغيير الطبع، فإن ذلك لا تقدر عليه في أكثر الأحوال.

وعلامة الكراهية أن تكون بحيث لو قدرت على إزالة نعمته لم تُقْدم على الإزالة مع حبك لها، ولو قدرت على معونته في دوام نعمته أو في زيادتها فعلت مع كراهيتك لذلك. فإذا كنت كذلك، فلا إثم عليك فيما يتقاضاه طبعك.

فإن الطبع إنما يصير مقهوراً في حق المُستَهْتَرِ بالله[1] الذي انقطع نظره عن الدنيا وعن الخلق. بل علمَ أن المُنعمَ عليه إن كان في النار فما تنفع هذه النعمة، وإن كان في الجنة فأي نسبة لهذه النعمة إلى الجنة. بل يرى كلّ الخلق عباد الله تعالى، فيحبهم لأنهم عباد لمحبوبه، ويجب أن يظهر أثر نعمة محبوبه على عباده، وهذه حال نادرة لا تدخل تحت التكليف.

* * *

---

(١) المستهتر بالله: أي من اشتد حبه وتعلق بربه غير مبالٍ بنقد.

الأصل الخامس: في البخل وحب المال

واعلم أن البخل من المهلكات العظيمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]، قال ﷺ: «إياكم والبخل، فإنه أهلك من كان قبلكم»[1]، وقال ﷺ: «السخاءُ شجرة تنبت في الجنة فلا يلجُ الجنةَ إلا سخيّ، والبخلُ شجرةٌ تنبتُ في النار فلا يلج النارَ إلا بخيل»[2]. وقال عليه السلام: «ثلاث مهلكات: شُحٌّ مُطاع، وهوًى مُتَّبع، وإعجابُ المرء بنفسه»[3]، وقال عليه السلام: «شرّ ما في الرَّجل شُحٌّ هالع وجُبْنٌ خالع»[4]. وقال عليه السلام: «إن اللهَ يبغضُ البخيلَ في حياته، السخيَّ عندَ موته»[5]، وقال عليه السلام: «السخي الفاجر أحب إلى الله من العابدِ البخيل»[6]، وقال عليه السلام: «لا يجتمع اثنان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»[7].

---

(١) ورد بلفظ: «إياكم والشح...» أخرجه مسلم؛ وورد في كنز العمال عن ابن جرير: «إياكم والبخل فإن البخل دعا أقواماً فمنعوا زكاتهم...».

(٢) أخرجه الدارقطني بلفظ قريب وفي سنده راوٍ ضعيف جداً؛ ورواه ابن حبان في الضعفاء.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط والبزار وأبو نُعيم بسند ضعيف.

(٤) أخرجه أبو داود بسند جيد.

(٥) ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده؛ قال العراقي: لم أجد له إسناداً؛ وقال السيوطي: رواه الخطيب في كتاب البخلاء عن علي رضي الله عنه.

(٦) جزء من حديث رواه الترمذي وقال: حديث غريب.

(٧) روى النسائي وابن حبان والحاكم بلفظ: «لا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد أبداً».

[أصل البخل حب المال]

اعلم أن أصل البخل حب المال، وهو مذموم. ومن لا مال له لا يظهر بخله بالإمساك، ولكن يظهر بحب المال. ورُبَّ رجل سخي لكنه يحب المال، فيسخى به لِيُذكر بالسخاء، وذلك أيضاً مذموم، لأن حب المال يُلهي عن ذكر الله عزَّ وجلّ، ويصرف وجه القلب إلى الدنيا، ويُحْكم علاقته فيها، حتى يثقل عليه الموت الذي فيه لقاء الله تعالى.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال الله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، وقال ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا»[١] وقيل للنبي عليه الصلاة والسلام: «أيّ أُمتك أشرّ؟ فقال عليه السلام: «الأغنياء»[٢]، وقال عليه السلام: «من أخَذَ من الدنيا فوقَ ما يكفيه، أخذ حَتْفَهُ وهو لا يشعر»[٣]. وقال رجل: يا رسول الله، إني لا أُحب الموت، قال عليه السلام: هل لك مال؟ قال: نعم، قال عليه السلام: «قَدِّم مالكَ، فإنَّ قلب الرجلِ مع مالهِ، فإن قَدَّمَهُ، أحبَّ أنْ يلحقَهُ، وإن أَخَّرَهُ أحبَّ أن يَتَخَلَّفَ»[٤]. وقال عليه السلام: «إذا ماتَ العبدُ قالت الملائكةُ: ما قَدَّم؟ وقال الناسُ: ما خَلَّف؟»[٥]، وقال عليه السلام: «تَعِسَ عبدُ الدرهم، تعسَ عبدُ الدينار، تعسَ وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتُقِش»[٦].

(١) الضيعة: العقار؛ والحديث رواه الترمذي والحاكم وصحح إسناده وقال الترمذي: حديث حسن.
(٢) قال العراقي: غريب لم أجده بهذا اللفظ؛ وقد أورد الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين روايات أخرى): ٩/ ٦٦٩.
(٣) قال العراقي: أخرجه البزار وفي سنده ضعف.
(٤) قال العراقي: لم أقف عليه، بل رواه ابن المبارك في الزهد؛ وأبو نُعيم في الحلية. (إتحاف)
(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.
(٦) أي إذا وصل شوك في عضوه فلا انتقش على بناء المبني للمجهول، دعاء عليه بعدم إخراجه بالمنقاش. بمعنى إذا وقع في البلاء فلا يترحم عليه، وإنما خص انتقاش الشوك=

[المال ليس مذموماً لذاته]

اعلم أن المال ليس مذموماً من كل وجه، وقد قال رسول الله ﷺ: «نعمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالح»[١]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الدنيا مزرعة الآخرة»[٢] وكيف يكون مذموماً مطلقاً والعبد مسافر إلى الله تعالى، والدنيا منزل من منازل سفره، وبدنه مركبه، ولا يمكن السفر إلى الله إلا به، ولا يبقى البدن إلا بمطْعَم وملبس، ولا وصول إليهما إلا بالمال، لكن من فهم فائدة المال وعلم أنه آلةُ عَلَفِ الدابة لسلوك الطريق، لم يَعرّج عليه، ولم يأخذ منه إلا قَدْر الزاد، فإن اقتصر على ذلك سعد به. كما قال النبي عليه السلام لعائشة رضي الله عنها ـ: «إذا أردتِ اللحاقَ بي فاقْنعي من الدنيا بزادِ الراكبِ، ولا تجددي ولا تخلعي قميصاً حتى ترقعيه»[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اجعل قوت آل محمد كفافاً»[٤].

وإن زاد على قدر الكفاية هلك. كما قال عليه الصلاة والسلام: «من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه، أخذ حتفه وهلك وهو لا يشعر»[٥].

وكذلك المسافر، إذا أخذ ما يزيد على زاد الطريق مات تحت ثقله، ولم يبلغ مقصد سفره، فالزيادة على قدر الكفاية مَهْلَكة من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يدعوَ إلى المعاصي، فإنه يمكِّن منها، ومن العصمة أن لا تقدر، وفتنة السرّاء[٦] أعظم من فتنة الضراء[٧]، والصبر مع القدرة أشد.

= بالذكر لأن الانتقاش أسهل ما يتصور في المعاونة لمن أصابه مكروه، وإذا نفى ذلك الأهون فما فوقه بالطريق الأولى. والحديث أخرجه البخاري وليس فيه «وإذا شيك...».
(١) أخرجه أحمد والطبراني بسند صحيح.
(٢) قال العراقي لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً، وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال «نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها للآخرة»، وإسناده ضعيف (إتحاف السادة المتقين: ١٠/ ٦٢٨).
(٣) رواه الترمذي والحاكم وهو حديث غريب.
(٤) متفق عليه.
(٥) أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.
(٦) السراء: النعم.
(٧) الضراء: النقم أو ضيق العيش.

والثاني: أن يدعو إلى التنعم بالمباحات، وهو أقل الدرجات فينبت على التنعم جسده، ولا يمكنه الصبر عنه، وذلك لا يمكن استدامته إلا بالاستعانة بالخلق والالتجاء إلى الظَلَمة، وذلك يدعو إلى النفاق والكذب والرياء والعداوة والبغضاء. ويتشعب منه جملة المهلكات، ولذلك قال ﷺ: «حبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة»[1].

والثالث: أن يلهيَ عن ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ والذي هو أساس السعادة الأخروية إذ يزدحم على القلب خصومة الفلاحين، ومحاسبة الشركاء، والتفكر في تدبير الحذر منهم، وتدبير استنماء المال وكيفية تحصيله أولاً، وحفظه ثانياً، وإخراجه ثالثاً، وكل ذلك مما يُسوّد القلب، ويزيل صفاءَهُ ويُلهي عن الذكر. كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى آخر السورة.

[مقدار الكفاية من المال]

لعلك تشتهي أن تعرف مقدار الكفاية وتقول: ما من غني إلا ويدَّعي أن ما في يده دون مقدار الكفاية. فاعلم أن الضرورة إنما تدعو إلى المطعم والملبس فقط. فإن تركت التجمل في الملبس، فيكفيك في السنة ديناران لشتائك وصيفك، فتتخذ بهما ثوباً خشناً يدفع عنك الحرّ والبرد، وإن تركتَ التنعم في مطعمك والشبع من الطعام في جميع أحوالك، فيكفيك في كل يوم مُدٌّ[2] فيكون في السنة خمسمئة رطل، ويكفيك لإدامك ـ إن لم تتوسع فيه واقتصرت على اليسير منه في بعض الأوقات ـ ثلاثةُ دنانير على التقريب في السنة، عند رخاء الأسعار. فإذاً مبلغ كفايتك خمسة دنانير وخمسمئة رطل، وهو القدر الذي نقدره إذا فرضنا نفقة العَزَب. فإن كنت معيلاً فخذ لكل واحد منهم مثل ذلك، فإذا كنت كسوباً وكسبت في اليوم ما يكفيك ليومك، فانصرف واشتغل بعبادتك، فإن طلبت الزيادة صرت من أهل الدنيا.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من رواية الحسن مرسلاً. قال السيوطي: ضعيف.

(٢) المد: مكيال وهو عند الحنفية (١،٠٣٢ ل)، وعند الثلاثة (٠،٦٨٧ ل).

وإن لم تكن كسوباً وكنت مشغولاً بالعلم أو العبادة واقتنيت ضيعة يدخل منها هذا القدر دائماً، فأرجو أن لا تصير بذلك من أهل الدنيا، لاسيما في هذه الأعصار، وقد تغيرت القلوب، واستولى عليها الشحُّ، وانصرفت الهمم عن تفقد ذوي الحاجات، فاقتناء هذا القدر أولى من السؤال. وهذا بشرط أن يكون بودِك أن تتخلص من التعرض إلى الجوع والبرد، لتطرح الضيعة وتتركها، ولا تكون كارهاً للموت، ولا محباً للضيعة، ولتكن الضيعة ـ وهي مدخل طعامك ـ كالخلاء الذي هو موضع فراغك، فإنما تريده للضرورة، وبودِّك لو تخلصت منه لتخرج عن النهي في قوله ﷺ: «لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا»[1].

فإنك إذا قصدت الفراغة[2] للاستعانة بها على الدين، كنت متزوداً مسافراً لا معرِّجاً على الضيعة.

وربما لا يحتمل بعض الأشخاص القناعة بالقَدْر الذي ذكرته إلا بشدةٍ ومشقة، ولا حرج في الدين في ازدياد الضعف على هذا القدر[3] إذ لا يصير من أبناء الدنيا ولا يخرج من حزب أبناء الآخرة، والمسافرين إلى الله تعالى، ما دام يقصد بذلك دفع الألم الشاغل عن الذكر والعبادة دون التلذذ والتنعم في الدنيا، ثم ما فَضَل من الطعام صرفه إلى البائس والأرامل.

ولا يبقى بعد هذه الرخصة داعية إلى الزيادة إلا للتنعم أو للتصدق، أو للاستظهار، لو أصاب المال آفة.

أمّا التنعم فإعراض عن الله تعالى، واشتغال بالدنيا. وأما التصدق فترك المال أفضل منه. قال عيسى عليه السلام: «يا طالب الدنيا لتبرَ فتركك لها أبرّ وأبرّ».

(١) رواه الحاكم وصحح إسناده ورواه الترمذي وحسنه وأحمد بلفظ «فترغبوا».

(٢) أي التفرغ للعبادة.

(٣) في نسخة أخرى «فأرى أنه على الضعف من هذا القدر لا تصير من أبناء الدنيا..».

وأما الاستظهار لخوف آفة، فذلك لا مردَّ له، وهو سوء ظن لا آخر له، بل ينبغي أن تدفع ذلك بحسن الظن بتدبير الله عزَّ وجلّ، وهو أن تتصور أن تصيب المال آفة من حيث لا يتوقع فيتصور أن ينفتح للرزق أيضاً باب لا يحتسب، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. وإن فرض على الندور خلافه، فلا ينبغي أن يعتقد العبد أن سلامته ـ طول عمره ـ عن البلاء محتوم، بل البلاء هو الذي يصقل القلب ويزكيه، ويخلصه من الخبائث كلها. ولهذا كان موكلاً بالأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، فاتكل على فضل الله. واعلم أنك لا يصيبك إلا ما فيه خيرُك وخيرتُك، فإن الله مدبِّر الملك والملكوت أعلمُ بمصالحك.

[المال كالدواء]

هذا الذي ذكرته تقريب، يمكن الزيادة عليه والنقصان منه بالاجتهاد في بعض الأشخاص وفي بعض الأحوال، ولكن اعتقد قطعاً أن المال كالدواء، النافع منه قَدَرٌ مخصوص، والإفراط فيه قاتل، والقرب من الإفراط ممرض إن لم يقتل، فعليك أن تجتهد بالتقريب من قدر الضرورة، والحذر من الإفراط والرفاهية، فذلك خطر عظيم. وليس في التقليل إلا مشقة قليلة في أيام قلائل.

وذو الحزم لا يثقل عليه أن يجوّع نفسه لوليمة الفردوس لعلمه أن اللذة على قدر الجوع.

[حد البخل]

لعلك ترغب في معرفة حدّ البخل[1] إذ الشخص الواحد قد تشك في أنه بخيل أم لا، ويختلف الناس فيه.

فاعلم أن حد البخل: منع ما يوجبه الشرع أو المروءة. ولا تظن أن

(١) حد الشيء: هو القول الدال على ماهية الشيء. (التعريفات للجرجاني)

من سلَّم إلى زوجته وقريبه ما فرضه القاضي، وضايق وراء ذلك في لقمة، فليس ببخيل، وإن كان له ذلك في الشرع: وأن من رد الخبز واللحم إلى الخباز والقصاب لنقصان قدر منه يسير ليس ببخيل، وإن كان له ذلك في الشرع، فإن معنى الشرع في هذه الأمور قطع خصومة البخلاء بتقدير مقدار يطيقه البخيل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ [محمد: ٣٧]، بل لا بدّ من مراعاة المروءة ودفع قُبح الأحدوثة، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص وقدر المال. ومن له مال وأمكنه أن يقطع هجو شاعر وذمه عن نفسه بقدر يسير فلم يفعله، فهو بخيل، وإن لم يكن ذلك واجباً عليه، إذ قال ﷺ: «ما وقى المرءُ به عِرضَهُ فهو له صدقة»[1].

والتحقيق فيه أن المال خُلق لفائدة لأجلها يُمسك، وفي بذله أيضاً فائدة. فمهما ظهر له أن فائدة البذل أعظم من فائدة الإمساك، ثم شق عليه البذل فهو بخيل محب للمال.

والمال لا ينبغي أن يُحَبّ لذاته بل لفائدته، فيُصْرَف إلى أقوى فوائده، وحفظ المروءة أفضل وأقوى من التنعم بالأكل الكثير مثلاً.

وقد يحمله البخل وحبُّ المال على أن يجهل أقوى الفائدتين وأَوْلاهما وذلك غاية البخل. فإن علم وعسر عليه البذل فهو بخيل أيضاً، وأن بذل تكلُّفاً، بل إنما يبرأ من البخل بأن لا يَثْقُلَ عليه بذلُ المالِ فيما ينبغي أن يبذل فيه عقلاً وشرعاً.

وأما درجة السخاء، فلا تُنال إلا ببذل ما يزيد على واجب الشرع والمروءة جميعاً.

[علاج البخل]

لعلك تريد أن تفهم علاج البخل. فاعلم أن دواءه معجون مركَّب من العلم والعمل.

(١) أخرجه أبو يعلى وابن عدي من حديث جابر وضعفه. وجاء في فتح الباري: «أخرج نحوه مسلم من حديث حذيفة وقد أخرجه الدار قطني والحاكم».

أما العلم: فهو أن تعلم ما في البخل من الهلاك في الدار الآخرة، والمذمة في الدنيا، وتعلم أن المال لا يتبعه[1] ـ إن بقي ـ إلى قبره. وإنما المال لله تعالى، مكّنه منه ليصرفه إلى أهمّ أموره.

وتعلم أن إمساك المال إن كان للتنعم في الشهوات، فحُسْن الأحدوثة وثواب الآخرة أعظم وألذُّ منه. فقضاء الشهوة سجية البهائم، وهذه سجية العقلاء، وإن كان يمسكه ليتركه لولده فكأنه يترك ولده بخير ويقدُمُ على ربه بشرّ وهذا عين الجهل. كيف وولده إن كان صالحاً فالله تعالى يكفيه، وإن كان فاسقاً فيستعين به على المعصية. ويكون هو سبب تمكنه منها، فيتضرر هو ويتنعّم غيره.

وأما العمل: فهو أن يحمل نفسه على البذل تكلُّفاً، ولا يزال يفعل ذلك حتى يصير له عادة، ومن نوافذ حيله فيه أن يخدعه بحسن الاسم وتوقع المكافأة حتى يرغب في البذل. ثم بعد ذلك يتدرج أيضاً إلى قمع هذه الصفات.

* * *

(1) أي لا يتبع الإنسان.

الأصل السادسُ: في الرعونة[1] وحب الجاه

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣]، قال عليه السلام: «حبُّ المالِ والجاهِ يُنْبتان النفاقَ في القلبِ، كما ينبت الماءُ البَقْلَ»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما ذئبان ضاريان أُرْسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ فساداً فيها من حبِّ المالِ والجاهِ في دينِ الرجلِ المسلم»[3]، وقال عليه الصلاة والسلام في مدح الخمُول: «ربَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمْرينِ لا يؤبَهُ له لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّه»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهلَ الجنة كلُّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرَيْن لا يؤبَه له، الذين إذا استأذَنُوا على الأمراء لم يؤذَنْ لهم، وإذا خطبوا النساءَ لم يُنْكَحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتجلجل في صدره، لو قُسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعَهم»[5].

وقال سليمان بن حنظلة: بينما نحن حول أُبي بن كعب نمشي خلفه، إذ رآه عمر فعلاه بالدّرة. فقال: انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع. فقال: إن هذا مذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وقال الحسن: إن خفقَ النعال خلف الرجل قلّما يثبت معه قلوب الحمقاء. وقال أيوب: والله ما صَدَق الله عَبدٌ إلا سرَّه أن لا يُشعرَ بمكانه.

(1) الوقوف مع حظوظ النفس، ومقتضى طباعها. (التعريفات)

(2) قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ؛ وقال الزبيدي: أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (إتحاف)

(3) أخرجه النسائي والترمذي وقال: حسن صحيح. مع اختلاف بعض ألفاظه.

(4) أخرجه مسلم. والخمول: معناه عدم الجري وراء الشهرة، وليس الكسل

(5) في معنى الحديث الذي قبله وقد بيض له العراقي ولم يخرجه، ولم يعقب الزبيدي (إتحاف: ١٠/ ١٥).

فقد عرفت بهذا مذمة الشهرة[1] والجاه، إلا أن يشهر الله عبداً في الدين من غير طَلبٍ منه كما شهر الأنبياء والخلفاء الراشدين والعلماء والأولياء.

[حقيقة الجاه ملك القلوب]

حقيقة الجاه هي: ملك القلوب لتتسخر لذي الجاه على حسب مراده، وتطلق اللسان بالثناء عليه، وتسعى في حاجته.

وكما أن معنى المال ملك الدراهم ليتوصل بها إلى الأغراض، كذلك معنى الجاه: ملك القلوب، لكن الجاه أحب، لأن التوصل به إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، ولأنه محفوظ من أن يُسرق ويُغصب أو تَعرض له الآفة، ولأنه يَسري وينمو من غير تكلف. فإن من ملك قلبَه باعتقاد التعظيم، فلا يزال يثني ويقتنص قلوب سائر الناس لصاحبه.

وفيه سرّ آخر، هو أن الجاه معناه العلو والكبرياء والعز، وهي من الصفات الإلـٰهية، محبوبة للإنسان بالطبع. بل هو ألذّ الأشياء عنده. ذلك لسرّ خفي في مناسبة الرّوح للأمور الإلـٰهية، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]. فهو أمر رباني شَغَفُهُ من حيث الطبعُ الاستبداد والانفراد بالوجود، وهو حقيقة الإلـٰهية إذ ليس مع الله موجود[2]. بل الموجودات كلها كالظل من نور القدرة، فلها رتبة التَبَعية لا رتبة المعيّة. فليس في الوجود مع الله غيرُه. وكأن الإنسان يشتهي ذلك.

بل في كل نفس أن يقول أنا ربُّكم الأعلى، لكن أظهره فرعون وأخفاه غيره. ولكن إن فاته الانفراد بالوجود، فيشتهي أن لا يفوته الاستعلاء والاستيلاء على الموجودات كلها، ليتصرف فيها على حسب مراده وهو الإلـٰهية.

---

(١) في المطبوع: الشهوة وهي غير مناسبة للبحث.

(٢) من حيث وجوده الذاتي، أما وجود غيره فهو وجود عَرَضي قيامُهُ بقدرة الله سبحانه لا يمكن أن يقارن بوجود الحق سبحانه. (وقد ألمحنا لذلك سابقاً)، وليس في ذلك إنكار لوجود المخلوقات، إذ لا يقول بذلك عاقل.

لكن تعذر على الإنسان ذلك في السموات والكواكب والملائكة والبحار والجبال، فاشتهى الاستيلاء على جميعها بالعلم، لأن العلْم نوع استيلاء أيضاً، كما أن مَنْ عجز عن وضع الأشياء العجيبة، فيشتهي أن يعرف كيفية الوضع.

وكذلك يشتهي أن يعرف عجائب البحر وما تحت الجبال، ويتصور أن يتسخر له الأعيان التي على وجه الأرض من الحيوان والمعادن والنبات، فيحبّ أن يتملكها ويتمولّها ويتصور أن يتسخر له الإنسان. فيحب أن يستسخره بواسطة قلبه. ويملك قلبه بإلقاء التعظيم فيه، ويحصِّل التعظيم بأن يعتقد فيه كمال الخصال، فإن الإجلال يتبع اعتقاد الكمال، فلهذا يحب الإنسان أن يتسعَ جاهُهُ. وينتشرَ صيتُهُ حتى إلى البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يرى أهلها، لأن كل ذلك يناسب صفات الربوبية، وكلما صار أعقل، كانت هذه الصفات عليه أغلب، وشهواته البهيمة فيه أضعف.

[الرفعة والكمال]

لعلك تقول: فإذا كان كذلك، فَلِمَ كان طلبُ الرفعةِ مذموماً، وهو من نتائج العقل وخواص الروح المناسبة للأمور الربانية؟

فاعلم أن الرفعةَ الحقيقية طلبُها محمود غير مذموم، إذ مطلوب الكل هو القرب من الله تعالى، وذلك هو الرفعة والكمال إذ هو عزٌّ لا ذلَّ فيه، وغنًى لا فقرَ معه، وبقاءٌ لا فناءَ بعده، ولذةٌ لا كدورة لها. وطلب ذلك محمود.

وإنما المذموم طلب الكمال الوهمي دون الحقيقي، والكمال الحقيقي يرجع إلى العلم والحرية والقدرة. وهو أن لا يكون مقيداً بغيره. ولا يُتَصَوَّرُ للعبد حقيقة القدرة، فإن قدرته إنما تكون بالمال والجاه. وذلك كمالٌ وهميٌ فإنه أمر عارض لا بقاء له، ولا خير فيما لا بقاء له، بل قيل:

أشدُّ الغمّ عندي في سرورٍ ... تيقَّنَ عنهُ صاحبُه انتقالا

كيف، وهذه القدرة العارضة مع سرعة انقضائها بالموت وبآفاتها قبله، لا تصفو من المُكَدِّرات، فمن توهمها كمالاً فقد زل، بل الكمال في الباقيات الصالحات التي تنال بها القربَ من الله سبحانه. ولا تزول بالموت، بل تتضاعف تضاعفاً غير محدود، وذلك هو المعرفة الحقيقية بذاتِ اللهِ تعالى، وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وهو العلم بكل الموجودات، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وأفعالُهُ. لكن قد ينظر فيها الناظر لا من حيث إنها أفعال الله تعالى، كالذي ينظر في التشريح لغرض الطب، أو ينظر في هيئة العالم لمعرفة الاستدلال بأحكام النجوم، فهذا لا قدر له.

ومن الكمال الحقيقي الحرية، وهو انقطاع علاقتك عن جميع علائق الدنيا، بل عن كل ما يفارقك بالموت، والاقتصار في الالتفات إلى لازِمِك الذي لا بد لك منه، وهو الله تعالى. كما أوحى الله إلى داود عليه السلام، يا داود: أنا بُدُّك[1] اللازم فالزم بُدَّكَ.

فالعلم والحرية، من الباقيات الصالحات، وهما كَمالانِ حقيقيّان، والمال والبنون زينة الحياة الدنيا، وهما كمالان وهْميان.

والمنكوسون هم الذين عكسوا الحقيقة، فأعرضوا عن طلب الكمال الحقيقي، واشتغلوا بطلب الكمال الوهميّ وهم الذين يحترقون عند الموت بنيران الحسرة إذ يشاهدون أنهم خسروا الدنيا والآخرة.

أما خسران الآخرة، فلأنهم لم يطلبوا ولم يحصلوا أسبابها من المعرفة والحرية.

وأما خسران الدنيا فلأنها ودَّعَتْهم عند الموت، وانقلبت إلى أعدائهم وهم ورثتهم.

ولا تظنن أن الإيمان والعلم يفارقانك بالموت، فالموت لا يهدم

(١) بِدّ بكسر الباء: المِثْل والنظير، وبُدّ بضمها: العِوَضُ أو النصيب.

محل العلم أصلاً وليس الموت عدَماً حتى تظن أنك إذا عُدمت، عُدِمتْ صفاتُك.

بل معنى الموت: **قطع علاقة الروح من البدن إلى أن تعاد إليه**. وإذا تجرد عن البدن فهو على ما كان عليه قبل الموت من العلم والجهل، وفَهْمُ هذا طويل، وتحته أسرار لا يحتمل هذا الكتاب كشفها.

[قمع حب الجاه]

إذا عرفتَ حقيقةَ الجاهِ وماهيتَه، وأنه كمالٌ وهميٌّ، فقد عرفتَ أن طريق العلاج في قمع حبه من القلب.

مثلاً إذا علمت أن أهل الأرض لو سجدوا لك لما بقي ـ إلا مدة قريبة ـ لا الساجد ولا المسجود له، كيف؛ ويشح الدهر عليك بأن يَسْلَم لكَ الملكُ في محلّتك فضلاً عن قريتك أو بلدتك. فكيف ترضى أن تترك ملك الأبد والجاه الطويل العريض عند الله تعالى وعند ملائكته، بجاهك الحقير المنغص عند جماعة من الحمقى لا ينفعونك ولا يضرونك، ولا يملكون لك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا رزقاً ولا أَجلاً؟

نعم ملك القلوب كملك الأعْيان[1]، وأنت محتاج منه إلى قدر يسير لتحرس نفسك عن الظلم والعدوان، وعما يَشوِّشُ عليك سلامتك وفراغك التي تستعين بها على دينك، فطلبك لهذا القدر مباح بشرط القناعة بقدر الضرورة كما في المال، وبشرط أن لا تكتسبه بالمراءاة بالعبادات فذلك حرام كما سيأتي. وأن لا تكتسبه بالتلبيس[2] بأن تظهر من نفسك ما أنت خال منه فلا فرق بين من يملك القلوب بالتلبيس، وبين من يملك الأموال بالمراءاة.

(١) الأعيان: جمع عَيْن وهي هنا بمعنى: كل ما يمكن أن يُملَكَ، الأرض وما عليها.
(٢) التلبيس: إخفاء الحقيقة وإظهارها بخلاف ما هي عليه.

فإذا حصّلت الجاه بطريق، واقتصرت على قدر التحرز من الآفات فترجى لك السلامة، إلا أنك في خطر عظيم أكثر من خطر المال، لأن قليلَ الجاهِ يدعو إلى كثيره، فإنه ألَذُّ من المال ولذلك لا يسلمُ الدينُ غالباً إلا لخاملٍ[1] مجهولٍ لا يُعْرَف، كما فهمت ذلك من الأخبار.

[بواعث طلب الجاه]

من البواعث على طلب الجاه حبُّ المدحِ، فإن الإنسان يتلذذ به من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه يُشعرُ صاحبَه بكمالِ نفسه، والشعور بالكمال لذيذ، لأن الكمال من الصفات الإلٰهية.

والثاني: أنه يشعر بملك قلب المادح وقيام الجاه عنده وكونه مسخراً له.

الثالث: أنه يُشعِرُ صاحبَه بأن المادح يصغي إلى مدحه فينتشرُ بسببه جاهُهُ. فكذلك إذا صدر المدح من بصير بصفات الكمال واسع الجاه والقدرة في نفسه، وكان على ملأ من الناس تضاعفت لذة المدح.

وتزول اللذَّة الأولى بأن يصدر عن غير أهل البصيرة فإنه لا يُشعِرُ بالكمال.

وتزول الثانية بأن يصدر عن خسيس لا قدر له، لأن مُلكَ قلبِهِ لا يُعتدّ به.

وتزول الثالثة بأن يُمدحَ في الخلوة لا في الملأ، إلا من حيث يَتوقع أنه أيضاً ربما يمدح في الملأ.

وأما الذم، فإنه مكروه لنقيض هذه الأسباب. وأكثر الخلق أهلكهم حب المدح وكراهية الذم ويحملهم ذلك على المراءاة وفنون المعصية.

---

(١) أي خامل الذِّكرِ الذي لا يحب الشهرة.

وعلاج ذلك: أن يتفكر في اللذة الأولى، فإن مُدِحَ بكثرة المال والجاه فيعلمُ أنه كمالٌ وهميٌّ، وهو سبب فوات كمال حقيقي، فهو جدير بأن يحزن لأجله، لا أن يفرح به.

وإن مُدِحَ بكمال العلمِ والورعِ، فينبغي أن يكون فرحه بوجود تلك الصفات، ويشكر الله تعالى عليها لا يَشكر غيره[1]، هذا إن كان متصفاً به. وأما إن كان غير متصف به، ففرحه به حماقة كفرح من يثني عليه غيره ويقول: ما أطيب العطرَ الذي في أحشائك وأمعائك، وهو يعلم ما فيها من الأقذار والأنتان. وهذا حال من يفرح بالمدح بالورع والزهد والعلم وهو يعلم من باطن نفسه أنه خال عنه.

وأما اللذة الثانية والثالثة، وهو لذة الجاه عند المادح وغيره، فعلاجه ما ذكرناه في حب الجاه.

* * *

---

(١) في المخطوطة: بدل: (ويشكر الله تعالى عليها لا يشكر غيره)، (وعلمِ الله تعالى بها لا بذكرِ غيره).

الأصل السابع: في حب الدنيا

اعلم أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وليس الدنيا عبارة عن المال والجاه فقط، بل هما حظَّان من حظوظ الدنيا، وشعبتان من شعبها، وشعب الدنيا كثيرة.

ودنياك عبارة عن حالتك قبل الموت، وآخرتك عبارة عن حالتك بعد الموت.

وكل ما لك فيه حظ قبل الموت فهو من دنياك، إلا العلم والمعرفة والحرية. وما يبقى معك بعد الموت فإنها أيضاً لذيذة عند أهل البصائر. ولكنها ليست من الدنيا وإن كانت في الدنيا، ولهذه الحظوظ الدنيوية تعلق بك وتعلق بما فيه الحظ وتعلق بأعمالك المتعلقة بإصلاحها، فهي ترجع إلى أعيان موجودة، وإلى حظك منها، وإلى شغلك في إصلاحها.

أما الأعيان، فهي الأرض وما عليها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ [الكهف: ٧]. ومطلوب الآدمي من الأرض. (أما عينها) فللمسكن والمحرث. (وأما نباتها) فللتداوي والاقتيات. (وأما معادنها) فللنقود والأواني والآلات. (وأما حيواناتها) فللمركب والمأكل. (وأما الآدميون منها) فللمنكح والاستِسْخار[1]. وقد جمع الله سبحانه ذلك في قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤]

وأما حظكَ منها، فقد عَبَّر القرآن الكريم عنه بالهوى فقال الله تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقال تعالى مفصلاً له: ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]. وذلك يندرج فيه جميع المهلكات الباطنة، من الغلِ والكِبْر

(١) في المطبوعة: الاستحسان، وما أثبتناه من المخطوطة، وهو أصح.

والحسدِ والرياءِ والنفاقِ والتفاخر والتكاثر وحب الدنيا وحب الثناء، وهي الدنيا الباطنة. وإنما الأعيان هي الدنيا الظاهرة.

وأما شغلك في إصلاحها، فهي جملة الحِرَف والصناعات التي الخلق مشغولون بها، وقد نسوا فيها أنفسهم ومبدأهم ومعادهم لاستغراقهم بأشغالهم بها، وإنما شاغلهم العلاقتان: علاقة القلب بحب حظوظها، وعلاقة البدن بشغل إصلاحها.

فهذه هي حقيقة الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، وإنما خُلِقَتْ للتزودِ منها إلى الآخرة. ولكن كثرة أشغالها وفنون شهواتها أنْسَتِ الحمقى سَفَرهم ومقصدهم، فقصروا عليها همتهم، فكانوا كالحاج في البادية، يشتغل بتعهد الناقة وعلفها وتسمينها، فيتخلف عن الرفقة حتى يفوته الحج وتهلكه سباع البادية.

[الدنيا مزرعة الآخرة]

هذه الدنيا المذمومة المهلكة، هي بعينها مزرعة الآخرة في حق من عرفها، إذ يعرف أنها مَنزل من منازل السائرين إلى الله عزَّ وجلّ، وهي كرباط[1] بُني على قارعة الطريق، أعد فيها العلف والزاد وأسباب السفر. فمن تزود منها لآخرته، واقتصر منها على قَدْرِ الضرورة التي ذكرناها في المطعم والملبس والمنكح، وسائر الضرورات، فقد حرث وبذر وسيحصد في الآخرة ما زرع. ومن عرج عليها واشتغل بلذاتها هلك.

ومَثَلُ الخلق فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم المَلاَّح بالخروج لقضاء الحاجة، وخَوَّفهم المقام، واستعجال السفينة فتفرقوا منها: فبادر بعضهم وقضى حاجته ورجع إلى السفينة فوجد مكاناً خالياً واسعاً.

(١) الرباط: المكان الذي يعد للمسافرين، أو للمنقطعين للعبادة والذكر والرباط يكون أيضاً: حبس النفس على الجهاد في الثغور أي على حدود العدو.

ووقف بعضهم فنظر في أزهار الجزيرة وأنوارها وظرائف أحجارها وعجائب غياضها ونغمات طيورها، فرجع إلى السفينة فلم يجد إلا مكاناً ضيقاً حَرِجاً.

وأكبَّ بعضُهم على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها فلم تسمح نفسه إلا بأن يستصحب شيئاً منها فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزادته الحجارة ثقلاً وضيقاً. فلم يقدر على رَميها ولم يجد لها مكاناً، فحملها على عنقه وهو ينوء بأعبائها.

وتولّجَ بعضهم الغياض ونسي المركب واشتغل بالتفرج في تلك الأزهار والتناول من تلك الثمار، وهو في تفرجه غير خال من خوف السباع والحذر من السقطات والنكبات، فلما رجع إلى السفينة لم يصادفها فبقي على الساحل، فافترسته السباع ومزقته الهوامّ.

فهذه صورة أهل الدنيا بالإضافة إلى الدنيا والآخرة، فتأملها واستخرج وجه الموازنة فيها إن كنت ذا بصيرة.

[عداوة الدنيا للآخرة]

من عرف نفسه، وعرف ربه، وعرف زينة الدنيا، وعرف الآخرة. شاهد بنور البصيرة وجه عداوة الدنيا للآخرة، إذ ينكشف له قَطْعاً: أن **لا سعادة في الآخرة إلا لمن قدم على الله سبحانه عارفاً به محباً له**. فإن المحبة لاتُنالُ إلا بدوام الذّكر، وإن المعرفة لاتنال إلا بدوام الطلب والفكر. ولايتفرغ لهما إلا من أعرض عن أشغال الدنيا. ولا تستولي المعرفة والحب على القلب ما لم يفرغ من حب غير الله تعالى، ففراغ القلب عن غير الله ضرورة اشتغاله بحب الله تعالى ومعرفته، ولن يتصور ذلك إلا لمُعْرض عن الدنيا قانع منها بقدر الزاد والضرورة.

فإن كنت من أهل البصيرة فقد صرت من أهل الذوق والمشاهدة، وإن لم تكن كذلك، فكن من أهل التقليد في الإيمان، وانظر إلى تحذير الله

سبحانه إيّاك بالكتاب، والسنة، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]. وقال عز اسمه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٧ـ٣٨]. ولعل ثلث القرآن في ذم الدنيا وذم أهلها.

وقد قال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها، إلا ما كان لله تعالى منها»[1]. وقال ﷺ: «يا عجباً كلّ العجبِ للمصَدقِ بدارِ الآخرة، وهو يسعى لدار الغرور»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الدنيا حلوةٌ خضرةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون»[3]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله عزَّ وجلّ لم يخلقْ خلقاً أبغضَ إليه من الدنيا، وإنه لم ينظرْ إليها منذُ خَلَقَها»[4]. وقال عليه الصلاة والسلام: «من أصبح والدنيا أكبرُ همّه فليس من الله في شيء، وألزمَ اللهُ قلبَه أربَعَ خصال: همّاً لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا يتفرغ عنه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً»[5].

وقال أبو هريرة: قال ﷺ: «يا أبا هريرة ألا أُريك الدنيا جميعها؟ قلت: نعم. فأخذ بيدي إلى مزبلة فيها رؤوس أناس وعَذِرات[6] وخرق وعظام فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص

---

(١) أخرج ابن ماجه والترمذي نحوه وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً.

(٣) الشطر الأول متفق عليه. والحديث رواه ابن ماجه والترمذي.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بلاغاً والبيهقي مرسلاً. ورواه الحاكم في التاريخ وقال السيوطي: ضعيف.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط، ورواه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف، والحاكم من حديث حذيفة، وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف.

(٦) عذرات: جمع عذرة، ومعناها الغائط.

كحرصكم وتأمل آمالكم، ثم هي اليوم عظامٌ بلا جلد، ثم ستصير رماداً، وهذه العَذِرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها من بطونهم، فأصبحت الناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون[1] عليها أطراف البلاد، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك»[2].
وقال ﷺ: «ليَجيئنَّ أقوامٌ يوم القيامة وأعمالُهُم كجبالِ تهامة، فيؤمَرُ بهم إلى النار». قالوا: يا رسول الله: مصلين؟ قال: «نعم، كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هَنَة من الليل، فإذا عَرَضَ لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه»[3].

وقال عيسى عليه السلام: «لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد».

وقال نبينا ﷺ: «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت»[4].
وقال عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين ارضوا بِدَنِيِّ الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدّنيا بِدَنِيِّ الدين مع سلامة الدنيا». وقال عيسى عليه السلام للحواريين: «لأكل خبز الشعير بالملح الجريش[5] ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة». وروي أن عيسى ـ عليه السلام ـ كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز شوهاء عليها من كل زينة، فقال لها: كم نكحت؟ فقالت: إني لا أحصيهم، فقال: يطلقونك أو ماتوا عنك؟ فقالت: بل قتلت كلهم، فقال عيسى: ـ عليه السلام ـ عجباً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين.

(١) أي يطلبوا ويكتسبون، وانتجع طلب الكلأ في موضعه.
(٢) قال العراقي: لم أجد له أصلاً؛ وقال الزبيدي: أورده صاحب القوت عن الحسن البصري مرسلاً بنحوه. (إتحاف)
(٣) الهنة: الوقت القصير. والحديث أخرجه أبو نعيم بسند ضعيف.
(٤) ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب بسند ضعيف، وقال الذهبي: منكر لا أصل له.
(٥) الملح الخشن.

[من لابَسَ الدنيا ببدنه لا يخلو قلبه منها]

اعلم أن من ظن أنه يلابس الدنيا ببدنه ويخلو عنها بقلبه فهو مغرور. قال النبي ﷺ: «إنما مَثَل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء، هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه؟»[1]. وكتب عليّ ـ رضوان الله عليه ـ إلى سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ: «مثل الدنيا مثل الحية، يلين مسها ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها لعلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها، لما أيقنت من فراقها، وكن أسرَّ ما تكون بها أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها كلما اطمأنَّ منها إلى سرور أشْخَصه عنه مكروه». وقال عيسى ـ عليه السلام ـ: «مثل الدنيا مَثَل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله».

واعلم أن من اطمأن إلى الدنيا وهو يتيقن أنه راحلٌ عنها هو في غاية الحماقة، بل مثل الدنيا مثل دار هيأها صاحبها، وزينها لضيافة الواردين والصادرين، فدخل واحدٌ دارَه فقدَّم إليه طبقاً من ذهب عليه بخور وريحان ليشمها ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه، فجهل رسمه فظن أنه وهبَ ذلك له، فلما تعلقَ به قلبُه استُرجِعَ منه، فضجر وتوجع.

ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره ورده بطيبة قلبه وانشراح صدره.

فكذلك سنَّة الله في الدنيا، فإنها دار ضيافته على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها ما ينتفعون به كما يُنتفع بالعارية[2]، ثم يتركونها لمن يلحق بعدهم بطيبة نفس من غير تعلق القلب بها.

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن البصري قال: بلغني أن رسول الله ﷺ.. ووصله البيهقي من رواية الحسن عن أنس.
(٢) العارية: مال ذو منفعة مؤقتة مُلكت بغير عوض، وهي لا بد مستردة.

الأصل الثامن: في الكِبْر

قال الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]، وقال ﷺ: قال الله تعالى: «الكبرياءُ ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما قصَمته»[١]. وقال ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ من كانَ في قلبهِ مثقالُ حبةٍ من خردلٍ من كِبر»[٢]. وقال ﷺ: «يُحشَرُ الجبارونَ والمتكبرونَ يوم القيامة في صُوَرِ الذرّ، يطؤهم الناس لِهَوانهم على الله عزَّ وجلّ»[٣]. وقال ﷺ لبلالٍ: «إن في جهنم وادياً وفي الوادي بئر يقال له: هبهب. حق على الله سبحانه أن يسكنه كلَّ جَبَّار، فإياكِ يا بلال أن تكون ممن يسكنه»[٤]. وقال ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[٥]، وقال ﷺ: «لا ينظر الله تعالى إلى من جرّ ثوبه خُيلاء»[٦]. وقال ﷺ: «من تعظَّمَ في نفسِه واختالَ في مِشْيتِهِ، لقي الله وهو عليه غضبان»[٧]. وقال ﷺ في فضيلة التواضع: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٨]. وقال ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنة»[٩].

---

(١) حديث قدسي رواه ابن ماجه وابن حبان وأبو داود بألفاظ قريبة، وعند مسلم: الكبرياء رداؤه.
(٢) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه والإمام أحمد. وفي رواية: مثقال ذرة.
(٣) أخرجه البزار وإسناده حسن.
(٤) أخرجه أبو يعلى والطبراني والحاكم وضعفه العراقي.
(٥) قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ. ولأصحاب السنن نحوه من حديث أبي سعيد الخدري. (إتحاف)
(٦) رواه الشيخان والترمذي بلفظ (إزاره بدل ثوبه).
(٧) رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه؛ والبيهقي والبخاري في الأدب المفرد وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.
(٨) أخرجه مسلم.
(٩) أخرجه البغوي والطبراني والبزار.

وأوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ: «إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم عل خلقي وألزمَ قلبه خوفي وقطع النهار بذكري وكفّ عن نفسه الشهوات من أجلي».

وقال نبينا ﷺ: «إذا تواضعَ العبدُ للهِ رَفَع الله رأسَهُ إلى السماءِ السابعة»[١]. وقال ﷺ: «إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا رحمكم الله»[٢]. وقال ﷺ: «إنه ليعجبني أن يحملَ الرجلُ الشيءَ في يدهِ فيكونَ مِهْنةً لأهلِهِ يدفع به الكبر عن نفسه»[٣].

[حقيقة الكِبرْ]

حقيقة الكبر: أن يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال، فيحصل فيه نفخة وهزة من هذه الرؤية والعقيدة، ولذلك قال ﷺ: «أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[٤]، ولذلك استأذن بعضهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ليعظ الناس بعد الصبح، فقال: لأخشى أن تنتفخ حتى تبلغَ الثريا.

ثم هذه النفخة يصدر منها أفعال على الظاهر، كالترفع في المجالس، والتقدم في الطريق، والنظر بعين التحقير والغضب إذا لم يُبدأ السلام، وقُصِّرَ في حوائجه وتعظيمه، ويحمله على أن يأنف إذا وُعِظَ، ويُعنِّفَ إذا وَعَظَ وعَلَّم، ويجحدَ الحقَّ إذا ناظر، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير. وإنما عُظِّم الكبر حتى لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة منه، لأن تحته ثلاثةَ أنواع من الخبائث العظيمة:

أولها: أنه منازعة الله تعالى في خصوص صفته، إذ الكبرياء رداؤه،

---

(١) أخرجه البيهقي بسند ضعيف.
(٢) رواه ابن عدي: بسند ضعيف.
(٣) قال العراقي: حديث غريب.
(٤) قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ، وقد تقدم أن أصحاب السنن رووا نحوه من حديث أبي سعيد الخدري. (إتحاف)

كما قال الله، فإن العظمة لا تليق إلا به. ومن أين تليق العظمة بالعبد الذليل الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، فضلاً عن أمر غيره.

الثانية: أن يحمله على جحد الحق وازدراء الخلق. قال ﷺ: في بيان الكبر: «الكِبْر منْ سَفَه الحقّ، وغمَصَ الناس»[١] والأنَفَة من الحق تغلق باب السعادة، وكذا استحقار الخلق.

وقال بعضهم: إن الله سبحانه خبأ ثلاثاً في ثلاث: خبأ رضاءَهُ في طاعته، فلا تحقرن شيئاً منها لعل رضاء الله فيه، وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرن شيئاً منها صغيرة، فلعل سخط الله تعالى فيها، وخبأ ولايته في عباده، فلا تحقرن أحداً منهم فلعله وليُّ الله تعالى.

الثالثة: أنه يحول بينه وبين جميع الأخلاق المحمودة، لأن المتكبر لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه، ولا يقدر على التواضع، وعلى ترك الأنفة والحسد والغضب، ولا يقدر على كظم الغيظ، وعلى اللطف في النصح، وعلى ترك الرياء.

وبالجملة فلا يبقى خُلُقٌ مذموم إلا ويضطر المتكبر إلى ارتكابه [لحفظ كبره][٢]، ولا خلق محمود إلا ويضطر إلى تركه.

[علاج الكبر]

العلاج الجُمْلي لقمع رذيلة الكبر:

أن يعرف الإنسان نفسه، وأن أوله نطفة مَذِرَة[٣]، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العَذرة. ويفْهَم قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧

(١) الحديث: رواه مسلم والترمذي ولفظه: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» وسفه الحق: جهله، وغمص الناس أو غمط الناس: احتقارهم. (الوسيط).
(٢) الزيادة بين الحاصرتين من المخطوطة.
(٣) مذرة: فاسدة.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٨].

فليعلم أنه خلق من كتم[١] العدم، وأنه لم يك شيئاً مذكوراً. فلا شيء أقل من العدم. ثم خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مُضْغة، ليس له سمع ولا بصر ولا حياة ولا قوة. وخلق له ذلك كله وهو بعدُ على غايةِ النقصان تستولي عليه الأمراض والعلل. ويتضاد فيه الطبائع، فيهدم بعضها بعضاً، فيمرض كَرْهاً، ويجوع كرهاً، ويعطش كرهاً. ويريد أن يعلمَ الشيء فيجهله، ويريد أن ينسى الشيء فيذكره، ويكره الشيء فينفعه، ويشتهي الشيء فيضره. لا يأمن في لحظة من أن يُختلس روحه، أو عقله، أو صحته، أو عضو من أعضائه، ثم آخره الموت والتعرض للعقاب والحساب. فإن كان من أهل النار فالخنزير خير منه، فمن أين يليق به الكبر وهو عبد مملوك ذليل لا يقدر على شيء. قال الحسن البصري ـ رحمة الله عليه ـ لبعض من يتبختر في مشيته: «ما هذه المشية لمن في بطنه خَراءٌ»، فكيف يليق الكبر بمن يغسل العَذِرَة بيده مرتين في كل يوم، وهو حامل لها على الدوام؟

[علاج الكبر تفصيلاً]

علاج الكبر على التفصيل بالنظر إلى ما به التكبر، وهو أربع خصال:

الأولى: العلم، قال ﷺ: «آفة العلم الخُيَلاء»[٢]. وقال ﷺ: «لا تكونوا من جبابرةِ العلماء، فلا يفي علمكُم بجهلكم»[٣]. وقلَّ ما يخلو العالم من آفة الكبر، فإنه يرى نفسه فوق الناس بالعلم الذي هو أشرف فضيلة عند الله عزَّ وجلّ، فيتكبَّر تارة بالدين، بأن يرى نفسه عند الله عزَّ وجلّ أفضل

(١) كتم: سر.
(٢) ورد «آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء»، رواه القضاعي عن علي بسند ضعيف.
(٣) رواه في الإحياء من قول عمر رضي الله عنه؛ وقال الزبيدي: روى الخطيب في الجامع من حديث أبي هريرة: «ولا تكونوا من جبابرة العلماء...». (إتحاف)

من غيره، وتارة في الدنيا بأن يرى حقَّه واجباً على الناس، ويتعجب منهم إن لم يتواضعوا له، وهذا لأنْ يسمَّى جاهلاً أَولى، لأن العلم الحقيقيَّ ما يعرف به ربَّه ونفسَه، وخطرَ خاتمته، وحجة الله عزَّ وجلّ عليه. ويلاحظ الخاتمة فلا يرى جاهلاً إلا ويقول: إنه عصى الله تعالى بجهل، وأنا عصيته بعلم، فحجة الله تعالى عَليَّ آكدُ. قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: مَن ازداد علماً ازداد تواضعاً. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]. وقال ﷺ: «يكون قوم يقرؤون القرآن فلا يجاوزُ حناجرَهم، يقولون قد قرأنا القرآن، فمن أقرأ منا ومن أعلم منا؟» ثم التفت وقال: «أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار»[1]. ومن هذا اشتد حذر السلف، حتى إنه صلى حذيفة ـ رضي الله عنه ـ مرةً بقوم، فلما سلم قال: «لتلتمسُنّ إماماً غيري أو لتصلُّن وحداناً، إني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني».

وينبغي أن يتذكر الإنسان أنه كم من مسلم نظر إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ قبل إسلامه واستحقره، ثم كانت خاتمة عمر كما كانت، وذلك المسلم لعله ارتد بعده، فكان المتكبر من أهل النار والمتكبَّر عليه من أهل الجنة.

وما من عالم إلا ويُتَصَوَّرُ أن يُختَم له بالسوء، ويختم للجاهل بالسعادة. فكيف يكون الكبر مع معرفة ذلك. وقد قال ﷺ: «يُؤتى بالعالِمِ يومَ القيامةِ فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه[2] فيدورُ بها كما يدورُ الحمار بالرحا، فيطيفُ به أهلُ النارِ فيقولون: ما لَكَ؟! فيقول كنت آمرُ بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه»[3]. فأيُّ عالم يسلم من ذلك؟ فلم لا يشغله خوفه عن التكبر؟.

وقد قال الله تعالى في (بلعم بن باعورا) وهو من أكابر العلماء[4]:

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق.

(٢) أمعاؤه.

(٣) متفق عليه عن أسامة بن زيد: «يؤتى بالرجل...».

(٤) أحد علماء بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام: أو هو من الكنعانيين كان قد أوتي=

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. لأنه أخلد إلى الشهوات. وقال في علماء اليهود: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥].

فلينظر في الأخبار التي وردت في علماء السوء حتى يغلب خوفُه كبرَه، وإنما يبقى الكبر مع هذا لمن اشتغل بعلوم غير نافعة في الدين، كالجدل واللغة وغيرهما، أو لمن اشتغل بالعلم وهو خبيث الباطن فازداد خبثه بسببه.

السبب الثاني: الورع والعبادة ولا يخلو المتعبد في باطنه عن كبر وقد تنتهي الحماقة ببعضهم إلى أن يحمل مصائب الناس ومسراتهم على كرامته. فمن آذاه ومات أو مرض يقول: قد رأيتم ما فعل الله سبحانه به. وربما يقول عند الإيذاء: سترون ما يجري عليه، وليس يدري الأحمق أن جماعة من الكفار ضربوا الأنبياء وآذوهم، ثم مُتِّعوا في الدنيا فلم يُنْتقم منهم، بل ربما أسلم بعضهم فسعد في الدنيا والآخرة، فكأنه يرى نفسه أفضل من الأنبياء ومؤذيه أخس من الكفار.

وحقّ العابد إذا نظر إلى العالِم أن يتواضع له لجهله، وإن نظر إلى فاسق أن يقول: لعل فيه خلقاً باطناً يستر معاصيه الظاهرة، ولعل في باطني حسداً أو رياء أو خبثاً خفياً مقتني الله سبحانه عليه فلا يقبل أعمالي الظاهرة، وأن الله سبحانه ينظر إلى القلوب لا إلى الصور، ومن الخبث الباطن الكبر.

إذ رُوي أن رجلاً من بني إسرائيل يقال له: (خليع بني إسرائيل) لكثرة فساده، جلس إلى عابد بني إسرائيل وقال: لعل الله تعالى يرحمني ببركته، فقال العابد في نفسه، كيف يجلس معي مثل هذا الفاسق؟ وقال له: قم عني، فأوحى الله سبحانه إلى نبيِّ زمانه: مُرْهما ليستأنفا العمل، فقد غفرت للخليع، وأحبطتُ عمل العابد.

= علم بعض كتب الله تعالى. (إتحاف: ١٠/ ٣٤٦). انظر قصته في كتب التفسير.

وروي أن رجلاً وَطِىءَ رقبة عابد من بني إسرائيل وهو ساجد، فقال له: ارفع، فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله سبحانه إليه: أيها المتألّي[1] عليَّ بل لا يغفر الله لك.

فالأكياس[2] يحذرون من ذلك ويقولون ما كان يقوله عطاء السُّلَمي مع شدة ورعه، كان إذا هبت ريح عاصف أو صاعقة يقول: ما يصيب الناس كلُّ ذلك إلا بسببي، ولو مات عطاء لتخلصوا. وقال بعضهم في عرفات: أنا أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر كم بين من يخلص العمل والورع ثم يخاف على نفسه، وبين من يتكلف أعمالاً ظاهرة لعلها لا تخلو عن الرياء والآفات ثم يمن على الله تعالى بعمله.

السبب الثالث: الكِبْرُ بالنَّسَب، وعلاجه أن ينظرَ في نَسبه، فإن أباه نطفة مذرة، وجده التراب، ولا أقذر من النطفة، ولا أذل من التراب.

ثم المفتخر بالنسب يفتخر بخصال غيره، ولو نطق آباؤه لقالوا: من أنت في نفسك! ما أنت إلا دودة من بول من له خصلة حسنة. ولذلك قيل:

لَئِـنْ فَخِـرْتَ بِـآبَـاءٍ ذَوِي نَسَـبٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وكيف يتكبر بنسب ذوي الدنيا ولعلهم صاروا حممة[3] في النار يودّون لو كانوا خنازير أو كلاباً يتخلصون مما هم فيه. وكيف يتكبر بنسب أهل الدّين وهم في أنفسهم ما كانوا يتكبرون، وكان شرفهم بالدّين، ومن الدّين التّواضع، وكان أحدهم يقول: ليتني كنت تبنةً، وليتني كنت طائراً، كلهم قد شغلهم خوف العاقبة عن الكبر مع عظم علمهم وعملهم. فكيف يتكبر بنسبهم من هو عاطل عن خصالهم!

السبب الرابع: الكبر بالمال والجمال والأتباع، والكبر بذلك جهل،

(١) المتألي: الحالف.
(٢) جمع كيِّس: الكَيْس: الجود والظَّرف، والعقل؛ الأكياس: العقلاء.
(٣) حممة: كل ما احترق بالنار.

فإنها أمور خارجة عن الذات، أعني المال والأتباع، وكيف يتكبر بخصلة تمتد إليها يد السارق والغاصب! وكيف يفتخر بالجمال وحُمَّى شهر تفسده، والجدريُّ يزيلُه! ولو تفكر الجميل في أقذار باطنه لأدهشه ذلك عن تزويق ظاهره، ولو لم يتعهد الجميلُ بدنَه أسبوعاً بالغسل والتنظيف لصار أقذر من الجيفة، من تغيّر النكهة والصُّنان[1] ورائحة العذرة، وكراهية الوسخ والمخاط والرَّمصَ[2] فمن أين للمزبلة أن تفتخر بجمالها! والإنسان بالحقيقة مزبلة، فإنه منبع الأقذار والنجاسات، [فضلاً عن كون هذا الجمال زائل عن قريب، مبدلاً إلى الهرم والشيخوخة بحيث لا يبقى له أثر.

فالعاقل الصحيح العقل إذا لاحظ ذلك لا يتصور الكبر أصلاً][3].

* * *

(١) الصنان: الرائحة الكريهة مصدرها البدن.
(٢) الرمص: الوسخ الأبيض يكون في مجرى الدمع من العين.
(٣) الزيادة بين الحاصرتين من المخطوطة.

الأصل التاسع: في العُجْب

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ [التوبة: ٢٥]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤]. وقال: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]. وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرءِ بنفسه»[1]. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «الهلاك في اثنين: القنوطُ والعُجْب». وإنما جمع بينهما لأن القانط لا يطلب السعادة لقنوطه، والمعجَب لا يطلبها لظنه أنه قد ظفر بها. وقال ﷺ: «لو لم تُذْنِبُوا لخِفْتُ عليكم ما هو أعظم من ذلك، العُجْب العُجْب»[2]. وقيل لعائشة ـ رضي الله عنها ـ متى يكون الرجل مسيئاً؟ فقالت: «إذا ظن أنه مُحسن».

ونظر رجل إلى بشر بن منصور وهو يطيل الصلاة ويحسن العبادة، فلما فرغ قال: «لا يغرّنك ما رأيت مني، فإن إبليس عَبدَ الله تعالى وصلَّى آلاف السنين، ثم صار إلى ما صار إليه».

[حقيقة العُجب]

حقيقة العُجْب: استعظامُ النفس وخصالَها التي هي من النعم، والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المُنعم والأمْن من زوالها. فإن أضاف إليه أن رأى لنفسه عند الله حقاً ومكاناً، سمي ذلك إدلالاً، وفي الخبر: «أن

(١) تقدم، أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب عن أنس بسند ضعيف.
(٢) أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب عن أنس وفيه رجل مختلف فيه؛ قال المنذري: إسناد البزار جيد.

صلاة المدلّ لا ترتفع فوق رأسه»[1]، وعلامة إدلاله أن يتعجب من رد دعائه، ويتعجب من استقامة حال من يؤذيه.

والعُجب هو سبب الكِبر، ولكن الكبر يستدعي مُتكبَّراً عليه، والعجب يُتَصَوَّرُ على الانفراد. أما من رأى نعمة الله على نفسه بعمل أو علم أو غيره، وهو خائف على زواله، وفرحَ بنعمة الله تعالى عليه من حيث إنها من الله تعالى، فليس بمعجَب، بل العُجب أن يأمنَ وينسى الإضافة إلى المنعِم.

[علاج العُجب]

العُجْبُ جهل محض، فعلاجه العلم المحض، فإنه إن أُعجب بقوة وجمال أو أمر مما ليس يتعلق باختياره، فهو جهل أيضاً، إذ ليس ذلك إليه، فينبغي أن يُعجَبَ بمن أعطاه ذلك من غير استحقاق، وينبغي أن يتفكر في أن زوال ذلك مخوفٌ على القرب بأدنى مرض وضعف.

وإن أُعجب بعلمه وعمله وما يدخل تحت اختياره، فينبغي أن يتفكر في تلك الأعمال بماذا تيسرت له، وإنها لا تتيسر إلا بعضو وقدرة وإرادة ومعرفة، وأن جميع ذلك من خلق الله عزَّ وجلّ. وإذا خلق الله العضو والقدرة وسلّط الدواعي وصَرَف الصوارف، كان حصول الفعل ضرورياً، وليس للمضطر أن يُعجَبَ بما يحصل منه اضطراراً، وهو مضطر إلى اختياره، [فإنه لا يفعل إن شاء، ولكن إن يشأ الله، شاء أو لم يشأ، مهما خلقت فيه المشيئة][2]. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]. فمفتاح العمل انجزام المشيئة وانصراف الدواعي الصارفة مع كمال القدرة والأعضاء، وكل ذلك بيد الله تعالى.

أرأيت لو كان بيد مَلِكٍ مفتاح خزانة فأعطاك إياه فأخذت منها أموالاً، أتعجب بجوده إذا أعطاك المفتاح بغير استحقاق، أو بكمالك في أخذه؟ وأي كمال في الأخذ بعد التمكين؟.

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلاً، ووافقه الزبيدي في الإتحاف.
(٢) في المخطوطة: فإنه يفعل إن شاء الله تعالى، فمفتاح . . .

[العلم والعقل عطيّة من الله تعالى]

من العجائب أن يُعْجَبَ العاقلُ بعلمه وعقله، حتى يتعجب إن أفقره الله تعالى وأغنى بعض الجهال، ويقول: كيف وسَّعَ النعمةَ على الجاهلِ وحرَمَني؟ فيقال له: كيف رزقَكَ العلمَ والعقلَ وحرَمَهما الجاهل؟ فهذه عطية منه، أفتجعلها سبباً لاستحقاق عطية أخرى؟ بل لو جمع لك بين العقل والغنى، وحرمَ الجاهلَ منهما جميعاً كان ذلك أولى بالتعجب، وما تعجُّبُ العاقلِ منه إلا كتعجب من أعطاه الملكُ فرساً، وأعطى غيره غلاماً ويقول: كيف يعطي الغلام لفلان ولا فرس له، ويحرمني[1] وأنا صاحب الفرس؟ وإنما صار صاحب الفرس بعطائه، فيجعل عطاءه سبباً لاستحقاق عطاء آخر، وهو عين الجهل.

بل العاقل يكون أبداً تعجبَه من فضل الله تعالى وجُوده من حيث أعطاه العلم والعقل[2]، من غير تقدم استحقاق منه، وحرم غيره ذلك وسلط عليه دواعي الفساد واضطره إليه بصرف دواعي الخير عنه، وذلك بغير جريمة سابقة منه.

وإذا شهد ذلك تحقيقاً غلب عليه الخوف، إذ قد يقول: قد أنعم الله عليَّ في الدنيا من غير وسيلة، وخصني به دون غيري. ومن يفعل مثل هذا بغير سبب، فيوشك أن يعذبَ ويسلبَ النعمَ أيضاً بغير جناية وسبب. فماذا أصنع إن كان ما أفاضه عليَّ من النعم مكراً أو استدراجاً بما فتحه؟ كما قال الله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]، وكما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

* * *

(١) في المخطوطة: ولم يعطني فيخدمني بدل (ويحرمني). . .
(٢) في المخطوطة: زيادة: ووفقه للعبادة.

الأصل العاشر: في الرياء

قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ﴾ [الكهف: ١١٠] أراد به الإخلاص. وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قيل: ما هو؟ قال ﷺ: «الرياء، يقول الله عزَّ وجلّ يوم القيامة، إذا جازى العباد بأعمالهم: «اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟»»[1].

وقال ﷺ في حديث طويل: «يقال للغازي والعالم والمنفق إذا قال: فعلتُ كذا كذبتَ، أردتَ أن يقال فلانٌ عالمٌ أو شجاعٌ أو جوادٌ أو قارئ فيذهب به إلى النار»[2]، وقال ﷺ: «استعيذوا بالله من جُبِّ الحزن»، قيل: ما هو؟ قال ﷺ: «وادٍ في جهنم أُعدَّ للقراء المرائين»[3]. وقال: قال تعالى في الحديث القدسي: «من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كلُّهُ وأنا منه بريء، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[4]. وقال ﷺ: «لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من الرياء»[5]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أدنى الرياء شرك»[6].

(١) أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب ورجاله ثقات ورواه الطبراني في الكبير.
(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي وأحمد وأورده الإمام هنا بالمعنى مختصراً.
(٣) أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال: غريب. وضعفه ابن عدي؛ والقراء: طلبة العلم، أو العلماء.
(٤) أخرجه مالك واللفظ له دون قوله: «وأنا منه بريء»؛ وأخرجه مسلم وابن ماجه بسند صحيح.
(٥) قال العراقي: لم أجده هكذا؛ وقال الزبيدي: هو من كلام يوسف بن أسباط. (إتحاف: ١٠/ ٧٤).
(٦) أخرجه الحاكم والطبراني وقال العراقي: إسناده ضعيف.

وقال عيسى ـ عليه السلام ـ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فَلْيدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لكيلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فَلْيُخْفِ عن شماله، وإذا صلى فليرخِ ستر بابه، فإن الله تعالى يقسم الثناء كما يقسم الرزق».

ولهذا قال عمر ـ رضي الله عنه ـ لرجل طأطأ رقبته: «يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، وإنما الخشوع في القلوب». وقال نبينا ﷺ: «إن المرائي ينادَى يومَ القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي، يا غاوي، يا فاجر، يا خاسر، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا»[1]. وقال قتادة ـ رحمة الله عليه ـ: إذا راءى العبد يقول الله تعالى: «انظروا كيف يستهزئ بي». وقال الحسن ـ رحمة الله عليه ـ: «صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعْرِضُ له الحكمة لو نطق بها نفعته ونفعت أصحابه، وما يمنعه منها إلا الشهْرة».

[حقيقة الرياء]

حقيقة الرياء: طلب المنزلة في قلوب الناس بالعبادات وأعمال الخير، وما يُراءى به ستة أصناف:

الأول ـ الرياء من جهة البدن: وهو إظهار النحول والصفار، ليُظنّ به السهر والصيام، وإظهار الحزن ليظن به أنه شديد الاهتمام بأمر الدين، وإظهار شعث الشعر ليظن به أنه لشدة استغراقه بالدين ليس يتفرّغ لنفسه، وإظهار ذُبُول[2] الشفتين ليستدل به على صومه، وخفض الصوت ليستدل به على ضعفه من شدة المجاهدة.

الثاني ـ الرياء بالهيئة: كحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي،

(١) رواه ابن أبي الدنيا وإسناده ضعيف.
(٢) ذبل: ذهبت ندواته، الذبلاء: اليابسة.

والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وتغميض العينين ليظن به أنه في الوجد والمكاشفة أو غائصٌ في الفكر.

الثالث ـ الرياء في الثياب: كلبس الصوف والثوب الخشن وتقصيره إلى قريب من الساق، وتقصير الكُمين، وترك الثوب مخرَّقاً ووسخاً، ليُظنَ أنه مَسْتغْرق الوقت عن الفراغ له، ولبس المرقَّعة والسجادة، ليُظنّ أنه من الصوفية مع إفلاسه عن حقائق التصوف، ولبس الدرَّاعة والطيلسان[1] وتوسيع الأكمام ليظن أنه عالم، والتقنُّع فوق العمامة بإزار، ولبس الجوارب ليُظنّ أنه متقشف[2] لشدة ورعه من غبار الطريق.

ثم منهم من يطلب المنزلة في قلوب أهل الصلاح، فيلازم الثوب الخَلِق، ولو لبس ثوباً جديداً لكان عنده كالذبح، إذ يخاف أن يقول الناس قد بدا له من الزهد.

ومنهم من يطلب المنزلة من السلاطين والتجار، ولو لبس خُلْقان الثياب لازْدروه، ولو لبس فاخر الثياب لم يعتقدوا زهده، فيطلب المرقَّعة المصبوغة والفوطة الرقيقة، والأصواف الرفيعة، فتكون ثيابهم في القيمة والنفاسة كثياب الأغنياء وفي اللون والهيئة كثياب الصُلحاء، ولو كلّفوا أن يلبسوا الخَلِقَ لكان عندهم كالذبح خيفة عن السقوط من أعين الأغنياء، ولو كُلّفوا لبس الخزّ والديبقي وما يباح لبسه، وقيمته دون قيمة ثيابهم، لا شتد عليهم خوفاً عن سقوط منزلتهم عن قلوب الصلحاء، إذ يقولون: بَدا له من الزهد[3].

(١) الدراعة: القميص، والطيلسان: فارسي معرب هو لباس العجم، ويوضع على الرأس وتسدل أطرافه.
(٢) القشف: محركة قذر الجلد ورثاثة الهيئة وسوء الحال، والتقشف: ترك الترفه والتنعم. (الوسيط)
(٣) الرياء من جهة البدن والثياب كان في زمان الإمام رحمه الله تعالى، ولم يعدله في زماننا وجود لأنهم كانوا يحبون أن يوصفوا بالزهد والصلاح.

الرابع ـ الرياء بالقول: كرياء أهل الوعظ والتذكير، وتحسين الألفاظ وتسجيعها[١]. والنطق بالحكمة، والأخبار، وكلام السلف مع ترقيق الصوت وإظهار الحزن، مع الخلوّ عن حقيقة الصدق والإخلاص في الباطن، بل ليُظنَّ به ذلك، وكادّعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والمبادرة إلى الحديث، أنه صحيح أو سقيم، ليُظن به غزارة العلم، وكتحريك الشفتين بالذِّكر، والأمر بالمعروف بمشهد الناس مع خلوّ القلب عن التفجع بالمعصية، وكإظهار الغضب عن المنكرات، والأسف عن المعاصي مع خلوّ القلب عن التألم به.

الخامس ـ الرياء بالعمل: كتطويل القيام وتحسين الركوع والسجود، وإطراق الرأس وقلة الالتفات، والتصدّق، والصوم، والحج، والإخبات[٢] في المشي مع إرخاء الجفون، مع أن الله تعالى عالم أن باطنه لو كان خالياً لما فعل شيئاً من ذلك، بل تساهل في الصلاة وتسرّع في المشي، وقد يفعل ذلك في المشي، فإذا شعر باطلاع غيره عليه عاد إلى السكينة كي يظن به الخشوع.

السادس ـ الرياء بكثرة التلامذة والأصحاب وكثرة ذكر الشيوخ: ليُظن أنه لقي شيوخاً كثيرة، وكَمَنْ يحب أن يزوره العلماء والسلاطين ليقال: إنه ممن يُتبرَّك به.

فهذه مجامع ما يراءى به في الدين، وكل ذلك حرام، بل هو من الكبائر.

وأما طلب المنزلة في قلوب الناس بأفعال ليست من العبادات وأعمال الدين فليست بحرام، ما لم يكن فيها تلبيس كما ذكرناه في طلب الجاه، فأهل الدنيا قد يطلبون الجاه بكثرة المال، والغلمان، وحسن الثياب

(١) أي استعمال السجع: وهو الكلام المقفى غير الموزون. (الوسيط)
(٢) الإخبات: الإبطاء والتخشع، وهنا بمعنى التمسكن.

الفاخرة، وحفظ الأشعار، وعلم الطب، والحساب، والنحو، واللغة، وغير ذلك من الأعمال والأحوال. ولم يحرم ذلك ما لم ينته إلى الإيذاء بالتكبر وإلى أخلاق أخرى مذمومة، وإنما استقصينا أقسام الرياء لأنه أغلب الأخلاق الذميمة على النفوس، فمن لا يعرف الشرّ ومواقعه، لا يمكنه أن يَتّقيَهُ. [فاسأل الله الحول والقوة على صدق الإخلاص][١].

[درجات الرياء]

الرياء على درجات خبيثة[٢]:

إحداها: أن لا يكون بالأمور الدينية والعبادات، كالذي يلبس عند الخروج ثياباً حسنة خلاف ما يلبسه في الخلوة، وكالذي ينفق في الضيافات وعلى الأغنياء أموالاً ليُعتقد أنه سخي، لا ليعتقد أنه ورع صالح، فذلك ليس بحرام. فإنّ تملك القلوب كتملك الأموال. نعم، القليل منه صالح نافع، والكثير من الجاه يُلهي عن ذكر الله، كالكثير من المال. ومهما انصرفت الهمة إلى سعة الجاه، فيجرّ ذلك إلى الغفلة والمعاصي، فيكون محذوراً بذلك لا لنفسه.

وأما إظهار الشمائل التي ذكرناها ليعتقد الناسُ فيه الدينَ والورعَ فحرام لشيئين:

أحدهما: أنه تلبيس إذا أراد أن يعتقد الناس أنه مخلص مطيع لله محبٌّ، وهو بهذه النية فاسق ممقوت عند الله تعالى، ولو سلَّم الرجل دراهم إلى جماعة يخيل إليهم أنه يجود عليهم بها، وإنما هي ديون لازمة، عصى لتلبيسه، وإن لم يطلب به أن يُعتقد صلاحه لأن ملك القلوب بالتلبيس حرام.

الثاني: أنه إذا قصد بعبادة الله خلق الله فهو مستهزئ، ومن وقف بين يدي ملك في معرض الخدمة وليس غرضه ذلك بل غرضه ملاحظة عبد من

(١) بين الحاصرتين زيادة من المخطوطة.
(٢) في المخطوطة: لا توجد كلمة (خبيثة).

عبيد الملك، أو جارية من جواريه. فانظر ماذا يستحقه من النَّكال لاستهزائه بالملك، فكأنه إذا قصد العبادَ بالعبادة فقد اعتقد أن عباد الله أقدر على نفعه وضره من الله تعالى، إذ عَظَمة العباد في قلبه دعته إلى أن يتجمل عندهم بعبادة الله تعالى، ولهذا سمي الرياء الشرك الأصغر، ثم يزداد الإثم بزيادة فساد القصد والنية.

ومن المرائين من لا يطلب إلا مجرد الجاه، ومنهم من يطلب أن يودَع الودائعَ وتوقف عنده الأوقاف ومال الأيتام ليختزل منها، وذلك أخبث لا محالة. ومنهم من يقصدُ أن يتقرب إليه النساء والصبيان، ليتمكن من الفجور، أو ليكثر عنده المال ليصرفه إلى الخمر والملاهي، وهذا هو الأعظم، إذ جعل عبادة الله تعالى وسيلة إلى مخالفته، والعياذ بالله تعالى.

[ما تحصل به المراءاة]

كما يعظم الرياء ويتغلظ إثمه بسبب اختلاف الغرض الباعث عليه، فيعظم أيضاً بما به المراءاة وبقوة قصد الرياء.

أما ما به المراءاة فهي على ثلاث درجات:

أغلظها: أن يُرائيَ بأصل الإيمان، كالمنافق يظهر أنه مسلم، ولم يسلم بقلبه، وكالملحد، ومعتقد الإباحة، إباحة المحرمات، يظهر أنه مستديم الإيمان وقد انسلَّ منه باطنه.

الثانية: الرياء بأصل العبادات، كمن يصلّي ويُخرج الزكاة بين يدي الناس، والله يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل ذلك.

الثالثة: وهي أدناها أن لا يُرائي بالفرائض ويرائي بالنوافل، كالذي يكثر النافلة، ويحسن هيئة الفريضة، ويخرج الزكاة من أجود ماله، أو يتهجد أو يصوم يوم عرفة و عاشوراء، والله يعلم من باطنه أنه لو خلا بنفسه لم يفعل شيئاً من ذلك، وهذا أيضاً حرام، وإن كان لا ينتهي شدة العقوبة فيه إلى حدّ الرياء بالأصول.

وأما تغليظه بدرجات القصد فهو أنه قد يتجرد قصد الرياء حتى يصلّي مثلاً على غير طهارة لأجل الناس، أو يصوم ولو خلا بنفسه لأفطر.

وقد يضاف إليه قصد العبادة أيضاً، وله ثلاثة أحوال:

إحداها: أن تكون نية العبادة باعثةً مستقلة لو خلا بنفسه لفعل، ولكن زاده رؤية غيره ومشاهدته نشاطاً، وخف عليه العمل بسببه، فأرجو أن لا يحبطَ ذلك القدرُ عملَه بل تصح عبادته ويثاب عليها، ويعاقب على قصد الرياء أو ينقص من ثوابه.

الثانية: أن يكون قصْدُ العبادة ضعيفاً، بحيث لو انفرد عن الناس ما استقل بالحمل على العبادة، فهذا لا تصح عبادته، والقصد الضعيف لا ينفي عنه شدة المقت.

الثالثة: أن يتساوى القصدان بحيث لا يستقلَّ كلّ واحد بالحمل لو انفرد، أو لا ينبعث للفعل بأحدهما بل بمجموعهما. فهذا قد أصلح شيئاً وأفسد مثله، فالغالب أنه لا يسلم رأساً برأس، ويحتمل أن يقال: إذا تساوى القصدان، فأحدهما كفّارة للآخر. وقوله تعالى: «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[1] يدل على أنه لا يقبله ولا يثيبه عليه. أما إنه يعاقب عليه ففيه نظر فالأغلب عندي ـ والعلم عند الله ـ أنه لا يخلو عن إثم وعقاب.

[الرياء جلي وخفي]

اعلم أن بعض الرياء جليّ، وبعضه أخفى من دبيب النمل.

أما الجليّ: فما يبعث على العمل، حتى لولاه لم يرغب في العمل.

وأخفى منه: أن لا يستقل بالحمل عليه، ولكن يُخفف العمل ويزيد في نشاطه، كالذي يتهجد كل ليلة، وإذا كان عنده ضيف زاد نشاطه.

وأخفى منه: أن لا يزيد نشاطه، ولكن لو اطلّع غيره على تهجده قبل

(١) تقدم تخريجه، ص١٦٧.

فراغه أو بعده فرح به ووجد في نفسه هزة، وذلك يدل على أن الرياء كان مستكناً في باطن القلب استكنان النار تحت الرماد حتى تَـرَشَّحُ منه المَسَرَّةُ عند الاطلاع، وقد كان غافلاً عنه قبله.

وأخفى منه: أن لا يُسرّ بالاطلاع: لكن يتوقع أن يُبْدَأ بالسلام ويُوقَّر، ويتعجب ممن يسيء إليه ولا يسامحه في المعاملة ولا يحترمه، وذلك يدل على أنه يمنّ على الناس بعمله، فكأنه يتوقع احترامهم وتوقيرهم بعبادته مع إخفائه عنهم. وأمثال هذه الخفايا لا يخلو عنها إلا الصدّيقون، وجميع ذلك إثم، ويخاف منه إحباط العمل. نعم، لا بأس أن يفرح باطلاع غيره عليه إذا كان فرحه بالله تعالى من حيث أظهر منه الجميل، وستر منه القبيح، مع أن قصد سترهما جميعاً، فيفرح بلطف صنع الله تعالى، وكذلك يفرح لأنه يبشره بأنه حيث أحسن صنعه به في الدنيا، فكذلك يصنع به في الآخرة، أو يفرح ليقتدي به من يراه أو يطيع الله بحمده له عليه، وعلامة هذا أن يفرح أيضاً، إذا اطلع على غيره ممن يرتجى قدوته.

ومن أجل خفاء أبواب الرياء وشدة استيلائه على الباطن احترز أولو الحزم فأخفوا عبادتهم، وجاهدوا أنفسهم. وقد قال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إن الله عزَّ وجلّ يقول للقراء[1] يوم القيامة: «ألم يكن يرخّص عليكم في السعر، أو لم تكونوا تُبدؤون بالسلام، ألم تكن تقضى لكم الحوائج؟ لا أجر لكم فقد استوفيتم أجوركم»[2]. فاجتهد إن أردت الخلاص أن يكون الناس عندك كالبهائم والصبيان، فلا تفرق في عبادتك بين وجودهم وعدمهم، وعلمهم بها أو غفلتهم عنها، وتقنع بعلم الله تعالى وحده، وتطلب الأجر منه، فإنه لا يقبل إلا الخالص كي لا تحرم من فائدته في أحوج أوقاتك إليه.

---

(١) للعلماء، أو طلبة العلم.

(٢) لم يخرجه العراقي؛ قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين: روى البيهقي من حديث أبي هريرة: «يقول الله تعالى لعبده يوم القيامة: يا ابن آدم ألم أحملك على الخيل والإبل، وأزوجك النساء، وأجعلك ترفع وترأس؟ فيقول: بلى أي ربِّ، فيقول: أين شكر ذلك؟»: ١٠/ ١١٥.

[هل يمكن الانفكاك عن الرياء الخفي؟]

لعلك تقول ما أقدر على الانفكاك عن الرياءِ الخفيّ كما وصفتَه، وإن قدرت على الرياء الجلي، فهل تنعقد عبادتي مع ذلك؟

فاعلم أن واردَ الرياء لا يخلو إما أن يرد مع أول العمل، أو في دَوامه، أو بعد الفراغ منه.

أما ما يقارنُ الابتداءَ فيبطلهُ ويمنع انعقاده إن صار باعثاً مؤثراً في الحمل على العمل، بل أول العقد يجب أن يكون خالصاً، وإنما يبطل بالرياء الباعث على أصل العمل. وأما إذا لم يحمل إلا على المبادرة في أول الوقت مثلاً، فأظنّ ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن أصل الصلاة يصح، وإنما تفوته فضيلة المبادرة، ويعصي بقصد المراءاة به، ولكن يسقط الفرض عنه.

وأما ما يَردُ في الصلاة ـ إن أبطل باعثَ الصلاة، فتبطل الصلاة، مثاله: أن يحضر في أثناء الصلاة أوطاره، أو يتذكر نسيان شيء ولو خلا لقطع الصلاة، لكنه أتّم حياء من الناس. فهذا لا يسقط الفرض عنه، لأن النية قد انقطعت وانقطع باعث العبادة، وأما إذا لم تنقطع نيته، لكن صار مغلوباً مغموراً كما لو حضر قوم فغلب قلبَه الفرحُ باطلاعهم، وانغمر باعث العبادة، فغالب الظن أنه إن انقضى ركن ولم يعاوده الباعث الأصلي فسدت صلاته، لأنّا نستصحب نية البداية بشرط أن لا يطرأ ما لو قارن ابتداءها لمنع وإن لم ينغمر باعث العبادة، ولكن حصل مجرد سرور ولم يؤثر في العمل، بل في تحسين الصلاة فقط، فغالب الظن أن الصلاة لا تفسد ويتأدّى الفرض.

وأما ما يطرأ بعد الصلاة من ذكر وسرور ومراءاة فلا ينعطف على ما مضى، ولكن يعصي به ويأثم، ويكون عقابه بقدر قصده وإظهاره، ومهما ظهرت له داعية ذكر العبادة، إما بالتصريح، وإما بالتعريض، فذلك يدل على أن الرياء كان خفياً في باطنه.

[علاج الرياء]

إذا عَرَفت حقيقةَ الريـاء، وكثرةَ مداخله، فعليك بالتشـمرّ في معالجته، وعلاجه في دفع الأسباب الباعثة عليه وهي ثلاث: حب المدح، وخوف الذم، والطمع.

أما حب المدح: فكمن يهجم على صف القتال ليقال إنه شجاع، أو يُظهر العبادات ليقال إنه ورع. وعلاجه ما تقدم في علاج حبّ الجاه، هو أن تعلم أنه كمالٌ وهميٌ لا حقيقة له، وعلاجه في الرياء خاصة، أن يقرر على نفسه ما فيه من الضرر، فإنَّ العسل ـ وإن كان لذيذاً ـ فإذا علم أن فيه سماً سهل تركه. فليقرّر على نفسه أنه يقال له في يوم فقره بسبب ريائه: يا فاجر يا غاوي! استهزأت بالله عزَّ وجلّ وراقبتَ العباد وتحببت إليهم، واشتريت حمدَهم بذم الله تعالى، وطلبت رضاءهم بسخطه؟!! أمَا كان أحد أهون عليك من الله تعالى؟ فلو لم يكن إلا هذا الخزي والخجلة، لكان كافياً في المنع عنه. كيف وقد انضم إليه العقوبة وإحباط العبادة؟! وأنه ربما يترجح به كفة السيئات بعد أن قارنت كفة الحسنات، فيكون سبب هلاكه! وليقرر على نفسه أنَّ رضى الناس غاية لا تدرك، ومن طلب رضى الناس بسخط الله تعالى أسخطهم الله عليه. فكيف يترك رضى الله بما لا يطمع في حصوله.

وأما الباعث الثاني، وهو الخوف من ذمهم: فيقرر على نفسه أن ذمهم لن يضرَّه إن كان محموداً عند الله عزَّ وجلّ، ولم يتعرض لذم الله ومقته خوفاً من ذم الخلق. ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنـه من قصد الريـاء لمقتوه، ويأبى الله إلا أن يكشف سره حتى يُعرف نفاقه فيمقته الناس أيضاً بعد أن يمقته الله عزَّ وجلّ. ولو أخلص وأعرض بقلبه عنهم وجردَ نظره إلى الله تعالى لكشف لهم إخلاصه له وأحبوه.

وأما باعث الطمع: فيدفعه بأن يعلمَ أن ذلك أمر موهوم، وفوات رضى الله تعالى ناجز، ويعلم أن الله تعالى هو المسخِّر للقلوب، وأن من طمع في الخلق لم يخل عن الذل والمهانة والمنّة. ومن أعرض عن الطمع في الخلق كفاه الله تعالى وسخَّر له القلوب. فإذا أحضر في قلبه نعيم الآخرة

والدرجات الرفيعة، وعلم أن ذلك يفوت بالرياء أعرض قلبُه عن الخلق، واجتمع همه، وفاضت عليه أنوار الإخلاص، وأمده الله سبحانه بمعونته وتوفيقه.

[هل يضر هجوم وارد الرياء؟]

لعلك تقول إني قرّرت هذا كله في نفسي، ونفر عن الرياء قلبي، ولكن ربما هجم علَي واردُ الرياء بغتةً في بعض العبادات عند اطِّلاع الخلق فما العلاج عند هجومه؟

فاعلم أن أصل هذا العلاج، أن تخفيَ عبادتك كما تخفي فواحشك، ففيه السلامة. رُوي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذمَّ الدنيا وأهلها فقال له: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه، لا تجالسنا بعد هذا.

وإخفاء العبادة، إنما يشق في البداية، فإذا صار عادة ألف الطبعُ لذةَ المناجاة في الخلوة. ومهما هجم وارد الرياء فعلاجه أن تجدّد على قلبك ما رسخ فيه من قبل من المعرفة بالتعرض لمقت الله عزَّ وجلّ، مع عجز الناس عن منفعتك ومضرّتك، حتى تنبعث منه كراهية لداعية الرياء.

ثم الشهوة تدعو إلى إجابة الرياء بتحسين العمل والفرح به، والكراهية تدعو إلى رده والإعراض عنه، وتكون اليد للأقوى فإن قويت الكراهية حتى منعتك من الركون إليه، واستصحبت حالتك التي كنت عليها، فلم تزد ولم تنقص، ولم تتكلف إظهار الفعل وإشهاره، فقد اندفع عنك الإثم ولم تكلف أكثر من ذلك. وأما دفع الخواطر ودفع الطبع عن الميل إلى قبول الناس فلا يدخل تحت التكليف، وإنما منتهى التكليف الكراهية والإباء عن إجابة الداعية.

[يجوز إظهار الطاعات لأجل الاقتداء]

يجوز إظهار الطاعات لأجل اقتداء الناس وترغيبهم إذا صحت النية،

ولم يكن معه شهوة خفية، وعلامته أن يقدّر أن الناس لو اقْتَدوا بأحد أقرانه وكُفِيَ مؤونة الترغيب، وأخبر بأن أجره في الإسرار كأجره في الإظهار فلا يرغب في الإظهار. فإن كان ميله إلى أن يكون هو المقتدى به أكثر، ففيه داعية الرياء، لأنه إن كان يطلب سعادة الناس وخلاصهم، فقد حصل ذلك بغيره ولم يفته إلا إظهار نفسه.

وكذلك يجوز كتمان المعاصي والذنوب، ولكن بشرط أن لا يكون غرضه أن يُعْتَقَد فيه الورع، بل لا يعتقد فيه الفسق، ولا بأس بفرحه باستتار معاصيه، وحزنه بانكشافها، إما فَرحاً بستر الله عليه، وإما فرحاً بموافقة أمر الله تعالى، فإنه تعالى، يحب كتمان المعاصي، وينهى عن المجاهرة بها. وإما لأنه يكره أن يُذَمَّ فيتألم به، إذ التألم بذم الناس ليس بحرام، بل يوجبه الطبع. وإنما الحرام الفرح بمدح الناس إياه بالعبادة، فإن ذلك كأجرٍ يأخذه على العبادة[1]. وإما لأنه يستحي من ظهورها، والحياء غير الرياء، ولكن قد يمتزج به.

وأما ترك الطاعة خوفاً من الرياء فلا وجه له. قال الفضيل: الرياء ترك العمل خوفاً من الرياء. أما العمل لأجل الناس فهو شِرْك، بل ينبغي أن يعملَ ويخلص، إلا إذا كان العمل فيما يتعلق بالخلق كالقضاء والإمامة والوعظ. فإذا علم من نفسه أنه بعد الخوض فيه لا يملك نفسه، بل يميل إلى دواعي الهوى، فيجب عليه الإعراض والهرب، كذلك فعل جماعة من السلف.

وأما الصلاة والصدقة فلا يتركهما إلا إذا لم تحضره أصلاً نية العبادة، بل لو تجرَّد نية الرياء فلا يصح عمله فليتركه[2]. أما من اعتاد فعله، فحضر جماعة فخاف على نفسه من الرياء، فلا ينبغي أن يتركه بل ينبغي أن يستمر على عبادته ويجتهد في دفع باعث الرياء وأسبابه.

---

(١) في المخطوطة: (زيادة): وإما أنه يخاف أن يقصد بسوءٍ إذا عرفت معصيته.

(٢) وفي نسخة أخرى: بل لو لم يجرد إلا نية الرياء فلا يصح عمله فليتركه.

خاتمة في مجامع الأخلاق ومواقع الغرور فيها

اعلم أن الأخلاق المذمومة كثيرة، ولكن ترجع أصولها إلى ما ذكرناه، ولا يكفيك تزكية النفس عن بعضها حتى تتزكى عن جميعها، ولو تركت واحداً منها غالباً عليك، فذلك يدعوك إلى البقية، لأن بعض هذه يرتبط بالبعض، ويتقاضى بعض الأخلاق الذميمة بعضاً، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، والسلامة المطلقة، لا تُنال بدفع بعض الأمراض، بل إنما تنال بالصحة المطلقة، كما أنّ الحُسْن لا يحصل بحسن بعض الأعضاء ما لم يحسن جميع الأعضاء والأطراف، والنجاة في حسن الخلق. قال النبي ﷺ: «أثقلُ ما يُوضَعُ في الميزان خلقٌ حَسَن»[1]، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لأتممَ مكارمَ الأخلاق»[2]. وقيل: له ما الدين؟ قال عليه الصلاة والسلام: «الخُلق الحسن»[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: «حُسن الخُلُقِ خُلُقُ الله الأعظم»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضلُ المؤمنين إيماناً أحسنُهُم خُلُقاً»[5].

وقد كثرت الأقاويل في حقيقته وبيان حدّه، والأكثرون تعرضوا لبعض ثمراته، ولم يحيطوا بجميع تفصيله، والذي يطلعك على حقيقته، أن تعلم أن الخَلْقَ والخُلُقَ عبارتان، فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، وبالخُلُق الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركَّب من جسد يدرك بالبصر، ومن روح ونفس يدرك بالبصيرة[6] لا بالبصر، ولكل واحد منهما هيئة، إما قبيحة وإما حسنة.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه؛ ومالك في الموطأ والطبراني.

(٣) جزء من حديث أخرجه محمد بن نصر مرسلاً.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط عن عمار ين ياسر بسند ضعيف.

(٥) ورد بلفظ: «أكمل المؤمنين...» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي؛ ورواه ابن ماجه والحاكم نحو لفظ المؤلف.

(٦) قوة للقلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس. (التعريفات)

والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً، ولذلك أضافه الله عزّ وجلّ إلى نفسه، وأضاف البدن إلى الطين. فقال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة ص: ٧١ ـ ٧٢]، ووصف الروح بأنه أمر رباني فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وأعني بالرّوح والنفس ـ ههنا ـ معنى واحداً، وهو الجوهر العارف المدرك من الإنسان بإلهام الله تعالى، كما قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

وكما أن للحُسن الظاهر أركاناً، كالعين والأنف والفم والخد، ولا يوصف الظاهر بالحسن ما لم يحسن جميعها ـ فكذلك الصورة الباطنة لها أركان لا بدّ من حُسن جميعها حتى يحسن الخُلق وهي أربعة معان: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث، فإذا استوت هذه الأركان الأربعة، واعتدلت، وتناسقت، حصل حسن الخُلُق.

أما قوّة العلم: فاعتدالها وحسنها أن تصيرَ بحيث يُدرَكُ بها الفرق بين الصدقِ والكَذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأعمال. فإذا تحصّلت هذه القوة كذلك، حصلت منها ثمرة الحكمة وهي رأس الفضائل. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأما قوة الغضب: فاعتدالها أن يحصل انقباضها وانبساطها على موجب إشارة الحكمة والشرع، وكذلك قوة الشهوة.

وأما قوة العدل: فهي في ضبط قوة الغضب، وقوة الشهوة، تحت إشارة الدين والعقل، فالعقل منزلته منزلة الناصح، وقوة العدل هي القدرة، ومنزلتها منزلة المنفّذ الممضي لإشارة العقل، والغضب والشهوة، وهما اللذان تنفّذ بهما الإشارة، وهما كالكلب والفرس للصياد. فإن حَسُنَ بعض هذه دون بعض، كان كما لو حسن بعض أعضاء الوجه، فلا يطلق اسم

الحسن به إلا إذا حسن الجميع واعتدل، فإذا حسنت واعتدلت انشعب منه جميع الأخلاق.

وأما قوة الغضب: فيعبر عن اعتدالها بالشجاعة، والله تعالى يحب الشجاعة. وإن مالت إلى طرف الزيادة سميت تَهوّراً، وإن مالت إلى النقصان تسمّى جبناً. ويتشعب من اعتدالها، خلق الكرم، والنجدة، والشهامة، والحِلْم، والثبات وكظم الغيظ، والوقار، والتُّؤَدَة.

وأما إفراطها فيحصل منه خلق التهور والصّلَف، والبذخ، والاستشاطة، والكِبْر، والعُجْب.

وأما تفريطها فيحصل منه الجبن والمهانة والذلة والخساسة، وعدم الغيرة، وضعف الحمية على الأهل وصِغَرُ النفس.

وأما الشهوة: فيعبر عن اعتدالها بالعفة، وعن إفراطها بالشَّره، وعن تفريطها وضعفها بالخمود، فيصدر من العفةِ السخاءُ والحياءُ والصبرُ والسماحة، والقناعة، والورع، والمساعدة، والظرف، وقلة الطمع، ويصدر عن إفراطها الحرص والشره والوقاحة والتبذير والتقتير والرياء، والهُتَكة[1]، والمجانة[2]، والملق[3]، والحسد، والشماتة، والتذلل للأغنياء، واستحقار الفقراء، وغير ذلك.

وأما قوة العقل: فيصدر من اعتدالها حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفس. وأما إفراطها فيحصل منه الجربزة[4] والدهاء والمكر والخداع. ويحصل من تفريطها وضعفها البله والحمق والغمارة[5] والبلادة والانخداع.

(١) الهتكة: الفضيحة.
(٢) قلة الحياء: أو خلط الجد بالهزل.
(٣) الدعاء والتضرع، والمقصود هنا سؤال الخلق بذل.
(٤) الجربزة: الخبث.
(٥) الغَمْرُ: جمع غمور وأغمار: رجل لم يجرّب الأمور.

فهذه هي روابط الأخلاق. وإنما معنى حسن الخلق في الجميع وسط بين الإفراط والتفريط، فخير الأمور أوسطها. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، ولذلك قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. ومهما مال واحد من هذه الجملة إلى الإفراط والتفريط فبَعْدُ لم يكمل حسن الخلق.

[طريق إصلاح الأخلاق المجاهدة والرياضة]

طريق إصلاح هذه الأخلاق كلها المجاهدة والرياضة.

ومعنى المجاهدة: أن يكلّف الصفة المفرطة الغالبة خلاف مقتضاها فتعمل بنقيض مُوجبها.

فإن غلبَ البخلُ فلا تزال تتكلف البذل بالجهد، وتداوم عليه مرة بعد أخرى، حتى يسهلَ عليكَ البذلُ في محله.

فإن غلب التبذير فلا تزال تتكلف الإمساك حتى يصيرَ عادةً، فيسهل عليك الإمساك في محله. وكذلك في خُلُق الكِبْر وسائر الأخلاق، وقد ذكرناه في كتاب رياضة النفوس على التفصيل(في الإحياء).

وينبغي أن تعلمَ أن من يبذلُ تكلّفاً فليس بسخيّ، وأن من يتواضع تكلفاً فهو ثقيل على نفسه، وهو عاطل عن خلق التواضع، بل **الخُلُق: عبارة عن هيئة للنفس يصدر عنها الفعل بسهولة من غير رويّة وتكلف**. لكن التكلف هو طريق تحصيل الخلق، فإنه لا يزال يتكلف أوّلاً حتى يصير ذلك طبعاً وعادة.

فيفهم من هذا أن البخيلَ قد يَبذل، وأن السخيّ قد يُمسك. فلا تنظر إلى الفعل بل إلى الهيئة الراسخة التي تصدر منها الأفعال بيُسْرٍ من غير تكلف.

واعلم أن تفاوت الناس في الحسن الباطن كتفاوتهم في الحسن الظاهر، ولن يسلم الحسنُ المطلق إلا على الندور، وإنما سلم ذلك لرسول الله ﷺ حتى أثنى الله سبحانه عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وليست النجاة موقوفة على الكمال البالغ، لكن على أن يكون الميل إلى الحسن أكثر. فإن القبيح المطلق في الظاهر ممقوت، والحسن المطلق معشوق، وما بينهما درجات. فالقريب من الحسن المطلق أسعد في الدنيا من القريب إلى القبيح المطلق، وكذلك تتفاوت سعادة الآخرة بحسب تفاوت حسن الصورة الباطنة.

[قد تظن بنفسك حسن الخلق!!]

اعلم أنك قد تظن بنفسك حسن الخلق، وأنت عاطل عنه، فإياك أن تغتر، وينبغي أن تُحكِّم فيه غيرك، فتسأل عنه صديقاً بصيراً لا يُداهنك.

وبالجملة إذا نسبك غيرُك إلى سوءِ الخُلُق، أوشك أن تكون كذلك. لأنَّ أكثر الأخلاق يتعلّق بالغير، فينبغي أن تظهر لهم.

ومن مواقع الغرور فيه مثلاً أن تغضب فتظنَّ أنك تغضبُ لله تعالى، وتظهر العبادة، وتظن أنك تظهر للاقتداء، أو تكُفَّ عن الأكل أو طلب الدنيا أو تكظم الغيظ. وإنما يهون عليك ذلك أن تُعرَف به، فيكون الرياء الباعث على الجميع. وكذلك يكثر مواقع الغرور فيه على ما ذكرناه في كتاب الغرور. فإن هذا الكتاب لا يحتمل استقصاءه.

تفقد الأخلاق المذمومة في قلبك

ينبغي أن تتفقد هذه الأخلاق في قلبك، وتبدأ بالأهم فالأهم، فتُقْبِل على أغلب هذه الصفات، فتكسرُها على التدريج.

وأظن أن الأغلب عليك حبّ الدنيا وسائر المعاصي والأخلاق

المذمومة تتبعها. ولا يمكنك الخلاص من حب الدنيا إلا بأن تطلب خلوة خالية، وتتفكر في سبب إقبالك على الدنيا، وإعراضك عن الآخرة، فلا تجد له سبباً إلا محض الجهل والغفلة، فإنَّ أقصى عمرك في الدنيا مئة سنة. فهب أن مملكة وجه الأرض تسلم لك من المشرق إلى المغرب في مئة سنة، أليس يفوتك بها المملكة في مدة لا آخر لها وهي مملكة الآخرة؟ فإن كان لا يدخلُ في خيالك طول الأبد، فقدِّر الدنيا كلّها مملوءة ذُرَةً، فقدِّر طائراً يأخذ في كلّ ألف ألف سنة حبة واحدة فتفنى الذُّرةُ ولم ينقص من الأبد شيء، لأن الباقي أيضاً لا نهاية له كما كان قبل ذلك.

وأنت ترى نفسك ترضى بتعب الأسفار، إمّا في تجارة أو طلب رئاسة. وهذا التعب الناجز لأجل شيء موهوم ربما يدركك الموت قبله، وربما لا يصفو لك إن ظفرت به، وإنما ترضى بذلك لأنك تستحقر التعب سنة مثلاً بالإضافة إلى بقية العمر، وجملة عمرك بالإضافة إلى الأبد أقلّ من سنة بالإضافة إلى عمرك، بل لا إضافة بينهما، فتفكر فيه لينكشف لك جهلك على القرب.

ولعلك تقول إنما أفعل ذلك على توقع العفو، فإن الله تعالى كريم رحيم. فأقول: ولم لا تترك الحراثة والتجارة وطلب المال على توقع العثور على كنز في خراب، فإن الله كريم لا ينقص من ملكه شيء لو عرّفك في منامك كنزاً من الكنوز حتى تأخذه؟

فإن قلت: ذلك نادر وإن كان داخلاً في قدرة الله تعالى، فاعلم، أن توقع العفو مع خراب الأعمال والأخلاق كتوقع كنز في خراب بل أبعد منه وأندر. وقد نبهك الله تعالى عليه، وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، وقال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة صَ: ٢٨]. ورغّبك عن طلب المال[1] فقال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

(١) في المخطوطة: وأما رغبتك في طلب الدنيا فقال الله تعالى. . . . .

فما بالك تكذّب بكرمه في الدنيا، ولا تتكل عليه، ثم تخدع نفسك بالكرم في الآخرة، وأنت تعلم أن رب الدنيا والآخرة واحد؟

[لو كنتَ من أرباب البصائر!!]

لعلك تقول عواقب أمور الدنيا قد انكشف لي بالعيان، واطمأن قلبي إليها، وأما أمر الآخرة فلم أشاهده، ولست أجد التصديق الحقيقي في قلبي، فلذلك فَتَرَتْ رغبتي في ترك الدنيا نقداً بما هو موعود نَسيئة، ولست أثق به.

فأقول: لو كنتَ من أرباب البصائر لا نكشف لك أمر الآخرة صريحاً كما انكشف أمر الدنيا. وإذا لم تكن من أهله فتفكر في أقاويل أرباب البصائر، فإنَّ الناس في أمر الآخرة أربعة أصناف:

١ ـ صنف أثبتوا الجنَّةَ والنار كما ورد به القرآن، وقد سمعوا أنواع نعيمها وأنكال جحيمها.

٢ ـ وصنف ثانٍ لم يثبتوا اللّذات والآلام الحسية بل أثبتوهما على سبيل التخييل، كما في المنام، حتى يكون كل واحد في جنة أو نار يراها وحده، وزعموا أن تأثير ذلك فيه كتأثير الحقيقة، لأن تألم النائم كتألم اليقظان، وإنما يخلص عنه بالتنبه، وذلك في الآخرة دائم لا انقطاع له[1].

٣ ـ وصنف ثالث أثبتوا آلاماً عقلية ولذات عقلية، وزعموا أن ذلك أعظم من الحسية، ومثلوا ذلك باستشعار لذة الملك، واستشعار زوالها. فإن زوال الملك يورث آلاماً كثيرة بدنية على ما يظفر به عدوه ويأخذ مملكته ويستسخره مع أن ظفر العدوّ لا يؤلم البدن.

وهؤلاء هم أصناف النظّار، أعني الأصناف الثلاثة، وفيهم الأنبياء

(١) عدم إثبات اللذائذ الحسية والآلام الحسية ضلال وكفر، لأنه تكذيب لما جاء عن الله تعالى في كتبه التي أنزلها على رسله وتكذيب للرسل عليهم الصلاة والسلام.

والأولياء[1] والحكماء، وكلّهم اتفقوا على إثبات سعادة مؤبدة وشقاوة مؤبدة. فإن السعادة لا تنال إلا بترك الدنيا والإقبال على الله عزّ وجلّ، ولو مرضت ولم تكن من أهل البصيرة في طب، ورأيت أفاضل الأطباء قد اتفقوا على شيء لم تتوقف في اتّباعهم، لئلا تهلك في المرض.

٤ ـ وصنف رابع ليسوا من النظّار في الأمور الإلـٰهية، بل من الأطباء والمنجمين اقتصر نظرهم على الطبائع الأربع ومزاجها، ورأوا قِوام الروح موقوفاً عليها ولم يتفطنوا لحقيقة الرّوح الإلـٰهيّ الحقيقي الذي هو العارف بالله تعالى، بل لم يدركوا إلا الروح الجسماني الذي هو بخارٌ لطيفٌ أنضجته حرارة القلب، ينتشر في العروق الضوارب إلى جميع البدن فيقوم به الحس والحركة، وهي الروح التي توجد للبهائم أيضاً.

فأما الروح الخاص الإنساني المنسوب إلى الله سبحانه، حيث قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة صٓ: ٧٢]. فلم يتفطنوا لها فظنوا أن الموت عدم، وأنه يرجع إلى فساد المزاج، وأنت في حق هؤلاء بين أمرين: إما أن تجوّز غَلَطهم، أو تعلم قطعاً صحة قولهم، فإن جَوَّزت خطأهم لزمك الإعراض عن الدنيا بمجرد الاحتمال، فإنك لو كنت صادق الجوع، وظفرت بطعام، وهممت بأكله، فأخبرك صبي أن فيه سماً، وأن حية ولغت فيه. قاسيت الجوع وتركت الأكل، لأنك تقول: إن كان كاذباً ليس تفوتني إلاّ لذة الأكل، وإن كان صادقاً ففيه الهلاك، وبمثل هذا الاحتمال لا يمكن الهجوم عليه. فليت شعري مع احتمال الخلود في النار كيف يستجرئ العاقل الهجوم عليه، فكيف لا يكون كاليقين التام في الحذر منه، حتى تنبه الشاعر عليه مع ركاكة عقله فقال:

زَعَـمَ المُنَجِّـمُ والطَّبِيـبُ كِـلاهُمَـا ... لا تُحْشَـرُ الأمْـوَاتُ قلـتُ إليْكُمَـا

(١) الأنبياء والأولياء صنف واحد هو الصنف الأول، أما الصنف الثاني والثالث فهم الفلاسفة الذين سماهم الإمام (الحكماء) وهم بإنكارهم لما جاء في كتاب الله وتواتر من أقوال رسوله ﷺ ليسوا بحكماء.

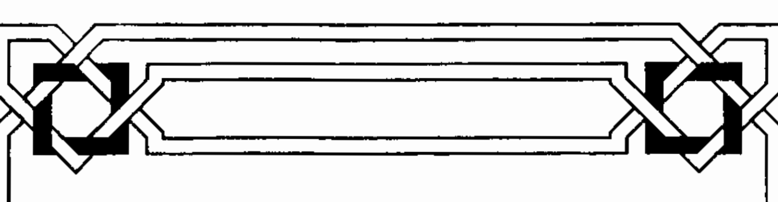
إنْ صَحَّ قَوْلُكُما فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ ... أو صَحَّ قَوْلي فالخَسَارُ عَلَيْكُما

فإن قُلتَ[1]: إني أعلم ضرورةً صدق هؤلاء، فإن الموت عدم وأنه لا عقاب ولا ثواب، فإن الأنبياء والأولياء مغرورون أو ملبّسون، وإنما الذي انكشفت له حقيقة الحق هو هذا الطبيب الجاهل، وزعمتَ أني أعلم ذلك كما أعلم أن الاثنين أكثر من الواحد حتى لا يخالجني فيه ريب، فيدل هذا على فساد المزاج وركاكة العقل والبعد عن قبول العلاج. ولكن مع هذا يقال لك: إن كنت تطلب الراحةَ في الدنيا فقد يتقاضاك عقلك أيضاً مجاهدة الشهوات وكسرها، فإن الراحة في الحرية، والخلاص من أسر الشهوات لا في اتّباعها، فإنها إذا سلطت على النفس فهي آلام ناجزة تحمل النفس على احتمال كل ذلّ ومشقة، وما المستريح في الدنيا إلا تاركها والزاهد فيها، وأما طالبها فلا يزال منها في عناء.

فالمعطل[2] أيضاً ـ إن عقل قليلاً ـ ترك الدنيا لكثرة عنائها، وسرعة فنائها، وخسة شركائها. فإن لم تكن في أمر الآخرة على تخمين، ولا من مشاهدة آفات الدنيا على يقين، فما أنت إلا من الحمقى المغرورين، ولتَعلمُنَّ نبأه بعد حين، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

* * *

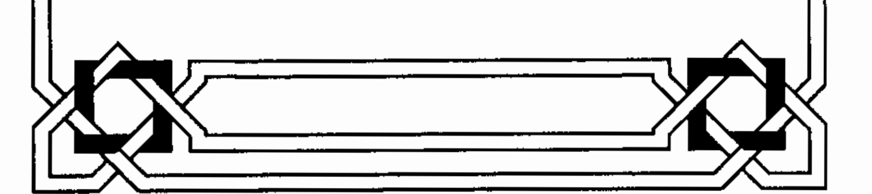
(١) يفترض الإمام أمامه منكراً للآخرة ومع ذلك يحاول إقناعه بالزهد.
(٢) المعطل: يقصد به الغزالي هنا الملحد.



القسم الرابع

في الأخلاق المحمودة

- الأصل الأول : في التوبة.
- الأصل الثاني : في الخوف.
- الأصل الثالث : في الزهد.
- الأصل الرابع : في الصبر.
- الأصل الخامس : في الشكر.
- الأصل السادس : في الإخلاص والصدق.
- الأصل السابع : في التوكل.
- الأصل الثامن : في المحبة.
- الأصل التاسع : في الرضاء بالقضاء.
- الأصل العاشر : في ذكر الموت وحقيقته.



القسم الرابع
في الأخلاق المحمودة

وهي أيضاً عشرة أصول:

الأصل الأول: في التوبة

فإنها مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريدين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]، وقال النبي عليه السلام: «التائبُ حبيبُ الله، والتائبُ من الذنبِ كمن لا ذنبَ له»[(١)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لَلَّهُ أفرحُ بتوبةِ عبدِه المؤمن من رجلٍ نزلَ في أرضٍ فلاةٍ دَوِيَّةٍ[(٢)] مُهلكةٍ، معه راحلتُهُ، عليها طعامُه وشرابُه، فوضعَ رأسه فنام نومةً، فاستيقظَ وقد ذهبت راحلتُه فانفلتَتْ، فطلبها حتى اشتد عليه الجوعُ والعطشُ أو ما شاء الله عزَّ وجلّ. قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنامُ حتى أموت، فوضعَ رأسَهُ على ساعدِهِ ليموت، فاستيقظ فإذا راحلتُه عنده، وعليها زادُه وشرابُه، فاللهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبدِه المؤمنِ من هذا براحلتِه وزادِه»[(٣)].

[حقيقة التوبة]

حقيقة التوبة: الرجوع إلى الله تعالى عن طريق البعد إلى طريق القرب، ولكن لها ركنٌ ومبدأٌ، وكمال.

---

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

(٢) كثرت أدواؤها وآفاتها.

(٣) متفق عليه، واللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أما مبدؤها فهو : الإيمان ، ومعناه سطوع نور المعرفة على القلب حتى يتضح فيه أن الذنوب سموم مهلكة ، فيشتعل منه نار الخوف والندم وينبعث من هذه النار صدق الرغبة في التلافي والحذر . أما في الحال فبترك الذنوب ، وأما في الاستقبال فبالعزم على الترك ، وأما في الماضي فبالتلافي على حسب الإمكان ، وبذلك يحصل الكمال .

[التوبة واجبة على كل أحد]

إذا عرفت حقيقة التوبة انكشف لك أنها واجبة على كل أحد ، وفي كل حال . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور : ٣١] ، فخاطب الجميع مطلقاً .

أما وجوبها فلأنَّ معناها معرفة كون الذنوب سموماً مهلكة ، والانبعاث لتركها ، وهو جزء من الإيمان ، أعني هذه المعرفة ، فكيف لا تجب؟ .

وأما وجوبها على كل واحد فهو أن الإنسان مركب من صفات بهيمية وسبُعية وشيطانية وربوبية ، حتى يصدر من البهيمية الشهوة والشره والفجور ، ومن السَبُعية الغضب والحسد والعداوة والبغضاء ، ومن الشيطانية المكر والحيلة والخداع ، ومن الربوبية الكبر والعز وحب المدح والاستيلاء .

وأصول هذه الأخلاق هذه الأربع ، قد عجنت في طينة الإنسان عجناً محكماً لا يكاد يتخلص منها ، وإنما ينجو من ظلماتها بنور الإيمان المستفاد من العقل والشرع .

فأول ما يُخلقُ في الآدمي البهيمية فيغلب عليه الشرة والشهوة في الصبا .

ثم يُخلق فيه السَّبُعية فيغلب عليه المعاداة والمنافسة .

ثم يُخلق فيه الشيطانية فيغلب عليه المكر والخداع ، إذ تدعوه السبعية والبهيمية إلى أن يستعمل كياسته في حيل قضاء الشهوة وتنفيذ الغضب .

ثم يظهر فيه بعد ذلك صفات الربوبية ، وهو الكِبْرُ والاستيلاء وطلب العلو .

ثم بعد ذلك يخلق العقل الذي يظهر فيه نور الإيمان وهو من حزب الله وجنود الملائكة . وتلك الصفات من جنود الشيطان . وجنود العقل يكمل عند الأربعين ، ويبدو أصله عند البلوغ ، وأما سائر جنود الشيطان يكون قد سبق إلى القلب قبل البلوغ ، واستولى عليه وألِفَتْه النفس ، واسترسلت في الشهوات متابعة لها ، إلى أن يرد نور العقل فيقوم القتال والتطارد بينهما في معركة القلب ، فإن ضعف جند العقل ونور الإيمان لم يقو على إزعاج جنود الشيطان فتبقى جنود الشيطان مستقرة آخراً كما سبق إلى النزول أولاً ، وقد سلِّم للشيطان مملكة القلب ، وهذا القتال ضروري في فطرة الآدمي ، إذ لا يتَّسع له خلقة الولد لما لا يتسع له خلقة الأب ، وإنما حكى لك حال آدم صلوات الله عليه لتتنبَّه به أن ذلك كان مكتوباً عليه ، وهو مكتوب على جميع أولاده في القضاء الأزلي الذي لا يقبل التبديل ، فإذا لا يستغني أحد عن التوبة .

[الإنسان لا يخلو عن ذنب]

وأما وجوبها في كل حال ، فلأن الإنسان لا يخلو في جميع أحواله عن ذنب في جوارحه أو في قلبه ، ولا يخلو عن خلق من الأخلاق الذميمة مما يجب تزكية القلب عنه ، فإنه مُبْعِدٌ عن الله والاشتغال بإماطته توبة ، لأنه رجوع عن طريق البعد إلى طريق القرب ، فإن خلا عن جميع ذلك فلا يخلو عن غفلة عن الله ، وذلك أيضاً طريق البعد . ويلزمه الرجوع عنه بالذكر ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [كهف : ٢٤] وإن كان حاضراً على الدوام ، وأنى يتصور ذلك فلا يخلو عن ملازمة مقام نازل عن

المقامات الرفيعة وراءه، وعليه أن يترقى منه إلى ما فوقه، ومهما ترقى منه استغفر عن مقامه الذي خلَّفه، لأنه تقصير بالإضافة إلى ما أدركه، وذلك لا نهاية له، فلذلك قال عليه السلام: «وإنّه ليغانُ على قلبي حتّى أستغفرَ اللهَ تعالى في اليومِ والليلةِ سبعينَ مرّةً»[1]. كل ذلك كان توبة منه، إلا أن توبة العوام عن الذّنوب الظاهرة، وتوبة الصالحين عن الأخلاق الذميمة الباطنة، وتوبة المتقين عن مواقع الريبة، وتوبة المحبين عن الغفلة المُنْسِيةِ للذكر، وتوبة العارفين عن الوقوف على مقام يُتصور أن يكون وراءه مقام. والمقامات في القرب من الله لا نهاية لها، فتوبة العارف لا نهاية لها أيضاً.

[قبول التوبة]

التوبة إذا اجتمعت شرائطها، فهي مقبولة لا محالة، ولا يخفى عليك ذلك إن فهمت معنى القبول. فمعنى القبول: أن يحصل في قلبك استعداد القبول لتجلي أنوار المعرفة في القلب، وإنما قلبك كالمرآة يحجبه عن التجلي كدورات الشهوة والرغبة فيها، ويرتفع من كل ذنب ظلمة إليه، ومن كل حسنة نور إليه، فالحسنات تصقل النفس، ولذلك قال النبي ﷺ: «أتْبع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها»[2].

ونسبة التوبة إلى القلب نسبة الصابون إلى الثوب، ولابدَّ أن يزول منه الوسخ إذا استعمل فيه على وجهه. ومن تاب فإنما يشك في قبول التوبة لأنه ليس يستيقن تمام شروطها، كما أن من شرب المسهل لا يستيقن حصول الإسهال به، لأنه لا يدري وجود تمام الشرائط في أدويتها، ولو تصور أن يعلم ذلك، لتصور أن يعلم القبول في حق الشخص المعين، ولكن هذا الشك في الأعيان لا يشككنا في أن التوبة في نفسها بطريق القبول لا محالة.

---

(١) الحديث متفق عليه، قال في التعريفات: الغَيْنُ: هو الصدأ، فإن الصدأ حجاب رقيق يزول بالتصفية ونور التجلي لبقاء الإيمان معه.

(٢) أخرجه الترمذي بزيادة أوله وآخره وقال: حسن صحيح. وأخرجه البيهقي في الشعب وسنده حسن.

[علاج التوبة]

علاج التوبة حل عقدة الإصرار، فإنه لا مانع منها سوى الإصرار. ولا حامل عليه سوى الغفلة والشهوة. وذلك مرض في القلب، وعلاجه كعلاج أمراض البدن، لكن هذا المرض أكبر من مرض الأبدان لثلاثة أسباب:

أحدها: أنه من مرض لا يعرف صاحبه أنه مريض، وهو كبَرَصٍ على وجه من لا مرآة له، فإنه لا يعالجه لأنه لا يعرفه، ولو أخبره غيره ربما لم يصدقه.

الثاني: أن عاقبة هذا المرض لم يشاهدها الإنسان ولم يجربها، فلذلك تراه يتكل على عفو الله، ويجتهد في علاج مرض البدن غاية الجهد.

الثالث: وهو الداء العضال فَقَدْ فُقِدَ الأطباء، فإن الطبيب هو العالم العامل، وقد مرض العلماء في هذه الأعصار مرضاً عسر عليهم علاج أنفسهم، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب ذلك على العلماء[1]، واضطروا إلى الكف عن تحذير الخلق من الدنيا كيلا تنكشف فضيحتهم، فافتضحوا لما اصطلحوا على الإقبال على الدنيا والتجاذب لها والتكالب عليها، فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء، واشتغل الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذا لم يُصلحوا لم يُفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا، بل صار كل واحد كأنه صخرة في فم الوادي، لا هي تشرب ولا تترك الماء ليشربه غيرها.

وجملة القول: في علاجه أن تنظر في سبب الإصرار، وهو يرجع إلى خمسة أبواب:

أولها: أن العقاب الموعود ليس بنقد، والطبع يستهين بما لا يوجد

---

(١) ولذلك قال الإمام الغزالي في الإحياء:

يـا معشـر القـراءِ يـا ملـحَ البلـدْ ... مـا يصلـحُ الملـحَ إذا الملـح فسـدْ

محققاً في الحال. وعلاجه أن تتفكر لتعلم أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شِراك نعله، فما يدريه لعله في آخر أيامه، أو في آخر سنة من عمره، ثم يتفكر أنه كيف يتعب في الأسفار فيركب الأخطار خوفاً من الفقر في الاستقبال.

الثاني: أن اللذات والشهوات أخذت بمخنقه في الحال، فليس يقدر على قلعها، وعلاجه أن يتفكر أنه لو ذكر له طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت، وهو ألذ الأشياء عنده، كيف يتركه؛ فليعلم أن الله تعالى ورسوله ﷺ أصدق من الطبيب النصراني، والخلود في النار أشد من الموت بالمرض، وليقرر على نفسه أنه إذا كان يشق عليه ترك اللذات أياماً قلائل، فكيف لا يشق عليه ملابسة النار والحرمان عن الفردوس ونعيمه أبد الدهر؟.

الثالث: أنه يسوِّف بالتوبة يوماً فيوماً، وعلاجه أن يتفكر ويعلم أن بناء خطر السعادة والشقاوة على ما ليس إليه سبيل جهل، فمن أين يعلم أنه يبقى إلى أن يتوب، وإنَّ أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأنهم سوَّفوا حتى فاجأهم مرض ساقهم إلى الموت، كيف، وإنما يسوِّف لأنه يعجز عن قمع الشهوات في الحال، فإن كان ينتظر يوماً يسهل فيه قمع الشهوات، فهذا يوم لم يخلق أصلاً، بل مثاله مثال امرئ يريد أن يقلع شجرة عجز عنها لضعفه وقوة رسوخ الشجرة، فيؤخر إلى السنة القابلة وهو يعلم أن الشجرة تزداد كل يوم رسوخاً، وقوته تزداد كل يوم قصوراً ونقصاناً، وذلك غاية الجهل.

الرابع: أن يَعِدَ نفسه بالكرم والعفو، وذلك غاية الحمق [أوردها الشيطان في معرض الدين][1]، قال النبي ﷺ: «الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى»[2].

---

(١) في المخطوطة: أبرزه الشيطان في معرض الدين، قال رسول الله...».

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في المستدرك بلفظ: «العاجز». قال الترمذي: حديث حسن.

الخامس: أن يكون ـ والعياذ بالله ـ شاكاً في أمر الآخرة، وقد ذكرنا علاجه في خاتمة الأخلاق الذميمة.

[التوبة من الذنوب كلها واجبة]

التوبة من الذنوب كلها مهمة واجبة، وعن الكبائر أهم، والإصرار على الصغيرة أيضاً كبيرة، فلا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع رجوع واستغفار.

وتواتر الصغائر عظيم التأثير في تسويد القلب، وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر، فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة، مع لين الماء وصلابة الحجر.

وتعظم الصغيرة بأسباب:

أحدها: أن يستصغرها العبد ويستهين بها، فلا يغتم بسببها، قال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: «ليت كل شيء عملته مثل هذا».

الثاني: السرور بها والتبجح بسببها واعتقاد التمكن منها نعمة، حتى إن المذنب ليفخر فيقول: ما رأيتني كيف شتمته، وكيف مزقت عرضه، وكيف خدعته في المعاملة؟ وذلك عظيم التأثير في تسويد القلب.

الثالث: أن يتهاون بستر الله عليه، ويظن أن ذلك لكرامته عند الله تعالى، ولا يدري أنه ممقوت، وقد أُمهل ليزداد إثماً فيكون في الدرك الأسفل من النار.

الرابع: أن يجاهر بالذنب ويظهره، أو يذكره بعد فعله، وفي الخبر: «كل الناس معافى إلا المجاهرين»[1].

الخامس: أن تصدر الصغيرة عن عالم يُقتدى به، فذلك عظيم،

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «كل أمتي..».

لأنه يبقى بعد موته. فطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه. «ومن سنَّ سُنَّةً سيئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ من عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»[١]. ورُويَ أن بعض علماء بني إسرائيل تاب عن ذنوبه وبدعته، فأوحى الله إلى نبي زمانه أن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار.

وعلى الجملة، فلا باعث على التوبة إلا الخوف الصادر عن البصيرة والمعرفة، فلنذكر فضيلة الخوف.

* * *

(١) هذا جزء من حديث شريف رواه مسلم.

الأصل الثاني: في الخوف

وقد جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وناهيك بذلك فضلاً، فقال تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال الله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨].

وقال ﷺ: «رأسُ الحكمة مخافة الله»[١]، وقال عليه السلام: «من خافَ الله تعالى خافَهُ كل شيء، ومن خافَ غيرَ الله تعالى خوَّفه الله منْ كلِّ شيء»[٢]، وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمعُ له أمنين، فإذا أمِنني في الدنيا أخفتُه يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة»[٣].

[حقيقة الخوف من الله تعالى]

اعلم أنَّ حقيقة الخوف هو: تألّم القلب واحتراقُه بسبب توقع مكروه في الاستقبال. وقد يكونُ ذلك الخوف من جريان ذنوب، وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي تُوجِبُ الخوفَ لا محالة، وهذا أكمل وأتم، لأن مَن عرف الله خافه بالضرورة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «خَفْني كما تخافُ السبع الضَّاري». ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «أنا أخوفُكم لله تعالى»[٤].

(١) رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه.

(٢) رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب بسند ضعيف جداً.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب وابن المبارك في الزهد.

(٤) أخرجه البخاري عن أنس بلفظ: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له» وللشيخين عن عائشة «والله إني لأعلمُهم بالله وأشدُّهم له خشية».

واعلم أن الواقع في مخالبِ السبع إنما لا يخافه إذا لم يعرف السَّبع، فإنَّ من علم أنَّ من صفة السبع أنه يُهلكه ولا يبالي، فإن تركَه لم يكن لرقته عليه وشفقته، فإنّه أحقر عنده من أن يشفق عليه، فلا بد من أن يخاف، ولله المثلُ الأعلى وهو العزيز الحكيم. ولكن من عُرِفَ أنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص شيء من ملكه ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ ﴾ [المائدة: ١٧]. وكم أهلك من عباده في الدنيا، وعَرَّضَهم لأنواع العذاب ولم تأخذه رقة ولا شفقة، فإن ذلك مُحال عليه، فلا بد وأن يُخاف. فمعرفة الجلال والعزة والاستغناء، يورث الهيبة بالضرورة. وهذا أكمل أنواع الخوف وأفضلها.

[علاج الخوف وتحصيله]

علاج الخوف وتحصيله على رتبتين:

إحداهما: معرفة الله تعالى، فإنها توجب الخوف بالضرورة. فإن الواقع في مخالب السبع لا يحتاج إلى علاج ليخاف إن كان يعرف السبع، ومن عرف جلال الله تعالى واستغناءه وأنه خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، وأنه تمت كلمته بالسعادة والشقاوة في حق كل أحد صدقاً وعدلاً، وأن ذلك لا يُتصوّر تغييره ولا يصرفه عن تنفيذ قضائه الأزلي صارفٌ، وهو[1] لا يدري ما الذي سبق به القضاء في حقه، ولا يدري ما الذي يختم له به، واحتمل عنده أن يكون مقضياً له بشقاوة الأبد، فهذا لا يتصور أن لا يخاف.

وأما من عجز عن حقيقة المعرفة فعلاجه النظر إلى الخائفين، ومشاهدة أحوالهم أو سماع ذلك، فإن أخوف خلق الله الأنبياء، والأولياء، والعلماء، وأهل البصيرة، وأعظم الخلق أمناً الغافلون الأغبياء، الذين لا يمتد نظرهم

(١) أي العبد.

لا إلى السابقة، ولا إلى الخاتمة، ولا إلى معرفة جلال الله تعالى، وهذا، كما أن الصبي لا يخاف الحية ما لم ينظر إلى أبيه يخافها ويهرب منها، وترتعد فرائصه إذا رآها، فينظر إليه فيقلده، ويستشعر خوفه، وإن لم يعرف بالحقيقة صفة الحية. وقد قال ﷺ: «ما جاءني جبرائيل عليه السلام قط إلا وهو يرتعد فرائصه فَرقاً[1] من النار»[2]. وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر، طفق جبرائيل وميكائيل يبكيان، فأوحى الله سبحانه إليهما: ما لكما تبكيان؟ قالا: يارب ما نأمن مكرك، فقال الله تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقيل: لما خلق الله تعالى النار، طارت أفئدة الملائكة عن أماكنها، فلما خلق بني آدم عادت، وكان أزيز[3] قلب إبراهيم - عليه السلام - يسمع في الصلاة من مسيرة ميل. وبقي داود - عليه السلام - أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت الرعي[4] من دموعه، وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لطائر: «ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق». وقال أبو ذر - رضي الله عنه -: «وددت لو أني شجرة تعضد»[5]، وقالت عائشة - رضي الله عنها -: «وددت لو أني كنت نسياً منسياً»، وقد حكينا أحوال الخائفين في (كتاب الخوف) في الإحياء، فليتأمل القاصر عن ذروة المعرفة أحوال الأنبياء والأولياء والعارفين، ليعلم أنه أحق بالخوف منهم، وإذا تأمل ذلك بالحقيقة غلبه خوفه.

(١) فرق فرقاً من باب تعب خاف. وفَرِقاً: خائفاً.

(٢) روى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: «إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فَرَقاً من عذاب الله» وفي سنده راوٍ مجهول.

(٣) أزّت القدر: اشتد غليانها.

(٤) الرعي بالكسر الكلأ جمعه أرعاء.

(٥) أي تقطع وعَضَدَه قطعه.

[الخوف سوط يسوق العبد إلى السعادة]

الخوف سوط يسوق العبد إلى السعادة، ولا ينبغي أن يفرط بحيث يورث القنوط، فذلك مذموم، بل إذا غلب ينبغي أن يمزج الرجاء به. نعم، ينبغي أن يغلب الخوفُ الرجاءَ مادام العبد مقارناً للذنوب، فأما المطيع المتجرد لله تعالى، فينبغي أن يعتدل خوفه ورجاؤه، مثل عمر ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: «لو نودي ليدخلن الجنة جميع الخلق إلا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخلن النار جميع الخلق إلا رجل واحد لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل»، وأما إذا قرب الموت فالرجاء وحسن الظن بالله تعالى ينبغي أن يغلبا عليه، قال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[1].

والرجاء يخالف التمني، فإن من لا يتعاهد الأرض ولا يبث البذر، ثم ينتظر الزرع، فهو متمنٍّ مغرور فليس براجٍ، إنما الراجي من تعهد الأرض وسقاها، وبث البذر وحصَّل كل سبب يتعلق باختياره، ثم بقي يرجو أن يدفع الله الصواعق والقواطع، وأن يمكنه من الحصاد بعد الإنبات، ولذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وبالجملة، فثمرة الرجاء الترغيب في الطلب وثمرة الخوف الترغيب في الهرب، ومن رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، وأقل درجات الخوف ما يحمل على ترك الذنوب، وعلى الإعراض عن الدنيا، وما لا يحمل على ذلك فهو حديث نفس. وخواطر لا وزن لها، تشبه رقة النساء، ولا ثمرة لها، بل الخوف إذا تم أثمر الزهد في الدنيا، فلنذكر الزهد ومعناه.

* * *

(١) رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه، ورواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وفي رواية: «يحسن الظن بالله عزّ وجلّ».

الأصل الثالث: في الزهد

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال الله تعالى في حق قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠]. فبيَّن أن الزهد من ثمرات العلم.

وقال ﷺ: «من أصبح وهمّه الدنيا شتَّت الله عليه أمرَهُ، وفرَّق عليه ضَيْعَتَه، وجعل فَقْرَهُ بين عينيه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن أصبح وهمُّهُ الآخرة، جمع الله له همَّهُ، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[1].

ولما سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وعن معنى الشرح، قال عليه السلام: «إن النور إذا دخلَ القلبَ انشرحَ الصدرُ وانفَسَح، قيل: وهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغُرُور والإنابة إلى دار الخلودِ والاستعداد للموتِ قبل نزوله»[2]، وقال عليه السلام: «اسْتَحْيُوا من الله حقَّ الحياء» قالوا: إنا نستحي. قال عليه السلام: «تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون»[3]، وقال عليه السلام: «من

(١) رواه ابن ماجه عن زيد بن ثابت بسند جيد ورواه الترمذي بسند ضعيف من حديث أنس. ومعنى الضيعة: العيال أو ما يخشى عليه الضياع.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي، إتحاف: ١١/ ٦٤٢.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي بإسناد ضعيف.

زهد في الدنيا أدخلَ الله الحكمةَ قلبه وانطلقَ بها لسانُه، وعرّفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[1]، وقال عليه السلام: «لا يستكملُ العبدُ حقيقة الإيمان حتى يكون أن لا يُعرَف أحبَّ إليه من أن يُعرف، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته»[2]. وقال عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغّبه في الآخرة وبصَّره بعيوب نفسه»[3]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ازهدْ في الدنيا يحبُّكَ الله تعالى، وازهد فيما في أيدي الناس يحبُّكَ الناس»[4]. وقال عليه السلام: «من أراد أن يُؤْتِيَهُ الله علماً بغيرِ تعلُّمٍ، وهدى بغير هداية، فليزهد في الدنيا»[5].

[حقيقة الزهد في الدنيا]

للزهد في الدنيا حقيقة، وأصل، وثمرة.

أما حقيقته فهو: عزوف النفس عن الدنيا وانزواؤها عنها طوعاً مع القدرة عليها.

وأصله: العلم والنور الذي يشرق في القلب حتى ينشرح به الصدر. ويتضح به أن الآخرة خير وأبقى، وأن نسبة الدنيا إلى الآخرة أقل من نسبة خزفة إلى جوهرة.

وثمرته: القناعة من الدنيا بقدر الضرورة، وهو قَدْرُ زادِ الراكب، فالأصل نور المعرفة، فيثمر حال الإنزواء، ويظهر على الجوارح بالكف إلا عن قدر الضرورة في زاد الطريق. والضروري من زاد الطريق، مسكن، وملبس، ومطعم، وأثاث.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا من حديث صفوان مرسلاً. ورواه ابن عدي وقال: حديث منكر.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس. وهو حديث معضل.

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس بإسناد ضعيف.

(٤) رواه ابن ماجه والطبراني والحاكم (قال الإمام النووي: حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة).

(٥) قال العراقي: لم أجد له أصلاً. قال الزبيدي: بل له أصل رواه أبو نُعيم في الحلية من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من زهد في الدنيا علمه الله تعالى بلا تعلم، وهداه بلا هداية، وجعله بصيراً. .»، إتحاف السادة المتقين: ١١/ ٦٥٤.

أما المطعم: فله طول وعرض، وأما طوله، فبالإضافة إلى الزمان، وأقصر درجاته الاقتصار على دفع الجوع في الحال، فإذا دفعه غدوة لم يدخر شيئاً لعشائه، وأوسطه أن يدخر لشهر إلى أربعين يوماً فقط، وأدناه أن يدخر لسنة، فإن جاوز ذلك خرج عن جميع أبواب الزهد، إلا أن لا يكون له كسب ولا يأخذ من الأيدي، كداود الطائي، فإنه ملك عشرين ديناراً، فأمسكها وقنع بها عشرين سنة، فذلك لا يبطل مقام الزهد ودرجته في الآخرة إلا عند من شرط التوكل في الزهد، وأما عرضه فأقله نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مُد[1]، والزيادة عليه تبطل رتبة الزهد. وأما الجنس، فأقله ما يقوت ولو النخالة، وأوسطه خبز الشعير، وأعلاه خبز البر غير منخول، فإن نخل فهو تنعم لا زهد. فأما الإدام فأقله الخل والبقل والملح، وأوسطه الأدهان، وأعلاه اللحم. وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإذا دام لم يكن صاحبه زاهداً. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «كان يأتي أربعون ليلة، وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار»[2]، وقيل ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر[3].

وأما الملبس فأقله ما يستر العورة ويدفع الحر والبرد، وأعلاه قميص وسراويل ومنديل من الجنس الخشن، ويكون بحيث لو غسل ثوبه لم يجد غيره، فإن كان صاحب القميصين لم يكن زاهداً. قال أبو ذر: أخرجت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كساء ملبداً وإزاراً غليظاً، فقالت: «قبض رسول الله ﷺ في هذين»[4] وصلى رسول الله ﷺ في خميصة[5] لها عَلَم، فلما سلم قال: «شغلني النظر إلى هذه، اذهبوا بها إلى أبي جهم. . .» الحديث[6].

---

(١) المد: عند الحنفية ٠٣٢, ١ ل. وعند الثلاثة= ٦٨٧, ٠ ل.

(٢) رواه ابن ماجه عن عائشة.

(٣) رواه مسلم. والحديث المتفق عليه: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليالٍ تباعاً حتى قبض».

(٤) متفق عليه.

(٥) الخميصة هي ثوب من خز أو صوف معلم.

(٦) متفق عليه.

وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد، فلما سلم عن صلاته، قال «أعيدوا الشراك الخَلِق، فإني نظرت إليه في الصلاة»[1]. وكان عليه السلام قد احتذى نعلين جديدين، فأعجبه حسنهما فخرَّ ساجداً، فقال عليه السلام: «أعجبني حسنهما، فتواضعت لربي خشية أن يمقتني، ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه»[2].

وقد عُدّ على قميص عمر ـ رضي الله عنه ـ اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم. واشترى علي ـ رضوان الله عليه ـ في خلافته ثوباً بثلاثة دراهم، وقطع كميه من الرسغين، وقال: الحمد لله الذي هذا من رياشه، وقال بعضهم: قوّمت ثوب سفيان ونعله بدرهم ودانقين. وقال علي ـ رضوان الله عليه ـ: إن الله عزَّ وجلّ أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس، ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره.

وأما المسكن فأدناه أن تقنع بزاوية في مسجد أو رباط. كأهل الصُّفة وأعلاه أن يطلب لنفسه موضعاً خاصاً، وهي حجرة، إما بشراء أو إجارة، بشرط أن لا يزيد سعته على قدر الحاجة، ولا يُرفع بناؤه، ولا يهتم بتجصيصه، وفي الأثر أن من يرفع بناءه فوق ستة أذرع ناداه منادٍ إلى أين ياأفسق الفاسقين، ومات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة[3]. وقال عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: مر بنا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خُصًّا فقال: «إن الأمر أعجل من ذلك»[4]، واتخذ نوح ـ عليه السلام ـ بيتاً من خص، فقيل له: لو شئت لاتخذته من الطين، فقال: هذا كثير لمن يموت، وقال ﷺ: «من بنى فوق ما يكفيه كلّف أن يحمله يوم

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد بإسناد صحيح.
(٢) أخرجه ابن حقيق عن عائشة بإسناد ضعيف.
(٣) رواه ابن حبان في الثقات.
(٤) الخص بالضم البيت من القصب. والحديث رواه ابن ماجه وأبو داود والترمذي وصححه.

القيامة»[1]، وقال عليه السلام: «كل بناء وبالٌ على صاحبهِ يوم القيامة إلا ما أكنّ من حر وبرد»[2].

وأما أثاث البيت ففيه أيضاً درجات، وأدناها حال عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ إذ لم يكن معه إلا مشط وكوز، فرأى إنساناً يمشط بأصابعه فرمى المشط، ورأى آخر يشرب بيده، فرمى الكوز، وأوسطه: أن يستعمل الجنس الخشن واحداً في كل غرض، ويجتهد أن يستعمل واحداً في أغراض ليخف ثقل الاشتغال باستعمال الأجناس. وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ لعمير ابن سعيد ـ وهو أمير حمص ـ: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أتوكأ عليها، وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيها طعامي ومعي قصعتي آكل فيها، وأغسل رأسي وثوبي، ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي ووَضوئي، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي. فقال: صدقت.

وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً، وكان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشْوُها ليف، وعباءَة خشنة[3]. فهذه سيرة الزهاد في الدنيا، فمن حرم هذه الرتبة فلا أقل من أن يتحسر على فواتها، ويجتهد أن يكون قربه منهم أكثر من قربه من المتنعمين في الدنيا.

[الزهد على درجات]

الزهد على درجات:

إحداها: أن يزهد ونفسه مائلة إلى الدنيا ولكن يجاهدها، وهذا متزهد، وليس بزاهد، ولكن بداية الزّهد التزهد.

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع.
(٢) أكن: سترَ وحمى ـ والحديث رواه أبو داود بإسناد جيد.
(٣) كما ورد في الآثار. رواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة رضي الله عنها ومن حديث عائشة بسند صحيح.

الثانية: أن تنفر نفسه عن الدنيا ولا تميل إليها، لعلمه أن الجمع بينها وبين نعيم الآخرة غير ممكن، فتسمح نفسه بتركها، كما تسمح نفس من يبذل درهماً ليشتري جوهرة، وإن كان الدرهم محبوباً عنده، وهذا زهد.

الثالثة: أن لا تميل نفسه إلى الدنيا ولا تنفر عنها، بل يكون وجودها وعدمها عنده بمثابة واحدة، ويكون المال عنده كالماء، وخزانة الله تعالى كالبحر، فلا يلتفت قلبه إليه رغبة ونفوراً. وهذا هو الأكمل، لأن الذي يبغض شيئاً فهو مشغول به كالذي يحبه، ولذلك ذمَّ الدنيا قوم عند رابعة العدوية، فقالت: «لولا قدرها في قلوبكم ما ذممتموها». وحمل على عائشة ـ رضي الله عنها ـ مئة ألف درهم فلم تنفر عنها، ولكن فرقتها في يومها، فقالت خادمتها: لو اشتريت بدرهم لحماً تفطرين عليه، فقالت: لو ذكَّرتني لفعلت، فهذا هو الغنى، وهو أكمل من الزهد، ولكنه مظنَّة غرور الحمقى، إذ كل مغرور يستشعر في نفسه أن لا علاقة لقلبه في الدنيا، وعلامة ذلك، أن لا يدرك الفرق بين أن يسرق جميع ماله أو يسرق مال غيره، فمادام يدرك التفرقة فهو مشغول به.

[كمال الزهد]

كمال الزهد، هو الزهد في الزهد، بأن لا يعتد به ولا يراه منصِباً، فإن من ترك الدنيا وظن أنه ترك شيئاً فقد عظَّم الدنيا، إذ الدنيا عند ذوي البصائر لا شيء، وصاحبها كمن منعه عن دار الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة خبز وشغله بها، ودخل دار الملك وجلس على سرير الملك، فإن الشيطان كلب على باب الله تعالى، والدنيا كلها أقل من لقمة بالإضافة إلى الملك، إذ اللقمة لها نسبة إلى الملك، إذ يغنى بأمثالها، والآخرة لا يتصور أن تغنى بأمثال الدنيا لأنها لا نهاية لها[1].

---

(١) انظر المثال موضحاً ومفصلاً في كتاب الإحياء: ٤/٣٢٨ ط. دار قتيبة. وفي كتاب إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: ١١/ ٦٦٤ ط. دار الكتب العلمية.

[الزهد باعتبار الباعث عليه على درجات]

الزهد باعتبار الباعث عليه على ثلاث درجات:

إحداها: أن يكون باعثه الخوف من النار. وهذا زهد الخائفين.

الثانية: وهي أعلى منه أن يكون باعثه الرغبة في نعيم الآخرة، وهذا زهد الراجين. والعبادة على الرجاء أفضل منها على الخوف، لأن الرجاء يقتضي المحبة.

الثالثة: وهي أعلاها، أن يكون الباعث عليه الترفع عن الالتفات إلى ما سوى الحق، تنزيهاً للنفس عنه، واستحقاراً لما سوى الله. وهذا زهد العارفين، وهو الزهد المحقق، وما قبله معاملة، إذ ينزل صاحبها عن شيء عاجلاً ليعتاض عنه أضعافه آجلاً.

[الزهد باعتبار ما فيه من الزهد على درجات]

الزهد باعتبار ما فيه من الزهد على درجات، **وكماله**: الزهد في كل ما سوى الله تعالى في الدنيا والآخرة، ودونه: الزهد في الدنيا خاصة دون الآخرة. ثم يدخل فيه كل ما فيه حظ وتمتع في الدنيا، من مال وجاه وتنعم. ودون ذلك أن يزهد في المال دون الجاه، أو في بعض الأشياء دون البعض. وذلك ضعيف، لأن الجاه ألذ وأشهى من المال، فالزهد فيه أهم.

[الزهد أن تنزوي عن الدنيا طوعاً]

الزهد: أن تنزوي عن الدنيا طوعاً مع القدرة عليها، أما إن انزوت الدنيا عنك وأنت راغب فيها، فذلك فقر وليس بزهد. ولكن للفقير أيضاً فضل على الغني، لأنه مُنِعَ عن التمتع بالدنيا قهراً، وهذا هو أفضل ممن مُكِّن من الدنيا، والتمتع بها حتى أَلِفَها واطمأن إليها، ولم يتجافَ قلبه عنها، فيعظم الألم والحسرة عند الموت، وتكون الدنيا كأنها جنة الغني، وتكون كأنها سجن الفقير، إذ يشتهي الخلاص من آلامها، والفقر من أسباب

السعادة، قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى يحمي عبدَهُ عن الدنيا وهو يحبُّهُ، كما يحمي أحدُكم مريضَه عن الطعام والشراب»[١]، وقال عليه السلام: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمئة عام»[٢]، وقال عليه السلام: «خير هذه الأمة فقراؤها»[٣] وقال عليه السلام: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنبٌ عُجّلت عقوبته»[٤]، وقال موسى ـ عليه السلام ـ: يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير.

واعلم أن الفقير إن كان قانعاً بما أعطي، غير الشديد الحرص على الطلب، فدرجته قريب من درجة الزاهد. قال ﷺ: «طوبى لمن هُدي للإسلام وكان عيشُهُ كفافاً وقنع به»[٥]. وقال ﷺ: «الفقراء الصُّبُرُ هم جلساء الله تبارك وتعالى»[٦]، وقال عليه السلام: «أحب العباد إلى الله الفقير القانع»[٧]. وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون.

وعلى الجملة، إنما يعظم ثواب الفقير عند القناعة والصبر، والرضى والصبر على الفقر مبدأ الزهد، ولا تتم هذه المقامات إلا بالصبر فلنذكره.

* * *

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

(٣) قال العراقي: لم أجد له أصلاً وسكت الزبيدي.

(٤) أخرجه أبو منصور الديلمي من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه ورواه أبو نعيم من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

(٥) رواه مسلم والترمذي وصححه والنسائي بلفظ: «قد أفلح من أسلم».

(٦) رواه أبو بكر بن لال وابن عدي وابن حبان في الضعفاء وأورده ابن الجوزي في الموضوعات.

(٧) قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ وعند ابن ماجه: «إن الله يحب الفقير المتعفف».

الأصل الرابع: في الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال عز من قائل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠] وذكر الله سبحانه في القرآن الصبر في نيف وسبعين موضعاً.

وقال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»[١]، وقال عليه السلام: «من أقلّ ما أوتيتم، اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظّه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار»[٢] وقال عليه السلام: «الصبر كنز من كنوز الجنة»[٣] وسئل النبي ـ عليه السلام ـ مرة عن الإيمان فقال: «هو الصبر»[٤]. وقال عيسى ـ عليه السلام ـ: «إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون».

(١) أخرجه أبو نعيم والخطيب بسند حسن. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٢) قال العراقي: لم أجده، ووافقه الزبيدي.

(٣) قال العراقي: غريب لم أجده، وقال الزبيدي: يحتمل أن يكون (من كنوز الخير) وقد روي من قول الحسن البصري، إتحاف: ٩/١١.

(٤) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء.

[حقيقة الصبر]

حقيقة الصبر: ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، وهو من خاصية الآدمي الذي هو كالمركَّب من شعب ملكية وبهيمية، لأن البهيمية لم يسلَّط عليها إلا دواعي الشهوة، والملائكة لم يسلط عليهم الشهوة بل جُرِّدوا للشوق إلى مطالعة جمال الحضرة الربوبية، والابتهاج بدرجة القرب منها، فهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فليس فيهم داعية الشهوة، فلم يتصور الصبر لمَلَكٍ ولا بهيمةٍ، بل الإنسان سُلِّط عليه جندان يتطاردان، أحدهما من حزب الله وملائكته، وهو العقل وبواعثه، والثاني من جنود الشيطان، وهي الشهوات ودواعيها.

وبعد البلوغ تظهر بواعث الدين والعقل، إذ يحمل على النظر إلى العواقب، وتبتدي بقتال جند الشيطان، فإن ثبت باعث الدين في مقابلة باعث الهوى حتى غلبه، فقد حصل مقام الصبر، إذ لا يُتصور الصبر إلا عند تعارض الباعثين على التناقض، وذلك كالصبر على شرب الدواء البشيع، إذ يدعو إليه داعي العقل، ويمنع منه داعي الشهوة، وكل من غلبته شهوته لم يعزم عليه، ومن غلب عقلُه شهوتَه صبر على مرارته لينال الشفاء.

وشطر الإيمان إنما يتم بالصبر، ولذلك قال النبي ـ عليه السلام ـ «الصبر نصف الإيمان»[1]. لأن الإيمان يطلق على المعارف والأعمال جميعاً، وسائر الأعمال في طرفي الكف والإقدام، والتزكية والتحلية لا يتم إلا بالصبر، لأن جملة أعمال الإيمان على خلاف باعث الشهوة، فلا يتم إلا بثبات باعث الدين في مقابلته. ولذلك قال ـ عليه السلام ـ: «الصوم نصف الصبر»[2]، لأن الصبر تارة في مقابلة داعي الشهوة، وتارة في مقابلة داعي الغضب، والصوم هو كسرٌ لداعية الشهوة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم والخطيب عن ابن مسعود بسند حسن، وقد تقدم.
(٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي وحسنه.

[درجات الصبر]

الصبر له ثلاث درجات بحسب ضعفه وقوته:

الدرجة العليا: أن تُقمع داعية الهوى بالكلية، حتى لا يبقى لها قوة للمنازعة، ويتوصل إليها بدوام الصبر وطول المجاهدة، وذلك من الذين قيل لهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ [الأحقاف: ١٣]، وإياهم ينادي المنادي: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ـ٢٨].

الدرجة السفلى[1]: أن تقوى[2] داعية الهوى وتسقط منازعة باعث الدين، ويغلب الهوى ويسلم القلب لجند الشيطان، وذلك من الذين قيل فيهم: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]، وعلامته شيئان:

أحدهما: أن يقول: أنا أشتاق إلى التوبة ولكن تعذرت علي، فلست أطمع فيها، فهذا هو القانط وهو الهالك.

الثاني: أن لا يبقى فيه شوق إلى التوبة، ولكن يقول: الله كريم رحيم، وهو مُستَغْنٍ عن توبتي، فلا تضيق الجنة الواسعة والمغفرة الشاملة عني، وهذا المسكين، قد صار عقله أسير شهوته، ولا يستعمله إلا في استنباط حيل قضاء الشهوة، فصار عقله كالمسلم الأسير بين الكفار، يستسخرونه في رعاية الخنازير، وحفظ الخمور، وحملها على العنق والظهر إلى بيوتهم، فانظر كيف يكون حال العبد إذا أخذ أعز أولاد الملك وسلمه إلى أخس أعدائه حتى استرقه واستسخره، ففي مثل هذه الحالة كيف يكون قدوم هذا الغافل المُنهمك على الله تعالى. نعوذ بالله منه.

---

(١) في المخطوطة: الدرجة الوسطى: وردت وما يتبعها قبل الدرجة السفلى.
(٢) في المخطوطة: أن يعجز عن دفع داعية الهوى.

الدرجة الوسطى[1]: أن لا يفتر على المحاربة، ولكن يكون الحرب بينهما سجالاً، تارة له اليد، وتارة عليه اليد، وهذا من المجاهدين الذين ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، وعلامة هذا أن يترك من الشهوات ما هو أضعف، ويعجز عما هو أغلب، وربما يغلبها في بعض الأوقات دون بعض، وهو في جميع الأحوال متحسر على عجزه، ومستمر المعاودة إلى مجاهدته وقتاله، وذلك هو الجهاد الأكبر، ومهما اتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وبالجملة فقد قصر عن البهيمة إنسي لم يقاوم بقوة عقله شهوته وقد أيد بالعقل، وحرم عنه البهيمة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

[الحاجة إلى الصبر عامة]

اعلم أن الحاجة إلى الصبر عامة في جميع الأحوال، لأن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين:

فإنه إما أن يوافق هواه أو يخالفه. فإن وافق هواه كالصحة والسلامة والثروة والجاه وكثرة العشيرة، فما أحوجه إلى الصبر معها، فإن لم يضبط نفسه طغى واسترسل في التنعم واتباع الهوى، ونسي المبتدى والمنتهى.

ولذلك قالت الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ: بُلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. ولذلك قيل: «يصبر على البلاء كل مؤمن، ولا يصبر على العافية إلا صدّيق» ومعنى الصبر فيها، أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك وديعة عنده، ويسترجع على القرب، وأن لا ينهمك في الغفلة والتنعم، ويؤدي حق شكر النعمة. وذلك مما يطول شرحه.

النوع الثاني: ما يخالف الهوى، وذلك أربعة أقسام:

(١) في المخطوطة قدم الدرجة الوسطى على الدرجة السفلى وهو الصحيح الذي يقتضيه التدرج في ذكر الدرجات.

القسم الأول الطاعات: والنفس تنفر عن بعضها بمجرد الكسل كالصلاة، وعن بعضها بالبخل كالزكاة، وعن بعضها بهما جميعاً كالحج والجهاد، والصبر على الطاعة من الشدائد. ويحتاج المطيع إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

ـ أحدها، أول العبادة بتصحيح الإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ومكائد الشيطان، ومكائد النفس وغرورها.

ـ الثانية: حالة العمل كيلا يتكاسل عن تحقيق أدائه بفروضه وسننه، وذلك على شرط الأدب مع حضور القلب ونفي الوسواس.

ـ الثالثة: بعد الفراغ، وهو أن يصبر عن ذكره وإفشائه للتظاهر به رياء وسمعة، وكل ذلك من الصبر الشديد على النفس.

القسم الثاني المعاصي: وقد قال ﷺ: «المجاهد من جاهد هواه[1]، والمهاجر من هجر السوء»[2] والصبر عن المعاصي أشد، لاسيما عن معصية صارت عادة مألوفة، إذ يتظاهر فيه على بواعث الدين جندان: جند الهوى، وجند العادة، فإن انضم إلى ذلك سهولة فعله، وخفة المؤنة فيه، لم يصبر عنها إلا الصديق. وذلك كمعاصي اللسان، فإنها هينة سهلة، وذلك كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس. ويحتاج في دفع ذلك إلى أشد أنواع الصبر.

القسم الثالث: ما لا يرتبط باختيار العبد، ولكن له اختيار في دفعه وتداركه، كالأذى الذي يناله من غيره بيدٍ أو لسان، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يجب، وتارة يستحب. قال بعض الصحابة: ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ

(١) رواه الحاكم من حديث فضالة بلفظ: «نفسه» بدل «هواه»، وصححه. ورواه أحمد والترمذي وابن حبان والطبراني والقضاعي والنسائي.

(٢) روى الشطر الثاني ابن ماجه بإسناد جيد، الإحياء: ٤/ ١٠٤؛ وإتحاف: ٧/ ٤١٣.

ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقال الله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ـ٩٨].

القسم الرابع: ما لا يدخل أوله وآخره تحت الاختيار، كالمصائب بموت الأعزّة، وهلاك الأموال، والمرض، وذهاب بعض الأعضاء، وسائر أنواع البلاء، والصبر عليه من أعلى المقامات.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ الصبر في القرآن على ثلاث مقامات: صبر على أداء الفرائض، وله ثلاثمئة درجة، وصبر على محارم الله تعالى، وله ستمئة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، وله تسعمئة درجة. وقال ﷺ: قال الله تعالى: «إذا ابتَلَيْتُ عَبْدي ببلاءٍ فصَبَر ولم يَشْتَكِ إلى عُوَّادِه أبدلتُهُ لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، فإن أبرأتُه أبرأتُه ولا ذنبَ له، وإن توفيتُه فإلى رحمتي»[1]. وقال النبي ـ عليه السلام ـ: قال الله تعالى: إذا وجهتُ إلى عبدٍ من عبيدي مصيبةً في بَدَنِهِ أو في مالِهِ أو ولدِه، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييتُ منه يوم القيامة أن أنصُبَ له ميزاناً، أو أنشُرَ له ديواناً»[2]. وقال عليه السلام: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»[3]. وقال عليه السلام: «من إجلال الله تعالى ومعرفةِ حقِّهِ أن لا تشكو وجعَكَ، ولا تذكر مصيبَتَكَ»[4].

فقد عرفت أنك لا تستغني عن الصبر في جميع أحوالك، وبه يظهر أنه شطر الإيمان، وشطره الآخر فيما يتعلق بالأعمال وهو الشكر. فقد قال ﷺ:

(١) أخرجه مالك في الموطأ ورواه البيهقي موقوفاً على أبي هريرة، قال الزبيدي: ورواه الحاكم مرفوعاً، والطبراني وابن عساكر، إتحاف: ١١/ ٥٥.
(٢) رواه ابن عدي بسند ضعيف. ورواه الحكيم والترمذي والديلمي، إتحاف: ١١/ ٥٢.
(٣) أخرجه القضاعي وابن أبي الدنيا بأسانيد ضعيفة.
(٤) رواه ابن أبي الدنيا عن سفيان عن بعض الفقهاء.

«الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ»[1]. وهذا باعتبار النظر إلى الأعمال والتعبير بالإيمان عنها.

* * *

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وأبو منصور الديلمي من رواية يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

الأصل الخامس: في الشكر

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال: ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وقال النبي ﷺ: «للطاعم الشاكر منزلة الصائم الصابر عند الله»[1]. وكان رسول الله ﷺ يبكي في تهجده، فقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال ـ عليه السلام ـ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[2]، وقال: «يُنادى يوم القيامة ليقُم الحَمّادون، فتقوم زمرة فيُنصب لهم لواء فيدخلون الجنة»، فقيل: ومن الحمّادون؟ قال: «الذين يشكرون الله على كل حال»[3]، وقال: «الحمد رداء الرحمن»[4].

[الشكر من المقامات العالية]

اعلم أن الشكر من المقامات العالية، وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد وجميع المقامات التي سبق ذكرها، لأنها ليست مقصودة في

---

(١) رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه.
(٢) رواه مسلم عن عائشة مختصراً ورواه البخاري من رواية المغيرة.
(٣) أخرجه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشُّعَب، وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور.
(٤) في الصحيح عن أبي هريرة «الكبرياء رداؤه»، إتحاف: ١١/ ٩٤، وعن اللفظ الذي أورده الإمام قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

أنفسها، وإنما تراد لغيرها، فالصبر يراد منه قهر الهوى، والخوف سوط يسوق الخائف إلى المقامات المقصودة المحمودة، والزهد هرب من العلائق الشاغلة عن الله تعالى، وأما الشكر فمقصود في نفسه ولذلك لا ينقطع في الجنة، وليس فيها توبة ولا خوف ولا صبر ولا زهد. والشكر دائم في الجنة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. وتعرف ذلك بأن تعرف حقيقة الشكر، وأنه ينتظم من علم، وحال، وعمل.

أما العلم: [فهو الأصل فيثمر الحال والحال يثمر العمل فهذه ثلاثة أركان، الركن الأول[1]]: العلم بالنعمة والمنعم، لأن النِّعَم كلها من الله تعالى، وهو المنفرد بجميعها. والوسائط كلهم مسخرون مقهورون، وهذه المعرفة وراء التقديس والتوحيد، فإنهما داخلان فيه، بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان، التقديس، ثم إذا عرفت ذاتاً مقدَّسة، وعرفت أنه لا مقدّس إلا واحد فهو التوحيد، ثم إذا علمت أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد، والكل نعمة منه خاصة، فهو الحمد وإلى هذا الترتيب الإشارة بقوله ﷺ: «من قال سبحان الله، فله عشر حسنات، ومن قال لا إله إلا الله، فله عشرون حسنة، ومن قال الحمد لله، فله ثلاثون حسنة»[2]، وهذا لأن التقديس والتوحيد داخلان في الحمد وزيادة، وهذه الدرجات بإزاء هذه المعارف.

وأما حركة اللسان ففضلها بحسب صدورها عن المعرفة أو تجديدها للاعتقاد في القلب، فإن الفم آلة لإزالة الغفلة لينمحي أثرها.

---

(١) إضافة من المخطوطة من قوله: فهو الأصل.
(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: روى أحمد والبزار «فمن قال: سبحان الله كتبت له عشرون حسنة وحطت عنه عشرون سيئة ومن قال: الحمد لله فمثل ذلك، ومن قال: لا إله إلا الله فمثل ذلك ومن قال: الله أكبر من قِبَلِ نفسه كتب له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة» ورجالهما رجال الصحيح.

واعلم أنك إذا اعتقدت أن لغير الله دخلاً في النعمة الواصلة إليك لم يصح حمدك، ولم تتمّ معرفتك وشكرك، وكنت كمن يخلع عليه الملِكُ، وهو يرى أن لعناية الوزير دخلاً في خلعة الملك أو في إيصاله إليه، أو في تيسيرها، وكل ذلك إشراك في النعمة، ويتوزع فرحك بالنعمة عليهما. نعم، لو رأيت الخلعة الواصلة إليك بتوقيع الملك بقلمه، فذلك لا ينقص من شكرك. لأنك تعلم أنَّ القلم مسخرٌ له، لا دخل له في النعمة بنفسه، ولذلك لا يلتفت قلبك إلى الفرح بالقلم والشكر له. ولذلك قد لا يلتفت إلى الخازن والوكيل إذ يعلم أنهما مضطران إلى العطاء بعد الأمر، مسخران لا مدخل لهما بأنفسهما في النعمة.

فكذلك من انفتحت بصيرته عَلِمَ أن الشمسَ والقمرَ والنجومَ والأرض مسخراتٌ بأمر الله تعالى، كالقلم والكاغد[1] والحبر في التوقيع، وأن قلوب الخلق خزائن الله تعالى، ومفاتيحها بيد الله عزَّ وجلَّ، فيفتحها بأن يسلط عليها دواعي خُزَّانِه حتى يعتقد أن خيرَها في البذل مثلاً، وعند ذلك لا يستطيع ترك البذل، فيكون مضطراً إلى الاختيار لما سلط عليه من دواعي الاختيار، فإنه لا يعطيك أحد شيئاً إلا لغرض نفسه ليستفيد به في الآجل ثواباً، أو في العاجل ثناءً وذكراً، أو غير ذلك. وما لم يعلم أن منفعته في منفعتك، فلا يعطيك، فإذاً ليس هو منعماً عليك إذ يسعى لنفسه، إنما المنعم عليك من سخَّره بتسليط هذه الدواعي عليه، وقرر في نفسه أن غرضه منوط بالأداء والإنعام. فإن عرفت الأمور كذلك، كنت موحداً وتُصُوِّرَ منك الشكر، بل هذه المعرفة هي عين الشكر، قال موسى ـ عليه السلام ـ في مناجاته: إلـٰهي خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف شكَرَكَ؟ قال: علم أن ذلك مني فكان معرفة ذلك شكراً.

الركن الثاني: الحال المُسْتَمَدَّةُ من المعرفة، وهي الفرحُ بالمنعم مع هيئة الخضوع والإجلال. ومن يرسل إليه بعض الملوك فرساً فيُتصور أن يفرح به من ثلاثة أوجه:

---

(١) الكاغد: الورق وهي فارسية معربة.

أحدها من حيث إنه ينتفع بالفرس، أو من حيث يستدل به على عناية الملك بشأنه، وأنه سينعم عليه بما هو أعظم منه، أو من حيث إن الفرس يكون مركباً له حتى يسافر إلى حضرة الملك ويخدمه. والأول ليس من الشكر في شيء، فإنه فرح بالنعمة لا بالمُنعم.

والثاني، داخل في الشكر شيئاً، لكنه ضعيف بالإضافة إلى الثالث. فكمال الشكر أن يكون الفرح بما يفتح الله تعالى من نعمه، لا بالنعمة من حيث هي نعمة، بل بها من حيث إنها وسيلة إليه، إذ بنعمته تتم الصالحات.

وعلامة هذا أن لا يفرح بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى، بل يغتمُّ بها ويفرح بما زوى[1] الله تعالى عنه من شغل الدنيا وفضولها، وهذا أكمل الشكر. فمن لم يستطع فعليه بالثاني. وأما الأول، ففرح بالنعمة لا بالمنعم، وليس ذلك من الشكر في شيء.

الركن الثالث: العمل، وذلك بأن يستعمل نعمه في محابّه لا في معاصيه، وهذا لا يقوم به إلا من يعرف حكمة الله تعالى في جميع خلقه، وأنه لماذا خلق كل شيء، وشرح ذلك يطول. وقد ذكرنا منه طرفاً في الإحياء.

وجملته أن يعلم ـ مثلاً ـ أن عينه نعمة منه، فشُكرها أن يستعملها في مطالعة كتاب الله، وكتب العلم، ومطالعة السماوات والأرض، ليعتبر بهما ويعظِّم خالقها، وأن يستر كل عورة يراها من المسلمين، ويستعمل أذنه في سماع الذكر، وما ينفعه في الآخرة، ويُعرض عن الإصغاء إلى الهجر والفضول. ويستعمل اللسان في ذكر الله تعالى والحمد له في إظهار الشكر منه دون الشكوى، ومن سئل عن حاله فشكى فهو عاصٍ، لأنه شكى ملك الملوك إلى عبد ذليل لا يقدر على شيء، فإن شكر فهو مطيع.

وأما شكر القلب، فاستعماله في الفكر والذكر والمعرفة وإضمار الخير للخلق وحسن النية، وكذلك في اليد والرجل وسائر الأعضاء والأموال، وغير ذلك مما لا ينحصر.

---

(١) زوى: منع، وصرف.

[من الذي يتمكن كمال الشكر؟]

اعلم أنه إنما يتمكن من كمال الشكر، من شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه، يرى في كل شيء حكمته وسره ومحبوب الله فيه. ومن لم ينكشف له ذلك فعليه باتباع السنة وحدود الشرع، فتحتها أسرار الشكر. وليعلم أنه لو نظر إلى غير مَحرم[1] ـ مثلاً ـ فقد كفر نعمة العين، ونعمة الشمس، وكل نعمة لا يتم النظر إليها إلا بها، فإن الإبصار إنما يتم بالعين ونور الشمس، والشمس إنما تتم بالسماوات، فكأنه كفر أنْعُمَ الله تعالى في السماوات والأرض. وقس على هذا كل معصية، فإنها إنما تتمكن بأسباب تستدعي وجود جميعها خلق السماوات والأرض. ولهذا غَور عميق أشرنا إليه في كتاب الشكر (من كتاب الإحياء)، ويكفيك ههنا مثال واحد: وهو أن الله تعالى خلق الدراهم والدنانير لتكون حاكمة في الأموال كلها، يُقدر بها القِيَم، ولولاها لتعذرت المعاملات، إذ لا يدري كيف يشتري الثياب بالزعفران، والدواب بالأطعمة، فإنها لا مناسبة بينهما، وإنما يشتركان في روح المالية. ومعيار مقدار أرواحهما هو النقدان، فمن كنَزَهُما كان كمن حبس حاكماً من حكام المسلمين حتى تعطلت الأحكام. ومن اتخذ منهما آنية، كان كمن استعمل حاكماً من حكام المسلمين في الحياكة والفلاحة التي يقدر عليها كل أحد حتى يتعطل الحكم، وذلك أشد من الحبس، ومن أربى فيهما وجعلهما مقصد تجارته بالمصارفة بين جيدهما ورديئهما كان كمن شغل الحاكم عن الحكم، فاتخذه سخرة لنفسه ليحتطب له، ويكنس له، ويكتسب له القوت، وكل ذلك ظلم وتغيير لحكم الله عزَّ وجلّ في خلقه وعباده ومعاداة الله تعالى في محابه. ومن لا ينكشف له بنور البصيرة هذه الأسرار، عرف على لسان الشرع صورته دون معناه، وقيل له: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(١) من النساء الأجنبيات اللاتي لا يحل له النظر إليهن.

إلى قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ـ٣٥].

وقيل له: «من شرب في إناء من ذهب أو فضة، فكأنما يُجَرجِرُ في بطنه نار جهنم»[1] وقيل له: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فالصالحون يقفون على الحدود، ولا يعرفون أسرارها، والعارفون إذا اطلعوا على الأسرار بأنفسهم، وشاهدوا شواهد الشرع ازدادوا نوراً على نور. والعميان الجاهلون يحرمون الوقوف على الحدود والعثور على الأسرار جميعاً، فلا هم كعبيد أتقياء، ولا كأحرار كرام، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي...﴾ [السجدة: ١٣] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩]. وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾، إلى قوله: ﴿فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ـ١٢٦].

وآيات الله حكمته في خلقه، وقد ألقيت إلى الخلق على لسان الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ كما فصلت في جملة الشريعة من أولها إلى آخرها، وما من حد من حدود الشرع إلا وفيه سر، وخاصية، وحكمة. يعرفها من يعرفها، وينكرها من يجهلها وشرح ذلك طويل ويطلب من كتاب الشكر في (الإحياء).

ولا يتصور تمام الشكر إلا ممن قام لله تعالى وحده، مخلصاً لا داعية فيه لغيره، فلنذكر الإخلاص والصدق.

* * *

(١) حديث شريف رواه الدارقطني عن ابن عمر، وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم» متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «إن الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب...»، مشكاة المصابيح: ٢/ ١٢٣١ ـ ١٢٣٤.

الأصل السادس: في الإخلاص والصدق

اعلم أن للإخلاص حقيقة، وأصلاً وكمالاً، فهذه ثلاثة أركان. وأصله النية، إذ فيها الإخلاص، وحقيقته نفي الشوب[١] عن النية، وكماله الصدق.

الركن الأول ـ النية: وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]. ومعنى النية: إرادة وجهه تعالى، وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...» الحديث[٢]. وقال: «إن الملائكة ترفع صحيفة عمل العبد فيقول الله تعالى: ألقوها، فإنه لم يرد بها وجهي، واكتبوا له كذا وكذا» فتقول الملائكة: إنه لم يعمل منها شيئاً، فيقول الله عزَّ وجلّ: إنه نواه، إنه نواه»[٣]. وقال ﷺ: «الناس أربعة: رجل آتاه الله علماً ومالاً، فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً، ولم يؤته علماً فهو يخبط بجهله في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله تعالى ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الوزر سواء»[٤]. وقال عليه السلام: «من غزى ولا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى»[٥].

ورُوِيَ: أن رجلاً من بني إسرائيل مرَّ بكثبان رمل في أيام قحط، فقال في نفسه: لو كان لي هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيه: «قل له إن الله تعالى قد قبل صدَقَتك، وشكر حسن نيتك، وأعطاك

(١) الشوب: الشوائب.
(٢) الحديث: متفق عليه.
(٣) رواه الدارقطني بإسناد حسن.
(٤) أخرجه ابن ماجه بلفظ «مثل هذه الأمة» ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.
(٥) أخرجه النسائي وأحمد.

ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به». وقال ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار». فقيل: يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ فقال: «أراد قتل صاحبه»[١]. وقال ﷺ: «من تزوج امرأة على صَداق وهو لا ينوي أداءه فهو زانٍ، ومن ادَّانَ دَيْناً وهو ولا ينوي قضاءَهُ فهو سارق»[٢].

[حقيقة النية]

حقيقة النية: هي الإرادة الباعثة للقدرة المنبعثة عن المعرفة. وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح إلا بقدرة، وإرادة، وعلم، والعلم يهيج الإرادة، والإرادة باعثة للقدرة، والقدرة خادمة الإرادة بتحريك الأعضاء.

مثاله: أنه خلق فيك شهوة الطعام إلا أنها قد تكون فيك راكدة، كأنها نائمة، وإذا وقع بصرك على طعام حصلت المعرفة بالطعام، فانتهضت الشهوة للطعام، فامتدت إليه اليد، وإنما امتدت اليد بالقوة التي فيها، المطيعة لإشارة الشهوة، وانتهضت الشهوة بحصول المعرفة المستفادة من طليعة الحسّ. وكما خُلق فيك شهوة إلى الأشياء الحاضرة، خُلق فيك أيضاً ميلٌ إلى اللذات الآجلة ينتهض ذلك الميل بإشارة المعرفة الحاصلة من العقل. والقدرة أيضاً تخدم هذا الميل بتحريك الأعضاء. فالنية عبارة عن الميل الجازم الباعث للقدرة، والذي يغزو قد يكون الباعث له ميلاً إلى المال فذلك نيته، وقد يكون الباعث ميلاً إلى ثواب الآخرة فذلك نيته، فإذاً النية: عبارة عن الإرادة الباعثة، ومعنى إخلاصها تصفية الباعث عن الشوب.

[النية أحد جزأي العبادة]

إذا حصل العمل بباعث النية، فالنية والعمل بهما تمام العبادة. فالنية أحد جزئي العبادة، لكنها خير الجزئين، لأن الأعمال بالجوارح ليست

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه. وغيرهما، إتحاف: ١٣/١٨.

مرادة إلا لتأثيرها في القلب، ليميل إلى الخير، وينفر عن الشر، فيتفرغ للفكر والذكر الموصلين له إلى الأنس والمعرفة، اللذين هما سبب سعادته في الآخرة.

فليس المقصود من وضع الجبهة على الأرض، وضع الجبهة على الأرض، بل خضوع القلب. ولكن القلب يتأثر بأعمال الجوارح. وليس المقصود من الزكاة إزالة الملك، بل إزالة رذيلة البخل، وهو قطع علاقة القلب مع المال. وليس المقصود من الأضحية لحومها ولا دماؤها، ولكن استشعار القلب للتقوى بتعظيم شعائر الله تعالى.

والنية عبارة عن نفس ميل القلب إلى الخير، فهو متمكن من حدقة المقصود، فهو خير من عمل الجوارح الذي إنما يراد منه سراية أثره إلى محل المقصود وهو القلب. ولذلك يورث جميع أعمال القلب دون الجوارح فيه أثراً ما. وعمل الجارحة دون حضور القلب هباء ولا أثر له. ومهما قصد معالجة المعدة بما يصل من الأدوية بالشرب إليها أنفع لا محالة مما يطلى به ظاهر المعدة ليسري إليها أثره.

وكذلك إذا لم يَسْرِ أثر الطلاء إلى المعدة كان باطلاً. وبهذا التحقيق يُعرف سرُّ قوله ﷺ: «نية المؤمن خيرٌ من عمله»[1].

[اجتهد أن تستكثر من النية]

إذا عرفت فضل النية، وأنها تحل حدقة المقصود فيؤثر فيها، فاجتهد أن تستكثر من النية في جميع أعمالك، حتى تنوي بعملٍ واحدٍ نيات كثيرة، ولو صدقت رغبتك هُديت لطريقه، ويكفيك مثال واحد، وهو أن الدخول في المسجد والقعود فيه عبادة. ويمكن أن تنوي فيه ثمانية أمور:

أولها: أن يعتقد أنه بيت الله عزَّ وجلّ، وأن داخله زائر الله تعالى فتنوي

(١) أخرجه الطبراني بسندين قال العراقي: كلاهما ضعيف. وقال الزبيدي: له طرق بمجموعها يتقوى الحديث، إتحاف: ١٣/٢٨.

ذلك. قال عليه السلام: «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى، وحق على المزور إكرامُ زائره»[1].

وثانيها: نية المرابطة، لقول الله تعالى: ﴿وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقيل معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة.

وثالثها: الاعتكاف، ومعناه كف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات المعتادة، فإنه نوع صوم قال ﷺ: «رهبانية أمتي القعود في المساجد»[2].

ورابعها: الخلوة، ودفع الشواغل للزوم السر للفكر في الآخرة، وكيفية الاستعداد لها.

وخامسها: التجرد للذكر وسماعه أو إسماعه لقوله ﷺ: «من غدا إلى المسجد يذكر الله تعالى أو يذكّر به، كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى»[3].

وسادسها: أن يقصد إفادة علم، وتنبيه من يسيء الصلاة، ونهياً عن منكر وأمراً بمعروف، حتى يتيسر بسببه خيرات ويكون شريكاً فيها.

وسابعها: أن يترك الذنوب حياء من الله عزَّ وجلّ بأن تحبس نفسك في بيته حتى تستحيي منه أن تُقارف[4] ذنباً.

وثامنها[5]: أن تستفيد أخاً في الله، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد مُعَشَّشُ أهل الدين المحبين لله وفي الله.

(١) أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه بإسناد صحيح.

(٢) قال الإمام العراقي: لم أجد له أصلاً، ولم يعقب الزبيدي في إتحاف السادة المتقين.
وقد روى البيهقي «رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله» وقد وردت أحاديث صحيحة في أجر الاعتكاف في المساجد للصلاة والذكر والعلم.

(٣) قال العراقي: هو معروف من قول كعب الأحبار، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له نزلاً، في الجنة كلما غدا أو راح».

(٤) ترتكب.

(٥) في المخطوطة: الإجابة إلى المؤذن حقيقة لقوله: حي على الصلاة..

وقس على هذا سائر الأعمال، فباجتماع هذه النيات، تزكو الأعمال، وتلتحق بأعمال المقربين، كما أنه بنقيضها يلتحق بأعمال الشياطين، كمن يقصد من القعود في المسجد التحدث بالباطل، والتفكه بأعراض الناس، ومجالسة أخدان[1] اللهو واللعب، وملاحظة من يجتاز به من النسوان والصبيان، ومناظرة من ينازعه من الأقران على سبيل المباهاة والمراءاة. باقتناص قلوب المستمعين لكلامه وما يجري مجراه.

وكذلك لا ينبغي أن يغفل في المباحات عن حسن النية. ففي الخبر[2]: أن العبد يسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه، وعن فتات الطين بإصبعيه، وعن لمسه ثوب أخيه. ومثال النية في المباحات أن من يتطيب يوم الجمعة يمكنه أن يقصد التنعم بلذته والتفاخر بإظهار ثروته، أو التزويق للنساء وأخدان الفساد، ويتصور أن ينوي اتباع السنة وتعظيم بيت الله تعالى، واحترام يوم الجمعة، ودفع الأذى عن غيره بدفع الرائحة الكريهة، وإيصال الراحة إليهم بالرائحة الطيبة، وحسم باب الغيبة، إذا شموا منه رائحة كريهة، وإلى الفريقين الإشارة بقوله ﷺ: «من تطيب في الله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة»[3].

[النية لا تدخل تحت الاختيار]

اعلم أن النية لا تدخل تحت الاختيار، فلا ينبغي أن تغتر فتقول بلسانك وقلبك: نويت من القعود في المسجد كذا وكذا، وتظن أنك قد نويت، إذ عرفت من قبل أن النية هي الباعث المحرّك الذي لولاه لم يُتصور وجود العمل.

(١) الأخدان: الأصدقاء. أو الصديق في السر.
(٢) قال العراقي: لم أجد له إسناداً، ولكن وردت أحاديث صحيحة عن السؤال يوم القيامة.
(٣) أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب الصلاة من حديث إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً.

والنية المتكلَّفة كقول القائل: نويت أن أحب فلاناً وأعشقه وأعظّمه، أو نويت أن أعطش أو أجوع أو أشبع. فإن لكل هذه دواعي وصوارف، وتحققها أسبابها، إذ لا يتصور حصولها دون أسبابها، وقول القائل: نويتها قبل تحققها، حديث نفس لا نيّة.

فمن وطِئ لغلبة شهوة الوقاع من أين ينفعه قوله نويت الوطء لحراثة الولد وتكثير عدد من به المباهاة، بل لا تظفر بانبعاث هذه النيات من قلبك إلا إذا قوي إيمانك وتمَّت معرفتك بحقارة الحظوظ العاجلة وعِظَم ثواب الآخرة، حتى إذا غلب ذلك عليك انبعث منك الرغبة ضرورة في كل ما هو وسيلة إلى ثواب الآخرة، وإن لم ينبعث فلا نية لك، ولمثل هذا توقف السلف في جملة من الخيرات، حتى روي أن محمد بن سيرين لم يصلِّ على جنازة الحسن البصري، وقال ليس تحضرني النية، وقيل لطاوس: أُدعُ لنا، فقال: حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر، فما صحت لي نية بعد.

ومن عرف حقيقة النية وعلم أنها روح العمل فلا يُتعب نفسه لعمل لا روح له، ويحقق ذلك أن المباح قد يصير أفضل من العبادة إذا حضرت فيه نية.

فمن له نية في الأكل والشرب ليقوى على العبادة، وليس تنبعث له نية الصوم في الحال، فالأكل أولى له.

ومن ملّ العبادة وعلم أنه لو نام لعاد نشاطه، فالنوم أفضل له.

بل لو علم مثلاً أن الترفُّه بدعابة وحديث مزاح في ساعة يرد نشاطه، فذلك أفضل له من الصلاة مع الملال.

قال ﷺ: «إن الله لا يملّ حتى تملّوا»[1]. وقال أبو الدرداء: إني

(١) رواه البخاري ومسلم.

لأستجمَّ نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق. وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: «روحوا النفوس[1]، فإنها إذا أكرهت عَيِيَت». وهذه دقائق يستثقلها الظاهريون من الفقهاء، كما يستثقل الطبيب الضعيف من الأطباء معالجة المحرور باللحم. والحاذق منهم قد يأمر به لتعود قوة المريض حتى يحتمل الدواء النافع بعده.

الركن الثاني: في إخلاص النية، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦].

وقال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «الإخلاص سرٌّ من سرِّي استودعته قلبَ من أحببتُ من عبادي»[2]. وقال ـ عليه السلام ـ لمعاذ: «أخلصِ العملَ، يُجزِكَ القليلُ منه»[3]. وقال ـ عليه السلام ـ: «ما مِنْ عبدٍ يُخلصُ العملَ أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيعُ الحكمة من قلبه على لسانه»[4].

[حقيقة الإخلاص في النية]

حقيقة الإخلاص: تجرد الباعث الواحد. ويضادُّه الإشراك، وهو أن يشترك الباعثان، وكل ما يتصور أن يمازجه غيره. فإن صفا عن كل شوب منه يسمى خالصاً.

وقد عرفت أن النية هي الباعث، فمن لا يعمل إلا للرياء فهو مخلص، ومن لا يعمل إلا لله فهو مخلص، ولكن خُصِّصَ الاسم بأحد الجانبين

(١) في المخطوطة: (القلوب) بدل النفوس، (وعميت) بدل عييت.
(٢) رواه الحسن البصري مرسلاً من حديث حذيفة وفي سنده مقال ورواه القشيري في الرسالة بسند ضعيف.
(٣) أخرجه الديلمي في الفردوس بسند منقطع.
(٤) أخرجه ابن عدي وأبو نعيم في حلية الأولياء من طريق مكحول وسنده ضعيف، انظر تمام تخريجه في إتحاف السادة المتقين: ١٣/ ٨٣.

بالعادة، كالإلحاد فإنه ميل، ولكن خُصص بالميل إلى الباطل، وزوال الإخلاص بشوائب الرياء قد ذكرناه، ولكن قد يزول أيضاً بأغراض أُخَر. فإن الصائم قد يقصد من العبادة أن ينتفع بالحِمْية الصالحة الحاصلة بالصوم. وقد يقصد المُعْتِق أن يتخلص بالعتق من مؤونة العبد وسوء خلقه، والحاج يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يهرب من مشقة تعهد العيال، أو من إيذاء الأعداء، أو من التبرم[1] بالمقام مع الأهل، والمتعلم يتعلم العلم ليسهل عليه طلب المعاش، أو يكون محروساً بعز العلم عن الظلم، أو يكتب مصحفاً ليجود خطه، أو يحج ماشياً ليخفف مؤونة الكراء، أو يتوضأ ليتنظف، أو يتبرد، أو يغتسل لتطيب رائحته، أو يعتكف ليخفف عليه كراء المسكن، أو يصوم ليخفف عن نفسه تعب الطبخ وشراء الطعام، أو يتصدق ليدفع عن نفسه إبرام السائل، أو يعود مريضاً ليُعاد إذا مرض. فهذه الأغراض قد تتجرد وقد تشوب قصد العبادة شوباً خفياً، فإذا خطر شيء من هذه الأغراض في الفعل، فقد ذهب الإخلاص، وذلك عسير جداً.

ولذلك قال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد، ولكن ذلك عزيز، وقال أبو سليمان الداراني: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله عزَّ وجلَّ، وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: يا نفسي أخلِصي تتخلَّصي.

[شوائب الإخلاص في النية]

اعلم أن امتزاج هذه الشوائب على مراتب، فإنها قد تغلب، وقد تكون مغمورة، وقد تكون مساوية لقصد العبادة، ولا تمحو أصل الثواب في المباحات.

ومهما بقي شَوْبٌ من إرادة وجه الله عزَّ وجلَّ، فله ثواب بقدر ذلك الشوب، والباقي لا ثواب عليه، فأما إذا كان في العبادة أمر بأن يخلصها لله

(١) التضجر.

تعالى، فإن كان الشوب غالباً بطلت العبادة، وإن كان مساوياً أو مغلوباً بطل الإخلاص، ولكن هل يتوقف انعقاد العبادة وحصول أصلها على انتفاء الشوائب كلها؟ فيه نظر أشرنا إليه في الرياء. ويطلب استقصاؤه من كتاب الإحياء.

الركن الثالث: الصدق، وهو كمال الإخلاص، قال الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١]. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً»[1].

ويكفي بفضيلة الصدق أن يدرك به فضيلة الصدّيقين، واعلم أن للصدق مراتب ستاً من بلغ في جميعها رتبة الكمال استحق اسم الصِّدِّيق:

أولها: الصدق في القول في جميع الأحوال، ما يتعلق بالماضي والمستقبل والحال. ولهذا الصدق كمالان:

أحدهما: الحذر عن المعاريض أيضاً، فإنه وإن كان صدقاً في نفسه. فيفهم خلاف الحق. والمحذور من الكذب تفهيم خلاف الحق، إذ يكتسب القلب صورة معوجة كاذبة بإزاء كذب اللسان، وإذا مال وجه القلب من الصحة إلى الاعوجاج لم يتجلَّ الحق له على الصحة حتى لا يصدق رؤياه أيضاً. والمعاريض لا توقع في هذا المحذور لأنه صدق في نفسه، لكن توقع في المحذور الثاني. وهو تجهيل المعنى، فلا ينبغي أن يفعل ذلك إلا لغرض صحيح.

وكماله الثاني: أن يرعى الصدق في أقاويله مع الله تعالى، فإذا قال: «وجهت وجهي»، وفي قلبه في تلك الحالة شيء سوى الله عزَّ وجلّ، فهو كاذب، وإذا قال: «إياك نعبد»، وهو مع ذلك عبدٌ للدنيا أو لنفسه أو لغيره لم

(١) متفق عليه، وأوله: «إن الصدق يهدي إلى البر...».

يمكنه تحقيق صدق هذه الكلمة في القيامة. ولذلك قال عيسى ـ عليه السلام ـ ياعبيد الدنيا، وقال نبينا ﷺ: «تعس عبد الدرهم والدينار»[1].

الصدق الثاني: في النية، وهو أن يتمحض فيه داعية الخير، فإن كان فيه شوب فقد فات الصدق لله، يقال هذا صادق الحموضة، وصادق الحلاوة، إذا كان مَحْضاً، فيرجع هذا إلى نفس الإخلاص.

والصدق الثالث: في العزم، فإن العبد قد يعزم على التصدق إن رزق مالاً، وعلى العدل إن رزق ولاية، وعزمه تارة يكون مع ضعف وتردد، وتارة يكون جزماً قوياً لا تردد فيه. فالجزم القوي يسمى عزماً صادقاً، كما وجده عمر من نفسه ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: لأن أقدَّم فيُضربُ عُنقي أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ودرجات عزم الصديقين في القوة قد تتفاوت، وأقصاها أن ينتهي إلى الرضاء بضرب الرقبة دون الحقيقة.

والصدق الرابع: الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم أولاً، ولكن عند الوفاء ربما تتوانى عن كمال التحقيق، لأن المؤونة في العزم هيّن وإنما الشدة في تحقيق الإيفاء، ولذلك قال تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ـ٧٧].

الصدق الخامس: في الأعمال، بأن يكون بحيث لا يدل على شيء من الباطن إلا والباطن متصف به ومعناه استواء السريرة والعلانية، فالماشي على هدوء يدل بحكمه على أنه ذو وقار في باطنه، فإن لم يكن كذلك في الباطن والتفت قلبه إلى أن يُخيّل إلى الناس أنه ذو وقار في باطنه فذلك

(١) أخرجه البخاري وابن ماجه. ولفظ البخاري: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط..».

الرياء. وإن لم يلتفت إلى الخلق قلبه، ولكنه غافل، فليس ذلك برياء، ولكن يفوتُ به الصدق. ولذلك قال ﷺ: «اللهمَّ اجعل سريرتي خيراً من علانيتي، واجعل لي علانية صالحة»[١]. وقال عبد الواحد: كان الحسن البصري إذا أمر بشيء كان من أعملِ الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أرَ قط أحداً أشبه سريرة بعلانية منه.

الصدق السادس: ـ وهو أعلى أبوابه ـ الصدق في مقامات الدين، كالخوف والرجاء والحب والرضاء والتوكل وغيرها، فإن لهذه المقامات أوائل ينطلق الاسم بها[٢]، ولها حقائق وغايات. إذ يقال هذا هو الخوف الصادق، وهي الشهوة الصادقة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ...﴾ [البقرة: ١٧٧]. فهذه درجات الصدق، فمن تحقق في جميعها فهو صِدِّيق، ومن لم يصب بعضها فمرتبته بقدر صدقه، ومن جملة الصدق تحقيق القلب بأن الله هو الرزاق، والتوكل عليه، فلنذكره.

* * *

(١) معناه صحيح ولكن قال الإمام العراقي: لم أجده. وقال الزبيدي: رواه الترمذي عن عمر رضي الله عنه وضعفه. وأبو نُعَيم في الحلية، إتحاف: ١١/ ١٥٠.

(٢) جاء في الإحياء: فإن هذه الأمور لها مبادٍ ينطلق الاسم بظهورها: ٤/ ٥٦٥.

الأصل السابع: في التوكُّل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر ٣٦] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال النبي ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بطاناً»[١]. وقال: «من انقطع إلى الله كفاه الله تعالى كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»[٢]. وكان رسول الله إذا أصاب أهله خصاصة قال: «قوموا إلى الصلاة»، ويقول: بهذا أمرني ربي فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢][٣].

[حقيقة التوكل]

حقيقة التوكل عبارة عن حالة تصدر عن التوحيد، ويظهر أثرها على الأعمال، فهي ثلاثة أركان: المعرفة، والحال، والعمل.

(١) خماصاً: جائعة، وبطاناً: شبعانة، رواه الترمذي والحاكم وصححاه.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا ومن طريق البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه، وقال في مجمع الزوائد: رجاله ثقات إلا إبراهيم بن الأشعث.

(٣) قال العراقي: رواه الطبراني في الأوسط عن محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام وهو جد أبيه فيبعد سماعه منه.

الركن الأول: المعرفة، وهي الأصل، وأعني بها التوحيد، فإنه إنما يتوكل على الله من لا يرى فاعلاً سوى الله. وكمال هذه المعرفة يترجمه قولك: «لا إلـه إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» إذ فيه إيمان بالتوحيد، وكمال القدرة والجود والحكمة التي يستحق بها الحمد. فمن قال ذلك صادقاً مخلصاً فقد تم توحيده، وثبت في قلبه الأصل الذي منه ينبعث حال التوكل، وأعني بالصدق فيه أن يصير معنى القول وصفاً لازماً لذاته، غالباً على قلبه، لا يتسع لتقدير غيره.

[التوحيد له لبّان وقشران]

هذا التوحيد له لُبَّانٌ وقِشْران، وطبقاته أربع، كاللوز، له لب ثم الدهن لبُّ لبّه، والقشرة العليا قشر قِشره.

(فالقشرة العليا): القول باللسان المجرد وهو إيمان المنافقين.

(الثانية): الاعتقاد بالقلب جزماً، وهو درجة عوام الخلق، ودرجة المتكلمين، إذ لا يتميزون عن العوام إلا بمعرفة الحيلة في دفع تشويش المبتدعة عن هذه الاعتقادات.

(الثالثة): وهي اللب، أن ينكشف بنور الله عزَّ وجلّ حقيقة هذا التوحيد وسره بالحقيقة، وذلك بأن يرى الأشياء الكثيرة، ويعلم أنها بجملتها صادرة عن فاعل واحد على الترتيب، وذلك بأن يعرف سلسلة الأسباب وكيفية تسلسلها، وارتباط أول السلسلة بمسبب الأسباب. وصاحب هذا المقام بَعدُ في تفرقةٍ، لأنه يرى الأفعال وكثرتها وارتباطها بالفاعل.

(الرابعة): وهو لب اللب، أن لا يرى في الوجود إلا واحداً أو يعلم أن الموجود بالحقيقة واحد[1]، وإنما الكثرة فيه في حق من تفرق نظره كالذي

(١) وهو الحق سبحانه فهو وحده واجب الوجود، ذاتي الوجود، واحد في ذاته واحد في=

يرى من الإنسان مثلاً رجله، ثم يده، ثم وجهه، ثم رأسه، فيغلب عليه كثرته، فإن رأى الإنسان[1] جملة واحدة لم يخطر بباله الآحاد، بل كان كمدرك الشيء الواحد. فكذلك الموحّد لا يفرق نظره بين السماء والأرض وسائر الموجودات، بل يرى الكل في حكم الشيء الواحد. وهذا له غور، ويستدعي كشفه تطويلاً فاطلبه من كتاب التوحيد والتوكل من كتب الإحياء لتقف على تلويحات منه. والفناء في التوحيد إنما يقع في هذا التوحيد وذلك بأن يصير مستغرقاً بالواحد الحق، حتى لا يلتفت قلبه إلى غيره ولا إلى نفسه، فإن نفسه ـ من حيث هي نفسه ـ غير الله، وإن لم يتحقق له معنى الغيرية بنظر آخر، واعتبار على وجه آخر[2].

= صفاته واحد في أفعاله، أما ما سواه من المخلوقات فوجودها عَرَضيٌّ ممكن، لا يمكن أن يقارن وجودها بوجود الحق سبحانه ولا أن يجعل وجودها مقابل وجود الحق، فهو سبحانه واحد أحد لا ندَّ له ولا ضدَّ ولا شريك ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

(١) قال الإمام في الإحياء (ومثاله الإنسان، وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة) فهو لم يقصد التطابق من كل وجه بين المثال والممثّل له، فالإنسان إذا نظرنا إلى إنسانيته وجدناه واحداً، وإذا نظرنا إلى أعضائه وجدنا الكثرة فيه، فكل ما في الكون من مخلوقات لله سبحانه وتعالى، فهي على كثرتها يرى المؤمن أنها ترجع إلى خالق ومكوّن واحد سبحانه، لا أنها أبعاض أو أجزاء للحق عز وجل ـ تعالى الله عما يقول الواهمون علواً كبيراً ـ في مقابل هذا نرى أن بعض الأمم السابقة كانت تتوهم وجود إلـه لكل مظهر من مظاهر هذا الكون، فللمطر إلـه، وللنبات إلـه، وللحرب إلـه، وهكذا... والمؤمن مهما بلغ من مراقٍ في معرفة الله سبحانه فالحقائق تبقى لديه ثابتة، فالواجب واجب، والممكن ممكن، والمستحيل مستحيل، ولا يمكن أن ينكر في لحظة من اللحظات وجود هذه المكونات (الممكنات) ولكن سطوع أنوار المعرفة على عين البصيرة يجعله يغيب عن ملاحظتها والشعور بها ولا تشهد عين بصيرته إلا الواحد الحق.

(٢) قال الشيخ ابن تيمية (رحمه الله تعالى): «وأما المعنى الثاني، فهو الفناء عن شهود السوى، وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله بل ولا يشعرون به..» ثم يقول: «والمشايخُ الصالحون رضي الله عنهم=

[التوكل يستدعي توحيد الفعل]

حقيقة التوكل إنما يستدعي توحيد الفعل، ولا يستدعي الفناء في توحيد الذات، بل المتوكل يجوز أن يرى الكثرة والأسباب والمسببات، ولكن ينبغي أن يشاهد ارتباط السلسلة بمُسبِّبها.

وما عندي أن ذلك يخفى عليك فيما لا يدخل فيها اختيار الآدميين، فإنك إن رأيت المطر سبباً في النبات، فتعلم أن المطر مسخّر بوساطة الغيم، والغيم مسخر بوساطة الريح وأبخرة الجبال، وكذلك الجبال جمادات مسخرة إلى أن ينتهي إلى الأول لا محالة. وإن كنت لا تعرف عدد الوسائط فلا يضرك ذلك، وإنما الذي يخفى عليك أفعال الآدميين، فإنك تقول: من أطعمني طعاماً فإنه يطعمني باختياره، إن شاء أعطى، وإن شاء منع، فكيف لا أراه فاعلاً.

وإنما مثلُك في الالتفات إليه مثل النملة، ترى سواد الخط على البياض[1] يحصل من حركة القلم. فتضيف ذلك إلى القلم، إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة لا تمتد إلى الإصبع، ومنها إلى اليد، ومنها إلى القدرة

= يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد، وتحقيق إخلاص الدين كله بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلى غير الله ولا ناظراً إلى ما سواه، لا حباً ولا خوفاً منه ولا رجاء له، بل يكون القلب فارغاً من المخلوقات خالياً منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله. فبالحق يسمعُ، وبالحق يبصرُ، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي، فيحبُّ منها ما يحبُّه الله، ويبغضُ منها ما يبغضه الله، يوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخافُ الله فيها. ولا يخافُها في الله، فهذا هو القلبُ السليمُ الحنيفي الموحدُ المسلمُ المؤمنُ العارفُ الموحِّدُ...».
ويقول: «... الفرق الثاني: وهو أن يشهدَ أن المخلوقات قائمةٌ بالله ـ تعالى ـ مدبَّرةٌ بأمره، ويشهد كثرتها معدومةً بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلـٰهها وخالقها ومالكها فيكون ـ مع اجتماع قلبه على الله إخلاصاً ومحبة وخوفاً ورجاءً واستعانةً وتوكلاً على الله وموالاةً فيه ومعاداةً فيه وأمثال ذلك ـ ناظراً إلى الفرق بين الخالق والمخلوق مميزاً بين هذا، وهذا يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته أن الله رب كل شيءٍ ومليكه وخالقه...».
انظر تمام كلامه في (العبودية)، ص٤٤ ـ ٤٨.

(١) أي على الورق الأبيض.

المحركة لليد، ومنها إلى الإرادة التي القدرة مسخرة لها، ومنها إلى المعرفة التي يتوقف انبعاث الإرادة وانجزامها عليها، ومنها إلى صاحب القدرة والعلم والإرادة، فكذلك أنت تضيف أفعال العباد إلى إرادتهم ومعرفتهم وقدرتهم، إذ ليس يمتد نظرك إلى القلم الذي تنسطر المعرفة به في ألواح القلوب، ومنه إلى الأصابع التي بينها قلوب العباد، ومنها إلى اليد التي بها خمرت طينة آدم، ومنها إلى القدرة التي بها تتحرك اليد لتخمير الطينة [تعالى الله وتقدَّسَ عن الحركة والسكون ولكن التمثيل للتفهيم][1]، ومنها إلى القادر الذي منه يبدو وإليه يعود، وذلك لأنك لا تعرف معنى قول النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[2]. ولا معنى قوله تعالى في الحديث القدسي: «خَمَّرتُ طينة آدم بيدي»[3]. ولا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٤ ـ ٦] فإنك لا تعلم قلماً إلا من قصب، ولا يداً ولا أصابع إلا من لحوم وعظام، ولا صورة إلا للألوان والأشكال، فإن انكشف لك ذلك علمت أنك إذا رميت ما رميت ولكن الله رمى. حيث سلط عليك دواعي جازمةً، ومعرفةً حاكمةً على القطع، بأن نجاتك في الرمي مثلاً، حتى انبعثت القدرة التي انفرد بخلقها خادمة للإرادة، والمعرفة خادمة بالتسخير والاضطرار، علمت أنك مضطر إلى عين الاختيار، فتفعل إن شئت، ولكن تشاء إذا شاء الله، شئت أم أبيت.

وهذا الآن فيه سر يحرك قاعدة الجبر والاختيار، ويوهم تناقض التوحيد وتكليف الشرع، وقد شرحناه في كتاب التوحيد والتوكل والشكر من كتاب الإحياء، فاطلبه منه إن كنت من أهله.

[كيف تثار حالة التوكل؟؟]

لا يكفي الإيمان بتوحيد الفعل والذات في إثارة حالة التوكل، حتى

(١) زيادة من المخطوطة (ما بين الحاصرتين).
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس بإسناد ضعيف جداً.

ينضاف إليه الإيمان بالرحمة والجود والحكمة، إذ به تحصل الثقة بالوكيل الحق، وهو أن يعتقد جزماً أو ينكشف لك بالبصيرة. أن الله ـ تعالى ـ لو خلق الخلائق كلهم على عقل أعقلهم بل على أكمل ما يتصور أن يكون عليه حال العقل، ثم زادهم أضعاف ذلك علماً وحكمة، ثم كشف لهم عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت، ولطائف الحكمة، ودقائق الخير والشر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت لما دبروه بأحسن مما هو عليه، ولم يمكنهم أن يزيدوا عليه أو ينقصوا منه جناح بعوضة، ولم يستصوبوا ألبتة دفع مرض وعيب ونقص وفقر وضر وجهل وكفر، ولا أن يغيروا قسمة الله تعالى من رزق وأجل وقدرة وعجز وطاعة ومعصية، بل شاهدوا جميع ذلك عدلاً محضاً لا جور فيه، وحقاً صرفاً لا نقص فيه، واستقامة تامة لا قصور فيها ولا تفاوت، بل كل ما يرون نقصاً فيرتبط به كمال آخر أعظم منه، وما ظنوه ضرراً فتَحْتَه نفع أعظم منه، لا يتوصل إلى ذلك النفع إلا به. وعلموا قطعاً أن الله تعالى حكيم جواد رحيم، لم يبخل على الخلق أصلاً، ولم يدخر في إصلاحهم أمراً، وهذا الآن بحر آخر في المعرفة، يحرك أمواجه سر القدر الذي مُنِعَ من ذكره المكاشفون، وتحير فيه الأكثرون، ولا يعقله إلا العالمون، ولا يدرك تأويله إلا الراسخون.

وإن حظ العوام أن يعتقدوا أن كل ما يصيبهم لم يكن ليخطئهم وما يخطئهم لم يكن ليصيبهم، وأن ذلك واجب الحصول بحكم المشيئة الأزلية، وأنه لا رادّ لحكمه، ولا مُعَقِّب لقضائه، بل كل صغير وكبير مُستَطَر[1]، وحصوله بقدر معلوم منتظر، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

الركن الثاني: حال التوكل، ومعناه أن تكل أمرك إلى الله عزَّ وجلّ. ويثق به قلبك، وتطمئن بالتفويض إليه نفسك، ولا تلتفت إلى غير الله أصلاً. ويكون مثالك مثال من وكَّل في خصومته في مجلس القاضي من علم أنه

(١) مستطر: مكتوب.

أشفق الناس عليه، وأقواهم على كشف الباطل، وأعرفهم به، وأحرصهم عليه، فإنه يكون ساكناً في نيته[1]، مطمئن القلب غير متفكر في حيل الخصومة، غير مستعين بآحاد الناس، لعلمه بأن وكيله حسبه وكافيه في غرضه، وأنه لا يقاومه غيره.

فمن تحققت معرفته بأن الرزق والأجل والخلق والأمر بيد الله تعالى، وهو منفرد به لا شريك له، وأن جودَه وحكمته ورحمته لا نهاية لها، ولا يوازيها رحمة غيره وجودُه اتكل قلبه بالضرورة عليه، وانقطع نظره عن غيره.

فإن لم ينقطع فلا يكون ذلك إلا لأحد أمرين:

أحدهما: ضعف اليقين بما ذكرناه، وضعف اليقين، إنما يكون لتطرق شك إليه أو لعدم استيلائه على القلب فهو كشكٍّ لا يقين فيه، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

الأمر الثاني: أن يكون القلب في الفطرة جباناً ضعيفاً، فالجبن والجرأة فطرتان، والجبن يوجب كون النفس مطيعة لأوهام لا شك في بطلانها، حتى قد يخاف الإنسان أن يبيت مع الميت في فراش، أو بيت، مع علمه بأن الله لا يحييه، وأن قدرته عليه كقدرته على أن يقلب في يده العصا حية، وهو لا يخاف ذلك، بل قد يشبِّه العسل بالعَذِرَة، فيتعذر عليه تناوله مع علمه بأنه تشبيه كاذب، وذلك لخور النفس، وطاعة الأوهام، فكما لا يخلو الإنسان عن شيء منه وإن ضعف، فكذلك لا يبعد أن يحصل اليقين بالتوحيد بحيث لا يخالجه ريب، ومع ذلك فيفرغ القلب إلى الأسباب.

[درجات التوكل]

إذا عرفت أن التوكل عبارة عن حالة القلب في الثقة بالوكيل الحق،

(١) في المطبوعة: بيته.

وقطع الالتفات إلى غيره، فاعلم، أن فيه ثلاث درجات:

إحداها: ما ذكرناه، وهو كالثقة بالوكيل في الخصومة وبعد اعتقاد كماله في الهداية والقدرة والشفقة.

والثانية: وهي أقوى منها، تضاهي حالة الصبي في ثقته بأمه، وفزعه إليها في كل ما يصيبه، وذلك لثقته بشفقتها وكفالتها. ولكنه في توكله فانٍ عن توكله، فإنه ليس يحصله بفكر وكسب، وإن كان لا يخلو توكله عن نوع إدراك. وأما التوكل على الوكيل بالخصومة، فكالمكتسب بالفكر والنظر.

والثالثة: وهي الأعلى، أن يكون بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل، لا كالصبي، فإنه يزعق بأمه ويتعلق بذيلها، بل هذا كالصبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فإنها تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله، وإن لم يسألها اللبن فهي تبتدئ بإرضاعه، فيكون هذا الشخص في حق الله عزَّ وجلّ ساقط الاختيار، لعلمه بأنه مجرى القدر فلا يبقى فيه متسع لغير الانتظار لما يجري عليه. وهذا المقام يأبى الدعاء والسؤال، ولا يمتنع الدعاء في المقام الثاني، والأول. ويمتنع التدبير في المقام الأخير، ويمتنع في الثاني أيضاً، إلا في التعلق بالوكيل فقط. وفي الأول يمتنع التدبير بالتعلق بغيره، ولا يمتنع بالطريق الذي رسمه الوكيل وسنّه له وأمره به.

الركن الثالث في الأعمال: وقد يظن الجهال أن شرط التوكل ترك الكسب، وترك التداوي، والاستسلام للمهلكات، وذلك خطأ، لأن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على التوكل، وندب إليه فكيف ينال ذلك بمحظوره.

وتحقيقه: أن سعي العبد لا يعدو أربعة أوجه: وهو جلب ما ليس بموجود من المنفعة، أو حفظ الموجود، أو دفع الضرر كي لا يحصل، أو قطعه كي يزول.

الأول: جلب المنافع، وأسبابه ثلاثة: إما مقطوع به، وإما مظنون ظناً غالباً ظاهراً يوثق به، أو موهوم. أما المقطوع به فمثاله أن لا تمتد اليد إلى

الطعام وهو جائع، ويقول هذا سعي، وأنا متوكل، أو يريد الولد ولا يواقع أهله، أو يريد الزرع، ولا يبثُّ البذرَ، وهذا جهل، لأن سنة الله تعالى لا تتغير، وقد عرَّفك أن ارتباط هذه المسببات بهذه الأسباب من السنة التي لا تجد لها تبديلاً.

وإنما التوكل فيه بأمرين:

أحدهما: أن تعلم أن اليد والطعام والبذر وقدرة التناول وجميع ذلك من قدرة الله تعالى.

والثاني: أن لا يتكل عليها بقلبه بل على خالقها، وكيف يتكل على اليد وربما يفلج في الحال أو يهلك الطعام؟! وذلك تحقيق قولك لا حول ولا قوة إلا بالله، فالحول هي الحركة، والقوة هي القدرة. فإذا كان حالك، فأنت متوكل وإن سعيت، وأما المظنون فكاستصحاب الزاد في البوادي والأسفار، فليس تركه شرطاً في التوكل، بل هي سنة الأولين، بل يكون الاعتماد على فضل الله تعالى بدفع السُّرَّاق، وإبقاء الزاد والحياة، والقدرة على التناول.

وأما الموهومات، فكالاستقصاء في حِيَل المعيشة، واستنباط دقائق الأمور فيها وذلك ثمرة الحرص، وقد يحمل على أخذ الشبهة، فكل ذلك يناقض التوكل، والدليل عليه أن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون ولا يَسْترقون[1]، ولم يصفهم بأنهم لا يسكنون الأمصار، ولا يكتسبون، فما نسبته إلى السبب، كنسبة الرقية والكي فتركهما من شروط التوكل[2].

الفن الثاني: من تدبير الأسباب الادّخار. فالمتوكل إذا ورث مالاً وادخر لسنة فما فوقها أبطل توكله، وإن قنع بقوت يومه وفرّق الباقي فهو تمام التوكل، وإن ادخر لأربعين يوماً، قال سهل التستري: بطل توكله، ولا

(١) روى الشيخان الحديث عن ابن عباس.

(٢) روى الترمذي قوله ﷺ: «من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل».

ينال المقام المحمود الذي وعد المتوكلين. وقال الخوَّاص: لا يبطل. واتفقوا على أن الزيادة عليه يبطل التوكل إلا إذا كان معيلاً، فله أن يدخر قوت عياله لسنة، كذلك فعل رسول الله ﷺ في حق عياله، وفي حق نفسه كان لا يدخر من غدائه لعشائه[1]، ولا شك أن طول الأمل يناقض التوكل، ومهما قلَّت مدة الادخار كانت الرتبة أعظم، ولكن سنة الله تعالى جارية لتكرار الأرزاق عند تكرار السنة. فالادخار لأكثر من سنة غاية الضعف، وليس من التوكل في شيء.

فأما ادخار الكوز وأثاث البيت فذلك جائز، لأن سنة الله تعالى لم تجر بتكرارها كتكرر الأرزاق، ويحتاج إليها في كل وقت، وليس كثوب الشتاء، فإنه لا يحتاج إليه في الصيف، وادخاره على خلاف التوكل، قال النبي ﷺ في فقير دُفنَ: «إنه يحشر يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولولا خصلة كان كالشمس الضاحية. كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه»[2].

الفن الثالث: في مباشرة الأسباب الدافعة، كالفرار من السبع، ومن الجدار المائل، ومجرى السيل، ودفع الأمراض بالأدوية، وذلك أيضاً له درجات، فاستنبطها بالقياس إلى ما ذكرناه وقد فسرناه في الإحياء.

[متى يكون ترك الادخار محموداً؟]

اعلم أن ترك الادخار محمود لمن غلب يقينه، وقويَ قلبُه، وأما الضعيفُ الذي يضطرب قلبُه، لو لم يدخر لم يتفرغ للعبادة. فالأفضل له أن يدع طريق المتوكلين، ولا يحمّل نفسه ما لا يطيقه، إذ فساد ذلك في حقه أكثر من صلاحه، بل يعالج كل واحد على حسب حاله وقوته.

وقد تنتهي القوة إلى أن يجوز السفر في البوادي من غير زاد، وذلك

(١) متفق عليه.
(٢) قال العراقي: لم أجد له أصلاً، وقال الزبيدي: رواه صاحب القوت بسنده إلى شهر بن حوشب عن أبي أمامة.

لمن يصبر عن الطعام أسبوعاً، ويقنع بالحشيش. فإن ذلك لا يعوزه غالباً في البادية. فأما الضعيف إذا فعل ذلك فهو عاص ملقٍ نفسَهُ في التهلكة، والقوي إن حبس نفسه في كهف جبل ليس فيه حشيش ولا يجتاز به إنسان، فذلك أيضاً حرام، لأنه خالف سنة الله تعالى في خلقه، وإنما جاز له ذلك في البوادي، لأن سنة الله جارية بأنها لا تخلو عن الحشيش، وقد يجتاز بها الآدميون، فإذا قوي كان هلاكه نادراً، فلم يكن بذلك عاصياً، فله أن يسافر في البادية متّكلاً على لطيف صنع الله تعالى، وغير قاصر التفاته على الأسباب الجلية الواضحة، [غير الخارجة عن الشرع][1].

* * *

(١) الزيادة بين الحاصرتين من المخطوطة.

الأصل الثامن: في المحبة

قال الله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»[1]. وقال عليه السلام: «أحبوا الله لما يُغْذوكم به من نِعَمِه، وأحبوني لحب الله عزَّ وجلّ»[2]. وقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: «من ذاق خالص محبة الله عزَّ وجلّ منعه ذلك من طلب الدنيا، وأوحشه من جميع البشر». وقال الحسن البصري ـ رحمة الله عليه ـ: «من عرف الله ـ تعالى ـ أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا تفكر حزن».

[المتكلمون[3] أنكروا المحبة وأولوها]

اعلم أن أكثر المتكلمين أنكروا محبة الله تعالى وأوّلوها. وقالوا: لا معنى لها إلا الامتثال لأوامره، وإلا فما لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً، ولا يناسب طباعنا. فكيف نحبه، وإنما يتصور منا أن نحب من هو من جنسنا، وهؤلاء محرومون بجهلهم بحقائق الأمور. وقد كشفنا الغطاء عن هذا في كتاب المحبة (من كتب الإحياء) فطالعها لتصادف منها أسراراً تخلو الكتب عنها، فاقنع في هذا المختصر بتلويحات وإشارات.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب. ورواه الطبراني والحاكم والبيهقي، إتحاف: ٣٠٨/١٢.

(٣) علماء الكلام، (علماء العقائد).

[ما معنى كون الشيء محبوباً؟؟]

اعلم أن كل لذيذ محبوب، ومعنى كونه محبوباً ميل النفس إليه. فإن قوي الميل سُمي عشقاً، ومعنى كونه مبغوضاً نَفْرةُ النفس عنه لكونه مؤلماً. فإن قوي البغض والنفرة سمي مقتاً.

واعلم أن الأشياء التي تدركها بحواسك وجميع مشاعرك، إما أن تكون موافقة لك ملائمة، وهو اللذيذ، أو تكون منافية مخالفة، وهو المؤلم. أو لا موافقة ولا مخالفة، وهو الذي لا ألم ولا لذة.

وكل لذيذ محبوب، أي للنفس الملتذة به ميل لا محالة إليه.

واعلم أن اللذة تتبع الإدراك، والإدراك إدراكان: ظاهر وباطن.

أما الظاهر فبالحواس الخمس، فلا جرم لذة العين في الصور الجميلة، ولذة الأذن في النغمات الموزونة الطيبة، ولذة الذوق والشم في الطعوم والروائح الملائمة الموافقة، ولذة جملة البدن في ملابسة الناعم اللين، وجملة ذلك محبوبة للنفس، أي للنفس ميل إليها.

وأما الإدراك الباطن، فهو اللطيفة التي محلها القلب، تارة يُعبّر عنها بالعقل، وتارة بالنور، وتارة بالحس السادس. ولا تنظر إلى العبارات فتغلط، بل قال النبي ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة»[1]. فتعلم أن الطيب والنساء فيهما حظ الشم

---

(١) تقدم، رواه النسائي عن أنس دون قوله (ثلاث)، ورواه الحاكم بإسناد جيد وضعفه العقيلي. ورواه أحمد في الزهد. قال الحافظ ابن حجر: لفظ (ثلاث) لم تقع في شيء من طرقه وهي تفسد المعنى. قال الزبيدي: (النساء) لأجل كثرة المسلمين ومباهاته بهم يوم القيامة، ونقل عن الطيبي: جيء بالفعل مجهولاً دلالة على أن ذلك لم يكن من جبلّته وطبعه، وأنه مجبور على هذا الحب رحمة للعباد ورفقاً بهم»، إتحاف: ٦/ ٦٠. وهذا الحب لا كما يتصور الجاهلون ومن ملأت قلوبهم الشهوات، فحاشاه ﷺ من ذلك، وإنما هو حب لمصالح دينية وأسرار لا يدركها إلا العالمون، لقد بقي في مكة (٢٨) عاماً لم يتزوج سوى خديجة رضي الله عنها، وهي متقدمة عليه في السن، ولما هاجر إلى المدينة لم يتزوج بكراً سوى عائشة رضي الله عنه.

واللمس والبصر، والصلاة لا حظ فيها للحواس الخمس، بل للإدراك السادس الذي محله القلب. ولا يدركها من لا قلب له، وإن الله يحول بين المرء وقلبه.

ومن اقتصر من لذته على الحواس الخمس فهو بهيمة، لأن البهيمة تشاركه فيها. وإنما خاصية الإنسان التمييز بالبصيرة الباطنة، ولذة البصر الظاهرة، في الصور الجميلة الظاهرة، ولذة البصيرة الباطنة، في الصور الجميلة الباطنة.

[ما معنى الصور الجميلة الباطنة؟]

لعلك تقول: ما معنى الصور الجميلة الباطنة؟ فأقول: ما عندي أنك لا تحس من نفسك حب الأنبياء والعلماء والصحابة، ولا تدرك من نفسك تفرقة بين الملك العادل العالم الشجاع الكريم العطوف على الخلق، وبين الظالم الجاهل البخيل الفظّ الغليظ.

وما عندي أنك إذا حُكي لك صدق أبي بكر، وسياسة عمر، وسخاوة عثمان، وشجاعة علي - رضوان الله عليهم - لا تجد في نفسك هزة وارتياحاً وميلاً إلى هؤلاء، وإلى كل موصوف بخلال الكمال من نبي وصِدِّيق وعالم.

وكيف تنكر هذا، وفي الناس من يفتدي بنفسه أرباب المذاهب، ويحمله حبه لهم على البذل بالمال والنفس في الذب عنهم، وتجاوز ذلك حد العشق.

وأنت تعلم أن حبك لهؤلاء ليس لصورهم الظاهرة، فإنك لم تشاهدها، ولو شاهدتها ربما لم تستحسنها، وإن استحسنت، فلو تشوهت صورهم الظاهرة، وبقيت صفاتهم المعنوية الباطنة، لبقي حبهم.

وإن فتشت عن محبوبك منهم، رجع - بعد التفصيل الطويل الذي لا يحتمله هذا الكتاب - إلى ثلاث صفات: العلم، والقدرة، والنزاهة عن العيوب.

أما العلم: فكعلمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وعجائب ملكوته ودقائق شريعة أنبيائه.

وأما القدرة: فكقدرتهم على أنفسهم بكسر شهوتها، وحملها على الصراط المستقيم، وقدرتهم على العباد بسياستهم، وإرشادهم إلى الحق.

وأما النزاهة: فبسلامة باطنهم من عيب الجهل والبخل والحسد وخبائث الأخلاق، واجتماع كمال العلم والقدرة مع حسن الأخلاق، هو حسن الباطن، وهي الصورة الباطنة التي لا تدركها البهيمة، ومن في مثل حالها بالبصر الظاهر. ثم إذا أحببت هؤلاء لهذه الصفات، وعلمت أن النبي ﷺ كان أجمع منهم لهذه الخصال، كان حبك له أشد بالضرورة، فارتفع بنظرك الآن من النبي إلى مُرْسِل النبي وخالقه والمتفضل على الخلق ببعثه، لتعلم أن بعثة الأنبياء حسنة من حسناته. ثم انسُبْ قدرة الأنبياء وعلمهم وطهارتهم إلى علم الله سبحانه وقدرته وقدسه، لتعلم أنه لا قدوس سوى الواحد الحق، وأن غيره لا يخلو من عيب ونقص. بل العبودية أعظم أنواع النقص، فأيُّ كمال لمن لا قوام له بنفسه، ولا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا رزقاً ولا أجلاً؛ وأي علم لمن يشكل عليه صفات باطنة في مرضه وصحته، بل لا يعلم جميع جوارحه الباطنة، وتفصيلها وحكمتها بالتحقيق، فضلاً عن ملكوت السماوات والأرض، وانسب هذا إلى العلم الأزلي [المحيط بجميع الموجودات، ومعلومات لا نهاية لها][1]. الذي لا يعزُبُ عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، وإلى قدرة خالق السماوات والأرض الذي لا يخرج موجود عن قبضة قدرته في وجوده وبقائه وعدمه، وانسب نزاهته من العيوب إلى قدسه، لتعلم أنه لا قدس ولا قدرة ولا علم إلا للواحد الحق. وإنما لغيره القدرة التي أعطاه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. فانظر الآن هل يمكنك أن تنكر أن هذه الصفات والمحامد محبوبة، أو تنكر أن

(١) هذه الزيادة غير موجودة في المخطوطة.

الموصوف بكمال الجلال هو الله تعالى؟ وانظر كيف تتكر حبه بعد ذلك .

[لا تقصر عن الميل إلى المنعم!]

إن قَصُرَتْ بصيرتك عن إدراك الجلال والكمال والميل إلى مطالعته والفرح به والعشق له، فلا تقصر عن الميل إلى المنعم المحسن إليك. ولا تكونن أقل من الكلب، فإنه يحب صاحبه الذي يحسن إليه.

وتأمل هذا في العالم، هل لأحد إحسان إليك سوى الله تعالى؟ وهل لك حظ ولذة وتنعم في شيء وحرص على نعمة، إلا والله سبحانه خالقها ومبديها ومبقيها وخالق الشهوة إليها والتلذذ بها؟.

وتفكر في أعضائك ولطف صنع الله تعالى بك فيها، لتحبه بإحسانه إليك، فتكون من عوام الخلق إن لم تقدر أن تحبه لجماله وجلاله وكماله، كما تحبه الملائكة لذلك. وامتثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أحبُّوا الله تعالى لما يغذوكم به من نِعَمِهِ وأحبوني لحب الله»[1]. وعند هذا تكون كالعبد السوء، يحب ويعمل للأجرة والنفقة، فلا جرم يزيد حبك وينقص بزيادة الإحسان ونقصانه، وذلك ضعيف جداً.

بل الكمال من يحب الله لجلاله وجماله ومحامد صفاته التي لا يتصور أن يشارَك فيها، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إن أوَدَّ الأوِدّاء إليّ من عبدني بغير نوال، لكن ليعطي الربوبية حقها». وفي الزبور: «من أظلم ممن عبدني لجنة أو نار، لو لم أخلق جنة ولا ناراً، ألم أكن أهلاً أن أطاع وأعبد؟» ومر عيسى ـ عليه السلام ـ بطائفة من العُبّاد وقد تخلوا للعبادة، وقالوا نخاف النار ونرجو الجنة، فقال: مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً رجوتم، ومر بقوم آخرين كذلك، فقالوا: نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله، فقال: أنتم أولياء الله حقاً، ومعكم أمرت أن أقيم.

(١) تقدم، أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

[العارف لا يحب إلا الله تعالى]

العارف لا يحب إلا الله تعالى، فإن أحبَّ غيره فيحبه لله عزَّ وجلّ، إذ قد يحبُّ المحبُّ عبدَ المحبوبِ وأقاربه وبلده وثيابه وصنعته وتصنيفه، وكل ما هو منه وإليه نسبته.

وكل ما في الوجود صنع الله عزَّ وجلّ وتصنيفه. وكل الخلق عباد الله تعالى. فإن أحب الرسول أحبه لأنه رسول محبوبه وحبيبه، وإن أحب الصحابة فلأنهم محبوبو رسوله، ولأنهم محبوه وعبيده والمواظبون على طاعته.

وإن أحب طعاماً فلأنه يقوّي مركبه الذي به يصل إلى محبوبه، وأعني البدن، وإن أحب الدنيا فلأنها زاده إلى محبوبه، وإن أحب النظر إلى الأزهار والأنهار والأنوار والصور الجميلة، فلأنها صنعة محبوبه، وهي دلالات على جماله وجلاله، ومُذكِّرات لصفات المحامد التي هي المحبوبة في ذاتها. وإن أحب المحسن إليه والمعلم إياه علوم الدين، فيحبه لأنه واسطة بينه وبين محبوبه في إيصال علمه وحكمته إليه، ويعلم أنه الذي قيَّضه لتعليمه وإرشاده، والإنفاق عليه من ماله. وأنه لولا تسليط الدواعي إليه واضطراره بسلسلة البواعث والأغراض إلى إرشاده والإنفاق عليه لما فعله.

وأعظم الخلق إحساناً علينا رسول الله ﷺ ولله المنَّة والفضل بخلقه وبعثه. كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. فما الرسول إلا عبد مسخر مبعوث، محمول على تبليغ الرسالة بالاضطرار. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وتأمّل سورة النصر وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٢ ـ ٣]. فقد أنزله منزلة النظارة وقال: إذا رأيت عباد الله يدخلون في دين الله فقل بحمد الله لا بحمدي، وهو معنى التسبيح بحمد ربه. فإن التفت قلبك إلى نفسك وسعيك

فاستغفره ليتوب عليك، واعلم أنه ليس لك من الأمر شيء. ومن ههنا نظر عمر - رضي الله عنه - حيث وصل كتاب خالد بعد فتح فَتَحه[1]: «من خالد سيف الله المسلول على المشركين إلى أبي بكر أمير المؤمنين». فقال: إنْ نصرَ الله المسلمين نظر خالد إلى تلقيب نفسه، وتسميتها سيفاً مسلولاً على المشركين. ولو لاحظ الحق كما هو لعلم أن ليس ذلك بسيفه، ولكن لله تعالى سر في إرادته بنصرة الإسلام، فينصره بخطرة واحدة، وهو خاطر رعب يلقيه في قلب كافر فينهزم، وينظر إليه غيره فينهزم وتعم الهزيمة. فيظن خالد ومن هو في مثل حاله أنه أعلى كلمة الإسلام بصرامته وحدة سيفه[2]. ويطلع عمر - رضي الله عنه - ومن هو في مثل حاله من الصدّيقين والأولياء على حقيقة الحال، ويعلم حاجة خالد إلى الاستغفار، وأن يسبح بحمد ربه إذا رأى ذلك كما أُمرَ به رسول الله ﷺ.

فإذاً لا موجب للمحبة إلا أمران:

أحدهما: الإحسان. **والآخر**: غاية الجلال والجمال بكمال الجود والحكمة والعلم والقدرة والتقديس من العيب والنقص. ولا إحسان إلا منه، ولا جلال ولا جمال ولا قدس إلا له، فكل ما في العالم من حسن وإحسان، فهو حسنة من حسنات جوده، يسوقها إلى عباده بخطرة واحدة يخلقها في قلب المحسن، فكل ما في العالم من صور مليحة، وهيئة جميلة تدرك بعين أو سمع أو شم، فأثر من آثار قدرته، وهي بعض معاني جماله وجلاله. فليت شعري: من عرف هذا بالمشاهدة المحققة والبرهان القاطع، كيف يُتصور أن يلتفت إلى غير الله تعالى، أو يحب غير الله عزَّ وجلّ؟.

(١) بعد فتح اليمامة.

(٢) أورد الإمام الغزالي هذه الفقرة ليدل على تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في العلم والمعرفة، ومع رؤية خالد رضي الله عنه دوره في إعلاء كلمة الله، وهو موقن أن النصر من عند الله تعالى.

[لذة العارف في الدنيا]

اعلم أنَّ لذةَ العارفِ في الدنيا من مطالعةِ جمالِ الحضرةِ الربوبية، أعظم من كل لذة يتصور أن يكون في الدنيا سواها، وذلك لأن اللذة على قدر الشهوة. وقوة الشهوة على قدر الملاءمة والموافقة مع المشتهى.

وكما أن أوفق الأشياء للأبدان الأغذية، فأوفق الأشياء للقلوب المعرفة. فالمعرفة غذاء القلب، وأعني بالقلب الروح الرباني الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فأضافه إلى نفسه. وهذا الروح لا يكون للبهائم، ولمن هو في مثل حالها من الإنس، بل يختص به الأنبياء والأولياء ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالمعرفة أوفق الأشياء لهذه الروح، لأن الأوفق لكل شيء خاصيته. فالصوت الطيب لا يوافق البصر، لأنه ليس من خاصيته، وخاصية الروح الإنساني معرفة الحقائق، وكلما كان المعلوم أشرف، كان العلمُ به ألذ. ولا أشرف من الله تعالى، ولا أجلَّ منه، فمعرفته ومعرفة صفاته وذاته وعجائب ملكه وملكوته ألذُّ الأشياء عند القلب، لأن شهوة ذلك أشد الشهوات، ولذلك تخلق آخراً بعد سائر الشهوات، وكل شهوة تأخرت فهي أقوى مما قبلها.

فأول ما يخلق شهوة الطعام، ثم يخلق له شهوة الوقاع، فيترك شهوةَ الطعامِ لأجله، ويستحقر فيه شهوة الطعام، ثم يخلق له شهوة الرئاسة والجاه والغلبة، ويستحقر فيها شهوة المنكح والمطعم. ثم يخلق له شهوة المعرفة التي هي استيلاء على كل الموجودات، فيستحقر فيها الجاه والرياسة، وهي آخر شهوات الدنيا وأقواها.

وكما أن الصبي ينكر شهوة الوقاع، ويتعجب ممن يتحمل مؤونة

النكاح لأجلها، فإذا بلغ شهوة الوقاع أكبَّ عليها، وأنكر شهوة الجاه والرئاسة، ولم يبال بفواتها في قضاء شهوة الفَرْج. فكذلك المشغوف بشهوة الجاه والرياسة، ينكر لذة المعرفة، إذ لم يخلق فيه بعد شهوتها. وقد تنتهي شدة شرهه للجاه والرياسة إلى مرض قلبه، حتى لا يقبل شهوة معرفة الله عزَّ وجلّ أصلاً، كما يفسد مزاج المريض فتسقط شهوته للغذاء حتى يموت، وقد ينعكس طبعه، فيشتهي الطين والأشياء المضرة المهلكة، وهي مقدمات الموت. فكذلك مرض القلب، قد ينتهي إلى حد ينكر المعرفة ويبغضها، ويبغض أهلها والمقبلين عليها، ولا يدرك إلا لذة الرئاسة أو المطعم والمنكح. وذلك هو الميت الذي لا يقبل العلاج، وفي مثله قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، وفيهم قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

[لذة النظر إلى وجه الله الكريم]

هذه المعرفة وإن عظمت لذتها، فلا نسبة لها إلى لذة النظر إلى وجه الله الكريم في الدار الآخرة. وذلك لا يتصور في الدنيا لسر لا يمكن الآن كشفه.

ولا ينبغي أن تفهم من النظر ما يفهمه العوام والمتكلمون، فيحتاج في تقديره إلى جهة ومقابلة. فذلك من نظر مَنْ أقعده القصور في بحبوحة عالم الشهادة، حتى لم يجاوز المحسوسات التي هي مدركات البهائم.

لكن ينبغي أن تفهم أن الحضرة الربوبية، تنطبع صورتها وترتيبها العجيب على ما هو عليه من البهاء والعظمة والجلال والمجد في قلب العارف، كما تنطبع مثلاً صورة العالَم المحسوس في حواسك، فكأنك تنظر إليه وإن غمضت عينيك. فإن فتحت العين، وجدت الصورة المبصرة مثل الصورة المتخيلة قبل فتح العين لا تخالفها في شيء، إلا أن الإبصار في غاية الوضوح بالنسبة إلى التخيل. وكذلك ينبغي أن تعلم أن في إدراك ما لا يدخل

في الخيال والحس أيضاً في درجتين متفاوتتين في الوضوح غاية التفاوت. ونسبة الثانية إلى الأولى كنسبة الإبصار إلى التخيل، فتكون الثانية غاية الكشف، فيسمى لذلك مشاهدة ورؤية.

والرؤية لم تُسمَّ رؤية لأنها في العين، إذ لو خلقت في الجبهة لكانت رؤية بل لأنها غاية الكشف، فكما أن تغميض الأجفان حجاب عن غاية الكشف في المبصر، فكدورة الشهوات وشواغل هذا القالب المظلم حجاب عن غاية المشاهدة. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فإذا ارتفع هذا الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة، ويكون مشاهدة كل واحد على قدر معرفته، ولذلك تزيد لذة أولياء الله سبحانه في النظر على لذة غيرهم، (ويتجلَّى الله تعالى لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ خاصة، ويتجلى للناس عامة)[1]. وكذلك لا يراه إلا العارفون. لأن المعرفة بِذْرُ النظر[2]، بل هي التي تنقلب مشاهدة، كما ينقلب التخيل إبصاراً، فلذلك لا يقتضي مقابلة وجهة.

وسر هذا طويل، فاطلبه من كتاب المحبة في الإحياء.

[لذة النظر أعظم من لذة المعرفة]

لو كان معشوقك وأنت تراه من وراء ستر رقيق في وقت الإسفار وفي حالة ضعف الضوء، وفي حالة اجتمع عليك تحت ثوبك عقارب وزنابير تلدغك وتشغلك، فلا يخفى أن لذتك من مشاهدة معشوقك تضعف.

---

(١) أورده في الإحياء من قول النبي ﷺ. وقال العراقي: رواه ابن عدي من حديث جابر، وقال: باطل بهذا الإسناد. وفي الميزان للذهبي: أن الدارقطني رواه عن المحاملي عن علي بن عبدة. وعلي بن عبدة كان يضع الحديث. ورواه ابن عساكر وابن الجوزي في الموضوعات. (إتحاف: ١٢/ ٣٧٨).

(٢) في المطبوعة: بدء النظر.

فلو أشرقت الشمس دفعة واحدة فارتفع الستر الرقيق، وانصرفت عنك العقارب والزنابير، وهجم عليك العشق المفرط البليغ، فلا نسبة لهذه اللذة العظيمة التي تحصل الآن إلى ما كان قبل ذلك، وكذلك فافهم أنه لا نسبة للذة النظر إلى لذة المعرفة بل هي أعظم منها كثيراً. والستر الرقيق قالَبُك. والعقارب شواغل الدنيا وغمومها وشهواتها، وهجوم العشق شدة الشهوة لانقطاع المضعفات والمنغصات عنها، وإشراق الشمس هو استعداد حدقة القلب لاحتمال تمام التجلي، فإنها في هذه الحياة لا يحتمل بصر الخفاش نور الشمس.

[لماذا ضعفت شهوة معرفة الله تعالى؟]

إنما ضعفت شهوة معرفة الله تعالى لزحمة سائر الشهوات، وإنما خفيت معرفة الله تعالى مع جلائها لشدة ظهورها.

ومثاله: أنك تعلم أن أظهرَ الأشياء المحسوسات، ومنها المبصرات، ومنها النور الذي به يظهر كل الأشياء. ثم لو كانت الشمس دائمة لا تغيب ولا يقع لها ظل، لكنت لا تعرف وجود النور، وكنت تنظر إلى الألوان فلا ترى إلا الحمرة والسواد والبياض.

فأما النور فلا تدركه إلا بأن تغيب الشمس، أو يقع لها حجاب بما له ظل، فتدرك ـ باختلاف الأحوال بين الظلمة والضياء ـ أن النور شيء آخر، يعرض للألوان فتصير مُبْصَرَة.

ولو تصور لله سبحانه غيبة، أو لأنوار قدرته حجاب عن بعض الأشياء لأدركت من التفاوت ما يضطر معه إلى المعرفة، ولكن الموجودات كلها، لمّا تساوت في الشهادة لخالقها بالوحدانية من غير تفاوت، خفي الأمر لشدة جلائه. ولو تصور انقطاع أنوار قدرته عن السماوات والأرض، لانهدمت وانمحقت وأدرك في الحال من التفاوت ما يضطر إلى المعرفة بالقدرة والقادر.

وهذا مثال ما ذكرناه، وتحته أسرار، وفيه مواقع غلط، فاجتهد،

لعلك تقف على أسراره، ولا يريبك في مواقع غلطه، فمنه غلط من قال: إنه في كل مكان، وكل من نسبه إلى مكان، أو جهة فقد زلَّ فضلَّ، ورجع غاية نظره إلى التصرف في محسوسات البهائم، ولم يجاوز الأجسام وعلائقها. وأول درجات الإيمان مجاوزتها، فبه يصير الإنسان إنساناً فضلاً عن أن يصير مؤمناً.

[للمحبة علامات كثيرة]

اعلم أن للمحبة علامات كثيرة، يطول إحصاؤها.

ومن علاماتها: تقديم أوامر الله تعالى على هوى النفس، والتوقي بالورع، ورعاية حدود الشرع. ومن علاماتها الشوق إلى لقاء الله، والخلو عن كراهية الموت إلا من حيث يتشوق إلى زيادة المعرفة، فإن لذة المشاهدة بقدْرِ كمال المعرفة، فإنها بِذْرُ المشاهدة، فتختلف لا محالة باختلافها.

ومن علاماتها الرضاء بالقضاء بمواقع قدر الله عزَّ وجلّ، فلنذكر معنى الرضاء حتى لا يغتر الإنسان بما يصادف في نفسه من خطرات تخطر، فيظن أنها حقيقة الحب لله تعالى، فإن ذلك عزيز جداً.

* * *

الأصل التاسع: في الرضاء بالقضاء

قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه»[١]، وقال ﷺ: «اعبدِ الله تعالى بالرضاء، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير»[٢]، وقال ﷺ لطائفة: «ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، فقال: وما علامةُ إيمانكم؟ فقالوا: نصبرُ على البلاء ونشكرُ عند الرخاءِ، ونرضى بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون ورب الكعبة». وفي رواية أنه قال: «حكماءُ علماءُ كادوا من فقههمْ أن يكونوا أنبياء»[٣] ومما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: ما لأوليائي والهمّ بالدنيا، إن الهمَّ يُذهبُ حلاوةَ مناجاتي من قلوبهم، إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون. وقال ﷺ: «قال الله تعالى: أنا الله لا إله إلا أنا، فمن لم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، ولم يرض بقضائي، فليطلب رباً سواي»[٤]، وقال عليه الصلاة والسلام: قال الله تعالى: «خلقتُ الخيرَ، وخلقتُ له أهلاً، وخلقتُ الشرَّ، وخلقتُ له أهلاً، فطوبى لمن خلقْتُهُ للخير، ويسرتُهُ على يديه، وويلٌ لمن خلقْتُهُ للشرّ، ويسرتُ الشرَّ على يديه، وويل ثم ويل لمن قال: لِمَ وكيف؟»[٥].

(١) قال العراقي: أخرجه الطبراني، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب، ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٢) قال العراقي: رواه الترمذي عن ابن عباس. وأخرجه الطبراني، وأبو نعيم في الحلية في حديث طويل، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي نعيم والحافظ الجويني.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء. وإسناده ضعيف.

(٥) أخرجه ابن شاهين بإسناد ضعيف، والطبراني عن ابن عباس، وسنده ضعيف.

وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام: ياداود تريد وأريد، وإنما يكون ما أريد، فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لما اريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

[كيف يتصور الرضا؟؟]

قد أنكر الرضاء جماعة وقالوا: لا يتصور الرضاء بما يخالف الهوى، وإنما يتصور الصبر فقط، وإنما أُتوا من إنكار المحبة [ونحن نحققها، وعلامتها الرضاء بالبلاء، وبما يخالف الطبع والهوى، وذلك يتصور من ثلاثة أوجه][١]:

أحدها: أن يدهشه مشاهدة الحب وإفراطها عن الإحساس بالألم، وذلك مشاهَدٌ في حب المخلوقين، وفي غلبة الشهوة والغضب، حتى أن الغضبان تصيبه الجراحة فلا يحس بها في الوقت، وحتى أن الحريص تصيبه شوكة في رجله فلا يحس بها، ثم إذا سكن غضبه، وظفر بمراده، عظم ألمه، وإذا تُصُوِّرَ أن ينغمر ألمٌ يسير بحب يسير، تُصور أن ينغمر ألم كثير بحب قوي بالغ، فإن كل واحد ـ من الحب والألم ـ يقبل الزيادة والشدة. ومهما تصور مثل هذا في عشق يرجع إلى الميل إلى صورة مركبة من لحم ودم مشحونة بالأقذار والخبائث. وإنما يُدركُ بعين ظاهرة يغلب الغلط عليها، حتى قد ترى الكبيرَ صغيراً، والبعيدَ قريباً، والقبيح جميلاً.

فكيف لا يتصور بالإدراك جمال الحضرة الربوبية، والجلال الأزلي الأبدي، الذي لا يتصور انقطاعه ونقصانه المدرك بالبصيرة الباطنة، التي هي أصدق وأوضح عند أهلها من البصر الظاهر؟ ومن هذا الأصل قال الجنيد ـ رحمه الله ـ قلت لسري السَّقَطي ـ رحمه الله ـ: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا. قلت: وإن ضرب بالسيف؟ قال: لا وإن ضرب بالسيف

(١) ما بين الحاصرتين في المخطوطة: «ونحن نحقق لك أن الرضا بالبلاء وبما يخالف الطبع والهوى، يتصور من ثلاثة أوجه:». اهـ.

سبعين ضربة، ضربة على ضربة. وقال بعضهم أحببت كل شيء لحبه، حتى لو أحبَّ النارَ أحببت الدخول في النار.

وقال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ما بقي لي فرح إلا في مواقع قدرِ الله تعالى. وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام، فقيلَ له: لو سألت الله تعالى أن يرده عليك؛ فقال: اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي.

الـوجه الثاني من الرضاء: أن يحس بالألم ويكرهه بالطبع، ولكن يرضى به بعقله وإيمانه، لمعرفته بجزالة الثواب على البلاء كما يرضى المريض بألم الفَصد، وشرب الدواء، لعلمه بأنه سبب الشفاء، حتى إنه ليفرح بمن يُهدي إليه الدواء، وإن كان بشعاً. وكذلك يرضى التاجر بمشقة السفر وهو خلاف طبعه. وهذا أيضاً يشاهد مثله في الأعراض الدنيوية. فكيف ينكر في السعادة الأخروية؟ وروي أن امرأة ـ فَتح الموصلي الأنصاري ـ عثرَتْ، فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين ألم الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه.

فإذاً من أيقن أن ثواب البلاء أعظم مما يقاسيه، لم يبْعُدْ أن يرضى به.

الوجـه الثالث: أن يعتقد أن لله تعالى تحت كـل أعجوبة لطيفة بل لطائف، وذلك يُخرجُ عن قلبه الاعتراض بـ(لِمَ) و(كيف؟) حتى لا يتعجب مما يجري على العالم مما يظنه الجاهل تشويشاً واضطراباً، وميلاً عن الاستقامة، ويعلم أن تعجبه كتعجب موسى من الخضر ـ عليهما السلام ـ لما خرق سفينة الأيتام، وقتل الغلام، وأعاد بناء الجدار، كما في سورة ﴿الكهف﴾. فلما كشف الخضر عن السر الذي أُطْلِعَ عليه، سقط تعجبه، وكان تعجبه بناء على ما أخفي عنه من تلك الأسرار. وكذلك أفعال الله تعالى.

مثاله: ما حكي عن رجل من الراضين أنه كان يقول في كل ما يصيبه:

«الخير[1] فيما قدَّره الله تعالى» وكان في بادية ومعه أهله، وليس له إلا حمار يحمل عليه خباءه، وكلب يحرسهم، وديك يوقظهم. فجاء ثعلب وأخذ الديك فحزن أهله فقال: خيرة، وجاء ذئب وقتل الحمار، فحزن أهله فقال: خيرة. ثم أصيب الكلب فمات، فقال: خيرة، فتعجب أهله من ذلك، حتى أصبحوا وقد سُبي مَنْ حولهم، واستُرِقَّ أولادهم، وكان قد عُرف مكانهم بصوت الديك، ومكان بعضهم بنباح الكلب، ومكان بعضهم بنهيق الحمار. فقال: قد رأيتم أن الخيرة فيما قدره الله سبحانه، فلو لم يهلكهم الله عزَّ وجلّ لهلكتم وهلكنا.

وروي أن نبياً كان يتعبد في جبل، وكان بالقرب منه عين، فاجتاز بها فارس وشرب، ونسي عندها صرة فيها ألف دينار، وجاء آخر فأخذ الصرة، ثم جاء رجل فقير على ظهره حزمة حطب، فشرب واستلقى ليستريح، فرجع الفارس في طلب الصرة فلم يرها، فأخذ الفقير فطالبه وعذبه فلم يجد عنده فقتله. فقال النبي: إلـهي ما هذا؟ الذي أخذ الصرة ظالم آخر، وسلطت هذا الظالم على الفقير حتى قتله: فأوحى الله إليه: اشتغل بعبادتك، فليس معرفة أسرار الملك من شأنك، إن هذا الفقير كان قد قتل أبا الفارس فمكَّنته من القصاص، وإن أبا الفارس كان قد أخذ ألف دينار من مال آخذ الصرة، فرددته إليه من تَرِكَتِه.

فمن أيقن بأمثال هذه الأسرار لم يتعجب من أفعال الله تعالى، وتعجب من جهل نفسه. ولم يقل: لِمَ؟ وكيف؟ فرضي بما دبره الله في ملكوته.

وههنا وجوه أربعة تتشعب عن محض المعرفة بكمال الجود والحكمة، وبكيفية ترتيب الأسباب المتوجهة إلى المسببات، ومعرفة القضاء الأول الذي هو كلمح البصر، ومعرفة القدر الذي هو سبب ظهور تفاصيل القضاء. وأنها رتبت على أكمل الوجوه وأحسنها. وليس في

---

(١) في المخطوطة: الخيَرة.

الإمكان أحسن منها وأكمل(١). ولو كان وادَّخر، لكان بخلاً لا جوداً(٢)، أو عجزاً يناقض القدرة، وينطوي تحت ذلك معرفة سر القدر، وكما أن من أيقن ذلك، لم ينطو ضميره إلا على الرضا بكل ما يجري من الله، وشرح ذلك يطول، ولا رخصة فيه أيضاً فلنتجاوزه.

[كيف أجمع بين الرضا بالقضاء وبغض أهل الكفر؟؟]

لعلك تقول: كيف أجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى وبين بغض أهل الكفر والعصيان. وقد تُعبِّدتُ به شرعاً، وذلك مراد الله تعالى فيهم؟.

فاعلم أن طائفة من الضعفاء ظنوا أن ترك الأمر بالمعروف من جملة الرضا بالقضاء، وسمَّوْه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل عليك أن ترضى وأن تكره جميعاً.

والرضا والكراهية يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من وجه واحد، ولا يتناقض أن يُقتل عدوّك الذي هو عدوّ عدوّك أيضاً، فترضاه من حيث إنه عدوك، وتكرهه من حيث إنه عدو عدوك. فكذلك للمعصية وجهان:

وجه إلى الله تعالى من حيث إنها بقضائه ومشيئته، فهو من هذا الوجه مرضيٌّ به.

ووجه إلى العاصي من حيث إنه صفته وكسبه، وعلامة كونه ممقوتاً من الله تعالى، فهو من هذا الوجه مكروه.

وقد تعبَّدك الله تعالى ببغض من يبغضه من المخالفين لأمره، فعليك بما تعبدك به والامتثال له. ولو قال لك محبوبك إني أريد أن أمتحن حبك

(١) الفهم الصحيح للعبارة التي أشكلت على بعض العلماء أن نقول: ليس في الإمكان (أي عالم الإمكان) وهو جميع ما في الكون، أحسن منها، لأنه سبق بها العلم وخصصتها الإرادة على ما هي عليه فلا يظهر في العالم أو الكون غيرها لاستحالة تخلفها.

(٢) في المخطوطة: بخلاً يناقض الجود.

بأن أضرب عبدي وأرهقه إلى أن يشتمني فمن أبغضه فهو محبي ومن أحبه فهو عدوي، فيمكنك أن تبغض عبده إذا شتمه، مع أنك تعلم أنه الذي اضطره إلى الشتم، وكان ذلك مراده منه، فيقول: أما فعله في الشتم فإني أرضى به من حيث إنه تدبيرك في عبدك، ومرادك ممن أردت إبعاده، وأما شتمه من حيث هو صفته وعلامة عداوته، فإني أبغضه لأني أحبك، فأبغض لا محالة من عليه علامة عداوتك، وهذه دقيقة زلَّ فيها الضعفاء، فلذلك يتهافتون فيها.

[الجمع بين الرضا بالقضاء والأخذ بالأسباب]

كذلك ينبغي أن لا تظن أن معنى الرضا بالقضاء ترك الدعاء، ولا ترك التداوي، ولا ترك السهم الذي أرسل إليك حتى يصيبك، مع قدرتك على دفعه بالترس، بل تعبدك الله عزَّ وجلّ بالدعاء، ليستخرج به من قلبك صفاء الذكر، وخشوع القلب ورقته، لتستعد به لقبول الألطاف والأنوار، فمن جملة الرضا بقضائه، أن يُتوصَّلَ إلى محبوباته بمباشرة ما جعله سبباً له، بل ترك الأسباب مخالفة لمحبوبه ومناقضة لرضاه. فليس من الرضاء للعطشان أن لا يمد اليد إلى الماء البارد، زاعماً أنه رضي بالعطش الذي هو من قضاء الله تعالى، بل من قضاء الله ـ تعالى ـ ومحبته أن يزال العطش بالماء.

فليس في الرضا بالقضاء ما يوجب الخروجَ عن حدود الشرع، ورعاية سنة الله تعالى أصلاً، بل معناه ترك الاعتراض على الله عزَّ وجلّ إظهاراً وإضماراً، مع بذل الجهد في التوصل إلى محاب الله تعالى من عباده. وذلك بحفظ الأوامر وترك النواهي [على مقتضى الشرع الشريف](١).

* * *

(١) ما بين الحاصرتين: زيادة من المخطوطة.

الأصل العاشر: في ذكر الموت وحقيقته وأصناف العقوبات الروحانية

اعلم أن المقامات التسع التي ذكرناها ليست هي على رتبة واحدة، بل بعضها مقصود لذاتها، كالمحبة والرضا، فإنها أعلى المقامات، وبعضها مطلوبة لغيرها، كالتوبة والزهد والخوف والصبر. إذ التوبة: رجوع عن طريق البعد، للإقبال على طريق القرب.

والزهد: ترك الشواغل عن القرب.

والخوف: سوط يسوق إلى ترك الشواغل.

والصبر: جهاد مع الشهوات القاطعة لطريق القرب. وكل ذلك غير مطلوب لذاته، بل المطلوب القرب، وذلك بالمعرفة والمحبة، فإنها مطلوبة لذاتها لا لغيرها، ولكن لا يتم ذلك إلا بقطع حب غير الله تعالى عن القلب، فاحتيج إلى الخوف والصبر والزهد لذلك. ومن الأمور العظيمة النفع فيه (ذكر الموت)، فلذلك أوردناه، ولذلك عظَّم الشرع ثواب ذكره، إذ به يتنغص حب الدنيا، وتنقطع علاقة القلب عنها. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨]، وقالﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[١]، وقال عليه السلام: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»[٢] وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يارسول الله هل يُحشرُ مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم، من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»[٣]

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه والترمذي وقال حسن غريب.

(٢) متفق عليه.

(٣) قال العراقي: لم أقف له على إسناد وقال الزبيدي: روى الطبراني نحوه (إتحاف: ١٤/١٦).

ومر رسول الله ﷺ بمجلس وقد استعلاه الضحك، فقال رسول الله ﷺ: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللذات». قيل: وما هو؟ قال ﷺ: «الموت»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم، لما أكلتم منها لحماً سميناً»[٢]. وقال ﷺ: «كفى بالموت واعظاً»[٣] وقال ﷺ: «تركت فيكم واعِظَين صامتاً وناطقاً، فالصامت الموت، والناطق القرآن»[٤].

وذُكِرَ رجل عند النبي ـ عليه السلام ـ وأحسن الثناء عليه، فقال ﷺ: «كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟ قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت». قال: «إن صاحبكم ليس هناك»[٥].

وقال رجل من الأنصار: يارسول الله مَنْ أكْيسُ الناس وأكرمُ الناس؟

فقال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأشدهم له استعداداً، أولئك هُمُ الأكياس، ذهبوا براحة الدنيا وكرامة الآخرة»[٦].

[الموت عظيم هائل وما بعده أعظم]

اعلم أن الموت عظيم هائل، وما بعده أعظم منه، وفي ذكره منفعة عظيمة، فإنه ينغّص الدنيا ويُبغّضها إلى القلب، وبغضها رأس كل حسنة، كما أن حبها رأس كل خطيئة.

وللعارف في ذكره فائدتان:

إحداهما: النفرة من الدنيا، **والأخرى**: الشوق إلى الآخرة، فإن المحب لا محالة مشتاق، ومعنى الشوق في المحسوسات استكمال الخيال

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً وروي في أمالي الخلاّل وقال: لا يصح.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

(٣) رواه البيهقي في الشعب.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد. وابن ماجه مختصراً.

بالترقي إلى المشاهدة، فإن المشتاق إليه مدرك لا محالة بالخيال، وغائب عن الأبصار.

وأحوال الآخرة ونعيمها، وجمال الحضرة الربوبية، مدرك كل ذلك للعارف يعرفه كأنه نظر من وراء ستر رقيق في وقت الإسفار وضعف النور، فهو مشتاق إلى استكمال ذلك بالتجلي والمشاهدة، ويعلم أن ذلك لا يكون إلا بالموت. فلذلك لا يكره الموت لأنه لا يكره لقاء الله تعالى.

ولا سبب لإقبال الخلق على الدنيا إلا قلة التفكر في الموت، وطريق الفكر فيه أن يفرّغ الإنسان قلبه عن كل فكر سواه، ويجلس في خلوة ويباشر ذكر الموت بصميم قلبه، ويتفكر أولاً في أخدانه وأشكاله الذين مضوا، فيتذكرهم واحداً واحداً، ويتذكر حرصهم وأملهم وركونهم إلى الجاه والمال. ثم يتذكر مصارعهم عند الموت، وتحسرهم على فوات العمر وتضييعه، ثم يتفكر في أجسادهم كيف تمزقت في التراب، وصارت جيفة يأكلها الديدان، ثم يرجع إلى نفسه ويعلم أنه كواحد منهم، أمله كأملهم، ومصرعه كمصرعهم، ثم ينظر في أعضائه وينظر كيف تتفتت، وإلى حدقته كيف يأكلها الدود، وإلى لسانه كيف يتهرأ، ويصير جيفة في فيه. فإذا فعلت ذلك تتنغص عليك الدنيا وكنت سعيداً، إذ السعيد من وعظ بغيره، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذين نشيّع من الأموات سَفْرٌ عن قريب إلينا راجعون، نبوّؤهم أجداثهم ونأكل تراثهم، كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كلَّ واعظةٍ، وأمِنَّا كلَّ جائحةٍ»[1].

[أصل الغفلة طول الأمل]

أصل الغفلة عن الموت طول الأمل، وذلك عين الجهل. ولذلك قال ﷺ لعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك

(١) رواه الحكيم الترمذي، وفي كنز العمال: رواه أبو نعيم في الحلية عن علي رضي الله عنه.

بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك ياعبد الله لا تدري ما اسمك غداً»[1]، وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي خصلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل»[2].

واشترى أسامة وليدة إلى شهرين بمئة، فقال عليه السلام: «ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهرين؟ إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفريَّ[3] لا يلتقيان حتى يقبض الله عزَّ وجلّ روحي، ولا رفعت طرفي وظننت أني واضعها حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت». ثم قال: «يابني آدم، إن كنتم تعقلون فعُدّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت، وما أنتم بمعجزين»[4]، وقال ﷺ: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل»[5]، وقال عليه السلام: «أكُلُّكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم، قال عليه السلام: «قصّروا آمالكم، واجعلوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء»[6].

[العارف الكامل مستغنٍ عن ذكر الموت]

اعلم أن العارفَ الكاملَ المستَهْتَرَ بذكر الله تعالى مستغنٍ عن ذكر الموت بل حالُهُ الفناء في التوحيد، لا التفات له إلى ماضٍ ولا إلى مستقبلٍ، ولا إلى حال، من حيث إنه حال، بل هو ابن وقته، يعني أنه كالمتحد بمذكوره،

(١) أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث.
(٢) جزء من حديث أخرجه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف. ورواه ابن عدي والحاكم بسند ضعيف.
(٣) الشفر: أصل منبت شعر الجفن.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني وأبو نُعيم والبيهقي بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند فيه ابن لهيعة. وابن لهيعة لا يحتج به.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا عن الحسن مرسلاً. والشطر الأخير رواه أحمد والترمذي والخرائطي والطبراني في الأوسط، (إتحاف: ١٤/ ٤١).

لست أقول متحداً بالذات، فلا تغفل فتغلط، وتسيء الظن. وكذلك يفارقه الخوف والرجاء، لأنهما سوطان يسوقان العبد إلى هذه الحالة التي هو ملابسها بالذوق، وكيف يذكر الموت وإنما يراد ذكر الموت لينقطع علاقة قلبه عما يفارقه بالموت. والعارف قد مات مرة في حق الدنيا، وفي حق كل ما يفارقه بالموت، فإنه قد ترفع وتنزه عن الالتفات إلى الآخرة أيضاً، فضلاً عن الدنيا. وقد تنغص عليه ما سوى الله تعالى، ولم يبق له من الموت إلا كشف الغطاء ليزداد به وضوحاً، لا ليزداد يقيناً، وهو معنى قول علي ـ رضي الله عنه ـ «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»، فإن الناظر إلى غيره من وراء ستر، لا يزداد برفع الستر يقيناً، بل وضوحاً فقط.

فإذاً ذكر الموت يحتاج إليه من لقلبه التفات إلى الدنيا، ليعلم أنه سيفارقها، فلا يعتكف بهمته عليها، ولذلك قال عليه السلام: «إن روحَ القُدُس نفث في روعي: أحببْ ما أحببتَ، فإنك مفارقُهُ، وعشْ ما عشتَ، فإنك ميّتٌ، واعمل ما شئتَ، فإنكَ مجزيٌّ به»[1].

[حقيقة الموت وماهيته]

لعلك تشتهي أن تعرف حقيقة الموت وماهيته، ولن تعرف ذلك ما لم تعرف حقيقة الحياة، ولن تعرف حقيقة الحياة ما لم تعرف حقيقة الروح، وهي نفسك، وحقيقتك، وهي أخفى الأشياء عنك، ولا تطمع في أن تعرف ربك[2] قبل أن تعرف نفسك، وأعني بنفسك روحك التي هي خاصية الأمر[3] المضافة إلى الله تعالى في قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وفي قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] دون الروح الجسماني اللطيف، الذي هو حامل قوة الحس والحركة، التي تنبعث من

(١) روى الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه، والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف.
(٢) في المخطوطة: ذلك بدل ربك.
(٣) في المخطوطة: الإنس بدل الأمر.

القلب، وتنتشر في جملة البدن، في تجاويف العروق الضوارب، فيفيض منها نور حس البصر على العين، ونور السمع على الأذن، وكذا سائر القوى والحواس، كما يفيض من السراج نور على حيطان البيت إذا أدير في جوانبه، فإن هذه الروح تشارك البهائم فيها، وتنمحق بالموت، لأنه بخار اعتدل نضجه عند اعتدال مزاج الأخلاط، فإذا انحل المزاج بطل كما يبطل النور الفائض من السراج عند انطفاء السراج، بانقطاع الدهن عنه، أو بالنفخ فيه، وبانقطاع الغذاء عن الحيوان تفسد هذه الروح، لأن الغذاء له كالدهن للسراج، والقتل له كالنفخ في السراج، وهذه هي الروح التي يتصرف في تعديلها وتقويتها علم الطب، ولا تحمل هذه الروح المعرفة والأمانة، بل الحمّال للأمانة الروح الخاصة للإنسان، ونعني بالأمانة تقلد عهدة التكليف، بأن يتعرض لخطر الثواب والعقاب بالطاعة والمعصية.

وهذه الروح لا تموت ولا تفنى، بل تبقى بعد الموت، إما في نعيم وسعادة، أو جحيم وشقاوة، فإنه محل المعرفة. والتراب لا يأكل محل الإيمان والمعرفة أصلاً كما نطقت به الأخبار، وشهدت له شواهد الاستبصار.

ولم يأذن الشرع في ذكر تحقيق صفته، إذ لا يحتمله إلا الراسخون في العلم وكيف يذكر، وله من عجائب الأوصاف ما لم يحتمله أكثر عقول الخلق في حق الله تعالى، فلا تطمع في ذكر حقيقته، وانتظر تلويحاً يسيراً من ذكر صفته بعد الموت، [على ما أجازه الشرع].

[الروح لا تفنى بالموت]

هذه الروح لا تفنى ألبتة، ولا تموت، بل تتبدل بالموت حالها فقط، ويتبدل منزلها، فتترقى من منزل إلى منزل، والقبر في حقها إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران. إذ لم يكن لها مع البدن علاقة سوى استعمالها البدن، واقتناصها أوائل المعرفة به بوساطة شبكة الحواس. فالبدن آلتها ومركبها وشبكتها، وبطلان الآلة والمركب والشبكة، لا توجب

بطلان الصائد. نعم، إن بطلت الشبكة بعد الفراغ من الصيد فبطلانه غنيمة، إذ يتخلص من ثقله وحمله. ولذلك قال عليه السلام: «الموت تحفة المؤمن»[1].

وإن بطلت الشبكة قبل الصيد عظمت فيه الحسرة والندامة والألم، فلذلك يقول المقصّر: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]. بل إن كان ألِفَ الشبكةَ وأحبها وتعلَّق قلبه بها، وحسن صورتها وصنعتها، وما يتعلق بها، كان له من العذاب ضعفان:

أحدهما: حسرة فوات الصيد الذي لا يُقتنص إلا بشبكة البدن.

والثاني: زوال الشبكة مع تعلق القلب بها وإلفه لها. وهذا مبدأ من مبادئ معرفة عذاب القبر، إن استقصيته تحققته قطعاً.

[التحقيق في عذاب القبر]

لعلك تشتهي الاستقصاء المُفضي إلى التحقيق؟ فاعلم أن هذا الكتاب لا يحتمله، فاقنع منه بأنموذج يسير، وافهم أن معنى الموت زمانة[2] البدن. وأنت تعرف أن زمانة اليد خروجها عن طاعتك مع وجود شخصها ببطلان القوة التي بوساطتها تستعمل اليد.

فافهم أن الموت زمانة مطلقة في جميع الأعضاء ببطلان قواها، فيسلب الموت منك يدَكَ ورجلَكَ وعينك وسائر حواسك، وأنت باق، أعني حقيقتك التي أنت بها أنت. فإنك الآن الإنسان الذي كنت في الصِّبا، ولعله لم يبق فيك من تلك الأجسام شيء، بل انحلَّ كلها وحصل بالغذاء بدلها، وأنت أنت وجسدك غير ذلك الجسد. فإن كان لك معشوق تفتقر فيه إلى حواسك، عظم عذابك بفراق معشوقك، وجميع ملاذ الدنيا معشوق، ولا تنال إلا بالحواس.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم في مستدركه.
(٢) زمانة: عاهة أو عجز.

ولا فرق في عذاب العاشق بين أن يُحجب عنه معشوقه، وبين أن تُفقأ عينه، أو يسلب هو عنه بأن يحمل إلى موضع حتى لا يراه. فإن ألمه من عدم الرؤية. ومن أحب أهله وماله وعقاره وفرسه وجاريته وثيابه يألم بفراقها، سواء سُلبت هذه الأشياء عنه، أو سلب هو عنها، بأن حمل إلى موضع آخر، وحِيلَ بينه وبينها.

فالموت يسلبك هذه الأشياء، ويحول بينك وبينها، فيكون عذابك بقدر عشقك لها.

والموت يُخلّي بينك وبين الله تعالى، ويقطع عنك هذه الحواس الشاغلة المشوّشة فتكون لذّتك في القدوم على الله تعالى بقدر حبك له وأنسك بذكره. ولأجل هذا نبَّهك، وقال الله تعالى كما ورد في بعض الآثار: «أنا بُدُّك[1] اللازم فالزم بُدَّكَ». وأجمعُ العبارات عن نعيم الجنة[2]: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [الفرقان: ١٦]. وأجمع العبارات لعذاب الآخرة قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] ولا ملذ إلا الشهوة، ولكن عند مصادفة المشتهى، ولا مؤلم إلا الشهوة، ولكن عند مفارقة المشتهى.

ولا ينبغي أن تغتر الآن وتقول: إن كان هذا سبب عذاب القبر فأنا في أمان منه، إذ لا علاقة بين قلبي وبين متاع الدنيا، فإن هذا لا تدركه بالحقيقة ما لم تطرح الدنيا وتخرج عنها بالكلية. فكم من رجل باع جارية على ظن أنه لا علاقة بينه وبينها، فلما أخذها المشتري اشتعل قلبه من نيران الفراق، واحترق بها احتراقاً، ربما ألقى نفسه في الماء والنار ليقتل نفسه ويتخلص منها.

فكذلك يكون حالك في القبر في كل ما يتعلق به قلبك من الدنيا،

(١) البُدّ: النصيب، ومن معانيها العِوَض.
(٢) في الأصل: (أن لهم فيها ما يشتهون) ورأيت استبدالها بالآية الكريمة فلا أبلغ من كلام الله تعالى.

ولذلك قال المصطفى ﷺ: «أحبب ما أحببت فإنك مفارقه»[1].

ووراء هذا عذاب أعظم منه، وهو حسرة الحرمان عن القرب من الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم، وينكشف بالموتِ عِظَمُ قَدْرِ ما فات منه، وإن كان لا يعظم قدره عندك قبل الموت، لأن الموت سبب الانكشاف، ما لم يمكن انكشافه قَبْلَه، كما أن النوم سبب انكشاف الغيب بمثال أو غير مثال. والنوم أخو الموت، ولكنه دونه بكثير.

فهذان عذابان يتضاعفان على كل ميت كان غيرُ الله تعالى أحبَّ إليه من الله تعالى. وكان أنسه بغير الله تعالى، أكثر من أنسه بالله، وهما ضروريان تعرفهما إن عرفت بالحقيقة الروح وبقاءه بعد الموت، وعلائقه، وما يضادّه بالطبع وما يوافقه بالطبع.

[هل يعدمُ الإنسان بالموت؟]

لعلك تقول: المشهور عند أهل العلم، أن الإنسان يعدم بالموت ثم يعاد، وأن عذاب القبر يكون بنيران وعقارب وحيات وما ذكرتَهُ بخلاف ذلك.

فاعلم أن من قال: إن الموت معناه العدم فهو محجوب عن حضيض التقليد، ويفاع[2] الاستبصار جميعاً.

أما حرمانه عن ذروة الاستبصار فلا يدركه ما لم يستبصر، وأما حرمانه عن التقليد فتعرفه بتلاوة الآيات والأخبار. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠]. هذا في السعداء.

وأما في الأشقياء فقد ناداهم رسول الله ﷺ يوم بدر لما قتلوا، فكان يقول: يافلان يافلان، يذكر واحداً واحداً من صناديدهم، «قد وجدتُ ما

(١) تقدم بطوله ص٢٦٨ وتقدم تخريجه.
(٢) يفاع: علو.

وعدني ربي حقاً، فهل وجدتُم ما وَعَدَ ربُّكُم حقاً؟» فقيل: يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمعَ لكلامي منهم، لكنهم لا يقدرون على الجواب»[1] وقال عليه السلام: «الموت هو القيامة، ومن مات فقد قامت قيامته»[2] وأراد بهذه، القيامة الصغرى، والقيامة الكبرى يكون بعده.

وشرح القيامة الصغرى إن أردته فاطلبه من كتاب الصبر من كتاب الإحياء. والأخبار في الدلالة على بقاء أرواح الموتى وشعورهم بما يجري في هذا العالم أيضاً كثيرة.

[المشهور من عذاب القبر]

أما قولك: إن المشهور من عذاب القبر التألم بالنيران والعقارب والحيات، فهذا صحيح، وهو كذلك. ولكني أراك عاجزاً عن فهمه ودَرْكِ سره وحقيقته.

إلا أني أُنبّهك على أنموذج منه تشويقاً لك إلى معرفة الحقائق، والتشمر للاستعداد لأمر الآخرة. فإنه نبأ عظيم أنتم عنه معرضون. فقد قال عليه السلام: «المؤمنُ في قبرِهِ، في روضة خضراءَ قد فُرِّج له قبرُهُ سبعينَ ذراعاً، ويضيء وجهُهُ حتى يكونَ كالقمر ليلة البدر، هل تدرون في ماذا أنزلت ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «عذاب الكافر في قبره، يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً، هل تدرون ما التنين؟ تسع وتسعون حية لكل حية تسعة رؤوس، ينهشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون»[3] فانظر إلى هذا الحديث، واعلم أن هذا حق على الوجه الذي شاهده أرباب البصائر ببصيرة أوضح من البصر

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عمر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف.
(٣) رواه ابن حبان كما في مجمع الزوائد. ورواه الإمام أحمد في المسند (انظر تفصيل تخريجه في إتحاف السادة المتقين: ١٤/ ٣٤٤).

الظاهر. والجاهل ينكره إذ يقول: إني أنظر في قبره فلا أرى ذلك أصلاً[1]. فليعلم الجاهل أن هذا التنين ليس خارجاً عن ذات الميت، أعني ذات روحه لا ذات جسده، فإن الروح هي التي تتألم وتتنعم، بل كان معه قبل موته متمكناً من باطنه، لكنه لم يكن يحس بلدغه لخدر كان فيه، لغلبة الشهوات، فأحس بلدغه بعد الموت.

وليتحقق أن هذا التنين مركب من صفاته، وعدد رؤوسه بقدر عدد أخلاقه الذميمة، وشهواته لمتاع الدنيا. وأصل هذا التنين حب الدنيا، وتتشعب عنه رؤوس بعدد ما يتشعب عن حب الدنيا من الحسد والحقد والرياء والكبر والثروة والمكر والخداع وحب الجاه والمال والعداوة والبغضاء. وأصل ذلك معلوم بالبصيرة، وكذا أكثر رؤوسه اللداغة.

أما انحصار عددها في تسعة وتسعين، إنما يوقف عليه بنور النبوة فقط. فهذا التنين متمكن في صميم فؤاد الكافر، لا بمجرد جهله بالكفر، بل لما يدعو إليه الكفرُ، كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]. وقال الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا...﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وهذا التنين لو كان كما تظنه خارجاً من ذات الميت، لكان أهون، إذ ربما يتصور أن ينحرف عنه التنين أو ينحرف هو عنه، لا بل هو متمكن من صميم فؤاده، يلدغه التنين لدغاً أعظم مما تفهمه من لدغ التنين، وهو بعينه صفاته التي كانت معه في حياته.

كما أن التنين الذي يلدغ قلب العاشق إذا باع جاريته، هو بعينه العشق الذي كان مستكناً في قلبه استكنان النار في الحجر، وهو غافل عنه. فقد انقلب ما كان سبب لذته سبب ألمه. وهذا سر قوله عليه السلام: «إنما هي

(١) حجب عنا ما يتعلق بأحوال القبر وعالم البرزخ اختباراً لنا وليكون إيماننا بالغيب، وتصديقاً لما أخبر به الله تعالى والصادق المصدوق ﷺ.

أعمالكم ترد عليكم»[1]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] بل سر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٥ ـ٦] أي الجحيم في باطنكم فاطلبوها بعلم اليقين، لتَرَوُنَّها قبل أن تدركوها بعين اليقين، بل هو سر قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤]. ولم يقل إنها ستحيط، بل قال: هي محيطة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ولم يقل يحيط بهم، وهو معنى قول من قال: إن الجنة والنار مخلوقتان[2]. وقد انطق الله لسانه بالحق، ولعله لما يطلع على سر ما يقوله.

فإن لم تفهم بعض معاني القرآن كذلك، فليس لك نصيب من القرآن إلا في قشوره، كما ليس للبهيمة نصيب من البرُّ[3] إلا في قشوره الذي هو التبن، والقرآن غذاء الخلق كلهم على اختلاف أصنافهم، ولكن اغتذاءَهم به على قدر درجاتهم. وفي كل غذاء مخٌ ونخالة وتبن. وحرص الحمار على التبن أشد منه من الخبز المتخذ من اللب، وأنت شديد الحرص على أن لا تفارق درجة البهيمة، ولا تترقى، إلى رتبة الإنسانية بل إلى الملكية، فدونك والانسراح في رياض القرآن، ففيه متاع لكم ولأنعامكم.

[الميتُ يرى ويشعرُ بما لا يراه مَنْ حَوْلَهُ]

فإن قلتَ: فهل يتمثل هذا التنين تمثلاً تشاهده مشاهدة تضاهي إدراك

(١) في معنى ما ورد في الحديث القدسي بسند صحيح: ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي... » وفي آخره «ياعبادي إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم...» رواه مسلم.

(٢) هذه عقيدة أهل السنة والجماعة قال الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان ولا يفنيان ولا يبيدان». شرح العقيدة الطحاوية للشيخ عبد الغني الغنيمي، ص١١٩. وهو شرح معتمد مختصر لعقيدة أهل السنة.

(٣) البُر: القمح.

البصر، أم هو تألم محض في ذاته كتألم العاشق إذا حيل بينه وبين معشوقه!
فأقول: لا، بل يتمثل له حتى يشاهدَهُ، ولكن تمثلاً روحانياً، لا على وجه يدركه من هو بَعدُ في عالم الشهادة، إذا نظر في قبره، فإن ذلك من عالم الملكوت.

نعم العاشق أيضاً قد ينام فيتمثل له حاله في المنام، فربما يرى حية تلدغ صميم فؤاده، لأنه بَعُدَ بالنوم من عالم الشهادة قليلاً، فيتمثل له حقائق الأشياء تمثلاً محاكياً للحقيقة، منكشفاً له من عالم الملكوت. والموت أبلغ في الكشف من النوم، لأنه أقمع لنوازع الحس والخيال، وأبلغ في تجريد الروح عن غشاوة هذا العالم. فلذلك يكون ذلك التمثل تاماً متحققاً دائماً لا يزول، فإنه نوم لا ينتبه منه إلا يوم القيامة ويقال له: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: ٢٢].

واعلم أن المتيقظ بجنب النائم إن كان لا يشاهد الحية التي تلدغ النائم، فذلك غير مانع من وجود الحية في حقه، وحصول الألم به. فكذلك حال الميت في القبر.

[حصر أصناف العذاب وتفاصيله]

لعلكَ تقولُ: قد أبدعتَ قولاً مخالفاً للمشهور، منكراً عند الجمهور، إذ زعمت أن أنواعَ عذابِ الآخرة تدركُ بنور البصيرة والمشاهدة إدراكاً مجاوزاً حدِ تقليد الشرائع، فهل يمكنك ـ إن كان كذلك ـ حصرُ أصناف العذاب وتفاصيله:

فاعلم أن مخالفتي للجمهور لا أنكره، وكيف تنكر مخالفة المسافر للجمهور؟ فإن الجمهور يستقرون في البلد الذي هو مسقط رؤوسهم، ومحل ولادتهم، وهو المنزل الأول من منازل وجودهم. وإنما يسافر منهم الآحاد.

واعلم أن البلدَ منزلُ البدنِ والقالب. وإنما منازل الروح الإنساني:

عوالم الإدراكات، فالمحسوسات (منزله الأول)، والمتخيّلات (منزله الثاني)، والموهومات (منزله الثالث).

ومادام الإنسان في المنزل الأول فهو دود وفَرَاش. فإنَّ فراش النار ليس له إلا الإحساس، ولو كان له تخيل، وحِفْظ للمتخيل بعدَ الإحساس لما تهافت على النار مرة بعد أخرى، وقد تأذى بها أولاً، فإن الطير وسائر الحيوان إذا تأذى في موضع بالضرب يفرّ منه ولم يعاوده، لأنه بلغ المنزل الثاني، وهو حفظ المتخيلات بعد غيبوبتها عن الحس. ومادام الإنسان في المنزل الثاني بعد، فهو بهيمة ناقصة، إنما حدّه أن يحترز عن شيء تأذى به مرة، وما لم يتأذَّ بشيء فلا يدري أنه يحذر منه.

ومادام في المنزل الثالث ـ وهو الموهومات ـ فهو بهيمة كاملة كالفرس مثلاً. فإنه قد يحذر من الأسد إذا رآه أولاً، وإن لم يتأذَّ به قط، فلا يكون حذره موقوفاً على أن يتأذى به مرة، بل الشاة ترى الذئب أولاً فتحذره، وترى الجمل والبقر وهما أعظم منه شكلاً وأهول منه صورة ولا تحذرهما، إذ ليس من طبعهما إيذاؤها. وهؤلاء إلى الآن تشاركهم البهائم، فبعد هذا يترقى الإنسان إلى عالم الإنسانية فيدرك أشياء لا تدخل في حس ولا تخيل ولا توهم، ويحذر به الأمور المستقبلة، ولا يقتصر حذره على العاجلة اقتصار حذر الشاة على ما تشاهده في الحال من الذئب، ومن ههنا يصير إلى حقيقة الإنسانية.

والحقيقة هي الروح المنسوبة إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وفي هذا العالم يفتح له باب الملكوت فيشاهد الأرواح المجردة عن كسوة التلبيس، وغشاوة الأشكال. وهذا العالم لا نهاية له.

أما عوالم المحسوسات والمتخيلات والموهومات فمتناهية، لأنها مجاورة للأجسام، وملتصقة بها والأجسام لا يتصور أن تكون غير متناهية، والسير في هذا العالم مثاله الخيالي المشي على الماء، ثم يترقى منه إلى

المشي في الهواء، ولذلك لما قيل لرسول الله ﷺ: إن عيسى ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ مشى على الماء، فقال ـ عليه السلام ـ: «نعم، ولو ازداد يقيناً لمشى في الهواء»[1].

وأما التردد على المحسوسات، فهو كالمشي على الأرض، وبينها وبين الماء عالم يجري مجرى السفينة، فيها تتولد درجات الشياطين، حتى يجاوز الإنسان عوالم البهائم، فينتهي إلى عالم الشياطين، ومنه يسافر إلى عالم الملائكة، وقد ينزل فيه ويستقر، وشرح ذلك يطول. وهذه العوالم كلها منازل الهدى، ولكن الهدى المنسوب إلى الله تعالى يوجد في العالم الرابع، وهو عالم الأرواح، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

ومقام كل إنسان ومحله ومنزله في العلو والتَّسَفُّلِ بقدر إدراكه، وهو معنى قول علي ـ رضي الله عنه ـ: «الناس أبناءُ ما يُحسنون». فالإنسان بين أن يكون دوداً أو حماراً أو فرساً أو شيطاناً. ثم يجاوز ذلك فيصير ملكاً.

وللملائكة درجات، فمنهم الأرضية، ومنهم السماوية، ومنهم المقربون المترفعون عن الالتفات إلى السماء والأرض، القاصرون نظرهم على جمال الحضرة الربوبية، وملاحظة الوجه خاصة، وهم أبداً في دار البقاء، إذ ملحوظهم هو الوجه الباقي، وماعدا ذلك فإلى الفناء مصيره، أعني السماء والأرض، وما يتعلق بهما من المحسوسات والمتخيلات والموهومات، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٢٦ـ٢٧].

وهذه العوالم منازل سفر الإنسان، ليترقى من حضيض درجة البهائم

(١) رواه الحكيم الترمذي ولا يصح سنده إلى رسول الله ﷺ. وقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال: «فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر...» فذكر أن عيسى عليه السلام قال: «لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء»، الإحياء: ٤/ ١٤٢.

إلى يفاع رتبة الملائكة، ثم يترقى من رتبتهم إلى رتبة العشاق منهم، وهم العاكفون على ملاحظة جمال الوجه، يُسبِّحون للوجه، ويقدسونه بالليل والنهار لا يفترُون.

فانظر الآن إلى خسّة الإنسان وشرفه، وإلى بُعد مراقيه، في معارجه، وإلى انحطاط درجاته في تسفله، وكل الآدميين مردودون إلى أسفل السافلين، ثم الذين آمنوا وعملوا الصالحات يترقون منها فلهم أجر غير ممنون، وهو جمال الوجه، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. لأن معنى الأمانة التعرض للعهدة والخطر، ولا خطر على سكان الأرض، وهم البهائم، إذ ليس لهم إمكان الترقي من المنزل الثالث، ولا خطر على الملائكة، إذ ليس لهم خوف الانحطاط إلى حضيض عالم البهائم.

وانظر إلى الإنسان، وعجائب عوالمه كيف يعرج إلى السماء العلوي[1] رقياً، ويهوي إلى أرض الحقارة هُوياً متقلداً هذا الخطر العظيم الذي لم يتقلّده في الوجود غيره.

فيامسكين؛ كيف تهدِّدُني بالعاقبة، وتخوّفني مجاوزة الجمهور ومخالفة المشهور، وبذلك فرحي وسروري. إن الذين يكرهون مني ذلك الذي يشتهيه قلبي. فاطوِ طُومار[2] الهذيان، ولا تقعقع بعد هذا بالشّنان[3].

[أصناف عذاب الآخرة]

وأما مطالبتك إياي بتفصيل عذاب الآخرة، وذكر أصنافه، فلا تطمع

(١) في نسخة أخرى: سماء العلو.
(٢) طومار: صحيفة.
(٣) في القاموس: وما يقعقع له بالشنان، بفتح القافين، يضرب لمن لا يتضع لحوادث الدهر ولا يروعه ما لا حقيقة له.

بالتفصيل، فذلك داعية إلى الملال والتطويل. واقْنع بذكر الأصناف، فقد ظهر لي بالمشاهدة ظهوراً أوضح من العيان، أن أصناف عذاب الآخرة ثلاثة:

أعني الروحاني منها، حُرقة المشتهيات، وخزي خجلة المفضحات، وحسرة فوات المحبوبات. فهذه ثلاثة أنواع من النيران الروحانية تتعاقب على روح من آثر الحياة الدنيا إلى أن ينتهي إلى مقاساة النار الجسمانية، فإن ذلك يكون في آخر الأمر، فخذ الآن شرح هذه الأصناف[1].

الصنف الأول: حرقة فرقة المشتهيات، فصورته المستعارة من عالم الحس والتخيل، التنين الذي وصفه الشرع، وعدد رؤوسه وهي بعدد الشهوات، ورذائل الصفات تلدغ صميم الفؤاد لدغاً مؤلماً، وإن كان البدن بمعزل عنه، فقدِّر في عالمك هذا مَلكاً مستولياً على جميع الأرض، متمكّناً من جميع الملاذّ متمتعاً بها، مُسْتَهْتَراً بالوجوه الحسان، متهالكاً عليها، مشغوفاً بالإمارة واستعباد الخلق بالطاعة، مطاعاً فيهم، غافصه عدوه[2] واسترقّه، واستعمله على ملأ من رعيته في تعهد الكلاب، وصار يتمتع بنعمه ويتمتع بأهله وجواريه بين يديه، ويتصرف في خزائنه وذخائر أمواله، فيفرقها على أعدائه ومعانديه. وانظر الآن هل ترى على قلبه تنيناً ذا رؤوس كثيرة، تلدغ صميم فؤاده وبدنه بمعزل عنه، وهو يريد أن يبتلى بدنه بأمراض وآلام ليتخلص منه؛ فتوهم هذا، فربما تَشْتَمُّ[3] به قليلاً من رائحة الحُطمة[4] التي فيها نار الله الموقدة التي لا تطلع إلا على الأفئدة، أعدت لمن جمع مالاً وعدَّده، يحسب أن ماله أخلده.

واعلم أن عذاب كل ميت بقدر رؤوس هذا التنين، وعدد الرؤوس

(١) وفي المطبوعة: الأوصاف.
(٢) قوله: غافصه أي فاجأه وأخذه على غرّة.
(٣) في نسخة أخرى: تشم.
(٤) الحطمة: النار الشديدة لأنها تحطم ما يلقى فيها.

بقدر المشتهيات، فلهذا من كان أفقر وتمتعه في الدنيا أقل، كان العذاب عليه أخف، ومن لا علاقة له مع الدنيا أصلاً فلا عقاب عليه أصلاً.

الصنف الثاني: خزي خجلة المفضحات. فقدّر رجلاً خسيساً رذيلاً فقيراً عاجزاً، قرّبه ملك من الملوك ورفعه وقوّاه وخلع عليه، وسلم إليه نيابة ملكه، ومكّنه من دخول حريمه وجملة خزائنه، اعتماداً على أمانته. فلمّا عظمت عليه النعمة، طغى وبغى، وصار يخون في خزانته، ويفجر بأهل الملك وبناته وسريّاته، وهو في جميع ذلك يظهر الأمانة للملك، ويعتقد أنه غير مطلع على خيانته. فبينما هو في غمرة فجوره وخيانته، إذ لاحظ روزنة[1] فرأى فيها الملك مطلعاً عليه منها، وعلم أن الملك كان يطلع عليه كل يوم وليلة، ولكنه كان يغض عنه، ويمهله حتى يزداد خبثاً وفجوراً، ويزداد استحقاقاً للنكال، ليصب عليه في الآخرة أنواع العذاب صباً.

فانظر الآن إلى قلبه كيف يحترق بنار الخزي والخجلة، وبدنه بمعزل عنه. وكيف يود أن يعذب بدنه بكل عذاب وينكتم خزيه، فكذلك أنت تتعاطى في الدنيا أعمالاً هي مشتهياتك. ولتلك الأعمال أرواحٌ وحقائق خبيثة قبيحة، وأنت جاهل بها معتقد حسنها. فينكشف لك في الآخرة حقائقها في صورها القبيحة، فتختزي، وتخجل خجلة تؤثر عليها آلاماً بدنية.

فإن قلت: كيف ينكشف إلي أرواحها وحقائقها؟ فاعلم أن ذلك لا تفهمه إلا بمثال. فمن جملته مثلاً أن يُؤذّن المؤذّن في رمضان قبل الصبح، فيرى في المنام أن بيده خاتماً يختم به أفواه الرجال وفروج النساء، فيقول له ابن سيرين: هذا رأيتَه لأذانك قبل الصبح. فتأمل الآن أنه لما بَعُدَ بالنوم قليلاً عن عالم الحس الجسماني، انكشف له روح عمله. لكن لما كان بَعُدُ في عالم التخيل ـ لأن النائم لا يزول تخيله بالنوم ـ غشّاه الخيال بمثال متخيل، وهو الخاتم والختم، ولكنه مثال أدل على روح العمل من نفس الأذان، لأن

(١) روزنة: الكوة، النافذة، والكلمة فارسية.

عالم المنام أقرب إلى عالم الآخرة. فالتلبيس فيه أضعف قليلاً، وليس يخلو عن تلبيس، ولأجله يحتاج إلى التعبير.

ولو قال قائل لهذا المؤذن: أما تستحي أن تختم أفواه الرجال وفروج النساء؟ لقال: معاذ الله أن أفعل هذا، فلأنْ أقدَّمَ ويضرب عنقي أحب إلي من أن أفعل ذلك. فهو ينكره، لأنه يجهله، مع أنه فعله، لأن روحه قاصرة عن إدراك أرواح الأشياء وحقائقها.

وكذلك لو أكلت لحماً طيباً على اعتقاد أنه لحم طير، فقال قائل: أما تستحي أن تأكل لحم أخيك الميت فُلان؟ لقلت: معاذ الله أن أفعل ذلك، ولأنْ أموت جوعاً أهون عليَّ من ذلك فنظرت فإذا هو لحم أخيك الميت قد طبخ وقدّم إليك ولُبِّس عليك.

فانظر كيف تختزي وتفتضح به، وبدنك في معزل عن ألمه. فكذلك يرى المغتاب نفسه في الآخرة، ولأن روح الغيبة تمزيق أعراض الإخوان والتفكه بها.

وفي عالم الآخرة تنكشف أرواح الأشياء وحقائقها، وكذلك لو كنت ترمي حجارة إلى حائط، فقال لك قائل، أما تستحي أن تفعل ذلك، والحجارة ترتد من الحائط وتقع في دارك، وتصيب حدقة أولادك، فقد غيبت[1] أحداقهم كلهم؛ قلت: معاذ الله أن أفعل ذلك. فقال: أُدخل دارك. فدخلت فإذا هو كذلك. فانظر كيف تفتضح ويحترق قلبك تحسراً على عملك الذي ظننته هيناً وهو عند الله عظيم. وهذا روح حسدك لأخيك، فإنك تحسده ولا تضره، وتنعكس عليك ويهلك دينك، وتُنقلُ حسناتك إلى ديوانه ـ وهي قرّة عينك ـ لأنها سبب سعادة الأبد، فهي أعز من حدقة الولد فإذا انكشف لك هذه الروح، فانظر كيف تحترق بنيران الفضيحة وبدنك بمعزل عنه.

فالقرآن كثيراً ما يعبّر عن أرواح العمال، ولذلك قال الله تعالى في

---

(١) في نسخة أخرى: عميت.

الغيبة: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقال الله تعالى في الحسد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٣].

فيكفيك من الأمثلة مثال الأذان والغيبة والحسد. فقس عليه كل فعل نهاك الشرع عنه، فذلك لقبح روح الفعل وحقيقته، وحسن ظاهره، أي ظاهره حسن للبصر الظاهر، وباطنه قبيح للبصيرة الناظرة من مشكاة نور الله تعالى.

وعن هذا عبّر الشرع حيث قال: تعرض الدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شوهاء زرقاء، صفتها كيت وكيت، لا يراها أحد إلا ويقول: أعوذ بالله منها، فيقال: هذه دنياكم التي كنتم تتهالكون عليها، فيصادفون في نفوسهم من الخزي والفضيحة ما يؤثرون النار عليها.

وإن أردت أن تفهم كيفية هذه الخجلة، فاسمع حكاية رجل من أبناء الملوك، زوج بأجمل امرأة من بنات الملوك، فشرب تلك الليلة فسكر، وأخطأ باب الحجرة فخرج من الدار، وضلَّ فرأى ضوء سراج فقصده على ظنّ أنها حجرته، فدخل الموضع فرأى جماعة نياماً، فصاح بهم فلم يجيبوه، فظن أنهم نيام فطلب العروس فرأى واحدة نائمة في ثياب جديدة فظن أنها العروس، فضاجعها وأخذ يقبلها ويغشاها، ويجعل لسانه في فيها ويمتص ريقها متلذذاً بذلك في سكره غاية التلذذ، ويتمسح بالرطوبات التي تصيبه من جميع بدنها، على ظن أن ذلك عطر ادّخرته له. فلما أصبح أفاق فإذا هو في ناووس المجوس، وإذا النيام موتى. وهذه عجوز شوهاء قريبة العهد بالموت، عليها الحنوط وكفنها الجديد، فصادف في فمه وأنفه من رطوبات ريقها ومخاطها، وعلى بدنه من قاذورات أسافلها. فإذا هو من قَرنه إلى قدمه ممتلئ في قاذوراتها، ثم تفكر في غشيانه إياها وابتلاعه ريقها، فهجم على قلبه من الخزي ما تمنَّى أن يخسف الله به الأرض. حتى ينسى ما جرى عليه، ولا يزال يعاود ذكره ولا ينساه أصلاً، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

﴿ عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]. وبدنه بمعزل من هذه المخازي والآلام، وهو في عذاب دائم من الغثيان والقيء، وتذكُّر تلك المخازي، ويحذر أن يطلع عليه أحد فيتضاعف حزنه، فإذا هو بأبيه وجميع حشمه قد جاؤوا في طلبه، واطلعوا على جميع مخازيه. فهذه حال من تمتع بالدنيا، ينكشف له كذلك في الآخرة روحه وحقيقته، وهي معنى قوله تعالى: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ١٠]. أي يعرض عليها حاصلها أي روحها وحقيقتها، وهي معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩] أي يكشف عن أسرار الأعمال وأرواحها القبيحة أو الحسنة، وكما أن ألذ الأطعمة رجيعه[١] أقذر وأنتن، فألذ تنعمات الدنيا وحاصلها وسرها في الآخرة أقبح وأفضح. ولذلك شبه رسول الله ﷺ الدنيا بالطعام، وعاقبته بالرجيع.

الصنف الثالث: حسرة فوات المحبوبات، فقدّر نفسك مع جماعة من أقرانك دخلتم في ظلمة، فكان فيها حجارة لا يُرى ألوانها، فقال أقرانك: احمل من هذا ما تطيق، فلعله يكون فيها ما ينتفع بها[٢] إذا خرجنا من الظلمة، فقلت فماذا أصنع بها؟ أتحمل في الحال ثقلها، وأكدُّ بنفسي فيها، وأنا لا أدري عاقبتها؛ ما هذا إلا جهل عظيم. فإن العاقل لا يترك الراحة نقداً بما يتوقعه نسيئة، ولا يستيقنه. فأخذ كل واحد من أقرانك ما أطاق أخذه، وأعرضت عن ذلك تستحمقهم وتسخر بهم، لأنهم ينوؤون تحت أعبائه وثقله، وأنت مرفّه في الطريق تعدو وتضحك منهم. فلما جاوزوا الظلمة نظروا، فإذا هي جواهر ويواقيت يساوي كل واحد ألف دينار. فأقبلوا على بيعها وتوصلوا بها إلى الجاه والنعمة وأصبحوا ملوك الأرض. فأخذوك فاستسخروك لتَعَهُّدِ دوابهم لينفقوا عليك في كل يوم قدراً يسيراً من فضلات الطعام. فكيف ترى اشتعال نيران الحسرة في قلبك، وبدنك بمعزل منه؟

(١) رجيعه: ما يقذف من الجوف عبر الفم.
(٢) في نسخة أخرى: به.

وكم تقول: ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦]، و﴿ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: ٥٣] فتقول لهم: أفيضوا علينا مما أُفيض عليكم، فيقولون لك: هذا حرام عليك، ألم تكن تسخر منا وتضحك علينا، فلابدَّ وأن نسخر اليوم منك كما سخرت منا، فلا يزال ينقطع نياط[١] قلبك من التحسر ولا ينفعك التحسر ولكن تتسلى وتقول: الموت يخلصني من هذا.

فاعلم أن حال تارك الطاعات في الآخرة كذلك ينكشف له، ولكن لا مطمع في المـوت المخلّص، بل هي حسرة أبدية دائمة، والألم يتضاعف كل يوم، وإن كان البدن بمعزل عنه، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وكذلك يفيض على أهل المعرفة والطاعة من أنوار جمال الوجه ما يحصل به من اللذة مبلغ لا يوازيه نعيم الدنيا، بل يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات كما ورد في الخبر[٢]، لا بمعنى تضاعف المقدار بالمساحة بل بتضاعف الأرواح. كما أن الجوهر يكون عشرة أمثال الفرس، لا بالوزن والمقدار، بل بروح المالية، إذ قيمته عشرة أمثاله.

واعلم أن تحريم تلك اللذات وإفاضتها عليهم ليس من جنس تحريم الرجل نعمه على عبده بغضب أو باختيار، حتى يتصور تغيره، بل هو كتحريم الله تعالى على الأبيض أن يكون أسود في حالة البياض، وعلى الحار أن يكون بارداً في حالة الحرارة، وذلك لا يتصور فيه التبديل.

بل مثال ذلك أن يقول للعالم الكامل رجل شيخ هرم من الجهال الذي كان بليداً في أصل الفطرة، ولم يمارس قط علماً ولم يتعلم لغة: أفِضْ على

(١) نياط: شريان أو هو العرق الغليظ المتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه من فوره.
(٢) رواه مسلم والترمذي.

قلبي من دقائق علومك، فيقول: إن الله حرَّمه على الجاهلين. معناه أن الاستعداد لقبوله إنما يكتسب بذكاء فطري، وممارسة طويلة للعلم، بعد تعلم اللغة العربية، وأمور أُخَر كثيرة. وإذا بطل الاستعداد وفات استحالت الإفاضة، كما يستحيل إفاضة الحرارة على البرودة مع بقاء البرودة، فلا تظنن أن الله تعالى يغضب عليك فيعاقبك انتقاماً. ثم تخدع نفسك برجاء العفو فتقول: لمَ يعذبني ولمْ يضره معصيتي؟! بل يلزم العذاب من المعصية كما يلزم الموت من السمّ.

واعلم أن هذه الحسرة دائمة لأن منشأها تضاد صفتين لا يزول تضادهما أبداً. مثاله أن الذي يعلّق بحبل في عنقه أو رجله إنما يتألم لتضاد الصفتين، لا لصورة الحبل والتعلق. لكن صفته الطبعية تطلب الهويّ إلى أسفل، والمنع القهري بالحبل يمانع الصفة الطبعية فيتولد الألم فيه من تمانعهما.

فكذلك الروح الإنساني من الروح الروحاني الإلـٰهي بأصل فطرته، فله بحكم الطبع حنين وشوق إلى عالم العلو، عالم الأرواح، وإلى مرافقة الملأ الأعلى. ولكن أغـلال الشهوات وسلاسـلها يجذبها إلى أسفل السافلين، وهي شهوات الدنيا، وهي صفة عارضة قهرت الصفة الطبعية، ومنعتها عن نيل مقتضاها، والألم يتولد من بينهما، والنار أيضاً، إنما تؤلم للمضادة، فإن الملائم للتركيب بقاء الاتصال. والنار تضاد الاتصال بالتفريق بين الأجزاء. ولو لم تكن قد رأيت النار، وسمعت بأن شيئاً لطيفاً ليناً يماسُّ بدنك فيؤلمك، لاستنكرته وقلت: شيء لا صلابة فيه كيف يؤلم باللمس؟.

واعلم أن التضاد مؤلم، سواء كان بسبب خارج أو داخل. فإن سمّ العقرب في العضو يؤلم لفرط برودته المضادة لحرارة البدن، فلا تظن أن الآلام كلها تدخل من خارج، فإن قلت: إن العقرب إنما لدغت من الخارج، فاعلم أن ألم السن وألم العين لا يقصر عنه، وإنما سببه انصباب خلط داخل

مضاد لمزاج العين والسن، وليس ذلك بأهون من لدغ العقرب والحية.

واعلم ان تضادّ الصفات في القلب، يؤلم القلب إيلاماً لا ينقص عما يؤلم السن والعين، ومثاله في أضعف الصفات، أن البخيل المرائي إذا طلب منه عطية على ملأ من الناس عند من يريد أن يعرفوه بالسخاء، يتألم قلبه لتضاد صفتين، إذ البخل يتقاضاه أن لا يُعطي، وحب الجاه يتقاضاه أن يعطي، وقلبه بين هاتين الصفتين كشخص يُنشر بمنشار بنصفين، فهذا مثال حسرة الفَوْت وعِظَمِها بقدر ما ينكشف من جلالة قدر الفائت، ولا تعلمه بالحقيقة في هذا العالم، بل في عالم الكشف، وهو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون.

واعلم أن هذه الأصناف الثلاثة، لها ترتيب:

فالصنف الأول: الذي يلقـاه الميت المعذب، هو حرقـة فرقـة المشتهيات، وذلك تنين حب الدنيا، ولذلك أضيف ذلك إلى القبر. وإنما سيق هذا لأن أغلب الأشياء على قلب الميت في الحال فراق ما يفوته في الدنيا من جاه ومال ومنصب ونعمة، ثم بعد ذلك ينكشف له أرواح الأعمال وحقائقها القبيحة، وذلك عند الانغمار التام في الموت، وبُعدِ العهد بغشاوة صفات الدنيا. وكل ما كان إمعانه في الموت أشد، فهو للكشف أقبل، فيفيض عند ذلك عليه الخزي والفضيحة، ولذلك أضيف هذا إلى القيامة، لأنه وسط بين منزل القبر وبين دار القرار. ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] أي يوم القيامة.

وأما حسرة فوت المحبوبات، فيستولي عليه آخراً عند دار القرار في النار، ففيها يقول: ﴿أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]. وذلك أن بُعد العهد عن الدنيا ربما يخفف عنه عذاب النزوع وطلب الرجوع إليها.

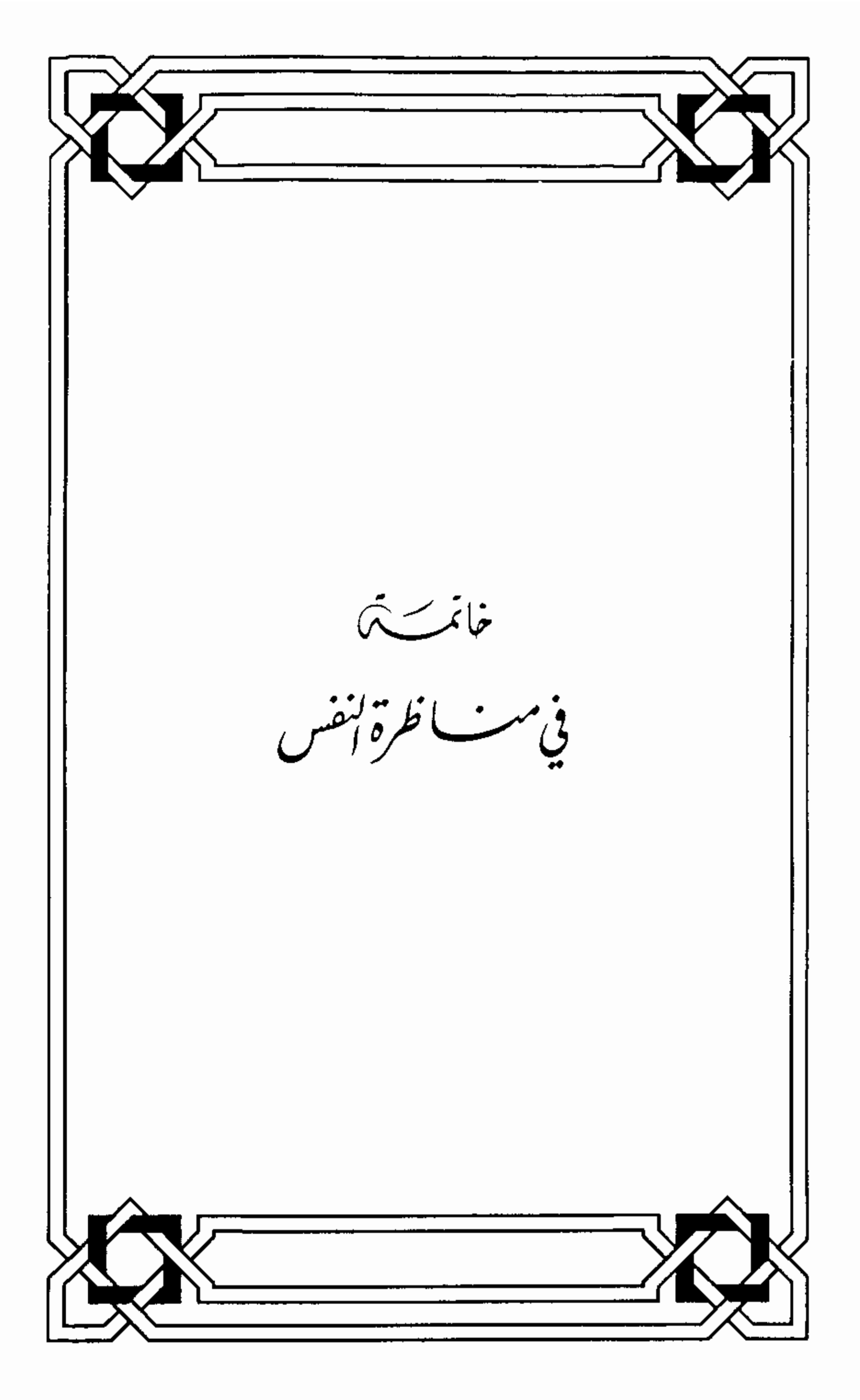
وطول العهد بالكشف، يوجب خروجه عن خزي الافتضاح. فإن سَوْرة عذاب الخزي تكون عند هجوم الافتضاح، ثم يألف الفضيحة

والخزي إلفاً ما، ثم عند فتورهما قليلاً تنبعث حسرة الفوت، إذ يظهر جلالة الفوائت، ثم تبقى حسرة الفوت آخراً، ويشبه أن يكون ذلك لا آخر له. وهذا كله تعرفه قطعاً، إذا عرفت نفسك، وعرفت أنك لا تموت، لكن تعمى عينك، وتصم أذنك، وتفلج أعضاؤك.

فأما الحقيقة التي أنت بها أنت، فلا تفنى بالموت أصلاً، بل يتغير حالك فقط، فيبقى معك جميع معارفك، وإدراكاتك الباطنة، وشهواتك، وإنما تعذبك بفراق ما أحببت، وافتضاحك بظهور ما ينكتشف في تلك الحال، وتحسرك على فوات ما تعرف عظم قدره بعد الموت، لا قبله، وهذا كله مقدمات العذاب الحسي البدني، وذلك أيضاً حق، وله ميعاد معلوم، كما ورد به الآي والأخبار.

فاقنع الآن بهذا القدر، فإن هذا الكلام يكاد يجاوز حد مثل هذا الكتاب. ولابدَّ وأن يحرك سلسلة الحمقى والجاهلين، ولكنهم أخس من أن يلتفت إليهم. قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] فلنقتصر على هذا. ولنختم به (الأصول الأربعين)، لنختم به كتاب (جواهر القرآن)، ومن طلب مزيداً على هذا فليطلبه من كتاب ذكر الموت من كتب الإحياء. فالغرض الأظهر من هذا الكتاب، التلويحات مع التشويق إلى الاستقصاء المذكور في ذلك الكتاب. ففيه تنكشف أسرار علوم الدين، ولا يفتر عن طلبه إلا مشغوف بالدنيا لا يطلب من العلوم إلا ما يتخذه شبكة للحطام، وآلة لكسب الحرام، فلا يناسبه علوم ذلك الكتاب أصلاً ألبتة. حسبي الله وكفى.

* * *



خاتمة
في مناظرة النفس

اعلم أنا قد نبّهناك وشوّقناكَ، فإن أعرضتَ عن الإصغاء أو أصغيت بظاهر قلبك، كما تصغي إلى الكلام الرسمي، فقد خِبتَ وخسرتَ، وما ظلمتَ إلا نفسك. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وإن أصغيت إصغاءَ ذي فطنة وبصرٍ حديد، وتفكرت تفكر من له قلب عتيد، وقد ألقى السمع وهو شهيد، فاخرج عن جميع ما يصدك عن سلوك الصراط المستقيم، وما يصد عنها إلا حب الدنيا والغفلة عن الله تعالى واليوم الآخر.

واجتهد أن تفرغ قلبك كل يومٍ ساعة عَقيبَ صلاة الصبح، وذلك عند صفاء الذهن. فتُفكر في شأنك وتنظر في مبدئكَ ومعادكَ، وتحاسبَ نفسك

وتقول لها: إني مسافر وتاجر، وربحي سعادة الأبد ولقاءُ الله تعالى السرمد[1] وخسراني شقاوة الأبد والحجابُ عن الله تعالى ورأس مالي عمري، وكل نفَسٍ من الأنفاس كنز من الكنوز، وجوهرة من الجواهر[2]، إذ تجارته[3] به سعادة الأبد. وأي كنز أعظم من هذا، وإذا فَنِيَ العمر انقطعت التجارة وحصل اليأس. وهذا اليوم يوم جديد قد أمهلني الله تعالى فيه، ولو توفاني لكنت أشتهي أن يُرجعني إلى الدنيا لأعمل صالحاً.

---

(١) السرمد: زيادة من المخطوطة.
(٢) في المخطوطة (زيادة): ليس لقيمته من الدنيا شيءٌ يساويه.
(٣) في المخطوطة: إذ تصطاد...

فاحسبي يانفسي أنك توفيت ورجعت إلى الدنيا يوماً واحداً. واجتهدي في هذا اليوم الواحد، وانظري لنفسك، فإن لم تُمَهَلي للغد فقد استوفيت ربح هذا اليوم ولم تتحسري، وإن أُمهلت فاستأنفي للغد مثل ذلك ولا تخدعي نفسك بتمني العفو، فإن ذلك ظن قد يكذب، ولا ينفع التحسر.

ثم هبْ أنه قد عُفي عنك، أليس قد فاتك ثواب المحسنين؛ وناهيك به حسرة وندامة.

فإذا قالت نفسك: ماذا أعمل وكيف أجتهد؟.

فتقول: اتركي ما يفارقك بالموت، والزمي بُدَّك اللازم وهو الله تعالى واطلبي الأنس بذكره.

فإذا قالت: فكيف أترك الدنيا؟ فقد استحكمت علائقها في قلبي.

فتقول: أقبلي على قطع علائقها من باطن القلب، كما علمناك في الأصول العشرة من المهلكات. ففتشي عن أغلب علاقة من علائقها من حب مال أو جاه أو حسب أو عداوة أو شهوة بطن أو فرج أو غير ذلك من المهلكات فليس إلا أن تتفكر في عظم آفاتها وإهلاكها إياك، فتنعبث لمجاهدتها ومخالفة مقتضاها، فقد تخلصت منها وأيدك الله بتوفيقه ومعونته.

ثم تقول: فقدِّري أنك مريضة العمر مدة الحياة، قد أنبأك طبيب تظنين صدقه أن ملاذّ الأطعمة تضرك، وأن الأدوية البشعة تنفعك، أليس تتصبرين بقوله على مرارة الدواء طمَعاً في الشفاء؟ ألست تتصبرين على الكدّ والتعب في السفر الطويل طمعاً في الاستراحة في المنزل، وأنت مسافرة ومنزلك الآخرة؟ والمسافر لا يستريح ويتحمل التعب والكدّ، فإن استراح انقطع في الطريق وهلك.

وتقول يانفس: ما الذي تطلبين من الدنيا؟.

إن طلبت المال ووجدته، وهيهات، فتكون في اليهود جماعة أغنى منك.

وإن طلبت الجاه ونلت، وهيهات، فتكون في أجلاف الأتراك وحمقى الأكراد من يستولي عليك، ويكون جاهه أعظم من جاهك. فإن كنت لا تدركين آفة الدنيا وشدة عذابها في الآخرة وبلائها، أفلا ترفعين عنها لخسة شركائها؟ أما تعلمين أنك لو أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة، كنت وحيدة الدهر وفريدة العصر لا يوجد في الأقاليم نظيرك؟ وإن طلبت الدنيا كان في اليهود والحمقى من سبقك بها. فأفٍّ لدنيا سبقك بها حمير. فتفكري يانفس، وانظري لنفسك، فلا ينظر لك أحد غيرك.

وكذلك لا تزال تناظر نفسك حتى تطاوعك على سلوك الصراط المستقيم إلى الله تعالى. فهذه المناظرة أهم لك ـ إن كنت عاقلاً ـ من مناظرة الحنفية والشافعية والمعتزلة وغيرهم. فلِمَ تعاديهم وتجادلهم ولا يضرك خطؤهم ولا خطأ غيرهم، ولا هم يقبلون منك ولا أنت تقبل منهم الصواب، وإن صار أظهر من الشمس. وتترك أعدى عدوّك بين جنبيك لا تنازعه ولا تناظره، بل تساعده على ما يطالبك به من شهواته الباطلة الباطنة. فتستنبط بالفكر الدقيق الحيل لقضاء الشهوة، هل هذا إلا عين الانعكاس والانتكاس على قمة الرأس؟ فهل رأيت قط رجلاً يشاهد تحت ثوبه حيات وعقارب أقبلت عليه لتهلكه، فأخذ المروحة ليدفع الذباب عن وجه غيره، فهل يستحق من يفعل ذلك إلا الخزي؟.

فاعلم أن هذا حالك في اشتغالك بمناظرة غيرك، وإعراضك عن مناظرة نفسك. وفي هذا المعرض ينكشف لك روح عملك، يوم تبلى السرائر. كما نبهتُكَ على كيفية مكاشفات الآخرة بأسرار الأعمال وأرواحها. وما لم تناظر نفسك مدة طويلة، لا تخلِّيكَ لمناجاة ربك وذكره والإقبال عليه. ثم طريقك مع النفس ـ إذا خالَفَتْك ـ أن تعاقبها بما يزجرها، وتعلم أنها كالكلب، لا يتأدب إلا بالضرب.

وإن أردت أن تعلم طريق مناظرتها ومراقبتها ومحاسبتها ومعاقبتها فاطلبه من كتاب المحاسبة والمراقبة (في الإحياء) فإن هذا الكتاب لا يحتمله،

والله تعالى يوفقنا وإياك بفضله وجوده وكرمه إلى طريق الحق وتأييده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

الفهرس

القسم الثاني
في الأعمال الظاهرة

القسم الثالث
في تزكية القلب عن الأخلاق المذمومة

القسم الرابع
في الأخلاق المحمودة

* * *

سلسلة علم المنطق

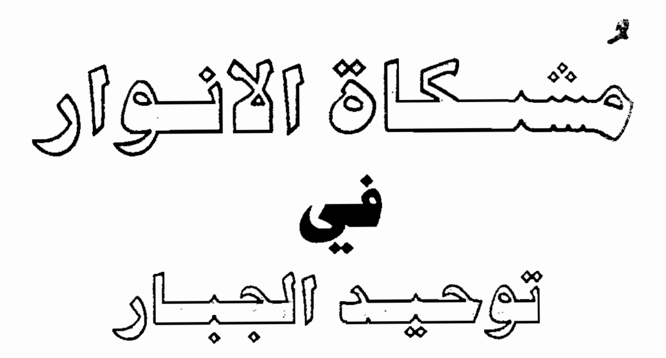


الامام ابو حامد الغزالي

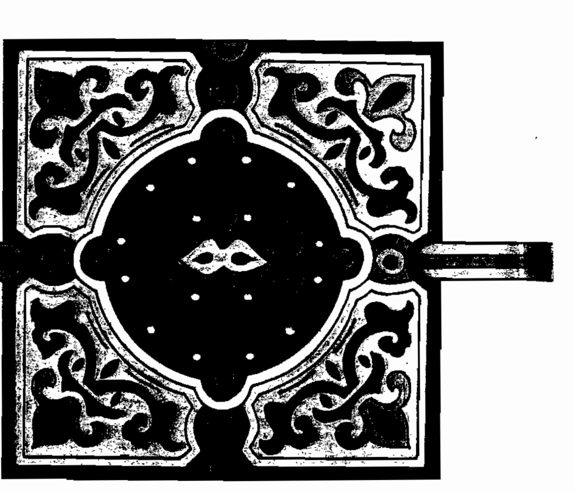




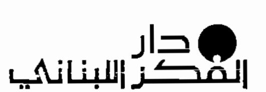
سلسلة علم المنطق



الامام ابوحامد الغزالي



تحقيق وضبط وتعليق
د. سميح دغيم

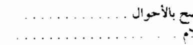




كتب الفلسفة والعلوم

* * * * *

سلسلة علم الكلام



المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال .... الغزالي
إلجام العوام عن علم الكلام .... الغزالي
فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .... الغزالي
مشكاة الأنوار .... الغزالي
أساس التقديس في علم الكلام .... الفخر الرازي
معالم أصول الدين .... الفخر الرازي
محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين .... الفخر الرازي
فلسفة القدر في فكر المعتزلة .... د. سميح دغيم
المنطلقات الفكرية عند الإمام الرازي .... د. محمد العريبي
ذم الكلام .... الأنصاري الهروي

سلسلة علم المنطق

تلخيص منطق أرسطو ٧ مجلدات .... ابن رشد
الرد على المنطقين: مبحث الحدود والقضية والقياس .... إبن تيمية
الرد على المنطقين: مبحث الاستدلالات .... إبن تيمية
البصائر النصيرية .... الساوي
منطق ابن زرعة .... إبن زرعة
تتمة صوان الحكمة .... البيهقي
المنطق الكبير للرازي .... الرازي
منطق أرسطو .... أرسطو

سلسلة علم النفس

التحليل النفسي الفرويدي للذات الانسانية .... د. فيصل عباس
التحليل النفسي الفرويدي وقضايا الإنسان والحضارة .... د. فيصل عباس
أساليب دراسة الشخصية .... د. فيصل عباس
الفحص النفسي .... د. مصطفى حجازي

كتب الفلسفة

رسائل إبن رشد الفلسفية (٥ أجزاء) .... إبن رشد
تهافت التهافت .... إبن رشد
تهافت الفلاسفة .... الغزالي
تهافت الفلاسفة .... الطوسي
الفلسفة ومشكلات الإنسان .... د. رضا سعادة
مشكلة الصراع بين الفلسفة والدين .... د. رضا سعادة
الفكر اليوناني قبل أفلاطون .... د. حسين حرب
الفكر اليوناني أفلاطون .... د. حسين حرب
التربية والتيارات الفلسفية الكبرى .... بوكدان دوشكي
إبن رشد وفلاسفة الإسلام .... د. محمد العريبي
مفهوم اليقين عند الغزالي .... الأب فريد جبر
بحوث في الفلسفة .... د. ديبريره سقال

كتب في العلوم

مفاتيح العلوم .... الخوارزمي
رسالة في العلوم .... التوقاتي الرومي
دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها .... جورج كانغيلهم
تاريخ العلوم عند العرب .... د. كامل حمود

كتب فكرية

أثر الخصوصية العربية في المجتمعة الإسلامية .... د. رفيق العجم
أثر الخصوصية العربية في المعرفية الإسلامية .... د. رفيق العجم
أثر الإسلام في العقلية العربية .... لويس غارديه
المذاهب والمناهج الفكرية والعلوم عند العرب .... د. محمد العريبي





مشكاة الانوار

في توحيد الجبار

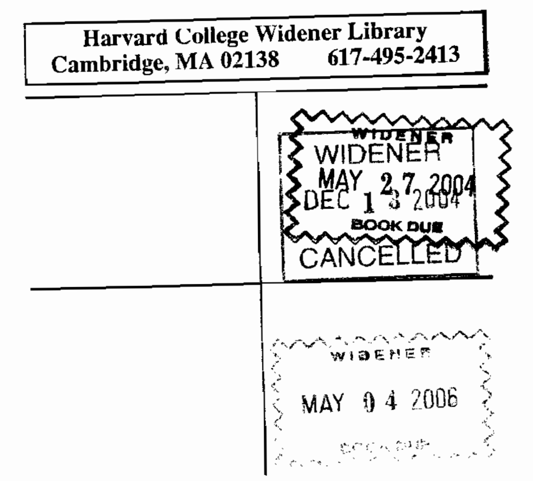
الامام ابو حامد الغزالي

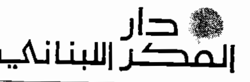
تحقيق وضبط وتعليق

د. سميح دغيم

دار الفكر اللبناني

بيروت





كورنيش بشارة الخوري - بيروت - لبنان
هاتف: ٦٣٠٩٠٦ - ٦٣١٠٠٢ - ٦٣٠٧٥٧
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠

الطبعة الأولى ١٩٩٤

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: [illegible] - ٤٦٠٧٤٣

حياة الغزالي وعصره

١ ـ هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي «أبو حامد» ، ولد بمدينة طوس من أعمال خراسان عام ٤٥٠ هجرية ، ١٠٥٨ م . عمل والده بغزل الصوف ، وكان يرتاد مجالس الفقهاء والمحدثين والمتصوفين :

بعد وفاة والده ، عاش أبو حامد في كنف أحد المتصوفين الذي تعهد تربيته بناءً على وصيّة والده . ثم بعدها تابع الغزالي تحصيل علومه من فقه وكلام وحديث على أيدي أهم علماء عصره .

محطته الرئيسية كانت في نيسابور حيث التقى هناك بإمام الحرمين «أبو المعالي الجويني» فتتلمذ على يديه وزامله فيما بعد بالتدريس في النظاميّة . بدأ عهده باكراً في التأليف والكتابة . وبعد موت الجويني خرج إلى العسكر حيث التقى هناك بنظام الملك السلجوقي وزير الدولة آنذاك ، ومؤسس المدرسة النظامية في بغداد ، فعينه أستاذاً فيها . وتعتبر الفترة التي قضاها في التدريس من أخصب سني حياته في التأليف .

عام ٤٨٨ ترك بغداد قاصداً الحج ، حيث بقي فترة عشر سنوات متنقلاً بين بيت المقدس ومكة والشام . بعدها عاد الغزالي إلى طوس ، ثم عاود الرجوع إلى نيسابور للتدريس فيها . ومن ثم عام ٥٠٣ ترك كل شيء ، وقضى السنوات الأخيرة في عزلة حتى وافته المنية عام ٥٠٥ هجرية .

من خلال هذه العجالة عن حياة الغزالي نستطيع أن نتبيّن أهم مراحلها

والخلفيات التي كانت تحكمها :

١ ـ نشأته في كنف الصوفية .
٢ ـ تأثره بأبي المعالي الجويني .
٣ ـ خوضه في الحياة العامة سياسياً وثقافياً وذلك باتصاله بنظام الملك السلجوقي .
٤ ـ الأزمة الروحية التي تعرَّض لها ورواها في المنقذ من الضلال .
٥ ـ العودة إلى التدريس في نيسابور ، ثم من بعد اعتزال الناس .

٢ ـ عصر الغزالي من الناحية الثقافية والسياسية :

إن المرحلة الثانية من الخلافة العباسية ، هي مرحلة انحطاط واضطراب وتفكك لهيكلية الدولة الإسلامية . وفي أواخر هذه المرحلة لم يبق للخلافة الإسلامية إلّا الاسم ، أمَّا فعلياً فقد تعاقب على الاستئثار بالسلطة تارة الفرس وتارة أخرى الترك ، حتى سقطت بغداد أخيراً على يد المغول .

وفي السنين الأخيرة من حياة الغزالي بدأت تتناهى إليه أخبار الحملات الصليبية على الشرق . أمام كل ذلك ، أخذ الغزالي يتصدى لكل الفرق التي نشأت آنذاك ولكل التيارات السياسية اللازمة عنها وخصوصاً الباطنية . فكان المدافع الأول عن مذهب أهل السلف ، داعياً لمناصرة أهل السنة وما يلزم عن مذهبهم من نظام حكم . هذا ما يبرر علاقته بالدولة السلجوقية ودوره الذي أسنده إليه نظام الملك في الدفاع عن العقيدة .

بمقابل هذا الاضطراب السياسي ، كانت الحالة الثقافية تمر بمرحلة اختلاط الثقافات وتشعبها وتطورها بمعنى من المعاني . إنها مرحلة مهمة جداً ، فيها انسكبت المعطيات الثقافية السابقة مع ما استجد ، في قالب جديد ، ربما استفاد منه بعض مفكري هذا العصر ، لإرساء قوالب ومناهج جديدة حكمت تفكير المسلمين لفترة طويلة فيما بعد .

فالأثر اليوناني ظهر مع فلاسفة الإسلام «الكندي ـ الفارابي ـ ابن

سينا» ، أما التصوف فجذوره هندية وفارسية ويونانية. أضف إلى ذلك العلوم الإسلامية التي بدأت في أصولها إسلامية صرفة (علم كلام ـ فقه ـ حديث) ثم تطورت حتى استوعبت في ثناياها كل التأثيرات الثقافية السائدة آنذاك .

ضمن هذه المعطيات المستجدة على الصعيد الفكري والسياسي نشأ الغزالي وترعرع مطلعاً على كل ما يدور حوله ، منخرطاً في مجتمعه ، مناصراً لحكامه الذين هم على مذهب أهل السلف .

وصف المخطوط

هذا المخطوط «لمشكاة الأنوار» موجود في مكتبة «الأسكوريال» في مدريد إسبانيا . وقد حصلنا على فيلم مصوَّر يحتوي على عدة رسائل للغزالي منها رسالة «مشكاة الأنوار في توحيد الجبَّار» .

كتب المخطوط بخط نسخي ، ودون تقطيع فقرات أو فصول ، ودون تنقيط في آخر الجمل . وهو يقع في ١٦ صفحة : عرض ٢٠ ـ طول ٢٨ . وفي كل صفحة ما يقارب ٣٥ ـ ٣٦ سطر . هناك بعض ما سقط في المتن موجود في الهامش ، وهو أغلبه شرح لما هو في المتن أو توضيح للألفاظ غير الواضحة .

طريقة تحقيق المخطوط :

اعتمدنا هذه النسخة التي بين أيدينا كأساس للتحقيق . وقارنا بين مخطوط «الأسكوريال» ونشرتين محققتين هما : نشرة أبو العلاء عفيفي[١] ورمزنا إليها بحرف «ع» ، ونشرة ثانية بعنوان «القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي»[٢] وقد رمزنا إليها بحرف «ق» .

---

(١) مشكاة الأنوار : تحقيق الدكتور أبو العلاء عفيفي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ .

(٢) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي : القاهرة ، مكتبة الجندي ، بدون تاريخ .

الأصل إذن هو مخطوط «الأسكوريال» الذي رمزنا إليه بحرف «س» ، ووضعنا الفوارق مع النشرتين في الهامش . إلاَّ أننا أحياناً أثبتنا في متن النص ما هو ساقط منه أو مشوَّه ، بما هو موجود في إحدى النشرتين وعللنا ذلك وبينَّاه . وقد تبيّن لنا أن هناك تقارباً قوياً قد يصل إلى حد المطابقة ما بين نشرة العفيفي ومخطوط الأسكوريال ، إلاَّ أن الفوارق الكبرى كانت مع نشرة «ق» حيث سقط منها ما يقارب الثلاث صفحات (طباعة) وفيها بعض الاختلافات التي قد تغيِّر في المعنى .

إن نشرة (ق) ليست نشرة علميّة ، فلا تذكر المخطوط الذي حُقِقت عنه ، ولا تقطيعات كاملة ولا هوامش ولا فهارس .

أما نشرة (ع) فهي نشرة دقيقة وحسنة التبويب والإخراج ، وقد وفّق صاحبها في إبراز الفوارق في المخطوطات التي اعتمد عليها .

أما نحن فقد أثرنا إعادة نشر هذا الكتاب مجدداً ، لأننا حصلنا على مخطوط جديد لم يحقق من قبل ، مهتمين بإبراز الفوارق التي قد تقع بينه وبين سائر المخطوطات والنشرات ، متوخين بذلك الدقة العلمية .

عرض وتحليل مضمون الرسالة

I

قبل الدخول في تحليل مضمون الرسالة ، لا بد من التقدم أولاً وتحديد الفضاء المعرفي الذي تحرّك من ضمنه فكر الغزالي . ثم لا بد من تحديد العوامل والمؤثرات التي سمحت بإنتاج هذا الفضاء المعرفي في ذلك العصر الذي تداخلت فيه الكثير من المعطيات ، حتى غدا وكأنه تأسيس لمسار جديد في المعرفية الإسلامية .

مما لا شك فيه أن عصر الغزالي (الخامس الهجري) هو عصر الإضطراب الثقافي والاجتماعي والسياسي . وإذا كنا نود حصر المسألة ، فإنه بإمكاننا تحديد الفضاء المعرفي السائد بالتالي :

لقد تداخلت العلوم الدخيلة (فلسفة ، منطق) مع العلوم الإسلامية (حديث ـ كلام ، فقه ، أصول فقه ، عقيدة) مما سمح بإنتاج أنظمة معرفية جديدة ، كان أبرزها على هذا الصعيد تبيئة المنطق الأرسطي بصيغة أو بأخرى . هذا ما حصل على يد الجويني ومن ثمّ على يد الغزالي نفسه ، حتى انتهى الأمر مع الرازي مسلكاً معرفياً جديداً ، أدى إلى محاولة إنشاء ميتافيزيقا إسلامية .

بيد أن هذا المسلك المعرفي ، قابله مسلك آخر سثم من عقم

المجادلات المنطقية والكلامية في العقيدة والتي اتخذت منحى تصادمياً إن على الصعيد الديني أو على الصعيد السياسي . هذا المسلك المعرفي رسم إطاره بعض الزهاد والمتعبدين والمعتزلين للحياة العامة ، فانبنى من خلاله ما سُمّي «بالتصوف الإسلامي» الذي بلغ ذروته فيما بعد في «ثيو صوفية» جديدة مع ابن عربي وعبد الكريم الجيلي .

إذن مسلكان معرفيان ميّزا فترة الغزالي هذه : مسلك معرفي بياني (قدرة العقل على اكتشاف كنه الحقيقة العقلية والدينية) ومسلك عرفاني يعتمد القلب كمفتاح للمعارف التي تقع انقداحاً واشراقاً وكشفاً نورانياً (القلب مركز التلقي ، والمعرفة فيض روحاني) .

ولم يكن الغزالي غريباً عن هذين المسلكين ، فقد عرفهما وعاش تجربتهما . فهو قد عاش بداية حياته في كنف أحد المتصوفين ، ثم عاود هذه التجربة كما يذكر في كتاب المنقذ من الضلال ، في النصف الثاني من حياته غداة خروجه من بغداد ليعتزل الناس ويمارس التجربة الصوفية .

أمّا في شأن تلقيه للعلوم العقلية ، فهذا ظاهر من خلال تتلمذه على يد «أبو المعالي الجويني» وتحصيله تلك العلوم طالباً في نظامية نيسابور ، ومن ثمّ أستاذاً لاحقاً فيها وفي نظامية بغداد التي تولى رئاستها زمن نظام الملك السلجوقي .

ثم أيضاً إن من يطلع على مؤلفات الغزالي يرى أنها بدت متنوعة المسالك المعرفية فمنها ما هو في المعارف العقلية في علم الكلام ، ومنها ما هو في أصول العقيدة والتصوف . صحيح أن لكل ذلك ترتيباً زمانياً ، إلاّ أن التداخل واضح في فكره بين مختلف المسالك المعرفية آنذاك .

هل يعني كل ذلك أننا لا نستطيع أن نحدد الإطار المعرفي الذي يندرج فيه فكر الغزالي ؟. يجب أن لا يغرب عن بالنا أن الغزالي مفكر منخرط في مجتمعه . أما العزلة التي اختارها عند خروجه من بغداد فهي ذات أبعاد

فكرية وسياسية . لقد كان الغزالي على صلة مباشرة بالسلاجقة الحكام الفعليون آنذاك ، وخصوصاً مع الوزير نظام الملك الذي أنشأ نظامية بغداد ، وهو الذي كان يهتم بالمسألة العقيدية التي تدعم مذهب أهل السنة وبالتالي سلطتهم آنذاك . أضف إلى ذلك أن نظام الملك هذا ، هو الذي شجع كثيراً إنشاء «الخانقوات الصوفية» ، وما يلزم عنه من تشجيع للمسلك العرفاني ، بمقابل ما شهدته الساحة الفكرية آنذاك من انتشار متعاظم ومتنامي للدعوة الفاطمية «الباطنية» . لقد كان هم الغزالي الأساسي الدفاع ليس فقط عن مذهب السنة وتأسيساته المعرفية ، بل حتى أيضاً عن سلطة أهل السنة . لذلك نراه شديد الاهتمام ليس بتبيان الحق فقط بل بمساندة أهل الحق .

II

التحليل

لا شك أن لهذه الرسالة وحدتها التأليفية المتماسكة والتي حدت بالبعض[١] إلى اعتبار أنه يمكن دراستها بمعزل عن أي نتاج آخر للغزالي . بيد أن المتتبع لمراحل تطور فكر الغزالي لا يمكنه أن يعزلها بالإطلاق عما تطور إليه فكره من خيارات ، ربما لم يكن بإمكاننا تصنيفها ضمن حقل معرفي خاص ، لكن بإمكاننا أن نقرأها ضمن السياق المعرفي الذي اختطه لنفسه الغزالي . ذلك السياق الذي يتأرجح بين المسلكين المعرفيين ، البياني والعرفاني فجاءت هذه الرسالة وكأنها توكيد من الغزالي على أن بمقابل البيان ، هناك ما يؤيده ويعمقه ويجعله أكثر وضوحاً وجلاء ، وهو الكشف النوراني .

(١) إلى هذا يذهب الدكتور أبو العلاء عفيفي في كتابه «مشكاة الأنوار» ـ الدار القومية للنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١١ .

الفاتحة

تقسم هذه الرسالة إلى فاتحة وثلاثة فصول .

بعد البسملة والحمدلة ، يبدأ الغزالي كما في معظم مؤلفاته بمخاطبة أخ له في الدين رداً على سؤال مفترض أنه طرحه . هذه الصيغة المألوفة عنده ، ربما كانت تنم عن توجه معيّن . فهل هو يتوجه إلى رجل سلطة معيّن ، يحاول أن يرفده بالتأسيسات العقيدية والمعرفية التي تخدم سلطته . أم أن المسألة لا تتعدى صياغة معينة يريد الغزالي افتتاح الرسالة بها كما في سائر كتبه . ظننا أن الأمر لا يبدو بهذه البساطة ، بل نحن نذهب إلى اعتبار أن كل شيء مهيّأ ومدبّر ومخطط له ضمن سياق فكري يسعى الغزالي إلى تأسيسه على المستوى المعرفي وحتى أيضاً على المستوى السياسي أي على مستوى أهل السلطة آنذاك . ودليلنا على ذلك ما يلي :

ـ كانت الدعوة الباطنية قد انتشرت آنذاك بين الناس في المشرق العربي ، وهي سعت إلى تأسيسات فكرية ودينية حاولت منها النفاذ إلى السلطة في المشرق بعد أن تسنى لها أن تستولي عليها في مصر . لقد نجحت الدعوة الفاطمية سياسياً في مصر ولم تنجح عقيدياً ، بينما نجحت في المشرق عقيدياً ولم تنجح في الاستيلاء على السلطة . يجب أخذ كل ذلك بعين الاعتبار ، لأن الصراع على السلطة كان يأخذ منحى عقائدياً ، فانبرى الغزالي للدفاع عن مذهب أهل السلف وعن سلطتهم ، وخاض في ذلك

غمار المجادلة والمقارعة للخصوم . وكان عليه أن يكتشف مفاتيح تفكيرهم وتأسيساتهم العقيدية يبني عليها ردوده . إن مسألة التأويل التي تناولها موضوعاً أساساً في هذه الرسالة هي ردٌ غير مباشر على تأويلات الباطنية آنذاك ، ومحاولة لضبط ذلك التفلت العرفاني في شطحات الصوفية . إضافة إلى محاولة المزاوجة بين البيان والعرفان ، واعتبار هذا الأخير سياقاً معرفياً مكملاً للسياق الأول .

والملاحظ أن الغزالي اختار آية النور ليستند إليها في إظهاره ذلك المستوى من البيان الذي يرتقي إلى ما فوق حجب العقل ، محاولاً التركيز على المعنى الباطني لبعض التمثيلات والإشارات في هذه الآية . فهو يحاول أن يتأول ويضع منهجاً خاصاً لذلك ومن ثم يبين لنا المعنى المقصود . كل ذلك مع إدراك مسبق لصعوبة المسألة وخطورتها على قدرات العارفين . فالسؤال صعب ، والباب مغلق إلاّ للراسخين في العلم ، ومع ذلك فالأسرار يجب أن لا تكشف لأن في ذلك كفر . بيد أن من شرح الله له صدره ، وأيّده بأنواره ، يمكن البوح له بالأسرار العميقة ، وإن تكن هذه مجرّد تلميحات وإشارات سيعرضها الغزالي في ثلاثة فصول .

الفصل الأول

يقع الفصل الأول في شرح معنى النور الحق الوارد في سورة النور في القرآن . وبيان ذلك لا يمكن تفصيله وشرحه إلاَّ من خلال تصنيف معنى فهم النور عند الناس . فهناك :

١ ـ عامة الناس :

ومعنى النور عندهم يعني الظهور ، أي المعنى الحسي . والحس لا يُدركِ إلاّ معنى إضافي ، لا معنى الشيء في حد ذاته . وهنا يُفصِّل الغزالي كيفية الإدراك الحسي عند العوام وخصوصاً حاسة البصر حين ينقسم بالإضافة إلى الأشياء إلى ثلاثة أقسام :

ـ ما يُبْصَر بنفسه كالأجسام المظلمة .
ـ ما يُبْصَر ، ولا يُبصَر به غيره كالأجسام المضيئة .
ـ ما يُبْصَر بنفسه ويُبْصر به غيره كالشمس والقمر والسراج .

ويعتبر الغزالي أن هذا القسم الأخير هو الذي يطلق عليه اسم النور . فالنور بمعنى الحس البصري «هو ما يُبْصَر بنفسه ويُبْصَر به غيره كالشمس»[1] .

إذن جوهر النور هو الظهور للإدراك ، فما هي الآلة التي تدرك النور

(١) رسالة المشكاة : ص ٤٤ .

البصري الحسي ؟ . إنها العين الباصرة التي تعتبر موضوعاً للنور . لكن هناك أيضاً الروح الباصرة التي تترجَّح على العين ، وهي التي توضح لنا أن الإدراك لا يكون بالنور ، فهو «ليس بُمدْرك ولا به الإدراك ، بل عنده الإدراك» . إذن ليس النور إلاّ الروح الباصر وهذا هو إدراك الخاصة .

٢ ـ خاصة الناس :

يتميز هذا الإدراك عن إدراك العوام بأنه به يتحدد معنى النور الحقيقي لا على مستوى الحس ، بل على مستوى الروح . فيغدو النور وكأنه هو الروح الباصر ، به تضاء الأشياء وتخترق الحجب التي تقف عائقاً أمام الإدراك الحسي للنور . ويتوسع الغزالي في إبراز الفرق بين هذين الإدراكين ويخصص «دقيقة»[١] لذلك ، حيث ينتهي إلى أن هناك سبع نقائص لا تفارق الإبصار الحسي في العين .

إن العين الحقيقية التي تتخطى هذه النقائص هي الروح ، وهي النور في آنٍ معاً ، وهي التي يُعبّر عنها «تارة بالعقل ، وتارة بالروح ، وتارة بالنفس الإنساني»[٢] . إنها خطوة جديدة في الارتقاء نحو تحديد طبيعة النور الحقيقية ، والتي من خلالها ننفذ إلى بواطن الأمور وأسرارها وحقائقها ، «فالأسرار الباطنة عنده (العقل) ظاهرة ، والمعاني الخفيّة عنده جليّة . فمن أين للعين الساهرة مساماته ومجاراته في استحقاق أسم النور»[٣] .

ولكن إذا كان للعين الحاسة الباصرة أخطاؤها ، فللعقل أيضاً أغاليطه وأوهامه وخيالاته . يجيب الغزالي إن العقل إذا تجرّد عن الأوهام لا يغلط ، ولا يكون ذلك إلاّ بعد الموت . حينئذ ينكشف الغطاء وتزول الأوهام ، ويستحق حينها اسم النور دون غيره .

---

(١) مشكاة الأنوار : ص ٤٥ .
(٢) مشكاة الأنوار : ص ٤٥ .
(٣) مشكاة الأنوار : ص ٤٨ .

إلاّ أنّ كل ذلك يبقى نسبياً ، فلا يمكن للعقل إلاّ أن يكون مقيّداً بمصدر حكيم يلهمه وينبهه ، وهو القرآن . والأمور المُدْرَكَة بالعقل ليست كلها على وتيرة واحدة ، فمنها العلوم الضرورية البيّنة بذاتها وبالعقل ، ومنها الأمور التي يجب أن يتنبه عليها «كالنظريات» . والمنبه هنا هو كلام الحكمة ، «فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة ، وأعظم الحكمة كلام الله تعالى ، ومن جملة كلامه القرآن خاصة . . . فبالحري أن يسمّى القرآن نوراً كما يسمّى نور الشمس نوراً»[١] .

٣ ـ خاص الخاصة :

وهنا نرتقي درجة أخرى في تحديد طبيعة النور بمقابل قوى إدراكه وانكشافه ، هنا ندخل إلى الباطن ، إلى عالم الملكوت حيث يندمج موضوع الإدراك مع القوى المُدركة ، فتغدو العين الباطنة (القرآن) المُدركة هي نفسها موضوع الإدراك ، أي النور المُدْرك . كل ذلك يحصل انكشافاً وانقداحاً لا إدراكاً فيه تمييز بين المُدْرِك والمُدْرَك . هنا النور الحقيقي حيث التمييز بين عالم الملكوت وعالم الحس ، عالم النور وعالم الظلمة ، بين السفل والعلو ، إنه معراج الارتقاء إلى النور الحقيقي . هذه الثنائية ليست تقابلاً بين موجودات متعارضة فقط ، بل هي أيضاً تحوّل . فالعبد عندما يكون في عالم الظلمة وينتقل إلى عالم النور فإنه ينطلق من سلب الوجود إلى حقيقة الوجود . إنه لا يدخل عالم الملكوت وهو بطبيعة الجسميّة ، بل يدخل بطبيعة ثانية هي طبيعة عالم الملكوت ، «وأما العبد فلا يفتح له باب الملكوت ولا يصير ملكوتياً إلاّ ويبدل في حقه الأرض غير الأرض والسموات»[٢] .

إذن الارتقاء الحقيقي عند خاصة الخاصة يفترض تغيّراً في الطبيعة ، أو

---

(١) مشكاة الأنوار : ص ٥١ .
(٢) مشكاة الأنوار : ص ٥٢ .

لنقل عود إلى الطبيعة الحقيقية التي منها انبثق الإنسان وهي عالم الملكوت والأنوار بالقرب من حضرة الربوبية والألوهية .

هذا المعراج الذي يؤدي إلى تغيّر في الطبيعة ، لن يؤدي إلى ما ذهب إليه الدكتور أبو العلاء عفيفي من اعتباره أن الغزالي ربما اقترب في هذه المسألة . من مذهب وحدة الوجود . إن الأمر مضبوط عند الغزالي من خلال :

١ ـ إن العالم السفلي موجود ، وهو ليس عدم وجود إلاَّ بمقدار ما يتخلى هو عن هذه الطبيعة .

٢ ـ هناك مراتب في الوجود وهي قائمة ، بين وجود الناس وخالقهم واسطة هم الملائكة . والأنبياء أنبياء للأرض وليس للسماء ، ومعراجهم الأقصى يكمن في علوم الغيب وإشرافهم عليها : «إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله تعالى ، وعنده مفاتيح ، أي من عنده تنزل أسباب الموجودات في عالم الشهادة . وعالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم ويجري فيه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص ، ومجرى الثمرة بالإضافة إلى المثمر والمسبب بالإضافة إلى السبب . ومفاتيح معرفة المسببات لا توجد إلاّ من الأسباب . ولذلك كان عالم الشهادة مثالاً لعالم الملكوت كما سيأتي في بيان المشكاة المصباح والشجرة . لأن المسبب لا يخلو عن موازاة السبب ومحاكاته نوعاً من المحاكاة على قرب أو على بعد . وهذا لأن له عذراً عميقاً . ومن اطلع على كنه حقيقته انكشف له حقائق أمثلة القرآن على يسر»[١] .

إن عالم الحس أثر من آثار العالم الحقيقي ، أي عالم النور ، العالم الإلَهي . ولسنا نظن أن ذلك يقودنا إلى اعتبار هذا العالم المحسوس عدم محض ، بل هو عدم بمقدار ما يتحوّل ويقترب من سببه . إن الأثر مضاف

(١) مشكاة الأنوار : ص ٥٣ .

إلى المؤثر ولكن له طبيعته التي تخصه والتي لأجلها وجد . إن السياق العام الذي يجب أن يفهم من خلاله هذا المعراج ، هو السياق المعرفي لا السياق الوجودي . بمعنى أننا لا يمكن لنا فهم هذه الآثار بخفاياها وعمق أسرارها وأسبابها إلاّ من خلال دلالتها على مفاتيح أسبابها . فكيف يمكن لنا محو وجود الدلالة باعتبار أنها أثرٌ مما تدل عليه ، ومثال يحاكي عن قرب أو عن بعد سبب كونه دلالة . إن الارتقاء في معراج المعرفة هو الذي يقربنا من النور الحقيقي وهو الذي ينقلنا إلى حالات وجودية تقرب أو تبعد من الوجود الحقيقي . فالأنبياء هم السرج المنيرة ، هم في أقرب المراتب الوجودية إلى النور الحقيقي ، حيث هم من أثاره ودلالاته .

هذا الترتيب للأنوار لا يتسلسل إلى ما لا نهاية ، بل يرتقي إلى الينبوع الأول الذي هو الله . والغزالي واضح في قوله أن أنوار الله تنزل إلى غيره . فالغيرية قائمة وثابتة وهي التي تُبعد الغزالي عن القول بوحدة الوجود ، «إن اسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذي لا نور فوقه ، ومنه ينزل النور إلى غيره»[١] .

وكذلك أيضاً فقد خصّ الغزالي الموجودات المُنارة بذاتية ، إذ «كل ما سواه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له . بل نورانيته مستعارة من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها ، بل بغيرها فقط . ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض»[٢] . إن الاستعارة هنا هي للأنوار التي تضاء بها الأشياء لا الأشياء بحد ذاتها . هذه هي قمة التوحيد والتنزيه ، حيث إضفاء الأنوار إنما يتم ضمن الغيرية والذاتية لكل موجود . إن الله هو الذي يهب الوجود ويهب كل شيء ، وما يهبه له غيريته وذاتيته الخاصة . صحيح أن كل شيء يعود إلى مصدره الأساسي ، وأن كل وجود هو وجود

(١) مشكاة الأنوار : ص ٥٦ .
(٢) مشكاة الأنوار : ص ٥٦ .

بالإضافة إلى الوجود الحقيقي ، وأن «لا شركة لأحد معه في حقيقة هذا الاسم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه به ويتفضل عليه»[١] .

بيد أن اللبس في المسألة يبدأ عندما يعرض الغزالي لحقيقة الحقائق ، تلك المرتبة التي يصل إليها العارفون ، فيرون بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلاّ الله ، «وأنّ ﴿كل شيء هالك إلاّ وجهه﴾ ، لا أن يصير هالكاً في وقت من الأوقات ، بل هو هالك أزلاً وأبداً ، لا يتصوّر إلاّ كذلك . فإن كل شيء سواه ، إذا اعتبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض . وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق رؤي موجوداً لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجده ، فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط»[٢] .

ويمكن تفسير ذلك باعتبار أن الغزالي ينكر فكرة وجود الهيولى الأولى الأزلية بمقابل الموجود الأول بالفعل . هذا ما ورد عند اليونان ولقي استحساناً عند فلاسفة العرب الذين حاولوا المزاوجة بينه وبين فكرة الخلق من لا شيء في الإسلام . إنّ إنكار أن تكون الأشياء موجودة بالفعل دون إضافتها إلى شيء آخر ، هو الذي استحوذ على تفكير الغزالي هنا ، حتى وإن قاده ذلك إلى أن يظن البعض أنه يقول بوحدة الوجود . إن استشهاده بالآية القرآنية ﴿كل شيء هالك إلاّ وجهه﴾ وشرحه لذلك على معنى أن الكل هالك أزلاً وأبداً ، أي معدوم الوجود من الأساس ، إنما اقتضى ذلك منه توضيحاً أردفه مباشرة بعد هذه الآية وهي قوله : «لكل شيء وجهان : وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم ، وباعتبار وجه الله تعالى موجود»[٣] أي أن المخلوقات ليست قائمة بذاتها بل بغيرها ، وهي لا تحتوي عناصر قوامها حتى ولو كانت على سبيل القوة ، بل إن قوامها لا يكون إلاّ بغيرها وهو الله تعالى . من هذا الوجه هي موجودة فقط .

(١) مشكاة الأنوار : ص ٥٧ .
(٢) مشكاة الأنوار : ص ٥٨ .
(٣) مشكاة الأنوار : ص ٥٨ .

ثم ينتقل الغزالي لتحديد هذه المسألة من الناحية المعرفية فيعتبر : «أن كل معروف داخل في سلطة العارف واستيلائه دخولاً ما»[١] . لذلك فالعارفون اتفقوا على أنهم لم يروا في هذا الوجود سوى الله ، إما عن طريق العقل أي البيان ، وإما عن طريق الحال والذوق (العرفان) . وهذا ما قاد أهل العرفان إلى الفردانية المحضة ، فسكروا بها سكراً قادهم إلى أقوال ، مثل «أنا الحق» ـ «سبحاني ما أعظم شأني» ـ كل هذا لا يشكل اتحاداً بل «شبه الاتحاد»[٢] . هذه الحالة سمّاها الغزالي حالة الفناء ، وفناء الفناء ، بمعنى «أن المخلوق فني عن نفسه ، وفني عن فنائه»[٣] .

ويختم الغزالي هذا الفصل بشرح معنى كيفية الإضافة ، أي وجود الشيء باعتبار إضافته إلى شيء آخر وخصوصاً «وجه إضافة نوره والأرض ، بل وجه كونه في ذاته نور السموات والأرض»[٤] . إن هذه الإضافة هي إضافة تعلق وجود بحيث أن كل الأنوار الأرضية لا وجود لها إلاّ من حيث استمدادها من النور الحقيقي . فهي بحد ذاتها ليست نوراً بل انعكاس وجودي لنور حقيقي هو نور الله تعالى . هذه الانعكاس فيه تراتبية نورانية . ففي الأرض طبقتي نور ، نور العقل نور المحسوسات . هذه المحسوسات وتلك المعقولات لا يمكن أن يكون لها ظهور ولا حتى وجود بدون هذه الأنوار . فالأرض مليئة بالأنوار المحسوسة ، والعالم العلوي مشحون بها وهي جواهر الملائكة .

إذن الإضافة هي إضافة ظهور ، وإضافة وجود بمعنى إبرازه وإنارته بالأنوار الإلّهية كلٌ حسب طبقته ومرتبته . فهناك الأنوار الظاهرة البصرية (محسوس) والباطنة العقلية (المعقول) ، وكلها فيض من النور الحق أي الله تعالى عبر الأرواح القدسية أرواح الأنبياء ، المقتبسة من الأرواح العلوية

(١) مشكاة الأنوار : ص ٥٩ .
(٢) مشكاة الأنوار : ص ٥٩ .
(٣) مشكاة الأنوار : ص ٦٠ .
(٤) مشكاة الأنوار : ص ٦١ .

اقتباس السراج من النور . فإضافة الوجود لا تكون إلاّ لمن هو سبب الوجود الحقيقي ، ولا إضافة بين المضافات مهما اختلفت مراتبها ، قربها وبعدها عن النور الأول منبع الأنوار ، والذي بنوره يعم كل الأنوار المجازية لأن «الكل نوره ، بل هو الكل ، بل لاهويه لغيره إلاّ بالمجاز . . . وسائر الأنوار أنوار من الذي يليه لا من ذاته . فوجه كل ذي وجه إيه وموليّ شطره ، ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ ، فإذن لا إلّه إلاّ هو . فإن الإلّه عبارة عما الوجه موليه نحوه بالعبادة والتأله : أعني وجوه القلوب فإنها الأنوار . بل كما لا إلّه إلاّ هو ، فلا هو إلاّ هو ، لأن «هو» عبارة عما إليه إشارة كيفما كان ، ولا إشارة إلاّ إليه ، بل كان ما أشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة إليه . . . . فإذن ﴿لا إلّه إلاّ الله﴾ توحيد العوام ، ولا إلّه إلاّ هو ، توحيد الخواص ، لأن هذا أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة . ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية»[1] .

إن توحيد العوام ، معناه انفراد الله بالألوهية ، وتوحيد الخواص معناه انفراد الله بالوحدانية ، أي الترقي من الكثرة إلى الوحدة «فإذا ارتفعت إلى الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافات»[2] ، حيث لا هو إلاّ هو .

(١) مشكاة الأنوار : ص ٦٢ .
(٢) مشكاة الأنوار : ص ٦٣ .

الفصل الثاني

في هذا الفصل ينتقل الغزالي إلى شرح معنى الرموز الواردة في آية النور ، محدِّداً إيّاها بالمصباح والمشكاة ، والشجرة والزيت والنار . وهو ينطلق من تحديد منهجيته التي سيعتمدها في ذلك ، وهي : ثنائية المماثلة ، أي أن كل ما هو موجود في عالم الأرض فله ما يماثله في عالم الملكوت . وهو يبيّن لنا طبيعة التمثيل ومنهاجه «ووجه ضبط أرواح المعاني بقوالب الأمثلة ، ووجه كيفية المناسبة بينها ، وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة التي منها تتخذ طينة الأمثال ، وعالم الملكوت الذي منه تستنزل أرواح المعاني»[1] . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، تبيان أن هناك تراتبية وطبقية في الأرواح البشرية ومراتب أنوارها .

القطب الأول :

أما المماثلة ومنهجها ، فهي تستند إلى أن العالم عالمان : جسميّ وروحاني ، حسيّ وعقلي ، سفلي وعلوي ، كل ذلك بحسب اعتبار الإضافة . والمهم ليست الألفاظ ، لأنها لا تشكل سوى كونها دلالات على المعاني .

هذه المماثلة ضرورية لأنه لا يمكن الارتقاء إلى عالم الملكوت إلاّ من

(١) مشكاة الأنوار : ص ٦٩ .

خلال عالم الشهادة والتمثيل بين العالمين ، وسرّه أنّ هناك وجه مطابقة بينهما يفترض هذه الثنائية التي تنحل في نهاية الأمر إلى الوحدانية التي لا مثال لها . فالله لا يطابقه ولا يماثله أي شيء ، وكلامه في القرآن كله رموز لعالم الملكوت . وهذه الرموز هي بمثابة أسرار تنقدح للعارفين ، فينفتح أمامها عالم الغيب . ثم يستعرض بعض الألفاظ الرموز ليبيّن معانيها .

إذا كان في عالم الملكوت جواهر نورانية متراتبة يُعبّر عنها بالملائكة ، فلها مثالاتها في عالم الحس والشهادة ، كالقمر والشمس والكواكب . وكما أننا نترقى في عالم الحس والشهادة من مرتبة إلى مرتبة ، فترتقي من القمر إلى الشمس إلى الكواكب ، فكذلك الأمر في عالم الملكوت . ويضرب لنا نموذجاً عن التمثيل في علم التعبير ، فكما أن الشمس تعبيرها في الرؤيا بالسلطان لما بينهما من المشاركة والمماثلة في معنى الاستعلاء ، وكذلك القمر تعبيره الوزير لأنه يفيض نوره بالواسطة . . . وغيرها من المثالات ، ففي الموجودات الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب ، وأمثلة أخرى . فالطور أيضاً في عالم الروحانيات هو مثال الثبات وعدم التغير . والوادي مثال جريان المعارف في القلوب ، وغيرها من المثالات التي يذكرها كخلع النعلين ، والقلم ، واللوح المحفوظ ، والرق المنشور ، والصور ، والماء .

هذا الضرب من التأويل خشي معه الغزالي أن يقارب الباطنية في إبطال الظاهر ، والحشوية في إبطال أسرار الباطن ، فسارع إلى نفي ذلك وأكد أنه يقيم موازنة بين العالمين ، عالم الظاهر وعالم الباطن ، وهو يجمع بينهما . وهو يستشهد في ذلك بقول الرسول «للقرآن ظاهر وباطن ، وحدّ ومطلع» . فانطلاقاً من المعنى المحسوس يجب مراقبة السر الخفي . فموسى عليه السلام فهم من مناداة ربه «فاخلع نعليك» أن المسألة تعني إخراج العالمين ، والابتداء في المعراج المعرفي الروحي للارتقاء إلى الواحد الأحد . فلولا المثال لما توصلنا إلى فهم السر . فالأمثلة هي تنبيهات مهمتها استثارة الخيال لمعرفة السر .

بيد أن هذه المسألة تبدو خطيرة إذا ما فتحنا باب التأويل على مصراعيه ، وخصوصاً أنّه تأويل اعتباطي يخضع لتخمينات لا ضابط لها ، لا من الناحية اللغوية ولا من الناحية المعرفيّة. هكذا يمكن أن تتسرب الضلالات إلى الإسلام ، فعليه إن التأويل يجب أن يقتصر على العارفين والأنبياء فقط الذين يمتلكون قوة البصيرة لإدراك المعاني المستترة وراء المثالات المحسوسة ، كما هي رؤية النبي لعبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً ، فقد رأى ذلك ببصره ، ولكن البصيرة تبيّن له عسر دخول ابن عوف الجنة نظراً للتغالب القائم بين الشهوات والإيمان . هذه الرؤيا في اليقظة لا تحتاج إلى تأويل ، «وفي المنام تفتقر إلى التعبير»[1] .

القطب الثاني :

مراتب الأرواح البشرية التي من خلالها تُعْرف أمثلة القرآن .

ـ المرتبة الأولى :

الروح الحساس ، وهو إدراك الصبي الرضيع عبر الحواس الخمس .

ـ المرتبة الثانية :

الروح الخيالي الذي يختزن الصور المحسوسة وسيتذكرها فيما بعد .

ـ المرتبة الثالثة :

الروح العقلي ، وهو الذي يدرك المعارف الكلية الضرورية وهو خاصية الإنسان دون الحيوان .

ـ المرتبة الرابعة :

الروح الفكري وهو الذي يستخرج من العلوم العقلية معارف شريفة بواسطة الاستنتاج المنطقي .

---

(١) مشكاة الأنوار : ص ٨٠ .

ـ **المرتبة الخامسة** :

الروح القدسي وهو خصيصة الأنبياء وبعض الأولياء وفيه تنجلي لوائح الغيب وعالم الملكوت والربوبية ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به﴾ . هذا هو الطور الذي يعلو طور العقل ، وهو الذي تحدث عنه الغزالي في المنقذ من الضلال حين ميَّز بين حال المعرفة العقلية ، وحال الذوق والمشاهدة .

فالذوق فوق العلم ، وهو حاله لا تكون إلا للأولياء والأنبياء ، ومن لم يرزق منها شيئاً فلا يدرك المعنى الحقيقي الكامن وراء الظواهر .

هذه المراتب من الأرواح البشرية العارفة هي أنوار تُظِهر أصناف الموجودات المقابلة لها ، وهي توازن المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت .

فالروح الحساس مثاله المشكاة ، والروح الخيال الزجاجة ، والروح العقلي المصباح ، والروح الفكري الشجرة ، والروح القدسي النبوي هو الزيت .

لماذا كل هذا التأويل لآية النور ؟ .

في الفصل الأول يبدو أن كلام الغزالي كان يهدف إلى إثبات وحدانية الخالق وكيفية إضافة المخلوقات إليه . إنه مبحث أنطولوجي وجودي ، يهدف إلى تركيز فكرة الخلق كما يفهمها العارفون والأولياء والأنبياء لا الفلاسفة والعقلاء . غير أن هذا المبحث الأول كان لا بد من تكملته بمبحث معرفي آخر ، يؤول ويبيّن لنا المعراج المعرفي الذي به نرتقي إلى نور الأنوار عبر تخطي الحجب وانقداح النور . ولا نرى في هذا المعراج المعرفي وترميزه وتمثيله ومن ثم تأويله ، سوى تبيان كيفية تخطي المستوى البياني في المعرفة إلى المستوى العرفاني من قبل المخلوقات الأرضية . فالإنسان هو

وحده يستطيع الترقي في هذا المعراج وهو الذي تظهر له كل الأنوار الإلّهية بمختلف إضافاتها وبمختلف مراتبها . وهكذا يمكن له أن يتقبل فيوضات الأنوار الإلّهية بواسطة الذوق والمشاهدة ، كما يمكن أن يتقبل ذلك بالعقل . ففي الإنسان نفح إلّهي من «وجه ما» خلق الله الإنسان على صورته ، هو وجه تقبل الرؤى ولا يكون إلّا على صعيد كرامات الأولياء التي هي على التحقيق بدايات الأنبياء ، المتصلون مباشرة بالأنوار الإلّهية . هذا ما قررَّه الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال» ، وهذا ما حاول إيجاد إسناد قرآني له في المشكاة فكان لا بد من تأويل آية النور وترميزها .

الفصل الثالث

في هذا الفصل يشرح الغزالي العوائق المعرفية التي سمّاها «الحجب» والتي تستر النور الإلّهي عنا ، وتحجب بالتالي معرفة الله وحقيقة الوجود . وهو لأجل ذلك يستعرض الحديث النبوي «إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره»[1] . والحجاب هنا لا يضاف إلاّ إلى محجوب ، فهو لا يسري على الله المنجل في ذاته ولذاته . بيد أن هذه الحجب منها ما هو مظلم ، ومنها ما هو نيِّر ، وحتى حالات انقداح الأنوار بالذوق والمشاهدة قد تكون أحياناً عائقاً أمام الرؤية الحقيقية . وعليه فالغزالي حصر أنواع المحجوبين بثلاثة :

ـ المحجوبون بمحض الظلمة :

وهم الملحدة الذين أنكروا وجود الله واليوم الآخر ، واعتقدوا أن هذه الدنيا وجدت طبعاً ، وأن بعضهم استقل بنفسه ولم يحاول أن يطلب السبب «فعاشوا عيشة البهائم» ، وكانت نفوسهم الكدرة هي الحجب . ثم يصنفهم الغزالي فرقاً لكل منها رأيها الخاص في معنى السعادة ، لكنها تلتقي جميعاً على السعادة المادية بمختلف مظاهرها .

---

(١) مشكاة الأنوار : ص (٨٩) .

- **المحجبون بنور مقرون بالظلمة** :

ويصنفهم الغزالي ثلاثة : الحسيون ، والخياليون ، والعقلانيون الذين كانت مقايساتهم العقلية فاسدة .

أما الحسيون: منهم عبدة الأوثان والثنوية ، وجماعة من أقاصي الترك ، ظنوا أن المقصود بالجمال الإلّهي إنما هو الجمال الحسي المتمثل بجمال الإنسان والشجرة والفرس . ومنهم أيضاً عبدة النار والشمس والسلطان والظلمة وغيرهم كثيرون ممن ينحو منحاهم .

- أما الخياليون فهم الذين جاوزوا الحس ولم يجاوزوا الخيال، كالمجسمة والكرامية .

- العقلانيون الذين فسدت مقايساتهم العقلية : هؤلاء عبدوا إلّهاً فهموا صفاته على حسب معتقداتهم ، فظنوا أنه يتكلم بكلام مثل كلامنا ، وأن إرادته مثل إرادتنا .

- **المحجوبون بمحض الأنوار** :

وقد تحدث عن ثلاثة أصناف منهم :

- طائفة الذين يجردون الصفات التي تطلق على الله من دلالاتها الحسية ، وينزهونه عن أي شبه بينه وبين المخلوقات . بل لقد عرفوه بآثاره ، فأقاموا الأدلة العقلية انطلاقاً مما هو قائم وصولاً إلى السبب الأول . هذا هو منهج الفلاسفة ، والمعتزلة من علماء الكلام ، وهو يقوم على التجريد ونزع العلائق والإنطلاق من المحسوس إلى اللامحسوس .

بيد أن فريقاً منهم زعم أن الله لا يحرك هذا العالم مباشرة، بل بالواسطة . لذلك افترضوا وجود «ملك» عبره يتم التحريك ، ونسبته إلى الأنوار الإلّهية نسبة القمر في الأنوار المحسوسة ، «فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك ، ويكون الرب تعالى محركاً للكل بطريق الأمر

لا بطريق المباشرة»[١] . هؤلاء كلهم محجوبون بالأنوار المحضة ، أي أنهم ترقوا من الظلمات والخيالات ، لكن طريقة فهمهم للأنوار ، أبقت هذه الأخيرة حجباً بينهم وبين معرفة وتذوق النور الحقيقي .

إلّا أن الواصلين إلى النور الحقيقي ، هم الذين تجلى لهم «المطاع» وعرفوا أنه موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة والمحال البالغ . إن هذا «المطاع» مضاف إلى النور الحقيقي كإضافة الشمس في الأنوار . وترقي هؤلاء في معراجهم المعرفي حتى وصلوا إلى «موجود منزه عن كل ما أدركه بصر من قبلهم» من هؤلاء الواصلين من احترق وتلاشى ، لكنه بقي متذوقاً للجمال والقدس ، عارفاً ذاته من خلال جماله الذي ناله بالتقرب من حضرة الربوبية والألوهية . إلّا أن طائفة من هؤلاء وهم خواص الخواص ، تلاشوا واحترقوا كلياً ، وفنوا عن ذواتهم ، فلم يتمكنوا من لحظ جمالهم وجمال ذواتهم ، لأنه لم يعد في الوجود إلّا الموجود الحق . لم يبق هنا موضوعاً للمعرفة ، ولا ذاتاً عارفة ، لأن الكل استغرق في الموجود الأول ، فلم يعد ثمة شيء معروف إلّا هو ، والباقي كله غير موجود . هكذا نفهم الآية ﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾ فهماً ذوقياً ، انقداحياً ، فظن من وصل إلى ذلك أنه اتحد وفني .

جميع هؤلاء الذين ذكرنا، يقطعون الدرجات والمراتب في الترقي، وبالتالي فمنهم من يصل إلى مرتبة التجريد العقلي ، ومنهم من يصل إلى حالة الذوق والكشف . لكنّ هناك أناساً تخطوا هذه الدرجات والمراتب جميعاً دفعة واحدة ، وانكشفت لهم الشهب والأنوار ، «وهجم عليهم التجلي دفعة واحدة»[٢] وهؤلاء هم الأنبياء ، وقريب منهم الأولياء .

---

(١) مشكاة الأنوار : ص (٩٦) .

(٢) مشكاة الأنوار : ص (٩٨) .

خاتمة

يظهر مما تقدم أنّ الغزالي أراد في هذه الرسالة أن يعرض لعدة مسائل ، وليس لمسألة واحدة كما يظن البعض .

ـ أراد أولاً أن يؤسس لمبحث أنطولوجي (الفصل الأول) في إثبات كيفية إضافة الموجودات إلى موجدها وكيفية تعلقها به . ولقد وجد لذلك إسناداً قوياً في إحدى آيات القرآن (آية النور) ، ففصلها وفصّل ترميزها ، موضحاً أن الفعل الحق هو للواحد الأحد منبع الأنوار جميعها .

ـ أراد ثانياً أن يؤسس لمسلك معرفي جديد ، هو المسلك العرفاني نتخطى به مسلك الفلاسفة وعلماء الكلام ، وهو المسلك البياني . وهو لم ينفِ بالكلية المسلك البياني ، لكنه أوضح أن فوق البيان ، (الأدلة العقلية) ، هناك العرفان الذي هو انقداح وذوق وكشف . وهو في ذلك يحاول أن يحدد كيفية تعدد الأوجه التي منها ننطلق للوصول إلى المعرفة الحق ، كلّ بحسب اقتداراته وبحسب حالاته . وهنا يعرض لمسألة التأويل وشروطها وضوابطها متحاشياً قدر الإمكان الاقتراب من مذهب الباطنية .

لقد كان مذهب السنة وأهل السلف بحاجة إلى دعم بوجه ما طرأ من مداخلات فلسفية وكلامية وباطنية . فانبرى الغزالي لكل ذلك موجهاً موضحاً ومظهراً أن في هذا المذهب المستند إلى الكتاب والسنة والحديث ، تكمن الحقائق وتؤسس المسالك .

إن محاولة الغزالي إيجاد إسناد قرآني للمسلك المعرفي العرفاني ، هو أكبر دليل على محاولته استيعاب ما استجد على الساحة الفكرية آنذاك .

وأخيراً لقد أراد الغزالي في الفصل الثالث أن يبين لنا أنّ هناك عوائق معرفية أمام معرفة النور الحق ، مستنداً في ذلك إلى حديث نبوي شريف .

وهو يسعى إلى تحديد ليس فقط تلك العوائق إنما أيضاً إلى تحديد أولئك الذين أخذوا بها وأسسوها كعوائق . فهو لا يتحدث عن الظلمة العالقة فقط ؛ بل عن المحجوبين بالظلمة ، ولا عن النور المقرون بالظلمة ، بل عن المحجوبين به ، وكذلك ليس عن الأنوار المحضة ، بل عن المحجوبين بها أيضاً ، التركيز إذن ليس على العوائق بل على الذين أخذوا بها وأسسوا لها .وهو يخلص في النهاية إلى اعتباران حال الذوق والكشف لا طريق الحس والعقل هو الموصل إلى اليقين الحق .

إن هذا التميز بين المسلك العرفاني والمسلك البياني ، ومحاولة دعم الأول بإسنادات قرآنية ، ومن الحديث الشريف ، هو في رأيي الهدف الأساسي من هذه الرسالة ، كما جرت العادة في جميع كتب الغزالي المتأخرة . بيد أن البعض قد رأى أن اندفاع الغزالي هذا ربما أوقعه عن قصد أو عن غير قصد في طروحات لا يرمي إليها . فراحوا يقربونه من مذهب وحدة الوجود ، وينسبون إليه الارتقاء إلى «ثيوصوفية» لم يكن يريدها وخصوصاً عندما تحدث عن أمر المطاع» .

في الحقيقة أن نظرية المطاع هذه ، أو ما سمِّي عند المتصوفين المتأخرين «بالقطب» أي الوسيط بين الله والعالم والذي عبره يتم الأمر الإلهي ، لم تأخذ عند الغزالي منحى ثيوصوفياً ، بل كانت تتمحور حول مشكلة الصفات الإلهية . فأمر الله قديم كقدمه ، وهذا ما ذهب إليه الأشاعرة ، وبقي الغزالي آخذاً فيه .

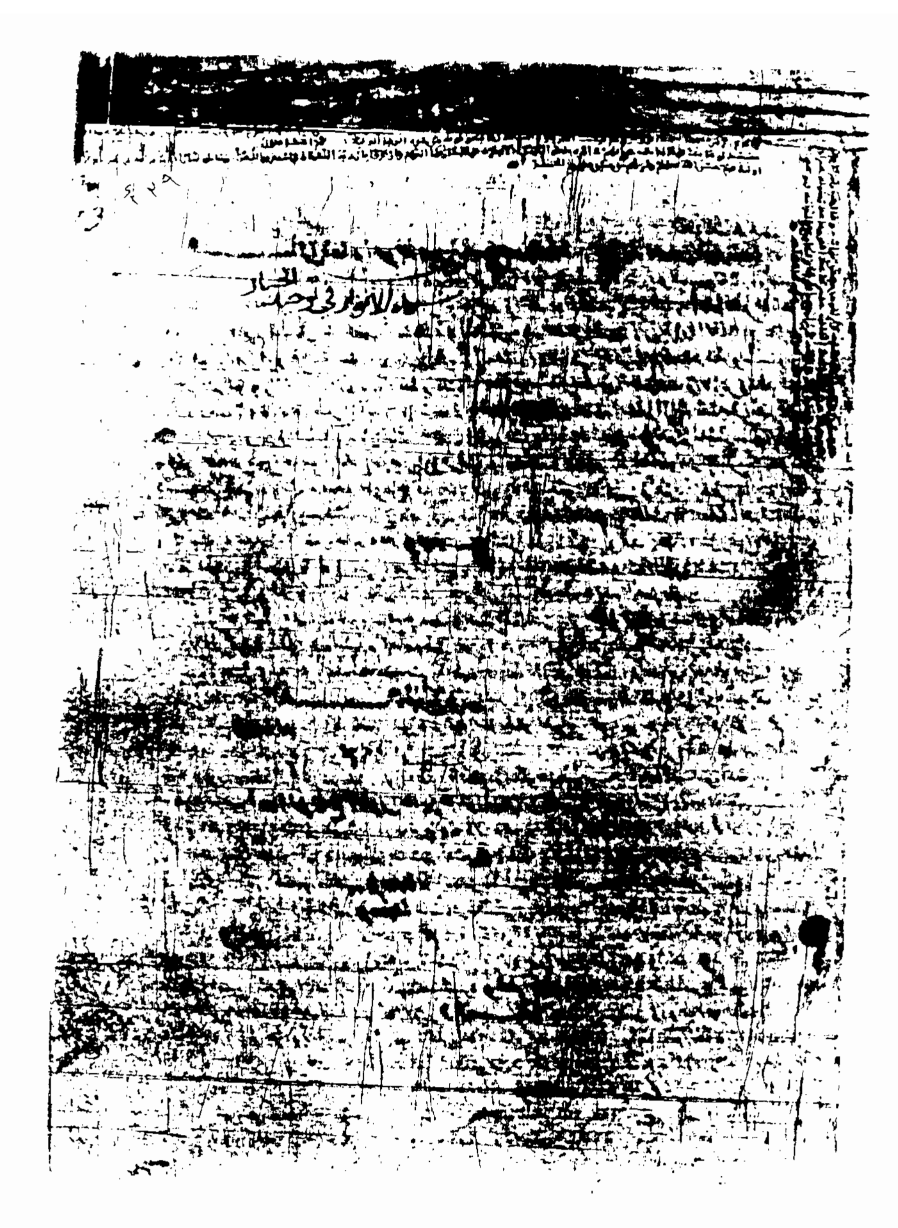
فالمقصود بالمطاع هي تلك المرتبة المعرفية والتي عبرها تنبلج الأنوار الإلهية . فلا الغزالي استغرق بالإطلاق في الثيوصوفية الجديدة لأنه يعرف

مخاطرها على مذهب أهل السلف ، ولا هو يريد أن يؤيد ما ذهب إليه البعض من الاتصال المباشر بين الكثرة والوحدة ، فبحث عن إسناد قرآني يتيح له أن يتمثل «الأمر المطاع» ، دون أن يخرق حدود مذهب أهل السنة ، فلم يجد ذلك إلا في مسألة الصفات الإلهية وكيفية تأويلها .

وفي الختام لا نرى أن هذه الرسالة تحيد عن المسار الذي اتخذه الغزالي لنفسه ولا يمكن أن تشكل بحد ذاتها مذهباً معيناً ، بل هي تنساق ضمن المسار المعرفي العام لتفكيره .

مشكاة الأنوار
في توحيد الجبّار

الـنـــص



بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو حامد رضي الله عنه[(١)]

الحمد لله مُفيِّض[(٢)] الأنوار وفاتح الأبصار ، وكاشف الأسرار ورافع الأستار . والصلاة على محمد نور الأنوار وسيد الأبرار وحبيب الجبار وبشير الغفّار ونذير القهّار ، وقامع الكفار وفاضح الفجّار ؛ وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الأخيار .

أما بعد فقد سألتني أيها الأخ الكريم قيّضك الله لطلب السعادة الكبرى ، ورشحك للعروج إلى الذروة العليا . وكحّل بنور الحقيقة بصيرتك ، ونقّى عمّا سوى الحق سريرتك ، أن أبث إليك أسرار الأنوار الإلّهية مقرونة بتأويل[(٣)] ما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ ومعنى تشبيهه[(٤)] ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة ، مع قوله عليه السلام : «إن لله سبعين ألف[(٥)] حجاب من نور وظلمة وإنه لو كشفها لأحرقت سبحاتُ وجهه كل من أدركه بصره» .

ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقىً صعباً تنخفض دون أعاليه[(٦)] أعين

---

(١) هذا الكلام ساقط من (ع) ومكانه : رب أنعم فزد بفضلك .

(٢) ع : فائض .

(٣) ساقطة في ق .

(٤) ع : تمثيله .

(٥) ساقطة من (ع) .

(٦) ق : مرامي .

الناظرين؛ وقرعْت باباً مغلقاً لا ينفتح[1] إلا للعلماء الراسخين. ثم ليس كل سر يُكشَف ويُفشى ، ولا كل حقيقة تعرض وتُجلَى ؛ بل صدور الأحرار قبور الأسرار .

ولقد قال بعض العارفين «إفشاء سر الربوبية كفر» . بل قال سيد الأولين والآخرين[2] «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله . فإذا نطقوا به لم ينكره عليهم[3] إلا أهل الغِرّة[4] بالله ، ومهما كثر أهل الاغترار[5] وجب حفظ الأسرار عن الأشرار»[6] . لكني أراك مشروح[7] الصدر[8] بالنور ، منزه السر عن ظلمات الغرور فلا أشح عليك في هذا الفن[9] بالإشارة إلى لوامع ولوائح ؛ والرمز إلى حقائق ودقائق . فليس الخوف في كف العلم عن أهله بأقل منه في بثه إلى غير أهله .

فمن مَنَحَ الجهّال علماً أضاعه ومن مَنَع المستوجبين فقد ظلم

فأقنع بإشارات مختصرة وتلويحات موجزة ؛ فإن تحقيق القول فيه يستدعي تمهيد أصول وشرح فصول ليس يتسع الآن لها[10] وقتي ، ولا[11] ينصرف إليه ذهني ولا همتي[12] . ومفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما شاء[13] . وإنما الذي[14] ينفتح في هذا[15] الوقت فصول ثلاثة .

(1) ع : يُفتح .
(2) ع : صلى الله عليه .
(3) ع : ساقطة منها .
(4) ق : الاغترار .
(5) ق : بالله .
(6) ع : على وجه الإسرار . ق : عن وجه الأشرار .
(7) ع : مشروح .
(8) ع : بالله .
(9) س : في هذا الفن ساقطة منها ومن ق . لكننا أثبتناها كما وردت في ع لاستقامة المعنى .
(10) س : له .
(11) ع : وليس .
(12) ع : همي وفكرتي .
(13) ع : يشاء .
(14) ق : ساقطة منها .
(15) ع : ساقطة منها .

الفصل الأول
في بيان أن النور الحق هو الله تعالى
وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له

وبيانه بأن يعرف معنى النور بالوضع الأول عند العوام ، ثم بالوضع الثاني عند الخواص ، ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص . ثم تعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى ، وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه .

أما الوضع الأول عند[1] العامي فالنور يشير إلى الظهور ، والظهور أمر إضافي : إذ يظهر الشيء لا محالة لغيره[2] ويبطن عن غيره : فيكون ظاهراً بالإضافة وباطناً بالإضافة . وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لا محالة . وأقوى الإدراكات وأجلاها[3] عند العوام الحواسُّ ، ومنها حاسة البصر .

والأشياء بالإضافة إلى الحس البصري ثلاثة أقسام :

منها ما لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة .

ومنها ما يبصرَ بنفسه ولا يبصرَ به غيره كالأجسام المضيئة مثل الكواكب[4] وجمرة[5] النار إذا لم تكن مشتعلة .

(1) س وق : ساقطة منهما وأثبتناها كما وردت في ع لاستقامة المعنى .
(2) ع : لإنسان .
(3) ق : وأجلّها .
(4) ع : كالكواكب .
(5) ق : جسم .

ومنها ما يبصَر بنفسه ويبصَر به أيضاً غيره كالشمس والقمر والنيران المشتعلة والسراج[1] .

والنور اسم لهذا القسم الثالث . ثم تارة يطلق على ما يفيض من هذه[2] الأجسام المنيرة[3] على ظواهر الأجسام الكثيفة ، فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الأرض ونور السراج على الحائط والثوب . وتارة يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقة لأنها أيضاً في نفسها مستنيرة .

وعلى الجملة فالنور عبارة عما يبصَر بنفسه ويبصَر به غيره كالشمس . هذا حده وحقيقته بالوضع الأول .

دقيقة

لما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك ، وكان الإدراك موقوفاً على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضاً : إذ النور هو الظاهر المظهِر ؛ وليس شيء من الأنوار ظاهراً في حق العميان ولا مظهراً . فقد تساوي الروح الباصرة والنور الظاهر في كونه ركناً لا بد منه للإدراك ثم ترجّح عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة وبها الإدراك . وأما النور فليس بمدرك ولا به الإدراك ، بل عنده الإدراك . فكان اسم النور بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصَر . فأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفّاش إن نور عينه ضعيف ، وفي الأعمش إنه ضعيف نور البصر[4] ، وفي الأعمى إنه فقد نور بصره[5] ، وفي السواد إنه يجمع نور البصر](*) ويقويه ، والأجفان[6] إنما خصتها الحكمة الإلّهية بلون السواد

(١) ع : وردت السراج بعد القمر .
(٢) ع : ساقطة منها .
(٣) ع : ساقطة منها .
(٤) ع : بصرع .
(٥) ع : البصر .
(*) إشارة إلى نهاية صفحة المخطوط .
(٦) س : وردت في متن النص الأشعار ثم صححت فوق اللفظة : الأجفان . في (ق) الأشعار . وفي (ع) وأن الأجفان .

وجعل العين محفوفة بها لتجمع ضوء العين . وأما البياض[1] فيفرق ضوء العين فيضعف نوره ، حتى إن إدامة النظر إلى البياض المشرق ، بل إلى نور الشمس يبهر نور العين ويمحقه كما ينمحق الضعيف في جنب القوي .

فقد عرفت بهذا أن الروح الباصر[2] سمى[3] نوراً ، وأنه لِمَ سمّى نوراً][4] ، وأنه لِمَ كان بهذا الاسم أولى . وهذا هو الوضع الثاني وهو وضع الخواص .

دقيقة[5]

اعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع من[6] النقصان : فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بَعُد منه[7] ، ولا يبصر ما هو وراء حجاب . ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها ؛ ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها . ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له . ويغلط كثيراً في إبصاره : فيرى الكبير صغيراً][8] والبعيد قريباً والساكن متحركاً والمتحرك ساكناً . فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة . فإن كان في الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعري هل هو أولى باسم النور أو لا[9] ؟ .

فاعلم أنّ في قلب الإنسان عيناً هذه صفة كمالها وهي التي يعبّر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الإنساني . ودعْ عنك العبارات فإنها

(١) س : ساقطة منها .
(٢) س + ق الباصرة : والأصح ما ورد في (ع) وأثبتناه .
(٣) س + ق : تسمّى : وأصح ما ورد في (ع) وأثبتناه .
(٤) ق : ساقطة منها .
(٥) ق : حقيقة .
(٦) ع : ساقطة منها .
(٧) ق : ولا ما قرب .
(٨) ق : ويرى .
(٩) ع : أم لا . وهي ساقطة من (ق) .

إذا كثرت أوهَمَت عند ضعيف البصيرة [١] كثرة المعاني . فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون . ولنسمه «عقلاً» متابعة للجمهور في الاصطلاح فنقول :

العقل أولى بأن يسمى نوراً من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع .

أما الأولى[٢] : أن العين لا تبصر نفسها ، والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه[٣] ، ويدرك صفات نفسه : إذ يدرك نفسه عالماً وقادراً : ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه وعلمه بعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية . وهذه خاصية لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام . ووراءه سر يطول شرحه .

الثانية[٤] : أن العين لا تبصر ما بَعُد منها ولا ما قرب منها قرباً مفرطاً[٥] : والعقل يستوي عنده القريب والبعيد : يعرج في تطريفة إلى أعلى السموات رقياً ، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرضين هوياً . بل إذا حقت الحقائق انكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسه معاني[٦] القرب والبعد الذي يفرض بين الأجسام ، فإنه أنموذج من نور[٧] الله تعالى ، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة ، وإن كان لا يرقي إلى ذروة المساواة[٨] . وهذا ربما هزك للتفطن لسر قوله عليه السلام : «إن الله خلق آدم على صورته» فلست أرى الآن الخوض بتبيانه[٩] .

الثالثة[١٠]: أن العين لا تدرك ما وراء الحجب[١١] ، والعقل يتصرف

(١) س : عند الضعيف البصيرة وورد في الهامش بدل البصيرة ، البصر فأثبتنا البصيرة وهي الأصح .
(٢) ع : ساقطة من (ع) .
(٣) ع : ساقطة منها .
(٤) ع : والثاني .
(٥) ق : ما قرب منها عرباً مفرطاً ولا ما بُعد .
(٦) ق : ساقطة منها .
(٧) ق : بحور .
(٨) ق : مساوقة .
(٩) ع : فلست أرى الخوض فيه الآن .
(١٠) ع : الثالث .
(١١) ق : الحجاب .

في العرش والكرسي وما وراء حجب السموات ، وفي الملأ الأعلى والملكوت الأسمى كتصرفه في عالمه الخاص به [١] ومملكته القريبة أعني بدنه الخاص . بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل . وأما حجاب العقل حيث يحجب من [٢] نفسه لنفسه بسبب صفات هي[٣] مقارنة له تضاهي حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان . وستعرف هذا في الفصل الثالث من الكتاب .

الرابعة[٤] : أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها ؛ بل قوالبها وصورها دون حَقائقها . والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها ، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها[٥] ، وأنها ممّ حدثت ، وكيف خلقت[٦] ، ومِنكم معنى جمع الشيء[٧] وركّب ، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل ، وما نسبته إلى خالقه وما نسبته[٨] إلى سائر مخلوقاته ، إلى مباحث أُخر يطول شرحها نرى الإيجاز فيها أولى .

الخامسة : أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات : ولا[٩] لا تدرك الأصوات والروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة : أعني قوة السمع والبصر والشم والذوق ، بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد ؛ فهو ضيق المجال مختصر المجرى لا تسعه مجاوزة عالم[١٠] الألوان والأشكال وهما أخس الموجودات : فإن

(١) ع : ساقطة منها .
(٢) ع : فمن .
(٣) ق : ساقطة منها .
(٤) ع : الرابع .
(٥) ق : أسبابها وعللها وحكمتها .
(٦) ع : مم خلق ، وكيف خلق ، ولم خلق .
(٧) ع : ساقطة منها .
(٨) ع : خالقها وما نسبتها .
(٩) ع : إذ .
(١٠) ع : ساقطة منها .

الأجسام في أصلها[1] أخس أقسام الموجودات ، والألوان والأشكال من أخس أعراضها .

فالموجودات كلها مجال العقل ؛ إذ يدرك هذه الموجودات التي عددناها وما لم نعدّها ، وهو الأكثر : فيتصرف في جميعها ويحكم عليها حكماً يقينياً صادقاً . فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة ، والمعاني الخفية عنده جلية . فمن أين للعين الظاهرة مساماته[2] ومجاراته في استحقاق اسم النور ؟ كلا إنها نور بالإضافة إلى غيرها ؛ لكنها ظلمة بالإضافة إليه . بل هي جاسوس من جواسيسه ؛ وكله[3] بأخس خزائنه وهي خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ . والحواس الخمس جواسيسه . وله في الباطن جواسيس سواها من خيال] ٢ ووهم وفكر وذكر وحفظ ؛ ووراءهم خدم وجنود مسخرة له في عالمه الخاص به[4] يستسخرهم[5] ويتصرف فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد . وشرح ذلك يطول . وقد ذكرناه[6] في كتاب «عجائب القلب» من كتب الإحياء[7] .

السادسة : أن العين لا تبصر ما لا نهاية له ، فإنها تبصر صفات الأجسام[8] والأجسام لا تتصور إلا متناهية . والعقل يدرك المعقولات ؛ والمعقولات[9] لا يتصور أن تكون متناهية . نعم إذا لاحظ العلوم المفضلة[10] فلا يكون الحاضر الحاصل عنده إلا متناهياً . لكن في قوته إدراك ما لا نهاية له . وشرح ذلك يطول . فإن أردت له مثالاً فخذه من

(١) ق : أصلها .
(٢) س وق : مساواته . والأصح ما أثبتناه كما ورد في (ع) .
(٣) ق : وكلها .
(٤) ق : الحاضر . وبه ساقطة من (ع) .
(٥) ق : يسخرهم .
(٦) ق : شرحناه .
(٧) س : ساقطة منها وموجودة في (ق) و (ع) .
(٨) ق : الأجسام المعلومات .
(٩) ع : المعلومات .
(١٠) ق : المتحصلة .

الحساب[1] ، فإنه يدرك الأعداد ولا نهاية لها[2] ؛ بل يدرك تضعيفات الاثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية . ويدرك أنواعاً من النسب بين الأعداد ولا يتصور التناهي عليها : بل يدرك علمه بالشيء وعلمه بعلمه بعلمه[3] بالشيء[4] ، فقوته في هذا الوجه[5] أيضاً لا تقف عند نهاية .

السابعة[6] : أن العين تبصر[7] الكبير صغيراً ، فترى الشمس في مقدار مجر[8] والكواكب في صور دنانير منثورة على بساط أزرق . والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ؛ والعين ترى الكواكب ساكنة ، بل ترى الظل بين يديه ساكناً ، وترى الصبي ساكناً في مقداره ، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد[9] على الدوام ، والظل متحرك دائماً ، والكواكب تتحرك في كل لحظة أميالاً كثيرة كما قال ﷺ لجبريل عليه السلام[10] : «أزالت الشمس» ؟ فقالا لا : نعم ! قال كيف ؟ قال : «منذ قلت ، لا إلى أن قلت ، نعم ، قد تحركت مسيرة الشمس[11] خمسمائة سنة[12] .

وأنواع غلط البصر كثيرة ، والعقل منزه عنها . فإن قلت : نرى العقلاء يغلطون في نظرهم فاعلم أن فيهم[13] خيالات وأوهاماً واعتقادات يظنون أحكامها أحكام العقل ؛ فالغلط منسوب إليها . وقد شرحنا مجامعها في كتاب «معيار العلم» وكتاب «محك النظر» .

فأما العقل إذا تجرّد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط ؛

(١) ع : الجليّات .
(٢) ق : لها نهاية .
(٣) ساقطة من (ع) و (ق) .
(٤) (ع) و (ق): + وعلمه بعلمه بعلمه .
(٥) ع : الواحد .
(٦) ع : السابع .
(٧) ق : تدرك .
(٨) ع : مِجَنّ .
(٩) ق : التزيد .
(١٠) س : ساقطة منها (عليه السلام) .
(١١) ـ (١٢) ي : قد تحرك مسيرة خمسمائة سنة . وفي (ق) عام بدل سنه .
(١٣) ق : فأعلم أن خيالاتهم وأوهامهم قد تحكم باعتقادات .

بل نرى(1) الأشياء على ما هي عليه ، وفي تجريده(2) عسر عظيم(3) . وإنما يكمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت ، وعند ذلك ينكشف الغطاء وتنجلي الأسرار ويصادف كل أحد ما قدم(4) من خير أو شر مُحضَراً ؛ ويشاهد كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وعندها(5) يقال : «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» . وإنما الغطاء غطاء الخيال والوهم وغيرهما(6) ؛ وعندها(7) يقول المغرور بأوهامه واعتقاداته الفاسدة وخيالاته الباطلة : ﴿ربنا أبصَرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾(8) الآية .

فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف(9) ، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين . بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنّه أولى بل الحق أنّه يستحق الاسم دونه(10).

دقيقة

اعلم أن العقول وإن كانت مبصرة ، فليست المبصرات كلها عندها(11) على مرتبة(12) واحدة ، بل بعضها يكون عندها كأنها حاضرة(13) كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديماً حادثاً(14) ولا يكون

(1) ع : رأى .
(2) ع : تجريده .
(3) ق : ساقطة منها .
(4) ق : قدمه .
(5) ع : وعنده .
(6) ق : ساقطة منها .
(7) ع : وعنده .
(8) ع : ساقطة منها «إنا موقنون» .
(9) ق : المحسوس.
(10) ع : ما يصح معه أن يقال . . . . يستحق للاسم دونه .
(11) ق : عندها كلها .
(12) ع : وتيرة .
(13) كأنه حاضر .
(14) س و ق : حديثاً والأصح حادثاً كما في (ع) .

موجوداً معدوماً ، والقول الواحد لا يكون صدقاً وكذباً ، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه ثبت لمثله ، وأن الأخص إذا كان موجوداً كان الأعم واجب الوجود : فإذا وجد السواد فقد وجد اللون ، وإذا وجد إنسان(1) فقد وجد الحيوان . وأما عكسه فلا يلزم في العقل ، إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان إلى غير ذلك من القضايا الضرورية في الواجبات والجائزات والمستحيلات . ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه ويستوري زناده وينبه عليه بالتنبيه كالنظريات . وإنما ينبهه كلام الحكمة ، فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل(2) مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة . وأعظم الحكمة كلام الله تعالى . ومن جملة كلامه القرآن خاصة ، فتكون منزلة(3) آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به يتم الإبصار . فبالحرِيّ أن يسمى القرآن نوراً كما يسمى نور الشمس نوراً فمثال القرآن نور الشمس ومثال العقل نور العين . وبهذا نفهم معنى قوله تعالى : ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ ، وقوله تعالى(4) : ﴿قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ .

تكملة لهذه(5) الدقيقة

فإذا فهمت من هذا أن العين عينان : ظاهرة وباطنة : الظاهرة من عالم الحس والشهادة ، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت . ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الإبصار إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة ؛ والظاهرة من] عالم الشهادة وهي الشمس المحسوسة ، والباطنة من ٣

(1) (ع) و (ق) : الإنسان .
(2) ق : الإنسان .
(3) س : ساقطة منها .
(4) ع : ساقطة منها .
(5) ع : هذه .

عالم الملكوت وهو القرآن وكتب الله تعالى المنزلة . ومهما انكشف لك هذا انكشافاً تاماً فقد انفتح لك أول باب من أبواب الملكوت . وفي هذا العالم عجائب يستحقر بالإضافة إليها عالم الشهادة . وإنّ[1] من لم يسافر إلى هذا العالم ، وقعد به القصور في حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة بعدُ ، محروم عن خاصية الإنسانية ؛ بل أضل من البهيمة إذ لم تسعد[2] البهيمة بأجنحة الطيران إلى هذا العالم . ولذلك قال الله[3] تعالى : ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[4] .

واعلم أن عالم الشهادة[5] بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشر بالإضافة إلى اللب ، وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح ، وكالظلمة بالإضافة إلى النور ، وكالسّفل بالإضافة إلى العلو . ولذلك يسمى عالم الملكوت العالم العلوي والعالم الروحاني والعالم النوراني[6] . وفي مقابلته السفلي[7] والجسماني والظلماني .

ولسنا نعني[8] أنّا نعني بالعالم العلوي السموات فإنها علو وفوق في حق عالم الشهادة والحس ، ويشارك في إدراكه البهائم[9] . وأما العبد فلا يفتح له أبواب[10] الملكوت ولا يصير ملكوتياً إلاّ ويبدل في حقه الأرض غير الأرض والسموات ويصير[11] كل ما هو داخل[12] تحت الحس والخيال أرضه ومن جملتها[13] السموات ، وكل ما ارتفع عن الحس فسماؤه[14] .

---

(١) س و ق : ساقطة منهما وقد أثبتناها كما وردت في (ع) .
(٢) ق : تعط .
(٣) س و ق : ساقطة منهما .
(٤) س : ساقطة منها «سبيلاً» .
(٥) ع : ساقطة منها .
(٦) س : ساقطة منها النوراني .
(٧) ق : العالم السفلي .
(٨) ق : ولا تظنن . وفي (ع) ولا تظن .
(٩) ق : ويشارك إدراكها البهائم .
(١٠) ع : باب .
(١١) ق : ولا يصير . وفي ع : فيصير .
(١٢) ع : ساقطة منها .
(١٣) ع : جملة .
(١٤) ق : سماؤه .

وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ سفره إلى قرب الحضرة الربوبية . فالإنسان مردود إلى أسفل السافلين[1] ، ومنه يترقي إلى العالم الأعلى . وأما الملائكة فإنهم من[2] جملة عالم الملكوت عاكفون[3] في حضرة القدس[4] ، ومنها يشرفون على[5] العالم الأسفل . ولذلك قال ﷺ : «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم أفاض عليهم من نوره» وقال : «إن لله ملائكة هو أعلم بأعمال الناس منهم» . والأنبياء إذا بلغ معراجهم إلى عالم الملكوت فقد بلغوا[6] المبلغ الأقصى وأشرفوا منه إلى السفل ونظروا من فوق إلى تحت اطلعوا[7] أيضاً على قلوب العباد وأشرفوا على جملة من علوم[8] الغيب : إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله تعالى ـ ﴿وعنده مفاتيح الغيب﴾ ـ أي من عنده تنزل أسباب الموجودات في عالم الشهادة ؛ وعالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم ، يجري منه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص ، ومجرى الثمرة بالإضافة إلى المثمر ، والسبب بالإضافة إلى السبب . ومفاتيح معرفة المسببات لا توجد إلا[9] من الأسباب . ولذلك كان عالم الشهادة مثالاً لعالم الملكوت كما سيأتي في بيان المشكاة والمصباح والشجرة : لأن المسبب[10] لا يخلو عن موازاة السبب[11] ومحاكاته نوعاً من المحاكاة على قرب أو على بعد . وهذا لأن له غوْر عميقاً[12] . ومن اطلع على كنه حقيقته انكشف[13] له حقائق أمثلة القرآن على يسر .

---

(١) ق : سافلين .
(٢) (ق) و (ع) : ساقطة منهما .
(٣) ق : عالقون .
(٤) (س) و (ق) : القدس .
(٥) ع : إلى .
(٦) ع : ساقطة منها .
(٧) س و (ق) : من إلى السفل حتى . . . فكذب العباد ساقطة في الأساس منهما وقد أضفناها نحن كما وردت في (ع) .
(٨) ق : عالم .
(٩) ق : إنما تؤثر .
(١٠) ق : المشبه .
(١١) ق : المشبه به .
(١٢) ع : وهذا لأن له غوراً عميقاً .
(١٣) ق : انكشفت .

دقيقة ترجع إلى حقيقة النور

فنقول إن كل[1] من[2] يبصر نفسه وغيره أولى باسم النور ، فإن كان من جملة ما يبصر (به) غيره أيضاً مع أنه يبصر نفسه وغيره ، فهو أولى ، باسم النور من الذي لا يؤثر في غيره أصلاً ، بل بالحريّ أن يسمى سراجاً منيراً لفيضان أنواره على غيره . وهذه الخاصية توجد للروح القدسي النبوي إذ تفيض بواسطته أنواع المعارف على الخلائق[3] . وبه يفهم[4] تسمية[5] الله محمداً عليه السلام سراجاً منيراً . والأنبياء كلهم سُرُج ، وكذلك العلماء ، ولكن التفاوت بينهم لا يحصى .

دقيقة

إذا كان اللائق بالذي يستفاد منه نور الإبصار أن يسمى سراجاً منيراً فالذي يقتبس منه السراج في نفسه جدير بأن يكنى عنه بالنار . وهذه السرج الأرضية إنما تقتبس في أصلها من أنوار علوية . والروح[6] القدسي النبوي يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار . ولكن إنما يصير نوراً على نور إذا مسته النار .

وبالحرِيّ[7] أن يكون مقتبَس الأرواح الأرضية من الأرواح[8] الإلَهية العلوية التي وصفها علي وابن عباس رضي الله عنهما فقالا[9] «إن لله ملَكاً له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف فم وفي كل فم سبعون ألف[10] لسان يسبح الله بجميعها» وهو الذي قوبل بالملائكة كلهم فقيل[11] يوم القيامة[12] «يوم يقوم الروح والملائكة صفاً» فهي إذا اعتبرت من حيث

(1) ي : كان .
(2) ع : ما .
(3) ق : الخلق .
(4) ع : وبهذا نفهم .
(5) ع : معنى تسمية .
(6) ع : فالروح .
(7) ق : وما بالحري .
(8) ع : هي الروح .
(9) ق : فقال .
(10) ع : هذه الجملة ساقطة منها . ساقطة من س .
(11) ـ (12) ق : ساقطة منها .

يقتبس منها السّرجُ الأرضية لم يكن لها مثال إلا النار ، وذلك لا يؤانس إلا من جانب الطور .

دقيقة

الأنوار السماوية التي منها تقتبس الأنوار الأرضيّة إن كان لها أن تترتب[1] بحيث يقتبس بعضها من بعض ، فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة . ومثال ترتيبه[2] في عالم الشهادة لا تدركه[3] إلا بأن يفرض[4] ضوءُ القمر داخلاً في كوة بيت واقعاً على مرآة منصوبة على حائط ، ومنعكساً[5] منها إلى[6] حائط آخر في مقابلتها ، ثم منعطفاً منها[7] إلى الأرض بحيث تستنير الأرض . فأنت تعلم أن ما على الأرض من النور تابع لما على الحائط وما على الحائط تابع لما على المرآة ، وما على المرآة تابع لما[8] في القمر ، وما في القمر تابع لما في الشمس : إذ منها يشرق النور على القمر . وهذه الأنوار الأربعة مرتبة بعضها أعلى من بعض[9] وأكمل من بعض ، ولكل واحد مقام معلوم] ودرجة خاصة لا يتعداها . ٤

فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك ، وأن المقرّب هو الأقرب إلى النور الأقصى . فلا يبعد أن تكون رتبة إسرافيل فوق رتبة جبريل ، وأن فيهم الأقرب لقرب درجته من حضرة الربوبية التي هي منبع الأنوار كلها ، وأن فيهم الأدنى ، وبينهما[10] درجات تستعصي على الإحصاء . وإنما المعلوم كثرتهم وترتيبهم في

(1) ع : إن كان لها ترتيب .
(2) ق : ترتيبها .
(3) ق : الإنسان .
(4) ق : يبصر .
(5) ق : ومنعطفاً .
(6) ق : على .
(7) ع : منه .
(8) ق : ساقطة منها .
(9) ع : ساقطة منها .
(10) ق : وبينهم .

مقاماتهم[1] وصفوفهم ، وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا : «وما منّا إلاّ له مقام معلوم[2] وإنّا لنحن الصافون . وإنّا لنحن المسبحون» .

دقيقة

إذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب فاعلم أنها لا تتسلسل إلى غير نهاية ، بل ترتقي إلى منبع أول هو النور لذاته وبذاته ، ليس يأتيه نور من غيره . ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها . فانظر الآن هل[3] اسم النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره، أو بالنيّر في ذاته المنير لكل ما سواه ؟ فما عندي أنه يخفي عليك الحق فيه . وبه يتحقق أن اسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذي لا نور فوقه ، ومنه ينزل النور إلى غيره .

حقيقة

بل أقول ولا أبالي إن اسم النور على غير النور الأول مجاز محض : إذ كل ما سواه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له : بل نورانيته[4] مستعارة من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها ، بل بغيرها . ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض . أفَتَرَى أن من استعار ثياباً وفرساً ومركباً وسرجاً ، وركبه في الوقت الذي أركبه المُعِير ، وعلى الحد الذي رسمه له[5] . غني بالحقيقة أو بالمجاز ؟ وأن المعير هو الغني أو المستعير[6] ؟ كلا ، بل المستعير فقير في نفسه كما كان . وإنما الغني هو المعير الذي منه الإعارة والإعطاء ، وإليه الاسترداد والانتزاع . فإذن النور الحق هو الذي بيده الخلق والأمر ، ومنه الإنارة أولاً والإدامة ثانياً . فلا

(١) ق : اللفظة ساقطة منها .
(٢) ع : الجملة وما منا . . . . معلوم : ساقطة منها .
(٣) ع : ساقطة منها .
(٤) ق : نوره .
(٥) ع : ساقطة منها .
(٦) ق : ساقطة منها .

شركة لأحد معه في حقيقة هذا الاسم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه[1] به ويتفضل عليه بتسميته[2] تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالاً ثم سماه مالكاً . وإذا انكشف للعبد[3] الحقيقة علم أنه وماله لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلاً والبتة[4] .

دقيقة[5]

مهما عرفت أن النور راجع[6] إلى الظهور والإظهار ومراتبه ، فاعلم أنه لا ظلمة أشد من ظلمة العدم لأنه مظلم[7] : لأن المظلم[8] سمي مظلماً لأنه ليس يظهر للإبصار[9] ، إذ ليس يصير موجوداً للبصير[10] مع أنه موجود في نفسه . فالذي ليس موجوداً لا لغيره ولا لنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة ؟ وفي مقابلته الوجود فهو النور : فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره .

والوجود[11] ينقسم إلى ما الوجود له[12] من ذاته وإلى ماله الوجود[13] من غيره . وماله الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه . بل إذا اعتُبر[14] ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض . وإنما هو موجود[15] من حيث نسبته إلى غيره ، وذلك ليس[16] بوجود حقيقي كما عرفت في مثال

(١) ق : تسميته .
(٢) ق : +إيّاه .
(٣) ق : +هذه .
(٤) ق : ساقطة منها .
(٥) ق : وع : حقيقة .
(٦) ع : يرجع .
(٧) ع : وردت الجملة هكذا : ولا ظلمة أشد من كتم العدم .
(٨) ق : اللفظة ساقطة منها .
(٩) ع : الجملة وردت : ليس للإبصار إليه وصول .
(١٠) ق : للبصر .
(١١) ق : +بنفسه .
(١٢) ع : ما للشيء . ق : ماله الوجود .
(١٣) ع : اللفظة ساقطة منها .
(١٤) ق : اعتبرت .
(١٥) ق : وجوده .
(١٦) ق : وليس ذلك .

استعارة الثوب والغِنَى . فالموجود الحق هو الله تعالى ، كما أن النور الحق هو الله تعالى .

حقيقة الحقائق

من ههنا [1] ترقى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع [2] الحقيقة ، واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله تعالى ، وأن ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ لا أنّه [3] يصير هالكاً في وقت من الأوقات ؛ بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصور إلا كذلك ؛ فإن كل شيء سواه إذا اعتُبِر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض ؛ وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول الحق رؤي موجوداً لا في ذاته لكن [4] من الوجه الذي يلي موجده ، فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط . فلكل شيء وجهان : وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه ؛ فهو باعتبار وجه نفسه عدم وباعتبار وجه الله تعالى موجود [5] . فإذن لا موجود إلا الله تعالى ووجهه . فإذن كل شيء هالك إلا وجهه أزلاً وأبداً . ولم يفتقر هؤلاء إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء الباري تعالى : «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار» . بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبداً . ولم يفهموا من معنى قوله : ﴿الله أكبر﴾ أنه أكبر من غيره ، حاش لله ، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون [6] أكبر منه ؛ بل ليس لغيره رتبة المعية ، بل رتبة التبعية . بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه . فالموجود وجهه فقط . ومحال أن يكون [7] أكبر من وجهه . بل معناه [8] أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة

(1) ع : هنا .
(2) ق : ذروة .
(3) ق : لأنه : وهذا يترتب عليه خطأ جسيم .
(4) ق : بل .
(5) ق : وجود .
(6) ق : +هو .
(7) ع : أن يقال أنه .
(8) ع : وردت : بل معناها أنّه .

والمقايسة ، وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه ، نبيّاً كان أو مَلَكاً . بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله [1] . بل [2] كل معروف داخل تحت سلطان [3] العارف واستيلائه دخولاً ما [4] ؛ وذلك ينافي الجلال والكبرياء . وهذا له تحقيق ذكرناه في كتاب «المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى» .

إشـــارة

العارفون ـ بعد العروج إلى سماء الحقيقة ـ اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد] الحق . لكن منهم من كان له هذه الحال عرفاناً علمياً ، ومنهم من صار له ذلك حالاً ذوقياً [5] . وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة واستوفيت [6] فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لا [7] لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضاً . فلم يكن [8] عندهم إلا الله ، فسكروا سكراً دفع دونه سلطان عقولهم ، فقال أحدهم [9] : «أنا الحق» وقال الآخر : «سبحاني ما أعظم شأني !» وقال آخر : «ما في الجبة إلا الله» . وكلام العشاق في حال السكر يُطوَى ولا يحكى . فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه [10] الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه [11] «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» [12] ولا يبعد أن يفاجىء الإنسان مرآةً فينظر فيها ولم ير المرآة قط ، فيظن أن الصورة التي رآها [13] هي صورة المرآة متحدة بها، ويرى الخمر في الزجاج فيظن أن

(1) ق : هو .
(2) ق : إذ .
(3) ع : في سلطة .
(4) ق : (دخولاً ما) ساقطة منها .
(5) ق : ذوقاً وحالاً .
(6) ق : واستهوت .
(7) ق : ساقطة منها .
(8) ق : يبق .
(9) ق : بعضهم .
(10) ع : شبه .
(11) ق : العشق .
(12) ق : نحن روحان حللنا بدنا .
(13) ق : +في المرآة .

الخمر لون الزجاج . فإذا صار ذلك عنده مألوفاً ورسخ فيه قدمه استغفر وقال :

رق الـــزجـــاج وراقـــت الخمـــر فتشـــابهـــا فتشـــاكـــل الأمـــر
فكـــأنمـــا خمـــر ولا قـــدح وكـــأنمـــا قـــدح ولا خمـــر

وفرق بين أن يقول[١] : الخمر قدح ، وبين أن يقول[٢] : كأنه القدح[٣] . وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة «فناء» ، بل «فناء الفناء» : لأنه فني عن نفسه وفني عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ولا بعدم شعوره بنفسه . ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه . وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق به بلسان المجاز اتحاداً أو[٤] بلسان الحقيقة توحيداً . ووراء هذه الحقائق أيضاً أسرار يطول الخوض فيها .

(١) ـ (٢) ق : يقال .
(٣) ع وق : قدح .
(٤) ق : ساقطة منها .

خاتمة

لعلك تشتهي أن تعرف وجه إضافة نوره إلى السموات والأرض ؛ بل وجه كونه في ذاته نور السموات والأرض ، ولا ينبغي أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار ، وأنه النور الكلي ، لأن النور عبارة عما ينكشف به الأشياء ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه ، وأن الحقيقي منه ما ينكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده : بل ذلك له في ذاته من ذاته[١] لا من غيره . ثم عرفت أن هذا[٢] لن يتصف به إلا النور الأول . ثم عرفت أن السموات والأرض مشحونة نوراً من طبقتي النور : أعني التبصر والبصيرة المنسوب إلى الحس والعقل[٣] . أما البصرى فما نشاهده في السموات من الكواكب والشمس والقمر ، وما نشاهده في الأرض من الأشعة المنبسطة على كل ما على[٤] الأرض حتى ظهرت به الألوان المختلفة خصوصاً في الربيع ، وعلى كل حال في الحيوانات والمعادن وأصناف الموجودات . ولولاها لم يكن للألوان ظهور ، بل وجود . ثم سائر ما يظهر للحس من الأشكال والمقادير يدرَك تبعاً للألوان ولا يتصور إدراكها إلا بواسطتها .

(١) ع : + لذاته .
(٢) ق : + لا يتصور ولن .
(٣) ع : + أعني المنسوب إلى البصر والبصيرة أي إلى الحس والعقل .
(٤) ق : في .

وأما الأنوار العقلية المعنوية فالعالم الأعلى مشحون بها ، وهي جواهر الملائكة ، والعالم الأسفل مشحون بها وهي الحياة الحيوانية ثم الإنسانية . وبالنور الإنساني السفلي ظهور[١] نظام عالم السفل[٢] كما يظهر[٣] بالنور الملكي يظهر نظام عالم العلو[٤] . وهو المعنيّ بقوله : ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾[٥] وقال : ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ ، وقال : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ .

فإذا «عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية ، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج وأن السراج هو الروح[٦] النبوي القدسي ، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النار[٧] ؛ وأن العلويات بعضها مقتبسة من بعض[٨] ، وأن ترتيبها ترتيب مقامات . ثم ترقى[٩] جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول ؛ وأن ذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن سائر الأنوار مستعارة[١٠]، وإنما الحقيقي نوره فقط؛ وأن الكل[١١] نوره، بل هو الكل[١٢]، بل[١٣] لا هوية لغيره إلا بالمجاز. فإذن الأنوار أنوار من الوجه، الذي يليه لا من ذاته[١٤]. فوجه كل ذي وجه[١٥] إليه وموّل شطره : ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ .

(١) ق وع : ظهر .
(٢) ق : العالم السفلي .
(٣) ع : ساقطة منها .
(٤) ق : العالم العلوي .
(٥) ع وق : واستعمركم فيها . وقال تعالى : ﴿يستخلفنهم الأرض﴾ .
(٦) ق : النور .
(٧) ق وع : النور .
(٨) ع : البعض .
(٩) ق : ترتقي .
(١٠) ق : منه .
(١١) ق : من .
(١٢) ق : الجملة ساقطة منها .
(١٣) ق : هو .
(١٤) ع : الجملة هكذا : فإذن لا نور إلاّ نوره . وسائر الأنوار أنوار من الذي يليه لا من ذاته . وفي (ق) من ذاتها .
(١٥) ق : موجه .

فإذن لا إلّه إلا هو : فإن الإلّه عبارة عما الوجه موليه نحوه بالعبادة والتأله[١] : أعني وجوه القلوب فإنها الأنوار[٢] . بل كما لا إلّه إلا هو[٣] ، لأن[٤] «هو» عبارة عما إليه إشارة[٥] كيفما كان ، ولا إشارة إلا إليه . بل كل ما أشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة إليه وإن كنت لا تعرفه أنت لغفلتك عن حقيقة الحقائق التي ذكرناها . ولا إشارة إلى نور الشمس بل إلى الشمس . فكل ما في الوجود فنسبته إليه في ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس . فإذن «لا إلّه إلا الله» توحيد العوام ، «ولا هو إلاّ ما هو»[٦] توحيد الخواص ، لأن هذا أتم[٧] وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية] الصرفة . ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية . وليس وراء ذلك ترقي[٨] : إذ الترقي[٩] لا يُتصوّر إلا بكثرة : فإنه نوع إضافة يستدعي ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء . وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافة[١٠] وطاحت الإشارة[١١] ولم يبق علو ولا سفل ولا نازل ولا مرتفع[١٢]: واستحال الترقي فاستحال العروج. فليس وراء الأعلى علو ، ولا مع الوحدة كثرة ، ولا مع انتفاء الكثرة عروج. فإن كان من[١٣] تغير حال. فالنزول إلى السماء الدنيا: أعني

(١) ق : والتأليه .
(٢) ق : + والأرواح .
(٣) ع : فلا هو إلاّ هو .
(٤) ق : فإن .
(٥) ق : الإشارة .
(٦) ع : ولا إلّه إلا هو . وفي ق : ولا هو إلاّ هو .
(٧) ق : أعم + وأخص .
(٨) ق : مرقاه . ع : مرقى .
(٩) س : ق : الرقي وقد أثبتناها كما وردت في ع لإستقامة المعنى .
(١٠) ع : الإضافات .
(١١) ع : الإشارات .
(١٢) ع : ولا سفل ولا نازل ولا مرتفع .
(١٣) ق : فإن كان ثمّ تغير من حال .

بالإشراف من علو إلى سفل[1] لأن الأعلى[2] له أسفل وليس له أعلى . فهذه هي غاية الغايات ومنتهى الطِّلْبات : يعلمه من يعلمه وينكره من يجهله . وهو من العلم الذي هو كهيئة[3] المكنون الذي لا يعلمه إلا العلماء بالله . فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغِرّة بالله . ولا يبعد أن قال العلماء إن النزول إلى السماء الدنيا هو نزول مَلَك : فقد توهم بعض العارفين ما هو أبعد منه ؛ إذ قال هذا المستغرق بالفردانية أيضاً له نزول إلى السماء الدنيا : فإن ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء . وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : «صرت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به» . فإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه ، فهو السامع والباصر والناطق إذن لا غيره ؛ وإليه الإشارة بقوله[4] : «مرضت فلم تعدني» الحديث .

فحركات هذا الموحّد من السماء الدنيا ، وإحساساته كالسمع والبصر[5] من سماء فوقه ، وعقله فوق ذلك . وهو يترقي من سماء العقل إلى منتهى معراج الخلائق . ومملكة الفردانية تمام[6] سبع طبقات ثم بعده[7] يستوي على عرش الوحدانية ، ومنه يدبّر الأمر[8] لطبقات سمواته ، فربما نظر الناظر إليه فأطلق القول[9] بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن ، إلى أن يمعن النظر[10] فيعلم أن ذلك له تأويل كقول القائل[11]: «أنا الحق» و «سبحاني» بل كقوله لموسى[12] عليه السلام: «مرضت فلم تعدني»

(١) ق : الجملة وردت : الإشراف من علو إلى أسفل .
(٢) ق : لأن الأعلى وإن لم يكن له أعلى فله أسفل .
(٣) ق : كنهه .
(٤) ق : لموسى عليه السلام .
(٥) ق : ساقطة منها كالسمع والبصر .
(٦) ق : إلى .
(٧) ق : بعده .
(٨) ق : إلى .
(٩) ق : ساقطة منها .
(١٠) ق : فيه .
(١١) ق : كقوله . والقائل ساقطة منها .
(١٢) س : وق : ساقطة منهما وأثبتناها كما هي في (ع) لاستقامة المعنى .

و «كنت سمعه وبصره ولسانه» . وأرى الآن قبض[1] عنان البيان فما أراك تطيق من هذا القدْر[2] أكثر من هذا القدْر[3] . (مساعدة) لعلك لا تسمو إلى هذا الكلام بهمتك ، بل تقصر دون ذروته همتك ، فخذ إليك كلاماً أقرب إلى فهمك وأوفق لضعفك :

واعلم أن معنى كونه نور السموات والأرض تعرفه بالنسبة إلى النور الظاهر البصري . فإذا رأيت أنوار الربيع وخضرته[4] مثلاً في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان . وربما ظننت أنك لست ترى مع الألوان غيرها ، فإنك[5] تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة[6] . ولقد أصر على هذا قوم فزعموا أن النور لا معنى له ، وأنه ليس مع الألوان غير الألوان ، فأنكروا وجود النور مع أنه أظهر الأشياء ، وكيف لا وبه تظهر الأشياء ، وهو الذي يبصر في نفسه ويبصَرَ به غيره كما سبق . لكن عند غروب الشمس وغيبة السراج ووقوع الظل أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل وبين موضع[7] الضياء فاعترفوا بأن النور معنى وراء الألوان يدرك مع الألوان حتى كأنه لشدة اتحاده[8] بها لا يُدْرَك ، ولشدة ظهوره يخفى . وقد يكون الظهور[9] سبب الخفاء . والشيء إذا جاوز حده انعكس على ضده .

فإذا عرفت هذا فاعلم أن أرباب البصائر ما رأوا شيئاً إلا رأوا الله معه . وربما زاد على هذا بعضهم فقال : «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله» لأن منهم من يرى الأشياء به . ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء . وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى : ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ ؛ وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾[10]. فالأول

(١) ق : بإمساك . وفي ع ساقطة عنان .
(٢) ق : الفن .
(٣) ق : المقدار .
(٤) ق : حضرتها .
(٥) ق : فكأنك .
(٦) ق : ساقطة منها : ومكانها : غيرها .
(٧) ع : موقع .
(٨) ع : انجلائه .
(٩) ق : تكون شدته .
(١٠) ق : + وفي أنفسهم .

صاحب مشاهدة ، والثاني صاحب الاستدلال عليه[1] . والأول[2] درجة الصديقين ، والثاني[3] درجة العلماء الراسخين ، وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين .

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر ، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله . فهو مع كل شيء لا يفارقه ثم[4] يظهر كل شيء ، كما أن النور مع كل شيء وبه يظهر[5] . ولكن بقي هاهنا تفاوت : وهو أن النور الظاهر يُتَصور أن يغيب بغروب الشمس ويحجب حتى يظهر الظل ، وأما النور الإلّهي الذي به يظهر كل شيء ، لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره[6] . فيبقى مع الأشياء[7] دائماً ، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة . ولو تصوّرت غيبته لانهدمت[8] السموات والأرض ، ولأدرك به من التفرقة ما يضطر معه إلى المعرفة بما به ظهرت الأشياء . ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وحدانية[9] خالقها[10] إذ كل شيء يسبح بحمده وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات ارتفع التفريق وخفي الطريق : إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد ؛ فما لا ضد له ولا تغير له تتشابه[11] الأحوال في الشهادة له . فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه . فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره ، واحتجب عنهم لإشراق نوره . وربما أيضا[12] لم يفهم[13] هذا الكلام بعض القاصرين، فيفهم من قولنا:

(١) ق : + بآياته .
(٢) ق : الأولى .
(٣) ق : الثانية .
(٤) ق : وبه .
(٥) ق : الجملة ساقطة منها .
(٦) ق : غروبه .
(٧) ق : كلها .
(٨) ع : لانهدت .
(٩) ق : الوحدانية .
(١٠) ع : من إذ كل شيء .... حتى ارتفع . ساقطة منها . وفي ق : وردت إذ كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات .
(١١) ق : نقيض له .
(١٢) ق : أيضاً لا لم يفهم .
(١٣) ع : أيضاً كنه .

«إن الله مع كل شيء] كالنور مع الأشياء» إنه في كل مكان ؛ تعالى وتقدس عن النسبة إلى المكان . بل لعل[1] الأبعد عن إثارة هذا الخيال أن نقول إنه قبل كل شيء ؛ وإنه فوق كل شيء ؛ وإنه مُظهِر كل شيء . والمظهِر لا يفارق المظهَر في معرفة صاحب البصيرة . فهو الذي نعني بقولنا إنه مع كل شيء . ثم لا يخفى عليك أيضاً أن المظهِر قبل المظهَر وفوقه مع أنه معه : لكنه معه بوجه وقبله بوجه . فلا تظنن أنه متناقض ، واعتبر بالمحسوسات التي هي[2] درجتك في العرفان ؛ وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركة ظل اليد وقبلها أيضاً . ومن لم يتسع صدره لمعرفة هذا فليهجر هذا النمط من العلم ، فلكل علم رجال ؛ وكلّ ميسّر لما خلق له .

(١) ع : بوجه .
(٢) ق : + قدر .

الفصل الثاني
في بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار

ومعرفة ذلك[١] يستدعي تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود . لكني أشير إليهما بالرمز والاختصار : أحدهما في بيان سر التمثيل ومنهاجه ووجه ضبط أرواح المعاني بقوالب الأمثلة[٢] ، ووجه كيفية المناسبة بينها ، وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة التي منها تتخذ طينة الأمثال وبين[٣] عالم الملكوت الذي منه تستنزل[٤] أرواح المعاني . والثاني[٥] في طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها ؛ فإن هذا المثال مسوق لبيان ذلك ؛ وقد[٦] قرأ ابن مسعود : «مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة فيها» وقرأ أُبيّ بن كعب : «مثل نور قلب من آمن»[٧] .

ـ القطب الأول[٨] في سر التمثيل ومنهاجه .

---

(١) ق : وبيان ذلك . ع : ومعرفة هذا .
(٢) س : هذه الجملة من درجة .... الأمثلة ساقطة منها وأثبتناها لأنها وردت في ق و ع .
(٣) ع : ساقطة منها .
(٤) ق : تنزل .
(٥) ق : والقطب الثاني .
(٦) ع : إذ .
(٧) ق : + كمشكاة فيها .
(٨) ق : القطب الأول في بيان . القطب ساقطة من (ع) .

اعلم أن العالم عالمان : روحاني وجسماني : وإن شئت قلت : حسي وعقلي ؛ وإن شئت قلت[١] علوي وسفلي . والكل متقارب ، وإنما تختلف باختلاف الاعتبارات[٢] : فإذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت جسماني وروحاني ، وإذا اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت حسي وعقلي . وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت علوي وسفلي . وربما سميت أحدهما عالم الملك والشهادة والآخر عالم الغيب والملكوت . ومن نظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما تحير عند كثرة الألفاظ تخيّل كثرة المعاني . والذي تنكشف له الحقائق يجعل المعاني أصلاً والألفاظ تابعاً . وأمر الضعيف بالعكس ؛ إذ يطلب الحقائق من الألفاظ . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ ؟ .

فقد[٣] عرفت معنى العالَمين فاعلم أن العالم الملكوتي[٤] عالم غيب ؛ إذ هو غائب عن الأكثرين[٥] . والعالم الحسي عالم الشهادة إذ يشهده الكافة . والعالم الحسي مَرْقاة إلى[٦] العقلي . فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسدّ طريق الترقي إليه . ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى الحضرة[٧] الربوبية والقرب من الله تعالى[٨] . فلم[٩] يقرب من الله تعالى أحد ما لم يطأ بحبوحة حظيرة القدس . والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذي نعنيه بعالم القدس . فإذا اعتبرنا[١٠] جملته بحيث لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس . وربما سمينا الروح البشري الذي هو مجرى لوائح القدس «الوادي المقدس» . ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعاناً في معاني القدس . ولكن لفظ

(١) ق و ع : ساقطة منهما .
(٢) ق : العبارات .
(٣) ع : إذ قد .
(٤) ق : العلوي .
(٥) ق : الأكثر .
(٦) ق : العالم .
(٧) ع : حضره . وق أيضاً .
(٨) س وق : ساقطة منهما .
(٩) ق : فلن .
(١٠) ق : اعتبرت .

الحظيرة يحيط[١] بجميع طبقاتها . فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات غير معقولات[٢] عند أرباب البصائر .

واشتغالي الآن بشرح كل لفظ[٣] مع ذكره يصدني عن المقصد . فعليك التشمير لفهم هذه[٤] الألفاظ . فأرجع إلى الغرض وأقول :

لما كان عالم الشهادة مرقاة[٥] إلى عالم الملكوت ، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقي ؛ وقد يعبر عنه بالدين وبمنازل الهدى - فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما تصور الترقي من أحدهما إلى الآخر - جعلت الرحمة الإلٰهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت : فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم . وربما كان الشيء الواحد مثالاً لأشياء من عالم الملكوت . وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة . وإنما يكون مثالاً إذا ماثله نوعاً من المماثلة[٦] ، وطابقه نوعاً من المطابقة[٧] . وإحصاء تلك الأمثلة يستدعي استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها ، ولن تفي به القوة[٨] البشرية وما اتسع[٩] لفهمه القوة البشرية . فلا تفي بشرحه الأعمار القصيرة . فغايتي أن أعرّفك منها أنموذجاً لتستدل باليسير منها على الكثير ، وينفتح لك باب الاستبصار[١٠] بهذا النمط من الأسرار فأقول :

(١) ق : محيط .
(٢) ع : معقولة .
(٣) س : بعد وأثبتناها لفظ لاستقامة المعنى كما وردت في ق و ع .
(٤) ق : ساقطة منها .
(٥) ق : مرقى .
(٦) س : وردت المطابقة والأصح كما وردت في (ع) و (ق) أي المماثلة فأثبتناها .
(٧) س : هذه الجملة ساقطة منها وأثبتناها لأنها وردت في (ع) و (ق) ومعها يستقيم المعنى .
(٨) ق : القدرة .
(٩) ق : ولم تتسع .
(١٠) ع : الاستعبار .

٨

إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبّر عنها بالملائكة ، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ، ولأجلها قد تسمى أرباباً ، ويكون الله تعالى رب الأرباب لذلك ، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة ، فبالحريّ أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب . والسالك للطريق[١] أولاً ينتهي [٢] إلى ما درجته درجة الكواكب [٣] فيتضح له إشراق نوره وينكشف له أن العالم]الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره ؛ ويتضح له من جماله وعلو درجته ما يبادر [٤] فيقول : «هذا ربي» ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر ، رأى أفول[٥] الأول في مضرب[٦] الهويّ أي[٧] بالإضافة إلى ما فوقه[٨] فقال : «لا أحب الآفلين» وكذلك يترقي حتى ينتهي إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى ، فيراه[٩] قابلاً للمثال بنوع مناسبة له معه . والمناسبة مع ذي النقص نقص وأفول[١٠] أيضاً . فمنه[١١] يقول : «وجهت جهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً»[١١]. ومعنى «الذي» إشارة مبهمة لا مناسبة لها : إذ لو قال قائل ما مثال مفهوم «الذي» لم يتصور أن يجاب عنه . فالمتنزه[١٣] عن كل مناسبة هو الأول[١٤] الحق . ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله ﷺ : «ما نسب[١٥] الإلّه ؟» نزل في جوابه : «قل هو الله أحد : الله الصمد : لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[١٦] إلى آخرها معناه أن

(١) ق : وسالك الطريق .
(٢) ق : يترقى أولاً .
(٣) ق : الكوكب .
(٤) ق : ينادي .
(٥) ع : دخول .
(٦) ع : مغرب .
(٧) ع : ساقطة منها .
(٨) ق : + أفولاً .
(٩) ق : ساقطة منها .
(١٠) ع : وأفول .
(١١) ق : فمه .
(١٢) ق : + وما أنا من المشركين .
(١٣) ق : المنزه .
(١٤) ق : الله .
(١٥) ق : ما نسبة الله .
(١٦) ع : ولم يكن له كفواً أحد : ساقطة منها .

التنزه عن النسبة نسبته[١] . ولذلك لما قال فرعون لموسى عليه السلام : «وما رب العالمين» كالطالب لماهيته ، لم يجبه[٢] إلا بتعريفه[٣] بأفعاله ، إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل ، فقال : «رب السموات والأرض» ، فقال فرعون لمن حوله : «ألا تستمعون» [٤] كالمنكر عليه في عدوله في جوابه عن طلب الماهية [٥] ، فقال موسى : «ربكم ورب آبائكم الأولين» ، فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية ؛ وهو يجيب عن الأفعال [٦] ، فقال [٧] : «إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون» .

ولنرجع الآن[٨] إلى الأنموذج فنقول . علم «التعبير» يعرفك منهاج ضرب المثال ؛ لأن الرؤيا جزء من النبوة . أما ترى أن الشمس في الرؤيا تعبيرها السلطان ، لما بينهما من المشاركة والمماثلة في معنى روحاني - وهو الاستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار على الجميع . والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها كما يفيض السلطان آثاره[٩] بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان . وأن من يرى أنه في يده خاتم يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فتعبيره أنه مؤذن[١٠] يؤذن قبل الصبح في رمضان . وأن من يرى[١١] أنه يصب الزيت في الزيتون فتعبيره أن تحته جارية هي أمه وهو لا يعرف[١٢] . واستقصاء أبواب التعبير يزيدك أنساً بهذا الجنس[١٣] ، فلا يمكنني الاشتغال بعدها : بل أقول :

(١) ع : وردت : إن التقدس والتنزه عن النسبة . وفي ق : وردت : إن التقدس عن النسبة .
(٢) ع : لم يجب .
(٣) ق : ساقطة منها .
(٤) ق : تسمعون .
(٥) ق : الحقيقة .
(٦) ق : بالأفعال .
(٧) ق : فرعون .
(٨) ع : ساقطة منها .
(٩) ع : أنواره .
(١٠) ق : يعبر له أنه يؤذن .
(١١) ق : من رأى أنه .
(١٢) ق : يعرفها .
(١٣) ق : وردت : فاستقصاء أبواب التعبير في أمثال هذا الجنس غير ممكن . . . فلا يمكنني .

كما أن في الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب ، فكذلك فيها[1] ما له أمثلة أخرى إذا اعتبرت منه[2] أوصاف أخر سوى النورانية . فإن كان في تلك الموجودات ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ، ومنه ينفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات فمثاله «الطّور» ؛ وإن كان ثمّ موجودات تتلقى تلك النفائس بعضهم أولى من بعض فمثالها الوادي . وإن كانت تلك النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجري من قلب إلى قلب ، فهذه القلوب أيضاً أودية . ومفتتح الوادي قلوب الأنبياء ثم العلماء ثم مَنْ بعدهم . فإن كانت هذه الأودية دون الأول وعنها[3] تغترف ، فبالحريّ أن يكون الأول هو الوادي الأيمن لكثرة يمْنه وعلو درجته . وإن كان الوادي الأدون يتلقى من آخر درجات الوادي الأيمن فمغترفه[4] شاطىء الوادي الأيمن دون لجته وميدانه[5] . وإن كان روح النبي سراجاً منيراً ، وكان ذلك الروح مقتبساً بواسطة وحي كما قال : ﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ فما منه الاقتباس مثاله النار ، وإن كان المتلقنون من الأنبياء بعضهم على محض التقليد لما سمعه[7] ، وبعضهم على حظ من البصيرة ، فمثال حظ[8] المقلد الخبر ، ومثال حظ المستبصر الجذوة والقبس والشهاب . فإن صاحب الذوق مشارك للنبي في بعض الأحوال . ومثال تلك المشاركة الاصطلاء . وإنما يصطلي بالنار من معه النار ، لا من يسمع خبرها . وإن كان أول منزل الأنبياء الترقي

(١) ق : منها .
(٢) ق : معها .
(٣) ق : وردت الجملة : وإن كانت الموجودات التي تتلقى تلك النفائس .
(٤) ق : ومنها .
(٥) ق : فهو يغترف من .
(٦) ع : مبدئه .
(٧) ق : يسمعه .
(٨) ق : وردت الجملة : فمثال المقلد الغير المستبصر الجذوة .

إلى العالم المقدس عن كدورة الحس والخيال ، فمثال ذلك المنزل الوادي المقدس . وإن كان لا يمكن وطء ذلك الوادي المقدس إلا باطّراح الكونين ـ أعني الدنيا والآخرة ـ والتوجه إلى الواحد الحق ، وكانت الدنيا والآخرة متقابلتين متحاذيتين[1] وهما عارضان للجوهر النوراني البشري يمكن اطراحهما مرة والتلبس بهما أخرى ، فمثال اطّراحهما عند الإحرام للتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين . بل نترقي إلى حضرة الربوبية مرة أخرى ونقول :

إن كان في تلك الحضرة شيء بواسطته تنتقش العلوم المفصّلة في الجواهر القابلة لها[2] فمثاله «القلم» . وإن كان في تلك الجواهر القابلة ما بعضها سابق إلى التلقي ، ومنها تنتقل إلى غيرها ، فمثاله «اللوح المحفوظ والكتاب»[3] و«الرق المنشور» . وإن كان فوق الناقش للعلوم شيء هو مسخر[4] فمثاله «اليد» . وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله «الصورة» . وإن كان للصورة الإنسانية نوع ترتيب[5]] على هذه الشاكلة ، فهي على صورة الرحمن . وفرق بين أن يقال : «على صورة الرحمن» وبين أن يقال : «على صورة الله» لأن الرحمة الإلّهية هي التي صورت[6] الحضرة الإلّهية بهذه الصورة .

ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما في العالم حتى كأنه كل ما في العالم أو هو نسخة من العالم مختصرة . وصورة

(١) ع : وردت الجملة : لأن الدنيا والآخرة متقابلتان متحاذيتان .
(٢) ق : ساقطة منها .
(٣) ق : وردت الجملة : وإن كان في تلك الجواهر القابلة للتلقي ما بعضها انتقش بالعلوم فمثاله الله والكتاب . وفي ع : كما في س مع سقوط لفظة الكتاب في آخر الجملة . ولفظة مثالها بدل مثاله .
(٤) ق : + له .
(٥) ع : وإن كان يوجد للصورة الإنسية نوع ترتيب . وفي ق : وترتيب منظوم .
(٦) ق : إذ الرحمة الإلّهية هي التي على صورة الحضرة الإلّهية بهذه الصورة .

آدم ـ أعني هذه الصورة ـ مكتوبة بخط الله . فهو الخط الإلهي الذي ليس برقم حروف ، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقماً وحروفاً كما تنزه كلامه (عن) أن يكون صوتاً وحروفاً ، وقلمه عن أن يكون خشباً وقصباً[1] ، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً . ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه : إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه . فلما كان هذا من آثار الرحمة صار[2] على صورة الرحمن لا على صورة الله : فإن حضرة الإلّهية غير حضرة الرحمة[3] وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية . ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال : ﴿قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إلّه الناس﴾ ولولا هذا المعنى لكان قوله[4] : إن الله خلق آدم على صورة الرحمن غير منظوم لفظاً بل كان ينبغي أن يقول : «على صورته» واللفظ الوارد في (الحديث) الصحيح (على صورة الرحمن) .

ولأن تمييز حضرة الملك عن الإلّهية[5] والربوبية يستدعي شرحاً طويلاً ، فلنتجاوزه ، ويكفيك من الأنموذج هذا القدر ، فإن هذا بحر لا ساحل له . فإن وجدت في نفسك نفوراً عن هذه الأمثال فآنِسْ[6] قلبك بقوله تعالى : ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ الآية ، وأنه كيف[7] ورد في التفسير أن الماء هو المعرفة والقرآن[8] ، والأودية القلوب .

---

(١) ق : أن يكون قصباً وحديداً .
(٢) ق : كان .
(٣) ق : الرحمن .
(٤) ع : لكان ينبغي أن يقول : «على صورته» واللفظ الوارد .
(٥) ق : عن حضرة الربوبية .
(٦) س و ق : وردت فستأنس وأثبتناها فأنس كما في (ع) .
(٧) ق : قد .
(٨) ق : ساقطة منها .

خاتمة واعتذار

لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال[1] رخصة مني في رفع الظواهر واعتقاداً في إبطالها حتى أقول مثلاً لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقوله : ﴿اخلع نعليك﴾ . حاش لله ! فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ولم يعرفوا الموازنة بين العالمين[2] ، ولم يفهموا وجهه . كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية . فالـذي يجرد الظاهر[3] حشوي ، والذي يجرد الباطن باطني . والذي يجمع بينهما كامل . قال عليه السلام : «للقرآن ظاهر وباطن وحدٌّ ومطلع» وربما نقل هذا عن عليّ موقوفاً عليه . بل أقول فهم موسى من الأمر بخلع النعلين اطِّراح الكونين فامتثل الأمر ظاهراً بخلع نعليه ، وباطناً باطراح العالمين . وهذا هو «الاعتبار» أي العبور من شيء إلى غيره ، ومن الظاهر إلى سر . وفرق بين من يسمع قول رسول الله ﷺ : «لا يدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»[4] فيقتني الكلب في البيت ويقول ليس الظاهر مراداً ، بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب لأنه يمنع المعرفة التي هي من

---

(١) ع : مثال .
(٢) ق : الجملة ساقطة منها ومكانها : وجهلوا جهلاً بالموازنة بينهما .
(٣) ع : العبور من شيء إلى غيره ومن الظاهر إلى السر .
(٤) ق : + أو صورة .

أنوار الملائكة : إذ الغضب غول العقل ، وبين من يمتثل الأمر في الظاهر ثم يقول : الكلب ليس كلباً لصورته بل لمعناه[1] - وهو السبعية والضراوة - وإذا كان حفظ البيت الذي هو مقر الشخص والبدن واجباً[2] عن صورة الكلب ، فبأن[3] يجب حفظ بيت القلب - وهو مقر الجوهر الحقيقي الخاص - عن شر[4] الكلبية أولى . فأنا أجمع[5] بين الظاهر والسر[6] جميعاً ، فهذا هو الكامل : وهو المعنيّ بقولهم : «الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه» . ولذلك ترى الكامل لا تسمح نفسه[7] بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة . وهذه مَغْلطة منها وقع بعض[8] السالكين إلى الإباحة وطي بساط الأحكام ظاهراً ، حتى أنه[9] ربما ترك أحدهم الصلاة وزعم أنه دائماً في الصلاة بسره . وهذا أشد[10] مغلطة الحمقى[11] من الإباحية الذين مأخذهم[12] ترّهات كقول بعضهم : «إن الله غني عن عملنا» ، وقول بعضهم إن الباطن مشحون بالخبائث ليس يمكن تزكيته[13] ، ولا يطمع في استئصال الغضب والشهوة لظنه أنه مأمور باستئصالهما : وهذه حماقات .

وأما ما ذكرناه فهو كبوة[14] جواد وهفوة سالك حسده[15] الشيطان فدلاه بحبال الغرور[16] . وأرجع إلى حديث النعلين فأقول : ظاهر خلع النعلين منبه على ترك الكونين . فالمثال في الظاهر حق وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة . ولكل حق حقيقة[17] وأهل هذا التنبيه[18] هم الذين بلغوا درجة

(١) ق : ليس الكلب بصورته بل بمعناه .
(٢) ق : عليه أن يحفظ عن صورة الكلبية . والباقي ساقط .
(٣) ق : فلأن .
(٤) ق : سر .
(٥) ق : فإن من يجمع .
(٦) ق : الباطن .
(٧) ق : يسمح لنفسه .
(٨) ق : منها ما وقع لبعض السالكين في إباحة .
(٩) ق : ساقطة منها .
(١٠) ع : سوى .
(١١) ق : الحمقاء .
(١٢) ق : تأخذهم .
(١٣) ق : + منها .
(١٤) ق : ككبوه .
(١٥) ق : صده .
(١٦) ع : بحبل .
(١٧) ع : هذه الجملة ساقطة منها .
(١٨) ق : الرتبة .

الزجاجة كما سيأتي معنى الزجاجة ؛ لأن الخيال الذي من طينته يتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار ويحول بينك وبين الأنوار ؛ ولكن إذا صفا صار[1] كالزجاج الصافي وصار غير حائل عن الأنوار ، بل صار مع ذلك مؤدياً للأنوار ، بل صار مع ذلك حافظاً للأنوار عن الانطفاء بعواصف الرياح . وستأتيك قصة الزجاجة .

فاعلم أن العالم الكثيف الخيالي السفلي صار في حق الأنبياء[2] زجاجة ومشكاة للأنوار ومصفاة للأسرار ، ومرقاة إلى العالم الأعلى . وبهذا يعرف أن المثال الظاهر حق ووراء هذا سر[3] . وقس عليه «الطّور» و «النار» وغيرهما[4] .

دقيقة

إذا قال الرسول[5] عليه السلام : «رأيت عبد الرحمن بن عوف دخل[6] الجنة حَبْواً» فلا تظنن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك ، بل رآه في اليقظة[7] كما يراه] النائم في نومه ؛ وإن كان عبد الرحمن بن عوف مثلاً نائماً في بيته[8] بشخصه ، فإن النوم إنما أثر في أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلَهي ، فإن الحواس شاغلة له وجاذبة إياه[9] إلى عالم الحس ، وصافة وجْهَه عن عالم الغيب والملكوت . وبعض الأنوار النبوية قد يستعلي[10] ويستولي بحيث لا تستجره[11] الحواس إلى عالمها ولا تشغله ،

(١) ع : ولكن إذا صفا حتى صار كالزجاج الصافي غير حائل عن الأنوار .
(٢) ق : + عليهم السلام .
(٣) ع : ووراءه سر .
(٤) ع : وقس على هذا الطور والنار وغيرهما . ق : وقس عليه الضوء والنهار وغيرها .
(٥) س : ساقطة منها وأثبتناها كما وردت في ع وق .
(٦) ع : يدخل وفي ق أيضاً .
(٧) ع وق : يقظته .
(٨) ق : البيت .
(٩) ق : ساقطة منها .
(١٠) ق : تضفي .
(١١) ق : تجذبه .

فيشاهد في اليقظة ما يشاهد غيره في المنام . ولكنه إذا كان في غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة ، بل عَبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الأعلى الذي يعبر عنه بالجنة ؛ والغنى والثروة جاذب إلى الحياة الحاضرة وهي العالم الأسفل . فإن كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى أو مقاوماً[1] للجاذب الآخر[2] صُدَّ عن المسير[3] إلى الجنة . وإن كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسراً وبطئاً في سيره ؛ فيكون مثاله من عالم الشهادة «الحبوْ» . فكذلك تتجلى له أنوار الأسرار من وراء زجاجات الخيال . ولذلك لا يقتصر في حكمه على عبد الرحمن وإن كان إبصاره مقصوراً عليه ، بل يحكم به على كل من قويت بصيرته واستحكم إيمانه ، وكثرت ثروته كثرة تزاحم الإيمان لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان .

فهذا يعرِّفك كيفية إبصار الأنبياء الصور وكيفية مشاهدتهم المعاني من وراء الصور . والأغلب أن يكون المعنى سابقاً إلى المشاهدة الباطنة ثم يشرق منها[4] على الروح الخيالي فينطبع الخيال[5] بصورة موازنة[6] للمعنى محاكية له . وهذا النمط[7] من الوحي في اليقظة يفتقر[8] إلى التأويل ، كما أنه في النوم يفتقر إلى التعبير . والواقع منه في النوم نسبته إلى الخواص النبوية نسبة الواحد إلى ستة وأربعين . والواقع في اليقظة نسبته أعظم من ذلك . وأظن أن نسبته إليه[9] نسبة الواحد إلى الثلاثة . فإن [الذي] انكشف لنا من الخواص النبوية ينحصر شعبها في ثلاثة أجناس ، وهذا واحد من تلك الأجناس الثلاثة .

---

(1) ق : مقاومة من .
(2) ق : للآخرة .
(3) ق : السير .
(4) ق : يشرف منه .
(5) ق : ساقطة منها .
(6) ق : موازية .
(7) ق : الحظ .
(8) ق : يحتاج .
(9) ق : ساقطة منها .

ـ القطب الثاني في بيان مراتب الأرواح البشرية النورانية :
إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن .

فالأول منها الروح الحساس : وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس الخمس[1] ، وكأنه أصل الروح الحيواني وأوله ، إذ به يصير الحيوان حيواناً . وهو موجود للصبي الرضيع .

الثاني الروح الخيالي : وهو الذي يستثبت[2] ما أورده الحواس ويحفظه مخزوناً عنده ليعرضه على الروح العقلي الذي فوقه عند الحاجة إليه . وهذا لا يوجد للصبي الرضيع في بداية نشوئه : ولذلك يولع بالشيء ليأخذه ، فإذا غاب[3] عنه ينساه ولا تنازعه نفسه إليه إلى أن يكبر قليلاً فيصير بحيث إذا غُيِّب عنه بكى وطلب [ذلك] لبقاء صورته محفوظة في خياله . وهذا قد يوجد لبعض الحيوانات دون بعض ، ولا يوجد للفراش المتهافت على النار لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النهار[4] : فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى موضع الضياء فيلقي نفسه عليه فيتأذى به . لكنه إذا جاوزه وحصل في الظلمة عاوده مرة[5] بعد مرة . ولو كان له الروح الحافظ المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم لما عاوده بعد أن تضرر مرة به . فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة ، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعد[6] هرب .

الثالث الروح العقلي الذي به[7] تدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال : وهو الجوهر الإنسي الخاص ، ولا يوجد لا للبهائم ولا للصبيان . ومدركاته المعارف الضرورية الكلية كما ذكرناه عند ترجيح نور العقل على نور العين .

---

(1) ق : ساقطة منها .
(8) ق : يكتب ما أوردته الحواس .
(3) ق : غيب .
(4) ق : النار .
(5) ق : أخرى .
(6) ق : ساقطة منها .
(7) ق : ساقطة منها .

الرابع الروح الفكري : وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف شريفة[١] . ثم إذا استفاد نتيجتين مثلاً ، ألف بينهما مرة أخرى واستفاد نتيجة أخرى . ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية .

الخامس الروح القدسي النبوي الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء : وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التي يقصر دونها الروح العقلي والفكري . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به﴾[٢] الآية . فلا يبعد أيها العاكف[٣] في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل ، كما لا[٤] يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس تنكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز . ولا تجعل أقصى الكمال وقفاً على نفسك . وإن أردت مثالاً مما نشاهده من جملة خواص بعض البشر فانظر إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع إحساس[٥] وإدراك ، ويحرم عنه بعضهم حتى لا تميز عندهم الألحان الموزونة من المنزحفة[٦] . وانظر كيف عظمت قوة الذوق في طائفة[٧] حتى استخرجوا بها الموسيقى والأغاني والأوتار[٨] وصنوف الدستانات التي منها المحزن ومنها المطرب ومنها المنوّم ومنها المضحك] والمبكي[٩] ومنها المجنن ومنها القاتل ، ومنها الموجب للغشي . وإنما تقوى هذه الآثار فيمن له أصل الذوق . وأما العاطل عن

(١) ق : نفيسة .
(٢) ق : تكملة الآية : من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم .
(٣) ق : المعتكف .
(٤) ق : لم .
(٥) ق : ساقطة منها .
(٦) ق : المزحفة .
(٧) ق : ساقطة منها . ومكانها : آخرين .
(٨) ق : ساقطة منها .
(٩) ع : ساقطة منها .

خاصية الذوق فيشارك في سماع الصوت وتضعف فيه هذه الآثار ، وهو يتعجب من صاحب الوجد والشغى[١] . ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه . فهذا مثال في أمر خسيس لكنه[٢] قريب إلى فهمك . قسْ به الذوق الخاص النبوي واجتهد أن تصير من أهل الذوق بشيء من ذلك[٣] الروح : فإن للأولياء منه حظاً وافراً . فإن لم تقدر فاجتهد أن تصير بالأقيسة التي ذكرناها والتشبيهات[٤] التي رمزنا إليها من أهل العلم بها . فإن لم تقدر فلا أقل من أن تكون من أهل الإيمان بها : و ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ . والعلم فوق الإيمان ، والذوق فوق العلم . فالذوق وجدان والعلم قياس . والإيمان قبول مجرد بالتقليد . وحسّن الظن بأهل الوجدان أو بأهل العرفان .

فإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فاعلم أنها بجملتها أنوار إذ بها[٥] تظهر أصناف الموجودات ، والحسي والخيالي منها ، وإن كان يشارك البهائم في جنسها ، لكن الذي للإنسان منها[٦] نمط آخر أشرف وأعلى ؛ وخلق[٧] الإنسان لأجل غرض أجلّ وأسمى . أما الحيوانات فلم يخلق ذلك لها إلا ليكون[٨] آلتها في طلب غذائها في تسخيرها للآدمي . وإنما خلق للآدمي ليكون شبكة له يقتنص بها من العالم الأسفل مبادىء المعارف الدينية الشريفة . إذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصاً معيناً اقتبس من عقله معنى عاماً مطلقاً كما ذكرنا في مثال حبْو[٩] عبد الرحمن بن عوف . وإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فلنرجع إلى عرض الأمثلة .

(١) ق : الغشي .
(٢) ق : لأنه .
(٣) ق : تلك .
(٤) ع : التنبيهات .
(٥) ع : لأنها .
(٦) ع : منه .
(٧) ق : + وخلقا في غرض اخر أجلى وأسنى .
(٨) ق : فلم يخلقا لها إلا ليكونا . . . . للآدميين .
(٩) ق : ساقطة منها .

بيان أمثلة هذه الآية

اعلم أن القول في موازنة هذه الأرواح الخمسة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت يمكن تطويله ، لكني أوجزه واقتصر على التنبيه على طريقه فأقول :

أما الروح الحساس[1] فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من ثُقُب عدة كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرها ، وأوفق مثال له من[2] عالم الشهادة المشكاة . وأما الروح الخيالي فنجد له خواص ثلاثة .

إحداها : أنه من طينة العالم السفلي الكثيف : لأن الشيء المتخيل ذو مقدار وشكل وجهات محصورة مخصوصة . وهو على نسبة من المتخيل من قرب أو[4] بعد . ومن شأن الكثيف الموصوف بأوصاف الأجسام أن يحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي تتنزه عن الوصف بالجهات والمقادير والقرب والبعد .

الثانية : أن هذا الخيال الكثيف إذا صفيّ ودقق وهذّب وضبط صار موازياً للمعاني العقلية ومؤدياً لأنوارها[5] ، غير حائل عن إشراق نورها[6] منها .

الثالثة : أن الخيال في بداية الأمر[7] محتاج إليه جداً ليضبط به[8] المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشاراً يخرج عن الضبط . إذ[9] تجمع[10] المثالات الخيالية للمعارف العقلية . وهذه الخواص الثلاث لا نجدها في عالم الشهادة بالإضافة إلى الأنوار المبصرة إلا

(١) ق : الحاس .
(٢) ق : في .
(٣) ق : ثلاثة .
(٤) ق : + أو .
(٥) ق : محاذياً لها .
(٦) ق : نور .
(٧) ق : أمره .
(٨) ق : له .
(٩) ع : فنعم .
(١٠) ع : + المعنى .

للزجاجة : فإنها في الأصل من جوهر كثيف لكن صُفيّ ورقق حتى لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ، ثم يحفظه عن الإنطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة . فهي أول مثال له[1] .

وأما الثالث : وهو الروح العقلي الذي به إدراك المعارف[2] الشريفة الإلّهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله[3] بالمصباح[4] . وقد عرفت هذا فيما سبق من بيان كون[5] الأنبياء سُرُجاً منيرة[6] .

وأما الرابع : وهو الروح الفكري فمن خاصيته أنه يبتدىء من أصل واحد ثم تتشعب منه شعبتان[7] ، ثم من[8] كل شعبة شعبتان وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ، ثم يفضي بالآخرة إلى نتائج هي ثمراتها . ثم تلك الثمرات [9] تعود فتصير بذوراً لأمثالها : إذ يمكن أيضاً تلقيح بعضها بالبعض حتى يتمادى إلى ثمرات وراءها كما ذكرناه في كتاب القسطاس المستقيم[10] . فبالحريّ أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة . وإذ كانت ثمراته مادة لتضاعف أنوار[11] المعارف وثباتها وبقائها فبالحريّ ألا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها ، بل من جملة سائر الأشجار بالزيتونة[12] خاصة : لأن لب ثمرها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح ، ويختص من سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراق مع قلة الدخان[13] . وإذا كانت الماشية التي يكثر نسلها[14] والشجرة التي تكثر

(١) ق : أولى مثال به .
(٢) ق : المعاني .
(٣) ق : تمثيلها .
(٤) ق : ساقطة منها .
(٥) ق : معنى كون .
(٦) ق : سراجاً منيراً .
(٧) ق : يتشعب شعبتين .
(٨) ق : ساقطة منها .
(٩) ق : ثمراتها . ثم تلك الثمرات ساقطة منها .
(١٠) ق : الجملة من «حتى يتمادى . . . . إلى المستقيم» ساقطة منها .
(١١) ق : ساقطة منها .
(١٢) ق : إلاّ بالزيتونة .
(١٣) ق : ساقطة منها .
(١٤) ق : الجملة ساقطة منها حتى «والشجرة» .

ثمرتها تسمى مباركة ، فالتي لا يتناهى ثمرتها إلى حد محدود أَوْلى أن تسمى شجرة مباركة . وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد ، فبالحرِي[1] أن تكون لا شرقية ولا غربية .

وأما الخامس : وهو الروح القدسي] النبوي والمنسوب إلى الأولياء ١٢ إذا كان في غاية الإشراق والصفاء[2] وكانت الروح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر في أنواع المعارف ، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبه بنفسه[3] من غير مدد من خارج ، فبالحرِيّ أن يعبّر عن الصافي البالغ[4] الاستعداد بأنه يكاد زيته يضيء ، ولو لم تمسسه نار : إذ من[5] الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغني عن مدد الأنبياء ؛ وفي الأنبياء من يكاد يستغني عن مدد الملائكة . فهذا المثال موافق لهذا القسم .

وإذا كانت هذه الأنوار مترتبة بعضها على بعض : فالحسي هو الأول ، وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالي ، إذ لا يتصور الخيالي إلا موضوعاً بعده ؛ والفكري والعقلي يكونان بعدهما ؛ فبالحري أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة : فيكون المصباح في زجاجة ، والزجاجة في مشكاة .

وإذ كانت هذه كلها أنواراً بعضها فوق بعض فبالحرِيّ أن تكون نوراً على نور[6] .

---

(١) ق : فأولى أن لا تكون شرقية ولا غربية .
(٢) ع : الصفاء والشرف .
(٣) ق : من نفسه بغير .
(٤) ق : القوي .
(٥) ق : في .
(٦) ق : فأفهم والله الموفق .

خاتمة

هذا المثال إنما يتضح[1] لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار : فإن النور يراد للهداية . فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة ، بل أشد من الظلمة : لأن الظلمة لا تهدي إلى الباطل[2] كما لا تهدي إلى الحق[3] . وعقول الكفار انتكست ، وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الإضلال في حقهم . فمثالهم كرجل في «بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض» . والبحر واللّجيّ هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والأشغال المردية والكدورات[4] المعمية . والموج الأول موج الشهوات الداعية[5] إلى الصفات البهيمية والاشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية ، حتى [إنهم] يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام[6] . وبالحرِيّ أن يكون هذا الموج مظلماً لأن حب الشيء يعمى ويُصم . والموج الثاني موج الصفات السَّبُعِية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر . وبالحري أن يكون مظلماً لأن الغضب غول العقل . وبالحري أن يكون هو الموج الأعلى : لأن الغضب في الأكثر مستول على الشهوات حتى

---

(١) ق : هذا مثال إنما يصلح .
(٢) ق : باطل .
(٣) ق : حق .
(٤) ق : الحوادث الرديئة والمكدرات .
(٥) ق : الباعثة .
(٦) ق : + والنار مثوى لهم .

إذا هاج[1] أذهل عن الشهوات وأغفل عن اللذات المشتهاة[2] . وأما الشهوة فلا تقاوم الغضب الهائج أصلاً .

وأما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة ، والظنون الكاذبة ، والخيالات الفاسدة التي صارت حجباً بين الكافرين وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل : فإن خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس .

وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحري أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض . وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلاً عن البعيدة ، ولذلك حجب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبي عليه السلام مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل ، فبالحري أن يعبر عنه بأنه لو[3] أخرج يده لم يكد يراها . وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق كما سبق بيانه[4] ، فبالحري أن يعتقد كل موحد أن «من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» . ويكفيك هذا القدر من أسرار هذه الآية فأقنع به[5] .

(١) ق : ماج .
(٢) ق : ساقطة منها .
(٣) ق : إذا .
(٤) س : ساقطة منها ومن ق وواردة في (ع) فأثبتناها .
(٥) ق : ساقطة منها .

الفصل الثالث
في معنى قوله عليه السلام

﴿إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سُبُحَات وجهه كل من أدركه بصره﴾

وفي بعض الروايات سبعمائة ، وفي بعضها سبعين ألفاً : فأقول :

إن الله تعالى متجلٍّ في ذاته لذاته ، ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة ؛ وإن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام : منهم من حجب[1] بمجرد الظلمة ؛ ومنهم من حجب بالنور المحض ؛ ومنهم من حجب[2] بنو مقرون بظلمة .

وأصناف هذه الأقسام كثيرة تتحقق[3] كثرتها ، ويمكنني أن أتكلف حصرها في سبعين[4] ، لكن لا أثق بما يلوح لي من تحديد وحصر ، إذ لا أدري[5] أنه[6] المراد بالحديث أم لا . أما الحصر إلى سبعمائة وسبعين ألفاً فذلك لا يستقل به إلا القوّة النبويّة ، مع أنّ ظاهر ظنيّ أنّ هذه الأعداد مذكورة للتكثير[7] لا للتحديد ؛ وقد تجري العادة بذكر عدد[8] ولا يراد به[9] الحصر بل التكثير . والله أعلم بتحقيق[10] ذلك ، فذلك خارج عن الوسع .

(١) ق : لفظة حجب وردت يحتجب .
(٢) ق : + بمجرد .
(٣) ع : أتحقق .
(٤) ق : ساقطة منها .
(٥) ق : يدري .
(٦) ق : أهو .
(٧) ق : ساقطة منها .
(٨) ق : اعداد .
(٩) ق : بها .
(١٠) ق : بحقيقة .

وإنما الذي يمكنني الآن أن أعرفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم فأقول .

القسم الأول

وهم المحجوبون بمحض الظلمة ، وهم الملحدة[1] الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . وهم الذين استحبوا[2] الحياة الدنيا على الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلاً وهؤلاء صنفان[3] : صنف تشوَّف[4] إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله إلى الطبع : والطبع عبارة عن صفة مركوزة في الأجسام حالّة فيها ؛ وهي مظلمة إذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا مما يصدر منها[5] ؛ وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضاً .

الصنف الثاني :

هم الذين شغلوا أنفسهم ولم يتفرغوا[6] لطلب السبب أيضاً ، بل عاشوا عيش البهائم ، فكان حجابهم نفوسهم الكدرة[7] ، وشهواتهم المظلمة ، ولا ظلمة أشد من الهوى والنفس : ولذلك قال الله تعالى : ١٣ ﴿أفرأيت من اتخذ إلَٰهه هواه﴾ وقال [النبي ﷺ] : «الهوى أبغض إلَٰه عُبِدَ[8]» . وهؤلاء ينقسمون[9] فرقاً : فرقة زعمت أن غاية الطلب في الدنيا هي قضاء الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذات البهيمية من منكح ومطعم[10] وملبس . فهؤلاء عبيد اللذة ، يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادات[11] : رضوا لأنفسهم أن يكونوا بمنزلة البهائم (بل أخس حالاً[12] منها . وأي ظلمة أشد من ذلك ؟ فقد حجب هؤلاء بمحض الظلمة .

(١) ق : الملاحدة .
(٢) ق : يستحبون .
(٣) ق : وهم أصناف .
(٤) ق : تشوّق .
(٥) ق : تصوّر لها .
(٦) ع : يفرغوا .
(٧) ق : أنفسهم المركوزة .
(٨) ع : في الأرض ـ وفي ق : الهوى أبغض إلَه إلى الله .
(٩) ع : انقسموا .
(١٠) ق : ومشرب .
(١١) ق : السعادة .
(١٢) ع : ساقطة منها .

وفرقة رأت أن غاية السعادات هي الغلبة والاستيلاء والقتل والسبي والأسْر ، وهذا مذهب الأعراب والأكراد وكثير من الحمقى ، وهم محجوبون بظلمة الصفات السَّبُعية لغلبتها عليهم وكون إدراكها مقصودَها أعظم اللذات . وهؤلاء قنعوا بأن يكونوا بمنزلة السباع بل أخس .

وفرقة ثالثة رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار لأن المال هو آلة قضاء الشهوات كلها ، وبه يحصل للإنسان الاقتدار على قضاء الأوطار . فهؤلاء همتهم جمع المال والاستكثار منه واكتساب[1] الضياع والعقار والخيل المسوّمة والأنعام والحرث وكنز الدنانير تحت الأرض . فترى الواحد يجتهد طول عمره يركب الأخطار في البوادي والأسفار في[2] البحار ويجمع الأموال ويشح بها على نفسه فضلاً عن غيره : وهم المرادون بقوله عليه السلام : «تَعِس عبد الدنيا ، تعس عبد الدرهم»[3] . وأي ظلمة أعظم مما يُلبِّس على الإنسان؟ إن الذهب والفضة حجران لا يرادان لأعيانهما وهما[4] إذا لم يقض بهما[5] الأوطار ولم تنفق[6] والحصباء بمثابة واحدة[7] .

وفرقة رابعة ترقت عن جهالة هؤلاء وتعاقلت ، وزعمت أن أعظم السعادات في اتساع الجاه والصيت وانتشار الذكر وكثرة الأتباع ونفوذ الأمر المطاع . فتراها لا همّ لها إلا المراياة[8] وعمارة مطارح أبصار الناظرين :

(١) ع : وردت جمع المال واستكثار الضياع .
(٢) ع : و .
(٣) ع : تعس عبد الدراهم ، تعس عبد الدنانير .
(٤) ع : وهي .
(٥) ع : بها .
(٦) ع : وهي .
(٧) ع : ساقطة منها ثم + والحصباء بمثابتها .
(٨) ع : المراءاة .

حتى إن الواحد قد يجوع في بيته ويحتمل الضر ويصرف ماله إلى ثياب يتجمل بها عند خروجه كي لا ينظر إليه بعين الحقارة . وأصناف هؤلاء لا يحصون ، وكلهم محجوبون عن الله تعالى بمحض الظلمة وهي نفوسهم المظلمة .

ولا معنى لذكر آحاد الفِرَق بعد وقوع التنبيه على الأجناس . ويدخل في جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم «لا إلّه إلا الله» ، لكن ربما حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجمل بهم أو استمداد من أموالهم[1] أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الآباء . فهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمات إلى النور ، بل «أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» . أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته وسرته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية)[2] .

القسم الثاني

طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف : صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة .

الصنف الأول : المحجوبون بالظلمة الحسية ، وهم طوائف لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه وعن التأله والتشوف[3] إلى معرفة ربه . وأول درجاتهم عبدة الأوثان وآخرهم الثنوية ، وبينهما درجات . فالطائفة الأولى عبدة الأوثان : علموا على الجملة أن لهم رباً يلزمهم إيثاره على نفوسهم المظلمة ، واعتقدوا أن ربهم أعز من كل شيء[4] ولكن

(١) ع : مالهم .

(٢) ق : ابتداء من ص (٩٠) القسم الأول ، سطر (١٨) وحتى بداية القسم الثاني ساقط من (ق) .

(٣) ق : التشوق .

(٤) ق : + وأنفس من كل نفيس .

حجبتهم ظلمة الحس عن أن يجاوزوا العالم المحسوس فاتخذوا من أنفس الجواهر كالذهب والفضة والياقوت أشخاصاً مصورة بأحسن الصور واتخذوها آلهة . فهؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال من صفات الله وأنواره[1] ، ولكنهم ألصقوها بالأجسام المحسوسة وصدهم[2] عن ذلك[3] ظلمة الحس ، فإن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحاني العقلي كما سبق .

الطائفة الثانية : جماعة من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولا شريعة يعتقدون أن لهم رباً وأنه أجملُ الأشياء ، فإذا رأوا إنساناً في غاية الجمال أو شجراً أو فَرَساً أو غير ذلك سجدوا له وقالوا إنه ربنا . فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس ، وهم أدخل في ملاحظة النور من عبدة الأوثان لأنهم يعبدون الجمال المطلق دون الشخص الخاص فلا يخصصونه بشخص دون شخص[4] . ثم يعبدون الجمال المطبوع لا المصنوع من جهتهم وبأيديهم .

الطائفة الثالثة[5] : قالوا ينبغي أن يكون ربنا نورانياً في ذاته بهيًّا في صورته ، ذا سلطان في نفسه ، مهيباً في حضرته ، لا يطاق القرب منه ، ولكن ينبغي أن يكون محسوساً ؛ إذ لا معنى لغير المحسوس عندهم . ثم وجدوا النار بهذه الصفة فعبدوها واتخذوها رباً . فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء : وكل ذلك] من أنوار الله تعالى .

الطائفة الرابعة[6] : زعموا أن النار نستولي نحن عليها[7] بالإشعال والإطفاء ، فهي تحت تصرفنا فلا تصلح للإلّهية ، بل ما يكون بهذه

(١) ع : وردت : والعزة والجمال من صفات الله وأنواره .

(٢) ق : صدرهم .

(٣) ق : + النور .

(٤) ع : وردت : فلا يخصصونه بشيء .

(٥) ع : وطائفة ثالثة .

(٦) ع : وطائفة رابعة .

(٧) ع : عليها نحن .

الصفات[1] ولم يكن تحت تصرفنا[2] ثم نكون نحن تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفاً بالعلو والارتفاع . ثم كان المشهور فيما بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها . فمنهم من عبد الشِّعرَي ، ومنهم من عبد المُشْتَري إلى غير ذلك من الكواكب بحسب ما اعتقدوه في النجوم من كثرة التأثيرات . فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراق والاستيلاء ، وهي من أنوار الله تعالى .

الطائفة الخامسة[3] : ساعدت هؤلاء في المأخذ ولكن قالت لا ينبغي أن يكون ربنا موسوماً بالصغر والكِبَر بالإضافة إلى الجواهر النورانية ، بل ينبغي أن يكون أكبرها ، فعبدوا الشمس وقالوا هي أكبر . فهؤلاء محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مقروناً بظلمة الحس[4] .

الطائفة السادسة[5] : ترقّوا عن هؤلاء فقالوا : النور كله لا ينفرد به الشمس بل لغيرها[6] أنوار ، ولا ينبغي[7] للرب شريك في نورانيته فعبدوا النور المطلق الجامع لجميع أنوار العالم[8] وزعموا أنه رب العالمين[9] والخيرات كلها منسوبة إليه . ثم رأوا في العالم شروراً فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيهاً له عن الشر ، فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة ، وأحالوا العالم إلى النور والظلمة ، وربما سموهما «يزدان» و «أهرمن» ، وهم الثنوية . فيكفيك هذا القدر تنبيهاً على هذا الصنف ، فهم أكثر من ذلك .

---

(١) ق : تلك الصفات + أعني السلطنة والبهاء .
(٢) ق : ولم يكن تحت تصرفنا ، ساقطة منها .
(٣) ع : وطائفة خامسة .
(٤) ق : الحواس .
(٥) ع : وطائفة سادسة .
(٦) ق : أيضاً .
(٧) ق : + أن يكون .
(٨) ق : الأنوار .
(٩) ع : العالم .

الصنف الثاني : المحجوبون ببعض الأنوار مقروناً بظلمة الخيال ، وهم الذين جاوزوا الحس ، وأثبتوا وراء المحسوسات أمراً ، لكن[1] لم يمكنهم مجاوزة الخيال ، فعبدوا موجوداً قاعداً على العرش . وأخسهم رتبة المجسّمة ثم أصناف الكرّامية بأجمعهم . ولا يمكنني شرح مقالاتهم ومذاهبهم فلا فائدة في التكثير[2] . لكن أرفعهم درجة مَنْ نَفَى الجسمية وجميع عوارضها إلا الجهة المخصوصة بجهة فوق : لأن الذي لا ينسب إلى الجهات ولا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لم يكن عندهم موجوداً إذ لم يكن متخيلاً . ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوزُ النسبة إلى الجهات[3] .

الصنف الثالث : المحجوبون بالأنوار الإلَهية مقرونة بمقايسات عقلية فاسدة مظلمة فعبدوا إلّهاً سميعاً بصيراً متكلماً[4] عالماً قادراً مريداً حياً ، منزهاً عن الجهات ، لكن[5] فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم . وربما صرّح بعضهم فقال : «كلامه صوت وحرف[6] ككلامِنَا» . وربما ترقي بعضهم فقال : «لا بل هو كحديث نفسنا ولا هو حرف ولا صوت» . وكذلك إذا طولبوا بحقيقة السمع والبصر والحياة رجعوا إلى التشبيه من حيث المعنى وأن أنكروها باللفظ إذ لم يدركوا أصلاً معاني هذه الإطلاقات في حق الله تعالى . ولذلك قالوا في إرادته إنها حادثة مثل إرادتنا . وإنها طلب وقصد مثل قصدنا . وهذه مذاهب مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها . فهؤلاء محجوبون بجملة من الأنوار مع ظلمة المقايسات العقلية[7] . فهؤلاء كلهم أصناف القسم الثاني الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة . وبالله التوفيق[8] .

---

(١) ق : لكنهم .
(٢) ق : للتكثير .
(٣) ق : + والخيرة .
(٤) ق : ساقطة منها .
(٥) ق : لكنهم .
(٦) ق : حروف وأصوات .
(٧) ق : + الفاسدة .
(٨) ق : ساقطة منها .

القسم الثالث

ثم[1] المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف ولا يمكن إحصاؤهم : فأشير إلى ثلاثة أصناف منهم .

الصنف الأول[2] : طائفة عرفوا معاني الصفات تحقيقاً وأدركوا أن إطلاق اسم الكلام والإرادة والقدرة والعلم وغيرها على صفاته ليس مثل إطلاقه على البشر ؛ فتحاشوا عن تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات كما عرّف موسى عليه السلام في جواب قول فرعون : «وما رب العالمين» فقالوا إن الرب المقدّس المنزّه[6] عن معاني هذه الصفات هو محرّك السموات ومدبرها .

والصنف الثاني . ترقوا عن هؤلاء من حيث ظهر لهم أن في السموات كثرة ، وأن محرك كلّ سماء خاصة موجود آخر يسمى ملَكاً ، وفيهم كثرة ، وإنما نسبتهم إلى الأنوار الإلّهية نسبة الكواكب[4] . ثم لاح لهم أن هذه السموات في ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته في اليوم والليلة مرة . فالرب هو المحرك للجرم الأقصى المنطوي[5] على الأفلاك كلها إذ الكثرة منفية عنه .

والصنف الثالث : ترقوا عن هؤلاء وقالوا : إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغي أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عباده[6] يسمى مَلَكاً : نسبته إلى الأنوار الإلّهية المحضة نسبة القمر في الأنوار المحسوسة . فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرّك ؛ ويكون الرب تعالى[8] محركاً للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة . ثم في

(١) ق : هم .
(٢) ع : الأول وساقطة الصنف .
(٣) ق : ساقطة منها .
(٤) ق : + في الأنوار المحسوسة .
(٥) ق : المحتوي .
(٦) ق : عبيده .
(٧) ق : إلى .
(٨) ق : + وجد .

تقسيم[1] ذلك الأمر وماهيته غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ولا يحتمله هذا الكتاب .

فهؤلاء كأنهم أصناف[2] كلهم محجوبون بالأنوار المحضة . وإنما الواصلون صنف رابع تجلى لهم أيضاً أن هذا «المطاع» موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر[3]] يحتمل هذا الكتاب كشفه : وأن نسبة هذا «المطاع» نسبة الشمس في الأنوار[4] المحسوسة[5] . فتوجهوا مِن الذي يحرك السموات[6] ، ومِن الذي أمر بتحريكها إلى الذي فطر السموات[7] وفطر الآمر بتحريكها ، فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصرٌ من قبلهم ، فأحرقت سبحات وجهه الأول الأعلى جميع ما أدركه[8] بصر الناظرين وبصيرتهم إذ وَجَدوه مقدساً منزهاً عن جميع ما وصفناه من قبل .

ثم هؤلاء انقسموا : فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره وانمحق وتلاشى ، لكن بقي هو ملاحظاً للجمال والقدس وملاحظاً ذاته في جماله الذي ناله بالوصول إلى الحضرة الإلّهية . فانمحقت فيه المبصرات دون المبصَر . وجاوز هؤلاء طائفة هم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه[9] وغشيهم سلطان الجلال فانمحقوا وتلاشوا في ذاتهم ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم . ولم يبق إلا الواحد الحق . وصار

(١) ق : تفهيم .
(٢) ع : فهؤلاء الأصناف .
(٣) ع : + لا .
(٤) ق : الجملة ساقطة منها . ومكانها ورد : الجمر إلى جوهر النار الصرف .
(٥) ع : ساقطة منها .
(٦) ع : + ومن الذي يحرك الجرم الأقصى .
(٧) الجملة ساقطة في ق وفي ع : وفطر الجمر الأقصى .
(٨) ق : الجملة من : «من قبلهم . . . إلى جميع ما أدركه» ساقطة منها .
(٩) ق : + الأعلى .

معنى قوله : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ لهم ذوقاً وحالاً . وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول ، وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه . فهذه نهاية الواصلين .

ومنهم من لم يتدرج في الترقي والعروج عن[1] التفصيل الذي ذكرناه ولم يطُلْ عليهم الفروج[2] فسبقوا في أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه ، فغلب عليهم أولاً ما غلب على الآخرين آخراً ، وهجم عليهم التجلي دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسي وبصيرة عقلية . ويشبه أن يكون الأول طريق «الخليل» والثاني طريق الحبيب ﷺ ، والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما .

فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ، ولا يبعد [أن يبلغ] عددهم إذا فصّلت المقامات[3] وتُتُبِّع حجب السالكين سبعين ألفاً . ولكن إذا فتشت لا تجد واحداً منها خارجاً عن الأقسام التي حصرناها[4] : فإنهم إنما يحجبون[5] بصفاتهم البشرية ، أو بالحس أو بالخيال أو بمقايسة العقل ، أو بالنور المحض كما سبق . فهذا ما حضرني في جواب هذه الأسئلة ، مع أن السؤال صادفني والفكر متقسم ، والخاطر متشعب ، والهمُّ إلى غير هذا الفن منصرف ، ومقترحي عليه أن يسأل الله تعال العفو عما طغى به القلم ، أو زلّت به القدم ؛ فإن خوض غمرة الأسرار الإلّهية خطير ، واستشفاف[6]

---

(١) ع : على .
(٢) ع : الطريق . وفي (س) وردت لفظة الطريق فوق لفظة الفروج .
(٣) ع : المقالات .
(٤) ق : ذكرناها .
(٥) ق : يحتجبون .
(٦) ق : استكشاف .

الأنوار العلوية[1] من وراء الحجب البشرية عسير[2] غير يسير .

تم كتاب مشكاة الأنوار والحمد لله رب العالمين،
صلواته على محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه الطاهرين المنتخبين.
ويتلوه كتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة[3]

---

(١) ع : الإلهية .
(٢) ق : البشرية عسير : ساقطة منها .
(٣) س : ختمت مخطوط س بهذا الكلام في آخرها . دون ذكر تاريخ الفراغ منها .

فهرس الآيات القرآنية

الآيـة	رقم الآية	السورة
﴿الله نور السموات والأرض﴾	٣٥	سورة النور
﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾	٣٩	سورة الكهف
﴿فكشفنا عنك غطاؤك فبصرك اليوم حديد﴾	٢٢	سورة ق
﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً﴾	٢٢	سورة السجدة
﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أرسلنا﴾	٨	سورة التغابن
﴿قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾	١٧٤	سورة النساء
﴿وعنده مفاتح الغيب﴾	٥٩	سورة الأنعام
﴿معنى تسمية الله محمداً عليه السلام سراجاً منيراً﴾	٤٦	سورة الأحزاب
﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾	٣٨	سورة النبأ
﴿وإنا لنحن الصافون. وإنا لنحن لمسبحون﴾	١٦٥	سورة الصافات
﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾	١٦٦	سورة القصص
﴿لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار﴾	٨٨	سورة غافر
﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾	١٦	سورة النور
﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾	٥٥	سورة النمل
﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾	٦٢	سورة البقرة
﴿أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾	٣٠	سورة هود
﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾	٦١	سورة البقرة
﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾	١١٥	سورة فصلت
﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من	٥٣	سورة الملك
يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾	٢٢	سورة الأنعام
﴿وهذا ربي﴾	٧٦	سورة الأنعام
﴿لا أحب الآفلين﴾	٧٦	سورة الأنعام

الآيـة	رقم الآية	السورة
﴿وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً﴾		سورة الإخلاص
﴿قل هو الله أحد. الله الصمد لم يلد ولم يولد﴾		
﴿رب السموات والأرض﴾	٢٤	سورة الشعراء
﴿الا تستمعون﴾	٢٥	سورة الشعراء
﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾	٢٦	سورة الشعراء
﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾	٢٧	سورة الشعراء
﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾	٥٢	سورة الشورى
﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس إلّه الناس﴾		سورة الناس
﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾	١٧	سورة الرعد
﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به﴾	٥٢	سورى الشورى
﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾	١١	سورة المجادلة
﴿بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾	٤٠	سورة النور
﴿من لم يجعل الله لو نوراً، فما له من نور﴾	٤٠	سورة النور
﴿أفرأيت من اتخذ إلّهه هواه﴾	٢٣	سورة الجاثية
﴿أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾	٢٥٦	سورة البقرة
﴿وما رب العالمين﴾	٢٣	سورة الشعراء

الفهرس العام

I

II
النـــص

Control Number 9100915.07

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARIES
ARABIC PRESERVATION PROJECT

Bibliographic Microfilm Target

Original Material as Filmed - Existing Bibliographic Record

Shelf List

al-Ghazzālī, 1058-1111.
Bughyat al-murīd fī masā'il al-tawḥīd.
Cairo, Ṣubayḥ [19--?]
52 p. 24 cm.

In Arabic.
Imperfect: p.53 to end wanting.
Contents.- Risālat al-tawḥīd li Malikshāh.- al-Tajrīd fī kalimat al-tawḥīd, by Majd al-Dīn al-Ghazzālī.- Risālat al-ṭayr.

RM-u- 36- PM-MD Over

Restrictions on use:

Filmed by: Mid-Atlantic Preservation Service, Bethlehem, PA 18015

TECHNICAL MICROFILM DATA:

Film Size: 35MM

Reduction Ratio: 11x

Image Placement: IA (IIA) IB IIB

Date Filmed: 11-22-91 Initials: KG

APP2 2-14-90

al-Ghazzālī

Bughyat al-murīd

بغية المـــريد

في

رسائل التوحيد

وهي جملة رسائل مفيده وجليله تشتمل على أمهات العقائد وأصول
الدين وما يجب على المخلوق للخالق جل شأنه والواجب معرفته
على كل إنسان من علم التوحيد والكلام وتصحيح العقيدة

تأليف

حجة الاسلام الامام الاوحد زين الدين
شرف الأئمة فخر الانام
محمد أبي حامد الغزالي الطوسي
رضي الله عنـــه آمين

طبعت بالمطبعه المحمودية التجارية

لصاحبها : محمود علي صبيح
بميدان الجامع الازهر الشريف بمصر

رسالة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على إنعامه وإفضاله * والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله * قال الشيخ الامام العالم العلامة زين الدين حجة الاسلام شرف الأئمة أبو حامد محمد ابن محمد بن محمد الغزالى رحمة الله عليه يخاطب السلطان محمد بن ملك شاه رحمة الله تعالى عليه .

« إعلم » ياسلطان العالم وملك الشرق والغرب إن لله تعالى عليك نعماً ظاهرة وآلاء متكاثرة يجب عليك شكرها ويتعين إذاعتها ونشرها ومن لم يشكر نعمة الله تعالى فقد عرض تلك النعم للزوال وخجل من تقصيره يوم القيامة وكل نعمة تفنى بالموت فليس لها عند العاقل قدر ولا عند اللبيب خطر لان العمر وان تطاولت مدته لاينفع طوله اذا انقضى عدده فان نوحاً عليه السلام عاش ألف سنة وكأنه لم يكن فالقدر للنعمة التى تبقى عليك على الدوام مدى الليالى والأيام وهى نعمة الايمان الذى هو بذر السعادة المؤبدة والنعمة المخلدة والله جلت قدرته قد خولك هذه النعمة وزرع بذر الايمان فى صفاء صدرك وأودعه فى قلبك وسرك ومكنك من تربية ذلك البذر وأمرك أن تسقيه من ماء الطاعة حتى تصير شجرة أصلها فى قعر الأرض السفلى وفرعها فى السموات العلى وإعلم أن لهذه الشجرة عشرة أصول وعشرة فروع فأصلها الاعتقاد بالجنان وفرعها العمل بالأركان

﴿ قاعدة الاعتقاد الذى هو أصل الايمان ﴾

إعلم أيها السلطان إنك مخلوق ولك خالق . وهو خالق العالم وجميع مافى العالم وأنه واحد لاشريك له فرد لامثيل له كان فى الازل وليس لكونه زوال ويكون مع الأبد وليس لبقائه فناء وجوده فى الأزل واجب وما للعدم اليه سبيل وهو موجود بذاته وكل أحد اليه محتاج وليس له إلى أحد إحتياج وجوده به ووجود



كل شيء به . (الأصل الثاني) في تنزيه الخالق تعالى إعلم أن الباري تعالى ذكره ليس له صورة ولا قالب فانه لا ينزل ولا يحل في قالب وأنه تعالى منزه عن الكيف والكم وعن لماذا ولم وأنه لايشبهه شيء من الأشياء ولا يشبه شيئاً وكل ما يخطر في الوهم والخيال من التكييف والتمثيل فانه منزه عن ذلك لان تلك من صفات المخلوقين وهو خالقها فلا يوصف بها وأنه تعالى ليس في مكان ولا على مكان لان المكان لايحصره وكل ما في العالم فانه تحت عرشه وعرشه تحت قدرته وتسخيره وأنه قبل العرش وكان منزها عن المكان وليس العرش بحامل له بل العرش وحملته يحملهم لطفه وقدرته وأنه مقدس عن الحاجة الى المكان قبل خلقه العرش وبعد خلقه وأنه متصف بالصفة التي كان عليها في الأزل ولاسبيل الى التغير والانقلاب الى صفاته وهو سبحانه مقدس عن صفات المخلوقين منزه وهو في الدنيا معلوم وفي الآخرة مرئي كما نعلمه في الدنيا بلا مثل ولاشبه لان تلك الرؤيا لاتشابه رؤية الدنيا ليس كمثله شيء . (الأصل الثالث) في القدرة وأنه تعالى على كل شيء قدير وأن قدرته وملكه في نهاية الكمال فلا سبيل اليه للعجز والنقصان بل ماشاء فعل وما لم يشأ لم يفعل وأن السموات السبع والأرضين السبع والكرسي والعرش في قبضة قدرته وتحت قهره وتسخيره ومشيئته وهو مالك الملك لامالك إلا ملكه . (الأصل الرابع) في العلم وأنه تعالى عالم بكل شيء معلوم وأنه محيط بكل شيء وليس شيء من العلى الى الثرى إلا وقد أحاط به علمه لأن الأشياء جميعها بعلمه ظهرت وبقدرته انتشرت وأنه تعالى يعلم عدد رمال القفار وقطرات الامطار وورق الأشجار وغوامض الأفكار وإن دارت الرياح في الهوى ظاهرة مثل نجوم السماء . (الأصل الخامس) في الارادة وان جميع ما في العالم بارادته ومشيئته وليس من قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضر زيادة أو نقصان راحة أو نصب صحة أو وصب الا بحكمه وتدبيره ومشيئته وتقديره ولو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها أو ينقصوا منها شيئا أو يزيدوا فيها بغير إرادته وحوله وقوته لعجزوا عن ذلك ولم يقدروا وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ولايرد مشيئته شيء مهما كان ومهما يكون وهو كائن فانه بتدبيره وأمره وتسخيره . .

(الأصل السادس) : فى أنه سميع لكل مسموع بصير بكل مرئى وإن القريب والبعيد
فى سمعه متماثل والضياء والظلام فى بصره شىء واحد وأنه يرى دبيب النملة فى الليلة
المظلمة وما هو أخفى لا يعزب عن سمعه صوت الدودة تحت أطباق الأرض وأن
سمعه ليس بأذن وبصره ليس بعين وكما أن علمه لا يصدر عن فكرة ففعله بغير آلة
يقول للشىء كن فيكون . . (الأصل السابع) : فى الكلام وأن أمره تعالى على جميع
الخلق نافذ واجب ومهما أخبر به من وعد أو وعيد فانه حق وأمره كلامه وكما
أنه عالم مريد قدير سميع بصير فهو متكلم بغير حلق ولا لسان ولا فم ولا أسنان
والقرآن والانجيل والتوراة والزبور والكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام
جميعها كلامه وكلامه صفة وكل صفاته قديمة لم تزل وكما أن الكلام عند الآدمى
حرف وصوت فكلام الله تعالى منزه عن الحرف والصوت . . (الأصل الثامن)
فى أفعاله تعالى وجميع ما فى العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك ولا خالق بل هو
الخالق الواحد ومهما خلقه من تعب ومرض وفقر وعجز وجهل فعدل منه ولا يتمكن
الظلم من أفعاله لان الظالم الذى يتصرف فى أفعال غيره والخالق تعالى لا يتصرف
الا فى ملكه وليس معه مالك سواه وكلما كان ويكون وهو كائن فهو ملك له وهو
المالك بلا شبيه ولا شريك وليس لاحد عليه اعتراض بلم وكيف لكن له الحكم
والامر فى كل أفعاله وما لاحد غير التسليم والنظر الى صنعه والرضا بقضائه . .
(الأصل التاسع) : فى ذكر الآخرة وأنه تعالى خلق العالم من نوعين من شخص
وروح وجعل الجسد منزلا للروح لتأخذ زاداً لآخرتها من هذا العالم وجعل لكل
روح مدة مقدرة تكون فى الجسد وآخر تلك المدة هو أجل تلك الروح من غير
زيادة ولا نقصان فاذا جاء الاجل فرق بين الروح والجسد واذا وضع الميت فى قبره
أعيدت روحه الى جسده ليجيب سؤال منكر ونكير وهما شخصان هائلان عظيمان
ويسألانه من ربك ؟ ومن نبيك ؟ فان استعجم عذباه وملىء قبره حيات وعقارب ويوم
القيامة يوم الحساب والمكافأة والمناقشة والمجازاة ترد الروح الى الجسد وتنشر
الصحف وتعرض الاعمال على الخلائق فينظر كل فى كتابه فيرى أعماله ويشاهد أفعاله
ويعلم مقدار طاعته ومعصيته وتوزن أعماله فى ميزان الاعمال ثم يؤمر بالجواز على

الصراط والصراط أرق من الشعرة وأحد من الشفرة فكل من كان في هذا العالم على الطريقة المستقيمة الصالحة وسلوك المحجة الواضحة عبر على الصراط وجازه في راحة واستراحة وان لم يكن على السيرة المحمودة والأعمال الرشيدة وعصى مولاه واتبع هواه فانه لايجد الطريق على الصراط ولا يهتدى إلى الجواز ويقع في جهنم والكل يقفون على الصراط ويسألون عن أعمالهم فيسأل الصادقون عن صدقهم ويمتحن المنافقون والمراؤون ويفضحون فمن الناس قوم يدخلون الجنة بغير حساب وجماعة يحاسبون على الرفق والمسامحة وجماعة يحاسبون بالمناقشة والصعوبة والمحاققة ثم يسحب الكفار إلى نار جهنم بحيث لايجدون خلاصاً ويدخل أهل الاسلام المطيعون الجنة ويؤمر بالعصاة إلى النار فكل من ناله شفاعة الأنبياء والعلماء والاكابر والصالحين والأولياء عفى عنه وكل من ليس له شفيع عوقب بمقدار إثمه وعذب بقدر جرمه ثم يدخل الجنة ان كان قد سلم معه إيمانه .

(الاصل العاشر) : في ذكر رسول الله ﷺ فلما قدر الله تعالى هذا التقدير وجعل أفعال الانسان وأحواله واكتسابه وأعماله منها ماهو سبب لسعادته والانسان لايقدر أن يفعل ذلك من تلقاء نفسه خلق الله تعالى بحكم فضله وقدرته ورحمته وحوله ومنته ملائكة وبعثهم إلى أشخاص قد حكم لهم بالسعادة في الأزل وهم الأنبياء عليهم السلام وأرسلهم إلى الخلق ليوضحوا لهم طرق السعادة والشقاوة ولئلا يكون للناس على الله حجة وأرسل رسولنا محمداً ﷺ أخيراً وجعله بشيراً ونذيراً وأوصل نبوته إلى درجة الكمال فلم يبق للزيادة فيها مكان ولا مجال ولهذا جعله خاتم الأنبياء ﷺ ..

عن حذيفة بن اليمان أنه قال انا لا أثنى على أحد من الولاة سواء كان صالحاً أوغير صالح لأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول يؤتى بالولاة والظالمين يوم القيامة فيوقفون على الصراط فيوحى الله تعالى الى الصراط أن ينفضهم إلى النار مثل من جار في الحكم وأخذ رشوة على القضاء وأعار سمعه لأحد الخصمين دون الآخر فيسقطون

من الصراط فيهوون سبعين خريفاً فى النار يصلون إلى قرارها فقد جاء فى الخبر أن داود عليه السلام كان يخرج فى الليل متنكراً بحيث لا يعرفه أحد وكان يسأل من كل أحد يلقاه عن داود سراً فجاءه جبريل عليه السلام يوماً فى صورة رجل فقال له ماتقول فى داود فقال نعم الرجل إلا أنه يأكل من بيت المال ولا يأكل من كده وتعب يديه فعاد داود إلى محرابه باكياً حزيناً وقال إلهى علمنى صنعة آكل منها فعلمه الله تعالى عمل الزرد .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يخرج كل ليلة يطوف مع العسس حتى يرى زللا يتداركه فكان يقول لو تركت عنزا جرباء على جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أسأل عنها .

(حكاية) : أرسل قيصر ملك الروم رسولا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لينظر أحواله ويشاهد أفعاله فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال أين ملككم فقالوا مالنا ملك بل لنا أمير قد خرج الى ظاهر البلد فخرج الرسول فى طلبه فرآه نائما فى الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع درته كالوسادة تحت رأسه والعرق يسقط من جبينه الى أن بل الأرض فلما رآه على هذه الحالة وقع الخشوع فى قلبه ، وقال رجل تكون جميع الملوك لا يقر لها قرار من هيبته وتكون هذه الحالة حالته ولكنك ياعمر قد عدلت فأمنت فنمت وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهرا خائفا وأشهد أن دينكم لدين الحق ولولا أنى أتيت رسولا لأسلمت ولكن سأعود بعد هذا وأسلم . . ولا يحصل مثل هذا المقام للوالى إلا بمقاربة علماء الدين ليعلموه طرق العدل وليسهلوا عليه خطرها ويحذر العلماء السوء الذين يحضونه على الدنيا فانهم يثنون عليك ويغرونك ويطلبون رضاك طمعا بما فى يديك من خبيث الحطام ونيل الحرام ليحملوا منه شيئا بالمكر والحيل والعالم الصالح هو الذى لايطمع فيما عندك من المال وينفعك فى الوعظ والمقال كما يقال إن شقيقا دخل يوما على هارون الرشيد فقال له أنت شقيق الزاهد فقال أنا شقيق ولست بزاهد فقال له أوصني فقال إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصديق وأنه يطلب منك مثل صدقه وأعطاك موضع عمر بن الخطاب الفاروق وهو يطلب منك الفرق بين الحق

والباطل مثله وأقعدك موضع ذو النورين وانه يطلب منك مثل حيائه وكرمه وأجلسك موضع على بن أبي طالب وانه يطلب منك العلم والعدل كما يطلب منه فقال له زدني فقال له نعم اعلم أن لله تعالى داراً تعرف بجهنم وإنه قد جعلك بواباً لتلك الدار وأعطاك ثلاثة أشياء بيت المال والسوط والسيف وأمرك أن تمنع الخلائق من دخول النار بهذه الثلاثة فمن جاءك محتاجا فلا تمنعه من بيت المال ومن خالف أمر ربه تعالى فأدبه بالسوط ومن قتل نفساً بغير حق فاقتله بالسيف باذن ولى المقتول فان لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار والمقدم إلى دار البوار فقال زدني فقال إنما مثلك كمثل معين الماء وسائر العلماء في العالم كمثل السواقى فاذا كان المعين صافياً لا يضر كدر السواقى وإذا كان المعين كدراً لا ينفع صفاء السواقى .

خرج هارون الرشيد والعباس ليلا إلى زيارة الفضيل بن عياض فلما وصلا إلى بابه وجداه يتلو هذه الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية فقال هارون إنا كنا قد جئنا لطلب الموعظة فكفى بهذا موعظة ثم أمر العباس أن يطرق الباب فطرق الباب وقال افتح لأمير المؤمنين فقال الفضيل مايصنع عندي أمير المؤمنين فطفأ المصباح وفتح الباب فدخل الرشيد وجعل يطوف بيده ليصافح الفضيل فلما وقعت يده عليه قال الويل لهذه اليد الناعمة إن لم تنج من العذاب ثم قال له استعد لجواب الله تعالى يوم القيامة فانه يوقفك مع كل مسلم على حدة ويطلب منك انصافك إياه فبكى هارون حتى أغمى عليه فقال له العباس مهلا يافضيل فقد قتلت أمير المؤمنين فقال له الفضيل ياهامان أنت وقومك أهلكتموه وتقول لى مهلا وقد قتلته فقال الرشيد ماجعلك هامان إلا وقد جعلني فرعون ثم وضع الرشيد بين يديه ألف دينار وقال هذه من وجه حلال من صداق أمي وميراثها فقال له الفضيل أنا آمرك أن ترفع يدك عن مافيها وتعود إلى خالقك وأنت تلقيها إلى ولم يقبلها وخرج من عنده

سأل عمر بن عبد العزيز محمد بن كعب القرظى فقال صف لى العدل فقال كل مسلم أصغر منك سناً فكن له أبا ومن كان أكبر منك سناً فكن له ولداً ومن كان مثلك فكن له أخا وعاقب كل مسلم بجرم على قدر جرمه وإياك أن تضرب مسلما

سوط واحدا على حقد منك عليه فانه يصيرك الى النار .

أحضر بعض الزهاد خليفة الوقت بين يديه فقال له عظني فقال اعلم ياأمير المؤمنين أني سافرت الى الصين وكان ملك الصين قد أصابه الصمم وذهب سمعه فرأيته يوما يبكي ويقول ماأبكي لزوال سمعي وانما أبكي لاجل مظلوم يقف ببابي يستغيث ولا أسمع استغاثته ولكن الشكر لله إذ بصري سالم وأمر مناديا ينادي ألا من كانت له ظلامة فليلبس ثوبا أحمر وكان يركب الفيل كل يوم فكل من مر ورأى عليه ثوبا أحمر دعاه واستمع شكواه وأنصفه من خصمائه فانظر ياأمير المؤمنين إلى شفقة ذلك الملك الكافر على عباد الله فانظر كيف تكون شفقتك .

كان سليمان بن عبد الملك خليفة فتفكر يوما وقال قد تنعمت فى الدنيا طويلا فكيف يكون حالي فى الآخرة وأنفذ الى أبى حازم وكان عالم زمانه وأزهد أهل زمانه وقال ابعث لى شيئاً من قوتك الذى تفطر عليه فأنفذ له قليلا من نخالة قد شواها وقال هذا فطوري فلما رأى سليمان ذلك بكى وأثر الخشوع فى قلبه تأثيراً كثيراً فصام ثلاثة أيام طوى لياليها وافطر الليلة الثالثة على تلك النخالة المشوية فيقال انه فى تلك الليلة تغشى اهله فكان منها عبد العزيز وكان منه عمر بن عبد العزيز وكان اوحد زمانه فى عدله وانصافه وزهده واحسانه وكان على طريقة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

حضر أبو قلابة مجلس عمر بن عبد العزيز فقال له عمر عظني فقال له من عهد آدم الى وقتنا هذا لم يبق خليفة سواك فقال زدني فقال ان كان الله معك فمن تخاف وان لم يكن معك فالى من تلتجئ فقال حسبي بما قلت .

سئل عمر بن عبد العزيز ما كان سبب توبتك فقال كنت أضرب غلاماً لى فقال أذكر الليلة التى يكون صبحها القيامة فعمل ذلك الكلام فى قلبي .

رأى بعض الاكابر هارون الرشيد فى عرفات وهو حاف حاسر قائم على الرمضاء الحارة وقد رفع يديه وهو يقول أنت أنت وأنا أنا دأبي كل يوم أن أعود إلى عصيانك ودأبك أن تعود على برحمتك ومغفرتك فقال انظروا الى تضرع جبار الارض بين يدى جبار السماء .

سأل عمر بن عبد العزيز يوماً أبا حازم الموعظة فقال له أبو حازم ان نمت فضع

الموت تحت رأسك وكلما أحببت أن يأتيك الموت وأنت مصر عليه فلازمه وكلما لا تريد أن يأتيك الموت وأنت عليه فاجتنبه فربما كان منك قريباً فينبغي لصاحب الولاية أن يجعل هذه الحكاية نصب عينه وأن يقبل المواعظ الذي وعظ بها غيره وكلما رأى عالماً سأله أن يعظه وينبغي أن يعظ الملوك بهذه المواعظ ولا يغرهم ولا يدخر عنهم كلمة الحق وكل من غرهم فهو مشارك لهم في ظلمهم

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى عامله أبي موسى الأشعري أما بعد فإن أسعد الولاة من سعدت به رعيته وإن أشقى الولاة من شقيت به رعيته وإياك والتبسط فإن عمالك يقتدون بك وإنما مثلك مثل دابة رأت مرعى مخضراً فأكلت كثيراً حتى سمنت فكان سمنها سبب هلاكها لأنها بذلك السمن تذبح وتؤكل .

وفي التوراة كل ظلم علمه السلطان من عماله وسكت عنه كان ذلك الظلم منسوباً إليه وأخذ به وعوقب عليه ، وينبغي للوالي أن يعلم أنه ليس أحد أشد غبناً ممن باع دنياه وآخرته بدنيا غيره وجميع العمال والغلمان لأجل نصيبهم من الدنيا يغرون الوالي ويحسنون الظلم إليه فيلقونه في النار ليصلوا إلى أغراضهم وأي عدو أشد عداوة ممن يسعى في هلاكك لأجل درهم يكسبه ويحصله .

وفي الجملة ينبغي لمن أراد حفظ العدل على الرعية أن يرتب غلمانه وعماله للعدل ويحفظ أحوال العمال وينظر فيها كما ينظر في أحوال أهله وأولاده ومنزله ولا يتم ذلك إلا بحفظ العدل أولا من باطنه وذلك أن لا يسلط شهوته وغضبه على عقله ودينه فيصير أسير شهوته وغضبه بل يجعل شهوته وغضبه أسيري عقله ودينه وأكثر الخلق في خدمة شهواتهم فإنهم يستنبطون الحيل ليصلوا إلى مرادهم من الشهوات ولا يعلمون أن العقل من جواهر الملائكة وهو من جند الله تعالى وإن الشهوة والغضب من جند الشيطان فمن يجعل جند الله تعالى وملائكته أسير جند الشيطان كيف يعدل في غيرهم وأول ما تظهر شمس العدل في الصدر ثم ينتشر نورها في أهل البيت وخواص الملك فيصل شعاعها إلى الرعية ومن طلب الشعاع من غير الشمس فقد طلب المحال وطمع فيما لا ينال .

واعلم أيها السلطان أن ظهور العدل من كمال العقل وكمال العقل أن ترى الأشياء

كما هي وتدرك حقائق باطنها ولا تغتر بظاهرها مثلا إن كنت تجور على الناس لأجل الدنيا فتنظر أي شيء مقصودك منها فان كان مقصودك أكل الطعام الطيب فيجب أن تعلم أن هذه شهوة بهيمية في صورة آدمي فان الشره إلى الأكل من طباع البهائم وإن كان مقصودك أن تمضي غضبك على أعدائك فأنت أسد في صورة آدمي لأن احضار القلب الغضب من طباع السباع وإن كان مقصودك لبس الديباج فانك امرأة في صورة رجل لأن التزين والرعونة من أعمال النساء وإن كان مقصودك أن يخدمك الناس فأنت جاهل في صورة عاقل لأنك لو كنت عاقلا لعلمت أن الذين يخدمونك إنما هم خدم وغلمان لبطونهم وفروجهم وشهواتهم وإن خدمتهم وسجودهم لأنفسهم لالك وعلامة ذلك أنهم لو سمعوا إرجافا أن الولاية تؤخذ منك وتعطى لغيرك لأعرضوا بأجمعهم عنك وتقربوا إلى ذلك الشخص وفي أي موضع علموا الدرهم فيه سجدوا وخدموا ذلك الموضع فعلى الحقيقة ليست هذه خدمة وإنما هي ضحكة والعاقل من نظر أرواح الأشياء وحقائقها ولم يغتر بصورها وحقيقة هذه الأعمال ماذكرناه وأوضحناه فكل من لم يتيقن ذلك فليس بعاقل ومتى لم يكن عاقلا لم يكن عادلا ومقره النار فلهذا كان رأس مال كل السعادات العقل وربما كان الوالي متكبرا ومن ومن التكبر يحصل له السخط الداعي للانتقام والغضب غول العقل وعدوه وآفته وقدذكرنا ذلك في كتاب الغضب من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين واذا كان غالباً فينبغي أن يميل في الأمور الى جانب العفو والصفح ويتعود الكرم والتجاوز فاذا صار ذلك عادة في سرعة الغضب وشدة الانتقام ماثل الانسان السباع والذئاب.

(حكاية) يقال إن أباجعفر المنصور أمر بقتل رجل وكان المبارك بن الفضيل حاضراً فقال ياأمير المؤمنين اسمع مني خبراً قبل أن تقتله روى الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا كان يوم القيامة وجمع الخلائق في صعيد واحد نادى مناد من كان له يد عندالله تعالى فليقم ولا يقوم إلا من عفى عن الناس فقال اطلقوه فقد عفوت عنه.

وأكثر مايكون غضب الولاة على من ذكرهم وطول لسانه عليهم فيسعون في دمه وقال عيسى ليحيى عليهما السلام اذا ذكرك رجل بشيء وقال فيك صحيحاً فاشكر

الله جل جلاله وإن كان كذباً فازدد في الشكر فانه يريد في ديوان أعمالك وأنت مستريح يعني أن حسناته تكتب لك وفي ثوابك .

وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فقال إن فلانا رجل قوي شجاع فقال كيف فقال انه يقوي بكل أحد وما صارع أحداً إلا صرعه فقال صلى الله عليه وسلم القوي الشجاع من قهر غضبه لامن صرع غيره ، وقال عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فقد كمل ايمانه من كظم غيظه وأنصف في حالتي رضاه وغضبه وعفي عند القدرة » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تعتمد علي خلق رجل حتى تجربه عند الطمع

خرج زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما الي المسجد فسبه رجل فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه فنهاهم زين العابدين وقال كفوا أيديكم عنه ثم التفت الى ذلك الرجل وقال ياهذا انا أكثر مما تقول ومالا تعرفه مني أكثر مما عرفته فان كان لك حاجة أن أذكره ذكرته لك فخجل ذلك الرجل واستحيا فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم فمضى الرجل وهو يقول أشهد أن هذا ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويروى عن زين العابدين رضي الله تعالى عنه أنه استدعى غلامه وناداه مرتين فلم يجبه فقال له زين العابدين أما سمعت ندائي قال بلى قال فلم لا أجبتني قال أمنتك وعرفت طهارة أخلاقك فقال الحمد لله الذي أمن مني عبدي ويروى عنه أيضا أن غلاما كان له فعمد إلى رجل شاة فكسرها فقال له لم فعلت ذلك قال كسرتها عمداً لاغيظك فقال وأنا أغيظ الذي علمك إذهب فأنت حر لوجه الله تعالى

ويروى عنه أيضا أن رجلا سبه فقال له زين العابدين ياهذا بيني وبين جهنم عقبة إن أنا جزتها فما أبالي بما قلت وإن أنا لم أجزها فأنا أكثر مما قلت

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يبلغ الرجل بحلمه وعفوه درجة الصائم القائم ويكون رجل يكتب في جريدة الجائرين ولا ولاية له ولا حكم إلا على أهل منزله وقال عليه الصلاة والسلام لجهنم باب لا يدخله إلا من اتبع غضبه بخلاف الشرع

ويروي أن إبليس تراءى لموسى عليه السلام فقال ياموسى أعلمك ثلاثة أشياء

وتطلب لى من ربى حاجة واحدة فقال موسى عليه السلام وما الثلاثة الاشياء فقال ياموسى احذر من الحدة والحرد فان الحرد يكون صاحبه خفيف الرأس وأنا ألعب به كما يلعب الصبيان بالاكرة واحذر من النساء فانى مانصبت للخلق شركا اعتمدت عليه مثل النساء واحذر من البخل فانى أفسد على البخيل دينه ودنياه .

وقال رسول الله ﷺ من كظم غيظه وهو قادر ملأ الله تعالى قلبه بالأمن والايمان وقال صلى الله عليه وسلم ويل لمن يغضب وينسى غضب الله تعالى .

وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال علمنى عملا أدخل به الجنة فقال لا تغضب قال وماذا قال استغفر قبل صلاة العصر سبعين مرة ليكفر عنك ذنوب سبعين سنة .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قسم يوما مالا فقال رجل ماهذه القسمة لله تعالى فحكى ذلك لرسول الله ﷺ فغضب واحمر وجهه ولم يقل شيئا سوى أن قال رحم الله أخى موسى فانه أوذى وصبر على الأذى وهذا القدر كاف من النصيحة وفى هذا الزمان عامل يتناول من أموال الناس كذا وكذا ألف دينار فى كل سنة لأجل غيره وتبقى فى ذمته ويطالب بها فى يوم القيامة ويحصل بمنفوعها سواه ويبوء بالعقوبة والعذاب يوم المرجع والحساب وهذه نهاية الغفلة وقلة الدين وضعف العقل

وينبغى للوالى على أمور المسلمين أن يرضى لهم مايرضاه لنفسه ويكره لهم ما يكرهه لنفسه .

يروى أن رسول الله ﷺ كان قاعداً يوم بدر فى ظل فهبط عليه جبريل عليه السلام وقال يامحمد أتقعد فى الظل وأصحابك فى الشمس فعوتب بهذا القدر .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز قضى حوائج الناس ثم دخل ليستريح فقال له ولده ما الذى يؤمنك أن يأتيك ملك الموت وعلى الباب من له عندك حاجة وهو ينتظرها وأنت مقصر عن حقه فقال صدقت ونهض إلى مجلسه . . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعض الصالحين عن نفسه فقال له هل رأيت فى شيئا تكرهه فقال ياعمر سمعت أنك وضعت على مائدتك رغيفين وإن لك قميصين أحدهما لليل والآخر للنهار فقال هل غير هذين الاثنين شىء قال لا قال والله لا يكون هذا أبدا وقال صلى الله عليه وسلم اللهم الطف بكل وال يلطف برعيته واعنف على كل

وال يعنف على رعيته .

وسأل هشام بن عبد الملك أبا حازم وكان من العلماء ما التدبير فى النجاة من أمور الخلافة فقال أن تأخذ الدرهم من وجه حلال وتضعه فى موضع حلال فقال من يقدر على هذا فقال من يرغب فى نعيم الجنان ويرهب من عذاب النيران .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه خير أمتى الذين يحبونكم وتحبونهم وشر أمتى الذين يبغضونكم وتبغضونهم ويلعنونكم وتلعنونهم .

ولا ينبغى للوالى أن يغتر بكل من وصل إليه وأثنى عليه وأن لا يعتقد أن جميع الرعية مثله راضون وأن الذى يثنى عليه من خوفه منه بل ينبغى أن يرتب معتمدين يسألون عن أحواله من الرعية ويتجسسون ليعلم عيبه من ألسنة الناس وينبغى للوالى أن لا يطلب رضاء أحد من الناس بمخالفة الشرع بسخط الله تعالى فان من سخط بخلاف الشرع لا يضر سخطه . وكان عمر رضى الله عنه يقول إنى أصبح كل يوم ونصف الخلق على ساخطون ولا بد لكل من يؤخذ منه الحق أن يسخط ولا يمكن أن يرضى الخصمين وأكثر الناس جهال .

(نكتة) كتب معاوية إلى عائشة رضى الله عنها أن عظينى عظة مختصرة فكتبت إليه تقول من طلب رضا الله تعالى بسخط الخلق رضى الله عنه وأرضا عنه الناس ومن طلب رضا الناس بسخط الله تعالى سخط الله عليه وأسخط عليه الناس

واعلم أيها السلطان أن الدنيا منزلة وليست بدار قرار والانسان فيها على صورة مسافر فأول منازله بطن أمه وآخرها اللحد قبره وإنما وطنه وقراره ومسكنه واستقراره بعدها فكل سنة تنقضى من عمر الانسان فكالمرحلة وكل شهر ينقضى عنه كاستراحة المسافر فى سفره وكل أسبوع كقرية يلقاها فى طريقه وكل يوم كفرسخ يقطعه وكل نفس كخطوة يخطوها وبقدر كل نفس يتنفسه يقرب من الآخرة وهذه الدنيا قنطرة فمن لم يعبر القنطرة واشتغل بعمارتها فنى فيها زمانه ونسى المنزلة التى إليها مصيره وهى مكانه وكان جاهلا غير عاقل وإنما العاقل الذى لا يشتغل فى دنياه إلا بالاستعداد وجمع الزاد ليوم المعاد ويرتفق منها بقدر حاجته ومهما جمعه فيها فوق كفايته كان سما قاتلا وتمنى أن تكون خزائنه وسائر ذخائره رمادا وترابا لا فضة ولا

ذهبا. واعلم أيها السلطان أن راحة الدنيا أيام قلائل وأكثرها منغص بالتعب ومشوب بالنصب وبسببها تفوت راحة الآخرة التي هي الدائمة الباقية والملك الذي لا فناء له ولا نهاية فيسهل على العاقل أن يصبر في هذه الأيام القلائل لينال راحة دائمة بلا انقضاء

(نكتة) لو كان للانسان معشوقة وقيل له إن كنت هذه الليلة تزورها فإنك لا تعود تراها أبدا وإن صبرت عنها هذه الليلة سلمت إليك ألف ليلة فإنه وإن كان حبه لها عظيما وصبره أليما لكن يهون عليه صبره عنها على البعد ليلة لينال قربها ألف ليلة ومدة الدنيا ليست واحداً من ألف من مدة الآخرة بل ليست شيئا في جنب الآخرة ولا نسبة بينهما لأن الآخرة لا نهاية لها ولا يدرك بالوهم طولها وقد أوضحنا حالها في عشرة أمثلة.

(المثل الأول): في بيان سحرها قال ﷺ احذروا من سحر الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت وأول سحرها أنها تريك أنها ساكنة عنك مستقرة معك وإذا تأملتها خلتها ساكنة وهي نافرة عنك على الدوام وإنما تنسل على التدريج ذرة ذرة ونفسا نفسا ومثل الدنيا كمثل الظل إذا رأيته حسبته ساكنا وهو يمر دائما فكذلك عمر الانسان يمر بالتدريج على الدوام وينقص كل لحظة وكذلك الدنيا تودعك وتهرب منك وأنت غافل وذاهل.

(المثال الثاني) ومن سحرها أنها تظهر لك محبة لتعشقها وتريك أنها لك مساعدة وأنها لا تنتقل عنك إلى غيرك ثم تعود عدوة لك على غفلة ومثلها كمثل امرأة فاجرة خداعة للرجال حتى إذا عشقوها دعتهم إلى بيتها فاغتالتهم وأهلكتهم

رأى عيسى عليه السلام الدنيا في بعض مكاشفاته وهي على صورة امرأة عجوز هرمة فقال كم تزوجت بعلا فقالت لا يحصون كثرة فقال ماتوا أو طلقوك قالت بل أنا قتلتهم وأفنيتهم فقال يا عجبا لهؤلاء الحمقى الآخرين الذين يشاهدون ما بسواهم صنعت وهم فيك يرغبون.

(المثال الثالث): ومن سحرها أنها تزين ظاهرها بمحاسنها وتخفي محنها ومقاتلها في باطنها وتغر الجاهل بما يراه من ظاهرها ومثلها كمثل عجوز قبيحة المنظر تخفي وجهها وتلبس أحسن الثياب وتتزين وتتجمل لتغش الخلق من بعيد فاذا كشفوا

غطاءها وخمارها وألقوا عنها إزارها ندموا على محبتها لما شاهدوا من فضائحها وعاينوه من قبائحها . وقد جاء في الخبر أن الدنيا يؤتى بها يوم القيامة في صورة عجوز قبيحة مشوهة زرقاء العين وحشية الوجه قد فغرت عن أنيابها وكشرت عن أسنانها فاذا رآها الخلائق قالوا نعوذ بالله منها ماهذه القبيحة المشوهة فيقال لهم هذه الدنيا التى كنتم عليها تتحاسدون ولأجلها كنتم تتحاقدون وتسفكون الدماء بغير حق وتقطعون أرحامكم وتغترون بزخرفها ثم يؤمر بها إلى النار فتقول إلهى أين أحبائى فيؤمر بهم فيلقون معها في النار .

(المثال الرابع) : أن يحسب الانسان كم كان من الأزل قبل أن يوجد في الدنيا وكم يكون مدة عدمه بالموت وكم قدر هذه المدة التى بين الأزل والأبد وهي مدة حياته في الدنيا فيعلم أن مثال الدنيا كطريق المسافر أوله المهد وآخره اللحد وفيما بينهما منازل معدودة وان كل سنة كمنزل وكل شهر كفرسخ وكل يوم ميل وكل نفس خطوة وهو يسير دائما فيبقى لواحد من طريقه فرسخ وللآخر أقل وللآخر أكثر وهو قاعد ذاهل وساكن غافل كأنه مقيم لايبرح وقاطن لايبرح قد اشتغل بتدبير أعمال لايحتاج إليها بعد عشر سنين وربما حصل بعد عشرة أيام في التراب

(المثال الخامس) : اعلم أن مثل الدنيا ومايحتقب أهلها فيها شهواتهم ولذاتهم من الفضائح التى يشاهدونها في الآخرة كمثل انسان أكل فوق حاجته من طعام حلو سمين إلى ان شاء هضمه وهاضت معدته فرأى فضيحته من هلاك معدته ونتونة نفسه وكثرة برازه وحاجته فندم بعد ذهاب لذته وبقاء فضيحته وكذلك كلما ألف الانسان لذات الدنيا كانت عاقبته أصعب ويتبين له ذلك عند نزعه وخروج روحه لأن كل من كان له نعم كثيرة وذهب وفضة وجوار وغلمان كان ألم روحه عليه أصعب من ألم من ليس له إلا القليل فان ذلك الألم والعذاب لايزول بالموت بل يزيد بالموت لأن تلك المحبة صفة القلب والقلب بحاله لايموت .

(المثال السادس) : اعلم أيها السلطان أن أمور الدنيا أول ماتبدو يظنها الانسان قريبة مختصرة ويخال أن شغلها لايطول وربما كان من بعض أشغالها وأحوالها أمر يتسلسل منه مائة أمر وينفق فيه بضاعة العمر . قال عيسى عليه السلام طالب الدنيا

كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا زاد عطشا فلا يزال يشرب إلى أن يهلك ولا يروي . قال النبي ﷺ لا يمكن من خاض البحر أن لا يبتله البلل كذلك لا يمكن من دخل في أمور الدنيا أن لا يتدنس

(المثال السابع) : مثل من حصل في الدنيا كمثل ضيف دعي إلى مائدة وعادة المضيف أن يزين للأضياف داره ويدعو إليها قوما بعد قوم وفوجا بعد فوج ويضع بين يدي أضيافه طبقا من ذهب مملوء بالجواهر ومجمرة من فضة فيها من عود وبخور ليتطيبوا ويتبخروا وينالهم طيب رائحتها ثم يغادرون الطبق والمجمرة بحالها لمالكها ليدعو غيرهم كما دعاهم فمن كان عاقلا عارفا برسم الدعوات وضع من ذلك البخور على النار وتطيب وانطلق ولم يطمع في أن يتناول المجمرة والطبق وتركهما بطيبة من نفسه وشكر لصاحب البيت وربه وانصرف راشداً ومن كان أحمق ابلها توهم أن ذلك الطبق والمجمرة قد أعدا له وانهم يريدون أن يهبوهما له فلما هم بالخروج من الدار أخذ الطبق والمجمرة فاستعاد وهما منه فضاق صدره وتعب قلبه وطلب الاقالة من ذنبه فالدنيا كمثل دار الضيافة ليتزودوا منها لطريقهم ولا يطمعوا فيها في الدار

(المثال الثامن) : ومثل أهل الدنيا واشتغالهم بأشغالها واهتمامهم بأحوالها ونسيان الآخرة واهمالها كمثل قوم ركبوا مركبا في البحر فعدلوا إلى جزيرة لأجل الطهارة وقضاء الحاجة فنزلوا إلى الجزيرة والملاح يناديهم لا تطيلوا المكث لا يفوت الوقت فلا تشتغلوا بغير الوضوء والصلاة فإن المركب سائر فمضوا وتفرقوا في الجزيرة وانتشروا في نواحيها فالعقلاء منهم لم يمكثوا وشرعوا في الطهارة وعادوا إلى المركب فأصابوا الأماكن خالية فجلسوا في أظهر الأماكن وأوفقها وأطيب المواضع وأرفقها ومنهم قوم نظروا إلى عجائب تلك الجزيرة ووقفوا يتنزهون في زهرها وأثمارها ورياضها وأشجارها ويسمعون طيب ترنم أطيارها ويتعجبون من حصبائها الملونة وأحجارها فلما عادوا إلى المركب لم يجدوا فيه موضعا ولا رأوا متسعا فقعدوا في أضيق المواضع وأظلمها ومنهم قوم لم يقنعوا بالنزهة ولم يقتصروا على الفرجة لكنهم جمعوا من تلك الحصا الملونة ثم حملوا معهم إلى المركب فلم يجدوا مكانا وقعدوا في أضيق المواضع وحملوا مااستصحبوه من الأحجار على أعناقهم فلم يمض إلا يوم واحد حتى تغيرت

ألوان تلك الأحجار واسودت وفاح منها أكره رائحة ولم يجدوا مخلصا من الزحام ليلقوا ثقلها عن أعناقهم فندموا على مافعلوا وحصل ثقل الأحجار على أعناقهم إذ كانوا بتحصيلها اشتغلوا ومنهم قوم وقفوا مع عجائب تلك الجزيرة وتحيروا في الرجوع ولم يتفكروا حتى سار المركب فبعدوا عنه وانقطعوا في مكانهم وتخلفوا إذ لم يصغوا إلى المنادى ولم يسمعوا فمنهم من هلك من الجوع ومنهم من أكلته السباع ونابته الضباع فالقوم المتقدمون هم المؤمنون المتقون والقوم المتخلفون الهالكون هم الكفار المشركون الذين نسوا الله تعالى ونسوا الآخرة وسلموا كليتهم إلى الدنيا وركنوا إليها كما قال عز من قائل (الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة واطمأنوا بها) .

وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا أبا هريرة تريد أن أريك الدنيا قلت نعم فأخذ بيدي وانطلق حتى وقف بي على مزبلة فيها رءوس الآدميين ملقاة وبقايا عظام نخرة وخرق قد تمزقت وتلوثت بنجاسات فقال يا أباهريرة هذه رءوس الناس التي تراها كانت مثل رءوسكم مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا وكانوا يرجون من طول الأعمار ماترجون وكانوا يجدون في عمارة الدنيا وجمع المال كما تجدون فاليوم قد نخرت عظامهم وتلاشت أجسامهم كما ترى وهذه الخرق كانت أثوابهم التي كانوا يتزينون بها عند التجمل ووقت الرعونة فاليوم قد ألقتها الرياح في النجاسات وهذه عظام دوابهم التي كانوا يطوفون عليها أقطار الأرض وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون في تحصيلها وينهبها بعضهم من بعض قد ألقوها عنهم بهذه الفضيحة التي لايقربها أحد من نتنها فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى فمن أراد أن يبك على الدنيا فليبك فانها موضع البكاء .

وروى أنه كان في زمن عيسى عليه السلام ثلاثة سائرين في طريق فوجدوا كنزا فقالوا قد جعنا فليمض واحد منا ويبتاع لنا طعاما فمضى أحدهم ليأتيهم بطعام فقال الصواب أن أجعل لهما في الطعام سما قاتلا ليأكلا منه فيموتا وأنفرد بالكنز دونهما ففعل ذلك وسم الطعام فاتفق الرجلان الآخران أنهما إذا وصل إليهما بالطعام قتلاه

وينفردا بالكنز دونه فلما وصل إليهما قتلاه وأكلا من الطعام فماتا فاجتاز عيسى عليه السلام بذلك الموضع ومعه الحواريون فقال لهم هذه الدنيا فانظروا كيف صنعت بهؤلاء الثلاثة وبقيت بعدهم فويل لطلاب الدنيا من الدنيا.

(حكاية) : روى وهب بن منبه أن ملكا عظيما أراد أن يركب يوما في جماعته وأهل مملكته ويرى الخلق عجائب زينته وأمرائه وأسفهلاريته بالركوب ليظهر للناس سلطنته فلبس فاخر الثياب وركب فرسا مشهوراً بالسبق وركبه بالمركب والطوق المرصع بالجواهر وجعل يركض بالحصان في عسكره ويفتخر بهيئته وتجبره فجاءه ابليس لعنه الله فنفخ في أنفه أنفته فقال في نفسه من في العالم مثلي وجعل يركض بالكبرياء ويزهو بالخيلاء ولا ينظر إلى أحد من تيهه وعجبه وكبره وفخره فوقف بين يديه رجل عليه ثياب رثة فسلم عليه فلم يرد عليه السلام فقبض على عنان فرسه فقال الملك ارفع يدك فانك لاتدرى بعنان من قد أمسكت فقال لي إليك حاجة فقال اصبر حتى أنزل فقال حاجتي هذه الساعة إليك لاعند نزولك قال أذكر حاجتك فقال إنها سر ولا أقولها إلا في أذنك فأصغى بسمعه إليه فقال أنا ملك الموت أريد قبض روحك فقال أمهلني ساعة بقدر ما أعود إلى بيتي وأولادي وجيراني وزوجتي فقال كلا لا تعود تراهم فانك قد فنيت مدة عمرك وأخذ روحه وهو على ظهر فرسه فخر ميتا وعاد ملك الموت من هنالك فأتي رجلا صالحا قد رضي الله عنه فسلم عليه فرد عليه السلام فقال لي إليك حاجة وهي سر فقال الصالح أذكر حاجتك في أذني فقال أنا ملك الموت فقال مرحبا بك الحمد لله على مجيئك فانى كنت كثير الترقب لوصولك ولقد طالت علي غيبتك وكنت مشتاقا إلى قدومك فقال له ملك الموت إن كان لك شغل فاقضه فقال ليس لي شغل أهم عندي من لقاء ربي عز وجل فقال كيف تحب أن أقبض روحك فاني أمرت أن أقبض روحك كيف آثرت واخترت فقال دعني أتوضأ وأصلي ركعتين فاذا أنا سجدت فاقبض روحي وأنا ساجد ففعل ملك الموت ما أمر به ونقله الله تعالى إلى رحمته.

(حكاية) يروى أنه كان ملك كثير المال قد جمع مالا عظيما واحتشد من كل نوع خلقه الله تعالى من متاع الدنيا ليرفه نفسه ويتفرغ لأكل ما جمعه فجمع نعما

طائلة وبنى قصراً عالياًو ركب عليه بابين محكمين وأقام عليه الغلمان والحراس والأجناد وأمر فى بعض الأيام أن يصنع له طعام من أطيب الطعام فجمع أهله وحشمه وأصحابه وخدامه ليأكلوا عنده وينالوا رفده وجلس على سرير مملكته واتكأ على وسادته وقال يانفس قدجمعت نعم الدنيا بأسرها فالآن فرغى بالك وكلى هذه النعم مهنأة بالعمر الطويل والحظ الجزيل فلم يفرغ مما حدث به نفسه حتى أتى رجل من ظاهر القصر عليه ثياب رثة ومخلاته فى عنقه معلقة على هيئة سائل يسأل الطعام فطرق حلقة القصر طرقة عظيمة هائلة بحيث تزلزل القصر وتزعزع السرير وخاف الغلمان ووثبوا الى الباب وصاحوا ياضعيف ماهذا الحرص وسوء الأدب اصبر حتى نأكل ونطعمك مما يفضل فقال لهم قولوا لصاحبكم ليخرج الى فلى اليه شغل مهم وأمر ملم فقالوا تنح أيها الضعيف من أنت حتى نأمر صاحبنا بالخروج اليك فقال أنتم قولوا له ماذكرت فلما عرفوه قال هلا زجرتموه ونهرتموه ثم طرق الباب أعظم من الطرقة الأولى فنهضوا اليه من أماكنهم بالعصى والسلاح وقصدوه ليحاربوه فصاح بهم صيحة وقال الزموا أماكنكم فأنا ملك الموت فرعبت قلوبهم وطاشت حلومهم وارتعدت فرائصهم وبطلت عن الحركة جوارحهم فقال الملك قولوا له ليأخذ بدلا منى وعوضاً عنى فقال ما آخذ الا أنت ولاأتيت الالأجلك لافرق بينك وبين النعم التى جمعتها والأموال التى حويتها وخزنتها فتنفس الصعداء وقال لعن الله هذا المال الذى غرنى وضرنى وبلانى وخرجت صفر اليدين منه وبقى لأعدائى فأنطق الله تعالى المال حتى قال لأى سبب تلعننى فان الله تعالى خلقنى وإياك من تراب وجعلنى فى يدك لتتزود بى لآخرتك وتتصدق على الفقراء وتحسن على الضعفاء ولتعمر بى الرباط والمساجد والجسور والقناطر لأكون عوناً لك فى اليوم الآخر وأنت جمعتنى ومنعتنى وفى هواك أنفقتنى ولم تشكر حقى بل كفرتنى فالآن تركتنى لأعدائك وأنت بحسرتك وندامتك فأى ذنب لى حتى تسبنى وتلعننى ثم ان ملك الموت قبض روحه قبل أكل الطعام فخر عن سريره صريع الحمام .

يروى أن ذا القرنين اجتاز بقوم لايملكون شيئا من أسباب الدنيا وقد حفروا قبور موتاهم على أبواب دورهم وهم يتعهدونها ويكنسونها وينظفونها ويعبدون الله تعالى بينها وما لهم طعام سوى نبات الأرض فبعث اليهم ذو القرنين رجلا يستدعى

مالكهم فلم يجبه وقال مالى اليه حاجة فجاء ذوالقرنين اليه وقال كيف حالكم فانى لاأرى لكم شيئا من ذهب ولافضة ولاأرى عندكم شيئاً من نعم الدنيا فقال نعم لان نعم الدنيا لايشبع منها أحد قط فقال لم حفرتم القبور على أبوابكم فقال لتكون نصب أعيننا فتجدد لنا ذكر الموت ويبرد حب الدنيا فى قلوبنا فلا نشتغل بها عن عبادة ربنا فقال لاى معنى تأكلون الحشيش فقال لانا نكره أن نجعل بطوننا قبورا للحيوان ولان لذة الطعام والشراب لاتجاوز الحلق ثم مد يده الى طاقة فأخرج منها قحف رأس آدمى فوضعه بين يديه وقال ياذا القرنين تعلم من كان هذا فقال لا قال كان صاحب هذا القحف ملكا من ملوك الدنيا وكان يظلم رعيته ويجور على الضعفاء ويستفرغ زمانه فى جمع الدنيا فقبض الله روحه وجعل النار مقره وهذا رأسه ثم مد يده ووضع قحفا آخر بين يديه وقال أتعرف هذا فقال لا قال كان هذا ملكا عادلا مشفقا على رعيته محبا لاهل مملكته فقبض الله روحه وأسكنه جنته ثم انه وضع يده على رأس ذى القرنين وقال ترى أى هذين الرأسين يكون هذا الرأس فبكى ذوالقرنين بكاء شديداً وضمه الى صدره وقال له ان رغبت فى صحبتى فانى أسلم اليك وزارتى وأقاسمك مملكتى فقال مالى فى ذلك رغبة فقال لم فقال لان جميع الناس أعداؤك بسبب المال والمملكة وجميع الناس أصدقائى بسبب القناعة والصعلكة

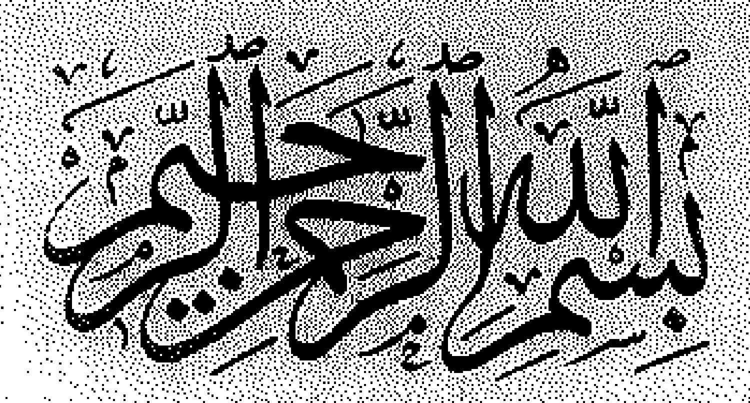
وقد ورد فى الخبر أن من أكثر من ذكر الموت كان قبره روضة من رياض الجنة ومن نسى الموت وغفل عن ذكره كان قبره حفرة من حفر النار

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة كان له مثل أجر الشهداء ودرجتهم» وقال صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر الموت فانه يمحو الذنوب ويبرد حب الدنيا فى القلوب»

سئل عليه الصلاة والسلام من أحزم الناس وأعقلهم فقال أعقل الناس من كان أكثرهم للموت ذكرا وأحزمهم أحسنهم للموت استعدادا

فاشعر قلبك أيها الملك خوف ملك الملوك ومن أنت وكل ملك ومملوك فى قبضة يده وتحت تصرفه ولا يخفى عليه خافية من جليل حالك ودقيقه واجعل الموت أبدا منك على بال فان الأجل وإن طال قصير والخطب فى العرض والحساب كبير والله خليفتى عليك والسلام م؟

﴿ تمت رسالة الغزالى إلى ملكشاه ويليها كتاب التجريد فى كلمة التوحيد ﴾



[قال الشيخ الأجل جمال الاسلام أحمد بن محمد بن محمد الغزالى رحمة الله عليه فى الحديث الصحيح والنقل الوارد الصحيح عن سيد البشر محمد المصطفى ﷺ قال ذلك خبراً عن الله تعالى لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى

قال الشيخ الامام رحمة الله عليه كلمة لا إله إلا الله هى الحصن الاكبر وهى علم التوحيد من تحصن بحصنها فقد حصل سعادة الأبد ونعيم السرمد ومن تخلف عن التحصن بها فقد حصل شقاوة الأبد وعذاب السرمد ومهما لم تكن هذه الكلمة حصناً دائرا على دائرة قلبك وروحها نقطة تلك الدائرة وسلطانها حارسا يمنع نفسك وهواك وشيطانك من الدخول إلى تلك النقطة فأنت خارج الحصن ومجرد قولك لا يزن مثقال ذرة ولا يعدل جناح بعوضة فانظر ماهو نصيبك من هذه الكلمة فان كان نصيبك روحها ومعناها (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) وهو نصيب سيد الخلائق محمد ﷺ ومائة ألف نبى ونيف وعشرين ألف نبى فقد حزت ذخر الكونين وفزت بسعادة الدارين وكتبت فى جريدة الأولياء وزمرة عالم الفضل (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين: ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وإن كان نصيبك مجرد لقلقة اللسان (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا) فهو نصيب رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن كعب بن سلول ومائة ألف منافق (إذا جاءك المنافقون) الآية فقد صرت شيئاً خسر الدنيا والآخرة وذلك الخسران المبين وكتبت فى جريدة الاعداء فى جملة عالم العدل (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) لا إله إلا الله حصن ولكن

نصبوا عليه منجنيق التكذيب ورموه بحجارة التخريب وتظاهروا على هدمه بمعاول الشقاء والنفاق فدخل عليهم العدو فطمس معالمه ودرس مراسمه وشوش مسكن الملك ومحل نظره وسلبهم المعنى وتركهم مع الصورة (إن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم) سلبوا معنى لا إله إلا الله فبق معهم لقلقة اللسان وقعقعة الحروف وهو ذكر الحصن لا معنى الحصن وكما أن ذكر النار لا يحرق وذكر الماء لا يغرق وذكر الخبز لا يشبع وذكر السيف لا يقطع فكذلك ذكر الحصن لا يمنع

(فصل) : هذا الحديث يجيء بالقيل والقال ما احترق لسان أحد قط بقوله نار ولا استغنى أحد بقوله ألف دينار ، القول قشر والمعنى لب ، القول صدف والمعنى در ، فماذا تصنع بالقشر مع فقدان اللب ؟ وماذا تصنع بالصدف مع فقدان الجوهر ؟ هذه الكلمة مع معناها بمنزلة الروح مع الجسد وكما لا ينتفع بالجسد دون الروح فكذلك لا ينتفع بهذه الكلمة بدون معناها فعالم الفضل أخذوا هذه الكلمة بصورتها ومعناها فزينوا بصورتها ظواهرهم وزينوا بمعناها بواطنهم فحصل لهم بها خير الدنيا والآخرة وبرز لهم شهادة القدم بالتصديق (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) وعالم العدل أخذوا هذه الكلمة بصورتها دون معناها فزينوا ظواهرهم بالقول وبواطنهم بالكفر وقلوبهم مسودة مظلمة فحصنوا بها أعراضهم وحصلوا بها أغراضهم وغدا تأتيهم ريح من صوب القدرة تطفىء ذلك النور فيبقون فى ظلمة كفرهم (ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) وبرز لهم شهادة القدم عليهم بالتكذيب (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

(فصل) : أترى إذا قلت لا إله إلا الله وأنت عابد هواك ودرهمك وديناركودنياك ماذا يكون جوابك ؟ كذبت يا عبدى لم تقول ما لم يكن لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله وأنت عابد هواك (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) وأنت عابد دينارك ودرهمك تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش مادمت تقول لا إله إلا الله وأنت تسكن إلى أهل ووطن وتركن إلى أهل ومال ومسكن فلست بقائل كل قول كذبه الفعل فهو مردود ولسان الحال أفصح من لسان المقال إن كان قولك لا إله إلا الله يثمر معنى فى القلب فلم تعود

بفلان وتلوذ بفلان وترجو فلانا وتخاف فلانا مادمت تقول لا إله إلا الله وتأنس بغيرنا فلسنا لك ولست لنا من كان لله كان الله لهوكانوا لنا خاشعين وكنا لهم حافظين كانوا لنا وكنا لهم . ياعبدى لم تلوذ بغيرى وأزمة الأمور كلها بيدى أنا مالك الملك أتصرف فى ملكى بحق ملكى لا يكون فى هذا العالم إلا ما أشاء ولا يقع فى الكون إلا ما أريد فلا تلذ بسواى ولا تقنط من رحمتى فانه لا يقنط من رحمتى إلا كافر ولا يأمن مكري إلا خاسر (انه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

(فصل) : إذا قلت لا إله إلا الله إن كان مسكنها منك اللسان لا ثمرة لها فى القلب فأنت منافق وإن كان مسكنها منك القلب فأنت مؤمن وإن كان مسكنها منك الروح فأنت عاشق وإن كان مسكنها منك السر فأنت مكاشف فالايمان الأول إيمان العوام والثانى إيمان الخواص والثالث إيمان خواص الخواص فالأول ثمرة خبر صدق بمجرد والثانى ثمرة بصيرة وانشراح صدر والثالث ثمرة مكاشفة ومشاهدة وإياك أن تكون مؤمنا بلسانك دون قلبك فتنادى عليك هذه الكلمة فى عرصات القيامة إلهى صحبته كذا وكذا سنة فما اعترف بحقى ولا رأى حرمتى فان هذه الكلمة تشهد لك أو عليك فان كنت من عالم الفضل شهدت لك وإن كنت من عالم العدل شهدت عليك فعالم الفضل تشهد لهم بالاحترام حتى تدخلهم الجنة وعالم العدل تشهد عليهم بالاجرام حتى تدخلهم النار (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) .

(فصـل) : هذه الكلمة أولها كفر وآخرها ايمان فعالم العدل وقفوا مع لا إله فوقعوا فى الكفر فقيل لهم لا تقيموا فى هذا المنزل الأول واعبروا إلى المنزل الثاني (ياأيها الذين آمنوا آمنوا) وعالم الفضل عبروا فى المنزل الثانى فى منزل الا الله فقيل والمؤمنون (كل آمن بالله) فشتان مابينهما .

(فصـل) : أول من وقع من عالم العدل في كفر لا إله طريد الملائكة المملكة ابليس اللعين وأول من دخل من عالم الفضل فى ايمان الا الله صفوة الحضرة آدم عليه السلام فجعل ابليس اللعين رأس جريدة عالم العدل وجعل آدم عليه السلام رأس جريدة عالم الفضل فانظر هل وقفت فى كفر لا إله فالتحقت بابليس أو عبرت إلى ايمان إلا الله

فالتحقت بآدم عليه السلام احذر أن تلتحق بإبليس فتلتحق بغير أبيك فتقطع نسبة الآدمية وتصل بنسبة الشيطانية وتنادى على نفسك المشاركة فيك (وشاركهم فى الأموال والأولاد) ان عاملك بعدله ألحقك بإبليس رأس جريدة عالم العدل وإن عاملك بفضله ألحقك بآدم رأس جريدة عالم الفضل فلا إله مرتبطة بالا الله والكلمة الواحدة لاتنفصل عنها لا إله سم وإلا الله ترياق فكما أن من شرب السم صرفا ولم يشرب معه ترياقا يهلك فكذلك من شرب سم لا إله ولم يشرب معه ترياق إلا الله فانه يهلك وأما من شرب الترياق على السم فهو يملك وشتان بين الهالك والمالك

(فصـل) : مالم تتصل حدود لا إله بحدود إلا الله فأنت فى خرابة من خربات الحصن لا إله بعض الحصن وبعض الحصن لايكون حصنا قال لا إله إلا الله حتى وما قال لا إله فحسب فالكلمة بأسرها هى الحصن لاجزء منها فاذا اتصلت حدود لا إله بحدود إلا الله فقد تم الحصن وكمل بأجزائه وأركانه فان كل حصن فلا بدله من أربعة أركان وقولك لا إله إلا الله أربع كلمات كل كلمة منها ركن فمهما لم تتصل الحدود فالحصن لم يتم بأركانه وكما أن له أربعة أركان من جهة الصورة فله أربعة أركان من جهة المعنى وهى الصلاة والزكاة والصوم والحج وهى الخامسة بنى الاسلام على خمس .

(فصـل) : واعلم أن هذا الحصن متحصن فى مدينة انسانيتك فى ولاية القلب وكل من فى هذه المدينة من سمع وبصر ويد ورجل رعايا له وخدم فهم مسخرون له بالقهر والقسر مستخدمون له تحت الأمر والنهى خلقوا على موافقته وجبلوا على ترك مخالفته فان أمر العين بالنظر نظرت وإن أمر السمع بالاستماع سمعت وإن أمر اليد بالبطش بطشت وإن أمر الرجل بالمشى مشت وان أمرها بضد ذلك فعلت فهم طائعون لأمره متجنبون لمواطن زجره فان كان قاسط فى ملكه استعمل هذه الجوارح فى العبث والفساد والمخالفة والعناد فيأمر العين فلا تنظر إلا المحرمات ويأمر السمع فلا يسمع إلا المحرمات ويأمر اليد فلا تبطش ولا تتناول إلا المحرمات وكذا الرجل لاتمشى إلا إلى المحرمات فهم لاينظرون إلى الحق ولا يسمعون (صم بكم عمى فهم لايعقلون لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك

كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) وإن كان مقسطا في مملكته استعمل هذه الجوارح في الطاعة والعبادة فيأمر العين فلا تنظر إلا بالأمر ويأمر الأذن فلا تسمع إلا بالأمر ويأمر اليدين والرجلين كذلك سائر الجوارح فتظهر البركة والطهارة وإليه الاشارة بقوله أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد ـــ الخبر

(فصل) : هذه الكلمة حصن بابه ومجازه وبوابه مالم تقض حق البواب لا تدخل الى داخل حصن مالم تخرج من عهدة لا لاتصل الى اثبات إلا وفي الحقيقة لست بناف ولا بمثبت اذ المنفي لاينفي والثابت لايثبت فان المنفي منفى والثابت ثابت وانما كلمة لا إله إلا الله أربع كلمات حاصل كلها كلمة واحدة وهي اثنا عشر حرفاً حاصل كلها أربعة أحرف فالاربعة هي الكلمة والكلمة هي الأربعة وهي تركيب قولك الله اثبات محض وتوحيد صرف من غير نفي ولا جحد ولا اله نفي محض لأن الشيء لاينفي حتي يتصور له ثبوت ووجود وحرف لا ما جاء لنفي شيء حتى يتصور له حقيقة ثبوت ووجود ومن توهم ذلك فهو مشرك فان الحق سبحانه وتعالى منزه في أزل آزاله وأبد آباده عن الشرك والشبيه والضد والند وانما جاءت كلمة لا إله إلا الله منكسة تكنس غبار الاغيار عن وجوه الأسرار لتصلح أن تكون عرشاً لتجلي الله عليها ومحلا لنظر الحق اليها كما قال الله تعالى لداود عليه السلام (ياداود طهر لي بيتا أسكنه لم تسعني أرضي ولاسمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي)

(فصل) : مادمت ملوثا بالنظر الى ماسواه فلابد لك من نفي لا إله مادمت تعتمد على رياسة العلم والجاه فلا بد لك من نفي لا اله ومادمت ترى في الوجود سواه فلا بد لك من نفي لا اله فاذا غبت عن الكل في مشاهدة صاحب الكل استرحت من نفي لا ووصلت باثبات الا (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) متى تتخلص من ذكر مالم يكن وتشتغل بذكر من لم يزل تقول الله يا الله فتستريح عما سوى الله

(فصل) : كلمة الله أربعة أحرف حاصلها ثلاثة أحرف ألف ولام وهاء فالالف اشارة الى قيام الحق بذاته وانفراده عن مصنوعاته فان الألف لاتعلق له بغيره والحق تعالى أيضا لاتعلق له بغيره واللام اشارة الى أنه مالك جميع المخلوقات والهاء هادى من في السموات والارض (الله نور السموات والارض) وان شئت أن تقول

قل الالف اشارة الى تألف الحق بالخلق باسباغ النعم في الرزق واللام اشارة الى لوم الخلق بالاعراض عن الحق والهاء اشارة إلى هيمان أوليائه فى المحبة والعشق .

ألف التآلف للخلائق كلهم والـلام لام اللوم للمطرود
والهـاء هاء متيم فى حبـه مستهتر بالواحـد المعبود

(فصل) : افتح بصر بصيرتك فانه ليس فى الوجود شىء إلا هو يقول لا إله إلا الله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) الآية (يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض) يدل بوجوده على موجده وبخلقه على خالقه .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(فصل) : أتظن أن شمس التوحيد انما طلعت عليك فقط كلا وحاشا (والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) ولكن خصصتم بالتكليف تكريماً وتعظيما وتفضيلا لكم على غيركم لاحاجة إليكم فتكريمكم منا وتفضيلكم بنا (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر) الآية .

(فصل) : أوجدناكم من كتم العدم إلى فضاء الوجود وأمرناكم بالعبودية والتوحيد لحاجة إليكم أو نعت الألهية مفتقر إلى وجودكم أو صفة الوحدانية متوقفة على شهادتكم كلا وحاشا صفة الألهية والوحدانية لاتتوقف على شهادة شاهد ولا تستتر بمعاندة جاحد ولكن قصرت أبصار الخفافيش عن إدراك الشمس بعد أن علموا بوجود ذاتها فان الخفافيش إذا طلعت عليهم الشمس يقولون ناموا فقد جن الليل علموا بوجودها وعموا عن إدراكها فالقصور فى أبصار الخفافيش لا فى أنوار الشمس أنا الواحد الأحد فى الأزل والأبد شهدتم أوجحدتم شئتم أوأبيتم فان شهدتم فذلك نصيبكم من نعت القدم وإن جحدتم فوجود القدم لايتوقف على وجود الحدوث بل وجود الحدوث موقوف على وجود القدم ووجود المحدث يفتقر إلى وجود القديم (أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) .

(فصل) : ان كنت فقيراً فلا تأتنا اتيان الأغنياء وان كنت ذليلا فلا تأتنا اتيان الأعزاء وإن كنت منكسراً فلا تأتنا اتيان الأقوياء وإن جئت فقيراً فالفقراء الصابرون جلساء الله وإن جئت ذليلا منكسراً فقد قلت أنا عند المنكسرة قلوبهم وان

جئت ذاكراً فقد قلت أنا جليس من ذكرني (فاذكروني أذكركم) وإن جئت محباً فقد قلت يحبهم ويحبونه وإن جئت متقرباً فقد قلت من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة - الخبر ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً في يسمع وبي يبصر وبي يبطش الخبر ، وإن جعت يوما أو مرضت أعاتب المقصر في حقك فأقول مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني فيقول كيف تجوع وأنت رب العزة فأقول مرض عبد من عبيدي فوعزتي وجلالي لو عدته لوجدتني عنده أخلع رداء كبريائي وعظمتي وارتد برداء فضلي ورحمتي .

(فصل) : اجعل رأس مال بضاعتك التوحيد وملاذ أمرك التجريد واجعل غناك افتقارك ، وعزك انكسارك ، وذكرك شعارك ، ومحبتك دثارك ، وتقواك ازارك ، فإن كنت مفتقراً إلى زاد وراحلة وخفير فاجعل زادك الافتقار ومطيتك الانكسار وخفيرك الاذكار وأنيسك المحبة ومقصد سفرك القربة فإن ربحت في هذه البضاعة فقد ربحت كل شيء وإن خسرت فيها فقد خسرت كل شيء أترى أنت مشتر أم بائع فإن كنت مشترياً (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) فأنت خاسر وإن كنت بائعاً (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) الآية فأنت رابح أولئك كانت معاملتهم مع الخلق وهؤلاء كانت معاملتهم مع الحق فمعامل الخلق خاسر ومعامل الحق رابح أولئك ينادي عليهم (فما ربحت تجارتهم) وهؤلاء يقال لهم (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) فشتان ما بينهما أترى من أي الحزبين أنت أمن حزب أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى أم من حزب (إن الله اشترى) ؟ إن أحببت أن تعلم من أي الحزبين أنت فانظر عند ذكرك في محل قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فإن وجل له قلبك وخشعت جوارحك (تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) فاعلم أنك من حزب أن الله اشترى وإن لم يخشع قلبك ولم تخضع له جوارحك وكان قولك لا إله إلا الله كقولك الحائط والجدار فاعلم أنك من حزب (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) .

(فصل) : من لم يكن له نصيب من قوله إنما المؤمنون أي شيء يكون نصيبه إذا

قلت الله أو قلت لا إله إلا الله وأنت غافل القلب هل يكون لك فيه نصيب كلا وكلا فإن من خلا قلبه عن نصيب إنما المؤمنون فأي فرق بينه وبين عابد الصنم والصليب وأي فرق بينه وبين الصخرة والحجر (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) بالله إذا كان هذا قلب المؤمن فكيف يكون قلب الكافر إذا كان هذا قلب الموحد فكيف يكون قلب الجاحد إذا كان هذا قلب الذاكر فكيف يكون قلب الغافل ؟ أولئك هم الغافلون.

(فصل): متى تنتبه من سنة غفلتك وتصحو من خمار سكرتك فتفهم ما تذكر وتعلم ما تقول أمرت بالفهم ثم بالذكر وأمرت بالعلم ثم بالقول فما لم تعلم لا تقل وما لم تفهم لا تذكر إذا قلت لا إله إلا الله وأنت غافل القلب غائب الفهم ساهي السر فلست بذاكر (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) إذا ذكرته فلتكن كلك قلبا وإذا نطقت به فلتكن كلك لسانا وإذا سمعت فلتكن كلك سمعا وإلا فأنت تضرب في حديد بارد .

إذا ذكرتك كاد الشوق يقتلني وغفلتي عنك أحزان وأوجاع
فصار كلي قلوبا فيك واعية للسقم فيها وللآلام اسراع

(فصل) : ان سلط سلطان لا إله إلا الله على مدينة انسانيتك لم يبق في دائرة دارك ديار ولم يسلكها أحد من الأغيار ولم يبق لك معه قرار ولا تبق ولا تذر (ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) فيصير عز كبرك مذلة وتواضعا وعز كثرتك قلة وعز وجودك محوا وعز بقائك فناء وتتبدل كل صفة مذمومة بصفة محمودة وتنقل من عز هو ذل إلى ذل هو عز ويقطع منها شجر صفاتك المذمومة ويزول عنها عوسج الكفر والتعطيل ويذهب منها شوك التشبيه والتمثيل ويغرس فيها ريحان الايمان والتوحيد وينبت فيها تشريف التنزيه والتفريد وتتنوع صفاتك المحمودة (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) .

(فصل) : كل سلطان لولايته أمد معدود وحد محدود الا سلطان لا إله إلا الله فان ولايته ثابتة أبد الأبد باقية مدى السرمد شملت الأولين والآخرين طائعين

وكارهين وعمت أهل السموات والارضين (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) ولكن أتى عبد طوعا وشوقاً ومحبة وعبد أتى كرها وسوقا وقهرا وقسراً (ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها) (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) الى قوله تعالى (قالوا بلى) فعالم الفضل قالوا بلى طوعا وعالم العدل قالوا بلى كرها أخرجهم من ظهر آدم على هيئة الذر ثم فرقهم فرقتين وجعلهم عالمين فعالم الفضل عن يمينه وعالم العدل عن شماله ثم خلق لهم آلة الفهم والسمع والنطق ثم خاطبهم وأشهدهم على أنفسهم الآية فأقر الكل بالوحدانية وأذعنوا بالفردانية فقالوا بلى فعالم الفضل قالوا بلى طائعين مسارعين وعالم العدل قالوا بلى كارهين متثاقلين ثم أخذت شهادة كل واحد منهم مما شهد على نفسه أن لا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين فلما خرجوا من عالم القدرة الى عالم الحكمة ظهر من كل واحد منهم ما كان يضمره من توحيد وجحود فعالم الفضل قالوا بلى مع اعتقاد الصدق فوفوا بعهده وحافظوا على ميثاقه وعالم العدل قالوا بلى اعتقاد الجحود فخانوا العهد وضيعوا الميثاق فبرز نعت القدم لعالم الفضل بالمدح لهم والثناء عليهم فقال (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وبرز لعالم العدل بالقدح فيهم والازراء عليهم فقال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) ثم فى عرصات القيامة اذا بسط الصعيد يظهر سلطان بلى على كل العالمين فيشهد لعالم الفضل بالامانة ويشهد على عالم العدل بالخيانة ثم يحشر لكل واحد كتاب اقراره وشهادته على نفسه (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)

(فصل): أشهدك على نفسك لعلمه بنسيانك (أحصاه الله ونسوه) أشهدك على نفسك لعلمه بأنك ظلوم جهول (وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) أشهدك على نفسك حتى لا يقبل انكارك بعد اقرارك ولما أشهدهم على أنفسهم وأخذ على كل العالمين العهد والميثاق اشترى من عالم الفضل أنفسهم علما منه بأنهم يضعفون عن مجاهدتها ومكابدتها فقال سبحانه وتعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية

(فصل) : وانما قال اشترى أنفسهم ولم يشتر قلوبهم لأن القلب لما كان لا يستعبده

شيء من المخلوقات ولا يسترقه شيء من الموجودات لانه لا يأنس الا بالحق ولا يطمئن الا بذكره خلص عن رق الأغيار فصار بمنزلة الحر والحر لا يباع ولا يشترى والنفس لما كانت تسكن الى الشهوات وتركن الى اللذات وتستعبدها كل شهوة وتسترقها كل لذة صارت بمنزلة العبد والعبد يباع ويشترى ويجوز عليه البيع والشراء هذا رشح من اناء ظاهر الشرع ومزاج من العلم الظاهر لان الكلام يجري على قدر نقد الوقت ان صفوت صفي لك وان مزجت مزج لك جواب

جواب آخر انما كان الشرى للنفس دون القلب لان القلب مشتغل بالحق دون الخلق والنفس مشتغلة بالخلق دون الحق فاشترى النفس لشغلها بالخلق عن الحق وان شئت قلت لان النفس جبلت على صفات مذمومة وخصال سيئة وهي محل الآفة ومواطن المخالفة والقلب جبل على صفات محمودة وخصال حسنة وهو موطن الطاعة والعبادة فاشترى النفس دون القلب لتنقلها من الصفات المذمومة الى الصفات المحمودة ومن صفاتها الى صفات القلب

(فصل) : ولما وضعت النفس في كفة البيع والشرى وجري عليها التسلم والتسليم فسلمها الحق سبحانه وتعالى الى الملك وألهمها قبول ما يلقى اليها من الخير فالملك أبدا يدعوها اليه ويرغبها فيه ويحذرها من الشر ويرغبها عنه الى أن تأنس به وتسكن اليه وتنقاد له فاذا سكنت اليه وانقادت له سلب عنها كل صفة مذمومة ويودع فيها كل صفة محمودة فتخرج من ظلمة الكفر الى نور الايمان ومن ظلمة كل صفة مذمومه الى نور كل صفة محمودة فاذا خرجت عن ظلمة أوصافها ورجعت عن معاندتها وخلافها وانقادت للأمور رضيت به وسكنت له واطمأنت اليه حينئذ يدخلها في زمرة عباده فقال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وأما عالم العدل فافقوا في عالم القدرة وجحدوا في عالم الحكمة فلم يصلح أن تكون أنفسهم محلا لشرائه فأبعدها عن حفظه وكلائه فسلمها الى الشيطان وألهمها قبول ما يلقى اليها من الشر فهو أبداً يأمرها بالفواحش ويغريها بالخبائث ويدعوها الى ما عجن في طينتها وجبل في أصل خلقتها من الانغماس في الشهوات والتهافت على المعاصي والمخالفات حتى تصير شيطاناً مارداً لما يأمرها به مساعداً فتصير ناهية

عن الخير أمارة بالسوء (إن النفس لأمارة بالسوء) الآية وهى من أقوى أعوانه وأوفى أقرانه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو قرين)

(فصل) : عالم الفضل أشهدهم على أنفسهم وألهمهم التوحيد والتقوى وعالم العدل أشهدهم على أنفسهم وألهمهم الفجور والمعصية (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) عالم الفضل عاملهم وعالم العدل أهملهم عالم الفضل عاملهم بفضله فهداهم وعالم العدل أهملهم بعدله فأقصاهم.

(فصل) : ليس الخوف من سوء العاقبة وإنما الخوف من سوء السابقة إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فضلا فمن أصابه من ذلك النور اهتدي ومن أخطأه ضل خلق الخلق عدلا ورش عليهم من نوره فضلا فمن أصابه من ذلك النور كان من عالم الفضل ومن أخطأه كان من عالم العدل وليس ذلك النور عبارة عن شعاع ينبسط على صورهم وأشباحهم وإنما هو عبارة عن نور ينبسط على قلوبهم وأرواحهم وهو عبارة عن نور الهداية (الله نور السموات والأرض مثل نوره : فى قلوب المؤمنين : كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى) فالمشكاة بمنزلة بشريتك والمصباح بمنزلة نور توحيدك والزجاجة بمنزلة قلبك وتشبيه المشكاة بالبشرية لمافى البشرية من الكثافة فهو محل ظلمة وسواد والمصباح كلما كان فى الظلمة والسواد كان أشد فى الاشتعال والايقاد وتشبيه نور التوحيد بنور المصباح ليستضيء به ما يجاوره ويحل فيه وتشبيه القلب بالزجاجة لما فيها من اللطافة فان الزجاجة شفافة تطرح أشعة الأنوار على مايقابلها ويحاذيها من الأجرام والقلب شفاف تعبر منه أشعة أنوار التوحيد إلى ماوراءه من الجوارح وإليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «لوخشع قلبه لخشعت جوارحه» وتشبيه الزجاجة بالكوكب الدرى إشارة إلي أشراقها واستنارتها والدري منسوب إلى الدر وهو مبالغة فى استنارته وصفاء جوهريته (توقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية) وذلك أكثر ايقاداً وأصفى لدهنها وكذلك شجر التوحيد لاشرقية ولاغربية ولامعطلية ولاوثنية ولا دهرية ولاثنوية ولايهودية ولانصرانية ولامشبهية ولامعتزلية ولاقدرية ولاجبرية بل محمدية علوية وكما أن تلك الشجرة لاشرقية ولاغربية كذلك شجر التوحيد لاسماوية ولاأرضية ولا

عرشية ولا فرشية ولا فوقية تحتية ولا علوية ولا سفلية انفصلت عن الخلق وطارت فى طلب الحق فهى عن الخلق منفصلة وبالحق متصلة فصارت لا شرقية ولا غربية ولا دنيوية ولا أخروية ولا تريد لذة الدنيا ولا تريد لذة الآخرة يريدون وجهه وإن شئت تقول لا شرقية ولا غربية لا ترغب فى الجنة ولا تخاف من النار وإن شئت تقول لا شرقية ولا غربية لا يغلب عليها الخوف فتيئس من روح الله تعالى ولا يغلب عليها الرجاء فتامن مكر الله تعالى فهي واقفة بين الخوف والرجاء لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا فهى لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار أى لصفائه وأشراقه نور على نور نور الدهن على نور المصباح ونور المصباح على نور الزجاجة (يهدي الله لنوره من يشاء) .

(فصل) : إن أشرقت شمس التوحيد من فلك التفريد على أرض قلبك أضمحلت رسوم نفسك وانقشعت ظلمات بشريتك (وأشرقت الارض بنور ربها) ورأيت صفوة الخلائق وسائر الأنبياء يسيرون تحت لواء لا إله إلا الله كل نبى زمرته وأتباعه بالله هل لك معهم نفس أوفيما بينهم قدم لا كلا كلا ولا مشيت قدما فى متابعتك أو راعيته نفسا فى مراقبتك بل عبادتك مشوبة بالحظوظ وخلواتك ممزوجة بالاغراض وأذكارك مخلوطة بالغفلات وحركاتك وسكناتك مشوبة بسوء الأدب أترى إذا صليت وقلت وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض وأنت ملتفت إلى غيره هل تكون قد توجهت إليه وإذا أمسكت عن طعامك وشرابك عادة لا عبادة هل أمسكت لأجله كلا وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش وكم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب والنصب تالله مجرد الصورة لا يكفى ومجرد القول لا يغني (إذا جاءك المنافقون قالوا) الآية القول بمنزلة الورق من الشجرة فان كلمة التوحيد بمنزلة الشجرة (كلمة طيبة كشجرة طيبة) فعروق هذه الشجرة التصديق وساقها الاخلاص وأغصانها الأعمال وأوراقها الأقوال فكما أن أدنى ما فى الشجرة الاوراق فكذلك أدنى ما فى الايمان الاقوال.

(فصل) : اعلم أن شجرة لا إله إلا الله شجرة السعادة فان غرستها فى منبت التصديق وسقيتها من ماء الاخلاص ورعيتها بالعمل الصالح رسخت عروقها وثبت ساقها واخضرت أوراقها وأينعت ثمارها وتضاعف أكلها (تؤتى أكلها كل حين باذن ربها)

فإن قلت ما ثمرة هذه الشجرة قلت اليقظة والتوبة والزهد والورع والتوكل والتسليم والتفويض وكل صفة من الصفات الباطنة الروحانية وكل خصلة من الخصال المحمودة الظاهرة الجسمانية فإن تلك الشجرة (تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) وهذه الشجرة تؤتى أكلها كل حين ولكن تلك حينها ستة أشهر وهذه حينها كل لحظة ونفس ثمرة هذه الشجرة قوت لعالم الأرواح وثمرة تلك الشجرة قوت لعالم الأشباح ، هذه قوت لعالم المعانى والأسرار وتلك قوت لعالم الصور والآثار ، وإن غرست هذه الشجرة فى منبت التكذيب والشقاق وسقيتها من ماء الرياء والنفاق وتعاهدتها بالأعمال السيئة والأفعال القبيحة وراعيتها بنقض العهد وتضييع الأمانة طفح عليها غدير الغدر ولفحها هجير الهجر فتناثرت ثمارها وتساقطت أوراقها وانقعس ساقها وتقطعت عروقها وهبت عليها عواصف القدر فمزقتها كل ممزق (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً) .

(فصـل) : من استظل بظل هذه الشجرة فقد ظفر ومن لا فقد خسر من تعلق بهذه فقد سعد سعادة الأبد ومن لا فقد شقى شقاوة الأبد ومن تعلق بغصن من أغصانها رفعه إلى أعلى الدرجات ومن لا وضع فى أدنى الدركات .

(فصـل) : «لا إله إلا الله هى الكلمة العالية الشريفة الغالية من استمسك بها فقد سلم ومن استعصم بعصمتها فقد عصم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم» الخبر . هذا توقيع العصمة الدنيوية وأما توقيع العصمة الأخروية لا إله إلا الله حصنى فمن قال لا إله إلا الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى ومن قال لا إله إلا الله دخل الجنة .

(فصل) : هذه كلمة نتيجتها معرفة الوحدانية وثمرتها الاقرار بالفردانية وذلك هو من وجود الموجودات وكون الكائنات لولا معرفة الوحدانية والاقرار بالفردانية لما سحب ذيل الوجود على موجود ولا خرج من كتم العدم مفقود (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) الآية عبدى خلقتك من أجل التوحيد وخلقت الأشياء كلها من أجلك من العالم العلوى والعالم السفلى وما بينهما من الموجودات من الحيوانات والنباتات والجمادات السماء تظلك والأرض تقلك والملائكة تحفظك والنيرات العلوية تنور عليك والموجودات

السفلية محل تصرفك فالكل مخلوق لاجلك وأنت مخلوق من أجل التوحيد فكل الخلق إذاً انما خلق لأجل معرفة الوحدانية والاقرار بالفردانية كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق

(فصل) : أعرف عبدي خلقت الاشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلي فاشتغلت بالنعمة عن المنعم وبالعطاء عن المعطي فما أديت شكر نعمته ولا راعيت حرمة عطائه ، كل نعمة شغلتك عني فهي نقمة وكل عطية الهتك عني فهي بلية سؤال ـ ماشكر النعم الجواب ؟ ـ شكر النعمة هو الثناء على المنعم بما أنعم عليك وأسداه اليك وان شئت أن تقول قل الشكر هو أن تستعين بنعمته على طاعته ، الشكر هو أن لا تشتغل بنعمته عنه ، الشكر هو رؤية المنعم فيما أنعم به ، شكر النعمة مظنة النوال وكفرها مظنة الزوال ، شكر النعمة مظنة الابصار وكفرها مظنة البوار ، شكر النعمة مظنـــة للمزيد وكفرها مظنة العـــذاب الشديد (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد)

(فصل) : عبدي أنا الذي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد أعطي لا لباعث وأمنع لا لحادث وأسعد لا لعلة وأخلق لا لقلة وابتلي بالشكر لا لحاجة وقد خلت الاحدية وتقدست الصمدية عن البواعث والعلل لو كانت الارادة هي عن باعث لكان محمولا ولو كانت عن حادث لكان معلولا وليس بمحمول ولا معلول بل خالق البواعث والعلل (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)

(فصل) : عبدي ليس في الوجود الا أنا فلا تشتغل الا بي ولا تقبل الا على ان حصلت لك فقد حصل لك كل شيء وان فتك فقد فات كل شيء وان رفعت الى ذروة الاكوان وترقيت الى آن الامكان وأعطيت مفاتيح كنوز الكونين وسيقت اليك ذخائر الدارين واغتررت بشيء منها طرفة عين فأنت مشتغل عنا لا بنا ومقبل على غيرنا لا علينا ان قنعت بنعيم العاجلة فأنت هالك (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار) وان قنعت بنعيم الجنة فأنت من البله من اشتغل بالدار عن الجار فهو أبله ومن اشتغل بالرزق عن الرازق فهو أبله وان متعت بنعيم الدنيا فاتك نعيم وان متعت بنعيم الآخرة فاتك نعيم الدنيا والسعادة مالم تخسر الدنيا ولا الآخرة

(يريدون وجهه) لا تصلح لطلبنا ولا تدخل فى دائرة ارادتنا ولا تكون بنا ولا لنا وأنشد بلسان حالك :

ولما رأيت الحب قد مد جسره * ونودى بالعشاق وبحكم مروا
أتيت مع العشاق كيما أجوزه * فصادفنى الحرمان فانقطع الجسر
أحاطت بى الامواج من كل جانب * ونادى منادى الهجر قد عدم الصبر

هذا العقد إن رضيت به وإلا فعليك بدين العجائز تعجز بعاجز النساء واقعد فى بيت تخلفك واجلس فى زاوية ادبارك انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين

(فصل) : مريد الدنيا كثير ومريد الآخرة كثير ومريد الحق عزيز خطير خطر المريد على قدر خطر الارادة وخطر الارادة على قدر خطر المراد وخطر الخلق يسير فخطر ارادته يسير فخطر مريده يسير، خطر الحق خطير وخطر ارادته خطير فخطر مريده خطير من أراد من الملك الدخول الى عرصة داره والجلوس على مائدة كرامته لا يكون كمن يريد من الملك جيفة ملقاة فى اصطبل دوابه ومن أراد من الملك الجلوس معه على بساط قربه فى حجرة خلوته لا يكون كمن أراد منه الدخول الى دار ضيافته والخلاص من سجن مهانته ، للمجاورة أثر فى المجاورة فمجاورة تكسب شرفا ومجاورة تكسب دناءة ومن جاور الملك فى دار كرامته اكتسب شرفاً ومن جالس الملك على بساط قربه فى حجرة خلوته ازداد شرفاً لكل درجة ولكل مقام لهم درجات عند الله وما منا إلا له مقام معلوم أقوام قاموا فى عالم الطبيعة واستولت عليهم ظلمات عالم البشرية فعميت عليهم بصائرهم عن ارادة الأعلى فتعلقت ارادتهم بالادنى وتشبثت هممهم بحظوظ الدنيا وهى الجيفة الملقاة فى اصطبل الدواب فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم وعذبوا بعذابين عذاب الفرقة فى الحال وعذاب الحرقة فى المآل (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) أقوام اجتهدوا فى مفارقة عالم الطبيعة والخلاص من ظلمة عالم البشرية فاشتغلوا بالرياضة وتزكية النفوس والطهارة فارتفعوا عن تلك الدرجة وعلوا عن تلك

الزينة غير أنهم بقيت عليهم بقية من عالم الطبيعة والبشرية فلم تكمل لهم ارادة الحق فتعلقت ارادتهم بالنجاة من النار وهي سجن المهانة وأقوام غلب عليهم الخوف فتعلقت ارادتهم بالنجاة من النار وهي سجن المهانة وقوم غلب عليهم حب الرجاء فتعلقت ارادتهم بالجنة وهي دار الكرامة وهؤلاء قوم اشتغلوا بالعالي عن الاعلى وبالكامل عن الأكمل وبالشريف عن الأشرف وهذه الفرقة وان لم يعذبوا في المآل بنيران الحرقة فقد عذبوا في الحال بنيران الفرقة ونيران الفرقة عند الأحباب أشد من نيران الحرقة . شعر :

ولو سلطت نار التفرق والهوى * على سقر يوما لذاب لهيبها

أشد جحيم النار أبرد موقعاً * على كبدي من نار بين أصيبها

أقوام فارقوا عالم الطبيعة وطاروا عن عش عالم البشرية ولم يبق عليهم من رسومهم بقية فجازوا الأكوان وعبروا الموجودات وغابوا عن الخلق فتعلقت ارادتهم بالحق فهو مرادهم ومقصودهم ولسان الحق ينطق عنهم مالنا والاشتغال بالدنيا والعقبى مالنا والاشتغال بالجنة والنار لانشتغل بدنيا ولاعقبى ولا جنه ولا نار ! ان رضي عنا فهو قادر ان ينعمنا في النار وان غضب علينا نعوذ به منه فهو قادر على أن يعذبنا في الجنة ! ولو عبدناه رغبة في جنته أو رهبة من ناره لسكنا ممن يعبده على حرف وقد عاب ذلك على أقوام فقال تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية فنعبده له لا لسواه يريدون وجهه فحصل لهم الملك ملك الدنيا وملك العقبى فهم الملوك في زي المساكين من ادعى في محبته كذب باشتغاله عنه بلذيذ الطعام والشراب ومن اشتغل بنعيم الجنة فهو كذاب ان قاموا فيه وان قعدوا فمعه وان نطقوا ففيه وان أخذوا فمنه وان نظروا فاليه وان غمضوا فعليه به يسمعون وبه يبصرون وبه ينطقون وبه يبطشون واليه الاشارة بقوله كنت له سمعا وبصراً ويداً ومؤيداً في يسمع وبي يبصر وبي يبطش ، الخبر . ما جعل لغيرهم وعداً عجل لهم نقداً وما جعل لغيرهم غيبا شاهدوه عينا فهم في زواياهم وعلى سجاداتهم وهم في الشرق وهم في الغرب وهم في الفرش وهم في العرش وان لم يعرج بأشباحهم فقد عرجوا بأرواحهم وان لم يشاهدوا الحق بأبصارهم فقد شاهدوهم بأسرارهم فهم صفوة

الحق ومقصود الكون من الخلق بهم يرزقون وبهم يخلقون أخلصوا لله فى العبودية والتوحيد وصدقوا فى الارادة والتجريد فطوبى لهم لا بل طوبى لمن آمن بهم ولقد عاتب الحق سبحانه وتعالى نبيه سيد الأحباب فى مثل حالهم بأشد العتاب فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء) الآية . سؤال ما الارادة؟ الجواب الارادة عقد القلب على طلب الرب، الارادة ترك الممالك وركوب المهالك، الارادة ترك الراحات والاعراض عن المباحات، الارادة الاحتراق بنيران الطلب ألا ترى احتراق الفراش فى نار الشمعة فان الفراش المسكين يتهافت على الوقوع فى النار والاحتراق بالنار كان حياته فى احراقه هذا مع صغر شأنه وصغر مطلوبه يتلف نفسه فى محبوبه وأنت مع كمالك وجلالة محبوبك تتوقف فى بذل نفسك ومحو وجودك كأن الأبدية متوقفة على وجودك وذلك المسكين متهافت متهالك على اتلاف نفسه فى مطلوبه ومراده فكان حياته فى ابطال حياته وأنت تسمع منادى القدم ينادى فوق سطح قصر دائرة الأزل (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله) الآية . وأنت تتوقف من قصر شأن ارادتك عن شأن ارادة فراشه ومن كان هكذا فليس بصادق فى الارادة لا بل ليس له نصيب فى اللذاذة .

(فصل) : فلا بد لك من بذل نفسك ومحو وجودك إما نحن وإما أنت فنفسك حجابك مالم يرتفع الحجاب فلا نحن ولا أنت ولست لنا ولسنا لك ان زال عنك وجود كان بك أبقيناك بوجود هو بنا من كان فى الله تلفه كان على الله خلفه نفسك أقل من كل شيء ومرادك أجل من كل شيء فما لم تترك أقل من كل شيء لأجل كل شيء فكيف تكون طالبا؟ فكيف تكون مريداً؟ أبذل النفس وقدم المهجة (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) هذا مهر الوصال والا فدون الوصال حد النصال ان كنت مريداً فأنت مراد وان كنت طالباً فأنت مطلوب وان كنت محباً فأنت محبوب (وما تشاؤون الا أن يشاء الله)

(فصل) : ياهذا مادمت مقبلا على غيرنا وملتفتاً الى سوانا فواظب على قول لا اله الا الله فانها تمحو منك المذموم وتزيد فيك المحمود فان فيك وجودين وجود مذموم ووجود محمود ووجود عدلى ووجود فضلى فوجودك المذموم من عالم العدل ووجودك المحمود من عالم الفضل وكل واحد من هذين العالمين يشتمل على أجزاء متعددة

فوجودك العدلى يشتمل على سبعة أجزاء عدلية وهى الحس والشغل والهوى وكدورة النفس والنفس والبشرية والطبع والشيطان من وراء ذلك والفضلى يشتمل على ثمانية أجزاء فضلية وهى الحس والفهم والعقل والفؤاد والقلب والروح والسر والهمة والملك من وراء ذلك وكل جزء من أجزاء وجودك العدلى مقابل بجزء من أجزاء وجودك الفضلى فالحس يكون مذموماً ويكون محموداً فالحس المحمود فى مقابلة الحس المذموم والشغل فى مقابلة الفهم والهوى فى مقابلة العقل وكدورة النفس فى مقابلة الفؤاد والنفس فى مقابلة القلب والبشرية فى مقابلة الروح والطبع فى مقابلة السر والشيطان فى مقابلة الملك وأما الهمة فليس فى مقابلتها جزء من المذموم لأنها جزء ثامن وإنما كانت أجزاء الفضل ثمانية وأجزاء العدل سبعة لأن لكل جزء من هذه الأجزاء باب من أبواب وجودك فجعل أبواب وجودك الفضلى ثمانية بعدد ابواب الجنة فانها دار الفضل وجعل أبواب وجودك العدلى سبعة بعدد أبواب النار لانها دار العدل قال سبحانه وتعالى (لها سبعة ابواب) فوجودك الفضلى هو الجنة المعجلة وهو الجنة الصغرى ووجودك العدلى هو النار المعجلة وهو جهنم الصغرى وكل باب من أبواب الجنة المعجلة ينفذ الى باب من أبواب الجنة المؤجلة وكل باب من أبواب النار المعجلة ينفذ الى باب من أبواب النار المؤجلة (لكل باب منهم جزء مقسوم)

(فصل) : فان أشرق نور هذه الكلمة على جزء من أجزائك الفضلية ذهبت ظلمة مايقابلها من أجزائك العدلية فان أشرق نور الكلمة مثلا على السر ذهبت ظلمة الطبع وان أشرق على الروح ذهبت ظلمة البشرية وان أشرق على القلب ذهبت ظلمة النفس وكذلك سائرها فان أجزاءك الفضلية فى اللطافة بمنزلة الجوهرة الشفافة تطرح شعاعها على مايقابلها ويحاذيها ومثال ذلك مثال مصباح فى قنديل والقنديل فى زاوية أو بيت مظلم فان نور المصباح يشرق على القنديل ونور القنديل يشرق على الزاوية أو البيت المظلم فقدر كلمة التوحيد بمنزلة المصباح وقدر جزئك الفضلى بمنزلة القنديل وقدر العدلى بمنزلة الزاوية أو البيت المظلم فكما أن نور المصباح يشرق على القنديل ونور القنديل يشرق على الزاوية أو البيت المظلم فكذلك نور كلمة التوحيد يشرق على جزئك الفضلى وجزؤك الفضلى يشرق على جزئك العدلى وكما أن ظلمة البيت والزاوية تزول بمقابلة القنديل والمصباح فكذلك ظلمة جزئك العدلى تزول بمقابلة جزئك الفضلى ونور التوحيد

واليه الاشارة بقوله (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة) الآية. ومما يوضح لك أن المقابلة لها أثر فى تعدى النور من محل الى محل نور الشمس فانه ينبسط على جدار مثلا فيستنير بنوره الجدار الذى يقابله ثم يستنير بنور ذلك الجدار جدار آخر يقابله وعلى ذلك لا يزال النور يتعدي من محل الى محل آخر بطريق المقابلة الى أن تقطع بحجاب كثيف فعند ذلك ينقطع التعدى هذا فى عالم العينى واذا كان فى عالم العينى كذلك فان عالمك الغيبى على نحو من عالمك العينى يكون في عالمك الغيبى جزء منه ولهذا يقال لك العالم الاصغر واذا جاز ذلك فى العالم الأكبر جاز فى العالم الاصغر وقد يجوز أن يشرق نور الكلمة مثلا على جزء من أجزائك الفضلية ثم يتعدى من ذلك الجزء الى سائرها مثل أن يشرق على الهمة فيتعدي الى السر ومن السر الى الروح ومن الروح الى القلب الى أن يصل الى سائرها فان كل جزء من هذه الاجزاء مقابل لصاحبه وقد بينا أن المقابلة لها أثر فى تعدى الانوار وانما ينقطع التعدى بحجاب كثيف وهذه لطيفة وليست بكثيفة فينبغى أن يتعدى من الجزء الواحد الى سائرها فاذا كان هناك حجاب كثيف من آثار أجزائك العدلية فانه ربما منع تعدى النور الى ماوراءه وذلك المثال فى ضرب المثال بمنزلة نور الشمس فان الشمس فى العالم العلوى فى السماء الرابعة ويصل شعاعها الى هذا العالم السفلى لان أجزاء السموات رقيقة لا يحجب وصول النور الى ماوراءه فلو قدر فى مقابلتها جزء من أجزاء العالم السفلى أو حجاب كثيف كالغيم وغيره يحجب شعاعها عن وصول النور اليك فعالم وجودك الفضلى بمنزلة العالم العلوي وعالم وجودك العدلى بمنزلة العالم السفلى فقدر الهمة من العالم الفضلى بمنزلة العرش من العالم العلوى وقدر الصفات السبع بمنزلة السموات السبع وقدر صفات العالم العدلى السبع بمنزلة الأرضين السبع وكما أن العالم العلوي فى غاية اللطافة لا يحجب وصول النور من جزء الى جزء فكذلك العالم الفضلى فى غاية اللطافة لا يحجب من وصول النور من جزء الى جزء وكما أن العالم السفلى فى غاية الكثافة يحجب وصول النور من جزء الى جزء فكذلك عالم العدلى فى غاية الكثافة يحجب وصول النور من جزء الى جزء

(فصل) : العالم الفضلى كله نور والعالم العدلى كله ظلمة وهما يتعاقبان كلما ذهب جزء من عالم العدلى أعقبه جزء من عالم الفضلى فهما فى التعاقب بمنزلة الحركة والسكون أو الظل والشمس أو الليل والنهار كلما ذهب جزء من الليل أعقبه جزء من النهار وكلما

ذهب جزء من النهار أعقبه جزء من الليل (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) فليلك عالم وجودك العدلى ونهارك عالم وجودك الفضلى فان تكاثفت ظلمات الشرك من نفى لا إله على نهار وجودك الفضلى ذهب نوره وصار عدلياً وان طلعت شمس الوحدانية من برج الفردانية فى سماء الا الله على ليل وجودك العدلى أذهب ظلمته وصار فضلياً فمسكن لا إله عالم وجودك العدلى ومسكن الا الله عالم وجودك الفضلى فلا إله ظلمة ومسكنه منك محل الظلمة والا الله نور ومسكنه منك محل النور فاذا اتصلت حدود لا إله باثبات الا الله انعكست أنوار الاثبات على ظلمة النفى فصار الكل نوراً واثباتاً محضاً وذهبت ظلمة النفى بنور الاثبات (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) فاذا ذهبت ظلمة النفى بنور الاثبات استنار به عالم وجودك العدلى وانقلبت أجزاؤه العدلية فضلية فصار الحس المذموم حساً محموداً وصار الشغل فهماً والهوى عقلاً وكدورة النفس فؤاداً والنفس قلباً والبشرية روحاً والطبع سراً والشيطان ملكاً واليه الاشارة فى قوله أسلم شيطانى

(فصل) اعلم أن السالك له ثلاثة منازل فالمنزل الأول عالم الفناء والمنزل الثانى عالم الجذبة والمنزل الثالث عالم القبضة فاذا كنت فى عالم الفناء فواظب على قول لا اله الا الله واذا كنت في عالم الجذبة فواظب على قول الله الله واذا كنت فى عالم القبضة فواظب على قول هو هو وانما كان ذكرك فى عالم الفناء لا اله الا الله وذكرك فى عالم الجذبة الله الله وذكرك فى عالم القبضة هو هو لانك مادمت سالكا فى عالم الفناء فالغالب عليك عالم وجودك العدلى ومادمت سالكا عالم الجذبة فالغالب عليك عالم وجودك الفضلى فاجعل ذكرك فى عالم الفناء لا اله الا الله لان المستولى عليك عالم وجودك العدلى وصفاتك المذمومة واجعل ذكرك فى عالم الجذبة الله الله لأن المستولى عليك عالم وجودك الفضلى وصفاتك المحمودة لأن كلمة لا اله الا الله خاصيتها فى النفى والمحو وكلمة الله خاصيتها فى التقوية والتنزيه المحمودة ومادمت فى عالم الفناء فأنت الى النفى والمحو أحوج لأن الغالب عليك الصفات المذمومة وما دمت فى عالم الجذبة فأنت الى التقوية والتنزيه أحوج لان الغالب عليك الصفات المحمودة أما اختصاص عالم القبضة بقولك هو هو لانك متى وصلت الى هذا العالم فقد ذهبت عنك كدورات صفاتك العدلية وأشرقت عليك أنوار صفاتك الفضلية واتصل بك تصرف الحق سبحانه وتعالى من غير واسطة وصرت معدوما بالاضافة

اليك موجوداً بالاضافة اليه فانيا بالاضافة اليك باقيا بالاضافة اليه فجعل ذكرك فى هذا العالم هو هو لان الموجود هو والباق هو ومعنى قولنا عالم الفناء أن السالك والمريد يفنى فيه نفسه ويبق وجوده وتمحو صفاته المذمومة ومعنى قولنا عالم الجذبة أنه قد وقع فى جذبة الملك ومعنى قولنا عالم القبضة أنه قد وقع فى قبضة الحق سبحانه وتعالى فيتصرف فيه من غير واسطة فهذه منازل السالك

(فصل) : اعلم أن الأولياء لهم أربعة مقامات فالاول مقام خلافة النبوة والثانى مقام خلافة الرسالة والثالث مقام خلافة أولى العزم والرابع مقام خلافة أولى الاصطفاء فمقام خلافة النبوة للعلماء ومقام خلافة الرسالة للاولياء ومقام خلافة أولى العزم للاوتاد ومقام خلافة أولى الاصطفاء للاقطاب فمن الأولياء من يقوم فى العالم مقام الانبياء ومنهم من يقوم فى العالم مقام الرسل ومنهم من يقوم فى العالم مقام أولى العزم ومنهم من يقوم فى العالم مقام أولى الاصطفاء ومعنى الولى على وجهين الوجه الأول من ثبت له تصرف وولاية على مصلحة دينية والوجه الثانى ليس له ولاية التصرف بالقوة بل ثبت له تصرف وولاية التصرف فان قيل كيف تكون ولياً وليس له ولاية التصرف ؟ . الجواب يجوز أن يكون ولياً على معنى أن الله قد تولى جميع أموره وهذا الولي ولى بالفعل ان سمع فبالحق يسمع وان أبصر فبالحق يبصر وان نطق فبالحق ينطق فهو فى عالم المحبوبية والى ذلك الاشارة بقوله كنت له سمعاً وبصراً الخبر وهذا الولى لايصلح أن يكون مربياً للخلق لأنه فى قبضة الحق مسلوب الاختيار واذا كان مسلوب الاختيار عن نفسه فلا يصلح أن يكون مربياً لغيره لأن التصرف فى غيره يستدعي ولاية التصرف فى نفسه وهذا الولى مجذوب فى نفسه فكان مسلوب التصرف فى غيره ألا يرى فى عرف الشرع أن من ثبت له الولاية على نفسه ثبت له الولاية على غيره ومن لا فلا والعاقل البالغ لما ثبت له الولاية على نفسه ثبت له الولاية على غيره والطفل والصبي لما لم تثبت له الولاية على نفسه لم تثبت له الولاية على غيره فالمجذوب فى قبضة الحق بمنزلة الصبى فى ولدنا فهو فى حجر تربية المحبوبية يرضع بلبن كرم الربوبية وهم أطفال قهرنا فى حجر تربية ارادتنا يرضعون بلبن كرمنا فأما الولى السالك يصلح أن يكون مربياً للخلق لانه بمنزلة البالغ الذى يثبت له الولاية على نفسه ومن له ولاية على نفسه جاز له

الولاية على غيره فاذا جاز ذلك فى عرف الشريعة جاز فى عرف الحقيقة على وزن الشريعة والتفرقة بين الشريعة والحقيقة كفر وزندقة فمثال المجذوب فى مقام المحبوبية كمثل رجل سلك به فى طريق البادية مشدود العين فهو لا يعرف موضع قدمه ولا يدرى أين يذهب وهـذا الرجل اذا قطع الطريق ووصل إلى مراده لو سئل عن منزل من المنازل لم يكن عنده علم ولا خبر وكما أن هذا الرجل لايصلح أن يكون دليلا فى البادية فكذلك المجذوب لايصلح أن يكون دليلا فى طريق الآخرة ومثال السالك فى طريق الآخرة كمثل رجل سلك طريق البادية وشاهدها وعرف منازلها ومراحلها وسهلها وجبلها ويعرفها شبراً شبراً ويعلمها ويتقنها علماً وخبراً وكما أن هذا الرجل يصلح أن يكون دليلا على طريق البادية فكذلك السالك فى طريق المعرفة يصلح أن يكون دليلا فى طريق الآخرة.

(فصل): كاشف القلوب يقول لا إله الا الله وكاشف الارواح يقول الله الله وكاشف الأسرار يقول هو هو ولا إله الا الله قوت القلوب والله قوت الارواح وهو قوت الاسرار فلا إله إلا الله مغناطيس القلوب والله مغناطيس الأرواح وهو مغناطيس الأسرار والقلب والروح والسر بمنزلة درة فى صدفة فى حقة أو بمنزلة طير فى قفص في بيت فالحقة والبيت بمنزلة القلب والصدفة والقفص بمنزلة الروح والدرة والطائر بمنزلة السر فمهما لاتصل إلى البيت لاتصل الى القفص ومهما لاتصل إلى القفص لاتصل الى الطائر وكذلك مهما لم تصل الى القلب لاتصل الى الروح ومهما لم تصل الى الروح لاتصل الى السر فاذا وصلت الى البيت فقد وصلت إلى عالم القلوب واذا وصلت الى القفص فقد وصلت الى عالم الأرواح وإذا وصلت الى الطائر فقد وصلت الى عالم الاسرار فافتح باب قلبك بمفتاح قولك لا إله إلا الله وباب روحك بمفتاح قولك الله الله واستنزل طائر سرك بقولك هو هو فان قولك هو قوت لهذا الطائر واليـه الاشارة بقوله تعالى ياموسى اجعلنى طعامك وشرابك واعلم أن تشبيه القلب بالبيت والروح بالقفص والسر بالطير تشبيه مجازي من جهة الحس تقريب لفهمك واشارة الى أنه لاوصول الى عالم الارواح الا بعد العبور عن عالم القلوب ولا وصول الى عالم الاسرار الا بعـد العبور عن عالم الارواح والا فالحقيقة بالعكس من ذلك فان عالم الارواح أكبر من عالم القلوب

وعالم الاسرار أكبر من عالم الارواح وانما مثله الحقيقى ثلاثة دوائر بعضها محيط ببعض فالدائرة الكبرى عالم الاسرار والوسطى عالم الأرواح والصغرى عالم القلوب فعالم القلوب أصغر من عالم الارواح وعالم الارواح أصغر من عالم الاسرار وانما كان عالم القلوب أصغر من عالم الارواح لان عالم القلب أقرب الى عالم الغيب والشهادة من عالم الارواح وانما كان عالم الارواح أصغر من عالم الاسرار لان عالم الارواح أقرب الى عالم الاشباح من عالم الاسرار فكل ما كان الى عالم الاشباح أقرب كان الى الاصغر أقرب وكل ما كان منه أبعد كان الى الاكبر أقرب ولان عالم الاشباح عالم الضيق والحرج والزحمة وعالم الارواح والاسرار عالم الفسحة والروح وكل ما كان أصغر مما هو أقرب الى عالم الملك والملكوت والسعادة كان أكبر مما هو أقرب الى عالم الغيب والشهادة وهو عالم الاسرار فافهم أمدك الله بالفهم

(فصل) : بالله يا أخى هل لك فى هذه السماء نجم أو من هذه البحار قطرة كلا كلا بل نفس مستولية وبشرية غالبة فطبع ظاهرك (ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) فاخرج من عالم النفس الى عالم القلب ومن عالم البشرية الى عالم الروح ومن عالم الطبع الى عالم السر ومن ظلمة وجودك اليه فتشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)

(فصل) : عالم النفس وعالم البشرية وعالم الطبع مهاو ودركات لعالم العدل وعالم القلب وعالم الروح وعالم السر معارج ودرجات لعالم الفضل فعالم النفس درك للعاصين وعالم البشرية درك للكافرين وعالم الطبيعة درك للمنافقين (ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار) وأما عالم القلب فمعراج المريدين وعالم الروح معراج الصديقين وعالم السر معراج المريدين وان شئت أن تقول عالم القلب معراج أهل البداية وعالم الروح معراج أهل التوسط والكفاية وعالم السر معراج أهل الوصول والنهاية وجه آخر عالم القلب معراج التوابين وعالم الروح معراج المحبين وعالم السر معراج العارفين فمهما لم ترق من حضيض طبعك وبشريتك ونفسك لاتصل الى عالمهم فاذا ترقيت من درك طبعك وبشريتك ونفسك فحينئذ يستقبلك تصرف الحق فيك قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء فتارة يقلبه من قبض

الى بسط ومن خوف الى رجاء ومن بقاء الى فناء ومن صحو الى محو ومن طرب الى حزن وتارة بعكس هذه الأحوال ويغير عليه هذه الأوصاف وهو أبداً بين قبض وبسط وخوف ورجاء وفناء وبقاء ومحو وصحو وطرب وحزن وتارة يجذبه عنه ويوصله الى أعلى مراتب السائرين اليه وتارة يرده عنه فيوقعه في أدنى منازل المنقطعين عنه جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين

(فصل) : اعلم أن هذا التعدد والتنوع والتغير انما هو بالنسبة الى متعلقات صفاته إذ هو واحد في ذاته وصفاته علمه واحد وهو محيط بجميع المعلومات وقدرته واحدة وهي محيطة بجميع المقدورات والعلم واحد والمعلومات متعددة والقدرة واحدة والمقدورات متعددة وتصرفه فيك واحد وتصرفاتك متعددة وذكر الاصبعين واليدين وأمثال ذلك على سبيل التشبيه وذكر الاصبع على جهة الاثنينية اشارة إلى سرعة التقليب من حال إلى حال والا فهو مقدس من أن يكون جسما أو جوهراً أو عرضاً بل هو خالق الموجودات والاجسام والجواهر والاعراض لانه لو كان جسما لكان مؤلفاً وهو سبحانه مؤلف ليس بمؤلف لو كان جسما لكان مكيفاً وهو سبحانه ليس بمكيف لو كان جسماً لكان مصوراً وهو سبحانه ليس بمصور لو كان مؤلفاً لافتقر الى مؤلف لو كان مكيفا لافتقر الى مكيف ولو كان مصورا لافتقر الي مصور وهو سبحانه مبدع التأليف والتكييف والتصوير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ولو كان عرضاً لافتقر الى محل يقوم به وهو سبحانه منزه عن أن يحل في شيء أو يقوم بشيء بل هو قبل كل شيء كان ولا مكان ولا انس ولا جان ولا سماء ولا أرض ولا عرش ولا فرش ولا ملك ولا افلاك ولا شمس ولا قمر ولا عين ولا أثر ولا حجر ولا مدر ولا ماء ولا شجر ولا فضاء ولا ضياء ولا ظلال ولا وراء ولا امام ولا يمين ولا شمال ولا فوق ولا تحت ولا نبات ولا جماد كان قبل كل الأكوان وهو الآن كما كان ولا يزال على مر الدهور والأزمان قربه بغير اتصال وبعده بغير انفصال وفعله بغير الجوارح والاوصال منزه بريء عن الاستقرار والانتقال تعالى عن التحول والزوال وتقدس عن الحلول في المحال لا إله إلا الله هو الكبير المتعال عن الوهم والحس والخيال ليس له شكل ولا تصوير ولا مثل ولا نظير ولا معين ولا ظهير ولا وزير ولا مشير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

ليس له حد ولا تحيط به الجهات ولا تغيره الحالات ولا تشبه ذاته الذوات ولا تشاكل صفاته الصفات تقدست ذاته عن سمات الكائنات وصفاته عن صفات الحادثات تنزه القدم عن الحدوث وتقدس القديم عن المحدث ان قلت كم فقد كان قبل الاجزاء والأبعاض وان قلت كيف فقد كان قبل وجود الأحوال والاعراض وان قلت متى فقد كان قبل وجود الزمان وان قلت أين فقد كان قبل وجود المكان وسبق الأشياء كلها وجودا وأخرجها من كتم العدم فضلا وجودا (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) أول ليس قبله شيء وآخر ليس بعده شيء ظاهر أي لا يستره شيء باطن أي لا يكتنفه شيء واحد أي ليس كمثله شيء.

(فصل) : فاذا وصلت الى عالم الفناء اتصل بك تصرف الحق فيك فصار حجرك اكسيرا عزيزا وانقلب نحاسك ذهبا ابريزا وأودع عليك من أنوار التنزيه والتوحيد ماتنفي معه كل شرك وتشبيه وتعطيل وتمويه فتصفو بصفاء التوحيد عن كدورات صفاتك وتقدس به عن دنس مخالفاتك فحينئذ يدخلك فى زمرة السالكين ويسيرك فى منازل السائرين الى أن يبلغ بك إلى أعلى منازل القلب من الرضاء والتسليم والتفويض والطمأنينة والسكينة (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)

(فصل) : فاذا وصلت الى عالم الروح برز لك نعت القدم بتخصيص التخصيص ومنشور التشريف من ياء اضافة (ونفخت فيه من روحى) وهذه اضافة تفضيل القدم للحدوث وتسجيل القديم للمحدث فكاد هذا التشريف أن يصل القديم بالمحدث تنزه القدم عن الحدوث وتنزه القديم عن المحدث وجلت الأزلية عن الوصل اضافتك اليه اضافة مزية لا اضافة جزئية اضافتك اليه اضافة خصوصية لا اضافة بعضية اضافة قربة لا اضافة نسبة اضافة كرم لا اضافة قدم وهو منزه عن كل اضافة وان قال (ونفخت فيه من روحي)

(فصل) : ليس له كل فيقال له بعض وليس له جنس فيقال نوع تنزه عن حقيقة من والى وفى وعلى ليس له جنسية ولا بعضية فيقال من ولا محلية فيقال فى وليس له قرار فيقال على فمقدس عن البداية والنهاية والظرفية والمحلية

(فصل) : فاذا وصلت الى عالم السر كوشفت بأسرار الغيب وزفت اليك عرائس أبكار الاسرار فى خلوات أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيرى من توسط (فأوحى الى عبده ما أوحى) في مجلس السر بيني وبين عبدى سر لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبى.

مرسل ثم تأتيك ألطاف القدرة بتحف الحضرة بما لاعين رأت ولا أذن سمعت (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) تدرى ماقرة عين العاشق قرة عين العاشق رؤية وجه محبوبه ومعشوقه والتمتع بالنظر الى جماله يشق لك سمعاً في قلبك وبصراً في لبك فتسمع بغير أذن وتبصر بغير عين فلا تسمع إلا من الغيب ولا تبصر إلا من الغيب فيصير الغيب عندك عينا والخبر معاينة وهو معنى قوله رأى قلبي ربي ومفهوم اشارة القدم في متن مصحف المجيد (ألم تر الى ربك) فحينئذ يجذبك عنك ويسلبك منك فتقع في القبضة فيوصلك إلى أعلى مراتب التوحيد والمعرفة في أعلى منازل السر والهمة ماتقصر العبارة عن التعبير به وتعجز الاسرار عن الاشارة اليه وهو نهاية الاقدام وليس وراء عبادان قرية . لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فحينئذ تقول سبحان من لم يجعل طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ولما علم الحق سبحانه عجز خلقه عن أداء صفته في حقيقة الوحدانية والفردانية وشهد لنفسه بالحق للحق (شهد الله أنه لا إله إلا هو)

(فصل) : التوحيد هو البداية وهو النهاية والنهاية رجوع الى البداية منه بدىء واليه يعود كلمة لا إله إلا الله هي البداية والنهاية منها بدىء واليها يعود فهي الكلمة الطيبة والكلم الطيب والقول السديد والقول الصواب وكلمة التقوى ودعوة الحق والعمل الصالح والعهد والحسنة والاحسان أما الكلمة الطيبة قال الله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) وأما الكلم الطيب (اليه يصعد الكلم الطيب) والقول السديد (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) والقول الصواب (إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) ودعوة الحق قوله تعالى (له دعوة الحق) وكلمة التقوى قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) والكلمة السواء قوله تعالى (الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله) والعمل الصالح قوله تعالى (رب ارجعون لعلى أعمل صالحا) والعهد قوله تعالى (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) والحسنة قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) والاحسان قوله تعالى (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) وهى الحصن الحصين لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى جعلنا الله وإياكم ممن دخل حصن الله بمنه وكرمه واحسانه بداية ونهاية ورزقنا معانى أسراره بفضله ورحمته انه كريم جواد آمين .

تم كتاب التجريد — فى كلمة التوحيد ويليه رسالة الوعظ والاعتقاد

رسالة الوعظ والاعتقاد — الى أبى الفتح أحمد بن سلامة الدمى

لأبى حامد محمد الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد بلغني : عن لسان من أثق به من سيرة الشيخ الامام الزاهد حرس الله توفيقه وسمره فى مهم دينه ماقوى رغبتى فى مؤاخاته فى الله تعالى رجاء لما وعد الله به عباده المتحابين . وهذه الاخوة لاتستدعى مشاهدة الاشخاص وقرب الابدان وأنما تستدعى قرب القلوب وتعارف الارواح وهي جنود مجندة فاذا تعارفت ائتلفت . وهاأنا عاقد معه عقد الاخوة فى الله تعالى ومقترح عليه أن لا يخليني عن دعوات فى أوقات خلوته وأن يسأل الله تعالى أن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه وأن يريني الباطل باطلا ويرزقني اجتنابه . ثم قرع سمعي انه التمس مني كلاما فى معرض النصح والوعظ وقولا وجيزا فيما يجب على المكلف اعتقاده من قواعد العقائد .

أما الوعظ : فلست أرى نفسي أهلا له لان الوعظ زكاة نصاب الاتعاظ ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة وفاقد النور كيف يستنير به غيره و(متى يستقيم الظل والعود أعوج) وقد أوحى الله تعالى الى عيسى ابن مريم عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال نبينا ﷺ تركت فيكم واعظين ناطق وصامت فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت وفيهما كفاية لكل متعظ ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره ولقد وعظت بهما نفسي فصدقت وقبلت قولا وعقلا وأبت وتمردت تحقيقاً وفعلا فقلت لنفسي أما أنت مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق وانه الناصح الصادق فانه كلام الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ فقالت نعم فقلت قال الله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) فقد وعدك الله تعالى بالنار على ارادة الدنيا وكل من لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا فهل تنزهت عن ارادة الدنيا أو حبها ولو أن طبيبا نصرانيا وعدك بالموت أو المرض على تناولك ألذ الشهوات لتحاشيتها واتقيتها كأن النصرانى عندك أصدق من الله تعالى فان كان كذلك فما أكفرك أو كان المرض أشد عندك من النار فان كان كذلك فما أجهلك فصدقت ثم ما انتفعت بل أصرت على الميل الى العاجلة واستمرت ثم أقبلت عليها فوعظتها بالواعظ الصامت فقلت قد أخبر الناطق عن الصامت اذ قال تعالى (ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) وقلت لها هي انك ملت الي العاجلة أفلست مصدقة بأن

الموت لامحالة آتيك وقاطع عليك كل ما أنت متمسكة به وسالب منك كل ما أنت راغبة فيه وكل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وقد قال الله تعالى (أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أفأنت مخرجة هذا عن جميع ما أنت فيه والحر الحكيم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها واللئيم يتمسك بها الى ان يخرج من الدنيا خائبا خاسرا متحسرا؟ فقالت صدقت فكان ذلك منها قولا لاتحصيل وراءه اذ لم تجتهد قط فى التزود للآخرة كاجتهادها فى تدبير العاجل ولم تجتهد قط فى رضاء الله تعالى كاجتهادها فى رضاها بل اجتهادها فى طلب الخلق ولم تستحى قط من الله تعالى كما تستحى من واحد من الخلق ولم تشمر للاستعداد للآخرة كتشميرها فى الصيف فانها لاتطمئن فى أوائل الشتاء مالم تفرغ من جميع ما تحتاج اليه فيه من آلاته مع ان الموت ربما يختطفها والشتاء لايدركها والآخرة على يقين لايتصور أن يختطف منها . وقلت لها ألا تستعدي للصيف بقدر طوله وتصنعي آلة الصيف بقدر صبرك على الحر . قالت نعم . قلت فاعصى الله بقدر صبرك على النار واستعدى للآخرة بقدر بقائك فيها . فقالت هذا هو الواجب الذى لايرخص فى تركه الا الاحمق ثم استمرت على سجيتها فوجدتني كما قال بعض الحكماء ان فى الناس من يموت نصفه ولا ينزجر نصفه الآخر وما أراني الا منهم ولما رأيتها متمادية فى الطغيان غير منتفعة بوعظ الموت والقرآن رأيت أهم الامور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها فان ذلك من العجائب العظيمة فطال على التفتيش حتى وقفت على سببه وها أنا موتس وإياه بالحذر منه فهو الداء العضال وهو السبب الداعي الى الغرور والاهمال وهو اعتقاد تراخي الموت واستبعاد هجومه على القرب فانه لو أخبره صادق فى بياض نهاره انه يموت فى ليلته أو يموت الى أسبوع أو شهر لاستقام واستوى على الطريق المستقيم ولترك جميع ما هو فيه مما يظن انه مما يتعاطاه لله تعالى وهو مغرور فيه فضلا عما يعلم انه ليس لله تعالى فانكشف تحقيقا ان من أصبح وهو يأمل أن يمسى أو أمسى وهو يأمل أن يصبح لم يخل من الفتور والتسويف ولم يقدر الاعلى سير ضعيف فأوصيه ونفسى بما أوصى به رسول الله ﷺ حيث قال «صل صلاة مودع» ولقد أوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب ولا ينتفع بوعظ الا به فمن غلب على قلبه فى كل صلاة انها آخر صلاته حضر معه قلبه فى الصلاة وتيسر له الاستعداد بعد الصلاة ومن عجز عن ذلك فلايزال فى غفلة دائمة وغرور مستمر وتسويف متتابع الى أن يدركه الموت فتدركه حسرة الفوت وانا مقترح عليه أن يسأل الله تعالى ان يرزقنى هذه الرتبة فانى طالب لها وقاصر عنها وأوصيه ان لايرضى من نفسه الا بها وان يحذر من مواقع الغرور فاذا وعدت النفس بذلك طالبها بموثق غليظ من الله تعالى فان خداع

النفس لايقف عليه الا الاكياس .

وأما أقل ما يجب اعتقاده على المكلف فهو ما يترجمه قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم اذا صدق الرسول فينبغى أن يصدقه فى صفات الله تعالى فانه حى قادر عالم متكلم مريد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير وليس عليه بحث عن حقيقة هذه الصفات وان الكلام والعلم وغيرهما قديم أو حادث بل لو لم تخطر له هذه المسئلة حتى مات مات مؤمنا وليس عليه تعلم الادلة التى حررها المتكلمون بل كلما حصل فى قلبه التصديق بالحق بمجرد الايمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن ولم يكلف رسول الله ﷺ أكثر من ذلك وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرت الاعراب وعوام الخلق الامن وقع فى بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل كقدم الكلام وحدوثه ومعنى الاستواء والنزول وغيره فان لم يأخذ ذلك قلبه وبقى مشغولا بعبادته وعمله فلا حرج عليه وإن أخذ ذلك بقلبه فأقل الواجبات عليه ما اعتقده السلف فيعتقد فى القرآن القدم كما قال السلف القرآن كلام الله غير مخلوق ويعتقد ان الاستواء حق والسؤال عنه مع الاستغناء بدعة والكيفية فيه مجهولة فيؤمن بجميع ما جاء به الشرع إيمانا مجملا من غير بحث عن الحقيقة والكيفية فان لم ينفعه ذلك وغلب على قلبه الاشكال والشك فان أمكن ازالة شكه وإشكاله بكلام قريب من الافهام وان لم يكن قويا عند المتكلمين ولا مرضيا عندهم فذلك كاف ولا حاجة به الي تحقيق الدليل بل الاولى ان يزال اشكاله من غير برهان حقيقة الدليل فان الدليل لايتم الا بدرك السؤال والجواب عنه ومهما ذكرت الشبهة فلا يبعد ان ينكر بقلبه ويكل فهمه عن درك جوابه اذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقاً لايحتمله عقله ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن الكلام وانما زجروا عنه لضعفاء العوام

وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الاشكال ومنع الكلام للعوام يجرى مجرى منع الصبيان من شاطىء نهر الدجلة خوفا من الغرق ورخصة الاقوياء فيه تضاهى رخصة الماهر فى صنعة السباحة الاأن ههنا موضع غرور ومزلة قدم وهو أن كل ضعيف فى عقله راض من الله تعالى فى كمال عقله يظن بنفسه انه يقدر على ادراك الحقائق كلها وانه من جملة الاقوياء فربما يخوضون فيغرقون فى بحر الجهالات حيث لايشعرون فالصواب للخلق كلهم الا الشاذ النادر الذى لاتسمح الاعصار الا بواحد منهم أو اثنين سلوك مسلك السلف فى الايمان بالرسل والتصديق المجمل بكل ما أنزله الله تعالى وأخبر به رسوله من غير بحث وتفتيش عن الادلة بل الاشتغال بالتقوى عليه شغل شاغل اذ قال ﷺ حيث رأى أصحابه يخوضون بعد ان غضب حتى احمرت وجنتاه أبهذا أمرتم تضربون كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمركم الله

به فافعلوه وما نها كم عنه فانتهوا فهذا تنبيه على المنهج الحق واستيفاء ذلك شرحناه فى كتاب (قواعد العقائد) فيطلب منه والسلام.

تمت الرسالة بعون الله ومنه والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

رسالة الطير للامام حجة الاسلام الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

اجتمعت أصناف الطيور على اختلاف أنواعها وتباين طباعها وزعمت أنه لابد لها من ملك واتفقوا أنه لايصلح لهذا الشأن الا العنقاء وقد وجدوا الخبر عن استيطانها فى مواطن الغرب وتقررها فى بعض الجزائر فجمعتهم داعية الشوق وهمة الطلب فصمموا العزم على النهوض اليها والاستظلال بظلها والمثول بفنائها والاستسعاد بخدمتها فتناشدوا وقالوا قوموا الى الدار من ليلى نحييها * نعم ونسألها عن بعض أهليها

وإذا الاشواق الكامنة قد برزت من كمين القلوب وزعمت بلسان الطلب

بأى نواحى الأرض أبغى وصالكم * وأنتم ملوك مالمقصدكم نحو

واذا هم بمنادي الغيب ينادى من وراء الحجب (ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة) لازموا اماكنكم ولاتفارقوا مساكنكم فانكم ان فارقتم أوطانكم ضاعفتم أشجانكم فدونكم والتعرض للبلاء والتحلل بالفناء.

ان السلامة من سعدى وجارتها * أن لاتحل على حال بواديها

فلما سمعوا نداء التعذر من جناب الجبروت ما ازدادوا إلا شوقا وقلقا وتحيرا وأرقا وقالوا من عند آخرهم ولوداواك كل طبيب أنس * بغير كلام ليلى ما شفاكا

(وزعموا) ان المحب الذى لاشيء يقنعه * أو تستقر ومن يهوى به الدار

ثم نادى لهم الحنين ودب فيهم الجنون فلم يتلعثموا فى الطلب اهتزازاً منهم الى بلوغ الارب فقيل لهم بين أيديكم المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة وأماكن القر ومساكن الحر فيوشك أن تعجزوا دون بلوغ الامنية فتخترمكم المنية فالاحري بكم مساكنة أوكار الاوطار قبل أن يستدرجكم الطمع واذا هم لايصغون الى هذا القول * ولايبالون * بل رحلوا وهم يقولون

فريد عن الخلان في كل بلدة * اذا عظم المطلوب قل المساعد

فامتطى كل منهم مطية الهمة قد الجمها بلجام الشوق وقومها بقوام العشق وهو يقول

أنظر الى ناقتى فى ساحة الوادى * شديدة بالسرى من تحت مياد

اذا اشتكت من كلال البين أوعدها * روح القدوم فتحيا عند ميعادى

لها بوجهك نور تستضىء به * وفى نوالك من أعقابها حادى

فرحلوا من محجة الاختيار فاستدرجتهم يد الاضطرار فهلك من كان من بلاد الحر فى بلاد البرد ومات من كان من بلاد البرد فى بلاد الحر وتصرفت فيهم الصواعق وتحكمت عليهم العواصف حتى خلصت منهم شرذمة قليلة الى جزيرة الملك ونزلوا بفنائه واستظلوا بجنابه والتمسوا من يخبر عنهم الملك وهو فى أمنع حصن من حمى عزه فاخبر بهم فتقدم الى بعض سكان الحضرة أن يسألهم ما الذى حملهم على الحضور فقالوا حضرنا ليكون مليكنا فقيل لهم أتعبتم أنفسكم فنحن الملك شئتم أوأبيتم جئتم أو ذهبتم لاحاجة بنا اليكم * فلما أحسوا بالاستغناء والتعذر أيسوا وخجلوا وخابت ظنونهم فتعطلوا فلما شملتهم الحيرة وبهرتهم العزة قالوا لاسبيل الى الرجوع فقد تخاذلت القوى وأضعفنا الجوى فليتنا تركنا فى هذه الجزيرة لنموت عن آخرنا وأنشئوا يقولون هذه الابيات أسكان رامة هل من قرى * فقد دفع الليل ضيفا قنوعا

كفاه من الزاد أن تمهدوا * له نظرا وكلاما وسيعا

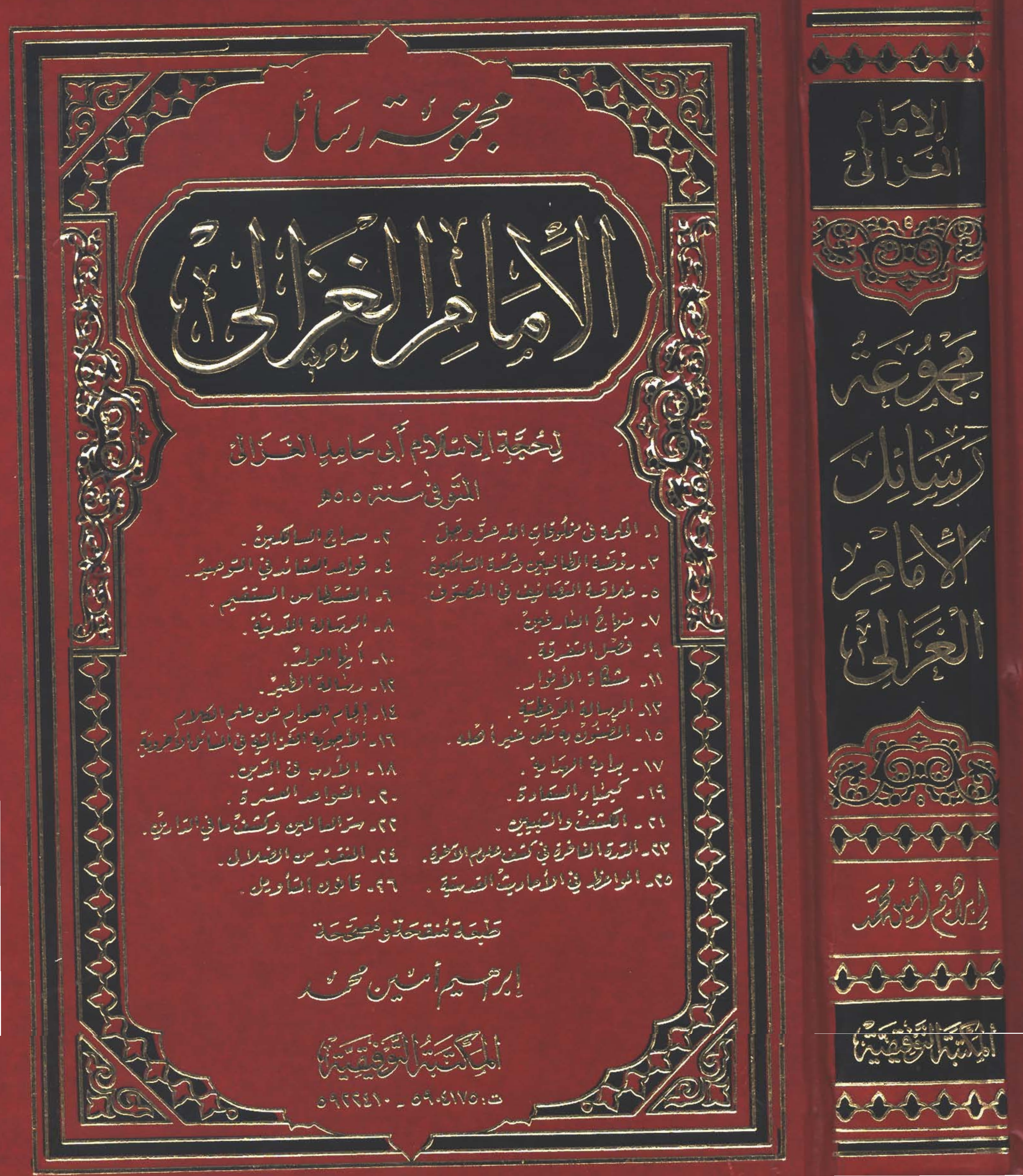
هذا وقد شملهم الداء وأشرفوا على الفناء ولجأوا الى الدعاء.

ثمل نشاوى بكاس الغرام * فكل غدا لاخيه رضيعا

فلما عمهم اليأس وضاقت بهم الانفاس تداركتهم أنفاس الايناس وقيل لهم هيهات فلا سبيل الى اليأس (فلا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون) فان كان كمال الغنى يوجب التعزز والرد فجمال الكرم أوجب السماحة والقبول فبعد ان عرفتم مقداركم فى العجز عن معرفة قدرنا فحقيق بنا ايواؤكم فهو دار الكرم ومنزل النعم فانه يطلب المساكين الذين رحلوا عن مساكنة الحسبان ولولاه لما قال سيد الكل وسابقهم «احيني مسكينا» ومن استشعر عدم استحقاقه فحقيق بالملك العنقاء أن يتخذه قرينا فلما استأنسوا بعد ان استيأسوا وانتعشوا بعد أن تعسوا ووثقوا بفيض الكرم واطمأنوا الى دور النعم سألوا عن رفقائهم فقالوا ما الخبر عن أقوام قطعت بهم المهامه والاودية أمطلول دماؤهم أم لهم دية فقيل هيهات هيهات (ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) اجتبتهم أيادى الاجتباء بعد أن أبادتهم سطوة الابتلاء (ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء) قالوا فالذين غرقوا فى لجج البحار ولم يصلوا الى الدار ولا إلى الديار بل

التقمتهم لهوات النار قيل هيهات (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء) فالذى جاء بكم وأماتهم أحياهم والذي وكل بكم داعية الشوق حتى استقللتم العناء والهلاك في أريحية الطلب دعاهم وحملهم وادناهم وقربهم فهم حجب العزة وأستار القدرة (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) قالوافهل لنا الى مشاهدتهم سبيل قيل لا فانكم فى حجاب العزة وأستار البشرية وأسر الاجل وقيده فاذا قضيتم أوطاركم وفارقتم أوكاركم فعند ذلك تزاورتم وتلاقيتم قالوا والذين قعد بهم اللؤم والعجز فلم يخرجوا قيل هيهات (ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) ولو أردناهم لدعوناهم لكن كرهناهم فطردناهم أتتم بأنفسكم جئتم أم نحن دعوناكم أنتم اشتقتم ام نحن شوقنا كم نحن اقلقنا كم فحملنا كم وحملناهم فى البر والبحر : فلما سمعوا ذلك واستأنسوا بكمال العناية وضمان الكفاية كمل اهتزازهم وتم وثوقهم فاطمأنوا وسكنوا واستقبلوا حقائق اليقين بدقائق التمكين وفارقوا بدوام الطمأنينة امكان التلوين (ولتعلمن نبأه بعد حين) (فصل) أترى هل كان بين الراجع الى تلك الجزيرة وبين المبتدىء من فرق اما قال جئنا ملكنا من كان مبتدئا * أما من كان راجعا الى عيشه الاصلى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى) فرجيع اسماع النداء كيف يقال له لم جئت فيقول لم دعيت لاالى فيقول لم حملت الى تلك البلاد وهي بلاد القربة * والجواب على قدر السؤال والسؤال على قدر التفقه والهموم بقدر الهمم (فصل) من يرتاع لمثل هذه النكت فليجدد العهد بطور الطيرية وأريحية الروحانية * فكلام الطيور لايفهمه الا من هو من الطيور وتجديد العهد بملازمة الوضوء ومراقبه أوقات الصلاة وخلوة ساعة للذكر فهو تجديد العهد الخلو في غفلة لابد من أحد الطريقين (فاذكرونى أذكركم) (أو نسوا الله فنسيهم) فمن سلك سبيل الذكر أنا جليس من ذكرنى ومن سلك سبيل النسيان (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) وابن آدم فى كل نفس مصحح أحد هاتين النسبتين ولابد يتلوه يوم القيامة أحد السيماءين اما يعرف المجرمون بسيماهم أو الصالحون بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود * نفذك الله بالتوفيق وهداك الى التحقيق وطوى لك الطريق انه بذلك حقيق * والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين آمين — تمت رسالة الطير

ويليها كتاب الجام العوام


مجموعة رسائل
الإمام الغزالي
لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي
المتوفى سنة ٥٠٥ هـ
١ـ الحكمة في مخلوقات الله عز وجل .
٢ـ معراج السالكين .
٣ـ روضة الطالبين وعمدة السالكين .
٤ـ قواعد العقائد في التوحيد .
٥ـ خلاصة التصانيف في التصوف .
٦ـ القسطاس المستقيم .
٧ـ منهاج العارفين .
٨ـ الرسالة اللدنية .
٩ـ فيصل التفرقة .
١٠ـ أيها الولد .
١١ـ مشكاة الأنوار .
١٢ـ رسالة الطير .
١٣ـ الرسالة الوعظية .
١٤ـ إلجام العوام عن علم الكلام
١٥ـ المضنون به على غير أهله .
١٦ـ الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية .
١٧ـ بداية الهداية .
١٨ـ الأدب في الدين .
١٩ـ كيمياء السعادة .
٢٠ـ القواعد العشرة .
٢١ـ الكشف والتبيين .
٢٢ـ سر العالمين وكشف ما في الدارين .
٢٣ـ الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة .
٢٤ـ المنقذ من الضلال .
٢٥ـ المواعظ في الأحاديث القدسية .
٢٦ـ قانون التأويل .
طبعة منقحة ومصححة
إبراهيم أمين محمد
المكتبة التوفيقية
ت: ٥٩٠٤١٧٥ ـ ٥٩٢٢٤١٠
الإمام الغزالي
مجموعة رسائل الإمام الغزالي
إبراهيم أمين محمد
المكتبة التوفيقية



راجعها وحققها

ابراهيم أمين محمد



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠

المكتبة التوفيقية

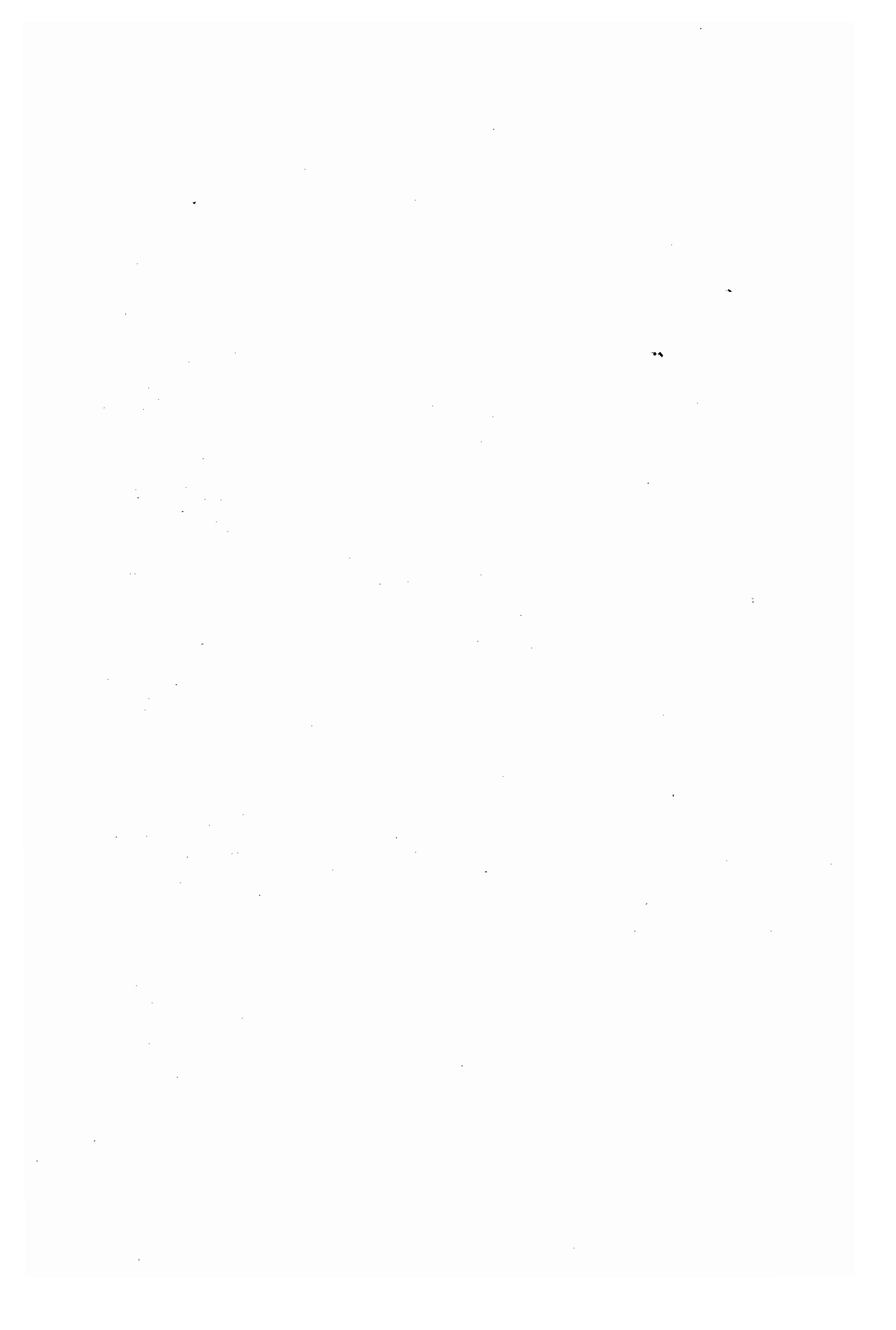
القاهرة – مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر – سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ – ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 - 5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق شعلان

مجموعة رسائل
الإمام الغزالى
لحجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى المتوفى ٥٠٥ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة فى مخلوقات الله عزّ وجلّ
وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

خطبة الكتاب

الحمد لله الذى جعل نعمته فى رياض جنان المقربين، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين، وجعل التفكر فى مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين فى قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحدوه، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه، فهو القيم بالقسط فى جميع الأحوال، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال فعلموا أنه الحليم القادر العليم، كما قال فى كتابه الكريم: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨]. والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين، وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وشرف وكرم إلى يوم الدين.

أما بعد:

يا أخى وفقك الله توفيق العارفين، وجمع لك خير الدنيا والدين، إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له فى مخلوقاته والتفكر فى عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة فى أنواع مبتدعاته، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفارب درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبهًا لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التى يشير إليها معظم آى الكتاب. فإن الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحى وأمر أربابها بالنظر فى مخلوقاته والتفكر والاعتبار مما أودعه من العجائب فى مصنوعاته، لقوله سبحانه: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [يونس: ١٠١]. وقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٠]. إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التى يفهمها متدبرها، والمترقى فى اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التى هى سبب السعادة، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة. وقد بوبته أبوابًا يشتمل كل باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق، وذلك حسب ماتنبهت له عقولنا فيما أشرنا إليه، مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه

وتعالى، وما وضع من الحكم فى مخلوق واحد من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك وما أدركته الخلائق من ذلك ما وهب االلّه سبحانه لكل منهم ومـا سبق له من ربه سبحانه. واللّه المسئول أن ينفعنا به برحمته وجوده.

باب التفكر فى خلق السماء وفى هذا العالم

قال اللّه تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ**﴾ [ق: ٦]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**﴾ [الطلاق: ١٢]. اعلم رحمك الله إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع مايحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبسط، والنجوم منصوبة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء من ذلك معد مهيأ لشأنه، والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه، فضروب النبات لمآربه، وأصناف الحيوانات مصروفة فى مصالحه، فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها ولو كانت لامعة أو أنواراً لأضرت الناظر إليها. فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار، وتجد النفوس عند رؤية السماء فى سعتها نعيمًا وراحة لا سيما إذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها، والملوك تجعل فى سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر إليه به راحة وانشراحًا، لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره ملّه وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح، بخلاف النظر إلى السماء وزينتها فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجؤون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء، وقد قالت الحكماء: يحذوك عندك من الراحة والنعيم فى دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء، وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فتهتدى بها أهل الآفاق وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولاتوجد مجردة ولامقبلة صورة نور. وقيل: إنها أنجم صغار متكاثفة مجتمعة يهتدى بها على السير من ضل ويحشر فى أى جهة كانت فيقصدها، وقيل: إنها المشار إليها فى قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾ [الذاريات: ٧]. قيل: الحبك الطرق، وقيل ذات الزينة فهى دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعته محكمة صمدية تدل على سعة علم بارئها وأمور ترتيبها كما تدل على إرادة منشئها فسبحان القادر العالم المريد. وقيل: فى النظر إلى السماء عشر فوائد: تنقص الهم، وتقلل الوسواس، وتزيل وهم الخوف، وتذكر بالله، وتنشر فى القلب التعظيم لله، وتزيل الفكر الرديئة، وتنفع لمرض السوداء، وتسلى المشتاق وتؤنس المحبين، وهى قبلة دعاء الداعين.

باب فى حكمة الشمس

قال اللَّه سبحانه: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لأمور لايستكمل علمها إلا الله وحده، فالذى ظهر من حكمته فيها أن جعل حركتها لإقامة الليل والنهار فى جميع أقاليم الأرض. ولولا ذلك لبطل أمر الدين، أو لولاه كيف كان يكون الناس يسعون فى معايشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالأبصار ولم تظهر الألوان، وتأمل غروبها وغيبتها عمن طلعت عليهم وما فى ذلك من الحكمة، ولولاه لم يكن للخلق هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء وراحة أبدانهم وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء، ثم كان الحرص لحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته فى أبدانهم، فإن أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هدءوا ولا قروا من حرصهم على نيل ماينتفعون به، ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ماعليها من الحيوانات والنباتات، فهى بطلوعها فى وقت غروبها فى وقت النور بمنزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتًا ويغيب وقتًا ليهتدوا ويقروا، وهى فى حرها بمنزلة نار يطبخ بها أهل الدار حتى إذا كمل طبيخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم، وهو يحتاج إليها فينتفع حتى إذا قضى حاجته سلمها لآخرين، فهى أبدًا منصرفة فى منافع أهل الأرض بتضاد النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظافرين على مافيه صلاح العالم وقوامه، وإلى هذه القضية الإشارة بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: ٧١]. ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات والحيوان ثم انظر إلى مسيرها فى فلكها فى مدة وهى تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخر لها بتقدير خالقها فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت. ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق، فانظر كيف جعل الله الليل سكنًا ولباسًا والنهار معاشًا وانظر إلى إيلاجه الليل فى النهار والنهارفى الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص، وانظر إلى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء، فإذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء. وإذا استوت وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان بإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وأما ما فى ذلك من المصلحة، ففى الشتاء تعودالحرارة فى الشجر والنبات فيتولد فيه مواد الثمار ويستكثف الهواء، فينشأ منه

السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان وتقوى أفعال الطبيعة. وفى الربيع تتحرك الطبائع فى المواد المتولدة فى الشتاء فيطلع النبات بإذن الله وينور الشجر، وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل، وفى الصيف يخمد الهواء فينضج الثمار وتنحل فضول الأبدان، ويجف وجه الأرض فتتهيأ لما يصلح لذلك من الأعمال، وفى الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة، وكل ذلك يأتى على تدريج، وبقدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة إلى غير ذلك مما يطول لو ذكر.

فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه، ثم تفكر فى تنقل الشمس فى هذه البروج لإقامة دور السنة، وهذا الدور الذى يجمع الأزمنة الأربعة: الشتاء والصيف والربيع والخريف وتسيرفيها على التمام وفى القدر من دوران الشمس يدرك الغلات والثمار وتنتهى غاياتها، ثم تعود فتستأنف وقت السير وبمسيرها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم.

تأمل إشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى، فإنها لو بزغت فى موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها، فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب، ثم لاتزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى إلى الغرب على ما استترعنها أول النهار، فلايبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها، ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقتهما سبحانه على مافيه صلاح العالم فصارا بمقدار لو تجاوزاه لأضرا بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، أما الحيوان فكان لا يهدأ ولايقر ما دام يجد ضوء النهاروكانت البهائم لاتمسك عن الرعى فيؤول أمرها إلى تلفها، وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق، وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضًا لكان معوقًا لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف فى طلب المعاش، وتجمد الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذى يحدث على النبات إذا كان الموضع لاتقع الشمس عليه.

باب فى حكمة خلق القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

اعلم وفقك الله أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد الهواء وهدوء الحيوان وسكونه، فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لاضياء فيها البتة فكان لا يمكن أن يعمل عملاً فيه. وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم فى الليل إما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من

النهار، وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من الأسباب، فكان ضوءالقمر فى الليل من جملة ما نحتاج إليه فى المعونة على ذلك فجعل طلوعه فى بعض الليالى، وينقص نوره عن نورالشمس وحرها لئلا ينشط الناس فى العمل نشاطهم فى النهار فينعدم ما به يتمتعون من الهدوء والقرار فيضر ذلك بهم،وجعل فى الكواكب جزء من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء القمر، وجعل فى الكواكب زينة السماء وأنسًا وانشراحًا لأهل الأرض شيئًا ما ألطف هذا التدبير، وجعل الظلمة دولة ومدة للحاجة إليها. وجعل خلالها شيئًا من النور ليكمل به ما أحتيج إليه، ثم فى القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من اللّه، ثم فى النجوم مآرب أُخرى فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة والاهتداء بها فى السفر فى البر والبحر وأشياء مما يحدث من الأنواء والحروالبرد، وبها يهتدى السارون فى ظلمة الليل وقطع القفار الموحشة واللجج المائلة كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧]. مع ما فى ترددها فى السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة، فى تصريف القمر خاصة فى استهلاله ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه. كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لإصلاح العالم، ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب فى كل يوم وليلة دورانًا سريعًا وسيرها معلوم مشاهد فإنا نشاهدهاطالعة وغاربة، ولولا سرعة سيرها لماقطعت هذه المسافة البعيدة فى أربعة وعشرون ساعة، فلولا تدبير البارى سبحانه بارتفاعها حتى خفى عنا شدة مسيرهافى فلكها لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركتهاكالذى يحدث أحيانًامن البروق إذا توالت فى الجو، فانظر لطف البارى سبحانه فى تقدير سيرها فى البعد البعيد لكيلا يحدث من سيرها حادث لايحتمل فهى مقدرة فى جميع الأحوال على قدر الحاجة، وانظر فى هذه التى تظهر فى بعض السنة وتحتجب فى بعضها مثل الثريا والجوزاء والشعرى، فإنها لو كانت كلها تظهرفى وقت واحدلم يكن لشئ منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها، فكان فى طلوع بعضها فى وقت دون الآخر ما يدل على ماينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحهم، ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لاتغيب لضرب من المصلحة فإنها بمنزلة الأعلام التى يهتدى بها الناس للطرق المجهولة فى البروالبحر فإنها لاتغيب ولا تتوارى. ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التى تكون من تنقلات المتنقلة منها ومصيرهافى كل واحد من البروج كما يستدل على أشياء تحدث فى العالم بتنقل الشمس والقمر فى منازلهما ولو كانت متنقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه إنمايعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها فى البروج الدانية، كما يعرف سير سائر على الأرض بالمنازل التى يجتاز عليها، فقد صار

هذا الفلك شمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على هذا العالم بهذا دورانًا دائمًا فى الفصول الأربعة من السنة لصـلاح مافيه من حيـوان ونبات وغير ذلك بتقـدير العزيز العليم، ومن عظيم الحكمة خلق الأفـلاك التى بها ثبات هذا العـالم على نهاية من الإتقان لطول البـقاء وعدم التـغير، فقـد كفى الناس التغـير فى هذا الأمر الجليل الذى ليس قـدرة ولا حيلة فى إصـلاحه لو نزل به تغـيـر يوجب ذلك التغـيـر أمـرًا فى الأرض. إذ قوام الأرض مـرتبط بالسمـاء، فالأمر فى جمـيع ذلك ماض على قدرة البـارى سبحانه لا يخـتل ولا يعتل ولا يتخلف منه شىء عن مـيقاته لصلاح العـالم، فسبحـان العليم القدير.

باب فى حكمة خلق الأرض

قال تعـالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]. ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهادًا ليستقر عليها الحيوان، فإنه لا بدَّ له من مستقرولاغنى له عن قوت فجـميع الأرض محل للنبـات لقوته، ومسكن يسكنه من الحـر والبرد، ومدفن يدفن فـيه ماتؤذى رائحـته، والجيف والأقذار من أجـسام بنى آدم وغيرها، كـما قال سبـحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦]. قيل فى تفسـير هذه الآية هذا القول وغيـره، ثم ذلل طرقها لتنتقل فيهـا الخلق لطلب مآربهم فهى موضوعـة لبقاء النسل من جميع أصناف الحـيوان والحرث والنبات، وجعل فيـها الاستقرار والثبات كـما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣١-٣٣]. فأمكن الخلائق بهذا السفر فيها فى مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والانتقال لأعمالهم، فإنها لو كـانت رجراجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئًا من النبات وجميع الصناعات وكانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم، واعتبرذلك بما يصيب الناس فى الزلازل ترهيبًا للخلق وتخويفًا لهم لعلهم يتقون الله وينزعون عن الظلم والعصيان، فهذا أيضًا من الحكمة البالغة ثم إن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص. أرأيت لوأفرط اليبس عليهاحتى تكون بجملتها حجرًا صلدًا لما كانت تنبت هذا النبات الذى به حياة الحيوانات، ولاكان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعل لينها لتتهيأ لهذه الأعمـال، ومن الحكمة فى خلقها ووضـعها أن جعل مهب الشـمال أرفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الأرض فـيسقيها ويرويهـاثم يصير إلى البحر فى آخر الأمـر، فأشبه ذلك ما إذا رفع أحدجـانبى السطح وخفض الآخر لينحـدر الماء عنه، ولولا ذلك لبقى الماء مستبحرًا على وجه الأرض فيمتنع الناس من أعمالهم وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك. انظر إلى ماخلق الله فيهـا من المعادن وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفـة فى منافعها

وألوانها مثل الذهب والفضة والياقوت والزمرد والبسنفش وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة فى ألوانها وأنواع أخرمما يصلح للأعمال والجمال كالحديد والنحاس والقصدير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا والرخام والجبس والنفط وأنواع لو عددت لطال ذكرهاوهو مما لا ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم. فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار. ثم انظر إلى إرادة إجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها يجعلها هشة سهلة بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال فلو يبست كذلك لتعذرت، فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخو الأرض لزراعة الأقوات والثمر، وإلا فلا يتعدى - إذا صلبت - الماء إلى الحب مع أن الحب لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ويأخذ الورق وهى ضعيفة فى ابتدائها فى الأرض التربة. ويمكن إذ ذلك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق ملتبسةبالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه وجعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع، ومن رحمته فى لينها أن يسَّر للناس حفر الآبار فى المواضع المحتاجة إلى ذلك إذ لو حفرت فى الجبال لصعب الأمر وشق، ومن الحكمة فى لينها تيسير السير للسعادة فيها إذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق، وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا**﴾ [الملك: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣١]. ومن ذلك مايستعين به العبادمن ترابهاولينها فى البناء وعمل اللبن وأوانى الفخار وغير ذلك، والمواضع التى ينبت فيها الملح والشب والبورق والكبريت أكثر تربة رخوة. وأيضًا أجناس من النبات لايوجد إلا فى التراب والرمل دون الأرض المحيلة ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب وبيوتًا يؤوى إليها، ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكرنا، فقد امتن سبحانه على سليمان ﷺ بقوله: ﴿**وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ**﴾ [سبأ: ١٢]. أى سهلنا له الانتفاع بالنحاس وأطلعناه على معدنه وقال امتنانًا على عباده: ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾ [الحديد: ٢٥]. والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه: ﴿**وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ**﴾ [الزمر: ٦]. أى خلق، والهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتاجون إليه فى معاشهم وفى اتخاذ أوانيهم، وفى ضبطها ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أوانى لحفظ ما يحصل فيها من الأمور النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج إليها إذ لاغنى لهم عنها، وكذلك يستخرج من المعادن الأكحال مثل: (الدهبخ والمرفنعنا) والسادن والتوتيا وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم. ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال. قال الله تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا**﴾

[النازعات: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]. وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعدده لا يحيط بجميعها إلا الله، فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليحيى بها العباد والبلاد، فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخو الأرض، فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة، فجعل سبحانه الجبال لتستقر فى بطونها المياه ويخرج أولاً فأولاً فتكون منها عيون وأنهار وبحار يرتوى بها العباد فى أيام القيظ إلى أوان نزول غيث السماء، ومن الجبال ما ليس فى باطنها محل للمياه، فجعل الثلج محفوظًا على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس فيكون منه أنهار وسواق ينتفع بها إلى أوان الغيث أيضًا.

ومنها مايكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به، ومن منافع الجبال ما يثبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التى لا توجد إلا فيها، ومايثبت من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن، وفيها الشعارى التى لايوجد ما يعظم من الأخشاب إلا فيها، وكذلك العقاقير أكثرها لا يوجد إلا بها، وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام ومزارع لبنى آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل ، ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى، وقد ذكر الله ذلك فقال: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]. ومن فوائدها أن جعلت أعلامًا يستدل بها المسافرون على الطرقات فى نواحى الأرض. ويستدل بها المسافرون فى البحار على المين والسواحل، ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لاتطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك، وانظركيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير منصوص ولم يجعل ذلك ميسراً فى الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة فى المياه وما ذلك إلا لما سبق فى علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. فسبحان العليم الحكيم.

باب فى حكمة البحر

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]. اعلم رحمك الله: أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها. فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التى هى قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى أن جميع المكشوف من البرارى والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء

كربوة صغيرة فى بحر عظيم. فاعلم أن ماخلق فى الأرض من الحيوان بالإضافة إلى ما خلق فى البحر كإضافة الأرض إلى البحر، وقد شاهدت عجائب فيها ما هو مكشوف منها، فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة، ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر. ظن من يراها أنها حشاف وجبال أوجزائر، وما من صنف من أصناف حيوان البرمن إنسان وطائر وفرس وبقر وغير ذلك إلا وفى البحر أمثالها وأضعافها، وفيه أجناس من الحيوانات لم تعهد أمثالها فى البر، وكل منها قد دبره البارى سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه، ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لاحتاج إلى وضع مجلدات، ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً فى صدف تحت الماء وأثبت المرجان فى جنح صخور فى البحر. فقال سبحانه: ﴿**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**﴾ [الرحمن: ٢٢]. وذلك فى معرض الامتنان، وقيل: المرجان المذكورفى القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ، ثم قال: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرحمن: ٢٣]. وآلاؤه تفضله ونعمه، ثم انظر ما يقذفه من العنبر وغيره من المنفوع، ثم انظر إلى عجائب السفن وكيف مسكنها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل ما لهم من الأعراض وجعلها من آياته ونعمته. فقال: ﴿**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**﴾ [البقرة: ١٦٤]. فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم وينتقلون بها من إقليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن، ولو راموا التوصيل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات إلى ما بعد البلاد والجهات فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم خلق الأخشاب متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما يحمل به الأثقال وألهم العباد اتخاذها سفنًا. ثم أرسل الرياح بمقادير فى أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع آخر. ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التى تحملها شراعها، وانظر إلى ما يسره سبحانه فى خلق الماء، إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاءكأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطع حتى كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه، فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله فى هذا كله، وفى بعضه متسع للفكر. وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل متضافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها، معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته، قائلة: أماترى تصويرى وتركيبى وصفاتى زمنًا واختلاف حالى وكثرة فوائدى؟ أيظن ذو لب سليم وعقل رصين أنى تلونت بنفسى أو أبدعنى أحد من جنسى؟ بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار.

باب فى حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنبياء: ٣٠]وقال سبحانه: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

انظر وفقك االله إلى ما منَّ به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذى به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها جميع ما يمكنه من خزائن الدنيا، والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة، وانظرمع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها، ولو جعلها بقدر لضاق الأمرفيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا ، ثم انظرلطافة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ويخلخل أجزاءها فتتغذى عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالى الشجر والنبات وهو من طبعه الهبوط، ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربة لإماعة الأغذية فى أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء إلى موضعه جعله لشاربه فى شربه لذة عند حاجته إليه وقبول له ويجد شاربه فيه نعيمًا وراحة، وجعل مزيلاً للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب وغيرها، وبالماء يبل التراب فيصلح للبناء والأعمال، وبه يرطب كل يابس مما لايمكن استعماله يابسًا، وبه ترق الأشربة فيسوغ شربها،وبه تطفأ عاذبة النار إذا وقعت فيها فلا تلتهب فيه وأشرف الناس منها على ما يكرهون وبه تزول الغصة إذا أشرف صاحبها على الموت، وبه يغتسل التعب الكل فيجد الراحة لوقته، وبه تستقيم المطبوخات وجميع الأشياء التى لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة إلى غير ذلك من مآرب العباد التى لا غنى لهم عنها، فانظر فى عموم هذه النعمة وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرتها مع شدة الحاجة إليها. فلو ضاقت لكدرت الحياة فى الدنيا، فعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن إلى غير ذلك من المنافع التى يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها، فسبحان المتفضل العظيم.

باب الحكمة فى خلق الهواء

قال الله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

اعلم رحمك الله أن الهواء فى حلقه تتخلخله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع

حيوان البر، وباستنشاقه تعتدل الحرارة فى أجسام جميع الحيوانات لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر. فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التى فيها إلى قلبها فكان هلاكها بسبب ذلك، ثم انظر إلى الحكمة فى سوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب فى موضع يحتاج إلى المطر فيها للزراعة، فلولا لطف البارى بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة فى أماكنها وامتنع انتفاع الأرض بها، ثم انظر كيف تسير بها السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها، فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء إلا بمواضعها التى خلقت فيها خاصة، ولعسر نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم، وللعباد ضرورات تدعو إلى ما ينقل إليهم مما ليس يخلق عندهم، ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يجلبها ويعلم فوائدها. ثم انظر إلى ما فى الهواء من اللطافة والحركة التى تتخلل أجزاء العالم فينقى بحركته عفن الأرض، فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل، ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع فى نقل السوافى والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستر وجوه جبال بالسافى فيمكن الزراعة فيه وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه، وكل ذلك بحركة البحر بالهواء فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد فى أمورهم. ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه، ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه، فانظر إلى أثر رحمة الله، فسبحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه، ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٠، ١١]. ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم، فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً. ألا ترى إلى الأمطار إذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضراوات وهدمت المساكن والبيوت وقطعت السبل ومنعت من الأسفار وكثيرمن الحرف والصناعات ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات، وعفن الماء الذى فى العيون والأودية، فأضر ذلك بالعباد. وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض، وغلبت بسببه الأسعار من الأقوات، وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التى يرعاها على الأزهار، وإذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر فصلحت الأشياء واستقامت، وهذا هو الغالب من مشيئة الله.

فإن قيل: قد يقع من أحدهما ضرر فى بعض الأوقات. قلنا: قد يكون ذلك لتنبيه الإنسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته أنه هو الغالب فيحصل لهم بتلك لنزجار عن الظلم والعصيان، ألا ترى من سقم جسمه احتاج إلى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح جسمه ويصح ما فسد منه. قال الله تعالى: ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

باب فى حكمة خلق النار

قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٤]

اعلم وفقنا الله وإياك: أن الله خلق النار، وهى من أعظم النعم على عباده، ولما علم سبحانه وتعالى. أن كثرتها وبثها فى العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت فى كل أمر يحتاج إليها فيه، فهى مخزونة فى الأجسام، ومنافعها كثيرة لا تحصى. فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التى لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط، ولا صحة هضم لمن يستعملها فى أكل وشرب. فانظر لطف البارى سبحانه فى هذا الأمر المهم ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير وغير ذلك، فلولاها لم يكن شىء من الانتفاع من هذه الأشياء، فبها يذاب النحاس فتعمل منه الأوانى وغيرها. وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر. فقال تعالى﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]. وبه يلين الحديد فيعملون به أنواعًا من المنافع والآلات للحروب مثل الدروع والسيوف إلى غير ذلك مما يطول تعداده، وقد نبه الله تعالى على مثل هذا، فقال ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. :وقال تعالى: ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار، وآلات يطرق بها، وآلات لقطع الجبال الصمة، وآلات لنجارة الأخشاب ممايكثر تعدادها. فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شىء من المنافع ، ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة، وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة، ثم انظر إلى ماجعل الله تعالى فى النار من الفرح والترح عندما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها ويهتدون بنورها فى جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقد، ورؤية ما يؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها برًا وبحرًا فيجدون

بوجودها أنسًا حتى كأن الشمس لم تغب عن أفـقهم، ويدفعون بهـا ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستـعينون بها فى الحروب ومقـاومة حصون لا تملك إلا بها، فـانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التى جعل سبحانه حكمها بأيديهم إن شاءوا خزنوها وإن شاءوا أبرزوها.

باب فى حكمة خلق الإنسان

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. إلى آخر ما وصفه سبحانه.

اعلم وفقك الله تعالى أن الله عزّ وجل لما سـبق فى علمه خلق الخلق وبثهم فى هذه الدار، وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار. خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض، فخلق سبحانه الذكـر والأنثى وألقى فى قلوبهم المحبة والدواعى حتى عجزوا عن الصـبر وعدموا الحيلة فى اجتناب الشهوة. فساقتـهم الشهوة المفطورة فى خلقهم إلى الاجتماع وجعل الفكرة تحرك عضوًا مخصوصًا به إلى إيداع الماء فى القرار المكين الذى يخلق فيه الجنين، فاجتمعت فيـه النطفة من سائر البدن وخـرجت ماء دافقًا منـدفعًا من بين الصلب والترائب بحـركة مخصوصة، فانتقلت بسـبب الإفلاج من باطن إلى باطن. فكانت مع انتقالها على أصلها، لأنها ماء مهين أدنى شىء يباشرها يفـسدها ويغير مزاجها، فهى ماء يختلط جمـيعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فـيها بحال، فخلق سـبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقـلها من النطفة إلى العلقـة إلى المضغة إلى العظـام، ثم كساها اللحم وشـدها بالأعصـاب والأوتار ونسجـها بالعروق، وخلق الأعضـاء وركبها فدور سبـحانه الرأس وشق فيها السـمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ. فجعل العين للبصر، ومن العجائب سركونها مبصرة للأشياء، وهو أمر يعجز عن شرح سره ، وركبها من سبع طبقات لكل طبـقة صفة وهيئة مخصوصة بها، فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الإبصار، وانظر إلى هيئة الأشفار التى تحيط بها وما خلق فيهـا من سرعة الحركة لتقـى العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبـار وغيره ،فكانت الأشفار بمنزلة باب يفـتح وقت الحاجة ويغلق فى غير وقت، ولما كان المقـصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا تنقص نقصًا يضر بها، وخلق فى مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيهـا ، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلاً لينصرف ما يقع فى العين لأحد الجانبين، وجعل الحاجبين جمالاً للوجه وسترًا للعينين وشعرهما يشبه الأهداب فى عدم الزيادة المشـوهه، وجعل شعر الرأس واللحية قابلاً للزيادة والنقص، فيفعل فيـهما ما يقصد به الجمال من غيـر تشويه، ثم انظر إلى الفم واللسان وما فى ذلك من الحكم،فجـعل الشفتين سـترًا للفم كـأنها باب يغلق وقت ارتفاع الحـاجة إلى

فتحه، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال، فلولاهما لتشوهت الخلق، وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما فى ضمير الإنسان وتقليب الطعام وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه، ويسهل ابتلاعه، ثم جعل الأسنان أعدادًا متفرقة ولم تكن عظمًا واحدًا، فإن أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقى، وجمع فيها بين النفع والجمال، وجعل ما كان منها معكوسًا زائد الشعب حتى تطول مدته مع الصف الذى تحته، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام، وفى الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء، فإن المضغ هو الهضم الأول ، وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجمالاً للفم فأحكم أصولها، وحدد ضروسها، وبيض لونها مع حمرة ما حولها ، متساوية الرءوس متناسبة التركيب، كأنها الدر المنظوم، ثم انظر كيف خلق فى الفم نداوة محبوسة لا تظهر إلا فى وقت الحاجة إليها، فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويهًا للإنسان، فجعلت ليبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم. فإذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التى خلقت للترطيب، وبقى منها ما يبل اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجف، فإن جفافه مهلك للإنسان، ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه، إذ جعل للآكل لذة الأكل فجعل الذوق فى اللسان وغيره من أجزاء الفم ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ فيجد فى ذلك راحة فى الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى تناوله وليجتنب الشئ الذى لا يوافقه، ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه فى الحرارة والبرودة، ثم إن الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضرر الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون السمع، وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فترده إلى صماخها. وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيرها، وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت، ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم، ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء، وذلك، سر لا يعلم حقيقته إلا البارى سبحانه إلى غير ذلك، ثم انظر كيف رفع الأنف فى وسط الوجه، فأحسن شكله، وفتح منخريه، وجعل فيها حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه، وليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب القذرة، وليستنشق أيضًا روح الحياة غذاءً لقلبه وترويحًا لحرارة باطنه، ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الأصوات، ودور اللسان فى الحركات والتقطيعات، فينقطع الصوت فى مجارى مختلفة تختلف بها الحروف ليشع طرق النطق ، وجعل الحنجرة مختلف الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلف بسبب ذلك الأصوات. فلم يتشابه صوتان، كما خلق بين كل صورتين اختلافًا فلم تشتبه

صورتان، بل يظهر بين كل صورتين فرقان، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت، وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان، وذلك لسر التعارف فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما ، فخلق منهما خلقًا جعله مخالفًا لخلق أبيه وأمه، ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف ثم انظر لخلق اليدين تهديان إلى جلب المقاصد ودفع المضار وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس، وقسم الأصابع بأنامل، وجعل الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب آخر فيدور الإبهام على الجميع، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بدقة االفكر وجهًا آخرعن وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربعة، وتفاوت الأربعة فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا على ذلك، وبهذا الوضع صلح بها القبض والإعطاء. فإن بسطها كانت طبقًا يضع عليه مايريد ، وإن جمعها كانت آلة يضرب بها، وإن ضمها ضمًا غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة، ثم خلق الأظافر على رءوسها زينة للأنامل وعمادًا لها من ورائها حتى لا تضعف بها ويلتقط الأشياء الدقيقة التى لا تتناولها الأنامل لولاها، وليحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك ، فانظر أقل الأشياء فى جسمه لو عدمها وظهرت به حكة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه، وجلب ما ينتفع به فى ذلك ولم يقم له غير الظفر مقامه فى حك جسده، لأنه مخلوق لذلك ولغيره فهو لا صلب كصلابة العظام ولا رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك، ثم جعله يهتدى به إلى الحك فى حالة نومه ويقظته ويقصد المواضع إلى جهتها من جسده، ولو احتاج إلى غيره واستعان به فى حكمها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول وتعب، ثم انظر كيف مد منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعى ، وزين القدمين بالأصابع، وجعلها زينة وقوة على السعي، وزين الأصابع أيضًا بالأظافر وقواها بها، ثم انظر كيف خلق هذا كله من نطفة مهينة، ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجسامًا قوية صلبة لتكون قوامًا للبدن وعمادًا له، وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة، فمنهاصغير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت عريض ودقيق، ثم أودع فى أنابيب هذه العظام المخ الرقيق مصونًا لمصلحتها وتقويتها ولما كان الإنسان محتاجًا إلى جملة جسمه ، وبعض أعضائه لتردده فى حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظمًا واحدًا بل عظامًا كثيرة، وبينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منهاعلى قدر وفق الحركة المطلوبة بها.

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أثبتها بأحد طرفى العظم وألصق الطرف الآخر كالرباط، ثم خلق أحد طرفى العظم زوائد خارجية منها، ومن الآخرة

نقراً غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق، فصار الإنسان إذا أراد أن يحرك شيئًا من جسده دون غيره لم يمتنع عليه، فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك، ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مركبًا من خمسة وخمسين عظمًا مختلفة الأشكال والصور، وألف بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى، فمنها ستة تختص بالقحف، وأربعة وعشرون للحى الأعلى، واثنان للحى الأسفل، والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن، وبعضها حاد يصلح للقطع، ثم جعل الرقبة مركز الرأس، فركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها، ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ووصل به من أسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، فجملة عدد العظام فى بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظمًا سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل، فانظر كيف خلق البارى سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة ، والمقصود من ذكر أعدادها تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالاً، واحتاج الإنسان إلى قلعه ولو نقص منها واحد لاحتاج الإنسان إلى جبره فجعل سبحانه وتعالى فى هذا الخلق عبرة لأولى الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها.

ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهى العضلات. فخلق فى بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة ،والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهى مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجتها. فأربعة وعشرون منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه، وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين ومنابتها وسعتها، فأعجب من هذا وشرحه يطول، ثم عجائب ما فيه من المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم، ثم انظر إلى ما شرف به وخص فى خلقه بأنه خلق ينتصب قائمًا ويستوى جالسًا ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل ولم يخلق مكبوبًا على وجهه كعدة من الحيوانات،إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال، ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهر الإنسان وباطنه فتجده مصنوعًا صنعة بحكمة تقضى منها العجب، وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء، والغذاء منوال عليها لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها ، بل يقف عندها ولا يزيد عليها، فإنها لو تزايدت بتوالى الغذاء

عليها لعظمت أبدان بنى آدم وثقلت عن الحركة، وعطلت عن الصناعات اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها، ومن اللباس كذلك، ومن المساكن مثل ذلك، وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقًا بخلقه، فإذا وجدت هذا كله صنعه الله تعالى من قطرة ماء، فما ظنك بصنعته فى ملكوت السموات والأرض وشمسها وقمرها وكواكبها وماحكمته فى أقدارها وأشكالها وأعدادها وأوضاعها واجتماع بعضها، وافتراق بعضها، واختلاف صورها، وتفاوت مشارقها ومغاربها . فلا تظن أن ذرة فى السموات والأرض وسائر علم الله ينفك عن حكم، بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها إلا الله سبحانه وتعالى. ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]. إلى آخر ما نبه به، وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعًا وبصرًا وحياة لم يقدروا على ذلك، فانظر كيف خلقها سبحانه فى الأرحام، وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدرها فأحسن تقديرها، وصورها فأحسن تصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها، ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها وباطنها، وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سببًا لبقائها مدة حياتها.

ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص، فجعل المعدة لنضج الغذاء عصبًا معينًا شديدًا لحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه، وجعل طحن الأضراس أولاً معينًا للمعدة على جودة طحنه وهضمه وجعل الكبد لإحالة الغذاء إلى الدم فيجتذب منه كل عضو من الغذاء ما يناسبه، فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب، وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره، وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال لجذب السوداء، والمرارة لجذب الصفراء، والكلية المائية عنه والمثانة لقبول الماء عن الكلية، ثم يخرجه فى مجرى الإحليل والعروق والكبد فى اتصال الدم منه إلى سائر أطراف البدن، وجعل جوهرها أتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فهى بمنزلة الظروف والأوعية، ثم انظر كيف دبره فى الرحم ولطف به ألطافًا يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها إلا خالقها ويعجز الواصف عن وصف ما وصل إليه نظره من ذلك، فمن ذلك جعله فيهما لا يحتاج إلى استدعاء، ولا يحتاج المولود إلى ما يبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه، بل ذلك فى الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الإغاثة فى غذائه، ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء، فحينئذ أنبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده.

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج إلى حين كماله وبلوغه، وانظر وفكر فى سر كونه يولد جاهلاً غير ذى عقل وفهم، فإنه لو كان ولدًا عاقلاً فيهما لأنكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل. إذ رأى ما لا يعرف، وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله، ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً وموضوعًا معصبًا بالخرق ومُسجى فى المهد مع كونه لايستغنى عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد، ثم كان لا يوجد له من الرقة له والحلاوة والمحبة فى القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه، فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به. أفلا يرى كيف أقام كل شىء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب وأعلمه تقلب الخطأ فى دقيقه وجليله، ثم انظر فيما إذا اشتد خلق فيه طريقًا وسببًا للتناسل وخلق فى وجهه شعرًا ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمله ويستر به غضون وجهه عند شيخوخته، وإن كانت أنثى أبقى وجهها نقيًا من الشعر لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما فى ذلك من بقاء النسل.

فكر الآن فيما ذكرناه ودبره سبحانه فى هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهلاً، أرأيت لو لم يجر له الدم غذاء وهو فى الرحم ألم يكن يذوى ويهلك ويجف كما يجف النبات إذا انقطع عنه الماء. ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله، ألم يكن يهلك ببقائه فى الرحم هو وأمه؟ ولو لم يوافه اللبن عند ولادته، ألم يكن يموت جوعًا وعطشًا أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه؟ ولو لم يخلق له الأسنان فى وقتها، ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه؟ ولو لم يخرج شعر الوجه لبقى فى هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيبة لا جلالة ولا وقارًا، ومن ذا الذى يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب فى وقتها إلا الذى أنشأه بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا وتفضل عليه ومنّ عليه بكل هذه النعم.

فكر فى شهوة الجماع الداعية لإحيائه، والآلة الموصلة إلى الرحم النطفة والحركة الموجبة لاستخراج النطفة وما فى ذلك من التدبير المحكم، ثم فكر فى جملة أعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للأرب الذى أريد منها فالعينان للاهتداء بالنظر، واليدان للعلاج والحذف والدفع والرجلان للسعى، والمعدة لهضم الطعام، والكبد للتخليص والتمييز، والفم للكلام ودخول الكلام ودخول الغذاء، والمنافذ لدفع الفضلات. وإذا تأملت كذلك مع سائر ما فى الإنسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب فكر فى وصول الغذاء إلى المعدة حتى ينضجه ويبعث صفوه إلى الكبد فى عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء، ولكيلا يصل إلى الكبد منه شىء غليظ خشن فينكؤها فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغث

فتقلبه بإذن الله دمًا وتنفذ إلى سائر البدن في مجارمهيأة لذلك فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى معابض وأعضاء أعدت لذلك كما ذكرنا قبل هذا، فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتقسمه.

ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئًا لا معنى له. هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان، فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها، هل كان في الألوان منفعة؟ ولو لم يكن لخلق الأبصار، نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر؟ وهل خلق السمع إلا ليدرك الأصوات؟ فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة، وكذلك سائر الحواس، فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها: منها الضياء والهواء، فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها البصر، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت.

فكِّر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل فإنه لا ينظر أن يضع قدمه ولا يدري ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان ولا يدري بهجوم آفة أو عدو ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات، وأما من عدم السمع فإنه من يفقد روح المخاطبة والمحاضرة ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة وتعظم المؤونة على من يخاطبه حتى ينصرم منه ولا يسمع شيئًا من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد، وكالميت وهو حي، وأما من عدم العقل فهو أشر من البهائم، فانظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الأوصاف التي بها صلاح الإنسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده، وإذا فقد شيئًا اختل أمره وعظم مصابه، ومن بلى بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ولينال بصبره على ذلك حظًا في الآخرة، فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع.

ثم فكر في الأعضاء التي خلقت أفرادًا وأزواجًا، وما في ذلك من الحكمة والصواب، فالرأس مما خلق فردًا، وإن كثيرًا من الحواس قد حواها رأس واحد ولو زاد عليه شيء كان ثقلاً لا يحتاج إليه، فإن كان قسمين فإن تكلم واحدهما بقي الآخر معطلاً لا حاجة إليه، وإن تكلم منهما جميعًا بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج إليها، وإن تكلم من أحدهما بخلاف ما يتكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك، وأما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحًا، واليدان خلقتا أزواجًا ولم يكن للإنسان خير في أن يكون يلم بيد واحدة لاختلال ما يعالجه من الأمور، فإنك ترى من شلت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص، وأن يكلف بشئ لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة.

فكر فى تهيئة آلات الصوت، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لإصاغة الحروف والقم. ألا ترى أن من سقطت أسنانه أوأكثرها كيف يحصل الخلل فى كلامه، ثم انظر إلى ما فى الحنجرة من المنفعة لسلوك التسيم منها إلى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع، وما فى اللسان من تقليب الطعام وإعانته على تسويغ الطعام والشراب، وما فى الأسنان من المعونة أيضًا ، ثم هى كالمسند للشفتين تمسكهما وتدعهما من داخل الفم، وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الإنسان، ثم هما على القم كالباب.

فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه من المآرب وضروب من المصالح إن زاد أفسد وإن نقص أفسد، فذلك تقدير العزيز العليم. فكر فى الدماغ إذا كشف عنه فإنك تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض وأطبقت عليه الجمجمةوالشعر ستر لها وجمال ولتبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك فحصن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه معهم ،وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس، ثم انظر كيف غيب الفؤاد فى جوف الصدر وكساه المدرعة التى هى غشاؤه وأتقنها وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وأن ذلك اللائق به، ثم انظر كيف جعل فى الحلق منفذين: أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة والآخر للغذاء وهو المرئ الواصل إلى المعدة، وجعل على الحلقوم طبقًا يمنع الطعام أن يصل إليه، ثم جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تفتر ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة فى القلب فتؤدى إلى التلف، ثم ملأ الجو هواءً لهذه المصلحة ولغيرها، ثم انظر كيف جعل منافذ البول والغائط أسراحًا يضبطها لكى لا يجرى جريانًا دائمًا فيفسد على الإنسان عيشته، ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيرًا كثيفًا ليقى الإنسان من ألم الجلوس على الأرض كما يألم من الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل.

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخيًا أبدًا كيف يصل الماء إلى موضع الخلق ولو كان منعظًا أبدًا كيف يكون حاله فى تصرفاته وهو كذلك؟ بل جعله مستورًا كأنه لم تخلق له شهوة، ثم انظر أليس أنه من حسن التدبير فى البناء أن يكون الخلاء فى أستر موضع فى الدار ، فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الإنسان فى أستر موضع من جسده مغيب فيه تلتقى عليه فخداه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره، وذلك مخصوص بالإنسان لشرفه، ثم انظر فى خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان، وفى تقصيرهما مصلحة جعلا عديمى الحس حتى لا ينال الإنسان ألم عند التزيين بقصهما، ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين: إما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه، أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته، ثم تفكر فى

الشعور لو نبتت فى العين لأعمت البصر، أو فى الفم لنغصت الأكل والشرب، أو فى راحة الكف لنفدت لذة اللمس وبعض الأعمال، أو فى الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها. فسبحان المدبر المنعم بهذه النعم.

• فانظر كيف تصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر ثم فيما جبل عليه الإنسان من الاحتياج إلى المطعم والنوم والجماع ومافى ذلك من التدبير المحكم. فقد جعل فى طبعه محركًا يقتضيه ويستحثه. فالجوع والعطش يقتضى طلب الطعام الذى به حياته، وكذلك الشراب الذى به قوامه والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى، والشبق يقتضى الجماع الذى به دوام النسل وبقاؤه، فلو كان الإنسان إنما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة إليه ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه لاشتغل بأسباب ضرورته فينحل قواه ويهلك كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه، وفيه صلاحه وليس فى جبلته داعية له فيدافع عن تناوله فيمرض أويموت فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب. وكذلك لو كان إقدامه على الجماع إنما هو لرغبة حصول الولد لانقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة. فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد. انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب. فصار البدن بما فيه بمنزلة دار للملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ماء لهم، وآخر لقبض ما يرد خزنه إلى أن يعالج ويهيأ، وآخرلإصلاح ذلك وتهيئته وإصلاحه أخص مما قبل، وآخر لكسح ما فى الدار من الأقذار وإخراجه، فالملك فى هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه . والدار هى البدن، والحشم هى الأعضاء، والقوم فى هذه القوى الأربع التى هى النفس وموقعها من الإنسان بمعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك. أرأيت لو نقص من الإنسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف يكون حاله، وكان لا يحفظ ما له وما عليه وما أصدر وماأورد وما أعطى وما أخذ وما رأى وماسمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أساء له ولا من نفعه ممن ضره. وكان لا يهتدى لطريق ولو سلكه، ولا لعلم ولو درسه، ولا ينتفع بتحريره ، ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى، فانظر إلى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها، فكيف جميعها وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان. فلولا النسيان ما سلا الإنسان عن مصيبة فكان لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد ولا يستمتع بشئ من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع المغضبات، وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة ولا ذهولاً من حاسد أو قاصد مضرة فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان، وجعل للإنسان فى كل منهما ضروبًا من المصالح.

ثم انظر إلى ماخصه به دون غيره من الحيوان من الحياء ، فلولاه لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يُقْر الضيف ولم يثمر الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى أن كثيرًا من الأمور الواجبة، إنما تفعل لسبب الحياء من الناس، فترد الأمانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما، ويعف عن فعل الفواحش إلى غير ذلك من أجل الحياء، فانظرما أعظم موقع هذه النعمة فى هذه الصفة، وانظر ما أنعم الله به من النطق الذى يميز به عنه البهائم فيعبر بما فى ضميره ويفهم عن غيره ما فى نفسه ، وكذلك نعمة الكتابة التى تفيد أخبار الماضين للباقين، وأخبار الباقين للآتين، وبها تخلد فى الكتب والعلوم والآداب، ويعلم الناس ذكر ما يجرى بينهم فى الحساب والمعاملات، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس فى أمورهم بسبب عدمها.

فإن قلت: إن الكلام والكتابة مكتسبة للإنسان وليست بأمر طبيعى، ولذلك تختلف الخطوط بين عربى وهندى ورومى إلى غير ذلك وكذلك الكلام هو شىء يصطلح عليه، فلذلك اختلف .

قلنا: ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة والذهن والفكر الذى يهتدى به ليس بفعل الإنسان، ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبدًا، فسبحان المنعم عليه بذلك، وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعى فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبدًا ، فسبحان المنعم عليه بذلك.

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها، وما خلق فيه من الحسد فبه يسعى فى جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالاعتدال فى هذين الأمرين، فإن جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين، بل يجب أن يقتصر فى حالة الغضب على دفع الضرر، وفى الحسد على الغبطة وهى إرادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره، ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضًا صلاحه، فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة، فإن الخلق أول ما يخلق ضعيف فلولا أنه يجد آثار قوم أحلوا وعمروا لم يكن له محل يأوى إليه ولا آلة ينتفع بها، فكان الأمل سببًا لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين، وهكذا يتوارث إلى يوم الدين، ومنع الإنسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة، فإنه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهن الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك، ولو علمها وكانت طويلة لانهمك فى الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عما يؤديه إلى إتلافه فكان فى جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت، ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوات.

ثم انظرإلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها، وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها، وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها، ونقود وجواهر يقتنيها ويصل بها إلى أغراضه ويجدها فى مهماته، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته، وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها، وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم، فانظر ماذا ركب الله فيه من العجائب. ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد فى تملك ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم الفقير من الغنى، فيكون ذلك سببًا لعمارة هذه الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم فى غالب الأحوال. فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبى فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالاً عليه، وكم عسى أن يعد العاد من الحكم واللطائف التى يقصد بها قوام العالم وعبادته إلى الأجل المعلوم وهى مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عد، ولا يعلم منتهى حقائقها وإحصاء جملتها إلا الحكيم العليم الذى وسعت رحمته وعلمه كل شىء وأحصى كل شىء عددًا.

خاتمة لهذا الباب

اعلم أن البارى سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمى وكرمه، فقال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذى تنبه به على البهجة وألحقه بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة بارئه ومبدعه بالنظر فى مخلوقاته واستدلالاً له على معرفة صفاته بما أودعه فى نفسه من حكمة وأمانة، قال الله العظيم: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ٢١].

فكان نظره فى نفسه، وفيما أودع البارى سبحانه فيه من العقل الذى يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود بارئه ومدبره وخالقه ومصوره، فإنه ينظر فى العقل كيف فيه التدبير وفنون العلم ومستمر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضر، وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصًا ولا يسمع له حسًا ولا يحس له مجلسًا ولا يشم له ريحًا ولا يدرك له صورة ولا طعمًا، وهو مع ذلك آمر ومطاع زيادة وراج ومفكر ومشاهد الغيوب ومتوهم للأمور اتسع له ما ضاق عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها وأرضه وما

تحتها، حتى كأنه شاهد أبين من رأى العين فهو موضع الحكمة ومعدن العلم كلما ازداد علمًا ازداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك فلا يكاد أن يميز بين الهمة بالحركة، وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق. وإن كانت الهمة قبل وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفة وهيئه أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذى وصفه للعلم به، ومقر بالجهل بنفسه وهومع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير، ويفرق بين دقائق الصنع، وتجرى الأمور على اختلافها، فدل جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصور مدبر مقهور، لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينساه فيذكره، ويريد أن يسر فيحزن، ويريد أن يغفل فيذكر، ويريد أن يتنبه ويتيقظ فيسهو ويغفل دلالة على أنه مغلوب مقهور وهو مع ما علم جاهل بحقائق ماعلم، ومع ما دبر لايدرى كم مدى مبلغ صوته ولا كيف خروجه ولا كيف اتساق حروف كلامه، ولا كم مدى مبلغ نظره، ولا كيف ركب نوره ولا كيف أدرك الأشخاص، ولا كم قدر قوته ولا كيف تركبت إرادته وهمته؟ فاستدل بعلمه وجسده عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عز وجل، ثم إنه خلق فى الإنسان الهوى موافقًا لطباعه فإن استعمل نور العقل فيما أمر به ورد مورد السلامة وفاز غدًا بدار الكرامة، وإن استعمله فى أغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب، وهو الآلة له فى عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها فى ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة فى كل أمة زمان، واستحسان ما يحسن فى عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد، فانظر ما شرف هذا الإنسان أن خلق فيه ما يفيده هذه المعارف، فإن الأوانى تشرف بشرف ما يوضع فيها، ولما كانت قلوب العباد هى محل للمعرفة بالله سبحانه وتعالى شرفت بذلك، ولما سبق فى علم البارئ سبحانه وإرادته وحكمته بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار ولم يجعل فى قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار، بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذى وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم، فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته، فمدهم بالوحى وهيأهم لقبوله وتلقيه، فكانت أنوار ما جاء الوحى من عند الله بالنسبة إلى نور العقل كالشمس بالإضافة إلى نور النجم، فدلوا العباد على مصالح دنياهم فيما لا تستقل بإدراكه عقولهم وأرشدوهم إلى مصالح أخراهم التى لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم، وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاءوا به ما أوجب الإذعان والانقياد لصدق أخبارهم، فتمت بذلك

نعمة الله على عباده، وظهرت كرامته وثبت حجته عليهم، فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهرت منهم هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون لهذه الزيادات الفاضلة، ثم تضافرت أنواع الشرائع التي هي كالشمس، وأنوار العقول التي هي كالنجم. فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى، وشقاوة من كذب ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على الإنسان بأن خصه برؤيا يراها في منامه أو في عينه كشبه المنام يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه وهي مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه، كل ذلك مواهب وكرامات من وجود الله سبحانه، وجعل الله استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سببًا لصدقها في غالب الأمر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها، وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها وأطلع على بعض الأمور منها من شاء.

باب في حكمة الطير

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]. اعلم رحمك الله: أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران ولم يخلق فيه ما يثقله، وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه، فقسم لكل عضو منه ما يناسبه ، فإن كان رخوًا أويابسًا أو بين ذلك انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به، فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه، وجعل جلد ساقيه غليظًا متقنًا جدًا ليستغني به عن الريش في الحر والبرد، وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه في رعيه، وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر بباله وتلويثه فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصًا للطيران، وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره وكثيرًا ما يعان بطول المنقار أيضًا مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة، ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه، وخلق صدره ودائره ملفوفًا مربيًا على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق في الهواء بغير كلفة وكذلك رءوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران وجعل لكل جنس من الطير منقارًا يناسب رعيه ويصلح لما يتغذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك، فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر، وما قوته اللحم، ومنه عرض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقًا

محكمًا، ومنه معتدل اللقط وآكل الخضـر، ومنه طويل المنقار للحصر وجعله صلبًا شديدًا شبه العظم وفيـه ليونة ما هى فى العظم لكثرة الحاجة إلى استعـماله وهو مقام الأسنان فى غير الطير من الحيوان، وقوى سبحانه أصل الريش، وجـعله قصبًا منسوبًا فيما يناسبه من الجلد الصلب فى الأجنحة لأجل كثرة الطيران، ولأن حركة الطـيران قوية فهو محتاج إلى الإتقان لأجل الريش، وجـعل ريشه وقاية ممـا يضره من حر أوبرد ومـعونة متـخللة الهواء للطيران وخص الأجنحة بأقوى الريش وأنبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه، وجعل فى سائر بدنه ريشًا غيره كسوة ووقاية وجمالاً له وثبت أصل جميعه لأنه جبيرته وجمله ، وجعل فى ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه. فـإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فـيعود إلى خـفته، وجـعل له منفذًا واحـدًا للولادة وخروج فـضلاته لأجل خفته، وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته فى طيرانه، فلولاه لما مالت به الأجنحة فى حال الطيـران يمينًا وشمالاً. فكان له بمنزلة رجل السـفينة الذى يعدل بها سـيرها وخلق فى طباعه الحذر وقاية لسلامته:

ولما كان طعامه يبتلعه بلعًا بلا مضغ جـعل لبعضه منقارًا صلبًا يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمديه، وصار يزدرد ما يأكله صحيحًا وأعين بفضل حرارة فى جوفه تطحن الطعام طحنًـا يستغنى به عن المضغ وثـقل الأسنان، واعتبـر ذلك بحب العنب وغيـره فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحًـا وينسحق فى أجواف الطير، ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عـن الطيران، فإنه لو خلقت فى جوفـه حتى يكمل خلقها لثقـل بها. وتعوق عن النهوض للطيران، أفلا ترى كـيف دبر كل شىء من خلقه بما يليق به من الحكمة. انظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على بيـضه فيحضنه مدة الحضانة، من ألهـمه أن يلتقط الحب، فإذا مـاع فى باطنه غذى بـه أفراخـه وهذا نوع من الطيـر، ثم انظرمع هذا كـيف احتـمل هذه المشقة، وليست له رؤية ولا فكر فى عاقبـة، ولا له أمل يأمله فى أفراخه كما يأمل الإنسان فى ولده من **العز والرفد** وبقاء الذكر. **فهل** هذا قطعًا **إلا إلهام إلهى من فعل الله** سبحانه.

انظركيف ألـهم معرفـة حمل الأنثى منه بالبـيض، فألهـموا حينئـذ حمل الحـشيش وتوطئته فى موضع التحضين والولادة لتكون الرطـوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظًا **فى المهاد الذى يمهدونه ويستحسنونه فى حال تحضينه.**

انظر إلى الحمام كيف ألهم مـعرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضـينه للبيض حتى يكتشف عن الفرخ ويخرجه، **وإن اتفـق فى البيض فساد بسبب عرق قام وتركـه، ثم انظر إلهامه بما** يزق به فرخه فإنه **أولاً** يزقه **بالريح** لتستعد حوصلته **لقبول** ما يوضع فيها. **ثم بعد ذلك يزقه** من أول هضم ، **ثم إذا ماع الغذاء فى حوصلته يزقـه به حتى يدرجه يفعل مرارًا حتى يولى**

حوصلته، فإنه لو أرسله إليه حبًا صحيحًا لعجز عن هضمه لضعف جسده، فانظر إن كان هذا من فعل الطير وحكمته، ثم انظرعند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به، ومن الطير مما يخلق على هيئة أُخرى لحكمة أُخرى ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر فى نوع واحد، بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشئ، وذلك أن الدجاج ما فيهم أهلية الزق، بل جعلت أفراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة، ثم انظر فى الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علمًا بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم، ثم انظر إلى خلق البيضة وما فيها من الحكم لله ففيها المح الأصفر الخابر والماء الأبيض الرقيق فبعضه لينشأ منه جسده. وبعضه يغتذى به إلى أن تنشق عنه، وما فى ذلك من التدبير المحكم العجيب، وكيف جعل معه غذاءه فى بيضة مغلقة تنتقى به إلى حين كماله فيها وخروجه منها، ثم انظر فى حوصلة الطائر وما فى حلقها من التدبير فإن مسلك طعامه إلى القانصة ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلاً قليلاً، فلو كان لا يلتقط حبه حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه مايؤذيه، فصار ما يحتكره احتراسًا لشدة حذره، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليؤدى فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ثم ينفذ إلى القانصة على مهل، وفيها حكمة أُخرى، فإن الطيرالذى يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه، ثم تأمل ريش الطائر فإنك تجده منسوجًا نسج الثوب من سلوك رقاق، وفيها من اليبس ما يمسك ما حولها، ومن اللين ما لاينكسر معه وهى حاوية، قد ألف بعضها إلى بعض، كتأليف الخيط إلى الخيط والشعر إلى الشعر، ثم تجده إذا فتحته أعنى النسيج ينفتح قليلاً، ولا ينشق ليدخله الريح فتثقله عن طيرانه، وتجد فى وسط الريشة عمودًا غليظًا يابسًا مثبتًا قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته، فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء وهى مع صلابته مجوفة ليخف عليه طيرانه.

انظر إلى الطائرالطويل الساقين والحكمة فى طولهما أنه يرعى أكثر رعيه فى صحصاح كأنه فوقه مراقب يتأمل ما يدب فى الماء، فإذا رأى شيئًا من حاجة خطا خطواً رفيقًا حتى يتناوله، فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه.

انظر إلى العصافير وغيرها فإنها تطلب رزقها فى طول نهارها فلا هى تفقده ولا هى تجده مجموعًا محله، وهو أمرجار على سنة الله فى خلقه، فإن صلاحهم فى السعى فى طلب الرزق، فإن الطير لو وجده مسيرًا أكب عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلئ فيثقل عن

الطيران ولا يستطيع رده أعنى قـذفه من بطنه مثل طير الماء الكبير فـإنه يأكل السمك، فإذا امتـلأ منه وأزعجه مـزعج تقايأه حتى يخف للـطيران. وكذلك الناس أيضًـا لو وجدوه بلا سعى لتفرغوا إفراغًا يوقعهم فى غاية الفساد.

انظر إلى هذه الأصناف من الطير التى لاتخرج إلا ليلاً مـثل البوم والهام والخفاش. فإن عيشهـا يتيسر فى الجو، وكالبعـوض والفراش وشبهه فإنها منبثـة فى هذا الجو، فجعل عيشه فى موضع أقرب إليه من الأرض، ولعل نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض بدليل أنه لا يظهرفى نورالشمس إلا مختـفيًا، فألهم أن يعيش فى الجـو من الفراش وغيره، انظر إلى الخفاش لما خلـق بغير ريش كيف خلق له مـا يقوم مقامه وجـعل له فم وأسنان وكل ما فى البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وأقدره على الطيـران. فأظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقصر على ما خـلق له الريش ولا تنحصر فى نوع واحد، لأنه خلق هذا النوع، وخلق من السمك جنسًا يطير على وجه البحر مسافة طويلة، ثم ينزل الماء فسبحان القاضى العليم.

انظر إلى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحـضانة، فإذا احتاج أحدهما إلى قوته ناب الآخر إلى آخر وقت الحضانة، ثم ألهمـهما الحرص على الحضانة فلا يطيلان الغيبة علـى البيض إذا خرجا لنيل القوت حتى أنهـما يجتمع فى أجوافهمـا البراز للحرص على الرقاد، فإذا اضطر إلى خـروج البراز أخرجه دفعة واحـدة. ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبـيض ويقرب أوان وضعـها كيف يطردها وينقـرها، ولا يدعها تستـقر خارجًـا عن الوكر خشيـة أن تضع البيض فى غيـر الموضع المهيأ لوضعـه. انظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها ما دامت محتاجة إلى الزق حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها، ثم انظر ما خلق الله تعالى فى الكواسر من شدة الـطيران حتى لا يسبق له من يطلبه، ومن قوة المخلب وجدته فى المنقـار والأظفار، فكأن مخلبها مدية للقطع، وكـأن مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى يصل ما يحتاجه من قوتها.

انظر إلى طير الماء لما جعل قوته فى الماء كيف جعل فيـه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه، فجعل سبحـانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به فى تحصيل قوته.

باب فى حكمة خلق البهائم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل: ٨].

اعلم وفقك الله وإيانا: أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتنانًا عليهم كما نبهت على

ذلك هذه الآية، فخلقهـا الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعـصب شديد وعروق شداد، وضم بعضهـا إلى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبةكصـلابة الحجارة، وجعل ذلك تجلداً اشتمل على أبدانها كلهـا لتضبطها وتتقنها لأنها أريد منهـا القوة للعمل والحمل ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الإنسان حاجته، لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الإنسان ولاوصل بها إلى شيء من مآربه، ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتذل للإنسان فلا تمتنع عليـه إذا أكدَّها عند حاجته إلى إكدادها فى الطحن وحـمل الأثقال عليها إلى غير ذلك.

وقد علم الله أن بالناس حـاجة إلى أعمـالهم وهم لا يطيقـون أعمالهـا ولا يقدرون عليها، ولو كلف العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصـناعات والمهن التى يخصـون بعملها وخلقـتهم قابلـة لها ولا غنى لهم عنهاوتحصـيل الفضائل من العلوم والآداب، ولكان ذلك مع إتعابه لأبدانهـم يضيق عليهم معائشهم .فكان قضاؤه على هذا وتسـخيرها لهم من النعم العظيمة، انظر فى خلق أصناف من الحيوان وتهييئها لما فـيه صلاح كل صنف منها، فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوى علاج للصناعات واكتساب العلوم وسائر الفضائـل ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير ذلك خلقت لهم العقول والأذهان والفكر، وخلقت لهم الأكف ذوات الأصابع ليتمكنوا من القبض على الأشـياء ومحـاولات الصناعات. وآكلات اللحم لما قـدر أن يكون عيشـها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب. وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صـيد، خلقت لبعضها أظلاف كفتـها خشونة الأرض إذا جالت فى طلب المرعى ولبعضهـا حوافر مستديرة ذات قعر كـأخمص القدمين لتنطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التـدبير فى خلق آكـلات اللحم من الحيـوان كيف خلقت ذوات أسنـان حداد وأضراس شداد وأفواه واسعة وأعينـت بسلاح وأدوات بذلك ما تطلبه، فإن ذلك كله صالح للصيد، فلو كانت البهائم التى عيشـها النبات ذوات مخالب وأنياب كانت قد أعطيت ما لا تحتـاج إليه، لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحـوم، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كـانت قد منعت ما تحتـاج إليه من السلاح الذى به يصطاد. فانظر كيف أعطى سبـحانه كل واحد من أصناف الحيوان مـايشاكله وما فيه صـلاحه وحياته انظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف تجدها تتبع الأمهات مستـقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يـحتاج الآدميون، إذ لم يجعل فى أمهـاتها ما جعل فى أمـهات البشر من العـقل والعلم والرفق فى أحوال التربيـة والقوة عليها بالفكر والأكف والأصـابع المهيأة لذلك ولغيره، فلذلك أعطيت النهـوض والاستقلال

بأنفسها. ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج يدرج ويلقط عقيب خروجها من البيضة، وما كان منها ضعيفًا لانهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل فى الأمهات عطفًا عليها، فصارت تعين الطعام فى حواصلها، ثم تمجه فى أفواه فراخها ولا يزال كذلك حتى ينهض وتستقل، فكل أعطى من اللطف والحكمة بقسط. فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى قوائم الحيوان كيف ينتقل أزواجًا لتتهيأ للمشى، فلو كانت أفرادًا لم تصلح لذلك، لأن الماشى منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها، فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمدعلى اثنتين، وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه، فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره، ويعتمد الآخرين من خلاف أيضًا فتثبت على الأرض ولا تسقط إذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشى والاعتماد.

أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن، والفرس مردعًا منها، والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى، وينقاد لصبى صغير، والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه، والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة فى الحروب وقاية لراكبها، والقطيع من الغنم يرعاها صبى واحد فلو تفرقت، فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها، وربما أعجزت طالبها، وكذلك جميع الحيوان المسخرللإنسان، وماذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروى. فكان ذلك سببًا لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس، وإن أكدها فى كثير من الأحوال. وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها ودفعها، ولا سيما إذا اشتدت حاجتها فى طلب قوتها ويشتد خللها، ألا يرى إذا أحجمت عن الخلق وصارت فى أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت، لا تظهر ولا تنبعث فى طلب قوتها فى غالب أحوالها إلا ليلاً، فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الإنس، بل هى ممنوعة منهم، ولولا ذلك لساورتهم فى منازلهم وضيقت عليم فى مساكنهم.

ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع كيف سخر فى حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لايصل إلى صاحبه مايؤذيه، ثم إنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه ويألفه حتى يصير معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء، فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان فى الحراسة والاصطياد. ولما جعله البارى سبحانه حارسًا أمده بسلاح، وهى الأنياب والأظفار واللهث القوى ليذعر به السارق والمريب، وليجتنب المواضع التى يحميها.

ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحًا مثبتًا على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة وجعل فرجها بارزًا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها، إذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها، ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحًا كما يأتي الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير، ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل، وذلك من عظيم العبر، ثم انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات، وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفاء، وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره، ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا أكف ولا أصابع تتهيأ للأعمال، كفيت مؤنة ما يضر بها بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدال بها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي، فإنه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال ما يقترحه وله في إشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة، فإنه خلق على قابل لفعل الخير والشر وهو إلى فعل الشر أميل إلى فعل الخير، فجعلت الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه ليشتغل بها عما فيه فساده وهلاك دينه فإنه لو أعطى الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر والبطر، وكان من أعظم الحيوانات فسادًا في الأرض ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لينال به السعادة إلى ما فيه شقاوته، ثم إن الآدمي مكرم يتخير من ضروب الملابس ما شاء، فيلبس منها ما شاء، ويخلع منها ما شاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه، وهذا من باب النعمة عليه والكرامة له بخلاف البهائم فإنها غنية عن هذا كله، انظر فيما ألهم الله البهائم والوحوش في البراري، فإنها توارى أنفسها كما يوارى الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت وإلا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها، فإنك لو طلبت منها شيئًا لم تجده وليست قليلة فيخفى أمرها لقلتها، بل لو قال قائل إنها أكثر من الإنس لم يبعد، لأن الصحاري قد امتلأت من سباع وضباع وبقر وحمير ووعل وإبل وخنازير وذئاب وضروب من الهوام والحشرات وأصناف من الطير وغير ذلك مما لا يحصى عدده، وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى لها رمم موجودة، والذي أجرى الله به عادتها أن تكون في أماكنها، فإذا أحست بالموت أتت إلى موضعها خفية فتموت فيها، فانظر هذا الأمر الذي ألهمت له هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه وشخص لبني آدم بالفكر والتروي.

تأمل الدواب كيف خلق أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطًا ولا تتردى فى حفرة، وإذا قربت من ذلك نفرت منه وأبعدت نفسها عنه وهى جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه، أليس الذى جبلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها لينتفع بها؟ ثم انظر إالى فمها مشوقًا إلى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعى . ولو جعل كفم الإنسان لم تستطع أن تتناول شيئًا من الأرض وأعينت بالجحفلة لتقصم بها ما قرب منها، فألهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لاغذاء لها فيه ولاصلاح، انظر ما كان من البهائم كيف يمز الماء فى شربه مزًا، وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما فى شربها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكًا يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه، فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الإنسان، ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته، وكيف خلق كأنه غطاء فى طرفه شعر، فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ومنها أن ما بين دبرها وطرق بطنها أبدًا يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب والبعوض ويجتمع أيضًا، على مؤخرها، فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها، فصار كأنه مدبة فى يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضرّ بها، ثم إنها تعطف برأسها فتطرد به ما فى مقدمها من الذباب أيضًا ثم إن الدابة أيضًا أعينت بحركة مختصة، وذلك أن الذباب إذا وقع عليها فى مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكًا تطرد به الذباب وغيره عنها. وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين.

ومن الحكمة فيه أيضًا أن الدابة تستريح بتحريكه يمنة ويسرة لأنها لما كان قيامهاعلى أربع اشتغلت يداها أيضًا بالحمل لبدنها والتصرف، فجعل لها فى تحريك ذنبها منفعة وراحة، وأعينت بسرعة حركته حتى لا يطول ألمها بما يعرض لها، ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت فى بركة أو مهواة أو وحلت فى طين أو غيره. فلا تجد شيئًا أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها، ومن ذلك إذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب أو ليسبقها رأسها فتنكب على وجهها، فيكون مسكها بذنبها فى هذه المواضع يعد لها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم.

انظر إلى مشفر الفيل، وما فيه الحكمة والتدبير فإنه يقوم مقام اليد فى تناول العلف وإيصاله إلى فمه، فلولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئًا فى الأرض إذ لم يجعل له عنق يمده كسائر الأنعام، فلما عدم العنق فى هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يمده فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير، انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ومنخرًا يتنفس منه وآله يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه، انظر إلى

خلق الزرافة لما كان منشؤها فى رياض شاهقة خلق لها عنقًا طويلاً لتدرك قوتها من تلك الأشجار.

تأمل فى خلق الثعلب فإنه إذا حفر له بيتًا فى الأرض جعل له فوهتين إحداهما: ينصرف منها، والأخرى: يهرب منها إن طلب ويرفق مواضع فى الأرض فى بيته، فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه فى المواضع التى رفقها، فخرج من خير المنافذ وهى المواضع التى تحتها، انظر ما خلق الله تبارك وتعالى فى جبلته لصيانة نفسه، وجملة القول فى الحيوان: أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق، فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذليل وجعل قوته النبات، وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع قليل الغضب منقادًا منفعلاً على صور يتهيأ منه الحمل، وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول للتعليم ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بآلات قد تقدم ذكرها، ومن جملة ذلك الفيل فإنه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به فى الحمل والحروب، ومنها ما له غضب وشر إلا أنه متأنس بالإنسان لمنفعته كالهرة، ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الإلفة والتأنس، فمن ذلك الحمام يألف موضعه فشغل بسببه فى الإخبار بسرعة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وجعله الله سبحانه وتعالى كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به، ومن ذلك البازى، فإن طباعه تنتقل إلى التأنس، وإن كان فى طبعه مباينًا إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فى القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقى يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد. وما خفى من الحكم فى خلق الله تعالى أكثر مما علم.

باب فى حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت ودود القز والذباب وغير ذلك

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

انظر إلى النمل وما ألهمت له فى احتشادها فى جمع قوتها وتعاونهم على ذلك وإعداده لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حر أو برد، وألهمت فى تقلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها فى ذلك، إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله أو جهد به أعانه آخر فيه، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذى لا يتم إلا بالتعاون، ثم إنها ألهمت حفر بيوت فى الأرض تبتدئ فى ذلك بإخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذى منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض فمن

خلق هذا فى جبلتها إلا الرحمن الرحيم، ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف، ثم إنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفًا من السيل أن يغرقها.

ثم انظر إلى النحل وما ألهمت إليه من العجائب والحكم، فإن البارى سبحانه جعل لها رئيسًا تتبعه وتهتدى به فيما تناوله من أقواتها، فإن ظهر مع الرئيس الذى تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر. وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق، لأنهما إذا كانا أميرين وسلك كل واحد منهما فجًا افترق النحل خلفهما، ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار فيستحيل فى أجوافها عسلاً، فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر سبحانه وتعالى، وفيه غذاء وملاذ للعباد وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بنى آدم. فهى مثل ما يفضل من اللبن الذى خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضل من ذلك، ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس، ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع فى أرجلها لتوعى فيه العسل وتحفظه، فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع فى الأجناح فانظر فى هذه الذبابة: هل فى عقلها وقدرتها جمع الشمع مع العسل أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره فى الشمع وصيانته فى الجبال والشجر فى المواضع التى تحفظه ولا يفسد فيها، ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها، وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها، ولها فى ترتيب بيوتها من الحكمة فى بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل، ولها جهة أُخرى تجعل فيها برازها مباعدًا عن مواضع العسل، وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه.

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة، فإن الله خلق فى جسدها رطوبة تنسج منها بيتًا لتسكنه وشركًا لصيدها فهو مخلوق من جسدها، وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف إلى تقويم جسدها، وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبدًا مثل الشرك وفى ركن الشرك بيتها وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها، وللشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك، فإذا أحست أن شيئًا من ذلك وقع فى شركها خرجت إليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت إلى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات، وإن كانت مستغنية فى ذلك الوقت شكلنه وتركته إلى وقت حاجتها. فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها، فبلغت فى ذلك مايبلغه الإنسان بالفكرة والحيلة، كل ذلك لإصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا.

ثم انظر من العجائب دود القز، وما خلق فيه من الأشياء التى يتحير منها وتذكر الله عند رؤيتها، فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الإنسان ومنافعه، فإن هذا الحيوان الذى

يخلق من جسمه الحرير، وذلك أن صورة البزر تحضن حتى إذا حمى عاد دودًا كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه، فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث إلى غزل نفسه جوزة الحرير، فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة الحرير ويصير هو جسمًا ميتًا لا حياه فيه، ثم انظر فإن البارى سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله فعندما ينتهى من غزل الحرير ويعفى ذلك الجسم يقلبه الله إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أو غيره وهو فى رأى العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى، فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها مثل ذلك البزر الذى حضن أولاً، ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر. فانظر من ألهمها الرعى من ذلك الورق حتى يرتب منه. ومن ألهمها إلى غزل أجسادها حريرًا حتى تفنى فيما غزلته، ومن ربى لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة تمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها، ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع، ثم انظر ما يسره البارى سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بنى آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة. وانظر هذا التسخير العجيب فى هذا الحيوان اللطيف وما أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الاعتبار، وماجعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام الرفات سبحانه لا إله إلا هو العلى العظيم.

ثم انظر الذبابة وما أعينت به فى نيل قوتها، فإنها خلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضر بها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين، فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللذين تليهما، وذلك لرقة أجنحتها، ولأن عينيها لم يخلق لهما الهداب، لأنهما بارزتان عن رأسها، وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببنى آدم وقع عليهم دائمًا وينغص عليه عيشهم ليعرفهم البارى سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم.

تأمل كثيرًا من الحيوان الصغير عندما تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به، ويبقى على ذلك ساعة، ثم يتحرك ويمشي، وهل ذلك إلا لأن مايصطاد إذا دلت هيئته على عدم حياته، فإذا كان شبيها بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة. تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر، ولا يجد فيها موضعًا لأكله، فيصعد بها فى مخالبه حتى إذا أبعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها. فانظر كيف ألهم الطريق فى نيل قوته من غير عقل ولا روية .

انظر إلى الغراب لما كان مكروهًا خلق فى طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كأنه يعلم الغيب فيمن يقصده، وألهم الاحتيال فى إخفاء عشه لصون فراخه وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره، ولذلك قل أن يرى مجتمعًا مع أُنثى، فهذا أبدًا دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير، ومن أرواث الدواب وقت تبرزها، وإذا وجد شيئًا من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتًا آخر، فما خلق هذا فى طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب إلا الله، لأنه لا عقل له ولا روية.

انظر إلى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها وحفظت فى أمر قوتها بقوة بصرها، فإنها ترى ما تقتات به فى الأرض مع علوها فى الجو فتنحط نحوه بسرعة، وألهمت معرفة من هو مقبل، ومن هو مدبر فتخطف ما تخطفه من الناس من ورائهم. ولا تخطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه، وأعينت لما كان غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنها السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه ، فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى الحيوان المسمى حرباء وما فيه من التدبير، فإنه خلق بطيئًا فى نهضته، وكان لا بدَّ له من قوته، فخلق على صورة عجيبة، فخلقت عيناه تدور لكل جهة من غير حركة فى جسده ولا قصد إليه ويبقى جامدًا كأنه ليس من الحيوان، ثم أعطى مع السكون وهو أنه يتشكل فى لون الشجر التى يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها، ثم إذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق، ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة، وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه، فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة، وإذا رأى ما يريعه ويخيفه شكل على هيئة وشكل ينفرد منه من يصطاد من الحيوان ويكرهه. فانظر هذه الأشياء التى خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها.

انظر إلى الحيوان الذى يسمى سبع الذباب وما أعطى من الحيلة والرفق فيما يقتات به، فإنك تجده يحس بالذباب قد وقع قريبًا منه فيركد مليًا حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به، فإذا أحس أن الذباب قد اطمأن دب منه دبيبًا دقيقًا حتى لا ينفره حتى إذا صار قريبًا منه بحيث يناله بوثبه وثب عليه فأخذه، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب فلا يزال قابضًا عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيتغذى منه بما يلائمه فانظر إلى هذه الحيلة من فعله أو هى مخلوقة من أجل رزقه فسبحانه البارئ الحكيم.

انظر إلى الذر والبعوض الذى أوهن الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل فى كتابه، هل تجد فيه نقصًا عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها وبصر تقصد به موضعًا تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها وإخراج فضلته. وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت وهل يمكن أن يكون القوت فى غير محل واحد، وإخراجه فضلته من غير منفذ، ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم، فسواها وقدر أعضاءها واستودعها العلم والمعرفة بمناقعها ومضارها، وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة، فهى بعوضة صغرت فى النظر، ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة، فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها وحسن اعتدال صورتها فى أعضائها لما قدروا على ذلك إلا تظاهرًا لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر، ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دمًا وهو الذى منه غذاؤها، ولولا معرفتها به لم تدم على مصه تطعمه وكيف همتها التى قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذى ألهمها ربها أن فيه غذاءها، وكيف خرق سمعها، وكيف سمعت حس من يقصدها وكيف عرفت أن نجاتها فى الفرار إذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون، ولو جزءوها، ما ازدادوا فى أمرها إلا عمى وبعدًا عن المعرفة، فهذه الحكمة والقدرة فى بعوضة فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا.

باب فى حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤].

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى فى البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال، وما فيه من الآيات البينات، فإنه تعالى لما جعل مسكنه فى الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئه، لأنه لا يتمشى وهو منغمس فى لجة الماء، وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء، وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتتقيه ما يعتدى عليه وما يؤذيه، وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهى القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلدًا غليظًا متقنًا له مقام تلك الكسوة لغيره، وخلق له بصرًا وسمعًا وشمًا ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه.

وانظر كيف أعطى فى قعر البحر ما يناسبه فى نيل القوت والهرب مما يضره، ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره، وجعل أكثر أصنافه يحمل، ولم يجعل الحمل منه

مخصوصًا بالأنثى دون الذكر كحيوان البر، بل جعل الذكر والأنثى جنسًا واحدًا يخلق فى بطونها مرة واحدة فى وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر، فيخلق من جوف واحد عددًا لا يحصى، وذلك من كل برزة حوتًا من الجنس ومن جنس آخر يخلق فى الأنهار وغيرها بغير توالد فيخلق منها أعدادًا لا تنحصر دفعة واحدة، ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى، وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح وماشاكلهما فيتولد منها بيض، فإذا فقَّس البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحد من الجنس، ولما علم الله سبحانه وتعالى أن السمك فى البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره ألقى الروح فى بزر جميعه عندما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاج من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر إلى أحد فى كمال خلقه، فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لم يمكن حضانته فى البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جعله مستقلاً بنفسه مستغنيًا عن ذلك كله، ثم إن الله سبحانه كثره، لأن منه قوت جنسه وقوتًا لبنى آدم والطير فلذلك كان كثيرًا، ثم انظر إلى سرعة حركته وإن لم تكن له آلة كغيره من الحيوان وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه،وكيف يعتدل بذلك فى سيره كما تعتدل السفينة برجلها فى سيرها، وخلقت أرياشه ألواحًا من جانبيه ليعتدل بهما أيضًا فى سيره فهو بمنزلة المركب، وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمد يبنى عليها، ففى كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو، فهو كإنشاء المركب يمتد العظم الجافى الذى هو قوته ويخرج من أضلاع إلى مراقى البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه. وانظر إلى ما كان منه كاسرًا كيف أعين على نيل قوته لصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى أنه لكثر أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ.

انظر إلى ما خلق الله فى البحر ضعيفًا قليل الحركة مثل أصناف الصدف والحلزون كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذى هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه، وجعل له بيتًا وسكنًا، وجعل ما يولى جسده ناعمًا أنعم ما يكون، وربما ضر ببيت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة، وأصناف منه خلقت فى محائز مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها، فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطى، وجعل لها أسبابًا تلتصق بها فى الجبل فلايستطاع إخراجها إلا بغاية الجهد وجعل لها قوتًا من رطوبة الجبل تتأتى حياتها بذلك.

وأما الحلزون الذى بيته كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه يرعى، فإذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه فى بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة فانظر هذا اللطف وأن الله لم يهمل شيئًا.واعلم أن الله حافظ لما فى البحار وما فى الآكام والجبال. فتبارك الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

وانظر إلى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجًا فى الأعماق، وخلق الله فى جوفه صبغًا كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضلة غذائه كما يخلق اللبن فى الضرع، فإذا أحس ما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه، ثم يذهب فى الماء الذى تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغيير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح أُخرى لا يعلمها إلا خالقها. انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش ينتقل بها من موضع إلى موضع فى الهواء من وجه الماء يظهر لمن لايعرف ذلك أنه من طيور البر. انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيرًا ما يكون فى الأنهار، وجعل الله فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه يد من يأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب، فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله فى خلق واحد لامتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور فى كل نوع تنبيه يشير إلى أمرعظيم.

باب في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

انظر وفقك الله وسددك إلى ماعلى وجه الأرض من النبات وما فى نظره من النعم فى حسن منظره وبهجته ونضارته التى لا يعد لها شىء من مناظر الأرض، ثم انظر إلى جعل البارئ فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التى لا تحصي، وخلق فيه الحب والنوى مخلوقًا لحفظ أنواع النبات، وجعل الثمار للغذاء والتفكه والإتيان منها للعلف والرعى، والحطب للوقود، والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن ولغير ذلك من الأعمال التى يطول تعدادها، والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح لا تحصى . أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ولم يكن تنبت على هذا السوق الحاملة لها ما كان يحصل من الخلل فى عدم الأخشاب والحطب والإتيان بالعلف وسائر المنافع، وإن وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها. ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل، والحكمة فى زيادتها وبركتها حصول الاقتيات وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات، وذلك فى المثال كملك أراد عمارة بلدة فأعطى أهلها من البذر ما يبذرونه وفضلة يتقوتون بها إلى إدراك زرعهم، فهذه هى الحكمة التى أعم الله بها البلاد وأصلح بها العباد، وكذلك الشجر

والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون الحبة الواحدة الشئ العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه فى مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف .

تأمل فى هذه الحبوب فإنها تخرج فى أوعية تشبه الخرائط لتصونها إلى أن تشتد وتستحكم كما تغلق البشيمة على الجنين، فأما البزر وما أشبه من الحبوب، فإنه يخرج من قشور صلبة على رءوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير. فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها،وإن كان يناله منها قوته إلا أن حاجة الآدمى أشد وأولى. تأمل الحكمة فى خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تتبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة فى الأرض لتجذت الماء من الأرض، فتتغذى بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار، فصارت الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها. ألم ترى إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصته فلا يسقط ولا يميل، فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة فى الأرض ممتدة إلى كل جانب وتمسكه وتقيمه، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية، لاسيما فى الرياح العاصفة. فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس فى أعمالهم بحكمة الله فى مصنوعاته، وتأمل خلق الورق فإنك ترى فى الورقة شبه العروق مبثوثة، فمنها غلاظ ممتدة فى طولها وعرضها، منها دقائق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجًا دقيقًا عجيبًا، لو كان مما يصنع بأيدى البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا فى مدة طويلة، وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج. فانظر كيف يخرج منه فى المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة إلا قدرة البارئ وإرادته وحكمه، ثم انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة وهى بمنزلة العروق المبثوثة فى بدن الإنسان لتوصيل الغذاء إلى كل عضو منه، وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا ينتهك ويتمزق.

ثم انظر إلى العجم والنوى والعلة فيه، فإنه جعل فى جوف الثمرة ليقوم مقامه إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب، فصار ذلك كالشئ النفيس الذى يخزن فى مواضع شتى لعظم الحاجة إليه، فإن حدث على الذى فى بعض المواضع من حادث وجد منه فى موضع آخر، ثم فى صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها، ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها، وفى بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل فى مصالح. ثم انظر إلى خلق الله

تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة والهيئة التى تخرج عليها، وما فى ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع للعباد، ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب،كالمودع فى الماء الذى يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه.

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة وخلقت فى ظاهره قشرة حتى أنه بسبب ذلك إن سقط فى تراب أو غيره لا يفسد سريعًا، وإذا ادخر لوقت الزراعة بقى محفوظًا، فصار قشره الخارج حافظًا لما فى باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه، وعندما يوضع فى الأرض ويسقى يخرج منه عرق فى النوى وغصن فى الهواء، وكما ازداد غصنًا ازداد عرقًا تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهى كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار بالنقل أوبغيره ويصعد الماء فى جذورها إلى أعالى الشجرة فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق، فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة فى الأوراق لاتصال الغذاء إلى جوانب الورق ما يليق بغذائها، وللثمار غذاء صالح لها، وللأقماع واللحا والأزهار غذاءصالح لكل من ذلك ما يليق به ويصلحه، فهو كذلك حتى يكمل فى الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها، ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقًا لخروج الثمار لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء، فكانت الأوراق ساترة لها، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب البارئ سبحانه الأشجار والثمار والأزهار، وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح. فأشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير. وألوانها ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط،وطعومها ما بين حلو وحامض ومز وتفه ومر، وروائحها إلى عطرات لذيذات مختلفات، وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدور ويكشف للمتأمل منه كل مستور. فانظر ما أودع البارئ سبحانه فيها من السر عند النظر إليها، فإنها تجلى عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها، وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير. فمنها ما تقوى به القلوب، ومنها أغذية تحفظ الحياة، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها،وخلق فيها بزورًا لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها. انظر وتأمل ما فى قوله عز وجل: ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ**﴾ [المؤمنون : ٢٠]. فأخرج سبحانه فيما

بين الحجر والماء زيتًا صافيًا لذيذًا نافعًا كما أخرج اللبن من بين فرث ودم، ومن أخرج من النخل شرابًا عسلاً مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس، ولو جمعت هذه الأشياء فى مستقر لكانت مثل الأنهار وكل ذلك لمنافع العباد. فانظر ما فيه من العبرة لذوى الأفكار، ثم انظر إلى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة، وكيف قسم البارئ فى غذاء النخلة، فقسّم للجذر ما يصلح لها وللجريد، وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها، وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة فى أول أمرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة فى غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء، فشق عنها غلافها على التدريج، وهو الذى كان حافظًا لها، فيصير يفترق شيئًا بعد شيء على قدر ما تحتمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكتمل قوتها، فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلقاها من حر وبرد، ثم تراها فى النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة منها فيلتذ حينئذٍ بأكلها ويمكن الانتفاع بادخارها، وتصرف فى المآرب التى هيئت لها، واعتبر ذلك فى جميع الأشجار، فإنك ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذى فهم ولب، فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير، فإنك ترى فيها شحمًا مركومًا فى نواصيها غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال فى تلوينه أو البناء الذى وسع أسفله للاستقرار ورقق أعلاه حتى صار مرصوفًا رصفًا كأنه منضد بالأيدى، بل تعجز الأيدى عن ذلك التداحل الذى نظم حبها فى الشحم المذكور، وتراه مقسومًا أقسامًا، وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقى بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية، وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله، ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفًا بغير حواجز لم يمد بعضه بعضًا فى الغذاء، فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء، ألا ترى أصول الحب كيف هى مركوزة فى ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها، وإلى حبة حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لا تكدر على الأقل ولا تعرف بها، ثم انظر ما يصير من الحلاوة فى الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة، ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه على الاضطراب وتحفظه، ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات، فإن هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو ما بين غذاء ودواء وتدعو الحاجة إليه فى غير زمانه الذى يجنى فيه من شجرة فحفظ على هذه الصفة لذلك.

انظر إلى عود الرمانة الذى هى متعلقة به كيف خلق مثبتًا متقنًا حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج إليها وهى من الثمرة المختصة بالإنسان دون غيره من

الحيوان. انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير، فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقًا ريانًا ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به جعل ما ينبت به منبسطًا على وجه الأرض، فلو كان منتصبًا قائمًا كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غاياتها، فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقي بمدها. وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن تناولها، فهي له معونة عند الحاجة إليها ولو أتت في زمان البرد لنفرت النفوس عنها ولأضرت بأكثر من يأكلها.

ثم انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح خلق فيها الذكر الذى تحتاج إليه لذلك حتى صار الذكر في النخل كأنه الذكر في الحيوان، وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع. ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة، فواحد يفور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة، وآخر لإخراج المرة السوداء، وآخر للبلغم، وآخر للصفراء، وآخر لتصريف الريح، وآخر لشد البطن في الطبيعة، وآخر للإسهال، وآخر للقيء، وآخر لروائحه، وآخر للمرضى والضعفاء، وكل ذلك من الماء، فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير.

باب ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

قال الله العظيم: ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ [الإسراء: ٤٤]

وقال تعالى: ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ** ﴾ [الشورى: ٥]

وقال تعالى: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** ﴾ [الرعد: ١٣].

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات، وبراهين واضحة، ودلائل دالات على جلال بارئها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته، فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه، ثم إنك إذا نظرت إلى مستقرك وهي الأرض وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات، وما أحيط بها من بحار زاخرات، وما جرى فيها من الأنهار، وما انبث فيها من أصناف النباتات والأشجار، وما بث فيها من

الدواب إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب، ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها، وعلمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها، ثم إذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الحق العظيم إلى السماء وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة فى أرض فلاة وما ذكره النظار من أن الشمس فى قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفًا وستين جزءًا، وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة، ثم إنك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السموات وهى مركوزة فيها، ففكر فى السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها، ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك فى حدقة عينك مع صغرها، وبهذا تعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه، ولأجل البعد ترى هذه النيرات صغيرة فى رأى العين، ثم انظر إلى عظم حركتها وأنت لا تحس بها ولا تدركها لبعدها، ثم إنك لا تشك أن الفلك يسير فى لحظة قدر الأرض مائةمرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك، ثم فكر فى عظم قدر هذه الأشياء، واسمع قسم الرب سبحانه بها فى مواضع من الكتاب العزيزفقال عز وجل: ﴿والسماء ذات البروج﴾ [البروج: ١]. ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣].

وقال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦].

إلى غير ذلك من الآى، ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم العلوى من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم، وما أخبر به جبريل عليه السلام النبى ﷺ عن إسرافيل عليه السَّلام، يقول جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل، وإن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه لفى تخوم الأرض السفلى، وأعظم من هذا كله قوله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم، فارفع نظرك إلى البارىء العظيم واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم، وعلى جلاله وقدرته وعلمه، ونفوذ مشيئته وإتقان حكمته فى بريته، وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته، فمن نظر فى ملكوت السموات والأرض ونظر ذلك بعقله ولبه، استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره، وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل، وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر فى عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقينًا وإذعانًا لبارئه وتعظيمًا، ثم الخلق فى ذلك متفاوتون، فكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية. وأعظم شىء موصل إلى هذه الفوائد المشارإليها تلاوة الكتاب العزيز، وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه.

فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله، ثم انظر وتأمل ما نشير إليه، فإنك علمت على الجملة أن رسول الله ﷺ أسرى به إلى أن بلغ المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى. واطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة والأولى. ودنا من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدنى. فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى ثم أمر بأن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. علمك بمعرفته ومنَّ عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته. وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده إنه ولى ذلك.



معراج السالكين

فاتحة معراج السالكين

اللهم إنا نحمدك ونشكرك معتقدين فيك أنك لا ترتاح إلى الشكر ارتياح ذوى الحاجات لكن النفوس المؤيدة تأبى إلا الشكر لمنعمها. سبحانك أيها الرب الرحيم حلمت مع نفوذ علمك وأمهلت مع شدة بطشك ولم تمنع الرزق من جاهر بعصيانك. تعاليت أنت القريب الظاهر الأول الآخر لا تستفزك سطوة العبيد وأنت أقرب إليهم من حبل الوريد.

ونسألك اللهم صلاة زاكية مباركة على نبى الرحمة ومنقذ هذه الأمة، محمد عبدك الدال عليك والهادى إليك.

إخوانى نصحت لكم فهل تحبون الناصحين وتحريت رشدكم فهل على إلا البلاغ المبين وما تغنى النصيحة. وقد عم الداء ومرض الأطباء واستشفى بغير الشفاء واعتيض من البصر بالعمى. وخبثت القلوب ورين عليها. وعطلت البصائر ونسب التقصير إليها. واتخذت آيات الله هزوًا ولعبًا. وصيرت أغراض الآجلة إلى العاجلة سببًا فلا موقظ من غفلة، ولا زاجر عن زلة:

مَرْضَى عن الخيرات فى بحر الردى
غَرْقَى فلا داعٍ لنهج أقْوَامِ

شغفوا بكل رذيلة مذمومة
صرفت وجوههم لوجه الدرهم

ناموا عن المقصود لم يستيقظوا
ستكون يقظتهم لخطب أعظم

فنعوذ بالله أن نكون ممن رغب عن طريق هو لها سالك، وقال هلكَ الناس وهو فى جملتهم هالك.

اعلم أيها الأخ أن الباعث على إسعافك فى مطلوبك غرضان مهمان. ولما اقتصرت فى طلبك على موافقتهما ودارت رغبتك على تحصيل حقيقة مقصودهما. واقتصرت همتك من بين العلوم على العلوم الإلهية وزعمت أن مقصودك طلب الخلاص من شر الاعتقادات الفاسدة، والهرب من الآراء المجانية للحق المعاندة. رأيت تقديم التنبيه على الغرضين المذكورين لنستوجب العذر فيما انتدبنا إليه، وليكون ذلك المهم الأكبر الذى نبهنا عليه.

الغرض الأول: أيها الأخ ما شاهدناه من فساد الزمان وأخذه فى الازدياد وكثرة الآراء

وفساد الاعتقاد، وعدم ذابٍّ يبذل فيها الاجتهاد، ويمرها على كف الانتقاد، ولولا سياسة الملوك لعمت الخافقين ظلمها، ولرسخ فى كل الأقطار قدمها ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً. ويبقى رسمًا كان إبقاؤه عليه وعدًا مسئولاً. ولكن تعاقب الزمان وطرو الحوادث وكثرة الصوارف وفتور الهمم داعية إلى الفساد، والداء يزداد كل يوم أغذية السوء كالذنوب فرأيت إبراز هذه النبذ لتكون مغنية للسائلين ومعينة للساكلين ومنفعة باقية فى الآخرين.

والأهم من هذا الغرض التنبيه على غوائل الآراء البشعة التى استهوت عقول أكثر الناس وهم فى ازدياد من هذا الفن، وهو سبب فتور الشرائع وهو عند الأنبياء على مر الأيام والنفوس مولعة بكل غريب لم تألفه وغامض لم تعهده فلا يسلم الغمز الجاهل من الوقوع فيه والفطن المتباطىء عن الاغترار بما يظهر من مبادئه.

وقد كثرت ترهات هذه الطائفة لعلتين:

إحداهما: الزهد فى الرد عليهم.

والثانية: بدار الجهال بمجادلة الرد على ما قرر لديهم كمقابلتهم بإنكار علوم التعاليم الأربعة من الهندسة والحساب والمنطق ومعرفة المواكب وثبوتها. وهى مقدمات علومهم وعنوان كلامهم وعنصر براهينهم ولم يحكموا فيما حاولوا شيئًا كإحكامهم لها. والمنطق على مر الأيام وكر الدهور ينقحونه ويهذبونه إلى زمان أفلاطون فزاد ترتيبًا وميز فيه السفسطة من الجدل. وحذا حذوه تلميذه أرسطو فرتب صناعة البرهان. وهذب الكتب الثمانية. وكذلك علم الهيئة والهندسة استخرجوهما من السندهند كتاب أيضًا تعاقبته الأيام وهو الذى يحصل منه الهندسة والهيئة فلا معنى لمناكرتهم فى كليات هذه التعاليم، فليطالبوا بتصحيح مسائلها الجزئية واستعمالها وتصحيح الأشكال والمقدمات فى العلم الإلهى فإنهم تساهلوا فيها ولم يستعملوها البتة فهناك موضع المضايقة، وأما إنكار كون الأرض كرية وأخذها المكان الأوسط من الفلك وارتفاع الأقاليم وانخفاضها وتحقيق الجهات والآفاق والكسوفات فلا معنى لإنكار ذلك ومناظرتهم فى إبطاله، فهذا أحد الغرضين وتحته تنبيه على المواضع التى نتكلم على اختلافهم فيها ونورد ذلك متفرقًا فى الكتاب إن شاء الله تعالى.

الغرض الثانى: أن الحق لا يعرف قدره وحده ما لم يعرف نقيضه وضده فبضدها تتميز الأشياء ومقصدها التنبيه على الطريق الأسلم، والصراط الأقوم. ولا بدّ من ذكر الطريق المنحطة عنه لينصف فى ذلك الناظر فى هذا الكتاب فيعلم أنا لم ننتدب لضئيل ولا أضربنا عن سيرة الأوائل فى سكوتهم إلا لخطب جليل. ولنضيف ذلك إلى الغرض الثانى فيتضح لديه العذر وليعرف مقدار النعمة فيطلبها بالشكر فنقول الناطقون بكلمة الشهادة سبع فرق.

الفرقة الأولى: طائفة نطقوا بالشهادتين من غير التفات إلى ما تنطوى عليه من المعنى ولا احتفاء بالوظائف كأجلاف الأعراب والأعاجم لكنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً. فلهم حكم المشيئة وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿**قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ [الحجرات: ١٤] والسيف عند هؤلاء أصدق أنباء من الكتب، وهو أحد ما يساسون به.

الفرقة الثانية: طائفة نطقت بكلمتى الشهادة تقليدًا مأخوذًا من الآباء والأمهات والمعلمين لكنهم مقبلون على وظائف الشرع، فهؤلاء هم المسلمون على الحقيقة، ولهم تقدمة على الفرقة الأولى وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية.

وبقوله سبحانه: ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ [لقمان: ٢٢] الآية.

الفرقة الثالثة: قوم اعتقدوا الشريعة وصدقوا ولم يقتصروا على درجة المسلمين، بل استعملوا النظر والاستدلال وذبوا عن حرم الدين، وهؤلاء أكثر المتكلمين من أهل السنة وأصحاب الحديث وهم المؤمنون المسلمون، فهم أخص إذ الإسلام أعم. وقد فصل ﷺ بين الإسلام والإيمان فى حديث السائل وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ [الأنفال: ٤].

الفرقة الرابعة: فرقة ترقوا عن هذه الطريقة إلى درجة اليقين والثلج، فإن التصديق منقسم إلى التام والناقص فمن صدق بالشئ واستعمال ضربًا من الإقناع سمى مصدقًا، ولكن التام هو الذى يصدق بالشئ عن برهان ومع قيام البرهان على أن ذلك البرهان لا يجوز أن يكون بخلاف ما تقرر عليه ولا فى حين ما لا بالذات ولا بالعرض . ولا يجوز أن يبعث نبى صادق بضده أصلاً ولو بعث بنقيضه لاعتقد تكذيبه، فإن قيل: فهذا تصريح بتفاضل المؤمنين فى إيمانهم. قلت: فهو الصحيح، وقد قال النبى ﷺ: «**الإيمَانُ بضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**» وقال ﷺ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّار مَنْ فى قَلْبِه مثْقَالُ حَبَّة منْ خَرْدَل منْ إيمَان**»، والإيمان فى اللفظ اللغوى هو التصديق وقد قدمنا أن التصديق ينقسم إلى التامِّ والناقصِ.

فإن قيل: بل التصديق لا يتفاضل والإيمان يكون بمعنى العمل، قلنا: أما أن الإيمان التصديق فهو مشهور فى اللغة وهو الأصل وهو فى الأعمال منقول والاستمساك بحقيقة اللغة أولى حتى يدل الدليل،وقد دل دليل الشرع على تفاضل الإيمان بما ذكرنا. فإن قيل: هب أنا سلمنا أن الإيمان هو التصديق فما الدليل على انقسام التصديق فى نفسه؟ قلنا: التصديق عبارة عن الاعتقاد، والاعتقاد لفظ عام وحقيقته ركون النفس إلى متخيل إما فى نفسه أو إثباته، ثم المعتقدات إن كانت فى النفس كما هى عليه من خارج فهو اعتقاد للشىء وتصور

له وعلم به على ما هو عليه، ومتى كان من خارج على خلاف ما هو فى النفس فهو تصديق وتصور ناقص إذ من اعتقد زيدًا أبيض فوجده أسود نقص اعتقاده.

الفرقة الخامسة: أقوام اعتقدوا الإسلام وصحته، لكن اعتقدوا فى الإله تعالى وصفاته ما نسبوا به إلى البدعة والفسق.

الفرقة السادسة: أقوام أضافوا إلى ذلك ما نسبوا به إلى الكفر كمن صدق بالنبوة من الفلاسفة، واعتقد أن ذلك يرجع إلى ملك قائم ثم اقتضى له مولده أن يكون حسن السياسة فاضلاً متوعًا فهؤلاء كفرة وهذا تصور لا ينفع.

الفقرة السابعة: أقوام مظهرون للإسلام مبطنون للتعطيل المحض فهؤلاء شرار الفرق خالدون فى الدرك الأسفل من النار. والأمم كلها على خلاف هذه الطائفة وهى يسمع بها وقل ما ترى إلا آحادًا يحملهم الاستخفاف على ذلك، والأمم مطبقة على وجود الصانع وإن استعمل بعضهم معه الشركاء على اختلاف القول بالشرك من المعبودات من الأحجار والأحياء والكواكب. وقد سميت هذا الكتاب: «بمعراج السالكين» والله سبحانه يحملنا على الرأى الحق بعزته.

المعراج الأول

ليعلم أولاً أن ابتداءنا بهذا المعراج وتقديمنا له على أمثاله له ثلاثة أغراض:

أحدها: استعمال الطوائف المذكورة له واقتصارهم عليه فنرقيهم عنه إلى سواه.

الثانى: أنه مقدمة لما نذكره من معرفة النفس وقواها وبيان العوالم وأنها على مضاهاتها.

الثالث: أن نبين فيه ألفاظًا واصطلاحات تغنى عن تكرار بيانها وتمييز عالم الغيب عن عالم الشهادة. والحد المميز لهما، وما العالم الذى وقع الخلاف فى حدوثه وقدمه. وكمية هذه المعارج سبعة.

اعلم أن حقيقة العروج الصعود علوًا تقول: عرجت فى السلم أعرج. والألفاظ لها وجهان من الدلالة، فوجه فى الدلالة على الأشياء الجسمانية كمفهوم السلم والعروج. والوجه الثانى : الدلالة على معانى الجسمانيات وأرواحها إما بطريق وضع اللغة وإما بالمجاز والاستعارة.

ولما كان السالك الباحث إلى معرفة بارئه تعالى طالبًا للترقى عن ظلمات الجهل وأسفل السافلين من حضيض البهائم والجهلة، وكانت البراهين والأدلة الموصلة إلى درجة العلوم شبه السلم الجسمانى الموصل إلى العلو الجسمانى، وكانت مفردات البراهين ومقدمات القياس وأجزاؤه مادة له منها يتألف حاكت أضلاع السلم فإذا التسمية لا مشاحة

فيها إذ هي مفيدة قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٢-٤] ومن قام عند البرهان على استحالة وجهه للبارىء تعالى يعزج إليه فيها طلب معنى عقليًا ليحمل اللفظ عليه، وقد ذم الله تعالى فرعون اعتقاد كون الأسباب والمعارج جسمانية فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ [غافر: ٣٦]. وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]. فالأدلة سلاليم الخلق إلى ربهم والذهول عنها هو المعبر عنه بالحجب. وقد ذكر الله تعالى ذلك فى نعت الكافر، فقال عزّ من قائل: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠]. الآية. فعبر عن الاعتقادات الفاسدة بالظلمات وعن ترادف الشكوك بترادف الموج، وقال الرسول ﷺ «إِنَّ لله سَبْعِينَ حِجَابًا مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ» وليس المراد بالحجب إلا الطرق الموصلة إليه. فلو كانت براهين فهى حجب نور، ولو كانت شبهًا فهى حجب ظلمة.

والدليل على ذلك قوله: لأحرقت سبحات وجهه فإنها لوكانت جسمانية لاحترق وجهه بأولاها أو بآحادها ولم يشترط فى الإحراق إلا مجموعها. والبرهان الحق على أن البارىء سبحانه لا يصلح أن يكون محجوبًا لعلتين:

إحداهما: أن الحجاب ليس إلا للأجسام والبارىء تعالى ليس بجسم.

والثانية: أن المحجوب يجب أن يكون فى جهه والبارىء سبحانه لا جهة له بوجه. وإنما أراد ﷺ أن هذا السالك الباحث لو انكشف إليه هذه الموانع المانعة من تحقيق معرفة معبوده لأحرقت الأشياء التى استدل بها ما انتهى إليه بصره، فعبر بالاحتراق عن الاضمحلال فهذا تحقيق هذه العبارات. ومضمون هذه الإشارات، والعالم هو السلم إلى معرفة البارىء سبحانه، فهو الخط الإلهى المكتوب المودع المعانى الإلهية، والعقلاء على اختلاف طبقاتهم يقرءونه ومعنى قراءتهم له فهمهم للحكمة التى وضع دالاً عليها. قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] . وقال تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. ولما كان الإنسان محجوبًا مركبًا من مواد مختلفة متضادة وكان محجوبًا عن عالم الغيب، ونعنى بعالم الغيب كل غائب عن إدراك الحس ولم يتوصل إلى معرفته إلا بجد وتيقظ وقوة مفكرة خصته الحكمة الإلهية بأن جعلته دفترًا جامعًا مدبجًا فيكون فى ذلك فائدتان:

إحداهما: الإنعام عليه بإلزام أُمور عجيبة تكون له مفاتيح لما غاب عنه كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فهو يستدل بما شاهد فى نفسه على ما لم يشاهد.

ولما كانت الأدلة والحجج منقسمة إلى الأتم والأنقص وكان طريق البرهان وتأليفه على الشرائط الصحيحة وكانت الأدلة متعذرة على العوام، وكان الإقناع وقياس التمثيل والاستقراء أقرب إلى أكثر الأذهان خصت الحكمة الإلهية الصور الإنسانية بضروب من عجائب العوالم وغرائبها المستدل بها فيكون ضربًا من التمثيل والاستقراء الذى يقاس به الشاهد على الغائب وأكثر ما عاملت الأنبياء عليهم السلام الخلق بهذا النوع من أصناف الحجة لأن مقابلتهم بغير هذا الطريق صعب قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ [النحل: ١٢٥]. ولذلك جعلنا هذا المعراج أولاً وأحلنا العوام على الاقتصار على تعلمه، وذكرنا انقسامهم إلى طبقتين فيما تقدم فهذه إحدى فوائده وحكمه.

الحكمة الثانية: ولها فائدتان. إحداهما: يستحق بها العقوبة . وبالثانية: المثوبة.

فالأولى: استعماله لما يثق به وهو محسوس عنده مشاهد فشرطه أن لا يتعداه ولا يحمل أكثر مما يحتمل، فمن البر ما يكون عقوقًا والشىء متى جاوز حده انعكس إلى ضده.

والثانية: أن لا يستعمل الاستدلال به فى ما لا يصح وقضى على الغائب بما لا يقطع به على الشاهد ويزعم القطع به.

والفرق بينه وبين ماأمرنا استعماله أنه أمر باستعماله على جهة الحكمة وهو أن يكون له مذكرًا أو زاجرًا من غير قاطع ، وهذا المستدل يزعم أنه يقطع بما أخذ عنه من القياس كمن يزعم أن للبارىء سبحانه صورة كصورة الإنسان وأن علمه كعلمنا أو قدرته كاقتدارنا. وينتهى إلى ضرب من ضروب التجسم. قال الله تعالى: ﴿**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الكهف: ٥١]. وإنما نستعمل من ذلك ما أحسسنا أو شهدت التجربة به مما يزعمه المعتنون بالتشريح على طول الدهر فهذا مما لا يمتنع.

وإذا فهمت هذا القدر وساعدت عليه وأنست لقوله عليه السلام «**إن الله خَلَقَ آدمَ عَلَى صُورَته**»، وفهمت أن معنى ذلك خلقه خلقة على شبه العالم، فاعلم أن الإنسان عبارة عن حيوان ناطق مائت منتصب القامة ضحاك، فهذا حد يتناول نفسه وجسمه لضرورة الفصل بينه وبين الأشخاص الحية وإلا فقولنا حيوان ناطق يتناول نفسه فقط. ثم هذا الحيوان الناطق أعنى الإنسان تنقسم جملته فى التقسيم الكلى إلى ثلاثة أشياء: نفس وروح وجسم.

فالجسم: هو المؤتلف من المواد والعناصر الحاملة لروحه ونفسه وهو الشكل المنتصب ذو الوجه واليدين والرجلين الضاحك.

وأما الروح: فهو الجارى فى العروق الضوارب والشرايين.

وأما النفس: فهو الجوهر القائم بنفسه الذى ليس هو فى موضع ولا يحل شيئًا،وسنشبع الكلام عليه مقدار ما يحتمله الموضع فنتكلم على الجسم بمقدار ما يرشد إلى

الغرض. ويكون معينًا لما عسى أن نذكره من أمر النفس، فنقول قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. فأخبر تبارك وتعالى عن ثلاثة أمور جسمه وروحه ونفسه، وحقيقة الروح الحرارة الغريزية المنبعثة فى الأعصاب والعضلات وهى موجودة للبهيمة وبها حياتها، والفصل بين الآدمى والبهيمة هى النفس التى أضافها الله تعالى إليه فى قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. فلو كانت للآدمى هذه النفس دون الروح المخلوقة للبهيمة لقصر عن أفعال البهيمة فى الأكل والجماع والتصرف، ولو أن البهيمة أعطت النفس التى أعطيها الإنسان لكانت عاقلة مكلفة فخرج من الجملة أن للإنسان روحًا ونفسًا وجسمًا، وللبهيمة جسمًا وروحًا لا غير، فأما آدم عليه السلام، فمخلوق من التراب والماء والهواء والنار، وقد قال تعالى ذلك فى قوله سبحانه: ﴿مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾. وفى قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وأما النار فقوله تعالى: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. فأول الدرجات التراب، فإذا مسه الماء قيل له طين فإذا مرت عليه دهور بكرور الشمس واكتسب منها يبسًا وجفافًا قيل له صلصال كالفخار لتشوفه، ومعلوم ببرهان العقل أن مؤدى حر الشمس إليه هو الهواء، فصح بالبرهان الشرعى والعقلى كون آدم عليه السلام على الصورة التى تقدمت ليجعل الله تعالى تدريج بنيه من نطفة خرجت منه يتلقفها الإناث إلى انقطاعها وتمام القوى، وذلك حين الساعة وتمام الخلق. فأول الإنسان نطفة ثم علقة، ثم مضغة، ثم تنبت فيه العظام، وتكسى لحمًا، فالنطفة الخارجة من الإنسان مسلولة كقشر الحبة من الحبة لكنها مياعة وكالنواة فإن النخلة السحوق فيها ولكن مدمجة، ولكن من شاهد عقد الثمار تيقن هذا، فإن الرمانة مثلاً تخرج من أصغر ما يمكن غير أنك ترى الشكل مصغرًا ثم تقويها الطبائع من خارج بما يجانسها فتصرف تلك الأشكال الكاملة إلى انتهائها وما فيها.

ومن أرسل النطفة وأبصر السقط تحقق ذلك فإنك ترى أشكاله كخطوط مكتوبة، وحدقتاه كحبات شونيز ووضوح ذلك لا يحوج إلى مزيد تأمل، فالنطفة مسلولة مائعة بالطبع لما انسلت عنه بذوبان فطرى لا جبلى لا حيلة فيه، ولذلك يشبه الولد أباه فى خلقه وخلقه.

فإن قيل: الأغذية تستحيل دمًا فى الكبد، ثم تستحيل منيًا وكانت قبل ذلك نباتات انفعلت عن الطبائع الأربع، فلزم أن يكون غير الأب إذا انفعلت عن غيره.

قلنا: الأمر كذلك ولكن الاعتبار بحين انفصالها عن الأب، فحين انفصالها تنبعث من عروقه وعصبه وكبده بحركة ما، فتكتسب حينئذٍ طبعه. وهذا الأمر متسلسل إلى آدم

عليه السلام وعنده يقف الأمر فإن جسمه ونفسه ليسا مأخوذين عن آدم آخر فإن ذلك محال . وفيه إثبات أشخاص لا أول لها وهو محال : فإن الشخص بالضرورة ذو أولية وهو تحت النوع وإذا ثبت هذا فاعلم أن الصور الإنسانية تنقسم إلى أربعة أرباع.

الأول: الرأس. **والثاني:** اليدان . **والثالث:** البدن. **والرابع:** الرجلان.

ثم عظامه منقسمة إلى مائتى وثمانية وأربعين عظمًا .ففى الرأس : اثنان وأربعون عظمًا، وفى الربع الثاني: اثنان وثمانون عظمًا. وفى الثالث: أربعون عظمًا. وفى الرابع: أربع وثمانون عظمًا، ثم خلق الله سبحانه لهذه العظام رباطات تمسكها، فعدّة عروق شكل الإنسان ثلاثمائة وستون عرقًا. وبهذه العروق تكون الحركة والقبض والبسط.

فرأس هذه العروق فى الفؤاد، وهو العرق المسمى بالنياط الأبهر ومنزلته مع القلب بمنزلة الحاجب للملك يتلقف أمره ثم يخرجه إلى الخدمة، ثم هذه العروق متصلة بالمعدة تمتص منها قوة الطعام والشراب الذى يدخلها ثم تقسمه بين الكبد، والمرارة، والطحال، الرئة، وخلق الأبهر مستبطن الصلب، وهو آخذ من مجمع الكاهل، إلى مجمع الوركين، إلى مجمع الحالبين، إلى مجمع الصدر بين الترقوتين وهو نهر الجسد الأعظم وهو مقسوم لأربعة عروق لأجزاء الجسد الأربعة، لكل جزء منها عرق، فللرأس منها عرق يتفرق إلى ستين عرقًا ولليدين والرجلين عرق يتفرق إلى مائتى عرق.

والجزء الأول من النهر الأول: وهى أربعة أنهار يتفرق منه عرقان من مجمع الكاهل يسقيان العنق،ويتفرق من مجمع الصدر بين الترقوتين عرقان يصعدان إلى العنق وهما الوريدان، ثم يتفرق من كل واحد عرقان، ثم جميع هذه العروق ينبعث فيها الغذاء إلى كل عضو، من الرأس، من الشفتين وغيرهما .

وأما عروق البدن من الربع الثانى: وهو أحد الأنهار الأربعة من الأنهر الأعظم يتفرق منه عرقان لكل يد عرق من مجمع الصدر من الترقوتين إلى ما بين المنكبين وهما الأكحلان، ثم ينشعب من كل واحد منها أربعة عروق سواهما فتسقى العضدين وأجزاءهما،فذلك عشرة عروق لكل يد خمسة عروق ثم يتفرق من كل واحد من العشرة أربعة تسقى الساعدين، فذلك خمسون عرقًا لكل ساعد منها خمسة وعشرون، ثم يتفرق من كل واحد من الخمسين عرقًا عروق أخرى فتسقى الكفين والأصابع.

وأما الجزء الثالث: فالبطن يفترق منه عرقان من مجمع الحالبين إلى اليدين. يفترق من كل واحد منهما تسعة وعشرون عرقًا سواهما يدفع إلى كل جزء حصته من الغذاء: للأضلاع الأربعة وثلاثون، ولسائر أجزاء البطن ستة وعشرون: للعصعص عرقان، وأربعة للمذاكير،واثنان للكليتين، واثنان للمثانة، واثنان يسقيان المعدة، واثنان للكبد، واثنان

للطحال، واثنان للفؤاد، واثنان للمرارة واثنان للرئة، واثنان للثديين، وثلاثون للأضلاع، لكل ضلع عرقان.

وأما الجزء الرابع: وهما الرجلان. ففيهما الوتين عرق يفترق منه عرقان، وهما النسيان. وهما للفخدين لكل فخذ عرق من مجمع الوركين يسقيان الفخذين وأجزاءهما ويفترق من كل واحد منها أربعة عروق، ثم يفترق من الأربعة خمسون عرقًا تنتكس فى الساقين لكل ساق خمسة وعشرون عرقًا، فقد صار جملة الإنسان جملة مناسبة للعوالم وجزئياتها، فهو مشبه للعالم الأعلى بنفسه ومشبه للعناصر بما فيه من ماء وهواء ونار وتراب. ويضاهى الجواهرالأرضية. أما الحيوانية، فبروحه الحيوانى. وأما النباتية، النامية فبما ذكرناه من عروقه ونموه وتغذيه. وأما الجمادية فبعظامه فهذه المشابهه الكلية.

ثم تعرض أجزاءه على كل جزء من العالم فتجده يضاهيه، وشرح ذلك ممايطول ولو استوفينا فيه الأعمار الطويلة وآباد السنين لما نفد. وعليك أن تمتحن ذلك بكل ما تشاهده، وتبحث فتجد فى عالم جسمك مثل ذلك بل فيه ما يضاهى قوى الحيوان كجرأة الأسد،وخبث الثعلب، وطيش القرد وصلابة الخنزير وهكذا.

ثم الغذاء إذا استقر فى المعدة طبخته الكبد، وهى حارة رطبة لاصقة فى المعدة من الجانب الأيمن، يمتص منها صفو الغذاء وكل حار رطب لمشاكلتها له فتصفيه بجوهرها،وفيها أنابيب كالمصفى فتجذبه العروق وتنقله ويسير فيها حسب ما قدمناه. وأما المرارة فهى معدة الخلط الذى يقال له المرارة الصفراء وهى حارة يابسة لاصقة بالمعدة من الجانب الأيمن مما يلى الكبد، يمتص منها من صفو الغذاء كل حار يابس للمشاكلة فتصفيه بجوهرها.ثم تحتلبه العروق كما ذكرناه.والخلط الثالث المرة السوداء ومعدته الطحال. وهو بارد يابس لاصق بالمعدة من الجانب الأيسر فيمص من الغذاء كل مشاكل له.والرابع البلغم وهو بارد رطب وله الرئة تمتص من الغذاء ما يشاكلها.والحلقوم رأس الرئة على طبيعة الطحال وهو معد للنفس وهوالحنجرة.ورأس الحلقوم مغطاة بطبق واللهاة مدلاة عليه، والقلب فى الجانب الأيسر تحت الثدى الأيسر. والرحم فى الجانب الأيمن لاصق بعروق الفؤاد. وهو معدن الشهوة، والمعدة معتدلة المزاج وهى كالقدر وتلك الأوعية كلها لها كالأثافى. ولها فمان: مدخل وهو مسلك المرىء إلى الفم. والفم الثانى يخرج منه الأثقال وتخدم المعدة. وللصرة أربع قوى : إحداهما جاذبة ، والثانية ممسكة، والثالثة هاضمة، والرابعة دافعة.

فالجاذبة: حارة رطبة تقوى الدم وتجر الطعام والشراب من الفم إلى المعدة.وكل ما شاكلها تصيره دمًا وهى منحدرة أسفل المعدة إلى أسفل البطن فتخرج غير متغيرة الشم تشاكل ريح الجنوب.

وأما الممسكة: فباردة يابسة تقوى المرة السوداء وتمسك الطعام والشراب فى المعدة، ولا سبيل للمعدة أن تمسك شيئًا دونها وتخرج متغيرة الشم تضاهى ريح الشمال وهما على مضادة الجاذبة فبذلك يعتدلان.

وأما الهاضمة: فتقوى المرة الصفراء، وتهضم الطعام بالحر، ويعينها الكبد فيصعد من المعدة إلى الفم غير متغير الشم وهى حارة يابسة كريح الدبور.

وأما الدافعة: فباردة رطبة تقوى البلغم. وقد توقع الطعام والشراب من المعدة إلى الأمعاء إلى الاعفاج إلى الأرض بذلك وكلت، وهى باردة رطبة معادلة للريح الهاضمة. وصلاح الأمزجة وفسادها تابع لهذه الأمور. والعلم الطبيعى معد لإصلاحها هو فائدته وغرضه. والنفس تكتسب بالمجاورة من هذه الطبائع ملكة عند غلبتها كالطيش والحدة عند غلبة الصفراء، والهم والغم وقلة النشاط عند غلبة السوداء إلى غير ذلك كما يكتسبه الرفيق من رفيقه. ومتى كانت هذه الطبائع جارية على اعتدال كانت النفس أجرى إلى السلامة، وجميع هذا كله بتقديرالله تعالى وتدبيره لا إله إلا هو. فمتى تأمل هذا النضد المحكم والترتيب المنظم ومعادلة بعض القوى لبعض وكيف خلقت اليد للبطش، واللسان للكلام، والحدقة للرؤية، وكيف خلقت على شكل ملائم للنور فجعلت جامدًا فى أغشية لطيفة مكفنة بالأشفار وجعل للأشفار أهداب تقيها الغبرات والنور الكثيف أن يغشيها علم أن ذلك دال على أن لهذا الصنع العجيب والأمر الغريب مدبرًا دبره وعليمًا أتقنه.

وهذا لا يخفى على ذى بصيرة فإنا قد وجدنا هذا الشكل الإنسانى على أتم الحكمة التى تقتضيها العقول فلا تخلو هذه الصنعة العجيبة، إما أن يكون صنعت نفسها أو صنعها جماد أو صنعها مخلوق حى أو صنعها بارئها وهو الله تعالى. وبطل أن تصنع نفسها لأن وجود الفاعل يجب أن يتقدم على المفعول. وبطل أن يكون الشئ مفعولاً من حيث هو فاعل أو فاعلاً من حيث هو مفعول. وبطل أن يصدر عن جماد. فإن الجماد لا يوصف بالفاعل. وبطل أن يصدر عن مخلوق حى طبيعة أو غيرها، فإنا نقول: الطبيعة ما معناها فلا تخلو أن تكون جمادًا أو حيًا. فإن كان جمادًا كان القول فيه ما تقدم، وإن كان حيًا قلنا هذا الحى لا يخلو أن يكون له فاعل أو لا فاعل له.

فإن قيل: له فاعل آخر فالطبيعة كآدم فى افتقارها إلى محدث. وإن كانت الطبيعة حية لا فاعل لها ولا علة فهى الإله فأسقطوا لفظ الطبيعة وقولوا إله. فهو الذى نريد بيانه، فإن حوادث لا أولية لها محال إلا إذا قلنا فعلت الطبيعة طبيعة فذلك منتف فلا بدّ من استناد الحوادث إلى مبدأ لا علة له وليس بمفعول أصلاً. وهذا يبطل اعتقاد من يقول آدم من آدم اخر.

قلنا: نتبعه فيلزمه التسلسل وهو محال فصح أن الشكل الإنسانى تنتهض منه الدلالة على بارئه ومصوره مع ما فيه من العجائب الدالة على العالم فليس فى العالم أمر غريب مشكل إلا وفيه مفتاح علمه. فالله تبارك وتعالى خلقه على مضاهاة العالم، فهو نسخة مختصرة منه. ومن تأمل أحوال الأنبياء ومعجزاتهم وكرامات الأولياء وما جعل الله سبحانه فى قوى النفس بل يشاهده كل أحد من نفسه فى المنامات التى تعلم بمغيبات الأمور وعاقبتها، وما يبصره الإنسان فى النوم من السماء والأرض والبحار وسعتها. وهو لا يتسع بقدار ما يبصره كما أنه يبصر السماء على سعتها بعين وهى فى دور الدرهم. وهذا من الأمر العجيب علم أن لهذه العجائب مدبرًا دبرها وصانعًا أتقنها، وعجائب الإنسان لا تحصى بل فيه من الخواص عجائب مما يستعمله الأطباء منه. فسبحان الفاطر العليم.

المعراج الثانى

ولما فرغنا فى المعراج الأول من معاملة أصحابه بالسهل من الحكمة والقريب الظاهر من الدلالة التى لا يخفى نورها ولا يتلعثم فيها إلا من جعل له الرأى المعكوس والمثل المنكوس: ﴿**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [الرعد: ٣٣]. فلنرتق إلى المعراج الثانى: وهذا المعراج لطبقتين: للمحققين الأذكياء والمتحذقين الأتقياء. وهو لتقرير النفس وهل هى باقية أم لا؟ وهذا المعراج كالقطب لسائر العلوم وله يجتهد المجتهدون ويعمل العاملون ولا فائدة أعظم منه، فإن نبوة الأنبياء والثواب والعقاب والجنة والنار وسائر أنباءالدنيا والآخرة المأخوذة عن الرسل لا تثبت متى أبطلت هذه المسألة، فإن النفس إذا لم يكن لها بقاء فجميع ما أخبرنا به وأطمعنا فيه فباطل وبحسب ما نثق به من هذه المسألة نجتهد. وبحسب مايغيب عنا ننظر، وبهذه المسألة كفرت الزنادقة فإنهم اعتقدوا أن حقيقة الإنسان مزاج معتدل كالنبات متى اعتدلت قواه بقى، ومتى غلب عليه حر أو برد فسد ودثر. ثم لاترتجى بعد ذلك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فاستخفوا لذلك بالخلق واستهانوا بالأنبياء كقول أُمية بن خلف لأحد الصحابة: لأوتين مالاً وولدًا. وذلك لأنه استخف وقال أنتم تزعمون أنكم أصحاب أموال فى الآخرة وسيكون لى هناك مال وسأقضيك منه.

وعلى هذا المعراج يدور الناس فهو أس العلوم وإذا اضمحل فلا ثابت، ولذلك لم تبينه الرسل والله أعلم، لأن كلام غيرهم بين أن يقبل أو يرد أويصدق أو يكذب، وكلام الرسل عليهم السلام ليس كذلك، فإن المسألة فى نهاية الغموض والأذهان أكثرها ضعيفة فربما لم تفهم مقاصدهم فتعترض من قولهم على قولهم فلم يوردوا فيها إلا إشارات ورموزًا. وفى القرآن العزيز: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء:

٨٥]. وقال تعالى فى عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. وقال النبى ﷺ: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِى حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ». وهذه كلها ظاهرة عند العلماء مكشوفة وعند غيرهم معقولة، وقد اختلف الناس فيها على مر السنين والأيام، فزعم أفلاطون أن النفس والروح واحدة وهى النفس الكلية وأنها مع الأبدان كالشمس مع الأرض تنثر شعاعها على المواضع فيأخذ كل موضع نصيبه على قدره، وزعم أنها تألف الجسم بضرب من المناسبة بالطبع فإذا حصلت فيه ألفته وشغفت به ولا تزال فيه وليس هى عنده حالة فى الأجسام، وإنما هى كالمغناطيس مع الحديد فى الملازمة والانفعال ومناسبة الطبيعة. وليس أحدهما حالاً فى الثانى لكن ينفعل له بضرب من واسطة خفية هى الطبع ولا تزال فيه إلى أن يفسد البدن، كما أن الحديد يخلق مع طول المدة فلا يقبل تجاذب المغناطيس. وزعم آخرون أن النفس عرض وأن حقيقة الحياة معنى يكون عند اعتدال المزاج، فإذا مات الإنسان فنيت روحه وهؤلاء ذاهبون إلى أن النفس محدثة، وزعم أفلاطون أنها قديمة، وذهبت فرقة ثالثة إلى أنها محدثة عند حدوث البدن وهى مع ذلك لا تفنى. ومن حقق من الفلاسفة على هذا المذهب والأكثر على مذهب أفلاطون. وسنكشف إن شاء الله تعالى غائلة مذهبهم فى المعراج الثالث: حدوث العالم الأعلى. فلنرسم ههنا ثلاثة فصول:

الفصل الأول: فى قوى النفس وعلة تحرك البدن بها.

الفصل الثانى: فى كون النفس جوهرًا غير متحيز قائمًا بنفسه مستغنيًا عن المحل.

الفصل الثالث: فى أن النفس لا تعدم وأنها باقية.

الفصل الأول فى قوى النفس وعلة تحرك البدن بها

ربما اعتقد من لا تحقيق لديه أن الشرع يزجر عن التعرض لهذا القدر فى تصحيح أو إبطال وليس فى الشرع دليل على ذلك وقوله سبحانه: ﴿قل الروح من أمر ربى﴾. جواب مقنع إذا فهم الأمر بما هو عليه ولو أراد تعالى الزجر لذكر الحكم عليه وقد كشفنا عن القوى الجسمانية وهذا الجسم يجرى من النفس مجرى الثوب من الجسم، فإن الجسم يحرك الثوب بواسطة أعضائه، والنفس تحرك البدن بواسطة قوى خفية ومناسبة. وقوى النفس تظهر فى مواضع من البدن، وربما بلغت عشرًا نذكرها والنفس فى ذاتها واحدة وإنما ترجع التسمية إلى الآلة كقولنا سمع وبصر وشم وذوق ولمس. والنفس هى الذائقة الشامة المدركة، فهذه خمس قوى ظاهرة، والدليل على أن النفس هى المدركة دون هذه الأعضاء أن العروق متى حدث بها سدد تمنع اتصال النفس بها بطلت كالخدر والموت وهذا مشاهد لا يفتقر إلى

دليل. والقوى تنقسم إلى قسمين إلى محركة وإلى مدركة، والمدركة قسمان: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة ما ذكرناه والباطنة ثلاث:

أحدهما: الخيالية والوهمية والفكرية، فالخيالية فى مقدم الدماغ وراء القوة المبصرة خاصيتها بقاءصور الأشياء المرئية فيها بعد تغميض العين وانقطاع ما يدركه الحواس ويسمى الحس المشترك.

الثانية: الوهمية وهى التى تدرك المعانى، فالأولى مختصة بقوى المعانى وصورها وموادها. وهذه تحفظ المعانى دون صورها وموادها إذ تدرك الشاة عداوة الذئب مجردة فتنفر عنه. والسخلة تدرك حنان الأم فتألفها ومحلها التجويف الأخير من الدماغ.

الثالثة: القوة المفكرة وشأنها أن تركب الصور بعضها مع بعض. وهى فى التجويف الأوسط بين حافظ الصور وحافظ المعانى فهى حائكة وهى المرادة برمز القائل:

رَجُلانِ خَيّاطٌ وآخرُ حائكُ
متقابلان على السماك الأعْزَلِ

مازال ينسج ذاك خرقة مدبر
ويخيط صَاحِبُهُ ثياب المُقْبلِ

ومواضع هذه القوى مبرهنة بصناعة الطب، فإن الآفات متى نزلت بهذه المواضع عدمت هذه المدركات، وزعموا أن القوة التى تنطبع فيها صور المحسوسات تحفظ تلك الصور فتبقى فيها بعد قبولها بحسب الحواس الخمس إذا تكرر ذلك عليها والشئ يحفظ الشئ بغير القوة التى بها يقبل إذ الماء يقبل الانطباع ولا يحفظ بخلاف الشمع فإنه يقبل بالرطوبة ويحفظ باليبس والحافظة تصون المتخيلة كما أن القوى الذاكرة تصون الحافظة. والقوى المحركة إما باعثة على الحركة. وإما مباشرة للحركة. فالباعثة هى القوة النزوعية الشوقية ومتى رأت أمرًا يترغب فيه أو يترهب منه بعثت القوة المحركة المباشرة على الفعل، فتنبعث فى الأعصاب والعضلات والرباطات من القلب. إما ببسط عن جهة المبدأ وإما بقبض إليه إذ هى إذا فرحت نشرت الدماء فى العروق فكان الفرح. وإذا حزنت انجذبت فانجذب الروح الحيوانى إلى القلب فاغتتم وحزن. ثم من شأن النفس إدراك المعلومات المغيبة. ولها قوتان إما عملية وإما علمية. فالعملية قوة هى مبدأ محرك لبدن الإنسان إلى الصناعات الإنسانية. وأما العلمية فهى المدركة لحقائق العلوم مجردة عن المادة والصورة. وهى القضايا الكلية المجردة وهى للعقل وبهذه القوة تتلقف عن الملائكة العلوم. وبالقوة الثانية تصلح ما وكلت به من الأمور الجسمانية. وهذه الأمور كلها محسوسة يستند برهانها إلى الحس فلا نطول بتمهيده كما أن ما ذكرناه من الجسمانية أكثرها محسوس وما

غاب فقلدنا فيه المعتنين بالتشريح على أنه أكثر ما يوصف. وإذا فهمت الجسّم والقوى الحيوانية وأن النفس هى المحركة الباعثة وأن قواها باعتبار الإضافة إلى المواضع كان كالثوب الواحد يسمى موضع منه كمًا وموضع منه طوقًا وموضع منه جيبًا . وقد قدمنا أن لها قوتين عملية وعلمية. وأن العلمية مستعدة لقبول العلوم إلى ما لا يتناهى بالقوة وأن الجسم منفعل للقوى المحركة والمحركة العملية تحت هذه العلمية الشوقية النزوعية . ومنها مبدأ الفعل إلى أن يبرز ويظهر.

فإن قيل: فلم لا ترى النفس فإن فى رؤيتها ما يدل على صحة وجودها وهلا تخيلناها.

قلنا: فهاتان مسألتان أحدهما لم لاترى، والثانية لم لا تتخيل. فالجواب عن أحدهما وهى لم لا ترى بثلاثة أجوبة:

أحدهما: أن كل موجود ليس من شرطه أن يرى. إذ صحة وجود الموجود لا تستدعى أن يكون مرئيًا فإن الأحوال اللازمة للشيء إما أن تكون ذاتية وإما أن تكون عرضية، والموجود من الأحوال اللازمة ذاتي وكونه مرئيًا عرضى له إذ يثبت وجود الموجود مع عدم من يراه، ومع ذلك يثبت الموجود ولا يبطل وجود عدم الرائى له. والدليل على ذلك وجود البارىء سبحانه وتعالى فى الأزل لا إلى نهاية ولم يرَ حتى الآن وذلك لا يبطل وجوده. نعم يستدعى الوجود أن يثبت له مايصحح وجوده والشئ قد يستدل عليه إما بقضايا عقلية وإما بأثر يثبت للحس فيقضى عليه.

وقد شاهدنا آثار النفس ووجود أنفسنا بالضرورة، وعلمنا أن فى أجسامنا معنى يزيد عليها بالضرورة إذ يبقى الجسم ولا روح له ويكون الجنين تامًا فى الشهر الرابع ولا روح له.

الجواب الثاني: أن المرئى يجب أن يكون من الرائى فى جهة وعلى مسافة ويكون قابلاً للألوان إذ هى العلة فى إظهار المبصرات. وإننا قلنا إن النفس لا تقبل الألوان إذ اللون مركب من أُمور تجتمع.

الجواب الثالث: أن المرئى لا بدّ أن يكون فى حيز، وسنقيم الدليل على أن القوة العقلية لا حيز لها.

الفصل الثانى فى كون النفس جوهرًا

النفس جوهر قائم بنفسه ولابدّ من كشف هذه العبارة. فنقول: على جهات فيقال للقوة الغازية نفس وكذلك المنمية وكذلك النباتية. وهذه أنفس وليست المراد فى هذا الغرض. فأول النفوس النباتية ثم الغازية ثم النامية ثم الحيوانية. وهذه أول مراتب خروج

فعل النفس من القوة إلى الفعل، فالنفوس الحيوانية هى كمال جسم طبيعى بها يحس ويتحرك، والبهيمة والإنسان يشتركان فى هذه النفس، وهذه النفس، هى حرارة مودعة فى النطفة، ودم الطمث المجتمع فى الرحم لها كالقالب، فإذا أسقط المنى على بقية دم يجتمع فى الرحم انتشر عليه كالنتق فى اللبن وعقده بحره فسخن وامتد بالحر من خارج وتزايدت الحرارة الغريزية. فأول مايتكون القلب ثم تنتشر من العروق والعصب وينتقش ذلك الجزء فيه إلى أن تكمل أعضاء الجنين، ومن يوم تسقط النطفة فى الرحم إلى يوم خروجها مقدار ما تقطع الشمس ثلاثة أرباع الفلك. والنطفة تستمد الحر من جهة الأم والأم من الأغذية، فإذا دخلت فى الشهر التاسع صارت كالمفتول الخشن المشرب بالزيت الصافى فى شدة الملاءمة والتأتى للاشتعال. وهذا مثل بل الأمر أغمض وأدق.

فالنفس الحيوانية لباب الغذاء والنباتات والعناصر، فإذا بلغت هذه الرتبة استحقت من الجود الإلهى نفسًا. فحينئذ يوجد الرب تعالى قوة من عالم الأمر كما قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. والعالم من محدب الفلك التاسع من الصفحة التى تلى جهة فوق والتى تلى أقدامنا إلينا مملوءة جنودًا وملائكة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وقد تبرهن فى العلم الطبيعى أنه لا يجوز أن يكون عالم خارج الكرة التاسعة، وأن لا خلاء البتة وأن كل موجود للبارىء تعالى فهو داخل فى جوف هذه الكرة. فأما الأجسام فهى تستحيل عن العناصر الأربعة فكل ما تحت مقعر فلك القمر مستحيل متغير، والعناصريستحيل بعضها إلى بعض وما عدا ذلك فهو جواهرمن حوادث أُخر، والنفس من جنس تلك الجواهر لا من العناصر فهى روحانية محضة وهى نفس صغيرة موازية لنفس العالم الكبير.

وقد تكرر منا أن الإنسان موجود على مضاهاة العالم، فالنفس جوهر روحانى لطيف ولا يجب أن ينكر المنكر ذلك وهو يشاهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته، حتى أن قرصها يكون بالمغرب وشعاعها بالمشرق فما إلا أن تغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذى بالمشرق يلازمان. ولو كان جسمًا لما انقطع ذلك آحاد السنين، وكذلك إذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس ذلك إلى حيث شئت، ثم تقطعه عن موضع عكسته إليه لا فى زمان، وجوهر الشعاع بالإضافة إلى جوهر النفس كثيف فليس فى العالم موضع بيت ولا زاوية إلا وهو معمور بما لا يعلمه إلا الله تعالى. ولذلك أمر النبى ﷺ بالستر فى الخلوة وهو أن يجامع الرجل امرأته عريانين، وقد قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. وقال تعالى فى الإنسان: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. فالأرواح

مشحون بها العالم. وإنما نبهنا على ذلك تنبيهًا أن للنفس شبه عنصر تكون منه يناسب لطاقتها فإذا تأتت الروح الحيوانية أوجد الله تعالى نفسًا جوهرًا لطيفًا روحانيًا عالمًا بالقوة فى طبائعه أن يعلم الأمور ويقل بارئه، فيتشبث بهذا الجسم ويشتغل به وينشأ معه حتى لا يعرف سواه ويشتد إلفه وحرصه عليه من الله تعالى فيحرك الأجسام. وذلك كمثل الحديد فإنه يكون جمادًا لا يتحرك فإذا انضاف إليه أمر يقوى طبيعته وخاصيته قوى الأثر فيه، ويأتى المحل لفعل النفس الكلية فحركت الحديد فجرى ودار وتراه كالحى فلا يزال على تلك الحال حتى ينخرم ذلك الفطام وتزول تلك الملائكة، فلا تزال هذه النفس مع هذا الجسم وتمدها الملائكة من خارج بنطق على أنه لا يعرفه إلا العلماء، وقد أخبر الشارع عليه السلام: أن الخير من الملائكة والشر من الشيطان فلابدّ من أثر يحصل على الملائكة.

ولما كانت النفس روحانية قبلت عن الروحانى وتأثرت عنه. فلولا العقول المعبر عنها بالملائكة الممدة للنفوس من خارج لما عقلت معقولاً البتة فإن النفس عالمة بالقوة فقط والملائكة تخرج ما فى القوة إلى الفعل حتى يصيرها عالمة بالفعل فأعلى طبقة فى الاستمداد الأنبياء ﷺ، ثم من يليهم. وذلك بحسب تهذيب النفس والعكوف على هذه الجنبة وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿**إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ [المائدة: ١١٠]. وقال تعالى فى الأولياء: ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**﴾ [المجادلة: ٢٢]. الناس فى الأخذ من الملك تفاوتًا لا نهاية له ومن الناس من لا يأخذ شيئًا وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤]. وإنما أوجد الله سبحانه النفس لامتحان الآدمى، ولو أوجدها مبرأة من المادة لم يكن منها عصيان فجعلها فى مادة كما قال تعالى: ﴿**لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ [يونس: ١٤]. وذلك أن الملائكة عرفت أن الموجود فى مادة يعصى فقالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [البقرة: ٣٠]. فالنفس تكتسب فى بدنها الكمال لكى تلحق بالملائكة أو الشياطين إما بالأعلى أو بالأخس. ثم هى من بعد ذلك حية لأن كونها موجودة مع البدن لا يدل على عدمها بعدم البدن فإن عنصريهما مختلفان.

والدليل على ذلك أن نفوس الملائكة وذوات الأفلاك لا تتغير إلا أن يريد بارئها والأفلاك تقبله بجواهرها، ولأن الفناء هو انحلال التركيب والنفس بسيطة لا مركبة والدليل عليه علمها بالأمور العقلية والمغيبة كالنبوة والكهانة، ولا يصح البتة أن يعقل الجسم باتفاق العلماء والعقلاء والمزاج عبارة عن اعتدال الأخلاط فى الجسم والأخلاط جسم فيستحيل أن تكون مدركة عاقلة. وإنما العاقل المدرك جوهر يناسب جوهر الملائكة وكل جنس فلا يلائم إلا جنسه. ولما كان الجسم كثيفًا صرف فى الخدمة والحركات والأمور الجسمانية، ولما

كانت. النفس لطيفة أعدت للإرادات والقدر والعلوم حالة فى النفس، والعلم لا ينقسم فمحله لا ينقسم ولأن الجسم لو كانت حركته منه للزم فى الفلك أن تكون حركته منه، وقد تبرهن أن حركته من نفس محركة، وكل متحرك فلا يكون محركًا نفسه أصلاً ويبطل أن يحركه جسم آخر إذ لو حركه جسم لاستبد هو بالفعل فيبقى أن يحركه غير جسم وغير الجسم لا تركيب فيه، وما يفسد فإنما يفسد لاجتماعه من متنافرات فينحل.

وقد تقدم أن النفس لا مركبة، فالنفس تنحل وما لا ينحل يبقى فالنفس تبقى. ثم نقول: جميع ما هو جوهر فهو إما قائم بنفسه. وإما على ما يعتقده المتكلمون فإن الجواهر عندهم متماثلة ولا فرق بين جوهو النفس وجوهر الجسم. وإنما تختلف الجواهر عندهم بالأعراض ويستحيل أن يكون الجوهر عندهم يحل فى الجوهر أويقوم به، فلو كان الجسم جوهرًا والنفس جوهرًا لم يصح أن تكون النفس صفة للجسم ولا أولى منه لتماثلها فى الجوهرية. وإذا بطل أن تكون جوهرًا أو عرضًا لم يبقى أن تكون جوهرًا قائمًا بنفسه ليست بعرض ولا بجوهر.

فإن قيل: لا يعقل فى العقل إلا جوهر أو عرض. وأما جوهر ثالث فلا يدرى.

قلنا : هذا إلا أن سخف بل ليس فى العقل حصر يدل على ذلك ، وإنما أوجب تلك القسمة المشاهدة من حيث لم تشاهد إلا عرضًا وجوهرًا وهذا قياس التمثيل وهو قياس باطل، وسنعد كتابًا لتقرير البراهين إن ساعدت الأقدار بحول الله تعالى. وإذا ثبت وجود معنى ثالث بالبرهان.

قلنا: هذا المعنى لايخلو أن يجب له المحل أو يجوز عليه أو يستحيل. وبطل أن يجب له، فإن الواجب العقلى لا يفتقر إلى مخصص وذلك يلزم أن يكون النفس أبدًا غير خالية من محل ونحن نشاهد تركها للبدن فلابد من مدة تمر عليها لا تكون فيها فى محل. هذا لو قلنا إنها تنتقل من هذا الجسم إلى جسم، فنقول ما بين الانتقالين لا تكون فى جسم والحكم الواجب لا ينتقض فى زمان ما. ثم نقول : من زعم أنها تنتقل إلى محل فعليه الدليل وهذا لا يقوم عليه دليل البتة وإذا بطل أن يكون المحل واجبًا لها بقى أن يقال جائز عليها، وما جاز على الشئ افتقر إلى مخصص والمخصص لا يؤثر فى محل إلا أن يكون المحل قابلاً للتأثير، وقد قدمنا أن النفس يستحيل انطباعها فى الجسم فصح وثبت أنها يستحيل عليها المحل.

الفصل الثالث فى أن النفس لا تعدم وأنها باقية

وقد قدمنا اختلاف الفرق فى ماهية النفس وتقدم مذهب كل فريق ، والذى نخص

به الآن هذه المسألة أن نقول: تنحصر المذاهب فى مذهبين: إما أن يقال إن النفس قديمة على مذهب أفلاطون فإن البارىء تعالى عنده علة وجودها والمعلول عنده لا ينعدم إلا بانعدام علته والبارىء تعالى لا ينعدم فالنفس لا تنعدم هذا مذهبه.

وذهبت طائفة من محققيهم أن النفس محدثة وهو مذهب ابن سينا، ولكن اتفق الكل على أنها لا تنعدم وبذلك أخبرت الأنبياء عليهم السلام. وقال تعالى: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وقال سبحانه فى نفس الكافر: ﴿**لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٣وطه:٧٤]. وقال تعالى فى أهل الجنة: ﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ**﴾ [الدخان: ٥٦]. فإذا هما طرفان:

أحدهما: عدمها واتفق المؤالف والمخالف على أنها لا تنعدم حاشا طائفة من الدهرية لا التفات إليهم.

الطرف الثانى: وهو ابتداؤها. فذهب الإسلاميون والقائلون بالشرائع إلى أنها محدثة لها ابتداء لكنها جوهر لا يقبل العدم. وذهبت طائفة من الفلاسفة إلى أنها محدثة ولكن مذهبهم يعود إلى مذهب أفلاطون. وذلك معنى الحدوث عندهم انتقال ماهية الجوهر كالماء إذا أشعل تحته النار ففنى فلم يفن عندهم تحقيقًا، لكن الماء عندهم استحال هواء وكذلك الهواء إذا استحال نارًا فالحدوث عندهم عبارة عن تغيير حال الجوهر. وإذا فهمت هذا من مذهبهم فحدوث النفس عندهم عبارة عن انتقال جوهرها من حالة إلى حالة كانتقال الماء إلى الهواء والذى يرجع إليه مذهبهم والله أعلم أن العناصر الحاصلة فى مقعر فلك القمر المنفعلة عن الأفلاك تولد النفس منها. وحاصل ذلك راجع إلى أشعة الكواكب ولكن عندهم بين النفوس والأجسام مناسبة وعلاقة لا بدّ منها. وذلك يكون ابتداء الجسم للكائن من الأغذية بأن تكون تلك الأغذية تنقسم ما بين البروج، فإذا انفعل الجسم وخرج إلى صفحة العالم من طالع مخصوص انجرت تلك الأشعة التى للكواكب إلى الجسم بمناسبة مختصة من جهة مختصة بالطبع، وعلى هذا بنوا آراء الطلسمات، فإن ابن آدم عندهم طلسم فيحتالون بأبخرة وعقاقير وجواهر مختصة من جواهرالأرض تلائم طبيعة الكواكب والحب والمنافرة عندهم على قدر تناسب الطبيعة ولهم فى هذا كلام طويل. والذى يقوم عليه البرهان أن النفس حادثة إذ البارىء تعالى موصوف بالاقتدار على خلق جواهر لاتعدم. وسنورد إن شاء الله تعالى أصل مذاهبم ى المعراج الثالث فى حدوث العالم العلوى فلا معنى لإيراد ذلك فى هذه المسألة فلنتكلم على أنها لا تعدم. فنقول: الشىء لا يوصف بالعدم ما لم يقل إنه قابل للعدم. وإذا كانت انفس قابلة للعدم فلا تخلو أن يكون

ذلك فى طبعها ويكون العدم ذاتيًا له. وإما أن تعدم لاختلال شرط فى وجودها. وإما أن تعدم لإرادة بارئها أن تنعدم. وبطل إن يكون العدم من صفات ذاتها إذ ذلك يؤدى إلى أن تبقىٰ زمانين وهو محال وبطل أن يقال هى باقية بشرط إذ قدمنا أن القائم بنفسه لا يفتقر إلى شرط. وبطل أن يقال تعدم لإرادة بارئها فإن إرادة بارئها لا يعلم إلا من جهة الرسل عليهم السلام وقد أخبرت الرسل عليهم السلام إنها لا تعدم والله ولى الهداية.

المعراج الثالث

لم يختلف أحد من ذوى العقول أن الصور الجسمانية الحادثة فى عالم الكون والفساد حادثة مفتقرة إلى علة فى وجودها إما بارىء وإما طبيعة على ما قدمناه وعالم الحس والشهادة والكون والفساد كل ما حواه فلك القمر وحصل فى مقعره. واختلف فى العوالم العلوية وهى نفوس الأفلاك وعقولها وما فيها من الكواكب وغيرها. فأطبقت الفلاسفة على قدم ذلك بلا خلاف فى الاعتقاد. واختلف عبارتهم فى التغيير عن حصولها عن البارىء تعالى وهو المبدأ عندهم ومجرى المبدأ الثانى الذى هو علة لما تحته من البارىء سبحانه فجرى النور من الشمس ونور الشمس ضرورى الوجود معها فلا ينعدم. والبارىء سبحانه عندهم علة وهو معه كالمعنى الطبيعى وغير متقدم عليه التقدم الطبيعى، بل معنى تقدمه عليه بالمرتبة كتقدم الملك على الوزير والوزير على الحاجب، ثم سموه بعد ذلك حدوثًا وفعلاً وفيضًا وكل على سبيل المجاز لا على الحقيقة.

والعالم عندهم ينقسم إلى قسمين: قائم بنفسه وغير قائم بنفسه. فما ليس قائمًا بنفسه هى الأعراض وحدوثها عندهم عن دوران الفلك والانتقالات فتسرى الأدوار من شئ إلى شئ وتكتسب الجواهر بذلك أحوالاً وما هو قائم بنفسه منقسم إلى ثلاثة أقسام : أجسام وهى أخس الجواهر وعقول أشرف الموجودات ونفوس وهى واسطة بين الأجسام والعقول وهى فى حكم الرابطة بين العقول والأجسام كالحرف الرابط بين الاسم والفعل والكلمة وهى غير مؤثرات فى الأجسام. ثم الأجسام عشرة تسع سموات والعاشر العناصر التى هى حشو فلك القمر. ثم السموات التسع حية عندهم ناطقة ولها ترتيب ودرجات وهو أن البارىء تعالى عن قولهم فاض عنه على الطريق التى ذكرناها العقل الأول وهو العلم، والكلمة عند أكثرهم وهو جوهر قائم بنفسه ليس بجسم ولا هو منطبع فى جسم يعرف نفسه ويعرف بارئه وهو ملك. وربما زعموا أنه هو القلم. ثم لزم عن وجوده ثلاثة أشياء: عقل ونفس والفلك والأقصى وهو التاسع وهو السماء وجرمها، ثم لزم من العقل الثانى عقل ثالث ونفس وفلك الكواكب الثابتة وجرمه، ولزم عن العقل الثالث عقل رابع ونفس

فلك زحل وجرمه، ولزم عن العقل الرابع عقل خامس ونفس وفلك المشترى وجرمه هكذا إلى فلك القمر ، ثم ما فى حشو فلك القمر ثم المواد التى تسير فى سبب حركات الكواكب امتزاجات مختلفة تنفعل منها المعادن والحيوانات والنباتات، فالعقول عشرة والأفلاك تسعة ومجموع ذلك تسعة عشر. وزعم بعضهم أن ذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]. وزعم بعضهم أن ذلك الاثنى عشر برجًا والسبع للدارى وإلى هذا يرجع حقيقة مذهبهم وعليه مدار سائر مذاهبهم فى كل فن، واتفقوا على أن الله تعالى واحد وحدانية لا تقبل الانقسام لا بالحس ولا بالعقل ولاغير ذلك، وأنه لا معنى له يزيد على ذاته من علم أو قدرة أو غير ذلك. هذا هو مذهب المحققين منهم الذى اتفقوا عليه.

وما يظهر من الاختلاف فى أقوالهم فى العالم كتحير جالينوس حيث قال: لا أعلم قديمًا أو حادثًا فقد قال الفارابى من محققيهم أو معنى ذلك أن العالم يتعارض عليه فهو ضربان لانقسامه فى نفسه إلى القديم والحادث. فإذا انفرد الكلام ارتفع الغلط. فمعنى قولهم العالم محدث له معنيان : أحدهما حقيقة ، والآخر مجاز. فأما ما هو حقيقة فهو تركيب الصور فى عالم الكون والفساد من المادة . وأما المجاز فتسميتهم العلة الأولى حدوثًا وفيضًا وذلك راجع إلى تسمية مجردة، فأنه لايصح عندهم أن يصدر حادث من قديم البتة. ولنرسم فصلين أحدهما يقتضى الدلالة على أن العالم محدث، ويتضمن الثانى الكشف عن أدلتهم فى أن السماء حية.

الفصل الأول

لهم على مذهبهم أدلة نوردها وننفصل عنها قالوا يستحيل أن يصدر حادث عن قديم حدوثًا لا واسطة له لأن الإله إذا فرضنا وجوده فى الأزل موجود معه البتة والموجودات لم تصدر منه لأن إيجادها لم يظهر به بل كان عنده حيز الإمكان المجرد، ثم إنه أحدث العالم فإحداثه لا يخلو من حالين: إما أن يكون بقى على حالته الأولى، وإما أن يكون حدثت له صفه تقتضى الإحداث. وذلك يلزم السؤال. بلم؟ فيقال : لم خصص هذا الوقت بالفعل دون الوقت السابق أو يحال الأمر على فقد آله ووجودها، ويبطل أن يكون لإرادة حادثة فإن الحادث لا يحل التقديم ويبطل أن يخلقها فى محل ثم يريد بها وكل هذا باطل . وأما قولهم إنه لم يفعل ثم فعل فذلك يوجب تغيير حال.

قلنا: ذلك فإنه تعالى لم يزل عالمًا ولايزال، ومقتضى علمه إيجاد الخلق فى المبدأ الذى أوجدهم فيه وقصد إلى خلقهم حين ابتدأ خلقهم، وذلك راجع إلى إظهار الفعل

وليس من شرط العالم إذا كان قادرًا أن يلازم المعلوم والمقدور. والبارئ تعالى لا يقال له لم، فيسقط ما موهوا به، فإن قالوا : البارىء تعالى لا علم له.

قلنا: بل هو عالم لا يتغير عما علم فى وقت ما لا فى الماضى ولا فى المستقبل كما يدل عليه، ومن الدليل على حدوث هذا العالم أن فى القول يقدمه إثبات حوادث لا نهاية لها. فلك الشمس يدور فى سنة، وفلك زحل فى ثلاثين سنة، فتقع أدوار الشمس فى زحل فى ثلث العشر، وتقع أدوار الشمس فى أدوار المشترى فى نصف السدس، فإنه يقع مدة اثنتى عشرة سنة، فإذا كانت دورات زحل لا نهاية لها ولا عداد، وكذلك الشمس وكذلك المشترى فذلك يبطل أن تقع الشمس لأحدهما فى التكسير على ما وصفنا، بل فلك الكواكب الذى يدور عندهم فى ستة وثلاثين ألف سنة مرة. ثم نقول أعداد هذه الدورات لا تنفك أن تكون شفعًا أو وترًا أو شفعًا ووترًا أو لا شفع ولا وتر وبطل أن يقال لا شفع ولا وتر، فإن العداد إما شفع وإما وتر، وقد صححتم هذه المقدمة فى المنطق، وكذلك إن قلتم شفعًا ووترًا، فإن قلتم شفعًا فما لا نهاية له لا يعوزه واحد يصير العدد وترًا ومحال أن يعوزه وإن قيل وترًا ثبتت النهاية.

فإن قيل: ما لا يتناهى لا يقبل الإنصاف بالشفع والوتر.

قلنا: هذا محال إذ جملته قامت من سدس وعشر تقبل ذلك بالضرورة وغاية كلامهم مطالبة البارىء سبحانه بما خص ووقت المبدأ من غيره، وهذا الاعتراض لا يعقل له مناسبة ولا يلزم بحال، فكل ما يهذون به يحمل على العلم والإرادة على أنا نقول ربما الأصلح بهم خلقهم فى الوقت الذى وجدوا فيه.

الفصل الثانى

وهذا الفصل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فى ذهابهم إلى أن السماء حية.

والثانى: قولهم إن السماء عالمة بجزئيات العالم.

والثالث : فى ترتيب الحركات.

قالوا: السماء حية ولها نفس: نسبة نفسها إلى جسمها كنسبة أنفسنا إلى أجسامنا. وكما تنقسم حركاتنا إلى الطبيعية والإرادية كذلك حركة هذه إراديّها وطبيعيها قصدها عبادة رب العزة والتقرب منه إذ كل تحرك إرادى لغرض إذ بذلك يفارق العاقل سائر الحيوان. ثم قصد التقرب الغرض به عندهم التشبه بالبارئ تعالى فى الصفات لا فى الذات، فإن الكمال الأعظم والبهاء الأتم والجود الأفخم لله رب العالمين. وكل وجود بالإضافة إلى وجوده

ناقص، والملك أقرب إليه ونعنى بصفات البارئ تعالى العلم والحلم والجود والرحمة والنزاهة عن الظلم إلى غير ذلك. والإنسان متى استعمل هذه الصفات قرب من الملك فهو قرب مناسبة فى الخلق والصفات لا فى المكان وكذلك الملائكة مع بارئهم قالوا: والمنتهى طبقة الآدميين التشبه بالملائكة. والملائكة عندهم عبارة عن النفوس المحركة للسموات، قالوا: وكمالاتها تنقسم إلى ما بالقوة وإلى ما بالفعل، فما هو بالفعل كونها على شكل كرى وذلك بالفعل حاضر أبدًا وما لها بالقوة الهيئة فى الوضع والأين فكل وضع ممكن لها، وما لم يمكنها فلعدم ثباتها تحركت تبغيها فلا تزال تطلب وضعًا بعد وضع، وإنما قصده التشبه ببارئه فى صفات الكمال فهو يتحرك لإفاضة الجود على ماتحته من العوالم إذ ليست تختلف فى التثليث والتربيع والمقابلة واختلاف الطوالع. وهذا الكلام لايقوم عليه برهان، فإن الحركة المشرقية هلا كانت مغربية وهلا كانت المغربية مشرقية. فأما عنوان أدلتهم فى أنها حية فزعموا أن السماء متحركة.

قالوا: وهذا معلوم بالحس والضرورة وكل جسم متحرك فله محرك ولابدّ . وهذه مقدمة أُخرى إذ لو تحرك الجسم بمجرد كونه جسمًا لكانت الأجسام كلها متحركة، والمحرك لها إما أن يكون طبيعة لها كهوى الحجر إلى أسفل. وإما أن يكون المحرك لها خارجًا عنها كرمى الحجر إلى فوق فيكون قاسرًا له على ذلك. وإما أن تتحرك بإرادتها ويبطل أن تكون حركتها قسرية، لأن محركها إما جسم فيلزم فيه ما لزم فى هذا، وإما أن نقول يحركها الله تعالى بغير واسطة. قالوا: وذلك محال لأنه لو حركه من حيث إنه خالقه للزم أن يحرك كل جسم فلا بدّ من اختصاص الحركة بمزية، ولا يمكن أن يقال تحركها بالإرادة لأن إرادته تناسب الأجسام نسبة واحدة، فلم خصت هذه بالتحرك دون غيرها والحركة الطبيعية فيها محال لأن الطبيعة تلزم ضربًا واحدًا . ثم الحركة الدورية لا يصح فيها فإن كلاً مضروب عنه فلا يلزم عودها إليه فتتساوى الأماكن، ونحن نسلم جميع ما ذلك ذكروا حاشا قولهم يبطل أن تتحرك لإرادة الله إذ يلزم ذلك فى شكل السماء وتحركها على نقطتين، ولم اختصت بهذه الصورة.

القسم الثانى : قالوا إذ صح أن السماء متحركة بالإرادة فهى عالمة مطلعة على جزئيات العالم، قالوا: والمراد باللوح المحفوظ نفوس السموات وأن انتقاش جزئيات المعلومات وما فيها كانتقاش المعلومات فى القوة العاقلة فى الإنسان ، قالوا: والملائكة السماويات نفوس السماوات والكروبيون المقربون العقول المجردة التى هى جواهر قائمة لا تتحيز ولا تتصرف فى الأجسام، واستدلوا على أن السماء عالمة بالجزئيات، بأن قالوا: الحركة الدورية إرادية والإرادة تتبع المراد. والمراد الكلى لا يتوجه إليه الإرادة الكلية والإرادة

الكلية لا يصدر منها شئ، فإن كل ما خرج إلى الفعل موجود وجزئى ونسبة الإرادة الكلية إلى الجزئيات على وتيرة واحدة فلا يصدر عنها شئ جزئى، بل لابدّ من إرادة جزئية للحركة المعينة وذلك يلزم تصوره لتلك الحركات الجزئية بقوة جسمانية إذ من ضرورة كل إرادة تصور مرادها، وإذا ثبت تصورها الجزئيات علمت ما يلزم منها من اختلاف النسب من الأرض مع اختلاف أجزائه فى الطلوع الغروب والاستواء، فإذا الحركات السببية للمسببات سلاسل تنتهى إلى الحركة السماوية الإرادية والإنسان إنما لا يعلم مايقع فى المستقبل بجهله بالأسباب، وهذا كله باطل فى حق السماء فإنه موجود إلى تتابع حوادث لا نهاية لها وهذا محال. نعم يصح هذا فى حق البارئ تعالى من حيث إن المعلومات عنده على وتيرة واحدة تابعة لإرادته وعلمه، وذلك لا يلزمه على شكل يوجب له ذلك أو دوران وما لزم عن شكل ودور افتقر إلى مريد موجود لذات الشكل والدور فمر يده بالعلم أولاً ويبطل تساوى الخالق والمخلوق فى العلم. فإنه إذا علم الفلك لوازم الحركات إلى ما لا نهاية له وعلم البارئ سبحانه لوازمها إلى ما لا نهاية له، فلا يخلو علمهما لها إما أن يتطابقا أو يتضادا، ومتى تطابقا أو تضادا فهو نقصان لمن يستحق الكمال الأتم، وقد اتفقوا على أن البارئ تعالى منفرد بذلك.

القسم الثالث: ما ذكرناه فى القسمين السابقين ينقسم إلى ما لا يصح ولا يقوم عليه برهان وإلى مايقوم عليه برهان، كعلمنا أن السموات متحركة وأن الحركات مختلفة فى التغريب والتشريق واختلاف المطالع والغارب وتعلق الحوادث بذلك، لكنا نزعم أن ذلك تابع لإرادة البارئ سبحانه وعلمه فى كل دقيقة من الزمان وهم يزعمون أن السماء ونفوس الأفلاك مستقلة بذلك من جهة إرادتها وعلمها، فنجعل هذا القسم ثلاثة فصول:

الفصل الأول:فى أن الله سبحانه عالم بالمعلومات.

الفصل الثانى: أنه مريد للكائنات.

الفصل الثالث: فى غرض القسم فى ترتيب الحركات.

الفصل الأول فى أن الله سبحانه عالم بالمعلومات

اتفق المثبتون للصانع على أن الله تعالى عالم، واختلفوا فيما هو به عالم وهل علمه زائد عليه أم لا. وهذا الاتفاق فى إثبات العلم كاف ونزيده بيانًا أن تقول لا يخلو العالم أن يكون له محدث أو لا محدث له، فإن لم يكن له محدث بطل بما قدمناه. وإن كان له محدث لم يخل أن يحدثه وهو عالم به أو غير عالم به. فإن قيل: أحدثه ولا علم له به فهو إما مقهور أو ذاهل وهذا باطل إذ ذاك محال وقد تقدم ما ينفيه فلم يبق إلا أنه عالم .

فإن قيل : هو عالم ولكن بالكليات، وأما بالجزئيات فذلك يوجب تجدد علمه بتجدد الوارد وذلك باطل، والذى يلزم فى حدوث جزء منه، فإن الحدوث لا يختلف فلو صح أن تحدث خردلة دون علمه لجاز أن تحدث السماء دون علمه.

فإن قيل: سلمنا أن محدثًا لا يحدث وهو لا يعلم به، بل للملائكة الموكلين بذلك فى علمهم بالمعلومات استقلال وهذا منتهى شبههم.

قلنا: ذلك محال فإن البارئ سبحانه عندكم عقل محض ومن شرط العقل المحض المبرأ عن المادة أن لايجهل معلومًا، وإنما طرأ الجهل على الإنسان من حيث هو فى مادة فاشتغل بها عن غيرها. فنقول: قد علمتم أن السماء عالمة بالجزئيات فهلا أوجبتم ذلك لرب العزة على الوجه الذى أثبتموه للسماء؟ فإن قالوا: يلزم طروء الحوادث عليه. قلنا: لا يلزم لأن علمه قديم علم ما يكون من تركيبات العالم وانتقالاته إلى منتهى وعلى أصلكم من حيث علم الأسباب الأول يلزمه علمها وعلم توابعها وتوابع توابعها، فإن من علم علم المسبب وما من سبب إلا وله مسبب هكذا إلى منقطع السلسلة. ثم الحدوث والتغير يطرآن على الحوادث وهى جارية على ما علم فعلمه واحد لا يتغير وإنما تغيرت هى من حيث علم تغيرها فى علمه أنها يترتب بعضها على بعض.

فإن قيل: فهل علمه زائد على ذاته أو هو عين ذاته؟

قلنا: ذهبت المعتزلة إلى أن ذاته عين علمه، وذهبت الأشعرية وأكثر الفرق إلى أن علمه غير ذاته. والذى أعتقده أن الله سبحانه عالم وقد قام الدليل على علمه، فهذه مقدمة المقدمة الثانية إن ثبت أن إثبات كون العلم مغايرًا للذات محال، وذلك أن نقول لا يخلو العلم أن يكون نفس الذات وهذا لا نعتقده، أونقول إنه زائد عليها وهو مذهبكم. فإن كان زائدًا عليها فلا يخلو أن يستقل دون الذات بأن يكون واجب الوجود أوتكون الذات شرطًا فيه، فإن استقل دون الذات وكان قديمًا قائمًا بنفسه فهما إلهان الذات والعلم وذلك محال.

فإن قيل : الذات من شرطه؟

قلنا: لا يخلو أن يكون قديمًا أو محدثًا. فإن كان قديمًا بطل أن يكون القديم شرط القديم، وإن كان محدثًا فلا يخلو إما أن يقوم بذات البارئ تعالى أوبغيره، فإن قام به لزم قيام الحوادث بذاته وهذا باطل وإن كان بغيره فالعلم إذًا ليس من صفات ذاته.

فإن قيل: فهذا إذًا نفس اعتقاد المعتزلة. **قلت**: نفارقهم بفضل وهو أن مذهبنا أن الله سبحانه عالم بالكليات والجزئيات ولا يطلق عليه لا علمه ذاته ولا غيرها لأن التحكم بإضافة اسم إلى البارئ تعالى وإطلاقه طريقة الشرع، وليس فى حكم الشرع ما يدل على

أن العلم زائد، بل ورد ذلك مطلقًا وشهدت أدلة العقول على أن الله تعالى عالم، وأن العلم لا يصح أن يكون موجودًا قديمًا قائمًا بنفسه مستغنيًا عن البارئ تعالى وبطل أيضًا أن يكون قديمًا يفتقر إلى شرط.

الفصل الثانى فى أنه مريد للكائنات

هذا الفصل معقود للإرادة. وهى مسألة مشكلة وعليها انبنى تعطيل المعطلة فلا بدّ من تفصيل القول فيها إن شاء الله تعالى، فنقول : الإرادة حقيقتها المفهومة إجماع النفس على الفعل عند انبساط القوة النزوعية، ويحركها إليه فى القوة الخيالية شئ يرغب فيه أو يهرب عنه، وهكذا الوصف مستحيل فى ذات البارئ تعالى، فإذًا الإرادة الإلهية عبارة عن إيقاعه الفعل مع أنه غير ذاهل عنه فالقصد إلى إحداث المحدث والعمد إليه سمى إرادة. وحقيقة ذلك تؤول إلى خروج الفعل من القوة إلى الفعل. وقد قام الدليل على أن الله تعالى عالم وأنه مبدىء العالم وثبت افتقار العالم إليه، واتفق على ذلك الكافة وإن سموه علة فقد أطبقوا على العالم لا قوام له دونه وثبت علمه به وعلمه تعالى بالمعلومات فيما كان أو يكون على وتيرة واحدة لا يتغير ولا يجهل ولا يذهل. والعلم متى أضيف إليه فهو قبل الفعل أبدًا ودائمًا بعده ثم تعلق العلم بأنه سيكون إذا أضيف إلى جهة المعلومات فتنقسم المعلومات فى حقه إلى ما يكون وإلى ما كان فكل مايكون فهو فى القوة وما كان فقد خرج إلى الفعل فتغيرحال المعلوم لا العلم.

وهذه قاعدة عظيمة إذا فهمت على هذه الرتبة، وإذا تقرر هذا فكل ما هو فى القوة سيكون فالرب سبحانه مريد لأن يكون من حيث رتب تعالى الأسباب على ما جرى به علمه فهى مطابقة على ماسبق به العلم، فإطلاق الإرادة فى هذا الموضوع على معنى أن المراد معلوم ونظم القياس كل مراد معلوم، وكل معلوم جار على ما أراد الله تعالى، وكل مراد جار على ما علم الله تعالى. وإذا صح أن يكون العلم علة المراد الذى فى القوة فما هو بالفعل تابع لما فى القوة والأمر ظاهر، فما خرج إلى الفعل فنفس حدوثه دليل على إيقاع الله تعالى له وإيقاعه له هو المطلوب بالإرادة تابعة للعلم.

فإن قيل : فالمعلومات هل هى متناهية أو لا متناهية؟

قلنا:هذا السؤال يفتقر إلى تفصيل فلا يخلو السائل أن يضيف التناهى إلى المعلومات فمن ضرورة العقل أن يكون المعلوم محاطًا به، وكل محاط به فمحدود، وكل محدود متناه فكل معلوم متناه كان المعلوم فى القوة أوخرج إلى الفعل، فإذا العالم بأسره من الكرة التاسعة وما يحويه وتوابعها من أجناسها وأنواعها وأشخاصها وما يلزم عنه متناه محصور فى علم الله تعالى.

فإن قيل : هذا مسلم ولكن السؤال هل البارىء تعالى عالم بما لا يتناهى أم لا؟

قيل : هذا سؤال مستحيل من هذا الوجه فإن كل معلوم متناه فكان حاصل السؤال أن نقول كل غير متناه أم لا. وهذا انحراف عن صوب الصواب.

فإن قيل : فهل يقال يصلح أن يكون العلم حاصراً لما يتناهى أو لا؟

قلنا: العلم في نفسه لايصح الاتصاف به متى فرض إلا مضافًا إلى معلوم وإلا بطلت خاصية العلم فمتى أضيف كان المعلوم منحصراً. فبقى أن يقال ذلك على وجه واحد وهو أن يكون العلم القديم يتعلق بأن عوالم تتعاقب وهى متى أضيفت إلى نفسها انحصرت، ومتى أضيف الحصر والتناهى إلى علم الله تعالى بطل لأن العلم لا يقال فيه متناه أو غيرمتناه، وهذا أصل الغلط فربما ظن من لا حقيقة عنده أن المعلومات متى كانت متناهية كان علم الله تعالى متناهيًا، وهيهات ما قدروا الله حق قدره، فالمعلومات هى المتصفة بالنهاية من حيث تقبل التناهى حتى زعم أكثر المتكلمين أن الكيفيات لا يقال متناهية أو غير متناهية، فكيف بعلم البارىء تعالى ؟ فإنه ليس من قبيل الأعراض ولا من قبيل الجواهر، فكيفما أدرت المسألة رجع حكم النهاية إلى المعلوم لا إلى العلم وذلك لا نقص من قدر الله تعالى ولا يقال له بذلك عاجز.

الفصل الثالث في ترتيب الحركات

لا خفاء على ذى بصيرة أحاط علمًا بما قررنا من افتقار العالم إلى البارئ تعالى وإثبات العلم له، فإن المعلوم لايخرج عن العلم إذ ذرة في السموات أو فى الأرض لا تتحرك أوتسكن إلا وهى مقيدة فى علم البارئ تعالى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى وما من حركة ولا قبض ولا بسط ولا وسوسة ولا هاجس إلا والبارئ تعالى عالم بذلك الآن كعلمه فى الأزل وكعلمه بعد انقضاء الفعل، وكيف لا وقد قدمناه أن أكثر المنتمين إلى الحذف والعلم بالإله جل جلاله برهنوا على أن الفلك عالم بجزئيات العالم، وقد أقروا بأن الفلك مسخر لمدبر عليم قاصد بحركته التقرب لبارئه تعالى، فمن أولى باتصاف الكمال السيد أو العبد فسبحانه ذى العرش المجيد والبطش الشديد ﴿**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ [ق: ١٨]. وهو أدنى إلى عبده من حبل الوريد ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [المجادلة: ٧]. وقال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩]. وهذه الآية من

الآى التى هى أم الكتاب، فذكر تعالى أن عنده مفاتح الغيب . ومن قام عنده البرهان بما تقدم طلب معنى تحمل المفاتح عليه، وقد اهتدت الفلاسفة إليه لو أضافوا ذلك إلى رب العزة،. فإن الأسباب ومسبباتها علمها عزّ وجلّ ولا يصح أن يعلمها أولاً ثم لا يعلمها بعد حدوثها إذ ذاك يؤدى إلى تغيره، ويبطل أن يعلمها علمًا كليًا ثم تستجد له علم عند حدوثها وذلك أيضًا باطل، وصح أن الله تعالى عالم بها قبل كونها علمًا بدقائقها لا يعدوه، فلو صح أن يتعداه لخروج عن كونه عالمًا بها. وإذا ثبت ذلك بحسب ما ترتب فى العلم ترتب فى الوجود فلا يعدو منها شئ علمه وإن أردت مثلاً فالخبز لا يخبز ما لم يكن عجينًا، ولا يصح أن يكون عجينًا ما لم يكون دقيقًا، ولا يصح أن يكون دقيقًا ما لم يكن قمحًا، ولابد من طحنها ولابدّ من حجر طحين ومن محرك للرحى وصفات المحرك. فهذه أسباب لازمةضرورية لابدّ منها ، فهكذا فافهم البارئ مع علله تبارك وتعالى، فالأسباب هى المفاتيح والمسببات هى المفتوحات بها، ولايصح أن يستولى عليها غيره ومن علم بعضها فبتعلمه ومن علم بعضًا لا يأتى عليه جميعًا كائنًا من كان نبيًا مرسلاً أو ملكًا مقربًا، وذكر تعالى الظلمة نهاية فى تعظيم علمه بالأشياء الغامضة التى فى غاية الغموض ، وكذلك ذكر الرطب واليابس من حيث إن كل رطب يقتضى البارد والحار وكذلك لليابس إذ ذلك من ضرورته.

فالسموات والأرض وما فيهما فى علمه وله المثل الأعلى كسفرة بين يدى أحدنا يدير ما فيها بما يشاء وعلمه بجزئيات الأمور وما بينهما إلى علمه وقدرته أنزر وأحقر من نسبه السفرة إلى إحاطة علم بما لا يتقدر ولا يتناهى، وإنما هو ضرب مثل لكنه تعالى تقدس عن الجوارح والأدوات والمباشرة وكان اللائق بجلاله أن تنفعل له الأشياء بمجرد قصوده لكونها، ولكن خص بعلمه وحكمته أن يكون العالم على نظام وترتيب ليترتب بعضه على بعض، وهذا نعلمه بالضرورة ولا ينكر ولا يتمارى فيه ولا استحالة فيه . وإنما الممتنع أن يكون فى ملكه ما لا يريد أو يفعل شيئًا محدث دونه أو يحدث ما لا يعلم فى ملكه تعالى وتقدس عن ذلك سبحانه . وإذا حصلت ما تقدم علمت أن مبدأ الحركة منه تعالى إذ قام عندك برهان على جرى العالم كله وترتيبه على السابق وأن علمه لا يتغير، وتقدم لك أن العالم منفعل له وأنه غير مباشر لذلك إذ ليس بجسم مقدر ولا بعرض ولا جوهر والعالم منفعل له، وذلك لازم للعالم لزومًا ضروريًا وهو تعالى مختار والحديد منطبع للمغناطيس بخاصية فيه. وهذا فى عالم الحس فما ظنك برب العزة ذى الجلال والكمال؟

وإذا فهمت هذا فاعلم أن الحركات ثلاثة: إما على الوسط كتحرك الأفلاك، وإما من الوسط كالهواء والأبخرة الصاعدة علواً، وإما إلى الوسط كحركة الحجر إلى أسفل يطلب

مركزه بطبع فيه. ثم هذه الحركة ضربان : ضرورية واختيارية، ولها نسبتان: نسبة نفسها ونسبة إلى بارئها فمتى أضيف فعلها إلى بارئها فهو مختار لها بأجمعها ليس شئ منها إلا بتدبيره وحكمه وقضائه وحكمه له اقتضت كونها على جهة مخصوصة وزمان معين وشخص معين تقدمت تلك الحركة أو تأخرت كانت بالقوة أو بالفعل. وهذا لازم ضرورة.

وأما النسبة الثانية وهى نسبتها إلى المتحركين فتنقسم ثلاثة أقسام: إما مختارة وهذا يختص بالحيوان ، وإما مضطرة وهذا يشتمل الجماد والحيوان وهو إما ملازم وإما عرضى.

فأما الأفعال المختارة فهى موقوفة على إشارة النفس وتحركها والأشياء التى تحت النفس طائعة لها انطباع النفس لبارئها جعل ذلك فى طبيعة الخلقة والنفس منفعلة بإشارة العقل والعقل منفعل لبارئه تعالى. وأما نفوس الملائكة فحركتهم الاختيارية عن عقولهم وعقولهم عن بارئهم فلا عصيان فى أفعالهم البتة كما قال الله تعالى: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]. فهم أبدًا جارون على علم بارئهم تعالى وموافقون لما يرضاه. وأما غير ذلك من الحيوانات المركبة من المواد فلما لم تكن مجردة عن المادة وكان لها علوق بالأبدان وكان للنفس جنبتان: جنبة إلى الملأ الأعلى وجنبة إلى العالم الأسفل، ونعنى بذلك كونها بالفصل المشترك أى هى مأمورة بأن تراعى جهتين جهة الملائكة بأن تكون متشبهة فى الفضائل بها وأن تكون عاكفة كعكوفهم على عبادة بارئهم، فهذه جنبة أمرت بمراعاتها.

الجنبة الثانية: وهى الجنبة السفلى وهى علاقتها بالجسم المنفعل من المواد المركبة من الطباع وهى مولعة بإصلاحه وسياسته كالملك الذى عمر بلده وولع بسد ثغره وإصلاح رعاياه وعمارة أرضه ومقابلة عدوه وجلب المنافع إليه ودفع المضار عنه، وصارت النفس متحيرة تطالبها الجنبتان كل واحدة بأن توفيها من العدل قسطها وتجريها على القانون العدل والسيرة الإلهية. ولما خلقها الله تعالى على هذا النسق والترتيب خصت الحكمة الإلهية الإنسان بأن أعانه وقواه وأعطاه أدوات ومكنه من الجنبتين وأيده من جهة الجنبة العليا بالعقل ليتلقف به عن ملائكة الله ورسله ويفهم به مراد بارئه، فكان حاله مع النفس كعبد بعث إلى ثغر بعثه ملك مطاع الأوامر مخوف الزواجر فأمره بسد الثغور وإدرار الأقوات ومقاتلة الأعداء وأن يطابق غرضه مع بعده عنه، ثم قال: قد مكنتك من ثلاثة أشياء: تكون عونًا لك ولا حجة لك على بعدها أحدها الثغر الذى بعثتك إليه، فقد أكملت قصوره ودوره وحصونه وجدرانه وأنهاره وأشجاره وثماره وآلاته ما تكررت وتناهت.

الثانى: دفعت إليك عبيدًا وأعوانًا وخدّامًا وجعلت فى طباعهم الانفعال لك فمر بما شئت فيهم تمتثل إن شئت من حق أو باطل، لا يخالفون رغبتك ولا يعصون إمرتك، فعليك بالسيرة الحسنة فيهم ولا تغتر بتمكينى فإنى ذو بطش شديد وإن حلمت.

الثالث: إنى دفعت إليك وزيراً حكيـمًا عليمًا مـتطلعًاعلى ما فى العالم بـأسره عالمًا بالسيرة الحميدة والطرق الرشيدة، عـارفًا بعواقب الأمور وقد أحللته من نفسى بمنزلة الوزير وأكرمتك بأن جعلته وزيرك فاحذر أن تنفذ أمرًا دونه ولا تغتر بما جعلته فى طباع العبيد من طاعـتك ولا بما جعلت فى نفـسك من القوة فـما غبن من استـشـار ، وهذا الوزير الذى يستمد من آرائىْ فى كل حين فـقد تحققت ذلك منه لأنه لا يعصينى طرفة عين فـصار العبد فى الثغر بهذه الثلاثة أشيـاء. فمثال النفس مثال العبد، ومثال الثغر مـثال الجسم، ومثال ما فيه من العدد والأقوات مثال ما فى الجـسم من الطبائع والقوى حسب ما ذكرناه فى المعراج الأول. ومثال لوازم الثغر ونوائبه مثال ما يقوم به الجسم من الأغذية والمنافع، ومثال الوزير مثال العقل، ومثال الملك مثال البارئ تعالى وله المثل الأعلى.

فإذا فهمت هذا فـاعلم أن النفس منبثة القوى فى الجسم كمـا قدمناه، وأن الله تعالى سخر الله الحواس البـاطنة والأعضاء الظاهرة بالطبع فمتى تحـركت إلى أمر ما تأتى هذا فى طباعها ما لم يمنع مانع من ذلك الأمر. فإن اعتبـرنا جهة المنفعل فهى مضطرة، وإن اعتبرنا جهة النفس فى نزوعـها وانبعاثها للمطلوب وسبب حـركتها هل هو إرادى أو اضطرارى، قلنا: هذا محل غموض عجز أكثر الخلق فيه عن النهوض وذلك لبعد غوره ودقة مسلكه، وهذه المسألة المعـروفة بالقدر والنزاع فيـها من خلق آدم عليه السلام إلى هلم جـرًا، وحقنا لضـعف قوانا وقلة اسـتعـمال عـقولنا الموهومـة لنا واشـتغـالنا بالرذائل الدنيوية والخـداع الخزعبلاتية أن لا نتعرض لهذا المقام، فلكل مقام مقال ولكل طريقة رجال، ولكن نخوضها خوض الجبان الحذور لاخوض الشجاع الجسور، فـتقول: قد قدمنا انقسام الحركات وإن بناء الكلام على حركات الإنسان ولا شك أن منها الضرورية والاختيارية.

فأما الضـرورية، فطبيعة لازمة سنتـكلم عليها عند تكلمنا عليهـا إن شاء الله تعالى كلمة ولم يختلف أحد فـيها أنه لا يتعلق بها ثواب وعقاب، وأما النزاع فـى الاختيارية فإن هذه مرتبطة بالتكاليف فلابدّ من فهم المثال الأول فهـو تمهيد قدمناه لهذا الموضع، فنقول قد قدمنـا أن للنفس جنبتين مـثلنا ذلك بالوزير والثغـر، فالجنبـة العاليـة جنبة الوزير والجـنبة الخسـيسة جنبة الثـغر، فمـتى كانت النفس تحركت نحـو الفضائل فـذلك تلقف عن العقل والعقل عن بارئه فـهى مثابة على تحركـها ونزوعها إلى غـرض مولاها، والمفعـولات واقعة بفعل الله تعالى وتحركها نعنى عند انبعاث الداعية عند إنصاتها إلى العقل وحقيقة الإضراب عن الثغر ودواعيـه واستعمال العلم بتنظيف المحل إذ لا يرد إلا على محـل قابل له بإزالتها الصوارف والموانع بإشارة العقل، وتدبيره هى مثـابة عليه من حيث إنها واسطة إلى انفعال الأجسام، وكثيـرًا ما قدمنا أن العالم منقسم إلى عقول فاعلة مـجردة. وهى الشريفة، وإلى

أجسام، خسيسة وهى الكثيفة التى هى المفعولة كما أن العقول فاعلة. ولما استحال على العقول المجردة المباشرة وكانت فى طرف من مضادة الأجسام كما أن العلم فى طرف والجهل فى طرف، وكان ضداً مطلقًا قضت الحكمة الإلهية لها بأن أظهرت تأثيرها بتدريج فجعلت نفسًا ممتزجة تشبه العقول من وجه والأجسام من وجه، وذلك راجع إلى مناسبة والمناسبة راجعة إلى وجهين: إما إلى جنبة أسفل فبالرذائل وإما إلى جنبة أعلى فبالفضائل. فالنفس معلقة بينهما والأجسام تنفعل للنفوس والنفوس للعقول والعقول للبارئ سبحانه، فالمبدأ الأول هو الإله فخروج الأمر من عنده كخروج الأمر من عند الملك إلى الوزير. ثم من الوزير إلى الحاجب، ثم إلى المضروب أو المكرم، والله المثل الأعلى فالرب سبحانه هو المبدأ والطاعات متى خرجت إلى حيز الفعل فهى من الله تعالي، باتفاق الكافة متى خرجت إلى حيز الفعل فهى من الله تعالى والنفس مثابة على جهة التوسط من حيث إنها آله، وما مثل ذلك إلا مثل إكرام الشرع لأجسام الموتى بالتنظيف والأكفان والحنوط والقبور وتحريم إهانتها وإحراقها، وإن كان لا لحسنة لها فى ذلك بل الفضل الإلهى لا حد له. ولا يجرى على مقدار. ولو كان البارئ تعالى لا يفعل شيئًا إلا باستحقاق الفاعل تحقيقًا لمثوبته لم يكن كريمًا مطلقًا ولم يطلق عليه لكن من عدله، فإن العادل من قارع الحسنة بالحسنة والكريم من وهب من غير يد متقدمة، فخص تبارك وتعالى الأجسام بالمكرمة من حيث إنها كانت آلات مستعملة فى الطاعات مع اتفاق الخلق أن للفعل تحقيقًا للأرواح، فكذلك النفس بالإضافة إلى العقل يكرمها البارىء سبحانه على جهة الوساطة وإن كانت لا فعل لها تحقيقًا للمشير بذلك والملهم إليه والمحرك هو العقل. إذ الحاجب وإن شكره المكرم من جهة الملك فالوزير أحق بالشكر من حيث بلغ إليه فليفهم أن العقل مشكور من جهة الوساطة وأن الشكر المجرد والحمد المؤبد لله وحده الذى كان المبدأ، فلو لم يرد التوفيق من عنده لما كان للعقل ثبوت أصلاً إذ هو مربوب ، فالجواد المطلق والكريم المحض هو الله رب العالمين ولم يشك ذو عقل أن الفضائل من الله، وإنما اختلفوا فى الشر فزعمت المعتزلة أن الشر ليس من الله تعالى. ولما رأوا تلازم الأفعال أخرجوا الفعل إلى العبد وجعلوه مستبدًا به.

فإن قيل: الإشكال باق فإن الحركة التى هى الصلاة مثلاً إن كانت فعلاً للعبد فلا مدخل للبارئ تعالى فيها، وإن كانت لله فلا مدخل للعبد فيها ويستحيل أن يكون الفعل مشتركًا كما زعمت الأشعرية .

قلنا : الحركات مضافة إلى الأجسام فبطل التقسيم، والنفس لا حركة لها فى نفسها فإنها إنما لها الإشارة والتدبير والجسم معها كالمغناطيس مع الحديد، ولا يقال للحديد إذا تحرك إن المغناطيس حل فيه فظهرت الحركة عليه، بل فعل فيه بخاصيته فبطل السؤال.

فإن قيل: إن بطل فى الحركة فلا تخلو النفس عن الإرادة والسؤال فى الإرادة باق.

قلنا: إرادة الخير تابعة للعلم، وقد قدمنا أن النفس تابعة للعقل والتحرك من جهة العقل خير محض فهو محرك من جهة البارئ تعالى ، وليست أعنى الحركة الجسمانية، بل أعنى الشوقية النزوعية وهو عكوفها والتفاتها إلى الجنبة العليا، وحقيقة ذلك راجعة إلى ترك جنبة أسفل، والترك ليس هو بفعل وإنما هو عدم فعل شيئان : النزوع وهو فعل الله تعالى، والثانى وهو ترك الأضداد وهى ملاحظة الجنبة السفلى وذلك ترك والترك عدم وليس بفعل.

فإن قيل: الترك إذا كان اختيارًا أو اضطرارًا لله فالسؤال لازم.

قلنا: هو اختيارى من وجه واضطرارى من وجه آخر، وفهم هذا يستدعى تجديد عهد بما سبق، وهو أن النفس وإن سلطت على العالم الأسفل فهى تتوصل إليه بآلة الجسم، ثم أفعالها تظهر فى الجسم فى مواضع عشرة أحصيناها فيما تقدم. فمنها، الحواس الخمس من الشم والذوق واللمس والسمع والبصر. وهذه علة وسبب للقوى الخمس الباطنة، أعنى القوة الخيالية والذاكرة والحافظة، فإن هذه القوى كالجواسيس فى المدينة يرفعون الأخبار إلى الخدمة والخواص كالكتبة والحجاب والوزراء، فما يقيد عند الجواسيس يرفعونه إلى الكتبة وما يقيد عند الكاتب يرفعه إلى الملك وهى النفس. ثم اختلفت مدركات الحواس الخمس فكانت حاسة البصر موكلة بعالم الألوان على اختلافها فى الصفات والمقادير، وحاسة الذوق بكل مطعوم، وهكذا إلى تمامها وكلما رفعت من هذه محفوظة عند الكتبة الخزان، وقدقلنا: الجسم كالثغر وإن النفس مشغولة بافتقاد ثغرها فى كل دقيقة فلزوم هذه المدركات للنفس ضرورى أعنى عند صرف الهمة إليه يلزم ذلك طبعًا، فإنك متى حدقت بصرك إلى مرئى حصلت لك رؤيته بالضرورة شئت أو أبيت، وكذلك سائر الحواس الخمس فلا تطويل فحوصل الإبصار للنفس مختار، فصح وثبت أن الجنبة السفلى الجسمانية أفعالها جسمانية محضة والأفعال الجسمانية كلها ضرورية طبيعية فقد انقضت المباحثة وتفرغ الكلام من هذا الجانب من حيث وقفنا الأفعال بعد أسبابها على إرادة النفس، وإرادتها هى الفيصل بين الجنبتين جنبة أعلى وجنبة أسفل، كما وكلت بسياسة جنبة أعلى على وجه مخصوص وكان له وجهان إلى جنبة اضطرارى واختيارى، فإذا استعملت السبب حصل المسبب بالضرورة، فحصول المسبب من جهة أعلى أو من جهة أسفل ضرورى لا ثواب عليه، فقد استرحنا من هذا الطرف وهو الطرف الضرورى وبقى الاختيارى فوقفنا من جهة الجنبة السفلى على نزوع النفس وإرادتها، وكذلك أيضًا من جهة فوق فتوقف البحث والنظر على هذه الدقيقة وهى الإرادة والنزوع، وقد قدمنا أنه تارة يكون اضطراريًا وتارة

يكون اختياريًا محضًا، وذلك لا يتحصل برهان مخصوص بل النفس يدخل الخير إليها من جهة العقل وهو انفعالها للعقل عند إشارته فهى مثابة لنزوعها ونزوعها يظهر تأثيره فى الجسم إذ لايظهر الأثر فيها بأكثر من الشوق والعشق المطلق فتثاب على جهة الوساطة كما قدمناه.

وأما الشر: فيدخل عليها من جهة الخير فيكون أولاً خيرًا ثم ينعكس. ومثال ذلك: أنك متى ركبت دابة استعرتها من دار رجل فتصرفت بها فى حاجتك، وكانت دابة جموحة صعبة المرام فخطرت بها على دار مولاها فنزعت إلى دار سيدها فصرفت عنانها فتقاعست فعاقبتها بالسوط وآلمتها وتحملت عليها فلا شك أنك يمكنك صرفها وقد تعديت، فإن حقك أن لا تخطربها على دارها. فلو أنك سقتها إلى دار سيدها وأدخلت يدها عتبة الباب، ثم لفحتها لم تطعك بوجه بل تدخل كرهًا وربما جرحت رأسك وآلمتك وكنت عند العقلاء مذمومًا، فإنك مكنتها من طبيعتها. ثم أردت حجابها وقد كتب الله تعالى فى كتابه السابق وقضى بقضائه المحتم بأن يمكن الطبائع من مطبعاتها. فالنار متى تمكنت من القطن أحرقت ضرورة، فليفهم أن القوى الحيوانية المنفعلة عن الطبائع لها نزوع بالطبع إلى مركزها والروح الحيوانية الشهوانية بالطبع والعنصر تميل إلى عنصرها كالحجر يهوى إلى أسفل، والنفس متى مكنت الجواسيس ابتداء حتى صار لهم ذلك ملكة فذلك لازم ضرورى خلقه الله تعالى، وإنما تعاقب من حيث لم تحرس جواسيسها ابتداء، وهذا كما أنا نقول للرجل النظرة الأولى فجأة لك حلال، فإنها لازمة ضرورة فلا يتعلق التكليف عليها، وإياك والثانية فإن العين إذا انفتحت على صورة جميلة فمالت الطبيعة إلى الطبيعة لزم ذلك لزومًا ضروريًا. لو انفرد لم تعاقب النفس عليه، وإنما تعاقب على إهمالها إشارة العقل فى الكف ابتداء، فمتى تكررت الجواسيس على القوى الباطنة لزم النفس ذلك وشغلها فهى مأمورة أن تلزم الجنبة العليا، والأمر كله لله تعالى فهو المخترع للأفعال، وهو موجد الأسباب الأول، فالمسببات أفعاله فهذا لا حيلة فيه وهذا أقصى الغرض من تكرير هذا المسألة.

وفى الحديث: حاج آدم موسى فقال: أنت الذى أخرج الناس من الجنة؟ فقال: أتلومنى على أمر قد قدر علىّ قبل أن أخلق، فغلبه آدم عليه السلام وشهد له رسول الله ﷺ حيث قال: «**فحاج آدم موسى**» فإذا الأشعرية والمعتزلة والمجبرة قد تكلموا على الأفعال الجسمانية ولم تتعرض لها، وإنما تكلمنا على النزوع الشوقى وجعلناه السبب ووافقنا الجبرية فى الأفعال الجسمانية. وهذا منتهى للكلام فى الجنس الإنسانى من الحيوان.

وأما حركات البهائم فهم موكلون بالجنبة السفلى، عاكفون عليها لا علم لهم بالجنبة العليا،وكيف تنكر ذلك وأنت تبصر كثيرًا من الخلق كأصناف السودان وغيرهم لا فرق بينهم

وبين البهائم لا يعرفون الملائكة ولا بارئهم، بل يعبدون الثمار والأشجار كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]. ومحرك الحيوان ما تورد الحواس على القوة المتخيلة فهى فيهم كالقوة العقلية، فالدابة تتأدب بآداب القوة الخيالية متى انتقش فيها أمر محذور، فإنها إذا رأته حذرته وذلك أمر نافع ولا يبعد أن تكون لها قوة الحافظة تحفظ بها الصور.

وأما العوالم العلوية فترتيب حركاتها لا يحيط بها إلا الله تعالى وحده العالم بمبدئها، وإنما أدركنا منها ما تكرر علينا بالتجربة أو بإشارة العقل إليه إشارة جميلة. وذلك كنمو أجسامنا بالأغذية والأغذية من النباتات والنباتات كائنة من الماء والتراب فهى منفعلات عن الهواء والنار وهما كالفاعلين، وهذان بالإضافة إلى الماء والتراب يكونان فاعلين بمعنى حصول التأثير لهما حصول الذبح بالسكين، ولكن إذا انفردت الشاة، والسكين لم يتم الفعل أصلاً ولا بدّ من سبب جامع، والنار والهواء امتزجت معهما أشعة الكواكب وازدحمت فى منقعر فلك القمر ودارت بالأرض كرتها كما تدور الهالة بالقمر، ثم هذه الأشعة تتحرك بحركات هى تابعة لها وهى الكواكب السبعة، وقد زعمت الفلاسفة أن هذه الكواكب حية وأنها مع العالم الأسفل كنحن مع أجسامنا. وأن لها الفعل الاختيارى والفعل الاضطرارى. وهذا ابتداع لا ننكره فلم يدل على إبطاله كتاب ولا سنة ولا إجماع، ومن أنكر كون ذلك من الناس فعلى طريق التغليط ولا برهان البتة، فلنجعل ذلك جائزاً إذ مذهبنا أن البارئ تعالى هو الفاعل المطلق وأنه مسبب الأسباب وموكلها بمسبباتها، فسواء على مذهبنا كانت حية أو جماداً فقصارى الأمر أن تكون كنحن ولا ننكر وجودنا ولا تصرفنا عالمنا، ومنافرة هذا رعونة محضة وحماقة تامة ، ولنقل قولاً يهون ذلك فربما زعم السامع أن تكون الملائكة مرئية والظواهر دلت على أنها محجوبة فنقول: الموجودات على ثلاث مراتب موجودات تعقل وهى موجودة ولا ترى. وهى العقول فهى مدركة تدرك بالعقول لا بالأبصار. الثانى: النفوس وهى مدركة بالعقول ولا يجوز أن ترى. والثالث: وهى تدرك بالعقول والأبصار ولا تدرك هى أنفسها ولا غيرها. فما نشاهده من العالم الأعلى إنما هى أجسام النفوس والعقول، وحقيقة الملك إنما هى نفسه لا جسمه كما أن حقيقة الإنسان نفسه ولا يدرك إلا جسمه فقط. ونحن لا ندرك نفسه بل انقطعت العقول فى درك ماهية نفسه بالبصيرة فكيف بالبصر؟ فلنتكلم على هذه الأجسام الظاهرة. فنقول: سبب الانفعالات الهواء والنار وما تحت فلك القمر مرتبط بالدوائر ودوران الفلك التاسع، فإنه منقسم إلى اثنى عشر برجًا، ثم الكواكب السيارة مقسطة عليها فمنها ما له بيت ومنها ما له بيتان، ثم لهذه الأجسام طبائع مختلفة حاصلها الحر والبرد والرطوبة واليبوسة. وهذه الطبائع وسائط لانفعال المنفعلات

فتمر الكواكب على البروج واختلاف الحركات، وكون هذه الكواكب فى درجاتها ومراكزها واختلاف مطالعها كما تقول مثلاً: إذا جمعت الشمس والقمر فى رطب دل على المطر العظيم. وتفصيل هذا محال على علم النجوم، وليس هذا موضعه فلكل مقام مقال وإنما غرضنا التنبيه.

وأصل هذا كله الحركة المشرقية التى هى المشرق إلى المغرب، وقد حكينا عن الفلاسفة فيما تقدم علة ذلك وكيفية تقسيمهم العقول والنفوس وأنكرنا عليهم كون البارئ تعالى كذلك علة وأنها ملازمة له، وأنكرنا دعواهم الحصر لا غير وإلا فيجوز مثل ذلك جوازاً يرده إلى طريقتنا فى التوحيد المحض. فإن معتقدنا أن الله تعالى واحد وحدانية محضة صرفة وأنه هو القائم على العالم حتى لو تصور عدمه لم يكن له ثبوت أصلاً، والتصديق بما جاء به المرسلون، ومن هذه الحركات الدورية تتناتج الحركات وتتناسق، وقد تكلمنا فى ذلك كلامًا بليغًا فلا معنى لتكراره.

فإن قيل: بم تنكرون على من يعتقد أن هذه الأنوار الظاهرة فاعلة أو عالمة أوحية، فإن الله تعالى يقول: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥]. وربما قالت المجوس إن هذا النور إله؟

قلنا: نعتقد لهذا فصلاً فى المعراج الذى يلى هذا إن شاء الله تعالى وهو المعراج الرابع.

المعراج الرابع

اعلم أيها الأخ أن الله تبارك وتعالى هو نور السماوات والأرض، ولسنا نعتقد بكونه نورًا كونه شعاعًا منبسطًا مرئيًا على الجدران، بل ذلك على نسبة أُخري. فاعلم أن النور يطلق على ستة أشياء:

أحدها: نور حسيس بحسب عنصره لا دوام له فهو عرض سريع الزوال مفتقر إلى مواد عنصرية، وهذا هو ضوء النيران.

الثاني: هو أشرف من هذا وإن كان عنصريًا فهو شريف بحسب نسبته وبحسب نفسه، وهو نور البصر فهو يدرك الأشياء ويدرك الألوان والمدركات.

الثالث: نور شريف من العالم الأعلى وله شرف بحسب نفسه وبحسب ما ينسب إليه، وهو أشرف من النور البصرى وهو نور الشمس فإنه علة لوجود العناصر ووجود النيران والأجسام المبصرة وهو لا من مادة مركبة، ولذلك عبدته المجوس.

الرابع: نور شريف هو نور محض قائم بنفسه يدرك الأشياء على حقائقها ويدرك نتائجها وهو العقل والنفس، وهذه الأمور منقسمة إلى ما يدرك به ويدرك نفسه وهو العقل،

وهو نور حقيقي وإلى ما يدرك به ولا يدرك نفسه كالنيران والبصر والشمس، والقرآن يسمى نورًا وهو الخامس، والرسول يسمى نورًا ولكن يستعار لهما من هذا معنى النورانية ولهذا يسمى العلم نورًا.

الخامس: النور المطلق وهو البارئ تعالى ومعناه في الروحانية أكثر من معنى العقل، فإن معنى العقل هو نورانية العقل وهي كشف الحقائق وبهذا المعنى يقال للبارئ تعالى الحق المبين والعالم بخفيات الأمور. فهذه ستة أنوار بالاستعارة للقرآن والرسول ﷺ حقيقتها البارئ تعالى وهو مجاز فيما عدا ذلك.

فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

قلنا: المراد بهذا النور العقلي، فههنا أربعة أشياء: المشكاة والزجاجة والمصباح والزيتونة. وأما المشكاة فمثالها النفس، ومثال الزجاجة القوة الخيالية، والمصباح كالعقل، والزيتونة التي هي الشجرة العقل الفعال، ولما كان المصباح الذي هو النور لا بدّ في إظهار ثمرته وحكمته للأجسام من آلة جسمانية تشاكل الأجسام كالنور يفتقر إلى زيت يناسب النار بالحر ويناسب الفتيل بالرطوبة، فكثيرًا ما قدمنا أن العقل لا يباشر كانت واسطته النفس فهي المشكاة،ثم كانت النفس لا بدّ لها من حيلة في معرفة المحسوسات كما قررناه فجعلت له الحكمة الإلهية قوى. فمنها القوة الخيالية التي يرسم فيها ما تورده الحواس، فكان مثالها مثال الزجاجة، وإنما خص الزجاج لانطباع المرئيات فيه كالمرآة الصقيلة التي يبصر فيها، ولأن الزجاجة أصفى الجواهر من حيث يشف ما وراءها، والأنبياء عليهم السلام يعلمون الغيب بواسطة القوة فيعبرون الصورة ويفهمونها. ولها علم مختص وهو علم تعبير الرؤيا ينفرد بخواص هذه القوة. وأما الشجرة، فهي العقل الفعال من حيث انفعلت الأشياء عنه فلما أن المصباح الواحد توقد منه المصابيح لم يقل سبحانه نبت، فإن النبات يدل على نقصان الأصل وإنما قال تعالى: ﴿توقد﴾. فنبه بالوقيد على أن الشجرة لا تنقص، وعلى أن هذه الشجرة ليست الشجرة المعهودة، لأن الشجرة لا يوقد منها وخصها بالزيتونة لدوام ورقها وفوائدها وغزارة منفعتها وكثرة ورقها وشعبها، وأنها وإن كانت زيتونة فيخرج منها نار تستضئ بها، ووجه المشابهة واستيعابه يطول، وقد شرحناه في كتاب (مشكاة الأنوار). وأما النار فهي عبارة عن الأنوار الإلهية، ويحتمل وجهًا آخر أن تكون الشجرة الرسول ﷺ والنار الملك.

فإن قيل: عظم اختلاف الصوفية في هذا الغرض من حيث تحقق الملاءمة والملازمة النورانية، وهو المصباح والمشكاة والزجاجة والشجرة والنار، فقد جعلت مثال المشكاة النفس، ومثال الزجاجة الخيال، ومثال المصباح العقلي الجزئي، ومثال الشجرة العقل

الكلى، ومثال النار النور الإلهى وإشراقه. وهذه كلها لا توصف بالكثافة والتجسيم على ما تقدم. وقد وصف الله تعالى ذلك بأن قال: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. فبهذه الموجودات تشاكلها وتناسبها إذا تشاكلت وتناسبت لصفاء النفس وبعدها عن الكدورات فظاهر مذهبهم يشير إلى الحلول وقد أنشدوا فى ذلك:

رق الزجاجُ وراقت الخمرُ
وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ
وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

قلنا: عين الحلول واعتقاده خطأ محض وسفاهة صرفة.

فإن قيل: قول الصوفية مشهور حتى قال أحدهم: أنا الحق، وقال آخر: سبحانى. وقال: ما فى الجنة إلا الله.

قلنا: إذا قررنا إبطال الحلول أتينا على مذهبهم. فنقول: حقيقة الحلول انطباق جواهر على جوهر أوجسم على جسم أو عرض فى جوهر وقد قدمنا بالبرهان الحق أن العقول والنفوس قائمة بأنفسها لا تحمل شيئًا البتة ولا هى محمولة، فأغنانا ذلك عن إعادته وهذا فى رب العزة أعظم.

فإن قيل: فيرجع الكل إلى الإله وتكون العقول والنفوس لايفارقها البارئ تعالى إلا بالفصل، فإنهم اجتمعوا فى الجوهرية وحقيقة الحياة والقيام بالنفس.

قلنا: لا نثبت للبارئ تعالى ما أثبتناه للنفس، فإنها لا قوام لها وقد قام البرهان على حدوثها وذلك يبطل أن تكون هى هو، فإن فى ذلك لزوم أن يكون العالم كله آلهة وهو محال، ويبطل أن يحل النفوس أو يتطبع فيها انطباع الخمر فى اللبن كما زعمت النصارى فى المسيح، فإن ذلك من صفات الأجسام فلم يبق إلا أن اللازم راجع إلى معنى الانفعال وإيجاده بالفعل أى وقوف الإشارات والحركات عليه فيكون هو المحرك القابض الباسط والنفوس معه كالحديد مع المغناطيس على وجهة التمثيل. ولله المثل الأعلى ونفى الوساطة على الطريق التى قدمناها. ومن حقق من الصوفية وعلم وقوف الأشياء عليه وأن الأمور لا قوام لها دونه. قال أحدهم: ما فى الجنة إلا الله تعالى مبالغة فى التوحيد، وقال آخر: سبحانى فإنه رأى الياء مكان الإضافة، فإن الفرق ضرب من الشرك فى قوله سبحان الله، فإجراء الأوصاف لا يعتد بها إلا الفصل.

فإن قلنا: سبحان الكريم نفى للبخل، وإذا قلنا: سبحان الله فمعناه نفى الشريك ولا يكون النفى إلا مع توهم الشريك، فالموحدون منهم بلغ بهم التوحيد إلى أن رأوا التبرؤ منه

سوء أدب ولكن الكلام إذا وقع بالضرورة إليه والتجئ إلى النطق به لا معنى للهرب فقد وقعوا فى أشد كما زعمت الفلاسفة أن البارئ تعالى لا يقال له موجود، فإن ذلك يؤدى إلى دخوله مع الموجودات تحت الجنس وهذا نفى معنى وهو سهل.

المعراج الخامس

هذا المعراج معقود للنبوة والنبى ومعنى ذلك. والأمم فى ذلك على ثلاث فرق: فرقة تنفيه وفرقة تثبته، وهى فرقتان:

طائفة: تزعم أن ذلك أوجبه مولده، فكانت لنفسه قوة تنفعل لها الأمور وأوجب لها المولد أن يكون فاصلاً حسن السيرة، هذا مذهب الفلاسفة.

والفرقة الثانية: اعتقدوا معنى النبوة، وهو حصولها لشخص يخرق الله تعالى العادة على يديه بإظهار فعل غريب، واشترطوا أن ينضم إليها ثمانية شروط:

أحدها: أن تكون فى زمن تصح فيه الرسالة.

الثانى: خرق العادة بالمعجزة.

الثالث: أن يقترن بدعواه تحد.

الرابع: أن يوافق دعواه بعمله.

الخامس: أن يتعلق مقاله بالقلب.

السادس: أن لا يظهر على وجهه ما يدل على كذبه.

السابع: أن يكشف القناع فى التحدى.

الثامن: أن يعجز الخلق عن معارضته، ويلتحق بهذا شرط تاسع وهو كون المعجزة من جنس ما يتعاطاه أهل زمانه، ثم ما يحصل إلى الرسول إما بواسطة أشخاص الملائكة بأن يتمثل له بشرًا سويًا أو على صورة ما، وإما بغير واسطة بأن ينقش الله تعالى ذلك نقشًا فى الحاسة المتخيلة، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا**﴾ [الشورى: ٥١]. وهو مايحصل فى قوته الخيالية وهو المعروف بالإلهام، كما قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ**﴾ [القصص: ٧]. أو من وراء حجاب، أو بواسطة ملك من الملائكة وهو الحجاب، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء، ونبينا ﷺ قد ظهر على يده من خرق العوائد ما ظهر على أيدى الرسل، وذلك ينقسم إلى ما بقى وإلى ما كان، فمعجزاته من شق القمر، وكلام الذراع، وحنين الجذع، واستدعاء المطر، ونبع الماء من بين أصابعه، وجعل قليل الطعام كثيرًا وغير ذلك، وأما ما بقى فالقرآن وما أعلم به من الأشراط والدلول، وقد كان ذلك ونحن نشاهده، ويبطل أن تكون النبوة بمعنى الملك، فإن الأنباء بالغيب معنى آخر

خلاف السياسة، ويبطل أن يكون ذلك سحراً، فإن الساحر لا قيام لسحره إلا به، ولهذه الشريعة خمسمائة عام، ثم هذا القرآن الذى عجز الخلائق عن آخرهم عن الإتيان بمثله إلى هلم جرا، وكان ﷺ أمياً نشأ بين أُميين لا معرفة لهم بالعلوم، فأتى بهذا القرآن الذى اشتمل على علوم الأولين والآخرين، وكل من شك فى نبوته عليه السلام، فليتأمل بعده عليه السلام عن العلوم ثم لينظر القرآن وما ينطوى عليه من الصنائع العلمية من الإلهيات والمنطقيات والجدل والخطابة وسائر الأشياء التى حصلها الأولون والآخرون من العلوم وسمته علماً أو فلسفة وكيَّف فيه أشكال البراهين قائمة والجدل على وجهه والأقيسة على وجهها مع ما تجرد إليه من العلم الدينى، وهى سياسة الخلق المعبر عنها بالأحكام الشرعية وهو يتيم نشأ فى حجر عمه لم تعلمه قط قريش ولا مارس علماً، ولو مارس علماً ودرس لما انتهى أبد الآباد إلى النظم فضلاً عن هذه المعانى الغريبة، وكل من حاول معارضته قصد معارضه النظم وهو قصاراه، ثم لم يأت إلا بالكلام الغث المشترك، ولو أنه تحرى من تعاطى المعارضة إلى انطواء القرآن على هذه الصنائع العلمية وقصد تضمينها لما تعاطى المعارضة أبد الآبدين، ولتقنع حياء مما جاء به ومن شك فى أن ذلك أمر إلهى وتأبيد ربانى، فقد طبع الله على قلبه نعوذ بالله من ذلك، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه كما هدانا من ظلمات الشك وعلى آله وصحبه ومحبيه وسلم تسليماً.

المعراج السادس

ما أتى من القول من طريق الرسول ﷺ ضربان: طلب وخبر. والطلب ضربان أمر ونهى، وقد تكلمناعلى الأمر والنهى وأُصول الأحكام الشرعية وكيف تستعمل فى رسالة الأقطاب، وأما الخبر فينقسم إلى أخبار عمن مضى كأخبار الأمم وعما يأتى كأمور الزمن وأنباء الآخرة وكل ما نطق به القرآن وتواتر عن الرسول ﷺ فهو يقين لا شك فيه. وهو منقسم إلى ما يحتمل التأويل وإلى ما لا يحتمل، فكل ما احتمل التأويل عذر المؤول له وما لا يحتمل التأويل وتركه تارك عن قصد كفر بتركه. والأمور المشكلة ثلاث مسائل: إحداها: مسألة النفس وقد فرغنا منها. الثانية: مسألة حشر الأجساد. الثالثة: الجنة والنار.

مسألة: قال الله تعالى: ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده**﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وهذا هو نص فى الإعادة، وقال تعالى فى العظام: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [يس: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. وأكثر آى القرآن فى البعث، وهو نص فى إعادة الأنفس إلى قوالب الأجسام ولا مراء فى ذلك ومن امتنع عنه شك فى صدق الرسول أو كفر به عمداً. والمنكرون له فرقتان:

طائفة زعمت أن لا بقاء للنفس، فإن العالم متناسخ تابع لدورات الفلك لا إلى نهاية وقد تقدم الرد على هذه الطائفة.

الطائفة الثانية: وهم من الإسلاميين وهم أكثر المتصوفة المتفلسفة. زعموا أن الأنفس باقية وأن الأجساد لا تعاد، وحجتهم أن الجسم مستحيل عن أغذية مأكولة والأغذية نباتات ولحوم، وربما أكل شخص شخصًا آخر فيجتمع جسم واحد من الأجسام، فلو أُعيد الجسم لبطلت تلك الأجسام المأكولة ولبطل حشرها، وإن حشرت زال جسم هذا الآكل وهذا تطويل يستغنى عنه، فإنا نقول: لا نلتزم لكم أن الله تعالى يعيد عين الأجسام، بل ضمن أن يرد الأنفس إلى خلق جديد وتراه كما فعل ذلك ابتداء، وقد ورد فى الخبر: إن الله تعالى ينزل قطرًا فيكون ذلك أصلاً لخلقة الأجسام وهو قادر على اختراع ما يشاء. وكيف لا، وقد قال علماؤكم المتقدمون من أهل الهند وغيرهم. عمر العالم ستة وثلاثون ألف سنة. وقالوا أيضًا: خمسون ألفًا على اختلاف بينهم فى ذلك. وقالوا: ثلاثة وستون ألف سنة ثم يعاد جديدًا، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ويرجع القطب اليمانى شماليًا والمعمور غامرًا وبالعكس والبر بحرًا والبحر برًا.

فإن قالوا: هذا لا فائدة لكم فيه، فإنه يلزم أن يبدل ثانيًا.

قلنا: ذلك جائز فى قدرة الله تعالى، ولكن الرسل عليهم السلام أخبرت أنه لا يفعل ذلك وأن للعالم ثلاث حالات: حالة عدم تقدمت وحالة وجود نحن فيها وحالة إعادة.

مسألة: قالوا: أنكرنا وجود الجنة والنار يعنى أن تكون لذاتهما وآلامهما محسوسة جسمانية.

قلنا: علة الاستحالة عندكم تأثير الطبائع فى الأجسام بواسطة حركات الكواكب، وقد قال قدماؤكم إن للعالم تحويلاً. وأخبرت به الرسل عليهم السلام وتتابعت على ذلك، فتلك القضية بخلاف هذه، فبم تنكرون على من يزعم أن هذه القضية كما اقتضت أسبابها الفناء تقتضى أسباب تلك البقاء وتكون الحكمة فيها أن تكون غرضًا مقصود البقاء فى الأجسام، وكيف لا. وقد قال الجماهير منكم بل الإطباق على ذلك أن جوهر الشمس لا يقبل البقاء، واتفقتم على أن جوهر الشمس لا يقبل الفناء والجسم عندكم، وإن تركب وكان تركيبه حادثًا فجواهره قديمة ولم يتوال نصب الأسباب على جهة تقتضى البقاء. ثم الجنة والنار عبارتان عن قطرين يكون أحدهما فيه قصور الذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والثمار ثم لمن استقر فيها بقاء بلا موت وواجد هذه اللذات أبدًا لا يألم ولا يحزن ولا يجوع ولا يظمأ ولا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا إلا قيلاً سلامًا سلامًا، والآخر على الضد من هذا وهو النار وبالله الهداية.

المعراج السابع

غرضنا فيه بيان معنى الموت، وهل هو كمال أو نقصان، فالموت فساد المزاج وقصور الجسم عن الانفعال للنفس لعدم الحس والحركة، فمن زعم أن النفس قديمة زعم أنه ترك النفس البدن كالرجل ارتحل عن بيت أُضيف فيه إلى داره وعلى الرسم المتقدم كمن لبس ثوبًا حتى انقطع وتخرق عليه فسقط عنه الثوب وبقى عريانًا منكشفًا، والملك الموكل بالموت موكل بسبب الموت وهو سوق الآلام وبعث النفس على الأسباب المهلكة، فيكون الموت بواسطته ولا يبعد فى العقل أن يكون للنفس ملائكة تتلقاها بالسخط والبشرى كما شهدت به الظواهر. وأما هل الموت كمال أو نقص؟ فحقيقة النقص الرجوع من الأعلى إلى الأدنى، والكمال الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى فإن الإنسان إن كان يرتقى إلى الأعلى بسبب الموت فهو كمال. وذلك أنه متردد فى أطوار الخلقة من كونه ترابًا وغذاء ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحمًا ثم عظمًا ثم تكون مولودًا رضيعًا ثم فطيمًا ثم غلامًا ثم شابًا ثم كهلاً وجاهلاً عالمًا وجمادًا ثم حيًا مدركًا، وما من منزلة من هذه المنازل إذا أضفناها إلى ما قبلها إلا وتجدها كمالاً، والإنسان لو جعل له عقل فى بطن أُمه لما رضى أن يتبدل بما سواها وذلك للألفة وينشد لهذا:

لَمَا تُؤْذِنُ الدنيا به من صُروفِها
يكونُ بكاءُ الطِّفْلِ ساعةَ يُولَدُ
وَإِلاَّ فما يُبْكِيه منها وَإِنَّها
لأَرْحَبُ مِمَّا كان فيه وأرْغَدُ
إذا باشَرَ الدنيا استهَلَّ كأنَّهُ
بما سَوْفَ يَلْقَى من أذاها يُهَدَّدُ

فلولا عدم الألفة ووحشة التبدل لما بكى والنفس خوارة، بل الشيخ الكبير على طول تجربته إذا رحل من داره إلى دار أُخرى يجد ألمًا وسهرًا وربما لم ينم وكذلك الغريب وإنما كانت الغربة مؤلمة لعدم الألفة حتى قال الشاعر فى ذلك:

وَحَبَّبَ أوطانَ الرِّجالِ إليهِمُ
مآربُ قَضَّاها الشَّبابُ هنالكا
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمَ ذَكَّرَتْهُمُ
عُهُودَ الصِّبا فَحَنُّوا لِذَلِكا

وقال آخر:

أحبُّ بلادِ الله ما بينَ منعجٍ إليَّ وَسَلْمَى أن يَصُوبَ سَحَابُهَا

بلادٌ بها نِيطتْ عَلَيَّ تَمَائمي وأوّلُ أرضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرابُهَا

وعلى الجملة: فعلوم الشريعة بأسرها فى الأمر والنهى محذرة هذا المقام ولذلك أمرت الرسل كلها عليهم السلام الخلق بالإقبال عن الدنيا ورغب الزهاد فى ترك الوطن والأهل والولد ورغد العيش. قال عليه السلام: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك فى أهل القبور**». وقال عليه السلام: «**إنما الدنيا كظل شجرة استظل الرجل بها ثم زال عنها وتركها**»، فالمقصد الرياضة وتمرين النفس على الشدائد. وأن تمحى هذه الأمور عن النفس، وأن تزال عنها الألفة، وأن تكتسب بغضًا لهذه الأمور، فإذا ماتت وإن استبسئت ما حصلت فيه فلا تجد غيره فهى مضطرة إليه، ثم لا تلبس إلا يسيرًا وتفرح فرحًا لا نهاية له، وإذا كانت وضرة ومشغوفة بالمال والولد والإقبال على الشهوات والعكوف على الملاذ الدنيوية مع أنها سائقة إلى النفس مذهلاً ومكربًا وشاغلاً عن الموت، فإنه انتقال من ضد إلى ضد وهو هلكة فأمر الرب تعالى لطفًا منه بالعباد أن يكون للعبد بين الضدين تدريج، وقد جعل تعالى لذلك مثلاً ظاهرًا فى الحياة الدنيا فى الأزمنة، فجعلها أربعة أقسام على ممر الشمس فى بروجها، فجعل أعدل الأزمنة تنبت فيه الأجسام وتنمو فيه الناميات وتتلون الألوان وتخرج الأرض زخرفها. وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**﴾ [يونس: ٢٤]. فهذه المدة من الزمان كحال النبات للإنسان والربيع لا يصير بهذه المنزلة إلا بزمن متقدم عليه وهى النقلة الشتوية فإنها باردة رطبة تنزل فيها الأمطار وتسخن فى الأرض وتختمر بها فهى كحال البداية لإنسان. فلو أن الله تعالى يخرج الخلق من الشتاء إلى الصيف بغير فصل الربيع لهلكوا عن آخرهم، فإن الأبدان والنباتات استولى عليها البرد والرطوبة والنقلة الصيفية الغالب عليها المستولى فيها الحر واليبس. فلو خرجوا من البرد المفرط إلى الحر المفرط ومن الضد الذى هو الرطوبة إلى المضاد له وهو اليبس لكانت الهلكة، لكن الله تعالى لحكمته فصل بفصل فيه تناسب الفصلين معًا فأوله بالبرودة وآخره بالحرارة على تدرج خفى لا تحس به الأجسام إلا بعد انقضائه، وذلك بمر الشمس على الثمان والعشرين منزلة فى المنطقة الوسطى التى تجرى فيها الكواكب فلها مشرقان وهما منتهى تحركها فى الأفق الشرقى، فى الطرفين، فإذا انتهت نهايتها فيكون الجنوب فى الآخر ويكون الشتاء بذلك الأفق الأضعف.

فحينئذٍ شعاعها فى المواضع يجذب البلة وتتصاعد به أبخرة البحار، وينعكس الحر

في بطن اللأرض، ويسقط ورق الثمار لأن الماء ينجذب من أعاليها إلى أسفلها من حيث إن الأبخرة الحارة ينفيها البرد من أعلى الأرض فتطلب المركز، فإذا استحرت الأرض استدعت الرطوبات فجذبت ما في النباتات، فإذا زالت الرطوبات من الأوراق والأغصان غلب عليها اليبس فتكمشت وتساقطت ويكون الطرف الثاني، ثم إذا غلب عليه الحر واليبس فيكون القيظ كيفما انجذبت الشمس على تدريج لأنها تقيم في كل برج شهرًا وتقطع في كل يوم من البرج درجة والدرجة لا تحس وهي تسير، فكلما انجذبت زاد حرها وفي ازدياد حرها تسخن الأرض وتتحلل الرطوبات وتسخن أغصان الأشجار من فوق، فإذا استحر الغصن استدعى الماء وطلب رطوبة الجزء الذي تحته ويستدعيه الذي تحته من الذي تحته حتى يقع الاستدعاء من قاع الشجرة، وتستدعيه الشجرة من الأرض والأرض وبعضها من بعض، فإذا حصل الماء في العود أذابته الشمس وجرى في العود بطبخها وبما تستمد من لطيف الماء ولطيف التراب يحيله الشمس ثمرة، ثم تخرج ما في طبع ذلك العود من الثمرة بإذن الله تعالى.

والشكل يخرج بطبعه الذي ركبه فيه الفاطر العليم بواسطة حر الشمس في إقبالها وإدبارها ودخول الحر في الأرض عند إقبالها وإدبارها حسب ما تمر في البروج، فالشمس جعلها البارئ سبحانه سبب الحرث والنسل وهي علة النباتات والحيوانات والمعادن، إذ سبب المعادن أبخرة تحتقن في الأرض فيكون منها أدخنة كبريتية، فيمر عليها نشع الماء في الأرض فتعقده وهذا مبرهن عند المشتغلين بعلوم التحليل والكيمياء، فإنهم زعموا أن الزئبق ينعقد بإشمام رائحة الكبريت وإمداده من خارج بأن يذاب ويطرح عليه أويغلى ويترك فيه. ثم عند اجتماع الماء والكبريت تكون مادة الجوهر في الأرض، إما باعتدال امتزاج وصبغ فيكون منه الذهب. أو بإفراط فيكون منه النحاس، أو بتقصير خفيف فتكون منه الفضة. هذه الحركة الشمسية متعلقة بالحركة الشرقية، ومثال ذلك الرحى مع قطبها، فإن القطب يقطع شبرًا في شبر وآخر دائرة الحجر تقطع خمسة أشبار أو أكثر في الاستدارة، فكذا الطواحين وكذلك الدوائر والسواقي، فإن الدائرة العظمى المحركة للأحجار التي تدور بحركة الماء تقطع ما مسافته في الاستدارة عشرون ذراعًا أو أكثر، ورأس المغزل يقطع على استدارة دور الدينار والمدة واحدة، وكذلك برهن أصحاب النظر في علم الأثقال والمقادير أن الحركة الكلية هي سبب حركة الأفلاك وأنها واحدة، وكذلك نشاهد الثانية (هي الساقية) يدور الحمار فيها إلى جهة ويختلف دوران تلك الدوائر، فالحمار يقطع على استدارة والقوس الأعظم الذي يكون عليه الطونس يقطع على استدارة في جهة أخرى، ودوائر أُخر تقطع في جهة أُخرى.

قالوا: ولما كانت الشمس حارة نارية الجوهر جعلت الحكمة الإلهية والتقدير الرباني

لها نظيرًا على مضادة طبعها إذ لو دام الحر المفرط لأحرق فسخن الله تعالى القمر يمر ببرده فيبرد ما استحر فيكون النامى معتدلاً بينهما، ثم جعلت حركته سريعة لأن حركته لو ساوت حركة الشمس لما وصل نفعه إلى الناميات إلا بعد فسادها، وكذلك أيضًا لم يصل حر الشمس إلا بعد فسادها انفعل عنه وكانت حركته سريعة. قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً**﴾ [يونس: ٥]. وهذا أيضًا غرض آخر يخص النفوس الحية، فإن الشمس هى النور الذى به تخرج الحيوان من القوة إلى الفعل ولها فى النفوس البشرية تأثير بديع، فبالنور قوام الكل وجعل القمر مرآة يقبل ضياءها بالليل ويعيده على الخلق حتى لا يفقدونه ليلهم ولا نهارهم. وربما توهم المتوهم أن الأفق فد يخلو من نور الشمس وهذا توهم فاسد، والأفق معمور بأنوار الشمس والسموات والأرض لا تغيب عنها طرفة عين، وإنما ينكر الناس ذلك بالإضافة إلى حالهم فى كون الشمس فى مقابلتهم على وجه أفقهم إذ يكون النور فى عنفوانه كثيرًا، فلا يزال القرص يبعد عن أرضهم وتقل الأنوار، فحال النور عند العصر بخلاف حاله عند الظهر، وحاله عند المغرب بخلاف حاله عند العصر، وحاله عند مغيب الشفق بخلاف حاله عند المغرب،وحاله نصف الليل بخلاف حاله عند مغيب الشفق. وهو أبعد مايكون النور من ذلك الأفق، ولذلك تكون الظلمة وتضعف رؤيته للإنسان فى ذلك الوقت، ولكن مع ذلك إذا لم يكن بينه وبين السماء حائل من سقف أوسحاب يبصر، فإن النور لا ينعدم وهو مع ضعفه ينتفع به، فإن نور الكواكب مع الشمس وهى واقعة على الأرض، فإذا قربت الشمس من جهة المشرق زاد النور من جهة المشرق فلا تزال كذلك حتى تشتد فيكون فجرًا أولاً، فإذا كثر كان فجرًا ثانيًا، فإذا تزايد كان إسفارًا، فإذا طلع القرص كان نهارًا.

وأما فى الليالى المقمرة فيكبر جرم القمر ولقربه من الأرض يتسع النور فيه وينعكس أو بعده منها، وإذا كان منها على أربع عشرة منزلة كان ضوءه. قالوا: وفى خاصية القمر جذب الرطوبات والشمس تحلل وهذه الكواكب إنما تؤثر فى العناصر الدائرة بالأرض لأنها تناسبها فى اللطافة وتقرب من المنفعلات من وجهة أُخرى، فهى واسطة بين الحيوانات والنباتات والمعادن تناسب الكواكب بالبساطة والمنفعلات بالكثافة، وقد قالوا: إن المنفعلات تنفعل من هذه العناصر وإن الحيوانات والمعادن هى أنفس الهواء والماء والنار والأرض، لكنهم قالوا ذلك إنما يكون على طريق الدور، فإذا تكونت ثم فسدت عادت عناصر فهى يستحيل بعضها إلى بعض، ولذلك قالوا سمى عالم الكون والفساد. ولا يبعد أن تكون شعاعات الكواكب هى المؤثرة، وهذه العناصر واسعة بين المؤثرات وبينها، والله تعالى أعلم. فإنها أبعد عن قبول الفساد، وآية ذلك أن شعاعات الكواكب هى من الشمس ومن أنفسها أيضًا فلو كانت تنقص أو تزيد لقبلت الكون والفساد ولظهر ذلك عليها.

وقد زعم القدماء أن النار المحدقة بالأرض إنما هى من الأدخنة والقتارات الصاعدة والأهوية المحرقة والهواء من البخارات المتحللة من الأرض والماء على حسب ما تكلموا على ذلك فى استقصاءات، وأيضًا فلا يتجه أن تتحرك هذه العناصر بدون مباشرة وذلك عند هبوب الرياح وتموج الهواء والله أعلم.

وقد ذكر القدماء أن الأمطار والثلوج والرياح إنما تكون حسب ما تكون النيرات فى مواضع مخصوصة من بروج مخصوصة، فلتكن أشعتها التابعة لحركتها هى الممتزجة لهذه العناصرالمحركة لها، ثم لنفوس النيرات محركات حسب ما تتحرك وتترقى فى الحركة إلى الحركة الكلية كما سبق. وقد زعم الأوائل أن تلك الحركة عن شوق واختيار عقلى مستند إلى مشيئة البارئ تعالى وإرادته فهو البارئ المبدع الخالق المصور لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين، فهو مرتب الكل أحسن ترتيب ومقدره أكمل تقدير، والكل متصرفون جارون على منهاج ذلك الترتيب المحكم والتقدير المتقن لا يزيد ذرة ولا ينقص ذرة، كذلك ينقرض الأولون ويتبعهم الآخرون والسماء كما هى ونجومها، والأرض بما فيها من الحيوانات والنباتات وغير ذلك لم تطرأ عليها شئ ينكرونه، ولا تزال كذلك حتى يعيده بارئه تعالى تارة أُخرى كما بدأ حيث قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. فالعالم بأسره كالشخص الإنسى البشرى ذو عمر ومبدأ وآخر، وقد تقدم مرارًا أن الله سبحانه خلق الإنسان على صورة العالم، فأوله بشر ضعيف على تدريج كما سبق فى المعراج الأول.

فأول ما يخلق الله تعالى مادة يتكون منها، ثم يخلق فيه الروح الحيوانى ولايزال يتدرج فيه قليلاً قليلاً وكذلك النفس الناطقة فيه تظهر قواها شيئًا فشيئًا، فأضعفها حالة الرضيع لا يزال ينمو إلى أن يشب فتخلق له الأوهام والظنون فتكون عنده كالقوة العقلية، فإذا كبر قليلاً خلقت فيه القوة الهيولانية وهو العقل الغريزى وهى المبادئ الأول، وهذا فى العادة من الخمسة عشر إلى الثمانية عشر عامًا، ثم لا تزال كذلك حتى يخلق فيه العقل النظرى وهو أن يدرك الأمور الجائزة والمستحيلة فهى كعيون تفتح فى قلبه، ومثاله الإنسان فى بيت مظلم فإذا قابله السراج على بعد نظر نظرًا ضعيفًا فلا يزال السراج يقرب منه ونظره يكثر إلى أن يتصل به فيقوى نظره نظرًا كليًا، فلو اتفق أن يتخذ السراج به حتى يكون فى دماغه ملابسًا لقواه لكان أكثر،فكذلك فافهم أن القوة النفسية لا تزال تتزايد إلى ما لا نهاية، فليميز ما بين النبى والصبى من الدرجات فالنفس آخذة فى الكمال من حين تخلق إلى حين موتها، فالموت إذًا كمال الأجسام لأن النفوس تنزع المادة وتلتحق بأفق الملائكة وهى الجنة العليا وهى جنة الملائكة، فإن كانت نفسًا شقية كان كمالاً باعتبار تخليصها عن

المادة ونقصانًا من حيث تتخلف عن الجنبة العليل فلا تزال كئيبة حزينة على جسمها وملاذها وحواسها، فإنها لم تعهد تركه قط ولم ترتض ذاتها على ترك الملاذ وكانت حين نزعها كئيبة على البدن فلا تزال فى حسرة وندامة وألم ونهش وعقارب وحيات وسلاسل وأغلال أبد الآبدين ودهر الداهرين إلا من شاء ربك﴿ **إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [هود: ١٠٧]. فإذًا واجب على كل من رزقه الله تعالى عقلاً وميز بارئه ونفسه أن يسعى فى حيلة الخلاص وليكن فى أثناء الحيل الدنيوية والأخروية وذلك هو السعيد المطلق، وليكن فى الدنيا كمن امتحنه سلطان زمانه وبعثه إلى أرض يكرهها ويكره أهلها وأغذيتهم ولغتهم، فإذا حصل بينهم علم أنه متى اعتزلهم وتركهم قتلوه وعذبوه، وإن خالطهم كفوا عنه فيكون أبدًا يعاملهم بظاهرة فيكلمهم ويأكل معهم، ولكن قلبه وهمته وعشقه لقطره الذى خرج منه، فإذا أخرجه الملك من بينهم ورده إلى قطره كان فرحًا على مفارقتهم مسرورًا لقطره، فلو عكف عليهم وصرف همته إليهم ثم بعث إليه لكان خروجه خروجًا كدرًا، فإنه ربما عشق نساءهم وسيرتهم فلا يزال معذبًا وهذا غاية البيان فى معنى الموت، وقد فهمت العالم بأسره وحقائقه فإن أنت استعملت ذهنك وفكرتك حتى انفهم لك ذلك كنت ربانيًا ونعم العبد لبارئك، وناسبت الملائكة فوقعت المحبة والألفة بينكما، وإن أنت لم تعبأ به ولم تعول عليه أو علمت ظاهره دون باطنه فما أقل نفعك به وما أعظم حسرتك. أعاذنا الله وإياك من ذلك هذا تمام السبعة المعارج التى تستعمل فيها القوة الفكرية وهى نهاية الغرض الذى أوردناه، وربما تقربنا إلى الله تعالى ورغبنا فيما عنده فى أن ننبه على الأشياء التى تكون ميزانًا ومرآة للقوة المفكرة حتى لا تغلظ فى أكثر تصرفاتها، فإن خلاف الناس قد كثر ومذاهبهم جمة لا تنحصر، ومن عول على أخذ العلم عن إمام لاسيما مذهب الإمامية، فإنهم زعموا أن الأرض لا تخلو طرفة عين من إمام قائم لله تعالى بحجة يخرج الخلق من التخمين إلى اليقين وينجيهم من ظلمات الشكوك، فعلى مذهبهم لا يضر إن سافر الإنسان عن الإمام وزال عن بلده والمسائل أبدًا لا تنحصر، فيحتاج أن يراجعه فى كل دقيق وجليل. وحق هذا التنبيه أن يكون مستقبلاً بنفسه مستوعبًا فى أسفار كثيرة ومجلدات عديدة، ولكن صادفت بالرغبة أيها الأخ قلبًا مشتغلاً مشتبك الفكر ولسانًا كليلاً قد تخمر بين أمور متنافرة وبقى معلقًا بين الدنيا والآخرة، فإن تلافاه الله سبحانه بدعاء الصلحاء وضراعة الأصدقاء والأصفياء، وإلا قلَّ أشياؤه وعاش معيشة ضنكًا فى دنياه، والله سبحانه ينفع بعضًا ببعض بعزته.

السعادة ضربان سعادة مطلقة وسعادة مقيدة

فأما السعادة المطلقة، ما اتصلت فى الدنيا إلى ما لا نهاية له. والمقيدة، ما كانت مقصورة على حال أو زمان. وكل سعادة فبسبب والسبب من أنواع الحجج، فأما السعادة المقيدة فتحصل بأربعة أسباب: أعلى الأسباب العلمية احترازًا عن الحرف والصناعات وهى إما سفسطة، وإما خطابة، وإما جدل، وإما شعر، أما السفسطة فنهايتها وغرضها لا مقصودها أن تؤلف قياسًا وتنظم حجة تشبه الحق، وليست بحق بنفسها لتغلب خصمك من حيث لا يشعر، كما أنك إذا قلت: أليس النجار صانعًا، فيقول: نعم، فتقول: أليس هو جسمًا؟ فيقول أليس البارئ سبحانه صانعًا؟ فتقول: نعم، فيقول: فهو إذًا جسم. فهذا قياس مؤلف ولكنه فاسد وسفسطة ومباهتة، ودخل من الفساد قوله: فكل صانع جسم فإنه خطأ، وإلا فما الدليل عليه؟ فنهاية سعادة هذا التمويه على الخصم وهى منقسمة إلى التلبيس فى النظم كما قدمناه، وإلى التلبيس فى شبه الحروف والأسماء، كما إذا قلت: العين تبصر والدينار عين فالدينار يبصر فهذا غلط من جهة اشتراك الاسم وحده أن تقول حد الدينار غير حد العين فهما مختلفان فى الحد والحقيقة، وكذلك فى النقط مثل قوله تعالى: ﴿**عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ**﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ومن أساء، واستيعاب هذا يحتاج إلى مجلدة، وأما الخطابة، فغرضها إقناع للسامع بما تسكن نفسه إليه سكونًا تامًا من غير أن تبلغ اليقين، وهذا كما يفعله الخطيب من الناس، فإنه ينظم كلامًا عذبًا مشجعًا يذكرهم الموت ويفرغهم ويخوفهم، وغرضه الإيقاع فى نفسهم. وأما الشاعر، فغرضه الإيقاع فى النفس وتحريك القوة الشهوانية والغضبية بأن يشبه الأشياء بعضها ببعض كقول القائل:

هُوَ البَحْرُ غُصْ فِيهِ إذا كَانَ راكِداً
عَلى الدُّرِّ وَاحْذَرْهُ إذَا كَانَ مُزبِدا

فهذا إذا سمعه الممدوح انبسطت له نفسه، لأنه شبه جوده واتساعه بالبحر، وأنه ذو صولة كالبحر، وقد يحرك الشاعر القوة الغضبية كقول القائل:

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَنِ الرَّحْمَنِ خَافِيَةٌ
مِنَ العِبَادِ خَفَتْ عَنْهُ بَنُو أَسَدِ

وكقول بعض الشعراء ينفر زوجته عن النكاح:

فَلا تَنكحِى إنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَينَنَا
أَغَمَّ القَفَا وَالوَجْهِ جَعْدَ الأنَامِلِ

حتى أن الإنسان يشبه له الشئ الحسن بالقبيح فينافره، كما إذا قيل له وقد شرب فى

محجمته خرجت من كور الزجاج فـيقال له بها يمص الدم للمجذوم والمبروص فينافرها ولا يشرب بهـا، وكما إذا أرسل علـيه حبل ثم قـيل له: عليك نفر، وقيـل له: إن هذا العسل أصفر كأنه عذرة نفر مـن ذلك واستبشعه، فهذا غرض الخطابة والشعـر، وأما الجدل فغايته غلبة من يخاطبه بأشياء مشهورة كما قال تعالى لليهود: ﴿**إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الجمعة: ٦]. فإنه علم فى العادة أن المحب يحب لقاء الحبيب، وتأليف القياس فيـه أن يقال: إن كنت تحب لقاء زيد فأنت صديقه لكنك تحب لقاءه فأنت إذًا صديقه، فـيجئ البيان فيه على وفق المقدمة. ونظم القـياس لليهود أن يقال: إن كان اليـهودى يحب لقاء الله تـعالى فهـو ولى، لكنه يكره لقاء الله تعـالى فإذًا ليس هو بولى، وكما قال إبراهيم عليـه السلام للذى حاجَّه: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فغاية هذه العلوم موقـوفة على منافع دنيوية إلا أن تصرف إلى الآخرة، كما فعلت الأنبياء عليهم السلام فى خطاباتهم وجدلهم، فالدنيا ركاب الآخرة وهى مضرة إذا طلبت لنفسها، ونافعة إذا طلبت للآخرة فإذا مقدار سعادة هذا العلوم ما يقصد مقدار بها.

وإما العلوم التى يطلب بها السعادة العلمية النافعة فـتنقسم إلى أربعة أقسام: طبيعية ورياضية وسياسيةوإلهـية، والغرض بالطبيعية معرفة العالم وتركيبـه ومزاجه ومعرفة النباتات والحيوان والمعادن والأمراض والأمزجة وصلاحهـا وفسادها، وهو خادم معين كالخبز والغذاء للإنسان وكذلك هو مع تلك العلوم.

وأما الرياضـات فأربعة أنواع: الهنـدسة والحساب والمنـطق والنجوم فأمـا الهندسة: فمـقصودها مـعرفة الأطوال والكمـيات والمقادير وهى آلة يستعان بهـا. والحساب غـرضه معلوم. والمنطق غرضـه تمييز الأمور العقلـية من المحسوسات وتميـيز البرهان من الشك فى الاعتقاد. وأما علم النجوم مـقصوده معرفة الأفلاك وحركاتها وكواكـبها وسائر أحكامها، وفائدته معرفة الكائنات.

وأما الإلهيات فمقصوده أربعة أشياء العلم بالله سبحانه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وأما السـياسة فمـقصوده تهذيب النفس فى جلـب منفعة ودفع مضرة مـا عاجلة. والخلق مع سائر هذه الـعلوم وهى معهم إمـا كالغذاء لهم وإمـا كالدواء والرسل مبـعوثون لتبيين الجمـيع ومقاديرها فى السعادة على ما ذكرنا لكن تخـتلف أشخاص الناس وحالاتهم على اختلاف قرائحهم وغـرائزهم ومقدار قبولهم وعقولهم والتقـسيم يأتى على هذه النسبة فنقول: أما ما هو كالغذاء فكالعلوم الإلهية فلا غناء بأحد منها فإن سائر هذه العلوم دورانها على بيانه والخالق هو الأصل ولا حال لمن جهل باريه وأمـا ما هو كالدواء فيخص ويعم فى بعض العلوم السياسية وهى ما تعلق منها بفروض الأعيان، فعلى كل شخص أن يعرف هذا

في العلم السياسي، وأما في غيره من العلوم فيستعمل الإنسان منه مقدار حاجته إن احتاج إليه، وإلا فالاشتغال بما يفيد أحسن إذ الإنسان ذو شغل كثير. وأما ماهو كالداء فهو يضر بالنسبة إلى حالات الأشخاص وهو كل شئ متى أوصلناه إلى شخص وجدناه يضربه فهو دواء في حقه، فإن العسل وإن كان حلوًا عند من أفرط عليه البلغم، فهو مر عند من أفرطت عليه المرة الصفراء إذ هو في حقه داء. والعلوم إنما هي بالإضافة فلقد يوجد الله تعالى:

خَلقٌ تُضِرُ الحَقائقُ بِهِمْ
كَما تُضَرُّ رِياحُ الوَرْدِ بالجُعَلِ

وقد قال ﷺ «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَفْهَمُونَ**». وقال عيسى عليه السلام: «**لا تعلقوا الدُّرَّ في أعناق الخنازير**»

فَمَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلمًا أَضَاعَهُ
وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

فإن قلت: هذا لا شك فيه غير أن العلوم الإلهية يختلف فيها وقد كثرت فرق الإسلاميين فعلى رأى من أعول. فاعلم ياأخي أنك متى كنت ذاهبًا إلى تعرف الحق بالرجال من غير أن تتكل على بصيرتك فقد ضل سعيك، فإن العالم من الرجال إنما هو كالشمس أو كالسراج يعطي الضوء، ثم انظر ببصرك فإن كنت أعمى فما يغني عنك السراج والشمس فمن عول على التقليد هلك هلاكًا مطلقًا.

فإن قلت: فكيف الخلاص فيه؟ فهذا الآن حديث يطول ويحتاج إلى إطناب وإسهاب، وقد أعلمتك أني مشتغل مبدد لشمل النفس كليل الخاطر، ولكن لتعلم أن الأوصاف الراجعة إلى الله تعالى تنقسم إلى ثلاثة أقسام: إما وصف يجب له، وإما مستحيل عليه، وإما جائز في حكمه فلا يتلقف أحد الجائزين بسبب إلا من جهة الرسول ﷺ فكل واجب، أو مستحيل فخذه من جهة العقل.

فإن قلت: ذلك اطلب فمن أين آخذه وكيف أتوصل إليه؟ فأقول: سأبين لك منه مقدارًا يليق بهذه العجالة.

فإن قلت: وكيف أصنع أيضًا في فروع الأحكام وهي الأمور السياسية، فقد اختلفت الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم؟ فأقول: فإذا الإشكال من جهة الخلاف في أصول الدين وفروعه، وقد كشف العي في أصول الدين ووعدتك بالباقي، وأما الخلاف في الفروع فلك فيه حيلتان: إحداهما أن تعرف أصول الفقه وأحكام الشريعة معرفة دون تقليل، ثم تعمل بما علمته وتترك الناس جانبًا خالفت أو وافقت فهذه حيلة وقد جعلت

فى ذلك كتابًا سميته (برسالة الأقطاب) تختص بأصول الفقه خاصة على الطريق البرهاني، فإن شئت فاحفظها واحفظ أحكام الحديث والسنة أو تكون عندك كتبها وذلك منحصر فى ثلاثة أسفار: أما أحكام الحديث فقد جمعها الزبدونى وأحكمها الفرائض لإسماعيل القاضى وغيره، وأحكمها الأحكام لأبى الحسن الطبرى الملقب بشفاء العليل، وبأصول الفقه تهتدى إلى ما غاب عنك. فإن تعذر هذا عليك فعليك بجملة ثانية وهو أن تنظر كل مختلف فتصير إلى الطرف الأكمل. مثال ذلك مذهب أبى حنيفة فى التوضؤ بالنبيذ، فاستعمل أنت مذهب مالك فى تركه فهو أحوط، وكذلك مذهب الشافعى فى التوجيه والبسملة وقراءة القرآن فى الصلاة فاستعمله فهو أحوط من مذهب مالك فيه، فهاتان حيلتان لطريق الكمال. فإن عجزت عنها فعليك بتقليد إمام واحد فاعمل على مذهبه، فإحكام الظاهر يسير الخطب قد فهمت هذا وإنما المشكل على هو أمر الأمور العقلية حتى أميز فيها الحق من الباطل، فقد علمت من هذا طريق الخلاص فى الفروع، فاعلم أن الأمور التى تخوض فيها قوة المفكرة ترجع إلى أربعة أقسام: معقولات ومحسوسات ومقبولات ومشهورات.

فأما المعقولات: فما لا يدرك إلا بالعقل على التجريد كعلمنا أن الضدين لا يجتمعان، وأن الشئ لا يصح أن يكون متحركًا ساكنًا فى حال واحدة وأن الواحد قبل الاثنين، وأن الحادث له أول وأن ما كان مع الحوادث معية زمانية فهو حادث فكل ما لا تدريه إلا من جهة العقل.

وأما المحسوسات: فما تدريه من جهة الحواس الخمس كالفرق بين الألوان والفرق بين الطعوم وبين الملموسات، والفرق بين المسموعات، والفرق بين المشمومات، والفرق بين المذوقات.

وأما المشهورات: فهى العادات الراجعة إلى عادات الخلق والبلاد والأمم والأزمنة، كعادة الناس فى اللباس والفرح والأغانى والأحاديث والسير الكريمة كترك الظلم وبر الوالدين وشكر المنعم والكف عن الجار والنصفة من الظالم وإفشاء السلام التى هى الآن متممات الأحكام الشرعية، وهى من قبل الرسل تعقل. وقد كانت العرب وسائر الأمم السالفة كالهند وغيرهم يستنون بذلك. وعلى الجملة: لكل أمة ملك يحمى من الظلم وبذلك قوام العالم.

أما المقبولات: فما أخذ من طريق الأخبار وهو كل ما يخبر به العدل الثقة أو الثقات فمتى ورد عليك شئ من أى علم كان وفرع سمعك، أو أورد عليك فانظر وسل من أى قبيل هو من هذه الأربعة أقسام. فأما العقليات فلا تتبدل أحكامها عما هى عليه فى العقل. والمحسوسات لا تتبدل ولكن يتطرق إليها الغلط بآفات تحدث فى الآلات الجسمانية.

وأما المقبولات والمشهورات، فغير موثوق بها فإنها تختلف باختلاف الأمم والبلاد وحالات الأشخاص، فألحق كل قبيل بقبيله وميزه من سواه فلا تغلط أبد الآباد، فما قام عندك من دليل عقل أو حس على شئ وتصححت أجزاء حده وبرهانه وتبرهن لك البرهان على صحة تلك الأجزاء والبرهان تبرهن به على مطلوبك فهو برهان حق، وما ورد عليك مما سوى ذلك فأنزله على مرتبته فلا تعد شيئًا من حده ولا تجعل المقبول معقولاً ولا المعقول مقبولاً ولا المشهور محسوسًا ولا المحسوس مشهورًا. ثم انظر كيف مأخذ المقبول مثل أن القرآن معجزة رسول الله ﷺ فتعلم قطعًا أن هذا القرآن مأخوذ عن نبينا محمد ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الكائن بمكة ﷺ، وكذلك تعلم وجوده وسيرته المستفيضة.

وأما الأحكام، فمآخذها مقبولة ولا يلزم أن تبرهن لنا لأن الخلق محتاجون إليها، ولو أدركوا الأحكام بعقولهم لما كانت فائدة الرسول ﷺ، وإذا لم يكن في عقولهم استقلال بها أولاً فكذلك آخرًا إذا اتصلت بهم، فلذلك لم يطلب أن يقوم على الأحكام برهان.

وهذا منتهى ما أردنا أن نشير به من المدخل إلى العلوم الإلهية وننبه به على الأسرار الروحانية فإن ساعد الدهر السليم، والغريزة المعتدلة على إلحاق ما في معناه به كفى المسترشد وإلا تشوق إلى المطالعة، والرب تبارك وتعالى المسئول أن يلم الشعث ويجبر الصدع وينير البصيرة ويجرى على اللسان الصدق ويختم بالخير، ويجعلنا به وله فيما نأتى ونذر، وأن يتجاوز عنا إذا وفدنا إليه محتاجين إلى عفوه، فقراء إلى فضله، منقطعين عن الأهل والوطن، مخلفين الأبناء، مبعدين عن الآباء. قد حيل بيننا وبين القريب والصاحب ونفانا الموالى والأقارب، إذا برقت العين وجفت الشفة ويبست القدم وحيث لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون. لا يستجيب لمن دعاه لا يرى شق الجيوب عليه حين وفاته. **أذكركم الله تعالى إخوانى وأوصيكم به فكونوا به ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. ثم الصلاة والسلام على نبى الرحمة وشفيع الأمة محمد صلى الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، والحمد لله** رب العالمين.

رَوضَة الطالبين وَعمدة السَّالكين

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

قال الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحد حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته:

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنيران محبته، واستوفى هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته حتى أصبحوا من نسيم روح الوصال سكرى وأصبحت قلوبهم من ملاحظة الجلال والهيبة حيرى، فلم يروا فى الكونين إلا إياه، وإن سنحت لأبصارهم صور عبرت إلى المصور بصائرهم، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مهيج أو مشوق لم يكن انزعاجهم إلا إليه ولا طربهم إلا به، ولا قلقهم إلا عليه، ولا حزنهم إلا فيه، ولا شوقهم إلا إلى ما لديه، ولا انبعاثهم إلا له، ولا ترددهم إلا حواليه فمنه سماعهم، وإليه استماعهم فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم. أولئك الذين اصطفاهم لولايته واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته، وصلى اللَّه على المبعوث برسالته وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته وسلَّم تسليمًا.

أما بعد: فقد ألفت هذا الكتاب ليتمسك به طالب الحق ويستعين به على سلوكه إن شاء الله تعالى، وأستعين فى ذلك بالله تعالى من الخلل والزلل وهو خير ناصر ومعين وإياه أسأل أن ينفع به إنه قريب مجيب وسميته: (روضة الطالبين وعمدة السالكين) وفيه أبواب ومقدمة وفصول:

المقدمة فى تمهيد الكتاب

اعلم أن انقطاع الخلق عن الحق بوقوفهم مع الخلق ومع أنفسهم ورؤيتهم أفعالهم وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة باختلاف أهويتهم التى نفوس البشر مجبولة عليها وحب الجاه والمال والدنيا والرئاسة والشهرة وطول الأمل والتسويف والشح والهوى والعجب وفحش أغذيتهم من المطعم والمشرب والملبس وفساد دنياهم وغلبة الشهوات النفسانية على قلوبهم. وترك مجاهدة النفس وإهمالها ترفع فى شهواتها ورعونتها والتزين للناس والتلبس بالأوصاف المذمومة نحو الغل والحقد والحسد والجهل والحمق والرياء والنفاق، وانبعاث الجوارح فى غير طاعة الله تعالى كالعين والسمع واللسان واليد والرجل: ﴿**كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦]. والكسل والبلادة والغفلة وغير ذلك مما يبعد عن الله تعالى.

فصل فى أن ما سوى الحق حجاب عنه

اعلم أن الوقوف مع الخلق والنفس حجاب عن الحق ورؤية الأفعال شرك، لأن أفعال العباد مضافة إلى الله تعالى خلقًا وإيجادًا وإلى العبد كسبًا ليثاب على الطاعة ويعاقب على المعصية، فحين تعلق العبد بشئ ما يوجده الاقتدار الإلهى يسمى كسبًا. هذا مذهب أهل السنة، فقدرة العبد عند مباشرة العمل لا قبله فحينما يباشر العمل يخلق الله تعالى له اقتدارًا عند مباشرته فيسمى كسبًا. فمن نسب المشيئة والكسب إلى نفسه فهو قدرى، ومن نفاهما عن نفسه فهو جبرى، ومن نسب المشيئة إلى الله تعالى والكسب إلى العبد فهو سنى صوفى رشيد، وفيه كلام طويل ليس هذا موضعه، سيأتى قريبًا إن شاء الله تعالى.

وأما الانحراف عن العقيدة الصحيحة، فلغلبة الأهواء على القلوب والتعصب لمذهب أهل البدع. قال بعض الأئمة: رب أقوام تنجيهم عقائدهم مع قلة عملهم، ورب أقوام تهلكهم عقائدهم مع كثرة عملهم، وحب الجاه والمال والدنيا سم قاتل، والرئاسة والشهرة يورثان الكبر والدخول فى الدنيا وهما فساد الدين. قال بعضهم: ماعملت عملاً واطّلع عليه الناس إلا أسقطته.

وأما طول الأمل: فإنه يمنع من حسن العمل ويصد عن الحق والتسويف من أعظم جنود الشيطان، وأما الشح والهوى وإعجاب المرء بنفسه: فهن من المهلكات.

وأما فحش الغذاء: فإنه يظلم القلب ويورث القسوة والبعد عن الله تعالى، وطيب الغذاء ينور القلب ويورث الرقة والقرب من الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾[البقرة: ١٧٢]. والطيبات هى الحلال: أطب مطعمك ومشربك وما عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار، وطيب المطعم أصل كبير فى طريق القوم، ولو قام العبد قيام السارية لم ينفعه ذلك، حتى يعلم ما يدخل جوفه. وأسرع الناس جوازًا على الصراط أكثرهم ورعًا فى الدنيا. يقول الله عزّ وجلّ: «**عبدى تجوع تراني تورع تعرفنى تجرد تصل إليّ**» قال الله تعالى: «**وأما الورعون فأستحيى أن أعذبهم**» قال بعض السادة من الأكابر: عليك بالعلم والجوع والخمول والصوم فإن العلم نور يستضاء به، والجوع حكمة. قال أبو يزيد: ما جعت لله يومًا إلا وجدت فى قلبى بابًا من الحكمة لم أجده قبل. والخمول راحة وسلامة، والصوم صفة صمدانية ما مثلها شئ لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]. فمن تلبس بها أورث العلم والمعرفة والمشاهدة، ولذلك قال تعالى: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا الذى أجزى به**». ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك والاشتغال بالدنيا وغلبة الشهوات على القلب يورث جميع الأوصاف المذمومة فلا طمع فى القرب ما لم تبدل الأوصاف المذمومة بالمحمودة.

قال بعضهم: ما دام العبد ملوثًا بالغير لا يصلح للقرب والمجالسة حتى يطهر قلبه من السوى. قال عثمان رضى الله عنه: (لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم دون غيره).

فصل

اعلم أن ما سوى الحق حجاب عنه. ولولا ظلمة الكون لظهر نور الغيب، ولولا فتنة النفس لارتفعت الحجب، ولولا العوائق لانكشفت الحقائق، ولولا العلل لبرزت القدرة، ولولا الطمع لرسخت المحبة، ولولا حظ باق لأحرق الأرواح الاشتياق، ولولا البعد لشوهد الرب، فإذا انكشف الحجاب تجشم هذه الأسباب وارتفعت العوائق بقطع هذه العلائق:

بَدَا لَكَ سِرٌّ طَالَ عَنْكَ اكْتِتَامُهْ
وَلاحَ صَبَاحٌ كُنْتَ أَنْتَ ظَلامُهْ

فَأَنْتَ حِجَابُ القلبِ عن سِرِّ غَيْبِهِ
ولولاكَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَيْكَ خِتَامُهْ

فَإِنْ غِبْتَ عَنْهُ حلَّ فيهِ وطنبتْ
على منكبِ الكشْفِ المصونِ خِيَامُهْ

وَجَــاءَ حَــديثٌ لا يملُّ سَــمَــاعَــهُ
شَـهِـىٌّ إليـنا نَـثْـرُهُ وَنَظَامُـهُ

قال بعضهم: إذا أراد الله بعبد سوءًا سَدَّ عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل. جاء رجل إلى معاذ فقال: أخبرنى عن رجلين أحدهما يجتهد فى العبادة كثير فى العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتوره الشك. قال معاذ: ليحبطن شكه أعماله. قال: فأخبرنى عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين وهو فى ذلك كثير الذنوب فسكت. فقال: والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها. قال فأخذه معاذ بيده. وقال: ما رأيت الذى هو أفقه من هذا.

فصل فى عمل أبى يزيد البسطامى

قال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه: (مكثت اثنتى عشرة سنة حدَّاد نفسى، وخمس سنين كنت أجلو مرآة قلبى، وسنة أنظر فيما بينهما فإذا فى وسطى زنار فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه فكشف لى فرأيت الخلق موتى فكَّبرت عليهم أربع تكبيرات).

ومعنى هذا الكلام -والله أعلم- أنه عمل فى مجاهدة نفسه وإزالة أدغالها وخبثها وما حشيت به من العجب والكبر والحرص والحقد والحسد وما شابه ذلك مما هو من مألوفات النفس، فعمد إلى إزالة ذلك بأن أدخل نفسه كير التخويف، ثم طرقها بمطارق الأمر والنهى حتى أجهده ذلك. فظن أنها قد تصفت، ثم نظر فى مرآة إخلاص قلبه، فإذا بقايا من الشرك الخفى وهو الرياء والنظر إلى الأعمال وملاحظة الثواب والعقاب والتشوف إلى الكرامات والمواهب. وهذا شرك فى الإخلاص عند أهل الاختصاص وهو الزنار الذى أشار إليه فعمل فى قطعه: يعنى قطع نفسه وفطمها عن العلائق والعوائق وأعرض عن الخلائق حتى أمات من نفسه ما كان حيًّا وأحيا من قلبه ما كان ميتًا حتى ثبت قدمه فى شهود القدم وأنزل ما سواه منزلة العدم. فعند ذلك كبَّر على الخلق أربع تكبيرات وانصرف إلى الحق، ومعنى قوله: كبرت على الخلق أربع تكبيرات لأن الميت يكبر عليه أربع تكبيرات، ولأن حجاب الخلق عن الحق أربع: النفس، والهوى، والشيطان، والدنيا. فأمات نفسه وهواه ورفض شيطانه ودنياه فلذلك كبَّر على كل واحدة ممن فنى عنه تكبيرة لأنه هو الأكبر وما سواه أذل وأصغر ثم اعلم أنك لا تصل إلى منازل القربات حتى تقطع ست عقبات:

العقبة الأولى: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية.

العقبة الثانية: فطم النفس عن المألوفات العادية.
العقبة الثالثة: فطم القلب عن الرعونات البشرية.
العقبة الرابعة: فطم السر عن الكدورات الطبيعية.
العقبة الخامسة: فطم الروح عن البخارات الحسية.
العقبة السادسة: فطم العقل عن الخيالات الوهمية.

فتشرف من العقبة الأولى على ينابيع الحكم القلبية، وتطلع من العقبة الثانية على أسرارالعلوم اللدنية وتلوح لك من العقبة الثالثة أعلام المناجاة الملكوتية، وتلمع لك فى العقبة الرابعة أنوار المنازلات القربية، وتطلع لك فى الخامسة أقمار المشاهدات الحبية، وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية. فهنالك تغيب مما تشاهد من اللطائف الأنسية عن الكثائف الحسية، فإذا أرادك بخصوصيته الاصطفائية سقاك بكأس محبته شربة فتزداد بذلك الشرب ظمأً وبالذوق شوقًا، وبالقرب طلبًا وبالسكون قلقًا. فإذا تمكن منك هذا السكر أدهشك فإذا أدهشك حيرك، فأنت هاهنا مريد، فإذا دام لك تحيرك أخذك منك وسلبك عنك فتبقى مسلوبًا مجذوبًا فأنت حينئذ مراد. فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك وفنيت ببقائه عن فنائك وخلع عليك خلعة (فبى يسمع وبى يبصر) فيكون هو متوليك وواليك، فإن نطقت فبأذكاره وإن نظرت فبأنواره، وإن تحركت فبإقداره، وإن بطشت فباقتداره، فهنالك تذهب الاثنينية واستحالت البينية، فإن رسخ قدمك وتمكن سرك حال سكرك. قلت: هو وإن غلب عليك وجدك وتجاوز بك حدك عن حد الثبوت. قلت أنت: فأنت فى الأول متمكن، وفى الثانى متلون ومن هنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام.

الباب الأول
فى بيان أركان الدين

اعلم أن كلمتى الشهادة على إيجازهما يتضمنان إثبات ذات الإله سبحانه وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ﷺ وبناء الإيمان على هذه الأركان الأربعة:

الركن الأول: فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى ومداره على عشرة أُصول وهى: العلم بوجود الله تعالى، وقدمه وبقائه، وأنه ليس بجوهر ولا جسم ، ولا عرض، وأنه ليس بمختص بجهة، ولا مستقر على مكان، وأنه يرى وأنه واحد.

الركن الثانى: فى معرفة صفات الله سبحانه وتعالى ومداره على عشرة أُصول وهى: العلم بكونه تعالى حيًا، عالمًا، قادرًا، مريدًا، سميعًا، بصيرًا، متكلمًا، صادقًا فى أخباره، منزهًا عن حلول الحوادث، وأنه قديم الصفات.

الركن الثالث: فى معرفة أفعال الله سبحانه وتعالى ومدارم على عشرة أُصول وهى: أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومرادة له وأنها مكتسبة لهم، وأنه متفضل بالخلق، وأن له تكليف ما لا يطاق، وله إيلام البرئ ولا يجيب عليه رعاية الأصلح، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأن بعثة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم جائزة، وأن نبوة نبينا محمدﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات.

الركن الرابع: فى السمعيات ومداره على عشرة أُصول وهى: الحشر والنشر، وعذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والميزان، والصراط، وخلق الجنة والنار، وأحكام الإمامة.

الباب الثانى
فى بيان الأدب

روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى**» والأدب تأديب الظاهر والباطن، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيًا أديبًا، ومَن ألزم نفسه آداب السنة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من متابعة الحبيب ﷺ فى أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه قولاً وفعلاً وعقداً ونيةً. والإنصاف فيما بين الله تعالى وبين العبد فى ثلاثة: فى الاستعانة والجهد والأدب، فمن العبد الاستعانة، ومن الله الإعانة على التوبة، ومن العبد الجهد، ومن الله التوفيق، ومن العبد الأدب، ومن الله الكرامة. ومن تأدب بآداب الصالحين، فإنه يصلح لبساط الكرامة، وبآداب الأولياء لبساط القربة، وبآداب الصديقين لبساط المشاهدة، وبآداب الأنبياء لبساط الأُنس والانبساط، ومن حرم الأدب حرم جوامع الخيرات، ومن لم تريضه أوامر المشايخ وتأديباتهم، فإنه لا يتأدب بكتاب ولا سنة، ومن لم يقم بآداب أهل البداية كيف يستقيم له دعوى مقامات أهل النهاية. ومن لم يعرف الله عزّ وجلّ لم يقبل عليه، ومن لم يتأدب بأمره ونهيه كان عن الأدب فى عزلة. وآداب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها برؤية مجريها. العبد يصل بطاعته إلى الجنة وبأدبه إلى الله تعالى، والتوحيد موجب يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له والإيمان موجب يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة موجب يوجب الأدب فمن لا أدب له فلا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له، وترك الأدب موجب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب، وأنفع الآداب التفقه فى الدين والزهد فى الدنيا والمعرفة بما لله عليك وإذا ترك العارف أدبه مع معروفة فقد هلك مع الهالكين.

وقيل: ثلاث خصال ليس معهن غربة: مجانبة أهل الريب، وحسن الأدب، وكف

الأذى، وأهل الدين أكثر آدابهم فى تهذيب النفوس، وتأديب الجوارح، وحفظ الحدود، وترك الشهوات، وأهل الخصوصية أكثر آدابهم فى طهارة القلوب، ومراعاة الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب فى مواقف الطلب، وإدمان الحضور، ومن قهر نفسه بالأدب فهو الذى يعبد الله بالإخلاص. وقيل: هو معرفة اليقين. وقيل يقول الحق سبحانه: «**من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب، ومن أراد الكشف عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب، فاختر أيهما شئت: الأدب أو العطب؟ ومن لم يتأدب للوقت فوقته مقت، وإذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء**».

وحكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال: دخلت مكة فربما كنت أقعد بحذاء الكعبة وربما كنت أستلقى وأمد رجلى فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى: يا أبا عبيد: يقال إنك من أهل العلم اقبل منى كلمة لا تجالسه إلا بالأدب وإلا فيمحى اسمك من ديوان أهل القرب، قال أبو عبيد: وكانت من العارفات وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا فما أساء أحد الأدب فى ظاهر إلا عوقب ظاهرًا، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلا عوقب باطنًا فالأدب استخراج ما فى القوة والخلق إلى الفعل وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها كتكوّن النار فى الزناد إذ هو فعل الله المحض واستخراجه بكسب الآدمى فهكذا الآداب منبعها بالسجايا الصالحية والمنح الإلهية، ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا الكاملة فيها تواصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج ما فى النفوس مركوزة بخلق الله إلى الفعل فصاروا مؤدبين مهذبين.

فصل فى آداب أهل الحضرة الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تتلقى من رسول الله ﷺ، فإنه ﷺ مجمع الآداب ظاهرًا وباطنًا، وأخبر الله سبحانه عن حسن أدبه فى الحضرة بقوله تعالى: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ**﴾ [النجم: ١٧]. وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله ﷺ أخبرالله عن اعتدال قلبه المقدس فى الإعراض والإقبال أعرض عما سوى الله، وتوجه إلى الله، وترك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بحظوظها والسموات والدار الآخرة بحظوظها ولا لحقه الأسف على الفائت فى إعراضه. قال الله تعالى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ**﴾ [الحديد: ٢٣]. فهذا الخطاب للعموم، وما زاغ البصر إخبار عن حال النبى ﷺ بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم، فكان ما زاغ البصر حاله فى طرف الإعراض، وفى طرف الإقبال تلقى ما ورد عليه فى مقام: قاب قوسين بالروح والقلب، ثم فرَّ من الله حياء منه وهيبة وإجلالاً وطوى نفسه فى مطاوى انكساره وافتقاره، لكيلا تنبسط النفس فتطغى، فإن الطغيان عند

الاستغناء وصف النفس. قال الله تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧]. والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع ومتى نالت قسطًا من المنح استغنت وطغت، والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط فى البسط يسد باب المزيد، وطغيان النفس لضيق وعائها عن المواهب فموسى عليه السلام صح له فى الحضرة أحد الظرفين. ما زاغ بصره، وما التفت إلى ما فاته متأسفًا لحسن أدبه، ولكن امتلأ من المنح واسترقت النفس السمع وتطلعت إلى القسط والحظ فلما حظيت النفس استغنت وطفح عليها ما وصل إليها وضاق نطاقها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال: ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فمنع ولم يطق صبرًا وثباتًا فى قضاء المزيد وظهر الفرق من الحبيب والكليم عليهما الصلاة والسلام. وقال سهل بن عبد الله التسترى: لم يرجع رسول الله ﷺ إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها وإنما كان مشاهدًا بكليته لربه. يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل وهذا الكلام لمن اعتبره موافق لما شرحناه برمز فى ذلك من كلام سهل بن عبد الله، والله أعلم.

الباب الثالث
فى بيان معنى السلوك والتصوف

اعلم: أن االسلوك هو تهذيب الأخلاق. والأعمال والمعارف. وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن، والعبد فى جميع ذلك مشغول عن ربه إلا أنه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول. والذى يفسد على السالك سلوكه شيئان: اتباع الرخص بالتأويلات، والاقتداء بأهل الغلط من متبعى الشهوات. ومن ضيع حكم وقته فهو جاهل، ومن قصر فيه فهو غافل، ومن أهمله فهو عاجز. لا تصح إرادة المريد حتى يكون الله ورسوله وسواس قلبه، ويكون نهاره صائمًا ولسانه صامتًا. لأن كثرة الطعام والكلام والمنام تقصى القلب. وظهره راكعًا وجبهته ساجدة وعينه دامعة وغامضة، وقلبه حزينًا ولسانه ذاكرًا.

وبالجملة: قد شغل كل عضو فيه ومعنى فيه بوظيفة ندبه الله ورسوله إليها وترك ما كره الله ورسوله له. وللورع معانقًا ولأهوائه تاركًا مطلقًا ورائيًا جميع ما وفقه الله تعالى له من فضل الله عليه، ويجتهد أن يكون ذلك كله احتسابًا لا ثوابًا، وعبادة لا عادة، لأنه من لاحظ المعمول له اشتغل به عن رؤية الأعمال ونفسه تاركًا للشهوات، فصحة الإرادة ترك الاختيار والسكون إلى مجارى الأقدار كما قيل:

أُرِيدُ وِصَالَه وَيُرِيدُ هَجْرِى
فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

وافن عن الخلق بحكم الله وعن هواك بأمر الله، وعن إرادتك بفعل الله، فحينئذٍ

تصلح أن تكون وعاء لعلم الله فعلامة فنائك عن الخلق انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم والإياس عما فى أيديهم، وعلامة فنائك عنك وعن هواك ترك التكسب، والتعلق بالسبب فى جلب النفع ودفع الضر فلا تتحرك فيك بك، ولا تعتمد عليك لك، ولا تذب عنك ولا تضر نفسك، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً ليتولاه آخرًا، كما كان ذلك موكلاً إليه فى حال كونك مغيبًا فى الرحم، وكونك رضيعًا فى مهدك، وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله أن لا تريد مرادًا قط لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجرى فعله فيك فتكون أنت إرادة الله وفعله ساكن الجوارح مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منور الوجه، عامر البطن، تقلبك القدرة ويدعوك لسان الأزل، ويعلمك رب الملك، ويكسوك من نور الحلل، وينزلك منازل من سلف من أولى العلم.

فصل فى لزوم العزلة

على السالك أن يلزم العزلة ليستظهر بها على أعدائه. وهى نوعان: فريضة وفضيلة. فالفريضة: العزلة عن الشر أهله. والفضيلة العزلة عن الفضول وأهله. وقيل: الخلوة غير العزلة، والخلوة من الأغيار، والعزلة من النفس وما تدعو إليه وتشغل عن الله. وقيل: السلامة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت وواحدة فى العزلة. وقيل: الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت عما لا يعنى. والعاشرة فى العزلة عن الناس. كثير من ندم على الكلام وقلّ من ندم على السكوت. وقيل: الخلوة أصل والخلطة عارض، فيلزم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة، وإذا خالط يلازم الصمت فإنه أصل.

وَإِذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ
فَهُوَ الْمُرَادُ فَأَيْنَ ذَاكَ الواحدُ

وقيل: الخلوة بالقلب فيكون مستغرقًا بكليته مع الحق تعالى معكوفًا قلبه عليه مشغوفًا به والهًا إليه متحققًا كأنه بين يديه. قيل: أول مبادئ السالك أن يكثرالذكربقلبه ولسانه بقوة حتى يسرى الذكر فى أعضائه وعروقه، وينتقل الذكر إلى قلبه فحينئذ يسكت لسانه ويبقى قلبه ذاكرًا يقول (الله الله) باطنًا مع عدم رؤيته لذكره، ثم يسكن قلبه ويبقى ملاحظًا لمطلوبه مستغرقًا به معكوفًا عليه مشغوفًا إليه مشاهدًا له، ثم يغيب عن نفسه بمشاهدته، ثم يفنى عن كليته بكليته حتى كأنه فى حضرة ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. فحينئذ يتجلى الحق على قلبه فيضطرب عند ذلك ويندهش ويغلب عليه السكر وحالة الحضور والإجلال والتعظيم، فلا يبقى فيه متسع لغير مطلوبه الأعظم. كما قيل: فلا حاجة لأهل الحضور إلى غير شهود عوانه. وقيل فى قوله تعالى: ﴿وشاهد ومشهود﴾ [البروج: ٣].

فالشاهد: هو الله، والمشهود: هو عكس جمال الحضرة الصمدية فهو الشاهد والمشهود.

فصل

ياحبيبى أطبق جفنيك وانظر ماذا ترى، فإن قلت لا أرى شيئًا حينئذ فهو خطأ منك بل تبصر. ولكن ظلام الوجود لفرط قربه من بصيرتك لا تجده. فإن أحببت أن تجده وتبصره قدامك مع أنك مطبق جفنيك، فانقص من وجودك شيئًا أو أبعد من وجودك شيئًا وطريق تنقيصه والإبعاد منه قليلاً المجاهدة ومعنى المجاهدة بذل الجهد فى دفع الأغيار أوقتل الأغيار والأغيار الوجود والنفس والشيطان. وبذل الجهد مضبوط بطرق:

الأول: تقليل الغذاء بالتدريج، فإن مدد الوجود والنفس والشيطان من الغذاء، فإذا قلّ الغذاء قلّ سلطانه.

والثانى: ترك الاختيار وإفنائه فى اختيار شيخ مأمون ليختار له ما يصلحه، فإنه مثل الطفل الصبى الذى لم يبلغ مبلغ الرجال أو السفيه المبذر. وكل هؤلاء لا بد لهم من وصى أو ولى أو قاض أو سلطان يتولى أمرهم.

والثالث: من الطرق طريقة الجنيد قدس الله روحه وهو ثمان شرائط. دوام الوضوء، ودوام الصوم، ودوام السكوت، ودوام الخلوة، ودوام الذكر وهو قول (لا إله إلا الله)، ودوام ربط القلب بالشيخ واستفادة علم الواقعات منه بفناء تصرفه فى تصرف الشيخ، ودوام نفى الخواطر، ودوام ترك الاعتراض على الله تعالى فى كل ما يرد منه عليه ضرًا كان أو نفعًا وترك السؤال عنه من جنة أو تعوذ من نار.

والفرق بين الوجود والنفس والشيطان فى مقام المشاهدة: أن الوجود شديد الظلمة فى الأول، فإذا صفا قليلاً تشكل قدامك بشكل الغيم الأسود فإذا كان عرش الشيطان كان أحمر فإذا صلح وفنى الحظوظ منه وبقى الحقوق صفا وابيض مثل المزن، والنفس إذا بدت فلونها لون السماء وهى الزرقة، ولها نبعان كنبعان الماء من أصل الينبوع. فإذا كانت عرش الشيطان فكأنها عين من ظلمة ونار ويكون نبعها أقل. فإن الشيطان لاخير فيه وفيضان النفس على الوجود وتربيته منها فإن صفت وزكت أفاضت عليه الخير وما نبت منه. فإن أفاضت عليه الشر فكذلك ينبت منه الشر، والشيطان نار غير صافية ممتزجة بظلمات الكفر فى هيئة عظيمة وقد يتشكل قدامك كأنه زنجى طويل ذو هيبة يسعى كأنه يطلب الدخول فيك. فإذا طلبت منه الانفكاك فقل فى قلبك يا غياث المستغيثين أغثنا فإنه يفر عنك.

فصل فى التصوف

حكم الصوفى أن يكون الفقر زينته والصبر حليته والرضى مطيته والتوكل شأنه. والله عز وجلّ وحده حسبه يستعمل جوارحه فى الطاعات وقطع الشهوات والزهد فى الدنيا والتورع عن جميع حظوظ النفس، وأن لايكون له رغبة فى الدنيا البته، فإن كان ولا بدّ فلا تجاوز رغبته كفايته ويكون صافى القلب من الدنس ولهًا بحب ربه فارًا إلى الله تعالى بسره يأوى إليه كل شىء ،ويأنس به وهو لا يأوى إلى شىء، أى لا يركن إلى شىء ولا يأنس بشئ سوى معبوده آخذًا بالأولى والأهم والأحوط فى دينه مؤثرًا الله على كل شىء.

التصوف: طرح النفس فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية. وقيل: كتمان الفاقات ومدافعة الآفات.

وقال سهل بن عبد الله: الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والمدر. وقيل: التصوف تصفية القلب عن مرافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانية الدواعى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية واتباع رسول الله ﷺ فى الشريعة. وقيل : الصوفى هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ومعينه على هذه دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار يتفطن للكدر كلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته وبحركة نفسه تفرقته وكدره فهو قائم بربه على قلبه وقائم بقلبه على نفسه. قال الله تعالى: ﴿ **كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ** ﴾ [المائدة: ٨]. وهذه لله على النفس هو تحقق بالتصوف.

فصل فى أصول التصوف

أكل الحلال والاقتداء برسول الله ﷺ فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته. ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا مضبوط بالكتاب والسنة. أخذ هذا المذهب بالورع والتقوى لا بالدعاوى.

التصوف: أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة. فالعلم: يكشف عن المراد، والعمل: يعين على الطلب، والموهبة: تبلغ غاية الأمل.

وأهله على ثلاث طبقات: مريد طالب، ومتوسط سائر، ومنته واصل. فالمريد صاحب وقته، والمتوسط صاحب حال، والمنتهى صاحب يقين، وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس. فمقام المريد المجاهدات والمكابدات وتجرع المرارات ومجانية الحظوظ وما على

النفس فيه تبعة. ومقام المتوسط ركوب الأهوال فى طلب المراد ومراعاة الصدق واستعمال الأدب فى المقامات وهو مطالب بآداب المنازل وهو صاحب تلوين، لأنه ينتقل من حال إلى حال وهو الزيادة. ومقام المنتهى الصحو والثبات وإجابة الحق من حيث دعاه قد تجاوز المقامات، وهو فى محل التمكين لا تغيره الأهوال ولا تؤثر فيه الأحوال. قد استوى فى حال الشدة أو الرّخاء والمنع والعطاء والجفاء والوفاء. أكله كجوعه ونومه كسهره. قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه ظاهرة مع الخلق، وباطنه مع الحق كل ذلك من أحوال النبى ﷺ. المنتهى لو نصب له سنان فى أعلى شاهق فى الأرض وهبت له الرياح الثمانية ما حركت منه شعرة واحدة. وقيل: سموا صوفية لأنهم وقفوا فى الصف الأول بين يدى الله عزّ وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بين يديه بسرائرهم.

فصل فى الملامتية

حكم الملامتى أن لايظهر خيرًا ولا يضمر شرًا. وشرح هذا: هو أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص وتحقق بالصدق فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله. والملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك والإخلاص يرون كتم الأحوال ويتلذذون بكتمها حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك، كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته. فالملامتى عظّم موقع الإخلاص وموضعه وتمسك به معتمدًا به. والصوفى غاب فى إخلاصه.

قال أبو يعقوب السوسى: متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص. قال بعضهم: صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق، والملامتى يرى الخلق فيخفى عمله وحاله. قال جعفر الخلدى: سألت أبا القاسم الجنيد قلت: بين الإخلاص والصدق فرق؟ قال: نعم الصدق أصل وهو الأول والإخلاص فرع وهو تابع. وقال : بينهما فرق لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول فى العمل. ثم قال: إنما هو إخلاص ومخالصة الإخلاص وخالصته كائنة فى المخالصة. فعلى هذا الإخلاص حال الملامتى، ومخالصة الإخلاص حال الصوفى، والخالصة الكائنة فى المخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه، بل غيبته عن رؤية قيامه وهو الاستغراق فى العين عن الآثار والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفى. والملامتى مقيم فى أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة إخلاصه.

وهذا فرق واضح بين الملامتى والصوفى. فالملامتى وإن كان متمسكًا بعروة الإخلاص مستفرشًا بساط الصدق. ولكن عليه بقية رؤية الخلق وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص

والصدق. والصوفى صفاء من هذه البقية فى طرفى العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية وراءهم بعين الفناء والزوال، ولاح له ناصية التوحيد وعاين سر ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. كما قال بعضهم فى بعض غلباته: ليس فى الدارين غير الله. وقد يكون إخفاء الملامتى الحال على وجهين: أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق، والوجه الآخر: وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيره، فإنه من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه، بل يبلغ فى صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه، وهذا وإن علا ففى طريق الصوفى علة ونقص. فعلى هذا يتقدم الملامتى على المتصوف ويتأخر عن الصوفى. وقيل: من أصول أهل الملامة أن الذكر على أربعة أقسام: ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالسر، وذكر بالروح. فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر وذلك ذكر المشاهدة، وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر وذلك ذكر الهيبة، وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر وذلك ذكر الآلاء والنعماء، وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر. وذلك ذكر العادة.

ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة، فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه وطلب ثواب أو ظن أنه يصل إلى شئ من المقامات به.

وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك. وسر هذا الأصل الذى بنوا عليه أن ذكر الروح ذكر اللذات، وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم، وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات، وذكر النفس متعرض للعلات، فمعنى قولهم: اطلاع السر على الروح يشيرون إلى التحقيق بالفناء عند ذكر الذات، وذكر الهيبة فى ذلك الوقت ذكر الصفات وهو وجود الهيبة، ووجود الهيبة يستدعى وجودًا أو بقية، وذلك يناقض حال الفناء. وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب، وذكر القرب الذى هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما لا به اشتغال بذكر النعمة وذهول عن المنعم، والاشتغال برؤية العطاء عن رؤية المعطى ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس نظرًا إلى الأغراض اعتداد بوجود العمل، وذلك عين الاعتلال حقيقة، وهذه أقسام هذه الطائفة وبعضها أعلى من بعض. والله أعلم.

الباب الرابع
فى بيان معنى الوصول والوصال

اعلم: أن الوصول هو أن ينكشف للعبد حلية الحق ويصير مستغرقًا به، فإن نظر

إلى معرفته فلايعرف إلاّ الله وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه. فيكون كله مشغولاً بكله مشاهدة وهمًا ولا يلتفت فى ذلك إلى نفسه ليعمر ظاهره بالعبادة أو باطنه بتهذيب الأخلاق وكل ذلك طهارة وهى البداية، وأما النهاية أن ينسلخ من نفسه بالكلية ويتجرد له فيكون كأنه هو وذلك هو الوصول، فافهم جدًا. ومعنى الوصال هو الرؤية والمشاهدة بسر القلب فى الدنيا وبعين الرأس فى الآخرة، فليس معنى الوصال اتصال الذات بالذات تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. قال بعضهم:

وإنَّ طَرْفى موصولٌ برؤيته
وإنْ تَباعَد عن مَثْواى مَثْواه

اعلم: أن مبانى طريق الصوفية على أربعة أشياء وهى: اجتهاد، وسلوك، وسير، وطير.

فالاجتهاد: التحقق بحقائق الإسلام. والسلوك: التحقق بحقائق الإيمان. والسير: التحقق بحقائق الإحسان. والطير: الجذبة بطريق الجود والإحسان إلى معرفة الملك المنان، منزلة الاجتهاد من السلوك منزلة الاستنجاء من الوضوء، فمن لا استنجاء له لا وضوء له. فهكذا من لا اجتهاد له لا سلوك له. ومنزل السلوك من السير منزلة الوضوء من الصلاة، فمن لا وضوء له لا صلاة له. فكذا من لا سلوك له لا سير له. وبعده الطير وهو الوصول والله تعالى أعلم. فهذه طريق السالكين ومنازل السائرين، وبعد ذلك طريق الوصول ومنازل الواصلين وهو الطير. والله أعلم.

فصل فى الاتصال

قال الثورى: الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار فى مقام الذهول.

اعلم: أن الاتصال والمواصلة فيما أشار إليه الشيوخ وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجد فهو رتبة من الوصول. ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة فى التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع الله تعالى ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار. وهذه رتبة فى الوصول. ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال، وهذا تجلى بطريق الصفات وهو رتبة فى الوصول. ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مستمليًا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبًا فى شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين، وهذه رتبة فى الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه. وهذا من أعلى رتب

الوصول ، وإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه يعد فى أول المنزل. فأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد فى الآخرة الأبدى. فكيف فى العمر القصير الدنيوى؟ والله أعلم.

الباب الخامس
فى بيان معنى التوحيد والمعرفة ويضاف إليهما البصيرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاينة والحياة واليقين والإلهام والفراسة لأنها من مواريثهما

أما التوحيد: فهو إفراد القدم عن الحدوث والإعراض عن الحادث والإقبال على القديم حتى لا يشهد نفسه فضلاً عن غيره، لأنه لو شاهد نفسه فى حال توحيد الحق تعالى أوغيره لكان مثنيًا لا موحدًا ذاته القديمة بوصف الوحدانية موصوفة وبنعت الفردانية منعوتة، وصفات المحدثات من المشاكلة والمماثلة والاتصال والانفصال والمقارنة والمجاورة والمخالطة والحلول والخروج والدخول والتغيير والزوال والتبدل والانتقال من قدس ذاته ونزاهة صفاته مسلوبة، ولا ينسب نقصان إلى كمال جماله وكمال جمال أحديته مبرأ عن وصمة ملاحظة الأفكار، وجلال صمديته معرى عن مزاحمة ملابسة الأذكار، ضاقت عبارات المبارزين فى ميدان الفصاحة عن وصف كبريائه، وعجز بيان السابقين فى عرصة المعرفة عن تعريف ذاته تعالى، وتعالى إدراكه عن مناولة الحواس ومحاولة القياس، وليس لأصحاب البصائر فى أشعة أنوار عظمته سبيل التعامى والتغاشى. إن قلت: أين؟ فالمكان خلقه، وإن قلت: متى؟ فالزمان إيجاده، وإن قلت: كيف؟ فالمشابهة والكيف مفعوله، وإن قلت: كم؟ فالمقدار والكمية مجعوله، الأزل والأبد مندرج تحت إحاطته، والكون والمكان منطو فى بساطه كل ما يسع فى العقل والفهم والحواس والقياس ذات الله تعالى مقدسة عنه. إذ كل ذلك محدث والمحدث لا يدرك إلا المحدث دليل وجوده، وبرهان شهوده الإدراك فى هذا المقام عجز. والعجز عن درك الإدراك إدراك. لا يصل بكنه الواحد إلا الواحد، وكل ما انتهى إدراك الموحد إليه فهو غاية إدراكه لا غاية الواحد تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا. وكل من ادعى أن معرفة الواحد منحصرة فى معرفته فهو بالحقيقة ممكور ومغرور. وقوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] إشارة إلى هذا الغرور.

فصل فى التوحيد

والتوحيد فى البداية نفى التفرقة والوقوف على الجمع . وأما فى النهاية فيمكن أن يكون الموحد حال التفرقة مستغرقًا فى عين الجمع وفى عين الجمع بعين الجمع ناظرًا إلى

التفرقة بحيث كل واحد من الجمع والتفرقة لا يمنع من الآخر. وهذا هو كمال التوحيد وذلك أن يصير حال التوحيد وصفًا لازمًا لذات الموحد، وتتلاشى وتضمحل ظلمة رسوم وجوده فى غلبة إشراق أنوار توحيده، ونور علم توحيده يستتر ويندرج فى نور حاله على مثال اندراج الكواكب فى نور الشمس، فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بإسفاره أضواء نور الكواكب. وفى هذا المقام يستغرق وجود الموحد فى مشاهدة جمال الواحد فى عين الجمع بحيث لا يشاهد غير ذات الواحد تعالى وغير صفاته عزّ وجلّ واستلبه أمواج بحر التوحيد وغرق فى عين الجمع من هنا.

قال الجنيد: -قدس الله روحه- معنى ذلك تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ويكون الله تعالى كما لم يزل. وقيل: من وقع فى بحار التوحيد لا يزداد على ممر الزمان إلا عطشًا.

فصل فى بيان أنواع التوحيد

اعلم: أن إثبات التوحيد خمسة أشياء فى أصول التوحيد لا بدّ لكل مكلف من اعتقادهن.

إحدها: وجود البارىء تعالى ليبرأ به من التعطيل.

ثانيها: وحدانيته تعالى ليبرأ به من الشرك.

وثالثها: تنزيهه تعالى عن كونه جوهرًا أو عرضًا. وعن لوازم كل منهما ليبرأ به من التشبيه.

ورابعها: إبداعه تعالى بقدرته واختياره لكل ما سواه ليبرأ به عن القول بالعلة والمعلول.

وخامسها: تدبيره تعالى لجميع مبتدعاته ليبرأ به عن تدبير الطبائع والكواكب والملائكة، وقوله (لا إله إلا الله) يدل على الخمسة.

فصل

اتفق المسلمون على أن الله تعالى موصوف بكل كمال. برئ من كل نقصان، لكنهم اختلفوا فى بعض الأوصاف فاعتقد بعضهم أنها كمال فأثبتها له واعتقد آخرون أنها نقصان فنفوها عنه. ولذلك أمثلة:

أحدها: قول المعتزلة إن الإنسان خالق لأفعاله، لأن الله لو خلقها ثم نسبها إليه، ولأنه لو فعلها مع أنه لم يفعلها وعذبه عليها مع أنه لم يوجدها، لكان ظالمًا له والظلم نقصان. وكيف يصح أن يفعل شيئًا ثم يلوم غيره عليه ويقول له: كيف فعلته ولم فعلته؟ وأهل السنة يقولون: وجدنا كمال الإله فى التفرد ونفى القدرة عيب ونقصان، وليس تعذيب الرب على ما خلقه بظلم بدليل تعذيب البهائم والمجانين والأطفال، لأنه يتصرف فى ملكه كيف يشاء ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. والقول بالتحسين والتقبيح باطل فرأوا أن يكون هو الخالق لأفعال العباد ورأوا تعذيبهم على ما لا يخلقون جائزًا من أفعاله غير قبيح.

المثال الثانى: اختلاف المجسمة مع المنزهة. قالت المجسمة: لو لم يكن جسمًا لكان معدومًا ولا عيب أقبح من العدم. وكذا النفى عن الجهات قول بعدمه لأن من لا جهة له لا يتصور وجوده. وقالت المنزهة: لو كان جسمًا لكان حادثًا ولقاته كمال الأزلية والنفى عن الجهات كلها إنما يوجب عدم من كان محدودًا منحصرًا فى الجهات. فأما ما كان موجودًا قديمًا لم يزل ولا جهة فلا ينصرف إليه النفى.

المثال الثالث: إيجاد المعتزلى على الله أن يثبت الطائعين كيلا يظلمهم والظلم نقصان، وقول الأشعرى: ليس ذلك بظلم إذ لا يجب عليه حق لغيره إذ لو وجب عليه حق غيره لكان فى قيده والتقييد بالأغيار نقصان.

المثال الرابع: قول المعتزلة إن الله تعالى يريد الطاعات وإن لم تقع، لأن إرادتها كمال ويكره المعاصى وإن وقعت، لأن إرادتها نقصان. وقول الأشعرى: لو أراد ما لا يقع لكان ذلك نقصًا فى إرادته لكلالها عن النفوذ فيما تعلقت به ولو كره المعاصى مع وقوعها لكان ذلك كلالاً فى كراهته. وكذلك نقصان.

المثال الخامس: إيجاب المعتزلى على الله تعالى رعاية الأصلح لعباده لما فى تركه من النقصان. وقول الأشعرى: لا يلزمه ذلك، لأن الإلزام نقصان وكمال الإله أن لا يكون فى قيد المتألهين. وبالله التوفيق.

فصل

اعلم: أن من نسب المشيئة، والكسب إلى نفسه فهو قدرى، ومن نفاهما عن نفسه فهو جبرى. ومن نسب المشيئة إلى الله تعالى والكسب إلى العبد فهو سنى صوفى رشيد، فقدرة العبد وحركته خلق للرب تعالى وهما وصف للعبد وكسب له، والقدر اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر والقضاء هو الخلق، والفرق بين القضاء والقدر هو أن القدر أعم

والقضاء أخص، فتدبير الأوليات قدر وسوق تلك الأقدار بمقاديرها وهيئاتها إلى مقتضياتها هو القضاء، فالقدر إذًا تقدير الأمر بدءًا والقضاء فصله وقطع ذلك الأمر كما يقال قضى القاضى.

فصل فى الأهواء

اعلم: أن أهل الأهواء المختلفة ست فرق، وكل اثنين منها ضدان وهى: التشبيه والتعطيل، والجبر والقدر، والرفض والنصب، وكل واحدة منها تفترق إلى اثنتى عشرة فرقة، فالتشبيه والتعطيل ضدان، والجبر والقدر ضدان، والرفض والنصب ضدان، وكل من هؤلاء منحرفون عن الصراط المستقيم، والفرقة الناجية الوسط وهم أهل السنة والجماعة. فأما الفرقة المشبهة فإنهم بالغوا وغلوا فى إثبات الصفات حتى شبهوا وجوزوا الانتقال والحلول والاستقرار والجلوس وما أشبه ذلك، وأما الفرقة المعطلة: فإنهم بالغوا وغلوا وبالغوا فى نفى التشبيه حتى وقعوا فى التعطيل، وأما أهل السنة والجماعة: فإنهم سلكوا الطريق الوسط وأثبتوا صفات الله كما وردت من غير تشبيه ولا تعطيل، فعلمت بذلك سبيل الشيطان ما عليه المشبهة والمعطلة، وأما الجبرية والقدرية: فكل منهم بعيد عن الصراط المستقيم، فمن نفى المشيئة والكسب عن نفسه فهو جبرى، ومن نسبها إلى نفسه فهو قدرى، ومن نسب المشيئة إلى الله تعالى والكسب إلى العبد فهو سنى، وأما الرافضة والناصبة: فكل منهما بعيد عن الصراط. فالرافضى: ادعى محبة أهل البيت وبالغ فى سب الصحابة وبغضهم، والناصبى: بالغ فى التعصب من جهة الصحابة حتى وقع فى عداوة أهل البيت ونسب عليًّا رضى الله عنه إلى الظلم والكفر، وأما أهل السنة: فإنهم سلكوا الطريق الوسط فأحبوا أهل البيت وأحبوا الصحابة وحفظ الله تعالى ألسنتهم من الوقيعة فى أحد منهم إلا بالحمد والثناء عليهم فللّه الحمد والمنة والشكر.

فصل فى القضاء

القضاء يطلق تارة يراد الأمر المبرم نحو قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [غافر: ٦٨]. وتارة يراد به الإعلام بوجوب الحكم الواجب لله كقوله تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ [الإسراء: ٢٣]. إذ لو كان هذا من القضاء المبرم لما عبد غيره تعالى إذ يستحيل تخلف الأثر عن مؤثره، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]. والمراد به الإعلام إذ لو كان قضاء وحكمًا مبرمًا لعبده الكل فنشأ الخلاف لعدم الفرقان.

فصل

اعلم: أن الله تعالى قضى فيما قضاه أزلاً أن الأمـور يكون منوطًا بالعبد موقوفًا عليه في أفعاله وأقواله ما قضاه فقد أمضاه فلا يجوز تغيره ولا يقال: إن الله تعالى يغير ما قضاه لأنه تعالى لا يعارض نفسه فيما قضاه، إذ لم يكن عبثًا ولا تبعًا للشهوات تعالى عن ذلك، وإنما قضى بمقتضى الحكمة وما صدر عن الحكمة فلا مغير له، فما قضاه منوطًا بفعل العبد، فكالحرث والنسل، وما قضاه موقوفًا على فعل العبد فكالدعاء والاستغفار.

واعلم: أن الله تعالى أثبت فعل العبد في مواضع نحو قوله تعالى: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الواقعة: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**﴾ [التوبة: ٥]. ومحاه في مواضع أُخر نحو قوله تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال: ١٧]. والحكمة فيه أنه تعالى خالق الأفعال ومقدرها والعبد كاسبها ومسببها، فالعبد يعمل العبادة والله تعالى يجازي عليها ولولا نسبة هذه الأفعال خلقًا وكسبًا لما سمي عابدًا ومعبودًا، فثبت أن العبد عابد كاسب وأن الله تعالى معبود خالق، واعلم أن الأفعال قسمان:

أحدهما: قوله ما يقع من العبد وهو الكسب المنسوب إليه ولهذا أنزلت الكتب وأرسلت الرسل وثبتت الحاجة إلى العقول لتقوم بها الحجة وتتضح بها المحجة.

الثاني: ما يقع على العبد جزاء وهو ما بيد الله تعالى ويد العبد وكلاهما لا يكون إلا بما كسبت يد العبد لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠]. وما ناسب هذه الآية، فمن فهم هذه الجملة أمكنه أن يفقه المراد من كلام الله تعالى فيما هو المضاف إلى العباد، ومثال ذلك: قطع الجلاد يد السارق. يصح أن يقول: القاطع هو الجلاد لأنه كاسب، ويصح أن يقال: إن الله تعالى هو القاطع بيد الجلاد لأنه تعالى هو المجازي للمقطوع لما بدا منه، ويصح أن يقال: إن السارق هو القاطع ليده لأنه هو المبتدئ لما جناه فلا يقع عليه إلا ما كسبت يداه، فيكون الفعل الواجد من الرب تعالى جزاءً من المقطوع ابتداءً ومن القاطع كسبًا ولا يناقض أحد أحدًا وأدلته واضحة في الكتاب، ومن فهم هذه الجملة حق فهمها لم يخف إلا من نفسه ولم يرج إلا رحمة الله سبحانه وتعالى. قال: أين عبد الله كلنا في ذات الله تعالى أحمق، يعني إن نظرنا إلى قضائه نتوهم أن العبد معذور فيما يفعل، وإن نظرنا إلى الأمر والنهي وإلى اختيار العبد ربما يظن أن العبد مستبد بما يفعل، بل الحق فيه أن يعتقد أن العبد غير مستغن عن الله تعالى في سائر

أفعاله وأقواله، وأحواله، بل هو متقلب في مشيئته وأنه غير مجبور ولا مسخر كالحيوانات والجمادات، بل هو موفق في ضمن أسباب السعادة ومخذول أو مطرود في ضمن أسباب الشقاوة.

فصل

لو قيل: إن كان للقدرة الحادثة أثر في المقدور فهو شرك خفي، وإن لم يكن لها أثر فهو جبر. يقال: إنما يكون شركًا إذا كان لها في التخليق أثر، وإنما أثرها في الكسب والله تعالى ليس بكاسب حتى يكون شركًا ولو لم يكن لها أثر في المقدور لزم أن يكون وجودها كعدمها فهو إذًا قدير بلا قدرة وهو محال.

واعلم أن من ظن أن الله تعالى أنزل الكتب وأرسل الرسل وأمر ونهى ووعظ وتواعد لغير قادر مختار، فهو مختل المزاج يحتاج إلى علاج ولسبب اختلاف الناس في الاستدلال بالقرآن قبل فهمه وقعوا في الجبر والقدر، لأنهم لم يفرقوا بين قدرة الخالق القديمة وبين قدرة المخلوق الحادثة والفرق بينهما أن القدرة القديمة مستقلة بالخلق ولا مدخل لها في الكسب، وأن القدرة الحادثة مستقلة بالكسب ولا مدخل لها في الخلق والظلم إنما ينسب إلى الحادثة، وأما القديمة فمبرأة عنه لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٤].

فصل الفرق بين العلم والمعرفة

وأما المعرفة: فهي نفس القرب وهو ما أخذ القلب وأثر فيه أثرًا يؤثر في الجوارح. فالعلم: كرؤية النار مثلاً. والمعرفة: كالاصطلاء بها، والمعرفة في اللغة: هو العلم الذي لا يقبل الشك وفي العرف اسم لعلم تقدمه نكرة، وفي عبارة الصوفية المعرفة هو العلم الذي لا يقبل الشك إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته. فإن قيل: ما معرفة الذات وما معرفة الصفات؟ يقال: معرفة الذات أن يعلم أن الله تعالى موجود واحد فرد وذات وشيء عظيم قائم بنفسه ولا يشبهه شيء وأما معرفة الصفات: فأن تعرف أن الله تعالى حي عالم قادر سميع بصير إلى غير ذلك من الصفات. فإن قيل: ما سر المعرفة؟ يقال: سرها وروحها التوحيد، وذلك بأن تنزه حياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه عن التشبيه بصفات الخلق: ليس كمثله شئ.

فإن قيل: ما علامة المعرفة؟ يقال: حياة القلب مع الله تعالى، أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أتدري ما معرفتي؟ قال: لا. قال: حياة القلب في مشاهدتي.

فإن قيل: ففى أى مقام تصح المعرفة الحقيقية؟ يقال: فى مقام الرؤية والمشاهدة بسر القلب، وإنما يرى ليعرف، لأن المعرفة الحقيقية فى باطن الإرادة فيرفع الله تعالى بعض الحجب فيريهم نور ذاته تعالى وصفاته عزّ وجلّ من وراء الحجاب ليعرفوه تعالى، ولا يرفع الحجب بالكلية لكيلا يحترق الرائى. قال بعضهم بلسان الحال:

وَلَو أننّى ظَهَرتُ بلا حجاب
لَتَمتُ الخَلائقَ أجْمَعينا
وَلَكِنَّ الحِجابَ لَطيفُ مَعْنَى
بهَ تَحْيا قُلوبُ العَاشِقينا

اعلم: أن تجلى العظمة يوجب الخوف والهيبة، وتجلى الحسن والجمال يوجب العشق، وتجلى الصفات يوجب المحبة، وتجلى الذات يوجب التوحيد قال بعض العارفين: والله ما نال رجل الدنيا إلا أعمى الله قلبه وبطل عليه عمله إن الله تعالى خلق الدنيا مظلمة، وجعل الشمس فيها ضياء، وجعل القلوب مظلمة، وجعل المعرفة فيها ضياء، فإذا جاءه السحاب ذهب نور الشمس، فكذلك يجئ حب الدنيا فيذهب بنور المعرفة من القلب. وقيل: حقيقة المعرفة نور يطرح فى قلب المؤمن وليس فى الخزانة شئ أعز من المعرفة. وقال بعضهم: إن شمس قلب العارف أضوأ وأشرق من شمس النهار، لأن شمس النهار قد تكسف وشمس القلوب لا كسوف لها وشمس النهار تغرب بالليل دون شمس القلوب، وأنشدوا فى ذلك:

إنَّ شَمْسَ النَّهَار تَغْرُبُ لَيْلاً
غَير شَمْسِ القُلُوبِ لَيْسَ تَغيب
مَنْ أَحَبَّ الحَبيبَ طَارَ إِلَيْه
اشْتِيَاقًا إلى لقَاء الحَبيب

قال ذو النون: حقيقة المعرفة اطلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار، وأنشدوا فيه:

للعارفينَ قلوبٌ يُعْرفون بها
نور الإله بسر السر فى الحُجُبِ
صمٌ عن الخلق عُمْىٌ عن مناظرهم
بُكمٌ عن النُّطق فى دعواه بالكذب

وسئل بعضهم: متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة؟ فقال: إذا لم يجد لى قلبه مكانًا لغير ربه، وقال بعضهم: حقيقة المعرفة مشاهدة الحق بلا واسطة ولا كيف ولا شبهة،

كما سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ فقيل: ياأمير المؤمنين أتعبد من ترى أو من لاترى؟ فقال : لا بل أعبد من أرى لا رؤية العيان، ولكن رؤية القلب. وقيل لجعفر الصادق رضى الله عنه: هل رأيت الله عزّوجل؟ قال: لم أكن لأعبد ربًّا لم أره. قيل: وكيف رأيته وهو الذى لا تدركه الأبصار؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس.

وسئل بعض العارفين عن حقيقة المعرفة. فقال: تخلية السر عن كل إرادة وترك ما عليه العادة وسكون القلب إلى الله تعالى بلا علاقة وترك الالتفات منه إلى ما سواه، ولا يمكن معرفة كنه ذاته ولا معرفة كنه صفاته عزّ وجل، ولا يعرف من هو إلا هو تبارك وتعالى والمجد لله وحده.

فصل وأما البصيرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاينة

فهى أسماء مترادفة على معنى واحد، وإنما تحصل التفرقة فى كمال الوضوح لا فى أصله، فمنزلة البصيرة من العقل منزلة نور العين من العين، والمعرفة من البصيرة منزلة قرص الشمس لنور العين فتدرك بذلك الجليات والخفيات. وأما الحياة: فهى نفس التوحيد. قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وأما اليقين: فاعلم أن الاعتقاد والعلم إذا استوليا على القلب ولم يكن لهما معارض أثمرا فى القلب المعرفة، فسميت هذه المعرفة يقينًا، لأن حقيقة اليقين صفاء العلم المكتسب حتى يصير كالعلم الضرورى ويصير القلب مشاهدًا لجميع ما أخبر عنه الشرع من أمر الدنيا والآخرة. يقال: أيقن الماء إذا صفا من كدورته.

وأما الإلهام: فهو حصول هذه المعرفة بغير سبب ولا اكتساب، بل بإلهام من الله تعالى بعد طهارة القلب عن استحسان ما فى الكونين.

وأما الفراسة: فهى التوسم بعلامة من الله تعالى بينه وبين العبد يستدل بها على أحكام باطنة، وذلك لا يكون إلا فى درجة التقريب وهو دون الإلهام، لأن الإلهام لا يفتقر إلى علامة والفراسة تفتقر إلى علامة وهو عام وخاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب السادس
فى بيان معني النفس والروح والقلب والعقل

اعلم أن هذه الأسامى الأربعة مشتركة بين مسميات مختلفة ونحن نشرح من معانيها ما يتعلق بغرضنا.

الأول: لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر وفى باطنه تجويف فيه دم أسود وهو منبع الروح الحيوانى ومعدنه.

والمعنى الثانى: هى لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان المدرك العالم المخاطب المطالب المثاب المعاقب.

اللفظ الثانى: الروح وهو أيضًا يتعلق بغرضنا لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيف بخارى حامله دم أسود منبعه تجويف القلب الجسمانى، وينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانها فى البدن وفيضان أنوار الحياة، والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج فى زوايا البيت. فالحياة: مثالها النور الحاصل فى الحيطان والروح مثاله السراج، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحرك محركه فالأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب.

والمعنى الثانى: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الذى هو أحد معنيى القلب وهو الذى أراده الله تعالى بقوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء: ٨٥]. وهو أمر عجيب ربانى يعجز أكثر العقول والأفهام عن درك فهم حقيقته.

اللفظ الثالث: النفس وهو أيضًا مشترك بين معنيين:

أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوتى الغضب والشهوة فى الإنسان وهذا الاستعمال هو الغالب على الصوفية فهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون: لا بدّ من مجاهدة النفس وكسر شهوتها، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِى بَيْنَ جَنْبَيْكَ**»

والمعنى الثانى: اللطيفة التى ذكرناها وهى حقيقة الإنسان ونفسه وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ**﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مبعدة عن الله سبحانه وتعالى وهى حزب الشيطان، وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية سميت النفس اللوامة، فإذا تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء.

اللفظ الرابع: العقل والمتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما: أنه يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور. فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله خزانة القلب.

والثانى: قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم، فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة التى هى حقيقة الإنسان وحيث ورد فى القرآن والسنة ذكر القلب فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الجسمانى الذى فى الصدر لأن بينه وبين تلك اللطيفة العالمة التى هى حقيقة الإنسان علاقة خاصة لأن تعلقها بسائر البدن إنما هو بوسطته فهو مملكتها ومطيتها والمجرى الأول لتدبيرها وتصرفها. فالقلب الجسمانى والصدر بالنسبة إلى الإنسان كالعرش الكرسى بالنسبة إلى الله تعالى من وجه.

فصل فى بيان جنود القلب

اعلم: أن الله تعالى فى القلب والأرواح وغيرها من العوالم جنودًا مجنده لا يعلم حقيقتها وتفصيل عددها إلا الله تعالى. ونحن الآن نشير إلى بعض جنود القلب وهو الذى يتعلق بغرضنا. فاعلم أن له جندين جند يرى بالإبصار وجند لا يرى إلا بالبصائر، فالقلب فى حكم الملك، والجنود فى حكم الخدم والأعوان.

فأما جنوده المشاهدة بالبصر فهى اليد والرجل والأذن والعين واللسان فجملة جنود القلب تحصره ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: باعث مستحث إلى جلب الموافق النافع كالشهورة وإما إلى دفع المخالف الضار كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة.

الصنف الثانى: هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد وقد يعبر عنه بالقدرة وهى جنود مبثوثة فى سائر الأعضاء.

الصنف الثالث: هو المدرك المعرف بهذه الأشياء كالجواسيس وهو قوة السمع والبصر والشم والذوق واللمس وهى مبثوثة فى الأعضاء الظاهرة المركبة من اللحم والشحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود. ويعبر عن عمل هذا الصنف بالعلم والإدراك، وهذا الصنف الثالث هو المدرك من هذه الجملة، وينقسم إلى ما أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس. أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وإلى ما أسكن منازل باطنة وهى تجاويف الدماغ وهى أيضًا خمسة: حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ.

فأما الحس المشترك فيرتسم فيها صورة ما أدته إليها الحواس الظاهرة مما أدركته كما ترسم الصورة فى المرآة ومحل تصرفها مقدم البطن الأول من الدماغ.

القوة الثانية: الخيال وهى خزانة الحس المشترك يخزن فيها ما ارتسم فيه لتحفظها له إلى وقت حاجته إليه، فإن له قوة القبول وليس له قوة الحفظ والخيال له قوة الحفظ وليس له قوة القبول ومحل تصرف الخيال مؤخر البطن من الدماغ.

القوة الثالثة: الوهم موضع تصرفه مقدم البطن المؤخر من الدماغ، لأن تصرفه هو المعانى الجزئية المتنوعة من الصور المخزونة فى الخيال فكانت بعدها فى الرتبة لتقليبها منه.

القوة الرابعة: الحافظ ومحل تصرفها مؤخر البطن المؤخر من الدماغ يلى محل تصرف الوهم لأنهاخزانته.

القوة الخامسة: المتصرفة ومحل تصرفها فى وسط الدماغ، لأنها أشرف القوى ولأنها تأخذ من الخيال فى حال دون حال وتعطيه أيضًا فى حال دون حال فى النوم واليقظة، وتعطى الحافظة وتطلب منها عند النسيان فكان الأليق بها أن تكون بين الحرارتين ليسهل عليها أخذها منهما وإعطاؤها إياهما والله أعلم.

وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره إلى الله تعالى وقطع المنازل إلى لقائه الذى لأجله خلق وإنما مركبه البدن، وإنما زاده العلم والعمل وليس يمكن أن يصل العبد إلى الله ما لم يسكن البدن وتجاوز الدنيا ليتزود منها للمنزل الأقصى فافتقر إلى تعهد بدنه بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وأن يدفع عنه ما يؤذيه، ويمكن منه أسباب الهلاك فافتقر لأجل الغذاء إلى جندين: باطن وهو الشهوة، وظاهر وهو الأعضاء الجالبة للغذاء فخلق فى القلب من الشهوات ما احتاج إليه وخلقت الأعضاء التى هى آلات الشهوة وافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب، الذى يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء، وظاهر وهى اليد والرجل والأسلحة التى بها تعمل بمقتضى الغضب ثم المحتاج إلى الغذاء إذا لم يعرف الغذاء، لا تنفعه شهوة معرفة الغذاء وآلته فافتقر فى المعرفة إلى جندين باطن: وهو إدراك السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وظاهر: وهو العين والأذن والأنف وغيرها وتفصيل الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة، فسبحان الكريم الحليم.

فصل

اعلم: أن القسمة ثلاثة: الجسم والعرض والجوهر الفرد. فالروح الحيوانى جسم لطيف كأنه سراج مشعل، والحياة هو السراج والدم دهنه والحس والحركة نوره، والشهوة حرارته، والغضب دخانه، والقوة الطالبة للغذاء الساكنة فى الكبد خادمه وحارسه ووكيله. وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات، لأنه مشترك بين البهائم وسائر الحيوانات والإنسان

هو جسم وآثاره أعراض، وهذا الروح لا يهتدى إلى العلم. ولا يعرف طريق المصنوع ولاحق الصانع، وإنما هو خادم أسير يموت البدن لو يزيد دهن الدم وينطفئ لزيادة الحرارة ولو ينقص ينطفئ بزيادة البرودة، وانطفاؤه سبب موت البدن وليس خطاب البارئ جلت عظمته وتكليف الشارع عليه الصلاة والسلام لهذا الروح، لأن البهائم وسائر الحيوانات غير مكلفين ولا مخاطبين بأحكام الشرع، والإنسان إنما يكلف ويخاطب لأجل معنى آخر وجد عنده زائدًا خاصًا وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح اللطيفة، وهذا الروح ليس بجسم ولا عرض، لأنه من أمر الله تعالى كما أخبر بقوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء: ٨٥]. وأمر الله تعالى ليس بجسم ولا عرض، بل هو جوهر ثابت دائم لا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت، بل يفارق البدن وينتظر العود إليه يوم القيامة كما ورد به الشرع، وهذا الروح يتولد منه صلاح البدن وفساده والروح الحيواني وجميع القوى كلها من جنوده، فإذا فارق الروح الحيواني البدن، تعطل أحوال القوى الحيوانية فيسكن المتحرك، فيقال لذلك السكون موت، وإن كان الروح من أمر الله تعالى في البدن كالغريب، فاعلم أنه لا يحل في محل ولا يسكن في مكان وليس البدن مكان الروح ولا محل القلب، بل البدن آلة الروح والله أعلم.

فصل

في بيان المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر: ٢٩]. قال رحمه الله تعالى ورضي عنه:

أما التسوية: فهي عبارة عن فعل في المحل القابل للروح وهو الطين في حق آدم عليه السلام، والنطفة في حق أولاده بالتصفية وتعديل المزاج والتردد في أطوار الخلقة إلى الغاية حتى ينتهي في الصفاء ومناسبة الأجزاء إلى الغاية فيستعد لقبول الروح وإمساكها كاستعداد الفتيلة بعد شرب الدهن لقبول النار وإمساكها.

وأما النفخ: فهو عبارة عن اشتعال نور الروح في المحل القابل، فالنفخ سبب الاشتعال وصورة النفخ في حق الله تعالى محال، والسبب غير محال فعبر عن نتيجة النفخ وهو الاشتعال في فتيلة النطفة، وللنفخ صورة ونتيجة.

وأما صورته: فهو إخراج هواء من جوف النافخ إلى جوف المنفوخ فيه. وهو فتيلة النطفة. فيشتعل فيها. وأما السبب الذي اشتعل به نور الروح فهو صفة في الفاعل وصفة في المحل القابل، وأما صفة الفاعل فالجود الذي هو ينبوع الوجود وهو فياض بذاته على كل موجود حقيقة وجوده ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة، ومثالها فيضان نور الشمس على

كل قابل الاستنارة عند ارتفاع الحجاب بينهما، والقابل هو الملونات دون الهواء الذى لا لون له. وأما صفة القابل فالاستواء واعتدال الحاصل فى التسوية كما قال تعالى: ﴿**فإذا سويته**﴾.

ومثال صفة القابل: صفات المرآة فإن المرآة قبل صقالتها لا تقبل الصورة وإن كانت محاذية لها، فإذا صقلت حدثت فيها صورة من ذى الصورة المحاذية لها فكذلك إذا حصل على الاستواء فى النطفة حدث فيها الروح من خالق الروح من غير تغير فى الخالق تعالى الآن لا بل إنما حدث الروح قبله لتغير المحل بحصول الاستواء الآن لا قبله.

وأما فيضان الجود، فالمراد به أن الجود الإلهى سبب لحدوث أنوار الوجود فى كل ماهية قابلة للجود فعبر عنه بالفيض لا كما يفهم من فيض الماء من الإناء على اليد فإن ذلك عبارة عن انفصال جزء مما فى الإناء واتصاله باليد، فإن الله سبحانه يتعالى عن مثل هذا.

وأما كشف معنى ماهية الروح ومعرفة حقيقتها فهو من السر الذى لم يؤذن لرسول الله ﷺ فى كشفه لمن ليس من أهله فإن كنت من أهله فاسمع. واعلم أن الروح ليس بجسم يحل فى البدن حلول الماء فى الإناء، ولا هو عرض يحل فى القلب أو الدماغ حلول السواد فى الأسود والعلم فى العالم، بل هو جوهر لا يتجزأ باتفاق أهل البصائر، لأنه لو انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه العلم بالشئ ويجزء آخر منه الجهل بذلك الشئ بعينه فيكون فى حالة واحدة عالمًا بشئ وجاهلاً به وذلك محال، فدل بذلك على أنه واحد لا ينقسم.

فإن قيل: لم منع رسول الله ﷺ إفشاء سر الروح وكشف حقيقته؟ فيقال: لأنه يتصف بصفات لا تحملها الأفهام إذ الناس قسمان عوام وخواص أما من غلب على طبعه العامية فإنه لا يصدق بما هو وصف الروح أن يكون وصفًا لله تعالى، فكيف يصدق به فى وصف الروح الإنسانى؟ وكذلك أنكرت الكرامية والحنبلية وغيرهم ممن غلبت عليهم العامية بتنزيه الإله تعالى عن الجسمية وعوارضها إذ لا يعقلون موجودًا إلا متجسمًا مشارًا إليه. ومن ترقى عن العامية قليلاً نفى الجسمية عن الإله تعالى. وما أطلق أن ينفى عوارض الجسمية عنه، فأثبت الجهة وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة فنزهوا الإله تعالى عن الجسمية والجهة.

فإن قيل: لم لا يجوز كشف هذا السر مع هؤلاء؟ فيقال: لأنهم أحالوا أن تكون هذه الصفة لغير الله تعالى، فإذا ذكرت هذا معهم كفروك، وقالوا: هذا تشبيه لأنك تصف نفسك بما هو صفة الإله تعالى على الخصوص وذلك جهل بأخص أوصاف الله تعالى.

فإن قيل: إن الإنسان حى عالم قادر مريد سميع بصير متكلم والله تعالى كذلك ليس فيه تشبيه لأن هذه الصفات ليست أخص أوصاف الله تعالى، فكذلك البراءة عن المكان

والجهة ليست أخص وصف الإله تعالى، بل أخص وصفه تعالى أنه قيوم أى قائم بذاته وكل ما سواه قائم به وهو موجود بذاته لا بغيره وليس للأشياء من أنفسها إلا العدم، وإنما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية فالوجود لله تعالى ذاتى ليس بمستعار وما سواه فوجوده منه تعالى لا من نفسه وهذه القيومية ليست إلا لله تعالى.

فإن قيل: ما معنى نسبة الروح إلى الله تعالى فى قوله: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر: ٢٩]. فاعلم أن الروح منزهة عن الجهة والمكان وفى قوتها العلم بجميع المعلومات والاطلاع عليها، فهذه مضاهاة ومناسبة ليست لغيره من الجسمانيات، فلذلك اختصت بالإضافة إلى الله تعالى.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء: ٨٥]. وما معنى عالم الأمر وعالم الخلق؟ فيقال: إن كل ما يقع عليه مساحة وتقدير فهو الأجسام وعوارضها. فهذا هو عالم الخلق والخلق ها هنا بمعنى التقدير لا بمعنى الإيجاد والإحداث. يقال: خلق الشئ أى قدره وكل ما لا كمية له ولا تقدير. يقال: إنه أمر ربانى وتلك المضاهاة التى ذكرناها، فكل ما هو من هذا الجنس من أرواح البشرية وأرواح الملائكة يقال: إنه من عالم الأمر وعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال والجهة والمكان والتحيز والدخول تحت المساحة والتقدير لانتفاء الكمية عنه.

فإن قيل: فهذا يوهم أن الروح قديم ليس بمخلوق. فيقال: قد توهم هذا قوم جهال ضلال، فمن قال إنه ليس بمخلوق بمعنى أنه غير مقدر بكمية لأنه لا يتجزأ ولا يتحيز فهو مصيب إلا أنه مخلوق بمعنى أنه حادث وليس بقديم، لأن حدوث الروح البشرية متوقف على استعداد النطفة كما حدثت الصورة فى المرآة بحدوث الصقالة وإن كان ذو الصورة سابق الوجود على الصقالة.

فإن قيل: مامعنى قول النبى ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِه**» وروى «**على صورة الرحمن**» فيقال: إن الصورة اسم مشترك قد يطلق على ترتيب الأشكال ووضع بعضها على بعض واختلاف تركيبها وهى الصورة المحسوسة. وقد يطلق على ترتيب المعانى التى ليست محسوسة وللمعانى أيضًا تركيب وترتيب وتناسب يسمى ذلك صورة. يقال: صورة المسألة كذا وصورة الواقعة كذا وصورة العلوم الجسمانية والعقلية كذا، فالمسألة بالصورة المذكورة هى الصورة المعقولة المعنوية والإشارة إلى المضاهاة التى ذكرناها، ويرجع ذلك إلى الذات والصفات والأفعال وحقيقة ذات الروح أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا جسم ولا جوهر متحيز ولايحل المكان والجهة، ولا هو متصل بالبدن والعالم، ولا هو منفصل، ولا هو داخل البدن والعالم ولا هو خارج. وهذا كله صفات ذات الله تعالى.

وأما الصفات: فقد خلق حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا متكلمًا والله تعالى كذلك وأما الأفعال: فمبدأ فعل الآدمى إرادة يظهر أثرها أولاً فى القلب فينتشر منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف ويتصاعد إلى الدماغ، ثم يسرى منه أثر إلى الأعضاء إلى أن تصل الآثار إلى الأصابع مثلاً فتتحرك فيتحرك بالأصابع القلم وبالقلم المداد، فيحدث منه صورة مايريد كتبه على القرطاس فى خزانة التخيل، فإنه ما لم يتصور فى خياله صورة المكتوب أولاً لا يمكن إحداثه على البياض. ثانيًا فمن استقرأ أفعال الله تعالى وكيفية إحداث الحيوان والنبات على الأرض بواسطة تحريك الكواكب والسموات بواسطة الملائكة علم أن تصرف الآدمى فى عالمه يشبه تصرف الخالق سبحانه فى العالم الأكبر، فحينئذ يعرف قوله ﷺ **«إن الله تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَيْه السَّلامُ عَلَى صُورَته»**.

فإن قيل: فإذا كانت الأرواح حادثة مع الأجساد فما معنى قوله عليه الصلاة والسَّلام: **«خَلَقَ الله تَعَالَى الأرْوَاحَ قَبْلَ خَلْقِ الأجْسَاد بألْفَى عَام»**، وقوله: **«أنا أوَّلُ الأنْبياء خَلْقًا وآخرُهُمْ بَعْثًا وكُنْتُ نَبيًّا وآدَمُ بيْنَ الماءَ وَالطِّين»**. فاعلم أنَّ شيئًا من ذلك لا يدل على قدم الروح لكن قوله: **«أنا أوَّلُ الأنْبيَاء خَلْقًا»**. ربما دل بظاهره على تقدم وجوده على جسده وغير الظاهر متعين. فإن تأويله ممكن والبرهان القاطع لا يدرأ بالظاهر بل ليسلط على تأويل الظاهر، كما فى ظواهر التشبيه فى حق الله تعالى.

فأما قوله: «خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفى عام» أراد بالأرواح أرواح الملائكة، والأجسام أجسام العالم من العرش والكرسى والسموات والكواكب والهواء والماء والأرض.

وأما قوله: «أنا أَوَّل الأنْبياء خلقًا» فالخلق ها هنا بمعنى التقدير دون الإيجاد، فإنه ﷺ قبل أن تلده أمه لم يكن موجودًا مخلوقًا، ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير لاحقة فى الوجود، فإن الله تعالى يقدر أولاً أى يرسم فى اللوح المحفوظ الأمور الإلهية على وفق علمه تعالى، فإذا فهمت نوعى الوجود فقد كان عليه الصلاة والسَّلام قبل وجود آدم علية السَّلام أعنى الوجود الأول التقديرى دون الوجود الحسى العينى. هذا آخر الكلام فى معنى الروح والله أعلم.

الباب السابع
في بيان معنى المحبة

اعلم: أن المحبة ميراث التوحيد والمعرفة وكل مقام وحال قبلها فلها يرد ومنها يستفاد. وأما المعرفة الخالصة بها: فكل ما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته من سلب نقص وإثبات كمال وهى واجبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وإنما وقع الخلاف فى حقيقتها ومعناها وليس للمحبة معنى غير الميل إلى اللذيذ الموافق، واعلم أن معرفة الله تعالى بنفسها ذكر الله تعالى، لأنها حضور معه وشهود له ومن علامته فى بدايته اللوائح والطوالع واللوامع والبروق، وهذه ألفاظ متقاربة المعانى والفرق بين البرق والوجد أن البرق إذن فى دخول طريق التوحيد والوجد يصحبك فيها فإذا دام صار ذوقًا.

وأما الذوق: فهو استحلاء وشرب لما شاهدت من ضياء البرق. وأما اللحظ: فهو اسم يعبر به عن رؤية الحق تعالى بالقلب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**اعبُد الله كأنَّكَ تَراهُ**». وأما الوقت: فهو اسم ظرف للكائن فيه من الأحوال فوقت العبد ما هو فيه. وأما الصفاء: فهو اسم للبراءة من الكدر. وأما النفس: فهو تنفس العبد لعجزه عن حمل الأحوال الواردة عليه إما صعدًا وإما تلفظًا بكلام أو إشارة مما هو فيه، لأن العبد ما دام حيًّا لا بدّ أن يتروح بدخول النفس وخروجه فإذا قوى النفس أدى إلى الغرق. وأما الغرق: فهو عدم القدرة على النفس لكظمه فهو غير متنفس ولا غائب فإذا قوى عليه دخل فى الغيبة. وأما الغيبة: فهى اسم للذهول عن المهمات بما هو أهم منها. وأما السكر : فهو اسم يشار به إلى سقوط التمالك فى الطرب فإذا لحقته العناية أصحاه ليزيده علمًا، لأن السكران لا يرتقى بالمسكر فى الحق والصحو إنما هو بالحق. أما السكر فى الحق: فهو النظر إلى صفاته والتنعم بما يرد عليه منه والتلذذ به. وأما الصحو بالله تعالى: فهو أن يتبرأ من نفسه ومن التذاذه وأحواله فإذا منح بعد ذلك بشهود الذات كوصف بالقيومية وهى صفات الألوهية فأفتنه عما سوى معبوده ثم فنى عن فنائه. وأما الفناء: فحقيقته فى الحس تلاشى الأجسام والأعراض وذهابها بالكلية.

ولما كان ما سوى الله تعالى موجودًا بالله وقائمًا به لابنفسه كان وجوده مجازًا وكان القائم بنفسه المقيم لغيره وجوده ثابتًا حقيقيًا استعير لمن أكرم بهذه المعرفة لفظ الفناء لتلاشى الموجودات فى عين قلبه حيث شهد الكل مع القدرة، كالطفل لا حكم له فى الفعل، فإذا أيد هذا العبد وكمل رقاه إلى مقام البقاء. لأنه إذا لم يبقَ فى القلب التفات إلى غير الله تعالى لدوام الشغل به عبر عن هذه الحالة بالبقاء مع الله بالله تعالى، والوجود والبقاء اسمان

مترادفان على معنى واحد، فالوجود اسم للظفر بحقيقة الشئ، والبقاء هو أجل الحقائق التى يقصد الظفر بها. وكذلك مقام الجمع. قال بعض السادة: الجمع ما أسقط التفرقة وقطع الإشارة ومعناه أن يكون مذكوراً بالله تعالى ومذكوراً منه تعالى والحمد لله وحده.

الباب الثامن
فى بيان معنى الأنس بالله تعالى

اعلم: أن من أجل مواريث المحبة الأنس. أما حقيقة الأنس: فهو استبشار القلب وفرحه لما انكشف له من قرب الله تعالى وجماله وكماله. وقال بعضهم: حقيقة القرب فقد حس الأشياء من القلب وهدوء الضمير إلى الله تعالى.

قلت: وهذا هو الوسيلة لنيل القرب لا نفس القرب، لأن هذا طهور القلب عما سوى الله تعالى وإذا تطهر القلب عما سوى الله تعالى كان حاضراً مع العبد، لأنه ليس بين العبد وبين الله إلا حجاب نفسه وعوارضها. فإذا فنى عنها وعن عوارضها وعلم قيام العالم كله بقدرة الله تعالى عرف قرب الله تعالى بها كشفًا وإرادته تخصيصًا وقدرته إيجادًا وإبقاء والصفات التى لا تفارق الموصوف بل صفاته قائمة بالموصوف، فإذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه، وإذا سمع بنفسه، وهكذا ورد فى الحديث فالعارفون تنشأ أحوالهم عن قرب الله تعالى. وأما الأبرار: فتنشأ أحوالهم عن ملاحظة علمهم بوجود الرب مطلقًا مع العلم باقتداره على المنع والعطاء والإسعاد والإشقاء، والعارفون يرون ربهم فى الدنيا بعين الإيقان والبصائر، وفى الأخرى بالإبصار أى بالعين قريب منهم فى الدارين وليس قربه منهم فى الأخرى مخالفًا لقربه فى الدنيا إلا بمزيد اللطف والعطف، وإلا فقد ارتفع هنا وهناك قرب المسافة ولم يكن بينه وبين مخلوق إضافة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة البتة، وهذه المعرفة مثمرة الأنس بشرط الصفاء والأنس يثمر السكينة **فهى صولة تعدل طغيان القلب وتثبته** وتوقفه على حد الاعتدال فى آداب الحضرة، **لأن لذة القرب فى الأنس تطير ألباب العارفين وتوجب** لهم **الطغيان، لأن الإنسان** يطغى عند الغنى.

وأما الطمأنينة: فهى وجود من بعد اعتدال بفرح واستبشار لمعرفة القلب بالمزيد وهو مستصحبة مع الأنس لأنها مقصودة فى ذاتها، والسكينة وسيلة تحثها على الأدب **والاعتدال،** ومن ثمرات المحبة: الانبساط والإدلال. ذلك أن الأنس إذا دام أنسه واستحكم ولم يشوشه قلق القلب لقصور نظره على طيب حاله ثمر ذلك انبساطًا فى الأقوال والأفعال والمناجاة، فلا يليق ذلك بحال التعظيم والإجلال الموجبان للمهابة، فإنه يليق بالمستأنس المنبسط ما لا يليق بالهائب، وذلك أن من أفعال الله الجائزة له أن يرضى على قوم بفعلهم

ويغضب به على آخرين أحوالهم وللحكمة السابقة فيهم، ولذلك يغار على كلامه أن يسمعه إلا لأهل خاصته. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]. وعبر عن السر فى ذلك. فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال : ٢٣]. وهذا حجاب الغيرة فحقيقتها حفظ الوقت مع الحق أن يشوشه مشوش شحًا عليه، ومن ثمرات المحبة الشوق وهو أفضل من الإنس، لأن الإنس قصر نظره على ما انكشف له جمال المحبوب ولم يمتد نظره إلى ما غاب عنه والمشتاق كالعطشان الذى لا ترويه البحار لمعرفته بأن الذى انكشف له من الأمور الإلهية بالنسبة إلى ما غاب عنه كالذرة بالنسبة إلى سعة الوجود ولله المثل الأعلى. وهذه المعرفة توجب الانزعاج والقلق والتعطش الدائم، لأن حقيقة القلق سرعة الحركة لنيل المطلوب مع إسقاط الصبر، وحقيقة التعطش شدة الطلب لما تأكدت الحاجة إليه، ومن اشتد قلقه وتعطشه وجد وحقيقة الوجد هو الشوق الغالب على قلب الطالب، وهذا الوجد بعدحصوله له أحوال:

الأول: الدهش. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]. وحقيقة الدهش غيبة القلب عن إحساسه لما فاجأه من الأمر العظيم.

الثانى: الهيمان إذا سكن قليلاً وتكرر طروقه صار القلب متعجبًا متحيرًا من حسنه وبهائه وهذا هو الهيمان، لأن حقيقة الهيمان ذهاب التماسك تعجبًا وتحيرًا وهو أثبت دوامًا.

الثالث: أنسه وتمكينه منه حتى كأنه لم يدخل عليه داخل ولم يطرقه طارق وهذا هو التمكين.

قال الشيخ رحمه الله: التمكين إشارة إلى غاية الاستقرار، وذلك أن أى حالة وجدها المحب مع الله مرة تقوى عليه، ومرة يقوى عليها، ومرة يتلون، ومرة يثبت إلى أن يتمكن فيستقر، وهذا جار فى كل حال، فإذا استقر ارتقى إلى غيره ليكون المرتقى إليه حالاً والمرتقى عنه مقامًا والله أعلم.

واعلم: أن هذه الأحوال إن وجدها العبد فى الملأ دون الخلاء فهو معول يجب عليه المحاسبة ومطالبة نفسه بالعلامات، وإن وجدها فى الخلاء دون الملاء فهو حسن ولكنه ناقص عن ذروة الكمال إذ الكمال استواء الحالات خلاء وملاء وحضرًا وسفرًا وفراغًا وشغلاً، لأن الفراغ شرط فى البداية لا فى النهاية. وأما حد الواجب من المحبة: فهو الميل المسبب عن نفس الاعتقاد بأصول الإيمان فيما يتعلق بذات الله وصفاته، فإن جهل أصلاً من الأصول نقصت المحبة بقدره وكان عليه إثمان: إثم الجهل وإثم فقد ثمرته. وأما حقيقة الإيمان: فهو حضور القلب مع الله تعالى وشهوده الآثار الدالة على وجوده، والله تعالى أعلم وقد قيل:

الأُنْسُ بِالله لا يَحْويه بطال
وَلَيْسَ يُدْرِكُهُ بِالحَوْلِ مُحْتَالُ
وَالآنِسُونَ رِجَالٌ كُلُّهم نُجُبٌ
وَكُلُّهُم صَفْوَةٌ لله عُمَّالُ

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوة إلا الانفراد والخلوة. وقال الواسطى: لا يصل إلى محل الإنس من لم يستوحش من الأكوان كلها. وقال أبو الحسين الوراق: لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم. لأن من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى، فإنك لن تزيد به أنسًا إلا ازددت منه هيبةً وتعظيمًا.

وقد يكون الأنس، الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات. وهذا القدر من الأُنس نعمة من الله تعالى ومنحة، ولكن ليس هو حال الأنس الذى يكون للمحبين، والأنس حال شريف عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الذهد وكمال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس. وحقيقته عندى كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح فى ميادين الفتوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القرب فيجمعه به عن الهيبة وفى الهيبة اجتماع الروح وهذا الوصف أنس الذات. وهيبة الذات يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء وهما غير الأنس والهيبة اللذان يذهبان بوجود الفناء، لأن الهيبة والأنس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال وذاك مقام التلوين، وما ذكرنا بعد الفناء فى مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات ومن الأُنس خضوع النفس المطمئنة ومن الهيبة خشوعها، والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح والله تعالى أعلم.

الباب التاسع
فى بيان معنى الحياء والمراقبة ويضاف إليهما الإحسان لأنه غايتهما وكذلك الرعاية والحرمة والأدب لأنهن من ثمراتهما

اعلم: أن الحياء أول مقام من مقامات المقربين كما أن التوبة أول مقام من مقامات المتقين. أما العلم الحامل على الحياء: فهو علم العبد باطّلاع الله تعالى عليه. وهذا واجب، لأنه من الإيمان بالله وبالله تعالى . وكذا معرفته بعيوب نفسه وقصورها عن القيام بحق ربه سبحانه وتعالى وهذا أيضًا واجب، لأنه من الإيمان بالله تعالى فينفتح من هاتين المعرفتين حال يسمى الحياء، وهو إطراق عين القلب خجلاً من الله تعالى كتقصيره فى واجب حقه تعالى، والقدر الواجب من هذه الحالة ما يحث على ترك المحظورات وفعل الواجبات. وأما المراقبة والإحسان: فهما لفظان متداخلان على معنى واحد. فأما ثمرة بداية المراقبة فهو

رعاية الخواطر وكشف ما التبس منها والأدب مع الله تعالى بحرمة مراقبته والحياء على الوصف العام الخاص، وأما الوصف العام ما أمر به رسول الله ﷺ فى قوله: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاء**» قالوا: إنانستحيى يارسول الله قال: «**لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنْ مَنِ استحيا من الله حَقَّ الحَيَاء فَلْيَحْفَظِ الرَّأسَ وَمَا وَعَى وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْيَذْكُرِ المَوْتَ وَالبلى. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنيا فَمَنْ فَعَلَ ذلكَ فَقَدِ اسْتَحْيا من الله حَقَّ الحَيَاء**». وهذا الحياء من المقامات، وأما الحياء الخاص من الأحوال وهو مانقل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال: إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأنطوى حياء من الله عزّ وجل. وعن أحمد بن صالح قال: سمعت محمد بن عبدون يقول: سمعت أبا العباس المؤذن يقول: قال لى سرى: احفظ عنى ما أقول لك إن الحياء والأنس يطوفان بالقلوب، فإذا وجدا قلبًا فيه الزهد والورع حطّا وإلاّ رحلا، والحياء إطراق الروح إجلالاً لتعظيم الجلال، والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال، فإذا اجتمعا فهو الغاية فى المنى والنهاية العظمى.

قال بعض الحكماء: من تكلم فى الحياء ولا يستحيى من الله عزّ وجلّ فيما يتكلم به فهو مستدرج. وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة فى القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك.

قال ابن عطاء: العلم الأكبر: الهيبة والحياء فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه. قال سليمان: إن العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء، وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم. وقال بعضهم: الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائمًا عند نظر الله تعالى إليهم. وأنشد الشيخ أبو النجيب السهروردى:

أَشْتَاقُهُ فَإِذا بَدَا ... أَطْرَقْتُ مِنْ إِجْلالِهِ
لا خِيفَةً بَلْ هَيْبَةً ... وَصِيَانَةً لِجَمَالِهِ
المَوتُ فِى إِدْبَارِه ... والعَيْشُ فِى إِقْبَالِهِ
وأَصُدُّ عَنْهُ تَجَلُّدًا ... وأَرُومُ طَيْفَ خَيَالِهِ

والمراقبة على درجتين مراقبة الصديقين ومراقبة أصحاب اليمين.

أما الدرجة الأولى: فهى مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم

والإجلال، وهو أن يكون القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرًا تحت الهيبة فلا يبقى له متسع للالتفاتات إلى الغير أصلاً، وهذه المراقبة لا يطول النظر فى تفصيل ثوابها فإنها مقصورة على القلب. أما الجوارح: فإنها تتعطل عن الالتفات إلى المناجاة فضلاً عن المنظورات، فإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة فلا يحتاج إلى تدبير وتسبب فى حفظها عن الانحراف عن سَنن السداد.

وأما الدرجة الثانية: فهى مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب اطلاع الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلاّ أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة. نعم غلب عليهم الحياء من الله تعالى فلا يقدمون ولا يحجمون إلاّ بعد التثبت فيه ويمتنعون من كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله تعالى فى الدنيا مطلعًا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة، وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات والله أعلم.

الباب العاشر
فى بيان معنى القرب

قال الله تعالى ﷺ: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وقد ورد أقرب ما يكون العبد من ربه فى سجوده، فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب، لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب.

قال بعضهم: إنى لا أجد الحضور، فأقول: يا الله أو يارب فأجد ذلك أثقل علىّ من الجبال. قيل: ولم ذلك؟ قال: لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسًا ينادى جليسه؟ وإنما هى إشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات، وهذا الذى وصفه مقام عزيز يتحقق فيه القرب ولكنه مشعر بمحو ومؤذن بسكر يكون ذلك لمن غابت نفسه فى نور روحه لغلبة سكره وقوة محوه، فإذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه. فيقول: يا الله ويارب بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها والروح يشتغل بفتوحه بكمال الحال عن الأقوال، وهذا أتم وأقرب من الأول، لأنه فى حق القرب باستقلال الروح بالفتوح وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار وحظ القرب لا يزال يتوفر للروح بإقامة رسم العبودية من النفس.

وقال الجنيد: إنا الله تعالى يقرب من قلوب عباده على قدر قربهم منه، فانظر ماذا

تقرب من قلبك. وقال أبو يعقوب السوسى: ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبًا حتى يغيب عن القرب بالقرب فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب وقد قال قائلهم:

قَدْ تَحَقَّقْتُكَ فى السِّـ ـرِّ فَنَاجَاكَ لِسَانى
فَاجْتَمَعْنَا لِمَعَانٍ وَافْتَرَقْنَا لِمَعَانى
إنْ لَمْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التـ ـعظيم عَنْ لَحْظِ عَيَانى
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الوَجْـ ـدُ مِنَ الأَحْشَاءِ دَانى

وقال ذو النون: ما ازداد أحد من الله قربة إلاّ ازداد هيبة . وقال سهل: أدنى مقام من مقامات القرب الحياء. وقال النصر آبادى : باتباع السنة تنال المعرفة، وبأداء الفرائض تنال القرب، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة، والحمد لله وحده.

الباب الحادى عشر
فى بيان شرف العلم ووجوب طلبه والقدر الواجب منه

اعلم: أن العلم والعمل لأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهما.

قال الله تعالى: ﴿**الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢]. وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم ووجوب طلبه لا سيما علم التوحيد.

قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]. وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الدارين فحق العبد أن لا يشتغل إلاّ بهما وأن لا يتعب إلاّ لهما ثم العلم هو أشرف الجوهرين، ولكن لا بد من العبادة مع العلم وإلاّ كان العلم هباءً منثورًا.

واعلم: أنه يجب تقديم العلم على العبادة لأمرين: أحدهما: لتصح لك العبادة وتسلم. والثانى: هو أن العلم النافع يثمر الخشية والمهابة لله تعالى فى قلب العبد وهما يثمران طاعة ويحجزان عن المعصية بعون الله تعالى وتوفيقه، وليس وراء هذين مقصد للعبد فى عبادة ربه سبحانه وتعالى. فعليك بالعلم النافع فيجب عليك أولاً أن تعرف المعبود ثم تعبده وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل عليه فى

نعته، فربما تعتقد اعتقادًا فى صفاته شيئًا مما يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثورًا. ثم عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعية لتفعله على ما أمرت به وما يلزمك تركه من المناهى الشرعية لتتركه.

واعلم: أن العلم الذى طلبه فرض لازم لكل مكلف ثلاثة أنواع:

الأول: علم التوحيد والذى يتعين عليك منه هو مقدار ما تعرف به أصول الدين وقواعد العقائد كافية فيه.

الثانى: علم السر وهو ما يتعلق بالقلب ومساعيه من مواجبه ومناهيه.

الثالث: علم العبادات الظاهرة المتعلقة بالأبدان والأموال، ثم إن من الله عليك بعلم ما وجب عليك علمه وعمل ما وجب عليك عمله وترك ما وجب عليك تركه فقد أديت ما أوجبه الله تعالى عليك وصرت من العلماء العالمين، وبالله التوفيق.

الباب الثانى عشر
فى بيان معانى الأسماء الحسنى

اعلم: أن جملة الأسماء الحسنى ترجع إلى ذات وسبع صفات على مذهب أهل السنة خلافًا للمعتزلة والفلاسفة، ثم إن الاسم غير التسمية وغير المسمى وهذا هو الحق، فحد الاسم أنه اللفظ الموضوع للدلالة على المسمى.

واعلم أن كمال العبد وسعادته إنما هو فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى أسمائه وصفاته بقدر ما يتصور فى حقه، ولا تظنن أن المشاركة بكل وصف يوجب المماثلة. هيهات ألم تعلم أن الله موجود لا فى محل،وأن الله تعالى حى عالم قادر مريد سميع بصير متكلم فاعل والإنسان كذلك أيضًا. أفترى أن مثبت هذه الأوصاف للإنسان يكون مشبهًا ممثلاً. هيهات ليس الأمر كذلك،بل المماثلة عبارة عن المشاركة فى النوع والماهية والخاصية الإلهية أنه الموجود الواجب الوجود بذاته الذى بقدرته يوجد كل ما فى الإمكان وجود على أحسن وجوه النظام والكمال، وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة ولا مماثلة البتة بل لا يعرفها إلا الله تعالى وتقدس، فالخالق كلهم لم يعرفوا إلا احتياج هذا العالم المنظوم المحكم إلى صانع حى عالم قادر، وهذه المعرفة لها طريقان: أحدهما: يتعلق بالعلم ومعلومه يحتاج إلى مدبر. والآخر: يتعلق بالله تعالى ومعلومه أسام مشتقة من صفات غير داخلة فى حقيقة الذات وماهيتها، فإن قلنا حى عالم قادر معناه شئ مبهم له وصف الحياة والقدرة فما عرف أحد إلا نفسه أولاً ثم قايس بين صفات الله تعالى وبين صفات نفسه وتتعالى صفات الله تعالى عن أن تشبه صفاتنا، فإذًا يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة

غير الله تعالى، بل يستحيل أن يعرف النبوة غير النبي . وأما من ليس بنبي فلا يعرف من النبوة إلا اسمها.

فإن قيل: فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى؟ فنقول نهاية معرفتهم هو أن ينكشف لهم استحالة معرفة حقيقة ذات الله تعالى لغير الله تعالى وإنما اتساع معرفة العارفين بالله تعالى إنما تكون في معرفة أسمائه وصفاته فبقدر ما ينكشف لهم من معلوماته وعجائب مقدوراته وبدائع آياته في الدنيا والآخرة يكون تفاوتهم في معرفته سبحانه وتعالى والله أعلم.

فصل

اعلم: أن جملة معاني أسماء الله تعالى الحسنى ترجع إلى عشرة أقسام:

الأول: ما يدل على الذات فقط. كقولك: الله ويقرب منه اسم الحق تعالى إذا أريد به الذات من حيث هي واجبة الوجود.

الثاني: ما يرجع إلى الذات مع سلب مثل القدوس والسلام والغني والأحد ونظائرها، فإن القدوس هو المسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ويدخل في الوهم، والسلام هو المسلوب عنه كل عيب ونقص، والغني هو المسلوب عنه كل حاجة ، والأحد هو المسلوب عنه النظير والقسمة.

الثالث: ما يرجع إلى الذات مع إضافة كالعلي والعظيم. والأول والآخر، والظاهر والباطن ونظائرها. فإن العلي هو الذات الذي هو فوق سائر الذوات في الرتبة فهي إضافة، والعظيم ما يدل على الذات من حيث تجاوز حدود الإدراكات، والأول هو السابق على الموجودات، والآخر: هو الذي إليه مصير الموجودات، والظاهر: هو الذات بالإضافة إلى دليل العقل، والباطن هو الذات بالإضافة إلى إدراك الحس والوهم.

الرابع: ما يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة كالملك والعزيز، فإن الملك هو الذات التي لا تحتاج إلى شئ ويحتاج إليها كل شئ. والعزيز هو الذي لا نظير له وهو ما تشتد الحاجة إليه ويصعب نيله والوصول إليه.

الخامس: ما يرجع إلى الذات مع صفة ثبوته كالحي والعالم والقادر والمريد والسميع والبصير والمتكلم.

السادس: ما يرجع إلى العلم مع إضافة كالحكيم والخبير والشهيد والمحصي. فإن الحكيم يدل على العلم مضافًا إلى أشرف المعلومات، والخبير يدل على العلم مضافًا إلى الأمور الباطنة، والشهيد يدل على العالم مضافًا إلى ما يشاهد والمحصي يدل على العلم الذي يحيط بمعلومات محصورات معدودة التفصيل.

السابع: ما يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة كالقوى والمتين والقهار فإن القوة هى تمام القدرة، والمتانة شدتها، والقهر تأثيرها فى المقدورة بالغلبة.

الثامن: ما يرجع إلى الإرادة مع فعل وإضافة كالرحمن والرحيم والرءوف والودود. فإن الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف، والرأفة شدة الرحمة وهى المبالغة فى الرحمة، والودود يرجع إلى الإرادة مضافًا إلى الإحسان والإنعام وفعل الرحمة يستدعى محتاجًا وفعل الود لا يستدعى ذلك بالإنعام على سبيل الابتداء.

التاسع: ما يرجع إلى الذات مع صفة إضافية كالخالق والبارئ والمصور والوهاب والرزاق والفتاح والباسط والقابض والخافض والرافع والمعز والمذل والعدل والمقيت والمغيث والمجيب والواسع والباحث والمبدى والمعيد والمحيى والمميت والمقدم والمؤخر والولى والبر والتواب والمنتقم والمقسط والجامع والمعطى والمانع والمغنى والهادى ونظائرها.

العاشر: مايرجع إلى الدلالة على الفعل مع إضافة كالمجيد والكريم واللطيف. فإن المجيد يدل على سعة الإكرام مع شرف الذات. والكريم كذلك، واللطيف يدل على الفعل مع الرفق، ولا تخرج هذه الأسامى وغيرها عن مجموع هذه الأقسام العشرة. فقس بما أوردناه على ما لم نورده وذلك على وجه خروج هذه الأسامى عن الترادف مع رجوعها إلى هذه الصفات المشهورة والمحصورة والله تعالى أعلم.

اعلم: أن معانى أسماء الله الحسنى مندرجة فى أربع كلمات وهن الباقيات الصالحات (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر).

الكلمة الأولي: سبحان الله ومعناها فى كلام العرب التنزيه والسلب فهى مشتملة على سلب النقص والعيب عن ذات الله تعالى وصفاته فما كان من أسمائه سلبًا فهو مندرج تحت هذه الكلمة كالقدوس وهو الطاهر من كل عيب، والسلام هو الذى سلم من كل آفة.

الكلمة الثانية: قول الحمد لله وهى مشتملة على إثبات ضروب الكمال لذاته وصفاته سبحانه وتعالى، فما كان من أسمائه متضمنًا الإثبات كالعليم والقدير والسميع والبصير فهو مندرج تحتها فنفينا بسبحان الله كل عيب عقلناه وكل نقص فهمناه، وأثبتنا بالحمد لله كل كمال عرفناه وكل جلال أدركناه وراء ما نفيناه وأثبتناه شأن عظيم قد غاب عنا وجهلناه فنحققه من جهة الإجمال بقولنا الله أكبر.

وهى الكلمة الثالثة ومعناها: إنه أجل مما نفيناه ومما أثبتناه وذلك معنى قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لا أحْصى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسكَ**»، فما كان من أسمائه متضمنًا فوق ما عرفناه وأدركناه كالأعلى والمتعالى فهو مندرجَ تحت قولنا: الله أكبر فى الوجود من هذا شأنه نفينا أن يكون فى الموجودين من يشاكله أو يناظره فحققنا ذلك بقولنا: لا إله إلا الله.

وهي الكلمة الرابعة: إذ الألوهية ترجع إلى استحقاق العبودية ولا يستحق العبودية إلا من اتصف بجميع ما ذكرناه، فما كان من أسمائه متضمنًا للجميع على الإجمال كالواحد الأحد وذي الجلال والإكرام فهو مندرج تحت قولنا لا إله إلا الله. وإنما استحق العبودية لما وجب له من أوصاف الجمال ونعوت الكمال التي لا يصفها الواصفون ولا يعدها العادون ولو أدرجت الباقيات الصالحات في كلمة على سبيل الإجمالي وهي: الحمد لله لاندرجت فيها كما قال السيد الجليل والإمام الحفيل على بن أبي طالب رضي الله عنه: (لو شئت أن أوقر بعيرًا من قول الحمد لله لفعلت). فإن الحمد لله هو الثناء والثناء يكون بإثبات الكمال تارة وسلب النقص أخرى، وتارة بالاعتراف بالعجز عن إدراك الإدراك وتارة بإثبات التفرد بالكمال والتفرد والكمال من أعلى مراتب المدح والكمال. وقد اشتملت هذه الكلمة على ما ذكرناه في الباقيات الصالحات لأن الألف واللام فيها لاستغراق جنس المدح والحمد ما علمناه وجهلناه ولا خروج للمدح عن شئ مما ذكرناه. ولا يستحق الإلهية إلا من اتصف بجميع ما ذكرناه، ولا يخرج عن هذا الاعتقاد ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا أحد من أهل الملك إلا من خذله الله واتبع هواه وكان أمره فرطًا وعصى مولاه أولئك قوم قد غمرهم ذل الحجاب وطردوا عن الباب وأبعدوا عن ذلك الجناب، وحق لمن حجب في الدنيا عن إجلاله ومعرفته أن يحجب في الآخرة عن إكرامه ورؤيته.

الباب الثالث عشر
في الاعتقاد والتمسك بعقيدة صحيحة ومعنى الاعتقاد اتخاذ عقد صورة علم أو ظن في القلب بوجود المغيبات والعلم الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع

وقال بعض الكبار: العلم نور إذا نزل في القلب ينفذ شعاعه إلى حيث المعلوم ويتعلق به كما يتعلق نور العين بالمرئي الاعتقاد الصحيح هو الخالي عن التعطيل والإلحاد والتشبيه والتجسم والتكييف والنقص والحلول والاتحاد والإباحة وغير ذلك، وأن يكون معه التنزيه والعظمة والكبرياء كما كانت الصحابة رضي الله عنهم. ودليله الكتاب والسنة واجتماع الأمة، ثم قال: على العبد أن يعلم أن الله تعالى واحد أحد فرد صمد في ذاته وصفاته، لا مثل له في ذاته ولا نظير له في صفاته، ولاشريك له في ملكه، ولاحدوث في صفاته، ولا زوال ولا بداية لقدمه ولا نهاية لبقائه دائم الوجود ولا آخر له قيوم الموجودات لا انقطاع له لم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الجلال والجمال لا نهاية لكبريائه ولا غاية لعظمته وجلاله. ليس بجسم ولا جسماني ولا بروح ولا روحاني ولا بجوهر محدود ولا

تحله الجواهر، بل هو خالق الأشياء أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد منزه عن الحركة والانتقال والجهة والمكان وأنه تعالى قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد. قربه من الخلق ليس كقرب الخلق بعضهم من بعض، بل هو قريب يليق به تعالى.

سئل الجنيد -قدس الله تعالى روحه- **عن القرب فقال:** قريب لا بالتزاق وبعيد لا بافتراق ولا كيفية لقربه ومعيته، كما أنه ليس كمثله شئ كذلك قربه ومعيته ليس كمعية أحد وقربه وأنه تعالى كان ولم يكن معه شئ وهو الآن على ما هو عليه.

فصل

اعلم: أن من أجرى الاستواء على العرش على ما ينبئ عنه ظاهر اللفظ وهو الاستقرارعلى العرش. فقد التزم التجسيم وإن تشكك فى ذلك كان فى حكم المصمم على التجسيم أيضًا، وإن قطع باستحالة الاستقرار على العرش فقد تأول الظاهر وهو اعتقاد أهل الحق. وكذلك من أجرى النزول على ما ينبئ عنه ظاهر اللفظ وهو الحركة والانتقال، فقد التزم التجسيم أيضًا، وإن قطع باستحالة الحركة والانتقال فقد تأول الظاهر وهو اعتقاد أهل الحق.

واعلم: أن الإعراض عن تأويل المتشابه خوفًا من الوقوع فى محظور من الاعتقاد يجر إلى الشك والإيهام واستزلال العوام وتطريق الشبهات إلى أصول الدين وتعريض بعض آيات كتاب الله العزيز إلى رجم الظنون والحمد لله وحده وهذه العقيدة الصحيحة السليمة لصاحب قلب سليم سلم من البدعة ومن استيلاء وساوس الشيطان وهواجس النفس وزين بالتقوى وأيد بالهدى وهذب بالورع وغذى بالذكر والله تعالى أعلم.

الباب الرابع عشر
فى بيان صفات الله تعالى

الصفات الثبوتية سبعة وهى : الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، وكل صفة من هذه الصفات لها تعلق إلا الحياة فإنها ينبوع الكمالات، فالعلم يتعلق بكل واجب وجائز ومستحيل، فالواجب هو ذات الله تعالى وصفاته، والجائز هو جميع الممكنات، والمستحيل هو الذى لا يمكن وجوده، والإرادة تعلقها تخصيص والتخصيص ترجيح أحد الممكنات من العدم إلى الوجود على ما يريد أن يبرزه، والقدرة تعلقها تأثير والتأثير هو إبراز معدوم أو إعدام موجود، فلولا سبق العلم لم يحصل

تخصيص الإرادة، ولولا تخصيص الإرادة لم يحصل تأثير القدرة، والسمع يتعلق بكل مسموع قديم أو حادث، والكلام يتعلق بجميع ما يتعلق به العلم، وهذه الصفات كلها قائمة بذات الله تعالى وهى منقسمة إلى ما يتعلق بغيره كشفًا كالعلم والسمع والبصر، وإلى ما يتعلق بغيره من غير كشف ولا تأثير: كالكلام، وأعمها تعلقًا: العلم والكلام وأخصها السمع ومتوسطها البصر، والبقاء هو استمرار الوجود وليس هو وصفًا زائدًا على مفهوم الذات، فالأشعرية يقولون الحق سبحانه وتعالى حى بحياة، عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة سميع بسمع، بصير ببصر متكلم بكلام.

ومذهب **القدرية**: أنه حى بذاته، قادر بذاته مريد بذاته، سميع بذاته، بصير بذاته، متكلم بذاته وهو خطأ.

ومذهب الطبائعية: أن النار محرقة بطبعها، والماء مرو بطبعه، والعيش مشبع بطبعه، والأفلاك والكواكب مؤثرة بطبعها وقس عليه جميع الأسباب.

ومذهب أهل الحق أن المؤثر هو قدرة الله تعالى وأن الأسباب لا أثر لها، والله أعلم.

واعلم: أن الصفات السبع عند الأشاعرة معان زائدة على مفهوم الذات وهى ثابتة الأعيان والأحكام، ومعنى ثبوت الأعيان أنها ليست نفس الذات ولا خارجة منها. وقال غيرهم من المحققين: إنها نسب وإضافات ثابتة الأحكام معدومة الأعيان ومعنى كونها معدومة الأعيان أنها ليست زائدة على مفهوم الذات. وقال غيرهم من السادة: اعلم أن الأسماء والصفات نسب وإضافات ترجع إلى عين واحدة إذ لا كثرة هناك بوجود أعيان زائدة على الذات المقدسة، كما زعم من لاعلم له بالله تعالى من بعض النظار. فلو كانت أعيانًا زائدة وما هو إله إلا بها لكان معلولاً لها فلا يخلو أن تكون هى عينه. فالشئ لا يكون معلولاً لنفسه. أو لا تكون فالإله لا يكون معلولاً لعلة ليست عينه، لأن ذلك يقتضى افتقاره وافتقار الإله محال فكون الأسماء والصفات أعيانًا زائدة محال، فافهم جيدًا والحمد لله وحده.

الباب الخامس عشر
فى بيان حقيقة الإخلاص والرياء وحكمهما وتأثيرهما

اعلم: أن الإخلاص عند علمائنا إخلاصان: إخلاص العمل وإخلاص طلب الأجر.

فأما إخلاص العمل: فهو إرادة التقرب إلى الله تعالى وتعظيم أمره وإجابة دعوته والباعث عليه الاعتقاد الصحيح وضد هذا الإخلاص النفاق. وهو التقرب إلى من دون الله تعالى. وأما إخلاص طلب الأجر: فهو إرادة نفع الآخرة بعمل الخير وضد هذا الإخلاص: الرياء وهو إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة سواء أراده من الله تعالى أو من الناس، لأن

الاعتبار فى الرياء بالمراد لا بالمراد منه، وأما تأثيرهما: فهو أن إخلاص العمل يجعل الفعل قربة وإخلاص طلب الأجر يجعله مقبولاً وافر الأجر.

وأما النفاق: فإنه يحبط العمل ويخرجه عن كونه قربة والرياء يوجب رده، وأما موضع الإخلاص وفى أى طاعة يقع ويجب، فاعلم أن الأعمال عند بعض العلماء ثلاثة أقسام: قسم يقع فيه إخلاصان جميعًا وهو العبادة الظاهرة الأصلية، وقسم لا يقع فيه إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل وهو المباحات المأخوذة للعدة. وقال شيخنا: إن كل عمل يحتمل الصرف إلى غير الله تعالى من العبادات الأصلية يقع فيه إخلاص العمل والعبادات الباطنة أكثرها يقع فيها إخلاص العمل. وأما الإخلاص فى طلب الأجر: فكان شيخنا يقول: إذا أراد العامل من الله تعالى بالعبادات الباطنة نفع الدنيا فهو أيضًا رياء. قلت: فلا يبعد إذًا أن يقع فى كثير من العبادات الباطنة الإخلاصان، وكذلك النوافل. يجب عليها الإخلاصان جميعًا عند الشروع فيها. وأما المباحات المأخوذة للعدة: فإنه يقع إخلاص طلب الأجر دون إخلاص العمل إذ هى لا تصلح بنفسها أن تكون قربة، بل هى عدة على القربة وهذا مواضعها، وأما وقتها: فهو أن إخلاص العمل يكون مع الفعل يقارنه لا محالة ويتأخر عنه، وإخلاص طلب الأجر ربما يتأخر عنه. وعند بعض العلماء ربما يعتبر فيه وقت الفراغ من العمل، فإذا فرغ العمل على إخلاص ورياء فقد انقضى الأمر ولا يمكن استدراكه بعد، والله أعلم.

فصل

اعلم: أنه يجب على العبد أن يتحفظ فى العمل من عشرة أشياء: النفاق والرياء والتخليط والمن والأذى والندامة والعجب والحسرة والتهاون وخوف ملامة الناس. ثم ذكر شيخنا رحمه الله تعالى ضد كل خصلة منها وإضرارها بالعمل، فضد النفاق إخلاص العمل لله تعالى، وضد الرياء إخلاص طلب الأجر، وضد التخليط التقوى، وضد المن تسليم العمل لله تعالى، وضد الأذى تحصين العمل، وضد الندامة تثبيت النفس، وضد العجب ذكر المنة لله تعالى، وضد الحسرة اغتنام الخير، وضد التهاون تعظيم التوفيق، وضد خوف ملامة الناس خشية الله تعالى.

ثم اعلم أن النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده، والمن والأذى يحبطان الصدقة فى الوقت. وعند بعض المشايخ يذهبان أضعافها، وأما الندامة فإنها تحبط العمل فى قولهم جميعًا، والعجب يذهب أضعاف العمل والحسرة والتهاون يخففان العمل. فعليك بقطع هذه العقبة المخوفة الخطرة وبالله التوفيق.

الباب السادس عشر
فى الرد على من أجاز الصغائر على الأنبياء صلَّى الله عليهم وسَلَّم

قال القاضى عياض رحمه الله تعالى فى كتابه الشفا:

اعلم: أن المجوزين للصغائر على الأنبياء صلَّى الله عليهم وسلَّم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين احتجوا على ذلك بظواهر كثيرة من القرآن والحديث إن التزموا ظواهرها أفضت بهم إلى تجويز الكبائر وخرق الإجماع ما لا يقول به مسلم، فكيف وكل ما احتجوا به مما اختلف المفسرون فى معناه وتقابلت الاحتمالات فى مقتضاه وجاءت أقاويل فقهاء السلف بخلاف ما التزموه من ذلك. فإذا لم يكن مذهبهم إجماعًا وكان الخلاف فيما احتجوا به قديمًا وقامت الدلالة على خطأ قولهم وصحة غيره وجب تركه والمصير إلى ما صح، والله تعالى أعلم.

فصل فيما يجب على الأنام من حقوق النبى عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام

أولها: تصديقه فى كل ما جاء به وما قاله ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان أنه رسول الله إلى الناس كافة واتباعه فى جميع ما أمر به أو نهى عنه، وكذلك محبته ومناصحته وتوقيره وبرّه والصلاة عليه كل ذلك واجب، لأنه مما جاء به ﷺ.

واعلم: أن الأمة مجتمعة على عصمة النبى ﷺ من الشيطان وكفايته منه فلا يصل إلى ظاهره بشئ من أنواع الأذى ولا إلى باطنه بشىء من الوساوس، وكذا عصمته عن الجهل بالله تعالى وصفاته أو كونه على حالة تنافى العلم بشئ من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وإجماعًا وقبلها سمعًا ونقلاً، ولا بشىء مما قرره من أمور الشرع وأداه عن ربه عزّ وجلّ من الوحى قطعًا وعقلاً وشرعًا. وكذا عصمته من الكذب وخلف القول منذ نبأه الله تعالى وأرسله قصدًا أو غير قصد واستحالته عليه عقلاً وإجماعًا لمناقضته للمعجزة وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعًا، وكذا تنزيهه عن الكبائر إجماعًا وعن الصغائر وملابسة المكروهات تحقيقًا، بل تنزيه همته الشريفة عن تناول المباحات إلا على قصد تبيين إباحتها والاستعانة بها على طاعة ربه عزّ وجلّ، وكذا عصمته فى جميع حالاته من رضى وغضب، وجد وهزل، وصحة ومرض، وكذا استحالة السّهو والنسيان، والغفلة والغلط عليه فى الأخبار والأقوال البلاغية إجماعًا لمناقضته المعجزة وجواز السّهو عليه فى الأفعال البلاغية بشرط أن لا يقر عليه، بل ينبه عليه على الفور لتظهر فائدة النسيان من معرفة الحكم والاتباع له فيما

يشرعه، وفرقوا بين السهو فى الأفعال البلاغيــة والأقوال البلاغية لقيام المعجزة على الصدق فى القول ومخـالفة ذلك يناقض المعجزة، وأما السهـو فى الأفعال: فغير مناقض للـمعجزة ولا قادح فى النبوة، نعم بل حالة النسيان هنا فى حقه ﷺ سبب إفادة علم وتقرير شرع، كما قالﷺ : «**إنِّى لَسْتُ أَنْسى ولَكنى أُنْسى لأسنَّ**». وهذه الحالة بعيدة عن سمات النقص، بل هو زيادة فى التبليغ وتمام عليه فى النعمة. وأمـا ما ليس طريقه البلاغ ولا بيان الأحكام من أفعالهﷺ وما يختص من أمـور دينه وأذكار قلبه، فالذى ذهب إليـه جماعة الصـوفية وأصحاب علم القلوب استحالة السهو والنسيان والغفلات والفترات عليه فيه جملة. وأجاز ذلك الأكثر من طبقات علماء الأمة وذلك بما كلفه من سـياسة الأمة ومقاساة الخلق ومعاناة الأهل وملاحـظة الأعداء، ولكن ليس على سـبيل التكرار ولا الاتصـال، بل على سبـيل الندور وليس فى هذا شئ يحط من مرتبته أو يناقض معجزتهﷺ.

واعلم: أنه يجـوز طريان الآلام والأوجـاع على ظـاهرجـسم النبى ﷺ ليـتـحـقق بشريتـه،ولكن لا يصل شئ من ذلك إلى باطنه ﷺ لتعلقه بمشـاهدة ربّه عزّ وجلّ والأنس به، ثم اعلم أن المصير فى جميع ما ذكرنا فى حق جـميع الأنبياء والملائكة كالمصير فى حق نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

فصل فى بيان ما يجب على النبى ﷺ وما يحرم عليه وما يباح له وما خص به من الفضائل دون غيره

فأمّـا ما يجب عليـه فهو الـتهجـد والوتر والضّحى والأضـحية والمشـاورة وتخيـير الزوجات والسواك ومصابرة العدو وإن كثروا وتغيير المنكر.

وأما ما يحرم عـليه دون غيره: فهو الخط والشعر والصّدقـة والزّكاة ومد عينيه إلى ما متع به غـيره، والمخادعـة فى الحرب، ومـسك الزوجة المكارهة وفى طلاق الراغـبة، وأكل الكراث والثوم والبصل، والأكل متكئًا وفـيه خلاف، والأصح الكراهية لا التحريم، ونكاح الحرة الكتابيـة والأمة المسلمة وغيرها، والصّلاة على المدين على خـلاف فيه، والأصلح أنه صلّى بعد ذلك، ونزعه لأمة الحرب قبل القتال.

وأما ما يباح لهﷺ: فهو حكمه لنفـسه ولفرعه وشهادته وقبوله أيضًـا لهما وخمس الخمس وحل الغنائم ومن أرادها لزم زوجـها طلاقها، وله النكاح بلا مـهر لمن شاء ويصح نكاحه بلفظ الهبة، ويجوز أخذه طعام المحـتاج ويلزم المضطر بذله ويحيى ما شاء من موات ويقتضى بعلمـه أبدًا ويجب على خاطره دفع قاصده بسـوء، ولا ينتقض وضوءه بالنوم ولا باللمس على الأصح، ولا يورث مـاله ويلزم الخليـة إجابتـه، ويعـقد نكاحـه بلا ولى ولا

شهود، وله الزيادة على أربع وعلى تسع فى الأصح، وله النكاح فى الإحرام ويصح نكاحه من نفسه وممن شاء.

وأما ما خص به من الفضائل فهو: أن أزواجه اللاتى مات عنهن حرام على غيره قطعًا. وكذا اللاتي فارقهن بعد الدخول فى الأصح، وهن أمهات المؤمنين، وشرعه ﷺ ناسخ لما قبله يستمر إلى انقضاء الأبد، وكتابه المعجز المستمر السالم من التبديل والتحريف وهو حجة الله تعالى على عباده، وجعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا، وأعطى خمسة شفاعات وخص بالشفاعة العظمى، وهو أول من يقرع باب الجنة، وأمته خير أمة ولا تجتمع على ضلال، وهو أول شافع مشفع، وأول من تنشق عليه الأرض، ونصف أمته كالملائكة يوم القيامة، وفضلاته طاهرة على الأصح يتبرك بها ويستشفى بها، ويرى من ورائه كما يرى أمامه، ولا يحل مناداته من وراء حجرته، وصلاته فى النفل قاعدًا فى أجره كصلاته فى الوقوف، ولا يجوز نداؤه باسمه، وأعطى جوامع الكلم.

فصل

اعلم: أن الله تعالى قد حرم أذى النبي ﷺ فى القرآن ولعن مؤذيه، واجتمعت الأمة على قتل منتقصيه وسابّه من المسلمين تصريحًا كان أو تعريضًا وأما ما هو حقه سبّ أونقص.

فاعلم: أن من سبّه أو عابه أو ألحق به نقصًا فى خلقه أو خُلُقه أو دينه أو خصلة من خصاله أو نسبه أو عرض به أو شبهه بشئ على طريق السبّ له أو الإزراء عليه أو التصغير بلسانه فهو سابّ له وسابّه يقتل. وكذا حكم من غيره بما جرى من الابتلاء والمحنة عليه أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة عليه، وهكذا كله بإجماع من العلماء من لدن الصحابة إلى الآن.

قال ابن المنذر رحمه الله تعالى: أجمع عوام أهل العلم على أن من سبّ رسول الله ﷺ يقتل، وممن قال بذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق ومذهب الشّافعى وهو مقتضى مذهب أبى بكر الصديق رضى الله عنه وعنهم فلا تقبل توبته عند هؤلاء، وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه والثورى وأهل الكوفة والأوزاعى فى المسلم لكنهم قالوا: هى ردة، والله أعلم.

الباب السابع عشر
فى معرفة الخواطر وأقسامها ومحاربة الشيطان وقهره والتدبير فى دفع شره، وأن يستعيذ بالله تعالى منه أولاً ثم يحاربه بثلاثة أشياء

أحدها: أن تعرف مكائده وحيله ومخادعاته.

والثانى: أن تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك بها.

والثالث: أن تديم ذكر الله تعالى بقلبك ولسانك، فإن ذكر الله تعالى فى جنب الشيطان كالأكلة فى جنب ابن آدم، فأما معرفة مكائده فإنه يستبين لك بمعرفة الخواطر وأقسامها. أما معرفة أقسامها فاعلم أن الخواطر آثار تحدث فى قلب العبد تبعثه على الفعل أو الترك وحدوث جميعها فى القلب من الله تعالى إذ هو خالق كل شئ، لكنها أربعة أقسام: فقسم منها يحدثه الله تعالى فى قلب العبد ابتداء فيقال له الخاطر فقط، وقسم يحدثه موافقًا لطبع الإنسان فيقال له هو النفس، وقسم يحدثه عقب دعوة الشيطان فينسب إليه ويقال له الوسواس، وقسم يحدثه الله ويقال له الإلهام، ثم اعلم أن الخاطر الذى من قبل الله تعالى ابتداء قد يكون خيرًا إكرامًا وإلزامًا للحجة. وقد يكون شرًا امتحانًا، والخاطر الذى يكون من قبل الملهم لا يكون إلا بخير إذ هو ناصح مرشد لا يرسل إلا لذلك، والخاطر الذى يكون من قبل الشيطان لا يكون إلا بشر إغواء وربما يكون بالخير مكرًا منه واستدراجًا، والخاطر الذى يكون من قبل هوى النفس لا يكون إلا بالشر وقد يكون بالخير لا لذاته فهذه أنواعها.

ثم اعلم أنك محتاج إلى ثلاثة فصول:

فأما الفصل الأول: قال العلماء رضى الله عنهم أجمعين إذا أردت أن تعرف خاطر الخير من خاطر الشر وتفرق بينهما فزنه بأحد الموازين الثلاثة يبين لك حاله:

فالأول: هو أن تعرضه على الشرع فإن وافق جنسه فهو خير وإن كان بالضد إما برخصة أو بشبهة فهو شر. فإن لم يبين لك بهذا الميزان، فاعرضه على الاقتداء بالصالحين، فإن كان فيه اقتداؤهم فهو خير وإلا فهو شر، وإن لم يبين لك بهذا الميزان، فاعرضه على النفس والهوى، فإن كان مما تميل إليه النفس ميل طبع لا ميل رجاء إلى الله تعالى فهو شر.

وأما الفصل الثانى : إذا أردت أن تفرق بين خاطر شر ابتداء من قبل الشيطان أو من قبل النفس أو من الله تعالى، فانظر فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: إن وجدته ثابتًا راتبًا مصممًا على حالة واحدة فهو من الله تعالى أو من هوى النفس، وإن وجدته مترددًا مضطربًا فهو من الشيطان.

وثانيًا: إن وجدته عقب ذنب أحدثته فهو من الله تعالى عقوبة لك، وإن لم يكن عقب ذنب كان منك فهو من الشيطان.

وثالثها: إن وجدته لا يضعف ولا يقل من ذكر الله تعالى ولا يزول فهو من هوى النفس، وإن وجدته يضعف من ذكر الله فهو من الشيطان.

وأما الفصل الثالث: إذا أردت أن تفرق بين خاطر خير يكون من الله تعالى أو من الملك فانظر فى ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: إن كان مصممًا على حالة واحدة فهو من الله تعالى، وإن كان مترددًا فهو من الملك إذ هو بمنزلة ناصح.

والثانى : إن كان عقب اجتهاد منك وطاعة فهو من الله تعالى، وإلا فهو من الملك.

والثالث: إن كان فى الأصول والأعمال الباطنة فهو من الله تعالى وإن كان فى الفروع والأعمال الظاهرة فهو من الملك فى الأكثر، إذ الملك لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد فى قول أكثرهم، وأما خاطر الخير الذى يكون من قبل الشيطان استدراجًا إلى شر يربو عليه، فانظر فإن وجدت نفسك فى ذلك الفعل الذى خطر بقلبك مع نشاط لا مع خشية ،ومع عجلة لا مع تأن، ومع أمن لا مع خوف، ومع عمى العاقبة لا مع بصيرة، فاعلم أنه من الشيطان فاجتنبه، وإن وجدت نفسك على ضد ذلك فاعلم أنه من الله تعالى أو من الملك قلت أنا وكان النشاط خفة فى الإنسان للفعل من غير بصيرة وذكر ثواب ينشط فى ذلك . وأما التأنى : فمحمود إلا فى مواضع معدودة، وأما الخوف: فيحتمل أن يكون فى إتمامه وأدائه على حقه وقبول الله تعالى إياه.

وأما بضارة العاقبة: فبأن تتبصر وتتيقن أنه رشد وخير، ويحتمل أن يكون لرؤية الثواب فى العقبى ورجائه. فهذه الفصول الثلاثة التى لزمتك معرفتها فارعها فإنها من العلوم اللطيفة والأسرار الشريفة فى هذا الأمر، وبالله التوفيق وهو ولى الهداية.

الباب الثامن عشر
فى بيان معنى آفات اللسان وهى عشرون آفة

أولها: الكلام فيما لا يعنى، ثم فضول الكلام، ثم الخوض فى الباطل، ثم المراء والمجادلة، ثم الخصومة، ثم التقعر فى الكلام،ثم الفحش والسب ثم اللعن، ثم الشعر، ثم المزاح، ثم السخرية والاستهزاء، ثم إفشاء سر الغير، ثم الوعد الكاذب، ثم الكذب فى

القول واليمين، ثم الغيبة والنميمة ثم ذو اللسانين، ثم المدح، ثم الخطأ فى فحوى الكلام، ثم سؤال العوام عما لا يبلغه فهمهم من صفات الله تعالى. فأما حد الكلام فيما لا يعنى: فهو أن يتكلم بما لو سكت عنه لم يأثم ولم يتضرر فى حال ولا مآل. وأما فضول الكلام: فهو الزيادة على قدر الحاجة فيما يغنى.

وأما الخوض فى الباطل: فهو الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال الوقاع ومجالس الخمور وتجبر الظلمة وكحكاية مذاهب أهل الأهواء. وكذا حكاية ما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم أجمعين على وجه الاستنقاص ببعضهم. وأما المراء: فهو الاعتراض على الغير بإظهار خلل فى لفظه أو معناه أو قصده به. وأما المجادلة: فهو مراء يتعلق بالمذاهب وتقريرها. وأما الخصومة: فهى لجاج فى الكلام بإظهار اللدد على قصد الإيذاء ومزج الخصومة بكلمات مؤذية لا يحتاج إليها فى نصر الحجة. وأما التعقر فى الكلام: فهو تكلف الفصاحة بالتشدق. وأما الفحش: فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وأما اللعن: فهو مايكون لجماد أو لحيوان أو لإنسان وكل ذلك منهى عنه لأن اللعن هو الإبعاد عن الله، ولا يجوز اللعن إلا على من يتصف بصفة تبعده عن الله تعالى والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر والبدعة والفسق فيجوز لعن كل صنف من هذه الثلاثة. فأما لعن شخص بعينه من هذه الأصناف فلا يجوز إلا على من علم موته على الكفر كفرعون وأبى جهل وأبى لهب لاحتمال موته على الإسلام وأما الشعر: فحسنه حسن وقبيحه قبيح كالكلام. وأما المزاح: فهو منهى عنه إلا عن يسير لا كذب فيه ولا أذى. وأما السخرية: فهى التنبيه على العلوم والنقائض على وجه الضحك منه ومهما كان مؤذيًا حرم وإلا فلا. وأما إفشاء السر: فهو حرام إن كان فيه إضرار وإن لم يكن فيه إضرار فهو لوم. وأما الوعد الكاذب: فهو من علامات النفاق وذلك أنه إذا كان حال الوعد عازمًا على الخلف إذا أخلف من غير عذر. وأما من عزم على الوفاء وطرأ له عذر منعه من الوفاء فذلك ليس بنفاق، ولكن ينبغى أن يتحرز من صورة النفاق أيضًا. وأما الكذب فى القول واليمين: فهو من قبائح الذنوب. وأما ما رخص فيه من الكذب: فاعلم أن الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوسل إليه بالصدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام وإن أمكن التوسل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ، وإن كان تحصيل ذلك المقصود واجبًا فهذا ضابطه، وأما حكم الغيبة: فأعلم أنها محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة إلا ما يستثنى منها. وأما حدها: فهو أن تذكر أخاك المسلم فى حال غيبته بما فيه مما يكرهه لو بلغه وسواء ذكره بنقص فى دينه أو دنياه أو قوله أو فعله أو خلقه أو خلقه أو ملبسه أو مكسبه أو نسبه أو داره أو دابته، وسواء فى ذلك القول والفعل والغمز والرمز والإشارة والإيماء والتعريض والكناية، فكل ذلك حرام.

وأما الأسباب الباعثة على الغيبة، فمنها: ما يختص بالعامة، ومنها: ما يختص بأهل الدين والخاصة من العلماء. فأما ما يختص بالعامة فهو الغضب والحقد والحسد وموافقة الرفقاء فى الهزل واللعب والاستهانة والاستحقار والتصنع والمباهاة والترفع على الغير وإرادة التبّرؤ من غيب نسيب إليه ينسبه إلى من فعله والمبادرة بتقبيح حال من يخشى أن يستقبح حاله عند كبير أو محتشم.

وأما مايختص بأهل الدين والخاصة من العلماء: فهو الغضب لله تعالى على فاعل المنكر والتعجب من فعله والشفقة عليه والرحمة. فهذه من أغمض الأسباب وأخفاها، لأن الشيطان يخيل للجهلة من العلماء أن الغضب والتخيل إذا كانت لله تعالى كانت عذرًا مرخصًا فى ذكر الاسم بالغيبة حاجات مخصوصة لا مندرجة عنها فى ذكر الاسم بالغيبة. وهى التظلم إلى الحكام والاستفتاء والاستعانة على إزالة المنكر والتحذير والنصيحة والتعريف باللقب. فهذه ثلاثة أمور هى المستثناة فى الشرع من الغيبة للضرورة.

وأما معالجة مرضها: فهو أن تعلم أنك متعرض لسخط الله تعالى بغيبة أخيك المسلم ومحبط لحسناتك بنقلها إلى صحائف من استغبته.

وأما أركان التوبة منها: فهى العلم والندم والإقلاع والعزم واستحلال من استغبته بذكر ما اغتبته به إلا أن يتعذر عليك فتدعو له.

وأما حكم النميمة: فاعلم أنها محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وأما حدها: فهو نقل كلام بعض الناس إلى بعض على قصد الإفساد، وسواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو غيرهما. وأما سببها: فهو إما إرادة السوء بالمنقول عنه أو التحبب إلى المنقول إليه والخوض فى الباطل. وأما معالجة مرضها: فهو أن تكف لسانك عنها حذرًا من ضررها.

وأما أركان التوبة منها: فهى العلم والندم والإقلاع والعزم. وأما ماذا يجب على من نقلت إليه نميمة فهو ستة أُمور وهى: أن لا يصدقه وأن ينهاه، وأن يبغضه فى الله تعالى، لأنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى، وأن لا ينم عليه، وأن لا يتجسس عن المنقول عنه، وأن لا يسئ الظن.

واعلم أن سوء الظن بالمسلم حرام كسوء القول. وحدّه أن تحكم على أخيك المسلم بالسوء بما لا تعلمه، وأما ذو اللسانين: فهو الذى ينقل كلام المتعادين بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، فإن لم ينقل كلامًا ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من العداوة أو وعد كلاهما بأن ينصره أو أثنى عليهما فى معاداتهما أو أثنى على أحدهما، وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين فى ذلك كله، بل ينبغى له أن يسكت أو يثنى على المحق

منهما في حضوره وغيبته وعند عدوه. وأما المدح : فهو منهى عنه فى بعض المواضع، وفيه ست آفات أربع فى المادح واثنان فى الممدوح. فأما التى فى المادح.

فالأولى: أنه قد يفرط فى المدح حتى ينتهى إلى الكذب.

وثانيها: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون كذلك، أو أنه قد لا يكون معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائيًا منافقًا.

وثالثها: أنه قد يقول ما لا يتحققه فيكون كاذبًا مزكيًا من لم يزكه الله تعالى وهذا هلاك.

ورابعها: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق، وأما الممدوح فيضره بالمدح من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبرًا وعجبًا وهما مهلكان.

والثانى: أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضى عن نفسه وقل تشمره لأمر آخرته. ولهذا قال رسول الله ﷺ: « **قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبكَ**» فإن سلم المدح عن هذه الآفات لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوبًا إليه. ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابة رضى الله عنهم أجمعين حتى قال: «**لَوْ وُزن إيمانُ أَبى بَكْر بإِيمَان العَالَمين لرَجَحَ**». وقال: «**لَوْ لَمْ أُبْعَثْ لَبُعَثْتَ ياعُمَر**». وأى ثناء يزيد على هذا ولكنه عن صدق وبصيرة وكانا أجل رتبة من أن يورثهما ذلك كبرًا وإعجابًا، بل مدح الإنسان قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر إلا أن يكون مما لم يورثه ذلك كبرًا وإعجابًا. كما قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّد وَلَد آدَمَ وَ لا فَخْر**» . أى لست أقوله تفاخرًا كما يقوله الناس بالثناء على أنفسهم وذلك أن افتخاره ﷺ إنما كان بالله تعالى وبقربه لا بكونه مقدمًا على غيره من ولد آدم عليه الصلاه والسلام، وأما الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام: فهو مثل أن يقول: مُطِرْنا بنوء كذا وكذا، أو يقول للعنب كرمًا أو نحو ذلك مما نهى عنه من الألفاظ. وأما سؤال العوام عما لا يبلغه فهمهم من صفات الله تعالى فهو مثل أن يسأل عن بعض صفات الله تعالى أو عن كلامه أو عن الحروف هل هى حادثة أو قديمة فكل ذلك مذموم سؤالهم عنه لعدم فهمهم عنه لئلا يلتبس عليهم الحق بالباطل والله تعالى أعلم.

الباب التاسع
فى بيان البطن وحفظه

فى البطن وحفظه، لأنه المعدن ومنه تهيج الأمور فى الأعضاء من خير وشر، فعليك

بصيانته عن الحرام. وكذا عن الشبهة ثم عن فضول إن كانت لك همة فى عبادة الله تعالى.

فأما الحرام أو الشبهة: فإنما يلزمك التحفظ عنها لثلاثة أُمور:

الأول: حذرًا من نار جهنم.

والثانى: أن آكل الحرام والشبهة مطرود لا يوفق للعبادة إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى إلا كل قلب طاهر. قلت: أليس قد منع الله تعالى الجنب من دخول بيته والمحدث من مس كتابه مع أنهما أثر مباح؟ فكيف بمن هو منغمس فى قذر الحرام والشبهة متى يدعو إلى خدمة الله تعالى وذكره الشريف (كلا فلا يكون ذلك).

والثالث: أن آكل الحرام والشبهة محروم، وإن اتفق له فعل خير فهو مردود عليه وليس له منه إلا العناء والكد.

وأما حكم الحرام والشبهة وحدّهما: فاعلم أن الأولى فى حدهما أن ما تيقنت كونه ملكًا للغير منهيًّا عنه فى الشرع أوغلب على ظنك فهو حرام وأما ما تساوت فيه الأمارتان فهو شبهة بشبهة أنه حرام ويشبه أنه حلال ثم الامتناع من الذى هو حرام محض حتم واجب، والامتناع من الذى هو شبهة تقوى وورع. وأما حكمه: فاعلم ما هو الأصل فى هذا الكتاب، وهو أن هنا شيئين: أحدهما: حكم الشرع وظاهره. والثانى: حكم الورع وحقه. فحكم الشرع أن تأخذ مما آتاك الله عمن ظاهره صلاح، ولا تسأل إلا أن يتبين لك أنه غصب أو حرام بعينه، وحكم الورع أن لا تأخذ من أحد شيئًا حتى تبحث عنه غاية البحث فتتيقن أن لا شبهة بحال وإلا فترده.

فإن قلت: فكان الورع يخالف الشرع وحكمه. فاعلم أن الورع من الشرع أيضًا وكلاهما واحد فى الأصل، ولكن للشرع حكمان حكم الجواز وحكم الأفضل الأحوط. فالجائز نقول له حكم الشرع والأفضل الأحوط نقول له الورع والله تعالى أعلم.

وأما حد فضول الحلال: فاعلم أن أحوال المباح فى الجملة أقسام:

القسم الأول: أن يأخذ العبد مفاخرًا مكاثرًا مرائيًا فهذا يستوجب على ظاهر فعله اللوم وعلى باطنه عذاب النار، لأن ذلك القصد منه معصية وقد وقع الوعيد لمن قصده.

القسم الثانى: أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك منه شئ يوجب الحبس والحساب.

القسم الثالث: أن يأخذ من الحلال فى حال العذر قدرًا يستعين به على عبادة ربه سبحانه وتعالى ويقتصر عليه فذلك منه حسنة وأدب، ولا حساب عليه ولا عتاب بل يستوجب به الأجر والمدح، والله تعالى أعلم.

الباب العشرون
في بيان معرفة حيل الشيطان ومخادعاته

قال رحمه الله تعالى ورضى عنه: أما معرفة الحيل والمخادعات من الشيطان مع ابن آدم في الطاعات فهى من سبعة أوجه:

أحدها: أنه ينهاه عن الطاعات. فإن عصمه الله منه أمره بالتسويف فإن سلمه الله منه أمره بالعجلة فإن نجاه الله منه أمره بإتمام العمل مراءاة فإن حفظه الله تعالى منه أدخل عليه العجب، فإن رأى منه الله تعالى عليه أمره بالاجتهاد في السر وقال له: إن الله تعالى سيظهره عليك يريد بذلك جريان الرياء فإن اكتفى بعلم الله تعالى نجا منه، فإن لم يطعه في شئ من ذلك كله وعجز عنه وقال له لا حاجة لك إلى هذا العمل لأنك إن خلقت سعيداً لم يضرك ترك العمل، وإن خلقت شقياً لم ينفعك فعله، فإن عصمه الله تعالى منه، وقال له: أنا عبد وعلى العبد امتثال أمر سيده وسيده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد نجا منه بتوفيق الله تعالى وإلا هلك.

فصل في الحذر من النفس

قال رحمه الله تعالى ورضى عنه: العائق الرابع النفس ثم عليك بالحذر من هذه النفس، فإنها أضر الأعداء وعلاجها أعسر الأشياء لأنها عدو من داخل، واللص إذا كان من أهل البيت عزت الحيلة فيه وعظم ضرره ولأنها أيضًا عدو محبوب والإنسان عم عن عيب محبوبه لا يكاد يرى عيبه ولا يبصره، ثم الحيلة في أمرها أن تلجمها بلجام التقوى والورع ليحصل لك فائدة الامتثال والانتهاء واعلم أنه لا يذل النفس ويكسر هواها إلا ثلاثة أشياء:

الأول: منعها عن شهوتها.

الثاني: حمل أثقال العبادات عليها.

الثالث: الاستعانة بالله تعالى عليها والتضرع إليه وإلا فلا يخلص من شرها إلا به سبحانه وتعالى.

فصل في بيان ما يؤاخذ العبد به من أعمال القلب وما لا يؤاخذ به

اعلم: أن ها هنا أربعة أحوال للقلب قبل العمل بالجوارح.

أحدها: الخاطر وهو حديث النفس ثـم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم. فأمـا الخاطر: فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحـت الاختيار، وكـذلك الميل وهيجـان شهوة النفس، لأنهـما لا يدخلان تحت الاختيـار، أيضًا وهما المراد بقوله ﷺ **«عفَا الله لأُمَّتى مَا حَـدَّثَتْ به أَنْفُسَها»**. فحديث النفس عبارة عن الخواطر التى تهجس فى النفس ولا يتبعها عزم على الفعل. فأما الهم والعزم فلا يسمّيان حديث النفس.

وأما الثـالث: وهو الاعتـقاد، وحكم القلب بأنه ينبـغى أن يفعل فهـذا مردد بين أن يكون اضطرارًا أو اختيارًا والأحوال تختلف فـيه. فالاختيارى منه يؤاخذ به والاضطرارى لا يؤاخذ به.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل، فإنه يؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن تركه خوفًا من الله تعالى وندمًا على همه كتب له حسنة، وإن تعـوق الفعل بعائق أو تركه لا خوفًا من الله تعالى كتب عليه سيئة، فإن همه فـعل من القلب اختيارى والدليل القاطع فيه: ما روى عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذَا الْتَقَى المُسْلمَان بَسَيْفهما فَالقَاتلُ وَالمَقْتُولُ فى النَّار»** قيل: يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«لأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحَبه»** وهذا نص فى أنه صار من أهل النار بمجرد الإرادة مع أنه قتل مظـلومًا فكيف يظن أنه لا يؤاخذ بالنية والهم كلما دخل تحت اختيار القلب فإنه مؤاخذ به إلا أن يكفره بحسنة ونقض العزم بالندم حسنة، فلذلك كتبت حسنة وأما فوات المراد بعائق فليس بحسنة.

الباب الحادى والعشرون
فى بيان ما يجب رعايته من حقوق الله تعالى وهو ضربان

الأول: فعل الواجبات.

والثانى: ترك المحرمـات ففـعل كل واجب تقوى وترك كل مـحرم تقـوى فمن أتى بخصلة منها فقد وفى نفسه بها مـا رتب على تركها من شر الدنيا والآخرة مع ما يحصل له من نعيم الجنان ورضا الرحمن.

واعلم: أنه لا يتقرب إلى الله تعالى إلا بطاعـته وطاعته فعل واجب أو مندوب وترك محرم أو مكروه، فمن تقواه تقديم مـا قدم الله تعالى من الواجبات على المندوبات، وتقديم ما قـدمه من اجتناب المحـارم المحرمات على ترك المكروهـات، بخلاف ما يفـعله الجاهلون الذين يظنون أنهم إلى الله مـتقربون وهم منه مـتباعـدون فيضـع أحدهم الواجبـات حفظًا للمندوبات، ويرتكب المحـرمات تصـونًا على ترك المكروهات. فكم من مـقيم علـى صور الطاعات مع انطواء قلبه على الرياء والغل والحسـد والكبر والإعجاب بالعمل والإدلال على الله تعالى بالطاعات، والتقوى قسمان أحدهما متعلق بالقلوب وهو قسمان:

الأول: واجب كإخلاص العمل والإيمان.

والثاني: محرم كالرياء وتعظيم الأوثان. والثاني منها: متعلق بالأعضاء الظاهرة كنظر العين،وبطش الأيدي ومشي الأرجل ونطق اللسان. واعلم أنه إذا صحت التقوى أثمر الورع والورع ترك ما لا بأس به خوفًا من الوقوع فيما به بأس، والله تعالى أعلم.

فصل

اعلم: أن خيرات الدنيا والآخرة قد جمعت تحت خصلة واحدة وهي التقوى، وتأمل ما في القرآن من ذكرها كم علق بها من خير وكم وعد عليها من ثواب وكم أضاف إليها من سعادة. ثم اعلم أن الذي يختص به هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أُصول:

الأول: التوفيق والتأييد أولاً حتى تعمل وهو للمتقين، كما قال الله تعالى: ﴿**إنا الله مع الذين اتقوا**﴾.

والثاني: إصلاح العمل وإتمام التقصير حتى يتم وهو للمتقين، كما قال الله تعالى: ﴿**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٧١].

والثالث: قبول العمل إذا تم وهو للمتقين، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧]. ومدار العبادة على هذه الأصول الثلاثة التوفيق والإصلاح والقبول. وقد وعد الله تعالى ذلك كله على التقوى وأكرم به المتقي سأل أو لم يسأل فالتقوى هي الغاية التي لا متجاوز عنها ولا مقصد دونها.

ثم اعلم أن حد التقوى في قول شيوخنا: هو تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى يجعل العبد من قوة العزم على تركها وقاية بينه وبين العاصي. فإذا وطن قلبه على ذلك فحينئذ يوصف بأنه متق، ويقال لذلك التوبة والعزم تقوى.

ثم اعلم أن منازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدع، وتقوى عن المعاصي الفرعية، ثم الشرور ضربان أصلي وهو مانهي عنه تأديبًا كالمعاصي المحضة، وشئ غير أصلي وهو مانهي عنه تأديبًا وهي فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوات. فالأولى: تقوى فرض يلزم بتركها العذاب. والثانية: تقوى خير وأدب يلزم بتركها الحبس والحساب واللوم. فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الأولى من التقوى وتلك منزلة مستقيم الطاعة، ومن أتى بالثانية: فهو في الدرجة العليا من التقوى فإذا جمع العبد اجتناب كل معصية وفضول، فقد استكمل معنى التقوى وهو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين. وأما الذي لا بدّ منه ها هنا فهو مراعاة الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول وهي: العين والأذن واللسان والبطن والقلب. فليحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضررًا

من حرام وفضول وإسراف من حلال، فإذا حصلت صيانة هذه الأعضاء فترجو أن تكفى سائر أركانه وتكون قد قمت بحق التقوى بجميع بدنك لله تعالى.

واعلم أن علماء الآخرة رضى الله عنهم أجمعين قد ذكروا فيما يحتاج إليه العبد من هذا الأمر سبعين خصلة محمودة فى أضدادها المذمومة، ثم الأفعال والمساعى الواجبة المحظورة نحو ذلك فنظرنا فى الأصول التى لا بدّ من ذكرها فى علاج القلب، ولا غنية عنها البتة فى شأن العبادة فرأينا أربعة أمور وهو آفات المجتهدين وفتن القلوب تعوق وتشين وتفسد، وأربعة فى مقابلتها فيها قوام العباد وانتظام العبادة وإصلاح القلوب. والآفات الأربع الأول: الأمل والاستعجال والحسد والكبر. والمناقب الأربع: قصر الأمل والتأنى فى الأمور والنصيحة للخلق والتواضع والخشوع. فهذه هى الأصول فى علاج القلوب وفسادها، فابذل المجهود فى التحرز من هذه الآفات والتحصيل لهذه المناقب تكفى المؤنه وتظفر بالمقصود إن شاء الله تعالى.

فأما طول الأمل: فإنه العائق عن كل خير، وطاعة الجالب لكل شر وفتنته الذى يوقع الخلق فى جميع البليات.

واعلم أنه طال أملك هاج لك منه أربعة أشياء:

الأول: ترك الطاعة والكسل تقول: سوف أفعل.

والثانى: ترك التوبة وتسويفها تقول: سوف أتوب.

والثالث: يجرك إلى الرغبة فى الدنيا والحرص عليها تقول: أى شئ آكل وألبس فتهتم لها وأقل ما فى الباب أنه يشتغل قلبك ويضيع عليك وقتك ويكثر عليك همك.

والرابع: القسوة فى القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا أملت العيش الطويل لاتذكر الآخرة بل لا تذكر الموت ولا القبر، فإذًا يصير فكرك فى الدنيا فيقسو قلبك من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿**فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الحديد: ١٦]. وإنما رقة القلب وصفوه بذكر الموت والقبر وأحوال الآخرة.

وأما حد طول الأمل، فقال العلماء: هو إرادة الحياة للوقت المتراخى بالحكم، وقصر الأمل ترك الحكم فيه بقيده بالاستثناء بمشيئة الله تعالى وعلمه فى الذكر أو بشرط إصلاح فى الإرادة. فإذا ذكرت حياتك بأنك تعيش بعد نفس أو ساعة ثانية بالحكم والقطع فأنت آمل وذلك منك معصية إذ هو حكم على الغيب، فإن قيدته بالمشيئة والعلم لله تعالى بأن تقول: أعيش إن شاء الله تعالى، فقد خرجت عن حكم الأمل ووصفت بقصر الأمل من حيث تركت الحكم فيه، والمراد بالذكر ذكر القلب ثم المراد منه توطين القلب على ذلك والتثبيت للقلب عليه، فافهمه راشدًا، ثم الأمل ضربان: أمل العامة وأمل الخاصة. فأمل

العامة: هو أن يريد البقاء لجمع الدنيا والتمتع بها. فهذه معصية وضدها قصر الأمل. وأمل الخاصة: هو أن يريد البقاء لإتمام عمل خير فيه خطر، وهو ما لا يستيقن الصلاح له فيه. فإنه ربما يكون خير معين لا يكون للعبد فيه أو فى إتمامه صلاح بل يقع فى أنه لا يقوم بهذا الخير، فإذًا ليس للعبد ابتداء فى صلاة أو صوم أوغيرهما أن يحكم بأن يتمه إذ هو غيب ولا أن يقصد ذلك قطعًا، بل يقيده بالاستثناء وشرط الصلاح ليتخلص من عيب الأمل وضد هذا الأمل فيما قال العلماء: النية المحمودة لأن الناوى بالنية المحمودة يكون ممتنعًا من الأمل فهذا حكمه، وأما النية المحمودة: فهى الأصل الأصيل وقد ذكروا فى حدها الجامع التام أنها إرادة أخذ عمل مبتدأ به قبل سائر الأعمال بالحكم مع إرادة إتمامه بالتفويض والاستثناء.

فإن قيل: لم جاز الحكم فى الابتداء ووجب التفويض والاستثناء فى الإتمام؟ فيقال: لفقد الخطر فى الابتداء إذ هو حال الابتداء ليس بشئ متراخ عنك ولثبوت الخطر فى الإتمام، لأنه يقع فى وقت متراخ، ففيه خطران: خطر الوصول لأنك لا تدرى هل لك فى ذلك صلاح أم لا. فإذا حصلت الإرادة على هذه الشروط تكون حينئذٍ نيه محمودة مخرجة عن حكم الأمل وآفاته، والله تعالى أعلم.

واعلم أن حصن تقصير الأمل هو ذكر هجوم الموت وأخذه على غفلة وغرة فاحتفظ بهذه الجملة فإن الحاجة ماسة إليها ودع عنك القيل والقال من غير طائل والله الموفق. وأما الاستعجال والترقى: فإنه الخصلة المفوتة للمقاصد الموقعة فى المعاصى.

واعلم أن أصل العبادة وملاكها الورع والورع أصله النظر البالغ فى كل شئ والبحث التام عند كل شئ هو بصدده من أكل وشرب ولبس وكلام وفعل. فإذا كان الرجل مستعجلاً فى الأمور غير متأن متثبت متبين لم يقع منه نظر وتوقف فى الأمور كما يجب ويسارع إلى أكل كل طعام فإنه يقع فى الحرام والشبهة وإلى كل كلام فإنه يقع فى الزلل وكذلك فى كل أمر يفوته الورع وأى خير فى عبادة بلا ورع فحق على العبد أن يهتم لإزالة هذه الآفة والله الموفق، وأما حد العجلة: فهو المعنى الراتب فى القلب الباعث على الإقدام على الأمر بأول خاطر دون التوقف وضدها الأناة وهى المعنى الراتب فى القلب الباعث على الاحتياط فى الأمور والتأنى فى اتباعها والعمل بها.

وأما التوقف: فضده التعسف والفرق بين التوقف والتأنى أن التوقف يكون قبل الدخول فى الأمر حتى يؤدى إلى كل جزء منه حقه.

وأما الحسد: فهو المفسد للطاعات الباعث على الخطيئات المورث للتعب والهم فى غير فائدة، بل مع كل وزر والموجب عمى القلب وكفى بالحاسد إضلالاً وخسرانًا أنه عدو

لنعمة الله تعالى ومعاند لإرادته وساخط لقضائه. وأما حد الحسد: فهو إرادة زوال نعمة الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها ولكن أردت لنفسك مثلها فهى غبطة، فإن لم يكن له فيها صلاح فأردت زوالها عنه فذلك غيرة فهذا هو الفرق بين الخصال. وأما ضد الحسد: فالنصيحة وهى إرادة بقاء نعمة الله تعالى على أخيك المسلم فيما له فيه صلاح، فإن اشتبه عليك الأمر فلا ترد زوال نعمة عن أحد من المسلمين ولا بقاءها إلا مقيدًا بالتفويض إلى الله تعالى لتخلص من حكم الحسد وتحصل لك فائدة النصيحة. وأما حصن النصيحة المانع من الحسد: فهو ذكر ما أوجبه الله من موالاة المسلمين، وحصن هذا الحصن هو ذكر ما عظم الله تعالى من حقه ورفع قدره وما له عند الله تعالى من الكرامات فى العقبى وما لك من الفوائد الدينية والدنيوية دنيا وأخرى والله الموفق.

وأما الكبر: فهو الخصلة المهلكة رأسًا أما تسمع قول الله تعالى عن إبليس: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وأما حد الكبر: فاعلم أنه خاطر فى رفع النفس واستعظامها والتكبر اتباع ما ينافى التواضع وكل واحد منهما عام وخاص، فالتواضع العام هو الاكتفاء بالدون من الملبس والمسكن وما فى معناها والتكبر فى مقابلته الترفع عن ذلك وهو معصية كبيرة.

وأعلم أن حصن التواضع العام هو أن تذكر مبدأك ومنتهاك، وما أنت عليه الآن من ضروب الآفات والأقذار، وحصن التواضع الخاص هو ذكر عقوبة العادل عن الحق فهذه جملة كافية لمن استبصر والله تعالى الموفق.

الباب الثانى والعشرون
فى بيان معنى حقيقة حسن الخلق وسوئه

اعلم أن السعادة كلها والباقيات الصالحات أجمعها التى تبقى معك إذا غرقت سفينتك في شيئين: الأول: سلامة القلب وطهارته من غير الله تعالى لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. والثانى: امتلاء القلب بمعرفة الله تعالى التى هى المقصودة من خلق العالم وبعثة الرسل صلّى الله عليهم وسلّم، وحسن الخلق: هو الجامع لهما ولا أعلم خصلة تزيد عليه في الفضل، ولذلك امتدح الله تعالى به نبيه محمدًا ﷺ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. والكلم الطيب هو التوحيد والمعرفة والعمل الصالح هو طهارة القلب الرافعة لقدر التوحيد والمعرفة، ومعنى الرفعة

هو حضور القلب وتأثيره بهما لينقاد خضوعًا ومسكنة ومهابة. فحينئذ يكون قريبًا من الله تعالى. فأما حقيقة حسن الخلق: فاعلم أن للإنسان صورة باطنة وهى التى بعثت الأنبياء عليهم السلام بتقويمها وتزكيتها وكمال اعتدالها وذلك أن تصدر عنها الأخلاق المحمودة بسهولة بلا روية ولا فكر. وهذا هو معنى حقيقة حسن الخلق، وسوء الخلق يكون بعكس ذلك. واعلم أن جملة الأخلاق المحمودة والمذمومة تصدر عن ثلاث صفات هن كالأمهات:

الصفة الأولى: العقل وقوته واعتداله بالعلم والحكمة وحقيقة الحكمة معرفة الحق من الباطل فى الاعتقادات والصدق من الكذب فى الأقوال والحسن من القبيح فى الأفعال.

الصفة الثانية: قوة الغضب الدافعة للضرر وهى خلقت لذلك فكمالها واعتدالها أن تكون منقادة للحكمة إن أشارت الحكمة لها بالاسترسال استرسلت أو بالانقباض انقبضت كالكلب المعلم.

الصفة الثالثة: قوة الشهوة الجالبة للنفع وهى خلقت أيضًا مطيعة للعقل فحسنها واعتدالها فى إذعانها للحكمة. واعلم أن المطلوب من الأخلاق الاعتدال والوقوف على وسط الأمور لقوله تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾ [الإسراء: ٢٩]. فصار العدل من هذه الصفات الثلاث ركنًا رابعًا. فأما مثال الاعتدال فى الصفات فاعلم أن قوة الحكمة لها إفراط وتفريط ووسط والوسط هو المحمود المسمى بالحكمة فبحسبها واعتدالها يصدر عنها التدبير وجودة الذهن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفس، وأما إفراطها فيصدر عنه المكر والخداع والدهاء وشبه ذلك، ومن تفريطها يصدر البله والغباوة والحمق والجنون. فأما الغباوة: فهى قلة التجربة والحمق صحة القصد مع فساد السلوك والجنون فسادهما جميعًا. وأما قوة الغضب: فلها اعتدال يسمى الشجاعة يصدر عنه الكرم والنجدة وكظم الغيظ والوفاء بالعهد، ولها إفراط يصدر عنه التكبر والعجب والاستشاطة وشبه ذلك، ولها تفريط يصدر عنه المهانة والذلة والجزع والانقباض مع تناول الحق الواجب. وأما قوة الشهوة: فلها اعتدال يسمى العفة يصدر عنه السخاء والصبر والورع والمساعدة وقلة الطمع، ولها إفراط يصدر عنه الحرص والشره وشبههما، ولها تفريط يصدر عنه الحسد والمشاتمة والعتب وشبه ذلك، فأمهات محاسن الأخلاق الحكمة والشجاعة والعفة والعدل المكمل لكل واحدة من الثلاث، وما سوى ذلك فروع لهذه الأربعة، ولم يبلغ كمال هذه الأربع إلا سيدنا رسول الله ﷺ وبالله التوفيق.

فصل فى بيان حد التواضع وحقيقته ونهايته وعلامته

وعلى الجملة فالتواضع متخلق بأخلاق الله تعالى وكفى بها شرفًا فى الآخرة وهو معنى قوله ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله». فأما حد التواضع: فهو ضبط الأحوال والاختيار عن التفريط والإفراط فلا تتكبر ولا تتخاسس. وأما حقيقته: فهو الذل والإذعان والانقياد للحق بسهولة والحق يطلق على الله تعالى وعلى أمره. وأما نهايته: فهو أن لايحس بالذل إذا مدح ولا يتألم بالذم إذا ذم لعلمه بحكمة الله سبحانه وتعالى وتوحده بالأفعال، لأن العبد لا يحس بالذل بين يدى سيده وهذه طريقة الموحدين، لأن المتواضع يرى لنفسه قدرًا فيضعه والموحد لايرى لنفسه قدرًا حتى يضعه. فالمتواضع ضابط لأفعاله الاختيارية فلا يتكبر ولا يتخاسس، وإن جرى عليه ذل من غير اختياره، وطريقة الأولياء الرضى ووجدان اللذة، لأنه جرى بقدر الله تعالى وعلمه وإرادته فهو لا يحس بالذل لقصور نظره على حكم الله تعالى وجميل فعله إنما يحس بالذل المتكبر الجاهل الغافل القاصر نظره على فعل الأفعال، وكلما كان أكثر ذلاً كان أكثر كبرًا. وأما العلماء بالله تعالى فلا يشهدون لغير الله ولا يتهمونه فى حكم من الأحكام، بل يعرفون أن ذلك علامة كرامتهم.

وقد أشار بعض الأئمة رحمهم الله تعالى إلى أن المعرفة لا توجد إلا فى قلوب المتواضعين الذين صار الذل صفتهم الذاتية فهم بقدرة الله تعالى ونظره ينقلبون إن رفعوا إلى السماء لم يزدادوا فى نفوسهم كمالاً وإن خفضوا إلى منتهى الخفض لم يجدوا فى أنفسهم نقصًا كذلك، لأنهم مسلوبوا الإرادة والاختيار لعلمهم أن الكمال المطلق فيما حكم الله تعالى به وقضاه فيهم، ولأنهم يجدون المزيد من الله تعالى فى أحوالهم بذلك فهو رتب المقربين. وأما الصالحون فتواضعهم على قدر معرفتهم بنفسهم وربهم. وأما علامة التواضع: فهو أن لا يأنف من الحق إذا أمر به، فإن وجد فى نفسه ألفة من ذلك فهو متكبر عن قبول الحق وذلك معصية كبيرة، والله تعالى أعلم.

الباب الثالث والعشرون
فى بيان معنى الفكر ومقدماته ولواحقه

فمقدماته مساع وتيقظ وذكر ولواحقه العلم، لأن من سمع تيقظ، ومن تيقظ تذكر، ومن تذكر تفكر، ومن تفكر علم، ومن علم عمل إن كان علمًا يراد للعمل، وإن كان علمًا يراد لذاته سعد والسعادة غاية المطلب.

أما السماع: فحقيقته الانتفاع بالمسموع من حكمة أو موعظة وما يضاهيهما، وشرطه الاستماع وهو الإصغاء وهو واجب فى استماع كل علم هو فرض عين مدركه السمع ومستحب فيما سواه فى العلوم المحمودة ويحرم فيما حرم الشارع من المحرمات ويكره فيما يكره استماعه.

وأما اليقظة: فحقيقتها انتباه القلب للخير. وعلامة الانتباه: القومة والنهوض عن ورطة الفترة، والقومة واجبة على الفور فى الأوامر والنواهى الفورية وهى متعلقة بكل مقام.

وأما التذكر: فهو تكرار المعارف على القلب لتثبت وترسخ.

وأما التفكر: فهو أن تجمع بين علمين مناسبين للعلم الذى أنت طالبه بشرط عدم الشك فيهما وفراغ القلب من غيرهما ويحدق النظر فيهما تحديقًا بالغًا فلم يشعر إلا وقد انتقل القلب من الميل الخسيس إلى الميل النفيس إحضارًا لمعرفتين يسمى تذكرًا والتذكر يتعلق بالعقد والقول والفعل والترك وهو واجب فيما يجب تذكره، ويحرم بتذكر المعاصى إن أدى إلى استجلابها. وحصول المعرفة الثالثة المقصود من هاتين المعرفتين يسمى تفكرًا، والتفكر واجب عند الشك وعند ورود الشبهة وعند علاج الأمراض الواجب إزالتها من القلوب.

وأما العلم فيندرج فى خمسة أقسام:

الأول: من العلوم الواجبة علم أصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

الثانى: علم العبادات المتعلقة بالأبدان والأموال.

الثالث: علم ما يتعلق بالحواس الخمس اللسان والفرج والبطن والسمع والبصر.

الرابع: علم الأخلاق المذمومة الواجب إزالتها من القلب.

الخامس: علم الأخلاق المحمودة الواجبة لله تعالى على القلوب.

الباب الرابع والعشرون
فى بيان معنى التوبة ويضاف إليها الفرار والإنابة والإخبات لأنهن من ثمراتها

أما التوبة: فحقيقتها الرجوع من المعصية إلى الطاعة، ومن الطريق البعيدة إلى الطريق القريبة وتنظيم من علم وحال وعمل.

وكذلك كل مقام فالعلم هو الأصل الذى هو عقد من عقود الإيمان بالله تعالى أو لله تعالى، والحال ما ينشأ عنها من المواجيد، والعمل هو ما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال، ويتقدم التوبة واجبان:

الواجب الأول: معرفة الذنب المرجوع عنه أنه ذنب.

الواجب الثانى: أنه لا يستبد بالتوبة بنفسه، لأن الله تعالى هو خالقها فى نفسها ومسيِّر أسبابها، وهو من الإيمان بالله تعالى لتعلقه بالقدرة، والثانى من الإيمان له لتعلقه بأخباره.

وأما أركانها فأربعة: علم وندم وعزم وترك والقدر الواجب من الندم ما يحث على الترك.

وأما الفرار: فحقيقته الهرب من المعصية إلى الطاعة، وهذا هو الفرار الواجب المبنى على أصل الإيمان ورجوع العبد من الشواغل الملهية إلى الله تعالى، ومن الحسن إلى الأحسن هو أيضًا توبة ورجوع، وبه كمال السعادة فى الآخرة، وهذا هو الفرار الواجب المبنى على كمال الإيمان، وعلى هذا فلا نهاية لمراتب التوبة ومراقبها وهذا هو الإنابة لأن حقيقة الإنابة تكرار الرجوع إلى الله تعالى وإن لم يتقدمه ذنب.

وأما الإخبات: فهو الإذعان والانقياد للحق بسهولة.

واعلم أن التوبة نصح من كل ذنب لا دون ذنب ، والله تعالى أعلم.

الباب الخامس والعشرون
فى بيان الصبر ويضاف إليه الرياضة والتهذيب لأنهما من ثمراته

أما علمه: فهو تصديق الله تعالى فيما أخبرنا به من عداوة النفس والشيطان والشهوات للعقل والمعرفة والملك الملهم للخير، وأن القتال بينهم دائم فمن خذل جند الشيطان ونصر حزب الله أدخله جنته وهذا واجب لأنه من الإيمان بالله تعالى. وأما الحال الناشئ عن هذا الإيمان، فهو ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى والقدر الواجب منه تقويته بالوعد والوعيد إلى أن يغلب حزب الله تعالى جند الشيطان «ألا إن حزب الله هم الغالبون».

وأما الرياضة: فهو تمرين النفس على الخير ونقلها من الخفيف إلى الثقيل باللطف والتدريج إلى أن يرتقى إلى حالة يصير ما كان عنده من الأحوال والأعمال شاقًا سهلاً هينًا.

وأما التهذيب: فهو امتحان النفس واختيار أحوالها فى دعوى المقامات هل صدقت أو كذبت، وعلامة اعتدال مقام الصبر أن تصدر عنه الأعمال بسهولة بلا مانع ولا منازع. والله تعالى الموفق.

الباب السادس والعشرون
فى الخوف، ويضاف إليه الحزن والقبض والإشفاق والخشوع لأنهن من أنواعه وكذلك الورع لأنه من ثمراته

أما علمه: فهو مطالعة صفات الألوهية وتعلقها بالتقريب والإبعاد والإسعاد والإشقاء من غير وسيلة ولا سابقة، وهذا الخوف يراد لذاته ويجب اعتقاده لأنه من الإيمان بالله تعالى ينتفع بهذا الخوف من أخرجته رؤية كثرة الأعمال إلى الإدلال والأمن من مكر الله إذ لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وأما الخوف المراد لغيره، فهو قسمان. أحدهما: خوف سلب النعمة وهو يحث على الأدب ورؤية المنة. والثانى: خوف العقوبات المرتبة على الجنايات، والقدر الواجب منه ما يحث على ترك المحظورات وفعل الواجبات. وأما حاله، فهو تألم القلب وانزعاجه بسبب توقع مكروه أو على فائت. فإن كانا محمودين كان له حكمهما فى الوجوب والاستحباب، وإن كانا مكروهين له حكمهما فى الحظر والكراهة.

وأما حقيقة القبض: فهو يطرق القلب تارة يعلم سببه فحكمه حكم الحزن، وما لم يعلم سببه فهو عقوبة للمريدين لسبب إفراطهم فى البسط.

وأما حقيقة الإشفاق: فهو اتحاد الخوف بالرجاء واعتدالهما، وأما حقيقة الخشوع: فهو سكون القلب والجوارح وعدم حركتهما لما عاين القلب من عظيم أو مفزع.

وأما حقيقة الورع: فهو مجانبة الشئ حذرًا من ضرره، والله تعالى أعلم.

الباب السابع والعشرون
فى بيان الرجاء، ويضاف إليه الرغبة، لأنها من أنواعه وكذلك البسط لأنه من ثمراته

أما علمه: فهو أيضًا مطالعة الصفات القديمة التى يصدر عنها كل ما ساء وسر ونفع وضر، فمن عرف هذا من صفاته خافه ورجاه **وهذا هو الرجاء المقصود لذاته، لأنه لا يتوقع بحسنة ولا يندفع بسيئة إنما ينشأ عن فضل الله تعالى لمن سبقت له السعادة، ويندفع بهذا الرجاء من أخرجه الخوف إلى القنوط.**

وأما الرجاء والمراد لغيره: فهو ما يحث على تكثير الطاعات، فإن لم يحث على تكثير الطاعات كان تمنيًا، **لأن** حقيقة الرجاء هو رتياح القلب وانشراحه لانتظار محبوب تقدمت أسبابه.

وأما الرغبة: فهى استيلاء هذا الحال على قلب الراجى حتى كأنه يشاهد به المأمول فهى كمال الرجاء ومنتهى حقيقته.

وأما البسط: فهو انشراح القلب وانفتاح طريق الهدى له بروح الرجاء.

الباب الثامن والعشرون
فى بيان الفقر، ولواحقه التبتل والفناء والتجريد

أما الفقر: فهو الفقد والاحتياج، ولكن الاحتياج على ضربين: مطلق ومقيد.

أما المطلق: فهو احتياج العبد إلى موجد يوجده وإلى بقاء بعد الإيجاد وإلى هداية إلى موجده وهذا هو الفقر إلى الله تعالى، لأن الله هو موجده ومبقيه وهاديه إليه وهذا الفقر واجب لأنه من الإيمان بالله ولله.

وأما الحال الذى ينشأ عن هذه المعرفة: فهو شهود العبد لفقره وحاجته إلى الله تعالى على الدوام.

وأما الاحتياج المقيد: فهو احتياج العبد إلى الوسائل التى تقوم بها ذاته ويستعان على تحصيلها بالمال والمال هو المفقود المحتاج إليه، فالفقر المطلق يراد لذاته لتعلقه بالله تعالى، والمقيد يراد لغيره وهو التبتل والانقطاع إلى الله وهما الوسيلة للغنى بالله تعالى وهو تعلق القلب به سبحانه وتعالى، والغنى بالله تعالى وسيلة إلى تجريده عما سوى الله تعالى، ولا يجب من التجريد إلا اعتقاد تجريد القديم عن الحادث، والله تعالى أعلم.

الباب التاسع والعشرون
فى بيان الزهد، ويضاف إليه الإيثار والفتوة، لأنهما من أخلاقه وكذلك مقام المراد، لأنه من مواريثه

أما العلم الذى هو سبب الزهد فى الدنيا: فهو الإيمان لله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. وأما الحال الناشىء عن هذا العلم: فهو انصراف الإرادة عن الدنيا لاستعظام ما عند الله. وأما سبب الزهد فيما سوى الله تعالى من نعيم الجنة وغيرها، فهو إضافة حقارة الوجود إلى جلال الله تعالى وكماله، وهذا هو الزهد المراد لذاته وهو من الإيمان بالله تعالى لتعلقه بالجلال والكمال، والزهد الذى قبله مراد لغيره وهو فراغ القلب لهذه المعرفة، والقدر الواجب من الزهد المراد لغيره ما يحث على الفراغ لأوقات الواجبات والزهد لا يتعلق إلا بالمباح. ومن شرطه أن يكون مقدوراً عليه.

وأما ثمرته: فهو الإيثار وهو أعلى درجات السخاء، لأن السخاء هو بذل ما لا يحتاج إليه سمحًا لا تكلفًا، والإيثار هو بذل ما هو محتاج إليه سمحًا بغير عوض ولا غرض إلا لتخلقه بأخلاق الله سبحانه وتعالى.

وأما **الفتوة**: فهى ترجع إلى أخلاق المروءة، فمن قام بواجب الشرع وواجب المروءة فهو الفتى، ومن شارك أبناء الدنيا فيما هم فيه فلا فتوة له ولا مروءة. وأما مقام المراد، فهو الذى وقف على حقيقة الأمر بغير منازع ولا مدافع ولم يشغله عن الله تعالى شىء والله أعلم.

الباب الثلاثون
فى بيان المحاسبة، ولواحقها الاعتصام والاستقامة، لأنهما الثمرة المقصودة

أما المحاسبة فحقيقتها تفقد ما مضى وما يستقبل وهى واجبة بإجماع الأمة. أماالعلم الحامل عليها: فهو الإيمان بمحاسبة الله تعالى. وهذه المحاسبة توجب الاعتصام والفرق بين الاعتصام والاستقامة أن الاعتصام هو التمسك بكتاب الله تعالى والحفظ لحدوده والاستقامة هى الثبات والاعتدال عن الميل إلى طرفى الأمر المعتصم به والاستقامة مرادة لذاتها ولغيرها. أما كونها لذاتها فلأنها وسيلة إلى الدخول فى مقام الجمع من وادى التفرقة، والله تعالى أعلم.

الباب الحادى والثلاثون
فى بيان الشكر، ولواحقه السرور، لأنه من أحواله والحكمة لأنها من أعماله

أما العلم الذى هو سبب الشكر: فهو أن تعلم أن النعم كلها من الله تعالى وحده. وهذا واجب، لأنه من الإيمان بالله تعالى قال الله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ [النحل: ٥٣]. وشكر المنعم واجب وهو من الإيمان. وأما الحال الناشىء عن هذا العلم فهو الفرح والسرور بأنعم الله فهذا الفرح شكر بنفسه، لأنه مراد لذاته وهو واجب لأنه من الإيمان بالله تعالى وهو ثمرة الإيمان بالله تعالى. وأما عمل الشكر: مراد لذاته ولغيره أما كونه مرادًا لذاته فلأن العمل باستعمال النعمة فيما خلقت له من تمام الحكمة. وأما كونه مرادًا لغيره فلحفظ النعم الموجودة والزيادة عليها. وعلى الجملة، فالشكر هو استعمال النعمة فيما خلقت له فمن اعتدلت له أحواله حتى وضع كل شىء موضعه كان حكيمًا لأن الحكمة وضع كل شىء محله علمًا كان أو عملاً وبالله التوفيق.

الباب الثانى والثلاثون
فى بيان التوكل ولواحقه التفويض والتسليم والثقة والرضى لأنهن من آدابه

أما العلم الحامل على التوكل: فهو أن تعلم أن الله قائم بنفسه وأنه مقيم لغيره. ثم تعلم سعة علمه وحكمته وكمال قدرته.

وأما الحال الناشىء عن هذا العلم: فهو اعتماد القلب على الله تعالى وسكونه، وعدم اضطرابه لتعلقه بالله تعالى، ولا يجب على من علم التوكل وحاله إلا ما يكف عن الأسباب المحظورة. والتوكل مع شرفه منخفض الرتبة عن التفويض والتسليم، لأن غايته طلب جلب النفع ودفع الضر، والتفويض والتسليم حقيقتهما الانقياد والإذعان للأمر وترك الاختيار فى جملة ما حكم الله تعالى به.

وأما الثقة: فمعناها الربط على القلب وعدم الانفصام على ما حواه من التصديقات وهى حالة مكملة لجميع المقامات والأحوال.

وأما الرضى: فإنما يكون بعد المقضى به، والتفويض والتسليم يكون قبل المقضى به والقدر الواجب من الرضى هو أن يكون راضيًا بعقله وإن كان كارهًا بطبعه، لأن الكراهية لا تدخل تحت اختيار العبد، فمن كره بعقله شيئًا مما امتحن الله تعالى به عباده فى الدنيا والآخرة أو شكا بلسانه أثم وخرج عن واجب الرضى وبالله التوفيق.

الباب الثالث والثلاثون
فى بيان النية ويضاف إليها القصد والعزم والإرادة لأنهن من توابعها

فأما النية: فهى الوسيلة بعد الإيمان إلى السعادة العظمى فى الأولى والعقبى، فإذا عرفت هذا وجب عليك فهم حقيقتها أو تحصينها مما يشوبها من الحظوظ الدنيوية وجوبًا وعن الأغراض والأعواض الأخروية استحبابًا. فأما النية: فهى عبارة عن تمييز الأغراض بعضها عن بعض. فأما القصد: فهو جمع الهمة نحو الغرض المطلوب والعزم هو تقوية القصد وتنشيطه، والإرادة تصرف الموانع المثبطة.

الباب الرابع والثلاثون
فى بيان الصدق، ويضاف إليه الانفصال والاتصال والتحقيق والتفريد. لأنهن من علاماته

أما الصدق فى حق الله تعالى، فهو وصف ذاتى راجع إلى معنى كلامه.

وأما الصدق فى وصف العبد: فهو استواء السر والعلانية والظاهر والباطن، وبالصدق يتحقق جميع المقامات والأحوال حتى أن الإخلاص مع جلالته يفتقر إلى الصدق والصدق لا يفتقر إلى شىء، لأن حقيقة الإخلاص فى العبادة هو إرادة الله تعالى بالطاعة، فقد يراد الله تعالى بالصلاة مثلاً ولكنه غافل من حضور القلب فيها والصدق هو إرادة الله تعالى بالعبادة، مع حضوره مع الله تعالى فكل صادق مخلص وليس كل مخلص صادقًا. وهذا معنى الانفصال والاتصال، لأنه انفصل عن غير الله تعالى واتصل بالحضور بالله تعالى.

وأما التحقيق: فهو تميز المقامات والأحوال بعضها من بعض وتخليصها من الأغيار والشوائب.

وأما التفريد: فهو وقوف العبد مع الله تعالى بلا علم ولاحال لشهوده تفرد الله تعالى بإيجاد كل موجود وشمول قدرته كل مقدور.

الباب الخامس والثلاثون
فى بيان الرضى

قال الحارث: الرضى سكون القلب تحت جريان الحكم. وقال ذو النون: الرضى سرور القلب بمر القضاء. وقال رسول ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإيمان مَنْ رَضِى بالله رَبًّا**». وقال عليه السّلام: «**إنَّ الله بحكمَته جَعَلَ الرُّوحَ فى الرضى وَاليَقين، وَجَعَلَ الهَمَّ وَالحُزْنَ فى الشَّكِّ وَالسخْط**». وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا، وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فإنهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة، لأنه فى الجنة لايستغنى عن الرضا والمحبة. وقال ابن عطاء: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط، وقال أبو تراب: ليس ينال الرضا من الله من الدنيا فى قلبه مقدار. وقال سرى: خمس من أخلاق المقربين الرضا عن الله تعالى،فيما تحب وتكره والحيلة بالتحبب إليه، والحياء من الله تعالى، والأنس به، والوحشة فيما سواه. وقال الفضيل: الرضا أن لا يتمنى فوق منزلته شيئًا. وقال ابن سمعون: الرضى بالحق والرضى به والرضا عنه الرضى به مدبرًا ومختاراً والرضى عنه قاسمًا ومعطيًا، والرضى له إلهًا وربًّا.

سئل أبو سعيد: هل يجوز أن يكون راضيًا ساخطًا؟ قال: نعم يجوز أن يكون راضيًا عن ربه ساخطًا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله تعالى.

وقال بعضهم للحسن بن على رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إِلىَّ من

الغنى، والسقم أحب إلىَّ من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختارها الله.

وقال على عليه السلام: من جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله فى كل حال. وقال: الشلبى: بين يدى الجنيد: لاحول ولا قوة إلا بالله قال قولك هذا إذا ضيق صدر. فقال: صدقت فقال: ضيق الصدر ترك الرضى بالقضاء، وهذا قاله الجنيد تنبيهًا منه على أصل الرضى، وذلك لأن الرضى يحصل لانشراح القلب وانفساحه وانشراح القلب من نور اليقين، فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتح عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والضجر، لأن انشراح القلب يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بوقوع الرضى عند المحب الصادق، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده. كما قيل: وكل ما يفعل المحبوب محبوب فالقوم يكرهون خدمة الأغيار ويأبون مخالطتهم أيضًا. فإن من لا يحب طريقهم ربما استضر بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع بهم.

ورد فى الخبر: المؤمن مرآة المؤمن. فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة نافروه، لأن التفرقة تظهر بظهور النفوس وظهور النفوس من تضييع حق الوقت. فأى وقت ظهرت نفس الفقير علموا خروجه من دائرة الجمعية وحكموا له بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية فيعاد بالمناقشة إلى دائرة الجمعية.

الباب السادس والثلاثون
فى بيان النهى عن الغيبة

قال الله عزّ وجلّ: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾ [الحجرات: ١٢].

وعن أبى هريرة ﵁: أن رجلاً كان عند رسول الله ﷺ فقام النبى ﷺ ولم يقم الرجل، فقال بعض القوم: ماأعجز فلانًا، فقال: «**أَكَلْتُمْ لَحْمَ أَخِيكُمْ وَاغْتَبْتُمُوهُ**».

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السَّلاَم: «**من مات تائبًا من الغيبة فهو آخر رجل يدخل الجنة، ومن مات مصرًا عليها فهو أول من يدخل النار**».

وقيل: دعى إبراهيم بن أدهم إلى دعوة فحضر فذكروا رجلاً لم يأتهم بالغيبة.

فقال إبراهيم: إنما فعل بى هذا نفسى حيث حضرت موضعًا يغتاب فيه الناس فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام.

وقيل: مثل الذى يغتاب الناس كمثل من نصب منجنيقًا يرمى به حسناته شرقًا وغربًا.

وقيل: يؤتى العبد يوم القيامة كتابه فلا يرى فيه حسنة. فيقول : أين صلاتى وصيامى

وطاعتى؟ فيقال: ذهب عملك باغتيابك النـاس، وقيل: من اغتيب بغيبة غفر الله له نصف ذنوبه.

وقيل: يعطى الرجل كتابه بيمينه فيرى فيه حسنات لم يعملها، فيقال: هذا بما اغتابك الناس وأنت لم تشعر.

وقيل للحسن البصرى: إن فلانًا اغتابك فبعث إليه طبقًا فيه حلوى وقال: بلغنى أنك أهديت إلىَّ حسناتك فكافأتك.

وعن الجنيد قال: كنت ببغداد فى مكان أنتـظر جنازة أصلى عليها فلقيت فقـيرًا عليه أثر النسك يسأل الناس، فـقلت فى نفسى: لو عمل هذا عـملاً به يصون نفســه كان أجمل به. فلما انصرفت إلى منزلى وكان لى شىء من الورد بالليل فلمـا قضيته ونمت رأيت ذلك الفقير جاءوا به على خوان ممدود، وقالوا لى: كل لحمـه فقد اغتبته فكشف لى عن الحال، فقلت: ما اغتبته إنما قلت فى نفـسى. فقيل: ماأنت ممن يرضى منك بمثله اذهب واستحلله فأصبـحت ولم أزل أتردد حتى رأيته يلتـقط من الماء أوراقًا من البقل مما يتسـاقط من غسل البقل، فسلمت عليه، فقال: يا أبا القاسم تعود؟ فقلت: لا، فقال: غفر الله لنا ولك .

الباب السابع والثلاثون
فى بيان الفتوة

الفتى من تخلى عن تدبير نفسه وماله وولده ووهب الكل لمن له الكل بل ليس له ما يهب فإنها ذهبت فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم**﴾ [التوبه: ١١١]. تخلق بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠]. ما ترك العدل والإحسان من طاعـة الله تعالى شيئًا إلا جمعـه، وما ترك الفحشاء والمنكر من مـعصية الله تعالى شيئًا إلا جمعه. فتوة العامة بالأموال، وفتوة الخاصة بالأموال والأفعال، وفتوة خاص الخواص بهما وبالأحـوال، وفتوة الأنبياء بهمـا وبالأسرار، وهو الذى ليس فى باطنه دعوى ولا فى ظاهره تصنع ومراءاة، وسره الذى بينه وبين الله تعالى لا يطلع عليه صدره، فكيف الخلق. ومن شـأن الفتى النظر إلى الخلـق بعين الرضى وإلى نفســه بعين السخـط ومعـرفة حقوق مـن هو فوقه ومثله ودونه ولا يتـعرض لإخوانه بزلة أو حقـرة أوكذب، وينظر إلى الخلق كأنهم أولياء غـير مستقـبح منهم إلا ما خالف الشرع مع أن ذلك ينسـبه إلى الشيطان ذنبًا لا إلى أخيه المسلم. فكيف إلى الله عزّ وجلّ مع أنه يغيـره بيده، فإن لم يستطع فبقلبه والإياس من الخلق وترك السـؤال والتعـريض وكتـمان الفقـر وإظهار الغنى وتـرك الدعوى وكتمان المعنى واحتمال الأذى، وأن يؤثر مراد غيره على هواه خلقًا وفعلاً، وأن لا يزال فى

حاجة غيره ويعطى بلا امتنان ولا يطالب أحدًا بواجب خقه ويطالب نفسه بحقوق الناس ويرى الفضل لهم ويلزم نفسه التقصير فى جميع ما يأتى به، ولا يستنكر ما يأتى به، ومن شأن الفتى ترك كل ما للنفس فيه حظ، ويستوى عنده المدح والذم من العامة، ومن شأنه الصدق والوفاء والسخاء والحياء وحسن الخلق وكرم النفس وملاطفة الإخوان ومجانبة سماع القبيح من ٱلأصدقاء، وكرم العهد بالوفاء والتباعد عن الحقد والحسد والغش، ومن شأنه الحب والبغض فى الله والتوسعة على الإخوان من ماله وجاهه إن أمكنه. وترك الامتنان عليهم بذلك وصحبة الأخيار ومجانبة الأشرار، ويكون خصمًا على نفسه لربه ولا يكون له خصمًا غيرها فيجتهد فى كسر هواها، لأنه قيل: الفتى من كسر الأصنام وهى صنم الإنسان.

ومن شأن الفتى أن لا ينافر فقيرًا لفقره، ولا يعارض غنيًّا لغناه، ويعرض عن الكونين، ويستوى عنده المقيم والطارئ، ومن يعرف ومن لا يعرف، ولا تميز بين الولى والكافر من جهة الأكل، ولا يدخر ولا يعتذر ويظهر النعمة ويسر المحبة وإذا كان فى عشرة فلا يتغير إن كان ما أتى به عشيره أقل أو أكثر، وأن لا يحمرّ وجه أحد فيما لم يندبه الشرع إليه. ولا يربح على صديق وما خرج عنه لا يرجع فيه وإن أعطى شكر وإن منع صبر، بل إن أعطى آثر وإن منع شكر الفتوة أن لا يشتغل بالخلق عن الحق، وفتوة العارف بمعروفه، وفتوة غيره بمعتاده ومألوفه.

فصل فى السخاء

السخاء: تقديم حظوظ الإخوان على حظك مطلقًا دنيويًّا وأخرويًّا والمبادرة إلى الإعطاء قبل السؤال وترك الامتنان بما أعطى وتعجيله وتصغيره وتستيره ،بل بذل النفس والروح والمال على الخلق على غاية الحياء، وأن يكره أن يرى ذلّ السؤال فى وجوه المسلمين وسخاء النفس بما فى أيدى الناس أكبر من سخائها وبالبذل ومروءة القناعة، والرضى أكبر من مروءة العطاء وأكبر من ذلك كله السخاء بالحكمة.

الباب الثامن والثلاثون
فى بيان مكارم الأخلاق

قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

معناه تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك. وتصل من قطعك، وتعرض عمن جهل عليك، وتحسن إلى من أساء إليك، فكان ﷺ مبعوثًا بمكارم الأخلاق يقول: « **اللهم**

اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». ومن السخاء إفشاء السَّلام. وإطعام الطعام، وصلة الأرحام، والصلاة بالليل والناس نيام، ونيل المكارم باجتناب المحارم. مكارم الأخلاق من أعمال أهل الجنة قول لطيف يتبعه فعل شريف. مكافأة المحسن بأكثر من إحسانه. صاحب مكارم الأخلاق هو الذى لا يحوجك أن تسأله ولايزال يعتذر ضد اللئيم الذى لا يزال يفتخر، والتغافل عن زلل الإخوان والمسارعة إلى قضاء حوائجهم، وطرح الدنيا لمن يحتاج إليها.

الباب التاسع والثلاثون
فى بيان القناعة

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. قال كثير من المفسرين: الحياة الطيبة فى الدنيا القناعة: والقناعة موهبة من الله عزّ وجلّ. وقال رسول الله ﷺ: «**القناعة كنز لا يفنى**». وعنه عليه الصلاة والسَّلام: «**من أراد صاحبًا فالله يكفيه. ومن أراد مؤنسًا فالقرآن يكفيه، ومن أراد كنزًا فالقناعة يكفيه، ومن أراد واعظًا فالموت يكفيه، ومن لم يكفه هذه الأربع فالنار تكفيه**». وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كن ورعًا تكن أعبد الناس، وكن قنعًا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلمًا، وأقل من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**». وقيل فى قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج: ٥٨]. يعنى القناعة.

وقال وهب: إن العز والغنى خرجا يجولان فلقيا القناعة فاستقرا فيها.

وفى الزبور: «القانع غنى وإن كان جائعًا». وفى التوراة: «قنع ابن آدم فاستغنى اعتزل الناس فسلم، ترك الحسد فظهرت مروءته، تعب قليلاً فاستراح طويلاً». وقيل: وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع: «العز فى الطاعة، والذل فى المعصية، والهيبة فى قيام الليل، والحكمة فى البطن الخالى، والغنى فى القناعة».

وقال بعضهم: انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص. وقيل: من تعبت عيناه إلى ما فى أيدى الناس طال حزنه. وقيل: إن أبا يزيد غسل ثوبه فى الصحراء مع صاحب له فقال له صاحبه: نعلق الثياب فى جدران الكروم فقال: لا تغرز الوتد فى جدران الناس، فقال: نعلقه فى الشَّجر. فقال لا، لأنه يكسر الأغصان. فقال: نبسطه على الحشيش. فقال لا، علف الدواب، ثم ولَّى بظهره للشمس والقميص على ظهره حتى جفّ جانبه، ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر.

الباب الأربعون
فى بيان السائل

من سأل وعنده قوت يومه فقد قطع الطريق على الضعفاء والمساكين، من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه فى قلبه وجمع شمله وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله تعالى الفقر بين عينيه وشتت شمله وأمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب له، ومن جعل الهموم همًّا واحدًا كفاه الله هم الدنيا والآخرة، ومن تشعبت عليه الهموم لم يبال الله تعالى فى أى أوديتها هلك، جميع الدنيا من أولها إلى آخرها ما تساوى غم ساعة، فكيف بعمرك القصير مع قليل يصيبك منها، من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه ووسعه عليه من اكتفى عن السؤال فقد أعطى خير النوال، من احتجت إليه هنت عليه. إذا أردت أن تعيش حرًّا فلا تلزم مؤنة نفسك غيرها والزم القناعة، كيف يليق بالحر المريد أن يتذلل للعبيد وهو يجد عند مولاه كل ما يريد، ولو يعلم الناس ما فى المسألة ما سأل أحد شيئًا. ولو يعلم الناس ما فى حق السائل ما حرموا من سألهم أبدًا، لو صدق السائل ما قدس من رده. ما من رجل سأل رجلاً حاجة فقضاها أو لم يقضها إلا غار ماء وجهه أربعين يومًا.

الباب الحادى والأربعون
فى بيان الشفقة على خلق الله تعالى

اعلم أن الشفقة على خلق الله تعالى تعظيم لأمر الله تعالى، وذلك أن تعطيهم من نفسك مايطلبون وأن لا تحملهم ما لايطيقون، وأن لا تخاطبهم بما لا يعلمون، ولا بما يعلمون، وأن يسرك ما يسرهم،وأن يحزنك ما يحزنهم وفكرك فى كيفية تحصيل منفعتهم الدينية والدنيوية إليهم، وكيفية دفع ما يضرهم فى دينهم ودنياهم حتى لو سقط الذباب على وجه أحدهم لوجدت لها ألمًا في قلبك ، وأن تكون لأن تحفظ قلب مؤمن شرعًا أحب إليك من كذا وكذا حجة وغزوة ، وأن تختار عز أخيك على عزك وذل نفسك على ذل أخيك.

الباب الثانى والأربعون
فى بيان آفة الذنوب

طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه، قيل: أعظم الذنوب من ظلم من لم يعرفه ولم يره.

من أطاع الله تعالى سخر له كل شىء، ومن عصاه سخره لكل شىء وسلط عليه كل شىء، لو لم يكن فى الإصرار على الذنب من الشؤم إلا أن يكون كل ما يصيبه فهو عقوبة من سعة أو من ضيقة أو صحة أو سقم لكان كافيًا، ولو لم يكن فى ترك المعصية إلا ضد ذلك لكان كافيًا. إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. ليست اللعنة سوادًا فى الوجه أو نقصًا فى المال إنما اللعنة فى أن لا يخرج من ذنب إلا وقع فى مثله أو شر منه. لا تكن فى التوبة أعجز منك فى الذنب ما أنكرت من تغير الزمان والإخوان والزوجات، فالذنوب أورثت ذلك حتى فى خلق الدابة وفأر البيت، ونسيان القرآن، أوشىء من العلم، أو نقل تلاوته من الأحرار، والعقوبة موضوعة للشدة والمشقة ، فعقوبة كل من حيث يشترك حتى الاحتلام وقد تكون عقوبة الذنب ذنبًا مثله إذا عظم كثواب الطاعة. ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الباب الثالث والأربعون
فى صفة صلاة أهل القرب

إذا دخلت فى الصلاة فانس الدنيا وأهلها وأقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة، واذكر وقوفك بين يدى الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك تناجيه وتعلم بين يدى من أنت واقف فإنه الملك العظيم.

وقيل لبعضهم: كيف تكبر التكبيرة الأولى؟ فقال: ينبغى إذا قلت: الله أكبر أن يكون مصحوبك فى الله التعظيم مع الألف. والهيبة مع اللام والمراقبة والفرق مع الهاء.

واعلم أن من الناس من إذا قال الله أكبر غاب فى مطالعة العظمة، وصار الكون بأسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بأرض فلاة، ثم يلقى الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس وما يتخايل فى الباطن هو من الكون الذى صار بمنزلة الخردلة وألقيت فكيف تزاحم الوسوسة مثل هذا العبد، والله تعالى أعلم.

جعلنا الله وإياكم من عباده المقربين وعلمائه العاملين وأصفيائه المخلصين، وصلى اللَّه على سيدنا محمد خاتم النبيين وقائد الغر المحجلين، وعلي آله وصحبه المقربين وأزواجه الطيبين الطاهرين وذريته المخلصين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، والحمد للَّه رب العالمين.

قواعد العقائد
فى
التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد، ذى العرش المجيد والبطش الشديد، الهادى صفوة العبيد، إلى المنهج الرشيد، والمسلك السديد، والمنعم عليهم بعد شهادة التوحيد، بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى ﷺ، واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، وهو أنه فى ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، منفرد لا ند له، وأنه واحد قديم لا أول له، أزلى لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدى لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفًا بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال. بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم.

التنزيه: وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر. وأنه لا يماثل الأجسام فى التقدير ولا فى قبول الانقسام. وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجودًا ولا يماثله موجود، ليس كمثله شىء، ولاهو مثل شىء، وأنه لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ، ولا السموات وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله، وبالمعنى الذى أراده استواء منزهًا عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال. لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى. فوقية لا تزيده قربًا إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بعدًا عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شىء شهيد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لايحل فى شىء ولايحل فيه شىء، تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان وأنه بائن من خلقه

بصفاته، ليس فى ذاته سواه ولا فى سواه ذاته، وأنه مقدس عن التغيير والانتقال لا تحله الحوادث ولاتعتريه العوارض، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزهًا عن الزوال به، وفى صفات كماله مستغنيًا عن زيادة الاستكمال، وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئى الذات بالأبصار نعمة منه، ولطفًا بالأبرار فى دار القرار، وإتمام للنعم بالنظر إلى وجهه الكريم.

الحياة والقدرة: وأنه تعالى حى قادر، جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت، له السلطان والقهر والخلق والأمر، والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون فى قبضته، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا يشذ عن قبضته مقدور. ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.

العلم: وأنه عالم بجميع المعلومات محيط علمه بما يجرى فى تخوم الأرضين إلى أعلى السموات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فى الأرض ولا فى السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر فى جو الهواء، ويعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفًا به فى أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال.

الإرادة: وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أوضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان طاعة أوعصيان إلابقضائه وقدره وحكمته ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد، لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد من معصيته إلا بتوفيقه ورحمته. ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته، فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته، لم يزل كذلك موصوفًا بها مريدًا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها فوجدت فى أوقاتها كما فى أزله من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

السمع والبصر: وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع

وإن خفى، ولا يغيب عن بصره مرئى وإن دق، ولا يحجب سمعه بعد، ولا يدفع رؤيته ظلام. يرى من غير حدقة وأجفان، ويسمع من غير أصمخة وآذان، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

الكلام: وأنه تعالى متكلم آمر ناهٍ واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات كان حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا متكلمًا بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات.

الأفعال: وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته ولا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكًا حتى يكون تصرفه فيه ظلمًا، فكل ما سواه من إنس وجن وشيطان وملك وسماء وأرض وحيوان ونبات وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس: حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعًا، وأنشأه بعد أن لم يكن شيئًا، إذ كان فى الأزل موجودًا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد إظهارًا لقدرته وتحقيقًا لما سبق من إرادته وحق فى الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته، وأنه تعالى متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، له الفضل والإحسان والنعمة والامتنان. إذا كان قادرًا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك لكان منه عدلاً ولم يكن قبيحًا ولا ظلمًا، وأنه يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم إذ لا يجب عليه فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق، وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة، فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به، وأنه تعالى بعث النبى الأُمِّى القرشى محمدً ﷺ برسالته إلى كافة العرب

والعجم والجن والإنس فنسخ بشرعـه الشرائع إلا ماقرر، وفضله على سائر الأنبـياء وجعله سيد البشر ومنـع كمال الإيمان بشهادة التوحيد، وهى: قول لا إله إلا الله مـا لم يقترن بها شهادة الرسول، وهى مـحمد رسول الله فألزم الخلق تصديقه فى جمـيع ماأقر به من الدنيا والآخرة، وأنه لا يقـبل إيمان عبـد حتى يوقن بما أخـبر عنه بعد الموت، وأولـه سؤال منكر ونكير. وهما شخصان مهيـبان هائلان يقعدان العبد فى قبره سويًّا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ وهمـا فتانا القبر وسؤالهما أول فتنة للقـبر بعـد الموت، وأن يؤمن بعذاب القبـر، وأنه حق وحكمه عـدل على الجسم والروح على ما يشاء، ويوقن بالميزان ذى الكفتين واللسان، وصفته فى العظم أنه مثل طباق السموات والأرضين توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيـقًا لتمام العدل، وتطـرح صحائف الحسنات فى صورة حـسنة فى كفة النور فيـثقل بها الميزان على قـدر درجاتهـا عند الله بفضل الله تعالى، وتطرح صـحائف السـيئات فى كـفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى، وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جـهنم أحد من السـيف وأدق من الشعـرة تزل عليه أقـدام الكافرين بحكم الله تعـالى فيـهوى بهـم إلى النار، وتثبت عليـه أقدام المؤمنين فـيسـاقون إلى دار القـرار، وأن يؤمن بالحوض المورود: حوض محمد ﷺ يشرب منه المؤمن قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، عرضه السماء، فيه ميزابان يصبان الكوثر، ويؤمن بيوم الحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقـش فى الحساب وإلى مسامح فيه، وإلى من يدخل الجنة بغير حسـاب، وهم المقربون فيسأل من شاء من الأنبيـاء عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين، ويسأل المبدعين عن السنة، ويسأل المسلمين عن الأعمال، ويؤمن بإخراج الموحـدين من النار بعد الانتـقام حتى لا يبـقى فى جهنم موحـد بفضل الله تعالى، ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين كل على حسب جاهه ومنزلته، ومن بقى من المؤمنين ولـم يكن له شفيع أخرج بفـضل الله تعالى، ولا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان، وأن يعتقد فضل الصحابة ورتبتـهم، وأن أفضل الناس بعـد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمـر، ثم عثـمان، ثم على ﷺ، وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويـثنى عليهم كما أثنى الله تعالى ورسوله ﷺ عليهم أجمعين، فكل ذلك مما وردت به السنة وشهدت الآثار، فمن اعتقد جميع ذلك موقنًا به كان من أهل الحق وعصابة السنة، وفارق رهط الضلال والبـدعة. فنسأل الله تعالى كمال اليقين، والثبات فى الدنيـا لنا ولكافة المسلمين إنه أرحم الراحمين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

خلاصة التصانيف فى التصوف

خطبة الكتاب

الحمد لله الذى أودع لطائف أسراره قلوب العارفين، وجعل البيان طريقًا لوصولها إلى المسترشدين والصلاة والسلام على أفصح الأنبياء لسانًا وأوضحهم بيانًا، وعلى آله وصحبه الهادين، وعلى جميع علماء شريعته العاملين.

أما بعد: فيقول المستعين بربه المبين الفقير إليه، (محمد أمين) الشافعى مذهبًا، النقشبندى مشربًا، الكردى نسبة، الإربلى بلدة، الأزهرى إقامة: إنه قد أظفرنى الله وله الحمد بدرة غريبة، من العلوم الإلهية، موحشة بوشاح اللغة الفارسية. فاحتجبت عمن ليس له إلمام بها وهو من أنفس تصانيف العالم العلامة والبحر الفهامة، حجة الإسلام الشيخ محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى صاحب (كتاب الإحياء) وهو الغنى عن التعريف قدس الله سره، وأفاض على المسلمين بره، فرأيت من نصيحة المسلمين، وخدمة الدين، أن أستعين بالله على ترجمتها من (الفارسية إلى العربية) مع رقة اللفظ وجزالة المعنى وسهولة المبنى كى ينتفع بها الخاص والعام. والله أسأل أن يمن علينا بالفوز بدار السلام. قال ناقلها الفارسى فى بيان سبب تأليف الأستاذ لهذه الرسالة الموسومة (بخلاصة التصانيف) بعد الثناء على الله تعالى وما يتصل به ما هذا ترجمته:

أما بعد: فقد كان رجل من تلامذة حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله سره العالى قد تعب فى تحصيل العلوم مدة من السنين حتى حاز من كل فن نصيبًا وافرًا ففى ذات يوم صار يتفكر فى نفسه ويقول : إنى قد أتعبت نفسى مدة طويلة فى تحصيل العلوم، والآن لا أدرى أى علم أنفع لى منها ليكون سببًا لهدايتى ويقودنى فى عرصات القيامة. ولا أدرى أيضًا غير النافع منها حتى أتباعد وأحترز منه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**نَعُوذُ بالله منْ علم لا يَنفَعُ**». وما زالت هذه الفكرة تغلب عليه حتى حملته على أن يكتب إلى شيخه كتابًا يستفتيه فيه عن قصته هذه ومسائل أُخرى. ويطلب منه مع ذلك النصيحة والدعاء.

قال فيه: مولاى إن كان الطريق إلى جوابى مدونًا فى كتبك العديدة كإحياء العلوم، وكيمياء السعادة وجواهر القرآن وميزان العمل والقسطاس المستقيم ومعراج القدس ومنهاج العابدين وأمثالها. فإن خادمك ضعيف كليل الطرف عن المطالعة فيها، فأطلب من سيدى وأستاذى مختصرًا أقرؤه كل يوم وأعمل بما فيه إلى آخر ما قال، فكتب الشيخ فى رده الكتاب الآتى وأرسله إليه وهو قوله ﷺ.

اعلم أيها الولد العزيز، والصاحب المخلص أطال الله بقاءك فى طاعته وسلك بك طريق أحبابه. أن جميع نصائح الأولين والآخرين مجموعة فى أحاديث سيد المرسلين ﷺ لأنه هو الذى أوتى جوامع الكلم، فكل ناصح مهما نصح فهو متطفل على موائد نصحه ﷺ : (فإن وصلك شيء من النصائح النبوية فلا حاجة لك إلى نصائحى. وإن لم يصل إليك شيء منها فقل لى ما الذى حصلته من علومك فيما أمضيته من عمرك الذى ضيعته سدى).

أيها الولد: كل نصائح الأولين والآخرين فى مقالات سيد المرسلين مكتوبة للعالمين، وكل منها يفيد فائدة تامة. فمنها هذا الحديث وهو: «**عَلامَةُ إعْرَاضِ الله عَنِ العَبْد اشْتغَالُه بمَا لا يَعْنيه، وَإنَّ امْرأً ذَهَبَتْ سَاعَةٌ منْ عُمُرِه في غَيرِ مَا خُلقَ لَهُ لَجَدير أَنْ يَطولَ عَلَيْه حَسْرتَه، وَمَنْ جَاوَزَ الأرْبَعينَ وَلَمْ يَغْلَبْ خَيْرهُ شَرّهُ فَلْيَتَجَهزْ إلى النَّار**». فهذه النصيحة والموعظة كافية لأهل الدنيا.

ياولدى: فعل النصيحة سهل والصعوبة فى قبولها والعمل بها لأن طعم النصيحة فى فم عابد الهوى مر والمنهيات محبوبة على العموم. خصوصًا عند من يبذل همته فى طلب علوم الرسم والفضل والمهارة ونحوها لاكتساب العزّ والشرف الدنيوى لأنه إنما يقصد بتحصيل العلوم مجرد العلم دون العمل له لينسب إليه العلم ويقال: فلان عالم فاضل فهذه عقيدة فاسدة وهذا القدر هو (نهاية مذهب الفلاسفة) والعياذ بالله إذ غايتهم تحصيل العلم بدون التفات إلى العمل، ولم يعلموا أن العلم يكون عليهم حجة بالغة وهم فى غفلة عن قوله ﷺ : «**إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**» .

وروى الإمام أحمد والبيهقى عن منصور بن زاذان قال: «بلغنا أن العالم إذا لم ينتفع بعلمه تصيح أهل النار من نتن ريحه ويقولون له: ماذا كنت تفعل يا خبيث، فقد آذيتنا بنتن ريحك. أما يكفيك ما نحن فيه من الأذى والشر؟ فيقول لهم: كنت عالمًا فلم أنتفع بعلمى».

وحكى أن بعض أكابر أصحاب الجنيد رآه فى نومه بعد وفاته فقال: مافعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفذت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركيعات، كنا نركعها فى جوف الليل.

أيها الولد: ينبغى أن لا تكون مفلسًا من الأعمال خاليًا من الأحوال والمعانى الشريفة العالية، واعلم يقينًا أن العلم بمجرده لا يأخذ بيدك يوم القيامة ويتضح لك هذا بضرب مثال، أرأيت لو أن رجلاً يحسن الحرب بينما هو يسير فى مفازة ومعه عشرة سيوف هندية وقسى وسهام فى غاية الجودة، وقد تقلد بها إذ فاجأه أسد عظيم هل تدفع عنه هذه

الأسلحة بمجردها من شر الأسد شيئًا، أنت على يقين تام بأنها لا تغنى عنه شيئًا حتى يستعملها فيما قصد منها، فكذلك لو أن شخصًا علم مائة ألف مسألة ولم يعمل بواحدة، فأنت تعلمْ أن هذا العلم لايفيده فائدة ما. ولنضرب لك مثالاً آخر فنقول: لو أن شخصًا به مرض وضعف من الحرارة والصفراء وعلم علمًا ليس معه شك أن شفاءه فى تناول السكنجبين ولكنه لمْ يتناوله، فهذا العلم ليس بنافع فى الشفاء ولا دافع للداء حتى يعمل به:

لوكِلتَ ألفى رطل خمرٍ لم تكن
لتصير نشوانًا إذا لم تشربِ

فاعلم أنه لا يفيدك كثرة تحصيل العلم وجمع الكتب ما لم تعمل.

ياولدى: إن لم تكن مستعدًا لائقًا لرحمة الإله عزّ وجلّ بالعمل الصالح لم تصل إليك رحمته. واسمع الدليل من القرآن: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩].

ياولدى: إن ظننت أن هذه الآية منسوخة فماذا تقول فى قوله تعالى فى آيات أخرى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ [الكهف: ١١٠]. وفى قوله: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الواقعة: ٢٤]. وفى قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]. وفى قوله: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ [الفرقان: ٧٠]. وماذا تقول فى حديث: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**». وفى حديث: «**الإِيمَانُ إِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ وَتَصْدِيقٌ بِالْجَنَانِ وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ**». والدلائل على أن سلامة العبد بالعمل كثيرة لا تعد ولا تحصى. فإن خطر لك من كلامى أن العبد يدخل الجنة بعمله لا بفضل الله ورحمته فما فهمت كلامى!

واعلم أنى لا أقول ذلك بل أقول إن العبد يدخل الجنة بفضل الله وكرمه ورحمته، غير أن رحمة الله تعالى لا تصل إلى العبد إلا إذا كان مستعدًا لها ولائقًا لأن يكون محلاً لها ولا يكون كذلك إلا بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات وملازمة الطاعات والقرب والإخلاص فى العمل كما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٦]. حيث أخبر تعالى بقرب رحمته من المحسنين، وقد قال ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، فهو يفيد بعد رحمته من غير المحسنين. فإن لم تكن مستعدًا لرحمته على الوجه المذكور لا تصل إليك رحمته، وإذا لم تصل إليك رحمته لا تدخل الجنة، فإن قال أحد إن العبد يدخل الجنة بمجرد الإيمان. قلنا: نعم. ولكن حتى

يذوق صعوبة العقبات التى لا يسهلها إلا صالحات الأعمال إذ لا يصل العبد إليها إلا بالعبور على الصراط، وما مشينا عليه إلا على صورة مشينا على الصراط المعتوى فى هذه الدار وما اختلف الناس فى السرعة والبطء إلا باختلافهم هنا فى المبادرة إلى الطاعة والتخلف عنها، فمن تحفظ هناك حفظ هناك ومن أبطأ هنا زلت به قدمه هناك، كما أن شربنا من حوض النبى ﷺ يكون بقدر تضلعنا من الشريعة المطهرة، وإذًا فمعنى كون دخول الجنة بفضل الله أن يوفقك الله لصالح العمل بفضله لتكون صالحًا ومتهيئًا لرحمته وفضله فيدخلك الجنة.

ياولدى: اعلم يقينًا أنك إن لم تعمل لم تأخذ أجرة العمل.

وحكى أن عبداً من بنى إسرائيل عبد الله مخلصًا سنين عديدة فأراد البارئ جل وعلا أن يظهر إخلاصه للملائكة فبعث الله ملكًا يخبره أن الله تعالى يقول: إلى متى تسعى هذا السعى وتتعب نفسك فى العبادة، وأنت من أهل النار؟ فأخبره الملك بما قاله المولى. فقال العبد فى جوابه: أنا عبد، وشأن العبد العبودية وهو إله، وشأن الألوهية لا يعلمه إلا هو. فرجع الملك إلى ربّه وقال: إلهى أنت تعلم السر وأخفى وتعلم ما قاله عبدك، فقال الله تعالى: إذا كان هذا العبد مع ضعفه لم يرجع عنا، فكيف نرجع عنه مع كرمنا: (اشهدوا يا ملائكتى أنى غفرت له).

يا ولدى: اسمع حديث النبى ﷺ ماذا يقول: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا**». وقال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه: «من ظن أنه بدون الجهد يصل إلى الجنة فهو متمن. ومن ظن أنه يبذل الجهد يصل فهو متعن». وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب». وفى الحديث القدسى: «**ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل كيف أجود برحمتى على من بخل بطاعتى**» وقال أحد الأكابر: «الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل». وحديث المصطفى ﷺ أحسن وأشرف وأوضح من الكل حيث قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت، وَالأَحْمَقُ مَن أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهُ وتَمَنَّى عَلَى الله**».

ياولدى: كثيرًا ما أحييت الليالى بتكرار العلم والمطالعة ولا أدرى ما الباعث لك على ذلك. إن كان غرضك الدنيا وجلب حطامها وتحصيل المناصب والمباهاة على أقرانك وأمثالك، فويل لك ثم ويل لك. وإن كان غرضك إحياء الشريعة والدين المحمدى وتهذيب الأخلاق، فطوبى لك ثم طوبى لك، ولقد صدق من قال:

سَهَرُ العيونِ لغيرِ وَجْهِكَ ضائعٌ
وبُكاؤهنَّ لغَيْرِ فَقْدِكَ باطلُ

وقال رسول الله ﷺ : «**عشْ مَا شئْتَ فَإنَّكَ ميِّتٌ، وأَحْببْ مَا شئْتَ فَإنَّكَ مُفَارقُهُ، وَاعْمَلْ ما شئْتَ فَإنَّكَ مَجزى بَه**». ما فائدتك فى تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والنحو والتصريف وغيرها ما حصلت غير تضييع عمرك فى الغفلة عن جلال الله وعظمته وقدره، لأنى قرأت فى إنجيل عيسى عليه السلام: إن العبد إذا مات ووضع فى قبره يسأله الله تعالى بنفسه أربعين سؤالاً أولها: «**عبدى قد طهرت منظر الخلق سنين هل طهرت منظرى ساعة**»؟

ياولدى: كل يوم ينادى فى قلبك وإن لم تسمع (ما تصنع بغيرى وأنت محفوف بخيرى).

ياولدى: العلم بغير عمل جنونى والعلم بغير علم أجنبى، لأن العلم إن لم يباعدك اليوم عن المعاصى ولم يصيرك طائعًا لم يباعدك غدًا من نار جهنم، فإن لم تعمل اليوم ولم تتدارك ما فاتك من الأيام الماضية غدًا فى القيامة تقول: ﴿**فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا**﴾ [السجدة: ١٢]. فيقال لك أيها الأحمق أنت أتيت منها فكيف ترجع إليها.

ياولدى: الهمة العالية أن تصرف روحك فى الطاعات قبل فرار روحك من الجسد بالموت، لأن الدنيا منزلتك إلى أن تصل إلى المقابر وهؤلاء القوم الذين فى منازل المقابر ينتظرونك فى كل لحظة إلى أن تصل إليهم فالحذر من أن تذهب بغير زاد. قال الصديق الأكبر: «**الأجساد قفص الطيور أو اصطبل الدواب**». فتأمل فى نفسك من أيهما أنت. فإن كنت من الطيور أصحاب الأعشاش سمعت صوت طبل: ﴿**ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٨]. فطر لتجلس بمكان أعلى وإن كنت من الدواب والعياذ بالله كنت ممن قال الله فيهم: ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾ [الأعراف: ١٧٩]. واعلم يقينًا أنك حينئذ بعثت ذخيرتك فى زاوية إلى هاوية.

نقل أن الحسن البصرى عطش يومًا وكان شديد الحر فأتى له بقدح من الماء البارد فلما مسه بيده وأحس ببرودة مائه صاح صيحة عظيمة وخر مغشيًّا عليه، فوقع القدح من يده فلما أفاق قيل له: ما الذى حصل لك؟ قال: ذكرت آية أهل النار حين ينادون أهل الجنة: ﴿**أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ**﴾ [الأعراف: ٥٠].

ياولدى: إن كان يكفيك العلم المجرد ولم تحتج إلى العمل فماذا تقول فى نداء : هل من سائل هل من تائب هل من مستغفر، لأنه ورد فى أخبار صحيحة أنه إذا مضى نصف الليل والناس نيام ينادى المولى سبحانه وتعالى بنفسه: «**هل من تائب هل من سائل هل من مستغفر**»، ولذلك صار القيام والاستغفار بالأسحار مطلوبًا قال تعالى: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

قيل: إن جماعة من الصحابة ﷺ كانوا جالسين ذات يوم بين يدى النبى ﷺ فذكروا عبد الله بن عمربن الخطاب بخير، فقال ﷺ: «**نعمَ الرَّجُل لَوْ يُصَلِّى فى اللَّيْل**». وأيضًا قال رسول الله ﷺ لأحد الصحابة: «**لا تُكْثِر النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ كَثْرَةَ النومِ بِاللَّيْلِ تَدَعُ صَاحِبَها فَقِيرًا يَوْمَ القِيَامَة**».

ياولدى: قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ**﴾ [الإسراء: ٧٩]. أمر ﴿**وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ .شكر ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران: ١٧]. ذكر. يقول النبى ﷺ: «**ثَلاثَةُ أَصْوَاتٍ يُحبُّها الله تَعَالى، صَوْتُ الدِّيك، وَصَوْتُ الَّذى يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَصَوْتُ المُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**». ويقول سفيان الثورى رحمه الله تعالى: إن لله تعالى ريحًا تهب وقت الأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار. وأيضًا له: إذا كان أول الليل نادى مناد من تحت العرش: ألا ليقم العابدون فيقومون فيصلون ما شاء الله، ثم ينادى مناد فى شطر الليل: ألا ليقم القانتون فيقومون فيصلون إلى السحر، فإذا كان السحر ينادى مناد : ألا ليقم المستغفرون فيقومون فيستغفرون، فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقيم الغافلون فيقومون من مفرشهم كالموتى نشروا من قبورهم.

ياولدى: ورد فى وصايا لقمان أنه قال لابنه: «يابنى لا يكونن الديك أكيس منك ينادى بالأسحار وأنت نائم». وما أجمل وأليق من قول القائل حيث قال:

لقد هَتَفَتْ فى جنح ليل حمامةٌ
على فنن وهنا وإنى لنائمُ
كذبتُ وبيت الله لو كنت عاشقًا
لما سَبَقَتْنى بالبكاء الحمائمُ
وأَزْعمُ أنى هائم ذو صبابةَ
لربِّى ولا أبْكى وتَبْكى البهائمُ

ياولدى: (خلاصة النصيحة) أن تعلم حقيقة الطاعة والعبادة ما هى؟ العبادة هى متابعة الشارع ﷺ فى الأوامر والنواهى، فإن فعلت فعلاً ولست بمأمور به فليس بعبادة، وإن كان ذلك الفعل فى صورة العبادة بل قد يكون عصيانًا وإن كان صومًا وصلاة. ألا ترى أنه إذا صام شخص يوم العيدين وأيام التشريق يكون عاصيًا، وإن كان ما فعله فى صورة العبادة لأنه لم يؤمن به، وكذا من صلى فى الأوقات المكروهة أو فى المواضع المغصوبة يكون آثمًا.

واعلم أنه إذا مزح شخص مع محرمه فإنه مأجور وإن كان ذلك فى صورة لعب، لأن هذا اللعب مأمور به، وبذا صار معلومًا أن العبادة الحقيقة هى امتثال الأمر لا مجرد الصلاة والصوم، لأن الصلاة والصوم لا يكونان عبادة إلا إذا كان مأمورًا بهما.

ياولدي: فليكن جميع أحوالك وأقوالك مأمورًا بـه موافقًا للشريعة، لأن علم وعمل المخلوقـات بغيـر فتـوى المصطفى ﷺ ضلالة وسـبب للبعـد عن الله تعالى، ولهـذا نسخ المصطفى ﷺ الأعمال السابقة فلا تحرك لسانك بكلمة تكون غير مأمور بها. وكن متيقنًا أن طريق الله تعالى لا تقـدر أن تصل إليه بغير مـا لم تأمر به ولا تصل إليه أيضًـا بالشطحات والترهات الصوفـيّة ترسمًا، بل لا تصل إلى هذا الطريق إلا بقطع الهـوى والشهوة وحظوظ النفس بسيف المجـاهدات ولا بوثبات الشطحات والتـرهات، فإن زعمت الوصول اغـترارًا منك بما تبديه من الـكلام الرقيق وصفاء الأيـام والأوقات وصلافة اللسـان مع تعلق القلب بالشهـوات والغفلة كـان ذلك علامـة على الشقـاء والوبال، وإذا لم تقهر الهـوى والنفس بالمجاهدات وتصيرها تحت الشرع لم يكن القلب حيًّا بنور المعرفة.

ياولدي: سئلت أسئلة بعضهـا لا يكيف بالقول ولا بالكتابة لأنه ذوقي، وكل ما كان ذوقيًّا لا يكيف بالقول ولا بالكتابة فلا تعلمـه إلا إذا وصلت إليه، وما مثلك في ذلك إلا كمثل من جهل الحلاوة أو المرارة مثلاً وأراد أن يكفيه بمجرد القول والكتابة فلا يقدر البتة.

ياولدي: إن كتب عنين لأحد عـرف لذة الجماع يسأله عن لذة الجمـاع كتب إليه في جوابه: إن هذا ذوقي لا تعرفه إلا إذا وصلت إليه وإلا فلا يكيف بالقول والكتابة.

ياولدي: بعض أسئلتك من هذا القبيل. وأما القدر الذي يكيف بالقول والكتابة فقد بينته في كـتابنا «إحيـاء العلوم» وغيره من التـصانيف فاطلـبه هناك، وأما هنا فـما قلنا على طريقة الإشارة: وسألتني عما يجب على مريد طريق الحق جلّ وعلا.

فاعلم: أن أول ما يجب عليه الاعتقاد السليم الخالي عن البدع.

الثاني: التوبة النصوح بأن لا يرجع إلى الزلات.

الثالث: إرضاء الخصماء حتى لا يبقى عليه حق لمخلوق.

الرابع: تحصـيل علم الشريعة بقـدر ما يعمل بأوامـر الله ويقف عن نواهيه ولا يجب عليه من علم الشريعة سـوى ذلك، وأما غير علم الشريعة فيكفـيه أن يتعلم القدر الذي به خـلاصه ونجـاته، وهذا الكلام يكون معلومـًا لك ينقل حكاية وردت عن المشـايخ وهي أن الشبلي رحمـه الله قال: إني خدمت أربعمـائة أستاذ، وقرأت عليـهم أربعة آلاف حديث، واخترت منها حـديثًا واحدًا وعملت به وتركت باقيهـا لأني تأملت في هذا الحديث الواحد فرأيـت فيـه خلاصي ونجـاتي، وأيضًا رأيت أن علم الأولين والآخـرين مندرج فيـه وهو قوله ﷺ: «**اعْمَلْ لدُنْيَاكَ بِقَـدْرِ مَقَامِكَ فِيهَا، وَاعْـمَلْ لآخِرَتِكَ بِقَدْرِ بَقَائِكَ فِيـهَا، وَاعْمَلْ لله بِقَدْرِ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ، وَاعْمَلْ لِلنَّارِ بِقَدْرِ صَبْرِكَ عَلَيْهَا**».

ياولدي: من هذا الحديث علم لك أنك لا تحـتاج للعلم الكثير وتحصـيل كثرة العلم من فروض الكفاية لا من فروض الأعيـان، وتأمل في هذه الحكاية حتى تكون متيقنًا. ورد

أن حاتمًا الأصم كان من تلامذة شقيق البلخي رحمة الله عليهما، فقال شفيق ذات يوم: ياحاتم كم سنة أنت في صحبتي؟ قال: ثلاثًا وثلاثين سنة . فقال ما الذي حصلته من العلوم وكم فائدة أخذتها مني؟ قال: تحصلت على ثمان فوائد قال شقيق: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٥٦]. ياحاتم أنا صرفت عمري معك في تعليمك وأنت ما تحصلت مني على سوى هذه الفوائد، فقال حاتم: يا أستاذي إن طلبت مني الصدق فما تحصلت على غير الذي قلته ولم أطلب تحصيل غيرها لأني تيقنت أني لا أتحصل على خلاصي ونجاتي في الدارين إلا بهذه الثمانية، وإن ما سواها مستغني عنه بها. قال شقيق: قل لي ما هذه الفوائد الثمانية؟ فقال:

الأولى: نظرت في المخلوقات ورأيت كل واحد منهم اختار محبوبًا فالبعض يصحب المحب إلى مرض الموت والبعض إلى طرف القبر، وبعد ذلك يودعونه ويرجعون ولا يدخلون معه القبر، وتأملت لأجد محبوبًا يكون لي رفيقًا وأنيسًا في القبر فما وجدت سوى العمل الصالح، فلهذا اخترته وجعلته محبوبًا ليكون رفيقًا ومؤنسًا في القبر. فقال شفيق: أحسنت ياحاتم.

الثانية: نظرت في المخلوقات فرأيت الكل أسير النفس والهوى، وتأملت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. فعلمت يقينًا أن القرآن حق وخالفت النفس الأمارة بالسوء وشددت المنطقة في المجاهدات وما أعطيتها مآربها وآمالها حتى انقادت تحت طاعة الحق قال شقيق: بارك الله فيك.

الثالثة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يسعى ويتعب في تحصيل شيء من حطام الدنيا وما تحصلوا عليه حفظوه وفرحوا به لظنهم أنهم تحصلوا على شيء، ثم نظرت في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. فما حصلته وجمعته في سنين تصدقت به على الفقراء وجعلته وديعة عند الله ليكون لي عنده باقيًا وزادًا مدخرًا لآخرتي قال شقيق: أحسنت.

الرابعة: إني نظرت في هذا العالم فرأيت قومًا يظنون أن شرف الإنسان وعزه بكثرة الأقارب والعشائر ويفتخرون بها. وقومًا يظنون أن شرف الإنسان وكبرياءه بكثرة الأموال والأولاد فافتخروا بها، وبعضها يظنون أن العزّ والشرف بالغضب والسب والضرب وسفك الدماء فافتخروا بذلك، ونظرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فعلمت أن القرآن حق، وأن ظنون الخلق خطأ، فاخترت التقوى حتى أكون عند الله من المكرمين قال شقيق: أحسنت.

الخامسة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت قومًا يبغض ويحسد بعضهم بعضًا بسبب حب المال والجاه، وإنى نظرت فى قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الزخرف: ٣٢]. وإنى علمت أن هذه القسمة ثابتة فى الأزل لا اختيار لأحد فيها فما حسدت أحدًا بعد ورضيت بقسمة البارئ تعالى واصطلحت مع أهل الدنيا. قال شقيق: أحسنت.

السادسة: نظرت إلى هذا العالم فرأيت بعضهم يعادى بعضًا بسبب أغراض نفسانية ووساوس شيطانية، ونظرت فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]. وعلمت أن القرآن حق وأن غير الشيطان واتباعه لا يكون عدوًا فاتخذت الشيطان عدوى ولم أطعه فى أمر ما، وامتثلت أمر الله تعالى وراقبت عظمته ولم أعاد أحدًا من خلقه وعلمت أن الصراط المستقيم فى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [يس: ٦٠، ٦١]. قال شقيق: أحسنت يا حاتم.

السابعة: نظرت فى هذا العالم فرأيت كل واحد يصرف غاية جهده وقد أذل نفسه فى تحصيل القوت، وبسبب ذلك قد وقعوا فى الحرام والشبهات، ونظرت فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود: ٦]. وفى قوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩]. فعلمت أنى أحد الدواب فى الأرض وأن رزقى مضمون منه تعالى، وأنى مكلف بالسعى فى طلب الآخرة فاشتغلت بالخالق قال شقيق: أحسنت.

الثامنة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت بعضها يعتمد على ماله وملكه وبعضًا يعتمد على حرفته وصناعته، وبعضًا يعتمد على مخلوق مثله، وتأملت فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣]. فتوكلت على الله تعالى وهو حسبى ونعم الوكيل. قال شقيق: أحسنت يا حاتم، وفقك الله تعالى، إنى نظرت فى التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فوجدت ما فى الكتب الأربعة لا يخرج عن هذه الفوائد الثمانية، والذى يعمل بها كأنه عمل بما فى الكتب الأربعة. وبهذه الحكاية صار معلومًا لك أنك لا تحتاج إلى كثرة العلم، ولنرجع الآن إلى ما نحن فيه ونذكر لك مما يجب فى حق سالك طريق الحق.

الخامس: أن يكون له مرشد ومرب ليدله على الطريق ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة. ومعنى التربية أن يكون المربى كالمزارع الذى يربى الزرع، فكلما رأى حجرًا أو نباتًا مضرًا بالزرع قلعه وطرحه خارجًا ويسقى الزرع مرارًا إلى أن ينمو ويتربى، ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربى علمت أنه لابدّ

للسالك من مرشد مرب البتة، لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلاً لهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم. وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نوابًا عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغنى عن المرشد البتة.

وشرط المرشد أن يكون عالمًا، لكن ليس كل عالم يصلح للإرشاد، بل لا بدّ أن يكون عالمًا له أهلية صناعة الإرشاد، ولهذا المرشد علامات ونحن نذكر لك ما لا بدّ له منهما بطريق الإجمال حتى لا يدعى الإرشاد كل متحير.

فالمرشد هو الذى يكون قد خرج من باطنه حب المال والجاه وتأسس بنيان تربيته على يد مرشد كذلك، وهلم حتى تنتهى السلسلة إلى النبى ﷺ وذاق بعض الرياضيات كقلة الأكل والكلام والنوم، وكثرة الصلاة والصدقة والصوم، واقتبس نورًا من أنوار سيدنا محمد ﷺ، واشتهر بالسيرة الحسنة والأخلاق المحمودة من صبر وشكر وتوكل ويقين وطمأنينة وسخاء وقناعة وأمانة وحلم وتواضع ومعرفة وصدق ووقار وحياء وسكون وتأن وأمثالها، وتطهر من الأخلاق الذميمة كالكبر والبخل والحسد والحقد والحرص والأمل الطويل والطيش ونحوها، وسلم من تعصب المتعصبين، واستغنى عن علم المكلفين بالعلم المتلقى عن رسول الله ﷺ، فالاقتداء بمثل هذا المرشد هو عين الصواب والظفر بمثله نادر لاسيما فى هذا الزمان، فإنه كثر فيه من يدعى الإرشاد وهو فى الحقيقة يدعو الناس إلى اللهو واللغو، بل ادعى كثير من الملحدين الإرشاد بمخالفة الشريعة وبسبب غلبة هؤلاء المدعين اختفى المرشدون الحقيقيون فى أركان الزوايا وبما ذكرناه علم بعض علامات المرشد الحقيقى، حتى أنه من وجد متخلقًا بها علم أنه من المرشدين، ومن لم يكن متخلقًا بها علم أنه من المدعين، فإن تحصل أحد على مثل هذا المرشد وقبله المرشد وجب عليه احترامه ظاهرًا وباطنًا.

فالاحترام الظاهرى ألا يجادله ولا ينكر عليه ولا يقيم الحجة عليه فى أى مسألة ذكرها. وإن تحقق خطأه، وأن لا يظهر نفسه أمام المرشد بفرش السجادة إلا أن يكون إمامًا، فإذا فرغ من الصلاة ترك السجادة تأدبًا معه، وأن لا ينتقل كثيرًا فى حضرته، وأن يفعل كل ما أمره به قدر استطاعته، وأن لا يسجد له ولا لغيره لأنه كفر، وأن يبالغ فى امتثال أمره ولو كان ظاهره فى صورة المعصية.

والاحترام الباطنى أن كل ما سلمه له فى الظاهر لا ينكره فى الباطن وإلا كان منافقًا، فإن لم يقدر على ذلك ترك صحبته حتى يكون ما فى باطنه موافقًا لما فى ظاهره لأنه لا فائدة فى الصحبة مع الإنكار، بل ربما تكون سببًا فى هلاكه.

السادس: مخالفة سياسة النفس وهذا لايتيسر إلا بترك جلساء السوء لتقصر عنه يد تصرف شيطان الإنس والجن وترفع عنه التلوثات الشيطانية.

السابع: أن تختار جميع أحوال الفقراء، لأن أصل هذا الطريق فراغ القلب من حب الدنيا، فإذا لم تختر جميع أحوال الفقراء، وجدت فى قلبك الأسباب الدنيوية فقل أن تقدر على الخلاص من حبها فترك تلك الأسباب يكون سببًا لفراغ القلب من حب الدنيا، ولايتيسر لك هذا الترك إلا بذلك الاختيار، وهذه السبعة واجبة على سالك طريق الله.

وسألت أيضًا ما هو التصوف؟ فاعلم أن التصوف شيئان فى الصدق مع الله تعالى وحسن المعاملة مع الناس، فكل من صدق مع الله وأحسن معاملة الخلق فهو صوفى، والصدق مع الله تعالى هو أن يفنى العبد حظوظ نفسه لأمره تعالى، وحسن المعاملة مع الخلق هو أن لا يفضل مراده على مرادهم ما دام مرادهم موافقًا للشرع، لأن كل من رضى بمخالفة الشرع أو خالفه لا يكون صوفيًا وإن ادعى التصوف يكون كذابًا.

وسألت ما هى العبودية؟ فاعلم أن العبودية هى عبارة عن دوام حضور العبد من الحق تعالى بلا شعور الغير، بل مع الذهول عن كل ما سواه وهى لا تتأتى إلا بثلاثة أشياء:

الأول: الانتباه لأمر الشرع.

الثانى: الرضا بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى.

الثالث: ترك طلب اختيار نفسك وفرحك باختيار الله تعالى لك.

وسألت ما هو التوكل؟ فاعلم أن التوكل أن تثق بما وعد به الله وثوقًا لا تضعفه الحوادث مهما كثرت وتعاظمت. يعنى أن يكون لك تمام اليقين بأن كل ماقسم لك يصل إليك وإن اجتمع أهل الدنيا ليدفعوه عنك، وكل ما لم يقسم لك لن يصل إليك وإن ساعدك أهل الدنيا. وكذلك سألت ما هو الإخلاص؟ فاعلم أن الإخلاص هو أن تكون أفعالك كلها صادرة لله تعالى بحيث لا يكون فى قلبك التفات لشىء من الخلق حين العمل ولا بعده، كأن تحب ظهور أثر الطاعة عليك من نور الوجه وظهور أثر السجود فى جبهتك. ومن علامات إخلاصك أن لا تفرح بثناء الخلق عليك ولا تحزن بذمهم لك،بل يستوى عندك الأمران واعلم أن الرياء يتولد من عظمة الخلق عندك فعلاجه أن ترى الخلق مسخرًا لقدرة الله، وتلاحظ أن الناس مثل الجمادات لا قدرة ولا إرادة لهم فلا يقدرون على أن يوصلوا إليك نفعًا ولا ضرًا، فإذا فعلت ذلك خلصت من هذا المرض، وإلا فما دمت تظن أن الخلق قادرون ومريدون لا يرتفع عنك الرياء.

ياولدى: أما بقية أسئلتك فبعضها مسطر فى كتبى فاطلبه هناك، وبعضها لا تنبغى كتابته ،لكن إذا عملت بما علمت يكشف لك حقيقته.

ياولدى: إذا أشكل عليك شىء بعد هذا فلا تسألنى إلا بلسان الحال قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ [الحجرات: ٥]. واقبل نصيحة الخضر عليه السلام المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ **فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ [الكهف: ٧٠]. ولا تستعجل بالسؤال لأنك تصل إلى وقت يكون هو المبين لك، ألا ترى إشارة قوله تعالى: ﴿ **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. واعلم يقينًا أنك إذا لم تسر: لم تصل ولم ترَ، قال تعالى: ﴿ **أولم يسيروا فى الأرض فينظروا** ﴾ [الروم: ٩ - غافر ٢١].

ياولدى، إذا ذهبت فى طريق الله سريعًا ترى العجائب.

ياولدى، لا بد لك مع العمل من بذل روحك فى سبيل الوصول إلى حضرة الحق، فإن العمل بدون بذل الروح لا يفيد. قال ذو النون المصرى رحمة الله تعالى عليه لأحد التلامذة: إن قدرت على بذل الروح فتعال. وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية والقال.

ياولدى، أختصر لك النصيحة فى ثمانية أشياء: أربعة تركية وأربعة فعلية، حتى لا يكون علمك يوم القيامة خصمًا لك وحجة عليك.

أما التركية فأحدها: ترك المناظرة بقدر إمكانك وإقامة الحجة على كل من يذكر مسألة فإن آفات ذلك كثيرة وضرها أكثر من نفعها، إذ هى منبع كل الأخلاق الذميمة كالرياء والحقد والكبر والعداوة والمباهاة وغيرها، فإن وقعت بينك وبين غيرك مسألة وأنت تريد بالمناظرة أن ينكشف الحق جاز لك البحث فى تلك المسألة بهذه النية، ولصدق هذه النية علامتان:

إحداهما: ألا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو لسان خصمك بل تحب أن تنكشف الحقيقة على يد خصمك ليكون ذلك أدعى له إلى قبولها، لأن قبوله من نفسه أقرب إلى قبوله منك.

ثانيهما: أن يكون البحث فى الخلوة أحب إليك منه فى الملأ. أما إذا قلت لأحد مسألة وأنت تعلم أن الحق بيدك وهو يستهزئ، فالحذر من أن تقيم الحجة معه واترك الكلام، فإنه يؤدى إلى الوحشة فلا تكون معه فائدة، وها هنا أذكر لك فائدة.

اعلم أن السؤال عن الأشياء المشكلة مثل عرض المريض علته على الطبيب والجواب مثل سعى الطبيب فى شفاء المريض فالجهلاء مرضى والعلماء أطباؤهم، والعالم الناقص لا يليق أن يكون طبيبًا لهم، بل الذى يداوى المرضى هو العالم الكامل لأنه هو الذى يؤمل فيه أن يعرف حقيقة العلة، وقد يكون المرض شديدًا لا يمكن علاجه فمهارة الطبيب تكون فى عدم الاشتغال بمداواته، واعلم أن مرض الجهل أربعة أقسام: ثلاثة لا علاج لها، وواحد يمكن علاجه.

فالأول: أن يكون السؤال أو الاعتراض ناشئًا عن حسد والحسد مرض لا علاج له، واعلم أنك كلما أجبته بأى جواب تزينه وتوضحه له لا يزيده جوابك إلا حسدًا ولا يزيده حسده إلا تكبرًا ،فينبغى ألا تشتغل بجوابه وما أحسن قول الشاعر:

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجى إزالَتُها
إلاَّ عَداوَةَ مَنْ عَاداكَ مِنْ حَسَدِ

وتدبيره: أن تتركه بمرضه وتعرض عنه عملاً بقوله تعالى: ﴿**فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ [النجم: ٢٩]. فإذا تعرضت له واشتغلت بمداواته فقد أشعلت نار حسده التى هى مما يحبط الأعمال، كما فى الحديث «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**».

الثانى: أن تكون العلة من الحماقة وهذا لايمكن علاجه لقول عيسى عليه السلام: «**ما عجزت عن إحياء الموتى ولكن عجزت عن إصلاح الأحمق**». وهذا هو الذى اشتغل يومين أو ثلاثة بتحصيل العلم ولم يشرع فى العلوم العقلية أصلاً، ومع هذا يعترض على العلماء الذين صرفوا عمرهم فى تحصيل العلوم ولم يعلم أن الاعتراض على العالم العظيم من طالب صغير لا يكون إلا من الجهل وعدم المعرفة، فهذا لم يعرف قدر نفسه ولا قدر هذا العالم من حماقته وعدم معرفته، فينبغى أن تعرض عن هذا أيضًا ولا تشتغل بجوابه.

الثالث: أن يكون السائل مسترشدًا ليس فيه أهلية لفهم كلام الأكابر لقصور فهمه عنه، ويسأل عن جهة الاستفادة عن غوامض الأمور التى يكون قاصراً عن إدراك حقائقها، ولا يرى قصور فهمه فلا تشتغل بجوابه أيضًا، لأن النبىﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء أمرنا بأن نكلم الناس على قدر عقولهم**».

الرابع: أن يكون مسترشدًا ذكيًا لبيبًا عاقلاً ليس مغلوب الغضب والشهوة والحسد وحب المال والجاه، بل طالبًا لطريق الحق، سائلاً من غير تعنت، فهذا المريض يمكن علاجه فالاشتغال بجوابه لائق بل واجب.

الثانى: أن تحترز من الوعظ والتذكير إلا أن تعلم أنك علمت أولاً بما تقول مؤملاً قبل أن تتكلم. قال الله تعالى لعيسى عليه السلام: «يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى». فإن كنت كذلك وابتلاك الله بالوعظ فاحترز من شيئين: الأول أن تحترز من التكلف فى الكلام بالعبارات والإشارات والشطحات والأشعار، لأن الله تعالى يعد المتكلفين فى الكلام أعداء له لأن التكلف يدل على خراب باطن صاحبه وغفلة قلبه، مع أن المقصود من التذكير استحضار مصائب الآخرة والتقصير فى خدمة المولى جلّ وعلا، فتأمل فى العمر الماضى والعقبات التى فى الطريق حتى تخرج من الدنيا بسلامة الإيمان وتنجو من هول قبضة ملك الموت وسؤال منكر ونكير ورد جوابهما.

وأيضًا تأمل فى هول القيامة ومواقفها وحسابها والميزان والعبور على الصراط والنار ومصائبها، فهذا هو الذى ينبغى تذكره وتذكير الخلق به وتطلعهم على تقصيرهم وعيوبهم لأجل أن توقع فى قلوب أهل المجلس خوف حرارة النار ومصائبها، ليتذكروا تفريطهم فى الزمن الماضى بالندم عليه والتحسر على ضياع العمر الذى انقضى بغير طاعة.

فالجملة المذكورة بالكيفية المتقدمة يقال لها وعظ مع عدم التكلف فى الكلام بالفصاحة والتسجيع وغير ذلك، لأن مثل الواعظ كمثل صاحب بيت فيه عيال، وقد جاء السيل وهو يخاف أن يأخذ البيت ويغرق الأولاد وينادى الحذر الحذر، ياأهل البيت اهربوا لأن السيل وصلكم، فهذا الرجل فى هذه الحالة لا يقول الكلام بالتكلف والعبارات والسجيع والإشارات، فمثل الواعظ للخلق يكون هكذا، وينبغى ألا يميل قلبك حال وعظك إلى صراخ الصارخين وبكاء الباكين وغوغاء أهل المجلس بقولهم: إن هذا الواعظ حسن الوعظ والمجلس، لأن هذا الميل يتولد عن الغفلة، بل ينبغى أن يكون ميله حال الوعظ إلى تحويلهم عن الدنيا إلى الآخرة، وعن المعصية إلى الطاعة، وعن الغفلة إلى التيقظ، وعن الغرور إلى التقوى، وأن يكون كلامه فى علم الزهد والعبودية وأن ينظر إلى رغبتهم هل هى خلاف رضى الخالق أو لا، وإلى ميل قلوبهم هل هو خلاف الشرع أو لا، وإلى أعمالهم وأخلاقهم الذميمة والحميدة أيهما أغلب، والذى خوفه غالب فيرجعه إلى الرجاء، والذى رجاؤه غالب فيرجعه إلى الخوف بكيفية يتصرفون بها من المجلس بحيث لم يبق معهم صفات ذميمة ظاهرًا وباطنًا، ويتصفون بالصفات الحميدة، ويرغبون ويحرصون على الطاعات التى تكاسلوا عنها، ويكرهون المعاصى التى كانوا يحرصون عليها وكل وعظ لم يكن ولم يقل هكذا يكون وبالاً على الواعظ والموعوظ، بل يكون الواعظ غولاً وشيطانًا لأنه يضل الناس عن طريق الحق ويهلكهم هلاكًا أبديًا، ويجب على الخلق أن يهربوا منه، لأن الفساد الذى يفعله لا يقدر الشياطين أن يفعلوه، وكل من له يد القدرة يجب عليه أن ينزله عن المنبر ليدفعه لأنه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

الثالث: ألا تميل إلى الملوك والأمراء والحكام ولا تخالطهم ولا تجالسهم بل ولا تنظر إليهم، لأن فى مخالطتهم ومجالستهم آفات كثيرة، وإن ابتليت برؤيتهم ومجالستهم فاترك مدحهم وثناءهم، وإذا جاءوا لزيارتك فسبيلك أن يكون هكذا، فإن الله يغضب إذا مدح الفاسق والظالم. ومن دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى فى أرضه.

الرابع: ألا تقبل منهم شيئًا وإن علمت أنه حلال، لأن الطمع فى مالهم يكون سببًا لفساد الدين والمداهنة والمحاباة ومراعاة جانبهم والموافقة فى ظلمهم، ويتولد منها فسقهم وفجورهم، وهذا كله هلاك فى الدين وأقل مضرة يتولد منها أن تحبهم، وكل من يحب

أحدًا يحب طول عمره، وإذا أحب طول عمره أحب طول ظلمه وخراب العالم. ونسأل الله الأمان من أن يضللك الشيطان عن طريق الحق لأنه يقول لك الأولى أن تأخذ منهم الدراهم وتعطيها للدراويش وتريح المساكين بصرفها عليهم، لأنك تصرفها فى الضرورة وأبواب الخير، وأما هو فيصرفها فى الفسق والفجور، لأن الشيطان بهذا الطريق سفك دماء خلق كثير. وآفات الطمع كثيرة ذكرتها فى كتابنا (إحياء العلوم) فاطلبها هنا. يا ولدى، اجتنب هذه الأربعة التركية.

وأما الفعلية فأربعة أيضًا ولا بدّ أن تعمل بها.

الأول: يلزمك أن تؤدى ما أمرك الله تعالى به مثل ما تحب أن يؤدى عبدك ما أمرته به، وأنت راض عنه وكل شيء لا ترضى بفعله من عبدك فلا ترضى عن نفسك بفعله فى تحقق عبوديتك لله تعالى، ومع ذلك فليس هو عبدك حقيقة لأنك اشتريته بالدراهم وأنت فى الحقيقة عبد لله لأنك مخلوق له وهو خالق لك.

الثانى: أن تعامل الخلق بما تحب أن يعاملوك به. قال رسول الله ﷺ: «**لا يَكْمُلُ إيمانُ العَبْد حتَّى يُحبَّ لسَائر النَّاس مَا يُحبُّ لنَفْسه**».

الثالث: أن تشتغل بالعلم النافع فى الواقع ونفس الأمر وهو الذى لو علمت أنه بقى من عمرك أسبوع لم تشتغل بسواه، ومن المعلوم أنه إذا كان كذلك لا تشتغل بعلم النحو والصرف والطب وأمثالها، لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تنفع فى إغاثتك، بل تشتغل بمراقبة قلبك ومعرفة صفاته فتشتغل بتطهيره من الأخلاق الذميمة وعلائق الدنيا وتحليته بالأخلاق الحسنة ومحبة الحق وتشتغل بالعبادة.

ياولدى: اسمع كلمة واحدة وتأمل فى حقيقتها واعمل بها تجد فيها خلاصك ونجاتك إليه. إن أخبرت أن السلطان قاصد زيارتك فى هذا الأسبوع مثلاً، فأنا أعلم أنك لا تشتغل فى هذا الأسبوع بشىء غير إصلاح ما تعلم أن عين السلطان تقع عليه. إذا علمت ما ذكرناه تحققت بالأولى أنه لا ينبغى لك إلا أن تشتغل بإصلاح ما تعلم أنه محل نظر الله تعالى وهو القلب. قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَركُمْ وَلا إلى أَعْمَالكُمْ ولَكنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبكُمْ وَنيَّاتكُمْ**». وإن أردت أن تعلم علم أحوال القلوب فاطلبه من كتابى (إحياء العلوم)، وسائر تصانيفى، وهذا فرض عين على كل مسلم وباقى العلوم فرض كفاية، إلا أن تعلم بقدر ما تتحصل به على امتثال الأوامر واجتناب النواهى.

الرابع: أن تدخر لعيالك من القوت ما يزيد على السنة لأن النبى ﷺ قال لأزواجه: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رزْقَ آل مُحَمَّد كفَافًا**» ولم يقل ذلك لكل أزواجه. بل قال لمن لم يكن لهن قوة اليقين. أما مثل السيدة عائشة رضي الله عنها فلم يرتب لها قوت سنة ولا يوم.

ياولدى: جميع ما طلبته منى كتبته لك فى هذه الرسالة، فينبغى أن تعمل بكل ما فيها، وفى أثناء عملك اذكرنى بصالح دعائك، أما ما طلبته من الأدعية فمذكورة فى الصحاح وتاريخ أهل البيت فاطلبها هناك واذكر لك هذا الدعاء فاقرأه على الدوام خصوصًا عقب الصلوات وهو:

اللهم إنى أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أقربه، ومن العمل أصلحه ، ومن العلم أنفعه، ومن الرزق أوسعه، اللهم كن لنا ولا تكن علينا، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة أعمالنا واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، ومُنَّ علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفى دينك اجتهادنا، وعليك توكلنا واعتمادنا. إلهنا ثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا واصرف عنا شر الأشرار واعتق رقابنا، ورقاب آبائنا وأمهاتنا من النار والدَّين والمظالم يا عزيز يا غفار، ياكريم يا ستار، ياحليم ياجبار برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين آمين.

خاتمة للمعرب

اعلم أن تصفية القلب لا تتم إلا بطريقة الذكر لقوله ﷺ: «**إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها ذكر الله تعالى**». ثم إن الذكر إما باللسان وإما بالقلب، فذكر اللسان لتحصيل ذكر القلب، وذكر القلب لتحصيل المراقبة، وأقرب التصفية للقلب الاشتغال بذكر الطريقة النقشبندية وهو الذكر باسم الذات أو بالنفى والإثبات، وكيفية ذكر اسم الذات أن يتلفظ الذاكر بلسان القلب لفظة (**الله**) . لأن القلب كله لسان وكله سمع وكله بصر. وأما كيفية ذكر النفى والإثبات فهى أن يتلفظ بلسان القلب (لا إله) نافيًا بها جميع تعلقات القلب عما سوى الله ثم يتلفظ بلسان القلب (**إلا الله**) مثبتًا بها وجود وحدانية الحق فيه، فإذا ذكر الذاكر هذين الاسمين بهذه الكيفية تحصل له صفوة القلب وزكاه، ويكون عارفًا بالله تعالى واصلاً إليه ويقدم وظيفة الذكر به على سائر العبادات بعد الفرائض ورواتبها فى جميع الأوقات إلى أن يحصل فى قلبه ملكة حميدة، وبعد ذلك يجوز له جميع الفضائل من العبادات لأنه عرف طريق الاستفاضة من الله وعرف طريق التقرب إليه:

فَذِكْرُ الله أَحْسَنُ فى الطَّرِيقِ
مِنَ الوِرْدِ المرتبِ للصَّلاةِ

وأحسن من قراءة قول حق ومن عمل بكل النافلات
لأن الذكر يجلى صداء قلب ويرفع عنه كل الحاجيات
وجاهد فى جميع الوقت والزم بذكر الله تشهد واردات
توجه للإله ودع سواه وراقب وارتفع للعاليات

والمراقبة هى رؤية جناب الحق سبحانه وتعالى بعين البصيرة على الدوام مع التعظيم، وهى أقرب الطرق إلى الله تعالى من حيث التقرب إليه. كما قيل: القصد إلى الله عزّ وجلّ بالقلوب أبلغ من حركات الأعضاء فى الأعمال بالصلاة والسلام والأذكار والأوراد ونحوها، لأن صاحب الهمة العالية لا يزال عاملاً بقلبه وإن لم تساعده على الأعمال جوارحه فهو يكون دائمًا فى التقرب وأبدًا فى التحبب.

ثم اعلم أن الذاكر إذا بلغ مرتبة المراقبة ثبتت له وحدة الوجود الإلهية وتحقق بدوام العبودية، فإذا داوم على المراقبة ترقى إلى مرتبة المشاهدة بأن ينكشف له بعين البصيرة أن أنوار وجود وحدة الذات الإلهية محيطة بجميع الأشياء، وأنه تعالى متجل بصفاته وأسمائه فى مصنوعاته وبحسب استعداد المشاهدين يصير الابتهاج بأنوار الربوبية والاستكشاف بأسرار الأحدية.

تمت فى شهر رجب سنة ١٣٢٧

القسطاس المستقيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ميزان حقيقة المعرفة

أحمد الله تعالى أولاً، وأصلى على نبيه المصطفى ثانيًا، وأقول: إخوانى، هل فيكم من يعيرنى سمعه لأحدثه بشىء من أسمارى، فقد استقبلنى فى أسفارى رفيق من رفقاء أهل التعليم وغافصنى بالسؤال والجدال مغافصة من يتحدّى باليد البيضاء والحجة الغراء وقال لى: أراك تدّعى كمال المعرفة، فبأى ميزان تزن حقيقة المعرفة؟ أبميزان الرأى والقياس، وذلك فى غاية التعارض والالتباس ولأجله ثار الخلاف بين الناس؟ أم بميزان التعليم فيلزمك اتباع الإمام المعصوم، المعلم وما أراك تحرص على طلبه؟ فقلت: أما ميزان الرأى والقياس،

فحاش الله أن أعتصم به فإنه ميزان الشيطان. ومن زعم من أصحابى أن ذلك ميزان المعرفة. فأسأل الله تعالى أن يكفينى شره عن الدين فإنه للدين صديق جاهل، وهو شر من عدو عاقل ولو رزق سعادة مذهب أهل التعليم، لتعلم أولاً الجدال من القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

واعلم أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم وبالموعظة قوم وبالمجادلة قوم، فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير. وأن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى. وأن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن غذى البدوى بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر أوالبلدى بالتمر وهو لم يألف إلا البر، وليته كانت له أسوة حسنة كما تعلم من القرآن فى إبراهيم الخليل. صلوات الله عليه. حيث حاج خصمه فقال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. فلما رأى أن ذلك لا يناسبه وليس حسنًا عنده حين قال: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ [البقرة: ١٢٥]. عدل إلى الأوفق لطبعه والأقرب إلى فهمه فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. ولم يركب الخليل ظهر اللجاج فى تحقيق عجزه عن إحياء الموتى إذ علم أن ذلك يعسر عليه فهمه فإن ظن أن القتل إماتة من جهته وتحقيق ذلك يلائم قريحته ولا يناسب حده فى البصيرة ودرجته، ولم يكن من قصد الخليل إفناؤه بل إحياؤه، والتغذية بالغذاء الموافق إحياء. واللجاج بالإرهاق إلى ما لا يوافق إفناء. فهذه دقائق لا تدرك إلا بنور التعليم المقتبس من إشراق عالم النبوة، فلذلك حرموا التفطن له إذ حرموا من سر مذهب التعليم.

فقال: إذا استوغرت سبيلهم واستوهنت دليلهم فبماذا تزن معرفتك؟

فقلت: أزنها بالقسطاس المستقيم ليظهر لى حقها وباطلها، ومستقيمها ومائلها: اتباعًا لله تعالى وتعليمًا من القرآن المنزل على لسان نبيه الصادق حيث قال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

فقال: وما القسطاس المستقيم؟

قلت: هى الموازين الخمس التى أنزلها الله فى كتابه وعلم أنبياءه الوزن بها. فمن تعلم من رسول الله ﷺ ووزن بميزان الله اهتدى. ومن ضلّ عنها إلى الرأى والقياس فقد ضلّ وتردّى.

فقال: أين الموازين فى القرآن وهل هذا إلا إفك وبهتان؟

قلت: ألم تسمع قوله تعالى فى سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ١-٩]. ألم تسمع قوله فى سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البر والشعير والذهب والفضّة؟ أتتوهّم أن الميزان المقابل وضعه برفع السماء فى قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. هو الطيار والقيان، وما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان، فاتّق الله ولا تعسف فى التأويل. واعلم يقينًا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلّموا هم من ملائكته. فإن الله تعالى هو المعلم الأوّل، والثانى جبريل، والثالث الرسول ﷺ، والخلق كلهم يتعلمون من الرسل ما ليس لهم طريق إلى المعرفة به إلا بهم.

فقال: فبم عرفت أن ذلك الميزان صادق أم كاذب؟ أبعقلك ونظرك؟ فالعقول متعارضة. أم بالإمام المعصوم الصادق القائم بالحقّ فى العالم؟ وهو مذهبى الذى أدعوا إليه.

فقلت: ذلك أيضًا أعرفه بالتعليم، ولكن من إمام الأئمّة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ فإنى وإن كنت لا أراه فإنى أسمع تعليمه الذى تواتر إلّى تواترًا لا أشكّ فيه: وإنما تعليمه القرآن، وبيان صدق موازين القرآن معلوم من نفس القرآن فقال: «هات برهانك» وأخرج من القرآن ميزانك. وأظهر لى كيف فهمت من نفس القرآن صدقه وصحته.

فقلت له: حدّثنى أنت بمَ تعرف صحة ميزان الذهب والفضّة وصدقه ومعرفة ذلك فرض دينك إذا كان عليك دين حتى نقضيه تامًّا من غير نقصان. أو كان لك على غيرك دين حتى تأخذه عدلاً من غير رجحان، فإذا دخلت سوقًا من أسواق المسلمين وأخذت ميزانًا من الموازين وقضيت أو استقضيت به الدين، فبمَ تعرف أنك لم تظلم بنقصان فى الأداء أو برجحان فى الاستيفاء؟

فقال: أحسن الظن بالمسلمين، وأقول إنهم لا يشتغلون بالمعاملة إلا بعد تعديل الموازين، فإن عرض لى شكّ فى بعض الموازين أخذته ورفعته ونظرت إلى كفتى الميزان ولسانه، فإذا استوى انتصاب اللسان من غير ميل إلى أحد الجانبين ورأيت مع ذلك تقابل الكفتين. عرفت أنه ميزان صحيح صادق.

قلت: هب أن اللسان قد انتصب على الاستواء، وأن الكفتين متحاذيتان على السواء، فمن أين تعلم أن الميزان صادق؟

فقال: أعلم ذلك علمًا ضروريًّا يحصل لى من مقدمتين: إحداهما تجريبية، والأخرى حسيّة .أما التجريبية فـهى أنى علمت بالتجربة أن الثقيل يهوى إلى أسفل، وأن الأثقل أشدّ هويًا فأقـول: لو كانت إحـدى الكفتين أثقل لكانت أشـد هويًا فهذه مـقدمة كلـية تجريبـية حاصلة عندى ضرورة. والمقدمة الثانية هى أن هذا الميزان بعينه رأيته لم تَهْوِ إحدى كفتيه، بل حاذت الأخرى محاذاة مساواة. وهذه مقدمة حسية شاهدتها بالبصر فلا أشك لا فى المقدمة الحسـية ولا فى الأولى وهى مـقدمة التـجربة. فـيلزم فى قلبى من هاتين المقدمـتين نتيـجة ضـرورية وهى العلم باسـتواء الميـزان. إذ أقـول: لو كانت إحـداهمـا أثقل لكانت أهوى ومحسوس أنها ليست بأهوى، فمعلوم أنها ليست بأثقل.

قلت له: فهل هذا إلا رأى وقياس عقلى؟

قال: هيهـات فإن هذا علم ضـرورى لزم من مقامـات يقينيـة حصل اليـقين بها من التجربة والحسّ فكيف يكون هذا رأيًا وقياسًا. والرأى والقياس حدس وتخمين لا يفيدان برد اليقين وأنا أحس فى هذا بردّ اليقين.

قلت: فإن عـرفت صحة الميـزان بهذا البرهان فـبمَ عرفت الصنجة والمثـقال. فلعله أخف أو أثقل من المثقال الصّحيح؟

فقال: إن شككت فى هذا أخذت عيـارة من صنجة معلومة عندى فأقابلـها بها فإذا ساوى علمت أن الذهب إذا ساواه كان مساويًا لصنجتى فإن المساوى للمساوى مساوٍ.

قلت: هل تعلم واضع الميـزان فى الأصل مـن هو، وهل هو الواضع الأول؟ والذى وضعه يعلم هذا الوزن.

قال: لا، ومن أين أحتاج إليـه وقد عرفت صحّة الميزان بالمشـاهدة والعيان. بل آكل البـقل من حيث يؤتى بـه ولا أسأل عن المبـقلة، فإن واضع المـيزان لا يراد لعـينه، بل يراد ليعرف منه صحة الميزان وكيفية الوزن به. وأنا قد عرفته كما حكيته، وعرفته فاستغنيت عن مراجعـة صاحب الميزان عند كل وزن فإن ذلـك يطول ولا يظفر به فى كل حين مع أنى فى غنية عنه.

قلت: فـإن أتيتك بميـزان فى المعرفـة مثل هـذا وأوضح منه وأزيد عليه بأنى أعـرف واضعه ومعلمـه ومستعمله فيكون واضعـه هو الله تعالى ومعلِّمه جبريل ومـستعمله الخليل ومحمَّد وسائر النبيين عليهم السلام أجـمعين. وقد شهد الله تعالى لهم فى ذلك بالصدق. فهل تقبل ذلك منى؟ وهل تصدق به؟

فقال: إى والله وكيف لا أصدّق به إن كان فى الظهور مثل ما حكيته لى.

فقلت: الآن أتوسم فيك شمائل الكياسة. وقد صـدق رجائى فى تقويمك وتفهيمك

حقيقة مذهبك فى تعليمك فأكشف لك عن الموازين الخمسة. المنزلة فى القرآن لتستغنى به عن كل إمام وتجاوز حد العميان فيكون إمامك المصطفى ﷺ، وقائدك القرآن، ومعيارك المشاهد والعيان. فاعلم أن موازين القرآن فى الأصل ثلاثة: ميزان التعادل، وميزان التلازم، وميزان التعاند. لكن ميزان التعادل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إلى الأكبر، والأوسط، والأصغر، فيصير الجميع خمسة.

القول فى الميزان الأكبر من موازين التعادل

ثم، قال لى هذا الرفيق الكيّس من رفقاء أهل التعليم: اشرح لى الميزان الأكبر من موازين التعادل أوّلاً واشرح لى معنى هذه الألقاب وهى التعادل والتلازم والتعاند، والأكبر والأوسط والأصغر، فإنها ألقاب عجيبة. ولاشكّ فى أن تحتها معانى دقيقة.

فقلت: أما معنى هذه الألقاب فلا تفهمها إلا بعد شرحها وفهم معانيها لتدرك بعد ذلك مناسبة ألقابها لحقائقها. وأعلمك أوّلاً أنّ هذا الميزان يشبه الميزان الذى حكيته فى المعنى دون الصور فإنه ميزان روحانى فلا يساوى الجسمانى، ومن أين يلزم أن يساويه والموازين الجسمانية أيضًا تختلف، فإن القلسطون ميزان، والطيار ميزان، بل الاصطرلاب ميزان لمقادير حركات الفلك، والمسطرة ميزان لمقادير الأبعاد فى الخطوط، والشاقول ميزان لتحقيق الاستقامة والانحناء. وهى وإن اختلفت صورها مشتركة فى أنها تعرف بها الزيادة والنقصان. بل العروض ميزان الشعر يعرف به أوزان الشعر ليتميز منزحفه عن مستقيمه وهو أشد روحانية من الموازين المجسمة، ولكنه غير متجرد عن علائق الأجسام لأنه ميزان الأصوات ولا ينفصل الصوت عن الجسم. وأشد الموازين روحانية ميزان يوم القيامة إذ به توزن أعمال العباد وعقائدهم ومعارفهم، والمعرفة والإيمان لا تعلق لهما بالأجسام، ولذلك كان ميزانهما روحانيًا صرفًا، وكذلك ميزان القرآن للمعرفة روحانى، لكن يرتبط تعريفه فى عالم الشهادة بغلاف لذلك الغلاف التصاق بالأجسام وإن لم يكن جسمًا فإن تعريف الغير فى هذا العالم لا يمكن إلا مشافهة وذلك بالأصوات. والصوت جسمانى، أو بالمكاتبة وهى الرقوم وهى أيضًا نقش فى وجه القرطاس وهو جسم. هذا حكم غلافه الذى يعرض فيه وإنما هو فى نفسه روحانى محض لا علاقة له مع الأجسام إذ توزن به معرفة الله الخارجة عن عالم الأجسام المقدّس عن أن يناسب الجهات والأقطار فضلاً عن نفس الأجسام، ولكنه مع ذلك ذو عمود وكفتين، والكفتان متعلقتان بالعمود فالعمود مشترك فى الكفتين لارتباط كل واحدة منهما به هذا فى ميزان التعادل، وأما ميزان التلازم فهو بالقبان أشبه لأنه ذو كفة واحدة ولكن يقابلها من الجانب الآخر الرمانة وبها يظهر التفاوت والتقدير.

فقال: هذه طنطنة عظيمة فأين المعنى فإنى أسمع جعجعةً ولا رأى طحنًا.

فقلت له: اصبر ﴿**وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤]. واعلم أن العجلة من الشيطان والتأنى من الله. واعلم أن الميزان الأكبر هو ميـزان الخليل صلوات الله عليه وسلم الذى استـعمله مع نمرود فمنـه تعلمنا هذا الميزان لكن بواسطة القرآن. وذلك أن نمرود ادعى الإلهية، وكانت الإلهية عنده بالاتفاق عبارة عن القادر على كـل شىء. فقال إبراهيم: الإله إلهـى لأنه الذى يحيى ويميت وهو القـادر عليه وأنت لا تقدر عليـه. فقال: ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ يعنى أنه يحيى النطفـة بالوقاع ويميت بالقتل، فعلم إبراهيم ﷺ أن ذلك يعسر عليه فـهم بطلانه فعدل إلى ما هو أوضح عنده. فقال: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وقد أثنى الله عليه فقال: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**﴾ [الأنعام: ٨٣]. فعلمت من هذا أن الحجة والبرهان فى قول إبراهيم وميزانه. فنظرت فى كيفية وزنه كما نظرت أنت فى ميزان الذهب والفضـة فرأيت فى هذه الحجة أصلين قد ازدوجا فتولّد منهـما نتيجة هى المعرفة إذ القرآن مبناه على الحذف والإيجاز. وكمال صورة هذا الميزان أن تقول كل من يقدر على اطلاع الشمس فهو الإله، فهذا أصل. وإلهى هو القادر على الاطلاع وهذا أصل آخر. فلزم من مجموعهما أن إلهى هو الإله دونك يانمرود. فانظر الآن هل يمكن أن يعترف بالأصلين معترف ثم يشكّ فى النتيـجة، أو هل يتصور أن يشك فى هذين الأصلين شاك؟ فإن قولنا: الإله هو القادر على إطلاع الشـمس لا شك فيه لأن الإله كان عندهم وعند كل أحد عـبارة عن القـادر على كل شىء، وإطلاع الشمس هو مـن جملة تلك الأشـياء وهذا أصل معلوم بـالوضع والاتفاق. وقولنا: الـقادر على الاطلاع هو الله تعالـى دونك معلوم بالمشاهدة فـإن عجز نمرود وعجز كل أحـد سوى من يحرك الشمس مـشاهد بالحس ونعنى بالإله محـرك الشمس ومطلـعها. فـيلزمنا من معـرفة الأصل الأول المعلوم بالوضـع المتفق عليه. ومن الأصل الثـانى المعلوم بالمشاهدة أن نمرود ليس هو القدر على تحـريك الشمس. فنعلم بعد معرفة هذين الأصلين أن نمرود ليس بإله وإنما الإله هو الله تعالى. فراجع نفسك الآن هل ترى هذا أوضح من المقدمة التجـريبية والحسيّة اللتين عليهمـا صحّة ميزان الذهب والفضة.

فقال: هذه المعرفة لازمة منه بالضرورة ولا يمكننى أن أشك فى الأصلين ولا أن أشك فى لزوم هذه النتيـجة منهـما، ولكن هذا لا ينفعنى إلا فى هذا المـوضع وعلى الوجه الذى استـعمله الخليل عليه الصـلاة والسلام وذلك فى نفى إلهيـة نمرود وإقرار الإلهيـة لمن تفرد بإطلاع الشمس، فكيف إذن بها سائر المعارف التى تشكل علىَّ وأحـتاج إلى تمييز الحق فيها عن الباطل؟

فقلت: من وزن الذهب بميزان يمكنه أن يزن به الفضّة وسائر الجواهر، لأن الموزون عرف مقداره لا لأنه ذهب بل لأنه ذو مقدار، ولذلك هذا البرهان كشف لنا عن هذه المعرفة لا لعينها، بل لأنها حقيقة من الحقائق ومعنى من المعانى فتأمل أنه لم تلزم منه هذه النتيجة ونأخذ روحه ونجرده عن هذا المثال الخاص حتى نتتفع به حيث أردنا وإنما لزم هذا لأن الحكم على الصفة حكم على الموصوف بالضرورة، وبيانه أن إيجاز هذه الحجّة إن ربى مطلع والمطلع الإله فيلزم منه أن ربى إله فالمطلع صفة الرب، وقد حكمنا على المطلع الذى هو صفته بالإلهية فلزم منه الحكم على ربى بالإلهية، وكذلك فى كل مقام حصلت لى معرفة بصفة الشىء وحصلت معرفة أُخرى بثبوت حكم لتلك الصفة فيتولد منهما معرفة ثالثة بثبوت الحكم على الموصوف بالضرورة.

فقال: هذا يكاد دركه يدق على فهمى، فإن تشككت فيه فماذا أصنع حتى يزول الشك؟

قلت: خذ عيارة من الصنجة المعروفة عندك كما فعلت فى ميزان الذهب والفضّة.

فقال: كيف آخذ عيارها، وأين الصنجة المعروفة فى هذا الفن؟

قلت: الصنجة المعروفة هى العلوم الأوليّة الضرورية المستفادة إما من الحس أو من التجربة أو غريزة العقل، فانظر فى الأوّليات هل تتصور أن يثبت حكم على صفة إلا ويتعدى إلى الموصوف، فإذا مرّ بين يديك مثلاً حيوان منتفخ البطن وهو بغل، فقال قائل: هذا حامل، فقلت له: ألم تعلم أن البغل عقيم لا يلد؟ فقال: نعم أعلم هذا بالتجربة. فقلت له: فهل تعلم أن هذا بغل؟ فنظر، فقال نعم قد عرفت ذلك بالحسّ والإبصار. فقلت: فالآن هل تعرف أنه ليس بحامل فلا يمكنه أن يشكّ فيه بعد معرفة الأصلين اللذين أحدهما تجريبى والآخر حسى، بل يكون العلم بأنه ليس بحامل علمًا ضروريًا متولدًا من بين العلمين السابقين كما تولد علمك فى الميزان من العلم التجريبى بأن الثقل هاوٍ، والعلم الحسى بأن إحدى الكفتين ليست هاوية بالإضافة إلى الأخرى.

فقال: قد فهمت هذا فهمًا واضحًا، ولكن لم يظهر لى أن سبب لزومه أن الحكم على الصفة حكم على الموصوف.

فقلت: تأمل فإن قولك : هذا بغل، وصف والصفة هو البغل وقولك: كل بغل عقيم، حكم على البغل الذى هو صفة بالعقم فلزم حكم بالعقم على الحيوان الموصوف بأنه بغل، وكذلك إذا ظهر لك مثلاً أن كل حيوان حساس ثم ظهر لك فى الدود أنه حيوان فلا يمكنك أن تشك فى أنه حساس ومنهاجه أن تقول: كل دود حيوان وكل حيوان حساس. فكل دود حساس لأن قولك كل دود حيوان وصف الدود بأنه حيوان، والحيوان صفته، فإذا

حكمت على الحيوان بأنه حساس أو جسم أو غيره دخل فيه الدود لا محالة وهذا ضرورى لا يمكن الشكّ فيه. نعم شرط هذا أن تكون الصفة مساوية للموصوف أو أعم منه حتى يكون الحكم عليه يشمل الموصوف به بالضرورة. وكذلك من سلم فى النظر الفقهى، أن كل نبيذ مسكر، وكل مسكر حرام، لم يمكنه أن يشك فى أن كل نبيذ حرام لأن المسكر وصف النبيذ، فالحكم عليه بالتحريم يتناول النبيذ إذ يدخل فيه الموصوف لا محالة، فكذلك فى جميع أبواب النظريات.

فقال: قد فهمت فهمًا ضروريًا أن إيقاع الازدواج بين أصلين على هذا الوجه مولد لنتيجة ضرورية، وأن برهان الخليل صلوات الله عليه برهان صحيح وميزانه ميزان صادق، وتعلمت حده وحقيقته وعرفت عياره من الصنجات المعروفة عندى، ولكنى أشتهى أن أعرف مثالاً لاستعمال هذا الميزان فى مظان الأشكال فى العلوم فإن هذه الأمثلة واضحة بأنفسها لايُحتاج فيها إلى ميزان وبرهان.

فقلت: هيهات، فبعض هذه الأمثلة معلومة بأنفسها بل هى متولدة من ازدواج الأصلين إذ لا يعرف كون هذا الحيوان مثلاً عقيمًا إلا من عرف بالحس أنه بغل وبالتجربة أن البغل لا يلد، وإنما واضح بنفسه هو الأوّل. فأمّا المتولّد من أصلين فله أب وأم فلا يكون أوليًّا واضحًا بنفسه بل بغيره، ولكن ذلك الغير أعنى الأصلين قد يكون واضحًا فى بعض الأحوال، وذلك بعد التجربة وبعد الإبصار، وكذلك كون النبيذ حرامًا ليس واضحًا بنفسه بل يعرف بأصلين.

أحدهما: أنه مسكر وهذا يعلم بالتجربة.

والثانى: أن كل مسكر حرام وهذا بالخبر الوارد عن الشارع ﷺ. فهذا يعرفك كيفية الوزن بهذا الميزان، وكيفية استعماله. وإن أردت مثالاً أغمض من هذا فأمثلة ذلك عندنا لا تنحصر ولا تتناهى بل بهذا الميزان عرفنا أكثر الغوامض فاقنع منه بمثال واحد.

فمن الغوامض أن الإنسان ليس حادثًا بنفسه إذ له مسبب وصانع وكذلك العالم. فإذا راجعنا هذا الميزان عرفنا أن له صانعًا وأن صانعه عالم. فإنا نقول: كل جائز فله سبب، واختصاص العالم أو الإنسان بمقداره الذى اختلف به جائز. فإذن يلزم منه أن له سببًا ولا يقدر على التشكك فى هذه النتيجة من سلم الأصلين وعرفهما. ولكن إن شك فى الأصلين فيستنتج أيضًا معرفتهما من أصلين آخرين واضحين إلى أن ينتهى إلى العلوم الأوّلية التى لا يمكن التشكيك فيها، فإن العلوم الخفية الأولية هى أُصول العلوم الغامضة الجليلة وهى بذورها، ولكن يستثمرها منها من يحسن الاستثمار بالحراثة والاستنتاج بإيقاع الازدواج بينهما.

فإن قلت: أنا شاك فى الأصلين جميعًا فَلِمَ قلت إن كل جائز فله سبب؟ ولِمَ قلت إن اختصاص الإنسان بمقدار مخصوص جائز وليس بواجب؟ فأقول: أما قولى: كل جائز له سبب، فواضح إذا فهمت معنى الجائز لأنى أعنى بالجائز ما يتردد بين قسمين، متساويين، فإذا تساوى شيئان لم يختص أحدهما بوجود وعدم من ذاته لأن ما ثبت للشىء ثبت لمثله بالضرورة وهذا أولى. وأما قولى اختصاص الإنسان بهذا المقدار مثلاً جائز وليس واجب، كقولى: إن الخط الذى يكتبه الكاتب وله مقدار مخصوص جائز إذ الخط من حيث إنه خط لا يتعين له مقدار واحد بل يتصور أن يكون أطول وأقصر. فاختصاصه بمقدار عما هو أطول وأقصر سببه الفاعل لا محالة، إذ نسبة المقادير إلى قبول الخط لها متساوية، وهذا ضرورى. كذلك نسبة المقادير إلى شكل الإنسان وأطرافه متساوية فتخصيصها لا محالة بفاعل. ثم أترقى منه وأقول: فاعله عالم لأن كل فعل مرتب محكم فيسند إلى علم فاعله، وبنية الإنسان مرتبة محكمة فلا بدّ أن يستند ترتيبها وتدبيرها إلى علمٍ فاعل بها. فههنا أصلان إذا عرفتهما لم تشك فى النتيجة أحدهما أن بنية الآدمى بنية مرتبة محكمة هذا يعرف بالمشاهدة من تناسب أعضائه واستعداد كل واحد لمقصود خاص كاليد للبطش والرجل للمشى، ومعرفة تشريح الأعضاء يورث علمًا ضروريًا به، وأما افتقار المرتب المنظوم إلى علم واضح أيضًا فلا يشك العاقل فى أن الخط المنظوم لا يصدر إلا من عالم بالكتابة وإن كان بواسطة القلم الذى لا يعلم، وأن البناء الصالح لإفادة مقاصد الاكتنان كالبيت والحمام والطاحونة وغيرها لا يصدر إلاّ من عالم بالبناء، فإن أمكن التشكيك فى شىء من هذا فطريقه أن يترقى منه إلى أوضح منه حتى يترقى إلى الأوليات. وشرح ذلك ليس من غرضنا بل الغرض أن نبين أن ازدواج الأوّليات على الوجه الذى أوقعه الخليل عليه السلام ميزان صادق مفيد لمعرفة حقيقية. ولا قائل بإبطال هذا فإنه إبطال لتعليم الله تعالى أنبياءه، وإبطال لما أثنى الله عليه إذ قال: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**﴾ [الأنعام: ٨٣]. والتعليم لا محالة حق إن لم يكن الرأى حقًا وفى إبطال هذا إبطال الرأى والتعليم جميعًا ولا قائل به أصلاً.

القول فى الميزان الأوسط

قال: قد فهمت الميزان الأكبر وحده وعياره ومظنته وحقيقة استعماله فاشرح لى الميزان الأوسط ما هو، ومن أين حصل تعليمه، ومن وضعه، ومن استعمله؟

فقلت: الميزان الأوسط أيضًا للخليل عليه السلام حيث قال: ﴿**لا أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٦]. وكمال صورة هذا الميزان أن القمر آفل والإله ليس بآفل فالقمر ليس بإله.

ولكن القرآن على الإيجاز والإضمار مبناه، لكن العلم ينفى الإلهية عن القمر لا يصدر ضروريًّا إلا بمعرفة هذين الأصلين وهو أن القمر آفل وأن الإله ليس بآفل، فإذا عرفت الأصلين صار العلم بنفى الإلهية عن القمر ضروريًّا.

فقال: أنا لا أشك فى أن نفى الإلهية عن القمر يتولد من هذين الأصلين إن عرفا جميعًا، لكنى أعرف أن القمر آفل وهذا معلوم بالحس، أما الإله ليس بآفل فلا أعلمه ضرورة ولا حسًّا.

قلت: وليس غرضى من حكاية هذا الميزان أن أعرفك أن القمر ليس بآفل، بل إنى أعلمك أن هذا الميزان صادق والمعرفة الحاصلة منه بهذا الطريق من الوزن ضرورية، وإنما حصل العلم به فى حق الخليل عليه السلام. إذ كان معلومًا عنده أن الإله ليس بآفل، وإن لم يكن ذلك العلم أوليًّا له بل مستفادًا من أصلين آخرين ينتجان العلم بأن الإله ليس بمتغير وكل متغير حادث، والأفول هو التغير فبنى الوزن على المعلوم عنده، فخذ أنت الميزان واستعمله حيث يحصل لك العلم بالأصلين.

قال: فهمت بالضرورة أن هذا الميزان صادق وأن هذه المعرفة تلزم فى الأصلين إذ صارا معلومين، ولكن أريد أن تشرح حد هذا الميزان وحقيقته ثم تشرح لى عياره من الصنجة المعروفة عندى ثم مثال استعماله فى مظان الغموض فإن نفى الإلهية عن القمر كالواضح عندى.

قلت: أما حدّه، فهو أن كل مثلين وصف أحدهما بوصف فسلب ذلك الوصف عن الآخر فهما متباينان أى أحدهما يسلب ذلك الوصف عن الآخر ولا يوصف به، ولما كان حد الميزان الأكبر أن الحكم على الأعمّ حكم على الأخص ويندرج فيه لا محالة، فحدّ هذا أن الذى ينفى عنه ما يثبت لغيره مباين لذلك الغير، فالإله ينفى عنه الأفول والقمر يثبت له الأفول، فهذا يوجب التباين بين الإله والقمر وهو أن لا يكون القمر إلهًا ولا الإله قمرًا. وقد علّم الله تعالى نبيّه محمّدًا ﷺ الوزن بهذا الميزان فى مواضع كثيرة من القرآن اقتداءً بأبيه الخليل صلوات الله عليهما، فأكتفى بالتنبيه على موضعين وأطلب الباقى من آيات القرآن.

أحدهما: قوله تعالى لنبيّه: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

وذلك أنهم ادعوا أنهم أبناء الله فعلمه الله تعالى كيفية إظهار خطابهم بالقسطاس المستقيم، فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، وكمال صورة هذا الميزان أن البنين لا يعذبون وأنتم معذبون، فإذًا لستم أبناء، فهنا أصلان: أما أن البنين لا يعذبون فيعرف بالتجربة، وأما أنتم معذبون فيعرف بالمشاهدة ويلزم منهما ضرورة نفى النبوة.

الموضع الثانى: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٦، ٧]. وذلك أنهم ادعوا الولاية، وكـان من المعلوم أن الوالى يتمنى لقـاء وليه، وكان من المعلوم أنهم لا يتمنون الموت الذى هو سبب اللقـاء فلزم ضرورة أنهم ليسوا أولياء لله. وكمال صُورة هذا الميزان أن يقال: كل ولى يتمنى لـقاء وليه واليهودى ليس يتمنى لقاء الله فلزم منه أنه ليس بولى لله. وحدّه أن التمنى يوصف به الولى وينفى عن اليهود فيكون الولى واليهودى مـتباينين لسلب أحدهمـا عن الآخر فلا يكون الولى يهوديًّا ولا اليهودى وليًّا. وأما عيـاره من الصنجة المعلومة فمـا عندى أنك تحتاج إليه مـع وضوحه، ولكن إن أردت استظهـارًا فانظر أنك إذا عرفت أن الحـجر جمـاد ثم عرفت أن الإنسان ليس بجـماد كيف يلزمك منه أن تعـرف أن الإنسان ليس بحجـر لأن الجمادية تثبت للحـجر وتنفى عن الإنسان، فـلا جرم أن يكون الإنسان مـسلوبًا عن الحجر والحـجر مسلوبًا عن الإنسـان فلا الإنسان حجـرًا ولا الحجر إنسانًا. وأمـا مظنة استعمـاله فى مواضع الغموض فكثـير وأحد شطرى المعرفة التقديس وهو ما يتقدس عنه الرب تعالى علوًّا كبيرًا وجميع معارفه توزن بهذا الميزان إذ الخليل عليـه السلام استعمل هذا الميـزان فى التقديس، وعلمنا كيـفية الوزن به إذ عرف بهذا الميزان نفى الجـسمية عن الله تعالى. وكذلك نقول إن الإله ليس بجوهـر متحيز لأن الإله ليس بمعلول وكل متحيـز فاختصاصه بحيزه الذى يـختصّ به معلول فيلزم منه أنه ليس بجـوهر. وتقـول ليس بعرض لأن العـرض ليس بحى عـالم والإله حىّ عـالم فليس بعرض، وكـذلك سائر أبواب التقـديس تتولد معـرفتها أيـضًا من ازدواج أصلين على هذا الوجه.

أحدهما: أصل سالب مضمونه النفى.

والثانى: أصل موجب مضمونه الإثبات وتتولد منهما معرفة النفى والتقديس.

القول فى الميزان الأصغر

قال: قد فهمت هذا أيضًـا فهمًا ضروريًّـا فاشرح لـى الميزان الأصغر وحـده وعياره ومظنة استعماله من الغوامض.

قلت: الميزان الأصـغر تعلمناه من الله تعالى حـيث علّمه محـمّدًا ﷺ فى القرآن، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]. ووجه الوزن بهذا الميزان تقول قولهم بنفى إنزال الوحى على البشر قول باطل الازدواج المنتج بين الأصلين:

أحدهما: أن موسى عليه السلام بشر.

والثاني: أن موسى أنزل عليه الكتاب فيلزم منه بالضرورة قضية خاصة وهو أن بعض البشر أنزل عليه الكتاب وتبطل به الدعوى العامة بأنه لا ينزل كتاب على بشر أصلاً. أما الأصل الأول وهو قولنا موسى بشر فمعلوم بالحس، وأما الثاني وهو أن موسى منزل عليه الكتاب فكان معلومًا باعترافهم، إذ كانوا يخفون بعضه ويظهرون بعضه كما قال تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ [الأنعام: ٩١]. وإنما ذكر هذا فى معرض المجادلة بالأحسن، ومن خاصية المجادلة أنه يكفى فيه أن يكون الأصلان مسلمين من الخصم مشهورين عنده، وإن أمكن الشكّ فيه لغيره فإن النتيجة تلزمه إذ كان هو معترفًا به، وأكثر أدلة القرآن تجرى على هذا الوجه، فإن صادفت من نفسك إمكان الشك فى بعض أصولها ومقدماتها، فاعلم أن المقصود بها محاجّة من لم يشك فيه. وأما أنت فالمقصود فى حقك أن تعلم منه كيفية الوزن فى سائر المواضع، وأما عيار هذا الميزان أن من يقول لا يتصور أن يمشى الحيوان بغير رجل، فيعلم منك إذا قلت الحية حيوان والحية تمشى بغير رجل فيلزم منه أن بعض الحيوان يمشى بغير رجل، وأن قول من يقول لا يمشى الحيوان إلاّ برجل قول باطل منقوض وأما موضع استعماله من الغوامض فكثير، فإن بعض الناس مثلاً يقول كل كذب فهو قبيح لعينه فنقول من رأى نبيًّا من الأنبياء أو وليًّا من الأولياء قد اختفى من ظالم فسأله الظالم عن موضعه فأخفاه فقوله هل هو كذب، قال: نعم، قلنا: فهل هو قبيح، قال: لا بل القبيح الصدق المفضى إلى هلاكه فنقول له: انظر إلى الميزان فإنا نقول قوله فى اخفاء محله كذب فهو أصل معلوم، وهذا القول ليس بقبيح وهو الأصل الثانى، فيلزم منه أن كل كذب ليس بقبيح فتأمل الآن هل يتصور الشك فى هذه النتيجة بعد الاعتراف بالأصلين، وهل هذا أوضح مما ذكرته من المقدمة التجريبية والحسية فى معرفة ميزان التقديس، وأما حدّ هذا الميزان فهو أن كل وصفين اجتمعا على شيء واحد فبعض آحاد الوصفين لا بدّ أن يوصف بالآخرة بالضرورة ولا يلزم أن يوصف بأنه كله لزومًا ضروريًّا، بل قد يكون فى بعض الأحوال وقد لا يكون فلا يوثق. ألا ترى أن الإنسان يجتمع عليه الوصف بأنه حيوان وأنه جسم فيلزم منه بالضرورة أن بعض الجسم حيوان ولا يلزم منه. إن كل جسم حيوان ولا يغرنك إمكان وصف كل حيوان بأنه جسم فإن وصف كل وصف بالآخر إذا لم يكن ضروريًّا فى كل حال لم تكن المعرفة الحاصلة به ضرورية. ثم قال الرفيق: قد فهمت هذه الموازين الثلاثة، ولكن لِمَ خصصت الأول باسم الأكبر والثانى بالأوسط والثالث بالأصغر؟

قلت: لأن الأكبر هو الذى يتسع لأشياء كثيرة، والأصغر خلافه، والأسط بينهما والميزان الأول أوسع الموازين إذ يمكن أن تستفاد منه المعرفة بالإثبات العام والإثبات الخاص

والنفى العام والنفى الخاص، فقد أمكن أن يوزن به أربعة أجناس من المعارف، وأما الثانى فلا يمكن أن يوزن به إلا النفى ولكن يوزن به النفى العام والخاص جميعًا. وأما الثالث فلا يوزن به إلا الخاص كما ذكرت لك أنه يلزم منه بعض أحد الوصفين يوصف به الآخر لاجتماعهما على شيء واحد وما لا يتسع إلا للحكم الواحد الجزئى فهو أصغر لا محالة. نعم وزن الحكم العام به من موازين الشيطان وقد وزن به أهل التعليم بعض معارفهم وألقاه فى أمنية الخليل صلوات الله عليه وسلامه فى قوله: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨]. وسأتلو عليك قصته بعد هذا إن شاء الله.

القول فى ميزان التلازم

قال: فاشرح لى ميزان التلازم فقد فهمت الأقسام الثلاثة من موازين التعادل.

قلت: هذا الميزان مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومن قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ معهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢]. ومن قوله تعالى: ﴿لوكان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ [الأنبياء: ٩٩]. وتحقيق صورة هذا الميزان أن تقول: لو كان للعالم إلهان لفسد، فهذا أصل. ومعلوم أنه لم يفسد وهذا أصل آخر، فيلزم عنهما نتيجة ضرورية وهى نفى أحد الإلهين، ولو كان مع ذى العرش آلهة لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً، ومعلوم أنهم لم يبتغوا فيلزم نفى آلهة سوى ذى العرش، وأما عيار هذا الميزان بالصنجة المعلومة قولك: إن كانت الشمس طالعة فالكواكب خفية. وهذا يعلم بالتجربة، ثم نقول: ومعلوم أن الشمس طالعة وهذا يعلم بالحس فيلزم منه أن الكواكب خفية، وتقول إن لم يأكل فلان فهو شبعان وهو يعلم بالتجربة، ثم تقول ومعلوم أنه أكل وهذا يعلم بالحس فيلزم من الأصل التجريبى والأصل الحسى بالضرورة أنه غير شبعان، وأما موضع استعماله فى الغوامض فكثير حتى يقول الفقيه إن كان بيع الغائب صحيحًا فيلزم بتصريح الإلزام، ومعلوم أنه لا يلزم بتصريح الإلزام فيلزم منه أن ليس بصحيح، ويعلم الأصل الأول بالاستقراء الشرعى المفيد للظن وإن لم يفد العلم، والثانى بتسليم الخصم ومساعدته ونقول فى النظريات إن كان صنعة العالم وتركيب الأدمى مرتبًا عجيبًا محكمًا فصانعه عالم وهذا فى العقل أولى، ومعلوم أنه عجيب مرتب وهذا مدرك بالعيان فيلزم منه أن صانعه عالم، ثم نترقى. فنقول: إن كان صانعه عالمًا فهو حى ومعلوم بالميزان الأول أنه عالم فيلزم منه أنه حى، ثم نقول إن كان حيًّا عالمًا فهو قائم بنفسه وليس بعرض، ومعلوم الميزانين السابقين الأولين أنه حى عالم فيلزم منه أنه قائم بنفسه، وكذلك تعرج من صفة تركيب الآدمى إلى صفة صانعه وهو العلم، ثم تعرج من العلم إلى الحياة،

ثم منها إلى الذات وهذا هو المعراج الروحاني، وهذه الموازين سلالم العروج إلى السماء، ثم إلى خالق السماء وهذه الأصول درجات السلالم وأما المعراج الجسماني، فلا تفي به كل قوة يختص ذلك بقوة النبوة. وأما حدّ هذا الميزان فإن كل ما هو لازم للشيء فهو تابع له في كل حال، فنفي اللازم يوجب بالضرورة نفي الملزوم، ووجود الملزوم يوجب بالضرورة وجود اللازم، أما نفي الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما، بل هما من موازين الشيطان وقد يزن به بعض أهل التعليم معرفته، أما ترى أن صحة الصلاة يلزمها لا محالة كون المصلي متطهراً فلا جرم يصح أن تقول إن كانت صلاة زيد صحيحة فهو متطهر، ومعلوم أنه غير متطهر وهو نفي اللازم فلزم منه أن صلاته غير صحيحة وهو نفي الملزوم، وكذلك إن قلت: ومعلوم أن صلاته صحيحة وهذا وجود الملزوم فيلزم منه أنه متطهر وهو وجود اللازم، أما إن قلت: ومعلوم أنه متطهر فيلزم منه أن صلاته صحيحة فهذا خطأ لأنه ربما بطلت صلاته بعلّة أخرى، فهذا وجود اللازم ولم يدل على وجود الملزوم، وكذلك إن قلت: ومعلوم أن صلاته ليست بصحيحة فهو إذا كان غير متطهر وهذا خطأ غير لازم لأنه يجوز أن يكون عدم صحة الصلاة لفقدان شرط آخر سوى الطهارة فهذا نفي الملزوم ولم يدل على نفي اللازم.

القول في ميزان التعاند

ثم قال: اشرح لي ميزان التعاند واذكر لي من القرآن موضعه وعياره ومحلّ استعماله.

قلت: أما موضعه من القرآن فقوله في تعليم نبيّه محمد ﷺ: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [سبأ: ٢٤]. فإنه لم يذكر قوله إنا أو إياكم في معرض التسوية والتشكيك، بل فيه إضمار أصل آخر وهو لسنا على ضلال في قولنا: إن الله يرزقكم من السماء والأرض فإنه الذي يرزق من السماء بإنزال الماء، ومن الأرض بإنبات النبات فإذاً أنتم ضالون بإنكار ذلك وكمال صورة هذا الميزان إنا وإياكم لعلى ضلال مبين، وهذا أصل، ثم نقول: ومعلوم أنا لسنا في ضلال، وهذا أصل آخر، فيلزم من ازدواجهما نتيجة ضرورية وهو أنكم في ضلال. وأما عياره من الصنجات المعروفة فهو أن من دخل داراً ليس فيها إلا بيتان، ثم دخلنا أحدهما فلم نره فيه فنعلم علمًا ضروريًا أنه في البيت الثاني، وهذا الازدواج من أصلين: أحدهما قوله إنه في أحد البيتين قطعًا، والثاني أنه ليس في هذا البيت أصلاً فيلزم منهما أنه في البيت الثاني، فإذاً نعلم كونه في البيت الثاني تارة بأنه نراه فيه وتارة بأن نرى البيت الثاني خاليًا عنه، فإن علمناه

برؤيتنا إياه فيه كان علمًا عيانيًا وإن عرفناه بأن لم نره فى البيت الثانى كان هذا علمًا ميزانيًا، ويكون هذا العلم الميزان قطعيًا كالعيان، وأما حدّ هذا الميزان فهو أن كل ما انحصر فى قسمين فيلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ومن نفى أحدهما ثبوت الآخر، ولكن بشرط أن تكون القسمة منحصرة لا منتشرة، فالوزن بالقسمة المنتشرة وزن الشيطان وبه وزن بعض أهل التعليم كلامهم فى مواضع كثيرة ذكرناها فى القواصم، وفى جواب مفصل الخلاف والكتاب المستظهرى وغيرهما من الكتب المستعملة، وأما موضع استعمال هذا من الغوامض فلا ينحصر ولعل أكثر النظريات تدور عليه، فإن من أنكر موجودًا قديمًا فنقول له: الموجودات إما أن تكون كلها حادثة أو بعضها حادث وبعضها قديم وهذا حاصر، لأنه بين النفى والإثبات دائر، ثم نقول: ومعلوم أن كلها ليست بحادثة فيلزم أن فيها قديمًا، فإن قيل: فلمَ قيل إن كلها ليست حادثة؟ فتقول: لأن كلها لو كانت حادثة لكان حدوثها بأنفسها من غير سبب، فبطل أن تكون كلها حادثة فثبت أن فيها موجودًا قديمًا، ونظائر استعمال هذا الميزان لا تنحصر.

فقال: قد فهمت بالحقيقة صدق هذه الموازين الخمسة، ولكن أشتهى أن أعرف معنى ألقابها ولِمَ خصصت الأول بأنه ميزان التعادل، والثانى بالتلازم، والثالث بالتعاند؟

قلت: سمّيت الأول ميزان التعادل لأن فيه أصلين متعادلين كأنهما كفتان متحاذيتان، وسميت الثانى ميزان التلازم لأن أحد الأصلين تشتمل على جزأين: أحدهما لازم، والآخر ملزوم، كقوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإن قوله: لفسدتا، لازم وملزوم قوله: لو كان فيهما آلهة إلا الله، ولزمت النتيجة من نفى اللازم. وسميت الثالث ميزان التعاند لأنه رجع إلى حصر قسمين بين النفى والإثبات يلزم من ثبوت أحدهما نفى الآخر ومن نفى أحدهما ثبوت الآخر فبين القسمين تعاند وتضاد.

فقال: هذه الأسامى أنت ابتدعتها وهذه الموازين أنت انفردت باستخراجها أم سبقت إليها؟

قلت: أما هذه الأسامى فإنى ابتدعتها، وأما الموازين فأنا استخرجتها من القرآن، وما عندى أنى سبقت إلى استخراجها من القرآن، لكن أصل الموازين قد سبق استخراجها ولها عند مستخرجها من المتأخرين أسماء أُخرى سوى ما ذكرته، وعند بعض الأمم السابقة على بعثة محمّد وعيسى صلّى الله عليهما وسلم أسامى أُخر، كانوا قد تعلّموها من صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام، ولكن بعثنى على إبدال كسوتها بأسامى أُخر غير ما سموها به ما عرفت من ضعف قريحتك وطاعة نفسك إلى الأوهام، فإنى رأيتك من الاعتزاز بالظواهر بحيث لما سقيت عسلاً أحمر فى قارورة حجام لم تطق تناوله لنفور

طبعك عن المحجمة وضعف عقلك عن أن يعرفك أن العسل ظاهر فى أى زجاجة كان، بل ترى التركى يلبس المرقعة والدراعة فتحكم عليه بأنه صوفى أو فقيه ولو لبس الصوفى القباء والقلنسوة حكم عليه وهمك بأنه تركى فأبدًا يتحرك وهمك إلى ملاحظة غلاف الأشياء دون اللباب، وكذلك لا تنظر إلى القول من نفس القول وذاته بل من حسن صنعته أو حسن ظنك بقائله، فإذا كانت عبارته مستكرهة عندك أو قائله قبيح الحال فى اعتقادك رددت القول وإن كان فى نفسه حسنًا وحقًا، فلو قيل لك: قل لا إله إلا الله عيسى رسول الله نفر عن ذلك طبعك، وقلت: هذا قول النصارى فكيف أقوله، ولم يكن لك من العقل ما تعرف به أن هذا القول فى نفسه حقّ وأن النصرانى ما مقت لهذه الكلمة ولا لسائر الكلمات بل لكلمتين فقط، إحداهما قوله: الله ثالث ثلاثة، والثانية قوله: محمّد ليس برسول الله وسائر أقواله وراء ذلك حق، فلما رأيتك ورأيت رفقاءك من أهل التعليم ضعفاء العقول لا تخدعهم إلا الظواهر نزلت إلى حدك فسقيتك الدواء فى كوز الماء وسقتك به إلى الشفاء وتلطفت بك تلطف الطبيب بمريضه، ولو ذكرت لك أنه دواء وعرضته فى قدح الدواء لكان يشمئز عن قبوله طبعك ولو قبلته لكنت تتجرعه ولا تكاد تسيغه فهذا غرضى فى إبدال تلك الأسامى وإبداع هذه يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله، وينكره من ينكره.

فقال: لقد فهمت هذا كله، ولكن أين ما كنت وعدت به من أن هذا الميزان له كفتان وعمود واحد تتعلق به الكفتان جميعًا، ولست أرى فى هذا الميزان الكفة والعمود، وأين ما ذكرته من الموازين التى هى أشبه بالقبان؟

قلت: هذه المعارف الست قد استفدتها من أصلين فكل أصل كفّة والجزء المشترك بين الأصلين الداخل فيهما عمود، وأضرب لك مثالاً من الفقهيات فلعلّه أقرب إلى فهمك، فأقول: قولنا: كل مسكر حرام كفة. وقولنا: كل نبيذ مسكر كفّة أُخرى، والنتيجة أن كل نبيذ حرام فههنا فى الأصلين ثلاثة أُمور فقط: النبيذ والمسكر والحرام. أما النبيذ فإنه يوجد فى أحد الأصلين فقط فهو كفة، وأما الحرام فيوجد فى الأصل الثانى فقط فهو الكفة الثانية، وأما المسكر فمذكور فى الأصلين جميعًا وهو مكرر فيهما مشترك بينهما فهو العمود، والكفتان متعلقان به إذ يتعلق به أحدهما ويتعلق الموصوف بالصفة، وهو قولك كل نبيذ مسكر فإن النبيذ موصوف بالمسكر والأخرى متعلقة لتعلق الصفة بالموصوف وهو قولك. وكل مسكر حرام، فتأمّل ذلك حتى تعرف فإن فساد هذا الميزان تارة يكون من الكفة، وتارة يكون من العمود، وتارة يكون من تعلّق الكفّة بالعمود على ما أنبهك على رمز يسير منه فى ميزان الشيطان، وأما المشبّه بالقبان فهو ميزان التلازم إذ أحد طرفيه أطول من الآخر كثيرًا، فإنك تقول لو كان بيع الغائب صحيحًا للزم بصريح الإلزام وهذا أصل

طويل مشتمل على جزأين: لازم وملزوم، والثانى وهو قولك وليس يلزم بصريح الإلزام وهذا أصل آخر أقصر منه فكان أشبه بالرمانة القصيرة المقابلة لكفة القبان، وأما ميزان التعادل فتعادل فيه كفتان ليست إحداهما أطول من الأخرى، بل كل واحدة منهما تشتمل على صفة وموصوف فقط، فافهم هذا مع ما عرفتك من أن الميزان الروحانى لا يكون كالميزان الجسمانى بل يناسبه مناسبة ما، ولذلك يمكن تشبيهه بتولد النتيجة من ازدواج الأصلين إذ يجب أن يدخل شىء من أحد الأصلين فى الآخر وهو المكسر الموجود فى الأصلين حتى تتولد النتيجة، فإن لم يدخل جزء من أحد الأصلين فى الآخر لم تتولد نتيجة كما تتولد من قولك كل مسكر حرام وكل مغصوب مضمون نتيجة أصلاً وهما أصلان، لكن لم يجر بينهما نكاح وازدواج إذ ليس يدخل جزء من أحدهما فى الآخر، وإنما النتيجة تتولد من الجزء المشترك الداخل من أحدهما فى الآخر وهو الذى سميناه عمود الميزان، ولو فتح لك باب الموازنة بين المحسوس والمعقول لانفتح لك باب عظيم فى معرفة الموازنة بين عالم الملك والشهادة، وبين عالم الغيب والملكوت وتحته أسرار عظيمة، من لم يطلع عليها حرم الاقتباس من أنوار القرآن والتعليم منه ولم يُحطْ من علمه إلا بالقشور، فكما أن فى القرآن موازين كل العلوم فكذلك فيه مفاتيح كل العلوم كما أشرت إليه فى كتاب (جواهر القرآن) فاطلبه منه وليست الموازنة بين عالم الملك والشهادة وعالم الغيب والملكوت، إلا بما يتجلى بعضه فى المنام من الحقائق المعنوية فى الأمثلة الخيالية، لأن الرؤيا جزء من النبوة وفى عالم النبوة يتجلّى تمام الملك والملكوت، ومثاله من النوم رجل رأى فى منامه كأن فى يده خاتمًا يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقص رؤياه على ابن سيرين، فقال: إنك مؤذن تؤذن فى رمضان قبل الصباح، فقال: هو كذلك، فانظر الآن لم تجل له حاله من عالم الغيب فى هذا المثال، واطلب الموازنة بين هذا المثال والأذان قبل الصبح فى رمضان، وربما يرى هذا المؤذن نفسه يوم القيامة وفى يده خاتم من نار ويقال له هذا هو الخاتم الذى كنت تختم به أفواه الرجال وفروج النساء، فيقول: والله ما فعلت هذا. فيقال: نعم كنت تفعله ولكن تجهله لأن هذا روح فعلك ولا تتجلى حقائق الأشياء وأرواحها إلا فى عالم الأرواح ويكون الروح فى غطاء من الصور فى عالم التلبيس عالم الحسّ والخيال. والآن قد كشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وكذلك يفتضح كل من ترك حداً من حدود الشرع، وإن أردت له حقيقة فاطلبه من باب حقيقة الموت فى الإحياء أو من كتاب جواهر القرآن، فترى فيه العجائب، وأطل التأمل فيه فعساك تنفتح لك باب رؤيته إلى عالم الملكوت تسترق منها السمع، فإنى ما أراك ينفتح لك بابها وأنت إنما تنتظر معرفة الحقائق من معلم غائب لا تراه، ولو رأيته لوجدته أضعف منك فى المعرفة كثيراً فخذها ممن سافر وتعرف وبحث فعلى الخبير سقطت فيه.

فقال: هذا الآن حديث آخر يطول بينى وبينك اللجاج فيه، فإن هذا المعلم الغائب وإن كنت لم أرَ منظره فقد سمعت خبره كالليث إن لم أره فقد رأيت أثره ولقد رأيت والدتى إلى أن ماتت ومولانا صاحب قلعة الموت يثنيان عليه ثناءً بالغًا حتى قالا إنه المطلع على كل ما يجرى فى العالم ولو على ألف فرسخ، أفأكذب والدتى وهى العجوز العفيفة السيرة أو مولانا وهو الإمام الحسن السيرة والسريرة، كلا بل هما شاهدان صادقان كيف وقد طابقهما على ذلك جميع رفقائى من أهل دامغان وأصبهان ولهم الأمر المطاع وفى حكمهما سكان القلاع، أفترى أنهم منخدعون وهم الأذكياء أو متنمسون وهم الأتقياء؟ هيهات هيهات دع عنك الغيبة، فإن مولانا يطلع على ما يجرى بيننا من غير ريبة إذ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء فأخشى أن أتعرض لمقته بمجرد السماع والإصغاء فاطو طومار الهذيان وارجع إلى حديث الميزان واشرح لى ميزان الشيطان وكيفية وزن أهل التعليم به.

القول فى موازين الشيطان وكيفية وزن أهل التعليم بها

فقلت: اسمع الآن يامسكين شرح ميزان رفقائك فإنك بعد غلوائك، واعلم أن كل ميزان ذكرته من موازين القرآن فللشيطان فى جانبه ميزان ملصق به يمثله بالميزان الحق ليوزن به، فيغلط لكن الشيطان إنما يدخل من موقع الثلم، فمن سد الثلم وأحكمها أمن الشيطان. ومواقع ثلمه عشرة قد جمعتها وشرحتها فى كتاب النظر وكتاب معيار العلم إلى غير ذلك من الدقائق فى شروط الميزان لم أذكرها الآن لقصور فهمك عن إدراكها، فإن أردت معاقد حملها ألفيتها فى كتاب المحك، وإن أردت شرح تفاصيلها وجدتها فى كتاب المعيار، لكن أقدم الآن أنموذجًا واحدًا وذلك هوالذى ألقاه الشيطان فى خاطر إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]. وإنما ذلك فى مبادرته إلى الشمس وقوله: هذا ربى هذا أكبر، لأجل أنه أكبر أراد أن يخدعه به، وكيفية الوزن به أن الإله هو الأكبر، فهذا أصل معلوم الاتفاق والشمس هى أكبر من الكواكب وهذا أصل آخر معلوم بالحس، فيلزم منه أن الشمس إله وهى النتيجة وهذا ميزان ألصقه الشيطان بالميزان الأصغر من موازين التعادل لأن الأكبر وصف وجد للإله ووجد للشمس، فيوهم أن أحدهما يوصف بالآخر وهو عكس الميزان الأصغر، وحدّ ذلك الميزان أن يوجد شيئان لشىء واحد لا أن يوجد شىء واحد لشيئين فإنه إن وجد شيئان لشىء واحد وصف بعض أحدهما بالآخر كما سبق ذكره. أما إذا وجد شىء واحد لشيئين فلا يوصف

أحد الشيئين بالآخر، فانظر كيف يلبس الشيطان بالعكس. وعيار هذا الميزان الباطل من الصنجة الظاهرة البطلان اللون فإنه يوجد للسواد والبياض جميعًا، ثم لا يلزم أن يوصف البياض بالسواد أو السواد بالبياض، بل لو قال قائل: البياض لون والسواد لون فيلزم منه أن السواد بياض، كان خطأ باطلاً، فكذلك قوله الإله أكبر والشمس أكبر فالشمس إله، فهذا خطأ إذ يجوز أنْ يوصف المتضادان بوصف واحد، فاتصاف شيئين واحد لا يوجد بين الشيئين اتّصالاً. أما اتّصاف شيء واحد بشيئين فيوجب بين الوصفين اتّصالاً وكل من فهمه أدرك التفرقة بين اتصاف شيء واحد بشيئين وبين اتّصاف شيئين بشيء واحد.

فقال: قد اتّضح لى بطلان هذا، لكن متى وزن أهل التعليم كلامهم به؟

قلت: وزنوا به كلامًا كثيرًا أشح على أوقاتى أن أضيعها بحكايته، لكن أريك أنموذجًا واحدًا، فلقد سمعت كثيرًا من قولهم إن الحق مع الوحدة والباطل مع الكثرة، ومذهب الرأى يفضى إلى الكثرة، ومذهب التعليم يفضى إلى الوحدة فيلزم أن يكون الحقّ فى مذهب التعليم.

قال: نعم سمعت هذا كثيرًا واعتقدت هذا برهانًا وأعرفه برهانًا قاطعًا لا أشكّ فيه.

فقلت: هذا ميزان الشيطان فانظر كيف انتكس رفقاؤك واستعملوا قياس الشيطان وميزانه فى إبطال ميزان الخليل صلوات الله عليه وسلامه وسائر الموازين.

قال: وما وجه تخريجه عليه؟

فقلت: الشيطان إنما يلبس فى الموازين بتكثير الكلام فيه وتشويشه حتى لا يعلم منه موضع التلبيس وهذا كلام كثير حاصله يرجع إلى أن الحق يوصف بالوحدة، فهذا أصل وأن مذهب التعليم يوصف بالوحدة فهذا أصل آخر، فلزم منه أن مذهب التعليم يوصف بالوحدة وصف واحد بالحق لأن الوحدة فى شيء واحد فاتّصف به شيئان، فيجب اتّصاف أحد الشيئين بالآخر كقول القائل: اللون وصف واحد اتصف به البياض والسواد جميعًا فيلزم اتصاف البياض بالسواد، وكقول الشيطان: الأكبر وصف واحد يتصف به الإله والشمس فيلزم منه أن تتصف الشمس بالإله فلا فرق بين هذه الموازين الثلاثة. أعنى وجود اللون للسواد والبياض ووجود الأكبر للإله والشمس ووجود الوحدة للتعليم والحق، فتأمل لتفهم ذلك.

فقال: قد فهمت هذا قطعًا ولكنى لا أقنع بمثال واحد فاذكر لى مثالاً آخر من موازين رفقائى ليزداد قلبى سكونًا إلى معرفة انخداعهم بموازين الشيطان.

قلت: أما سمعت قولهم إن الحق إما أن يعرف بالرأى المحض أو بالتعليم المحض،

وإذا بطل أحدهما ثبت الآخر وباطل أن يكون مدركًا بالرأى العقلى المحض لتعارض العقول والمذاهب فثبت أنه بالتعليم.

فقال: إى والله قد سمعت ذلك كثيراً وهو مفتاح دعوتهم وعنوان حجتهم.

قلت: فهذا وزن بميزان الشيطان الذى ألصقه بميزان التعاند، فإن إبطال أحد القسمين ينتج ثبوت الآخر، ولكن بشرط أن تكون القسمة منحصرة لا منتشرة، والشيطان يلبس المنتشرة بالمنحصرة، فهذه منتشرة إذ ليست دائرة بين النفى والإثبات، بل يمكن قسم ثالث وهو أن يدرك بالعقل والتعليم جميعًا وعياره من الصنجات المعلوم بطلانها قول القائل: الألوان لا تدرك بالعين بل بنور الشمس. فقلنا: لِمَ؟ فقال: لا تخلو إما أن تدرك بالعين أو بنور الشمس وباطل أن تدرك بالعين لأنه لا يدرك بالليل فثبت أنه يدرك بنور الشمس، فيقال له: يامسكين ثم قسم ثالث وهو أن يدرك بالعين ولكن عند نور الشمس.

فقال: قد فهمت هذا أيضًا لكن أريد أن تزيدنى شرحًا للغلط الواقع فى الأنموذج الأول وهو حديث الحق والوحدة، فإن التفطن لموضع الغلط منه لطيف جدًا.

قلت: وجه الغلط ما ذكرت وهو التباس اتّصاف شىء واحد بشيئين باتّصاف شيئين بشىء واحد، ولكن أصل هذا الغلط إيهام العكس، فإن من علم أن كل واحد حقّ ربما يظن أن كل حقّ واحد وليس يلزم هذا العكس بل اللازم منه عكس خاص، وهو أن بعض الواحد حقّ فإن قولك: كل إنسان حيوان لا يلزم منه عكس عام وهو أن كل حيوان إنسان بل اللازم أن بعض الحيوان إنسان ولا يستولى الشيطان بحيله على الضعفاء بأشد وأكثر من تحيله بإيهام العكس العام حتى ينتهى إلى المحسوسات حتى أن من رأى حبلاً أسود مبرقش اللون يرتاع منه لشبهه بالحية وسببه معرفته أن كل حية فطويل متبرقش اللون فيسبق وهمه إلى عكسه العام، ويحكم بأن كل طويل متبرقش اللون فهو حية فيظن منه عكسًا عامًا، وهو أن كل طويل متبرقش اللون أسود فهو حية، وإنما اللازم منه عكس خاص وهو أن بعض الطويل المتبرقش حية لا أن كله كذلك، وفى العكس والنقيض دقائق كثيرة لا تفهمها إلا من كتاب محك النظر ومعيار العلم.

فقال: إنى أجد بكل مثال تذكره طمأنينة أُخرى لمعرفة موازين الشيطان فلا تبخل علىّ بمثال آخر من موازين الشّيطان.

قلت: إن فساد ذلك الميزان تارة يكون من سوء التركيب بأن لايكون تعلق الكفتين بالعمود تعلقًا مستقيمًا وتارة يكون من نفس الكفة وفساد طينتها التى منها اتخذت فإنها إما أن تتخذ من حديد أن نحاس أو جلد حيوان، فلو اتّخذت من الثلج أو القطن لم يمكن الوزن به. والسيف تارة يفسد لخلل شكله بأن يكون على هيئة العصا غير معترض ولا حادّ،

وتارة يكون من فساد طينته ومادته التى منها اتخذ بأن يكون متخذًا من خشب أوطين، وكذلك ميزان الشيطان قد يكون فساده لفساد تركيبه كما ذكرته فى مثال كبر الشمس ووحدة الحق فإن صورتها مختلة معكوسة كالذى يجعل الكفتين فوق العمود فيريد أن يزن به، وتارة يكون لفساد المادة كقول إبليس: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فى جواب قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]. وقد أدرج إبليس فى هذا ميزانين إذ علل منع السجود بكونه خيرًا منه ثم أثبت الخيرية بأنه خلق من نار، وإذا صرح بجميع أجزاء حجته وجد ميزانه مستقيم التركيب لكن فاسد المادة، وكمال صورته أن يقول ما خلق من نار خير والخير لا يسجد فأنا إذًا لا أسجد فكلا أصلى هذا القياس ممنوع لأنه غير معلوم، والعلوم الخفّية توزن بالعلوم الجلية وما ذكره غير جلى ولا مسلم إذ نقول له: نسلم أنك خير منه وهذا منع الأصل الأول، والآخر أنا لا نسلم أن الخير لا يلزمه السجود لأن اللزوم والاستحقاق بالأمر لا بالخيرية،لكن ترك إبليس الدلالة على الأصل الثانى وهو أن اللزوم والاستحقاق بالأمر لا بالخيرية واشتغل بإقامة الدليل على أنه خير: لأنى خلقت من نار. وهذه دعوى الخيرية بالنسب وكمال صورة دليله وميزانه أن يقول المنسوب إلى الخير خير، وأنا منسوب إلى الخير فإذًا أنا خير، وكلتا هاتين الكفتين أيضًا فاسدة فإنا لا نسلم أن المنسوب إلى الخير خير بل الخيرية بصفات الذات لا بالنسب، فيجوز أن يكون الحديد خيرًا من الزجاج ثم يتّخذ من الزجاج بحسن الصنعة ما هو خير من المتخذ من الحديد، وكذلك نقول إبراهيم صلوات الله عليه خير من ولد نوح وإن كان إبراهيم مخلوقًا من آزر وهو كافر وولد نوح من نبى. وأما أصله الثانى وهو أنه مخلوق من خير لأن النار خير من الطين فهذا أيضًا غير مسلم بل الطين خير لأنه من التراب والماء،وربما يقال إن بامتزاجهما قوام الحيوان والنبات وبهما يحصل النشوء والنمو، وأما النار فمفسدة ومهلكة للجميع فقوله إن النار خير باطل. فهذه الموازين صحيحة الصورة فاسدة المادة تشبيهًا بالسيف المتخذ من الخشب بل هى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وكذا يرى أهل التعليم أحوالهم يوم القيامة إذا كشفت لهم حقائق موازينهم وهذا أيضًا مدخل من مداخل الشيطان ينبغى أن يسد، بل المادة الصحيحة التى تستعمل فى النظر كل أصل معلوم قطعًا إما بالحس، وإما بالتجربة، وإما بالتواتر الكامل أو بأول العقل أو بالاستنتاج من هذه الجملة. أما الذى يستعمل فى المحاجة والمجادلة فما يعترف به الخصم ويسلمه وإن لم يكن معلومًا فى نفسه فإنه تصير حجته عليه وكذلك تجرى بعض أدلة القرآن، فلا ينبغى أن ننكر أدلة القرآن إذا أمكنك التشكيك فى أصولها لأنها أوردت على طوائف كانوا معترفين بها.

القول فى الاستغناء بمحمد ﷺ وبعلماء أمته عن إمام معصوم آخر وبيان معرفة صدق محمد صلى الله عليه وسلم بطريق أوضح من النظر فى المعجزات وأوثق منه وهو طريق العارفين

فقال: لقد أكملت الشفاء وكشفت الغطاء وأتيت باليد البيضاء لكن بنيت قصرًا وهدمت مصرًا، فإنى إلى الآن كنت أتوقع أن أتعلم منك الوزن بالميزان وأستغنى بك وبالقرآن عن الإمام المعصوم فالآن إذ ذكرت هذه الدقائق فى مداخل الغلط فقد آيست من الاستقلال به، فإنى لا آمن أن أغلط لو اشتغلت بالوزن وقد عرفت الآن لم اختلف الناس فى هذه المذاهب وذلك لأنهم لم يتفطنوا لهذه الدقائق كما فطنت، فغلط بعضهم وأصاب بعضهم، فإذًا أقرب الطرق لى أن أعول على الإمام المعصوم حتى أتخلص من هذه الدقائق.

فقلت: يامسكين، معرفتك بالإمام الصادق ليست ضرورية فهى إما أن تكون تقليدًا للوالدين أو موزونة بشىء من الموازين فإن كل علم ليس أوّليًّا فبالضرورة يكون حاصلاً عند صاحبه بقيام هذه الموازين فى نفسه وإن كان هو لا يشعر به، فإنك عرفت صحة ميزان التقدير بانتظام الأصلين فى ذهنك التجريبى والحسّى، وكذلك سائر الناس وهو لا يشعرون به ومن يعرف مثلاً أن هذا الحيوان غير حامل لأنه بغل عرفه بانتظام الأصلين اللذين ذكرناهما فى صدر الكتاب وإن كان لايشعر بمصدر علمه. وكذلك كل علم فى العالم يحصل للإنسان فيكون كذلك فأنت إن أخذت اعتقاد العصمة فى الإمام الصادق بل فى محمّد ﷺ تقليدًا للوالدين والرفقاء لم تتميز عن اليهود والنصارى والمجوس، فإنهم كذلك فعلوا، وإن أخذته من الوزن بشىء من هذه الموازين فلعلك غلطت فى دقيقة من دقائقه فينبغى على زعمك أن لا تثق به.

فقال: صدقت، فأين الطريق فلقد سددت علىَّ طريق التعليم والوزن جميعًا.

قلت: هيهات راجع القرآن فقد علمك الطريق، إذ قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠١]. ولم يقل سافروا إلى الإمام المعصوم فإذا هم مبصرون فأنت تعلم أن المعارف كثيرة فلو ابتدأت فى كل مشكلة سفرًا إلى الإمام المعصوم بزعمك طال عناؤك وقلّ علمك، لكن طريقك أن تتعلم منى كيفية الوزن وتستوفى شروطه فإن أشكل عليك شىء عرضته على الميزان وتفكرت فى شروطه

بفكر صاف وجدّ واف فإذا أنت مبصر وهذا كما لو حسبت ما للبقال عليك أو لك عليه أو قسمت في مسألة من مسائل الفرائض وشككت في الإصابة والخطأ فيطول عليك أن تسافر إلى الإمام المعصوم، ولكن تحكم على الحساب وتتذكره ولا تزال تعاوده مرة بعد أُخرى حتى تستيقن قطعًا أنك ما غلطت في دقيقة من دقائقها وهذا يعرفه من يعرف علم الحساب، وكذلك من يعرف الوزن به كما أعرفه فينتهي به التذكر والتفكر والمعاودة مرة بعد أخرى إلى اليقين الضروري بأنه ما غلط، فإن لم تسلك هذه الطريق لم تفلح قط وصرت تشكك بلعلّ وعسى ولعلك قد غلطت في تقليدك لإمامك بل للنبي الذي آمنت به فإن معرفة صدق النبي ﷺ ليست ضرورية.

فقال: لقد ساعدتني على أن التعليم حقّ، وأن الإمام هو النبيّ ﷺ واعترفت بأن كل واحد لايمكنه أن يأخذ العلم من النبيّ ﷺ دون معرفة الميزان، وأنه لا يمكنه معرفة تمام الميزان إلا منك فكأنك ادعيت الإمامة لنفسك خاصّة، فما برهانك ومعجزتك، فإن إمامي إما أن يقيم معجزة وإما أن يحتجّ بالنص المتعاقب من آبائه إليه، فأين نصك وأين معجزتك؟

فقلت: أما قولك: إنك تدعى الإمامة لنفسك خاصة، فليس كذلك فإني أرجو أن يشاركني غيري في هذه المعرفة فيمكن أن يتعلم منه كما يتعلم منّي فلا أجعل التعليم وقفًا على نفسي. وأما قولك: تدّعي الإمامة لنفسك، فاعلم أن الإمام قد نعني به الذي يتعلم من الله تعالى بواسطة جبريل وهذا لا أدعيه لنفسي، وقد نعني به الذي يتعلم من الله بغير جبريل ومن جبريل بواسطة الرسول، ولهذا سمى علي رضي الله عنه إمامًا فإنه تعلم من الرسول لا من جبريل، وأنا بهذا المعنى أدّعي الإمامة لنفسي. أما برهاني عليه فأوضح من النص ومما تعتقده معجزة فإن ثلاثة أنفس لو ادعوا عندك أنهم يحفظون القرآن.

فقلت: ما برهانك؟ فقال أحدهم: برهاني أنه نصّ عليّ الكسائي أستاذ المقرئين إذ نص على أستاذي وأستاذي نص عليّ فكأن الكسائي نص عليّ. وقال الثاني: إني أقلب العصا حية فقلب العصا حية. وقال الثالث: برهاني أني أقرأ جميع القرآن بين يديك من غير مصحف، فليت شعري أي هذه البراهين أوضح عندك وقلبك بأيها أشد تصديقًا؟ فقال: بالذي قرأ القرآن فهو غاية البراهين إذ لا يخالجني فيه ريب، أما نصّ أستاذه عليه ونصّ الكسائي على أستاذه فيتصور أن تقع فيه أغاليط لا سيما عند طول الأسفار. وأما قلب العصا حية فلعله فعل ذلك بحيلة وتلبيس وإن لم يكن تلبيسًا فغايته أنه فعل عجيب ومن أين يلزم أن من قدر على فعل عجيب ينبغي أن يكون حافظًا للقرآن.

قلت: فبرهانى إذًا أيضًا أنى كما عرفت هذه الموازين فقد عرفت وأفهمت وأزلت الشك عن قلبك فى صحته فيلزمك الإيمان بإمامتى كما أنك إذا تعلمت الحساب وعلمته من أستاذ فإنه إذا علّمك الحساب حصل لك علم بالحساب، وعلم آخر ضرورى بأن أستاذك حاسب وعالم الحساب، وكذلك فقد علمت من تعليمه علمه وصحة دعواه أيضًا فى أنه حاسب، وكذلك آمنت أنا بصدق محمّد ﷺ وصدق موسى عليه السلام لا بشق القمر ولا بقلب العصا حية بمجردهما، فإن ذلك يتطرق إليه حينئذ التباس كثير فلا يوثق به بل من يؤمن بقلب العصا حية يكفر بخوار العجل. فإن التعارض فى عالم الحسّ والشهادة كثير جدًا، لكنى تعلمت الموازين من القرآن ثم وزنت بها جميع المعارف الإلهية بل أحوال المعاد. وعذاب القبر وعذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة، كما ذكرته فى كتاب جواهر القرآن فوجدت جميعها موافقة لما فى القرآن، ولما فى الأخبار فتيقنت أن محمّدًا ﷺ صادق وأن القرآن حق، وفعلت كما قال علّى رضي الله عنه إذ قال: «لا تعرف الحق بالرجال أعرف الحق تعرف أهله». فكانت معرفتى بصدق النبىّ ﷺ ضرورية كمعرفتك إذا رأيت رجلاً غريبًا يناظر فى مسألة من مسائل الفقه ويحسن فيها ويأتى بالفقه الصحيح الصريح، فإنك لاتتمارى فى أنه فقيه ويقينك الحاصل به أوضح من اليقين الحاصل بفقهه لو قلب ألف عصًا ثعبانًا لأن ذلك يتطرق إليه احتمال السحر والتلبيس والطلسم وغيرها ولا يحصل العلم بالقرآن بينها وبين هذه الأشياء، وكونها معجزة إلاّ بعد بحث طويل ونظر دقيق ويحصل به إيمان ضعيف هو إيمان العوام والمتكلمين، فأما إيمان أرباب المشاهدة الناظرين من مشكاة الربوبية كذلك تكون.

فقال: فأنا أيضًا أشتهى أن أعرف النبىّ ﷺ كما عرفته، وقد ذكرت أن ذلك لا يعرف إلا بأن توزن جميع المعارف الإلهية بهذا الميزان وما اتّضح عندى أن جميع المعارف الدينية يمكن وزنها بهذه الموازين فيما أعلم ذلك؟

قلت: هيهات لا أدعى أنى أزن بها المعارف الدينية فقط، بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعية والفقهية والكلامية وكل علم حقيقى غير وضعى، فإنى أميز حقّه عن باطله بهذه الموازين، وكيف لا وهو القسطاس المستقيم والميزان الذى هو رفيق الكتاب والقرآن فى قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥]. وأما معرفتك بقدرتى على هذا فلا تحصل لا بنصّ ولا بقلب العصا ثعبانًا، ولكن تحصل بأن تستكشف ذلك تجربة وامتحانًا فمدعى الفروسية لا ينكشف صدقه حتى يركب فرسًا ويركض ميدانًا فسلنى عما شئت من العلوم الدينية لأكشف لك الغطاء عن الحقّ فيه واحدًا واحدًا وأزنه بهذا الميزان وزنًا يحصل لك علم ضرورى بأن الوزن صحيح وأن العلم المستفاد منه مستيقن ومن لم يجرب لم يعرف.

فقال: وهل يمكنك أن تعرف جميع الحقائق والمعارف الإلهية جميع الخلق فترفع الاختلافات الواقعة بينهم؟

قلت: هيهات لا أقدر عليه وكان إمامك المعصوم إلى الآن قد رفع الاختلافات بين الخلائق وأزال الإشكالات عن القلوب، بل الأنبياء متى رفعوا الاختلاف ومتى قدروا عليه بل اختلاف الخلق حكم ضرورى أزلى. ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربّك، أفأدعى أن أرد قضاء الله الذى قضى به الأزل أو يقدر إمامك أن يدعى ذلك فإن كان يدعيه فلِمَ ادخره إلى الآن والدنيا طافحة بالاختلافات. وليت شعرى رئيس الأمة على بن أبى طالب ﷺ كما سبب رفع الاختلافات بين الخلق أو سبب تأسيس اختلافات لا تنقطع أبد الدهر.

القول فى طريق نجاة الخلق من ظلمات الاختلافات

فقال: كيف نجاة الخلق من هذه الاختلافات؟

قلت: أن اصغوا إلىَّ، رفعت الاختلاف بينهم بكتاب الله تعالى، ولكن لا حيلة فى إصغائهم فإنهم لم يصغوا بأجمعهم إلى الأنبياء ولا إلى إمامك، فكيف يصغون إلىَّ وكيف يجتمعون على الإصغاء وقد حكم عليهم فى الأزل بأنهم لايزالوا مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم، وكون الخلاف بينهم ضرورياً تعرفه من كتاب جواب مفصل الخلاف وهو الفصول الاثنا عشر.

فقال: فلو أصغوا كيف كنت تفعل؟ قلت: كنت أعاملهم بآية واحدة من كتاب الله تعالى، إذ قال: ﴿**وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ**﴾ [الحديد: ٢٥]. وإنما أنزل هذه الثلاث لأن الناس ثلاثة أصناف وكل واحد من الكتاب والحديد والميزان علاج قوم .

فقال: فمن هم وكيف علاجهم؟ قلت: الناس ثلاثة أصناف عوام وهم أهل السلامة البله وهم أهل الجنة، وخواص وهم أهل الذكاء والبصيرة ويتولد بينهم طائفة هم أهل الجدل والشغب فيتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة. أما الخواصّ فإنى أعالجهم بأن أعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها فيرتفع الخلاف بينهم على قرب وهؤلاء قوم اجتمع فيهم ثلاث خصال:

إحداها: القريحة النافذة والفطنة القوية وهذه عطية فطرية وغريزة جبلية لا يمكن كسبها.

والثانية: خلو باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث ومسموع فإن المقلد لا يصغى والبليد وإن أصغى فلا يفهم.

الثالثة: أن يعتقد فى أنى من أهل البصيرة بالميزان ومن لم يؤمن بأنك تعرف الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك.

والصنف الثانى البله: وهم جميع العوام وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق وإن كانت لهم فطنة فطرية فليس لهم داعية الطلب بل شغلتهم الصناعات والحرف وليس فيهم أيضًا داعية الجدل بخلاف المتكايسين فى العلم مع قصور الفهم عنه. فهؤلاء لايختلفون ولكن يتخيرون بين الأئمة المختلفين فأدعو هؤلاء إلى الله بالموعظة كما أدعو أهل البصيرة بالحكمة، وأدعو أهل الشغب بالمجادلة وقد جمع الله سبحانه وتعالى هذه الثلاثة فى آية واحدة كما تلوته عليك أولاً، فأقول لهم ما قاله رسول الله ﷺ لأعرابى جاءه فقال: علمين فى غرائب العلم فعلم رسول ﷺ أنه ليس أهلاً لذلك، فقال: وماذا علمت فى رأس العلم أى الإيمان والتقوى والاستعداد للآخرة اذهب فاحكم رأس العلم ثم ارجع لأعلمك من غرائبه. فأقول للعامى: ليس الخوض فى الاختلافات من عشك فادرج فإياك أن تخوض فيه أو تصغى إليه فتهلك، فإنك إذا صرفت عمرك فى صناعة الصياغة لم تكن من أهل الحياكة، وقد صرفت عمرك فى غير العلم، فكيف تكون من أهل العلم ومن أهل الخوض فيه، فإياك ثم إياك أن تهلك نفسك فكل كبيرة تجرى على العامى أهون من أن يخوض فى العلم فيكفر من حيث لا يدرى. فإن قال: لا بدّ من دين أعتقده وأعمل به لأصل به إلى المغفرة والناس مختلفون فى الأديان، فبأى دين تأمرنى أن آخذ أو أعول عليه؟ فأقول له: للدين أُصول وفروع والاختلاف إنما يقع فيهما، أما الأصول فليس عليك أن تعتقد فيها إلا ما فى القرآن، فإن الله تعالى لم يستر عن عباده صفاته وأسماءه، فعليك أن تعتقد أن لا إله إلا الله وأن الله حى عالم قادر سميع بصير جبار متكبر قدوس ليس كمثله شىء إلى جميع ما ورد فى القرآن واتّفق عليه الأئمة، فذلك كاف فى صحّة الدين وإن تشابه عليك شئ، فقل: آمنا كل من عند ربنا واعتقد كل ماورد فى إثبات الصفات ونفيها على غاية التعظيم والتقديس مع نفى المماثلة واعتقاد أنه ليس كمثله شئ وبعد هذا لا تلتفت إلى القيل والقال فإنك غير مأمور به ولا هو على حد طاقتك، فإن أخذ يتحذلق ويقول عليه وقد اختلف فيه الأشعرية والمعتزلة فقد خرج بهذا عن حدّ العوام إذ العامى لا يلتفت قلبه إلى مثل هذا ما لم يحركه شيطان الجدل، فإن الله يهلك قومًا إلا يؤتيهم الجدل كذلك ورد الخبر، وإذا التحق بأهل الجدل فسأذكر علاجهم هذا ما أعظ به فى الأُصول وهو الحوالة على كتاب الله فإن الله أنزل الكتاب والميزان والحديد وهؤلاء أهل الحوالة على الكتاب.

وأما الفروع فأقول: لا تشغل قلبك بمواقع الخلاف ما لم تفرغ عن جميع المتفق عليه فقد اتفقت الأئمة على أن زاد الآخرة هو التقوى والورع، وأن الكسب الحرام والمال الحرام

والغيبة والنميمة والزنى والسرقة والخيانة وغير ذلك من المحظورات حرام، والفرائض كلها واجبة فإن فرغت من جميعها علمتك طريق الخلاص من الخلاف فإن هو طالبنى بها قبل الفراغ منْ هذا كله فهو جدلى وليس بعامى ومتى تفرغ العامى من هذا إلى مواضع الخلاف. أفرأيت رفقاءك قد فرغوا من جميع هذا ثم أخذ إشكال الخلاف بمخنقهم هيهات ما أشبه ضعف عقولهم فى خلافهم إلا بعقل مريض به مرض أشرف على الموت وله علاج متفق عليه بين الأطباء وهو يقول قد اختلف الأطباء فى بعض الأدوية أنها حارّة أو باردة وربما افتقرت إليه يومًا فأنا لا أعالج نفسى حتى أجد من يعلمنى رفع الخلاف فيه. نعم لو رأيتم صالحًا قد فرغ من حدود التقوى كلها. وقال: ها أنا تشكل علىّ مسائل فإنى لا أرى أتوضأ من اللمس والقئ والرعاف وأنوى الصوم بالليل فى رمضان أو بالنهار إلى غير ذلك، فأقول له: إن كنت تطلب الأمان فى طريق الآخرة فاسلك سبيل الاحتياط وخذ مما يتفق عليه فتوضأ من كل ما فيه خلاف فإن كل من لا يوجبه يستحبه، وانوِ الصوم بالليل فى رمضان فإن من لا يوجبه يستحبه، فإن قال: هو ذا يثقل علىّ الاحتياط ويعرض لى مسائل تدور بين النفى والإثبات، وقال: لا أدرى أأقنت فى الصبح أم لا وأجهر بالتسمية أم لا، فأقول له: الآن اجتهد مع نفسك وانظر إلى الأئمة أيهم أفضل عندك وصوابه أغلب على قلبك كما لو كنت مريضًا وفى البلد أطباء فإنك تختار بعض الأطباء باجتهادك لا بهواك وطبعك فيكفيك مثل ذلك الاجتهاد فى أمر دينك، فمن غلب على ظنك أنه الأفضل فاتبعه فإن أصاب فيما قال عند الله فله فى ذلك أجران. وإن أخطأ فله عند الله فى ذلك أجر واحد، وكذلك قال رسول الله ﷺ إذ قال: «**من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**» . ورد الله تعالى الأمر إلى أهل الاجتهاد وقال تعالى لتعليمه الذين يستنبطون منهم وارتضى الاجتهاد لأهله وقال تعالى لتعليمه الذين يستنبطون منهم وارتضى الاجتهاد لأهله إذ قال رسول الله ﷺ لمعاذ: «**بِمَ تَحْكُمُ؟**» قال: بكتاب الله، قال: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟**» قال: بسنة رسول الله ﷺ، قَالَ: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟**» قال: أَجْتَهِدُ رَأْيِى، قال: ذلك قبلَ أن أمره به رسول الله ﷺ وأذن له فيه، فقال النبىّ ﷺ: «**الحَمْدُ لله الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يَرْضَاهُ رَسُولُ الله**». ففهم من ذلك أنه مرضى به من رسول الله ﷺ لمعاذ وغيره، كما قال الأعرابى إنى هلكت وأهلكت واقعت أهلى فى نهار رمضان، فقال: «**أَعْتِقْ رَقَبَةً**» ففهم أن التركى أو الهندى لو جامع أيضًا لزمه الإعتاق وهذا لأن الخلق ما كلفوا الصواب عند الله فإن غير ذلك مقدور عليه ولا تكليف بما لا يطاق بل كلفوا ما يظنونه صوابًا، كما لم يكلفوا الصلاة بثوب طاهر بل بثوب يظنونه أنه طاهر، فلو تذكروا نجاسته لم يلزمهم القضاء إذ نزع رسول الله ﷺ نعله فى أثناء الصلاة لما أنبأه جبريل أن

عليه قذراً ولم يعد الصلاة ولم يستأنف، وكذلك لم يكلف أن يصلي إلى القبلة بل إلى جهة يظن أنها القبلة بالاستدلال بالجبال والكواكب والشمس فإن أصاب فله أجران وإلا فله أجر واحد. ولم يكلفوا أداء الزكاة إلى الفقير بل إلى من ظنوا فقره لأن ذلك لايعرف باطنه ولم يكلف القضاة فى سفك الدماء وإباحة الفروج طلب شهود يعلمون صدقهم بل من يظنون صدقه، وإذا جاز سفك دم بظن يحتمل الخطأ وهو ظن صدق الشهود فلم لاتجوز الصلاة بظن شهادة الأدلة عند الاجتهاد، وليت شعرى ماذا يقول رفقاؤك فى هذا؟ يقولون إذا اشتبهت عليه القبلة يؤخر الصلاة حتى يسافر إلى الإمام ويسأله أو يكلفه الإصابة التى لا يطيقها، أو يقول اجتهد لمن لا يمكنه الاجتهاد إذ لايعرف أدلّة القبلة وكيفية الاستدلال بالكواكب أو الجبال والرياح.

قال: لا شك فى أنه يأذن له فى الاجتهاد ثم لا يؤثمه إذا بذل مجهوده وإن أخطأ أو صلّى إلى غير القبلة.

قلت: فإذا كان من جعل القبلة خلفه معذوراً مأجوراً فلا يبعد أن يكون من أخطأ فى سائر الاجتهادات معذوراً، فالمجتهدون ومقلدوهم كلهم معذورن بعضهم مصيبون ما عند الله وبعضهم يشاركون المصيبين فى أحد الأجرين، فمناصبهم متقاربة وليس لهم أن يتعاندوا، وأن يتعصب بعضهم مع بعض لا سيّما والمصيب لا يتعين وكل واحد منهم يظن أنه مصيب كما لو اجتهد مسافران فى القبلة فاختلفا فى الاجتهاد فحقهما أن يصلى كل واحد منهما إلى الجهة التى غلبت على ظنه وأن يكف إنكاره وإعراضه واعتراضه على صاحبه لأنه لم يكلف إلا استعمال موجب ظنه. أما استقبال عين القبلة عند الله فلا يقدر عليه، وكذلك كان معاذ فى اليمن يجتهد لا على اعتقاد أنه لا يتصور منه الخطأ لكن على اعتقاد أنه إن أخطأ كان معذوراً، وهذا لأن الأمور الوضعية الشرعية التى يتصور أن تختلف بها الشرائع يقرب فيها الشئ من نقيضه بعد كونه مظنوناً فى سر الاستبصار، وأما ما لا تتغير فيه الشرائع فليس فيه اختلاف، وحقيقة هذا الفصل تعرفه من أسرار اتباع السنة وقد ذكرته فى الأصل العاشر من الأعمال الظاهرة من كتاب جواهر القرآن.

وأما الصنف الثالث: وهم أهل الجدل فإنى أدعوهم بالتلطف إلى الحقّ، وأعنى بالتلطف أن لا أتعصب عليهم ولا أعنفهم لكن أرفق وأجادل بالتى هى أحسن، وكذلك أمر الله تعالى رسوله، ومعنى المجادلة بالأحسن أن آخذ الأصول التى يسلمها الجدلى وأستنتج منها الحق بالميزان المحقق على الوجه الذى أوردته فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد، وإلى ذلك الحدّ فإن لم يقنعه ذلك لتشوّقه بفطنته إلى مزيد كشف رقيته إلى تعليم الموازين فإن لم يقنعه لبلادته وإصراره على تعصبه ولجاجه وعناده عالجته بالحديد، فإن الله سبحانه جعل الحديد والميزان قريني الكتاب ليفهم منه أن جميع الخلائق لا يقومون بالقسط إلا بهذه

الثلاث، فالكتاب للعوام، والميزان للخواص، والحديد الذى فيه بأس شديد للذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ولا يعلمون أن ذلك ليس من شأنهم، وأنه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم دون أهل الجدل، وأعنى الجدل طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام ولكن قياستهم ناقصة إذا كانت الفطرة كاملة، لكن فى باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفى آذانهم وقرًا، لكن لم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة، فإن الفطنة البتراء والكياسة الناقصة شر من البلاهة بكثير، وفى الخبر: أن أكثر أهل الجنة البله وأن عليين لذوى الألباب، ويخرج من جملة الفريقين الذين يجادلون فى آيات الله وأولئك أصحاب النار ويزع الله السلطان ما لا يزع بالقرآن، وهؤلاء ينبغى أن يمنعوا من الجدال بالسيف والسنان كما فعل عمر ﷺ برجل إذ سأله عن آيتين متشابهتين فى كتاب الله تعالى فعلاه بالدرة، وكما قال مالك ﷺ لما سئل عن الاستواء على العرش فقال: الاستواء حقّ، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة، وحسم بذلك باب الجدال. وكذلك فعل السلف كلهم وفى فتح باب الجدال ضرر عظيم على عباد الله تعالى، فهذا مذهبى فى دعوة الناس إلى الحق وإخراجهم من ظلمات الضلال إلى نور الحق، وذلك بأن دعوة الخواص إلى الحكمة بتعليم الميزان حتى إذا تعلم الميزان القسط لم يقدر به على علم واحد بل على علوم كثيرة، فإن من معه ميزان فإنه يعرف به مقادير أعيان لا نهاية لها كذلك من معه القسطاس المستقيم فمعه الحكمة التى من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيراً لا نهاية له، ولولا اشتمال القرآن على الموازين لما صحّ تسمية القرآن نوراً لأن النور ما يبصر بنفسه ويبصر به غيره وهو نعت الميزان، ولما صدق قوله: ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين، فإن جميع العلوم غير موجودة فى القرآن بالتصريح، ولكن موجودة فيه بالقوة لما فيه من الموازين القسط التى بها تفتح أبواب الحكمة التى لا نهاية لها، فبهذا أدعو الخواص ودعوت العوام بالموعظة الحسنة بالإحالة على الكتاب والاقتصار على ما فيه من الصفات الثابتة لله تعالى، ودعوت أهل الجدل بالمجادلة التى هى أحسن فإن أبى عرضت عن مخاطبته وكففت شره ببأس السلطان والحديد المنزل مع الميزان، فليت شعرى الآن يارفيقى بم يعالج إمامك هؤلاء الأصناف الثلاثة؟ أيعلم العوام فيكلفهم ما لا يفهمون، ويخالف رسول الله ﷺ أو يخرج الجدال من أدمغة المجادلين بالحجة ولم يقدر على ذلك رسول الله ﷺ مع كثرة محاجة الله تعالى فى القرآن مع الكفار؟ فما أعظم قدرة إمامك إذ صار أقدر من الله تعالى ومن رسوله أو يدعو أهل البصيرة إلى تقليده وهم لا يقبلون قول الرسول ﷺ بالتقليد ولا يقنعون بقلب العصا ثعبانًا، بل يقولون وهو فعل غريب، ولكن من أين يلزم

منه صدق فاعله وفى العالم من غرائب السحر والطلسمات ما تتحيّر فيه العقولُ ولا يقوى على تمييز المعجز عن السحر والطلسم إلا من عرف جميعها، وجملة أنواعها ليعلم أن المعجز خارج عنها كما عرف سحرة فرعون معجزة موسى عليه السلام إذ كانوا من أئمة السحرة. ومن الذى يقوى على ذلك؟ بل أهل البصيرة يريدون مع المعجزة أن يعلموا صدقه من قوله كما يعلم متعلم الحساب من نفس الحساب صدق أستاذه فى قوله إنى حاسب. فهذه هى المعرفة اليقينية التى بها يقنع أولو الألباب وأهل البصائر ولا يقنعون بغيرها البتّة وهم إذا عرفوا بمثل هذا المنهاج صدق الرسول ﷺ وصدق القرآن وفهموا موازين القرآن كما ذكرت لك، وأخذوا منه مفاتيح العلوم كلها مع الموازين كما ذكرته فى كتاب جواهر القرآن، فمن أين يحتاجون إلى إمامك المعصوم، وما الذى حلّ من إشكالات الدين وعن ماذا كشف عن غوامضه. قال الله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]. وقد سمعت الآن منهاجى فى موازين العلوم فأرونى ماذا اقتبسته من غوامض العلوم من إمامك إلى الآن، وما الذى يتعلمون منه؟ وليت شعرى ما الذى تعلمت من إمامك المعصوم أرنى ما رأيتها:

ما يسدى بى رتسدى أوف
خرابن وقلب ياوفوت

فليس الغرض من الدعوة إلى المائدة مجرد الدعوة دون الأكل والتناول منها وإنى أراكم تدعوا الناس إلى الإمام ثم أرى المستجيب أمامك بعد الاستجابة على جهله الذى كان قبله لم يحل له الإمام عقدًا بل ربما عقد له حلاً ولم تفده استجابته له علمًا بل ربما زاد به طغيانًا وجهلاً.

فقال: قد طالت صحبتى مع رفقائى، ولكن ما تعلمت منهم شيئًا إلا أنهم يقولون عليك بمذهب التعليم، وإياك والرأى والقياس فإنه متعارض مختلف.

قلت: فمن الغرائب أن يدعو إلى التعليم ثم لا يشتغلوا بالتعليم فقل لهم: قد دعوتمونى إلى التعليم فاستجبت فعلمونى ما عندكم.

فقال: ما أراهم يزيدوننى على هذا شيئًا.

قلت: فإنى قائل أيضًا بالتعليم وبالإمام ويبطلان الرأى والقياس وأنا أزيدك على هذا لو أطقت تركِ التقليد تعليم غرائب العلوم وأسرار القرآن، فاستخرج لك منه مفاتيح العلوم كلها كما استخرجت منه موازين العلوم كلها على ما أشرت إلى كيفية انشعاب العلوم كلها منه فى كتاب جواهر القرآن، لكنى لست أدعو إلى إمام سوى محمّد ﷺ ولا إلى كتاب سوى القرآن، فمنه أستخرج جميع أسرار العلوم. وبرهانى عن ذلك لسانى وبيانى، وعليك إن شككت تجريبى وامتحانى أفترانى أولى بأن أتعلم من رفقائك أم لا؟

القول فى تصاوير الرأى والقياس وإظهار بطلانهما

فقال: أما الانقطاع عن الرفقاء والتعليم منك فربما يمنعنى منه ما حكيته لك من وصية والدتى حين كانت تموت، ولكنى أشتهى أن تكشف عن وجه فساد الرأى والقياس فإنى أظنك تستضعف عقلى فتلبس علىَّ فتسمى القياس والرأى ميزانًا وتتلو علىَّ وفق ذلك قرآنًا، وأنا أظنه أنه بعينه القياس الذى يدعيه أصحابك.

قلت: هيهات، فها أنا أشرح لك ما أريده وأراوده بالرأى والقياس. أما الرأى والقياس فمثاله قول المعتزلة: يجب على الله سبحانه وتعالى رعاية الأصلح لعباده وإذا طولبوا بتحقيقه لم يرجعوا إلى شىء إلا أنه رأى استحسنوه بعقولهم من مقايسة الخالق على الخلق وتشبيه حكمته بحكمتهم، ومستحسنات العقول هى الرأى الذى لا أرى التعويل عليه فإنه ينتج نتائج تشهد موازين القرآن بفسادها كهذه المقالة فإنى إذا وزنتها بميزان التلازم.

قلت: لوكان الأصلح واجبًا على الله تعالى لفعله ومعلم أنه لم يفعله، فدلّ على أنه غير واجب فإنه لا يترك الواجب، فإن قيل: سلمت أنه لو كان واجبًا لفعله، ولكن لا أسلم أنه لم يفعله، فأقول: لو فعل الأصلح لخلقهم فى الجنة وتركهم فيها فإن ذلك أصلح لهم ومعلوم أنه لم يفعل ذلك فدّل على أنه لم يفعل الأصلح. وهذه أيضًا نتيجة من ميزان التلازم والآن الخصم بين أن ينكر ويقول تركهم فى الجنة فيشاهد كذبه، أو يقول كان الأصلح لهم أن يخرجوا إلى الدنيا دار البلايا ويعرضهم للخطايا ثم يقول لآدم يوم يكشف عن الخطايا: اخرج يا آدم نصيب النار، فيقول: كم، فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كما ورد فى الخبر الصحيح ويزعم أن ذلك أصلح لهم من خلقهم فى الجنة وتركهم فيها لأن نعيمهم إذ ذاك لا يكون لسعيهم واستحقاقهم فتعظم المنة عليهم والمنة ثقيلة، وإذا سمعوا وأطاعوا كان ما أخذوه جزاء وأجرة لا منة فيها، وأنا أنزه سمعك ولسانى عن حكاية مثل هذا الكلام فضلاً عن الجواب عنه. فانظر فيه لترى قبائح نتائج الرأى كيف هى وأنت تعلم أن الله تعالى ينزل الصبيان إذا ماتوا فى منزل من الجنة دون منازل البالغين المطيعين، فإذا قالوا: إلهنا أنت لا تبخل بالأصلح لنا والأصلح لنا أن تبلغنا درجتهم، فيقول الله، على زعم المعتزلة: كيف أبلغكم درجتهم وقد بلغوا وتعبوا وأطاعوا وأنتم متم صبيانًا، فيقولون: أنت أمتنا فحرمتنا طول المقام فى الدنيا ومعالى الدرجات فى الآخرة فكان الأصلح لنا والأصلح بنا أن تبلغنا درجتهم، أو أن لا تميتنا، فلم أمتنا؟ فيقول الله تعالى، على رأى المعتزلة: إنى قد علمت أنكم لو بلغتم لكفرتم واستحققتم النار خالدين فيها، فعلمت أن الأصلح لكم الموت فى الصبا، وعند هذا ينادى الكفار البالغون من دركات النار يصطرخون

ويقولون: أما علمت أنا إذا بلغنا كفرنا فهلا أمتنا فى الصبا فإنا راضون بعشر عشر درجات الصبيان فعند هذا لا يبقى للمعتزلى جواب يجيب به عن الله تعالى، فتكون الحجة للكفار على لله سبحانه، تعالى الله عن قول الظالمين علوًّا كبيرًا، نعم لفعل الأصلح سر يستمد من معرفة سر الله تعالى فى القدر، ولكن المعتزلى لاينظر من ذلك الأصل فإنه لا يطلع ببضاعة الكلام على ذلك السر فمن هذا خبط خبط عشواء واضطربت عليه الآراء فهذا مثال الرأى الباطل عندى.

وأما مثال القياس فهو إثبات الحكم فى شئ بالقياس على غيره كقول المجسمة إن الله تعالى وتقدس عن قولهم جسم. قلنا: لِمَ؟ قالوا: لأنه فاعل صانع فكان جسمًا قياسًا على سائر الصناع والفاعلين، وهذا هو القياس الباطل، كما قلنا: لم قلتم إن الفاعل كان جسمًا لأنه فاعل، وذلك لا يقدر على إظهاره مهما وزن بميزان القرآن فإن ميزانه هو الميزان الأكبرمن موازين التعادل، وصورة وزنه أن يقال: كل فاعل جسم والبارئ تعالى فاعل فهو أيضًا جسم، فنقول: نسلم أن البارئ تعالى فاعل، ولكن لا نسلم الأصل الأوّل وهو أن كل فاعل جسم فمن أين عرفتم ذلك؟ وعند هذا لا يبقى لهم إلا الاعتصام بالاستقراء والقسمة المنتشرة وكلاهما لاحجّة فيه. أما الاستقراء فهو أن يقول تصفحت الفاعلين من حائك وحجام وإسكاف وخياط ونجار وفلان وفلان فوجدتهم أجسامًا فقلت إن كل فاعل جسم، فيقال له: تصفحت كل الفاعلين أو شذّ عنك فاعل، فإن قال: تصفحت البعض، فلا يلزم منه الحكم على الكل، وإن قال: تصفحت الكل، فلا نسلم له ذلك فليس كل الفاعلين معومًا عنده. كيف وهل تصفح فى جملة ذلك فاعل السموات والأرض فإن لم يتصفح الكل بل البعض لم يلزم الكل، وإن تصفح فهل وجد جسمًا، فإن قال: نعم، فيقال له: فإذا وجدت ذلك فى مقدمة قياسك فكيف جعلته أصلاً تستدلّ به عليه فجعلت نفس وجدانك دليل ما وجدته وهذا خطأ، بل ما هو فى تصفحه إلا كمن يتصفح الفرس والإبل والفيل والحشرات والطيور فيراها تمشى برجل وهو لم يرَ الحية والدود فيحكم بأن كل حيوان يمشى برجل، وكمن يتصفح الحيوانات فيراها عند المضغ جميعها تحرك الفك الأسفل، فيحكم بأن كل حيوان يحرك عند المضغ الفك الأسفل وهو لم يرَ التمساح فإنه يحرك الفك الأعلى وهذا لأنه يجوز أن يكون ألف شخص من جنس واحد على حكم ويخالف الألف واحد وهو لا يفيد برد اليقين فهو القياس الباطل، وأما اعتصامه بالقسمة المنتشرة فكقوله: سبرت أوصاف الفاعلين فكانوا أجسامًا لكونهم فاعلين أو لكونهم موجودين أو كيت وكيت، ثم يبطل جميع الأجسام فيقول فيلزم من هذا أنهم أجسام لكونهم فاعلين، وهذه هى القسمة المنتشرة التى بها يزن الشيطان مقاييسه وقد ذكرنا بطلانها، فقال: أظن أنه إذا بطل سائر

الأقسام تعين القسم الذى أراده، وأرى هذا برهانًا قويًّا عليه تعويل أكثر المتكلمين فى عقائدهم فإنهم يقولون فى مسألة رؤية البارى تعالى مرئى لأن العالم مرئى، وباطل أن يقال إنه مرئىّ لأنه ذو بياض لأن السواد يرى، وباطل أن يرى لكونه جوهرًا لأن العرض يرى وباطل أن يكون عرضًا لأن الجوهر يرى، وإذا بطلت الأقسام بقى أنه يرى موجودًا فأريد أن تكشف لى عن فساد هذا الميزان كشفًا ظاهرًا لا أشك فيه، فقلت: فأنا أورد فى ذلك مثالاً حقًّا لم ينتج من قياس باطل وأكشف الغطاء عنه، فأقول: قولنا: العالم حادث حق، ولكن قول القائل إنه حادث لأنه مصور قياسًا على البيت وسائر الأبنية المصورة قول باطل لا يفيد العلم بحدوث العالم إذ يقال ميزانه الحق أن يقال كل مصور حادث أو العالم مصور، فيلزم منه أنه حادث، والأصل الآخر مسلم لكن قولك كل مصور حادث لا يسلمه الخصم، وعند هذا يعدل إلى الاستقراء فيقول: استقريب كل مصور فوجدته حادثًا كالبيت والقدح والقميص وكيت وكيت، وقد عرفت فساد هذا وقد يرجع إلى السبر، فيقول: البيت حادث فنسبر أوصافه وهو أنه جسم وقائم بنفسه وموجود ومصور،وهذه أربع صفات وقد بطل تعليله بكونه جسمًا وقائمًا بنفسه وموجودًا فثبت أنه معلل بكونه مصورًا وهو الرابع. فيقال له: هذا باطل من وجوه كثيرة وأذكر منها الأربعة:

الأول: أنه إن سلم لك بطلان الثلاث فلا تثبت العلّة التى طلبتها، فلعل الحكم معلل بعلّة قاصرة غير عامة ولا متعدية ككونه مثلاً بيتًا، فإن ثبت كون البيت غير محدث أيضًا فلعلّ الحكم معلل بالمعنى القاصر على ما ظهر كونه حادثًا إذ يمكن تقدير وصف خاص يجمع الجميع ولا يتعدى.

الثانى: أنه إنما يصح إذا تم السبر على الاستقصاء بحيث لا يتصور أن يشذّ منه قسم، وإذا لم يكن حاصرًا بين النفى والإثبات دائرًا تصور أن يشذ منه قسم وليس الاستقصاء الحاصر أمرًا هينًا، والغالب أنه لا يهتم به المتكلمون والفقهاء بل يقولون إن كان فيه قسم آخر فأبرزه، وربما قال الآخر لا يلزمنى إبرازه وطال اللجاج فيه، وربما استدل القايس وقال: لو كان فيه قسم آخر لعرفناه ولعرفته، فعدم معرفتنا تدّل على نفى قسم آخر إذ عدم رؤيتنا الفيل فى مجلسنا تدّل على نفى ولا يدرى قطّ هذا المسكين أنه لم نعهد قط فيلاً حاضرًا لم نره ثم رأيناه وكم رأينا معانى حاضرة عجزنا جميعًا عن إدراكها ثم تنبهنا لها بعد مدة فلعلّ فيه قسمًا آخر شذ عنّا لسنا نتنبه له الآن وربما لم نتنبه له طول عمرنا.

الثالث: أنا وإن سلمنا الحصر فلا يلزم من إبطال ثلاث ثبوت رابع بل التركيب الذى يحصل من أربعة يزيد على عشرة وعشرين إذ يحتمل أن تكون العلّة آحاد هذه الأربعة أو

اثنين منها أو ثلاثـة منها، ثم لا يتعين الاثنان منهـا ولا الثلاثة، بل يتـصور أن تكون العلّة كونه موجودًا أوجسمًا أو موجودًا وقائمًا بنفســه أوجسمًا موجودًا وقائمًا بنفسه وموجودًا أو موجودًا وبيـتًا أو بيتًا ومصورًا أو بيـتًا قائمًا بنفسه أو بيـتًا وجسمًا، أوجسـمًا ومصورًا، أو جسمًا وقائمًا بنفسه أو جسمًا وموجودًا أو قائمًا بنفسه وموجودًا، فهذه بعد تركيبات الاثنين فقس على هذه التركيبات من الثلاث، واعلم أن الأحكام تتـوقف على وجود أسباب كثيرة مجتمعة فليس يرى الشئ لكون الرائى ذا عين إذ لا يرى بالليل ولا لاستتارة المرئى بالشمس إذ لا يرى الأعمى ولا لهـما جميـعًا إذا لا يرى الهواء، ولكن جـملة ذلك مع كون المرئى متلونًا وأمور أُخر هذا حكم الوجود، أما حكم الرؤية فى الآخرة فحديث آخر.

الرابع: أنه إن سلم الاستقصاء وسلم الحصر فى أربعة وتركنا التركيب فإبطال ثلاثة لا يوجب تعلق الحـكم بالرابع مطلقًـا بل بانحـصـار الحكم فى الرابع، ولـعلّ الرابع ينقـسم قسمين، والحكم يتعلق بأحدهما. أرأيت لو قسم أوّلاً وقال: **أما كونه جسمًا أو موجودًا أو** قائمًا بنفسه أو مصورًا مثلاً بصورة مربعة، أو مصورًا بصورة مدورة ثم أبطل الأقسام الثلاثة لم يتعلق الحكم بالصـورة مطلقًا، بل ربما اختصّ بصورة مخـصوصة، فتسـبب الغفلة عن مثل هذه الدقائق خـبط المتكلمون وكثر نزاعهم إذا تمسكوا بالرأى والقـياس، وذلك لا يفيد برد اليقين، بل يصلح للأقـيسة الفقهيـة الظنية ولإمالة قلوب العامـة إلى صوب الصواب، والحق فإنه لا يمتد فكرهم إلى الاحتمالات البعيدة، بل ينجزم اعتقادهم بأسباب ضعيفة. أما ترى العـامى الذى به صداع يقـول له غـيره اسـتعـمل ماء الورد فـإنى إذا كان بى صــداع فاستـعملته انتفعت به، كـأنه يقول هذا صداع فينفعه مـاء الورد قياسًا على صداعى فـيميل قلب المريض إليه فيستعـمله ولا يقول له أثبت أوّلاً أن ماء الورد يصلح لكل صداع كان من البـرودة أو من الحـرارة أو من أبخرة المـعدة، **وأنواع الصـداع كـثيرة فـاثبت أن صـداعى كصداعك ومزاجى كـمزاجك وسنى كسنك وصناعتى كصناعتك وأحـوالى كأحوالك، فإن جميع ذلك يخـتلف به العلاج فإن** طالب تحقيق هذه الأمـور ليس من **شأن العوام لأنهم لا يتشوفون إليها** ولا من **شأن** المتكلمين لأنهم وإن تشوفوا إليها على **خلاف العوام فلا يهتدون إلى الطرق** المفيـدة برد اليقين، وإنما هى من شنشنة قـوم عرفوها من أحـمد ﷺ وهم قوم اهتدوا بنور **الله إلى ضياء القرآن**، وأخذوا منه الميزان بالقسط والقـسطاس المستقيم فأصبحوا قوامين لله بالقسط.

فقـال: الآن هذا يلوح لى مـخايل الحق وتباشـيره من كلامك فـهل تأذن لى فى أن أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدًا؟

قلت: هيهات إنك لا تستطيع معى صبرًا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا.

قال: ستجدنى إن شاء الله صابرًا ولا أعصى لك أمرًا.

قلت: أتظن أنى نسيت اتعاظك بنصيحة رفقائك ووالدتك ومن نبض عليه عرق من عروق التقليد فلا تصلح لصحبتى ولا أصلح لصحبتك، فاذهب عنى فهذا فراق بينى وبينك فإنى مشغول بتقويم نفسى عن تقويمك، وبالتعليم من القرآن عن تعليمك، فلا ترانى بعد هذا ولا أراك، فلا تسع أوقاتى أكثر من هذا الإصلاح الفاسد والضرب فى الحديد البارد، وقد نصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة على محمّد نبيّنا سيّد المرسلين.

فهاكم إخوانى قصتى مع رفيقى تلوتها عليكم بعجرها وبجرها لتقضوا منها العجب وتنتفعوا فى إثبات هذه المحادثات بالتفطن لأمور هى أجلّ من تقويم مذهب التعليم، فلم يكن ذلك من غرضى، ولكن إياك أعنى وأسمعى ياجارة، والتماسى من المخلصين قبول معذرتى عند مطالعة هذه المحادثات فيما آثرته فى المذاهب من العقد والتحليل وأبدعته فى الأسامى من التغيير والتبديل،واخترعته فى المغانى من التخييل والتمثيل. فلى تحت كل واحد من ذلك غرض صحيح وسر عن ذوى البصائر صريح،وإياكم أن تغيروا هذا النظام وتنتزعوا هذه المعانى من هذه الكسوة فقد علمتكم كيف يوزن المعقول بالإسناد إلى المنقول ليكون القول منها أسرع إلى القبول، وإياكم أن تجعلوا المعقول أصلاً والمنقول تابعًا ورديفًا،فإن ذلك شنيع منفر، وقد أمركم الله سبحانه بترك الشنيع والمجادلة بالأحسن، وإياكم أن تخالفوا الأمر فتهلكوا وتهلكوا وتضلوا وتضلوا، وماذا تنفع وصيتى وقد اندرس الحق وانكسر البثق، وانتشرت الشناعة وطارت فى الأقطار، وصارت ضحكة فى الأمصار، فإن قومًا اتّخذوا هذا القرآن مهجورًا وجعلوا التعليمات النبوية هباءً منثورًا، وكل ذلك من قصور الجاهلين ودعواهم فى نصرة الدين منصب العارفين. وإن كثيرًا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمهتدين.

منهاج العارفين

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله الذي نوّر قلوب العارفين بذكره، وأنطق ألسنتهم بشكره، وعمر جوارحهم بخدمته، فهم في رياض الأنس يرتعون وإلى أوكار المحبة يأوون، ذكرهم فذكروه، وأحبهم فأحبوه، ورضي عنهم فرضوا عنه رأس مالهم الافتقار ونظام أمرهم الاضطرار، علمهم دواء الذنوب، وعرفهم طب القلوب، فهم مصابيح أنوار حجته، ومفاتيح خزائن حكمته، إمامهم القمر الطالع، وقائدهم النور الساطع، سيد الموالي والعرب محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، والثمرة الزاكية من الشجرة المباركة، التي أصلها التوحيد، وفروعها التقوى، ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. ﷺ صلاة تلوح في السموات آثارها وتعلو في جنان الخلد أنوارها، وتطيب في مشاهد الأنبياء أخبارها، وعلى آله الطاهرين وأصحابه المطهرين.

باب البيان نحو المريدين

يدور على ثلاثة أُصول: الخوف والرجاء والحب، فالخوف: فرع العلم، والرجاء: فرع اليقين، والحب: فرع المعرفة، فدليل الخوف الهرب، ودليل الرجاء الطلب، ودليل الحب إيثار المحبوب، ومثال ذلك الحرم والمسجد والكعبة، فمن دخل حرم الإرادة أمن من الخلق، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في معصية الله تعالى، ومن دخل الكعبة أمن قلبه أن يشتغل بغير ذكر الله عزّ وجلّ. فإذا أصبح العبد لزمه أن ينظر في ظلمة الليل ونور النهار ويعلم أن أحدهما إذا ظهر عزل صاحبه عن الولاية، فكذلك نور المعرفة إذا ظهر عزل ظلمة المعاصي عن الجوارح، فإن كانت حالته حالة يرضاها لحلول الموت شكر الله تعالى على توفيقه وعصمته، وإن كانت حالته حالة يكره معها الموت انتقل عنها بصحة العزيمة وكمال الجهد وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، كما أنه لا وصول إليه إلا به فندم على ما أفسد من عمره بسوء اختياره واستعان بالله على تطهير ظاهره من الذنوب وتصفية باطنه من العيوب، وقطع زنار الغفلة عن قلبه، وأطفأ نار الشهوة عن نفسه، واستقام على طريق الحق وركب أمطية الصدق، فإن النهار دليل الآخرة، والليل دليل الدنيا، والنوم شاهد الموت، والعبد قادم على ما أسلف ونادم على ما خلّف، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

باب الأحكام

وإعراب القلوب على أربعة أنواع: رفع وفتح وخفض ووقف، فرفع القلب فى ذكر الله تعالى، وفتح القلب فى الرضاء عن الله تعالى، وخفض القلب فى الاشتغال بغير الله تعالى، ووقف القلب فى الغفلة عن الله تعالى، فعلامة الرفع ثلاثة أشياء: وجود الموافقة، وفقد المخالفة، ودوام الشوق، وعلامة الفتح ثلاثة أشياء: التوكّل والصدق واليقين، وعلامة الخفض ثلاثة أشياء: العجب والرياء والحرص وهو مراعاة الدنيا وعلامة الوقف ثلاثة أشياء: زوال حلاوة الطاعة، وعدم مرارة المعصية، والتباس الحلال.

باب الرعاية

قال رسول الله ﷺ: **«طَلَبُ العلْم فَريضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِم»**، وهو علم الأنفاس، فيجب أن يكون نفس المريد شكرًا أو عذرًا، فإن قيل: ففضل وإن رد فعدل فطائع الحركة بالتوفيق، والسكوت بالعصمة ولا يستقيم ذلك له إلا بدوام الافتقار والاضطرار.

ومفتاح ذلك

ذكر الموت لأن فيه راحة من الحبس ونجاة من العدو وقوامه برد العمر إلى يوم واحد ولن يلتئم ذلك إلا بالتفكر فى الأوقات، وباب الفكر الفراغ، وسبب الفراغ الزهد. وعماد الزهد التقوى، وسنام التقوى الخوف، وزمام الخوف اليقين، ونظام اليقين الخلوة والجوع، وتمامها الجهد والصبر وطريقهما الصدق، ودليل الصدق العلم.

باب النية

لابدّ للعبد من النية فى كل حركة وسكون: «فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ونية المؤمن خير من عمله» . والنية تختلف على حسب اختلاف الأقت، وصاحب النية نفسه منه فى تعب، والناس منه فى راحة وليس شئ على المريد أصعب من حفظ النية.

باب الذكر

اجعل قلبك قبلة لسانك، واشعر عند الذكر حياء العبودية وهيبة الربوبية، واعلم بأن الله تعالى يعلم سر قلبك ويرى ظاهر فعلك ويسمع نجوى قولك، فاغسل قلبك بالحزن

وأوقد فيه نار الخوف، فإذا زال حجاب الغفلة عن قلبك كان ذكرك به مع ذكره لك. قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. لأنه ذكرك مع الغناء عنك وأنت ذكرته مع الفقر إليه، فقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فيكون اطمئنان القلب في ذكر الله له ووجله في ذكره الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. والذكر ذكران ذكر خالص بموافقة القلب في سقوط النظر إلى غير الله، وذكر صاف بفناء الهمة عن الذكر، قال رسول الله ﷺ: **«لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**.

باب الشكر

وفي كل نفس من أنفاس العبد نعمة لله تتجدد عليه يلزمه القيام بشكرها. وأدنى الشكر أن يرى النعمة من الله تعالى ويرضى بما أعطاه ولا يخالفه بشئ من نعمه، وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره على أصغر جزء من نعمه وإن بلغوا غاية المجهود، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، فيلزمك على كل شكر شكر إلى ما لا نهاية له، فإذا تولى الله العبد حمل عنه شكره فرضي عنه بيسير وحطّ عنه ما يعلم أنه لا يبلغه ويضعفه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

باب اللباس

اللباس نعمة من الله على عبده يستر به البشرة ولباس التقوى ذلك خير، وخير لباسك ما لا يشغل سرك عن الله تعالى، فإذا لبست ثوبك فاذكر محبة الله الستر على عباده فلا تفضح أحدًا من خلقه بعيب تعلمه منه واشتغل بعيب نفسك فاستره بدوام الاضطرار إلى الله تعالى في تطهيره، فإن العبد إذا نسي ذنبه كان ذلك عقوبة له وازداد به جزءًا على المعاصي، ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عيني قلبه نصبًا ولبكى عليه بجفون سره واستولى عليه الوجل فذاب حياءً من ربه، وما دام العبد يرجع إلى حول نفسه وقوتها انقطع عن حول الله وقوته، فاطرح همتك بين يدي الخوف والرجاء: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

باب القيام

فإذا قمت من فراشك فأقم قلبك عن فراش البطالة، وأيقظ نفسك عن نوم الجهالة، وانهض بكلك إلى من أحياك، وردّ إليك نفسك، وقم بفكرك عن حركتك وسكونك،

واصعد بقلبك إلى الملكوت الأعلى، ولا تجعل قلبك تابعًا لنفسك فإن النّفس تميل إلى الأرض، والقلب يميل إلى السماء واستعمل قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

باب السواك

واستعمل السواك فإنها مطهرة للفم مرضاة للرب، وطهر ظاهرك وباطنك عن دنس الإساءة، وأخلص أعمالك عن كدر الرياء والعجب، واجلُ قلبك بصافى ذكره، ودع عنك ما لا ينفعك بل يضرك.

باب التبرز

وإذا تبرزت لقضاء وطر فاعتبر، فإن الراحة فى إزالة النجاسة، واستنج ونكس رأس همتك، وأغلق باب الكبر، وافتح باب الندم،واجلس على بساط الندامة، واجتهد فى إيثار أمره واجتناب نهيه والصبر على حكمه، واغسل شرك بترك الغضب والشهوة، واستعمل الرغبة والرهبة فإن الله تعالى مدح قومًا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

باب الطهارة

وإذا تطهرت ففكر فى صفوة الماء ورقته وتطهيره وتنظيفه، فإن الله تعالى جعله مباركًا فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩]. فاستعمله فى الأعضاء التى فرض الله عليك تطهيرها ولتكن صفوتك مع الله كصفوة الماء، فاغسل وجه قلبك عن النظر إلى غير الله، واغسل يدك عن الامتداد إلى غيره وامسح رأسك عن الافتخار بغيره، واغسل رجليك عن السعى لغيره، واحمد الله على ما ألهمك من دينه.

باب الخروج

فإذا خرجت من منزلك إلى مسجدك، فاعلم أن لله تعالى حقوقًا عليك يلزمك أداؤها. من ذلك السكينة والوقار والاعتبار بخلق الله برهم وفاجرهم، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وغض بصرك عن نظر الغفلة والشهوة، وأفش السلام مبتدئًا ومجيبًا، وأعن من استعانك على الحقّ وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر إن كنت من أهله وأرشد الضالّ.

باب دخول المسجد

فإذا بلغت باب المسجد فاعلم أنك قصدت بيت ملك عظيم قدره لا يقبل إلا الطاهر ولا يصعد إليه إلا الخالص، ففكر فى نفسك من أنت ولمن أنت وأين أنت ومن أى ديوان يخرج اسمك، فإذا استصلحت نفسك لخدمته فادخل فلك الإذن والأمان، وإلا فقف وقوف مضطرب قد انقطعت عنه الحيل وانسدَّت عنه السبل، فإذا علم الله من قلبك الالتجاء إليه أذن لك فتكون أنت بلا أنت، والله يرحم عبده ويكرم ضيفه ويعطى سائله ويبر المعرض عنه، فكيف المقبل إليه.

باب افتتاح الصلوات

فإذا استقبلت بوجهك القبلة استقبل بوجهك الحقّ ولا تنبسط فلست من أهل الانبساط، واذكر وقوفك بين يديه يوم العرض الأكبر، وقف على قدمى الخوف والرجاء، ورفع قلبك عن النظر إلى الدنيا والخلق، وأرسل همتك إليه فإنه لا يرد الآبق ولا يخيب السائل. فإذا قلت الله أكبر فاعلم أنه لا يحتاج إلى خدمتك له وذكرك إياه لأن الحاجة من جبلة الفقراء وذلك سمة الخلق والغنى عن صفات ذاته، وإنما وظف على عبيده وظائف ليقربهم بها إلى عفوه ورحمته ويبعدهم بها من سخطه وعقوبته. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ [الفتح: ٢٦]. وقال عزّ من قائل: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ٧]. واشكر الله إذ جعلك أهلاً للوقوف بين يديه فإنه﴿ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦] أهل أن يتقيه خلقه فيغفر لمن اتقاه.

باب القراءة

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩].

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ [النحل: ١٠٠].

﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ [الحج: ٤].

واذكر عهد الله عليك وميثاقه فى وحيه وتنزيله، وانظر كيف تقرأ كلامه وكتابه فرتّل وتدبّر، وقف عند وعده ووعيده وأمثاله ومواعظه وأمره ونهيه ومحكمه ومتشابهه، وإنى لأخشى أن تكون إقامتك حدوده غفلة من تضييعك حدوده. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

باب الركوع

واركع ركوع خاشع لله بقلبه خاضعًا بجوارحه، واستوف ركوعك وانحط عن همتك فى القيام بأمره، فإنك لا تقدر على أداء فرضه إلا بعونه. ولا تبلغ دار رضوانه إلا برحمته، ولا تستطيع الامتناع من معصية إلا بعصمته، ولا تنجو من عذابه إلا بعفوه، قال رسول الله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِه». قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدنى الله برَحْمَته».

باب السجود

واسجد لله سجود عبد متواضع علم أنه خلق من تراب يطؤه جميع الخلق، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل واحد، فإذا فكر فى أصله وتأمل تركيب جوهره من ماء وطين ازداد لله تواضعًا ويقول فى نفسه: ويحك لم رفعت رأسك من سجودك؟ لمَ لَمْ تمت بين يديه، وقد جعل الله السجود سبب القرب إليه؟ فقال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. فمن اقترب منه بعد من كل شئ سواه، واحفظ صفة سجودك فى هذه الآية: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. واستعن بالله عن غيره، فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: قال الله تبارك وتعالى: «لا أطّلع على قلب عبد فأعلم منه حب العمل بطاعتى إلا توليت تقويمه وسياسته».

باب التشهد

والتشهد ثناء، وشكر له، وتعرض لمزيد فضله ودوام كرامته، فاخرج عن دعواك وكن له عبدًا بفعلك كما أنت عبد له بقولك، فإنك خلقك عبدًا وأمرك أن تكون له عبدًا كما خلقك: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

فاستعمل العبودية فى الرضى بحكمته، واستعمل العبادة فى النزول تحت أمره، وصلِّ على حبيبه عقب الثناء عليه، فإنه وصل محبته بمحبته وطاعته بطاعته ومتابعته بمتابعته، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. وأمر رسوله بالاستغفار لك، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]. وأمرك بالصلاة عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وقال رسول الله ﷺ : «من صلّى علىّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً وعامله بالفضل». فقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشراح: ٤]. ثم أمره بمعاملته بالعدل فقال لغيره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وقال له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الانشراح: ٧، ٨].

باب السلام

السلام من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه فى معاملته ومعاشرة خلقه، فإذا أردت السلامة فليسلم منك صديقك وارحم من لايرحم نفسه فإن الخلق بين فتن ومحن، إما مبتلى بالنعمة ليظهر شكره، وإما مبتلى بالشدة ليظهر صبره، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ كَلاَّ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]. فالكرامة فى طاعته والهوان فى معصيته ومن ركب الهوى أهانه الله.

باب الدعاء

واحفظ آداب الدعاء وانظر من تدعو وكيف تدعو ولماذا تدعو ولماذا تسأل، والدعاء استجابة الكل منك للحق وإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تشترط الإجابة. قال مالك بن دينار: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر، ولو لم يأمر الله سبحانه بالدعاء لوجب علينا أن ندعوه ولو لم يشترط لنا الإجابة لكنا إذا أخلصنا له الدعاء تفضل بالإجابة. فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرط الدعاء. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وسئل أبو يزيد البسطامى عن اسم الله الأعظم، فقال: فرّغ قلبك من غيره وادعه بأى أسمائه شئت، وقال يحيى بن معاذ: اطلب الاسم. وقال رسول الله ﷺ «لا يَسْتَجِيبُ الله الدُّعَاءَ مِنْ قَلْب لاه فَإِذا أَخْلَصْتَ فَأَبْشِرْ بإِحْدَى ثَلاث: إِمَّا أَنْ يَجْعَلَ لَكَ مَا سَأَلت، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ لَكَ ما هُوَ أَعْظَمَ منْهُ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْكَ مِنَ الْبَلاءِ مَا لَوْ صَبَّهُ عَلَيْكَ لَهَلَكْتَ وَادْعُ دُعَاءَ مُسْتَجِير لا دُعَاءَ مُشِير»، روى عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْأَلَتِى أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعطى السَّائلِينَ». وقال أبو الحسين الورّاق: دعوت الله مرة فاستجاب دعائى فنسيت الحاجة فاحفظ حق الله عز وجل عليك فى الدعاء ولا تشتغل بحظك فإنه أعلم بمصلحتك.

باب الصوم

فإذا صمت فانوِ بصومك كف النفس عن الشهوات، فإن الصوم فناء مراد النفس وفيه صفاء القلب وضمارة الجوارح والتنبيه على الإحسان إلى الفقراء والالتجاء إلى الله والشكر على ما تفضل به من النعم وتخفيف الحساب، ومنّة الله فى توفيقك للصوم أعظم من أن تقوم بشكرها ومن صومك أن تطلب منه عوضًا.

باب الزكاة

وعن كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله، فزكاة القلب التفكر فى عظمته وحكمته وقدرته وحجّته ونعمته ورحمته، وزكاة العين النظر بالعبرة والغض عن الشهوة، وزكاة الأذن الاستماع إلى ما فيه نجاتك، وزكاة اللسان النطق بما يقربك إليه، وزكاة اليد القبض عن الشر والبسط إلى الخير، وزكاة الرجل السعى إلى ما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك.

باب الحج

والمريد إذا حج يعقد النية خوف الرد، واستعد استعداد من لايرجو الإياب، وأحسن الصحبة، وتجرد عند الإحرام عن نفسه، واغتسل من ذنبه، ولبس ثوب الصدق والوفاء، ولبى موافقة للحق فى إجابة دعوته، وأحرم فى الحرم من كل شئ يبعده عن الله تعالى، وطاف بقلبه حول كرسى كرامته، وصفا ظاهره، وباطنه عند الوقوف على الصفا، وهرول هربًا من هواه ولم يتمنَّ على الله تمنى ما لا يحل له واعترف بالخطأ بعرفة، وتقرب إلى الله بمزدلفة، ورمى الشهوات عند رمى الجمرات، وذبح هواه وحلق الذنوب، وزار البيت معظمًا صاحبه، واستلم الحجر رضاء بقضائه، وودع ما دون الله فى طواف الوداع.

باب السلامة

واطلب السلامة فليت من طلبها وجدها فكيف لمن تعرض للبلاء، والسلامة قد عزت فى هذا الزمان وهى فى الخمول، فإن لم تكن فى الخمول، فالعزلة وليست كالخمول فإن لم تكن عزلة فالصمت وليس كالعزلة، فإن لم تكن فى صمت فالكلام بما ينفع ولا يضر وليس كالصمت، وإن أردت السلامة فلا تنازع الأضداد ولا تنافس الأشكال كل من قال أنا فقل أنت، وكل من قال لى فقل لك، والسلامة فى زوال العرف، وزوال العرف فى فقد الإرادة، وفقد الإرادة فى ترك دعوى العلم فيما استأثر الله به من تدبير أمرك. قال الله

تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. وقال: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

باب العزلة

صاحب العزلة يحتاج إلى عشرة أشياء: علم الحق والباطل والزهد واختيار الشدة واغتنام الخلوة والسلامة والنظر فى العواقب وأن يرى غيره أفضل منه ويعزل عن الناس شره ولا يفتر عن العلم، فإن الفراغ بلاء ولا يعجب بما هو فيه ويخلو بيته من الفضول، والفضول ما فضل عن يومك لأهل الإرادة، ما فضل عن وقتك لأهل المعرفة، ويقطع ما يقطعه عن الله تعالى، قال رسول الله ﷺ لحذيفة اليمان: «كُنْ حلْسَ بَيْتكَ». وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: «أملك لسانك وليسعك بيتك وأنزل نفسك منزلة السبع الضارى والنار المحرقة، وقد كان الناس ورقًا بلا شوك فصاروا شوكًا بلا ورق، وكانوا أدواء يستشفى بهم فصاروا داءً لا دواء له». قيل لدواد الطائى: مالك لا تخالط الناس؟ فقال: كيف أخالط من يتبع عيوبى كبير لا يعرف الخلق وصغير لا يوقر، من استأنس بالله استوحش من غيره. وقال الفضيل: إن استطعت أن تكون فى موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل. وقال سليمان: همى من الدنيا أن ألبس عباءةً وأكون بقرية ليس فيها أحد يعرفنى ولا غذاء لى ولا عشاء، وقال رسول الله ﷺ: «يَأْتِى زَمَانٌ الْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئذ بدينه كَالقَابِض عَلَى الجَمْرِ وَلَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ». وفى العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسقوط حقوق الخلق وإغلاق أبواب الدنيا وكسر سلاح الشيطان وعمارة الظاهر والباطن.

باب العبادة

أقبل على أداء الفرائض، فإن سلم لك فرضك فأنت أنت، واطلب بالنوافل حفظ الفرائض وكلما ازددت عبادة فازدد شكرًا وخوفًا. قال يحيى بن معاذ: عجبت لطالب فضيلة تارك فريضة ومن كان عليه دين فأهدى إلى صاحب الدين مثل حقه كان مطالبًا بالحق إذا حلّ الأجل. وقال أبو بكر الورّاق: ابذل فى هذا الزمان أربعة على أربعة: الفضائل على الفرائض، والظاهر على الباطن، والخلق على النفس، والكلام على الفعل.

باب التفكر

تفكر فى قوله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا

مَّذْكُوراً﴾ [الدهر: ١]. واذكر كيف أحوالك واعتبر بما مضى من الدنيا على ما تراه، هل بقيت على أحد، وما بقى منها أشبه بما مضى من الماء بالماء، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ بَلاءٌ وَفِتْنَةٌ». وقيل لنوح عليه السلام: «كيف وجدت الدنيا يا أطول الأنبياء عمراً؟ قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر». والفكرة أبو كل خير وهى مرآة تريك الحسنات والسيئات.

تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله وحده.

قال الشيخ محمد بن على بن الساكن فى كتاب دليل الطالب إلى نهاية المطالب. قال: فالطالب المجتهد إذا أراد لبس الخرقة فالواجب عليه أن يخلع الثوب الذى كان يلبسه فى أيام العادة. وأحسن ما تلبس هذه الطائفة الصوف إذ هم منسوبون إليه، قيل: إن أول من لبس الصوف آدم وحواء عليهما السلام، وكان موسى وعيسى ويحيى عليهم السلام يلبسون الصوف، وكان نبيّنا ﷺ أشرف الأنبياء كان يلبس عباءة كان مقدار ثمنها خمس دراهم وينبغى أن لا يلبس الصوف إلا من صفا من كدر النفس، فقد قال الحسن البصرى: بلغنى أن النبىّ ﷺ قال: «لا تَلْبسُوا الصّوفَ إلا وقُلُوبُكُم نَقيَّةٌ»، فإنه من لبس الصوف على دغل وغش قلاه جبار السماء فإذا لبسه وجب أن يقوم بوظائف حروفه، وهى ثلاثة أما وظيفة الصاد فهى: الصدق والصفاء والصيانة والصبر والصلاح، وأما وظيفة الواو فهى: الوصلة والوفاء والوجد، وأما وظيفة الفاء فهى الفرح والتفجع فلو لبس المرقع وجب عليه أن يؤدى حق حروفه، وهى أربعة: فحقّ الميم المعرفة والمجاهدة والمذلة، وحق الراء: الرحمة والرأفة والرياضة والراحة، وحقّ القاف: القناعة والقربة والقوة والقول الصدق، وحق العين: العلم والعمل والعشق والعبودية، وقد أمر النبىّ ﷺ بلبس المرقع حيث قال لعائشة رضي الله عنها: «إِنْ سَرَّكِ اللُّحُوقَ بِى فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الموتى ولا تَسْتَبْدلِى ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعيه»، انتهى والله أعلم.

الرسالة اللدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله الذى زين قلوب خواص عباده بنور الولاية، وربى أرواحهم بحسن العناية، وفتح باب التوحيد على العلماء العارفين بمفتاح الدراية، وأصلى وأسلم على سيّدنا محمّد سيّد المرسلين صاحب الدعوة والرعاية، ودليل الأمة إلى الهداية، وعلى آله سكان حرم الحماية.

العلم الغيبى اللدنى

اعلم أن واحدًا من أصدقائى حكى عن بعض العلماء أنه أنكر العلم الغيبى اللدنى الذى يعتمد عليه خواصّ المتصوفة، وينتمى إليه أهل الطريقة، ويقولون إن العلم اللدنى أقوى وأحكم من العلوم المكتسبة المحصلة بالتعلم، وحكى أن ذلك المدعى يقول: بأنى لا أقدر على تصوير علم الصوفيّة، لا أظن أن أحدًا فى العالم يتكلم فى العلم الحقيقى من فكر وروية دون تعلم وكسب، فقلت: كأنه ما اطلع على طرق التحصيل، وما درى أمر النفس الإنسانية وصفاتها وكيفية قبولها لآثار الغيب وعلم الملكوت، فقال صديقى: نعم إن ذلك الرجل يقول بأن العلم هو الفقه وتفسير القرآن والكلام وحسب، وليس وراءها علم وهذه العلوم لا تتحصل إلا بالتعليم والتفقه، فقلت: نعم فكيف يعلم علم التفسير فإن القرآن هو البحر المحيط المشتمل على جميع الأشياء وليس جميع معانيه وحقائق تفسيره مذكورة فى هذه التصانيف المشهورة بين العوام، بل التفسير غير ما يعلم ذلك المدعى، فقال ذلك الرجل: لا يعدّ إلا التفاسير المعروفة المذكورة والمنسوبة إلى القشيرى والثعلبى والماوردى وغيرهم، فقلت: لقد بعد عن منهج الحقيقة، فإن السلمى جمع شيئًا فى التفسير من كلمات المحققين شبه التحقيق، وتلك الكلمات غير مذكورة فى سائر التفاسير. وذلك الرجل الذى لايعد العلم إلا الفقه والكلام. وهذا التفسير العامى كأنه ما علم أقسام العلوم وتفاصيلها ومراتبها وحقائقها وظواهرها وبواطنها، وقد جرت العادة بأن الجاهل بالشئ ينكر ذلك الشئ، وذلك المدعى ما ذاق شراب الحقيقة وما اطلع على العلم اللدنى فكيف يقرّ بذلك، ولا أرضى بإقراره تقليدًا أو تخمينًا ما لم يعرف، فقال ذلك الصديق: أريد أن تذكر طرفًا من مراتب العلوم وتصحيح هذا العلم وتعزيه أنت لنفسك وتقرّ على إثباته، فقلت: إن هذا المطلوب بيانه عسير جدًا، لكن أشرع فى مقدماته بحسب اقتضاء حالى وموافقة وقتى وما

سنح بخاطرى، ولا أريد تطويل الكلام فإن خير الكلام ماقلّ ودلّ، وسألت الله عزّ وجلّ التوفيق والإعانة وذكرت مطلوب صديقى الفاضل فى هذا المفضول.

فصل فى شرف العلم

اعلم أن العلم تصور النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المواد بأعيانها وكيفياتها وكمياتها وجواهرها وذواتها إن كانت مفردة، والعالم هو المحيط المدرك المتصور، والمعلوم هو ذات الشئ الذى ينتقش علمه فى النفس، وشرف العلم على قدر شرف معلومه، ورتبة العالم تكون بحسب رتبه العلم. ولا شك أن أفضل المعلومات وأعلاها وأشرفها وأجلّها هو الله الصانع المبدع الحقّ الواحد، فعلمه هو علم التوحيد أفضل العلوم وأجلها وأكملها، وهذا العلم ضرورى واجب تحصيله على جميع العقلاء كما قال صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**». أمر بالسفر فى طلب هذا العلم. فقال: ﷺ: «**اطْلُبُوا العلْمَ وَلَوْ بالصِّين**». وعالم هذا العلم أفضل العلماء وبهذا السبب خصهم الله تعالى بالذكر فى أجلّ المراتب، فقال: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ** ﴾ [آل عمران: ١٨]. فعلماء علم التوحيد الإطلاق هم الأنبياء وبعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وهذا العلم وإن كان شريفًا فى ذاته كاملاً فى نفسه لا ينفى سائر العلوم بل لا يحصل إلا بمقدمات كثيرة، وتلك المقدمات لا تنتظم إلا من علوم شتى مثل علم السموات والأفلاك وعلم جميع المصنوعات، ويتولد عن علم التوحيد علوم أُخر كما سنذكر أقسامها فى مواضعها.

فاعلم أن العلم شريف بذاته من غير نظر إلى جهة العلوم، حتى أن علم السحر شريف بذاته وإن كان باطلاً، وذلك أن العلم ضد الجهل، والجهل من لوازم الظلمة، والظلمة من حيّز السكون، والسكون قريب من العدم، ويقع الباطل والضلالة فى هذا القسم، فإذًا الجهل حكمه حكم العدم، والعلم حكمه حكم الوجود، والوجود خير من العدم، والهداية والحق والنور كلها فى سلك الوجود، فإذا كان الوجود أعلى من العدم فالعلم أشرف من الجهل، فإن الجهل مثل العمى والظلمة، والعلم مثل البصر والنور، ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ** ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠]. وصرح سبحانه بهذه الإشارات فقال: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٩]. فإذا كان العلم خير من الجهل، والجهل من لوازم الجسم، والعلم من صفات النفس، والنفس أشرف من الجسم، وللعلم أقسام كثيرة، نحصيها فى فصل آخر. وللعالم فى طلب العلم طرق عديدة نذكرها فى فصل آخر. والآن لا يتعين عليك بعد معرفة فضل العلم إلا معرفة

النفس التى هى لـوح العلوم ومـقرهـا ومحلـها، وذلك أن الجـسم ليـس بمحلّ للعلم لأن الأجسام مـتناهية، ولا يتسع لكثـرة العلوم بل لا يحتمل إلا النقوش والرقـوم والنفس قابلة لجميع العلوم من غير ممانعة ولا مـزاحمة وملال وزوال، ونحن نتكلم فى شرح النفس على سبيل الاختصار.

فصل فى شرح النفس والروح الإنسانى

اعلم أن الله تعالى خلق الإنسان من شيئين مختلفين: أحدهما: الجسم المظلم الكثيف الداخل تحت الكون والفساد المركب المؤلف الترابى الذى لا يتم أمره إلا بغيره، والآخر: هو النفس الجوهرى المفـرد المنير المدرك الفاعل المحـرك المتمم للآلات والأجسـام، والله تعالى ركب الجسد من أجزاء الغذاء ورباه بأجزاء الرماد، ومـهد قاعدته وسوّى أركانه وعين أطرافه وأظهر جوهر النفس من أمره الواحد الكامل المكمـل المفيد. ولا أعنى بالنفس القوة الطالبة للغذاء، ولا القوة المحرّكة للشهـوة والغضب، ولا القوة الساكنة فى القلب المولدة للحياة، والمبـرزة للحسّ والحركـة من القلب إلى جـميع الأعـضـاء، فإن هذه القـوة تسمى روحًـا حيوانيًّا، والحس والحركة والشهوة والغضب مـن جنده، وتلك القوة الطالبة للغذاء الساكنة فى الكبد بالتصرف يقال لها روحًا طبيعيًّا، والهضم والدافع من صفاتها، والقوة المصورة والمولدة والنامية وباقى القوى المنطبعة كلها خدام للجسد، والجسد خادم الروح الحيوانى لأنه يقبل القوى عنه ويعمل بحسب تحريكه وإنما أعنى بالنفس ذلك الجوهر الكامل الفردى الذى ليس من شأنه إلا التذكر والتـحفظ والتفكر والتمييز والرويـة، ويقبل جميع العلوم ولا يملّ من قبول الصـور المجردة المعراة عن المواد وهذا الجوهر رئيس الأرواح وأمـير القوى، الكل يخـدمونـه ويمتثلون أمـره وللنفس النـاطقة أعنى هـذا الجوهر عند كـل قوم اسم خـاص، فالحكماء يسمون هذا الجوهر النفس الناطقة، والقرآن تسميه النفس المطمئنة والروح الأمرى، والتصـوفة تسـميـه القلب، والخلاف فى الأسـامى والمعنى واحد لا خـلاف فيه. فـالقلب والروح عندنا، والمطمـئنة كلها أسـامى النفس الناطقـة، والنفس الناطقة، هى الجـوهر الحىّ الفعال المدرك، وحيـثما نقول الروح المطلق أو القلب فإنما نعنى به هذا الجـوهر، والمتصوفة يسمون الروح الحـيوانى نفسًا. والشـرع ورد بذلك فقال: «**أَعْدَى عَـدُوِّكَ نَفْسُكَ**». وأطلق الشارع اسم النفس بل أكدها بالإضافة، فقال: «**نَفْسُكَ الَّتِى بَيْنَ جَنْبَيْكَ**». وإنما أشار بهذه اللفظة إلى القوة الشـهوانية والغضـبية فإنهـما ينبعثـان عن القلب الواقف بين الجنبين، فإذا عرفت فرق الأسامى، فاعلم أن الباحثين يعبـرون عن هذا الجوهر النفيس بعبارات مختلفة، ويرون فيه آراء متفاوتة، والمتكلمين المعرفين بـعلم الجدل يعدون النفس جسمًا، ويقولون إنه

جسم لطيف بإزاء هذا الجسم الكثيف، ولا يرون الفرق بين الروح والجسد إلا باللطافة والكثافة وبعضهم يعدّ الروح عرضًا، وبعض الأطباء يميل إلى هذا القول، وبعضهم يرى الدم روحًا وكلهم قنعوا بقصور نظرهم على تخيلهم وما طلبوا القسم الثالث، واعلم أن الأقسام ثلاثة: الجسم والعرض والجوهر الفرد، فالروح الحيواني جسم لطيف كأنه سراج مشعل موضوع فى زجاجة القلب أعنى ذلك الشكل الصنوبرى المعلق فى الصدر، والحياة ضوء السراج والدم رهنه، والحس والحركة نوره، والشهوة حرارته، والغضب دخانه، والقوة الطالبة للغذاء الكائنة فى الكبد خادمه وحارسه ووكيله، وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات، والإنسان هو جسم وآثاره أعراض، وهذا الروح لا يهتدى إلى العلم ولايعرف طريق المصنوع ولا حق الصانع، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن، لو يزيد الدم ينطفئ ذلك السراج بزيادة الحرارة، ولو ينقص ينطفئ بزيادة البرودة وانطفاؤه سبب موت البدن، وليس خطاب البارى سبحانه ولا تكليف الشارع لهذا الروح لأن البهائم وسائر الحيوانات غير مكلفين ولا مخاطبين بأحكام الشرع، والإنسان إنما يكلف ويخاطب لأجل معنى آخر وجد عنده زائدًا خاصًا به، وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح المطمئنة، وهذا الروح ليس بجسم ولا عرض لأنه من أمر الله تعالى كما قال: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. وأمر البارى تعالى ليس بجسم ولا عرض، بل قوة إلهية مثل العقل الأول واللوح والقلم، وهى الجواهر المفردة المفارقة للمواد بل هى أضواء مجردة معقولة غير محسوسة، والروح والقلب بلساننا من قبل تلك الجواهر، ولا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت، بل يفارق البدن وينتظر العود إليه فى يوم القيامة كما ورد فى الشرع وقد صحّ فى العلوم الحكمية بالبراهين القاطعة، والدلائل الواضحة أن الروح الناطق ليس بجسم ولا عرض، بل هو جوهر ثابت دائم غير فاسد، ونحن نستغنى عن تكرير البرهان وتعديد الدلائل لأنها مقررة مذكورة. فمن أراد تصحيحها فليرجع إلى الكتب الائقة بذلك الفن. فأما فى طريقنا فلا يتأتى بالبرهان بل نعول على العيان ونعتمد على رؤية الإيمان، ولما أضاف الله تعالى الروح إلى أمره وتارة إلى عزته، فقال: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر ٢٩ -ص: ٧٢]. وقال: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال: ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا**﴾ [التحريم: ١٢]. والله تعالى أجلّ من أن يضيف إلى نفسه جسمًا أو عرضًا لخستهما وتغيرهما وسرعة زوالهما وفسادهما، والشارع ﷺ قال: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ**» وقال: «**أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فى حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ**» ، والعرض لا يبقى بعد فناء الجوهر لأنه لا يقوم بذاته، والجسم يقبل التحليل، كما قيل: التركيب من المادة والصورة كما هو مذكور فى

الكتب، فلما وجدنا هذه الآيات والأخبار والبراهين العقلية علمنا أن الروح جوهر فرد كامل حي بذاته يتولد منه صلاح الدين وفساده، والروح الطبيعي والحيواني وجميع القوى البدنية كلها من جنوده، وأن هذا الجوهر يقبل صور المعلومات وحقائق الموجودات من غير اشتغال بأعيانها وأشخاصها، فإن النفس قادرة على أن تعلم حقيقة الإنسانية من غير أن ترى إنسانًا كما أنها علمت الملائكة والشياطين، وما احتاجت إلى رؤية أشخاصها إذ لا ينالها حواس أكثر الناس، وقال قوم من المتصوفة إن للقلب عينًا كما للجسد، فيرى الظواهر بالعين الظاهرة، ويرى الحقائق بعين العقل، وقال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْد إلا ولَقلْبه عَيْنَان**»، وهما عينان يدرك بهما الغيب، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرًا فتح قلبه ليرى ما هو غائب عن بصره، وهذا الروح لايموت بموت البدن لأن الله تعالى يدعوه إلى بابه فيقول: ﴿**ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ**﴾ [الفجر: ٢٨]. وإنما هو يفارق ويعرض عن البدن، فمن أعراضه تتعطل أحوال القوى الحيوانية والطبيعية فيسكن المتحرك فيقال لذلك السكون: موت، وأهل الطريقة. أعنى الصوفية. يعتمدون على الروح والقلب أكثر اعتمادًا منهم على الشخص. وإذا كان الروح من أمر البارى تعالى فيكون فى البدن كالغريب، ويكون وجهه إلى أصله ومرجعه. فينال الفوائد من جانب الأصل أكثر مما ينال من جهة الشخص إذا قوى ولم يدنس بأدناس الطبيعة. وإذا علمت أن الروح جوهر فرد وعلمت أن الجسد لابدّ له من المكان. والعرض لا يبقى إلا بالجوهر. فاعلم أن هذا الجوهر لا يحلّ فى محل ولا يسكن فى مكان، وليس البدن مكان الروح ولا محلّ القلب، بل البدن آلة الروح وأداة القلب ومركب النفس. والروح ذاته غير متّصل بأجزاء البدن ولا منفصل عنه، بل هو مقبل على البدن مفيد له مفيض عليه، وأوّل ما يظهر نوره على الدماغ لأن الدماغ مظهره الخاص اتّخذ من مقدمه حارسًا. ومن وسطه وزيرًا ومدبرًا، ومن آخره خزانة وخازنًا، ومن جميع الأجزاء رجالاً وركبانًا، ومن الروح الحيواني خادمًا،ومن الطبيعي وكيلاً، ومن البدن مركبًا، ومن الدنيا ميدانًا، ومن الحياة بضاعة ومالاً، ومن الحركة تجارة، ومن العلم ربحًا، ومن الآخرة مقصدًا ومرجعًا، ومن الشرع طريقة ومنهاجًا، ومن النفس الأمّارة حارسًا ونقيبًا، ومن اللوامة منبهًا. ومن الحواسّ جواسيس وأعوانًا، ومن الدين درعًا، ومن العقل أستاذًا، ومن الحس تلميذًا، والربّ سبحانه من وراء هذه كلها بالمرصاد، والنفس بهذه الصفة مع هذه الآلة ما أقبلت على هذا الشخص الكثيف وما اتّصلت بذاته بل تنيله الإفادة، ووجهها إلى بارئها وأمر بارئها بالاستفادة إلى أجل مسمى، فالروح لا يشتغل فى مدة هذا السفر إلا بطلب العلم لأن العلم يكون حليته فى دار الآخرة لأن حلية المال والبنين زينة حياة الدنيا، فكما أن العين مشغولة برؤية المنظورات، والسمع مواظب على استماع الأصوات، واللسان مستعد

لتركيب الأقوال، والروح الحيوانى مريد اللذات الغضبية، والروح الطبيعى محب للذائذ الأكل والشرب، كذلك الروح المطمئنة -أعنى القلب- لايريد إلا العلم ولايرضى إلا به ويتعلم طول عمره. ويتحلى بالعلم جميع أيامه إلى وقت مفاقته، ولو قبل أمرًا آخر دون العلم فإنما يقبل عليه لمصلحة البدن لا لمراد ذاته ومحبة أصله. فإذا علمت أحوال الروح ودوام بقائه وعشقه للعلم وشغفه به، فيجب عليك أن تعلم أصناف العلم فإنها كثيرة ونحن نحصيها بالاختصار.

فصل فى أصناف العلم وأقسامه

اعلم أن العلم على قسمين: أحدهما شرعى، والآخر عقلى. وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها. وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠].

أما القسم الأول: وهو العلم الشرعى، فينقسم إلى نوعين:

أحدهما: فى الأصول وهو علم التوحيد. وهذا العلم ينظر فى ذات الله تعالى وصفاته القديمة، وصفاته الفعلية، وصفاته الذاتية المتعدّدة بالأسامى على الوجه المذكور. وينظر أيضًا فى أحوال الأنبياء والأئمة من بعدهم والصحابة. وينظر فى أحوال الموت والحياة وفى أحوال القيامة والبعث والحشر والحساب، ورؤية الله تعالى وأهل النظر فى هذا العلم يتمسكون أولاً بآيات الله تعالى من القرآن، ثم بأخبار الرسول ﷺ ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية، وأخذوا مقدمات القياس الجدلى والعادى ولواحقهما من أصحاب المنطق الفلسفى، ووضعوا أكثر الألفاظ فى غير مواضعها، ويعبرون فى عباراتهم بالجوهر والعرض والدليل والنظر والاستدلال والحجّة، ويختلف معنى كل لفظ من هذه الألفاظ عند كل قوم حتى أن الحكماء يعنون بالجوهر شيئًا، والصوفية يعنون شيئًا آخر، والمتكلمون شيئًا، وعلى هذا المثال، وليس المراد فى هذه الرسالة تحقيق معانى الألفاظ على حسب آراء القوم، فلا نسرع فيها. وهؤلاء القوم مخصوصون بالكلام فى الأصول وعلم التوحيد ولقبهم المتكلمون، فإن اسم الكلام اشتهر على علم التوحيد. ومن علم الأصول التفسير، فإن القرآن من أعظم الأشياء وأبينها وأجلّها وأعزّها. وفيه من المشكلات الكثيرة ما لا يحيط بها كل عقل إلا من أعطاه الله تعالى فهمًا فى كتابه. قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ آية مِنْ آيات القُرْآن إلاَّ وَلَها ظَهْرٌ وبَطنٌ ولَبَطْنه بَطنٌ إلى سَبْعَة أبْطُن**»، وفى رواية إلى تسعة. وقال ﷺ: «**لكُلِّ حَرْف مَنْ حُرُوف القُرْآن حَدّ ولكُلِّ حدّ مَطْلَعٌ**» والله تعالى أخبر فى القرآن عن جميع العلوم وجلىّ الموجودات وخفيها وصغيرها وكبيرها ومحسوسها ومعقولها. وإلى هذه

الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. وإذا كان أمر القرآن أعظم الأمور فأى مفسر أدى حقه، وأى عالم خرج عن عهدته، نعم كل واحد من المفسرين شرع فى شرحه بمقدار طاقته، وخاض فى بيانه بحسب قوة عقله، وقدر كنه علمه، فكلهم قالوا، وبالحقيقة ما قالوا، وعلم القرآن يدل على علم الأصول والفروع والشرعى والعقلى. ويجب على المفسر أن ينظر فى القرآن من وجه اللغة، ومن وجه الاستعارة، ومن وجه تركيب اللفظ، ومن وجه مراتب النحو، ومن وجه عادة العرب، ومن وجه أمور الحكماء، ومن وجه كلام المتصوفة حتى يقرب تفسيره إلى التحقيق، ولو يقتصر على وجه واحد ويقنع فى البيان بفن واحد لم يخرج عن عهده البيان، ويتوجه عليه حجّة الإيمان وإقامة البرهان، ومن علم الأصول أيضًا علم الأخبار. فإن النبى ﷺ أفصح العرب والعجم، وكان معلمًا يوحى إليه من قبل الله تعالى، وكان عقله محيطًا بجميع العلويات والسلفيات، فكلّ كلمة من كلماته بل لفظة من ألفاظه يوجد تحتها بحار الأسرار وكنوز الرموز، فعلم أخباره ومعرفة أحاديثه أمر عظيم، وخطب جليل. لا يقدر أحد أن يحيط بعلم الكلام النبوى إلا أن يهذب نفسه بمتابعة الشارع، ويزيل الاعوجاج عن قلبه بتقويم شرع النبىّ ﷺ، ومن أراد أن يتكلم فى تفسير القرآن وتأويل الأخبار ويصيب فى كلامه، فيجب عليه أوّلاً تحصيل علم اللغة والتبحر فى فن النحو، والرسوخ فى ميدان الإعراب، والتصرف فى أصناف التصريف، فإن علم اللغة سلم ومرقاة إلى جميع العلوم، ومن لم يعلم اللغة فلا سبيل له إلى تحصيل العلوم. فإن من أراد أن يصعد سطحًا عليه تمهيد المرقاة أولاً ثم بعد ذلك يصعد، وعلم اللغة وسيلة عظيمة، ومرقاة كبيرة، فلا يستغنى طالب العلم عن أحكام اللغة، فعلم اللغة أصل الأصول، وأوّل علم اللغة معرفة الأدوات، وهى بمنزلة الكلمات المفردة، وبعدها معرفة الأفعال مثل الثلاثى والرباعى وغيرهما، ويجب على اللغوى أن ينظر فى أشعار العرب. وأولاها وأتقنها أشعار الجاهلية. فإن فيها تنقيحًا للخاطر، وترويحًا للنفس ومع ذلك الشعر والأدوات والأسامى يجب تحصيل علم النحو فإنه لعلم اللغة بمنزلة ميزان القبان للذهب والفضة. والمنطق لعلم الحكمة والعروض للشعر، والذراع للأثواب. والمكيال للحبوب، وكل شئ لا يوزن بميزان لا يتبين فيه حقيقة الزيادة والنقصان. فعلم اللغة سبيل إلى علم التفسير والأخبار، وعلم القرآن والأخبار دليل على علم التوحيد، وعلم التوحيد هو الذى لا تنجو نفوس العباد إلاّ به ولا تتخلص من خوف المعاد إلاّ به، فهذا تفصيل علم الأصول.

النوع الثانى: من العلم الشرعى هو علم الفروع. وذلك أن العلم إما أن يكون علميًّا، وإما أن يكون عمليًّا، وعلم الأصول هو العلمى، وعل الفروع هو العملى، وهذا العلم العملى يشتمل على ثلاثة حقوق:

أولها: حقّ الله تعالى وهو أركان العبادات مثل الطهارة والصلاة والزكاة والحج الجهاد والأذكار والأعياد والجمعة وزوائدها من النوافل والفرائض.

وثانيها: حق العباد وهو أبواب العادات ويجرى فى وجهين: أحدهما: المعاملة مثل البيع والشركة والهبة والقرض والدين والقصاص وجميع أبواب الديات، والوجه الثانى: المعاقدة مثل النكاح والطلاق والعتق والرق والفرائض ولواحقها، ويطلق اسم الفقه على هذين الحقين. وعلم الفقه علم شريف مفيد عام ضرورى لا يستغنى الناس عنه لعموم الضرورة إليه.

وثالثها: حقّ النفس، وهو علم الأخلاق، والأخلاق إما مذمومة ويجب رفضها وقطعها، وإما محمودة ويجب تحصيلها وتحلية النفوس بها، والأخلاق المذمومة والأوصاف المحمودة مشهورة فى كتاب الله تعالى وأخبار الرسول ﷺ، من تخلّق بواحد منها دخل الجنة.

وأما القسم الثانى: من العلم فهو العلم العقلى وهو علم معضل مشكل يقع فيه خطأ وصواب. وهو موضوع فى ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: وهو أوّل المراتب العلم الرياضى والمنطقى. أمّا الرياضى فمنه الحساب وينظر فى العدد والهندسة وهى علم المقادير والأشكال والهيئة أعنى علم الأفلاك والنجوم وأقاليم الأرض، وما يتصل بها، ويتفرع عنه علم النجوم وأحكام المواليد والطوالع، ومنه علم المسبقى الناظر فى نسب الآثار، وأما المنطقى فينظر فى طريق الحدّ والرسم فى الأشياء التى تدرك بالتصور، وينظر من طريق القياس والبرهان فى العلوم التى تنال بالتصديق، ويدور علم المنطق على هذه القاعدة يبتدئ بالمفردات ثم بالمركبات، ثم بالقضايا، ثم بالقياس، ثم بأقسام القياس، ثم مطلب البرهان وهو نهاية علم المنطق.

المرتبة الثانية: وهو أوسطها العلم الطبيعى، وصاحبه ينظر فى الجسم المطلق، وأركان العالم وفى الجواهر والأعراض، وفى الحركة والسكون، وفى أحوال السموات والأشياء الفعلية والانفعالية، ويتولد من هذا العلم النظر فى أحوال مراتب الموجودات وأقسام النفوس والأمزجة، وكمية الحواس، وكيفية إدراكها لمحسوساتها، ثم يؤدى إلى النظر فى علم الطب وهو علم الأبدان والعلل والأدوية والمعالجات وما يتعلق بها، ومن فروعه علم الآثار العلوية، وعلم المعادن، ومعرفة خواصّ الأشياء، وينتهى إلى علم صنعة الكيمياء وهى معالجة الأجساد المريضة فى أجواف المعادن.

المرتبة الثالثة: وهى العليا، هى النظر فى الموجود، ثم تقسيمه إلى الواجب والممكن، ثم النظر فى الصانع وذاته وجميع صفاته وأفعاله وأمره وحكمه وقضائه وترتب

ظهور الموجـودات عنه، ثم النظر في العلويات والجواهر المفـردة والعقول المفارقـة والنفوس الكاملة، ثم النظر في أحوال الملائكة والشـياطين، وينتهي إلى علم النبوات وأمـر المعجزات وأحوال الكرامات، والنظر في أحوال النفوس المقدسة وحال النوم واليقظة ومقامات الرؤيا، ومن فروعـه علم الطلسمات والنبـرنجات وما يتعلّق بهـا، ولهذه العلوم تفاصـيل وأعراض ومراتب، تحتاج إلى شرح جلي ببرهان بهي ولكن الاقتصار أولى.

فصل في علم الصوفية

اعلم أن العلم العقـلي مفرد بذاته ويتـولّد منه علم مركب يوجد فـيه جمـيع أحوال العلمين المفـردين، وذلك العلم المركب علم الصوفـية، وطريقـة أحوالهم، فإن لهـم علمًا خاصًا بطريقة واضحة مجموعة من العلمين وعلمهم يشتمل على الحال، والوقت والسماع، والوجـد والشوق، والسـكر والصحـو، والإثبـات، والمحو، والفـقـر، والفناء، والولاية، والإرادة، والشيخ، والمريد، وما يتعلّق بأحـوالهم مع الزوائد والأوصاف والمقامات. ونحن نتكلم في هذه العلوم الثـلاثة في كتـاب خاص إن شـاء الله تعالى، والآن ليس قـصدنا إلا تعديد العلوم وأصنافهـا في هذه الرسالة، وقد اختصرناها وعددناهـا على طريق الاختصار والإيجـاز، ومن أراد الزيادة وشـرح هذه العلوم فليـرجع إلى مطالعـة الكتب، ولما انتـهى الكلام في بيـان تعديد أصناف العلوم، فـاعلم أنت يقـينًا أن كل فن من هذه الفنون، وكل علم من هذه العلوم، يستدعي عـدة شرائط لينتقش في نفوس الطالبين، فبـعد تعديد العلوم يجب عليك أن تعرف طرق التحصيل فإن لتحصيل العلم طرقًا معينة نحن نفصلها (إن شاء الله).

فصل في بيان التحصيل للعلوم

اعلم أن العلم الإنساني يحـصل من طريقين، أحدهما: التعليم الإنسـاني، والثاني: التعليم الرباني.

أما الطريق الأول: فطريق معهود، ومـسلك محسوس، يقرُّ به جمـيع العقلاء، وأما التعليم الرباني فيكون على وجـهين، أحدهما: من خارج وهو التحصـيل بالتعليم، والآخر: من داخل وهو الاشتغال بالتفكر، والتفـكر من الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر، فإن التعلم إستفادة الـشخص من الشخص الجزئي، والتفكر استـفادة النفس من النفس الكلي، والنفس الكلي أشد تـأثيرًا وأقوى تعليـمًا من جمـيع العلماء والعـقلاء، والعلوم مـركوزة في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض، والجوهر في قعر البحر، أو في قلب المعدن، والتعلم هو

طلب خروج ذلك الشىء من القوة إلى الفعل. والتعليم هو إخراجه من القوة إلى الفعل، فنفس المتعلم تتشبه بنفس المعلم وتتقرب إليه بالنسبة، فالعالم بالإفادة كالزارع والمتعلم بالاستفادة كالأرض. والعلم الذى هو بالقوة كالبذر، والذى بالفعل كالنبات فإذا كملت نفس المتعلم تكون كالشجرة المثمرة أو كالجوهر الخارج من قعر البحر، وإذا غلبت القوى البدنية على النفس يحتاج المتعلم إلى زيادة التعلم وطول المدة، وتحمل المشقة والتعب وطلب الفائدة، وإذا غلب نور العقل على أوصاف الحس يستغنى الطالب بقليل التفكر عن كثرة التعلم، فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة ما لا تجد نفس الجامد بتعلم سنة، فإذن بعض الناس يحصلون العلوم بالتعلم وبعضهم بالتفكر، والتعلم يحتاج إلى التفكر، فإن الإنسان لا يقدر أن يتعلم جميع الأشياء الجزئيات والكليات وجميع المعلومات، بل يتعلم شيئًا ويستخرج بالتفكر من العلوم شيئًا وأكثر العلوم النظرية والصنائع العلمية استخرجها نفوس الحكماء بصفاء ذهنهم، وقوة فكرهم، وحدّة حدسهم من غير زيادة تعلم وتحصيل، ولولا أن الإنسان يستخرج بالتفكر شيئًا، من معلومه الأوّل لكان يطول الأمرعلى الناس ولما كانت تزول ظلمة الجهل عن القلوب لأن النفس لا تقدر أن تتعلم جميع مهماتها الجزئية والكلية بالتعليم، بل بعضها بالتحصيل وبعضها بالنظر كما يرى عادات الناس، وبعضها يستخرج من ضميره بصفاء فكره، وعلى هذا جرت عادة العلماء وتمهدت قواعد العلوم. حتى أن المهندس لا يتعلم جميع ما يحتاج إليه فى طول عمره، بل يتعلم كليات علمه وموضوعاته، ثم بعد ذلك يستخرج ويقيس. وكذلك الطبيب لا يقدر أن يتعلم جزئيات أدواء الأشخاص وأدويتهم بل يتفكر فى معلوماته الكلية. ويعالج كل شخص بحسب مزاجه. وكذلك المنجم يتعلم كليات النجوم ثم يتفكر ويحكم بالأحكام المختلفة. وكذلك الفقيه والأديب. وهكذا إلى بدائع الصنائع فواحد وضع آلة الضرب وهو العود بتفكره، وآخر استخرج من تلك الآلة آلة أُخرى. وكذلك جميع الصنائع البدنية والنفسانية أوائلها محصلة من التعلم والبواقى مستخرجة من التفكر، وإذا انفتح باب الفكر على النفس علمت كيفية طريق التفكر وكيفية الرجوع بالحدس إلى المطلوب فينشرح قلبه وتنفتح بصيرته فيخرج ما فى نفسه من القوة إلى الفعل من غير زيادة طلب وطول تعب.

الطريق الثانى: وهو التعليم الربانى على وجهين:

الأول: إلقاء الوحى وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ودرن الحرص والأمل الفانية. وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها وتتمسك بجود مبدعها وتعتمد على إفادته وفيض نوره، والله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالاً كليًّا. وينظر إليها نظرًا إلهيًّا ويتخذ منها لوحًا. ومن النفس الكلى قلمًا وينقش فيها جميع

علومه، ويصير العقل الكلى كالمعلم، والنفس القديسة كالمتعلم، فيحصل جميع العلوم لتلك النفس وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر، ومصداق هذا قوله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. الآية. فعلم الأنبياء أشرف مرتبة من جميع علوم الخلائق لأن محصوله عن الله تعالى بلا واسطة ووسيلة، وبيان هذا يوجد فى قصّة آدم عليه السلام والملائكة، فإنهم تعلموا طول عمرهم، وحصلوا بفنون الطرق كثيرًا من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات، وآدم عليه السلام ما كان عالمًا لأنه ما تعلم وما رأى معلمًا فتفاخرت الملائكة وتجبروا وتكبروا فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. ونعلم حقائق الأشياء، فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه، وأخرج قلبه عن جملة المكونات وأقبل بالاستعانة على الربّ تعالى فعلمه جميع الأسماء: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]. فقال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. فصغر حالهم عند آدم. وقل علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم فغرقوا فى بحر العجز﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]. فقال تعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٢]. فأنبأهم آدم عليه السلام عدّة مكونات العلم ومستترات الأمر، فتقرر الأمر عند العقلاء أن العلم الغيبى المتولّد عن الوحى أقوى وأكمل من العلوم المكتسبة، وصار علم الوحى إرث الأنبياء وحقّ الرسل، وأغلق الله باب الوحى من عهد سيدنا محمد ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وخاتم البيين، وكان أعلم الناس وأفصح العرب والعجم وكان يقول: «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**»، وقال لقومه: «**أنا أعلمكم وأخشاكم من الله تعالى**»، وإنما كان علمه أكمل وأشرف وأقوى لأنه حصل عن التعليم الربانى، وما اشتغل قط بالتعليم والتعليم الإنسانى. قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

الوجه الثانى: هو الإلهام، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها والإلهام أثر الوحى فإن الوحى هو تصريح الأمر الغيبى والإلهام هو تعريضه، والعلم الحاصل عن الوحى يسمى علمًا نبويًا، والذى يحصل عن الإلهام يسمى علمًا لدنيًا، والعلم اللدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف، وذلك أن العلوم كلها حاصلة معلومة فى جوهر النفس الكلية الأولى الذى هو فى الجواهر المفارقة الأولية المحضة بالنسبة إلى العقل الأول كنسبة حواء إلى آدم عليه السلام، وقد بيّن أن العقل الكلى أشرف وأكمل وأقوى إلى البارى تعالى من النفس الكلية. والنفس الكلية أعز وألطف وأشرف من سائر المخلوقات فمن إفاضة العقل الكلى يتولّد الإلهام ومن إشراق النفس

الكلية يتولد الإلهام، فالوحى حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء. فأما علم الوحى فكما أن النفس دون العقل فالولى دون النبى فكذلك الإلهام دون الوحى فهو ضعيف بنسبة الوحى قوى بإضافة الرؤيا والعلم علم الأنبياء والأولياء. فأما علم الوحى فخاص بالرسل موقوف عليهم كما كان لآدم وموسى عليهما السلام وإبراهيم ومحمّد صلّى الله عليهما وسلّم وغيرهم من الرسُل، وفرّق بين الرسالة والنبوة. فالنبوة قبول النفس القدسية حقائق المعلومات والمعقولات إلى المستفيدين والقابلين، وربما يتفق القبول لنفس من النفوس ولا يتأتى لها التبليغ لعذر من الأعذار وسبب من الأسباب، والعلم اللدنى يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله تعالى عنه، فقال: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥]. وقال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه: «أدخلت لسانى فى فمى فانفتح فى قلبى ألف باب من العلم مع كل باب ألف باب»، وقال: «لو وضعت لى وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوارتهم ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل القرآن بقرآنهم». وهذه مرتبة لا تنال بمجرد التعلم الإنسانى، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدنى، وقال أيضًا ﷺ يحكى عن عهد موسى عليه السلام أن شرح كتابه أربعون حملاً فلو يأذن الله فى شرح معانى الفاتحة لأشرع فيها حتى تبلغ مثل ذلك، يعنى أربعين وقرًا، وهذه الكثرة والسعة والانفتاح فى العلم لا يكون إلا لدنيًّا إلهيًّا سماويًّا. فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرًا رفع الحجاب بين نفسه وبين النفس التى هو اللوح، فيظهر فيها أسرار بعض المكنونات وانتقش فيها معانى تلك المكنونات فتعبر النفس عنها كما تشاء لمن يشاء من عباده وحقيقة الحكمة تنال من العلم اللدنى وما لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيمًا لأن الحكمة من مواهب الله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدنى مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيرًا ويتعبون يسيرًا ويستريحون طويلاً.

واعلم أن الوحى إذا انقطع. وباب الرسالة إذا انسدّ استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجّة وتكميل الدين، كما قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة: ٣]. وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة. فأما باب الإلهام فلا ينسد، ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتجديد وتذكير، وكما أن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم فى هذه الوساوس وانهماكهم فى هذه الشهوات فالله تعالى أغلق باب الوحى وهو آية العباد وفتح باب الإلهام رحمة وهيأ الأمور. ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب.

فصل فى مراتب النفوس فى تحصيل العلوم

اعلم أن العلوم مركوزة فى جميع النفوس الإنسانية وكلها قابلة لجميع العلوم وإنما يفوت نفسًا من النفوس حظها منه بسبب طارئ وعارض يطرأ عليها من خارج، كما قال النبىّ ﷺ: «**خلق الناس حنفاء فاختالتهم الشياطين**» . وقال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُود يُولَدُ على الفطْرَة**» الحديث. فالنفس الناطقة الإنسانية أهل لإشراق الكلية عليها ومستعدة لقبول الصور المعقولة عنها بقوة طهارتها الأصلية وصفاتها، ولكن يمرض بعضها فى هذه الدنيا. ويمتنع عن إدراك الحقائق بأمراض مختلفة وأعراض شتى، ويبقى بعضها على الصحة الأصلية بلا مرض وفساد. يقبل أبدًا ما دامت حية، والنفوس الصحيحة هى النفوس النبوية القابلة للوحى والتأييد القادرة على إظهار المعجزة والتصرف فى عالم الكون والفساد، فإن تلك النفوس باقية على الصحّة الأصلية، وما تغيّرت أمزجتها بفساد الأمراض وعلل الأعراض فصار الأنبياء أطباء النفوس ودعاة الخلق إلى صحة الفطرة.

وأما النفوس المريضة فى هذه الدنيا الدنيئة فصارت على مراتب، بعضهم تأثر بمرض المنزل تأثرًا ضعيفًا. ودقّ غمام النسيان فى خواطرهم فيشتغلون بالتعلّم. ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة، وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ويشتغلون بالتعليم ويطلبون الصحة الأصلية فيزول مرضهم بأدنى معالجة. وينقشع غمام نسيانهم بأقل تذكر وبعضهم يتعلمون طول عمرهم ويشتغلون بالتحصيل والتصحيح جميع أيامهم، ولا يفهمون شيئًا لفساد أمزجتهم، لأن المزاج إذا فسد لا يقبل العلاج، وبعضهم يتذكرون وينسون ويرتاضون ويذلون أنفسهم ويجدون نورًا قليلاً وإشراقًا ضعيفًا، وهذا التفاوت إنما ظهر من إقبال النفوس على الدنيا واستغراقها بحسب قوتها وضعفها كالصحيح إذا مرض، والمريض إذا صح، وهذه العقدة إذا انحلت تقر النفوس بوجود العلم اللدنى وتعلم أنها كانت عالمة فى أول الفطرة وصافية فى ابتداء الاختراع، وإنما جهلت لأنها مرضت بصحبة هذا الجسد الكثيف، والإقامة فى هذا المنزل الكدر والمحل المظلم وأنها لا تطلب بالتعلم إيجاد العلم المعدوم. ولا إبداع العقل المفقود، بل إعادتها العلم الأصلى الغريزى وإزالة طريان المرض بإقبالها على زينة الجسد وتمهيد قاعدته ونظم أساسه، والأب المحب المشفق على ولده إذا أقبل على رعاية الولد، واشتغل بمهماته ينسى جميع الأمور ويكتفى بأمر واحد وهو أمر الولد، فالنفس لشدة شغفها وشفقتها أقبلت على هذا الهيكل واشتغلت بعمارته ورعايته والاهتمام بمصالحه، واستغرقت فى بحر الطبيعة بسبب ضعفها وجزئيتها فاحتاجت فى أثناء العمر إلى التعلم طلبًا لتذكار ما قد نسيت،

وطمعًا فى وجدان ما قد فقدت وليس التعلم إلا رجوع النفس إلى جوهرها وإخراج ما فى ضميرها إلى الفعل طلبًا لتكميل ذاتها ونيل سعادتها، وإذا كانت النفوس ضعيفة لا تهتدى إلى حقيقة جوهريتها تتمسك وتعتصم بمعلم مشفق عالم وتستغيث به ليعينها على طلب مرادها ومأمولها كالمريض الذى يكون جاهلاً بمعالجته ويعلم أن الصحة الشريفة محمودة مطلوبة. فيرجع إلى طبيب مشفق، ويعرض حاله عليه ويأوى إليه ليعالجه ويزيل عنه مرضه. وقد رأينا عالمًا يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر فتعرض نفسه عن جميع العلوم وينسى معلوماته وتلتبس عليه ويستتر فى حافظته وذاكرته جميع ما حصل فى سابق عمره وماضى أيامه. فإذا صحّ عاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه وترجع النفس إلى معلوماتها فتتذكر ما قد نسيت فى أيام المرض، فعلمنا أن العلوم ما فنيت وإنما نسيت وفرق بين المحو والنسيان بالناس فإن المحو فناء النقوش والرسوم، والنسيان التباس النقوش فيكون كالغمام أو السحاب الساتر لنور الشمس عن أبصار الناظرين لا كالغروب الذى هو انتقال الشمس من فوق الأرض إلى أسفل. فاشتغال النفس بالتعليم هو إزالة المرض العارض عن جوهر النفس لتعود إلى ما علمت فى أول الفطرة وعرفت فى بدء الطهارة. فإذا عرفت السبب والمراد من التعليم وحقيقة النفس وجوهرها فاعلم أن النفس المريضة تحتاج إلى التعليم وإنفا قال العمر فى تحصيل العلوم. فأما النفس التى يخف مرضها وتكون علّتها ضعيفة وشرّها دقيقًا وغمامها رقيقًا ومزاجها صحيحًا، فلا تحتاج إلى زيادة تعلم وطول تعب بل يكفيها أدنى نظر وتفكر لأنها ترجع به إلى أصلها، وتقبل على بدايتها وحقيقتها وتطلع على مخفياتها فيخرج ما فيها من القوة إلى الفعل ويصير ما هو مركوز فيها حلية لها فيتم أمرها ويكمل شأنها وتعلم أكثر الأشياء فى أقل الأيام وتعبر عن المعلومات بحسن النظام، وتصير عالمة كاملة متكلمة تستضئ بإقبال على النفس الكلية وتفيض باستقبال على النفس الجزئية وتتشبه من طريق العشق بالأصل. وتقطع عرق الحسد وأصل الحقد وتعرض عن فضول الدنيا وزخارفها، وإذا وصلت إلى هذه المرتبة فقد علمت ونجت وفازت، فهذا هو المطلوب لجميع الناس.

فصل فى حقيقة العلم اللدنى وأسباب حصوله

اعلم أن العلم اللدنى وهو سريان نور الإلهام يكون بعد التسوية كما قال الله تعالى: ﴿ **ونفس وما سواها** ﴾ [الشمس: ٧]. وهذا الرجوع يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها.

والثانى: الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة، فإن النبىّ ﷺ أشار إلى هذه

الحقيقة، فقال: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». وقال ﷺ: «مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِينَ صَبَاحًا أظْهَرَ الله تَعَالَى يَنَابِيعَ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِه عَلَى لِسَانِه».

والثالث: التفكر، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تتفكر فى معلوماتها بشروط الفكر ينفتح عليها باب الغيب كالتاجر الذى يتصرف فى ماله بشرط التصرف ينفتح عليه أبواب الربح، وإذا سلك طريق الخطأ يقع فى مهالك الخسران، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب، وتنفتح روزنة من عالم الغيب فى قلبه فيصير عالمًا كاملاً عاقلاً ملهمًا مؤيدًا، كما قال ﷺ: «تَفَكُّرُ سَاعَة خَيْرٌ مِنْ عِبَادَة سِتِّين سَنَة». وشرائط التفكر نحصيها فى رسالة أخرى إذ بيان التفكر وكيفيته وحقيقته أمر مبهج يحتاج إلى زيادة شرح وتفسير بعون الله تعالى. والآن نختم هذه الرسالة، فإن فى هذه الكلمات كفاية لأهلها: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. والله ولىّ المؤمنين وعليه التكلان، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولاحول ولا قوّة إلا بالله العلّى العظيم، وبه ثقتى فى كل آن وحين والحمد لله رب العالمين.

فصل التفرقة

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

قال الإمام العالم العامل أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى رحمة الله عليه: أحمد الله تعالى استسلامًا لعزّته واستتمامًا لنعمته، واستغنامًا لتوفيقه ومعونته وطاعته، واستعصامًا من خذلانه ومعصيته، واستدرارًا لسوابغ نعمته وأُصلى على محمّد عبده ورسوله وخير خليقته، انقيادًا لنبوته، واستجلابًا لشفاعته، وقضاءً لحقّ رسالته، واعتصامًا بيمين سريرته ونقيته، وعلى آله وأصحابه وعترته.

أما بعد: فإنى رأيتك أيها الأخ المشفق، والصديق المتعصب موغر الصدر، منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وأن العدول على مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ومباينته ولو فى شئ نزر ضلال وخسر، فهوّن أيها الأخ المشفق المتعصب على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف فأى داع أكمل وأعقل من سيّد المرسلين ﷺ، وقد قالوا: إنه مجنون من المجانين، وأىّ كلام أجلّ وأصدق

من كلام ربّ العالمين، وقد قالوا: إنه أساطير الأوّلين، وإياك أن تشتغل بخصامهم وتطمع فى إفحامهم فتطمع فى غير مطمع، وتصوت فى غير مسمع، أما سمعت ما قيل:

كُلُّ العُداة قَدْ تُرْجَى سَلامَتُها
إلاَّ عَداوة مَنْ عَاداكَ عَنْ حَسَد

ولو كانَ فيه مطمع لأحد من الناس، لما تلى على أجلهم رتبة آيات اليأس، أو ما سمعت قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]. واعلم أن الفكر والإيمان وحدهما، والحقّ والضلال وسرهما، لا ينجلى للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبهما، بل إنما ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولاً، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانيًا، ثم نورت بالذكر الصافى ثالثًا، ثم عذبت بالفكر الصائب رابعًا، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسًا، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة، وصارت كأنها مرآة مجلوّة، وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبه مشرق الأنوار، يكاد زيته يضئ ولو لم تمسسه نار. وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ومعبودهم سلاطينهم، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم، وشريعتهم رعونتهم، وإرادتهم جاههم وشهواتهم، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم، وذكرهم وساوسهم، وكنزهم سواسهم، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان، أبإلهام إلهى ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها أم بكمال علمى، وإنما بضاعتهم فى العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالهما؟ هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى، أو ينال بالهوينا؟ فاشتغل أنت بشأنك ولا تضيع فيهم بقية زمانك: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

فصل في حقيقة الكفر والإيمان

فأما أنت إن أردت أن تنتزع هذه الحسكة من صدرك، وصدر من هو فى حالك، ممن لا تحركه غواية الحسود، ولا تقيده عماية التقليد، بل تعطشه إلى الاستبصار لحزازة إشكال آثارها فكر، وهيجها نظر، فخاطب نفسك وصاحبك، وطالبه بحدّ الكفر فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعرى أو مذهب المعتزلى أو مذهب الحنبلى أوغيرهم فاعلم أنه غير بليد، قد قيّده التقليد فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان، وناهيك حجّة فى إفحامه، مقابلة دعواه بدعوى خصومه، إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقًا وفصلاً، ولعل صاحبه يميل من سائر المذاهب إلى الأشعرى، ويزعم أن مخالفته فى كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلى، فاسأله من أين يثبت له أن يكون الحق وقفًا عليه حتى قضى بكفر الباقلانى إذ خالفه فى صفة البقاء لله تعالى، وزعم أنه ليس هو وصفًا لله تعالى زائدًا على الذات ولم صار الباقلانى أولى بالكفر بمخالفته الأشعرى من الأشعرى بمخالفته الباقلانى؟ ولمَ صار الحق وقفًا على أحدهما دون الثانى؟ أكان ذلك لأجل السبق فى الزمان؟ فقد سبق الأشعرى غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه! أم لأجل التفاوت فى الفضل والعلم؟ فبأى ميزان ومكيال قدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل فى الوجود من متبوعه ومقلده؟ فإن رخص للباقلانى فى مخالفته فلم حجر على غيره؟ وما الفرق بين الباقلانى والكرابيسى والقلانسى وغيرهم؟ وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة؟ وإن زعم أن خلاف الباقلانى يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه كما تعسف بتكلفة بعض المتعصبين زاعمًا أنهما جميعًا متوافقان على دوام الوجود، والخلاف فى أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لايوجب التشديد، فما باله يشدد القول على المعتزلى فى نفيه الصفات وهو معترف بأن الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات قادر على جميع الممكنات، وإنما يخالف الأشعرى فى أنه عالم وقادر بالذات أو بصفة زائدة، فما الفرق بين الخلافين، وأى مطلب أجلُ وأخطر من صفات الحقّ سبحانه وتعالى فى النظر فى نفيها وإثباتها؟ فإن قال: إنما أكفِّر المعتزلى لأنه يزعم أن الذات الواحدة تصدر منها فائدة العلم والقدرة والحياة وهذه صفات مختلفة بالحدّ والحقيقة، والحقائق المختلفة تستحيل أن توصف بالاتّحاد أو تقوم مقامها الذات الواحدة فما باله لا يستبعد من الأشعرى قوله: إن الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى ومع كونه واحدًا هو توراة وإنجيل وزبور وقرآن، وهو أمر ونهى وخبر واستخبار، وهذه حقائق مختلفة كيف لا وحدّ الخبر ما يتطرق إليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك إلى الأمر والنهى فكيف تكون حقيقة واحدة يتطرق

إليها التصديق والتكذيب ولايتطرق فيجـمتع النفى والإثبات على شىء واحد فإن تخبـ
جواب هذا أو عجـز عن كشف الغطاء فيه، فـاعلم أنه ليس من أهل النظر وإنما هو ،
وشرط المقلد أن يسكت ويسكت عنه لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج، ولو كان أ
كان مسـتتبعًا لا تابعًـا، وإمامًا لا مأمومًـا، فإن خاض المقلد فى المحاجة فـذلك منه ،
والمشتـغل به صار كضارب فى حـديد بارد وطالب لصلاح الفاسـد. وهل يصلح العـ
أفسد الدهر. ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفًا على واحد من النظار ؛
فهو إلى الكفر والتناقض أقرب. أمـا الكفر، فلأنه نزله منزلة النبىّ المعصوم من الزلل
لايثبت الإيمان إلا بموافقته ولا يلزم الكفر إلا بمخـالفته، وأما التناقض فهو أن كل واحـ
النظار يوجب النظر وأن لا ترى فى نظرك إلا مـا رأيت وكل ما رأيته حجّـة، وأى فر
من يقول قلدنى فى مجـرد مذهبى، وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ودليلى جمـيعًا
هذا إلا التناقض.

فصل في الكفر

لعلك تشـتـهى أن تعـرف حـد الكفـر بعـد أن تتناقض عليك حـدود أ
المقلدين، فـاعلم أن شرح ذلك طويل ومـدركه غامض، ولكنى أعـطيك علامة صـحـ
فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تكفير الفرق، وتطويل ا
فى أهل الإسلام وإن اختلفت طرقـهم ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله مـحمّد ر
الله صادقين بها غير مناقضين لها فأقول:

الكفر هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى شئ مما جاء به، والإيمان تـ
فى جميع ما جاء به، فاليهودى والنصرانى كافران لتكذيبهما للرسول عليه الصلاة والسـ
والبرهمى كافر بالطريق الأولى لأنه أنكر مـع رسولنا المرسل سائر الرسل، وهذا لأن
حكم شرعى كالرق والحرية مثلاً إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود فى النار ومدركه ش
فيدرك إما بنص وإمـا بقياس على منصوص. وقد وردت النصوص فـى اليهود والنصـ
والتحق بهم بالطريـق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقـة والدهرية، وكلهم مشركـون
مكذبون للرسول فكل كافر مكذب للرسول، وكل كافر مكذب فـهو كافر فهذه هى الـ
المطردة المنعكسة.

فصل

اعلم أن الذى ذكـرناه مع ظهوره تحتـه غور بل تحـته كل الغـور لأن كل فرقـة

مخالفها وتنسبه إلى تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام، فالحنبلي يكفر الأشعري زاعمًا أنه كذب الرسول فى إثبات الفوق لله تعالى وفى الاستواء على العرش، والأشعرى يكفره زاعمًا أنه مشبه وكذب الرسول فى أنه ليس كمثله شئ، والأشعرى يكفر المعتزلى زاعمًا أنه كذب الرسول فى جواز رؤية الله تعالى وفى إثبات العلم والقدرة والصفات له، والمعتزلى يكفر الأشعرى زاعمًا أن إثبات الصفات تكفير للقدماء وتكذيب للرسول فى التوحيد، ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حدّ التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه فينكشف لك غلوّ هذه الفرق وإسرافها فى تكفير بعضها بعضًا.

فأقول: التصديق إنما يتطرق إلى الخبر بل إلى المخبر، وحقيقة الاعتراف بوجوه ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده إلا أن للوجود خمس مراتب ولأجل الغفلة عنهما نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب فإن الوجود ذاتى وحسّى وخيالى وعقلى وشبهى، فمن اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق. فلنشرح هذه الأصناف الخمسة ولنذكر مثالها فى التأويلات.

أما الوجود الذاتى: فهو الوجود الحقيقى الثابت خارج الحسّ والعقل، ولكن يأخذ الحسّ والعقل عنه صورة فيسمى أخذه إدراكًا وهذا كوجود السموات والأرض والحيوان والنبات وهو ظاهر بل هو المعروف الذى لا يعرف الأكثرون للوجود معنى سواه.

وأما الوجود الحسّى: فهو ما يتمثل فى القوة الباصرة من العين مما لا وجود له خارج العين فيكون موجودًا فى الحس ويختصّ به الحاس، ولا يشاركه غيره، وذلك كما يشاهده النائم بل كما يشاهده المريض المتيقظ إذ قد تتمثل له صورة ولا وجود لها خارج حسّه حتى يشاهدها كما يشاهد سائر الموجودات الخارجة عن حسّه، بل قد تتمثل للأنبياء والأولياء فى اليقظة والصحّة صورة جميلة محاكية لجواهر الملائكة، وينتهى إليهم الوحى والإلهام بواسطتها فيتلقون من أمر الغيب فى اليقظة ما يتلقاه غيرهم فى النوم وذلك لشدة صفاء باطنهم، كما قال تعالى: ﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ [مريم: ١٧]. وكما أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل عليه السلام كثيرًا، ولكن ما رآه فى صورته إلا مرتين وكان يراه فى صور مختلفة يتمثل بها وكما يرى رسول الله ﷺ فى المنام، وقد قال: «**مَنْ رآنى فى النوم فقد رآنى حقًا، فإن الشيطان لا يَتَمَثَّلُ بى**»، ولا تكون رؤيته بمعنى انتقال شخصه من روضة المدينة إلى موضع النائم، بل هى على سبيل وجود صورته فى الحسّ النائم فقط، وسبب ذلك وسره طويل، وقد شرحناه فى بعض الكتب فإن كنت لا تصدق به فصدق عينك، فإنك تأخذ قبسًا من نار كأنه نقطة ثم تحركه بسرعة حركة مستقيمة فتراه خطًا من نار، وتحركه حركة مستديرة فتراه دائرة من نار، والدائرة والخط مشاهدان وهما موجودان فى

حسّك لا فى خارج عن حسك، لأن الموجود فى الخارج هى نقطة فى كل حال، وإنما تصير خطًا فى أوقات متعاقبة فلا يكون الخط موجودًا فى حالة واحدة وهو ثابت فى مشاهدتك فى حالة واحدة.

وأما الوجود الخيالى: فهو صورة هذه المحسوسات إذا غابت عن حسك فإنك تقدر على أن تخترع فى خيالك صورة فيل وفرس، وإن كنت متمضًا عينيك حتى كأنك تشاهده وهو موجود بكمال صورته فى دماغك لا فى الخارج.

وأما الوجود العقلى: فهو أن يكون للشئ روح وحقيقة ومعنى فيتلقى العقل مجرد معناه دون أن يثبت صورته فى خيال أوحسّ أو خارج كاليد مثلاً، فإن لها صورة محسوسة ومتخيلة ولها معنى هو حقيقتها وهى القدرة على البطش، والقدرة على البطش هى اليد العقلية، وللقلم صورة، ولكن حقيقته ما تنقش به العلوم، وهذا يتلقاه العقل من غير أن يكون مقرونًا بصورة قصب وخشب وغير ذلك من الصور الخيالية والحسية.

وأما الوجود الشبهى: فهو أن يكون نفس الشىء موجودًا لا بصورته ولا بحقيقته، لا فى الخارج، ولا فى الحس ولا فى الخيال، ولا فى العقل، ولكن يكون الموجود شيئًا آخر يشبهه فى خاصة من خواصه، وصفة من صفاته، وستفهم هذا إذا ذكرت لك مثاله فى التأويلات. فهذا مراتب وجود الأشياء.

فصل

اسمع الآن أمثلة هذه الدرجات فى التأويلات. أما الوجود الذاتى فلا يحتاج إلى مثال وهو الذى يجرى على الظاهر ولا يتأول، وهو الوجود المطلق الحقيقى، وذلك كإخبار الرسول ﷺ عن العرش والكرسى والسموات السبع فإنه يجرى على ظاهره ولا يتأوّل إذ هذه أجسام موجودة فى أنفسها أدركت بالحسّ والخيال أو لم تدرك. وأما الوجود الحسّى فأمثلته فى التأويلات كثيرة، واقنع منها بمثالين:

أحدهما: قول رسول الله ﷺ: «**يُؤْتى بالمَوْت يَوْمَ القَيامَة فى صُورَة كَبْش أمْلَح فَيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّة وَالنَّار**»، فإن من قام عنده البرهان على أن الموت عرض أوعدم عرض، وأن قلب العرض جسمًا مستحيل غير مقدور يتزل الخبر على أن أهل القيامة يشاهدون ذلك ويعتقدون أنه الموت، ويكون ذلك موجودًا فى حسّهم لا فى الخارج، ويكون سببًا لحصول اليقين باليأس عن الموت بعد ذلك إذ المذبوح ميئوس منه. ومن يقم عنده هذا البرهان فعساه يعتقد أن نفس الموت ينقلب كبشًا فى ذاته ويذبح.

المثال الثانى: قول رسول الله ﷺ: «**عُرِضت علىَّ الجَنَّةُ فى عَرْض هَذَا الحَائط**»، من قام عنده البرهان على أن الأجسام لا تتداخل، وأن الصغير لا يسع الكبير حمل ذلك على

أن نفس الجنة لم تنتقل إلى الحائط، لكن تمثل للحس صورتها فى الحائط حتى كأنه يشاهدها ولا يمتنع أن يشاهد مثال شئ كبير فى جرم صغير، كما نشاهد السماء فى مرآة صغيرة ويكون ذلك إبصاراً مفارقًا لمجرد تخيل صورة الجنة إذ تدرك التفرقة بين أن ترى صورة السماء فى المرآة وبين أن تغمض عينيك فتدرك صورة السماء فى المرآة على سبيل التخيل.

وأما الوجود الخيالى: فمثاله قوله ﷺ: **«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطْوَانِيَّتَانِ يُلَبِّي وتُجِيبُهُ الجِبَالُ واللهُ تَعَالى يَقُولُ لَهُ: لَبَّيْكَ يَا يُونُسَ»**، والظاهر أن هذا إنباء عن تمثيل الصورة فى خياله إذ كان وجود هذه الحالة سابقًا على وجود رسول الله ﷺ، وقد انعدم ذلك فلم يكن موجودًا فى الحال، ولا يبعد أن يقال أيضًا، تمثل هذا فى حسه حتى صار يشاهده كما يشاهد النائم الصور، ولكن قوله: كأنى أنظر، يشعر بأنه لم يكن حقيقة النظر بل كالنظر، والغرض التفهيم بالمثال لا عين هذه الصورة وعلى الجملة فكل ما يتمثل فى محل الخيال فيصور أن يتمثل فى محل الإبصار فيكون ذلك مشاهدة وقل ما يتميز بالبرهان استحالة المشاهدة فيما يتصور فيه التخيل.

وأما الوجود العقلى: فأمثلته كثيرة، فاقنع منها بمثالين:

أحدهما: قوله ﷺ: **«آخر مَنْ يَخْرجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِنَ الجَنَّةِ عَشَرَةُ أَمْثَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا»**، فإن ظاهر هذا يشير إلى أنه عشرة أمثالها بالطول والعرض والمساحة وهو التفاوت الحسّى والخيال، ثم قد يتعجب فيقول: إن الجنة فى السماء كما دلّت عليه ظواهر الأخبار، فكيف تتسع السماء لعشرة أمثال الدنيا والسماء أيضًا من الدنيات، وقد يقطع المتأول هذا التعجب فيقول المراد به تفات معنوى عقلى لا حسّى ولا خيالى، كما يقال مثلاً هذه الجوهرة أضعاف الفرس أى فى روح المالية، ومعناها المدرك دون مساحتها المدركة بالحس والتخيل.

المثال الثانى: قوله ﷺ: **«إنَّ اللهَ تَعَالى خَمَّرَ طِينَةَ آدمَ بِيَدِه أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»**، فقد أثبت لله تعالى يدًا ومن قام عنده البرهان على استحالة يد الله تعالى هى جارحة محسوسة أو متخيلة، فإنه يثبت لله سبحانه يدًا روحانية عقلية. أعنى أنه يثبت معنى اليد وحقيقتها وروحها دون صورتها. إن روح اليد ومعناها ما به يبطش ويفعل ويعطى ويمنع، والله تعالى يعطى ويمنع بواسطة ملائكته، كما قال عليه الصلاة والسلام: **«أول ما خلق الله العقل فقال بك أعطى وبك أمنع»**، ولا يمكن أن يكون المراد بذلك العقل عرضًا كما يعتقده المتكلمون إذ لا يمكن أن يكون العرض أول مخلوق بل يكون عبارة عن ذات ملك من الملائكة يسمى عقلاً من حيث يعقل الأشياء بجوهره وذاته من غير حاجة إلى تعليم، وربما يسمى قلمًا

باعتبار أنه تنقش به حقائق العلوم فى ألواح قلوب الأنبياء والأولياء وسائر الملائكة وحيًا وإلهامًا فإنه قد ورد فى حديث آخر: «**إنَّ أوَّلَ مَا خَلَقَ الله تعالى القَلَمَ**». فإن لم يرجع ذلك إلى العقل تناقض الحديثان، ويجوز أن يكون لشئ واحد أسماء كثيرة باعتبارات مختلفة فيسمى عقلاً باعتبار ذاته وملكًا باعتبار نسبته إلى الله تعالى فى كونه واسطة بينه وبين الخلق، وقلما باعتبار إضافته إلى ما يصدر منه من نقش العلوم بالإلهام والوحي، كما يسمى جبريل روحًا باعتبار ذاته وأمينًا باعتبار ما أودع من الأسرار، وذا مرة باعتبار قدرته، وشديد القوى باعتبار كمال قوته، ومكينًا عند ذى العرش باعتبار قرب منزلته، ومطاعًا باعتبار كونه متبوعًا فى حق بعض الملائكة، وهذا القائل يكون قد أثبت قلمًا ويدًا عقليًّا لا حسيًّا وخياليًّا وكذلك من ذهب إلى أن اليد عبارة عن صفة لله تعالى إما القدرة أو غيرها كما اختلف فيه المتكلمون.

وأما الوجود الشبهى: فمثاله الغضب والشوق والفرح والصبر وغير ذلك مما ورد فى حقّ الله تعالى، فإن الغضب مثلاً حقيقته أنه غليان دم القلب لإرادة التشفى وهذا لا ينفك عن نقصان وألم، فمن قام عنده البرهان على استحالة ثبوت نفس الغضب لله تعالى ثبوتًا ذاتيًّا وحسيًّا وخياليًّا وعقليًّا نزله على ثبوت صفة أُخرى يصدر منها ما يصدر من الغضب كإرادة العقاب، والإرادة لا تناسب الغضب فى حقيقة ذاته ولكن فى صفة من الصفات وتقارنها وأثر من الآثار يصدر عنها وهو الإيلام. فهذه درجات التأويلات.

فصل في المصدقين

اعلم أن كل من نزل قولاً من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين، وإنما التكذيب أن ينفى جميع هذه المعانى، ويزعم أن ما قاله لا معنى له، وإنما هو كذب محض وغرضه فيما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا وذلك هو الكفر المحض والزندقة، ولا يلزم كفر المؤولين ما داموا يلازمون قانون التأويل كما سنشير إليه وكيف يلزم الكفر بالتأويل، وما من فريق من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه. فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازًا أو استعارة هو الوجود العقلى والوجود الشبهى، والحنبلى مضطر إليه وقائل به، فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة ببغداد يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط:

أحدها: قوله ﷺ: «**الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ الله فى الأَرضِ**».

والثانى: قوله ﷺ: «**قَلْبُ المُؤمنِ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ**».

والثالث: قوله ﷺ: «إنِّى لأجدُ نَفسَ الرَّحْمنِ منْ قِبَلِ اليَمَنِ».

فانظر الآن كيف أوّل هذا حيث قام البرهان عنده على استحالة ظاهرة، فيقول: اليمن تقبل فى العادة تقربيًا إلى صاحبها، والحجر الأسود يقبل أيضًا تقربًا إلى الله تعالى فهو مثل اليمن لا فى ذاته ولا فى صفات ذاته، ولكن فى عارض من عوارضه فسمى لذلك يمينًا. وهذا الوجود هو الذى سميناه الوجود الشبهى وهو أبعد وجود التأويل، فانظر كيف اضطر إليه أبعد الناس عن التأويل. وكذلك لما استحال عنده وجود الأصبعين لله تعالى حسًّا إذ من فتش عن صدره لم يشاهد فيه أصبعين فتأوله على روح الأصبعين وهى الأصبع العقلية الروحانية. أعنى أن روح الأصبع ما به يتيسر تقلب الأشياء. وقلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان، وبهما يقلب الله تعالى القلوب، فكنى الأصبعين عنهما. وإنما اقتصر أحمد بن حنبل ﷺ على تأويل هذه الأحاديث الثلاثة لأنه لم تظهر عنده الاستحاله إلا فى هذا القدر، لأنه لم يكن ممنعًا فى النظر االعقلى ولو أمعن لظهر له ذلك فى الاختصاص بجهة فوق وغيره مما لم يتأوله والأشعرى والمعتزلى لزيادة بحثهما تجاوزا إلى تأويل ظواهر كثيرة، وأقرب الناس إلى الحنابلة فى أُمور الآخرة الأشعرية وفقهم الله فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيرًا، والمعتزلة أشدّ منهم توغلاً فى التأويلات وهم مع هذا - أعنى الأشعرية- يضطرون أيضًا إلى تأويل أُمور كما ذكرناه من قوله: إنه يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، وكما ورد من وزن الأعمال بالميزان، فإن الأشعرى أوّل من وزن الأعمال فقال: توزن صحائف الأعمال ويخلق الله فيها أوزانًا بقدر درجات الأعمال، وهذا ردّ إلى الوجود الشبهى البعيد فإن الصحائف أجسام كتب فيها رقوم تدلّ بالاصطلاح على أعمال هى أغراض، فليس الموزون إذًا العمل بل محل نقش يدل بالاصطلاح على العمل. والمعتزلى تأوّل نفس الميزان وجعله كناية عن سبب به ينكشف لكل واحد مقدار عمله، وهو أبعد عن التعسف فى التأويل بوزن الصحائف، وليس الغرض تصحيح أحد التأويلين، بل تعلم أن كل فريق وإن بالغ فى ملازمة الظواهر فهو مضطر إلى التأويل إلا أن يجاوز الحدّ فى الغباوة والتجاهل، فيقول: الحجر الأسود يمين تحقيقًا، والموت وإن كان عرضًا فيستحيل فينتقل كبشًا بطريق الانقلاب، والأعمال وإن كانت أعراضًا، وقد عدمت فتنتقل إلى الميزان ويكون فيها أعراض هى الثقل، ومن ينتهى إلى هذا الحد من الجهل فقد انخلع من ربقة العقل.

فصل فى التأويل

فاسمع الآن قانون التأويل، فقد علمت اتفاق الفرق على هذه الدرجات الخمس فى التأويل، وإن شيئًا من ذلك من حيّز التكذيب، واتفقوا أيضًا على أن جواز ذلك موقوف

على قيام البرهان على استحالة الظاهر، والظاهر الأوّل هو الوجود الذاتى فإن إذا ثبت تضمن الجمع. فإن تعذّر، فالوجود الحسّى فإنه إن ثبت تضمن ما بعده. فإن تعذر، فالوجود الخيالى أو العقلى. وإن تعذر، فالوجود الشبهى المجازى ولا رخصة للعدول عن درجة إلى ما دونها إلا بضرورة البرهان فيرجع الاختلاف على التحقيق إلى البراهين. إذ يقول الحنبلى: لا برهان على استحالة اختصاص البارى بجهة فوق.

ويقول الأشعرى: لابرهان على استحالة الرؤية. وكأن كل واحد لا يرضى بما ذكره الخصم ولا يراه دليلاً قاطعًا. وكيف ما كان فلا ينبغى أن يكفر كل فريق خصمه بأن يراه غالطًا فى البرهان. نعم يجوز أن يسميه ضالاً أو مبتدعًا. أما ضالاً فمن حيث إنه ضلّ عن الطريق عنده، وأما مبتدعًا فمن حيث إنه ابتدع قولاً لم يعهد من السلف الصالح التصريح به. إذ المشهور فيما بين السلف أن الله تعالى يرى، فقول القائل: لا يرى بدعة، وتصريحه بتأويل الرؤية بدعة، بل إن ظهر عنده أن تلك الرؤية معناها مشاهدة القلب، فينبغى أن لا يظهره ولا يذكره لأن السلف لم يذكروه، لكن عند هذا يقول الحنبلى إثبات الفوق لله تعالى مشهور عند السلف، ولم يذكر أحد منهم أن خالق العالم ليس متصلاً بالعالم ولا منفصلاً ولا داخلاً ولا خارجًا، وأن الجهات الست خالية عنه وأن نسبة جهة فوق إليه كنسبة جهة تحت، فهذا قول بدع إذ البدعة عبارة عن إحداث مقالة غير مأثورة عن السلف، وعند هذا يتّضح لك أن ههنا مقامين.

أحدهما: مقام عوام الخلق، والحقّ فيه الاتّباع والكف عن تغيير الظواهر رأسًا، والحذر عن إبداع التصريح بتأويل لم تصرّح به الصحابة وحسم باب السؤال رأسًا والزجر عن الخوض فى الكلام والبحث، واتّباع ما تشابه من الكتاب والسنّة، كما روى عن عمر رضي الله عنه أنه سأل سائل عن آيتين متعارضتين فعلاه بالدرة، وكما روى عن مالك رحمه الله أنه سئل عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة.

المقام الثانى: بين النظار الذين اضطربت عقائدهم المأثورة المروية، فينبغى أن يكون بحثهم بقدر الضرورة، وتركهم الظاهر بضرورة البرهان القاطع، ولا ينبغى أن يكفر بعضهم بعضًا بأن يراه غالطًا فيما يعتقده برهانًا، فإن ذلك ليس أمرًا هينًا سهل المدرك وليكن للبرهان بينهم قانون متّفق عليه يعترف كلهم به، فإنهم إذا لم يتفقوا فى الميزان لم يمكنهم رفع الخلاف بالوزن، وقد ذكرنا الموازين الخمسة فى كتاب (القسطاس المستقيم) وهى التى لا يتصور الخلاف فيها بعد فهمها أصلاً، بل يعترف كل من فهمها بأنها مدرك اليقين قطعًا، والمحصلون لها يسهل عليهم عقد الإنصاف والانتصاف وكشف الغطاء ورفع الاختلاف،

ولكن لا يستحيل منهم الاختلاف أيضًا إما لقصور بعضهم عن إدراك تمام شروطه. وإما فى رجوعهم فى النظر إلى محض القريحة والطبع دون الوزن بالميزان، كالذى يرجع بعد تمام تعلم العروض فى الشعر إلى الذوق لاستثقاله عرض كل شعر على العروض فلا يبعد أن يغلط، وإما لاختلافهم فى العلوم التى هى مقدمات البراهين، فإن من العلوم التى هى أصول البراهين تجريبية وتواترية وغيرها، والناس يختلفون فى التجربة والتواتر فقد يتواتر عند واحد ما لا يتواتر عند غيره، وقد يتولى تجربة ما لا يتولاه غيره. وإما لالتباس قضايا الوهم بقضايا العقل. وإما لالتباس الكلمات المشهورة المحمودة بالضروريات والأوليات كما فصلنا ذلك فى كتاب (محك النظر)، ولكن بالجملة إذا حصلوا تلك الموازين، وحققوها أمكنهم الوقوف عند ترك العناد على موقع الغلط على يسر.

فصل فى التأويل بغلبات الظنون

من الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ولا ينبغى أن يبادر أيضًا إلى كفره فى كل مقام بل ينظر فيه، فإن كان تأويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومعماتها فلا نكفره، وذلك كقول بعض الصوفية إن المراد برؤية الخليل عليه السلام الكوكب والقمر والشمس، وقوله هذا ربى غير ظاهرها، بل هى جواهر نورانية ملكية ونورانيتها عقلية لا حسّية ولها درجات فى الكمال. ونسبة ما بينها فى التفاوت كنسبة الكواكب والقمر والشمس، ويستدل عليه بأن الخليل عليه السلام أجلّ من أن يعتقد فى جسم أنه إله حتى يحتاج إلى أن يشاهد أفوله. أفترى أنه لو لم يأفل أكان يتّخذه إلهًا، ولو لم يعرف استحالة الإلهية من حيث كونه جسمًا مقدرًا، واستدلّ بأنه كيف يمكن أن يكون أول ما رآه الكوكب والشمس هى الأظهر وهى أول ما يرى: واستدل بأن الله تعالى قال أوّلاً: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]. ثم حكى هذا القول فكيف يمكن أن يتوهم ذلك بعد كشف الملكوت له، وهذه دلالات ظنية وليست براهين.

أمّا قوله، هو أجلّ من ذلك، فقد قيل إنه كان صبيًّا لما جرى له ذلك ولا يبعد أن يخطر لمن سيكون نبيًّا فى صباه مثل هذا الخاطر، ثم يتجاوزه على قرب ولا يبعد أن تكون دلالة الأفول على حدوث عنده أظهر من أدلة التقدير والجسمية.

وأما رؤية الكوكب أوّلاً فقد روى أنه كان محبوسًا فى صباه فى غار وإنما خرج بالليل.

وأمّ قوله تعالى أوّلاً: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فيجوز

أن يكون الله تعالى قد ذكر حال نهايته ثم رجع إلى ذكر بدايته. فهذه وأمثالها ظنون يظنها براهين من لا يعرف حقيقة البرهان وشرطه. فهذا جنس تأويلهم. وقد تأولوا العصا والنعلين فى قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]. وقوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٩]. ولعل الظن فى مثل هذه الأُمور التى لا تتعلق بأُصول الاعتقاد تجرى مجرى البرهان فى أُصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع. نعم إن كان فتح هذا الباب يؤدى إلى تشويش قلوب العوام فيبدع به خاصة صاحبه فى كل ما لم يؤثر عن السلف ذكره، ويقرب منه قول بعض الباطنة أن عجل السامرى مؤول إذ كيف يخلو خلق كثير عن عاقل يعلم أن المتخذ من الذهب لايكون إلهًا؟ وهذا أيضًا ظن إذ لا يستحيل أن تنتهى من الناس إليه كعبدة الأَصنام، وكونه نادرًا لا يورث يقينًا.

وأمّا ما يتعلق من هذا الجنس بأُصول العقائد المهمّة فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذى ينكر حشر الأجساد وينكر العقوبات الحسّية فى الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعيًّا إذ لا برهان على استحالة ردّ الأرواح إلى الأجساد، وذكر ذلك عظم الضرر فى الدين فيجب تكفير كل من تعلّق به وهو مذهب أكثر الفلاسفة. وكذلك يجب تكفير من قال منهم إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه، أو لا يعلم إلا الكلمات، فأمّا الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها لأن ذلك تكذيب للرسول ﷺ قطعًا، وليس من قبيل الدرجات التى ذكرناها فى التأويل إذ أدلة القرآن والأجبار على تفهيم حشر الأجساد وتفهيم تعلّق علم الله تعالى بتفصيل كل ما يجرى على الأشخاص مجاوز حدًّا لا يقبل التأويل، وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل، ولكن قالوا: لما كان صلاح الخلق فى أن يعتقدوا حشر الأجساد لقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلى وكان صلاحهم فى أن يعتقدوا أن الله تعالى عالم بما يجرى عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة فى قلوبهم. جاز للرسول أن يفهمهم ذلك وليس بكاذب من أصلح غيره، فقال ما فيه صلاحه وإن لم يكن كما قاله، وهذا القول باطل قطعًا لأنه تصريح بالتكذيب، ثم طلب عذرًا فى أنه لم يكذب، ويجب إجلال منصب النبوّة عن هذه الرذيلة ففى الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب، وهذه أول درجات الزندقة، وهى رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة، فإن المعتزلة يقرب مناهجهم من مناهج الفلاسفة إلا فى هذا الأمر الواحد وهو أن المعتزلى لا يجوز الكذب على الرسول عليه السلام بمثل هذا العذر، بل يؤول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه، والفلسفى لا يقتصر على مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد.

وأمّا الزندقة المطلقة، فهو أن تنكر أصل المعاد عقليًّا وحسيًّا، وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأسًا.

وأما إثبات المعاد بنوع عقلى مع نفى الآلام واللذات الحسّية وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهى زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء وظاهر ظنى. والعلم عند الله. أن هؤلاء هم المرادون بقوله عليه الصلاة والسلام: «**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِى بضْعًا وَسَبعينَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فى الجَنَّة إلاَّ الزَّنَادقَة وَهِىَ فرْقَةٌ**». هذا لفظ الحديث فى بعض الروايات وظاهر الحديث يدلّ على أنه أراد به الزنادقة من أمّته، إذ قال: «**سَتَفْتَرِقُ أُمّتى**»، ومن لم يعترف بنبوّته ليس من أُمّته والذين ينكرون أصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معترفين بنبوته إذ يزعمون أن الموت عدم محض، وأن العالم لم يزل كذلك موجودًا بنفسه من غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. وينسبون الأنبياء إلى التلبيس فلا يمكن نسبتهم إلى الأمة، فإذًا لا معنى لزندقة هذه الأمة إلا ما ذكرناه.

فصل فى بيان الزندقة المطلقة

اعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعى تفصيلاً يفتقر إلى ذكر كل المقالات والمذاهب، وذكر شبهة كل واحد، ودليله ووجه بعده عن الظاهر ووجه تأويله، وذلك لا يحويه مجلدات ولا تتسع لشرح ذلك أوقاتى فاقنع الآن بوصية وقانون.

أمّا الوصيّة: فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله غير مناقضين لها. والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر، فإن التفكير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه.

وأمّا القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع. واعلم أنه لا تكفير فى الفروع أصلاً إلاّ فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلاً دينيًّا علم من الرسول ﷺ بالتواتر، لكن فى بعضها تخطئة كما فى الفقهيات وفى بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة.

واعلم أن الخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلّق بها لا يوجب شئ منه تكفيرًا. فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الإمامة ولايلزم تكفيره ولايلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونًا بالإيمان بالله وبرسوله، ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الإمامة فكل ذلك إسراف إذ ليس فى واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلاً، ومهما وجد التكذيب وجب التفكير وإن كان فى الفروع. فلو قال قائل مثلاً: البيت الذى بمكّة ليس الكعبة التى أمر الله تعالى بحجها فهذا كفر، إذا قد ثبت تواترًا عن رسول الله ﷺ خلافه، ولو أنكر شهادة الرسول لذلك البيت

بأنه الكعبة لم ينفعه إنكاره، بل يعلم قطعًا أنه معاند فى إنكاره إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، ولم يتواتر عنده ذلك، وكذلك من نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة، وقد نزل القرآن ببراءتها فهو كافر لأن هذا وأمثاله لا يمكن إلا بتكذيب الرسول أو إنكار التواتر، والتواتر ينكره الإنسان بلسانه ولايمكنه أن يجهله بقلبه. نعم لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر ولو أنكر ما ثبت بالإجماع، فهذا فيه نظر لأن معرفة كون الإجماع حجّة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصّلون لعلم أُصول الفقه. وأنكر النظام كون الإجماع حجّة أصلاً فصار كون الإجماع حجّة مختلف فيه فهذا حكم الفروع.

وأما الأصول الثلاثة: وكل ما لم يحتمل التأويل فى نفسه وتواتر نقله، ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض. ومثاله ما ذكرناه من حشر الأجساد والجنّة والنار وإحاطة علم الله تعالى بتفاصيل الأمور وما يتطرق إليه احتمال التأويل ولو بالمجاز البعيد، فينظر فيه إلى البرهان فإن كان قاطعًا وجب القول به، ولكن إن كان فى إظهاره مع العوام ضرر لقصور فهمهم فإظهاره بدعة وإن لم يكن البرهان قطعيًا لكن يفيد ظنًا غالبًا، وكان مع ذلك لا يعلم ضرره فى الدين كنفى المعتزلى الرؤية عن الله تعالى. فهذه بدعة وليس بكفر.

وأما ما يظهر له ضرر فيقع فى محلّ الاجتهاد والنظر فيحتمل أن يكفر ويحتمل أن لا يكفر. ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة وحلّ له شرب الخمرة والمعاصى وأكل مال السلطان. فهذا ممن لا شكّ فى وجوب قتله وإن كان فى الحكم بخلوده فى النار نظر، وقتل مثل هذا أفضل من قتل مائة كافر إذ ضرره فى الدين أعظم وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد وضرر هذا فوق ضرر من يقول بالإباحة مطلقًا فإنه يمنع عن الإصغاء إليه لظهور كفره. وأما هذا فإنه يهدم الشرع من الشرع، ويزعم أنه لم يرتكب فيه إلا تخصيص عموم إذ خصص عموم التكليفات بمن ليس له مثل درجته فى الدين، وربما يزعم أنه يلابس ويقارف المعاصى بظاهره وهو بباطنه برئ عنه. ويتداعى هذا إلى أن يدعى كل فاسق مثل حالة وينحلّ به عصام الدين. ولا ينبغى أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغى أن يدرك قطعًا فى كل مقام، بل التكفير حكم شرعى يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود فى النار. فمأخذه كمأخذ سائر الأحكام الشرعية، فتارة يدرك بيقين وتارة بظن غالب، وتارة يتردد فيه، ومهما حصل تردد فالوقوف فيه عن التكفير أولى، والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل، ولا بدّ من التنبيه على قاعدة أُخرى وهو أن المخالف قد يخالف نصًا متواترًا ويزعم أنه مؤول، ولكن ذكر تأويله لا انقداح له أصلاً فى اللسان لا على بعد ولا

على قرب، فذلك كفر. وصاحبه مكذب وإن كان يزعم أنه مؤول. مثاله: ما رأيته فى كلام بعض الباطنية أن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطى الوحدة ويخلقها. وعالم بمعنى أنه يعطى العلم لغيره ويخلقه، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره، وإما أن يكون واحدًا فى نفسه وموجودًا وعالمًا على معنى اتّصافه فلا. وهذا كفر صراح لأن حمل الوحدة على اتّحاد الوحدة ليس من التأويل فى شىء ولا تحتمله لغة العرب أصلاً، ولو كان خالق الوحدة يسمى واحدًا لخلقه الوحدة لسمى ثلاثًا وأربعًا لأنه خلق الأعداد أيضًا. فأمثلة هذه المقالات تكذيبات عبّر عنها بالتأويلات.

فصل النظر فى التكفير

قد فهمت من هذه التكفيرات أن النظر فى التكفير يتعلق بأمور:

أحدها: أن النص الشرعى الذى عدل به عن ظاهره هل يحتمل التأويل أم لا؟ فإن احتمل فهل هو قريب أم بعيد؟ ومعرفة ما يقبل التأويل، وما لا يقبل التأويل ليس بالهين بل لا يستقلّ به إلا الماهر الحاذق فى علم اللغة العارف بأصولها، ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجوزاتها ومنهاجها فى ضروب الأمثال.

الثانى: فى النصّ المتروك أنه ثبت تواترًا أو آحادًا أو بالإجماع المجرد، فإن ثبت تواترًا فهو على شرط التواتر أم لا؟ إذ ربما يظن المستفيض تواترًا، وحدّ التواتر ما لا يمكن الشكّ فيه كالعلم بوجود الأنبياء ووجود البلاد المشهورة وغيرها، وأنه متواتر فى الأعصار كلها عصرًا بعد عصر إلى زمان النبوّة، فهل يتصور أن يكون قد نقص عدد التواتر فى عصر من الأعصار؟ وشرط التواتر أن لا يحتمل ذلك كما فى القرآن، أمّا فى غير القرآن فيغمض مدرك ذلك جدًّا ولا يستقبل بإدراكه إلا الباحثون عن كتب التواريخ وأحوال القرون الماضية وكتب الأحاديث وأحوال الرجال وأغراضهم فى نقل المقالات. إذ قد يوجد عدد التواتر فى كل عصر ولا يحصل به العلم إذ كان يتصور أن يكون للجميع الكثير رابطة فى التوافق لاسيّما بعد وقوع التعصب بين أرباب المذاهب، ولذلك ترى الروافض يدّعون النصّ على علىّ بن أبى طالب ﷺ، فى الإمامة لتواتره عندهم، وتواتر عند خصومهم فى أشياء كثيرة خلاف ما تواتر عندهم لشدة توافق الروافض على إقامة أكاذيبهم واتّباعها.

وأمّا ما يستند إلى الإجماع فدرك ذلك من أغمض الأشياء إذ شرطه أن يجتمع أهل الحلّ والعقد فى صعيد واحد، فيتّفقوا على أمر واحد اتّفاقًا بلفظ صريح، ثم يستمروا عليه مرة عند قوم وإلى تمام انقراض العصر عند قوم، أو يكاتبهم إمام فى أقطار الأرض فيأخذ فتاويهم فى زمام واحد بحيث تتفق أقوالهم اتّفاقًا صريحًا حتى يمتنع الرجوع عنه والخلاف

بعده، ثم النظر فى أن من خالف بعده هـل يكفر؟ لأنه من الناس من قال إذا جاز فى ذلك الوقت أن يختلفوا فيحمل توافقهم على اتّفاق ولا يمتنع على واحد منهم أن يرجع بعد ذلك، وهذا غامض أيضًا .

الثالث: النظر فى أن صاحب المقال هل تواتر عنده الخبر، أو هل بلغه الإجماع؟ إذ كل من يولد لا تكون الأمور عنده متواترة، ولا موضع الإجماع عنده متميز عن مواضع الخلاف، وإنما يدرك ذلك شيئًا فشيئًا، وإنما يعرف ذلك من مطالعة الكتب المصنّفة فى الاختلاف والإجماع للسلف، ثم لا يحصل العلم فى ذلك بمطالعة تصنيف ولا تصنيفين إذ لا يحصل تواتر الإجماع به، وقد صنّف أبو بكر الفارسى رحمه الله كتابًا فى مسائل الإجماع وأنكر عليه كثير منه وخولف فى بعض المسائل، فإذًا من خالف الإجماع ولم يثبت عنده بعد فهو جاهل مخطئ وليس بمكذّب فلا يمكن تكفيره. والاستقلال بمعرفة التحقيق فى هذا ليس بيسير.

الرابع: النظر فى دليله الباعث له على مخالفة الظاهر أهو على شرائط البرهان أم لا؟ ومعرفة شرط البرهان لا يمكن شرحها إلا فى مجلدات، وما ذكرنا فى كتاب (القسطاس المستقيم)، وكتاب (محكّ النظر) أنموذج منه وتكل قريحة أكثر فقهاء الزمان عن قصّ شروط البرهان على الاستيفاء، ولابدَّ من معرفة ذلك فإن البرهان إذا كان قاطعًا رخص فى التأويل وإن كان بعيدًا. فإذا لم يكن قاطعًا لم يرخص إلا فى تأويل قريب سابق إلى الفهم،

الخامس: النظر فى أن ذكر تلك المقالة هل يعظم ضررها فى الدين أم لا؟ فإن ما لا يعظم ضرره فى الدين فالأمر فيه أسهل وإن كان القول شنيعًا وظاهر البطلان كقول الإمامية المنتظرة أن الإمام مختف فى سرداب فإنه ينتظر خروجه، فإنه قول كاذب ظاهر البطلان شنيع جدًّا، ولكن لا ضرر فيه على الدين إنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئًا، وهذا مثال. والمقصود أنه لا ينبغى أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان. فإذا فهمت أن النظر فى التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التى لا يستقلّ بآحادها المبرزون علمت أن المبادر إلى تكفير من يخالف الأشعرى أوغيره جاهل مجازف، وكيف يستقلّ الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم وفى أى ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم، فإذا رأيت الفقيه الذى بضاعته مجرد الفقه يخوض فى التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك، فإن التحدى بالعلوم غريزة فى الطبع لا يصبر عنه الجهال ولأجله كثر الخلاف بين الناس ولو ينكث من الأيدى من لايدرى لقلّ الخلاف بين الخلق.

فصل في حكم عوام المسلمين

من أشد الناس علوًّا وإسرافًا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلّتنا التي حررناها فهو كافر، فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أوّلاً، وجعلوا الجنة وقفًا على شرذمة يسيرة من المتكلمين ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانيًا، إذا ظهر لهم في عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة ﷺ حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه ومن ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المجرّدة والتقسيمات المرتبة فقد أبدع حدّ الإبداع، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده عطية وهدية من عنده. تارة ببينة من الباطن لا يمكنه التعبير عنها، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بمشاهدة حال رجل متدّين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارة بقرينة حال. فقد جاء أعرابي إلى النبيّ ﷺ جاحدًا به منكرًا، فلمّا وقع بصره على طلعته البهية زادها الله شرفًا وكرامة، فرآها يتلألأ منها أنوار النبوّة، قال: والله ما هذا بوجه كذاب. وسأله أن يعرض عليه الإسلام فأسلم، وجاء آخر إليه عليه الصلاة والسلام وقال: أنشدك الله، الله بعثك نبيًّا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إي والله، الله بعثني نبيًّا**». فصدقه بيمينه وأسلم، وهذا وأمثاله أكثر من أن يحصى ولم يشغل واحد منهم بالكلام وتعليم الأدلّة، بل كان يبدو نور الإيمان بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لاتزال تزداد إشراقًا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة وتلاوة القرآن وتصفية القلوب، فليت شعري متى نقل عن رسول الله ﷺ أو عن الصّحابة ﷺ إحضار أعرابي أسلم وقوله له الدليل على أن العالم حادث أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وإن الله تعالى عالم بعلم وقادر بقدرة زائدة عن الذات لا هي هو ولا هي غيره، إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين.

ولست أقول لم تجرِ هذه الألفاظ، ولم يجرِ أيضًا ما معناه معنى الألفاظ، بل كان لا تنكشف ملحمة إلا عن جماعة من الأجلاف يسلمون تحت ظلال السيوف، وجماعة من الأسارى يسلمون واحدًا واحدًا بعد طول الزمان أو على القرب، وكانوا إذا نطقوا بكلمة الشهادة علموا الصلاة والزكاة وردوا إلى صناعتهم من رعاية الغنم وغيرها، نعم، لست أنكر أنه يجوز أن يكون ذكر أدلّة المتكلمين أحد أسباب الإيمان في حقّ بعض الناس، ولكن ليس ذلك بمقصور عليه وهو أيضًا نادر، بل الأنفع الكلام الجاري في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن. فأمّا الكلام المحرر على رسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأن

فيه صنعة جدل ليعجز عنه العامي لا لكونه حقًا فى نفسه. وربّما يكون ذلك سببًا لرسوخ العناد فى قلبه، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال أو بدعة إلى غيره، ولا عن مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة ولا على العكس. وتجرى هذه الانتقالات بأسباب أُخر حتى فى القتال بالسيف، ولذلك لم تجرِ عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات، بل شدّدوا القول على من يخوض فى الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال، وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرحنا بأن الخوض فى الكلام حرام لكثرة الآفة فيه إلا لأحد شخصين:

رجل: وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام ريب وعظى ولا بخبر نقلى عن رسول الله فيجوز أن يكون القول المرتب الكلامى رافعًا شبهته ودواءً له فى مرضه، فيستعمل معه ذلك ويحرس عنه سمع الصحيح الذى ليس به ذلك المرض فإنه يوشك أن يحرك فى نفسه إشكالاً ويثير له شبهة تمرضه وتستنزله عن اعتقاده المجزوم الصحيح.

الثانى: شخص كامل العقل راسخ القدم فى الدين ثابت الإيمان بأنوار اليقين، يريد أن يحصل هذه الصنعة ليداوى بها مريضًا إذا وقعت له شبهة، وليفحم بها مبتدعًا إذا نبغ وليحرس به معتقده إذا قصد مبتدع اغواءه، فتعلم ذلك بهذا العزم كان من فروض الكفايات، وتعلم قدر ما يزيل به الشكّ ويدرأ الشبهة فى حقّ المشكل فرض عين، إذا لم يمكن إعادة اعتقاده المجزوم بطريق آخر سواه. والحقّ الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقادًا جزمًا فهو مؤمن وإن لم يعرف أدلّته، بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدًا مشرف على التزاول بكل شبهة بل الإيمان الراسخ إيمان العوام الحاصل فى قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن أحوال لايمكن التعبير عنها وتمام تأكده بلزومه العبادة والذكر، فإن من تمادت به العبادة إلى حقيقة التقوى وتطهير الباطن عن كدورات الدنيا وملازمة ذكر الله تعالى دائمًا تجلت له أنوار المعرفة وصارت الأمور التى كان قد أخذها تقليدًا عنده كالمعاينة والمشاهدة، وذلك حقيقة المعرفة التى لا تحصل إلا بعد انحلال عقدة الاعتقادات وانشراح الصدر بنور الله تعالى ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**﴾ [الزمر: ٢٢]. كما سئل رسول الله ﷺ عن معنى شرح الصدر فقال: «**نُورٌ يُقْذَفُ فِى قَلْبِ المُؤْمِنِ**»، فقيل وما علامته؟ قال: «**التَّجافى عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإِنَابَةِ إِلى دَارِ الخُلُودِ**». فبهذا يعلم أن المتكلم المقبل على الدنيا المتهالك عليها غير مدرك حقيقة المعرفة ولو أدركها لتجافى عن دار الغرور قطعًا.

فصل في بعث النار

لعلك تقول أنت تأخذ التكفير من التكذيب للنصوص الشرعية. والشارع صلوات الله عليه هو الذى ضيق الرحمة على الخلق دون المتكلم، إذ قال عليه السلام: «يَقُولُ الله تَعَالى لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَوْمَ القِيامَةِ: يَا آدم ابْعَثْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَارَبِّ مِنْ كَمْ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْف تِسْعُمائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعينَ». وقال عليه الصلاة والسلام: «سَتَفْتَرِقُ أُمّتي عَلَى نَيِّفٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، النَّاجِيَةُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ».

الجواب: أن الحديث الأول صحيح، ولكن ليس المعنى به أنهم كفار مخلدون بل إنهم يدخلون النار ويعرضون عليها ويتركون فيها بقدر معاصيهم، والمعصوم من المعاصى لايكون فى الألف إلا واحدًا، وكذلك قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، ثم بعث النار عبارة عمن استوجب النار بذنوبه ويجوز أن يصرفوا عن طريق جهنم بالشفاعة كما وردت به الأخبار، وتشهد له الأخبار الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله تعالى، وهى أكثر من أن تحصى.

فمنها ما روى عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: فقدت النبىّ ﷺ ذات ليلة فابتغيته فإذا هو فى مشربه يصلى، فرأيت على رأسه أنوارًا ثلاثة فلما قضى صلاته، قال: «مَهْيَمْ مَنْ هَذه؟» قلت: أنا عائشة يارسول الله، قال: «أرأَيْت الأَنوارَ الثَّلاثَةَ؟» قلت: نعم يارسول الله، قال: «إنّ آت أتَاني منْ ربِّى فَبَشَّرَنى أنَّ الله تَعَالى يُدْخِلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمّتي سَبْعينَ أَلْفًا بغَيْر حسَاب وَلا عَذَاب، ثُمّ أتَاني في النُّور الثّاني آت منْ ربِّى فَبَشَّرني أَنَّ الله تَعَالى يُدْخلُ الجَنّةَ مِنْ أُمّتى مَكَانَ كُلِّ وَاحد مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا سَبْعينَ أَلْفًا بغَيْر حسَاب وَلا عَذَاب، ثم أتانى فى النور الثالث آت من ربِّى فبشرنى أن الله تعالى يدخل الجنة من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفًا المضاعفة سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب» فقلت: يارسول الله لا تبلغ أمتك هذا قال: «يُكَمِّلُونَ لَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مِمَّنْ لا يَصُومُ وَلا يُصَلِّي»، فهذا وأمثاله من الأخبار الدالّة على سعة رحمة الله تعالى كثير، فهذا فى أمّة محمّد ﷺ خاصّة، وأنا أقول: إن الرحمة تشتمل كثيرًا من الأمم السالفة وإن كان أكثرهم يعرضون على النار، إما عرضة خفيفة حتى فى لحظة أو ساعة، وإمّا فى مدة حتى يطلق عليهم اسم بعث النار ، بل أقول: إن أكثر نصارى الروم والترك فى هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى. أعنى الذين هم فى أقاصى الروم والترك ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف: صنف لم يبلغهم اسم محمّد ﷺ أصلاً فهم معذورون، وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم وهم الكفار الملحدون. وصنف

ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمّد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضًا منذ الصبا أن كذابًا ملبسًا اسمه محمّد ادّعى النبوّة، كما سمع صبياننا أن كذابًا يقال له المقفع بعثه الله تحدث بالنبوّة كاذبًا، فهؤلاء عندى فى أوصافه فى معنى الصنف الأوّل فإنهم مع أنهم لم يسمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب.

وأما الحديث الآخر، وهو قوله: الناجية منها واحدة. فالرواية مختلفة فيه. فقد روى الهالكة منها واحدة ولكن الأشهر تلك الرواية، ومعنى الناجية هى التى لا تعرض على النار، ولا تحتاج إلى الشفاعة بل الذى تتعلق به الزبانية لتجره إلى النار فليس بناج على الإطلاق وإن انتزع بالشفاعة من مخاليبهم. وفى رواية: كلّها فى الجنة إلا الزنادقة وهى فرقة. ويمكن أن تكون الروايات كلها صحيحة فتكون الهالكة واحدة هى التى تخلد فى النار، ويكون الهالك عبارة عمن وقع اليأس من صلاحه لأن الهالك لا يرجى له بعد الهلاك خير وتكون الناجية واحدة وهى التى تدخل الجنة بغير حساب ولا شفاعة لأن من نوقش الحساب فقد عذب فليس بناج إذًا، ومن عرض للشفاعة فقد عرض للمذلة فليس بناج أيضًا على الإطلاق، وهذان طريقان وهما عبارتان عن شرّ الخلق وخيره. وباقى الفرق كلهم بين هاتين الدرجتين: فمنهم من يعذب بالحساب فقط، ومنهم من يقرب من النار ثم يصرف بالشفاعة، ومنهم من يدخل النار ثم يخرج على قدر خطاياهم فى عقائدهم وبدعتهم وعلى كثرة معاصيهم وقلتها. فأمّا الهالكة المخلدة فى النارمع هذه الأمّة فهى فرقة واحدة وهى التى كذبت وجوزت الكذب على رسول الله ﷺ بالمصلحة.

وأما من سائر الأمم، فمن كذبه بعد ما قرع سمعه التواتر عن خروجه وصفته ومعجزته الخارقة للعادة كشقّ القمر وتسبيح الحصى ونبع الماء من بين أصابعه والقرآن المعجز الذى تحدّى به أهل الفصاحة وعجزوا عنه، فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولّى ولم ينظر فيه ولم يتأمّل ولم يبادر إلى التصديق، فهذا هو الجاحد الكاذب وهو الكافر، ولا يدخل فى هذا أكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد المسلمين، بل أقول من قرع سمعه هذا فلا بدّ أن تنبعث به داعية الطلب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فإن لم تنبعث هذه الداعية فذلك لركونه إلى الدنيا وخلوّه عن الخوف وخطر أمر الدين وذلك كفر، وإن انبعثت الداعية فقصر فى الطلب فهو أيضًا كفر بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر من أهل كل ملّة لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخايل بالأسباب الخارقة للعادة، فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصر فأدركه الموت قبل تمام التحقيق فهو أيضًا مغفور له ثم له الرحمة الواسعة، فاستوسع رحمة الله تعالى ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية.

واعلم أن الآخرة قريب من الدنيا فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة فكما أن أكثر أهل الدنيا في نعمة وسلامة أو في حالة يغبطها إذ لو خيّر بينها وبين الإماتة والإعدام مثلاً لاختارها، وإنما المعذب الذى يتمنى الموت نادر، فكذلك المخلدون فى النار بالإضافة إلى الناجين والمخرجين منها فى الآخرة نادر، فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف أحوالها، وإنما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف أحوالك ولولا هذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى، حيث قال: «**أوّلُ مَا خَطَّ الله فِي الكِتَابِ الأوَّل أنَا الله لا إله إلاَّ أنَا سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي فَمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا الله وأنَّ مُحمّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، فَلَهُ الجنَّة**».

واعلم أن أهل البصائر قد انكشف لهم سبق الرحمة وشمولها بأسباب ومكاشفات سوى ما عندهم من الأخبار والآثار، ولكن ذكر ذلك يطول. فأبشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح، وبالهلاك المطلق إن خلوت عنهما جميعًا، وإن كنت صاحب يقين فى أصل التصديق وصاحب خطأ فى بعض التأويل، أو صاحب شكّ فيهما، أو صاحب خلط فى الأعمال، فلا تطمع فى النجاة المطلقة.

واعلم، أنك بين أن تعذب مدة ثم تخلى، وبين أن يشفع فيك من تيقنت صدقه فى جميع ما جاء به أو غيره، فاجتهد أن يغنيك الله بفضله عن شفاعة الشفعاء فإن الأمر فى ذلك مخطر.

فصل

قد ظنّ بعض الناس أن مأخذ التكفير من العقل لا من الشرع، وأن الجاهل بالله كافر والعارف به مؤمن، فيقال له: الحكم بإباحة الدم والخلود فى النار حكم شرعى لا معنى له قبل ورود الشرع، وإن أراد به أن المفهوم من الشارع أن الجاهل بالله هو الكافر، فهذا لا يمكن حصره فيه لأن الجاهل بالرسول وبالآخرة أيضًا كافر، ثم إن خصص ذلك بالجهل بذات الله تعالى بجحد وجوده أو وحدانيته ولم يطرده فى الصفات فربما سوعد عليه، وإن جعل المخطئ فى الصفات أيضًا جاهلاً أو كافرًا لزمه تكفير من نفى صفة البقاء وصفة القدم، ومن نفى الكلام وصفًا زائدًا على العلم، ومن نفى السمع والبصر زائدًا على العلم، ومن نفى جواز الرؤية، ومن أثبت الجهة وأثبت إرادة حادثة لا فى ذاته ولا فى محل وتكفير المخالفين فيه، وبالجملة يلزمه التكفير فى كل مسألة تتعلق بصفات الله تعالى وذلك حكم لا مستند له، وإن خصص ببعض الصفات دون بعض لم يجد لذلك فصلاً ومردًا، ولا وجه له إلا الضبط بالتكذيب ليعم المكذب بالرسول وبالمعاد، ويخرج منه المؤول، ثم لا يبعد أن يقع الشكّ والنظر فى بعض المسائل من جملة التأويل أو التكذيب حتى يكون التأويل بعيدًا ويقضى فيه بالظن وموجب الاجتهاد، فقد عرفت أن هذه مسألة اجتهادية.

فصل

من الناس من قال إنما أكفر من يكفرني من الفرق، ومن لا يكفرني فلا. وهذا لا مأخذ له، فإن قال قائل عليّ ﷺ أولى بالإمامة إذ لم يكن كفراً فبأن يخطئ صاحبه، ويظن أن المخالف فيه كافر لا يصير كافراً، وإنما هو خطأ في مسألة شرعية. وكذلك الحنبلي إذا لم يكفر بإثبات الجهة فلم يكفر بأن يغلط أو يظن أن نافي الجهة مكذب وليس بمتأول. وأما قول رسول الله ﷺ: **«إِذَا قَذَفَ أَحَدُ الْمُسْلِمينَ صَاحِبَهُ بِالْكُفْرِ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»**. معناه أن يكفره مع معرفته بحاله فمن عرف من غيره أنه مصدق لرسول الله ﷺ ثم يكفره فيكون المكفر كافراً. فأما إن كفره لظنه أنه كذب الرسول فهذا غلط منه في حال شخص واحد، إذ قد يظن به أنه كافر مكذب وليس كذلك وهذا لا يكون كفراً. فقد أفدناك بهذه الترديدات التنبيه على أعظم الغور في هذه القاعدة وعلى القانون الذي ينبغي أن يتبع فيه، فاقنع به والسلام.

أيها الولد

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتّقين، والصلاة والسلام على نبيّه محمّد وآله أجمعين.

اعلم، أن واحداً من الطلبة المتقدّمين لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجّة الإسلام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي قدّس الله روحه واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع من دقائق العلوم، واستكمل من فضائل النفس، ثم إنه فكر يوماً في حال نفسه وخطر على باله، فقال: إني قرأت أنواعاً من العلوم، وصرفت ريعان عمري على تعلمها وجمعها. فالآن ينبغي أن أعلم أي نوعها ينفعني غداً ويؤانسني في قبري وأيها لا ينفعني حتى أتركه، فقد قال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»**، فاستمرّت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجّة الإسلام محمّد الغزالي رحمة الله تعالى عليه استفتاءً، وسأل عنه مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء، وقال: وإن كان مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره يشتمل على جواب مسائلي لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي وأعمل بما فيها مدى عمري إن شاء الله تعالى، فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه في جوابه، والله أعلم.

اعلم أيها الولد المحب أطال الله بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبائه أن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة عليه السلام إن كان قد بلغك منه نصيحة فأي حاجة لك في نصيحتي، وإن لم يبلغك منه فقل لي ماذا حصلت في هذه السنين الماضية.

أيها الولد: من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ أمته قوله: «**عَلاَمَةُ إعراض الله عَن العَبْد اشتغَالُهُ بمَا لا يَعْنيه وإنَّ امرأً ذَهَبَتْ سَاعَةٌ منْ عُمْره في غَيْر مَا خُلقَ لَهُ لَجَديرٌ أَنْ تَطُولَ عَلَيْه حَسْرَتُهُ ومَنْ جَاوَزَ الأَرْبَعينَ وَلَمْ يَغْلبْ خَيْرُهُ شَرَّهُ فَلْيَتَجَهَّزْ إلَى النَّار**»، وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

أيها الولد: النصيحة سهلة والمشكل قبولها لأنها في مذاق متبعي الهوى مرة إذ المناهي محبوبة في قلوبهم وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي مشتغل في فصل النفس ومناقب الدنيا، فإنه يحسب أن العلم المجرّد له سيكون نجاته وخلاصه فيه، وإنه مستغن عن العمل. وهذا اعتقاد الفلاسفة. سبحان الله العظيم لا يعلم هذا القدر أنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجّة عليه آكد، كما قال رسول الله ﷺ: «**أشدُّ النَّاس عذابًا يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه**».

وروى أن الجنيد قدّس الله سره رئي في المنام موته، فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم؟ قال: طاحت تلك العبارات، وفنيت تلك الإشارات وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل.

أيها الولد: لا تكن من الأعمال مفلسًا، ولا من الأحوال خاليًا وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد، مثاله: لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أُخرى، وكان الرجل شجاعًا وأهل حرب فحمل عليه أسد عظيم مهيب، فما ظنك هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ فمن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب، فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلّمها ولم يعمل بها لا تفيده إلا بالعمل، ومثله أيضًا لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب فلا يحصل البرء إلا باستعمالها (شعر):

كـرمـى دواهزار رطـل هـمى بيـمـائى

تامـى نخـورى نبـاشـدت شـيـدائى

ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدًا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل: ﴿**وَأَن لَّيْسَ للإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩]، ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالحًا**﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [التوبة: ٨٢]. ﴿**إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفرْدَوْس نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالدينَ فيهَا لا يَبْغُونَ**

عَنْهَا حِوَلاً﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]. ، ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وما تقول في هذا الحديث: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً**». والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، ودليل الأعمال أكثر من أن يحصى إن كان العَبْد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته لأن رحمة الله قريب من المحسنين، ولو قيل أيضًا يبلغ بمجرد الإيمان،قلنا: نعم، لكن متى يبلغ؟ وكم من عقبة كؤود يقطعها إلى أن يصل؟ فأول تلك العقبات عقبة الإيمان،وأنه هل يسلم من سلب الإيمان أم لا؟ وإذا وصل، هل يكون خائنًا مفلسًا؟ وقال الحسن البصري: يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة: ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم.

أيها الولد: مالم تعمل لم تجد الأجر.

حكي أن رجلاً من بني إسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة فأرسل الله إليه ملكًا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنة، فلما بلغه قال العابد: نحن خلقنا للعبادة فينبغي لنا أن نعبده، فلما رجع الملك قال: إلهي أنت أعلم بما قال، فقال الله تعالى: «**إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه، اشهدوا ياملائكتي أني قد غفرت له**»، قال رسول الله ﷺ: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ أَن تُوزَنُوا**». وقال عليّ ﷺ: (من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن، ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو مستغن). وقال الحسن رحمه الله تعالى: (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب). وقال: علامة الحقيقة ترك ملاحظة العمل لا ترك العمل. وقال رسول الله ﷺ: «**الكيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ وَالأحْمَقُ مَن اتَّبَعَ هَوَاهُ وتَمَنَّى عَلَى الله تَعالى الأَماني**».

أيها الولد: كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه إن كان نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال فويل لك ثم ويل لك. وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبيّ ﷺ وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمّارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك. ولقد صدق من قال شعرًا:

سَهَرُ العيون لغير وجهك ضائعُ
وبكاؤهنّ لغير فَقْدَكَ باطلُ

أيها الولد: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به.

أيها الولد: أى شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام، والخلاف والطب والدواوين والأشعار والنجوم والعروض والنحو والتصريف غير تضييع العمر بخلاف ذى الجلال، إنى رأيت فى إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام، قال: من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالاً، لله أوّله يقول عبدى طهرت منظر الخَلْق سنين وما طهرت منظرى ساعة وكل يوم ينظر فى قلبك يقول: ما تصنع لغيرى وأنت محفوف بخيرى، أما أنت أصم لا تسمع.

أيها الولد: العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم أن العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصى، ولا يحملك على الطاعة، ولن يبعدك غدًا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم ولم تدارك الأيّام الماضية تقول غدًا يوم القيامة، فارجعنا نعمل صالحًا، فيقال: يا أحمق أنت من هناك تجئ.

أيها الولد: اجعل الهمة فى الروح، والهزيمة فى النفس، والموت فى البدن لأن منزلك القبر، وأهل المقابر ينتظرونك فى كل لحظة متى تصل إليهم، إياك إياك أن تصل إليهم بلا زاد، وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: هذه الأجساد قفص الطيور، واصطبل الدوابّ، فتفكر فى نفسك من أيهما أنت، إن كنت من الطيور العلوية فحين تسمع طنين طبل ارجعى إلى ربك تطير صاعداً إلى أن تقعد فى أعالى بروج الجنان، كما قال رسول الله ﷺ: «**اهتزّ عرش الرحمن من موت سعد بن معاذ**». والعياذ بالله إن كنت من الدواب، كما قال الله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار، وروى أن الحسن البصرى رحمه الله تعالى أعطى شربة ماء بارد فأخذ القدح وغشى عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: مالك يا أبا سعيد؟ قال: ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله.

أيها الولد: لوكان العلم المجرد كافيًا لك ولا تحتاج إلى عمل سواه، لكان نداء: هل من سائل، هل من مستغفر، هل من تائب ضائعًا، بلا فائدة. وروى أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عمر عند رسول الله ﷺ فقال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ**» وقال عليه السلام لرجل من أصحابه: «**يافُلان لا تكْثِرُ النَوْمَ بِاللْيلِ، فَإن كَثْرَةِ النوم بِاللْيلِ يَدَعْ صَاحِبَهُ فَقِيراً يَوْمَ القيامَةَ**».

أيها الولد: ومن الليل فتهجد به: أمر، وبالأسحار هم يستغفرون شكر، والمستغفرون بالأسحار ذكر، قال عليه السلام: «**ثَلاثَةُ أَصْوَاتٍ يُحِبُّهَا الله تَعَالَى: صَوتُ الدِّيك، وَصَوْتُ الَّذى يَقْرَأُ القُرْآنَ، وصَوْتُ المُسْتَغْفِرينَ بالأَسْحَارً**». قال سفيان الثورى، رحمة الله تعالى عليه: إن الله تبارك وتعالى خلق ريحًا بالأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجبار،

وقال أيضًا: إذا كان أوّل الليل ينادي مناد من تحت العرش: ألا ليقيم العابدون فيقومون ويصلون ما شاء الله، ثم ينادي مناد في شطر الليل: ألا ليقيم القانتون، فيقومون ويصلون إلى السحر، فإذا كان السحر نادى مناد: ألا ليقيم المستغفرون، فيقومون ويستغفرون، فإذا طلع الفجر نادى مناد: ألا ليقيم الغافلون، فيقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم.

أيها الولد: روى في وصايا لقمان الحكيم لابنه أنه قال: يا بني لا يكونن الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم، ولقد أحسن من قال شعرًا:

لقد هَتَفتْ في جنح ليلٍ حمامة
على فَنَنٍ وهنا وإنِّي لَنَائِمُ
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقًا
لما سبقتني بالبكاء الحَمَائِمُ
وأزعم أنِّي هائم ذو صبابة
لربي فلا أبكي، وتبكي البهائم

أيها الولد: خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ماهي.

اعلم: أنا الطّاعة والعبادة متابعة الشارع في الأوامر والنواهي، بالقول والفعل. يعني كل ما تقول وتفعل وتترك ويكون باقتداء الشرع، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكن عاصيًا، أو صلّيت في ثوب مغصوب وإن كانت صورة عبادة تأثم.

أيها الولد: ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقًا للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي لك أن لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة لا بالطامات والترهات.

واعلم، أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة، حتى لا تقتل النفس بصدق المجاهدة لن يحيى قلبك بأنوار المعرفة.

واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول إن لم تبلغ تلك الحالة تعرف ماهي، وإلا فعلمها من المستحيلات لأنها ذوقية، وكل ما يكون ذوقيًا لا يستقيم وصفه بالقول كحلاوة الحلو ومرارة المر لايعرف إلا بالذوق. كما حكى أن عنينًا كتب إلى صاحب له أن عرفني لذة المجامعة كيف تكون، فكتب له في جوابه: يا فلان إني كنت حسبتك عنينًا فقط. الآن عرفت أنك عنين وأحمق. لأن هذه اللذه ذوقية إن تصل إليها تعرف، وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة.

أيها الولد: بعض مسائلك من هذا القبيل، وأما البعض الذى يستقيم له الجواب فقد ذكرناه فى إحياء العلوم وغيره. ونذكر ههنا نبدأ منه ونشير إليه فنقول : قد وجب على السالك أربعة أُمور:

الأمر الأول: اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة.

والثانى: توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلّة.

والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حقّ.

الرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدى به أوامر الله تعالى. ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة.

حكى أن الشبلى رحمه الله خدم أربعمائة أستاذ، وقال: قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها حديثًا واحدًا وعملت به وخليت ما سواه لأنى تأملته فوجدت خلاصى ونجاتى فيه. وكأن علم الأولين والآخرين كله مندرجًا فيه فاكتفيت به، وذلك أن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «**اعْمَلْ لدُنْيَاكَ بقَدر مقَامكَ فيها، واعْمل لآخرَتكَ بقَدْرِ بَقَائكَ فيها، واعْمَلْ لله بقدر حَاجَتكَ إلَيْه، واعمَل للنار بقَدْر صَبْرِكَ عَلَيْها**» .

أيها الولد: إذا علمت هذا الحديث لاحاجة إلى العلم الكثير، وتأمل فى حكاية أُخرى: وذلك أن حاتمًا الأصمّ كان من أصحاب الشقيق البلخى رحمة الله تعالى عليهما، فسأله يومًا قال: صاحبتنى منذ ثلاثين سنة ما حصلت فيها؟ قال: حصلت ثمانى فوائد من العلم وهى تكفينى منه لأنى أرجو خلاصى ونجاتى فيها، فقال شقيق: ماهى! قال حاتم الأصمّ:

الفائدة الأولى: إنى نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبًا ومعشوقًا يحبه ويعشقه وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت وبعضه إلى شفير القبر، ثم يرجع كله ويتركه فريدًا وحيدًا ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد، فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه فى قبره ويؤانسه فيه فما وجدت غير الأعمال الصالحة فأخذتها محبوبًا لى لتكون سراجًا لى فى قبرى، وتؤانسنى فيه ولا تتركنى فريدًا.

الفائدة الثانية: إنى رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم فتأمّلت قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]. وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت إلى خلاف نفسى وتشمرت بمجاهدتها وما متعتها بهواها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت.

الفائدة الثالثة: إنى رأيت كل واحد من الناس يسعى فى جمع حطام الدنيا ثم يمسكها قابضًا يده عليه، فتأملت فى قوله تعالى: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾ [النحل: ٩٦].

فبذلت محصولى من الدنيا لوجه الله تعالى، ففرّقته بين المساكين ليكون ذخرًا لى عند الله تعالى.

الفائدة الرابعة: إنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاغترَّ بهم، وزعم آخر أنه فى ثروة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها، وحسب بعضهم الشرف والعزّ فى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدت طائفة أنه فى إتلاف المال وإسرافه وتبذيره، وتأمّلت فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]. فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حقّ صادق وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

الفائدة الخامسة: إنى رأيت الناس يذمّ بعضهم بعضًا ويغتاب بعضهم بعضًا، فوجدت ذلك من الحسد فى المال والجاه والعلم، فتأملت فى قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الزخرف: ٣٢]. فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى فى الأزل فما حسدت أحدًا ورضيت بقسمة الله تعالى.

الفائدة السادسة: إنى رأيت الناس يعادى بعضهم بعضًا لغرض وسبب فتأملت قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]. فعلمت أنه لا يجوز عداوة آخرغير الشيطان.

والفائدة السابعة: إنى رأيت كل أحد يسعى بجد ويجتهد بمبالغة لطب القوت والمعاش بحيث يقع به فى شبهة وحرام، ويذل نفسه، وينقص قدره، فتأمّلت فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود: ٦]. فعلمت أن رزقى على الله تعالى، وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه.

الفائدة الثامنة: إنى رأيت كل واحد معتمدًا على شىء مخلوق بعضهم إلى الدينار والدرهم، وبعضهم إلى المال والملك، وبعضهم إلى الحرفة والصناعة، وبعضهم إلى مخلوق مثله، فتأملت فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣]. فتوكلت على الله تعالى فهو حسبى ونعم الوكيل، فقال شقيق: وفقك الله تعالى إنى قد نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية، فمن عمل بها كان عاملاً بهذه الكتب الأربعة.

أيها الولد: قد علمت من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم، والآن أُبيّن ما يجب على سالك سبيل الحق.

فاعلم أنه ينبغى للسالك شيخ مرشد مربى ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته ويجعل مكانها خلقًا حسنًا. ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذى يقلع الشوك ويخرج النباتات

الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه، ولا بدّ للسالك من شيخ يؤديه ويرشده إلى سبيل الله تعالى، لأن الله أرسل للعباد رسولاً للإرشاد إلى سبيله، فإذا ارتحل ﷺ فقد خلف الخلفاء فى مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى. وشرط الشيخ الذى يصلح أن يكون نائبًا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأن يكون عالمًا، ولكن لا كل عالم يصلح للخلافة، وإنى أبين لك بعض علامته على سبيل الإجمال حتى لا يدّعى كل أحد أنه مرشد.

فنقول: من يعرض عن حبّ الدنيا وحبّ الجاه، وكان قد تابع لشخص بصير يتسلسل متابعته إلى سيّد المرسلين ﷺ وكان محسنًا رياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم، وكان بمتابعته الشيخ البصير جاعلاً محاسن الأخلاق له سيرة كالصبر والصلاة والشكر والتوكُّل واليقين والقناعة وطمأنينة النفس والحلم والتواضع والعلم والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأنّى وأمثالها، فهو إذًا نور من أنوار النبىّ ﷺ يصلح للاقتداء به، ولكن وجود مثله نادر أعزّ من الكبريت الأحمر، ومن ساعدته السعادة فوجد شيخًا كما ذكرنا وقبله الشيخ ينبغى أن يحترمه ظاهرًا وباطنًا. أمّا احترام الظاهر فهو أن لا يجادله ولا يشتغل بالاحتجاج معه فى كل مسألة وإن علم خطأه، ولا يلقى بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاة فإذا فرغ يرفعها، ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته، ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه وطاقته. وأمّا احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه فى الظاهر لاينكره فى الباطن لا فعلاً ولا قولاً لئلا يتّسم بالنفاق، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنه ظاهره، ويحترز عن مجالسة صاحب السوء ليقصر ولاية شياطين الجنّ والإنس من صحن قلبه فيصفى عن لوث الشيطنة، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى. ثم اعلم، أن التصوّف له خصلتان: الاستقامة والسكون عن الخلق، فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفى. والاستقامة أن يفدى حظّ نفسه لنفسه، وحسن الخلق مع الناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع، ثم إنك سألتنى عن العبودية، وهى ثلاثة أشياء أحدها: محافظة أمر الشرع، وثانيها: الرضاء بالقضاء والقدر وقسمة الله تعالى، وثالثها: ترك رضاء نفسك فى طلب رضاء الله تعالى، وسألتنى عن التوكل هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد يعنى تعتقد أن ما قدر لك سيصل إليك لا محالة وإن اجتهد كل من فى العالم على صرفه عنك، وما لم يكتب لن يصل إليك وإن ساعدك جميع العالم. وسألتنى عن الإخلاص، وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى ولايرتاح قلبك بمحامد الناس ولا تبالى بمذمتهم. واعلم، أن الرياء يتولّد من تعظيم

الخلق، وعلاجه أن تراهم مسخرين تحت القدرة وتحسبهم كالجمادات فى عدم قدرة إيصال الراحة والمشقّة لتخلص من مراءاتهم، ومتى تحسبهم ذوى قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء.

أيها الولد: والباقى من مسائلك بعضها مسطور فى مصنفاتى فاطلبه منه وكتابة بعضها حرام، اعمل أنت بما تعمل ليكشف لك ما لم تعلم.

أيها الولد: بعد اليوم لا تسألنى ما أشكل عليك إلا بلسان الجنان قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ**﴾ [الحجرات: ٥]. واقبل نصيحة الخضر عليه السلام حين قال: ﴿**فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ [الكهف: ٧٠]. ولا تستعجل حتى تبلغ أو أنه يكشف لك وتراه: ﴿**سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**﴾[الأنبياء: ٣٧]. فلا تسألنى قبل الوقت: وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير لقوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا**﴾ [الروم: ٩، غافر: ٢١].

أيها الولد: بالله إن تسر تَر العجائب فى كل منزل، وابذل روحك فإن رأس هذا الأمر بذل الروح كما قال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى لأحد من تلامذته: إن قدرت على بذل الروح فتعال وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية.

أيها الولد: إنى أنصحك بثمانية أشياء اقبلها منى لئلا يكون علمك خصمًا عليك يوم القيامة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة أما اللواتى تدع:

أحدها: أن لا تناظر أحدًا فى مسألة ما استطعت لأن فيها آيات كثيرة فإثمها أكبر من نفعها، إذ هى منبع كل خلق ذميم كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها، نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص أوقوم وكانت إرادتك فيها أن تظهر الحق ولا يضيع جاز البحث لكن لتلك الإرادة علامتان: إحداهما: أن لا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك، والثانية: أن يكون البحث فى الخلاء أحب إليك من أن يكون فى الملأ، واسمع إنى أذكر لك ههنا فائدة. واعلم أن السؤال عن المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب والجواب له سعى لإصلاح مرضه. واعلم: أن الجاهلين المرضى قلوبهم والعلماء الأطباء والعالم الناقص لا يحسن المعالجة والعالم الكامل لا يعالج كل مريض بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح. وإذا كانت العلّة مزمنة أو عقيمًا لا تقبل العلاج فحذاقة الطبيب فيه أن يقول هذا لايقبل العلاج فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر، ثم اعلم، أن مرض الجهل على أربعة أنواع:

أحدها: يقبل العلاج والباقى لا يقبل أما الذى لايقبل «أحدها» من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه فلا يزيد له ذلك إلا بغضًا وعداوة وحسدًا، فالطريق أن لا تشغل بجوابه فقد قيل:

كل العـــداوة قـــد تُـرْجَى إزَالَتُـــهَـــا
إلا عـــداوة من عـــاداك عـن حَـسَـــد

فينبغي أن تعرض عنه وتتركـه مع مرضه، قال الله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩]. والحسود بكل ما يقول ويفعل أوقد النار في زرع علمه، الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

والثاني: أن تكون علته من الحماقة وهو أيضًا لا يقبل العــلاج، كما قال عيسى عليه السلام : إني ما عـجزت عن إحياء الموتى وقـد عجزت عن معـالجة الأحمق، وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنًا قليلاً ويتعلم شيئًـا من العلم العقلي والشرعي فيسأل ويعترض من حماقته على العالم الكبير الذى مضى عمره فى العلوم العقلية والشرعية، وهذا الأحمق لم يعلم ويظن أن ما أشكل عليه هو أيضًا مشكل للعـالم الكبير، فإذا لم يعلم هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة، فينبغي أن لا يشتغل بجوابه.

والثالث: أن يكون مسـترشدًا وكل ما لا يفـهم من كلام الأكابر يحمل علـى قصور فهمه وكـان سؤاله للاستفادة لكن يكون بليـدًا لا يدرك الحقائق فلا ينبغي الاشتـغال بجوابه أيضًا، كـما قـال رسول الله ﷺ **«نَحْنُ مَـعَاشِـرَ الأَنْبِـيَاء أُمِـرْنا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاس عَلَى قَـدَرِ عُقُولِهِمْ»**. وأما المرض الذى يقـبل العلاج فهو أن يـكون مسترشـدًا عاقلاً فهـمًا لا يكون مغلوبَ الحـسد والغضب وحبّ الشهـوة والجاه والمال، ويكون طالب الطريق المسـتقيم ولم يكن سؤاله واعـتراضه عن حسد وتـعنّت وامتحان، وهذا يقـبل العلاج فيجوز أن تـشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته.

والرابع: مما تدع وهو أن تحذر من أن تكون واعظًا ومـذكرًا لأن فيه آفة كـثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولاً، ثم تعظ به الناس فتفكر فيما قيل لعيسى عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ الناس وإلا فاستـحى من ربك. وإن ابتليت بهذا العمل فاحترز عن خصلتين:

الأولى : عن التكلّف فى الكلام بالعبارات والإشارات والطـامات والأبيات والأشعار لأن الله تعالى يبغض المتكلفين، والمتكلّف المتجـاوز عن الحدّ يدل على خراب الباطن وغفلة القلب، ومعنى التذكير أن يـذكر العبد نار الآخرة وتقصير نفســه فى خدمة الخالق، ويتفكر فى عمره الماضى الذى أفناه فيما لايعنيه، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم الإيمان فى الخاتمة وكيفـية حاله فى قبض ملك الموت، وهل يقدر على جـواب منكر ونكير، ويهتم بحاله فى القيـامة وموابقها، وهل يعبـر عن الصراط سالمًا أم يقع فى الهاوية، ويستـمر ذكر هذه الأشيـاء فى قلبه فيزعـجه عن قراره، فغليـان هذه النيران وتوجه هذه المصـائب يسمى

تذكيـرًا وإعلامهم الخلق واطلاعهم على هذه الأشـياء وتنبيـههم على تقصيـرهم وتفطيرهم وتبصيرهم بعـيوب أنفسهم التمس حرارة هذه النيران أهل المجـلس وتجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضى بقدر الطاقة، ويتحـسروا على الأيام الخالية فى غير طاعة الله تعالى، هذه الجملة على هـذا الطريق يسمى وعظًا كمـا لو رأيت أن السيل قـد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيْها فتقول: الحذر الحذر، فرّوا من السيل وهل يشتهى قلبك فى هذه الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكليف العبارات والنكت والإشارات فلا تشتهى البتة فكذلك حال الواعظ فينبغى أن يجتنبها.

والخصلة الثـانية: أن لاتكون همتك فى وعظك أن ينفـر الخلق فى مجلسك ويظهروا الوجد ويشقوا الثياب ليقال نعم المجلس هذا، لأن كله ميل للدنيا وهو يتولّد من الغفلة، بل ينبغى أن يـكون عزمك وهمتك أن تدعـو الناس من الدنيا إلى الآخـرة، ومن المعصـية إلى الطاعة ومن الحرص إلى الزهد، ومـن البخل إلى السخاء، ومن الغرور إلى التـقوى وتحبب إليهم الآخرة وتـبغض إليهم الدنيا، وتعلمـهم علم العبادة والزهد لأن الغالب فى طـباعهم الزيغ عن منهج الشرع والسـعى فيما لا يرضى الله تعـالى به، والاستعشـار بالأخلاق الردية فألقِ فى قـلوبهم الرعب وروعهم وحـذرهم عما يستـقبلون من المخاوف، ولعل صـفات باطنهم تتغير ومـعاملة ظاهرهم تتبدل، وينظروا الحرص والرغبـة فى الطاعة، والرجوع عن المعصية، وهذا طريق الوعظ والنصيـحة، وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال ويسمع، بل قـيل إنه غول وشيطان يـذهب بالخلق عن طريق ويهلكهم. فيـجب عليهم أن يفـروا منه لأن ما يفـيد هذا القـائل من دينهم لا يستـطيع يمله الشيطان، ومن كـانت له يد وقـدرة يجب عليـه أن ينزله عن منابر المواعظ ويمنعـه عمـا باشـر، فإنـه من جملة الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والثالث: مما تدع أنه لا تخالط الأمراء والسلاطين، ولا تراهم لأن رؤيتهم ومجالسهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم، ومن دعا بطول بقائهم فقد أحبّ أن يعصى الله فى أرضه.

والرابع: مما تدع أن لا تقـبل شيـئًا من عطاء الأمراء وهداياهم وإن علمـت أنها من الحلال لأن الطمع منهـم يفسد الدين لأنه يتـولد منه المداهنة ومراعـاة جانبهم والموافـقة فى ظلمهم، وهذا كله فساد فى الدين وأقلّ مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنياهم أحببته ومن أحب أحدًا يحب طول عمره وبقائه بالضرورة، وفى محبة بقاء الظالم إرادة فى الظلم على عـباد الله تـعالى وإرادة خـراب العالم، فـأى شىء يكون أضـر من هذا الدين والعاقبة، وإيـاك وإياك أن يخدعك استهواء الشيـاطين أو قال بعض الناس لك بأن الأفضل

والأولى أن تأخذ الدينار والدرهم منهم وتفرقها بين الفقراء والمساكين، فإنهم ينفقون فى الفسق والمعصية، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم، فإن اللعين قد قطع أعناق كثيرة من الناس بهذه الوسوسة. وقد ذكرناه فى إحياء العلوم فاطلبه ثمة.

وأما الأربعة التى ينبغى لك أن تفعلها:

الأول: أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى بها منه ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب، والذى لا ترضى لنفسك من عبدك المجازى فلا ترضى أيضًا لله تعالى وهو سيِّدك الحقيقى.

والثانى: كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم لأنه لايكمل إيمان عبد حتى يحب لسائر الناس ما يحبّ لنفسه.

والثالث: إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغى أن يكون علمك يصلح قلبك ويزكّى نفسك، كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع، فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والأخلاق والأصول والكلام وأمثالها لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك، بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس، والإعراض عن علائق الدنيا، وتزكّى نفسك عن الأخلاق الذميمة وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته، والاتّصاف بالأوصاف الحسنة. ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

أيها الولد: اسمع منى كلامًا آخر وتفكر فيه حتى تجد خلاصًا لو أنك أخبرت أن السلطان بعد أسبوع يختارك وزيرًا. اعلم أنك فى تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفراش وغيرها، والآن تفكر إلى ما أشرت به فإنك فهم والكلام الفرد يكفى، أليس قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُورَكُمْ ولا إلى أعْمَالكُمْ، ولَكنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبكُمْ وَنيَّاتكُمْ**». وإن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى الإحياء وغيره من مصنفاتى. وهذا العلم فرض عين وغيره فرض كفاية إلا مقدار ما يؤدى به فرائض الله تعالى وهو يوفّقك حتى تحصله.

والرابع: أن لا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله ﷺ يعدّ ذلك لبعض حجراته، وقال: «**اللَّهمَّ اجْعَلْ قُوتَ آل مُحَمّد كَفَافًا**». ولم يكن يعد ذلك لكل حجراته بل كان يعده لمن علم أن فى قلبها ضعفًا، وأمّا من كانت صاحبة يقين ما كان يعدّ لها أكثر من قوت يوم ونصف.

أيها الولد: إنى كتبت فى هذا الفصل ملتمساتك فينبغى لك أن تعمل بها ولا تنسانى فيه من أن تذكرنى فى صالح دعائك، وأمّا الدعاء الذى سألت منى فاطلبه من دعوات الصحاح واقرأ هذا الدعاء فى أوقاتك خصوصًا أعقاب صلواتك، اللهمّ إنّى أسألك من

النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمه، ومن الإنعام أعمّه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف أقربه، اللهمّ كن لنا ولا تكن علينا، اللهمّ اختم بالسعادة آجالنا، وحقّق بالزيادة آمالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، ومنّ علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفى دينك اجتهادنا، وعليك توكّلنا واعتمادنا، اللهمّ ثبّتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا فى الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفّف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا واصرف عنا شر الأشرار، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمّهاتنا وإخواننا وأخواتنا من النار برحمتك ياعزيز يا غفّار ياكريم ياستّار يا عليم ياجبّار يا الله ياالله ياالله برحمتك يا أرحم الرّاحمين، ويا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجميعن والحمد لله ربّ العالمين.

مشكاة الأنوار

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله مفيض الأنوار، وفاتح الأبصار، وكاشف الأسرار، ورافع الأستار، والصلاة على محمد نور الأنوار، وسيد الأبرار، وحبيب الجبار، وبشير الغفار، ونذير القهار، وقامع الكافر، وفاضح الفجار، وعلى آله وأصحابه الطاهرين الأخيار.

أما بعد، فقد سألتنى أيها الأخ الكريم قيضك الله لطلب السعادة الكبرى، ورشحك للعروج إلى الذروة العليا، وكحل بنور الحقيقة بصيرتك، ونفى عما سوى الحق سريرتك أن أبث إليك أسرار الأنوار الإليهة مقرونة بما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥]. ومعنى تشبيهه ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة مع قوله ﷺ: «**إنَّ لله سَبْعينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَهَا لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَنْ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ**»، ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقىً صعبًا تنخفض دون أعاليه مرامى أعين الناظرين، وقرعت بابًا مغلقًا لا يتفتح إلا للعلماء الراسخين، ثم ليس كل سر يكشف ويغشى، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى بل صدور الأحرار قبور الأسرار، ولقد قال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر، بل قال سيد الأولين والآخرين: «**إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ العُلَمَاءُ بالله فَإذا نَطَقُوا بِهِ**

لَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِمْ إلاَّ أَهْلُ الاغْتِرَارِ بالله»، ومهما كثر أهل الاغترار بالله وجب حفظ الأسرار عن وجه الأشرار، لكنى أراك منشرح الصدر بالنور منزه السر عن ظلمات الغرور فلا أشح عليك بالإشارة إلى لوامع ولوائح والرمز إلى حقائق ودقائق. فليس الظالم فى كف العلم عن أهله بأقل منه بثه إلى غير أهله فقد قيل:

فَمَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ
وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

فاقنع بإشارات مختصرة، وتلويحات موجزة فإن تحقيق القول فيه يستدعى تمهيد أُصول،وشرح فصول ليس يتسع له الآن وقتى ولا يتصرف إليه ذهنى ولا همتي، ومفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما شاء، وإنما ينفتح فى هذا الوقت فصول ثلاثة:

الفصل الأول

فى بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له

وبيانه بأن تعرف معنى النور بالوضع الأول عند العوام، ثم بالوضع الثانى عند الخواص، ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص، ثم تعرف درجات النور المنسوبة إلى الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى، وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقى وحده لا شريك له فيه. أما الوضع الأول العامى فالنور يشير إلى الظهور والظهور أمر إضافى إذ يظهر الشئ لا محالة لغيره ويبطن عن غيره فيكون ظاهرًا بالإضافة باطنًا بالإضافة وإضافة ظهوره إلى الإدراكات لامحالة. وأقوى الإدراكات وأجلها عند العوام الحواس ومنها حاسة البصر،والأشياء بالإضافة إلى الحس البصرى ثلاثة أقسام: منها ما لا يبصر بنفسه كالأجسام المظلمة، ومنها ما يبصر بنفسه ولا يبصر به غيره كالأجسام المضيئة مثل الكواكب وجسم النار إذا لم تكن مشعلة، ومنها ما يبصر به غيره كالشمس والقمر والنيران المشعلة والسرج، والنور اسم لهذا القسم الثالث، ثم تارة يطلق على ما يفيض من هذه الأجسام المنيرة على ظواهر الأجسام الكثيفة فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الأرض، ونور السراج على الحائط والثوب،وتارة يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقة أيضًا لأنها فى أنفسها مستنيرة. وعلى الجملة فالنور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس. هذا حده وحقيقته بالوضع الأول.

دقيقة: لما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك وكان الإدراك موقوفًا على وجود

النور وعلى وجود العين الباصرة أيضًا إذ النور هو الظاهر المظهر وليس شيء من الأنوار ظاهرًا فى حق العميان ولا مظهرًا، فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهر فى كونه ركنًا لابدّ منه للإدراك ثم ترجح عليه فى أن الروح الباصرة هى المدركة وبها الإدراك، وأما النور فليس بمدرك ولا به إدراك بل عنده الإدراك، وكأن اسم النور بالنور أحق منه بالنور المبصر، فأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا فى الخفاش إن نور عينه ضعيف، وفى الأعمش إنه ضعيف نور البصر، وفى الأعمى أنه فقد نور بصره، وفى السواد إنه يجمع نور البصر ويقويه والأجفان إنما خصتها الحكمة الإلهيه بلون السواد وجعل العين مجفونة بها لتجمع ضوء العين. وأما البياض فيفرق نور العين فيضعف نوره حتى إن إدامة النظر إلى البياض المشرق بل إلى نور الشمس يبهر نور العين ويمحقه كما يمحق الضعيف فى جنب القوى، فقد عرفت بهذا أن الروح الباصرة يسمى نورًا وأنه لم يكن بهذا الاسم أولى وهذا هو الوضع الثانى وهو وضع الخواص.

حقيقة: اعلم أن نور البصر موسوم بأنواع من النقصان فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ولا يبصر ما بعد منه ولا ما قرب ولايبصر ما هو وراء حجاب، ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له ويغلط كثيرًا فى إبصاره فيرى الكبير صغيرًا ويرى البعيد قريبًا والساكن متحركًا والمتحرك ساكنًا، فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة فإن كان فى الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها، فليت شعرى هل هو أولى باسم النور فاعلم أن فى قلب الإنسان عينًا هذه صفة كمالها وهى التى يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة النفس الإنسانى، دع عنك هذه العبارات، فإنها إذا كثرت أوهمت عند الضعيف البصيرة كثرة المعانى فنعنى به المعنى الذى يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون ولنسمه عقلاً متابعة للجمهور فى الاصطلاح فنقول العقل أولى بأن يسمى نورًا من العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع.

أما الأولى: فهو أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه ويدرك صفات نفسه إذ يدرك نفسه عالمًا وقادرًا، ويدرك علم نفسه، ويدرك علمه بعلمه بنفسه وعلمه بعلمه بعلمه نفسه إلى غير نهاية، وهذه خاصة لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام ووراءه سر يطول شرحه.

الثانية: أن العين لا تبصر ما قرب منها قربًا مفرطًا ولا ما بعد والعقل عنده يسوى بين القريب والبعيد ويعرج فى طرقه إلى أعلى السموات رقيًّا، وينزل فى لحظة إلى تخوم الأرض هويًّا، بل إذا حقت الحقائق انكشف أنه منزه عن أن يحوم بجنبات قدسه القرب

و لبعد الذى يعرض بين الأجسام، فإنه أنموذج من بحور الله تعالى ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة وإن كان لا يرقى إلى ذروة المساوقة، وهذا ربما هزك للتفطن لسر قوله ﷺ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ عَلَى صُورَتِه»، فلست أرى الآن الخوض فى بيانه.

الثالثة: أن العَيَن لا تدرك ما وراء الحجاب، والعقل يتصرف فى العرش والكرسى وما وراء حجب السماوات وفى الملأ الأعلى والملكوت كتصرفه فى عالمه الخاص به ومملكته القريبة. أعنى بها الخاصة به، بل الحقائق كلها لا تحجب عن العقل، وإنما حجاب العقل حيث يحجب من نفسه لنفسه بسبب صفات مقارنة له تضاهى حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان وستعرف هذا فى الفصل الثالث من الكتاب.

الرابعة: أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوالبها وصورها دون حقائقها، والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها، ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها، وأنها مم حدثت وكيف خلقت ومن كم معنى جمع الشئ وركب وعلى أى مرتبة فى الوجود نزل وما نسبته إلى سائر مخلوقاته؟ إلى مباحث أُخر يطول شرحها نرى الإيجاز فيها أولى.

الخامسة: أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات ولا تدرك الأصوات ولا الروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة. أعنى قوة السمع والشم والذوق، بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد، فهو ضيق المجال مختصر المجرى لا تسعه مجاوزة عالم الألوان والأشكال وهما أخس الموجودات، فإن الأجسام فى نفسها أخسّ أقسام الموجودات والألوان. والأشكال من أخس أعراضها، والموجودات كلها مجال العقل إذ يدرك هذه الموجودات التى عددناها وما لم نعده وهو الأكثر فيتصرف فى جميعها ويحكم عليها حكمًا يقينًا صادقًا، فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة والمعانى الخفية عنده جلية، فمن أين للعين الباصرة مساواته فى استحقاق اسم النور. كلا بها نور بالإضافة إلى غيرها ولكنها ظلمة بالإضافة إليه، بل هى جاسوس من جواسيسه وكلها بأخس خزائنه وهى خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضى فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ، والحواس جواسيسه سواها وهى من خيال ووهم وفكر وذكر وحفظ ووراءهم خدم وجنود مسخرة له فى عالمه الحاضر يسخرهم ويتصرف فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد، وشرح ذلك يطول، وقد شرحناه فى كتاب عجائب القلب من كتب الإحياء.

السادسة: أن العين لا تبصر ما لا نهاية له فإنها تبصر صفات الأجسام المعلومات. والأجسام لا تتصور إلا متناهية والعقل يدرك المعقولات والمعقولات لا تتصور أن تكون

متناهية، نعم إذا لاحظ العلوم المتحصلة فلا يكون الحاضر الحاصل عنده إلا متناهيًا لكن فى قوته إدراك ما لا نهاية له. وشرح ذلك يطول فإن أردت له مثالاً فخذ من الحساب فإنه يدرك الأعداد ولا نهاية لها نهاية ويدرك تضعيفات الاثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية ويدرك أنواعًا من النسب بين الأعداد ولا يتصور لها نهاية، بل يدرك علمه بالشئ وعلمه بعلمه بالشئ وعلمه بعلمه بعلمه، وقوته فى هذا الوجه أيضًا لا تقف عند نهاية.

السابعة: أن العين تدرك الكبير صغيرًا فترى الشمس فى مقدار بحر والكواكب فى صور دنانير منشورة على بساط أزرق والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة، ويرى الكواكب ساكنة بل يرى الظل بين يديه ساكنًا، ويرى الصبى ساكنًا فى مقداره. والعقل يدرك أن الصبى يتحرك فى النمو والتزايد على الدوام والظل متحركًا دائمًا والكواكب تتحرك فى كل لحظة أميالاً كثيرة كما قال ﷺ لجبريل: «**أَزَالَت الشَّمْسُ؟**» فقال: «**لا. نَعَمْ**» قال: «**وكَيْفَ؟**» قال: «**مُنْذُ قُلْتُ لا إلَى أنْ قُلْتُ نَعَمْ قَدْ تَحَرَّكَتْ مَسِيرَةَ خَمْسمَائَة عَامٍ**». وأنواع غلط البصر كثيرة والعقل منزه عنها، فإن قلت: نرى العقلاء يغلطون فى نظرهم فاعلم أن خيالاتهم وأوهامهم قد تحكم باعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل فالغلط منسوب إليها. وقد شرحنا مجامعها فى كتاب معيار العلم وكتاب محك النظر، فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هى عليه وفى تجرده عسر، وإنما يكمل تجرده عن هذه النوازع بعد الموت وعند ذلك ينكشف الغطاء وتنجلى الأسرار ويصادف كل أحد ما قدمه من خير أوشر محضرًا ويشاهد كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعندها يقال له: فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، وإنما الغطاء غطاء الخيال والوهم، وعندها يقول المغرور بأوهامه واعتقاداته الفاسدة وخيالاته الباطلة: ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون، فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف المحسوس، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى بل الحق أنه يستحق الاسم دونه.

دقيقة: اعلم أن العقول وإن كانت مبصرة فليست المبصرات عندها كلها على مرتبة واحدة، بل بعضها تكون عندها كأنها حاضرة كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشئ الواحد لا يكون قديمًا حديثًا ولا يكون موجودًا معدومًا، والقول الواحد لا يكون صدقًا وكذبًا وأن الحكم إذا ثبت للشئ جوازه ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجودًا كان الأعم واجب الوجود، فإذا وجد السواد فقد وجد اللون، وإذا وجد الإنسان فقد وجد الحيوان، وأما عكسه فلا يلزم فى العقل إذ لا يلزم من الوجود اللون وجود السواد، ولا من وجود

الحيوان وجود الإنسان إلى غير ذلك من القضايا الضرورية فى الواجبات والجائزات والمستحيلات، ومنها ما لا يقارن العقل فى كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه ويستورى زناده وينبه عليه بالتنبيه كالنظريات، وإنما ينبهه كلام الحكماء. فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصرًا بالفعل بعد أن كان مبصرًا بالقوة. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى: (ومن جملة كلامه القرآن خاصة فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار فبالحرى أن يسمى القرآن نورًا كما يسمى نور الشمس نورًا فمثال القرآن نورالشمس، ومثال العقل نور العين)، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿ **فَآمنُوا باللَّه وَرَسُوله وَالنُّورِ الَّذي أَنزَلْنَا** ﴾ [التغابن: ٨]. وقوله تعالى: ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١٧٤].

تكملة لهذه الحقيقة: فإذا فهمت من هذا أن العين عينان ظاهرة وباطنة من عالم الحس والمشاهدة، والباطنة من عالم آخر وهو عالم الملكوت ولكل عين من العينين شمس ونور عنده تصير كاملة الإبصار. إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة. والظاهرة من عالم الشهادة وهى الشمس المحسوسة، والباطنة من عالم الملكوت وهو القرآن وكتب الله المنزلة، مهما انكشف لك هذا انكشافًا تامًا فقد انفتح لك باب من أبواب الملكوت وفى هذا العلم عجائب يستحقر بالإضافة إليها عالم الشهادة، ومن يسافر إلى هذا العلم وقعد به القصور فى حضيض عالم الشهادة فهو بهيمة يعد ومحروم عن خاصية الإنسانية بل أضل من البهيمة إذ لم تعطَ البهيمة أجنحة الطيران إلى هذا العلم، ولذلك قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

واعلم أن عالم الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشرة بالإضافة إلى اللب وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح، وكالظلمة بالإضافة إلى النور وكالسفل بالإضافة إلى العلو، ولذلك يسمى عالم الملكوت العالم العلوى والعالم الروحانى والعالم النورانى، وفى مقابلته العالم السفلى والجسمانى والظلمانى. ولا تظنن أنا نعنى بالعالم العلوى السماوات فإنها علو وفوق فى حق بعض عالم الشهادة والحس يشارك إدراكها البهائم، وأما العبد فلا تفتح له أبواب الملكوت ولا يصير ملكوتيًا إلا وتبدل فى حقه الأرض غير الأرض والسماوات، ولا يصير كل ما هو داخل تحت الحس والخيال أرضه ومن جملتها السماوات، وكل ما ارتفع عن الحس سماؤه. وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ سفره لقرب حضرة الربوبية. فالإنسان مردود إلى أسفل سافلين ومنه يترقى إلى العالم الأعلى، وأما الملائكة فإنهم من جملة عالم الملكوت عالقون فى حضرة القدس، ومنها يشرفون على العالم الأسفل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله خَلَقَ الخَلْقَ فِى ظُلْمَة ثُمَّ أَفَاضَ عَلَيْهِمْ**

منْ نُوره». وقال: «لله مَلائكَةٌ هُمْ أَعْلَمُ بِأَعْـمَال النَّاس منْهُمْ». والأنبياء إذا بلغ مـعراجهم إلى عالَم الملكوت فقد بلغوا المبلغ الأقصى وأشرفوا على جملة من عالم الغيب، إذ من كان فى عالم الملكوت كان عند الله وعنده مفاتيح الغيب أى من عنده تنزل أسباب الموجودات فى عالم الشهادة، إذ عالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم يجرى منه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص ومجرى الثمر بالإضافة إلى المثمر، والمسبب بالإضافة إلى السبب، ومفاتيح معرفة المسببات إنما تؤثر من الأسباب، ولذلك كان عالم الشهادة مـثالاً لعالم الملكوت كما سيأتى فى بيان المشكاة والمصباح والشجرة لأن المشبه لايخلو من موازاة المشبه به، ومحاكاته نوعًا من المحاكاة على قـرب أو بعد وهذا الآن له غور عميق. ومن اطلع على كنه حقـيقته انكشف له حقائق أمثلة القرآن على يسر.

دقيقة ترجع إلى حـقيقة النور: قلنا: إن كل ما يبصر نفـسه وغيره أولى باسم النور، فإن كان من جملـته ما يبصر به غيره أيضًـا من أنه يبصر نفسه وغيـره فهو أولى باسم النور من الذى لا يؤثر فى غيـره أصلاً، بل بالحـرى أن يسمى سراجًـا منيرًا لفيـضان أنواره على غيـره، وهذه الخاصة توجـد للروح القدسى النبـوى إذ تفيض بواسطتـه أنوار المعارف على الخلق وبه يفهم تسمية الله محمدًا ﷺ سراجًا منيرًا، والأنبياء كلهم سرج، وكذلك العلماء ولكن التفاوت بينهم لا يحصى.

دقيـقة: إذا كان اللائق بالذى يستـفاد منه نور الإبصار أن يسمى سراجًـا منيرًا فالذى يقتبس منه السراج فى نفسه جدير بأن يكنى عنه بالنار، وهذه السرج الأرضية إنما تقتبس فى أصلها من أنوار علوية والروح القـدسى النبوى يكاد زيته يضئ ولو لم تمسسـه نار إنما يصير نورًا على نور إذا مسته النار، فبالحرى أن يكون مـقتبس الأرواح الأرضية من الأرواح الإلهية العلوية التى وصفها على وابن عباس عليهما السلام فقالا: إن لله ملكًا له سبعون ألف وجه فى كل وجه سبعون ألف فم فى كل فم سبعون ألف لسان يسبح الله بجميعها، وهو الذى قـوبل بالملائكة كلهم فقـيل: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]. فهى إذا اعتبرت من حيث يقتبس منها السرج الأرضية لم يكن لها مثال إلا النار، وذلك لايؤنس إلا من جانب الطور.

دقيـقة: الأنوار السمـاوية التى منها تقـتبس الأنوار الأرضيـة إن كان لهـا أن تترتب بحيث يقتبس بعضها من بعض، فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة. ومثال ترتيـبها فى عالم الشهادة لا يدركـه الإنسان إلا بأن يبصر ضوء القمـر داخلاً فى كوة بيت واقعًـا على مرآة منصوبة على حـائط منعطفًا منها على حـائط آخر فى مقابلتـها، ثم منعطفًـا منها على الأرض بحـيث تستنيـر منه الأرض، فأنت تعلم أن مـا على الأرض من

النور تابع لما على الحائط، وما على الحائط تابع لما على المرآة، وما على المرآة تابع للقمر، وما في القمر تابع لما في الشمس إذ منها يشرق النور على القمر. وهذه الأنوار الأربعة مترتبة بعضها أعلى من بعض وأكمل من بعض، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعداها، فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك، وأن المقرب هو الأقرب تقرب إلى النور الأقصى فلا يبعد أن تكون رتبة إسرافيل فوق رتبة جبريل وأن الأقرب الذى تقرب درجته من حضرة الربوبية التى هى منبع الأنوار كلها وأن فيهم الأدنى وبينهم درجات تستعصى عن الإحصاء، وإنما المعلوم كثرتهم وترقيهم فى صفوفهم وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤- ١٦٦].

دقيقة: إذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب، فاعلم أنها لا تتسلسل إلى غير نهاية، بل ترتقى إلى منبع أول وهو النور لذاته وبذاته ليس يأتيه نور من غيره ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها. فانظر الآن هل اسم النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره أو بالمنير فى ذاته المنور لكل ما سواه؟ فما عندى أنه يخفى عليك الحق فيه وبه تتحقق أن اسم النور أحق بالنور الأقصى الأعلى الذى لا نور فوقه ومنه ينزل النور إلى غيره.

حقيقة: بل أقول ولا أبالى أن اسم النور الأولى مجاز محض، إذ كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته فهو فى ذاته من حيث ذاته لا نور له بل نوره مستعار من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها بل بغيرها. ونسبة المستعار مجاز محض أفترى أن من استعار ثيابًا وفرسًا ومركبًا وركبه فى الوقت الذى أركبه المعير، وعلى الحد الذى رسمه له غنى بالحقيقة أو بالمجاز أو أن المعير هو الغنى كلا بل المستعير هو فقير فى نفسه كما كان، وإنما الغنى هو المعير الذى منه الإعارة والإعطاء وإليه الاسترداد والانتزاع، فإذًا النور الحق هو الذى بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولاً، والإدامة ثانيًا فلا شركة لأحد معه فى حقيقة هذا الاسم ولا فى استحقاقه إلا من حيث تسميته به، ويتفضل عليه بتسميته إياه تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالاً ثم سماه مالكًا، وإذا انكشف للعبد هذه الحقيقة علم أنه وماله ملك لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلاً.

حقيقة: مهما عرفت أن النور راجع إلى الظهور والإظهار ومراتبه، فاعلم أنه لا ظلمة أشد من ظلمة العدم لأنه مظلم، وسمى مظلمًا لأنه ليس يظهر للأبصار إذ ليس يصير موجودًا للبصر مع أنه موجود فى نفسه فالذى ليس موجودًا لغيره ولا لنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية فى الظلمة وفى مقابلته الوجود فهو النور، فإن الشئ ما لم يظهر فى ذاته لا يظهر لغيره، والوجود بنفسه أيضًا ينقسم إلى ما له الوجود من ذاته وإلى ما له

الوجود من غيره. وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه، بل إذا نسبته إلى غيره وليس ذلك بوجود حقيقى كما عرفت فى مثال استعارة الثوب والغنى، فالموجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى.

حقيقة الحقائق: من ههنا يترقى العارفون من حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس فى الوجود إلا الله وأن كل شىء هالك إلا وجهه، لأنه يصير هالكًا فى وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلاً وأبدًا إذ لا يتصور إلا كذلك، فإن كل شىء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول الحق رئى موجودًا لا فى ذاته بل من الوجه الذى يلى موجده فيكون الموجود وجه الله فقط. ولكل شىء وجهان: وجه إلى نفسه، ووجه إلى ربه. فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه الله وجود، فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه، فإذًا كل شىء هالك إلا وجهه أزلاً وأبدًا. ولم يفتقر هؤلاء إلى قيام القيامة ليستمعوا نداء البارى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].. بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدًا، ولم يفهموا معنى قوله «الله أكبر» أنه أكبر من غيره. حاشى لله إذ ليس فى الوجود معه غيره حتى يكون هو أكبر منه، بل ليس لغيره رتبة المعية بل رتبة التبعية، بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذى يليه فالموجود وجهه فقط، ومحال أن يكون أكبر من وجهه بل معناه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه نبيًا كان أو ملكًا، بل لا يعرف الله كنه معرفته إلا هو إذ كل معروف داخل تحت سلطان العارف واستيلائه وذلك ينافى الجلال والكبرياء. وهذا له تحقق ذكرناه فى كتاب : «المقصد الأسنى فى معانى أسماء الله الحسنى».

إشارة: العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق، لكن منهم من كان له هذه الحالة عرفانًا علميًا ومنهم من صار له ذوقًا وحالاً وانتفت عنهم الكثرة بالكلية، واستغرقوا بالفردانية المحضة، واستهوت فيها عقولهم فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضًا، فلم يبق عندهم إلا الله فسكروا سكرًا وقع دونه سلطان عقولهم، فقال بعضهم: أنا الحق. وقال الآخر: سبحانى ما أعظم شأنى. وقال الآخر: ما فى الجنة إلا الله، وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق فى حال فرض العشق:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا
نَحن رُوحانِ حَلَلْنَا بَدنَا

فلا يبعد أن يفجأ الإنسان مرآة فينظر فيها، ولم يرَ المرآة قط، فيظن أن الصور التى رآها فى المرآة فى صورة المرآة متحدة بها، ويرى الخمر فى الزجاج فيظن أن الخمرة لون الزجاج فإذا صار ذلك عنده مألوفًا ورسخ فيه قدمه استغرقه فقال:

رَقَّ الزُّجاجُ ورَاقت الخمرُ
وتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأمرُ
فَكَأَنَّمَا خمرٌ ولا قدح
وكَأَنَّمَا قدح ولا خمرُ

وفرق بين أن يقال الخمر قدح وبين أن يقال كأنه قدح، وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحال فناء، بل فناء الفناء لأنه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه، فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحال ولا بعد شعوره بنفسه، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه، وتسمى هذه الحال بالإضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز اتحادًا، وبلسان الحقيقة توحيدًا، ووراء هذه الحقائق أيضًا أسرار لا يجوز الخوض فيها.

خاتمة: لعلك تشتهى أن تعرف وجه إضافة نور إلى السماوات والأرض، بل وجه كونه فى ذاته نور السماوات والأرض، ولا ينبغى أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار وأنه النور الكلى، لأن النور عبارة عما تنكشف به الأشياء وأعلى منه ما ينكشف به وله أعلى منه ما ينكشف به وله ومنه وأن الحقيقى منه ما ينكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباس واستمداده بل ذلك له فى ذاته من ذاته لا من غيره، ثم عرفت أن هذا لا يتصور ولن يتصف به إلا النور الأول، ثم عرفت أن السماوات والأرض مشحونة نورًا من طبيعة النور. أعنى المنسوب إلى البصر والبصيرة أى إلى الحس والعقل.

أما البصرى فما تشاهده فى السماوات من الكواكب والشمس والقمر وما تشاهده فى الأرض من الأشعة المنبسطة على كل ما فى الأرض حتى ظهرت به الألوان المختلفة خصوصًا فى الربيع، وعلى كل حال من الحيوانات والنباتات والمعادن وأصناف الموجودات ولولاها لم يكن للألوان ظهور بل وجود، ثم سائر ما يظهر للحس من الأشكال والمقادير يدرك تبعًا للألوان ولا يتصور إدراكها إلا بواسطتها.

أما الأنوار العقليه المعنوية فالعالم الأعلى مشحون بها وهى جواهر الملائكة، والعالم الأسفل مشحون بها وهى الحياة الحيوانية ثم الإنسانية وبالنور الإنسانى السفلى ظهر نظام العالم السفلى كما أن بالنور الملكى ظهر نظام العالم العلوى وهو المعنىّ بقوله: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١]. وقال: ﴿**لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ**﴾

[النور: ٥٥]. وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج، وأن السراج هو النور النبوى القدسى، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النار. وأن العلويات بعضها مقتبس من بعض، وأن ترتيبها ترتيب مقامات، ثم ترتقى جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول، وأن ذلك وهو الله وحده لاشريك له، وأن سائر الأنوار مستعارة منه، وإنما الحقيقى نوره فقط وإن الكل من نوره بل هو لا هوية لغيره إلا بالمجاز، فإذًا لا نور إلا هو وسائر الأنوار أنوار من الوجه الذى تليه لا من ذاتها فوجه كل موجه إليه ومولّ شطره ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. فإذًا لا إله إلا هو فإن الإله عبارة عما الوجوه مولية نحوه بالعبادة والتأليه، أعنى وجوه القلوب فإنها الأنوار والأرواح، بل كما أنه لا إله إلا هو فلا هو إلا هو فإن هو عبارة عما إليه الإشارة، وكيفما كان فلا إشارة إلا إليه بل كلما أشرت فهو بالحقيقة الإشارة إليه، وإن كنت لا تعرفه أنت لغفلتك عن حقيقة الحقائق التى ذكرناها، ولا إشارة إلى نور الشمس بل إلى الشمس، فكل ما فى الوجود فنسبته إليه فى ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس، فإذًا لا إله إلا الله توحيد العوام ولا هو إلاهو توحيد الخواص، لأن ذلك أعم وهذا أخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه فى الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة، ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية فليس وراء ذلك مرقاة إذ الرقى لا يتصور إلا بكثرة، فإنه نوع إضافة يستدعى ما منه الارتقاء وما إليه الارتقاء، وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة وبطلت الإضافة وطاحت الإشارة فلم يبق علو ولا سفل ولا نازل ولا مرتفع، فاستحال الترقى واستحال العروج فليس وراء الأعلى علو ولا مع الوحدة كثرة ولا مع انتقاء الكثرة عروج، فإن كان ثمة تغيير من حال فبالنزول إلى السماء الدنيا. أعنى بالإشراق من علو إلى أسفل لأن الأعلى وإن لم يكن له أعلى فله أسفل.

فهذا غاية الغايات ومنتهى الطلبات يعلمه من يعلمه وينكره من يجهله، وهو من العلم الذى هو كنهه المكنون الذى لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ولا يبعد أن قال العلماء إن النزول إلى السماء الدنيا هو نزول ملك، فقد توهم بعض العارفين ما هو أبعد منه إذ قال هذا المستغرق بالفردانية له نزول إلى سماء الدنيا وإن ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**صرت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به**». وإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه فهو السامع والباصر والناطق إذًا لا غيره، وإليه الإشارة بقوله

لموسى ﷺ: «مَـرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِـي» الحديث. فـحركـات هذا الموحـد من السـماء الدنيـا وإحساساته من سماء فوقها وعقـله فوق ذلك وهو يترقى من سماء العقل إلى منتهى معراج الخلائق ومملكة الفردانيـة إلى سبع طبقات، ثم بعد يستوى على عـرش الوحدانية ومنه يدبر الأمـر إلى طبـقـات سـماواته فـربما نظـر الناظر إليـه أن ذلك له تأويل كـقـوله: أنا الحق وسبحـانى، بل كقوله عليه الـصلاة والسلام: «**مرضت فلم تعـدنى وكنت سمعـه وبصره ولسانه**»، فأرى الآن إمساك عنان البيان فما أراك تطيق من هذا الفن أكثر من هذا المقدار.

مساعدة: لعلك لا تسمو إلى هذا المكان بهمتك، بل تقـصر دون ذروته همتك فخذ إليك كـلامًا أقـرب إلى فهـمك وأقرب لضـعفـك، واعلم أن معنى كـونه نور السمـاوات والأرض تعرفه بالنسبة إلى النور الظاهرى البصـرى، فإذا رأيت ألوان الربيع وخضرتها مثلاً فى ضياء النهـار فلست تشك فى أنك ترى الألوان، وربما ظننت أنك لست ترى مع الألوان غيرها فكأنـك تقول لست أرى مع الخضرة غيـرها، ولقد أصر على هذا أقوام فـزعموا أن النور لا مـعنى له وأنه ليس مع الألوان غـيـر الألوان، فأنكروا وجـود النور مع أنه أظهـر الأشياء وكيـف لا وبه تظهر الأشياء وهو الذى يبصر فى نفـسه ويبصر به غيره كـما سبق، لكن عند غروب الشمس وغيبة السراج ووقـوع الظل أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل وبين موضع الضياء فاعتـرفوا بأن النور معنى وراء الألوان يدرك مع الألوان حتى كأنه لشدة اتحاده بها لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى، وقـد تكون شدته سبب الخفاء، والشىء إذا جاوز حده انعكس على ضده فإذا عرفت هذا فاعلم أن أرباب البـصائر ما رأوا شيئًا إلا ورأوا الله معه، وربمـا زاد على هذا بعضهم فقـال: ما رأيت شيئًـا إلا رأيت الله قبله. لأن منهم من يرى الأشياء به، ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء وإلى الأول الإشارة بقوله: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فـصلت : ٥٣]. وإلى الثـانى الإشـارة بقـوله: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالأول صاحب المشاهدة، والثانى صاحب الاستدلال بآياته، والأولى درجة الصديق، والثانية درجة العلماء الراسخين، وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين، فإذا عـرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شىء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شىء للبصيرة الـباطنة بالله فهو مع كل شىء لا يفارقه وبه يظهر كل شئ، ولكن بقى ههنا تفـاوت وهو أن النور الظاهر يتصـور أن يغيب بغـروب الشمس ويحجب حتى يظهر الظل.

أما النور الإلهى الذى به يظهر كل شىء لا يتصور غيبته بل يستحيل غروبه فيبقى مع الأشياء كلهـا دائمًا فانقطع طريق الاستدلال بالتفـرقة ولو يضطر غيبته لانهـدمت السموات والأرض ولأدرك به من التفـرقة ما يضطر مـعه إلى المعـرفة بما به ظهرت الأشـياء، لكن لما

تساوت الأشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة لواحدانية خالقها إذ كل شىء يسبح بحمده لا بعض الأشياء، وفى جميع الأوقات لا فى بعض الأوقات ارتفع التفريق وخفى الطريق إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا نقيض تتشابه الأحوال فى الشهادة له، فلا بد أن يختفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه: فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم لإشراق نوره، وربما أيضًا لا يفهم هذا الكلام بعض القاصرين فيفهم من قولنا إن الله مع كل شىء كالنور مع الأشياء، إنه فى كل مكان تعالى وتقدس عن النسبة إلى مكان، بل الأبعد عن إثارة هذا الخيال أن نقول لك قبل كل شىء وأنه فوق كل شىء وأنه مظهر كل شئ، والمظهر لا يفارق المظهر فى معرفة صاحب البصيرة، فهذا الذى نعنى بقولنا إنه مع كل شئ، ثم لا يخفى عليك أيضًا أن المظهر قبل المظهر وفوقه مع أنه معه لكنه معه بوجه وقبله بوجه فلا تظن أنه متناقض واعتبر بالمحسوسات التى هى قدر درجتك فى العرفان، وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركة ظل اليد وقبلها أيضًا، ومن لم يتسع صدره لمعرفة هذا فليهجر هذا النمط من العلم فلكل علم رجال وكل ميسر لما خلق له.

الفصل الثانى
فى بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار

وبيان ذلك: يستدعى تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود، ولكنى أشير إليهما بالرمز والاختصار.

أحدهما: فى بيان سر التمثيل ومنهاجه ووجه ضبط أرواح المعانى بقوالب الأمثلة، ووجه كيفية المناسبة بينهما وكنه الموازنة بين عالم الشهادة التى منها يتخذ طينة الأمثال، وبين عالم الملكوت الذى منه تنزل أرواح المعانى.

والقطب الثانى: فى طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها، فإن هذا المثال مسوق لبيان ذلك، وقد قرأ ابن مسعود «**مَثَلُ نُوره فى قَلْبِ المُؤمنِ كمشْكاة فيْهَا**» [النور: ٣٥]. وقرأ أُبى بن كعب «**مَثَلُ نُورِ قَلْبِ مَنْ آمَنَ كَمشْكَاة فيهَا**».

القطب الأول فى بيان سر التمثيل ومنهاجه

اعلم أن العالم عالمان روحانى وجسمانى، وإن شئت قلت حسى وعقلى، وإن شئت قلت علوى وسفلى والكل متقارب، وإنما يختلف باختلاف العبارات، فإذا اعتبرتهما فى

أنفسهما قلت: جسمانى وروحانى، وإذا اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت: حسى وعقلى، وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت علوى وسفلى، وربما سميت أحدهما عالم الملك والشهادة، والآخر عالم الغيب والملكوت ومن ينظر إلى الحقائق من الألفاظ ربما يتحير من كثرتها ويتخيل كثرة المعانى والذى تنكشف له الحقائق يجعل المعانى أصلاً والألفاظ تابعة وأمر الضعيف بالعكس منه إذ يطلب الحقائق من الألفاظ وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: ٢٢]. وإذا قد عرفت معنى العاملين، فاعلم أن العالم الملكوتى العلوى عالم غيب إذ هو غائب عن الأكثر، والعالم الحسى عالم الشهادة إذ يشهده الكافة، والعالم الحسى مرقاة إلى العالم العقلى، ولو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسدَّ طريق الترقى إليه، ولو تعذر ذلك لتعذَّر السفر إلى الحضرة الربوبية والقرب من الله فلن يقرب من الله أحد ما لم يطأ بحبوحة حظيرة القدس، والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذى نعنيه بعالم القدس، وإذا اعتبرت جملته بحيث لايخرج منه شىء ولا يدخل فيه ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس، وربما سمينا الروح البشرى الذى هو مجرى لوائح القدس الوادى المقدس. ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعانًا فى معانى القدس، ولكن لفظ الحظيرة محيط بجميع طبقاتها، فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات غير معقولات عند أرباب البصائر.

واشتغالى الآن بشرح كل لفظ مع ذكره يصدنى عن المقصد، فعليك بالتشمير لفهم الألفاظ فأرجع إلى الغرض فأقول: لما كان عالم الشهادة مرقى إلى عالم الملكوت كان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقى وقد يعبر عنه بالدين، وبمنازل الهدى فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما تصور الترقى من أحدهما إلى الآخر، فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت، فما من شىء فى هذا العالم إلا وهو مثال لشئ من ذلك العالم، وربما كان الشئ الواحد مثالاً لأشياء من عالم الملكوت. وربما كان للشئ الواحد من الملكوت،أمثلة كثيرة من عالم الشهادة، وإنما يكون مثالاً إذا ماثله نوعًا من المماثلة. وطابقه نوعًا من المطابقة، وإحصاء تلك الأمثلة يستدعى استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها، ولن تفى به القدرة البشرية، ولم تتسع لفهمه القوة البشرية، ولا تفى لشرحه الأعمار القصيرة، فغايتى أن أعرفك منها أنموذجًا لتستدل باليسير منها على الكثير وينفتح لك باب الاستبصار بهذا النمط من الأسرار. فأقول: إن كان من عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية ولأجلها قد تسمى أربابًا فيكون الله رب الأرباب لذلك، ويكون لها مراتب فى نورانيتها

متفاوتة ، فبالحرى أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب، وسالك الطريق يترقى أولاً إلى ما درجته درجة الكوكب فيتضح له إشراق نوره، وينكشف له أن العالم الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره، ويتضح له من جماله وعلو درجته ما ينادى فيقول: هذا ربى، ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر رأى أفول الأول فى مضرب الهوى أى بالإضافة إلى ما فوقه أفولاً فقال: لا أحب الآفلين، فكذلك يترقى حتى ينتهى إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى قابلاً للمثال بنوع مناسبة له معه، والمناسبة مع ذى النقص نقص؟ وأقول أيضًا فمنه من يقول: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٩]. ومعنى الذى إشارة مبهمة مناسبة لها إذ لو قال قائل ما مثال مفهوم الذى لم يتصور أن يجاب عنه فالمنزه عن كل مناسبة هو الله الحق، ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله ما نسبة الله نزل فى جوابه: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١-٤]. معناه التقدس عن النسبة، ولذلك لما قال فرعون لموسى: وما رب العالمين؟ كالطالب لماهيته لم يجبه إلا بأفعاله إذا كانت الأفعال أظهر عند السائل، فقال: رب السموات والأرض. فقال فرعون لمن حوله: ألا تسمعون كالمنكر عليه فى عدوله فى جوابه عن طلب الحقيقة، فقال موسى: ﴿**رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ**﴾ [الصافات: ١٢٦]. فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية وهو يجيب عن الأفعال بالأفعال، وقال فرعون: إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون، ولنرجع الآن إلى الأنموذج فنقول: عالم التعبير يعرفك مقدار ضرب المثال لأن الرؤيا جزء من النبوة. أما ترى أن الشمس فى الرؤيا تعبيرها السلطان لما بينهما من المشاركة والمماثلة فى معنى روحانى، هو الاستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار والأنوار على الجميع ، والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها، كما يفيض السلطان آثاره بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان، وأن من يرى أن فى يده خاتمًا يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فإنه يعبر له أنه يؤذن قبل الصبح فى رمضان، ومن رأى أنه يصب الزيت فى الزيتون تعبيره أن تحته جارية هى أُمه وهو لا يعرفها فاستقصاء أبواب التعبير فى أمثال هذا الجنس غير ممكن فلا يمكن الاشتغال بعدها، بل أقول: كما أن فى الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب، كذلك منها ما له أمثلة أُخرى إذا اعتبرت معها أوصاف أُخر سوى النورانية، فإن كان فى تلك الموجودات ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ومنه تتفجر إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات فمثاله الطور، وإن كانت الموجودات التى تتلقى تلك النفائس بعضها أولى من بعض فمثاله الوادى، وإن كانت تلك

النفائس بعد اتصالها بالقلوب البشرية تجرى من قلب إلى قلب، فهذه القلوب أيضًا أودية ومفتتح الوادى قلوب الأنبياء والأولياء والعلماء، ثم من بعدهم فإن كانت هذه الأودية دون الأول ومنها تغترف فبالحرى أن يكون الأول هو الوادى الأيمن لكثرة يمنه وعلو درجته، وإن كان الوادى الأول يتلقى من آخر درجات الوادى الأيمن فهو يغترف من شاطئ الوادى الأيمن دون لجته وميدانه، وإن كان روح النبى سراجًا منيرًا. وكان ذلك الروح مقتبسًا بواسطة وحى كما قال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فما منه الاقتباس مثاله النار، وإن كان المتلقون من الأنبياء بعضهم على محض التقليد لما يسمعه وبعضهم على حظ من البصيرة، فمثال المقلد الغير المستبصر الجذوة والقبس والشهاب وصاحب الذوق مشارك للنبى فى بعض الأحوال. ومثال تلك المشاركة الاصطلاء وإنما يصطلى بالنار من معه النار لا من سمع خبرها، وإن كان أول منزل الأنبياء الترقى إلى العالم المقدس عن كدورة الحس والخيال، فمثال، ذلك المنزل الوادى المقدس، وإن كان لا يمكن وطء ذلك المقدس إلا بإطراح الكونين أعنى الدنيا والآخرة والتوجه إلى الواحد الحق، وكانت الدنيا والآخرة متقابلتين متحاذيتين وهما عارضان للجوهر النورانى البشرى يمكن اطراحها مرة والتلبس بهما أخرى، فمثال إطراحهما عند الإحرام والتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين بل نترقى إلى الحضرة الربوبية مرة أُخرى، فنقول: وإن كان فى تلك الحضرة شىء بواسطته ننتقش العلوم المفصلة فى الجواهر القابلة فمثاله القلم. وإن كان فى تلك الجواهر القابلة للتلقى ما انتقش بالعلوم فمثاله اللوح والكتاب ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ٣]. وإن كان فوق الناقش للعلوم شىء مسخر له فمثاله اليد، وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله الصورة، وإن كان يوجد للصور الإنسية ترتيب منظوم على هذه الشاكلة فهى على صورة الرحمن، وفرق بين أن يقال على صورة الرحمن وبين أن يقال على صورة الله. إذ الرحمة الإلهية هى التى على صورة الحضرة الإلهية بهذه الصورة، ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما فى العالم حتى كأنه كل ما فى العالم أو هو نسخة العالم مختصرة. وصور آدم أعنى هذه الصورة مكتوبة بخط الله، فهو الخط الإلهى الذى ليس برقم حروف إذ يتنزه خطه عن أن يكون رقمًا وحروفًا، كما يتنزه كلامه عن أن يكون صوتًا وحروفًا، وقلمه عن أن يكون قصبًا وحديدًا، ويده عن أن تكون لحمًا وعظمًا. ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه، فلما كان هذا من آثار الرحمة كان على صورة الرحمن لا على صورة الله، فحضرة الإلهية غير حضرة الرحمن وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية، ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ

النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]. ولولا هذا المعنى لكن قوله: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن غير منظوم لفظًا، بل كان ينبغى أن يقول على صورته، واللفظ الوارد فى الصحيح على صورة الرحمن. ولأن تمييز حضرة الملك عن حضرة الربوبية يستدعى شرحًا طويلاً، فلنتجاوز ويكفيك من الأنموذج هذا القدر فإنه بحر لا ساحل له فإن وجدت فى نفسك نفورًا عن هذه الأمثال فستأنس بقوله تعالى: **﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾** [الرعد: ١٧]. الآية. فإنه قد ورد فى التفسير أن الماء هو المعرفة والأودية القلوب.

خاتمة واعتذار: لا تظنن من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة منى فى رفع الظاهر واعتقادًا فى إبطالها حتى أقول مثلاً: لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله: **﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾** [طه: ١٢]. حاشا لله فإن إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وجهلوا جهلاً بالموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه، كما أن أبطال الأسرار مذهب الحشوية فالذى يجرد الظاهر حشوى، والذى يجرد الباطن باطنى والذى يجمع بينهما كامل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «**للقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع**». وربما نقل هذا عن على موقفًا عليه، بل أقول موسى فهم من الأمر بخلع النعلين اطرح الكونين فامتثل الأمر ظاهرًا بخلع نعليه وباطنًا بخلع العالمين، فهذا هو الاعتبار أى العبور من شىء إلى غيره ومن ظاهر إلى سر، وفرق بين من يسمع قول رسول الله ﷺ: «**لا تَدْخُلُ المَلائكَةُ بَيْتًا فيه كَلْبٌ أو صُورَةٌ**»، فيقتنى الكلب فى البيت ويقول ليس الظاهر مرادًا بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب، لأنه يمنع المعرفة التى هى من أنوار الملائكة إذ الغضب غول العقل وبين من يمتثل الأمر بالظاهر، ثم يقول ليس الكلب بصورته بل بمعناه وهو السبعة والضراوة، وإذا كان حفظ البيت الذى هو مقر الشخص والبدن واجبًا عليه أن يحفظ عن صورة الكلبية، فلأن يجب حفظ بيت القلب وهو مقر الجوهر الحقيقى الخاص عن سر الكلبية كان أولى، فإن من يجمع بين الظاهر والباطن جميعًا فهذا هو الكامل، وهو المعنى بقولهم الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، وكذلك ترى الكامل لا يسمح لنفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة.

فهذه مغلطة، منها ما وقع لبعض السالكين فى إباحة طى بساط الأحكام ظاهرًا حتى ربما ترك أحدهم الصلاة وزعم أنه دائم الصلاة بسره، وهذا أشد مغلطة الحمقاء من الإباحية الذين تأخذهم ترهات كقول بعضهم: إن الله غنى عن عملنا. وقول بعضهم: إن الباطن مشحون بالخبائث ليس يمكن تزكيته منها ولا مطمع فى استئصال الغضب والشهوة بظنه أنه مأمور باستئصالها، فهذه حماقات. وأما ما ذكرناه فهو ككبوة جواد وهفوة سالك صده الشيطان فدلاه بحبال الغرور وأرجع إلى حديث النعلين فأقول: ظاهر خلع النعلين منبه على

ترك الكونين، فالمثال فى الظاهر حق وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة، ولكل حق حقيقة، وأهل هذه الرتبة هم الذين بلغوا درجة الزجاجة، كما سيأتى معنى الزجاجة لأن الخيال الذى من طينته يتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار ويحول بينك وبين الأنوار، ولكن إذا صفا صار كالزجاج الصافى، وصار غير حائل عن الأنوار بل صار مع ذلك مؤديًا للأنوار، بل صار مع ذلك حافظًا للأنوار عن الانطفاء بعواصف الرياح، فستأتيك قصة الزجاجة. فاعلم أن العالم الكثيف الخيالى السفلى صار فى حق الأنبياء عليهم السلام زجاجة، ومشكاة للأنوار، ومصفاة للأسرار، ومرقاة إلى العالم الأعلى. وبهذا يعرف أن المثال الظاهر حق ووراء هذا سر. وقس عليه الضوء والنهار وغيره.

دقيقة: إذا قال عليه الصلاة والسلام: «**رأيت عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة حبوًا**»، فلا تظن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك بل رآه فى يقظته كما يراه النائم فى نومه، وإن كان عبد الرحمن بن عوف نائمًا فى البيت بشخصه، فإن النوم إنما أثر فى أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلهى فإن الحواس شاغلة وجاذبة إلى عالم الحس وصارفة وجهه عن عالم الغيب والملكوت، وبعض الأنوار النبوية قد تصفى وتستولى بحيث لا تجذبه الحواس إلى عالمها، ولا تشغله فيشاهد فى اليقظة ما يشاهده غيره فى المنام لكنه إذا كان فى غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة، بل عبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الأعلى الذى يعبر عنه بالجنة، والغنى والثروة جاذبة إلى الحياة الحاضرة وهى العالم الأسفل، فإذا كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى مقارنة من الجاذب للآخر صد عن السير إلى الجنة فإن كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسرًا أو بطئًا فى سيره فيكون مثاله من عالم الشهادة الحبو، فكذلك تنجلى الأسرار من وراء زجاجات الخيال وذلك لا يقصر فى حكمه على عبد الرحمن وإن كان إبصاره مقصورًا عليه، بل يحكم به عن كل من قويت بصيرته واستحكم إيمانه وكثرت ثروته كثرة تزاحم الإيمان، لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان، فهذا يعرفك كيفية إبصار الأنبياء الصور، وكيفية مشاهدتهم المعانى من وراء الصور، والأغلب أن يكون المعنى سابقًا إلى المشاهدة الباطنية، ثم يشرف منه على الروح الخيالى فينطبع بصورة موازية للمعنى محاكية له، وهذا الحظ من الوحى فى اليقظة يحتاج إلى التأويل كما أنه فى النوم يفتقر إلى التعبير، والواقع منه فى النوم نسبته إلى الخواص النبوية نسبه الواحد إلى ستة وأربعين، والواقع منه فى اليقظة نسبته أعظم من ذلك وأظن أن نسبتة نسبه الواحد إلى الثلاثة، فإن الذى انكشف لنا أن الخواص النبوية تنحصر شعبها فى ثلاثة أجناس وهذا واحد من تلك الأجناس الثلاثة.

القطب الثاني: في بيان مراتب الأرواح البشرية النورانية إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن:

ـ **فالأول منها:** الروح الحساس وهو الذي يتلقى ما توره الحواس إذ كان أصل الروح الحيواني وأوله وبه يصير الحيوان حيوانًا وهو موجود للصبي الرضيع.

الثاني: الروح الخيالي وهو الذي يكتب ما أوردته الحواس ويحفظه مخزونًا عنده ليعرضه على الروح العقلي فوقه عند الحاجة إليه. وهذا لا يوجد للصبي الرضيع في بدء نشوئه ولذلك يولع بالشئ ليأخذه، فإذا غيب عنه ينساه ولا تنازعه نفسه إليه إلى أن يكبر قليلاً بحيث إذا غيب عنه بكى وطلب ذلك لبقاء صورته محفوظة في خياله، وهذا قد يوجد لبعض الحيوانات دون بعض، ولايوجد للفراش المتهافت على النار لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النار فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى موضع الضياء فيلقى نفسه عليه فيتأذى به، لكنه إذا جاوزه وحصل في الظلمة عاوده مرة أخرى بعد مرة، ولو كان الروح الحافظ المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم لما عاوده بعد أن تضرر به مرة. فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة فإذا رأى الخشبة بعد ذلك هرب.

الثالث: الروح العقلي الذي يدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال وهو الجوهر الإنسي الخاص ولا يوجد للبهائم ولا الصبيان، ومدركاته المعارف الضرورية الكلية كما ذكرناه عند ترجيح نور العقل على نور العين.

الرابع : الروح الفكري وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف نفسية ثم استفاد نتيجتين مثلاً ألف بينهما مرة أُخرى واستفاد نتيجة مرة أُخرى، ولا تزال تتزايد كذلك إلى غير نهاية.

الخامس: الروح القدسي النبوي الذي به يختص الأنبياء وبعض الأولياء، وفيه تنجلي لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض، بل من المعارف الربانية التي تقتصر دونها الروح العقلي والفكري وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: ٥٢]. ولا يبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طورًا آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل كما لم يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز. فلا تجعل أقصى الكمال وقفًا على نفسك، وإن أردت مثالاً مما تشاهده من جملة خواص بعض البشر فانظر إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع إدراك ويحرم منه بعضهم حتى لاتتميز عندهم الألحان الموزونة من المزحفة. وانظر

كيف عظمت قوة الذوق فى آخرين حتى استخرجوا منها الموسيقى والأغانى وصنوف الدستانات التى منها المحزن، ومنها المطرب، ومنها المنوم، ومنها المبكى، ومنها المجنن، ومنها القاتل، ومنها الموجب للغشى وإنما تقوى هذه الآثار فيمن له أصل الذوق، وأما العاطل عن خاصية الذوق فإنه يشارك فى سماع الصوت وتضعف فيه هذه الآثار وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشى ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه.

فهذا مثال فى أمر خسيس لأنه قريب إلى فهمك فقس به الذوق الخاص النبوى، واجتهد فى أن تصير من أهل الذوق بشئ من تلك الروح فإن للأولياء منه حظًا وافرًا، فإن لم تقدر فاجتهد أن تصير بالأقيسة التى ذكرناها والتشبيهات التى رمزنا إليها من أهل العلم بها فإن لم تقدر فلا أقل من أن تكون من أهل الإيمان بها﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]. والعلم فوق الإيمان، والذوق فوق العلم، والذوق وجدان والعلم قياس، والإيمان قبول مجرد بالتقليد وحسن الظن بأهل الوجدان أو بأهل العرفان، وإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة، فاعلم أنها بجملتها أنوار إذ بها تظهر أصناف الموجودات والحسى والخيالى منها وإن كان يشارك البهائم فى جنسها، لكن الذى للإنسان منها نمط آخر أشرف وأعلى وخلقًا فى الإنسان لغرض آخر أجلى وأسنى. وأما الحيوانات فلم يخلقا لها ليكونا آلتها فى طلب غذائها وتسخيرها للأدميين. وإنما خلقا للأدمى ليكونا شبكة له يقتص بهما فى جهة العالم الأسفل مبادئ المعارف الدينية الشريفة إذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصًا معينًا اقتبس من عقله معنى عامًا مطلقًا كما ذكرنا فى مثال عبد الرحمن بن عوف، فإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فلنرجع إلى عرض الأمثلة.

بيان أمثلة هذه الآية: اعلم أن القول فى موازية هذه الأرواح الخمسة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت يمكن تطويله، لكنى أوجز وأقتصر على التنبيه على طريقه، فأقول: أما الروح الحاس فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من ثقب عدة كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرهما فأوفق مثال له فى عالم الشهادة المشكاة. وأما الروح الخيالى فتجد له خواص ثلاثة:

إحداها: أنه من طينة العالم السفلى الكثيف لأن الشئ المتخيل ذو مقدار وشكل وجهات محصورة مخصوصة وهو على نسبة من المتخيل من قرب أو من بعد، ومن شأن الكثيف الموصوف بأوصاف الأجسام أن يحجب عن الأنوار العقلية المحضة التى تتنزه عن الوصف بالجهات والمقادير والقرب والبعد.

الثانية: أن هذا الخيال الكثيف إذا صفى ورقق وهذب وضبط صار موازيًا للمعانى العقلية محاذيًا لها وغير حائل عن إشراق نور منها.

الثالثة: أن الخيال فى بداية أمره محتاج إليه جدًّا لتنضبط له المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشارًا يخرج عن الضبط إذ تجمع المثالات الخيالية للمعارف العقلية.

وهذه الخواص الثلاثة لا تجدها فى عالم الشهادة بالإضافة إلى الأنوار المبصرة إلا الزجاجة فإنها فى الأصل من جوهر كثيف لكن صفى ورقق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة فهى أولى مثال به.

وأما الثالث: وهو الروح العقلى الذى فيه إدراك المعانى الشريفة الإلهية فلا يخفى عليك وجه تمثيلها وقد عرفت هذا مما سبق من بيان معنى كون الأنبياء سراجًا منيرًا.

وأما الرابع: وهو الروح الفكرى فمن خاصيته أن يبتدئ من أصل واحد ثم يتشعب شعبتين ثم كل شعبة شعبتين، وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية، ثم يفضى بالآخر إلى نتائج تعود فتصير بذورًا لأمثالها إذ يمكن أيضًا تلقيح بعضها بالبعض فيكون مثاله من هذا العالم الشجرة، وإذا كانت ثمراتها مادة لتضاعف المعارف وثباتها وبقائها، فبالحرى أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها من جملة سائر الأشجار إلا بالزيتونة خاصة لأن لبّ ثمرتها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح ويختص من بين سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراف، وإذا كانت الشجرة التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالتى لا تتناهى ثمرتها إلى حد محدود أولى أن تسمى -شجرة مباركة- وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد فأولى أن تكون شرقية ولا غربية.

وأما الخامس: وهو الروح القدسى النبوى والمنسوب إلى الأولياء إذا كان فى غاية الإشراق والصفاء وكانت الرّوح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر فى أنواع المعارف، وبعضها يكون فى شدة الصفاء كأنه تنبيه من نفسه بغير مدد من خارج، فبالحرى أن يعبر عن الصافى القوى الاستعداد بأنه يكاد زيته يضئ ولو لم تمسه نار إذ فى الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغنى عن مدد الأنبياء. وفى الأنبياء من يكاد يستغنى عن مدد الملائكة فهذا المثال موافق لهذا القسم وإذا كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الأول وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالى إذ لا يتصور الخيالى إلا موضوعًا بعده والفكرى والعقلى يكونان بعدها، فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة فيكون المصباح فى زجاجة والزجاجة فى مشكاة، وإذا كانت هذه كلها أنوارًا بعضها فوق بعض فبالحرى أن تكون نورًا على نور فافهم والله الموفق.

خاتمة: هذا مثال إنما يصلح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار، فإن النور يراد للهداية فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة لأن الظلمة لا تهدى إلى باطل كما تهدى إلى حق، وعقول الكفار انتكست وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الضلال فى حقهم، فمثالهم كرجل فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، والبحر اللجى هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والحوادث الرديئة والمكدرات المعمية، والموج الأول: موج الشهوات الباعثة إلى الصفات البهيمية والاشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى أنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم، أن يكون هذا الموج مظلمًا لأن حب الشئ يعمى ويصم. والموج الثانى: موج الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر وبالحرى أن يكون مظلمًا لأن الغضب غول العقل وبالحرى أن يكون هو الموج الأعلى لأن الغضب فى الأكثر مستول على الشهوات، حتى إذا ماج أذهل عن الشهوات وأغفل عن اللذات فإن الشهوة لا تقاوم الغضب الهائج أصلاً، وأما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة والظنون الكاذبة والخيالات الفاسدة التى صارت حجبًا بين الكافر وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل فإن خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس، وإذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحرى أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض، وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلاً عن البعيدة فلذلك تحجب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبى ﷺ مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل، فبالحرى أن يعبر عنه بأنه إذا أخرج يده لم يكد يراها، وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق كما سبق، فبالحرى أن يعتقد كل موحد أن من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، ويكفيك هذا القدر من أسرار هذه الآية فاقنع.

الفصل الثالث
فى معنى قوله ﷺ: «إن لله سبعين حجابًا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره»

فى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها سبعين ألفًا. فأقول: إن الله تعالى متجلٍّ فى ذاته بذاته لذاته ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة، وإن المحجوبين من الخلق ثلاثة أقسام منهم: من يحتجب بمجرد الظلمة، ومنهم: من يحتجب بمجرد النور المحض، ومنهم: من يحتجب بنور مقرون بظلمة. وأصناف هذه الأقسام كثيرة تتحقق كثرتها، ويمكننى أن أتكلف حصرها لكننى لا أثق بما يلوح من تحديد وحصر إذ لا يدرى أهو المراد فى الحديث أم لا، أما الحصر إلى سبعمائة أو سبعين ألفًا فذلك لا تستقل به إلا القوة النبوية مع أن ظاهر ظنى أن هذه الأعداد مذكورة لا للتحديد، وقد تجرى العادة بذكر أعداد ولا يراد بها الحصر، بل التكثير والله أعلم بحقيقة ذلك فهو خارج عن الوسع، وإنما الذى يمكننى الآن أن أعرفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم فأقول:

القسم الأول: هم المحجوبون بمحض الظلمة وهم الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلاً وهم أصناف.

الصنف الأول: تشوق إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله الطبع والطبع صفة مركوزة فى الأجسام حالة فيها، وهى مظلمة إذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا تصور لها وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضًا.

الصنف الثانى: هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يتفرغوا لطلب السبب بل عاشوا عيشة البهائم فكان حجابهم أنفسهم المركوزة وشهواتهم المظلمة فلا ظلمة أشد من الهوى والنفس. ولذلك قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقال النبى ﷺ: «**الهوَى أبْغَضُ إله عُبدَ إلى الله**»، وهؤلاء ينقسمون فرقًا: ففرقة زعمت أن غاوة المطلب من الدنيا هى قضاء الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذات البهيمية من منكح ومطعم ومشرب وملبس، فهؤلاء عبيد اللذة يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادة رضوا لأنفسهم بأن يكونوا بمنزلة البهائم بل كيلا ينظر الناس إليهم بعين الحقارة، وهؤلاء الأصناف لا يحصون وكلهم محجوبون عن الله بمحض الظلمة وهى نفوسهم المظلمة، ولا معنى لذكر آحاد الفرق بعد وقوع التنبيه على الأجناس، ويدخل فى جملة هؤلاء جماعة يقولون

بلسانهـم لا إله إلا الله ولكن ربما حمله على ذلك خـوف، أو استظهار بالمسـلمين أو تجمل بهم، أو استـمـداد من مـالهم، أو لأجل التـعصب لنصـرة مـذهب الآباء، وهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة علـى العمل الصالح فلا تخرجهم من الـظلمات إلى النور بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات فأما من أثرت فـيه الكلمة بحيث ساءته سيئاته وسرته حسناته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية.

القسم الـثاني: طائفة حـجبوا بنور مـقرون بظلمة وهم ثلاثة أصـناف: صنف منشأ ظلمتهم من الحس، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيـال، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة.

الصنف الأول: المحجـوبون بالظلمة الحـسية وهم طوائف لا يخلـو واحد منهم عن مجاوزة الالتفات إلى نفسه وعن التأله والتشوق إلى معرفة ربه، وأول درجاتهم عبدة الأوثان وآخرهم الثنوية وبينهما درجات.

الطائفـة الأولى: عـبدة الأوثان علمـوا في الجـملة أن لهم ربًّا يلزمهم إيـثاره على نفوسهم المظلمة واعتقدوا أن ربهم أعز من كل شيء وأنفس من كل نفيس، ولكن حجبتهم ظلمـة الحس عن أن يتجـاوزوا المحسـوس من أنفس الجوهر كـالذهب والفضـة واليـاقوت أشخاصًا مصورة بأحسن الصور واتخذوها آلهـة، فهؤلاء محجوبون بنور العزة والجمال من صفات الله وأنـواره، ولكنهم ألصقوها بالأجسـام المحسوسة وصـدهم عن ذلك النور ظلمة الحس، فإن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحاني كما سبق.

الطائفة الثانية: جماعـة من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولا شريعة يعـتقدون أن لهم ربًّا وأنه أجمل الأشـياء وإذا رأوا إنسـانًا في غاية الجمـال أو شجـرًا أو فرسًا أو غـير ذلك سجدوا له وقـالوا إنه ربنا، وهؤلاء محجوبون بنور الجمـال مع ظلمة الحس وهم أدخل في ملاحـظة النور من عبـدة الوثان لأنهم يعبـدون الجمـال المطلق دون الشخـص الخاص ولا يخـصصـونه بشخص دون شـخص ثم يعـبدون الجـمال المطبـوع لا المصنوع من جـهتـهم وبأيديهم.

الطائفة الثالثة: قالوا ينبغي أن يكون ربنا نورانيًا في ذاته، بهيًّا في صورته ذا سلطان في نفسـه، مهيبًـا في حضرته لا يطاق القرب مـنه، ولكن ينبغي أن يكون محسـوسًا إذ لا معنى لغير المحـسوس عندهم، ثم وجدوا النار بهذه الصفة فـعبدوها واتخذوها ربًّا فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء، وكل ذلك من أنوار الله تعالى.

الطائفة الرابعة: زعموا أن الـنار نستولي نحن عليهـا بالاشتعال والإطفـاء فهي تحت تصرفنا فـلا تصلح للإلهية بل مايـكون بتلك الصفة أعني السلطنة والبـهاء، ثم نكون نحن

تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفًا بالعلو والارتفاع، ثم كان المشهور فيما بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها، فمنهم من عبد الشعرى، ومنهم من عبد المشترى إلى غير ذلك من الكواكب بحسب ما اعتقدوه فى النجوم من كثرة التأثيرات، فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراق والاستيلاء وهى أنوار الله تعالى.

الطائفة الخامسة: ساعدت هؤلاء فى المأخذ، ولكن قالت لا ينبغى أن يكون ربّنا موسومًا بالصغر والكبر بالإضافة إلى الجواهر النورانية. بل ينبغى أن يكون أكبرها فعبدوا الشمس إذ قالوا هى أكبر. فهؤلاء محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مقرونًا بظلمة الحواس.

الطائفة السادسة: ترقوا من هؤلاء فقالوا النور كله لا تنفرد به الشمس بل لغيرها أيضًا أنوار، ولا ينبغى أن يكون للرب شريك فى نورانيته فعبدوا النور المطلق الجامع لجميع الأنوار. وزعموا أنه رب العالمين والخيرات كلها منسوبه إليه، ثم رأوا فى العالم شرورًا فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيهًا له عن الشر فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم إلى النور والظلمة وربما سموها: (يزدان واهرمن) وهم الثنوية فيكفيك هذا القدر تنبيهًا على هذا الصنف فهم أكثر من ذلك.

الصنف الثانى: المحجوبون ببعض الأنوار مقرونًا بظلمة الخيال وهم الذين جاوزوا الحس وأثبتوا وراء المحسوسات أمرًا، لكنهم لم يمكنهم مجاوزة الخيال فعبدوا موجودًا قاعدًا على العرش وأخسهم رتبة المجسمة، ثم أصناف الكرامية بأجمعهم، ولا يمكننى شرح مقالاتهم ومذاهبهم فلا فائدة للتكثير، ولكن أرفعهم درجة من نفى الجسمية وجميع عوارضها إلا الجهة المخصوصة بجهة فوق لأن الذى لا ينسب إلى الجهة ولا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لم يكن عندهم موجودًا، إذ لم يكن متخيلاً ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوز النسبة إلى الجهات والحيزة.

الصنف الثالث: المحجوبون بالأنوار الإلهية مقرونة بمقاسات عقلية فاسدة مظلمة فعبدوا إلهًا سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا مريدًا حيًّا منزهًا عن الجهات، لكنهم فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم، وربما صرح بعضهم، فقال كلامه حروف وأصوات ككلامنا، وربما ترقى بعضهم فقال: لا بل هو كحديث نفسنا ولا حرف ولاصوت، وكذلك إذا طولبوا بحقيقة السمع والبصر والحياة رجعوا إلى التشبيه من حيث المعنى وإن أنكروها باللفظ إذ لم يدركوا أصلاً معانى هذه الإطلاقات فى حق الله تعالى، ولذلك قالوا فى إرادته إنها حادثة مثل إرادتنا وإنه طلب وقصد مثل قصدنا، وهذه مذاهب مشهورة فلا حاجة إلى تفصيلها. وهؤلاء محجوبون بجملة من أنوار مع ظلمة المقايسات العقلية الفاسدة، فهؤلاء كلهم أصناف القسم الثانى الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة.

القسم الثالث: هم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف ولا يمكن إحصاؤهم فأشير إلى ثلاثة أصناف منهم:

الصنف الأول: عرفوا معنى الصفات تحقيقًا وأدركوا أن إطلاق اسم الكلام والإرادة والقدرة والعلم وغيرها على صفاته ليس مثل إطلاقه على البشر، فتحاشوا عن تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة إلى المخلوقات كما عرف موسى فى جواب قول فرعون: وما رب العالمين؟ فقالوا: إن الرب المقدس عن معانى هذه الصفات محرك السموات ومدبرها.

الصنف الثانى: ترقوا عن هؤلاء من حيث ظهر لهم أن فى السموات كثرة، وأن محرك كل سماء خاصة موجود آخر يسمى ملكًا فيهم كثرة، وإنما نسبهم إلى الأنوار الإلهية نسبة الكواكب فى الأنوار المحسوسة، ثم لاح لهم أن هذه السموات فى ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته فى اليوم والليلة مرة، فالرب هو المحرك للجرم الأقصى المحتوى على الأفلاك كلها إذ الكثرة منفية عنه.

الصنف الثالث: ترقوا عن هؤلاء وقالوا: إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغى أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة له وطاعة من عبد من عبيده يسمى ملكًا نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر إلى الأنوار المحسوسة، فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك، ويكون الرب تعالى وجد محركًا للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة، ثم فى تفهيم ذلك الأمر وماهيته غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ولا يحتمله هذا الكتاب، فهؤلاء أصناف كلهم محجوبون بالأنوار المحضة، وإنما الواصلون صنف رابع تجلى لهم أيضًا أن هذا المطاع موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر ليس يحتمل هذا الكتاب كشفه، وأن نسبة الجمر إلى جوهر النار الصرف فتوجهوا من الذى يحرك السموات ومن الذى أمر بتحريكها، فوصلوا إلى موجود، منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم إذ وجدوه منزهًا ومقدسًا عن جميع ما وصفناه من قبل، ثم هؤلاء انقسموا:

فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره وانمحق وتلاشى ولكن بقى هو ملاحظًا للجمال والقدس وملاحظًا ذاته فى جماله الذى ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية، فانمحقت فيه المبصرات دون المبصر، وجاوز هؤلاء طائفة منهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه الأعلى وغشيهم سلطان الجلال وانمحقوا وتلاشوا فى ذاتهم، ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم، ولم يبقَ إلا الواحد الحق وصار معنى قوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. لهم ذوقًا وحالاً، وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل الأول وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه فهذه نهاية الواصلين.

منهم من لم يتدرج فى الترقى والعروج عن التفصيل الذى ذكرناه، ولم يطل عليه العروج فسبقوا من أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه

فغلب عليهم أولاً ما غلب على الآخرين آخراً، وهجم عليهم التجلى دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسى أو بصيرة عقلية، ويشبه أن يكون الأول طريق الخليل، والثانى طريق الحبيب صلوات الله وسلامه عليهما، والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما.

فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ولا يبعد أن يبلغ عددهم إذا فصلت المقامات وتتبع حجب السالكين سبعين ألفًا، ولكن إذا فتشت لا تجد واحدًا منهم خارجًا عن الأقسام التى ذكرناها، فإنهم إما يحتجون بصفاتهم البشرية أو بالحس أو بالخيال وبمقايسة العقل أو بالنور المحض كما سبق.

فهذا ما حضرنى فى جواب هذه الأسئلة مع أن السؤال صادفنى ، والفكر منقسم، والخاطر متشعب، والهم إلى غير ذلك الفن منصرف، ومقترحى عليه أن تسأل لى العفو عما طغى به القلم أو زلت به القدم. فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطيرة، واستكشاف الأنوار العلوية من وراء الحجب غير يسير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الطير

ذكر العنقاء

اجتمعت أصناف الطيور على اختلاف أنواعها وتباين طباعها، وزعمت أنه لا بدّ لها من ملك: واتفقوا أنه لا يصلح لهذا الشأن إلا العنقاء وقد وجدوا الخبر عن استيطانها فى مواطن الغرب وتقررها فى بعض الجزائر فجمعتهم داعية الشوق وهمة الطلب فصمموا العزم على النهوض إليها، والاستظلال بظلها، والمثول بفنائها، والاستسعاد بخدمتها، فتناشدوا وقالوا:

قُومُوا إِلى الدَّارِ مِنْ لَيْلى نُحَيِّيهَا
نعم ونَسْأَلُهم عَنْ بَعْضِ أَهْلِيهَا

وإذا الأشواق الكامنة قد برزت من كمين القلوب وزعمت بلسان الطلب، بأى نواحى الأرض أبغى وصالكم، وأنتم ملوك ما لمقصدهم نحو.

وإذا هم بمنادى الغيب ينادى من وراء الحجب: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. لازموا أماكنكم ولا تفارقوا مساكنكم، فإنكم إن فارقتم أوطانكم، ضاعفتم أشجانكم، فدونكم والتعرض للبلاء والتحلل بالفناء:

إن السـلامـة مـن سـعـدى وجـارتـهـا
أن لا تحل علـى حـال بـواديـهـا

فلما سمعوا نداء التعذر من جناب الجبروت ما ازدادوا إلا شوقًا وقلقًا وتحيرًا وأرقًا، وقالوا من عند آخرهم:

وَلَـوْ دَاوَاكَ كُـلُّ طَـبِـيـب إنـس
بِغَـيْـرِ كَـلامِ لَيلى مـا شـفـاكـا

وزعموا:

إنَّ المحبَّ الَّـذى لا شَىْءَ يُـقْـنِـعُـه
أو يَسْـتَـقِـرّ وَمَـنْ يهْـوى به الـدارُ

ثم نادى لهم الحنين، ودب فيـهم الجنون، فلم يتلعثمـوا فى الطلب اهتزازًا منهم إلى بلوغ الأرب. فقيل لهم: بين أيـديكم المهامة الفيح والجبـال الشاهقة والبحار المغـرقة وأماكن القر ومساكن الحر، فـيوشك أن تعجزوا دون بلوغ الأمنية فتختـرمكم المنية، فالأحرى بكم مساكنة أوكار الأوطار قبل أن يستدرجكم الطمع، وإذا هم لا يصغون إلى هذا القول، ولا يبالون، بل رحلوا وهم يقولون:

فـريـدٌ عـن الخـلاَّن فى كـلِّ بـلـدة
إذا عَـظُـمَ المطـلوبُ قَـلَّ المُسَـاعِـدُ

فامـتطى كل منهم مطية الهمـة قد ألجمـها بلجام الشوق وقـوَّمها بقـوام العشق وهو يقول:

انْـظُرْ إلـى نَاقَـتِـى فِى سَـاحَـة الـوادى
شَـديـدة بِالـسّـرى مـن تَحْـتِ مـيَّـادِ
إذَا اشْـتَـكَتْ مِنْ كَـلالِ الـبَـيْنِ أوْعَـدَهَا
رُوحُ القُـدومُ فَـتَـحْـيَـا عِنْدَ مِـيـعَـادى
لَـهَـا بِوَجْـهِكْ نُـورٌ تسـتـضِىءُ بـه
وَفِـى نَوَالِـكَ مِنْ أَعْـقَـابِـهـا حَـادى

فرحلوا من محجة الاختبار، فـاستدرجتهم بحد الاضطرار، فهلك من كان من بلاد الحر فى بلاد البرد، ومات من كان من بلاد البرد فـى بلاد الحر، وتصرفت فيهم الصواعق. وتحكمت عليهم العواصف حتى خلصت منهم شرذمة قليلة إلى جزيرة الملك، ونزلوا بفنائه واستظلوا بجـنابه، والتمسـوا من يخبر عـنهم الملك وهو فى أمنع حصن من حـمى عزه، فأخـبر بهم فتقـدم إلى بعض سكان الحضرة أن يسـألهم: ما الذى حملهم على الحـضور؟

فقالوا: حضرنا ليكون مليكنا، فقيل لهم: أتعبتم أنفسكم فنحن الملك شئتم أو أبيتم، جئتم أو ذهبتم، لا حاجة بنا إليكم، فلما أحسوا بالاستغناء والتعذر أيسوا وخجلوا وخابت ظنونهم فتعطلوا فلما شملتهم الحيرة، وبهرتهم العزة، قالوا لا سبيل إلى الرجوع فقد تخاذلت القوى وأضعفنا الجوى، فليتنا تركنا فى هذه الجزيرة لنموت عن آخرنا، وأنشئوا يقولون هذه الأبيات:

أَسُكّان رامة هَلْ مِنْ قِرى
فَقَدْ دفعَ اللَّيلُ ضيفًا قنوعا
كَفَاهُ مِنَ الزَّاد إن تمهدوا
لهُ نَظَراً وكَلامًا وسيعا

هذا وقد شملهم الداء، وأشرفوا على الفناء، ولجئوا إلى الدعاء:

ثَمل نَتَشَاوى بِكَأس الغرام
فَكُلٌّ غَدَا لأخيه رَضيعا

فلما عمّهم اليأس، وضاقت بهم الأنفاس تداركتهم أنفاس الإيناس وقيل لهم: هيهات فلا سبيل إلى اليأس، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون، فإن كان كمال الغنى يوجب التعزز والرد فجمال الكرم أوجب السماحة والقبول، فبعد أن عرفتم مقداركم فى العجز عن معرفة قدرنا فحقيق بنا إيواؤكن فهو دار الكرم ومنزل النعم. فإنه يطلب المساكين الذين رحلوا عن مساكنة الحسبان ولولاه لما قال سيد الكل وسابقهم: «أحينى مسكينًا» ومن استشعر عدم استحقاقه فحقيق بالملك العنقاء أن يتخذه قرينًا، فلما استأنسوا بعد أن استيأسوا، وانتعشوا بعد أن تعبسوا ووثقوا بفيض الكرم واطمأنوا إلى درور النعم سألوا عن رفقائهم فقالوا: ما الخبر عن أقوام قطعت بهم المهامة والأودية، أمطلول دماؤهم أم لهم دية؟ فقيل: هيهات هيهات: ﴿**وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ**﴾ [النساء: ١٠٠]. اجتبتهم أيادى الاجتباء بعد أن أبادتهم سطوة الابتلاء: ﴿**ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء**﴾ [البقرة: ١٥٤]. قالوا: فالذين غرقوا فى لجج البحار، ولم يصلوا إلى الدار ولا إلى الديار بل التقمتهم لهوات التيار. قيل: هيهات ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ**﴾ [آل عمران: ١٦٩]. فالذى جاء بهم وأمهاتهم أحياهم، والذى وكّل بكم داعية الشوق حتى استقللتم العناء والهلاك فى أريحية الطلب دعاهم وحملهم وأدناهم وقربهم، فهم حجب

العزة وأستار القدرة: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥]. قالوا: فهل لنا إلى مشاهدتهم سبيل؟ قيل: لا، فإنكم فى حجاب العزة وأستار البشرية، وأسر الأجل وقيده، فإذا قضيتم أوطاركم وفارقتم أوكاركم، فعند ذلك تزاورتم وتلاقيتم، قالوا: والذين قعد بهم اللؤم والعجز فلم يخرجوا؟ قيل: هيهات ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٦]. ولو أردناهم لدعوناهم ولكن كرهناهم فطردناهم. أنتم بأنفسكم جئتم أم نحن دعوناكم؟ أنتم اشتقتم أم نحن شوقناكم؟ نحن أقلقناكم فحملناكم وحملناهم فى البر والبحر، فلما سمعوا ذلك واستأنسوا بكمال العناية وضمان الكفاية كمل اهتزازهم وتم وثوقهم فاطمأنوا واستقبلوا حقائق اليقين بدقائق التمكين، وفارقوا بدوام الطمأنينة إمكان التلوين، ولتعلمن نبأه بعد حين.

فصل

أترى هل كان بين الراجع إلى تلك الجزيرة وبين المتبدئ من فرق؟ إنما قال: جئنا ملكنا من كان مبتدئًا، أما من كان راجعًا إلى عيشه الأصلى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. فرجع لسماع النداء كيف يقال له لم جئت؟ فيقول: لم دعيت لا بل فيقول لم حملت إلى تلك البلاد وهى بلاد القربة، والجواب على قدر السؤال، والسؤال على قدر التفقُّه، والهموم بقدر الهمم.

فصل

من يرتاع لمثل هذه النكت فليجدد العهد بطور الطيرية، وأريحية الروحانية، فكلام الطيور لا يفهمه إلا من هو من الطيور، وتجديد العهد بملازمة الوضوء، ومراقبة أوقات الصلاة، وخلوة ساعة للذكر فهو تجديد العهد الحلو فى غفلة لا بدّ من أحد الطريقين، فاذكرونى أذكركم، أو نسوا الله فنسيهم. فمن سلك سبيل الذكر أنا جليس من ذكرنى، ومن سلك النسيان: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وابن آدم فى كل نفس مصحح أحد هاتين النسبتين ولا بد يتلوه يوم القيامة أحد السيماءين. أمَا يعرف المجرمون بسيماهم أو الصالحون بسيماهم فى وجوهم من أثر السجود، أنقذك الله بالتوفيق، وهداك إلى التحقيق، وطوى لك الطريق، إنه بذلك حقيق. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين آمين.

الرسالة الوعظية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الرسالة

لقد بلغنى عن لسان من أثق به سيرة الشيخ الإمام الزاهد -حرس الله توفيقه وسمره فى مهم دينه- ما قوى رغبتى فى مؤاخاته فى الله تعالى رجاء لما وعد الله به عباده المتحابين. وهذه الأخوة لا تستدعى مشاهدة الأشخاص وقرب الأبدان، وإنما تستدعى قرب القلوب وتعارف الأرواح وهى جنود مجندة فإذا تعارفت ائتلفت، وها أنا عاقد معه الأخوة فى الله تعالى ومقترح عليه أن لا يخلينى عن دعوات فى أوقات خلوته، وأن يسأل الله تعالى أن يرينى الحق حقًا، ويرزقنى اتباعه، وأن يرينى الباطل باطلاً، ويرزقنى اجتنابه، ثم قرع سمعى أنه التمس منى كلامًا فى معرض النصح والوعظ. وقولاً وجيزًا فيما يجب على المكلف اعتقاده من قواعد العقائد.

وعظ النفس

أما الوعظ، فلست أرى نفسى أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة، وفاقد النور كيف يستنير به غيره (ومتى يستقيم الظل والعود أعوج) وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم ﷺ: **«عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى»**، وقال نبينا ﷺ: **«تَرَكْتُ فِيكُمْ وَاعِظَيْنِ نَاطِقٌ وَصَامِتٌ»**.

فالناطق هو القرآن والصامت هو الموت وفيهما كفاية لكل متعظ ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره، ولقد وعظت بهما نفسى فصدقت وقبلت قولاً وعقلاً، وأبت وتمردت تحقيقًا وفعلاً فقلت لنفسى: أما أنت مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق، وأنه الناصح الصادق، فإنه كلام الله المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ فقال: نعم. قال الله تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [هود: ١٥، ١٦]. فقد وعدك الله تعالى بالنار على إرادة الدنيا، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا، فهل تنزهت عن إرادة الدنيا أو حبها، ولو أن طبيبًا نصرانيًا وعدك بالموت أو المرض على تناولك ألذ الشهوات لتحاشيتها واتقيتها. أكان النصرانى عندك أصدق من الله تعالى؟ فإن كان ذلك فما أكفرك. أو كان المرض أشد عندك من النار، فإن كان ذلك فما أجهلك، فصدقت ثم ما انتفعت بل أصررت على الميل إلى

العاجلة واستمررت، ثم أقبلت عليها فوعظتها بالواعظ الصامت فقلت: قد أخبر الناطق عن الصامت إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]. وقلت لها: هبى أنك ملت إلى العاجلة أفلست مصدقة بأن الموت لا محالة آتيك وقاطع عليك كل ما أنت متمسكة به وسالب منك كل ما أنت راغبة فيه وكل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥، ٢٠٧]. أفأنت مخرجة هذا عن جميع ما أنت فيه؟ والحر الحكيم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها. واللائم يتمسك بها إلى أن يخرج من الدنيا خائبًا خاسرًا متحسرًا، فقال: صدقت، فكان ذلك منها قولاً لا تحصيل وراءه إذ لم تجتهد قط فى التزود للآخرة كاجتهادها فى تدبير العاجل، ولم تجتهد قط فى رضاء الله تعالى كاجتهادها فى رضاها بل كاجتهادها فى طلب الخلق، ولم تستح قط من الله تعالى كما تستحى من واحد من الخلق، ولم تشمر للاستعداد للآخرة كتشميرها فى الصيف، فإنها لا تطمئن فى أوائل الشتاء ما لم تفرغ من جميع ما تحتاج إليه من آلاته مع أن الموت ربما يختطفها، والشتاء لا يدركها، والآخرة على يقين لايتصور أن يختطف منها، وقلت لها: ألا تستعدين للصيف بقدر طوله وتصنعين آلة الصيف بقدر صبرك على الحر؟ قالت: نعم. قلت: فاعصى الله بقدر صبرك على النار واستعدى للآخرة بقدر بقائك فيها. فقالت: هذا هو الواجب الذى لا يرخص فى تركه إلا الأحمق، ثم استمرت على سجيتها فوجدتنى كما قال بعض الحكماء: إن فى الناس من يموت نصفه ولاينزجر نصفه الآخر، وما أرانى إلا منهم، ولما رأيتها متمادية فى الطغيان غير منتفعة بوعظ الموت والقرآن. رأيت أهم الأمور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها، فإن ذلك من العجائب العظيمة، فطال عليه تفتيشى حتى وقفت على سببه. وها أنا مؤنس وإياه بالحذر منه. فهو الداء العضال وهو السبب الداعى إلى الغرور والإهمال. وهو اعتقاد تراخى الموت واستبعاد هجومه على القرب. فإنه لو أخبره صادق فى بياض نهاره أنه يموت فى ليلته أويموت إلى أسبوع أو أشهر، لاستقام على الطريق المستقيم. ولترك جميع ما هو فيه مما يظن أنه مما يتعاطاه لله تعالى ومغرور فيه فضلاً عما يعلم أنه ليس لله تعالى، فانكشف تحقيقًا أن من أصبح وهو يأمل أن يمسى أو أمسى وهو يأمل أن يصبح لم يخل من الفتور والتسويف، ولم يقدر إلا على سير ضعيف. فأوصيه ونفسى بما أوصى به رسول الله ﷺ حيث قال: «صَلِّ صَلاةَ مُوَدِّع»، ولقد أُوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب. ولا ينتفع بوعظ إلا به، فمن غلب على قلبه فى كل صلاة أنها آخر صلاته، حضر معه قلبه فى الصلاة وتيسر له الاستعداد بعد

الصلاة. ومن عجز عن ذلك فلا يزال فى غفلة دائمة وغرور مستمر، وتسويف متتابع إلى أن يدركه الموت فتدركه حسرة الفوت، وأنا مقترح عليه أن لا يسأل الله تعالى أن يرزقنى هذه الرتبة فإنى طالب لها، وقاصر عنها، وأوصيه أن لا يرضى من نفسه إلا بها، وأن يحذر من مواقع الغرور، فإذا وعدت النفس بذلك طالبها بموثق غليظ من الله تعالى، فإن خداع النفس لا يقف عليه إلا الأكياس.

وأما أقل ما يجب اعتقاده على المكلف فهو ما يترجمه قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم إذا صدق الرسول فينبغى أن يصدقه فى صفات الله تعالى فإنه حى قادر عالم متكلم مريد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير وليس عليه بحث عن حقيقة هذه الصفات. وأن الكلام والعلم وغيرهما قديم أو حادث، بل لو لم تخطر له هذه المسألة حتى مات مؤمنًا وليس عليه تعلم الأدلة التى حررها المتكلمون. بل كلما حصل فى قلبه التصديق بالحق. بمجرد الإيمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن، ولم يكلف رسول الله ﷺ أكثر من ذلك. وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرت الأعراب وعوام الخلق إلا من وقع فى بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل مقدم الكلام وحدوثه ومعنى الاستواء والنزول وغيره فإن لم يأخذ ذلك قلبه وبقى مشغولاً بعبادته وعمله فلا حرج عليه وإن أخذ ذلك بقلبه فأقل الواجبات عليه ما اعتقده السلف فيعتقد فى القرآن القدم، كما قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، ويعتقد أن الاستواء حق والسؤال عنه مع الاستغناء بدعة، والكيفية فيه مجهولة. فيؤمن بجميع ما جاء به الشرع إيمانًا مجملاً من غير بحث عن الحقيقة والكيفية، فإن لم ينفعه ذلك وغلب على قلبه الإشكال والشك فإن أمكن إزالة شكه وإشكاله بكلام قريب من الإفهام. وإن لم يكن قويًّا عند المتكلمين ولا مرضيًّا عندهم، فذلك كاف ولا حاجة به إلى تحقيق الدليل، بل الأولى أن يزال إشكاله من غير برهان حقيقة الدليل، فإن الدليل لا يتم إلا بدرك السؤال الجواب عنه، ومهما ذكرت الشبهة فلا يبعد أن ينكر بقلبه ويكل فهمه عن درك جوابه إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقًا لا يحتمله عقله. ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن الكلام. وإنما زجروا عنه لضعفاء العوام.

وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الإشكال ومنع الكلام للعوام يجرى مجرى منع الصبيان من شاطئ نهر دجلة خوفًا من الغرق، ورخصة الأقوياء فيه تضاهى رخصة الماهر فى صنعة السباحة، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم، وهو أن كل ضعيف فى عقله -راض من الله تعالى فى كمال عقله- يظن بنفسه أنه يقدر على إدراك الحقائق كلها وأنه من جملة الأقوياء فربما يخوضون فيغرقون فى بحر الجهات حيث لا يشعرون، فالصواب للخلق كلهم إلا الشاذ النادر الذى لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم

أو اثنين سلوك مسلك السلف فى الإيمان بالرسل والتصديق المجمل بكل ما نزله الله تعالى وأخبر به رسوله من غير بحث وتفتيش عن الأدلة، بل الاشتغال بالتقوى عليه شغل شاغل إذ قال ﷺ حيث رأى أصحابه يخوضون بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه: «**أبهذا أمرتم تضربون كتاب الله بعضه ببعض انظروا ما أمركم الله به فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا**». فهذا تنبيه على المنهج الحق، واستيفاء ذلك شرحناه فى كتاب (قواعد العقائد) فيطلب منه والسلام.

إلجام العوام عن علم الكلام

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله الذى تجلى لكافة عباده بصفاته وأسمائه وتاهت عقول الطالبين فى بيداء كبريائه، وقص أجنحة الأفكار دون حمى عزته وتعالى بجلاله عن أن تدرك الأفهام كنه حقيقته. واستوفى قلوب أوليائه وخاصته واستغرق أرواحهم حتى احترقوا بنار محبته وبهتوا فى إشراق أنوار عظمته، وخرست ألسنتهم عن الثناء على جمال حضرته إلا بما أسمعهم من أسمائه وصفاته وأنبأهم على لسان رسوله محمد ﷺ خير خليقته وعلى أصحابه وعترته.

أما بعد: فقد سألتنى أرشدك الله عن الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال حيث اعتقدوا فى الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار، وما يجرى مجراه مما أخذوه من ظواهر الأخبار وصورها، وأنهم زعموا أن معتقدهم فيه معتقد السلف، وأردت أن أشرح لك اعتقاد السلف، وأن أبين ما يجب على عموم الخلق أن يعتقدوه فى هذه الأخبار، وأكشف فيه الغطاء عن الحق، وأميز ما يجب البحث عنه عما يجب الإمساك والكف عن الخوض فيه، فأجبتك إلى طلبتك متقربًا إلى الله سبحانه وتعالى بإظهار الحق الصريح من غير مداهنة ومراقبة جانب ومحافظة على تعصب لمذهب دون مذهب، فالحق أولى بالمراقبة، والصدق والإنصاف أولى بالمحافظة عليه، وأسأل الله التسديد والتوفيق وهو بإجابة داعية حقيق، وها أنا أرتب الكتاب على ثلاثة أبواب:

باب فى بيان حقيقة مذهب السلف فى هذه الأخبار.

وباب فى البرهان على الحق فيه مذهب السلف وأن من خالفهم فهو مبتدع.

وباب فى فصول متفرقة نافعة فى هذا الفن.

الباب الأول

فى شرح اعتقاد السلف فى هذه الأخبار.

اعلم: أن الحق الصريح الذى لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعنى مذهب الصحابة والتابعين وها أنا أورد بيانه وبيان برهانه.

فأقول: حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور: التقديس، ثم التصديق، ثم اعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفة.

أما التقديس: فأعنى به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها.

وأما التصديق: فهو الإيمان بما قاله ﷺ وإن ما ذكره حق وهو فيما قاله صادق وأنه حق على الوجه الذى قاله وأراده.

وأما الاعتراف بالعجز: فهو أن يقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته.

وأما السكوت: فأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم أن سؤاله عنه بدعة، وأنه فى خوضه فيه مخاطر بدينه، وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر.

وأما الإمساك: فأن لا يتصرف فى تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة.

وأما الكف: فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه.

وأما التسليم لأهله: فأن لا يعتقد أن ذلك إن خفى عليه لعجزه فقد خفى على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء أو على الصديقين والأولياء، فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام لاينبغى أن يظن بالسلف الخلاف فى شئ منها، فلنشرحها وظيفة وظيفة إن شاء الله تعالى:

الوظيفة الأولى: التقديس ومعناه أنه إذا سمع اليد والإصبع وقوله ﷺ: «**إنَّ الله خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِه. وَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمنِ**»، فينبغى أن يعلم أن اليَدَ تطلق لمعنيين أحدهما هو الموضع الأصلى وهو عضو مركب من لحم وعصب، واللحم والعظم والعصب جسم مخصوص وصفات مخصوصة أعنى بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو إلا بأن يتنحى عن ذلك المكان، (وقد يستعار هذا اللفظ) أعنى اليد لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلاً كما يقال: البلدة فى

يد الأمير فإن ذلك مفهوم وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلاً فعلى العامى وغير العامى أن يتحقق قطعًا ويقينًا أنَّ رسول الله ﷺ لم يرد بذلك جسمًا هو عضو مركب من لحم ودم وعظم، وأن ذلك فى حق الله تعالى محال وهو عنه مقدس، فإن خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضائه فهو عابد صنم فإن كل جسم فهو مخلوق، وعبادة المخلوق كفر، وعبادة الصنم كانت كفرًا لإنه مخلوق، وكان مخلوقًا لأنه جسم فمن عبد جسمًا فهو كافر بإجماع الأئمة السلف منهم والخلف. سواء كان ذلك الجسم كثيفًا كالجبال الصم الصلاب، أو لطيفًا كالهواء والماء، وسواء كان مظلمًا كالأرض أو مشرقًا كالشمس والقمر والكواكب. أو مشفًا لا لون له كالهواء، أو عظيمًا كالعرش والكرسى والسماء، أو صغيرًا كالذرة والهباء، أو جمادًا كالحجارة، أو حيوانًا كالإنسان. فالجسم صنم فإن يقدر حسنه وجماله أو عظمه أو صغره أو صلابته وبقاؤه لا يخرج عن كونه صنمًا، ومن نفى الجسمية عنه وعن يده وإصبعه فقد نفى العضوية واللحم والعصب وقدس الرب جل جلاله عما يوجب الحدوث، وليعتقد بعده أنه عبارة عن معنى من المعانى ليس بجسم ولا عرض فى جسم يليق ذلك المعنى بالله تعالى، فإن كان لا يدرى ذلك المعنى ولايفهم كنه حقيقته فليس عليه فى ذلك تكليف أصلاً، فمعرفة تأويله ومعناه ليس بواجب عليه بل واجب عليه أن لا يخوض فيه كما سيأتى.

مثال آخر: إذا سمع الصورة فى قوله ﷺ: «**إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَته**»، «**وإنّى رَأَيْتُ ربِّى فى أَحْسَنِ صُورَة**» فينبغى أن يعلم أن الصورة اسم مشترك قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة فى أجسام مؤلَّفة مرتبة ترتيبًا مخصوصًا مثل الأنف والعين والفم والخد التى هى أجسام وهى لحوم وعظام، وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة فى جسم ولا هو ترتيب فى أجسام. كقولك عرف صورته وما يجرى مجراه، فليتحقق كل مؤمن أن الصورة فى حق الله لم تطلق لإرادة المعنى الأول الذى هو جسم لحمى وعظمى مركب من أنف وفم وخد، فإن جميع ذلك أجسام وهيئات فى أجسام، وخالق الأجسام والهيئات كلها منزه عن متشابهتها وصفاتها، وإذا علم هذا يقينًا فهو مؤمن فإن خطر له أنه إن لم يرد هذا المعنى فما الذى أراده فينبغى أن يعلم أن ذلك لم يؤمر به بل أمر بأن لا يخوض فيه فإنه لبس على قدر طاقته، لكن ينبغى أن يعتقد أنه أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته بما ليس بجسم ولا عرض فى جسم.

مثال آخر: إذا قرع سمعه النزول فى قوله ﷺ: «**يَنْزلُ الله تَعَالى فى كُلِّ لَيْلَة إلى السَّماء الدُّنْيا**». فالواجب عليه أن يعلم أن النزول اسم مشترك قد يطلق إطلاقًا يفتقر فيه إلى ثلاثة أجسام: جسم عال هو مكان لساكنه، وجسم سافل كذلك، وجسم منتقل من السافل

إلى العالى ومن العالى إلى السافل، فإن كان من أسفل إلى علو سمى صعودًا وعروجًا ورقيًّا، وإن كان من علو إلى أسفل سمى نزولاً وهبوطًا، وقد يطلق على معنى آخر ولا يفتقر فيه إلى تقدير انتقال وحركة فى جسم، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ﴾ [الزمر: ٦]. وما رئى البعير والبقر نازلاً من السماء بالانتقال بل هى مخلوقة فى الأرحام ولإنزالها معنى لا محالة، كما قال الشافعى ﷺ: دخلت مصر فلم يقيموا كلامى، فنزلت ثم نزلت ثم نزلت فلم يرد به انتقال جسده إلى أسفل فتحقق المؤمن قطعًا أن النزول فى حق الله تعالى ليس بالمعنى الأول وهو انتقال شخص وجسد من علو إلى أسفل، فإن الشخص والجسد أجسام والرب جل جلاله ليس بجسم فإن خطر له أنه لم يرد هذا فما الذى أراد فيقال له: أنت إذا عجزت عن فهم نزول البعير من السماء فأنت عن فهم نزول الله تعالى أعجز، فليس هذا بعشك فادرجى، واشتغل بعبادتك أو حرفتك واسكت، واعلم أنه أريد به معنى من المعانى التى يجوز أن يراد بالنزول فى لغة العرب. ويليق ذلك المعنى بجلال الله تعالى وعظمته وإن كنتَ لا تعلم حقيقته وكيفيته.

ومثال آخر: إذا سمع لفظ الفوق فى قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ [الأنعام:١٨].

وفى قوله تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل: ٥٠]. فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين.

أحدهما: نسبة جسم إلى جسم بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل يعنى أن الأعلى من جانب رأس الأسفل وقد يطلق لفوقية الرتبة، وبهذا المعنى يقال: الخليفة فوق السلطان والسلطان فوق الوزير، وكما يقال: العلم فوق العلم، والأول يستدعى جسمًا ينسب إلى جسيم.

والثانى: لا يستدعيه فليعتقد المؤمن قطعًا أن الأول غير مراد وأنه على الله تعالى محال، فإنه من لوازم الأجسام أو لوازم أعراض الأجسام وإذا عرف نفى هذا المحال فلا عليه إن لم يعرف أنه لماذا أطلق وماذا أريد فقس على ما ذكرناه ما لم نذكره.

الوظيفة الثانية: الإيمان والتصديق وهو أنه يعلم قطعًا أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته، وأن رسول الله ﷺ صادق فى وصف الله تعالى به، فليؤمن بذلك وليوقن بأن ما قاله صدق وما أخبر عنه حق لا ريب فيه وليقل آمنا وصدقنا ، وأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله فهو كما وصفه وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله، وإن كنت لا تقف على حقيقته فإن قلت التصديق إنما يكون بعد التصور، والإيمان إنما يكون بعد التفهم، فهذه الألفاظ إذا لم يفهم العبد معانيها كيف يعتقد

صدق قائلها فيها؟ فجوابك أن التصديق بالأمور الجميلة ليس بمحال وكل عاقل يعلم أنه أريد بهذه الألفاظ معان، وأن كل اسم فله مسمى إذا نطق به من أراد مخاطبة قوم قصد ذلك المسمى فيمكنه أن يعتقد كونه صادقًا مخبرًا عنه على ما هو عليه، فهذا معقول على سبيل الإجمال، بل يمكن أن يفهم من هذه الألفاظ أُمور جميلة غير مفصلة، ويمكن التصديق كما إذا قال فى البيت حيوان أمكن أن يصدق دون أن يعرف أنه إنسان أو فرس أوغيره، بل لو قال فيه شئ أمكن تصديقه وإن لم يعرف ما ذلك الشيء، فكذلك من سمع الاستواء على العرش فهم على الجملة أنه أريد بذلك نسبة خاصة إلى العرش فيمكنه التصديق قبل أن يعرف أن تلك النسبة هى نسبة الاستقرار عليه أوالإقبال على خلقه أو الاستيلاء عليه بالقهر أو معنى آخر من معانى النسبة فأمكن التصديق به، وإن قلت فأى فائدة فى مخاطبة الخلق بما لا يفهمون وجوابك أنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله وهم الأولياء والراسخون فى العلم وقد فهموا، وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين، ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه، وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شأنكم ولستم من أصله فخوضوا فى حديث غيره فقد قيل للجاهل: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ [النحل: ٤٣]. فإن كانوا يطيقون فهموهم وإلا قالوا لهم: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥]. فلا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، ما لكم ولهذا السؤال. هذه معان الإيمان بها واجب والكيفية مجهولة أى لكم، والسؤال عنها بدعة كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب، فإذًا الإيمان بالجمليات التى ليست مفصلة فى الذهن ممكن ولكن تقديسه الذى هو نفى للمحال عنه ينبغى أن يكون مفصلاً، فإن المنفى هى الجسمية ولوازمها ونعنى بالجسم هاهنا الشخص المقدر الطويل العريض العميق، الذى يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو الذى يدفع ما يطلب مكانه إن كان قويًّا ويندفع ويتنحى عن مكانه بقوة دافعة إن كان ضعيفًا، وإنما شرحنا هذا اللفظ مع ظهوره لأن العامى ربما لا يفهم المراد به.

الوظيفة الثالثة: الاعتراف بالعجز ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعانى وحقيقتها ولم يعرف تأويلها والمعنى والمراد به أن يقر العجز، فإن التصديق واجب وهو عن دركة عاجز، فإن ادعى المعرفة فقد كذب وهذا معنى قول مالك: الكيفية مجهولة، يعنى تفصيل المراد به غير معلوم، بل الراسخون فى العلم والعارفون من الأولياء إن جاوزوا فى المعرفة حدود العوام وجالوا فى ميدان المعرفة وقطعوا من بواديها أميالاً كثيرة فما بقى لهم مما لم يبلغوه بين أيديهم أكثر بل لا نسبة لما طوى عنهم إلى ما كشف لهم لكثرة المطوى وقلة

المكشوف بالإضافة إليه والإضافة إلى المطوى المستور. قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه: **«لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»**. وبالإضافة إلى المكشوف، قال صلوات الله عليه: **«أعرفكم بالله أخوفكم لله وأنا أعرفكم بالله»**. ولأجل كون العجز والقصور ضروريًا فى آخر الأمر بالإضافة إلى منتهى الحال قال سيد الصديقين: العجز عن درك الإدراك إدراك، فأوائل حقائق هذه المعانى بالإضافة إلى عوام الخلق كأواخرها بالإضافة إلى خواص الخلق، فكيف لا يجب عليه الاعتراف بالعجز!.

الوظيفة الرابعة: السكوت عن السؤال وذلك واجب على العوام لأن بالسؤال متعرض لما لا يطيقه وخائض فيما ليس أهلاً له، فإن سأل جاهلاً زاده جوابه جهلاً وبما ورطه فى الكفر من حيث لا يشعر، وإن سأل عارفًا عجز العارف عن تفهيمه بل عجز عن تفهيم ولده مصلحته فى خروجه إلى المكتب، بل عجز الصائغ عن تفهيم النجار دقائق صناعته، فإن النجار وإن كان بصيرًا بصناعته فهو عاجز عن دقائق الصياغة لأنه إنما يعلم دقائق النجر لاستغراقه العمر فى تعلمه وممارسته، فكذلك يفهم الصائغ الصياغة أيضًا لصرف العمر إلى تعلمه وممارسته وقبل ذلك لا يفهمه فالمشغولون بالدنيا وبالعلوم التى ليست من قبيل معرفة الله عاجزون عن معرفة الأمور الإلهية عجز كافة المعرضين عن الصناعات عن فهمها، بل عجز الصبى الرضيع عن الاعتذار بالخبز واللحم لقصور فى فطرته لا لعدم الخبز واللحم ولا لأنه قاصر على تغذية الأقوياء، لكن طبع الضعفاء قاصر عن التغذى به فمن أطعم الصبى الضعيف اللحم والخبز وأمكنه من تناوله فقد أهلكه، وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال هذه المعانى يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرة كما كان يفعله عمر رضي الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات، وكما فعله رسول الله ﷺ فى الإنكار على قوم رآهم خاضوا فى مسألة القدر وسألوا عنه، فقال ﷺ: **«فَبِهذا أُمِرْتُمْ»** وَقَالَ: **«إنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ»** أو لفظ هذا معناه كما اشتهر فى الخبر. ولهذا أقول يحرم على الوعاظ على رءوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض فى التأويل والتفصيل، بل الواجب عليهم الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف، وهو المبالغة فى التقديس ونفى التشبيه وأنه تعالى منزه عن الجسمية وعوارضها وله المبالغة فى هذا بما أراد حتى يقول: كل ما خطر ببالكم وهجس فى ضميركم وتصور فى خاطركم فإنه تعالى خالقها وهو منزه عنها وعن مشابهتها وأن ليس المراد بالأخبار شيئًا من ذلك، وأما حقيقة المراد فلستم من أهل معرفتها والسؤال عنها، فاشتغلوا بالتقوى فما أمركم الله تعالى به فافعلوه ومانهاكم عنه فاجتنبوه وهذا قد نهيتم عنه فلا تسألوا عنه ومهما سمعتم شيئًا من ذلك فاسكتوا وقولوا: آمنا وصدقنا وما أوتينا من العلم إلا قليلاً، وليس هذا من جملة ما أوتيناه.

الوظيفة الخامسة: الإمساك عن التصرف فى ألفاظ واردة يجب على عموم الخلق الجمود على ألفاظ هذه الأخبار والإمساك عن التصرف فيها من ستة أوجه: التفسير، والتأويل، والتصرف، والتفريع، والجمع، والتفريق.

الأول: التفسير وأعنى به تبديل اللفظ بلغة أُخرى يقوم مقامها فى العربية أو معناها بالفارسية أو التركية، بل لا يجوز النطق إلا باللفظ الوارد لأن من الألفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقها. ومنها ما يوجد لها فارسية تطابقها لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعانى التى جرت عادة العرب باستعارتها منها. ومنها ما يكون مشتركًا فى العربية ولا يكون فى العجمية كذلك.

أما الأول: مثاله لفظ الاستواء فإنه ليس له فى الفارسية لفظ مطابق يؤدى بين الفرس من المعنى الذى يؤديه لفظ الاستواء بين العرب بحيث لايشتمل على مزيد إيهام إذ فارسيته أن يقال: «راستا باستان» وهذان لفظان: الأول: ينبئ عن انتصاب واستقامة فيما يتصور أن ينحنى ويعوج. والثانى: ينبئ عن سكون وثابت فيما يتصور أن يتحرك ويضطرب وإشعاره بهذه المعانى وإشارته إليها فى العجمية أظهر من إشعار لفظ الاستواء وإشارته إليها، فإذا تفاوت فى الدلالة والإشعار لم يكن هذا مثل الأول وإنما تجوز تبديل اللفظ بمثله المرادف له الذى لا يخالفه بوجه من الوجوه لا بما يباينه أو يخالفه ولو بأدنى شئ وأدقه وأخفاه.

ومثال الثانى: أن الأصبع يستعار فى لسان العرب للنعمة يقال لفلان عندى أصبع أى نعمة ومعناها بالفارسية انكشفت وما جرت عادة العجم بهذه الاستعارة، وتوسع العرب فى التجوز والاستعارة أكثر من توسع العجم بل لا نسبة لتوسع العرب إلى جمود العجم، فإذا أحسن إرادة المعنى المستعار له فى العرب وسمج ذلك فى العجم نفر القلب عما سمج ومجه السمع ولم يمل إليه، فإذا تفاوتا لم يكن التفسير تبديلاً بالمثل بل بالخلاف ولا يجوز التبديل إلا بالمثل.

مثال الثالث: العين فإن من فسره بأظهر معانيه، فيقول هو جسم وهو مشترك فى لغة العرب بين العضو الناصر وبين الماء والذهب والفضة، وليس اللفظ اسم وهو مشترك هذا الاشتراك وكذلك لفظ الجنب والوجه يقرب منه، فلأجل هذا نرى المنع من التبديل والاقتصار على العربية، فإن قيل: هذا التفاوت إن ادعيتموه فى جميع الألفاظ فهو غير صحيح إذ لا فرق بين قولك خبز ونان وبين قولك لحم وكوشت، وإن اعترف بأن ذلك فى البعض فامنع من التبديل عند التفاوت لا عند التماثل، فالجواب الحق أن التفاوت فى البعض لا فى الكل فلعل لفظ اليد ولفظ دست يتساويان فى اللغتين وفى الاشتراك

والاستعارة وسائر الأمور ولكن إذا انقسم إلى ما يجوز وإلى ما لا يجوز وليس إدراك التمييز بينهما والوقوف على دقائق التفاوت جليًا سهلاً يسيرًا على كافة الخلق بل يكثر فيه الإشكال ولا يتميز محل التفاوت عن محل التعادل، فنحن بين أن نحسم الباب احتياطًا إذ لا حاجة ولا ضرورة إلى التبديل وبين أن نفتح الباب ونقحم عموم الخلق ورطة الخطر، فليت شعرى أى الأمرين أعزم وأحوط، والمنظور فيه ذات الإله وصفاته وما عندى أن عاقلاً متدينًا لا يقر بأن هذا الأمر مخطر، فإن الخطر فى الصفات الإلهية يجب اجتنابه. كيف وقد أوجب الشرع على الموطوءة العدة لبراءة الرحم وللحذر من خلط الأنساب احتياطًا لحكم الولاية والوراثة وما يترتب على النسب، فقالوا مع ذلك تجب العدة على العقيم والآيسة والصغيرة وعند العزل، لأن باطن الأرحام إنما يطلع عليه علام الغيوب فإنه يعلم ما فى الأرحام، فلو فتحنا باب النظر إلى التفصيل كنا راكبين متن الخطر فإيجاب العدة حيث لا علوق أهون من ركوب هذا الخطر، فكما أن إيجاب العدة حكم شرعى فتحريم تبديل العربية حكم شرعى عن ثبت بالاجتهاد وترجيح طريق الأول، ويعلم أن الاحتياط فى الخبر عن الله وعن صفاته وعما أراده بألفاظ القرآن أهم وأولى من الاحتياط فى العدة وكل ما احتاط به الفقهاء من هذا القبيل.

أما التصرف الثانى: التأويل، وهو بيان معناه بعد إزالة ظاهره وهذا إما يقع من العامى نفسه، أو من العارف مع العامى، أو من العارف مع نفسه وبينه وبين ربه، فهذه ثلاثة مواضع.

الأول: تأويل العامى على سبيل الاشتغال بنفسه وهو حرام يشبه خوض البحر المغرق ممن لا يحسن السباحة. ولاشك فى تحريم ذلك، وبحر معرفة الله أبعد غورًا وأكثر معاطب ومهالك من بحر الماء، لأن هلاك هذا البحر لا حياة بعده وهلاك بحر الدنيا لا يزيل إلا الحياة الفانية وذلك يزيل الحياة الأبدية فشتان بين الخطرين.

الموضع الثانى: أن يكون ذلك من العالم مع العامى وهو أيضًا ممنوع، ومثاله: أن يجر السباح الغواص فى البحر مع نفسه عاجزًا عن السباحة مضطرب القلب والبدن وذلك حرام لأنه عرضة لخطر الهلاك فإنه لايقوى على حفظه فى لجة البحر، وإن قدر على حفظه فى القرب من الساحل ولو أمره بالوقوف بقرب الساحل لا يطيعه، وإن أمره بالسكون عند التطام الأمواج وإقبال التماسيح وقد فغرت فاها للالتقام اضطرب قلبه وبدنه ولم يسكن على حسب مراده لقصور طاقته، وهذا هو المثال الحق للعالم إذا فتح للعامى باب التأويلات والتصرف فى خلاف الظواهر، وفى معنى العوام الأديب والنحوى والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم بل كل عالم سوى المتجردين لعلم السباحة فى بحار المعرفة القاصرين أعمارهم

عليه، الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات، المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات، المخلصين لله تعالى فى العلوم والأعمال، بجميع حدود الشريعة وآدابها فى القيام بالطاعات وترك المنكرات، المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله تعالى لله، المستحقرين للدنيا بل الآخرة والفردوس الأعلى فى جنب محبة الله تعالى، فهؤلاء هم أهل الغوص فى بحر المعرفة وهم مع ذلك كله على خطر عظيم يهلك من العشرة تسعة إلى أن يسعد واحد بالدر المكنون والسر المخزون، أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى فهم الفائزون: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩].

الموضع الثالث: تأويل العارف مع نفسه فى سر قلبه بينه وبين ربه وهو على ثلاثة أوجه، فإن الذى انقدح فى سره أن المراد من لفظ الاستواء والفوق مثلاً إما أن يكون مقطوعًا به أو مشكوكًا فيه أو مظنونًا ظنًّا غالبًا. فإن كان قطعيًّا فليعتقده، وإن كان مشكوكًا فليجتنبه ولا يحكمن على مراد الله ورسوله ﷺ من كلامه باحتمال يعارضه مثله من غير ترجيح، بل الواجب على الشاك التوقف، وإن كان مظنونًا فاعلم أن للظن متعلقين: أحدهما: أن المعنى الذى انقدح عنده هل هو جائز فى حق الله تعالى أم هو محال؟ والثانى: أن يعلم قطعًا جوازه لكن تردد فى أنه هل هو مراده أم لا؟

مثال الأول: تأويل لفظ الفوق بالعلو المعنوى الذى هو المراد بقولنا: السلطان فوق الوزير، فإنا لانشك فى ثبوت معناها لله تعالى لكنا ربما نتردد فى أن لفظ الفوق فى قوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]. هل أريد به العلو المعنوى أم أريد به معنى آخر يليق بجلال الله تعالى دون العلو بالمكان الذى هو محال على ما ليس بجسم ولا هو صفة فى جسم.

ومثال الثانى: تأويل لفظ الاستواء على العرش، بأنه أراد به النسبة الخاصة التى للعرش ونسبته أن الله تعالى يتصرف فى جميع العالم ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض بواسطة العرش فإنه لا يحدث فى العالم صورة ما لم يحدثه فى العرش، كما لا يحدث النقاش والكاتب صورة وكلمة على البياض ما لم يحدثه فى الدماغ. بل لا يحدث البناء صورة الأبنية ما لم يحدث صورتها فى الدماغ، فبواسطة الدماغ يدبر القلب أمر عالمه الذى هو بدنة فربما نتردد فى أنّ إثبات هذه النسبة للعرش إلى الله تعالى هل جائز، إما لوجود فى نفسه أو لأنه أجرى به سنته وعادته وإن لم يكن خلافه محالاً كما أجرى عادته فى حق قلب الإنسان بأن لا يمكنه التدبير إلا بواسطة الدماغ، وإن كان فى قدرة الله تعالى تمكينه منه دون الدماغ لو سبقت به إرادته الأزلية وحقت به الكلمة القديمة التى هى علمه فصار خلافه ممتنعًا لا لقصور فى ذات القدرة لكن لاستحالة ما يخالف الإرادة القديمة والعلم السابق

الأزلى، ولذلك قال: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢، الفتح: ٢٣]. وإنما لا تتبدل لوجوبها وإنما وجوبها لصدورها عن إرادة أزلية واجبة، ونتيجة الواجب واجبة ونقيضها محال وإن لم يكن محالاً فى ذاته، ولكنه محال لغيره وهو إفضاؤه إلى أن ينقلب العلم الأولى جهلاً ويمنع نفوذ المشيئة الأزلية، فإذاً إثبات هذه النسبة لله تعالى مع العرش فى تدبير المملكة بواسطته إن كان جائزًا عقلاً، فهل واقع وجودًا؟ هذا مما قد يتردد فيه الناظر وربما يظن وجوده هذا مثال الظن فى نفس المعنى، والأول مثال الظن فى كون المعنى مرادًا باللفظ مع كون المعنى فى نفسه صحيحًا جائزًا وبينهما فرقان، لكن كل واحد من الظنين إذا انقدح فى النفس وحاك فى الصدر فلا يدخل تحت الاختبار دفعة عن النفس ولا يمكنه أن يظن، فإن للظن أسبابًا ضرورية لايمكن دفعها ولا يكلف الله نفسًا إلاوسعها، لكن عليه وظيفتان:

إحداهما: أن لايدع نفسه تطمئن إليه جزمًا من غير شعور بإمكان الغلط فيه، ولا ينبغى أن يحكم من نفسه بموجب ظنه حكمًا جازمًا.

والثاني: أنه إن ذكره لم يطلق القول بأن المراد بأن بالاستواء كذا، أو المراد بالفوق كذا، لأنه حكم بما لا يعلم، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. لكن يقول: أنا أظن أنه كذا فيكون صادقًا فى خبره عن نفسه وعن ضميره، ولا يكون حكمًا على صفة الله ولا على مراده بكلامه، بل حكمًا على نفسه ونبأ عن ضميره، فإن قيل: وهل يجوز ذكر هذا الظن مع كافة الخلق والتحدث به كما اشتمل ضميره، وكذلك لو كان قاطعًا، فهل له أن يتحدث به؟ قلنا: تحدثه به إنما يكون على أربعة أوجه: فإما أن يكون مع نفسه أو مع من هو مثله فى الاستبصار أو مع من هو مستعد للاستبصار بذكائه وفطنته وتجرده لطلب معرفة الله تعال، أو مع العامى فإن كان قاطعًا فله أن يحدث نفسه به ويحدث من هو مثله فى الاستبصار أو من هو متجرد لطلب المعرفة مستعد له خال عن الميل إلى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام. فمن اتصف بهذه الصفات فلا بأس بالتحدث معه لأن الفطن المتعطش إلى المعرفة للمعرفة لا لغرض آخر يحيك فى صدره أشكال الظواهر وربما يلقيه فى تأويلات فاسدة لشدة شرهه على الفرار عن مقتضى الظواهر ومنع العلم أهله -علم- كبثه إلى غير أهله، وأما العامى فلا ينبغى أن يحدث به وفى معنى العامى كل من لا يتصف بالصفات المذكورة، بل مثاله ما ذكرناه من إطعام الرضيع الأطعمة القوية التى لا يطيقها.

وأما المظنون فتحدثه مع نفسه اضطرار فإن ما ينطوى عليه الذهن من ظن وشك وقطع لا زالت النفس تتحدث به ولا قدرة على الخلاص منه، فلا منع منه ولاشك فى منع التحدث

به مع العـوام، بل هو أولى بالمنع من المقطوع. أمـا تحدثه مع من هو فى مـثل درجتـه فى المعرفة أو مع المستـعد له ففيه نظر، فيحتـمل أن يقال هو جائز ولا يزيد على أن يقول أظن كذا وهو صادق، ويحتمل المنع لأنه قادر على تركه وهو بذكره متصرف بالظن فى صفة الله تعالى أو فى مـراده من كلامه وفـيه خطر، وإباحته تعـرف بنص أو إجماع أو قـياس على منصـوص ولم يرد شىء من ذلك بل ورد قوله تعـالى: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦]. فإن قيل يدل على الجواز ثلاثة أمور:

الأول: الدليل الذى دل على إباحة الصدق وهو صادق، فإنه ليس يخبر إلا عن ظنه وهو ظان.

والثانى: أقاويل المفسرين فى القرآن بالحدس والظن، إذ كل ما قالوه غير مسموع من الرسول ﷺ، بل هو مستنبط بالاجتهاد ولذلك كثرت الأقاويل وتعارضت.

والثالث: اجماع التـابعين على نقل الأخبار المتشـابهة التى نقلها آحاد الـصحابة ولم تتواتر، ومـا اشتـمل عليه الصحـيح الذى نقله العدل عن العـدل فإنهم جـوزوا روايته ولا يحصل بقول العدل إلا الظن.

والجواب عن الأول: أن المباح صدق لا يخشى منه ضرر، وبث هذه الظنون لا يخلو عن ضرر فقد يسمـعه من يسكن إليه ويعتقده جزمًا فيحكم فى صـفات الله تعالى بغير علم وهو خطر والنفـوس نافرة عن أشكال الظواهر، فـإذا وجد مـستـروحًا من المعنى ولـو كان مظنونًا سكن إليه واعتقد جزمًا، وربما يكون غلطًا فيكون قد اعتقد فى صفات الله تعالى ما هو الباطل أو حكم عليه فى كلامه بما لم يرد به.

وأما الثانى: وهو أقاويل المفسرين بالظن فلا نسلم ذلك فيما هو من صفات الله تعالى كالاستواء والفوق وغيره، بل لعل ذلك فى الأحكام الفـقهية أو فى حكايات أحوال الأنبياء والكفار والمواعظ والأمثال وما لا يعظم خطر الخطأ فيه.

وأما الثالث: فقد قال قائلون لا يجوز أن يعتمده فى هذا الباب إلا ما ورد فى القرآن أو تواتر عن الرسول ﷺ تواترًا يفيد الـعلم. فأما أخبار الآحـاد، فلا يقبل فيـه ولا نشتغل بتأويله عند من يميل إلى التأويل، ولا بروايتـه عند من يقتصر على الرواية، لأن ذلك حكم بالمظنون واعتمـاد عليه، وما ذكروه ليس ببـعيد لكنه مخالف لظاهـر ما درج عليه السلف، فإنهم قبلوا هذه الأخبار من العدول ورووها وصححوها فالجواب من وجهين:

أحدهـما: أن التـابعين كانوا قـد عرفـوا من أدلة الشرع أنه لا يجـوز اتهام الـعدل بالكذب لا سيما فى صفات الله تعالى، فإذا روى الصديق ﷺ خبرًا، وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا فرد روايته تكذيب له ونسبـة له إلى الوضع أو إلى السهو فقبلوه وقالوا:

قال أبو بكر، قال رسول الله ﷺ قال أنس قال رسول الله ﷺ وكذا في التابعين، فالآن إذا ثبت عندهم بأدلة الشرع أنه لاسبيل إلى اتهام العدل التقي من الصحابة ﷺ أجمعين، فمن أين يجب أن لا يتهم ظنون الآحاد وأن ينزل الظن منزلة نقل العدل مع أن بعض الظن إثم. فإذا قال الشارع: ما أخبركم به العدل فصدقوه واقبلوه وانقلوه واظهروه فلا يلزم من هذا أن يقال ما حدثتكم به نفوسكم من ظنونكم فاقبلوه واظهروه وارووا عن ظنونكم وضمائركم ونفوسكم ما قالته، فليس هذا في معنى المنصوص، ولهذا تقول ما رواه غير العدل من هذا الجنس ينبغي أن يعرض عنه ولا يروى ويحتاط فيه أكثر مما يحتاط في المواعظ والأمثال وما يجري مجراها.

والجواب الثاني: أن تلك الأخبار روتها الصحابة لأنهم سمعوه يقينًا فما نقلوا إلا تيقنوه والتابعون قبلوه ورووه، وما قالوا: قال رسول الله ﷺ كذا، بل قالوا: قال فلان قال رسول الله ﷺ كذا وكانوا صادقين ، وما أهملوا روايته لاشتمال كل حديث على فوائد سوى اللفظ الموهم عند العارف معنًى حقيقيًّا يفهمه منه ليس ذلك ظنيًّا في حقه. مثال رواية الصحابي عن رسول الله ﷺ قوله: «**ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له**»، الحديث. فهذا الحديث سيق لنهاية الترغيب في قيام الليل وله تأثير عظيم في تحريك الدواعي للتهجد الذي هو أفضل العبادات، فلو ترك هذا الحديث لبطلت هذه الفائدة العظيمة ولا سبيل إلى إهمالها وليس فيه إلا إيهام لفظ النزول عند الصبي، والعامي الجاري مجرى الصبي، وما أهون على البصير أن يغرس في قلب العامي التنزيه والتقديس عن صورة النزول بأن يقول له: إن كان نزوله إلى السماء الدنيا ليسمعنا نداءه وقوله فما أسمعنا فأي فائدة في نزوله، ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا، فهذا القدر يعرف العامي أن ظاهر النزول باطل بل مثاله أن يريد من في المشرق إسماع شخص في المغرب ومناداته، فيتقدم إلى المغرب بأقدام معدودة وأخذ يناديه وهو يعلم أنه لا يسمع، فيكون نقله الأقدام عملاً باطلاً وفعلاً كفعل المجانين، فكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل، بل يضطر بهذا القدر كل عامي إلى أن يتيقن نفي صورة النزول، وكيف وقد علم استحالة الجسمية عليه واستحالة الانتقال على غير الأجسام كاستحالة النزول من غير انتقال، فإذًا الفائدة في نقل هذه الأخبار عظيمة والضرر يسير، فأنى يساوي هذا حكاية الظنون المنقدحة في الأنفس، فهذه سبل تجاذب طرق الاجتهاد في إباحة ذكر التأويل المظنون أو المنع، ولا يبعد ذكر وجه ثالث وهو أن ينظر إلى قرائن حال السائل والمستمع، فإن علم أنه ينتفع به ذكره، وإن علم أنه يتضرر تركه، وإن ظن أحد الأمرين كان ظنه كالعالم في إباحة الذكر، وكم من إنسان لا تتحرك داعيته باطنًا إلى معرفة هذه المعاني ولا يحيك في نفسه إشكال من ظواهرها، فذكر

التأويل معه مشوش، وكم من إنسان يحيك فى نفسه إشكال الظاهر حتى يكاد أن يسوء اعتقاد فى الرسول ﷺ وينكر قوله الموهم، فمثل هذا لو ذكر معه الاحتمال المظنون بل مجرد الاحتمال الذى ينبو عنه اللفظ انتفع به ولا بأس بذكره معه فإنه دواء لدائه، وإن كان داء فى غيره، ولكن لا ينبغى أن يذكر على رءوس المنابر لأن ذلك يحرك الدواعى الساكنة من أكثر المستمعين، وقد كانوا عنه غافلين وعن إشكاله منفكين، ولما كان زمان السلف الأول زمان سكون القلب بالغوا فى الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعى وتشويش القلوب، فمن خالفهم فى ذلك الزمان فهو الذى حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك فى القلوب مع الاستغناء عنه فباء بالإثم. أما الآن وقد فشا ذلك فى بعض البلاد فالعذر فى إظهار شئ من ذلك رجاء لإماطة الأوهام الباطلة عن القلوب أظهر واللوم عن قائله أقل فإن قيل فقد فرقتم بين التأويل المقطوع والمظنون فبماذا يحصل القطع بصحة التأويل؟ قلنا بأمرين:

أحدهما: أن يكون المعنى مقطوعًا ثبوته لله تعالى كفوقية المرتبة.

الثانى: أن لا يكون اللفظ محتملاً إلا لأمرين وقد بطل أحدهما وتعين الثانى مثاله قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٨]. فإنه إن ظهر فى وضع اللسان أن الفوق لا يحتمل إلا فوقية المكان أو فوقية الرتبة، وقد بطل فوقية المكان لمعرفة التقديس لم يبق إلا فوقية الرتبة كما يقال: السيد فوق العبد، والزوج فوق الزوجة، والسلطان فوق الوزير، فالله فوق عباده بهذا المعنى وهذا كالمقطوع به فى لفظ الفوق وأنه لا يستعمل لسان العرب إلا فى هذين المعنيين، أما لفظ الاستواء إلى السماء وعلى العرش ربما لا ينحصر مفهومه فى اللغة هذا الانحصار، وإذا تردد بين ثلاثة معان معنيان جائزان على الله تعالى ومعنى واحد وهو الباطل، فتنزيله على أحد المعنيين الجائزين أن يكون بالظن وبالاحتمال المجرد وهذا تمام النظر فى الكف عن التأويل.

التصريف الثالث: الذى يجب الإمساك عنه التصريف، ومعناه أنه إذا ورد قوله تعالى: ﴿**اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ . فلا ينبغى أن يقال مستو ويستوى، لأن المعنى يجوز أن يختلف لأن دلالة قوله هو مستو على العرش على الاستقرار أظهر من قوله: ﴿**رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الرعد: ٢]. بل هو كقوله: ﴿**خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ [البقرة: ٢٩]. فإن هذا يدل على استواء قد انقضى من إقبال على خلقه أو على تدبير المملكة بواسطته، ففى تغيير التصاريف ما يوقع فى تغيير الدلالات والاحتمالات، فليجتنب التصريف كما يجتنب الزيادة فإن تحت التصرف الزيادة والنقصان.

التصرف الرابع: الذى يجب الإمساك عنه القياس والتفريع مثل:أن يرد لفظ اليد فلا يجوز إثبات الساعد والعضد والكف مصيرًا إلى أن هذا من لوازم اليد، وإذا ورد الأصبع لم يجز ذكرالأنملة كما لا يجوز ذكر اللحم والعظم والعصب، وإن كانت اليد المشهورة لا تنفكّ عنه وأبعد من هذه الزيادة إثبات الرجل عند ورود اليد، وإثبات الفم عند ورود العين أو عند ورود الضحك، وإثبات الأذن والعين عند ورود السمع والبصر، وكل ذلك محال وكذب وزيادة، وقد يتجاسر بعض الحمقى من المشبهة الحشوية فلذلك ذكرناه.

التصرف الخامس: لا يجمع بين متفرق، ولقد بعد عن التوفيق من صنَّف كتابًا فى جمع الأخبارخاصة ورسم فى كل عضو بابًا فقال: باب فى إثبات الرأس وباب فى اليد إلى غير ذلك، وسماه: كتاب الصفات. فإن هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله ﷺ فى أوقات متفرقة متباعدة اعتمادًا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معانٍ صحيحة، فإذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الإنسان صار جمع تلك المتفرقات فى السمع دفعة واحدة عظيمة فى تأكيد الظاهر وإيهام التشبيه وصار الإشكال فى أن رسول الله ﷺ لما نطق بما يوهم خلاف الحق أعظم فى النفس وأوقع، بل الكلمة الواحدة يتطرق إليها الاحتمال، فإذا اتصل بها ثانية وثالثة ورابعة من جنس واحد صار متواليًا يضعف الاحتمال بالإضافة إلى الجملة، ولذلك يحصل من الظن بقول المخبرين وثلاثة ما لا يحصل بقول الواحد، بل يحصل من العلم القطعى بخبر التواتر ما لا يحصل بالآحاد ويحصل من وكل ذلك نتيجة الاجتماع إذ يتطرق الاحتمال إلى قول كل عدل وإلى كل واحدة من القرائن، فإذا انقطع الاحتمال أو ضعف فلذلك لايجوز جمع المفترقات.

التصرف السادس: التفريق بين المجتمعات فكما لا يجمع بين متفرقة فلا يفرق بين مجتمعة، فإن كل كلمة سابقة على كلمة أو لاحقة لها مؤثرة فى تفهم معناه مطلقًا ومرجحة الاحتمال الضعيف فيه، فإذا فرقت وفصلت سقطت دلالتها مثال قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٨]. لا تسلط على أن يقول القائل هو فوق، لأنه إذا ذكر القاهر قبله ظهر دلالة الفوق على الفوقية التى للقاهر مع المقهور وهى فوقية الرتبة ولفظ القاهر يدل عليه بل يجوز أن يقول وهو القاهر فوق غيره، بل ينبغى أن يقول فوق عباده لأن ذكر العبودية فى وصفه فى الله فوقه يؤكد احتمال فوقية السيادة إذ لا يحسن أن يقال زيد فوق عمر. وقبل أن يتبين تفاوتهما فى معنى السيادة والعبودية أو غلبة القهر أو نفوذ الأمر بالسلطنة أو بالأبوة أو بالزوجية، فهذه الأمور يغفل عنها العلماء فضلاً عن العوام، فكيف يسلط العوام فى مثل ذلك على التصرف بالجمع والتفريق والتأويل والتفسير وأنواع التغيير، ولأجل هذه الدقائق بالغ السلف فى الجمود والاقتصار على موارد التوفيق كما ورد

على الوجه الذى ورد وباللفظ الذى ورد والحق ما قالوه والصواب ما رأوه، فأهمّ المواضع بالاحتياط ما هو تصرف فى ذات الله وصفاته، وأحق المواضع بإلجام اللسان وتقييده عن الحريات فيما يعظم فيه الخطر وأى خطر أعظم من الكفر.

الوظيفة السادسة: فى الكف بعد الإمساك. وأعنى بالكف كف الباطن عن التفكير فى هذه الأمور، فذلك واجب عليه كما وجب عليه إمساك اللسان عن السؤال والتصرف، وهذا أثقل الوظائف وأشدها وهو واجب كما وجب على العاجز الزمن أن يخوض غمرة البحار، وإن كان يتقاضاه طبعه أن يغوص فى البحار ويخرج دررها وجواهرها، ولكن لا ينبغى أن تغره نفاسة جواهرها مع عجزه عن نيلها، بل ينبغى أن ينظر إلى عجزه وكثرة معاطبها ومهالكها ويتفكر أنه إن فاته نفائس البحار فما فاته إلا زيادات وتوسعات فى المعيشة وهو مستغن عنها، فإن غرق أو التقمه تمساح فإنه أصل الحياة. فإن قلت: إن لم ينصرف قلبه من التفكر والتشوف إلى البحث فما طريقه؟ قلت: طريقه أن يشغل نفسه بعبادة الله وبالصلاة وقراءة القرآن والذكر، فإن لم يقدر فبعلم آخر لا يناسب هذا الجنس من لغة أو نحو أو خط أو طب أو فقه، فإن لم يمكنه فبحرفة أوصناعة ولو الحراثة والحياكة، فإن لم يقدر فبلعب ولهو وكل ذلك خير له من الخوض فى هذا البحر البعيد غوره وعمقه العظيم خطره وضرره، بل لو اشتغل العامى بالمعاصى البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض في البحث عن معرفة الله تعالى، فإن ذلك غايته الفسق وهذا عاقبته الشرك ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء: ١١٦].

فإن قلت: العامى إذا لم تكن نفسه إلى الاعتقادات الدينية إلا بدليل، فهل يجوز أن يكون له الدليل فإن جوزت ذلك فقد رخصت له فى التفكر والنظر، وأى فرق بينه وبين غيره؟

الجواب: أنى أجوز له أن يسمع الدليل على معرفة الخالق ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم الآخر ولكن بشرطين: أحدهما: أن لا يزاد معه على الأدلة التى فى القرآن. والآخر: أن لا يمارى فيه مراءً ظاهرًا ولا يتفكر فيه إلا تفكرًا سهلاً جليًّا ولايمعن فى التفكر ولا يوغل غاية الإيغال فى البحث، وأدلة هذه الأمور الأربعة ما ذكر فى القرآن.

أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** ﴾ [يونس: ٣١]. وقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ**

بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٦ـ١٠]. وكقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ـ٣١]. وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦ - ١٦]. وأمثال ذلك هى قريب من خمسمائة آية جمعناها فى كتاب جواهر القرآن بها ينبغى أن يعرف الخلق جلال الله الخالق وعظمته لا بقول المتكلمين إن الأعراض حادثة، وإن الجواهر لا تخلو عن الأعراض الحادثة ثم الحارث يفتقر إلى محدث، فإن تلك التقسيمات والمقدمات وإثباتها بأدلتها الرسمية يشوش قلوب العوام، والدلالات الظاهرة القريبة من الأفهام على ما فى القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة.

وأما الدليل على الوحدانية فيقنع فيه بما فى القرآن من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإن اجتماع المدبرين سبب إفساد التدبير، وبمثل قوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وأما صدق الرسول فيستدل عليه بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. وبقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. وقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]. وأمثاله، وأما اليوم الآخر: فيستدل عليه بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وبقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦، ٤٠]. وبقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. وأمثال ذلك كثير فى القرآن، فلا ينبغى أن يزاد عليه.

فإن قيل: فهذه الأدلة التى اعتمدها المتكلمون وقرروا وجه دلالتها، فما بالهم يمتنعون عن تقرير هذه الأدلة ولا يمتنعون عنها، وكل ذلك مدرك بنظر العقل وتأمله فإن فتح للعامى باب النظر فليفتح مطلقًا أو ليسد عليه طريق النظر رأسًا وليكلف التقليد من غير دليل.

الجواب: إن الدلالة تنقسم إلى ما يحتاج فيه إلى تفكر وتدقيق خارج عن طاقة العامى وقدرته، وإلى ما هو جلى سابق إلى الأفهام ببادئ الرأى من أول النظر مما يدركه

كافة الناس بسهولة، فهذا لا خطر فيه، وما يفتقر إلى التدقيق فليس على حد وسعه، فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس وتستضر به الأكثرون، بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع والرجل القوى وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أُخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً، ولهذا قلنا أدلة القرآن أيضًا ينبغى أن يصغى إليها إصغاء إلى كلام جلى ولا يمارى فى الإمراء ظاهرًا، ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر، فمن الجلى أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وأن التدبير لا ينتظم فى دار واحدة بمدبرين، فكيف ينتظم فى كل العالم؟ وأن من خلق علم كما قال تعالى: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤]. فهذه الأدلة تجرى للعوام مجرى الماء الذى جعل الله منه كل شئ حى، وما أخذه المتكلمون وراء ذلك من تنقير وسؤال وتوجيه إشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره فى حق أكثر الخلق ظاهر، فهو الذى ينبغى أن يتوقى. والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك، ويدل عليه أيضًا أن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمعهم ما سلكوا فى المحاجة مسلك المتكلمين فى تقسماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك، فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ولخاضوا فى تحرير الأدلة خوضًا يزيد على خوضهم فى مسائل الفرائض.

فإن قيل: إنما أمركوا عنه لقلة الحاجة، فإن البدع إنما نبغت بعدهم فعظم حاجة المتأخرين، وعلم الكلام راجع إلى علم معالجة المرضى بالبدع، فلما قلّت فى زمانهم أمراض البدع قلّت عنايتهم بجميع طرق المعالجة، فالجواب من وجهين.

أحدهما: أنهم فى مسائل الفرائض ما اقتصروا على بيان حكم الوقائع، بل وضعوا المسائل وفرضوا فيها ما تنقضى الدهور ولا يقع مثله لأن ذلك مما أمكن وقوعه فصنفوا علمه ورتبوه قبل وقوعه إذ علموا أنه لا ضرر فى الخوض فيه وفى بيان حكم الواقعة قبل وقوعها، والعناية بإزالة البدع ونزعها عن النفوس أهم فلم يتخذوا ذلك صناعة لأنهم عرفوا أن الاستضرار بالخوض فيه أكثر من الانتفاع، ولولا أنهم كانوا قد حذروا من ذلك وفهموا تحريم الخوض لخاضوا فيه.

والجواب الثانى: أنهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى فى إثبات نبوة محمد ﷺ، وإلى إثبات البعث مع منكريه، ثم ما زادوا فى هذه القواعد التى هى أمهات العقائد على أدلة القرآن، فمن أقنعه ذلك قبلوه ومن لم يقنع قتلوه وعدلوا إلى السيف

والسنان بعد إفشاء أدلة وما ركبوا ظهر اللجاج فى وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحريم طريق المجادلة وتذليل طرقها ومنهاجها، كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه إلا السيف والسنان، فما بعد بيان الله بيان على أننا ننصف ولا ننكر أن حاجة المعالجة تزيد بزيادة المرض وأن لطول الزمان وبعد العهد عن عصر النبوة تأثيراً فى إثارة الإشكالات وأن للعلاج طريقين:

أحدهما: الخوض فى البيان والبرهان إلى أن يصلح واحد يفسد به اثنان، فإن صلاحه بالإضافة إلى الأكياس وفساده بالإضافة إلى البله وما أقل الأكياس وما أكثر البله والعناية بالأكثر أولى.

الطريق الثانى: طريق السلف فى الكف والسكوت والعدول إلى الدرة والسوط والسيف، وذلك مما يقتنع الأكثرين وإن كان لا يقنع الأقلين، وآية إقناعه أن من يسترق من الكفار من العبيد والإماء تراهم يسلمون تحت ظلال السيوف ثم يستمرون عليه حتى يصير طوعًا ما كان فى البداية كرهًا، ويصير اعتقادًا جزمًا ما كان فى الابتداء مراءً وشكًا، وذلك بمشاهدة أهل الدين والمؤانسة بهم وسماع كلام الله ورؤية الصالحين وخبرهم وقرائن من هذا الجنس تناسب طباعهم مناسبة أشد من مناسبة الجدل والدليل، فإذا كان كل واحد من العلاجين يناسب قومًا دون قوم وجب ترجيح الأنفع فى الأكثر، فالمعاصرون للطبيب الأول المؤيد بروح القدس المكاشف من الحضرة الإلهية الموحى إليه من الخبير البصير بأسرار عباده وبواطنهم أعرف بالأصوب والأصلح قطعًا، فسلوك سبيلهم لا محالة أولى.

الوظيفة السابعة: التسليم لأهل المعرفة وبيان أنه يجب على العامى أن يعتقد أن ما انطوى عنه من معانى هذه الظواهر وأسرارها ليس منطويًا عن رسول الله ﷺ، وعن الصديق، وعن أكابر الصحابة، وعن الأولياء والعلماء الراسخين، وأنه إنما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته، فلا ينبغى أن يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين وليس ما يخلو عنه مخادع العجائز يلزم منه أن يخلو عنه خزائن الملوك، فقد خلق الناس أشتاتًا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر، فانظر إلى تفاوتها وتباعد ما بينهما صورة ولونًا وخاصية ونفاسة، فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف، فبعضها معدن النبوة والولاية والعمل ومعرفة الله تعالى، وبعضها معدن للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية، بل ترى الناس يتفاوتون فى الحرف والصناعات فقد يقدر الواحد بخفة يده وحذاقة صناعته على أُمور لا يطمع الآخر فى بلوغ أوائله فضلاً عن غايته، ولو اشتغل بتعلمه جميع عمره. فكذلك معرفة الله تعالى، بل كما ينقسم الناس إلى جبان عاجذ لا يطيق النظر إلى التطام أمواج البحر وإن كان على ساحله، وإلى من يطيق ذلك لكن لايطيق رفع الرجل عن

الأرض اعتمادًا على السباحة، وإلى من يطيق السباحة إلى حد قريب من الشط لكن لا يمكنه الخوض فى أطرافه وإن كان قائمًا فى الماء على رجله، وإلى من يطيق ذلك لكن لا يطيق خوض البحر إلى لجته والمواضع المغرقة المخطرة، وإلى من يطيق ذلك لكن لايطيق الغوص فى عمق البحر إلى مستقره الذى فيه نفائسه وجوهره، فهكذا مثال بحر المعرفة وتفاوت الناس فيه مثله حذو القذة بالقذة من غير فرق.

فإن قيل: فالعارفون محيطون بكمال معرفة الله سبحانه حتى لا ينطوى عنهم شئ.

قلنا: هيهات فقد بيَّنا بالبرهان القطعى فى كتاب المقصد الأقصى فى معانى أسماء الله الحسنى أنه لا يعرف الله كنه معرفته إلا الله، وأن الخلائق وإن اتسعت معرفتهم وغزر علمهم، فإذا أضيف ذلك إلى علم الله سبحانه فما أوتو من العلم إلا قليلاً، لكن ينبغى أن يعلم أن الحضرة الإلهية محيطة بكل ما فى الوجود إذ ليس فى الوجود إلا الله وأفعاله، فالكل من الحضرة الإلهية كما أن جميع أرباب الولايات فى المعسكر حتى الحراس هم من المعسكر فهم من جملة الحضرة السلطانية، وأنت لا تفهم الحضرة الإلهية إلا بالتمثيل إلى الحضرة السلطانية، فاعلم أن كل ما فى الوجود داخل فى الحضرة الإلهية، ولكن كما أن السلطان له فى مملكته قصر خاص وفى فناء قصره ميدان واسع ولذلك الميدان عتبة يجتمع عليها جميع الرعايا ولا يمكنون من مجاوزة العتبة ولا إلى طرف الميدان ثم يؤذن لخواص المملكة فى مجاوزة العتبة ودخول الميدان والجلوس فيه على تفاوت فى القرب والبعد بحسب مناصبهم، وربما لم يطرق إلى القصر الخاص إلا الوزير وحده، ثم إن الملك يطلع الوزير من أسرار ملكه على مايريد ويستأثر عنه بأمور لا يطلعه عليها، فكذلك فافهم على هذا المثال تفاوت الخلق فى القرب والبعد من الحضرة الإلهية، فالعتبة التى هى آخر الميدان موقف العوام ومردهم لا سبيل لهم إلى مجاوزتها، فإن جاوزوا حدهم استوجبوا الزجر والتنكيل، وأما العارفون فقد جاوزوا العتبة وانسرحوا فى الميدان ولهم فيه جولان على حدود مختلفة فى القرب والبعد وتفاوت ما بينهم كثير، وإن اشتركوا فى مجاوزة العتبة وتقدموا على العوام المفترشين. وإما حظيرة القدس فى صدر الميدان فهى أعلى من أن يطأها أقدام العارفين وأرفع من أن يمتد إليها أبصار الناظرين، بل لا يلمح ذلك الجناب الرفيع صغير وكبير إلا غض من الدهشة والحيرة طرفه فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، فهذا ما يجب على العامى أن يؤمن به جملة وإن لم يحط به تفصيلاً، فهذه الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق فى هذه الأخبار التى سألت عنها حقيقة مذهب السلف، وأما الآن فنشتغل بإقامة الدليل على أن الحق هو مذهب السلف.

الباب الثانى

فى إقامة البرهان على أن الحق مذهب السلف وعليه برهانان: عقلى وسمعى. أما العقلى فاثنان كلى وتفصيلى. أما البرهان الكلى على أن الحق مذهب السلف فينكشف بتسليم أربعة أُصول هى مسلمة عند كل عاقل.

الأول: أن أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد بالإضافة إلى حسن المعاد هو النبى ﷺ، فإن ما ينتفع به فى الآخرة أو يضر لا سبيل إلى معرفته بالتجربة، كما عرف الطبيب إذ لامجال للعلوم التجريبية إلا بما يشاهد على سبيل التكرر، ومن الذى رجع من ذلك العالم فأدرك بالمشاهدة ما نفع وضر وأخبر عنه ولا يدرك بقياس العقل، فإن العقول قاصرة عن ذلك، والعقلاء بأجمعهم معترفون بأن العقل لا يهتدى إلى ما بعد الموت ولا يرشد إلى وجه ضرر المعاصى ونفع الطاعات. لاسيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع بل أقروا بجملتهم أن ذلك لا يدرك إلا بنور النبوة وهى قوة وراء العقل يدرك بها من أمر الغيب فى الماضى والمستقبل أُمور لا على طريق التعرف بالأسباب العقلية، وهذا مما اتفق عليه الأوائل من الحكماء فضلاً عن الأولياء والعلماء والراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقربين بقصور كل قوة سوى هذه القوة.

الأصل الثانى: أنه ﷺ أفاض إلى الخلق ما أوحى إليه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم، وأنه ما كتم شيئًا من الوحى وأخفاه وطواه عن الخلق فإنه لم يبعث إلا لذلك، ولذلك كان رحمة للعالمين، فلم يكن منهما فيه وعرف ذلك علمًا ضروريًا من قرائن أحواله فى حرصه على إصلاح الخلق وشغفه بإرشادهم إلى صلاح معاشهم ومعادهم، فما ترك شيئًا مما يقرب الخلق إلى الجنة ورضاء الخالق إلا دلهم عليه وأمرهم به وحثهم عليه ولا شيئًا مما يقربهم إلى النار وإلى سخط الله إلا حذرهم منه ونهاهم عنه، وذلك فى العلم والعمل جميعًا.

الأصل الثالث: أن أعرف الناس بمعانى كلامه وأحراهم بالوقوف على كنهه ودرك أسرار الذين شاهدوا الوحى والتنزيل وعاصروه وصاحبوه، بل لازموه آناء الليل والنهار متشمرين لفهم معانى كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به أولاً، وللنقل إلى من بعدهم ثانيًا، وللتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره، وهم الذين حثهم رسول الله ﷺ على السماع والفهم والحفظ والأداء فقال: «**نَضَّرَ الله امْرأً سَمِعَ مَقَالَتِى فَوَعَاها فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**» الحديث. فليت شعرى أيتّهم رسول الله ﷺ بإخفائه وكتمانه عنهم حاشا منصب النبوة عن ذلك، أويتّهم أولئك الأكابر فى فهم كلامه وإدراك مقاصده أو

يتهمـون فى إخفائه وأسراره بعد الفـهم أو يتهمون فى معـاندته من حيث العمل ومخـالفته على سبيل المكابرة مع الاعتراف بتفهيمه وتكليفه. فهذه الأمور لايتسع لتقديرها عقل عاقل.

الأصل الرابع: أنهم فى طول عصرهم إلى آخر أعمـارهم ما دعوا الخلق إلى البحث والتفتـيش والتفسيـر والتأويل والتعرض لمثل هـذه الأمور بل بالغوا فى زجر من خـاض فيه وسأل عنه وتكـلم به على ما سنحكيـه عنهم، فلو كان ذلك من الدين أو كـان من مدارك الأحكام وعلم الدين لأقـبلوا عليه ليـلاً ونهاراً ودعوا إليـه أولادهم وأهليهم وتشـمروا عن ساق الجـد فى تأسيس أصوله وشـرح قوانينه تشمـيرًا أبلغ من تشميـرهم فى تمهيد قـواعد الفرائض والمواريث، فنعلم بالـقطع من هذه الأصول أن الحق ما قالوه والصـواب ما رأوه، لاسيما وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ وقال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». وقال ﷺ: «**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِى نَيِّفًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً النَّاجِيَة مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ**». فقيل من هم؟ فقال: «**أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَة**». فقال «**مَا أَنَا عَلَيْهِ الآنَ وَأَصْحَابِى**».

البرهان الثانى: هو التفصيلى. فنـقول ادَّعينا أن الحق هو مذهب السلف وأن مذهب السلف هو توظيف الوظائف السبع على عوام الخلق فى ظواهر الأخبار المتشابهة، وقد ذكرنا برهان كل وظيفة معـها فهو برهان كونه حقًا فمن يخالف؟ ليت شعـرى يخالف فى قولنا الأول أنه يجب على العامى التـقديس للحق عن التشـبيه ومـشابهة الأجسـام، أو فى قولنا الثانى إنه يجب عليه التـصديق والإيمان بما قاله الرسول ﷺ بالمعنى الذى أراده أو فى قولنا الثالث إنه يجب عليه الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعانى، أو فى قولنا الرابع إنه يجب عليه السكوت عن السؤال والخوض فيهـما وراء طاقته، أو فى قولنا الخامس إنه يجب عليه إمـساك اللسان عن تغيـير الظواهر بالزيادة والنقـصان والجمع والتفـريق، أو فى قولنا السادس إنه يجب عليـه كف القلب عن التذكير فـيه والفكر مع عجزه عنه، وقـد قيل لهم تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخـالق، أو فى قولنا السابع إنه يجب عليـه التسليم لأهل المعرفة من الأنبياء والأولياء والعلماء الراسخين فـهذه أمور بيانها برهانها ولا يقدر أحد على جحدها وإنكارها إن كـان من أهل التمييز فـضلاً عن العلماء والعقلاء. فـهذه هى البراهين العقلية.

النمط الثانى: البرهان السـمعى على ذلك، وطريقه أن نـقول: الدليل على أن الحق مذهب السلف أن نقـيضه بدعة والبـدعة مذمومـة وضلالة، والخوض من جهـة العوام فى التأويل، والخوض بهم فـيه من جهة العلماء بدعـة مذمومة، وكان نقـيضه وهو الكف عن ذلك سنة محمودة فها هنا ثلاثة أصول:

أحدها: أن البحث والتفتيش والسؤال عن هذه الأمور بدعة.

والثانى : أن كل بدعة فهى مذمومة.

والثالث: أن البدعة إذا كانت مذمومة كان نقيضها، وهى السنة القديمة محمودة ولا يمكن النزاع فى شئ من هذه الأصول، فإذا سلم ذلك ينتج أن الحق مذهب السلف.

فإن قيل: فبمَ تنكرون على من يمنع كون البدعة مذمومة أو يمنع كون البحث والتفتيش بدعة فيُنازع فى هذين وإن لم ينازع فى الثالث لظهورة؟ فنقول: الدليل على إثبات الأصل الأول من كون البدعة مذمومة اتفاق الأمة قاطبة على ذم البدعة وزجر المبتدع وتغيير من يعرف بالبدعة، وهذا مفهوم على الضرورة من الشرع وذلك غير واقع فى محل الظن، فذم رسول الله ﷺ البدعة علم بالتواتر بمجموع أخبار يفيد العلم القطعى جملتها، وإن كان الاحتمال يتطرق إلى آحادها، وذلك كعلمنا بشجاعة على رضي الله عنه، وسخاوة حاتم، وحب رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها وما يجرى مجراه، فإن علم قطعًا بأخبار آحاد بلغت فى الكثرة مبلغًا لا يحتمل كذب ناقليها، وإن لم تكن آحاد تلك الأخبار متواترة، وذلك مثل ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«عَلَيْكُم بسُنَّتى وَسُنَّة الخُلَفَاء الرَّاشدينَ المَهْديِّين منْ بَعْدى عَضُّوا عَلَيْها بالنَّوَاجذ وإيَّاكُمْ ومُحْدَثَاتُ الأُمُور فَإنَّ كُلَّ مُحْدَثَة بَدْعَةٌ وكُلّ بدْعَة ضَلالَةٌ وكُلُّ ضَلالَة فى النَّار»** وقال ﷺ: **«اتَّبعُوا ولا تَبْتَدعُوا وإنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم لمَّا ابْتَدَعُوا فى دينهمْ وتَركُوا سُنَنَ أنْبيائهمْ وَقَالُوا بآرائهمْ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»** وقال ﷺ: **«إذَا مَاتَ صَاحبُ بدْعَة فَقَدْ فُتحَ علَى الإسلام فَتْحٌ»**. وقال ﷺ: **«مَنْ مَشَى إلى صَاحب بدْعَة ليُوقرهُ فَقَدْ أعَانَ علَى هَدْم الإسلام»**. وقال ﷺ: **«منْ أعْرَضَ عَنْ صَاحب بدْعَة بُغْضًا لَهُ فى الله مَلأَ الله قَلْبَهُ أَمْنًا وإيمَانًا، ومَنْ أنْتَهرَ صَاحبَ بدْعَة رفَعَ الله لَهُ مائَةَ درَجَة، ومَنْ سَلَّمَ عَلَى صَاحب بدْعَة أوْ لَقيَه بالبشْر أو اسْتَقْبَلَهُ بمَا يَسُرهُ فَقَد اسْتَخَفَّ بما أنزلَ عَلى مُحَمَّد ﷺ»**. وقال ﷺ: **«إنَّ الله لا يَقْبَلُ لصَاحب بدْعَة صَوْمًا ولا صَلاةً ولا زكَاةً ولا حَجًا ولا عُمْرَةً ولا جهَادًا ولا صَرْفًا ولا عدْلاً، ويَخْرُجُ منَ الإسْلام كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ منَ الرَّميَّة أو كَمَا تَخْرُجُ الشَّعْرَةُ منَ العَجين»**. فهذا وأمثاله مما يجاوز حد الحصر أفاد علمًا ضروريًا بكون البدعة مذمومة.

فإن قيل: سلمنا أن البدعة مذمومة، ولكن ما دليل الأصل الثانى وهو أن هذه بدعة، فإن البدعة عبارة عن كل محدث، قال الشافعى رضي الله عنه الجماعة فى التراويح بدعة وهى بدعة حسنة، وخوض الفقهاء فى تفاريع الفقه ومناظرتهم فيها مع ما أبدعوه من نقص وكسر وفساد وضع وتركيب ونحوه من فنون مجادلة والزام كل ذلك مبدع لم يؤثر عن الصحابة شئ من ذلك فدل على أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة مأثورة، ولا نسلم أن هذا رافع لسنة ثابتة لكنه محدث خاض فيه الألوان إما لاشتغالهم لما هو أهم منه وإما لسلامة القلوب

في العصر الأول عن الشكوك والترددات فاستغنوا لذلك وخاض فيه من بعدهم لمسيس الحاجة، حيث حدثت الأهواء والبدع إلى إبطالها وإفحام منتحلها؟

الجواب: أما ما ذكرتموه من أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة قديمة هو الحق وهذا بدعة رفعت سنة قديمة. إذ كان سنّة الصحابة المنع من الخوض فيه، وزجر من سأل عنه، والمبالغة في تأديبه ومنعه بفتح باب السؤال عن هذه المسائل، والخوض بالعوام في غمرة هذه المشكلات على خلاف ما تواتر عنهم، وقد صح ذلك عن الصحابة بتواتر النقل عند التابعين من نقلة الآثار، وسير السلف حجة لا يتطرق إليها ريب ولا شك كما تواتر خوضهم في مسائل الفرائض ومشاورتهم في الوقائع الفقهية وحصل العلم به أيضًا بأخبار آحاد لا يتطرق الشك إلى مجموعها، كما نقل عن عمر ﷺ أنه سأل سائل عن آيتين متشابهتين فعلاه بالدرة، وكما روى أنه سأل سائل عن القرآن أهو مخلوق أم لا، فتعجب عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به إلى علي ﷺ، فقال: يا أبا الحسن استمع ما يقول هذا الرجل. قال: وما يقول يا أمير المؤمنين؟ فقال الرجل: سألته عن القرآن أمخلوق هو أم لا؟ فوجم لها ﷺ وطأطأ رأسه، ثم رفع رأسه وقال: سيكون لكلام هذا نبأ في آخر الزمان ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه.

وقد روى أحمد بن حنبل هذا الحديث عن أبي هريرة، فهذا قول علي بحضور عمر وأبي هريرة ﷺ ولم يقولا له ولا أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة، ولا عرف علي ﷺ في نفسه أن هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله تعالى وطلب معرفة لصفة القرآن الذي هو معجزة دالة على صدق الرسول، بل هو الدليل المعرف لأحكام التكليف، فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد، فانظر إلى فراسة علي وإشرافه على أن ذلك قرع لباب الفتنة، وأن ذلك سيتشر في آخر الزمان الذي هو موسم الفتن ومطيتها بوعد رسول الله ﷺ، وانظر إلى تشديده وقوله: ولو وليت لضربت عنقه، فمثل أولئك السادة الأكابر الذين شاهدوا الوحي والتنزيل واطلعوا على أسرار الدين وحقائقه، وقد قال ﷺ في أحدهما: «**لو لم أبعث لبعث عمر**». وقال في الثاني: «**أَنَا مَدِينَةُ العِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا**». يزجرون السائل عن هذا السؤال، ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين بالكلام والمجادلة وممن لو أنفق مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه. أن الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض في الجواب وفتح هذا الباب، ثم يعتقد فيه أنه محق، وفي عمر وعلي أنهما مبطلان. هيهات ما أبعد عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة بالحدادين ويرجح المجادلين على الأئمة الراشدين والسلف، فإذًا قد عرف على القطع أن هذه بدعة مخالفة لسنة السلف لا كخوض الفقهاء في التفاريع والتفاصيل، فإنه ما نقل عنهم زجر عن

الخوض فيه، بل إمعانهم فى الخوض، وأما مـا أبدع من فنون المجادلات فهى بدعة مذمومة عند أهل التـحصيل ذكـرنا وجه ذمـها فى كتـاب قواعـد العقائد من كـتب الإحيـاء. وأما مناظراتهم إن كان القصد منها التعاون على البحث عن مأخذ الشرع ومدارك الأحكام، فهى سنة السلف ولقد يتشاورون ويتناظرون فى المسائل الفقهية كما أبدعوا ألفاظًا وعبارات للتنبيه على مقاصدهم الصحيـحة فلا حرج فى العبارات بل هى مباحة لمن يستعـيرها ويستعملها، وإن كان مقصدهم المذموم من النظر الإفـحام دون الإعلام، والإلزام دون الاستعلام، فذلك بدعة على خلاف السنة المأثورة.

الباب الثالث فى فصول متفرقة نافعة فى هذا الفن

فصل

إن قال قائل: مـا الذى دعا الله ﷺ إلى إطلاق هذه الألفاظ الموهمـة مع الاستغناء عنها، أكان لا يدرى أنه يوهم التشبيه ويغلط الخلق ويسوقهم إلى اعتقاد الباطل فى ذات الله تعالى وصـفاته، وحاشا منصب النبـوة أن يخفى عليه ذلك، أو عرف لكن لم يبـال بجهل الجهال وضلالة الضلال، وهذا أبعد وأشنع لأنه بعث شارحًا لا مبهمًا، ملبسًا ملغزًا، وهذا إشكال له وقع فى القلوب حتى جرَّ بعض الخلق إلى سوء الاعتـقاد فيه فقالوا: لو كان نبيًّا لعرف الله ولو عرفه لما وصـفه بما يستحيل عليه فى ذاته وصفـاته، ومالت طائفة أُخرى إلى اعتقاد الظواهر، وقالوا: لو لم يكن حقًّا لما ذكره كذلك مطلقًا ولعـدل عنها إلى غيرها أو قرنها بما يزيل الإبهام عنها فى سبيل حل هذا الإشكال العظيم.

الجواب: أن هذا الإشكال منحل عند أهل الـبصـيرة، وبيـانه أن هذه الكلمات مـا جمعـها رسول الله دفعة واحدة ومـا ذكرها، وإنما جمعهـا المشبهة وقد بينا أن لجمـعها من التأثير فى الإيهان والتلبيس على الأفهام ما ليس لآحادها المفرقة، وإنما هى كلمات لهج بها فى جميع عـمره فى أوقات متـباعدة وإذا اقتصـر منها على ما فى القرآن والأخـبار المتواترة رجعت إلى كلمات يسيرة مـعدودة، وإن أضيف إليها الأخبار الصحيـحة فهى أيضًا قليلة، وإنما كثرت الروايات الشاذة الضعيفة التى لا يجوز التعويل عليها، ثم ما تواتر منها إن صح معهـا إيهام التشبـيه وقد أدركها الحـاضرون المشاهدون، فإذا نقل الألفـاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الإيهام، وأعظم القرائن فى زوال الإيهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر، ومن سبقت معرفته بذلك كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة فى نفسه مقارنة لكل ما يسمع، فينمحق معه الإيهام انمحاقًا لا يشك فيه، ويعرف هذا بأمثلة:

الأول: أنه ﷺ سمى الكعبة بيت الله تعـالى، وإطلاق هذا يوهم عند الصبيان وعند

من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه، لكن العوام الذين اعتقدوا أنه فى السماء وأن استقراره على العرش ينمحق فى حقهم هذا الإيهام على وجه لا يشكون فيه، فلو قيل لهم: ما الذى دعا رسول الله ﷺ إلى إطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل إلى السامع أن الكعبة مسكنه لبادروا بأجمعهم، وقالوا: هذا إنما يوهم فى حق الصبيان والحمقى. وأما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه، فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به أن البيت مسكنه ومأواه، بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الإضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ما وضع له لفظ المضاف إلى ربه وساكنه. أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة أفادته علمًا قطعيًا بأنه ما أريد بكون الكعبة بيته إنه مأواه، وإن هذا إنما يوهم فى حق من لم يسبق إلى هذه العقيدة، فكذلك رسول الله ﷺ خاطب به بهذه الألفاظ جماعة سبقوا إلى علم التقديس ونفى التشبيه وإنه منزه عن الجسمية وعوارضها، وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للإيهام لا يبقى معه شك، وإن جاز أن يبقى لبعضهم تردد فى تأويلها وتعيين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ ويليق بجلالة الله تعالى.

المثال الثانى: إذا جرى لفقيه فى كلامه لفظ الصور بين يدى الصبى أو العامى فقال: صورة هذه المسألة كذا وصورة الواقعة كذا، ولقد صورت للمسألة صورة فى غاية الحسن ربما توهم الصبى أو العامى الذى لا يفهم معنى المسألة أن المسألة شئ له صورة، وفى تلك الصورة أنف وفم وعين على ما عرفه واشتهر عنده، أما من عرف حقيقة المسألة وإنها عبارة عن علوم مرتبة ترتيبًا مخصوصًا، فهل يتصور أن يفهم عينًا وأنفًا وفمًا كصورة الأجسام؟ هيهات. بل يكفيه معرفته بأن المسألة منزهة عن الجسمية وعوارضها، فكذلك معرفة نفى الجسمية عن الإله وتقدسه عنها تكون قرينة فى قلب كل مستمع مفهمة لمعنى الصورة فى قوله خلق الله آدم على صورته ويتعجب العارف بتقديسه عن الجسمية ممن يتوهم لله تعالى الصورة الجسمية، كما يتعجب ممن يتوهم للمسألة صورة جسمانية.

المثال الثالث: إذا قال القائل بين يدى الصبى: بغداد فى يد الخليفة ربما يتوهم أن بغداد بين أصابعه، وأنه قد احتوى عليها براحته كما يحتوى على حجره ومدره، وكذلك كل عامى لم يفهم المراد بلفظ بغداد. أما من علم أن بغداد عبارة عن بلدة كبيرة هل يتصور أن يخطر له ذلك أو يتوهم وهل يتصور أن يعترض على قائله ويقول: لماذا قلت بغداد فى يد الخليفة؟ وهذا يوهم خلاف الحق ويفضى إلى الجهل حتى يعتقد أن بغداد بين أصابعه بل يقال له: يا سليم القلب هذا إنما يوهم الجهل عند من لا يعرف حقيقة بغداد، فأما من علمه فبالضرورة يعلم أنه ما أريد بهذه اليد العضو المشتمل على الكف والأصابع بل معنى آخر ولا يحتاج فى فهمه إلى قرينة سوى هذه المعرفة، فكذلك جميع الألفاظ الموهمة فى الأخبار

يكفى فى دفع إيهامها قرينة واحدة وهى معرفة الله، وإنه ليس من جنس الأجسام، وهذا مما افتتح رسول الله ﷺ بنيانه فى أول بعثته قبل النطق بهذه الألفاظ.

المثال الرابع: قال رسول الله ﷺ فى نسائه: «**أَطْوَلُكُنَّ يَدًا أَسْرَعُكُنَّ لحاقًا بى**» فَكَانَ بَعْضُ نِسْوَتِه يَتَعَرَّفُ الطُولَ بِالمَسَاحَةِ وَوَضْعِ اليَدِ عَلَى اليَدِ، حتى ذكر لهن أنه أراد بذلك المساحة فى الجود دون الطول للعضو، وكان رسول الله ﷺ ذكر هذه اللفظة مع قرينة أفهم بها إرادة الجود بالتعبير بطول اليد عنه، فلما نقل اللفظ مجردًا عن قرينته حصل الإيهام، فهل كان لأحد أن يعترض على رسول الله ﷺ فى إطلاقه لفظًا جهل بعضهم معناه؟ إنما ذلك لأنه أطلق إطلاقًا مفهمًا فى حق الحاضرين مقرونًا مثلاً بذكر السخاوة، والناقل قد ينقل اللفظ كما سمعه ولا ينقل القرينة، أو كان بحيث لا يمكن نقلها، أو ظن أنه لا حاجة إلى نقلها، وأن من يسمع يفهمه هو كما فهمه هو لما سمعه، فربما لا يشعر أن فهمه إنما كان بسبب القرينة، فلذلك يقتصر على نقل اللفظ، فبمثل هذه الأسباب بقيت الألفاظ مجردة عن قرائنها فقصرت عن التفهيم مع أن قرينة معرفة التقديس بمجردها كافية فى نفى الإيهام، وإن كانت ربما لا تكفى فى تعيين المراد به فهذه الدقائق لا بدّ من التنبه لها كالمثال الخامس.

إذا قال القائل بين يدى الصبى ومن يقرب منه درجة ممن لم يمارس الأحوال، ولا عرف العادات فى المجالسات فلان دخل مجمعًا وجلس فوق فلان ربما يتوهم السامع الجاهل الغبى أنه جلس على رأسه أو على مكان فوق رأسه، ومن عرف العادات وعلم أن ما هو أقرب إلى الصدر فى الرتبة، وأن الفوق عبارة عن العلو يفهم منه أنه جلس بجنبه لا فوق رأسه، لكن جلس أقرب إلى الصدر، فالاعتراض على من خاطب بهذا الكلام وأهل المعرفة بالعادات من حيث إنه يجهله الصبيان أو الأغبياء اعتراض باطل لا أصل له، وأمثلة ذلك كثيرة. فقد فهمت على القطع بهذه الأمثلة أن هذه الألفاظ الصريحة انقلبت مفهوماتها عن أوضاعها الصريحة بمجرد قرينة، ورجعت تلك القرائن إلى معارف سابقة ومقترنة، فكذلك هذه الظواهر الموهمة انقلبت عن الإيهام بسبب تلك القرائن الكثيرة التى بعضها هى المعارف، والواحدة منها معرفتهم أنهم لم يؤمروا بعبادة الأصنام، وإن من عبد جسمًا فقد عبد صنمًا كان الجسم صغيرًا أو كبيرًا، قبيحًا أو جميلاً، سافلاً أو عاليًا على الأرض أو على العرش. وكان نفى الجسمية ونفى لوازمها معلومًا لكافتهم على القطع بإعلام رسول الله ﷺ المبالغة فى التنزيه بقوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]. وسورة الإخلاص وقوله: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾ [البقرة: ٢٢]. وبألفاظ كثيرة لا حصر لها مع قرائن قاطعة لا يمكن حكايتها، وعلم ذلك إلا علمًا لا ريب فيه وكان ذلك كافيًا فى تعريفهم استحالة يد

هى عضو مركب من لحم وعظم، وكذا فى سائر الظواهر لأنها لاتدل إلا على الجسمية وعوارضها لو أطلق على جسم ولو أطلق على غير الجسم على ضرورة أنه ما أريد به ظاهره بل معني آخر مما يجوز على الله تعالى ربما يتعين ذلك المعنى وربما لا يتعين، فهذا مما يزيل الإشكال.

فإن قيل: فلم لم يذكر بألفاظ ناصة عليها بحيث لا يوهم ظاهرها جهلاً ولا فى حق العامي والصبي؟

قلنا: لأنه إنما كلم الناس بلغة العرب، وليس فى لغة العرب ألفاظ ناصة على تلك المعانى، فكيف يكون فى اللغة لها نصوص وواضع اللغة لم يفهم تلك المعانى، فكيف وضع لها النصوص بل هى معان أدركت بنور النبوة خاصة أو بنور العقل بعد طول البحث، وذلك أيضًا فى بعض تلك الأمور لا فى كلها، فلما لم يكن لها عبارات موضوعة كان استعارة الألفاظ من موضعات اللغة ضرورة كل ناطق بتلك اللغة، كما أنا لا نستغنى عن أن نقول صورة هذه المسألة كذا وهى تخالف صورة المسألة الأخرى، وهى مستعارة من الصور الجسمانية، لكن واضع اللغة لما لم يضع لهيئة المسألة وخصوص ترتيبها اسمًا نصًّا إما لأنه لم يفهم المسألة أو فهم ، لكن لم تحضره أو حضرته لكن لم يضع لها نصًّا خاصًّا اعتمادًا على إمكان الاستعارة أو لأنه علم أنه عاجز عن أن يضع لكل معنى لفظًا خاصًّا ناصًّا، لأن المعانى غير متناهية العدد والموضوعات بالقطع يجب أن تناهى فتبقى معان لها يجب أن يستعار اسمها من الموضوع، فاكتفى بوضع البعض وسائر اللغات أشد قصورًا من لغة العرب، فهذا وأمثاله من الضرورة يدعو إلى الاستعارة لمن يتكلم بلغة قوم إذ لا يمكنه أن يخرج عن لغتهم. كيف، ونحن نجوز الاستعارة حيث لا ضرورة اعتمادًا على القرائن، فإنا لا نفرق بين أن يقول القائل: جلس زيد فوق عمرو، وبين أن يقول جلس أقرب منه إلى الصدر، وأن بغداد فى ولاية الخليفة أو فى يده إذا كان الكلام مع العقلاء، وليس فى الإمكان حفظ الألفاظ عن إفهام الصبيان والجهال، فالاشتغال بالاحتراز عن ذلك ركاكة فى الكلام وسخافة فى العقل وثقل فى اللفظ.

فإن قيل: فلم لم يكشف الغطاء عن المراد بإطلاق لفظ الإله ولم يقل إنه موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا هو داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا هو فى مكان ولا هو فى جهة، بل الجهات كلها خالية عنه، فهذا هو الحق عند قوم، والإفصاح عنه كذلك، كما أفصح عنه المتكلمون ممكن ولم يكن فى عبارته ﷺ قصور، ولا فى رغبته فى كشفه الحق فتور، ولا فى معرفته نقصان؟

قلنا: من رأى هذا الحق اعتذر بأن هذا لو ذكره لنفر الناس عن قبوله، ولبادروا

بالإنكار وقالوا: هذا عين المحال ووقعوا فى التعطيل ولا خير فى المبالغة فى تنزيه ينتج التعطيل فى حق الكافة إلا الأقلين، وقد بعث رسول الله ﷺ داعيًا للخلق إلى سعادة الآخرة رحمة للعالمين. كيف ينطق بما فيه هلاك الأكثرين، بل أمر أن لا يكلم الناس إلا على قدر عقولهم، وقال ﷺ: «**مَنْ حدَّث النَّاسَ بحَديث لا يَفْهَمُونَه كَانَ فِتْنَةً عَلَى بَعْضِهِمْ**». أو لفظ هذا معناه.

فإن قيل: إن كان فى المبالغة فى التنزيه خوف التعطيل بالإضافة إلى البعض ففى استعماله الألفاظ الموهمة خوف التشبيه بالإضافة إلى البعض.

قلنا: بينهما فرق من وجهين.

أحدهما: أن ذلك يدعو إلى التعطيل فى حق الأكثرين، وهذا يعود إلى التشبيه فى حق الأقلين، وأهون الضررين أولى بالاحتمال، وأعلم الضررين أولى بالاجتناب.

والثانى: أن علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل. إذ يكفى أن يقال مع هذه الظواهر: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]. وأنه ليس بجسم ولا مثل الأجسام. وأما إثبات موجود فى الاعتقاد على ما ذكرناه من المبالغة فى التنزيه شديدًا جدًّا، بل لا يقبله واحد من الألف لا سيما الأمة العربية.

فإن قيل: فعجز الناس عن الفهم هل يمهد عذر الأنبياء فى أن يثبتوا فى عقائدهم أُمورًا على خلاف ما هى عليها ليثبت فى اعتقادهم أصل الإلهية حتى توهموا عندهم مثلاً أن الله مستقر على العرش وأنه فى السماء وأنه فوقهم فوقية المكان؟

قلنا: معاذ الله أن نظن ذلك أو يتوهم بنبى صادق أن يصف الله بغير ما هو متصف به، وأن يلقى ذلك فى اعتقاد الخلق، فإنما تأثير قصور فى استعمال الألفاظ مستعارة ربما يغلط الأغبياء فى فهمهما، وذلك لقصور اللغات وضرورة الخلق فى أن يذكر لهم ما يطيقون فهمه ومالا يفهمونه. فكيف عنه علاج عجز الخلق وقصورهم ولا ضرورة فى تفهيمهم خلاف الحق قصدًا لا سيما فى صفات الله. نعم، به ضرورة فى استعمال الألفاظ مستعارة ربما يغلط الأغبياء فى فهمها، وذلك لقصور اللغات وضرورة المحاورات. فأما تفهيمهم خلاف الحق قصدًا إلى التجهيل فمحال، سواء فرض فيه مصلحة أو لم تفرض.

فإن قيل: قد جهل أهل التشبيه جهلاً يستند إلى ألفاظه فى الظواهر تفضى إلى جهلهم، فمهما جاء بلفظ مجمل ملبس فرضى به لم يفترق الحال بين أن يكون مجرد قصده إلى التجهيل، وبين أن يقصد التجهيل مهما حصل التجهيل، وهو عالم به وراض.

قلنا: لا نسلم أن جهل أهل التشبيه حصل بألفاظه، بل بتقصيرهم فى كسب معرفة التقديس وتقديمه على النظر فى الألفاظ، ولو حصلوا تلك المعرفة أولاً وقدموها لما

جهلـوها، كما أن من حـصل علم التـقديس لم يجـهل عند سمـاعه صورة المسـألة، وإنما الواجب عليهم تحصيل هذا العلم، ثم مـراجعة العلماء إذا شكوا فى ذلك، ثم كف النفس عن التأويل وإلزامهـا التقديس. وإذا رسم لهم العلماء، فإذا لم يفـعلوا جهلوا وعلم الشارع بأن الناس طباعـهم الكسل والتقصيـر والفضول بالخـوض فيما ليس من شـأنهم ليس رضًا بذلك ولا سـعيًا فى تحصـيل الجـهل، لكنه رضًا بقـضـاء الله وقدره فى قـسمـته حـيث قـال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ لأَمْـلأَنَّ جَـهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْـمَـعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]. ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. فهذا هو القهر الإلهى فى فطرة الخلق ولا قدرة للأنبياء فى تغيير سنته التى لا تبديل لها.

فصل فى جواب مالك رضى الله عنه

لعلك تقول الكف عن السـؤال والإمساك عن الجواب من أين يغنـى، وقد شارع فى البلاد هذه الاختلافات وظهرت التعصبات، فكيف سبيل الجواب إذا سئل عن هذه المسائل؟

قلنا: الجواب مـا قاله مالك رضي الله عنه فى الاستـواء إذ قال: الاستواء مـعلوم، الحديث. فيذكر هذا الجواب فى كل مسألة سئل عنها العوام لينحسم سبيل الفتنة.

فإن قيل: فإذا سئل عن الفوق واليد والأصبع فبم يجيب.

قلنا: الجـواب أن يقال مـا قاله الرسـول ﷺ. وقـال الله تعالى وقـد صدق حـيث قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فيعلم قطعًا أنه ما أراد الجلوس والاستقرار الذى هو صفـة الأجسام، ولا ندرى ما الذى أراده ولم نكلف مـعرفته وصـدق حيث قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]. وفوقية المكان محال، فـإنه كان قبل المكان فهو الآن كما كان، وما أراد فلسنا نعرفه وليس علينا ولا عليك أيها السائل معرفته فكذلك نقول ولا يجـوز إثبات اليـد والأصبع مطلقًـا، بل يجوز النطق بما نطق بـه رسول الله ﷺ على الوجه الذى نطق به من غير زيادة ونقصان وجمع وتفريق وتأويل وتفصيل كما سبق، فنقول صدق حيث قال: «**خمَّـر طينة آدم بيده**» وحيث قال: «**قلب المؤمن بين أصبع من أصابع الرحمن**» فنؤمن بذلك ولا نزيد ولا ننقص، وننقله كـما روى ونقطع بنفى العـضو المركب من اللحم والعصب، وإذا قيل: القرآن قديم أو مخلوق؟ قلنا: هو غير مخلوق لقوله ﷺ: «**القُـرآنُ كَلامُ الله غَـيْرُ مَـخْلُوقٍ**». فإن قـال: الحروف قديمة أو لا؟ قلـنا: الجواب فى هذه

المسألة لم يذكرها الصحابة، فالخوض فيها بدعة فلا تسألوا عنها، فإن ابتلى الإنسان بهم فى بلدة غلبت فيها الحشوية وكفروا من لا يقول بقدم الحروف، فيقول المضطر إلى الجواب: إن عنيت بالحروف نفس القرآن فالقرآن قديم، وإن أردت بها غير القرآن وصفات الله تعالى فما سوى الله وصفاته محدث ولا يزيد عليه، لأن تفهيم العوام حقيقة هذه المسألة عسيرة جدًّا، فإن قالوا: قد قالْ النبى ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا منَ القُرْآن فَلَهُ كَذَا**»، فأثبت الحروف للقرآن ووصف القرآن بأنه غير مخلوق، فلزم منه أن الحروف قديمة. قلنا: لا نزيد على ما قاله الرسول ﷺ، وهو أن القرآن غير مخلوق وهذه مسألة وإن كان للقرآن حروف فهى مسألة أخرى. وأما أن الحروف قديمة فهى مسألة ثالثة ولم نزد عليه فلا نقول به، ولا نزيد على ما قاله الرسول ﷺ، فإن زعموا أنه يلزم المسألتين السابقتين هذه المسألة. قلنا: هذا قياس وتفريع، وقد بينا أن لا سبيل إلى القياس والتفريع، بل يجب الاقتصار على ما ورد من غير تفريق، وكذلك إذا قالوا عربية القرآن قديمة لأنه قال القرآن قديم وقال: ﴿**أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [يوسف: ٢]. فالعربى قديم. فنقول: أما أن القرآن عربى فحق إذ نطق به القرآن، وأما أن القرآن قديم فحق إذ نطق به الرسول ﷺ، فعلى هذا الوجه يلجم العوام والحشوية عن التصرف فيه ونزمهم عن القياس والقول باللوازم، بل نزيد فى التضييق على هذا ونقول: إذا قال القرآن كلام الله غير مخلوق فهذا لا يرخص فى أن يقول القرآن قديم ما لم يرد لفظ القديم إذ فرق بين غير مخلوق والقديم، إذ يقال: كلام فلان غير مخلوق أى غير موضوع، وقد يقال: المخلوق بمعنى المختلق فلفظ غير مخلوق يتطرق إليه هذا ولا يتطرق إلى لفظ القديم، فبينهما فرق، ونحن نعتقد قدم القرآن لا بمجرد هذا اللفظ، فإن هذا اللفظ لا ينبغى أن يحرف ويبدل ويغير ويصرف، بل يلزم أن يعتقد أنه حق بالمعنى الذى أراه، وكل من وصف القرآن بأنه مخلوق من غير نقل نص فيه مقصود، فقد أبدع وزاد ومال عن مذهب السلف وحاد.

فصل فى أن الإيمان قديم

فإن قيل: من المسائل المعروفة قولهم إن الإيمان قديم، فإذا سئلنا عنه فبم نجيب؟

قلنا: إن ملكنا زمام الأمر واستولينا على السائل منعناه عن هذا الكلام السخيف الذى لا جدوى له، وقلنا: إن هذا بدعة، وإن كنا مغلوبين فى بلادهم فنجيب ونقول ما الذى أردت بالإيمان؟ إن أردت به شيئًا من معارف الخلق وصفاتهم فجميع صفات الخلق مخلوقة، وإن أردت به شيئًا من القرآن أو من صفات الله تعالى فجميع صفات الله تعالى قديمة، وإن أردت ما ليس صفة للخلق ولا صفة الخالق فهو غير مفهوم ولا متصور وما لا يفهم ولا

يتصور ذاته، كيف يفهم حكمه فى القدم والحدوث. والأصل زجر السائل والسكوت عن الجواب هذا صفو مقصود مذهب السلف ولا عدول عنه إلا بضرورة وسبيل المضطر ما ذكرنا، فإن وجدناه ذكيًّا مستفهمًا لفهم الحقائق كشفنا الغطاء عن المسألة وخلصناه عن الإشكال فى القرآن وقلنا:

اعلم أن كلّ شيء فله فى الوجود أربع مراتب: وجود فى الأعيان، ووجود فى الأذهان، ووجود فى اللسان، ووجود فى البياض المكتوب عليه كالنار مثلاً، فإن لها وجودًا فى التنور ووجودًا فى الخيال والذهن، وأعنى بهذا الوجود العلم بنفس النار وحقيقتها ولها وجود فى اللسان وهى الكلمة الدالة عليه، أعنى لفظ النار ولها وجود فى البياض المكتوب عليه بالرقوم. والإحراق صفة خاصة للنار كالقدم للقرآن ولكلام الله تعالى، والمحرق من هذه الجملة الذى فى التنور دون الذى فى الأذهان، وفى اللسان وعلى البياض إذ لو كان المحرق فى البياض أو اللسان لاحترق، ولكن لو قيل لنا: النار محرقة؟ قلنا: نعم. فإن قيل لنا: كلمة النار محرقة؟ قلنا: لا، فإن قيل: حروف النار محرقة؟ قلنا: لا، فإن قيل: مرقوم هذه الحروف على البياض محرقة؟ قلنا: لا، فإن قيل: المذكور بكلمة النار أو المكتوب بكلمة النار محرق؟ قلنا: نعم. لأن المذكور والمكتوب بهذه الكلمة ما فى التنور وما فى التنور محرق، فكذلك القدم وصف كلام الله تعالى كالإحراق وصف النار وما يطلق عليه اسم القرآن وجوده على أربع مراتب. أولها: وهى الأصل وجوده قائمًا بذات الله تعالى يضاهى وجود النار فى التنور ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. ولكن لا بدّ من هذه الأمثلة فى تفهيم العجزة والقدم وصف خاص لهذا الوجود. والثانية: وجوده العلمى فى أذهاننا عند التعليم قبل أن ننطق بلساننا، ثم وجوده فى لساننا بتقطيع أصواتنا، ثم وجوده فى الأوراق بالكتب، فإذا سئلنا عما فى أذهاننا من علم القرآن قبل النطق به. قلنا: علمنا صفته وهى مخلوقة لكن المعلوم به قديم، كما أن بالنار وثبوت صورتها فى خيالنا غير محرق لكن المعلوم به محرق، وإن سئلنا عن صوتنا وحركة لساننا ونطقنا قلنا: ذلك صفة لساننا فلساننا حادث وصفته توجد بعده وما هو بعد الحادث حادث بالقطع، لكن منطوقنا ومذكورنا ومقروءنا ومتلونا بهذه الأصوات الحادثة قديم، كما أن ذكرنا حروف النار بلساننا كان المذكور بهذه الحروف محرقًا وأصواتنا وتقطيع أصواتنا غير محرق إلا أن يقول قائل: حروف النار عبارة عن نفس النار. قلنا: إن كان كذلك، فحروف النار محرقة وحروف القرآن إن كان عبارة عن نفس المقروء فهى قديمة، وكذلك المخطوط برقوم النار والمكتوب به محرق لأنه الأوراق من غير إحراق واحتراق، فهذه أربع درجات فى الوجود تشتبه على العوام لا يمكنهم إدراك تفاصيلها وخاصة كل واحدة منهن، فلذلك لا نخوض

بهم فيها لا لجهلنا بحقيقة هذه الأمور وكنه تفاصيلها. إن النار من حيث إنها فى التنور توصف بأنها محرقة وخامدة ومشتعلة، ومن حيث إنها فى اللسان يوصف بأنها عجمى وتركى وعربى وكثيرة الحروف وقليلة الحروف، وما فى التنور لا ينقسم إلى العجمى والتركى والعربى، وما فى اللسان لا توصف بالخمود والاشتعال، وإذا كان مكتوبًا على البياض يوصف بأنه أحمر وأخضر وأسود وأنه بقلم المحقق أو الثلث والرقاع، أو قلم النسخ وهو فى اللسان لايمكن أن يوصف بذلك، واسم النار يطلق على ما فى التنور وما فى القلب وما فى اللسان وما على القرطاس، لكن باشتراك الاسم فأطلق على ما فى التنور حقيقة وعلى ما فى الذهن من العلم لا بالحقيقة ولكن بمعنى أنه صورة محاكية للنار الحقيقى، كما أن ما يرى فى المرآة يسمى إنسانًا ونارًا لا بالحقيقة ولكن بمعنى إنها صورة محاكية للنار الحقيقى والإنسان وما فى اللسان من الكلمة يسمى باسمه بمعنى ثالث، وهو أنه دلالة دالة على ما فى الذهن وهذا يختلف بالاصطلاحات والأول والثانى لا اختلاف فيهما، وما فى القرطاس يسمى نارًا بمعنى رابع، وهو أنها رقوم تدل بالاصطلاح على ما فى اللسان ومهما فهم اشتراك اسم القرآن والنار وكل شئ من هذه الأمور الأربعة، فإذا ورد الخبر أن القرآن فى قلب العبد وأنه فى لسان القارئ وأنه صفة ذات الله صدق بالجميع وفهم معنى الجميع، ولم يتناقص عند الأذكياء وصدق بالجميع مع الإحاطة بحقيقة المراد، وهذه أُمور جلية دقيقة لا أجلى منها عند الفطن الذكى ولا أدق، وأغمض منها عن البليد الغبى، فحق البليد أن يمنع من الخوض فيها ويقال له: قل القرآن غير مخلوق واسكت ولا تزد عليه ولاتنقص ولا تفتش عنه ولا تبحث، وأما الذكى فيروح عن غمه هذا الإشكال فى لحظة ويوصى بأن لا يحدث العامى به حتى لا يكلفه ما ليس فى طاقته، وهكذا جميع موضع الإشكالات فى الظواهر فيها حقائق جلية لأرباب البصائر ملتبسة على العميان من العوام، فلا ينبغى أن يظن بأكابر السلف عجزهم عن معرفة هذه الحقيقة، وإن لن يحرروا ألفاظها تحرير صنعة ولكنهم عرفوه وعرفوا عجز العوام فسكتوا عنهم وأسكتوهم وذلك عين الحق والصواب. لا أعنى بأكابر السلف الأكابر من حيث الجاه والاشتهار، ولكن من حيث الغوص على المعانى والاطلاع على الأسرار، وعند هذا ربما انقلب الأمر فى حق العوام واعتقدوا فى الأشهر أنه الأكبر وذلك سبب آخر من أسباب الضلال.

فصل

فإن قال قائل: العامى إذا منع من البحث والنظر لم يعرف الدليل، ومن لم يعرف الدليل كان جاهلاً بالمدلول، وقد أمر الله تعالى كافة عباده بمعرفته. أى بالإيمان به والتصديق

بوجوده أولاً، وبتقديسه عن سمات الحوادث ومتشابهة غيره ثانيًا، وبوحدانيته ثالثًا، وبصفاته من العلم والقدرة ونفوذ المشيئة وغيرها رابعًا، وهذه الأمور ليست ضرورية فهى إذًا مطلوبة،وكل علم مطلوب فلا سبيل إلى اقتناصه وتحصيله إلا بشبكة الأدلة والنظر فى الأدلة والتفطن لوجه دلالتها على المطلوب وكيفية إنتاجها وذلك لا يتم إلا بمعرفة شروط البراهين وكيفية ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج، ذلك شيئًا فشيئًا إلى تمام علم البحث واستيفاء علم الكلام إلى آخر النظر فى المعقولات، وكذلك يجب على العامى أن يصدق الرسول ﷺ فى كل ما جاء به، وصدقه ليس بضرورى بل هو بشر كسائر الخلق فلا بدّ من دليل يميزه عن غيره ممن تحدى بالنبوة كاذبًا ولا يمكن ذلك إلا بالنظر فى المعجزة ومعرفة حقيقة المعجزة وشروطها إلى آخر النظر فى النبوات وهو لب علم الكلام.

قلنا: الواجب على الخلق الإيمان بهذه الأمور، والإيمان عبارة عن تصديق جازم لا تردد فيه ولا يشعر صاحبه بإمكان وقوع الخطأ فيه، وهذا التصديق الجازم يحصل على ست مراتب.

الأولى: وهى أقصاها ما يحصل بالبرهان المستقصى المستوفى شروطه المحرر أُصوله ومقدماته درجة درجة وكلمة كلمة حتى لا يبقى مجال احتمال وتمكن التباس، وذلك هو الغاية القصوى، ربما يتفق ذلك فى كل عصر لواحد أو اثنين ممن ينتهى إلى تلك الرتبة، وقد يخلو العصر عنه ولو كانت النجاة مقصورة على مثل المعرفة لقلّت النجاة وقلّ الناجون.

الثانية: أن يحصل بالأدلة الوهمية الكلامية المبنية على أُمور مسلمة مصدق بها لإشهارها بين أكابر العلماء وشناعة إنكارها ونفرة النفوس عن إبداء المراء فيها، وهذا الجنس أيضًا يفيد فى بعض الأمور وفى حق بعض الناس تصديقًا جازمًا بحيث لا يشعر صاحبه بإمكان خلافه أصلاً.

الثالثة: أن يحصل التصديق بالأدلة الخطابية، أعنى القدرة التى جرت العادة باستعمالها فى المحاورات والمخاطبات الجارية فى العادات، وذلك يفيد فى حق الأكثرين تصديقًا ببادئ الرأى وسابق الفهم إن لم يكن الباطن مشحونًا بالتعصب وبرسوخ اعتقاد على خلاف مقتضى الدليل، ولم يكن المشنع مشغوفًا بتكليف المماراة والتشكك ومنتجعًا بتحديق المجادلين فى العقائد، وأكثر أدلة القرآن من هذا الجنس، فمن الدليل الظاهر المقيد للتصديق قولهم: لا ينتظم تدبير المنزل بمدبرين، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فكل قلب باق على الفطرة غير مشوش بمماراة يسبق من هذا الدليل إلى فهمه تصديق جازم بوحدانية الخالق،لكن لو شوشه مجادل وقال: لم يبعد أن يكون العالم بين إلهين يتوافقان

على التدبير ولايختلفان فإسماعه هذا القدر يشوش عليه تصديقه، ثم ربما يعسر سَلُّ هذا السؤال ودفعه فى حق بعض الأفهام القاصرة فيستولى الشك ويتعذر الرفع، وكذلك من الجلى أن من قدر على الخلق فهو على الإعادة أقدر، كما قال: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [يس: ٧٩]. فهذا لا يسمعه أحد من العوام ذكى أو غبى إلا ويبادر إلى التصديق، ويقول: نعم ليست الإعادة بأعسر من الابتداء بل أهون، ويمكن أن يشوش عليه بسؤال ربما يعسر عليه فهم جوابه، والدليل المستوفى هو الذى يفيد التصديق بعد تمام الأسئلة وجوابها بحيث لا يبقى للسؤال مجال والتصديق يحصل قبل ذلك.

الرابعة: التصديق لمجرد السماع ممن حسن الاعتقاد فيه بسبب كثرة ثناء الخلق عليه، فإن من حسن اعتقاده فى أبيه وأستاذه أو فى رجل من الأفاضل المشهورين قد يخبره عن شئ كموت شخص أو قدوم غائب أو غيره، فيسبق إليه اعتقاد فيه، فالمجرب بالصدق والورع والتقوى مثل الصديق رضي الله عنه إذا قال قال رسول الله ﷺ كذا، فكم من مصدق به جزمًا وقابل له قبولاً مطلقًا لا مستند لقوله إلا حسن اعتقاده فيه، فمثله إذا لقن العامى اعتقادًا وقال له: اعلم أن خالق العالم واحد قادر وأنه بعث محمدًا ﷺ رسولاً بادر إلى التصديق ولم يمازجه ريب ولا شك فى قوله، وكذلك اعتقاد الصبيان فى آبائهم ومعلميهم فلا جرم يسمعون الاعتقادات ويصدقون بها ويستمرون عليها من غير حاجة إلى دليل وحجة.

الرتبة الخامسة: التصديق به الذى يسبق إليه القلب عند سماع الشئ مع قرائن أحوال لا تفيد القطع عند المحقق ولكن يلقى فى قلب العوام اعتقادًا جازمًا، كما إذا سمع بالتواتر مرض رئيس البلد ثم ارتفع صراخ وعويل من داره، ثم يسمع من أحد غلمانه أنه قد مات اعتقد العامى جزمًا أنه مات وبنى عليه تدبيره ولا يخطر بباله أن الغلام ربما قال ذلك عن إرجاف سمعه، وأن الصراخ والعويل لعله عن غشية أو شدة مرض أوسبب آخر، لكن هذه خواطر بعيدة لا تخطر للعوام فتنطبع فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة، وكم من أعرابى نظر إلى أسارير وجه رسول الله ﷺ وإلى حسن كلامه ولطف شمائله وأخلاقه فآمن به وصدقه جزمًا لم يخالجه ريب من غير أن يعالجه بمعجزة يقيمها ويذكر وجه دلالتها.

الرتبة السادسة: أن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه، فيبادر إلى التصديق لمجرد موافقته لطبعه لا من حسن اعتقاده فى قائله، ولا من قرينة تشهد له، لكن لمناسبة ما فى طباعه، فالحريص على موت عدوه وقتله وعزله يصدق جميع ذلك بأدنى إرجاف ويستمر على اعتقاده جازمًا، وبلو أخبر بذلك فى حق صديقه أو بشئ يخالف شهوته هواه توقف فيه أو أباه كل الإباء، وهذه أضعف التصديقات وأدنى الدرجات لأن ما قبله استند إلى دليل

ما. وإن كان ضعيفًا من قرينة أو حسن اعتقاد فى المخبر أو نوع من ذلك وهى أمارات يظنها العامى أدلة فتعمل فى حقه عمل الأدلة فإذا عرفت مراتب التصديق، فاعلم أن مستند إيمان العوام فى هذه الأسباب وأعلى الدرجات فى حقه أدلة القرآن وما يجرى مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق، ولا ينبغى أن يجاوز بالعامى إلى ما وراء أدلة القرآن وما فى معناه من الجليات المسكنة للقلوب المستجرة لها إلى الطمأنينة والتصديق وما وراء ذلك ليس على قدر طاقته، وأكثر الناس آمنوا فى الصبا وكان سبب تصديقهم مجرد التقليد للآباء والمعلمين لحسن ظنهم بهم وكثرة ثنائهم على أنفسهم، وثناء غيرهم عليهم وتشديدهم النكير بين أيدهم على مخالفيهم، وحكايات أنواع النكال النازل بمن لا يعتقد اعتقادهم وقولهم إن فلانًا اليهودى فى قبره مسخ كلبًا، وفلانًا الرافضى انقلب خنزيرًا، أو حكايات منامات وأحوال هذا الجنس ينغرس فى نفوس الصبيان النفرة عنه والميل إلى ضده حتى ينزع الشك بالكلية عن قلبه، فالتعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر، ثم يقع نشوءه عليه ولايزال يؤكد ذلك فى نفسه، فإذا بلغ استمر على اعتقاده الجازم تصديقه المحكم الذى لا يخالجه فيه ريب، ولذلك ترى أولاد النصارى والروافض والمجوس والمسلمين كلهم لا يبلغون إلا على عقائد آبائهم واعتقاداتهم فى الباطل والحق جازمة. لو قطعوا إربًا إربًا لما رجعوا عنها وهم قط لم يسمعوا عليه دليلاً لا حقيقيًّا ولا رسميًّا، وكذا ترى العبيد والإماء يسبون من المشرك ولا يعرفون الإسلام، فإذا وقعوا فى أسر المسلمين وصحبوهم مدة ورأوا ميلهم إلى الإسلام مالوا معهم واعتقدوا اعتقادهم وتخلقوا بأخلاقهم. وكل ذلك لمجرد التقليد والتشبيه بالتابعين، والطباع مجبولة على التشبيه لا سيما طباع الصبيان وأهل الشباب فبهذا يعرف أن التصديق الجازم غير موقوف على البحث وتحرير الأدلة.

فصل

لعلك تقول: لا أنكر حصول التصديق الجازم فى قلوب العوام بهذه الأسباب، ولكن ليس من المعرفة فى شئ، وقد كلف الناس المعرفة الحقيقية دون اعتقاد هو من جنس الجهل الذى لا يتميز فيه الباطل على الحق. فالجواب: أن هذا غلط ممن ذهب إليه، بل سعادة الخلق فى أن يعتقدوا الشئ على ما هو عليه اعتقادًا جازمًا لتنتقش قلوبهم بالصورة الموافقة لحقيقة الحق، حتى إذا ماتوا وانكشف لهم الغطاء فشاهدوا الأمور على ما اعتقدوها لم يفتضحوا ولم يحترقوا بنار الخزى والخجلة ولا بنار جهنم ثانيًا، وصورة الحق إذا انتقش بها قلبه فلا نظر إلى السبب المفيد له دليل حقيقى أو رسمى أو إقناعى، أو قبول بحسن الاعتقاد فى قائلة أو قبول لمجرد التقليد من غير سبب فليس المطلوب الدليل المقيد، بل الفائدة وهى

حقيقة الحق على ما هى عليه فمن اعتقد حقيقة الحق فى الله وفى صفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر على ما هو عليه فهو سعيد، وإن لم يكن ذلك بدليل محرر كلامى ولم يكلف الله عباده إلا ذلك وذلك معلوم على القطع بجملة أخبار متواترة من رسول الله ﷺ فى موارد الأعراب عليه وعرضه الإيمان عليهم وقبولهم ذلك وانصرافهم إلى رعاية الإبل والمواشى من غير تكليفه إياهم التفكر فى المعجزة، ووجه دلالته والتفكر فى حدوث العالم وإثبات الصانع. وفى أدلة الوحدانية وسائر الصفات، بل الأكثر من أجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم يدركوه بعد طول المدة. بل كان الواحد منه يخلفه ويقول: الله أرسلك رسولاً. فيقول: والله الله أرسلنى رسولاً وكان يصدقه بيمينه وينصرف، ويقول الآخر إذا قدم عليه ونظر إليه: والله ما هذا وجه كذاب، وأمثال ذلك مما لا يحصى، بل كل يسلم فى غزوه واحدة فى عصره وعصر أصحابه آلاف لا يفهم الأكثرون منهم أدلة الكلام، ومن كان يفهمه يحتاج إلى أن يترك صناعته ويختلف إلى مسلم مدة مديدة ولم ينقل قط شئ من ذلك، فعلم علمًا ضروريًّا أن الله تعالى لم يكلف الخلق إلاَّ الإيمان والتصديق الجازم بما قاله كيفما حصل التصديق.

نعم ، لا ينكر أن للعارف درجة على المقلد، ولكن المقلد فى الحق مؤمن كما أن العارف مؤمن.

فإن قلت: فبم يميز المقلد بين نفسه وبين اليهود والمقلد؟

قلنا: المقلد لا يعرف التقليد ولا يعرف أنه مقلد، بل يعتقد فى نفسه أنه محق عارف ولا يشك فى معتقده ولا يحتاج مع نفسه إلى التمييز لقطعه بأن خصمه مبطل وهو محق، ولعله أيضًا يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وإن كانت غير قوية يرى نفسه مخصوصًا بها ومميزًا بسببها عن خصومه، فإن كان اليهودى يعتقد فى نفسه مثل ذلك فلا يشوش ذلك على المحق اعتقاده، كما أن العارف الناظر يزعم أنه يميز نفسه عن اليهودى بالدليل، واليهودى المتكلم الناظر أيضًا يزعم أنه مميز عنه بالدليل ودعواه ذلك لا يشك الناظر العارف، وكذلك لا يشكك المقلد القاطع ويكفيه فى الإيمان أن لا يشككه فى اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه، فهل رأيت عاميًّا فقط قد اغتم وحزن من حيث يعسر عليه الفرق بين تقليد اليهودى، بل لا يخطر ذلك ببال العوام، وإن خطر ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا: ما هذا الهذيان وكان به بين الحق والباطل مساواة حتى يحتاج إلى فرق فارق تبيينًا أنه على الباطل، وإنى على الحق، وأنا متيقن لذلك غير شاك فيه. فكيف أطلب الفرق حيث يكون الفرق معلومًا قطعًا من غير طلب، فهذه حالة المقلدين الموقنين وهذا إشكال لا يقع لليهودى المبطل لقطعه مذهبه مع نفسه، فكيف للمسلم المقلد الذى وافق اعتقاده ما هو

الحق عند الله تعالى، فظهر بهذا عند القطع للمسلك المقلد الذى وافق اعتقاده ما هو الحق عند الله تعالى، فظهر بهذا على القطع أن اعتقاداتهم جازمة، وأن الشرع لم يكلفهم إلا ذلك.

فإن قيل: فإن فرضنا عاميًّا مجادلاً لجوجًا ليس يقلد وليس يقنعه أدلة القرآن ولا الأقاويل الجليلة المفرقة السابقة إلى الأفهام فماذا تصنع به؟

قلنا: هذا مريض مال طبعه عن صحة الفطرة وسلامة الخلقة الأصلية فينظر فى شمائله فإن وجدنا اللجاج والجدل غالبًا على طبعه لم نجادله، وطهرنا وجه الأرض عنه إن كان يجاحدنا فى أصل من أُصول الإيمان، وإن توسمنا فيه بالفراسة مخائل الرشد والقبول إن جاوزنا به من الكلام الظاهر إلى توفيق فى الأدله عالجناه بما قدرنا عليه من ذلك، وداوينا بالجدال المر والبرهان الحلو، وبالجملة فنجتهد أن نجادله بالأحسن كما أمر الله تعالى ورخصنا فى القدر من المداواة لا تدل على فتح باب الكلام مع الكافة، فإن الأدوية يستعمل فى حق المرضى وهم الأقلون، وما يعالج به المريض بحكم الضرورة يجب أن يوقى عنه الصحيح، والفطرة الصحيحة الأصلية معدة لقبول الإيمان دون المجادلة وتحرير حقائق الأدلة، وليس الضرر فى استعمال الدواء مع الأصحاء بأقل من الضرر فى إهمال المداواة مع المرضى، فليوضع كل شئ موضعه كما أمر الله تعالى به نبيه حيث قال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. والمدعو بالحكمة إلى الحق قوم، وبالموعظة الحسنة قوم آخرون، وبالمجادلة الحسنة قوم آخرون على ما فصلنا أقسامهم فى كتاب القسطاس المستقيم فلا نطول بإعادته.

المضنون به على غير أهله

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الرسالة

الحمد لله على موجب ما هدانا إلى حمده، ووفقنا للقيام بشكره، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف من انتسب إلى آدم عليه السلام وعلى صحبه الأخيار.

اعلم أن لكل صناعة أهلاً يعرف قدرها، ومن أهدى نفائس صناعة إلى غير أربابها فقد ظلمها، وهذا علق نفيس مضنون به على غير أهله فمن صانه عمن لا يعرف قدره فقد قضى حقه أكرمت بهذا العلق على سبيل التهادى أخى وعزيزى أحمد صانه الله عن الركون إلى الغرور وأهله لمعرفة بعض حقائق الأشياء التى كانت معرفة جميعها مطلوبة لسيد ولد آدم عليه السلام حيث قال: أرنا الأشياء كما هى، وهذا العلق المضمون به على غير أهله يشتمل على أربعة أركان:

الركن الأول: فى معرفة الربوبية.

الركن الثانى: فى معرفة الملائكة.

الركن الثالث: فى حقائق المعجزات.

الركن الرابع: فى معرفة ما بعد الموت والانتقال من الدنيا إلى العقبى، وفقنا الله تعالى لما يرضى ويحب، فإنه خير موفق ومعين وإليه المرجع والمصير.

الركن الأول فى علم الربوبية

الزمان لا يكون محدودًا وخلق الزمان فى الزمان أمر محال، فاليوم هو الكون الحادث فى اللغة وأيام الله حيث قال: ﴿**وذكرهم بأيام الله**﴾ [إبراهيم: ٥]. مراتب مخلوقاته ومصنوعاته ومبدعاته من وجوه منها قوله: ﴿**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**﴾ [فصلت: ١٠]. فيوم مادة السماء ويوم صورتها ويوم كواكبها ويوم نفوسها. وقوله: ﴿**خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**﴾ [فصلت: ٩]. المادة والصورة، ومادة السموات ومادة بروجها صورة واحدة، ومادة الأرض مادة مشتركة بين أزواج وفحول وهى أخس لأنها مثل مومسة تقبل كل ناكح. ومنها: الجماد والمعدنيات داخلة فى الجماد والنبات والحيوانات العجم والإنسان. ومنها: الأرض فهو سماء من طريق اللغة، لأن أهل اللغة تقول: كل ما علاك فهو سماؤك، وكل ما دون الفلك يعنى فلك القمر بالنسبة إلى الأفلاك أرض لقوله: ﴿**وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ [الطلاق: ١٢].

الأول: كرة النار.

والثانية: كرة الهواء.

والثالثة: كرة الطين المجفف الذى فوق الماء.

والرابعة: الماء.

والخامسة: الأرض البسيطة.

والسادسة: الممتزجات من هذه الأشياء.

والسابعة: الآثار العلوية.

فصل فى تعليقات على آيات كريمة

﴿**فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ**﴾ [ص: ١٠]. الارتقاء صعود الأخس إلى الأشرف حتى ينتهى إلى واجب الوجود.

كما قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ**﴾ [النجم: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. الأول انطباق فلك البروج على معدل النهار، والفتق بعد الرتق ظهور الليل.

فصل فى أن الرزق مقدر مضمون

وهو من المعقولات لا من المنقولات. لأن الحق تعالى عقل ذاته، وما توجبه ذاته فهو قد عقل جميع الموجودات، وإن كان بالقصد الثانى وإنما يوجب كل واحد منها. أعنى من الموجودات المبدعات على ما وجد لأنه سبحانه وتعالى يعقل وجود الكل من ذاته، فكما أن تعقله ذاته لا يجوز أن يتغير، كذلك تعقله لكل ما توجبه ذاته ولكل ما يعقله وجوده من ذاته لا يتغير، بل يجب وجود كل ذلك ووجود أنواع الحيوانات وبقاؤها متعلق لا شك فيه خصوصًا النوع الإنسانى، والنوع إنما يبقى مستحفظًا بالأشخاص وبلوغ كل شخص إلى الغاية التى يمكن أن يولد شخصًا آخر مثله لا يمكن إلا بقاؤه مدة، وبقاؤه تلك المدة لا يصح إلا بما فيه قوام الحياة. وقوام الحياة بالرزق لأنه تعالى يعقل وجود الكل من ذاته ووجود ما يعقله من ذاته واجب، وتعقل بقاء النوع الإنسانى ببقاء الأشخاص وتناسلهم، وتعقل تناسلهم ببقاء كل شخص، وتعقل بقاء كل شخص مدة بما فيه قوام حياته وهو الرزق، والرزق إنما يكون من النبات والحيوان وهما الخبز واللحم، والفواكه من جملة النبات وأكثر الحلاوى، فوجب أن يكون الرزق مضمونًا بتقدير الرءوف الرحيم، لذلك قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

فصل فى من لا يعرف حقيقة الرؤيا

من لا يعرف حقيقة الرؤيا لا يعرف حقائق أقسام الرؤيا، ومن لا يعرف حقيقة رؤيا الرسول ﷺ وسائر الرسل، بل رؤيا الذين ماتوا لا يعرف رؤيا الله تعالى فى المنام، والعامى يتصور أن من رأى رسول الله فى المنام فقد رأى حقيقة شخصه، وكما أن المعنى الذى وقع فى النفس حاكى الخيال عنه بلفظ، فكذلك كل نقش ارتسم فى النفس يمثل الخيال له صورة ولا أرى أنه كيف يتصور رؤية شخص الرسول فى المنام وشخصه مودع فى روضة المدينة وما شق القبر وما خرج إلى موضع يراه النائم. ولئن سلمنا ذلك فربما يراه فى ليلة واحدة ألف نائم فى ألف موضع على صور مختلفة، والوهم يساعد العقل فى أنه لا يمكن تصور شخص واحد فى حالة واحدة فى مكانين ولا على صورتين طويل وربع، وشاب وكهل وشيخ، ومن لا تحيط معرفته بفساد هذا التصور، فقد قنع من غريزة العقل

بالاسم والرسم دون الحقيقة والمعنى، ولا ينبغى أن يعاتب بل ينبغى أن يخاطب. فلعله يقول ما يراه مثاله لا شخصه، ويقال هو مثال شخصه أو مثال حقيقة روحه المقدسة عن الصور والشكل فإن قال: هو مثال شخصه الذى هو عظمه ولحمه، فأى حاجة إلى شخصه وشخصه فى نفسه متخيل ومحسوس، ثم من رأى شخصه بعد الموت دون الروح فكأنه مارأى النبى، بل رأى جسمًا كان يتحرك بتحرك النبى عليه الصلاة والسلام فكيف يكون رائيًا له برؤية مثال شخصه، بل الحق أنه مثال روحه المقدسة التى هى النبوة فما رآه من الشكل ليس هو روح النبى وجوهره ولا شخصه بل مثاله على التحقيق.

فإن قيل: فأى معنى لقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ رَآنِى فِى الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِى فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِى**».

قلنا: لا معنى له إلا ما رآه مثال واسطة بين النبى وبينه من تعريف الحق إياه، فكما أن جوهر النبوة أعنى الروح المقدسة الباقية من النبى بعد وفاته منزهة عن اللون والشكل والصورة، ولكن تنتهى تعريفاته إلى الأمة بواسطة مثال صادق ذى شكل ولون وصورة. وإذا كان جوهر النبوة منزهًا عن ذلك، فكذلك ذات الله منزه عن الشكل والصورة ولكن تنتهى تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أوغيره من الصور الجميلة التى تصلح أن تكون مثالاً للجمال المعنوى الحقيقى الذى لا صورة له ولا لون، ويكون ذلك المثال صادقًا وحقًّا وواسطة فى التعريف، فيقول النائم: رأيت الله تعالى فى المنام لا بمعنى أنى رأيت ذاته، كما يقول: رأيت النبى لا بمعنى أنه رأى ذات النبى وروحه أو ذات شخصه بمعنى أنه رأى مثاله.

فإن قيل: إن النبى له مثل والله تعالى لا مثل له.

قلنا: هذا جهل بالفرق بين المثل والمثال، فليس المثال عبارة عن المثل فالمثل عبارة عن المساوى فى جميع الصفات، والمثال لا يحتاج فيه إلى المساواة فإن للعقل معنى لا يماثله غيره.

ولنا أن نصور الشمس له مثالاً لما بينهما من المناسبة فى شئ واحد، وهو أن المحسوسات تنكشف بنور الشمس كما تنكشف المعقولات بالعقل فهذا القدر من المناسبة كاف فى المثال، بل السلطان يمثل فى النوم بالشمس وبالقمر الوزير، والسلطان لايماثل الشمس بصورته ولا بمعناه، ولا الوزير يماثل القمر. إلا أن السلطان له استعلاء على الكافة ويعم أثره النور، كما أن الوزير واسطة بين السلطان والرغبة فى إفاضة أثر العدل، فهذا مثال وليس بمثل والله تعالى قال: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ [النور: ٣٥]. فأى مماثلة بين نوره وبين الزجاجة والمشكاة والشجرة والزيت؟ قال

الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧]. ذكر ذلك تمثيلاً للقرآن والقرآن صفة قديمة لا مثل له، فكيف صار الماء له مثالاً؟ وكم من المنامات عرضت على رسول الله ﷺ من رؤيا لبن أوحبل. فقال: اللبن هو الإسلام، والحبل هو القرآن إلى أمثال له لا تحصى وأى مماثلة بين اللبن والإسلام والحبل والقرآن إلا فى مناسبة، وهو أن الحبل يتمسك به النجاة والقرآن كذلك، واللبن غذاء تغذى به الحياة الظاهرة والإسلام غذاء تغذى به الحياة الباطنة، فهذا كله مثال وليس بمثل، بل هذه الأشياء لها. والله تعالى لا مثل له لكن له أمثلة محاكية لمناسبة معقولة من صفات الله تعالى، فإنا إذا عرفنا المسترشد أن الله تعالى كيف يخلق الأشياء وكيف يعلمها وكيف يزيدها وكيف يتكلم وكيف يقوم الكلام بنفسه. مثلنا جميع ذلك بالإنسان، ولولا أن الإنسان عرف من نفسه هذه الصفات لما فهم مثاله فى حق الله تعالى، فالمثال فى حق الله تعالى جائز، والمثل باطل، فإن المثال هو ما يوضح الشئ والمثل ما يشابه الشئ.

فإن قيل: هذا التحقيق الذى ذكرتموه ليس يفضى إلى أن الله تعالى يرى فى المنام. بل إلى أن الرسول أيضًا لا يرى، فإن المرئى مثاله لا عينه فقوله: «**مَنْ رآنى فِى المَنَامِ فَقَدْ رآنى**» فهو نوع تجوز معناه كأنه رآنى وما سمع من المثال كأنه سمع منى.

قلنا: وهذا ما يريده القائل بقوله: رأيت الله تعالى فى المنام لا غير. أما أن يريد به أنه رأى ذاته على ما هو عليه فلا، فإنه حصل الاتفاق على أن ذات الله تعالى لا ترى وإن مثالاً يعتقده النائم ذات الله تعالى أو ذات النبى يجوز أن يرى، وكيف ينكر ذلك، مع وجوه فى المنامات، فإن لم يره بنفسه فقد تواتر إليه من جماعة أنهم رأوا ذلك، إلا أن المثال المعتقد قد يكون صادقًا وقد يكون كاذبًا، ومعنى الصادق أن الله تعالى جعل رؤياه واسطة بين الرائى وبين النبى فى تعريف بعض الأمور، وفى قدرة الله تعالى خلق هذه الواسطة بين العبد وبين اتصال الحق به وهو موجود، فكيف يمكن إنكاره؟

فإن قيل: إذا كانت رؤية الرسول تجوزًا، فالتجوز مما قد أذن فى إطلاقه فى حقه ولا يجوز فى حق الله تعالى من الإطلاقات إلا ما ورد الإذن به.

قلنا: قد ورد الإذن بإطلاق ذلك. فإن رسول الله ﷺ قال: «**رأَيْتُ رَبِّى فِى أَحْسَنِ صُورَةٍ**»، وهذا مما أورد فى الأخبار التى وردت فى إثبات الصورة لله تعالى حيث قال: «**إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِه**»، وليس المراد به صورة دحية الكلبى وفى غيرها من الصور، حتى أنه رآه مرارًا كثيرة وما رآه فى صورته الحقيقة إلا مرة ومرتين، وتمثيل جبريل فى صورة دحية الكلبى ليس بمعنى أنه انقلب ذات جبريل صورة دحية الكلبى، بل إنه ظهرت تلك الصورة للرسول مثالاً مؤديًا عن جبريل ما أوحى إليه، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا

بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. وإذا لم يكن استحالة فى ذات الملك وانقلابًا، بل يبقى جبريل على حقيقته وصفته، وإن ظهر النبى فى صورة دحية الحلبى فلا يستحيل مثل ذلك فى حق الله تعالى فى يقظة ولا فى منام، فهذا ما يدل من جهة الخبر على جواز إطلاقه، وقد ورد عن السلف إطلاق ذلك ونقلت فيه آثار وأخبار، ولو لم يرد فيه إطلاق لكنا نقول: يجوز إطلاق كل لفظة فى حق الله تعالى صادقة لا منع منه ولا تحريم إذا كان لا يوهم الخطأ عند المستمع، وهذا لا يوهم رؤية الذات عند الأكثرين لكثرة تداول الألسنة له فإن معناه كما يجوز أن تقول: إنّا نحب الله تعالى أو نشتاق إليه ونريد لقاءه، وقد سبق إلى فهم قوم من هذه الإطلاقات خيالات فاسدة والأكثرون يفهمون معناه على وجهه من غير خيال فاسد، ويراعى فى هذه الإطلاقات حال خيال المخاطب فيجوز الإطلاق من غير كشف ولا تفسير حيث لا إبهام، ويجب الكشف عند الإبهام. وعلى الجملة هذا يرد الخلاف إلى إطلاق اللفظ وجوازه بعد حصول الاتفاق على لفظ المعنى من أن ذات الله تعالى مرئية، وأن المرئى مثال، وظن من ظن استحالة المثال فى حق الله تعالى خطأ، بل نضرب لله تعالى ولصفاته الأمثال ونتزهه عن المثل ولا نتزهه عن المثال وله المثل الأعلى.

فصل فى الكلام على الفرق بين الواحد والأحد ومعنى الصمد

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. فرق بين الواحد والأحد، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]. فيقال الإنسان شخص واحد وصنف واحد، والمراد به أنه جملة هى جملة واحدة، ويقال ألف واحد، فالواحد المشار إليه من طريق العقل والحس هو الذى يمتنع مفهومه عن وقوع الشركة فيه، والأحد هو الذى لا تركيب فيه ولا جزء له بوجه من الوجوه، فالواحد نفى الشريك والمثل، والأحد نفى الكثرة فى ذاته وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢]. الصمد الغنى المحتاج إليه غيره وهذا دليل على أن الله تعالى إحدى الذات وواحد، لأنه لو كان له شريك فى ملكه لما كان صمدًا غنيًا يحتاج إليه غيره، بل كان هو أيضًا يحتاج إلى شريكه فى المشاركة أو التثنية، ولو كان له أجزاء تركيب واحد لما كان صمدًا يحتاج إليه غيره، بل هو محتاج فى قوامه ووجوه إلى أجزاء تركيبه وحده، فالصمدية دليل على الواحدية والأحدية، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ دليل على أن وجوده المستمر ليس مثل وجود الإنسان الذى يبقى نوعه بالتوالد والتناسل، بل هو وجوده مستمر أزلى وأبدى ولم يولد دليل على أن وجود ليس مثل وجود الإنسان الذى يحصل بعد العدم، ويبقى دائمًا إما فى جنة عالية لا تفنى وإما فى هاوية لا تنقطع، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا

أَحَدٌ﴾ دليل على أن الوجود الحقيقى الذى له تبارك وتعالى وهو الوجود الذى يفيد وجود غيره ولا يستفيد الوجود من غيره ليس إلا له تبارك وتعالى فقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. دليل على إثبات ذاته المنزه المقدس والصمدية نفى وإضافة نفى الحاجة عنه، فلا طريق فى معرفة ذات الله تعالى أبين وأوضح من سلب صفات المخلوقات عنه.

فصل فى كلام حول الصفات

يتخيل بعض الناس كثرة فى ذات الله تعالى من طريق تعدد الصفات وقد صح قول من قال فى الصفات لا هو ولاغيره، وهذا التخيل يقع من توهم التغاير ولا تغاير فى الصفات مثال ذلك: أن إنسانًا يعلم صورة الكتاب وله علم بصورة بسم الله التى تظهر تلك الصورة على القرطاس، وهذه صفة واحدة وكمالها أن يكون المعلوم تبعًا لها، فإنه إذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس بلا حركة يد وواسطة قلم ومداد، فهذه الصفة من حيث إن المعلوم انكشف بها يقال لها علم، ومن حيث إن الألفاظ تدل عليها يقال لا القدرة، ولاتغاير ههنا بين العلم والقدرة والكلام، فإن هذه صفة واحدة فى نفسها ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاثة واحدة، وكل من كان أعور ينظر بالعين العوراء فلا يرى إلا مطلق الصفة فيقول: هو هو، وإذا التفت إلى الاعتبارات الثلاث فقال: هى غيره، ومن اعتبر مطلق الصفة مع الاعتبارات فقد نظر بعينين صحيحتين اعتقد أنها لا هو ولا غيره والكلام فى صفات الله تعالى وإن كان مناسبًا لهذا المثال فهو مباين له بوجه آخر، وتفهيم هذه المعانى بالكتابة عسير غير يسير، وأما الوهم الذى وقع لبعض الناس أن المثال فى حق أوصاف الله تعالى لا يجوز فيدفعه أن ذلك المتوهم لم يميز بين المثل والمثال، فإن المثال يحتاج إليه كما ذكرناه في أن يسترق للمعنى المعقول من الصور المحسوسة صورة تضحه، وتوصل ذلك المعنى المعقول إلى فهم المستفيد، وأما المحسوس فلا يحتاج إلى مثال لأن المحسوس بعينه مندرج فى الخيال. ألا ترى أن من رأى المقدحة والزند والنار تحصل بينهما لا يحتاج إلى مثال لهذه الأشياء، ولكن المعقول المحض الذى لا يندرج فى الخيال ولا يضبطه الخيال فإنه يحتاج إلى الاستعانة بالخيال حتى يصل إلى فهم الضعفاء، وليس لله تعالى مثل كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١]. ولكن له مثال، وقول النبى عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ». إشارة إلى هذا المثال، فإنه لما كان تعالى وتقدس موجودًا قائمًا بنفسه حيًا سميعًا بصيرًا عالمًا قادرًا متكلمًا فالإنسان كذلك، ولو لم يكن الإنسان بهذه الأوصاف موصوفًا لم يعرف الله تعالى، ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، فإن كل ما لم يجد الإنسان

له من نفسه مثالاً يعسر عليه التصديق به والإقرار، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: أيها الإنسان اعرف نفسك تعرف ربك، ولذلك لا يحيط علم الإنسان بأخص وصف الله تعالى، لأنه ليس فى المبدعات والمخلوقات مثال وأنموذج من ذلك الوصف الخاص، وكذلك الاسم للوصف الخاص الذى له تعالى لأن الإنسان إنما يسمى الشئ بعد معرفته إياه، وإذا لم يكن للإنسان إليه طريق وأنموذج فلا علم له به ولا اسم له عنده ولا علامة. فكيف يعرفه؟ فلذلك لا يعرف الله إلا الله. وأعنى أخص وصفه وكنه معرفته فمن قال: إن الإنسان حى عالم قادر سميع بصير متكلم والله تعالى كذلك لايكون هذا القائل مشبهًا، فإن التشبيه إثبات المشاركة فى الوصف الأخص، ومن قال: إن السواد عرض موجود وهو لون، والبياض عرض موجود وهو لون لا يكون مشبهًا السواد بالبياض، فإن الاشتراك فى اللونية والعرضية والوجودية لا يكون تشبيهًا بينهما، ولذلك لا تماثل بين السواد والبياض مع اشتراكهما فى اللونية والعرضية الوجدية، فالمثال فى حق الله سائغ جائز والمثل مستحيل، فإنا نقول: الله تعالى مدبر متصرف فى العالم وليس فى العالم مثال ذلك أن أصبع الإنسان يتحرك ويحركه علمه وإرادته وليس فيها العلم والإرادة فيقع التفهيم بسبب ذلك وتصور الضعيف أنه كيف يكون مدبرًا فاعلاً فى شئ غير مجاور له ولا حال فيه.

فصل فى تكليف الله تعالى عباده

تكليف الله تعالى عباده لا يضاهى تكليف الإنسان عبده الأعمال التى يرتبط بها غرضه وما لا حظ له فيه وما لا يحتاج إليه فلا يكلفه به، وتكليف الله تعالى عباده يجرى مجرى تكليف الطبيب المريض، فإذا غلبت عليه الحرارة أمره بشرب المبردات والطبيب غنى عن شربه لا يضره مخالفته ولا ينفعه موافقه، ولكن الضرر والنفع يرجعان إلى المريض وإنما الطبيب هادٍ ومرشد فقط، فإن وفق المريض حتى وافق الطبيب شفى وتخلص، وإن لم يوفق فخالفه تمادى به المرض وهلك، وبقاؤه وهلاكه عند الطبيب سيان، فإنه مستغن عن بقائه وفنائه، فكما أن الله تعالى خلق للشفاء سببًا مفضيًا إليه كذلك خلق للسعادة سببًا وهو الطاعات، ونهى النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الأخلاق منجيات ورذائل فى الآخرة مهلكات. كما أن رذائل الأخلاق ممرضات فى الدنيا ومهلكات والمعاصى بالإضافة إلى حياة الآخرة كالسموم بالإضافة إلى حياة الدنيا وللنفوس طب كما أن للأجسام طبًّا والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء النفوس يرشدون الخلق إلى طريق الفلاح بتمهيد الطريق المزكية للقلوب، كما قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ﴿٩﴾ **وَقَدْ خَابَ مَن**

دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. ثم يقال: إن الطبيب أمره بكذا ونهاه عن كذا، وأنه زاد مرضه لأنه خالف الطبيب، وأنه صح لأنه راعى قانون الطبيب ولم يقصر فى الاحتماء، وبالحقيقة لم يتماد مرض المريض بمخالفة الطبيب لعين المخالفة، بل لأنه سلك غير طريق الصحة التى أمره الطبيب بها، فكذلك التقوى هى الاحتماء الذى ينفى عن القلوب أمراضها وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرى كما تفوت أمراض الأجساد حياة الدنيا، والمثال الآخر أن ملكًا من ملوك الناس يمد بعض عبيده الغائب عن مجلسه بمال ومركوب ليتوجه تلقاءه لينال رتبة القرب منه،ويسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به، وتصميم العزم على أن لا يستخدمه أصلاً، ثم إن العبد إن ضيع المركوب وأهلكه وأنفق المال لا فى زاد الطريق كان كافرًا للنعمة، وإن ركب المركوب وأنفق المال فى الطريق متزودًا به كان شاكرًا للنعمة لا بمعنى أنه أنال الملك حظًا، فإنه لم يرد فى الإنعام عليه وفى تكلفه الحضور حظًا لنفسه ولكن أراد سعادة العبد، فإنه وافق مراد السيد فبه كان شاكرًا وإن خالف عدت مخالفته كفرانًا، والله تعالى ويستوى عنده كفر الكافرين وإيمانهم بالإضافة إلى جلاله واستغنائه، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر، فإنه لا يصلح لعباده فإنه يشقيهم، كما لا يرضى الطبيب هلاك المرضى ويعالجهم، ولا يرضى الملك المستغنى عن عبده لعبده الشقاوة بالبعد عنه ويريد له السعادة بالقرب منه وهو غنى عنه قرب أو بعد، فهكذا ينبغى أن يفهم أمر التكليف فإن الطاعات أدوية والمعاصى سموم وتأثيرها فى القلوب، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، كما لا تسعد الصحة إلا من أتى بمزاج معتدل، وكما يصح قول الطبيب للمريض قد عرفتك ما يضرك وما ينفعك، فإن وافقتنى فلنفسك وإن خالفت فعليها، كذلك قال الله تعالى: ﴿ **مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقوله: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]. وأما العقاب على ترك الأمر وارتكاب النهى فليس العقاب من الله تعالى غضبًا وانتقامًا. ومثال ذلك أن من غادر الوقاع عاقبه الله تعالى بعدم الولد، ومن ترك إرضاع الطفل عاقبه بهلاك الولد، ومن ترك الأكل والشرب عاقبه بالجوع والعطش، ومن ترك تناول الأدوية عاقبه بألم المرض وغضب الله تعالى على عباده غير إرادته الإيلام، كما إن الأسباب والمسببات يتأدى بعضها إلى بعض فى الدنيا بترتيب مسبب الأسباب فبعضها يفضى إلى الآلام وبعضها إلى اللذات ولا يعرف عواقبها إلا الأنبياء، فكذلك نسبة الطاعات والمعاصى إلى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق، فالسؤال عن أنه لم تفض المعصية إلى العقاب كالسؤال فى أنه لم يهلك الحيوان عن السم، ولم يؤد السم إلى الهلاك، ولم يخلق جسد الإنسان على وجه يفعل فيه السم أثرًا وينفعل البدن عنه وهو لا ينفعل عن البدن، فكذلك الكلام فى أنه لما

خلق الله تعالى نفس الإنسان على وجه تكملها وتنجيها الفضائل وتهلكها الرذائل، هذا والله تعالى غير عاجز عن الإشباع من غير أكل والإدواء من غير شرب، والإنشاء من غير مصاحبة وقاع، والإنماء من غير رضاع، ولكنه قد رتب الأسباب والمسببات، ولذلك سر وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون فى العلم، وليس هذا بعجب، وإنما العجب من هذا التدبير المحكم والنظام المتقن، ولعمرى أن من لا يهتدى إلى سر الحكمة فيه يتعجب منه لقصور هدايته، ولو كان كذلك لضاع حظ النبات والحيوانات التى هى ألطف الحيوانات وأقربها إلى الاعتدال مثل الغنم والنعاج والقباج والدجاج وغيرها، وكمال النبات أن يصير غذاء لما هو أعلى منه بالرتبة وهو الحيوان، ولذلك يقوم بدل ما يحلل منه فيصير جزء منه متشبهًا به وهذا كماله، وكذلك نسبة الحيوانات المذبوحة إلى الإنسان ونسبة الإنسان إلى الملائكة فى جنات عدن كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]. وأما كون بعض الحيوانات العجم غذاء لبعض السباع الضارية ففى السباع الضوارى فوائد ومنافع سياسية وطبية يعرفها أرباب السياسة والأطباء، ومثال من يتعجب من وضع هذه الأشياء على ترتيب النظام الكلى على موجب تقدير العزيز الحكيم كمثل الأعمى الذى دخل دارًا فتعثر بالأوانى الموضوعة فى صحن الدار، فقال لأهل الدار: ما الذى أزال عقولكم؟ لماذا لا تردون هذه الأوانى إلى مواضعها؟ ولِمَ تركتموها على الطريق؟ فقيل له: إنها موضوعة فى مواضعها، وإنما الخلل من فقد البصر، وكمثل الأخشم الذى لا يدرك الروائح فيلوم واضع اللخالخ والمثلثات والفواكه العطرة الطيبة بين يديه، فقال: هذا قد شغل المكان فقط، فقيل له فى العودة فائدة سوى اتخاذه على جهة الحطب، وإنما المانع من إدراكه هو الخشم.

وههنا مباحثة أُخرى منها: إن الله تعالى كيف يأمر بالشئ ويمنع من البحث عنه والبصيرة لا تحصل إلا بالبحث عنه وهذا تعجب فاسد، فإن العلم يستدعى اعتقادًا جازمًا أو معرفة حقيقية، والاعتقاد الجازم يعرف بالتقليد المجرد على سبيل التصديق والإيمان، والمعرفة تحصل بالبرهان والوصول إليها بالبحث، ولم يمنع عن البحث الخلائق كلهم، بل الضعفاء العاجزون عن الاطلاع على حقائق البرهان ومعضلات البحث، ومثل ذلك الطبيب الذى يأمر العليل بشرب الدواء ويمنعه عن البحث عن سبب كون هذا الدواء شافيًا، فإنه يقصر عنه فهمه ويشق عليه ويعجز عنه ويزداد المرض ويستضر به، فإن وجد على سبيل الندور مريضًا ذكيًا سالكًا منهاج الطب وعلل الأمراض لم يمنعه من البحث ولم يمنعه عن ذكر المناسبة بين دوائه وبين مرضه، بل إذا علم أنه ليس يؤمن بمجرد قوله وليس يقلد محض التقليد لما خص به من الذكاء وما يفهم من أسباب العلة، وعلم أنه إذا فهم العلة والمناسبة

اشتغل بالعلاج، وإن لم يكن يفهم أعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ولم يمنع من البحث إذا علم استقلاله به، إلا أن ذلك نادر في المرضى جداً، والأكثرون يضعفون عن ذلك وكذلك معرفة العلل والأسرار والبحث عنها في الشرعيات من هذا القبيل، وأما تسخير البهائم للإنسان مثل من يمشى خطوات مثلاً ينظر إلى منتزهات ووجوه حسان، فيقال له: كيف أتعب رجله وسخرها لأجل عينيه والعين آلته، كما أن الرجل آلته فما باله جعل إحداهما خادمة وأتعبها، وجعل الآخرى مخدومة وطلب راحتها، وهذا جهل بالأقدار والمراتب، بل العاقل يعلم أن الكامل أبداً يفدى بالناقص، وأن الناقص يستسخر لأجل الكامل وهو عين الحكمة وليس ذلك بظلم، فإن الظلم هو التصرف في ملك الغير، والله تعالى لا يصادف لغيره ملكًا حتى يكون تصرفه فيه ظلمًا فلا يتصور منه ظلم، بل له أن يفعل ما يشاء في ملكه ويكون عادلاً، والوحى الإلهى والشرع الحق لايرد بما ينبو عنه العقل، فإن أراد بنبو العقل أن برهان العقل يدل على استحالته كخلق الله تعالى مثل نفسه أو الجمع بين المتضادين، فهذا ما لا يرد الشرع به، وأن أراد به ما يقصر العقل عن إدراكه ولا يستقل بالإحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال أن يكون في علم الأطباء مثلاً جلب المغناطيس للحديد، وأن المرأة لو مشت فوق حية مخصوصة ألقت الجنين وغير ذلك من الخواص، وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى أنه لايقف على حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه فلا ينبو عنه الحكم باستحالته، وليس كل ما لا يدركه العقل محالاً في نفسه بل لو لم نشاهد قط النار وإخراجها فأخبرنا مخبر وقال: إنى أصك خشبة بخشبة وأستخرج من بينهما شيئًا أحمر بمقدار عدسة فتأكل هذه البلدة وأهليها حتى لا يبقى منهم شيء من غير أن ينتقل ذلك إلى جوفها، ومن غير أن يزيد في حجمها بل تأكل نفسها فلا تبقى هى ولا البلد، لكنا نقول: هذا الشئ ينبو عنه العقل ولا يقبله، وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك، وكذلك قد يشتمل الشرع على مثل هذه العجائب التى ليست مستحيلة، وإنما هى مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال، فإن البعيد هو ما ليس بمألوف والمحال ما لا يتصور كونه، وأما معنى قول الله تعالى: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿**لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**﴾ [طه : ١٢٥]. فالسؤال قد يطلق ويراد به الإلزام يقال: ناظر فلان فلانًا ويتوجه عليه سؤاله وقد يطلق ويراد به الاستخبار كما يسأل التلميذ أستاذه، والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام وهو المعنى بقوله: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾. إذ لا يقال له: لم قول إلزام فأما أن لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله: ﴿**لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ**﴾. وهذا القدر كاف في جواب هذه الأسئلة، ومن ترقَّ عن محل

التقليد بأدنى كياسة ولم ينته إلى رتبة الاستقلال كان من الهالكين، فنعوذ بالله من كياسة لا تنفع فإن الجهالة أدنى إلى الخلاص والنجاة منها، شعر:

ولم أرَ فى عيوبِ النَّاس شيئا
كنقص القادرين على التمام

فصل

إذا عرفت أنك حادث، وأن الحادث لا يستغنى عن محدث فقد حصل لك البرهان على الإيمان بالله، وما أقرب إلى العقل من هاتين المعرفتين. أعنى أنك حادث وأن الحادث لا يحدث بنفسه، وإذا عرفت نفسك وأنك جوهر خاصيتك معرفة الله ومعرفة ما ليس بمحسوس وليس البدن من قوام ذاتك، فانهدام البدن لا يعدمك فقد عرفت اليوم الآخر بالبرهان فإنه لا معنى له إلا أن لك يومين يوم حاضر أنت فيه مشغول بهذا البدن، ويوم آخر أنت فيه مفارق لهذا الجسد، وإذا لم يكن قوامك بالجسد وقد فارقته بالموت فقد حصل اليوم الآخر، وإذا عرفت أنك إذا فارقت المحسوسات بمفارقة الجسد تلقيت إما نعمة هى معرفة الله تعالى التى هى خاصية ذاتك ومنتهى لذاتك بمقتضى طبعك الأصلى لو لم تمرض بالميل إلى الشهوات، وإما عذابًا بالحجاب عن الله تعالى: ﴿**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ [سبأ: ٥٤]. وعرفت أن سبب المعرفة الذكر والفكر والإعراض عن غير الله تعالى، وسبب المرض المانع عن ذكر الله معرفته الإقبال على الشهوات والحرص على الدنيا، وعرفت أن الله تعالى قادر على أن يعرف عموم عباده ذلك بواسطة الكشف لبعض خواص عباده، وعرفت أنه قد فعل ذلك فقد عرفت رسله بالبرهان وآمنت، وإذا عرفت أن هذه التعريفات بالأنبياء إنما تكون فى كسوة ألفاظ وعبارات توحى إليهم وتلقى فى سمعهم إما فى يقظة أو فى منام، فقد آمنت بالكتب، وإذا عرفت أن أفعال الله تعالى منقسمة إلى ما فعله بواسطة وإلى ما فعله بغير واسطة وأن وسائطه مختلفة المراتب فالوسائط القريبة هم المقربون وعنهم يعبر بالملائكة، لكن معرفة هذا بطريق البرهان عسير والقول فيه طويل فصدق الرسل فى أخبارهم عنهم بعد أن عرفت صدق الرسل بالبرهان، واكتف بذلك فإنه درجة من درجات الإيمان ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١].

فصل

كل ما يتوالد فلا يستحيل أن يتولد أصلاً، وما يتولد لا يستحيل أن يتوالد فقوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ**﴾ [الدهر: ٢]. إنما عنى به الإنسان التوالدى، وقوله: ﴿**خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ**﴾ [الحج: ٥]. عنى به الإنسان التوالدى، وقد تتولد العقارب

من الباذورج ولباب الخبز والحيات من العسل والنحل من العجل والمنخنق المنكسر عظامه والبق من الخل وسام أبرص من القرنبيط والخنافس من البعرة ومن نوى النبق العقرب الجراوة ومن الشعر الحيات ومن الطين والمدر الفأر ومن طين أصول القصب الدائم والرطوبة الطير ولا سيما طير الماء وأمثال ذلك. كما ذكر في كتب الطلسمات وغيرها، ثم يتوالد هذا المتولد ويبقى نوعه بالتوالد وانطباق دائرة معدل النهار على فلك البروج مما يدل على خراب العالم السفلى وتغييره للفصول. أعني الربيع والصيف والخريف والشتاء فلا يبقى الحرث والنسل كما قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن: ٣٦]. يعنى على الأرض، فخلق الله تعالى آدم من تراب ثم حصل منه التوالد ونظير ذلك مشاهد، وكذا الصنائع والحرف تحصل من طريق الإلهام ثم تستفاد وتتعلم، وتحصل النار من المقدحة والزند ثم تقتبس بعد حصولها: ﴿**ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [يس: ٣٨]. الذى خلق عند انفراج الدائرتين معدل النهار وفلك البروج الذى يتزايد، الميل الذى خلق بينهما آدم من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، فمن شك فى كيفية بدء الخلق ووضع الصانع الحكيم فى التوالد والتولد، فلينظر إلى المحسوسات التى ذكرناها، وأما النشأة الأخرى وكيفية عود النفوس والأرواح إلى أشباحها فمذكورة فى بابها.

فصل فى المبدعات

المبدعات والمخلوقات أحدثها الله تعالى بالترتيب، فهو الأول الذى لا أول قبله ومنه تحصل المبدعات بل الممكنات بأسرها، ثم ينزل الترتيب من الأشرف فالأشرف حتى ينتهى إلى المادة التى هى أخس الأشياء، ثم ابتدأ تعالى من الأخس عائدًا إلى الأشرف حتى انتهى إلى الإنسان ويعود الإنسان عند زكاء نفسه إلى حيث قال: ﴿**ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [الفجر: ٢٨]. ولذلك قال: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾ [الحديد: ٣]. أما الظاهر فمركوز فى غرائز العقول أن للكل مبدأ وأن للحادث محدثًا وللممكن موجودًا واجبًا، أما الباطن فلأن وصفه الخاص لا يعرفه إلا هو وربما كان باطنًا لغاية ظهوره، كما أن الشمس التى هى فى غاية البعد عن هذا المثال ظاهر وباهر وبسبب غاية ظهورها لا تدركها الحاسة المبصرة محاذاة ومقابلة.

والميزان: ما يعرف به حقائق الأشياء ويميز به صحيح العقيدة من الفاسد وهو الواسطة بين السماء والأرض حيث قال: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ**﴾ [الرحمن: ٧ ـ ١٠]. وذلك الميزان سر من أسرار الربوبية لا يعرفه إلا الراسخون فى العلم، والله أعلم.

الركن الثانى فى معرفة الملائكة

الملائكة والجن والشياطين جـواهر قائمة بأنفسهـا مختلفة بالحقائق اخـتلافًا يكون بين الأنواع.

مثال ذلك: القدرة فإنهـا مخالفة للعلم والعلم مـخالف للقدرة وهما مـخالفا اللون واللون والقدرة والعلم أعراض قـائمة بغيرها، فكذلك بين الملك والشـيطان والجن اختلاف ومع ذلك، فكل واحد جـوهر قائم بنفسـه وقد وقع الاختـلاف بين الجن والملك فلا يدرى أهو اختـلاف بين النوعين كالاخـتلاف بين الفرس والإنسـان، أو الاختـلاف فى الأعراض كالاخـتلاف بين الإنسان الناقص والكامـل، وكذا الاختلاف بين المـلك والشيطان، وهو أن يكون النوع واحـدًا والاختـلاف واقعًـا فى العـوارض، كالاخـتلاف بين الخـير والشـرير، والاختـلاف بين النبى والولى، والظاهر أن اختـلافهم بالنوع والعلم عنـد الله تعالى، وهذه الجواهر المذكـورة لا تنقسم، أعنى أن محل العلـم بالله تعالى واحد لا ينقـسم، فإن العلم الواحد لا يحل إلا فى محل واحد وحقيقـة الإنسان كذلك، فالعلم والجهل بشئ واحد فى محل واحد متضادان وفى المحلين غير مـتضادين، وإما أن هذا الجوهر غير منقسم وهل هو متحيز أم لا؟ فهذا الكلام عائد إلى معرفة الجزء الذى لا يتجزأ، فإن استحال الجزء الذى لا يتجزأ فهذا الجوهر غير منقسم ولا متـحيز، وإن لم يستحل الجزء الذى لا يتجزأ فيمكن أن يكون هذا الجوهر متحيزًا وقد قال قوم: لا يجـوز أن يكون غير منقسم ولا متحيز، فإن الله تعالى غير منقسم ولا متحيز فما الذى يفصل هذا من ذلك، وهذا غير مبرهن عليه لأن ربما تباينا فى حقـيقة الذات، وإن سلب عنهما الانـقسام والتحيز والأمـور المكانية وتلك سلوب والاعتبار بالحقـائق لأن ما سلب عن الحقائق كالعرضين المختلفين بالحد والحـقيقة أن الحالين فى محل واحد، فـإن إيجاب احتيـاجهما إلى المحل وكـونهما فى المحل لا يفيد تمـاثلهما، فكذلك سلب الاحتيـاج إلى المحل والمكان لا يفيد اشتراك الشـيئين، ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر. أعنى جـواهر الملائكة وإن كانت غير مـحسوسة، وهذه المشاهدة عـلى ضربين إما على سبيل التمثـيل كقوله تعالى: ﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ [مريم: ١٧]. وكما كان النبى عليه الصلاة والسـلام يرى جبريل فى صورة دحية الكلبى . القـسم الثانى أن يكون لبعض الملائكة بدن محسوس، كما أن نفوسنا غير محـسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمهـا الخاص بها، فكذلك بعض الملائكة، وربما كان هذا الـبدن المحسوس موقـوفًا على إشراف نـور النبوة كـما أن محـسوسـات عالمنا هذا مـوقوف عند الإدراك على إشـراق نور الشمس، وكذا فى الجن والشياطين.

فصل في وقوع مزاج قريب من مزاج آخر

وقوع مزاج من مزاج غير مستحيل، فنسبة نفس مزاج واحد هو قريب إلى مزاج آخر إلى نفس ذلك المزاج نسبة مقارنة، فإن كان لإنسان مزاج خاص وله نفس خاصة ثم مات صاحب ذلك المزاج وحدث بعده مزاج خاص وله نفس خاصة ثم مات صاحب ذلك المزاج وحدث بعده مزاج آخر قريب منه، وذلك عند الأدوار والتشكلات الفلكية مثال ذلك حدث مزاج وتشكل الفلك على هيئة مخصوصة، ثم عادت تلك التشكلات بأسرها عودًا يمكن لها وإن لم يكن بالنسبة المخصوصة، إلى مبدأ واحد، فحدث مزاج آخر استحق المزاج الحادث نفسًا أُخرى لتلك النفس مع النفس المفارقة التى كانت للمزاج المناسب له مناسبة لها، فلا تتعلق النفس المفارقة بهذا المزاج تعلقًا كليًّا لاستحالة تصرف النفسين فى بدن واحد، فتتعلق بذلك المزاج تعلقًا دون تعلق تلك النفس الحادثة معه، فتزداد خيرًا إن كانت خيرة وشرًّا إن كانت شريرة، ولذلك يقال لكل إنسان جنى يشاكله ويعاونه أو شيطان يغويه ويضله، وإن حدث مزاجان فى زمان واحد فى بدنين أو فى مكانين وحدثت لهما نفسان كانتا تربين ففى الأبدان تربان وفى النفوس تربان، وكل من تكون مناسبة الأرواح المفارقة إلى روحه أكثر حدث به من تلك الاتصالات أنواع من الأخلاق، فيكون عرافًا كاهنًا أو صاحب تنجيم أو غير ذلك، وربما كانت القوة الوهمية بعد المفارقة بحيث يصير لها العالم المحسوس بدنًا ولا تتعداه إلى العالم الأعلى، فتطالع الأسباب الجزئية فى هذا العالم فتستفيد النفس البدنية المتصلة بها معرفة ما والشرير منها فى غاية الشر، لأنها خرجت عن المادة، فالشرير شيطان والخير من الطبقة الناقصة جن والجن والشياطين علائق يتمسك بها البشر وأفعال روحانية هى مولدات لأفعال طبيعية، والخلاص عن المادة دليل كمال القوة سواء كانت تلك القوة رداءة أو قوة خير، وأما القاعدة عن اليمين والشمال فقالوا فيهما ما قالوا، والحق أن هذا سر إنما يعرفه الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، وملائكة السموات المدبرون المتصرفون فى أجرام السموات لا يعلم أعداد تلك الأجرام إلا الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١]. وملك الموت هو الملك الذى يأمره الله تعالى بقبض الأرواح متضمنًا تفريق المزاج الذى استحق قبول تلك النفس مثاله مثال مطفئ السراج بالنفخ، والنفخ نفخان: نفخ يوقد كما قال تعالى: ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا**﴾ [الأنبياء: ٩١]. ونفخ يطفئ كما قال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ**﴾ [الزمر: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨].

الركن الثالث في المعجزات وأحوال الأنبياء عليهم السلام

تسبيح الحصى، وقلب العصا حية تسعى، وكلام البهائم، وكلام الشاة التي قالت للنبي عليه الصلاة والسلام حين سمتها اليهودية لا تأكل مني فإني مسمومة، وأمثال ذلك على ثلاثة أقسام: القسم الأول الحسي، والثاني الخيالي، والثالث العقلي.

القسم الأول: الحسي، وهو أن يخلق الله العلم والحياة والقدرة في الحصى حتى يتكلم. وفي البهيمة العقل والقدرة والنطق وذلك ليس بمحال فإن الله تعالى قادر على أن يخلق في الباذروج حياة وقدرة وسمًّا، ويخلق منه عقربًا، ويخلق من نوى النبق كذلك. ويخلق من لحوم البقر النحل، ومن النطفة الإنسان وسائر الحيوانات من موادها، فهو قادر على أن يخلق بإعجاز نفس نبوية في الحصاة حياة وقدرة، ومن شاهد خلق الحية النضناضة من شعر امرأة ويحس ولا يتعجب من قلب الشعر حية، فكيف يتعجب من قلب العصا حية، والخشب كان ذا نفس نامية نباتية، والشعر لم يكن قط ذا نفس، والأجسام متماثلة فكما جاز ذلك في أجسام الناس جاز ذلك في سائر الأجسام، وأن كان الجسم الإنساني بسبب اعتدال المزاج قابلاً لهذه الأشياء، فكل جسم مستعد لقبول المزاج المعتدل. وإن كان الاعتدال موقوفًا على الحرارة والرطوبة، فليس يمتنع أن يكون كل جسم قابلاً للحرارة والرطوبة ويكون دعاء النبي وهمته يؤثران في كينونة هذه الأشياء من غير مهلة ومدة، وإن جرت العادة أن يخلق الله تعالى مثل هذه الأشياء في مدة وبذلك يظهر شرف الأنبياء وخرق العادة ليس بمحال مثال ذلك: الشمس والنار، فإن ما يحصل من تأثير الشمس في المائعات وغيرها إنما يحصل بمدة على سبيل التدريج، وما يحصل من إسخان النار يكون دفعة فلم استحال أن يكون تأثير مراد الأنبياء على وجه تكون نسبة إسخان النار إلى إسخان الشمس.

القسم الثاني: العقلي وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وهو شهادة كل مخلوق ومحدث على خالقه وموجود كشهادة البناء على الباني والكتابة على الكاتب، ويقال لذلك لسان الحال والمتكلمون يقولون هذه دلالة الدليل على المدلول، والحمقى من الناس لا يعرفون هذه الرتبة ولا يقرون بها.

القسم الثالث: الخيالي، أن لسان الحال يصير مشاهدًا محسوسًا على سبيل التمثيل. وهذه خاصية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كما أن لسان الحال يتمثل في المنام لغير الأنبياء ويسمعون صوتًا وكلامًا كما يرى في منامه، أن جملاً يكلمه أو فرسًا يخاطبه أو ميتًا يعطيه شيئًا أو يأخذ بيده أو يسلب منه شيئًا أو تصير أصبعه شمسًا أو قمرًا أو يصير ظفره أسدًا أو غير ذلك مما يراه النائم في منامه، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرون ذلك

في اليقظة وتخاطبهم هذه الأشياء في اليقظة، فإن المتيقظ لا يميز بين أن يكون ذلك نطقًا خياليًّا أو نطقًا حسيًّا من خارج، والنائم إنما يعرف ذلك بسبب انتباهه والتفرقة بين النوم واليقظة، ومن كانت له ولاية تامة تفيض تلك الولاية أشعتها على خيالات الحاضرين حتى أنهم يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه، والتمثيل الخيالي أشهر هذه الأقسام والإيمان بهذه الأقسام كلها وأجمعها واجب.

فصل في الشفاعة

وأما شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء، فالشفاعة عبارة عن نور يشرق من الحضرة الإلهية على جوهر النبوة ينشر منها إلى كل جوهر استحكمت مناسبته مع جوهر النبوة لشدة المحبة وكثرة المواظبة على السنن وكثرة الذكر بالصلاة عليه ﷺ ومثاله نور الشمس إذا وقع على الماء فإنه ينعكس منه إلى موضع مخصوص من الحائط لا إلى جميع المواضع، وإنما اختص ذلك الموضع لمناسبة بينه وبين الماء في الموضع وتلك المناسبة مسلوبة على سائر أجزاء الحائط، وذلك الموضع هو الذي إذا خرج منه خط إلى موضع النور من الماء حصلت منه زاوية إلى الإرض مساوية للزاوية الحاصلة من الخط الخارج من الماء إلى قرص الشمس بحيث لا يكون أوسع منه ولا أضيق. مثال ذلك لائح وهذا لايمكن إلا في موضع مخصوص من الجدار، فكما إن المناسبات الوضعية تقتضي الاختصاص بانعكاس النور فالمناسبات المعنوية العقلية أيضًا تقتضي ذلك في الجواهر المعنوية، ومن استوى عليه التوحيد فقد تأكدت مناسبته مع الحضرة الإلهية فأشرف عليه النور من غير واسطة، ومن استولت عليه السنن والاقتداء بالرسول ومحبة اتباعه ولم ترسخ قدمه في ملاحظة الوحدانية لم تستحكم مناسبته إلا مع الواسطة، فافتقر إلى واسطة الماء المكشوف للشمس إلى مثل هذا ترجع حقيقة الشفاعة في الدنيا، فالوزير المتمكن في قلب المخصوص بالعناية قد يغضى الملك عن هفوات أصحاب الوزير يعفو عنهم لا لمناسبة بين الملك وأصحاب الوزير، لكن لأنهم يناسبون الوزير المناسب للملك، ففاضت العناية عليهم بواسطة الوزير لا بأنفسهم، ولو ارتفعت الواسطة لم تشملهم العناية أصلاً، لأن الملك لا يعرف أصحاب الوزير واختصاصهم به إلا بتعريف الوزير وإظهار الرغبة في العفو عنهم فيسمى لفظه في التعريف إظهار شفاعة على سبيل المجاز، وإنما الشفيع مكانته عند الملك وإنما اللفظ لإظهار الغرض والله مستغن عن التعريف، ولو عرف الملك حقيقة اختصاصه بالوزير لاستغنى عن اللفظ وحصل العفو بشفاعة لا نطق فيها ولا كلام، والله تعالى عالم به، فلو أذن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام في التلفظ بما هو معلوم عند الله تعالى لكانت

ألفاظهم ألفاظ الشفعاء، وإذا أراد الله تعالى أن يمثل حقيقة الشفاعة بمثال يدخل فى الحس والخيال لم يكن ذلك التمثيل إلا بألفاظ مألوفة بالشفاعة ويدل على ذلك انعكاس النور بطريق المناسبة، وإن جميع ما ورد فى الأخبار عن استحقاق الشفاعة متعلق بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام من صلاة عليه أو زيارة لقبره أو جواب المؤذن والدعاء له عقيبه وغير ذلك مما يحكم علاقة المودة والمحبة والمناسبة معه.

الركن الرابع فى أحوال ما بعد الموت

فصل فى عذاب القبر

فى عذاب القبر، النفس إذا فرقت البدن حملت القوة الوهمية معها كما ذكرناها، وتتجرد عن البدن منزهة ليس يصحبها شئ من الهيئات البدنية، وهى عند الموت عالمة بمفارقتها عن البدن وعن دار الدنيا متوهمة نفسها الإنسان المقبور الذى مات، وعلى صورته كما كان فى الدنيا يتخيل ويتوهم وتتخيل بدنها مقبوراً ويتخيل الآلام الواصلة إليها على سبيل العقوبات الحية على ما وردت به الشرائع الصادقة، فهذا عذاب القبر، وإن كانت سعيدة تتخيله على صورة ملائمة على وفق ما كانت تعتقده من الجنات والأنهار والحدائق والغلمان والولدان والحور العين والكأس من المعين، فهذا ثواب القبر فلذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام: «**القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران**». فالقبر الحقيقى هذه الهيئات، وعذاب القبر وثوابه ما ذكرناهما، والنشأة الأخرى خروج النفس عن غبار هذه الهيئات كما يخرج الجنين من القرار المكين، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ [يس : ٨٠]. دليل ظاهر ومثال بيِّن لهذه النشأة.

فصل

قول النبى ﷺ: «**مَنْ ماتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ**»، الفاء هنا للتعقيب يعنى قامت قيامة الميت عند موته. مثال ذلك: من سرق نصابًا كاملاً من حرز، فقد استحق قطع يده، وهذا عقاب لا يتأخر عن هذا الفعل. وقال تعالى أيضًا: ﴿**وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ**﴾ [الأنفال: ١٦]. والقيامة الكبرى ميعاد عند

تشابه فلكل واحد منها خواص ببعض أنواع الوجود يعتبر ذلك فى أوقات الحرث والنسل وغيرهما، وعند المتكلمين يرجع ذلك إلى مشيئة الله تعالى، فإنه تعالى يخصص وقتًا يوجد فيه موجودًا بإرادته ومشيئته مع أن الأوقات متشابهة بالإضافة إلى القدرة وإلى ذات القديم سبحانه وتعالى، والفلاسفة يقولون: إن مبادئ الحوادث حركات الأفلاك، وإن أدوارها مختلفة، وكل شكل من تشكلات مباين غيره من التشكلات مقرر ذلك فى براهين إقليدس، إذ كل تشكل وكل عودة من تلك التشكلات لا تعود بعينها، وبذلك يبطلون دعوى المنجمين فى التجربة لكل عودة وتشكل من تشكلات الفلك، فيجوز أن يتجدد دور مباين لسائر الأدوار تحدث فيه الحيوانات غريبة الشكل لم ير مثلها قبلها قط، وإذا ألقينا حجرًا فى الماء يحدث فيه شكل مستدير تكون استدارة هذا الشكل مناسبة لعمقه وكلما ازداد عمقه ازدادت تلك الدائرة، فإذا ألقينا حجرًا آخر قبل تمام هذه الدائر لم يلزم أن تكون حركة الماء فى النوبة الثانية كحركته فى النوبة الأولى، لأن الماء فى الأولى ساكن وفى الأخرى متحرك، فإن تشكيل الحجر للمتحرك خلاف تشكيله للساكن، فتختلف الأشكال مع تساوى الأسباب لامتزاج أثر السابق باللاحق. وهب أن تشكلاً للمتحرك وافق شكلاً آخر فكيف يكون مقومات الثوابت والأوجات وسائر الجواهر على مثل ما كان عليه فى التشكيل الأول، فلا يستحيل أن يكون فى التقدير الأزلى للأدوار دور يخالف هذه الأدوار يقتضى نمطًا من نظام الوجود والإبداع على خلاف النمط المعهود، ولا يستحيل أن يكون ذلك النمط بديعًا لم يسبق له نظير، ولا أن يكون حكمه باقيًا لا يلحقه مثل الدور السابق المنسوخ. فيبقى النمط الحاصل من الإبداع مستمرًا فى جنسه، وإن كانت تتبدل أحواله فيكون ميعاد القيامة الكبرى حصول ذلك التشكيل الغريب من الأسباب العالمية، فيكون سببًا كليًّا جامعًا لجميع الأرواح، فيعم حكمها كافة الأرواح فتكون قيامة عامة مخصوصة بوقت لا تتسع القوة البشرية لمعرفتها. أعنى لمعرفة وقتها ولا الأنبياء المرسلون عليهم الصلاة والسلام، فإن الأنبياء أيضًا يكشف لهم ما يكشف بقدر احتمالهم وقبولهم، فإذا لم يقم برهان كلامى ولا فلسفى على استحالته وجب التصديق به إذا ورد الشرع به تشريحًا لا يتطرق إليه الاحتمال والتأويل، وقد صرح الشرع به تصريحًا ضروريًّا يجب الإيمان به ولا يمكن تأويله، وكما جاز أن يحدث دور بشكل يحدث بسببه أنواع الحيوانات لم يعهد مثلها، فكذلك يجب أن يحدث زمان يحشر فيه الموتى وتجمع أجزاؤهم وتعود إلى أشباحهم أرواحهم، فكما أن الجاهل يتأمل فصل الشتاء ويتعجب إن يحصل فيه نبات وثمال إذا ورد فصل الربيع عاين ذلك وبين زمانى الفصلين بعد فى هذه الدار، فكذلك بين زمان النشأة الأولى التى تحصل للإنسان بالتناسل، وزمان النشأة الأخرى التى تحصل للإنسان بالإحياء والإعادة بعيد لا يقاس أحدهما على الثانى.

فصل فى إعادة النفس إلى البدن

عودة النفس إلى البدن بعد مفارقتها عنه فى القيامة أمر ممكن غير مستحيل، ولا ينبغى أن يتعجب منه، بل التعجب من تعلق النفس بالبدن فى أول الأمر أظهر من تعجب عودها إليه بعد المفارقة، وتأثير النفس فى البدن تأثير فعل وتسخير. ولا برهان على استحالة عود هذا وصيرورة هذا البدن مستعدًا مرةً أُخرى لقبول تأثيره وتسخيره. بقى ههنا تعجب من ضعفاء العقول، وهو أن ذلك الاستعداد الإنسانى يحصل قليلاً قليلاً بالتدريج من نطفة فى قرار مكين ثم من علقة إلى تمام الخلقة، وإذا لم يكن كذلك لايقبل استعداد قبول التسخير ودفع هذا التعجب. إنا قد بينا أن ما هو ممكن بالتدريج إنما هو التوالد، وأما التولد فلا يكون بالتدرج بل حدوثه ممكن دفعة واحدة. ألا ترى أن الفأر الذى يتوالد يكون بالتدريج وباجتماع الذكر والأنثى وبعد حمل وسفاد، وأن التولدى منه يكون دفعة فإنه لم يوجد قط مدر ولا تراب بعضه فأر وبعضه بالقوة قريب إلى حجم الفأر، وكذلك الذباب الذى يتولد فى الصيف من العفونات يكون دفعة ولم توجد عفونة تغيرت عن حالها وصارت بالقوة قريبة إلى أن تستحيل ذبابًا من غير مهلة وتدرج، والنشأة الثانية تولدية من تلك الأجزاء التى كانت فى الأصل وإن تفرقت وانخلعت صورها فيرد الله تعالى واهب الصور تلك الصور إلى موادها ويحصل المزاج الخاص مرة أُخرى، ولها نفس حدثت عند حدوث ذلك المزاج ابتداءً فتعود بالتسخير والتصرف إليها مع العلاقة التى بينهما، مثال ذلك راكب سفينة قد غرقت وتفرقت أجزاؤها، وانتقل الراكب بالسباحة إلى جزيرة، ثم ترد تلك الأجزاء بعينها إلى الهيئة الأولى وتوطد وتؤكد عاد إليها راكب السفينة وأجراها وتصرف فيها كما شاء، ولا يجب إن يستحق هذا الحشر وجميع الأجزاء والمزاج المجدد نفسًا أُخرى، فإن حدوث المزاج يستحق حدوث نفس له، أما أعود المزاج إلى الحالة الأولى فلا يستحق إلا عود النفس إلى الحالة الأولى، وأما ظن من ظن أن الأجزاء الأرضية لا تفى بذلك فظن ووهم لا اعتبار بهما، فمن قاس الإنسان والأجزاء الأرضية التى فيها بأجزاء الأرض، وأى مهندس استخرج بالمساحة ذلك الحد، وأما الاختلاف الراجع إلى ذلك فى الكتب الإلهية فى التوراة: إن أهل الجنة يمكثون فى النعيم خمسة عشر ألف سنة ثم يصيرون ملائكة، وإن أهل النار كذا أو أزيد ثم يصيرون شياطين، وفى الإنجيل: أن الناس يحشرون ملائكة لا يطعمون ولا ينامون ولا يشربون ولا يتوالدون ، وفى القرآن: أن الناس يحشرون كما خلقهم الله تعالى أول مرة كما قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]. وسؤال إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وقول عزير ﷺ حكاية منه: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ

بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ [البقرة: ٢٥٩]. ومكث أصحاب الكهف وهو قوله تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ليعلموا أن وعد الله حق﴾ [الكهف: ١٩، ٢١]. دلائل على أن هذه النشأة كائنة ممكنة يجب الإيمان بها، وكان فى قديم الدهر فيها اختلاف الناس والأنبياء عليهم السلام يثبتون تلك بالبراهين والأمثلة المحسوسة، والتعجب من النشأة الأولى أكثر من الأخرى إلا أن النشأة الأولى محسوسة مشاهدة معتادة فسقط التعجب، فإنا لو سمعنا أن إنسانًا حرك نفسه فوق امرأة كما يحرك الممخض وخرج من أجزائه شيء مثل زبد سيال فيخفى ذلك الشيء فى بعض أعضاء المرأة ويبقى مدة على هذه الحالة ثم يصير علقة، ثم العلقة تصير مضغة، ثم المضغة تصير عظامًا، ثم تكسى العظام لحمًا، ثم يحصل فيه الحركة، ثم يخرج من موضع لم يعهد خروج شيء منه على حالة لايهلك أمه ولا يشق عليها فى ولادته، ثم يفتح عينيه ويحصل فى ثدى الأم شيء مثل شراب مائع لم يكن قبل ذلك فيها ويغتذى به الطفل إلى أن يصير هذا الطفل بالتدريج صاحب صناعات واستنباطات، بل ربما هذا الشئ الذى أصله نطفة وهو عند الولادة أضعف خلق الله يصير عن قريب ملكًا جبارًا قهارًا يملك أكثر العالم ويتصرف فيه، فإن التعجب من ذلك أكثر وأوفر من التعجب من النشأة الأخرى، والأصل أن كل شيء لم يشاهده الإنسان ولم يعرف سببه يحصل له منه التعجب، والتعجب هيئة تحصل للإنسان عند مشاهدة شيء لم يشاهده قبل ذلك أو سماع شيء لم يعرف سببه ولم يسمعه قبل ذلك.

فصل

تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور، وبالموت ينكشف الغطاء كما قال الله تعالى: ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ [ق: ٢٢]. ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده وهى مقادير تلك الآثار، وأن بعضها أشد تأثيرًا من البعض، ولا يمتنع فى قدرة الله تعالى إن يجرى سببًا يعرف الخلق فى لحظة واحدة مقادير الأعمال بالإضافة إلى تأثيراتها فى التقريب والإبعاد، فحد الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ومثاله فى العالم المحسوس مختلف، فمنه الميزان المعروف، ومنه القبان للأثقال، والاسطرلاب لحركات الفلك، والأوقات والمسطرة للمقادير، والخطوط والعروض لمقادير حركات الأصوات، فالميزان الحقيقى وإذا مثله الله عز وجل للحواس مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها، فحقيقة الميزان وحده موجودة فى جميع ذلك وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل، وللخيال عند التمثيل، والله تعالى أعلم مما يقدره من صنوف التشكيلات والتصديق بجميع ذلك واجب.

فصل فى الحساب

والحساب جمع متفرقات المقادير وتصريف مبلغها وما من إنسان إلا وله أعمال متفرقة نافعة وضارة ومقربة ومبعدة لا تعرف فذلكتها وقد لا تحصر آحاد متفرقاتها، فإذا حصرت المتفرقات وجمع مبلغها كان حسابًا، فإن كان فى قدرة الله تعالى أن يكشف فى لحظة واحدة للعالمين متفرقات أعمالهم ومبلغ آثارها فهو أسرع الحاسبين، ومعلوم أن فى قدرته ذلك فإذن هو أسرع الحاسبين قطعًا. وسئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: كيف يحاسب الله الخلق فى لحظة من غير تشويش ولا غلط؟ فقال ﷺ: كما يرزقهم مع سائر الحيوانات بلا تشويش ولا غلط.

فصل فى الصراط

الصراط حق. وما قيل إنه مثل الشعرة فى الدقة، فهو ظلم فى وصفه، بل أدق من الشعر، بل لا مناسبة بين دقته ودقة الشعر، وحدته وحدة السيف، كما لا مناسبة فى الدقة بين الخط الهندسى الفاصل بين الظل والشمس الذى ليس من الظل ولا الشمس، وبين دقة الشعر ودقة الصراط مثل دقة الخط الهندسى الذى لا عرض له أصلاً لأنه على مثال الصراط المستقيم، والصراط المستقيم عبارة عن الوسط الحقيقى بين الأخلاق المتضادة، لذلك قد بيَّن الله بهذا الدعاء فى سورة الفاتحة حيث قال: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. وقال فى حق المصطفى صلوات الله عليه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال ﷺ «إِنَّما بُعثتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ». وقال تعالى شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. مثال ذلك السخاوة بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، والاقتصاد بين الإسراف والإقتار، والتواضع بين التكبر والدناءة، والعفة بين الشهوة والخمود، فهذه الأخلاق لها طرف إفراط وطرف تقصير وهما مذمومان والوسط ليس من الإفراط ولا من التقصير فهو على غاية البعد من كل طرف، ولذلك قال النبى ﷺ: «خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا» مثال ذلك الوسط الخط الهندسى الفاصل بين الظل والشمس لا من الظل ولا من الشمس، والتحقيق فى ذلك أن كمال الآدمى فى المشابهة بالملائكة وهم منفكون عن هذه الأوصاف المضادة، وليس فى إمكان الإنسان الانفكاك عنها بالكلية، فكلفه الله تعالى بما يشبه الانفكاك، وإن لم يكن حقيقة الانفكاك وهو الوسط فإن الفاتر لا حار ولا بارد، والعودى لا أبيض ولا أسود، فالبخل والتبذير من صفات الإنسان، والمقتصد السخى كأنه لا بخيل ولا مبذر، فالصراط المستقيم وهو الوسط الحق بين الطرفين الذى لا ميل له إلى

أحد الجانبين وهو أدق من الشعر، فالذى يطلب غاية البعد من الطرفين يكون على الوسط، ولو فرضنا حلقة حديد محماة بالنار وقعت نملة فيها وهى تهرب بطبعها من الحرارة فلا تموت إلا على المركز لأنه الوسط الذى هو غاية البعد من المحيط المحرق، وتلك النقطة لا عرض لها، فإذاً الصراط المستقيم هو الوسط بين الطرفين ولا عرض له. فهو أدق من الشعر، ولذلك خرج عن القدرة البشرية والوقوف عليه فلا جرم بورود أمثالنا النار بقدر ميله عنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. وقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]. فإن العدل بين المرأتين فى المحبة والوقوف على درجة متوسطة لا ميل فيه إلى إحداهما كيف يدخل تحت الإمكان؟ فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم الذى يحكى الله تعالى حقيقته عن النبى ﷺ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. مرَّ على صراط الآخرة مستويًا من غير ميل لأنه فى هذا العالم عود نفسه التحفظ عن الميل، فصار ذلك وصفًا طبيعيًا له فإن العادة طبيعية خامسة. هذا حق قطعًا كما ورد به الشرح وجاء فى الحديث: «يَمُرُّ المؤمنُ عَلَى الصِّراطِ كَالبَرْقِ الخَاطِفِ».

فصل فى الجنان

اللذات المحسوسة الموجودة فى الجنان من أكل وشرب ونكاح يجب التصديق بها لإمكانها، وهى كما تقدم حسى وخيالى وعقلى.

أما الحسى، فبعد رد الروح إلى البدن كما ذكرنا، وأما الكلام فى أن بعض هذه اللذات مما لا يرغب فيها مثل اللبن والاستبرق والطلح المنضود والسدر المخضود، فهذا مما خوطب به جماعة يعظم ذلك فى أعينهم ويشتهونه غاية الشهوة، وفى كل صنف وكل إقليم مطاعم ومشارب وملابس تختص بقوم دون قوم، ولكل واحد فى الجنة ما يشتهيه كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]. وربما يعظم الله تعالى فى الآخرة شهوة لا تكون تلك الشهوة معظمة فى دار الدنيا، كالنظر إلى ذات الله تعالى، فإن الشهوة والرغبة الصادقة فيها فى الآخرة دون الدنيا.

وأما الخيالى، فلا يخفى إمكانه ولذته كما فى النوم إلا أنه مستحقر لانقطاعه عن قريب، فلو كانت دائمة لم يدرك فرق بين الخيالى والحسى لأن التذاذ الإنسان بالصور من حيث انطباعها فى الخيال والحس لا من حيث وجودها من خارج، فلو وجد من خارج ولم يوجد فى حسه بالانطباع فلا لذة، ولو بقى المنطبع فى الحس وعدم الخارج لدامت اللذة

وللقوة المتخيلة قدرة على اختراع الصور فى هذا العالم، إلا أن صورها المخترعة متخيلة وليست محسوسة ولا منطبعة فى القوة والباصرة، فلذلك لو اخترع صورة جميلة فى غاية الجمال وتوهم حضورها ومشاهدتها لم تعظم لذاته لأنه ليس يصير مبصرًا كما فى النوم، فلو كانت له قوة على تصويرها فى القوة الباصرة كما له قوة على تصويرها فى القوة المتخيلة لعظمت لذاته ونزلت منزلة الصور الموجودة من الخارج، ولا تفارق الآخرة الدنيا فى هذا المعنى إلا من حيث كمال القدرة على تصوير القوة الباصرة، وكل ما يشتهيه يحضر عنده فى الحال فتكون شهوته بسبب تخيله وتخيله بسبب إبصاره أى بسبب انطباعه فى القوة الباصرة فلا يخطر بباله شيء يميل إليه إلا ويوجد فى الحال أى يوجد بحيث يراه، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إن فى الجنة سوقًا تباع فيه الصور**»، والسوق عبارة عن اللطف الإلهى الذى هو منبع القدرة على اختراع الصور بحسب المشيئة، وانطباع القوة الباصرة بها انطباعًا ثابتًا إلى دوام المشيئة لا انطباعًا هو معرض للزوال من غير اختيار كما فى النور فى هذا العالم، وهذه القدرة أوسع وأكمل من القدرة على الإيجاد خارج الحس، لأن الموجود من خارج مشغوفًا به محجوبًا عن غيره، وأما هذا فيتسع اتساعًا لا ضيق فيه ولا منع حتى إذا اشتهى مشاهدة الشئ مثلاً ألف شخص فى ألف مكان فى حالة واحدة، لشاهدوه كما خطر ببالهم فى أماكنهم المختلفة، وأما الإبصار الحاصل عن شخص الشئ الموجود من خارج الحس لا يكون إلا فى مكان واحد، وحمل أمر الآخر على ما هو أوسع وأتم للشهوات وأوفق بها أولى ولا نقص فى قدرة الإيجاد.

وأما الوجه الثالث: وهو الوجود العقلى، فأن تكون هذه المحسوسات أمثلة للذات العقلية التى ليست بمحسوسة، لكن العقليات تنقسم إلى أنواع كثيرة مختلفة اللذات كالحسيات، فتكون الحسيات أمثلة لها وكل واحد يكون مثالاً للذة أُخرى مما رتبته فى العقليات توازى رتبة المثال فى الحسيات فإنه لو رأى فى المنام الخضرة والماء الجارى والوجه الحسن والأنهار المطردة باللبن والعسل والخمرة، والأشجار المزينة بالجواهر واليواقيت واللآلئ، والقصور المبنية من الذهب والفضة، والسرر المرصعة بالجواهر، والغلمان الماثلين بين يديه للخدمة، لكان المعبر يفسر ذلك بالسرور ولا يحمله على نوع واحد، بل يحمل كل واحد على نوع آخر من أنواع السرور وقرة العين يرجع بعضه إلى سرور والعلم وكشف المعلومات، وبعضه إلى سرور الملكة ونفاذ الأمر، وبعضه إلى قهر الأعداء، وبعضه إلى مشاهدة الأصدقاء، وإن شمل الجميع اسم اللذة والسرور فهى مختلفة المراتب مختلفة الذوق لكل واحدة مذاق يفارق الآخرة، فكذلك اللذات العقلية ينبغى أن تفهم كذلك، وإن كان مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، فجميع هذه الأقسام ممكنة

فيجوز أن يجمع بين الكل لواحد، ويجوز أن يكون نصيب كل واحد بقدر استعداده. فالمشغوف بالتقليد والجمود على الصور الذى لم تنفتح له طرف الحقائق تمثل له هذه الصور واللذات، والعارفون المستصغرون لعالم الصور واللذات المحسوسة يفتح لهم من لطائف السرور واللذات العقلية ما يليق بهم ويشفى شرهم وشهوتهم إذ حد الجنة أن فيها لكل امرىء ما يشتهيه، وإذا اختلفت الشهوات لم يبعد أن تختلف العقليات واللذات، والقدرة واسعة والقوة البشرية عن الإحاطة بعجائب القدرة قاصرة والرحمة الإلهية ألقت بواسطة النبوة إلى كافة الخلق القدر الذين احتملته أفهامهم، فيجب التصديق بما فهموه والإقرار بما وراء منتهى الفهم فى أُمور تليق بالكرم الإلهى ولا تدرك بالفهم البشرى وإنما يدرك ذلك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فصل

أما التقرب لمشاهدة الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام، فإن المقصود منه الزيارة والاستمداد من سؤال المغفرة وقضاء الحوائج من أزواج الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام، والعبارة عن هذا الإمداد الشفاعة، وهذا يحصل من جهتين: الاستمداد من هذا الجانب والإمداد من الجانب الآخر، ولزيارة المشاهد أثر عظيم فى هذين الركنين. أما الاستمداد فهو بانصراف همة صاحب الحاجة باستيلاء ذكر الشفيع والمزور على الخاطر حتى تصير كلية همته مستغرقة فى ذلك، ويقبل بكليته على ذكره وخطوره بباله وهذه الحالة سبب منه لروح ذلك الشفيع، أو المزور حتى تمده تلك الروح الطيبة بما يستمد منه، ومن أقبل فى الدنيا بهمته وكليته على إنسان فى دار الدنيا، فإن ذلك الإنسان يحس بإقبال ذلك المقبل عليه ويخبره بذلك، فمن لم يكن فى هذا العالم فهو أولى بالتنبيه وهو مهيأ لذلك التنبيه، فإن اطلاع من هو خارج عن أحوال العالم إلى بعض أحوال العالم ممكن، كما يطلع فى المنام على أحوال من هو فى الآخرة أهو مثاب أو معاقب، فإن النوم صنو الموت وأخوه، فبسبب النوم صرنا مستعدين لمعرفة أحوال لم نكن مستعدين فى حالة اليقظة لها، فكذلك من وصل إلى الدار الآخرة ومات موتًا حقيقيًا كان بالاطلاع على هذا العالم أولى وأحرى، فأما كلية أحوال هذا العالم فى جميع الأوقات لم تكن مندرجة فى سلك معرفتهم، كما لم تكن أحوال الماضين حاضرة فى معرفتنا فى منامنا عند الرؤيا ولآحاد المعارف معينات ومخصصات منها همة صاحب الحاجة وهى استيلاء صاحب تلك الروح العزيزة على صاحب الحاجة، وكما تؤثر مشاهدة صور صورة الحى فى حضور ذكره وخطورة نفسه بالبال، فكذلك تؤثر مشاهدة ذلك الميت ومشاهدة تربته التى هى حجاب

قالبه، فإن أثر ذلك الميت فى النفس عند غيبة قالبه ومشهده ليس كأثره فى حال حضوره ومشاهدة قالبه ومشهده، ومن ظن أنه قادر على أن يحضر فى نفس ذلك الميت عنده غيبة مشهدة كما يحضر عند مشاهدة مشهده، فذلك ظن خطأ، فإن للمشاهدة أثرًا بينًا ليس للغيبة مثله، ومن استعان فى الغيبة بذلك الميت لم تكن هذه الاستعانة أيضًا جزافًا ولا تخلو من أثر ما كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صَلَّي عليَّ مرةً صَلَّيْتُ عَلَيْه عشرًا». «ومَنْ أَجَابَ المُؤَذِّنَ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِى». «ومَنْ زَارَ قَبْرِى حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِى». فالتقرب بقالبه الذى هو أخص الخواص له وسيلة تامة متقاضية للشفاعة والتقرب بولده الذى هو بضعة منه، ولو بعد توالد وتناسل، والتقرب بمشهده ومسجده وبلدته وعصاه وسوطه وبعله وعضادته والتقرب بعادته وسيرته والتقرب بكل ما له منها مناسبة إليه تقرب موجب للقرب إليه مقتض لشفاعته، فإنه لا فرق عند الأنبياء فى كونهم فى دار الدنيا وفى كونهم فى دار الآخرة لا فى طريق المعرفة، فإن آلة المعرفة فى الدنيا الحواس الظاهرة وفى العقبى آلة يعرف بها الغيب إما فى كسوة مثال، وإما على سبيل التصريح، وأما الأحوال الأخر فى التقرب والقرب والشفاعة فلا تتغير، والركن الأعظم فى هذا الباب الإمداد والاهتمام من جهة الممد، وإن لم يشعر صاحب الوسيلة بذلك المدد، فإنه لو وضع شعر رسول الله ﷺ أو عضادته أو سوطه على قبر عاص أو مذنب نجا ذلك المذنب ببركات تلك الذخيرة من العذاب، وإن كان فى دار إنسان أو بلدة لا يصيب تلك الدار وأهلها وتلك البلدة وسكانها ببركاتها بلاء، وإن لم يشعر بها صاحب الدار وساكن البلدة، فإن اهتمام النبى ﷺ وهو فى العقبى مصروف إلى ما هو به منسوب، ودفع المكاره والأمراض والعقوبات مفوضة من جهة الله تعالى إلى الملائكة، وكل ملك حريص على إسعاف ما حرص النبى صلوات الله عليه بهمته إليه عن غيره، كما كان فى حال حياته، فإن تقرب الملائكة بروحه المقدسة بعد موته أزيد من تقربه به فى حال حياته.

قد حكى أن أبا طاهر الهجرى القرمطىّ رفع إنسانًا على عنقه حتى يجر ميزاب الكعبة، فمات الإنسان على عاتقه وخرَّ هو ميتًا، وأن جماعة من المصريين نقبوا فى جدار روضة النبى ﷺ وقصدوا إخراج شخصه ونقله إلى مصر كان ذلك فى نصف الليل، فسمع أهل المدينة صوتًا من الهواء احفظوا نبيكم معاشر المسلمين، احفظوا نبيكم فأوقدوا السراج بل أوقدوا السرج والشموع والمشاعل. ورأوا ذلك النقب فى الجدار وحوله جماعة من المصريين موتى.

ونقل أنه ﷺ غرس غصنًا رطبًا فى قبر إنسان وقال: رفع الله تعالى عن صاحبه العذاب ما دام هذا الغصن رطبًا، وذلك من بركات يديه ﷺ وكل من أطاع سلطانًا

وعظمه، فإذا دخل بلده ورأى فيها سهمًا من جعبة ذلك السلطان أو سوطًا له فإنه يعظم تلك البلدة، فالملائكة عليهم السلام يعظمون النبى، فإذا رأوا ذخائره فى دار أو بلدة أو قبر عظموا صاحبه وخففوا عليه العذاب، ولذلك السبب ينفع الموتى أن توضع على قبورهم المصاحف، ويتلى القرآن على رءوس قبورهم، ويكتب القرآن على قراطيس وتوضع القراطيس فى أيدئ الموتى، فهذه أنواع المناسبات على حسب حال من يريد أن يسوى كل مسموع ومشروع على قضية معقولة، والأصل فى ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أُمورًا ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده، وإن اجتمع الحذاق وتفكروا فى الشكل الموضوع على مناسبة الإعداد لسهولة الولادة حالة الطلق ما عرفوا تلك الخاصية. فكيف يطمع الإنسان أن يعرف حقائق ما ورد به الشرع من الأوامر والنواهى والأخبار والوعد والوعيد وغير ذلك، والعقل ضعيف وتصرفه مختصر بالإضافة إلى تلك العجائب، والخواص. قد قررت يا أخى طيب الله عيشك بعض ما يمكن التلويح إليه على وفق ما انتهت فطانتى إليه، وأوصيك ومن معك بالإيمان بهذه الأشياء التى ورد الشرع بتصحيحها دون التوقف فيها، ونعوذ بالله من التوقف، وسأهدى إليك من بعد أن وفقنى الله تعالى عالقًا مضنونًا آخر اسمه المضنون به على غير أهله أحق وأولى من هذا المصنف فإن فى هذا مسائل قررتها فى عدة مواضع ومسائل لم أقررها إلا فى ذلك المصنف. أما المضنون الموجود فقد كان عزيمتى على تقرير أشياء فيه لم أقررها فى شىء من كتبى، اللهم إلا فى إحياء العلوم، فإن علىَّ تقرير أشياء فيه تلويحات وإشارات إلى رموز لا يعرفها إلا أهلها والله المعين الهادى وهو حسبنا وإليه المرجع والمصير.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأجوبة الغزاليَّة فى المسائل الأخروية

المضنون الصغير

سئل الشيخ الإمام الأجل الزاهد السيد حجة الإسلام زين الدين مقتدى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه ونور ضريحه عن معنى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [ص: ٧٢]. ما التسوية وما النفخ وما الروح؟

فقال: التسوية فعل فى المحل القابل للروح، وهو الطين فى حق آدم ﷺ، والنطفة فى حق أولاده بالتصفية وتعديل المزاج، فإنه كما لا يقبل النار يابس محض كالتراب

والحجر ولا رطب محض كالماء، بل لا تتعلق النار إلا بمركب من يابس ورطب ولا كل مركب، فإن الطين مركب ولا تشتعل فيه النار، بل لا بدَّ بعد تركيب الطين الكثيف من تردد في أطوار الخلقة حتى يصير نباتًا لطيفًا، فثبت فيه النار وتشتعل فيه، وكذلك الطين بعد أن ينشئه الله خلقًا بعد خلق في أطوار متعاقبة يصير نباتًا، فيأكله الآدمي فيصير دمًا فتنتزع القوة المركّبة في كل حيوان صفوة الدم الذي هو أقرب إلى الاعتدال، فيصير نطفة فيقبلها الرحم ويمتزج بها مني المرأة فتزداد عند ذلك اعتدالاً، ثم ينضجها الرحم بحرارته فتزداد تناسبًا حتى تنتهي في الصفاء. واستواء نسبة الأجزاء إلى الغاية فتستعد لقبول الروح وإمساكها، كالفتيلة التي تستعد عند شرب الدهن لقبول النار وإمساكها، فالنطفة عند تمام الاستواء والصفاء تستحق باستعدادها روحًا يدبرها ويتصرف فيها، فتفيض إليها من جود الجواد الحق الواهب لكل مستحق ما يستحقه، ولكل مستعد ما يقبله على قدر قبوله واحتماله من غير منع ولا بخل، فالتسوية عبارة عن هذه الأفعال المرددة لأصل النطفة في الأطوار السالكة بها إلى صفة الاستواء والاعتدال.

فصل

وسئل ما النفخ؟

فقال: النفخ عبارة عما أشعل نور الروح في فتيلة النطفة وللنفخ صورة ونتيجة أما صورته، فإخراج الهواء من جوف النافخ إلى جوف المنفوخ فيه حتى يشتعل الحطب القابل للنار، فالنفخ سبب الاشتعال، وصورة النفخ الذي هو سبب في حق الله تعالى محال والمسبب غير محال، وقد يكنى بالسبب عن الفعل الذي يحصل المسبب عنه على سبيل المجاز، وإن لم يكن الفعل المستعار له على صورة الفعل المستعار منه كقوله تعالى: ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [المجادلة: ١٤]. ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٦]. والغضب عبارة عن نوع تغير في الغضبان يتأذى به ونتيجته الهلاك للمغضوب عليه وإيلامه فعبر عن نتيجة الغضب بالغضب، وعن نتيجة الانتقام بالانتقام، وكذلك عبر عما ينتج نتيجة النفخ بالنفخ وإن لم يكن على صورة النفخ.

فقيل له: فما السبب الذي اشتعل به نور الروح في فتيلة النطفة.

قال: هو صفة في الفاعل وصفة في المحل القابل. أما صفة الفاعل فالجود الإلهي الذي هو ينبوع للوجود على ماله قبول الوجود فهو فياض بذاته على كل حقيقة أوجدها، ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة ومثالها فيضان نور الشمس على كل قابل للاستنارة عند ارتفاع الحجاب بينهما، فالقابل للاستنارة وهي الملونات دون الهواء الذي لا لون له وأما

صفة القابل فالاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية، كما قال: سويته، ومثاله صقالة الحديد، فإن المرآة التى ستر الصدأ وجهها لا تقبل الصورة وإن كانت محاذية فلوحاتها الصورة واشتعل الثقيل بتصقيلها فكلما حصل الصقال حدثت فيها الصورة المحاذية من ذى الصور الحاذية، فكذلك إذا حصل الاستواء فى النطفة حدث فيها الروح من خالق الروح من غير تغير فى الخالق، بل إنما حدث الروح الآن لا قبله لتغير المحل بحصول الاستواء الآن لا قبله، كما أن الصور فاضت من ذى الصورة على المرآة فى حكم الوهم من غير حدث فى الصورة، ولكن كان لا يحصل من قبل لا لأن الصورة ليست مهيأة لأن تطبع فى المرآة، لكن لأن المرآة لم تكن صقلية قابلة للصور.

فقيل له: فما الفيض؟

قال: لا ينبغى أن تفهم من الفيض هنا ما تفهم من فيضان الماء من الإناء على اليد، فإن ذلك عبارة عن انفصال جزء من الماء عن الإناء واتصاله باليد، بل افهم منه ما تفهمه من فيضان نور الشمس على الحائط، ولقد غلط قوم فى نور الشمس أيضًا، فظنوا أنه ينفصل شعاع من جرم الشمس ويتصل بالحائط وينبسط عليه وهو خطأ، بل نور الشمس سبب لحدوث شيء يناسبه فى النورية وإن كان أضعف منه فى الحائط المتلون كفيضان الصور على المرآة من ذى الصورة، فإنه ليس بمعنى انفصال جزء من صورة الإنسان واتصاله بالمرآة بل على معنى أن صورة الإنسان مثلاً سبب لحدوث صورة تماثلها فى المرآة المقابلة وليس فيهما اتصال وانفصال إلا السببية المجردة وكذلك الوجود الإلهى سبب لحدوث نور الوجود فى كل ماهية قابلة وجود فيعبر عنه بالفيض.

فصل

قيل له: قد ذكرت التسوية والنفخ، فما الروح وما حقيقته، وهل هو حالٌّ فى البدن حلول الماء فى الإناء، أو حلول العرض فى الجوهر، أم هو جوهر، قائم بنفسه؟ فإن كان جوهرًا قائمًا بنفسه فمتحيز هو أم غير متحيز؟ وإن كان متحيزًا فما مكانه أهو القلب أو الدماغ أو موضع آخر؟ وإن لم يكن متحيزًا فكيف يكون جوهرًا غير متحيز؟

فقال: هذا سؤال عن سر الروح الذى لم يؤذن لرسول الله ﷺ فى كشفه لمن ليس أهلاً له، فإن كنت من أهله فاسمع واعلم أن الروح ليس بجسم يحل البدن حلول الماء فى إناء، ولا هو عرض يحل القلب والدماغ حلول السواد فى الأسود، والعلم فى العالم، بل هو جوهر وليس بعرض لأنه يعرف نفسه وخالقه ويدرك المعقولات، وهذه علوم والعلوم أعارض ولو كان موضوعًا والعلم قائم به، لكان قيام العرض بالعرض، وهذا خلاف

المعقول ولأن العرض الواحد لا يفيد إلا واحدًا فما قام به والروح يفيد حكمين متغايرين، فإنه حين ما يعرف خالقه يعرف نفسه، فدل على أن الروح ليس بعرض والعرض لا يتصف بهذه الصفات ولا هو جسم، لأن الجسم قابل للقسمة والروح لا ينقسم، لأنه لو انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه علم بالشئ الواحد وبالجزء الآخر منه جهل بذلك الشئ الواحد بعينه فيكون فى حالة واحدة عالمًا بالشئ جاهلاً به فيتناقص لأنه فى محل واحد وإلا فالسواد والبياض فى جزأين من العين متناقض، والعلم والجهل بشئ واحد فى شخص واحد محال وفى شخصين غير محال، فدل على أنه واحد وهو باتفاق العقلاء جزء لا يتجزأ أى شىء لا ينقسم إذ لفظ جزء لائق به، لأن الجزء إضافة إلى الكل ولا كل هنا. فلا جزء إلا أن يراد به ما يريد القائل بقوله الواحد جزء من العشرة، فإنك إذا أخذت جميع الأجزاء التى بها قوام العشرة فى كونها عشرة كان الواحد من جملتها وكذلك إذا أخذت جميع الموجودات أو جميع ما به قوام الإنسان فى كونه إنسانًا كان الروح واحدًا من جملتها، فإذا فهمت أنه شىء لا ينقسم فلا يخلو إما أن يكون متحيزًا أو غير متحيز، وباطل أن يكون متحيزًا إذ كل متحيز منقسم، الجزء الذى لا يتجزأ باطل أن يكون منقسمًا بأدلة هندسية وعقلية أقربها أنه لو فرض جوهر بين جوهرين لكان كل واحد من الطرفين يلقى من الوسط غير ما يلقى الآخر، فيجوز أن يقوم بالوجه الذى يلقاه هذا الطرف علم وبالوجه الآخر جهل، فيكون عالمًا جاهلاً فى حالة واحدة بشئ واحد، وكيف لا ولو فرض بسيط مسطح من أجزاء لا تتجزأ لكان الوجه الذى يحاذينا ونراه غير الوجه الآخر الذى لا نراه، فإن الواحد لا يكون مرئيًا وغير مرئى فى حالة واحدة، ولكانت الشمس إذا حاذت أحد وجهيه استنار بها ذلك الوجه دون الوجه الآخر، فإذا ثبت أنه لا ينقسم وأنه لا يتجزأ ثبت أنه قائم بنفسه وغير متحيز أصلاً.

فصل

قيل له: وما حقيقة، وما صفة هذا الجوهر، وما وجه تعلقه بالبدن؟ أهو داخل فيه أو خارج عنه أو متصل به أو منفصل عنه؟

قال ﷺ: لا هو داخل ولا هو خارج ولا هو منفصل ولا متصل، لأن مصحح الاتصاف بالاتصال والانفصال الجسمية والتحيز قد انتفيا عنه فانفك عن الضدين، كما أن الجماد لا هو عالم ولا هو جاهل لأن مصحح العلم والجهل الحياة، فإذا انتفت انتفى الضدان.

فقيل له: هل هو فى جهة؟

فقال له: هو منزه عن الحلول فى المحال والاتصال بالأجسام والاختصاص بالجهات،

فإن كل ذلك صفات الأجسام وأعراضها والروح ليس بجسم ولا عرض فى جسم، بل هو مقدس عن هذه العوارض.

فقيل له: لم منع الرسول ﷺ عن إفشاء هذا السر وكشف حقيقة الروح بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

فقال: لأن الأفهام لا تحتمله لأن الناس قسمان عوام وخواص. أما من غلب على طبعه العامية فهذا لا يقبله ولا يصدقه فى صفات الله تعالى فكيف يصدقه فى حق الروح الإنسانية، ولهذا أنكرت الكرامية والحنبلية ومن كانت العامية أغلب عليه ذلك وجعلوا الإله جسمًا إذ لم يعلقوا موجودًا إلا جسمًا مشارًا إليه، ومن ترقى عن العامية قليلاً نفى الجسمية وما أطاق أن ينفى عوارض الجسمية فأثبت الجهة وقد ترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة، فأثبتوا موجودًا لا فى جهة.

فقيل له: ولم لا يجوز كشف هذا السر مع هؤلاء؟

فقال: لأنهم أحالوا أن تكون هذه الصفات لغير الله تعالى، فإذا ذكرت هذا لبعضهم كفروك وقالوا إنك تصف نفسك بما هو صفة الإله على الخصوص، فكأنك تدعى الإلهية لنفسك.

فقيل له: فلم أحالوا أن تكون هذه الصفة لله ولغير الله تعالى أيضًا؟

فقال: لأنهم قالوا كما يستحيل فى ذوات المكان أن يجتمع اثنان فى مكان واحد يستحيل أيضًا أن يجتمع اثنان لا فى مكان، لأنه إنما استحال اجتماع جسمين فى مكان واحد، لأنه لو اجتمعا لم يتميز أحدهما عن الآخر، فكذلك لو وجد اثنان كل واحد منهما ليس فى مكان. فبم يحصل التميز والعرفان؟ ولهذا أيضًا قالوا: لا يجتمع سوادان فى محل واحد حتى قيل المثلان يتضادان.

فقيل: هذا إشكال قوى فما جوابه؟

قال: جوابه أنهم أخطئوا حيث ظنوا أن التمييز لا يحصل بالمكان بل يحصل التميز بثلاثة أمور: أحدها بالمكان كجسمين فى مكانين، والثانى بالزمان كسوادين فى جوهر واحد فى زمانين، والثالث بالحد والحقيقة كالأعراض المختلفة فى محل واحد مثل اللون والطعم والبرودة والرطوبة فى جسم واحد، فإن المحل واحد والزمان واحد، ولكن هذه معان مختلفة الذوات بحدودها وحقائقها، فيتميز اللون عن الطعم بذاته لا بمكان وزمان ويتميز العلم عن القدرة والإرادة بذاته وإن كان الجميع شيئًا واحدًا، فإذا تصور أعراض مختلفة الحقائق فبأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها فى غير مكان أولى.

فصل

فقيل: هنا دليل آخر على إحالة ما ذكرتموه أظهر من طالب التفرقة وهو أن هذا تشبيه وإثبات لأخص وصف الله تعالى فى حق الروح.

فقال: هيْهات، فإن قولنا الإنسان حى عالم قادر سميع بصير متكلم وإنه تعالى كذلك ليس فيه تشبيه لأنه ليس ذلك أخص الوصف، فكذلك البراءة عن المكان والجهة ليس أخص وصف الإله، بل أخص وصفه أنه قيوم أى هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، وأنه موجود بذاته لا بغيره فكل ما سواه موجود به لا بذاته، بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدم، وإنما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية، والوجود لله تعالى ذاتى ليس بمستعار، هذه الحقيقة أعنى القيومية ليست إلا لله تعالى.

فقيل له: ذكرت معنى التسوية والنفخ والروح ولم تذكر معنى النسبة فى الروح، وأنه لم قال من روحى ولم نسبه إلى نفسه، فإن كان لأن وجوده به فجميع الأشياء أيضًا كذلك وقد نسب البشر إلى الطين، فقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]. ثم قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]. وإن كان معناه أنه جزء من الله تعالى فاض على القلب كما يفيض المال على السائل، فيقول: أفضت عليه من مالى فهذه تجزئة لذات الله، وقد أبطلتم هذا وذكرتم أن إفاضته ليست بمعنى انفصال جزء منه.

فقال: هذا كقول الشمس لو نطقت وقالت: أفضت على الأرض من نورى، فيكون صدقًا ويكون معنى النسبة أن النور الحاصل من جنس نور الشمس بوجه من الوجوه، وإن كان فى غاية الضعف بالإضافة إلى نور الشمس، وقد عرفت أن الروح منزه عن الجهة والمكان وفى قوته العلم بجميع الأشياء والاطلاع عليها، وهذه مضاهاة ومناسبة فلذلك خص بالإضافة وهذه المضاهاة ليست للجسمانيات أصلاً.

فقيل له: ما معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وما معنى عالم الأمر وعالم الحق؟

فقال: كل ما يقع عليه مساحة وتقدير وهو عالم الأجسام وعوارضها يقال إنه من عالم الخلق، والخلق هنا بمعنى التقدير لا بمعنى الإيجاد والإحداث، يقال: خلق الشئ أى قدره قال الشاعر:

وَلأَنْتَ تَفْرِى مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ
ضُ القَوْمِ يَخلقُ ثم لا يفرِى

أى تقدر ثم تقطع الأديم وما لا كمية له ولا تقدير، فيقال: إنه أمر ربانى وذلك

للمضاهاة التى ذكرناها وكل ما هو من هذا الجنس من أرواح البشر وأرواح الملائكة يقال إنه من عالم الأمر، فعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال والجهة والمكان والتحيز، وهو ما لا يدخل تحت المساحة والتقدير لانتفاء الكمية عنه.

فقيل له: أتتوهم أن الروح ليس مخلوقًا وإن كان كذلك فهو قديم؟

فقال: قد توهم هذا جماعة وهو جهل، بل نقول: إن الروح غير مخلوق بمعنى إنه غير مقدر بكمية ولا مساحة، فإنه لا ينقسم ولا يتحيز ونقول أنه مخلوق، لكنه بمعنى أنه حادث وليس بقديم. وبرهان حدوثه طويل ومقدماته كثيرة، ولكن الحق أن الروح البشرية حدثت عند استعداد النطفة للقبول كما حدثت الصور فى المرآة بحدوث الصقالة، وإن كانت الصور سابقة الوجود على الصقالة وإيجاد هذا البرهان أنه إن كانت الأرواح موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة أو واحد وباطل وحدتها وكثرتها فباطل وجودها، وإنما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان لعلمنا ضرورة بأن ما يعلمه زيد يجوز أن يجهله عمرو، ولو كان الجوهر العاقل منهما واحدًا لاستحال اجتماع المتضادين فيه، كما يستحيل فى زيد وحده، ونعنى بالجوهر العاقل الروح ومحال كثرتها لأن الواحد محال أن لا يثنى ولا ينقسم إذا كان ذا مقدار كالأجسام، فالجسم ينقسم فإنه ذو مقدار وذو بعض فيتبعض، أما ما ليس له بعض ولا مقدار فكيف ينقسم وأما تقدير كثرتها قبل التعلق بالبدن فمحال لأنها إما أن تكون متماثلة أو مختلفة، وكل ذلك محال، وإنما استحال التماثل لأن وجود المثلين محال فى الأصل، ولهذا يستحيل وجود سوادين فى محل، وجسمين فى مكان واحد لأن الاثنين يستدعى مغايرة ولا مغايرة هنا وسوادان فى محلين جائز لأن هذا يفارق ذلك فى المحل إذا اختص بمحل لا يختص به الآخر، وكذلك يجوز محل واحد فى زمانين إذ لهذا وصف ليس للآخر وهو الاقتران بهذا الزمان الخاص، فليس فى الوجود مثلان مطلقًا، بل بالإضافة كقولنا: زيد وعمرو هما مثلان فى الإنسانية والجسمية، وسواد الحبر والغراب مثلان فى السوادية، ومحال تغايرهما لأن التغاير نوعان: أحدهما باختلاف النوع والماهية كتغاير الماء والنار وتغاير السواد والبياض، والثانى بالعوارض التى لا تدخل فى الماهية كتغاير الماء الحار والماء البارد، فإن كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع والماهية فمحال لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد والحقيقة وهى نوع واحد، وإن كانت متغايرة بالعوارض فمحال أيضًا لأن الحقيقة الواحدة إنما يتغاير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجسام منسوبة إليها بنوع ما إذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ولو فى القرب من السماء والبعد عنها مثلاً، أما إذا لم يكن كذلك كان الاختلاف محالاً وهذا ربما يحتاجون فى تحقيقه إلى مزيد تقدير لكن هذا القدر ينبه عليه.

فقيل له: كيف يكون حال الأرواح بعد مفارقة الأجسام ولا تعلق لها بالأجسام فكيف تكثرت وتغيرت؟

فقال: لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافًا مختلفة من العلم والجهل والصفاء والكدورة وحسن الأخلاق وقبحها، فبقيت منها متغايرة فعقلت كثرتها بخلاف ما قبل الأجساد فإنه لا معبب لتغايرها.

فصل

فقيل له: ما معنى قوله عليه السلام: «**إن الله تعالى خلق آدم على صورته**» وروى «**على صورة الرحمن**»؟

فقال: الصور اسم مشترك قد يطلق على ترتيب الأشكال ووضع بعضها على بعض واختلاف تركيبها، وهى الصورة المحسوسة، وقد يطلق على ترتيب المعانى التى ليست محسوسة، بل للمعانى ترتيب أيضًا وتركيب وتناسب، ويسمى ذلك صورة، فيقال: صورة المسألة كذا وكذا، وصورة الواقعة وصورة المسألة الحسابية والعقلية كذا ، والمراد بالتسوية فى هذه الصورة هى الصورة المعنوية، والإشارة به إلى المضاهاة التى ذكرناها ويرجعه ذلك إلى الذات والصفات والأفعال، فحقيقة ذات الروح أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا بجسم ولا جوهر متحيز ولا يحل المكان والجهة ولا هو متصل بالبدن والعالم، ولا هو منفصل، ولا هو داخل فى أجسام العالم والبدن، ولا هو خارج، وهذا كله فى حقيقة ذات الله تعالى، وأما الصفات فقد خلق حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا متكلمًا، والله تعالى كذلك. وأما الأفعال فمبدأ فعل الآدمى إرادة يظهر أثرها فى القلب أولاً فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف القلب، فيتصاعد منه إلى الدماغ ثم يسرى منه إلى الأعصاب الخارجة من الدماغ، ومن الأعصاب إلى الأوتار والرباطات المتعلقة بالعضل، فتنجذب الأوتار فيتحرك بها الأصابع، ويتحرك بالأصابع القلم ، وبالقلم المداد مثلاً، فيحدث منه صورة ما يريد كتبه على وجه القرطاس على الوجه المتصور فى خزانة التخيل، فإنه ما لم يتصور فى خياله صورة المكتوب أولاً لا يمكن إحداثه على البياض ثانيًا، ومن استقرأ أفعال الله تعالى وكيفية إحداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تحريك السموات والكواكب، وذلك بطاعة الملائكة له فى تحريك السموات علم أن تصرف الآدمى فى عالمه أعنى بدنه يشبه تصرف الخالق فى العالم الأكبر وهو مثله، وانكشف له أن نسبة شكل القلب إلى تصرفه نسبة العرش ونسبة الدماغ نسبة الكرسى والحواس كالملائكة الذين يطيعون الله طبعًا ولا يستطيعون خلافًا، والأعصاب والأعضاء كالسموات، والقدرة

في الأصابع كالطبيعة المسخرة المركوزة في الأجسام، والقرطاس والقلم والمداد كالعناصر التي هي أمهات المركبات في قبول الجمع والتركيب والتفرقة ومرآة التخيل كاللوح المحفوظ فمن اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف معنى قوله عليه السلام: إن الله تعالى خلق آدم على صورته، ومعرفة ترتيب أفعال الله تعالى معرفة غامضة يحتاج فيها إلى تحصيل علوم كثيرة، وما ذكرناه إشلوة إلى جملة منها.

قيل له: فما معنى قوله عليه السلام: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**؟

قال: لأن الأشياء تعرف بالأمثلة المناسبة، ولولا المضاهات المذكورة لم يقدر الإنسان على الترقي من معرفة نفسه إلى معرفة الخالق، فلولا أن الله تعالى جمع في الآدمي ما هو مثال جملة العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من العوالم، وكأنه رب في عالمه متصرف لما عرف العالم والتصرف والربوبية والعقل والقدرة والعلم وسائر الصفات الإلهية، فصارت النفس بمضاهاتها وموازناتها مرقاة إلى معرفة خالق النفس، وفي استكمال المعرفة بالمسألة التي قبل هذه ما ينكشف الغطا عن وجه هذه المسألة.

فقيل له: إن كانت الأرواح حادثة مع الأجساد فما معنى قوله عليه السلام: **«خَلَقَ الله الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأجْساد بأَلفَيْ عَام»**، وقوله عليه السلام: **«أَنَا أَوَّلُ الأَنْبياءِ خَلْقًا وآخِرُهُمْ بَعْثًا»**، وقوله: **«كُنْتُ نَبيًا وآدَمُ بَيْنَ المَاء والطِّين»**؟

فقال: ليس في هذا ما يدل على قدم الروح، بل يدل على حدوثه، وكونه مخلوقًا. نعم ربما دل بظاهره على تقدم وجوده على الجسد وأمر الظواهر هيّن، فإن تأويلها ممكن والبرهان القاطع لا يدرء بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر، كما في ظواهر التشبيه في حق الله تعالى.

أما قوله عليه السلام: «خَلَقَ الله الأرواح قَبْلَ الأجْسَاد»، فلعله أراد بالأرواح الملائكة، وبالأجساد أجساد العالم من العرش والكرسي والكواكب والهواء والأرض والماء، وكما أن أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة بالإضافة إلى جرم الأرض وجرم الأرض أصغر من جرم الشمس بكثير، ثم لا نسبة لجرم الشمس إلى فلكها ولا لفلكها إلى السموات التي فوقه، ثم كل ذلك اتسع له الكرسي إذ وسع كرسيه السموات والأرض، والكرسي صغير بالإضافة إلى العرش، فإذا تفكرت في جميع ذلك استحقرت أجساد الآدميين ولم تفهمها من مطلق لفظ الأجساد، فكذلك فاعلم وتحقق أن أرواح البشر بالإضافة إلى أرواح الملائكة كأجسادهم بالإضافة إلى أجساد العالم، ولو انفتح لك باب معرفة الأرواح لرأيت الأرواح البشرية بالإضافة إلى أرواح الملائكة كسرج اقتبست من نار عظيم طبق العالم، وتلك النار العظيمة هي أرواح الملائكة، ولأرواح الملائكة ترتيب وكل واحد منفرد برتبته، ولا يجتمع

فى مرتبة واحدة اثنان بخلاف الأرواح البشرية المتكثرة مع اتحاد النوع والرتبة. أما الملائكة، فكل واحد نوع برأسه هو كل ذلك النوع وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٤، ١٦٥].

وبقوله عليه السلام: الراكع منهم لا يسجد والقائم لا يركع، وإنه ما من واحد منهم إلا له مقام ممعلوم، فلا يفهم إذًا من الأرواح والأجساد المطلقة إلا أرواح الملائكة وأجساد العالم.

وأما قوله عليه السلام: «**أَنَا أَوَّلُ الأَنْبِياء خَلْقًا وآخِرُهُمْ بَعْثًا**»، فالخلق هنا هو التقدير دون الإيجاد، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجودًا مخلوقًا، ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير لاحقة فى الوجود، وهو معنى قولهم: أول الفكر آخر العمل. بيانه أن المهندس المقدر للدار أول ما يمثل فى نفسه صورة الدار، فيحصل فى تقديره دار كاملة، وآخر ما يوجد من أثر أعماله هى الدار الكاملة وهى أول الأشياء فى حقِّه تقديرًا وآخرها وجودًا، لأن ما قبلها من ضرب اللبن وبناء الحيطان وتركيب الجذوع وسيلة إلى غاية وكمال وهى الدار، ولأجلها تقدمت الآلات والأعمال، فإذا عرفت هذا فاعلم أن المقصود فطرة الآدميين إدراكهم بسعادة الترب من الحضر الإلهية، ولم يكن ذلك إلا بتعريف الأنبياء وكانت النبوة مقصودة بالإيجاد، والمقصود كمالها وغايتها لا أولها، وإنما تكمل بحسب سنة الله تعالى بالتدريج كما تكمل عمارة الدار بالتدريج لتمهيد أصل النبوة بآدم عليه السلام، ولم يزل ينمو ويكمل حتى بلغ الكمال بمحمد عليه السلام، وكان المقصود كمال النبوة وغايتها وتمهيد أوائلها وسيلة إليها كتأسيس البنيان وتمهيد أُصول الحيطان، فإنه وسيلة إلى كمال صورة الدار ولهذا السر كان خاتم النبيين فإن الزيادة على الكمال نقصان وكمال شكل الآلة الباطشة كف عليه خمس أصابع، فكما أن ذا الأصابع الأربعة ناقص فذو الأصابع الستة ناقص، لأن السادسة زيادة على الكفاية فهو نقصان فى الحقيقة، وإن كانت زيادة فى الصور، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: مثل النبوة كمثل دار معمورة لم يبق فيها إلا موضع لبنة، فكنت أنا موضع تلك اللبنة أولفظ هذا معناه، فإذا عرفت أن كونه خاتم النبيين ضرورة لا يتصور خلافه إذا بلغ به الغاية والكمال، والغاية أول التقدير، آخر فى الوجود.

وأما قوله عليه السلام: «**كُنْتُ نَبِيًّا وآدَم بَيْنَ المَاء وَالطِّين**». فهو أيضًا إشارة إلى ما ذكرناه، وأنه كان نبيًّا فى التقدير قبل تمام خلقه آدم عليه السلام، لأنه لم يشأ خلق آدم إلا لينتزع الصافى من ذريته، ولا يستصفى تدريجًا إلى أن بلغ كمال الصفاء، فقيل الروح القدسى النبوى المخمدى ولا تفهم هذه الحقيقة إلا بأن تعلم أن للدار، مثلاً وجودين وجود

فى ذهن المهندس ودماغه حتى كأنه ينظر إلى صورة الدار، ووجودها خارج الذهن فى الأعيان. والوجود الذهنى سبب الوجود الخارجى العينى فهو سابق لا محالة، فكذلك فاعلم أن الله تعالى يقدر أولاً ثم يوجد على وفق التقدير ثانيًا وإنما التقدير يرسم فى اللوح المحفوظ كما يرسم تقدير المهندس أولاً فى اللوح أو فى القرطاس، فتصير الدار موجودة بكمال صورتها نوعًا من الوجود، فيكون هو سببًا للوجود الحقيقى، كما أن هذه الصورة ترسم فى لوح المهندس بواسطة القلم والقلم يجرى على وفق العلم بل العلم مجريه، فكذلك تقدير صورة الأمور الإلهية ترسم أولاً فى اللوح المحفوظ، وإنما ينتقش اللوح المحفوظ من القلم والقلم يجرى على وفق العلم، واللوح عبارة عن موجود قابل لنقش الصورة فيه، والقلم عبارة عن موجود منه تفيض الصور على اللوح المنتقش، فإن حد القلم هو الناقش لصور، وليس من شرطهما أن يكون قصبًا أو خشبًا المعلومات فى اللوح، واللوح هو المنتقش بتلك الصور، بل من شرطهما أن لا يكونا جسمين فالجسمية لا تدخل فى حد القلمية واللوحية هو ما ذكرنا والزائد عليه صورته لا معناه، فلا يبعد أن يكون قلم الله تعالى ولوحه لائقًا بإصبعيه ويده، وكل ذلك على ما يليق بذاته وإلهيته فتقدس عن حقيقة الجسمية، بل جملتها جواهر روحانية. عالية بعضها معلم كالقلم، وبعضها متعلم كاللوح، فإن الله تعالى علم بالقلم، فإذا فهمت نوعى الوجود فقد كان نبيًّا قبل آدم عليه السلام بمعنى الوجود الأول التقديرى دون الوجود الثانى الحسى العينى، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين آمين.

بداية الهداية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد رسوله وعبده، وعلى آله وصحبه من بعده.

أما بعد؛ فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم، المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرض التعطش إليه، أنك إن كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الأقران واستمالة وجوه الناس إليك وجمع حطام الدنيا، فأنت ساع فى هدم دينك وإهلاك نفسك وبيع آخرتك بدنياك، فصفقتك خاسرة وتجارتك بائرة ومعلمك معين لك على عصيانك وشريك لك فى خسرانك، وهو كبائع سيف من قاطع طريق كما قال ﷺ: «**مَنْ أَعَانَ عَلَى مَعْصِيَةٍ وَلَوْ بِشَطَرِ كَلِمَةٍ كَانَ شَرِيكًا لَهُ فيها**».

وإن كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد

الرواية فأبشر، فإن الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت، وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت؛ ولكن ينبغي لك أن تعلم قبل كل شيء أن الهداية التي هي ثمرة العلم، لها بداية ونهاية وظاهر وباطن، ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد إحكام بدايتها، ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها.

وها أنا مشير عليك ببداية الهداية لتجرب بها نفسك وتمتحن بها قلبك، فإن صادفت قلبك إليها مائلاً ونفسك بها مطاوعة ولها قابلة، فدونك التطلع إلى النهايات والتغلغل في بحار العلوم، وإن صادفت قلبك عند مواجهتك إياها بها مسوفًا وبالعمل بمقتضاها مماطلاً، فاعلم أن نفسك المائلة إلى طلب العلم هي النفس الأمارة بالسوء، وقد انتهضت مطيعة للشيطان اللعين ليدليك بحبل غروره فيستدرجك بمكيدته إلى غمرة الهلاك، وقصده أن يروج عليك الشر في معرض الخير حتى يلحقك بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء وما ورد فيه من الآثار والأخبار، ويلهيك عن قوله ﷺ: **«مَن ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ هُدىً لَمْ يَزْدَدْ منَ الله إلاَّ بُعْدًا»**، وعن قوله ﷺ: **«أَشَدُّ النَّاس عَذابًا يوْمَ القيَامَة عَالمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ الله بعلْمه»**. وكان ﷺ يقول: **«اللَّهمَّ إنِّي أَعُوذُ بك منْ علْمٍ لا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وعَمَلٍ لا يُرْفَعُ وَدُعَاء لايُسْمَعُ»**، وعن قوله ﷺ: **«مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بي بأَقْوَامٍ تقْرضُ شفاهُهُمْ بِمَقَاريضَ منَ نارٍ فَقُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُو: كُنَّا نَأْمُرُ بالخَيْرِ وَلا نأتيه وَنَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَنأْتيه»**.

فإياكَ يا مسكين أن تذعن لتزويره فيدلك بحبل غروره، فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة واحدة! وويل للعالم حيث لم يعمل بما علم ألف مرة!

واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال: رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة، فهذا من الفائزين، ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم مستشعر في قلبه ركاكة حاله وخسة مقصده؛ فهذا من المخاطرين، فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة وبقي أمره في خطر المشيئة، وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل وأضاف إلى العلم والعمل وتدارك ما فرط فيه من الخلل، التحق بالفائزين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان، فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضي من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة لاتِّسامه بسمة العلماء وترسُّمه برسومهم في الزى والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا؛ فهذا من الهالكين ومن

الحمقى المغرورين، إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين وهو غافل عن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢]. وهو ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «**أَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَّالِ**»، فقيل: وَمَا هُوَ يَارَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «**عُلَمَاءُ السُّوءِ**». وهذا لأن الدجال غايته الإضلال، ومثل هذا العالم وإن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله فهو داع لهم إليها بأعماله وأحواله، ولسان الحال أفصح من لسان المقال، وطباع الناس إلى المشاهدة فى الأعمال أميل منها إلى المتابعة فى الأقوال؛ فما أفسده هذا المغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله إذ لا يستجرئ الجاهل على الرغبة فى الدنيا إلا باستجراء العلماء، فقد صار علمه سببًا لجراءة عباد الله على معاصيه، ونفسه الجاهلة مدلة مع ذلك تمنيه وترجيه، وتدعوه إلى أن يمنَّ على الله بعلمه، وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله. فكن أيها الطالب من الفريق الأول، واحذر أن تكون من الفريق الثانى! فكم من مسوف عاجله الأجل قبل التوبة فخسر، وإياك ثم إياك أن تكون من الفريق الثالث فتهلك هلاكًا لا يرجى معه فلاحُك ولا ينتظر صلاحُك.

فإن قلت: فما بداية الهداية لأجرب بها نفسى؟

فاعلم أن بدايتها ظاهرة التقوى، ونهايتها باطنة التقوى، فلا عاقبة إلا بالتقوى، ولا هداية إلا للمتقين. والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، فهما قسمان. وها أنا أشير عليك بجمل مختصرة من ظاهر علم التقوى فى القسمين جميعًا، وألحق قسمًا ثالثًا ليصير هذا الكتاب جامعًا مغنيًا والله المستعان.

القسم الأول فى الطاعات

اعلم أن أوامر الله تعالى فرائض ونوافل: فالفرض رأس المال وهو أصل التجارة وبه تحصل النجاة، والنفل هو الربح وبه الفوز بالدرجات، قال ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ الْمُتَقَرِّبُونَ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ، وَلا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِى يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا**».

ولن تصل أيها الطالب إلى القيام بأوامر الله تعالى إلا بمراقبة قلبك وجوارحك فى لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح إلى حين تمسى؛ فاعلم أنَّ الله تعالى مطلع على ضميرك، ومشرف على ظاهرك وباطنك، ومحيط بجميع لحظاتك وخطراتك وخطواتك، وسائر سكناتك وحركاتك، وأنك فى مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه، فلا يسكن فى الملك والملكوت ساكن ولا يتحرك متحرك إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه ﴿**يَعْلَمُ**

خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. و ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. فتأدب أيها المسكين ظاهرًا وباطنًا بين يدى الله تعالى بأدب العبد الذليل المذنب فى حضرة الملك الجبار القهار، واجتهد أن لا يراك مولاك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع أوقاتك وترتب أورادك من صباحك إلى مسائك، فاصغ إلى ما يلقى إليك مِنْ أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك إلى وقت رجوعك إلى مضجعك.

فصل فى آداب الاستيقاظ من النوم

فإذا استيقظت من النوم فاجتهد أن تستيقظ قبل طلوع الفجر، وليكن أول ما يجرى على قلبك ولسانك ذكر الله تعالى، فقل عند ذلك: الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، أصبحنا وأصبح الملك لله، والعظمة والسلطان لله، والعزة والقدرة لله رب العالمين؛ أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين. اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور. اللهم إنا نسألك أن تبعثنا فى هذا اليوم إلى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءًا أو نجره إلى مسلم أو يجره أحد إلينا. نسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما فيه.

فإذا لبست ثيابك فانْوِ به امتثال أوامر الله تعالى فى ستر عورتك، واحذر أن يكون قصدك من لباسك مراءاة الخلق فتخسر.

باب آداب دخول الخلاء

فإذا قصدت بيت الخلاء لقضاء الحاجة فقدم فى الدخول رجلك اليسرى، وفى الخروج رجلك اليمنى. ولا تستصحب شيئًا عليه اسم الله تعالى ورسوله، ولا تدخل حاسر الرأس ولا حافى القدمين. وقل عند الدخول: باسم الله، أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم؛ وعند الخروج: غفرانك الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى، وأبقى على ما ينفعنى.

وينبغى أن تعد للغسل قبل قضاء الحاجة، وأن لا تستنجى بالماء فى موضع قضاء الحاجة، وأن تستبرئ من البول بالتنحنح والنتر ثلاثًا، وبإمرار اليد اليسرى على أسفل القضيب. وإن كنت فى الصحراء فابعد عن عيون الناظرين أو استتر بشئ إن وجدته، ولا تكشف عورتك قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس، ولا تستقبل الشمس ولا القمر، ولا

تستقبل القبلة ولا تستدبرها، ولا تجلس فى متحدث الناس، ولا تبل فى الماء الراكد وتحت الشجرة المثمرة، ولا فى الجحر. واحذر الأرض الصلبة ومهب الريح احترازًا من الرشاش، لقوله ﷺ: «**إنَّ عَامَّةَ عَذَابِ القَبْرِ مِنْهُ**». واتكىء فى جلوسك على الرجل اليسرى، ولا تبل قائمًا إلا عن ضرورة، واجمع فى الاستنجاء بين استعمال الحجر والماء، فإذا اردت الاقتصار عن أحدهما فالماء أفضل، وإن اقتصرت على الحجر فعليك أن تستعمل ثلاثة أحجار طاهرة منشفة للعين، تمسح بها محل النجو بحيث لا تنقل النجاسة عن موضعها، وكذلك تمسح القضيب فى ثلاثة مواضع من حجر، فإن لم يحصل الإنقاء بثلاثة فتمم خمسة أو سبعة إلى أن ينقى بالإيتار، فالإيتار مستحب والإنقاء واجب. ولا تستنج إلا باليد اليسرى، وقل عند الفراغ من الاستنجاء: اللهم طهر قلبى من النفاق، وحصن فرجى من الفواحش. وادلك يدك بعد تمام الاستنجاء بالأرض أو بحائط ثم اغسلها.

آداب الوضوء

فإذا فرغت من الاستنجاء فلا تترك السواك، فإنه مطهرة للفم ومرضاة للرب ومسخطة للشيطان، وصلاة بسواك أفضل من سبعين صلاة بلا سواك؛ وروى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «**لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى لأَمَرْتَهُمْ بِالسِّوَاكِ فِى كُلِّ صَلاةٍ**»، وعنه ﷺ: «**أُمِرْتُ بِالسِّوَاكِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يُكْتَبَ عَلَىَّ**».

ثم اجلس للوضوء مستقبل القبلة على موضع مرتفع كى لا يصيبك الرشاش وقل: بسم الله الرحمن الرحيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون. ثم اغسل يديك ثلاثًا قبل أن تدخلهما الإناء وقل: اللهم إنى أسألك اليُمْنَ والبركة، وأعوذ بك من الشؤم والهلكة. ثم انو رفع الحدث أو استباحة الصلاة؛ ولا ينبغى أن تعزب نيتك قبل غسل الوجه فلا يصح وضوءك. ثم خذ غرفة لفيك وتمضمض بها ثلاثًا، وبالغ فى رد الماء إلى الغلصمة، إلا أن تكون صائمًا، فترفق وقل: اللهم أعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك، وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. ثم خذ غرفة لأنفك واستنشق بها ثلاثًا، واستنثر ما فى الأنف من الرطوبة، وقل فى الاستنشاق: اللهم أرحنى رائحة الجنة وأنت عنى راض؛ وفى الاستنثار: اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار وسوء الدار. ثم خذ غرفة لوجهك فاغسل بها من مبتدأ تسطيح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن فى الطول، ومن الأذن إلى الأذن فى العرض، وأوصل الماء إلى موضع التحذيف، وهو يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو ما بين رأس الأذن إلى زاوية الجبين، أعنى ما يقع منه فى جبهة الوجه؛ وأوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة: الحاجبين،

والشاربين، والأهداب والعذارين؛ وهما ما يوازيان الأذنين من مبتدأ اللحية. ويجب إيصال الماء إلى منابت الشعر من اللحية الخفيفة دون الكثيفة؛ وقل عند غسل الوجه: اللهم بيض وجهى بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك، ولا تسود وجهى بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك. ولا تترك تخليل اللحية الكثيفة.

ثم أغسل يدك اليمنى، ثم اليسرى مع المرفقين إلى أنصاف العضدين، فإن الحلية فى الجنة تبلغ مواضع الوضوء، وقل عند غسل اليمنى: اللهم أعطنى كتابى بيمينى وحاسبنى حسابًا يسيرًا؛ وعند غسل الشمال: اللهم إنى أعوذ بك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من وراء ظهرى.

ثم استوعب رأسك بالمسح بأن تبلّ يديك، وتلصق رءوس أصابع يديك اليمنى باليسرى، وتضعهما على مقدمة الرأس، وتمرها إلى القفا، ثم تردهما إلى المقدمة، فهذه مرة؛ تفعل ذلك ثلاث مرات؛ وكذلك فى سائر الأعضاء وقل: اللهم غشّنى برحمتك، وأنزل علىّ من بركاتك، وأظللنى تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك؛ اللهم حرم شعرى وبَشَرى على النار.

ثم امسح أذنيك ظاهرهما وباطنهما بماء جديد، وأدخل مسبِّحَتيك فى صماخى أذنيك، وامسح ظاهر أذنيك ببطن إبهاميك وقل: اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم أسمعنى منادى الجنة فى الجنة مع الأبرار.

ثم امسح رقبتك وقل: اللهم فك رقبتى من النار، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال.

ثم اغسل رجلك اليمنى ثم اليسرى مع الكعبين، وخلل بخنصر اليسرى أصابع رجلك اليمنى مبتدئًا بخنصرها حتى تختم بخنصر اليسرى، وتدخل الأصابع من أسفل وقل: اللهم ثبت قدمى على الصراط المستقيم مع أقدام عبادك الصالحين. وكذلك تقول عند غسل اليسرى: اللهم إنى أعوذ بك أن تزل قدمى على الصراط فى النار يوم تزل أقدام المنافقين والمشركين.

وارفع الماء إلى أنصاف الساقين، وراع التكرار ثلاثًا فى جميع أفعالك. فإذا فرغت من الوضوء فارفع بصرك إلى السماء وقل: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، عملتُ سوءًا وظلمت نفسى، أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلنى من التوابين، واجعلنى من المتطهرين، واجعلنى من عبادك الصالحين، واجعلنى صبورًا شكورًا، واجعلنى أذكرك ذكرًا كثيرًا وأسبحك بكرة وأصيلاً.

فمن قال هذه الدعوات فى وضوئه خرجت خطـايـاه من جميع أعضائه، وختم على وضوئه بخاتم، ورفـع له تحت العرش، فلم يزل يسبح الله تعالى ويقـدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

واجتنـب في وضوئك سبـعًا: لا تنفض يديـك فترش الماء. ولا تلطـم وجهك ولا رأسك بالماء لطمًا. ولا تتكلم فى أثناء الوضوء . ولا تزد فى الغسل على ثلاث مرات. ولا تكثر صب الماء من غـير حاجه لمجرد الوسـوسة، فللموسوسين شـيطان يلعب بهم يقال له الوهان. ولا تـتـوضأ بالمـاء المشمس ولا من الأوانى الصـفـرية فهـذه السـبعـة مكروهة فى الوضوء. وفى الخبر أن من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله، ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصابه الماء.

آداب الغسل

فإذا أصابتك جنابة من احـتلام أو وقاع، فخذ الإناء إلى المغـتسل واغسل يديك أولاً ثلاثًا، وأزل مـا على بدنك من قذر، وتوضـأ كمـا سبق فى وضوئـك للصلاة مع جـميع الدعوات؛ وأخـرغسل قدمـيك كيلا يضـيع الماء. فإذا فرغت من الوضـوء فصب الماء على رأسك ثلاثًا وأنت ناو رفع الحدث من الجنابة، ثم على شـقك الأيمن ثلاثًا ثم الأيسر ثلاثًا. وادلك ما أقبل من بدنك وما أدبر ثلاثًا ثلاثًا، وخلل شعر رأسك ولحيتك، وأوصل الماء إلى معاطف البدن ومنـابت الشعر ما خف منه وما كثف. واحـذر أن تمس ذكرك بعد الوضوء، فإن أصابته يدك فأعد الوضوء، والفريضة من جملة ذلك كله النية وإزالة النجاسة واستيعاب البدن بالغسل.

وفرض الوضـوء غسل الوجه واليـدين مع المرفقين، ومسح بعض المرفـقين، ومسح بعض الرأس، وغـسل الرجلين إلى الكعبين مـرة مرة مع النيـة والترتيب، ومـا عداها سنن مؤكدة فضلها كـثير وثوابها جزيل، والمتهاون بها خاسر بل هو بأصل فـرائضه مخاطر، فإن النوافل جوابر للفرائض.

آداب التيمم

فإن عجزت عن اسـتعمال الماء لفقده بعـد الطلب، أو لعذر من مرض، أو لمانع من الوصول إليه من سبع أو حبس، أو كان الماء الحاضر تحتاج إليه لعطشك أو لعطش رفيقك، أو كان ملكًا لغيرك ولم يبع إلا بأكثر مـن ثمن المثل، أو كانت بك جراحة أو مرض تخاف منه على نفسك، فاصبر حتى يدخل وقت الفريضة ثم اقصد صعيدًا طيبًا عليه تراب خالص

طاهر لين، فاضرب عليه بكفيك ضامًّا بين أصابعك، وانو استباحة فرض الصلاة وامسح بهما وجهك كله مرة واحدة، ولا تتكلف إيصال الغبار إلى منابت الشعر خفَّ أو كثف، ثم انزع خاتمك واضرب ضربة ثانية مفرقًا بين أصابعك، وامسح بهما يديك مع مرفقيك، فإن لم تستوعبهما فاضرب ضربة أخرى إلى أن تستوعبهما، ثم امسح إحدى كفيك بالأخرى، وامسح ما بين أصابعك بالتخليل، وصلِّ به فرضًا واحدًا وما شئت من النوافل، فإن أردت فرضًا ثانيًا فاستأنف له تيممًا آخر.

آداب الخروج إلى المسجد

فإذا فرغت من طهارتك فصلِّ فى بيتك ركعتى الصبح إن كان الفجر قد طلع، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ. ثم توجه إلى المسجد، ولا تدع صلاة فى الجماعة لاسيما الصبح، فصلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة. فإن كنت تتساهل فى مثل هذا الربح فأى فائدة لك فى طلب العلم؟ وإنما ثمرة العلم العمل به، فإذا سعيت إلى المسجد فامش على هينة وتؤدة وسكينة، ولا تعجل، وقل فى طريقك: اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك، وبحق الراغبين إليك، وبحق ممشاى هذا إليك، فإنى لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا رياء ولا سمعة، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تنقذنى من النار، وأن تغفر لى ذنوبى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

آداب دخول المسجد

فإذا أردت الدخول إلى المسجد فقدم رجلك اليمنى وقل: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك.

ومهما رأيت فى المسجد من يبيع أو يبتاع فقل: لا أربح الله تجارتك! وإذا رأيت فيه من ينشد ضالة فقل: لا ردَّ الله عليك ضالتك! كذلك أمر رسول الله ﷺ.

فإذا دخلت المسجد فلا تجلس حتى تصلى ركعتى التحية، فإن لم تكن على طهارة أو لم ترد فعلها كفتك الباقيات الصالحات ثلاثًا، وقيل أربعًا، وقيل ثلاثًا للمحدث، وواحد للمتوضئ. فإن لم تكن صليت فى بيتك ركعتى الفجر فيجزئك أداؤهما عن التحية؛ فإذا فرغت من الركعتين فانو الاعتكاف وادع بما دعا به رسول الله ﷺ بعد ركعتى الفجر فقل: «اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها شملى، وتلم بها شعثى، وترد بها أُلفتى، وتصلح بها دينى، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتبيض بها وجهى، وتلهمنى بها رشدى، وتقضى بها حاجتى، وتعصمنى بها من

كل سوء اللهم إنى اسألك إيمانًا خالصًا دائمًا يباشر قلبى، وأسألك يقينًا صادقًا حتى أعلم أنه لم يصيبنى إلا ما كتبته على، ورضنى بما قسمته لى. اللهم إنى أسألك إيمانًا صادقًا ويقينًا ليس بعده كفر، وأسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة. اللهم إنى أسألك الفوز عند اللقاء، والصبر عند القضاء، ومنازل الشهداء وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء. اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى وقصر عملى وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا قاضى الأمور ويا شافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن فتنة القبور، ومن دعوة الثبور. اللهم ما قصر عنه رأيى وضعفى عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدًا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدًا من خلقك، فإنى أرغب إليك فيه، وأسألك إياه يارب العالمين. اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، حربًا لأعدائك، سلمًا لأوليائك؛ نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك. اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. اللهم ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، الركع السجود، الموفين لك بالعهود، إنك رحيم ودود، وأنت تفعل ما تريد، سبحان من اتصف بالعز وقال به! سبحان من لبس المجد وتكرم به! سبحان من لا يبغى التسبيح إلا له! سبحان ذى الفضل والنعم! سبحان ذى الجود والكرم! سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه! اللهم اجعل لى نورًا فى قلبى، ونورًا فى قبرى، ونورًا فى سمعى، ونورًا فى بصرى، ونورًا فى شعرى، ونورًا فى بشرى، ونورًا فى لحمى، ونورًا فى دمى، ونورًا فى عظامى، ونورًا من بين يدى، ونورًا من خلفى، ونورًا عن شمالى، ونورًا من فوقى، ونورًا من تحتى. اللهم زدنى نورًا وأعطنى نورًا أعظم نور، واجعل لى نورًا برحمتك ياأرحم الراحمين».

فإذا فرغت من الدعاء فلا تشتغل إلى وقت الفرض إلا بذكر أو تسبيح أو قراءة قرآن، فإذا سمعت الأذان فى أثناء ذلك فاقطع ما أنت فيه واشتغل بجواب المؤذن، فإذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقل مثل ذلك، وكذلك فى كل كلمة إلا فى الحيعلتين فقل فيهما: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. فإذا قال: الصلاة خير من النوم، فقل: صدقت وبررت وأنا على ذلك من الشاهدين. فإذا سمعت الإقامة فقل مثل ما يقول إلا فى قوله: قد قامت الصلاة، فقل: أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض. فإذا فرغت من جواب المؤذن فقل: اللهم إنى أسألك عند حضور صلاتك، وأصوات دعاتك، وإدبار ليلك، وإقبال نهارك، أن تؤتى محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام

المحمود الذى وعدته، إنك لا تخلف الميعاد ياأرحم الراحمين، فإذا سمعت الأذان وأنت فى الصلاة فتمم الصلاة ثم تدارك الجواب بعد السلام على وجهه، فإذا أحرم الإمام بالفرض فلا تشتغل إلا بالاقتداء به،وصلّ الفرض كما سيتلى عليك فى كيفية الصلاة وآدابها.

فإذا فرغت فقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم؛ اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام، فحينا ربنا بالسلام، وأدخلنا الجنة دار السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، سبحان ربى العلى الأعلى، لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

ثم ادع بعد ذلك بالجوامع الكوامل ما علمه رسول الله ﷺ عائشة ﵂، فقل: «اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل ونية واعتقاد، وأسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ، اللهم وما قضيت على من أمر فاجعل عاقبته رشداً».

ثم ادع بما أوصى به رسول الله ﷺ فاطمة ﵂: فقل: «يا حى يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث ومن عذابك أستجير. لا تكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله بما أصلحت به الصالحين».

ثم قل ما قاله عيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام: «اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو،وأصبح الأمر بيدك لا بيد غيرك، وأصبحت مرتهنًا بعلمى؛ فلا فقير أفقر منى إليك، ولا غنى أغنى منك عنى. اللهم لا تشمت بى عدوى، ولا تسؤ بى صديقى، ولا تجعل مصيبتى فى دينى، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى، ولا تسلط على بذنبى من لا يرحمنى».

ثم ادع بما بدا لك من الدعوات المشهورات، واحفظها مما أوردناه فى كتاب الدعوات من كتاب إحياء علوم الدين.

ولتكن أوقاتك بعد الصلاة إلى طلوع الشمس موزعة على أربع وظائف: وظيفة فى الدعوات، ووظيفة فى الأذكار والتسبيحات، وتكررها فى سبحة، ووظيفة فى قراءة القرآن، ووظيفة فى التفكر؛ فتفكر فى ذنوبك وخطاياك، وتقصيرك فى عبادة مولاك، وتعرضك

لعقابه الأليم وسخطه العظيم، وترتب أوقاتك بتدبيرك أورادك فى جميع يومك، لتتدارك به ما فرطت من تقصيرك، وتحترز من التعرض لسخط الله تعالى الأليم فى يومك، وتنوى الخير لجميع المسلمين، وتعزم أن لا تشتغل فى جميع نهارك إلا بطاعة الله تعالى، وتفصل فى قلبك الطاعات التى تقدر عليها، وتختار أفضلها، وتتأمل تهيئة أسبابها لتشغل بها، ولا تدع عنك التفكر فى قرب الأجل، وحلول الموت القاطع للأمل، وخروج الأمر عن الاختيار، وحصول الحسرة والندامة بطول الاغترار.

وليكن من تسبيحاتك وأذكارك عشر كلمات: إحداهن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير. الثانية: لا إله إلا الله الملك الحق المبين. الثالثة: لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما، العزيز الغفار. الرابعة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. الخامسة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح . السادسة: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. السابعة: أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة والمغفرة. الثامنة: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد. التاسعة: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم. العاشرة: بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم. تكرر كل واحدة من هذه الكلمات إما مائة مرة، أو سبعين مرة، أو عشر مرات وهو أقله، ليكون المجموع مائة.

ولازم هذه الأذكار ولا تتكلم قبل طلوع الشمس، ففى الخبر أن ذلك أفضل من إعتاق ثمان رقاب من ولد إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام؛ أعنى الاشتغال بالذكر إلى طلوع الشمس من غير أن يتخلله كلام.

آداب ما بين طلوع الشمس إلى الزوال

فإذا طلعت الشمس وارتفعت قدر رمح فصلِّ ركعتين، وذلك عند زوال وقت الكراهة للصلاة، فإنها مكروهة من بعد فريضة الصبح إلى ارتفاع الشمس. فإذا أضحى النهار ومضى منه قريب من ربعه، فصلِّ صلاة الضحى أربعًا أو ستًّا أو ثمانيًا مثنى، فقد نقلت هذه الأعداد كلها عن رسول الله ﷺ.

والصلاة خير كلها، فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل، فليس بين طلوع الشمس والزوال راتبة من الصلاة إلا هذه؛ فما فضل عنها من أوقاتك فلك فيه أربع حالات:

الحالة الأولى: وهى الأفضل، أن تصرفه فى طلب العلم النافع فى الدين دون الفضول الذى أكب الناس عليه وسموه علمًا. والعلم النافع هو ما يزيد فى خوفك من الله تعالى، ويزيد فى بصيرتك بعيوب نفسك، ويزيد فى معرفتك بعبادة ربك، ويقلل من رغبتك فى الدنيا، ويزيد فى رغبتك فى الآخرة، ويفتح بصيرتك بآفات أعمالك حتى تحترز منها، ويطلعك على مكايد الشيطان وغروره، وكيفية تلبيسه على علماء السوء حتى عرضهم لمقت الله تعالى وسخطه، حيث اشتروا الدنيا بالدين، واتخذوا العلم ذريعة ووسيلة إلى أخذ أموال السلاطين وأكل أموال الأوقاف واليتامى والمساكين، وصرف همتهم طول نهارهم إلى طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الخلق، واضطرهم ذلك المراءاة والمماراة، والمناقشة فى الكلام والمباهاة. وهذا الفن من العلم النافع قد جمعناه فى كتاب إحياء علوم الدين، فإن كنت من أهله فحصله واعمل به، ثم علمه وادع إليه؛ فمن علم ذلك وعمل به ثم علمه ودعا إليه، فذلك يدعى عظيمًا فى ملكوت السموات بشهادة عيسى عليه السلام.

فإذا فرغت من ذلك كله، وفرغت من إصلاح نفسك ظاهرًا وباطنًا، وفضل شىء من أوقاتك، فلا بأس أن تشتغل بعلم المذهب فى الفقه لتعرف به الفروع النادرة فى العبادات، وطريق التوسط بين الخلق فى الخصومات عند انكبابهم على الشهوات، فذلك أيضًا بعد الفراغ من هذه المهمات من جملة فروض الكفايات. فإن دعتك نفسك إلى ترك ما ذكرناه من الأوراد والأذكار استثقالاً لذلك، فاعلم أن الشيطان اللعين قد دسَّ فى قلبك الداء الدفين، وهو حب المال والجاه، فإياك أن تغتر به فتكون ضحكة له فيهلكك ثم يسخر منك. فإن جبرت نفسك مدة فى الأوراد والعبارات فكنت لا تستثقلها كسلاً عنها، لكن ظهرت رغبتك فى تحصيل العلم النافع ولم ترد به إلا وجه الله تعالى والدار الآخرة، فذلك أفضل من نوافل العبادات مهما صحت النية؛ ولكن الشأن فى صحة النية، فإن لم تصح فهو معدن غرور الجهال ومزلة أقدام الرجال.

الحالة الثانية: أن لا تقدر على تحصيل العلم النافع فى الدين، لكن تشتغل بوظائف العبادات من الذكر والتسبيح والقراءة والصلاة، فذلك من درجات العابدين وسير الصالحين، وتكون أيضًا بذلك من الفائزين.

الحالة الثالثة: أن تشتغل بما يصل منه خير إلى المسلمين، ويدخل به سرور على قلوب المؤمنين، أو يتيسر به الأعمال الصالحة للصالحين، كخدمة الفقهاء والصوفية وأهل الدين، والتردد فى أشغالهم والسعى فى إطعام الفقراء والمساكين، والتردد مثلاً على المرضى بالعيادة وعلى الجنائز بالتشييع؛ فكل ذلك أفضل من النوافل، فإن هذه عبادات وفيها رفق للمسلمين.

الحالة الرابعة: إن لم تقو على ذلك فاشتغل بحاجاتك اكتسابًا على نفسك أو على عيالك، وقد سلم منك المسلمون وأمنوا من لسانك ويدك، وسلم لك دينك إذا لم ترتكب معصية، فتنال بذلك درجة أصحاب اليمين إن لم تكن من أهل الترقى إلى مقامات السابقين؛ فهذا أقل الدرجات فى مقامات الدين، وما بعد هذا فهو مراتع الشياطين، وذلك بأن تشتغل والعياذ بالله بما يهدم دينك، أو تؤذى عبدًا من عباد الله تعالى، فهذه رتبة الهالكين؛ فإياك أن تكون فى هذه الطبقة.

واعلم أن العبد فى حق دينه على ثلاث درجات: إما سالم، وهو المقتصر على أداء الفرائض وترك المعاصى. أو رابح، وهو المتطوع بالقربات والنوافل. أو خاسر، وهو المقصر على اللوازم، فإن لم تقدر أن تكون رابحًا فاجتهد أن تكون سالمًا، وإياك ثم إياك أن تكون خاسرًا.

والعبد فى حق سائر العباد له ثلاث درجات: الأولى: أن ينزل فى حقهم منزلة الكرام البررة من الملائكة، وهو أن يسعى فى أغراضهم رفقًا بهم وإدخالاً للسرور على قلوبهم. الثانية: أن ينزل فى حقهم منزلة البهائم والجمادات، فلا ينالهم خيره ولكن يكف عنهم شره. الثالثة: أن ينزل فى حقهم منزلة العقارب والحيات والسباع الضاريات، لا يرجى خيره ولا يتقى شره. فإن لم تقدر على أن تلتحق بأفق الملائكة فاحذر أن تنزل عن درجة البهائم والجمادات إلى مراتب العقارب والحيات والسباع الضاريات، فإن رضيت لنفسك النزول من أعلى عليين فلا ترض لها بالهوى إلى أسفل سافلين، فلعلك تنجو كفافًا لا لك ولا عليك. فعليك فى بياض نهارك أن لا تشتغل إلا بما ينفعك فى معادك أو معاشك الذى لا تستغنى عنه وعن الاستعانة به على معادك، فإن عجزت عن القيام بحق دينك مع مخالطة الناس وكنت لا تسلم، فالعزلة أولى لك، فعليك بها ففيها النجاة والسلامة. فإن كانت الوساوس فى العزلة تجاذبك إلى ما لا يرضى الله تعالى ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات، فعليك بالنوم فهو أحسن أحوالك وأحوالنا، إذا عجزنا عن الغنيمة رضينا بالسلامة فى الهزيمة. فأخسٌ بحال من سلامة دينه فى تعطيل حياته، إذ النوم أخو الموت، وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات.

آداب الاستعداد لسائر الصلوات

ينبغى أن تستعد لصلاة الظهر قبل الزوال، فتقدم القيلولة إن كان لك قيام فى الليل أو سهر فى الخير، فإن فيها معونة على قيام الليل، كما أن فى السحور معونة على صيام النهار، والقيلولة من غير قيام الليل كالسحور من غير صيام بالنهار. واجتهد أن تستيقظ قبل

الزوال، وتتوضأ، وتحضر المسجد، وتصلى تحية المسجد، وتنتظر المؤذن فتجيبه، ثم تقوم فتصلى أربع ركعات عقب الزوال، كان رسول الله ﷺ يطولهن ويقول: «**هذا وَقْتٌ تُفْتَحُ فيه أَبْوَابُ السَّمَاء، فَأُحبُّ أَنْ يُرْفَعَ لِى فيه عَمَلٌ صَالِحٌ**» وهذه الأربع قبل الظهر سنة مؤكدة، ففى الخبر أن من صلاهن فأحسن ركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له إلى الليل. ثم تصلى الفرض مع الإمام، ثم تصلى بعد الفرض ركعتين، فهما من الرواتب الثابتة.

ولا تشتغل إلى العصر إلا بتعليم علم، أو إعانة مسلم، أو قراءة قرآن، أو سعى فى معاش تستعين به على دينك. ثم تصلى أربع ركعات قبل العصر، فهى سنة مؤكدة، فقد قال رسول الله ﷺ: «**رَحِمَ الله امْرأً صَلَّى أرْبَعًا قَبْلَ العَصْرِ**». فاجتهد أن ينالك دعاؤه ﷺ، ولا تشتغل بعد العصر إلا بمثل ما سبق قبله.

ولا ينبغى أنْ تكون أوقاتك مهملة فتشتغل فى كل وقت بما اتفق كيف اتفق، بل ينبغى أن تحاسب نفسك، وترتب أورادك فى ليلك ونهارك، وتعين لكل وقت شغلاً لاتتعداه ولاتؤثر فيه سواه، فبذلك تظهر بركة الأوقات. فأما إذا تركت نفسك سُدى مهملاً إهمال البهائم، لا تدرى بماذا تشتغل فى كل وقت، فينقضى أكثر أوقاتك ضائعًا، وأوقاتك عمرك، وعمرك رأس مالك، وعليه تجارتك، وبه وصولك إلى نعيم دار الأبد فى جوار الله تعالى، فكل نفس من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها، إذ لا بدل له، فإذا فات فلا عود له. فلا تكن كالحمقى المغرورين الذين يفرحون كل يوم بزيادة أموالهم مع نقصان أعمارهم، فأى خير فى مال يزيد وعمر ينقص. ولاتفرح إلا بزيادة علم أو عمل صالح، فإنهما رفيقاك يصحبانك فى القبر حيث يتخلف عنك أهلك ومالك وولدك وأصدقاؤك.

ثم إذا اصفرت الشمس فاجتهد أن تعود إلى المسجد قبل الغروب، واشتغل بالتسبيح والاستغفار، فإن فضل هذا الوقت كفضل ما قبل الطلوع؛ قال الله تعالى: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**﴾ [طه : ١٣٠].

واقرأ قبل غروب الشمس «والشمس وضحاها» «والليل إذا يغشى» «والمعوذتين» ولتغرب عليك الشمس وأنت فى الاستغفار، فإذا سمعت الأذان فأجبه وقل بعده: اللهم إنى أسألك عند إقبال ليلك وإدبار نهارك، وحضور صلاتك وأصوات دعاتك، أن تؤتى محمدًا الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد. والدعاء كما سبق.

ثم صلِّ الفرض بعد جواب المؤذن والإقامة، وصلِّ بعده ركعتين قبل أن تتكلم فهما راتبتا المغرب، وإن صليت بعدهما أربعًا فهى أيضًا سنة، وإن أمكنك أن تنوى الاعتكاف

إلى العشاء تحيى ما بين العشاءين بالصلاة فافعل، فقد ورد فى فضل ذلك ما لا يحصى؛ وهى ناشئة الليل لأنها أول نشأته، وهى صلاة الأوابين. وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. فقال: «هِيَ الصَّلاةُ مَا بَيْنَ العِشَاءَيْنِ إِنَّهَا تَذْهَبُ بِمَلاغِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَتُهَذِّبُ آخِرَهُ» ـ والملاغى جمع ملغاة وهى من اللغو.

فإذا دخل وقت العشاء فصل أربع ركعات قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين، ففضل ذلك كثير. وفى الخبر أن الدعاء بين الأذانين والإقامة لايرد.

ثم صلِّ الفرد وصلِّ الراتبة ركعتين، واقرأ فيهما سورة «الم السجدة» و «تبارك الملك» أو سورة «يس» و«الدخان»، فذلك مأثور عن رسول الله ﷺ. وصل بعدهما أربع ركعات، ففى الخبر ما يدل على عظيم فضلهن. ثم صل الوتر بعدها ثلاثًا بتسليمتين أو بتسليمة واحدة؛ وكان رسول الله ﷺ يقرأ فيها سورة سبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، والإخلاص، والمعوذتين. فإن كنت عازمًا على قيام الليل فأخر الوتر ليكون آخر صلاتك بالليل وترًا. ثم اشتغل بعد ذلك بمذاكرة علم أو مطالعة كتاب، ولا تشتغل باللهو واللعب فيكون ذلك خاتمة أعمالك قبل نومك، فإنما الأعمال بخواتيمها.

آداب النوم

فإذا أردت النوم فابسط فراشك مستقبل القبلة ونم على يمينك كما يضجع الميت فى لحده. واعلم أن النوم مثل الموت، واليقظة مثل البعث. ولعل الله تعالى يقبض روحك فى ليلتك، فكن مستعدًا للقائه بأن تنام على طهارة، وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك، وتنام تائبًا من الذنوب مستغفرًا، عازمًا على أن لا تعود إلى معصية. واعزم على الخير لجميع المسلمين إن بعثك الله تعالى؛ وتذكر أنك ستضجع فى اللحد كذلك وحيدًا فريدًا، ليس معك إلا عملك، ولا تجزَى إلا بسعيك.

ولا تستجلب النوم تكلفًا بتمهيد الفرش الوطيئة، فإن النوم تعطيل للحياة، إلا إذا كانت يقظتك وبالاً عليك، فنومك سلامة لدينك. واعلم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فلا يكن نومك بالليل والنهار أكثر من ثمان ساعات، فيكفيك إن عشت مثلاً ستين سنة أن تضيع منها عشرين سنة، وهو ثلث عمرك.

وأعد عند النوم سواكك وطهورك. واعزم على قيام الليل أو على القيام قبل الصبح، فركعتان فى جوف الليل كنز من كنوز البر، فاستكثر من كنوزك ليوم فقرك، فلن تغنى عنك كنوز الدنيا إذا مت.

وقل عند نومك: باسمك ربى وضعت جنبى، وباسمك أرفعه، فاغفر لى ذنبى. اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك. اللهم باسمك أحيا وأموت، وأعوذ بك اللهم من شر كل ذى شر، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم. اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ، وأنت الباطن فليس دونك شئ، اقض عنى الدين واغننى من الفقر. اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، إن أمتها فاغفر لها وإن أحييتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة. اللهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك، واستعملنى بأحب الأعمال إليك، حتى تقربنى إليك زلفى، وتبعدنى عن سخطك، بعد أن أسألك فتعطينى، وأستغفرك فتغفر لى، وأدعوك فتستجيب لى.

ثم اقرأ آية الكرسى و ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. إلى آخر السورة، والإخلاص، والمعوذتين، وتبارك الملك. وليأخذك النوم وأنت على ذكر الله تعالى وعلى الطهارة فمن فعل ذلك عرج بروحه إلى العرش وكتب مصليًا إلى أن يستيقظ. فإذا استيقظت فارجع إلى ما عرفتك أولاً، وداوم على هذا الترتيب بقية عمرك، فإن شقَّت عليك المداومة فاصبر صبر المريض على مرارة الدواء انتظارًا للشفاء، وتفكر فى قصر عمرك؛ وإن عشت مثلاً مائة سنة فهى قليلة بالإضافة إلى مقامك فى الدار الآخرة وهى أبد الأباد. وتأمل أنك تتحمل المشقة والذل فى طلب الدنيا شهرًا أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة مثلاً، فكيف لا تتحمل ذلك أيامًا قلائل رجاء الاستراحة أبد الآباد؟ ولا تطول أملك فيثقل عليك عملك، وقدر قرب الموت وقل فى نفسك: إن أتحمل المشقة اليوم فلعلى أموت الليلة، وأصبر الليلة فلعلى أموت غدًا؛ فإن الموت لايهجم فى وقت مخصوص وحال مخصوص وسن مخصوص، فلا بد من هجومه، فالاستعداد له أولى من الاستعداد للدنيا، وأنت تعلم أنك لاتبقى فيها إلا مدة يسيرة، ولعله لم يبق من أجلك إلا يوم واحد أو نَفَس واحد؛ فقدِّر هذا فى قلبك كل يوم، وكلف نفسك الصبر على طاعة الله يومًا فيومًا، فإنك لو قدرت البقاء خمسين سنة وألزمتها الصبر على طاعة الله تعالى نفرت واستعصت عليك، فإن فعلت ذلك فرحت عند الموت فرحًا لا آخر له، وإن سوَّفت وتساهلت جاءك الموت فى وقت لا تحتسبه، وتحسرت تحسرًا لا آخر له، و «عند الصباح يحمد القوم السرى» وعند الموت يأتيك الخبر اليقين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨].

وإذا أرشدناك إلى ترتيب الأوراد، فلنذكر لك كيفية الصلاة والصوم وآدابهما، وآداب الإمامة والقدوة والجمعة.

آداب الصلاة

، فإذا فرغت من طهارة الخبث، وطهارة الحدث فى البدن والثياب والمكان، ومن ستر العورة من السرة إلى الركبة، فاستقبل القبلة قائمًا، مزاوجًا بين قدميك بحيث لا تضمهما، واستو قائمًا. ثم اقرأ ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ تحصنًا بها من الشيطان الرجيم؛ وأحضر قلبك ما أنت فيه، وفرغه من الوسواس، وانظر بين يدى من تقوم ومن تناجى، واستح أن تناجى مولاك بقلب غافل وصدر مشحون بوساوس الدنيا وخبائث الشهوات، واعلم أنه تعالى مطلع على سريرتك، وناظر إلى قلبك، فإنما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك.

واعبده فى صلاتك كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فإن لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك فهذا لقصور معرفتك بجلال الله تعالى؛ فقدِّر أن رجلاً صالحًا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك، فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك، ثم ارجع إلى نفسك وقل: يانفس السوء! ألا تستحين من خالقك ومولاك، إذا قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك وليس بيده ضرك ولا نفعك خشعت جوارحك وحسنت صلاتك، ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك ولا تخشعين لعظمته! أهو تعالى عندك أقل من عبد من عباده؟ فما أشد طغيانك وجهلك، وما أعظم عداوتك لنفسك!

فعالج قلبك بهذه الحيل، فعساه أن يحضر معك فى صلاتك؛ فإنه ليس من صلاتك إلا ما عقلت منها، وأما ما أتيت به مع الغفلة والسهو فهو إلى الاستغفار والتفكير أحوج.

فإذا حضر قلبك فلا تترك الإقامة وإن كنت وحدك، وإن انتظرت حضور جماعة فأذن ثم أقم، فإذا أقمت فانو وقل فى قلبك: أؤدى فرض الظهر لله تعالى؛ وليكن ذلك حاضرًا فى قلبك عند تكبيرك. ولا تغرب عنك النية قبل الفراغ من التكبير، وارفع يديك عند التكبير بعد إرسالهما أولاً إلى حذو منكبيك، وهما مبسوطتان وأصابعهما منشورة، ولا تتكلف ضمهما ولا تفريجهما بحيث تحاذى بإبهاميك شحمتى أذنيك، وبرءوس أصابعك أعلى أذنيك، وبكفيك منكبيك. فإذا استقرتا فى مقرهما فكبر ثم أرسلهما برفق. ولا تدفع يديك عند الرفع والإرسال إلى قدام دفعًا، ولا إلى خلف رفعًا، ولا تنفضهما يمينًا ولاشمالاً. فإذا أرسلتهما فاستأنف رفعهما إلى صدرك، وأكرم اليمنى بوضعها على اليسرى، وانشر أصابع اليمنى على طول ذراعك اليسرى، واقبض بها على كوعها؛ وقل بعد التكبير: «الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلاً» ثم اقرأ: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. ، «لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين». ثم قل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم اقرأ الفاتحة بتشديداتها، واجتهد فى الفرق بين الضاد والظاء فى قراءتك فى الصلاة، وقل آمين ولا تصله بقوله «ولا الضالين» وصلاً.

واجهر بالقراءة فى الصبح والمغرب والعشاء، أعنى فى الركعتين الأوليين، إلا أن تكون مأمومًا؛ واجهر بالتأمين. واقرأ فى الصبح بعد الفاتحة من السور الطوال من المفصل، وفى المغرب من قصاره، وفى الظهر والعصر والعشاء من أواسطه، نحو: «والسماء ذات البروج» وما قاربها من السور، وفى الصبح فى السفر «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد». ولا تصل آخر السورة بتكبيرة الركوع، ولكن افصل بينهما بمقدار سبحان الله.

وكن فى جميع قيامك مطرقًا قاصرًا نظرك على مصلاك، فذلك أجمع لهمك وأجدر لحضور قلبك؛ وإياك أن تلتفت يمينًا وشمالاً فى صلاتك.

ثم كبر للركوع وارفع يديك كما سبق، ومد التكبير إلى انتهاء الركوع، ثم ضع راحتيك إلى ركبتيك وأصابعك منشورة، وانصب ركبتيك، ومد ظهورك وعنقك ورأسك مستويًا كالصفيحة الواحدة، وجاف مرفقيك عن جنبيك؛ والمرأة لا تفعل ذلك، بل تضم بعضها إلى بعض؛ وقل «سبحان ربى العظيم» ثلاثًا، وإن كنت منفردًا فالزيادة إلى السبع والعشر حسن. ثم ارفع رأسك حتى تعتدل قائمًا، وارفع يديك قائلاً: «سمع الله لمن حمده» فإذا استويت قائمًا فقل: «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شىء بعد».

وإن كنت فى فريضة الصبح فاقرأ القنوت فى الركعة الثانية فى اعتدالك من الركوع، ثم اسجد مكبرًا غير رافع اليدين، وضع أولاً على الأرض ركبتيك ثم يديك ثم جبهتك مكشوفة، وضع أنفك مع الجبهة وجاف مرفقيك عن جنبيك، وأقل بطنك عن فخذيك - والمرأة لا تفعل ذلك - وضع يديك على الأرض حذو منكبيك، ولا تفرش ذراعك على الأرض، وقل: «سبحان ربى الأعلى» ثلاثًا أو سبعًا أو عشرًا إن كنت منفردًا.

ثم ارفع رأسك من السجود مكبرًا حتى تعتدل جالسًا، واجلس على رجلك اليسرى، وانصب قدمك اليمنى، وضع يديك على فخذيك والأصابع منشورة وقل: «رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى وعافنى واعف عنى». ثم اسجد ثانية كذلك، ثم اعتدل جالسًا للاستراحة فى كل ركعة لا تشهد عقبها.

ثم تقوم وتضع اليدين على الأرض، ولا تقدم إحدى رجليك فى حالة الارتفاع، وابتدئ بتكبيرة الارتفاع عند القرب من حد جلسة الاستراحة، ومدها إلى منتصف ارتفاعك

إلى القيام، ولتكن هذه الجلسة جلسة خفيفة مختطفة؛ وصلِّ الركعة الثانية كالأولى، وأعد التعوذ فى الإبتداء، ثم اجلس فى الركعة الثانية للتشهد الأول، وضع اليد اليمنى فى جلوس التشهد على الفخذ اليمنى مقبوضة الأصابع، إلا المسبحة والإبهام فترسلهما، وأشر بمسبحة يمناك عند قولك «إلا الله» لا عند قولك «لا إله» وضع اليد اليسرى منشورة الأصابع على الفخذ اليسْرى، واجلس على رجلك اليسرى فى هذا التشهد كما بين السجدتين، وفى التشهد الأخير متوركًا، واستكمل الدعاء المعروف المأثور بعد الصلاة على النبى ﷺ، واجلس فيه على وركك الأيسر، وضع رجلك اليسرى خارجة من تحتك، وانصب القدم اليمنى ثم قل بعد الفراغ: «السلام عليكم ورحمة الله» مرتين، الجانبين، والتفت بحيث يرى بياض خديك من جانبيك، وانو الخروج من الصلاة، وانوِ السلام على من على جانبيك من الملائكة والمسلمين. وهذه هيئة صلاة المنفرد.

وعماد الصلاة الخشوع وحضور القلب مع القراءة والذكر بالتفهم. وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع. وقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ العبْدَ لَيُصَلِّى الصَّلاةَ فَلا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا سُدُسُهَا ولَا عُشْرُهَا، وإنَّمَا يُكْتَبُ للْعَبْدِ مِنْ صَلاته بقَدْرِ ما عَقَلَ مِنْهَا»**

آداب الإمامة والقدوة

ينبغى للإمام أن يخفف الصلاة؛ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما صليت خلف أحد صلاة أخف ولا أتم من صلاة رسول الله ﷺ.

ولا يكبر ما لم يفرغ المؤذن من الإقامة، وما لم تستو الصفوف. ويرفع الإمام صوته بالتكبيرات، ولايرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه. وينوى الإمام الإمامة لينال الفضل، فإذا لم ينوِ صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء به ونالوا فضل القدوة. ويُسِرُّ بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد، ويجهر بالفاتحة والسورة فى جميع الصبح وأولى المغرب والعشاء، وكذلك المنفرد. ويجهر بقوله آمين فى الجهرية، وكذلك المأموم. ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معًا لا تعقيبًا له. ويسكت الإمام سكتة عقب الفاتحة ليثوب إليه نفسه؛ ويقرأ المأموم الفاتحة فى الجهرية فى هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام، ولا يقرأ المأموم السورة فى الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام . ولا يزيد الإمام على الثلاثة فى تسبيحات الركوع والسجود، ولايزيد فى التشهد الأول بعد قول «اللهم صلِّ على محمد». ويقتصر فى الركعتين الأخيرتين على الفاتحة، ولايطول على القوم، ولايزيد دعاءه فى التشهد الأخير على قدر تشهده وصلاته على رسول الله ﷺ. وينوى الإمام عند التسليم

السلام على القوم، وينوى القوم بتسليمهم جوابه. ويلبث الإمام ساعة بعدها يفرغ من السلام، ويقبل على الناس بوجهه، ولا يلتفت إن كان خلفه نساء لينصرفن أولاً. ولايقوم أحد من القوم حتى يقوم الإمام. وينصرف الإمام حيث شاء، عن يمينه أو شماله، واليمين أحب إليه. ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء فى قنوت الصبح بل يقول: «اللهم اهدنا» ويجهر به؛ ويؤمن القوم ولا يرفعون أيديهم، إذ لم يثبت ذلك فى الأخبار. ويقرأ المأموم بقية القنوت من قوله: «إنك لاتقضى ولايقضى عليك». ولا يقف المأموم وحده بل يدخل فى الصف أو يجر إلى نفسه غيره. ولا ينبغى للمأموم أن يتقدم على الإمام فى أفعاله أو يساويه، بل ينبغى أن يتأخر عنه ولايهوى للركوع إلا إذا انتهى الإمام إلى حد الركوع، ولايهوى للسجود ما لم تصل جبهة الإمام إلى الأرض.

آداب الجمعة

اعلم أن الجمعة عيد المؤمنين؛ وهو يوم شريف خصَّ الله عز وجل به هذه الأمة، وفيه ساعة مهمة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها حاجة إلا أعطاه إياها؛ فاستعد لها من يوم الخميس بتنظيف الثياب وبكثرة التسبيح والاستغفار عشية الخميس، فإنها ساعة توازى فى الفضل ساعة يوم الجمعة. وانو صوم يوم الجمعة، لكن مع الخميس أو السبت، إذ جاء فى إفرادها نهى.

فإذ طلع عليك الصبح فاغتسل غسل يوم الجمعة، فإن غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، أى ثابت مؤكد.

ثم تزين بالثياب البيض فإنها أحب الثياب إلى الله تعالى، واستعمل من الطيب أطيب ما عندك، وبالغ فى تنظيف بدنك بالحلق والقصّ والتقليم والسواك وسائر أنواع النظافة وتطيب الرائحة. ثم بكر إلى الجامع، واسْعَ إليه على الهينة والسكينة، فقد قال ﷺ: «**مَنْ رَاحَ إلى الجُمُعَةِ فى السَّاعَةِ الأُولى فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فى السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فى السَّاعَةِ الثَّالثة فكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فى السَّاعَةِ الرَّابعَة فكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فى السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً. فإذا خَرَجَ الإمَامُ طويت الصّحُفُ وَرُفِعَت الأَقْلامُ وَاجْتَمَعَت المَلائكَةُ عِنْدَ المِنْبَرِ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**».

ويقال: إن الناس فى قربهم عند النظر إلى وجه الله تعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة.

ثم إذا دخلت الجامع فاطلب الصف الأول، فإذا اجتمع الناس فلا تتخط رقابهم، ولا تمر بين أيديهم وهم يصلون، واجلس بقرب حائط أو اسطوانة حتى لا يمروا بين يديك،

ولا تقعد حتى تصلى التحية، والأحسن أن تصلى أربع ركعات، تقرأ فى كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص خمسين مرة، ففى الخبر أن من فعل ذلك لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يُرى له. ولا تترك التحية وإن كان الإمام يخطب، ومن السنة أن تقرأ فى أربع ركعات سورة الأنعام والكهف وطه ويس، فإن لم تقدر فسورة يس والدخان والم السجدة وسورة الملك؛ ولا تدع قراءة هذه السورة فى ليلة الجمعة، ففيها فضل كثير؛ ومن لم يحسن ذلك فليكثر من قراءة سورة الإخلاص.

وأكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ فى هذا اليوم خاصة. ومهما خرج الإمام، فاقطع الصلاة والكلام، واشتغل بجواب المؤذن، ثم باستماع الخطبة والاتعاظ بها. ودع الكلام رأسًا فى الخطبة، ففى الخبر «**أنَّ مَنْ قالَ لصَاحبه والإمامُ يَخْطُبُ أنصتْ فَقدْ لَغَا، وَمَنْ لَغَا فَلا جُمُعَةَ لَهُ**» أى لأن قوله أنصت كلام فينبغى أن ينهى غيره بالإشارة لا باللفظ.

ثم اقتد بالإمام كما سبق؛ فإذا فرغت وسلمت فاقرأ الفاتحة قبل أن تتكلم سبع مرات، والإخلاص سبعًا، والمعوذتين سبعًا سبعًا، فذلك يعصمك من الجمعة إلى الجمعة الأخرى ويكون حرزًا لك من الشيطان؛ وقل بعد ذلك: اللهم ياغنى ياحميد، يا مبدئ يا معيد، يا رحيم ياودود، اغننى بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

ثم صلِّ بعد الجمعة ركعتين أو ستًّا مثنى مثنى، فكل ذلك مرويٌّ عن رسول الله ﷺ فى أحوال مختلفة.

ثم لازم المسجد إلى المغرب أو إلى العصر، وكن حسن المراقبة للساعة الشريفة فإنها مبهمة فى جميع اليوم، فعساك أن تدركها وأنت خاشع لله تعالى متذلل متضرع. ولا تحضر فى الجامع مجالس الخلق ولا مجالس القصاص، بل مجالس العلم النافع، وهو الذى يزيد فى خوفك من الله، وينقص من رغبتك فى الدنيا؛ فكل علم لايدعوك من الدنيا إلى الآخرة فالجهل أعود عليك منه، فاستعذ بالله من علم لا ينفع.

وأكثر الدعاء عند طلوع الشمس، وعند الزوال، وعند الغروب، وعند صعود الخطيب المنبر، وعند قيام الناس إلى الصلاة، فيوشك أن تكون الساعة الشريفة فى بعض الأوقات.

واجتهد أن تتصدق فى هذا اليوم بما تقدر عليه وإن قل، فتجمع بين الصلاة والصوم والصدقة والقراءة والذكر والاعتكاف والرباط. واجعل هذا اليوم من الأسبوع خاصة لآخرتك، فعساه أن يكون كفارة لبقية الأسبوع.

آداب الصيام

لا ينبغى أن تقتصر على صوم شهر رمضان، فتترك التجارة بالنوافل وكسب الدرجات العالية فى الفراديس، فتتحسر إذا نظرت إلى منازل الصائمين كما تنظر إلى الكوكب الدرى وهم فى أعلى عليين.

والأيام الفاضلة التى شهدت الأخبار بشرفها وفضلها وبجزالة الثواب فى صيامها: يوم عرفة لغير الحاج، ويوم عشوراء، والعشر الأول من ذى الحجة، والعشر الأول من المحرم، ورجب وشعبان. وصوم الأشهر الحرم من الفضائل، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب واحد فرد وثلاثة سرد؛ وهذه فى السنة، وأما فى الشهر فأول الشهر وأوسطه وآخره، والأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر. وأما فى الأسبوع فيوم الاثنين والخميس والجمعة؛ فتكفر ذنوب الأسبوع بصوم الاثنين والخميس والجمعة، وتكفر ذنوب الشهر باليوم الأول من الشهر واليوم الأوسط واليوم الآخر والأيام البيض، وتكفر ذنوب السنة بصيام هذه الأيام والأشهر المذكورة.

ولا تظن إذا صمت أن الصوم هو ترك الطعام والشراب والوقاع فقط، فقد قال ﷺ: **«كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الجُوعُ وَالعَطَشُ»** بل تمام الصوم بكف الجوارح كلها عما يكره الله تعالى، بل ينبغى أن تحفظ العين عن النظر إلى المكاره، واللسان عن النطق بما لا يعنيك، والأذن عن الاستماع إلى ما حرم الله تعالى؛ فإن المستمع شريك القائل، وهو أحد المغتابين؛ وكذلك تكف جميع الجوارح كما تكف البطن والفرج، ففى الخبر: **«خَمْسٌ يُفَطِّرْنَ الصَّائِمَ: الكَذِبُ، والنَّمِيمَةُ، وَاليَمِينُ الكَاذِبَةُ، والنَّظَرُ بِشَهْوَةٍ»** وقال ﷺ: **«الصَّوْمُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً فَلا يَرْفُثْ وَلا يَفْسُقْ وَلا يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى صَائِمٌ»**.

ثم اجتهد أن تفطر على طعام حلال، ولا تستكثر فتزيد على ما تأكله كل ليلة لأجل صيامك، فلا فرق إذا استوفيت ما تعتاد أن تأكله دفعتين فى دفعة واحدة، وإنما المقصود بالصيام كسر شهوتك وتضعيف قوتك لتقوى بها على التقوى، فإذا أكلت عشية ما تداركت به فاتك ضحوة فلا فائدة فى صومك، وقد ثقلت عليك معدتك، وما وعاء أبغض إلى الله تعالى من بطن مُلئ من حلال، فكيف إذا ملئ من حرام!

فإذا عرفت معنى الصوم فاستكثر منه ما استطعت، فإنه أساس العبادات ومفتاح القربات، قال رسول الله ﷺ: **«قَالَ اللهُ تَعَالى: كُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِها إِلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِى وَأَنَا أُجْزِى بِهِ»**. وقال ﷺ: **«وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ

عِنْدَ الله مِنْ رِيحِ المِسْك، يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّما يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِى فَالصَّوْمُ لِى وَأَنَا أُجْزِى بِهِ» وقال ﷺ: «لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ لا يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ».

فهذا القدر من شرح الطاعات يكفيك من بداية الهداية، فإذا احتجت إلى الزكاة والحج، أو إلى مزيد لشرح الصلاة والصيام، فاطلبه مما أوردناه فى كتاب إحياء علوم الدين.

القسم الثانى القول فى اجتناب المعاصى

اعلم أن الدين شطران: أحدهما ترك المناهى، والآخر فعل الطاعات. وترك المناهى هو الأشد، فإن الطاعات يقدر عليها كل أحد، وترك الشهوات لايقدر عليها إلاالصديقون، فلذلك قال رسول الله ﷺ: «المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّوءَ وَالمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ» واعلم أنك إنما تعصى الله بجوارحك، وهى نعمة من الله عليك وأمانة لديك، فاستعانك بنعمة الله على معصيته غاية الكفران. وخيانتك أمانة استودعكها الله غاية الطغيان. فأعضاؤك رعاياك فانظر كيف ترعاها، فكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته. واعلم أن جميع أعضائك ستشهد عليك فى عرصات القيامة بلسان طلق ذلق، أى فصيح ، تفضحك به على رءوس الخلائق؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. وقال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

فاحفظ يا مسكين جميع بدنك من المعاصى، وخصوصًا أعضاءك السبعة، فإن جهنم لها سبعة أبواب لكل منهم جزء مقسوم. ولا يتعين لتلك الأبواب إلا من عصى الله تعالى بهذه الأعضاء السبعة وهى العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل.

أما العين، فإنما خلقت لتهتدى بها فى الظلمات، وتستعين بها فى الحاجات، وتنظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات، وتعتبر بما فيها من الآيات؛ فاحفظها عن أربع: أن تنظر بها إلى غير محرم ، أو إلى صورة مليحة بشهوة نفس، أو تنظر بها إلى مسلم بعين الاحتقار، أو تطلع بها على عيب مسلم.

وأما الأذن، فاحفظها عن أن تصغى بها إلى البدعة، أو الغيبة، أو الفحش، أو الخوض فى الباطل، أو ذكر مساوئ الناس؛ فإنما خلقت لك لتسمع بها كلام الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ، وحكمة أوليائه، وتتوصل باستفادة العلم بها إلى الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين. فإذا أصغيت بها إلى شىء من المكاره، صار ما كان عليك،

وانقلب ما كان سبب فوزك سبب هلاكك، وهذا غاية الخسران. ولا تظن أن الإثم يختص به القائل دون المستمع، ففى الخبر أن المستمع شريك القائل وهو أحد المغتابين.

وأما اللسان، فإنما خلق لتكثر به ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه، وترشد به خلق الله تعالى إلى طريقه، وتظهر به ما فى ضميرك من حاجات دينك ودنياك، فإذا استعملته فى غير ما خلق له فقد كفرت نعمة الله تعالى فيه. وهو أغلب أعضائك عليه وعلى سائر الخلق، ولا يكبّ الناس فى النار على مناخرهم إلى حصائد ألسنتهم؛ فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لايكبك فى قعر جهنم، ففى الخبر: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلمَة ليُضْحكَ بها أَصْحَابَهُ فَيَهْوى بها فى قَعْر جَهَنَّمَ سَبعينَ خَريفًا**». وروى أنه قتل شهيد فى المعركة على عهد رسول الله ﷺ، فقال قائل: هنيئًا له بالجنة فقال ﷺ: «**وَمَا يُدْريكَ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فيما لا يَعْنيه، وَيَبْخَلُ بما لا يُغْنيه**».

فاحفظ لسانك من ثمانية:

الأول: الكذب؛ فاحفظ منه لسانك فى الجد والهزل ولا تعود لسانك الكذب هزلاً فيدعوك إلى الكذب فى الجد؛ والكذب من أمهات الكبائر. ثم إنك إذا عرفت بذلك سقطت عدالتك والثقة بقولك، وتزدريك الأعين وتحتقرك. وإذا أردت أن تعرف قبح الكذب من نفسك فانظر إلى كذب غيرك، وإلى نفرة نفسك عنه، واستحقارك لصاحبه، واستقباحك لما جاء به؛ وكذلك فافعل فى جميع عيوب نفسك، فإنك لا ترى قبح عيوبك من نفسك بل من غيرك، فما استقبحته من غيرك يستقبحه غيرك منك لا محالة، فلا ترض لنفسك ذلك.

الثانى: الخلف فى الوعد؛ فإياك أن تعد بشئ ولا تفى به، بل ينبغى أن يكون إحسانك إلى الناس فعلاً بلا قول، فإن اضطررت إلى الوعد فإياك أن تخلف إلا لعجز أو ضرورة، فإن ذلك من أمارات النفاق وخبائث الأخلاق، قال النبى ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَهُوَ مُنَافقٌ وَإنْ صَامَ وَصَلَّى: مَنْ إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإذا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا اؤتُمنَ خَانَ**».

الثالث: الغيبة؛ فاحفظ لسانك عنها. والغيبة أشد من ثلاثين زنية فى الإسلام، كذلك ورد فى الخبر. ومعنى الغيبة أن تذكر إنسانًا بما يكرهه لو سمعه، فأنت مغتاب ظالم وإن كنت صادقًا. وإياك وغيبة القراء المرائين، وهو أن تُفَهِّم المقصود من غير تصريح فتقول: أصلحه الله فقد ساءنى وغمنى ما جرى عليه، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا وإياه. فإن هذا جمع بين خبيثين: أحدهما الغيبة؛ إذا بها حصل التفهم، والآخر تزكية النفس والثناء عليها بالتحرج والصلاح. ولكن إن كان مقصودك من قولك أصلحه الله تعالى الدعاء، فادع له فى السر إن اغتممت بسببه، فعلامته أنك لا تريد فضيحته وإظهار عيبه، وفى إظهارك الغم بعيبه إظهار تعييبه. ويكفيك زاجرًا عن الغيبة قوله تعالى: ﴿**وَلا يَغْتَب**

بَّعْضُكُم بعْضًا أَيُحبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيه مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]. فقد شبهك الله بآكل لحم الميتة، فما أجدرك أن تحترز منها. ويمنعك عن غيبة المسلمين أمر لو تفكرت فيه، وهو أن تنظر فى نفسك هل فيك عيب ظاهر أو باطن، وهل أنت مفارق معصية سرًّا أو جهرًا، فإذا عرفت ذلك من نفسك فاعلم أن عجزه من التنزه عما نسبته إليه كعجزك، وعذره كعذرك، وكما تكره أن تفتضح وتذكر عيوبك فهو أيضًا يكرهه، فإن سترته ستر الله عليك عيوبك، وإن فضحته سلط الله عليك ألسنة حدادًا يمزقون عرضك فى الدنيا، ثم يفضحك الله فى الآخرة على رءوس الخلائق يوم القيامة. وإن نظرت إلى ظاهرك وباطنك فلم تطلع فيهما على عيب ونقص فى دين ولا دنيا، فاعلم أن جهلك بعيوب نفسك أقبح أنواع الحماقة، ولاعيب أعظم من الحمق، ولو أراد الله بك خيرًا لبصرك بعيوب نفسك؛ فرؤيتك نفسك بعين الرضا غاية غباوتك وجهلك. ثم إن كنت صادقًا فى ظنك فاشكر الله تعالى عليه ولاتفسده بثلب الناس والتمضمض بأعراضهم فإن ذلك أعظم العيوب.

الرابع: المراء والجدال ومناقشة الناس فى الكلام؛ فذلك فيه إيذاء للمخاطب وتجهيل له وطعن فيه، وفيه ثناء على النفس وتزكية لها بمزيد الفطنة والعلم. ثم هو مشوش للعيش، فإنك لا تمارى سفيهًا إلا ويؤذيك، ولا تمارى حليمًا إلا ويقليك ويحقد عليك، فقد قال ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ المراءَ وَهُو مُبْطِلٌ بَنَى الله لَهُ بَيْتًا فِى رَبَضِ الجَنَّة، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ، وَهُوَ مُحقٌّ بَنَى الله لَهُ بَيْتًا فِى أَعْلَى الجَنَّة**».

ولا ينبغى أن يخدعك الشيطان ويقول لك أظهر الحق ولا تداهن فيه، فإن الشيطان أبدًا يستجر الحمقى إلى الشر فى معرض الخير، فلا تكن ضحكة للشيطان فيسخر منك؛ فإظهارك الحق حسن مع من يقبله منك، وذلك بطريق النصيحة فى الخفية لا بطريق المماراة؛ وللنصيحة صفة وهيئة ويحتاج فيها إلى تلطف، وإلا صارت فضيحة، وكان فسادها أكثر من صلاحها. ومن خالط متفقهة العصر غلب على طبعه المراء والجدال، وعسر عليه الصمت، إذ ألقى إليه علماء السوء أن ذلك هو الفضل، والقدرة على المحاجة والمناقشة هو الذى يمتدح به. ففر منهم فرارك من الأسد، واعلم أن المراء سبب المقت عند الله وعند الخلق.

الخامس: تزكية النفس؛ قال الله تعالى: ﴿**فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾ [النجم: ٣٢]. وقيل لبعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. فإياك أن تتعود ذلك، واعلم أن ذلك ينقص من قدرك عند الناس ويوجب مقتك عند الله تعالى. فإذا أردت أن تعرف أن ثناءك على نفسك لا يزيد فى قدرك عند غيرك، فانظر إلى أقرانك

إذا أثنوا على أنفسهم بالفضل والجاه والمال كيف يستنكره قلبك عليهم ويستثقله طبعك، وكيف تذمهم عليه إذا فارقتهم. فاعلم أنهم أيضًا فى حال تزكيتك لنفسك يذمونك فى قلوبهم ناجزًا، وسيظهرونه بألسنتهم إذا فارقتهم.

السادس: اللعن؛ فإياك أن تلعن شيئًا مما خلق الله تعالى من حيوان أو طعام أو إنسان بعينه، ولا تقطع بشهادتك على أحد من أهل القبلة بشكر أو كفر أو نفاق، فإن المطلع على السرائر هو الله تعالى، فلا تدخل بين العباد وبين الله تعالى، واعلم إنك يوم القيامة لايقال لك لم لم تلعن فلانًا، ولم سكت عنه؛ بل لو لم تلعن إبليس طول عمرك ولم تشغل لسانك بذكره، لم تسأل عنه، ولم تطالب به يوم القيامة، وإذا لعنت أحدًا من خلق الله تعالى طولبت به. ولا تذمن شيئًا مما خلق الله تعالى، فقد كان النبى ﷺ لا يذم الطعام الردئ قط، بل كان إذا اشتهى شيئًا أكله وإلا تركه.

السابع: الدعاء على الخلق؛ فاحفظ لسانك عن الدعاء على أحد من خلق الله تعالى، وإن ظلمك فكلْ أمره إلى الله تعالى، ففى الحديث: «**إنَّ المَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى ظَالمه حَتَّى يُكَافئَهُ ثُمَّ يَبْقَى للظالم فَضْلٌ عنْدَهُ يُطَالبُهُ به يَوْمَ القيَامَة**». وطول بعض الناس لسانَهُ على الحجَاج فقال بعضَ السَلف: إن الله لينتقِم للحجاج مِمن تَعرض له بلسانه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه.

الثامن: المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس؛ فاحفظ لسانك منه فى الجد والهزل، فإنه يريق ماء الوجه، ويسقط المهابة، ويستجر الوحشة، ويؤذى القلوب. وهو مبدأ اللجاج والغضب والتصارم، ويغرس الحقد فى القلوب؛ فلا تمازح أحدًا، فإن مازحك فلا تجبه؛ فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره، وكن من الذين إذا مروا باللغوا مروا كرامًا.

فهذه مجامع آفات اللسان، ولا يعينك عليك إلا العزلة أو ملازمة الصمت إلا بقدر الضرورة، فقد كان أبو بكر الصديق ﷺ يضع حجرًا فى فيه ليمنعه ذلك من الكلام بغير ضرورة، ويشير إلى لسانه ويقول: هذا الذى أوردنى الموارد كلها. فاحترز منه بجهدك، فإنه أقوى أسباب هلاك فى الدنيا والآخرة.

وأما البطن؛ فاحفظه من تناول الحرام والشبهة، واحرص على طلب الحلال، فإذا وجدته فاحرص على أن تقتصر منه على ما دون الشبع، فإن الشبع يقسى القلب ويفسد الذهن ويبطل الحفظ ويثقل الأعضاء من العبادة والعلم، ويقوى الشهوات وينصر جنود الشيطان. والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف من الحرام، وطلب الحلال فريضة على كل مسلم. والعبادة والعلم مع أكل الحرام كالبناء على السِّرجين. فإذا قنعت فى السنة بقميص خشن، وفى اليوم والليلة برغيفين من الخُشكار، وتركت التلذذ بأطيب الأدم، لم يعوزك من

الحلال ما يكفيك. والحلال كثير، وليس عليك أن تتيقن بواطن الأمور، بل عليك أن تحترز مما تعلم أنه حرام، أو تظن أنه حرام ظنًّا حصل من علامة ناجزة مقرونة بالمال؛ أما المعلوم فظاهر، وأما المظنون بعلامة فهو مال السلطان وعماله، ومال من لاكسب له إلا من النياحة أو بيع الخمر أو الربا أو المزامير وغير ذلك من آلات اللهو المحرمة؛ فإن من علمت أن أكثر ماله حرام قطعًا فما تأخذه من يده، وإن أمكن أن يكون حلالاً نادرًا فهو حرام، لأنه الغالب على الظن. ومن الحرام المحض ما يؤكل من الأوقاف من غير شرط الواقف، فمن لم يشتغل بالتفقه فما يأخذه من المدارس حرام، ومن ارتكب معصية ترد بها شهادته فما يأخذه باسم الصوفية من وقف أو غيره فهو حرام.

وقد ذكرنا مداخل الشبهات والحلال والحرام فى كتاب مفرد من كتاب إحياء علوم الدين، فعليك بطلبه، فإن معرفته الحلال وطلبه فريضة على كل مسلم كالصلوات الخمس.

وأما الفرج؛ فاحفظه عن كل ما حرم الله تعالى، وكن كما قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾ [المؤمنون: ٥، ٦ والمعارج: ٢٩، ٣٠]. ولا تصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن التفكر، وحفظ البطن عن الشبهة وعن الشبع، فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها.

وأما اليدان؛ فاحفظهما عن أن تضرب بهما مسلمًا، أو تتناول بهما مالاً حرامًا، أو تؤذى بهما أحدًا من الخلق، أو تخوف بهما فى أمانة أو وديعة، أو تكتب بهما ما لا يجوز النطق به، فإن القلم أحد اللسانين، فاحفظ القلم عما يجب حفظ اللسان عنه.

وأما الرجلان؛ فاحفظهما عن أن تمشى بهما إلى باب سلطان ظالم، فإن المشى إلى السلاطين الظلمة من غير ضرورة وإرهاق معصية كبيرة، فإنه تواضع لهم وإكرام لهم على ظلمهم، وقد أمر الله بالإعراض عنهم فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ**﴾ [هود: ١١٣]. وإن كان ذلك لسبب طلب مالهم فهو سعى إلى حرام، وقد قال النبى ﷺ: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِه**» وهذا فى غنى صالح، فما ظنك بالغنى الظالم!.

وعلى الجملة فحركاتك وسكناتك بأعضائك نعمة من نعم الله تعالى عليك، فلا تحرك شيئًا منها فى معصية الله تعالى أصلاً، واستعملها فى طاعة الله تعالى، واعلم أنك إن قصرت فعليك يرجع وباله، وإن شمرت فإليك تعود ثمرته، والله غنى عنك وعن عملك، وإنما كل نفس بما كسبت رهينة. وإياك أن تقول: إن الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة؛ فإن هذه كلمة حق أريد بها باطل، وصاحبها ملقب بالحماقة بتلقيب رسول الله ﷺ حيث

قال: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِيَّ**» واعلم أن قولك هذا يضاهى قول من يريد أن يصير فقيهًا فى علوم الدين من غير أن يدرس علمًا واشتغل بالبطالة وقال: إن الله كريم رحيم قادر على أن يفيض على قلبى من العلوم ما أفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غير جهد وتكرار وتعلم. وهو كقول من يريد مالاً فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل وقال: إن الله كريم وله خزائن السموات والأرض، وهو قادر على أن يطلعنى على كنز من كنوزه أستغنى به عن الكسب فقد فعل ذلك لبعض عباده. فأنت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحمقتهما وسخرت منهما، وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقًا وحقًا. فكذلك يضحك عليك أرباب البصائر فى الدين إذا طلبت المغفرة بغير سعى لها، والله تعالى يقول: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩]. ويقول: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الطور: ١٦، التحريم: ٧]. ويقول: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

فإذا لم تترك السعى فى طلب العلم والمال اعتمادًا على كرمه، فكذلك لا تترك التزود للآخرة ولا تفتر، فإن رب الدنيا والآخرة واحد، وهو فيهما كريم رحيم، وليس يزيد له كرم بطاعتك، وإنما كرمه فى أن ييسر لك طريق الوصول إلى الملك المقيم والنعيم الدائم المخلد بالصبر على ترك الشهوات أيامًا قلائل، وهذا نهاية الكرم؛ فلا تحدث نفسك بتهويسات البطالين، واقتد بأولى العزم والنُّهى من الأنبياء والصالحين، ولا تطمع فى أن تحصد ما لم تزرع، وليت من صام وصلى وجاهد واتقى غفر له.

هذه جمل مما ينبغى أن تحفظ عنه جوارحك الظاهرة وأعمال هذه الجوارح؛ فعليك بتطهير القلب فهو تقوى الباطن، والقلب هو المضغة التى إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد؛ فاشتغل بإصلاحه لتصلح به جوارحك؛ وصلاحه يكون بملازمة المراقبة.

القول فى معاصى القلب

اعلم أن الصفات المذمومة فى القلب كثيرة، وطريق تطهير القلب من رذائلها طويلة، وسبيل العلاج فيها غامض، وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الخلق عن أنفسهم؛ واستقصينا ذلك كله فى كتاب إحياء علوم الدين فى ربع المنجيات؛ ولكننا نحذرك الآن ثلاثًا من خبائث القلب، وهى الغالبة على متفقهة العصر، لتأخذ منها حذرك، فإنها مهلكات فى أنفسها، وهى أمهات الجملة من الخبائث سواها، وهى: الحسد والرياء والعجب؛ فاجتهد

فى تطهير قلبك منهـا، فإن قدرت عليها فتعـلم كيفية الحذر مع بقيـتها من ربع المهلكات، فإن عجزت عن هذا فأنت عن غيره أعجز. ولا تظنن أنك تسلم بنية صالحة فى تعلم العلم وفى قلبك شيء من الحسد والرياء والعجب، وقد قال ﷺ: «**ثَلاثٌ مُهْلكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإعْجَابُ المَرْءِ بنَفْسه**».

أما الحسد فهو متشعب من الشح، فإن البخيل هو الذى يبخل بما فى يده على غيره، والشحيح هو الذى يبخل بنعمة الله تعـالى وهى فى خزائن قدرته تعالى لا فى خزائنه على عبـاد الله تعالى، فشـحه أعظم. والحسود هـو الذى يشق عليه إنعام الله تعـالى من خزائن قدرته على عبد من عبـاده بعلم، أو مال، أو محبة فى قلوب الناس، أو حظ من الحظوظ، حتى إنه ليـحب زوالها عنه وإن لم يحـصل له بذلك شيء من تلك النعمـة، فهـذا منتهى الخبث، فلذلك قال النبى ﷺ: «**الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَات كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**».

والحسـود هو المعذب الذى لا يرحم، ولا يزال فـى عذاب دائم فى الدنيـا، فهى لا تخلو من خلق كثيـر من أقرانه ومعارفه ممن أنعم الله عليهم بعلـم أو مال أو جاه، فلا يزال فى عذاب دائم فى الدنيا إلى مـوته، ولعذاب الآخرة، أشد وأكبـر، بل لا يصل العبد إلى حقيقة الإيمان ما لم يحب لسائر المسـلمين ما يحب لنفسه، بل ينبغى أن يساهم المسلمين فى السراء والضراء، فالمسلمون كالبنيان الواحد يشد بعـضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عـضو اشتكى سـائر الجسـد. فإن كنت لا تصـادف هذا من قلبك فـاشتغـالك بطلب التخلص من الهلاك أهم من اشتغالك بنوادر الفروع وعلم الخصومات.

وأما الرياء هو الشـرك الخفى، وهو أحـد الشركين، وذلـك طلبك المنزلة فى قلوب الخلق لتنال بها الجاه والحشـمة، وحب الجاه من الهوى المتبع، وفيه هلك أكـثر الناس، فما أهلك الناس إلا الناس، ولو أنصف الناس حـقيقـة لعلموا أن أكثـر ما هم فـيه من العلوم والعبادات، فضلاً عن أعمال العادات، ليس يحـملها عليها إلا مراءاة الناس، وهى محبطة للأعـمال كمـا ورد فى الخبـر أن الشهـيد يؤمـر به يوم القيـامة إلى الـنار، فيقـول: يارب استشهدت فى سـبيلك. فيقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فـلان شجاع وقد قيل ذلك، وذلك أجرك. وكذلك يقال للعالم والحاج والقارىء.

وأما العجب والكبر والفخر فهو الداء العضال؛ وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العزة والاستعظام، وإلى غيـره بعين الاحتقار والذل؛ ونتيجتـه على اللسان أن يقول أنا وأنا؛ قال إبليس اللعين: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف: ١٢]. وثمرته فى المجالس الترفع والـتقدم وطلب التصدر فـيها، وفى المحاورة الاستنـكاف من أن يرد كلامه عليه.

والمتكبر هو الذى إن وُعظ أنف أو وَعَظَ عنف؛ فكل من رأى نفسه خيرًا من أحد من خلق الله تعالى فهو متكبر، بل ينبغى لك أن تعلم أن الخير من هو خير عند الله فى دار الآخرة، وذلك غيب موقوف على الخاتمة، فاعتقادك فى نفسك أنك خير من غيرك جهل محض، بل يبتغى أن لا تنظر إلى أحد إلا وترى أنه خير منك، وأن الفضل له على نفسك، فإن رأيته صغيرًا قلت: هذا لم يعص الله وأنا عصيته فلا شك أنه خير منى، وإن رأيت كبيرًا قلت: هذا قد عبد الله قبلى فلا شك أنه خير منى، وإن كان عالمًا قلت: هذا قد أعطى ما لم أُعطَ، وبلغ ما لم أبلغ، وعلم ما جهلت فكيف أكون مثله! وإن كان جاهلاً قلت: هذا قد عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، فحجة الله علىَّ آكد وما أدرى بم يختم له، وإن كان كافرًا قلت: لا أدرى عسى أن يسلك ويختم له بخير العلم، وينسلّ بإسلامه عن الذنوب كما تنسل الشعرة من العجين، وأما أنا والعياذ بالله فعسى أن يضلنى الله فأكفر فيختم لى بشر العمل، فيكون غدًا هو من المقربين وأنا أكون من الخاسرين.

فلا يخرج الكبر من قلبك إلا بأن تعرف أن الكبير من هو عند الله تعالى، وذلك موقوف على الخاتمة، وهى مشكوك فيها، فيشغلك خوف الخاتمة عن أن تتكبر مع الشك فيها على عباد الله تعالى؛ فيقينك وإيمانك فى الحال لا يناقض تجويزك التغير فى الاستقبال، فإن الله مقلب القلوب يهدى من يشاء ويضلّ من يشاء.

والأخبار فى الحسد والكبر والرياء والعجب كثيرة، ويكفيك فيها حديث واحد جامع، فقد روى ابن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ: حدثنى حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لايسكت، ثم قال: واشوقاه إلى رسول الله ﷺ وإلى لقائه، ثم قال: كان رسول الله ﷺ يقول لى: «**يَا معاذُ إنِّى مُحَدِّثُكَ بحَديث إنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ عِنْدَ الله، وإنْ أَنْتَ ضَيَّعْتَهُ وَلَمْ تَحْفَظْهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ الله تَعَالَى يَوْمَ القيَامَةِ: يَا مُعاذُ إنَّ الله تَعَالى خَلَقَ سَبْعَ أَمْلاك قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّموات والأَرْضَ، فَجعَلَ لكُلِّ سَمَاءٍ منَ السَّبْع مَلَكًا بَوَّابًا عَلَيْها، فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بعَمَلِ العَبْد منْ حين يُصْبحُ إلى حين يُمْسى، لَهُ نُورٌ كَنُور الشَّمْس، حتَّى إذَا صَعَدَتْ به إلى السَّمَاء الدُّنْيا زَكَّتْهُ وكَثَّرتْهُ، فَيَقُولُ المَلَكُ المُوَكَّلُ بها للْحَفَظة: اضْربُوا بهذَا العَمَل وَجْهَ صَاحبه، أَنَا صَاحبُ الغيْبَة أَمَرَنى رَبِّى أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَ مَنِ اغْتَابَ النَّاسَ يُجَاوزُنى إلى غَيْرى قَالَ: ثُمَّ تَأْتى الحَفَظَةُ بعَمَلٍ صَالحٍ منْ أَعْمَال العَبْد لَهُ نُورٌ فَتُزَكِّيه وتُكَثِّرُهُ حتَّى تَبْلُغَ به إلى السَّمَاء الثَّانيَة فَيَقُولُ لَهُمُ المُوَكَّلُ بها: قِفُوا وَاضْربُوا بهذَا العَمَل وَجْهَ صَاحبه، إنَّهُ أَرَادَ بعَمَله عَرَضَ الدُّنْيَا، أَنَا مَلَكُ الفَخْر أَمَرَنى رَبِّى أَنْ لا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوزُنى إلى غَيْرى، إنَّهُ كَانَ يَفْتَخرُ عَلَى فى مَجَالسهمْ. قَالَ: وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بعَمَل العَبْد يَبْتَهجُ مِنْ صَدَقَة وَصَلاة وَصيَام قَدْ أَعْجَبَ الحَفَظَةَ، فَيُجَاوزُونَ به إلى**

السَّمَاء الثَّالثة فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوكَّلُ بها: قفُوا واضْربُوا بهذا العمَلِ وجْهَ صَاحبه، أنا مَلَكُ الكبرِ أمرَنى ربِّى أنْ لا أدعَ عملَهُ يجاوزنى إلى غيرِى، إنَّه كَانَ يتكبَّرُ عَلَى النَّاسِ فى مَجَالسهم. قَالَ: وتَصْعَدُ الحفَظَةُ بعمَلِ العبْد يَزْهُو كمَا يَزْهُو الكوكَبُ الدُّرِّىُّ ولَهُ دوىٌّ مِنْ تَسْبيحٍ وصَلاة وصيام وحجٍّ وعُمْرة حتَّى يجَاوزُوا به إلى السَّمَاء الرَّابعة، فيقولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوكَّلُ بها: قِفُوا واضْربُوا بهذا العَمَلِ وجْهَ صَاحبه وظَهْرَهُ وبطْنَهُ، أنَا صَاحبُ العجب أمَرنِى ربِّى أنْ لا أدعَ عملَهُ يجَاوزُنِى إلى غيْرِى، إنَّهُ كانَ إذا عمل عملاً أدْخَلَ العجَبَ فيه. قَالَ: وتَصْعَدُ الحفَظَةُ بعمَلِ العبْد حتَّى يجَاوزُوا به إلى السَّمَاء الخَامسة كأنَّهُ العروسُ المَزْفُوفَةُ إلى بعْلها، فيقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوكَّلُ بها: قِفُوا واضْربُوا بهذا العمَلِ وجْهَ صَاحبه واحْملُوهُ عَلَى عَاتقه، أنَا مَلَكُ الحسَد إنَّهُ كَانَ يحْسدُ مَنْ يتعلَّمُ ويعْملُ بمثْلِ عمَله، وكُلُّ مَنْ كانَ يأخُذُ فضْلاً منَ العبَادَة كَانَ يحْسدُهُمْ ويقَعُ فيهمْ، أمَرنِى ربِّى أنْ لا أدعَ عملَهُ يجاوزُنى إلى غيْرِى. قَالَ: وتَصْعَدُ الحفَظَةُ بعمَلِ العبْد لَهُ ضوْءٌ كضَوْءِ الشَّمْسِ منْ صَلاة وزكَاة وحجٍّ وعُمْرَة وجهَاد وصيَام، فيُجاوزُونَ به إلى السَّمَاء السَّادسة، فيقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوكَّلُ بها: قفُوا واضْربُوا بهذا العمَلِ وجْهَ صَاحبه، إنَّهُ كَانَ لا يرْحَمُ إنْسَانًا قطّ منْ عبَاد الله أصَابَهُ بلاءٌ أوْ مرضٌ، بلْ كَانَ يشْمتُ به، أنَا مَلَكُ الرَّحْمَة أمرَنى ربِّى أنْ لا أدعَ عمَلَهُ يجَاوزُنِي إلى غيْرِى. قَالَ: وتَصْعَدُ الحفَظَةُ بعمَلِ العبْد منْ صَوْم وصَلاة ونَفَقَة وجهَاد وورَع، لَهُ دوىٌّ كدَوِىِّ النَّحْلِ، وضَوْءٌ كضَوْءِ الشَّمْسِ، ومعَهُ ثلاثَةُ آلاف مَلَك، فيُجَاوزُن به إلى السَّمَاء السَّابعة، فيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوكَّلُ بها: قفُوا واضْربُوا بهذا العمَلِ وجْهَ صَاحبه، واضْربُوا جوارحَهُ، واقْفلُوا به علَى قَلْبه، أنَا صَاحبُ الذِّكْر، فإنِّى أحْجُبُ عنْ ربِّى كُلَّ عمَلٍ لَمْ يرد به وجْهَ ربِّى، إنَّهُ إنَّما أرَادَ بعمَله غيْرَ الله تعَالَى، إنَّهُ أرَادَ به رفْعَةً عنْدَ الفُقهَاء، وذكْرًا عنْدَ العُلَمَاء، وصيتًا فى المَدَائن، أمَرنِى ربِّى أنْ لا أدعَ عمَلَهُ يجَاوزُنى إلَى غيْرِى، وكُلُّ عمَلٍ لَمْ يكُنْ لله تعَالَى خَالصًا فهُوَ رياءٌ ولا يقْبلُ الله عمَلَ المُرائى. قَالَ: وتَصْعَدُ الحفَظَةُ بعمَلِ العبْد منْ صَلاة وصيَام وحجٍّ وعُمْرَة وخُلُق حسَن وصَمْت وذكْر لله تعَالَى، فيُشيِّعُهُ مَلائكَةُ السَّموات السَّبْعِ حتَّى يقْطَعُوا به الحُجُبَ كُلَّهَا إلى الله تعَالَى، فيَقفُونَ بيْنَ يديْه ويشْهدُونَ لَهُ بالعمَلِ الصَّالحِ المُخْلصِ لله تعَالَى، فيقُولُ الله تعَالَى: أنْتُمُ الحفَظَةُ عَلَى عمَلِ عبْدى وأنَا الرَّقيبُ علَى مَا فى قَلْبه، إنَّهُ لَمْ يُردْنى بهذا العمَلِ وإنَّمَا أرَادَ به غيْرِى، فعَلَيْه لَعْنَتى! فتَقُولُ المَلائكَةُ كُلُّهَا: علَيْه لعْنَتُكَ ولعْنَتُنَا! فتَلْعَنُهُ السَّمواتُ السَّبْعُ ومَنْ فيهنَّ». ثم بكى معاذ وانتحب انتحابًا شديدًا؛ وقال معاذ: قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ، فكيف لى بالنجاة والخلاص من ذلك؟ قال: «اقْتَد بِى، وإنْ كَانَ فِى عمَلكَ نَقْصٌ يَا مُعَاذُ حَافظْ عَلَى لسَانكَ منَ الوَقيعَة فِى

إِخْوَانكَ منْ حَمَلَة القُرآن خَاصَّةً، وَاحْملْ ذُنُوبَكَ عَلَيْكَ وَلا تَحْملْها عَلَيْهِمْ، وَلاَ تَزلَّ نَفْسَكَ بذَمِّهَمْ، وَلا تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ بوَضْعهَمْ، وَلا تُدْخلْ عَمَلَ الدُّنْيَا فى عَمَلِ الآخرَة، وَلا تُراء بعَمَلَكَ وَلا تَتكَبَّرْ فى مَجْلسكَ لكَىْ يَحْذَرَ النَّاسُ منْ سُوء خُلُقكَ، وَلا تُنَاجِ رَجُلاً وَعنْدَكَ آخَرُ، وَلا تَتعَظَّمْ عَلَى النَّاسَ فَتَنْقَطعُ خَيْرَاتُ الدُّنْيَا وَالآخرَةَ، وَلَا تُمَزِّق النَّاسَ بلسَانكَ فَتُمَزِّقُكَ كلابُ النَّار يَوْمَ القيَامَة فى النَّار، قَالَ الله تعَالَى: ﴿وَالنَّاشطَات نَشْطًا﴾ هَلْ تَدْرى مَا هُنَّ يَا مُعَاذُ؟» قلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله؟ قال: «كَلابٌ فى النَّار تُنْشطُ اللَّحْمَ منَ العَظْم»، قلت: بأبى أنت وأمى يارسول الله، من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: «يَا مُعَاذُ إنَّه لَيَسيرٌ عَلى مَنْ يَسَّرَهُ الله تَعَالى عَلَيْه، إنَّما يَكْفيكَ منْ ذلكَ أَنْ تُحبَّ للنَّاسِ مَا تُحبُّ لنَفْسكَ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لنفْسكَ، فَإذَنْ أَنْتَ يَا مُعَاذُ قَدْ سَلمْتَ».

قال خالد بن معدان: فما رأيت احدًا أكثر تلاوة للقرآن العظيم من معاذ لهذا الحديث العظيم. فتأمل أيها الراغب فى العلم هذه الخصال، واعلم أن أعظم الأسباب فى رسوخ هذه الخبائث فى القلب طلب العلم لأجل المباهاة والمنافسة، فالعامى بمعزل عن أكثر هذه الخصال، والمتفقه مستهدف لها، وهو متعرض للهلاك بسببها. فانظر أى أمورك أهم، أتتعلم كيفية الحذر من هذه المهلكات وتشتغل بإصلاح قلبك وعمارة آخرتك، أم الأهم أن تخوض مع الخائضين فتطلب من العلم ما هو سبب زيادة الكبر والرياء والحسد والعجب حتى تهلك مع الهالكين؟

واعلم أن هذه الخصال الثلاث من أمهات خبائث القلوب، ولها مغرس واحد وهو حب الدنيا ولذلك قال ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيا رأسُ كُلِّ خَطيئَة»، ومع هذا فالدنيا مزرعة للآخرة، فمن أخذ من الدنيا بقدر الضرورة ليستعين بها على الآخرة فالدنيا مزرعته، ومن أراد الدنيا ليتنعم بها فالدنيا مهلكته.

فهذه نبذة يسيرة من ظاهر علم التقوى، وهى بدأية الهداية، فإن جربت بها نفسك وطاعتك عليها فعليك بكتاب إحياء علوم الدين لتعرف كيفية الوصول إلى باطن التقوى. فإذا عمرت بالتقوى باطن قلبك، فعند ذلك ترتفع الحجب بينك وبين ربك، وتنكشف لك أنوار المعارف، وتتفجر من قلبك ينابيع الحكم، وتتضح لك أسرار الملك والملكوت، ويتيسر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة التى لم يكن لها ذكر فى زمن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين.

وإن كنت تطلب العلم من القيل والقال والمراء والجدال، فما أعظم مصيبتك، وما أطول تعبك، وأما أعظم حرمانك وخسرانك. فاعمل ما شئت، فإن الدنيا التى تطلبها بالدين لا تسلم لك، والآخرة تسلب منك؛ فمن طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعًا، ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعًا.

فهذه جمل الهداية إلى بداية الطريق فى معاملتك مع الله تعالى بأداء أوامره واجتناب نواهيه. وأشير عليك الآن بجمل من الآداب لتؤاخذ نفسك بها فى مخالطتك مع عباد الله تعالى وصحبتك معهم فى الدنيا.

القسم الثالث القول فى آداب الصحبة

اعلم أن صاحبك الذى لا يفارقك فى حضرك وسفرك ونومك ويقظتك، بل فى حياتك وموتك، هو ربك وسيدك ومولاك وخالقك؛ ومهما ذكرته فهو جليسك، إذا قال الله تعالى: «**أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِى**»، ومهما انكسر قلبك حزنًا على تقصيرك فى حق دينك فهو صاحبك وملازمك، إذ قال الله تعالى: «**أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِى**»، فلو عرفته حق معرفته لاتخذته صاحبًا وتركت الناس جانبًا، فإن لم تقدر على ذلك فى جميع أوقاتك فإياك أن تخلى ليلك ونهارك عن وقت تخلو فيه لمولاك وتتلذذ معه بمناجاتك له، وعند ذلك فعليك أن تتعلم **آداب الصحبة مع الله تعالى؛ وآدابها**: إطراق الرأس، وغض الطرف، وجمع الهم، ودوام الصمت، وسكون الجوارح، ومبادرة الأمر، واجتناب النهى، وقلة الاعتراض على القدر، ودوام الذكر، وملازمة الفكر، وإيثار الحق على الباطل، والإياس عن الخلق، والخضوع تحت الهيبة، والانكسار تحت الحياء، والسكون عن حيل الكسب ثقة بالضمان، والتوكل على فضل الله تعالى معرفة بحسن الاختيار. وهذا كله يبغى أن يكون شعارك فى جميع ليلك ونهارك، فإنها آداب الصحبة مع صاحب لا يفارقك، والخالق كلهم يفارقونك فى بعض أوقاتك.

وإن كنت عالمًا، فآداب العالم: الاحتمال، ولزوم الحلم، والجلوس بالهيبة على سمت الوقار مع إطراق الرأس، وترك التكبر على جميع العباد إلا على الظلَمة زجرًا لهم عن الظلم، وإيثار التواضع فى المحافل والمجالس، وترك الهزل والدعابة، والرفق بالمتعلم، والتأنى بالمتعجرف، وإصلاح البليد بحسن الإشارة وترك الحَرَد عليه، وترك الأنفة من قول لا أدرى، وصرف الهمة إلى السائل وتفهم سؤاله، وقبول الحجة والانقياد للحق بالرجوع إليه عند الهفوة، ومنع المتعلم عن كل علم يضره، وزجره عن أن يريد بالعلم النافع غير وجه الله تعالى، وصد المتعلم أن يشتغل بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين، وفرض عينه إصلاح ظاهره وباطنه بالتقوى، ومؤاخذة نفسه أولاً بالتقوى ليقتدى المتعلم أولاً بأعماله ويستفيد ثانيًا من أقواله.

وإن كنت متعلمًا، فآداب المتعلم مع العالم: أن يبدأه بالتحية والسلام، وأن يقلل بين يديه الكلام، ولا يتكلم ما لم يسأله أستاذه ولا يسأل ما لم يستأذن أولاً، ولا يقول فى

معارضة قوله قال فلان بخلاف ما قلت، ولايشير عليه بخلاف رأيه فيرى أنه أعلم بالصواب من أستاذه، ولايسأل جليسه فى مجلسه، ولايلتفت إلى الجوانب بل يجلس مطرقًا عينه ساكنًا متأدبًا كأنه فى الصلاة، ولا يكثر عليه السؤال عند ملله، وإذا قام قام له، ولا يتبعه بكلامه وسؤاله، ولا يسأله فى طريقه إلى أن يبلغ إلى منزله، ولا يسئ الظن به فى أفعال ظاهرها منكرة عنده فهو أعلم بأسراره، وليذكر عند ذلك قول موسى للخضر عليهما السلام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]. وكونه مخطئًا فى إنكاره اعتمادًا على الظاهر.

وإن كان لك والدان، فآداب الولد مع الوالدين: أن يسمع كلامهما، ويقوم لقيامهما، ويمتثل لأمرهما، ولايمشى أمامهما، ولا يرفع صوته فوق أصواتهما، ويلبى دعوتهما، ويحرص على مرضاتهما، ويخفض لهما جناح الذل، ولا يمن عليهما بالبرِّ ولا بالقيام لأمرهما، ولاينظر إليهما شزرًا، ولايقطب وجهه فى وجههما، ولايسافر إلا بإذنهما.

واعلم أن الناس بعد هؤلاء فى حقك ثلاثة أصناف: إما أصدقاء، وإما معارف، وإما مجاهيل.

فإن بليت بالعوام المجهولين فآداب مجالستهم : ترك الخوض فى حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم، والاحتراز عن كثرة لقائهم والحاجة إليهم، والتنبيه على منكراتهم باللطف والنصح عند رجاء القبول منهم.

وأما الإخوان والأصدقاء فعليك فيهم وظيفتان:

إحداهما: أن تطلب أولاً شروط الصحبة والصداقة، فلا تؤاخ إلا من يصلح للأخوة والصداقة، قال رسول الله ﷺ : **«المَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيله، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ»**. فإذا طلبت رفيقًا ليكون شريكك فى التعلم وصاحبك فى أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال:

الأولى العقل: فلا خير فى صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة يرجع آخرها، وأحسن أحواله أن يضرك وهو يريد أن ينفعك، والعدو العاقل خير من الصديق الأحمق؛ قال على رضي الله عنه:

فَلا تَصْحبْ أَخَا الجَهْل ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاه

فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى ... حَلِيمًا حِينَ وَاخَاهُ

يُقَاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ ... إذا مَا المَرْءُ مَا شَاهُ

كَحَذْوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ
إِذَا مَا النَّعْلُ حَاذَاهُ
وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ
مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ
دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

الثانية حسن الخلق: فلا تصحب من ساء خلقه، والذى لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة؛ وقد جمعه علقمة العطاردى رحمه الله تعالى فى وصيته لابنه لما حضرته الوفاة فقال: يا بنى إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مَانَك. اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى منك سيئة سدها. اصحب من إذا قلت صدَّق قولك، وإذا حاولت أمرًا أعانك ونصرك، وإن تنازعتما فى شىء آثرك. وقال على ﷺ رجزًا:

إِنَّ أَخَاكَ مَنْ كَانَ مَعَكْ
وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكْ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَعَكْ
شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكْ

الثالثة الصلاح: فلا تصحب فاسقًا مصرًا على معصية كبيرة، لأن من يخاف الله لايصرّ على معصية كبيرة، ومن لايخاف الله لا تؤمن غوائله، بل يتغير بتغير الأحوال والأعراض؛ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨]. فاحذر صحبة الفاسق، فإن مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية ويهون عليك أمرها؛ ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة، لا لفهم لها، ولو رأوا خاتمًا من ذهب أو ملبوسًا من حرير على فقيه لاشتد إنكارهم عليه، والغيبة أشد من ذلك.

الرابعة أن لا يكون حريصًا على الدنيا: فصحبة الحريص على الدنيا سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لايدرى، فمجالسة الحريص تزيد فى حرصك، ومجالسة الزاهد تزيد فى زهدك.

الخامسة الصدق: فلا تصحب كذابًا فإنك منه على غرور، فإنه مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب.

ولعلك تعدم اجتماع هذه الخصال فى سكان المدارس والمساجد، فعليك بأحد أمرين: إما العزلة والانفراد ففيها سلامتك، وإما أن تكون مخالطتك مع شركائك بقدر خصالهم،

بأن تعلم أن الإخوة ثلاثة: أخ لآخرتك، فلا تراع فيه إلا الدين. وأخ لدنياك، فلا تراع فيه إلا الخلق الحسن. وأخ لتأنس به، فلا تراع فيه إلا السلامة من شره وفتنته وخبثه.

والناس ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لايستغنى عنه والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه فى وقت دون وقت. والثالث مثله مثل الداء لايحتاج إليه قط ولكن العبد قد يبتلى به، وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع، فتجب مداراته إلى الخلاص منه، وفى مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها، وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه؛ فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن، وقيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ فقال: ما أدبنى أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته. ولقد صدق على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فلو اجتنب الناس ما يكرهونه من غيرهم لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدبين.

الوظيفة الثانية: مراعاة حقوق الصحبة؛ فمنها انعقدت الشركة، وانتظمت بينك وبين شريكك الصحبة، فعليك حقوق يوجبها عقد الصحبة وفى القيام بها آداب؛ وقد قال ﷺ: «**مَثَلُ الأَخَوَيْنِ مَثَلُ اليَدَيْنِ تَغسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**» ودخل ﷺ أجمة فاجتنى منها سواكين: أحدهما معوج والآخر مستقيم، وكان معه بعض أصحابه، فأعطاه المستقيم وأمسك لنفسه المعوج فقال: يارسول الله، أنت أحق منى بالمستقيم، فقال ﷺ «**مَا مِنْ صَاحِب يَصْحَبُ صَاحِبًا وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَار إِلاَّ وَيُسْأَلُ عَنْ صُحْبَته هَلْ أَقَامَ فِيهَا حَقَّ الله تَعَالَى أَو أَضَاعَهُ**» وقال ﷺ: «**ما اصْطَحَبَ اثنانِ قَطّ إِلاَّ وَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى الله تَعَالَى أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِه**».

وآداب الصحبة الإيثار بالمال، فإن لم يكن هذا فبذل الفضل من المال عند الحاجة، والإعانة بالنفس فى الحاجات على سبيل المبادرة من غير إحواج إلى التماس، وكتمان السر، وستر العيوب، والسكوت عن تبليغ ما يسؤوه من مذمة الناس إياه، وإبلاغ ما يسره من ثناء الناس عليه، وحسن الإصغاء عند الحديث، وترك المماراة فيه، وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه، وأن يثنى عليه بما يعرف من محاسنه، وأن يشكره على صنيعه فى وجهه، وأن يذبّ عنه فى غيبته إذا تعرض لعرضه كما يذب عن نفسه، وأن ينصحه باللطف والتعرض إذا احتاج إليه، وأن يعفو عن زلته وهفوته فلا يعتب عليه، وأن يدعو له فى خلوته فى حياته وبعد مماته، وأن يحسن الوفاء مع أهله وأقاربه بعد موته، وأن يؤثر التخفيف عنه فلا يكلفه شيئًا من حاجاته ويروح قلبه من مهماته، وأن يظهر الفرح بجميع ما يرتاح له من مساره، والحزن على ما يناله من مكاره، وأن يضمر فى قلبه مثل ما يظهر فيكون صادقًا فى ودّه سرًّا وعلانية، وأن يبدأه بالسلام عند إقباله، وأن يوسع له فى المجلس، وأن يخرج له من مكانه، وأن يشيعه عند قيامه، وأن يصمت عند كلامه حتى يفرغ من كلامه ويترك المداخلة

فى كلامه؛ وعلى الجملة فيعامله بما يحب أن يعامل به، فمن لا يحب لأخيه مثل ما يحب لنفسه فأخوته نفاق، وهى عليه وبال فى الدنيا والآخرة، فهذا أدبك فى حق العوالم المجهولين وفى حق الأصدقاء المؤاخين.

وأما القسم الثالث وهم المعارف؛ فاحذر منهم، فإنك لا ترى الشر إلا ممن تعرفه، أما الصديق فيعينك،وأما المجهول فلا يتعرض لك، وإنما الشر كله من المعارف الذين يظهرون الصداقة بألسنتهم. فأقلل من المعارف ما قدرت، فإذا بليت بهم فى مدرسة أو مسجد أو جامع أو سوق أو بلد، فيجب أن لا تستصغر منهم أحدًا، فإنه لا تدرى لعله خير منك، ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم فى حال دنياهم فتهلك، لأن الدنيا صغيرة عند الله تعالى صغير ما فيها، ومهما عظم أهل الدنيا فى قلبك فقد سقطت من عين الله تعالى. وإياك أن تبذل دينك لتنال به من دنياهم، فلا يفعل ذلك أحد إلا صغر فى أعينهم، ثم حرم ما عندهم. وإن عادوك فلا تقابلهم بالعداوة، فإنك لا تطيق الصبر على مكافأتهم، فيذهب دينك فى عداوتهم، ويطول عناؤك معهم. ولا تسكن إليهم فى حال إكرامهم إياك، وثنائهم عليك فى وجهك، وإظهارهم المودة لك، فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد فى المائة واحدًا، ولا تطمع أن يكون لك فى السر والعلن واحد. ولا تتعجب إن ثلبوك فى غيبتك ولا تغضب منهم، فإنك إن أنصفت وجدت من نفسك مثل ذلك حتى فى أصدقائك وأقاربك، بل فى أستاذك ووالديك، فإنك تذكرهم فى الغيبة بما لا تشافههم به. فاقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم؛ فإن الطامع فى الأكثر خائب فى المآل، وهو ذليل لا محالة فى الحال. وإذا سألت واحدًا حاجة فقضاها فاشكر الله تعالى واشكره، وإن قصر فلا تعاتبه ولا تشكه فيصير عداوة له؛ وكن كالمؤمن يطلب المعاذير، ولا تكن كالمنافق يطلب العيوب، وقل لعله قصر لعذر له لم أطلع عليه. ولا تعظن أحدًا منهم ما لم تتوسم فيه أولاً مخايل القبول، وإلا لم يستمع منك وصار خصمًا عليك، فإذا أخطئوا فى مسألة وكانوا يأنفون من التعلم فلا تعلمهم، فإنهم يستفيدون منك علمًا ويصبحون لك أعداء؛ إلا إذا تعلق ذلك بمعصية يقارفونها عن جهل منهم، فاذكر الحق بلطف من غير عنف،وإذا رأيت منهم كرامة وخيرًا فاشكر الله الذى حببك إليهم، وإذا رأيت منهم شرًا فكلهم إلى الله تعالى، واستعذ بالله من شرهم، ولا تعاتبهم، ولا تقل لهم: لم لم تعرفوا حقى وأنا فلان ابن فلان وأنا الفاضل فى العلوم؟ فإن ذلك من كلام الحمقى؛ وأشد الناس حماقة من يزكى نفسه ويثنى عليها. واعلم أن الله تعالى لا يسلطهم عليك إلا لذنب سبق منك، واستغفر الله من ذنبك واعلم أن ذلك عقوبة من الله تعالى. وكن فيما بينهم سميعًا لحقهم، أصم عند باطلهم، نطوقًا بمحاسبتهم، صموتًا عن مساويهم واحذر مخالطة متفقهة الزمان،

لاسيما المشتغلين بالخلاف والجدال، واحذر منهم، فإنهم يتصرفون بك بحسدهم ريب المنون، ويقطعون عليك بالظنون، ويتغامزون وراءك بالعيون، ويحصون عليك عثراتك فى عشيرتهم حتى يجبهوك بها فى حال غيظهم ومناظرتهم. لايقيلون لك عثرة، ولا يغفرون لك زلة، ولايسترون عليك عورة. يحاسبونك على النقير والقطمير، ويحسدونك على القليل والكثير، ويحرضون عليك الإخوان بالنميمة والبلاغات والبهتان. إن رضوا فظاهرهم الملق، وإن سخطوا فباطنهم الحنق. ظاهرهم ثياب، وباطنهم ذئاب، هذا ما قطعت به المشاهدة على أكثرهم إلا من عصمه الله تعالى؛ فصحبتهم خسران، ومعاشرتهم خذلان.

هذا حكم من يظهر لك الصداقة، فكيف من يجاهرك بالعداوة! قال القاضى ابن معروف رحمه الله تعالى:

فَاحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً
وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ ألفَ مَرَّةْ

فَلربَّما انقلبَ الصَّديـ
قُ فَكَانَ أعرف بِالمَضَرَّةْ

وكذلك قيل فى المعنى:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَاد
فلا تَسْتَكْثرن من الصّحابِ

فَإِنَّ الدَّاءَ أكثر ما تَرَاهُ
يكونُ من الطَّعَامِ أو الشَّرابِ

وكن كما قال هلال بن العلاء الرقى:

لما عفوت ولَم أحْقدْ على أحد
أَرَحْتُ نَفْسِىَ من همِّ العداواتِ

إنِّى أحيِّى عدوِّى عنْدَ رُؤْيَتِه
لأدفعَ الشرَّ عنى بالتحياتِ

وأظهر البِشْرَ للإنسان أَبْغُضُهُ
كأنَّهُ قَدْ ملا قَلْبِى مسرَّاتِ

ولَسْتُ أَسْلَمُ مِمَّنْ لَسْتُ أَعْرِفُهُ
فَكَيْفَ أَسْلَمُ مِنْ أَهْلِ المودَّاتِ

النَاسُ داءٌ دواءُ النَّاسِ تَرْكُهم
وفى الجَفَاءِ لَهُمْ قطع الأخوَّاتِ

فَسَالِمِ النَّاسَ تَسْلَمْ مِنْ غَوَائِلِهِم
وَكُنْ حَرِيصًا على كسبِ المودات
وَخَالِقْ النَّاسَ وَاصْبِرْ مَا بُلِيتَ بِهِم
أصمّ أبكم أعمى ذا تقيات

وكن أيضًا كما قال بعض الحكماء: الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة لهما ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، وكن فى جميع أمورك فى أوسطها. فكلا طرفى قصد الأمور ذميم . كما قيل:

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الأمورِ فَإِنَّهَا
طريقٌ إلى نهج الصِّراطِ قويمُ
ولاتَكُ فيها مفرِّطًا أو مفرطًا
فَإِنَّ كلا حالِ الأمورِ ذميمُ

ولا تنظر فى عطفيك، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تستوفز. وتحفظ من تشبيك أصابعك، والعبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك فى أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطى والتثاؤب فى وجوه الناس وفى الصلاة وغيرها.

وليكن مجلسك هادئًا وحديثك منظومًا مرتبًا. واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته. واسكت عن المضاحك والحكايات، ولا تحدث عن إعجابك بولدك وشعرك وكلامك وتصنيفك وسائر ما يخصك. ولا تتصنع تصنع المرأة فى التزين، ولا تتبذل تبذل العبد. وتوق كثر الكحل والإسراف فى الدهن. ولا تلح فى الحاجات، ولاتشجع أحدًا على الظلم.

ولا تعلم أحدًا من أهلك وولدك - فضلاً عن غيرهم- مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عليهم، وإن رأوه كثيرًا لم تبلغ قط رضاهم. واجفهم من غير عنف، ولِنْ لهم من غير ضعف. ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك من قلوبهم. وإذا خاصمت فتوقر، وتحفظ من جهلك وعجلتك، وتفكر فى حجتك؛ ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تكثر الالتفات إلى من ورائك، ولا تجث على ركبتك؛ وإذا هدأ غضبك فتكلم. وإذا قربك السلطان فكن منه على حد السنان. وإياك وصديق العافية، فإنه أعدى الأعداد. ولا تجعل مالك أكرم من عرضك.

فهذا القدر يا فتى يكفيك من بداية الهداية، فجرب بها نفسك، فإنها ثلاثة أقسام: قسم فى آداب الطاعات، وقسم فى ترك المعاصى، وقسم فى مخالطة الخلق. وهى جامعة

جملة معاملة العبد مع الخالق؛ فإن رأيتهـا مناسبة لنفسك ورأيت قلبك مائلاً إليها راغبًا فى العمل بها، فاعلم أنك عبد نَوَّر الله تعالى بالإيمان قلبك، وشرح به صدرك.

وتحقق أن لـهذه البدايـة نهاية، ووراءها أسـرارًا وأغوارًا وعلومًـا ومكاشفـات، وقد أودعناها فى كتاب إحياء علوم الدين، فاشتغل بتـحصيله. وإن رأيت نفسك تستثقل العمل بهذه الوظائف، وتنكـر هذا الفن من العلم، وتقول لك نفسك: أنَّى ينـفعك هذا العلم فى محافل العلماء؟ ومتى يقدمك هذا على الأقـران والنظراء؟ وكيف يرفع منصبك فى مجالس الأمراء والوزراء؟ وكـيف يوصل إلى الصلة والأرزاق وولاية الأوقـاف والقضاء؟ فـاعلم أن الشيطان قد أغواك، وأنساك منقلبك ومثواك، فاطلب لك شيطانًا مثلك ليعلمك ما تظن أنه ينفعك ويوصلك إلى بغـيتك. ثم اعلم أنه قط لايصفـو لك فى محلتك فضـلاً عن قريتك وبلدتك، ثم يفوتك الملك المقيم والنعيم الدائم فى جوار رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب فى الدين

الحمد لله الذى خلقنا فـأكمل خلقنا، وأدبنا فأحسن أدَبنا، وشرفنا بنبيـه محمد ﷺ فأحسن تشريفنا؛ ثم أقول وبالله التوفيق:

إن أكمل الأخـلاق وأعلاها، وأحسن الأفـعال وأبهاهـا، هو الأدب فى الدين، وما يقتدى به المؤمن مـن فعل رب العالمين، وأخلاق النبيين والمرسلين. وقـد أدبنا الله تعالى فى القرآن بما أرانا فيه من البيـان، وأدبنا بنبيه محمد ﷺ فى السنَّة بما أوجب علينا، فله المنة، وكذلك بالـصحابة والتـابعين ومن بعدهم مـن أهل الأدب من المؤمنين بما أوجب علينا من الاقتـداء بهم؛ وذلك جليل خطره، كثيـر عدده، نذكر بعـضه، لئلا يطول شـرحه فيعـسر فهمه.

الآداب بين يدى الله تعالى

أدب المؤمن بَيْن يَدَىْ الله تعَالى

إطراق الطرف، وجـمع الهم، ودوام الصمت، وسكون الجـوارح، ومبـادرة امتـثال الأوامر، واجـتناب المناهى، وقلة الاعتراض، وحسـن الخلق، ودوام الذكر، وتنزيه الفكر، وتقيـيد الجـوارح، وسكون القلب، وتعظيم الرب، وقلة الغـضب، وكتـمان الحب، ودوام

الإخلاص، وترك النظر إلى الأشخاص، وإيثار الحق، واليأس من جميع الخلق، وإخلاص العمل، وصدق القول، وتنزيه الاطلاع، وإحياء القربات، وقلة الإشارة، وكتمان الفائدة، والغيرة على تبديل الاسم. والغضب عند انتهاك المحارم، ودوام الهيبة، واستشعار الحياء، واستعمال الخوف، والسكون ثقة بالضمان، والتوكل معرفة بحسن الاختيار، وإسباغ الوضوء على المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وارتعاش القلب خوف فوت الفرض، ودوام التوبة خوف الإصرار، ودوام التصديق بما غاب، ووجل القلب عند الذكر، وزيادة الأنوار عند الوعظ، واستشعار التوكل عند الفاقة، وإخراج الصدقة من غير بخل مع الإمكان.

آداب العالم

لزوم العلم، والعمل بالعلم، ودوام الوقار، ومنع التكبر وترك الدعاء به، والرفق بالمتعلم، والتأني بالمتعجرف، وإصلاح المسألة للبليد، وبرك الأنفة من قول لا أدرى، وتكون همته عند السؤال خلاصة من السائل لإخلاص السائل، وترك التكلف، واستماع الحجة والقبول لها وإن كانت من الخصم.

آداب المتعلم مع العالم

يبدؤه بالسلام، ويقل بين يديه الكلام، ويقوم له إذا قام، ولا يقول له: قال فلان خلاف ما قلت، ولا يسأل جليسه فى مجلسه، ولا يبتسم عند مخاطبته، ولا يشير عليه بخلاف رأيه، ولا يأخذ بثوبه إذا قام، ولا يستفهمه عن مسألة فى طريقه حتى يبلغ إلى منزله، ولا يكثر عليه عند ملله.

آداب المقرىء

يجلس جلسة الخشية، واستماع الأمر، وإنْصات الفهم، وانتظار الرحمة، والإصغاء إلى المتشابه وإشارة الوقف، وتعريف الابتداء، وبيان الهمزة، وتعليم العدد، وتجويد الحرف، وفائدة الخاتم، والرفق بالبادى، والسؤال عن المتعلم إذا غاب، والحث له إذا حضر، وترك الحديث، ويبدأ بالمتلقن يلقنه ما يصلى به لنفسه، أو احتاج إلى أن يؤم غيره.

آداب القارىء

يجلس بين يديه جلسة التواضع، وجمع الفهم، وخفض الرأس، والاستئذان قبل القراءة، ثم الاستعاذة والتسمية، والدعاء عند الفراغ.

آداب معلم الصبيان

يبدأ بصلاح نفسه؛ فإن أعينهم إليه ناظرة، وآذانهم إليه مصغية، فما استحسنه فهو عندهم الحسن، وما استقبحه فهو عندهم القبيح، ويلزم الصمت فى جلسته، والشزر فى نظره، ويكون معظم تأديبه بالرهبة، ولا يكثر الضرب والتعذيب، ولايحادثهم فيجترئوا عليه، ولا يدعهم يتحدثون فينبسطون بين يديه، ولا يمازح بين أيديهم أحدًا! ويتنزه عما يعطونه، ويتورع عما بين يديه يطرحونه، ويمنعهم من التحريش، ويكفهم من التفتيش، ويقبح عندهم الغيبة، ويوحش عندهم الكذب والنميمة، ولا يسألهم عن أمر ينوبهم فيثقلوه، ولا يكثر الطلب من أهلهم فيملوه، ويعلمهم الطهارة والصلاة، ويعرفهم بما يلحقُهم من النجاسة.

آداب المحدث

يقصد الصدق، ويجتنب الكذب، ويحدث بالمشهور، ويروى عن الثقات، ويترك المناكير ولا يذكر ماجرى بين السلف، ويعرف الزمان، ويتحفظ من الزلل والتصحيف واللَّحن والتحريف، ويدع المداعبة، ويقل المشاغبة، ويشكر النعمة؛ إذ جعل فى درجة الرسول ﷺ، ويلزم التواضع، ويكون معظم ما يحدث به ما ينتفع المسلمون به من فرائضهم وسننهم وآدابهم فى معانى كتاب ربهم عز وجل. ولا يحمل علمه إلى الوزراء، ولا يغشى أبواب الأمراء؛ فإن ذلك يزرى بالعلماء، ويذهب بهاء علمهم إذا حملوه إلى ملوكهم ومياسيرهم، ولا يحدث بما لا يعلمه فى أصله، ولا يقرأ عليه ما لا يراه فى كتابه، ولا يتحده إذا قرئ عليه، ويحذر أن يدخل حديثًا فى حديث.

آداب طالب الحديث

يكتب المشهور ولايكتب الغريب، ولا يكتب المناكير، ويكتب عن الثقات، ولا يغلبه شهرة الحديث على قرينه ولا يشغله طلبه عن مروءته وصلاته؛ يجتنب الغيبة، وينصت للسماع، ويلزم الصمت بين يدى محدثه، ويكثر التلفت عند إصلاح نسخته، ولا يقول: سمعت، وهو ما سمع، ولا ينشره لطلب العلوّ فيكتب من غير ثقة، ويلزم أهل المعرفة بالحديث من أهل الدين، ولا يكتب عمن لا يعرف الحديث من الصالحين.

آداب الكاتب

حسن الخط، وجودة البرى، وإعراب اللفظ ومعرفة الحساب، وسداد الرأى، وحسن

اللباس، وطيب الرائحة، والمعرفة بأخبار المتقدمين من الوزراء المتصرفين، والتخوف من المصادرات، والعلم بأمر الخراج، والمسامحة والخبرة فى السدادات، وترك الانخرام والتنزه عن الحرام، واستعمال المروءة وحسن العشرة والتحفظ عن الذِّلة، وترك الرفْث فى المجالس، ونفى المداعبة والمحادثة والمداراة للحاشية.

آداب الواعظ

ترك التكبر، ودوام الحياء من سيده وإظهار الفاقة إلى خالقه، وشهوة المنفعة لمستمعه، والإزراء على نفسه لمعرفة عيبه، والنظر إلى المستمعين إليه بعين السلامة، وحسن الظن بهم بباطن الديانة، والإياس منهم طلبًا للصيانة، والرفق بالتأديب، والعطف على المبتدىء، واعتقاد فعل ما يقول؛ لينتفع النَّاس بما يقُول.

آداب المستمع

إظهار الخشوع، ودوام الخضوع، وسلامة الصدر، وحسن الظن، واعتقاد القول، ودوام السكوت، وقلة التقلب، وجمع الهم، وترك التهمة.

آداب الناسك

يكون وقته معلومًا، ووِرده مفهومًا، وكلامه مقسومًا، ودمعه مسجومًا، دائمًا خشوعه، لازمًا خضوعه، غاضًّا لطرفه، عاقًّا لقلبه، مفكرًا فى دينه، مراقبًا لوقته، مداومًا لصومه، ساهرًا فى ليله، متورعًا فى مسكنه، متقللاً فى مطعمه ومشربه، متوقعًا لنزول أجله، مجانبًا لقرنائه، تاركًا لشهواته، محافظًا على صلواته، عالمًا بزيادة حاله ونقصانه، لا يحتاج إلى علم غيره مع علمه بحاله.

آداب اعتزال الناس

يكون فقيهًا فى دينه، عارفًا بأمر صلاته وصيامه وزكاته وحجه، يعتقد فى اعتزالهم دفع شره عنهم، ويحضر الجمع والجماعات، ويشهد الجنائز، ويعود المرضى؛ ولا يخوض فى حديثهم، ولا يسأل عما يفسد قلبه من أخبارهم؛ ولا يطمع نفسه فى نَائلهم، حتى لا يكون له حاجة إلى جيرانه؛ تكون أوقاته ثلاثة: إما أن يصلى ويدرس فيغنم، أو ينظر فى كتبه فيتعلم، أو ينام فيسلم. يدمن الذكر، ويكثر الشكر حتى يتم له الأمر، فإنْ كان له أهل يتحدث معهم، ،ويجتهد فى خلوته حتى يرى ميزان عزلته.

آداب الصوفى

قلة الإشارة، وترك الشطح فى العبارة، والتمسك بعلم الشريعة، ودوام الكد، واستعمال الجد، والاستيحاش من الناس، وترك الشهرة فى اللباس، وإظهار التجمل، واستشعار التوكل، واختيار الفقر، ودوام الذكر، وكتمان المحبة، وحسن العشرة فى الصحبة، والغض عن المردان وترك مؤاخاة النسوان، ودوام درس القرآن.

آداب الشريف

يصون شرفه، ولايأكل بِنَسَبِه؛ ولا يتعدى بِحَسَبِه، همته التواضع لربه، والخوف من سيده، ويأخذ بالفضل على من دونه، ولا يساوى من هو مثله. يعرف الفضل لأهل العلم وإن كان مثلهم فى العلم أو أعلم، يلازم أهل الدين من أهل الفقه والقرآن، ويهذب أخلاقه، ويتحفظ فى ألفاظه عند غضبه وخطابه، يكرم جلساءه، ويواصل إخوانه، ويصون أقاربه، ويعين جيرانه، ويزين بنفسه أخدانه.

آداب النوم

يتطهر قبل النوم، وينام على يمينه، ويذكر الله عز وجل حتى يأخذه النوم، ويدعو إذا استيقظ، ويحمد الله تعالى.

آداب التهجد

تقليل الغذاء، ونقصان الماء، وإصلاح النهار باجتناب الغيبة والكذب واللغو، وترك النظر فى المحرمات، والقيام من النوم بفزع وخوف، وإسباغ الوضوء، والنظر فى ملكوت السماوات، والدعاء والحضور فى الصلاة لفهم التلاوة.

آداب الخلاء

التسمية ثم الاستعاذة قبل الدخول، وكشف الثوب برفق بعد قربه من الأرض، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء مع الغسل، والاستتار قبل الخروج، والحمد والشكر بعد الخروج.

آداب الحمام

ستر العورة، وغض البصر عن العورات، وطلب الخلوة، وترك التكلم، وقلة

التلفت، ومنع السلام، وقلة الجلوس، وغسل الجنابة من قبل الدخول، وغسل القدمين إذا خرج بالماء البارد فإنه يذهب الصداع.

آداب الوضوء

السواك ودوام الذكر مع الغسل، واستشعار الهيبة ممن يقصد والتوبة مما كان، والسكوت بعد الطهارة حتى يدخل فى الصلاة، والطهارة فى إثر الطهارة وأخذ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وتقليم الأظافر، والاختتان وغسل البراجم، وتعاهد الأنف، ونظافة الثوب والبدن.

آداب دخول المسجد

يبدأ باليمنى، ويزيل ما فى نعله من الأذى، ويذكر اسم الله عز وجل، ويسلم على من حضر، فإن كان خاليًا سلم على نفسه، ويسأل الله تعالى أن يفتح له أبواب رحمته، ويجلس فى مواجهة القبلة، ويلزم المراقبة، ويقل المخاطبة، ويترك الملاعنة، ولا يرفع فيه صوته، ولا يشهر فيه سيفه، ويمسك بنصال نبله، ولا يصنع صنعة، ولا ينشد ضالة، ولا يبايع ولا يشارى ولا يجامع، فإذا انصرف بدأ باليسرى، وسأل الله تعالى من فضله ما يعطى.

آداب الاعتكاف

دوام الذكر، وجمع الهم، وترك الحديث، ولزوم الموضع، وترك التنقلات، وحبس النفس عن مرادها، ومنعها فى محابها، وجبرها على طاعة الله عز وجل.

آداب الأذان

يكون المؤذن عارفًا بوقته فى الصيف وفى الشتاء، غاضًّا لطرفه عند صعوده المنارة، ويلتفت فى أذانه عند النداء بالصلاة والفلاح. ويرتل الأذان، ويتحدر فى الإقامة.

آداب الإمام

يكون عارفًا بالصلاة وفرائضها وسننها، فقيهًا بما يحدث له فى صلاته وما يفسدها، ولا يؤم قومًا وهم له كارهون، يجعل من يليه من أهل العلم ويأمرهم بتسوية الصفوف، ويشير إليهم بلطف، ولا يقرأ بطوال السور فيضجروا، ولايطيل التسبيح فيملّوا، ولا يخفف

بحيث يفوت الكمال، بل يرتب الصلاة على قدر قوة ضَعَفَتهم، ويترفق فى ركوعه وسجوده حتى يطمئنوا، ويسكت سكتة قبل الحمد وبعد الحمد وإذا فرغ من السورة، وينتظر فى ركوعه من أحس به ما لم يجحف بمن ورائه، وينتظر قبل الصلاة من فقد من جيرانه ما لم يخف فَوْت وقته، ويفرق بين التسليمتين بوقفة خفيفة، وإذا فرغ نظر إلى ستر الله ومنته، وازداد شكرًا لسيده، وأدام له فى كل حالاته الذكر.

آداب الصلاة

خفض الجناح، ولزوم الخشوع، وإظهار التذليل، وحضور القلب، ونفى الوساوس، وترك التقلب ظاهرًا وباطنًا، وهدوء الجوارح، وإطراق الطرف، ووضع اليمين على الشمال والتفكر فى التلاوة، والتكبير بالهيبة، والركوع بالخضوع، والسجود بالخشوع، والتسبيح بالتعظيم، والتشهد بالمشاهدة، والتسليم بالإشفاق، والانصراف بالخوف، والسعى بطلب الرضاء.

آداب القراءة

مداومة الوقار والحياء، ومجانبة العبث والخناء، ولزوم التواضع والبكاء.

آداب الدعاء

خشوع القلب، وجمع الهم، وإظهار الذل، وحسن النظر، وخفض الجناح، وسؤال الفاقة، ولجأ الغريق، ومعرفته بقدر نفسه، وعظيم حرمة المسئول، وبسط الكف عند الرغبة، واليقين بالإجابة والخوف من الخيبة، وانتظار الفرج، وترك العدوان، وصحة القصد واللجإ،ومسح الوجه بباطن الكف بعد الدعاء.

آداب الجمعة

التأهب للوقت قبل دخوله، والطهارة عند حضوره والبكور، وغسل الجسد ونظافة الثوب، وطيب الرائحة، وترك التخطى، وقلة الكلام، ودوام الذكر، والقرب من الإمام، والإنصات للخطيب، والانتشار لطلب العلم، والمشى بالسكينة والوقار، وترك تشبيك الأصابع، وتقارب الخطى، ودوام الإطراق، وكثرة الشكر للرزاق، ودخول المسجد بالخشوع، ورد السلام، وترك الصلاة بعد جلوس الخطيب على المنبر. ورد السلام عليه بعد إشارته، وترك الكلام، واعتقاد القبول للموعظة، وترك الالتفات عند إقباله ومخاطبته، وترك القيام إلى الصلاة حتى ينزل من المنبر ويفرغ المؤذن من الإقامة.

آداب الخطيب

يأتى المسجد وعليه السكينة والوقار. ويبدأ بالتحية ويجلس وعليه الهيبة. ويمتنع عن التخاطب، وينتظر الوقت؛ ثم يخطو إلى المنبر وعليه الوقار، كأنه يحب أن يعرض ما يقول على الجبار. ثم يصعد للخشوع، ويقف على المرقاة بالخشوع ويرتقى بالذكر، ويلتفت إلى مستمعيه باجتماع الفكر، ثم يشير إليهم بالسلام ليستمعوا منه الكلام، ثم يجلس للأذان فزعًا من الديان، ثم يخطب بالتواضع، ولا يشير بالأصابع، ويعتقد ما يقوله لينتفع به، ثم يشير إليهم بالدعاء، وينزل إذا أخذ المؤذن فى الإقامة، ولا يكبر حتى يسكتوا، ثم يفتتح الصلاة، ويرتل ما يقرأ.

آداب العيد

إحياء ليلته والاغتسال فى صبيحة يومه؛ ونظافة البدن، وطيب الرائحة، وإدامة التكبير، وكثرة الذكر، واستعمال الخشوع، والتسبيح والحمد بين تضاعف التكبير، والإنصات للخطبة بعد الصلاة، وأكل اليسير قبل الخروج إن كان فطراً، والذهاب فى طريق والرجوع فى أخرى، والانصراف بالإشفاق خوف الغيبة.

آداب الخسوف

دوام الفزع، وإظهار الجزع، ومبادرة التوبة، وترك الملل، وسرعة القيام إلى الصلاة،وطول القيام فيها، واستشعار الحذر.

آداب الاستسقاء

الصيام قبله، وتقديم التوبة، ورد المظالم، وبذل الهمة، وترك المخافرة والاغتسال قبل الخروج، ودوام الصمت ورؤية الحال التى أوجبت المنع، والاعتراف بالذنب التى نزلت به العقوبة، واعتقاد ترك العود، والإنصات للخطبة، والتسبيح بين التكبير، وكثرة الاستغفار وتحويل الإزار مع الدعاء.

آداب المريض

الإكثار من ذكر الموت، والاستعداد له بالتوبة، ودوام الحمد والثناء لله واستعمال التضرع والدعاء، وإظهار العجز والفاقة، والتداوى مع الاستعانة بخالق الدواء، وإظهار الشكر عند القوة، وقلة الشكوى، وإكرام الجلساء، وترك المصافحة.

آداب المعزّى

خفض الجناح، وإظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم فإنه يورث الحقد.

آداب المشى فى الجنازة

دوام الخشوع، وغض البصر، وترك الحديث، وملاحظة الميت بالاعتبار، والتفكر فيما يجيب به من السؤال، والعزم على المبادرة فيما يخاف به من المطالبة، وخوف حسرة الفوت عند هجوم الموت.

آداب المتصدق

ينبغى له أداؤها قبل المسألة، وإخفاء الصدقة عند العطاء، وكتمانها بعد العطاء، والرفق بالسائل، ولا يبدؤه برد الجواب، ويرد عليه بالوسوسة فى الوسوسة، ويمنع نفسه البخل، ويعطيه ما سأل أو يرده ردًّا جميلاً، فإن عارضه العدو إبليس لعنه الله أن السائل ليس يستحق، فلا يرجع بما أنعم الله به عليه، بل هو مستحق لها.

آداب السائل

يبدى الفاقة بصدق الحقيقة، ويظهر السؤال بلطافة القول، ويأخذ ما أعطى بمقابلة الشكر، وإن قل، وحسن الدعاء، فإن رد عليه رجع بجميل قبول العذر، وترك المعاودة والإلحاح.

آداب الغنى

لزوم التواضع، ونفى التكبر، ودوام الشكر، والتوصل إلى أعمال البر، والبشاشة بالفقير والإقبال عليه، ورد السلام على كل أحد، وإظهار الكفاية، ولطافة الكلمة، وطيب المؤانسة، والمساعدة على الخيرات .

آداب الفقير

لزوم القناعة، وكتمان الفاقة، وترك البذالة والتضعضع، وإلقاء الطمع، وإيثار الصيانة، وإظهار الكفاية لأهل المروءة من أهل الديانة، وإجلال الأغنياء مع قلة الاستبشار لهم، وإظهار الكفاية لهم مع الإياس منهم، وترك الكبر عليهم، مع نفى التذلل وحفظ القلب عند رؤيتهم، والتمسك بالدين عند مشاهدتهم.

آداب المُهْدِي

ـ رؤية الفضل للمهدَى إليه، وإظهار السرور بالقبول منه لها، والشكر عند رؤية المهدى إليه، والاستقلال لها وإن كثرت.

آداب المهدَى إليه

إظهار السرور بها وإن قلت، والدعاء لصاحبها إذا غاب. والبشاشة إذا حضر، والمكافأة إذا قدر، والثناء عليه إذا أمكن، وترك الخضوع له، والتحفظ من ذهاب الدين معه، ونفى الطمع معه ثانيًا.

آداب اصطناع المعروف

البداءة به قبل السؤال، والمبادرة به عند الوعد، والتوفير له عند العطاء، والستر له بعد الأخذ، وترك المنة بعد القبول، والمداومة على اصطناعه، والحذر من انقطاعه.

آداب الصيام

طيب الغذاء، وترك المراء، ومجانبة الغيبة، ورفض الكذب، وترك الأذى، وصون الجوارح عن القبائح.

آداب الحج

آداب الطريق

طيب النفقة، والإحسان إلى المكارى، ومعاونة الرفقة والرفق بالمنقطع، وبذل الزاد، وحسن الخلق ، وطيب الكلمة، والمزاح من غير معصية، واختيار التعديل، والاستبشار به عند رؤيته، والإصغاء عند محادثته، وقلة المماراة له عند ضجره، والتغافل عن زلته، والشكر له عند خدمته، والتوصل إلى إيثاره ومساعدته.

آداب الإحرام

غسل الجسد، ونظافة الإزارين، وطيب الرائحة، وتعاهد الجياع، والتلبية بالهيبة، ورفع الصوت بحلاوة الإجابة، والطواف بتعظيم الحرمة، والسعى بطلب الرضاء، والوقوف بمشاهد القيامة، وشهود المشعر برؤية الرحمة والحلق برؤية العتق، والذبح برؤية الكفارة، والرمى برؤية الطاعة، وطواف الزيارة بمشاهدة المرور وهو من غير حد، والرد بحقيقة الأسف، والانصراف بمحبة الرجوع.

آداب دخول مكة

دخول الحرم بالتعظيم، والنظر إلى مكة بالتحسر، ورؤية المسجد بالتفضيل، ونظر البيت بالتكبير والتهليل، ودوام الطواف، ومواصلة العمرة، ودخول البيت بتعظيم الحرمة، ودوام التوبة بعد دخوله.

آداب دخول المدينة

يدخلها بالوقار مع السكينة، والمشاهدة لما كان فيها من الشريعة، والنظر إليها بالعين الرفيعة، ثم يأتى مسجد الرسول ﷺ ومنبره كأنه مشاهد لصلاته وخطبته، ثم يأتى قبره وكأنه ناظر إلى شخصه الكريم، ومخاطبته مع خفض الصوت بحضرته كأنه معاين لجلسته، فيبدؤه بالسلام، ثم يسلم على ضجيعيه، ويشاهد محبتهما له، ومشيته بينهما، وإقباله عليهما، ويعاين هيبتهما له وإقبالهما عليه، وإذا ودَّع القبر فلا يوليه الظهر.

آداب التاجر

لا يجلس فى طريق المسلمين فيضيق عليهم، ويستعمل غلامًا كيسًا لا يبخس فى كيله، ولا ينقص فى وزنه، يأمره بالرجحان، وترك العجلة فى الميزان، يكون ميزان دراهمه فى حدته كالطيار، ومن اعتداله كالمعيار، طويلة خيوطه دقيقة ذوائبه، معيرة صنجاته، معتدلة حباته، يبتدئ كل يوم بمسح ميزانه، ويتعاهد نقص أرطاله وصنجاته، يأمر غلامه بالتوقف فى كليه الأدهان، وإذا وقف عليه شريف أكرمه، أو جار فضله، أو ضعيف رحمه، أو غير هؤلاء أنصفه، يبيع على قدر أسعاره، إن نقص سعره زاد زبونه، كما إنه إن زاد سعره نقص زبونه.

وتكون همته فى جلوسه درس القرآن، وغض الطرف عن المحارم والغلمان، يشترى عرضه باليسير من سفيه يقف عليه، ولا يرد السائل، ولا يمنع البشر من النائل.

فإن كان هو المتولى لأمره كان مايلزم غلامه هو أولى به، ويشترى الأرطال والصنجات والمكيال من الثقات معيرات، ويترك المدح للسلعة عند البيع، والذم لها عند الشراء، ويلزم الصدق عند الإخبار، ويحذر الفحش عند المزايدة، والكذب عند المحادثة، ويقل الخوض مع أهل الأسواق، ومداعبة الأحداث ويقصر فى الخصومات.

آداب الصيرفى

يعتقد الصحة، ويؤدى الأمانة، ويحذر الربا، ويقرب النسيئة، ولا ينفق الرديئة، ويوفى الوزن، ولا يعتقد الغش والغبن، متفقدًا لمعياره، خائفًا من نقصان صنجاته ومثاقيله.

آداب الصائغ

استعمال النصيحة، والاجتهاد فى الجودة، وقلة المطل، ووفاء الوعد، وترك التعدى فى الأجرة.

آداب الأكل

غسل اليدين قبل الطعام وبعده، والتسمية، والأكل باليمين ومما يليه، ويصغر اللقمة، وإجادة المضغ، وقلة النظر إلى وجوه الحاضرين، ولا يأكل متكئًا ولا يأكل فوق الشبع عند الجوع، ويعتذر إذا شبع حتى لا يخجل الضيف أو من به حاجة، ويأكل من جوانب القصعة ولا يأكل من ذروتها، ويلعق الأصابع بعد الفراغ، ويحمد الله، ولا يذكر الموت عند الأكل لئلا ينغص على الحاضرين.

آداب الشرب

ينظر فى إنائه قبل شربه، ويسمى الله تعالى قبله، ويحمده بعده، ويمصه مصًّا، ولا يعبه عبًّا، ويتنفس فى شربه ثلاثًا، ويتبعه بالتحميد، ويرد بالتسيمة، ولا يشرب قائمًا، ويتناول من كان على يمينه إن كان معه غيره.

آداب الرجل إذا أراد النكاح

يطلب الدِّين، ثم بعده الجمال والمال إن أراده، ولا يشارط على ما يأتيه، ولا يضمره، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولايأذن فى إملاكه وعرسه بما يباعده من ربه ويزريه، ولا يجلس فى خلواته حيث يرى غيره حرمته، ولا يقبلها بين أهله،ويبدؤها إذا خلا فى سؤاله، ولا يكون سفيره كذابًا، ولا المخبر له نمامًا بل من خاصتها، ويسأله عن دينها ومواظبتها على صلاتها، ومراعاتها لصيامها، وعن حيائها ونظافتها، وحسن ألفاظها وقبحها، ولزوم بيتها، وبرها بوالديها، ويتلطف قبل العقد فى النظر إليها، وبعده بما يبلغها بالكلام الجميل. ويبحث عن خصال والدها ودينه، وحال والدتها ودينها وأعمالها.

آداب المرأة إذا خطبها الرجل

تأمر من تأمن به من أهلها إن كان صدوقًا أن يسأل عن مذهب الخاطب ودينه واعتقاده ومروءته فى نفسه وصدقه فى وعده، وتنظر مَن أقرباؤه، ومن يغشاه فى بيته، وعن مواظبته على صلواته وجماعته، ونصيحته فى تجارته وصنعته، ويكون رغبتها فى دينه دون ماله، أو فى سيرته دون شهرته، تعزم معه على القناعة وتكون لأوامره مطيعة، فهو آكد للألفة، وأثبت للمودة.

آداب الجماع

طيب الرائحة، ولطافة الكلمة، وإظهار المودة، وتقبيل الشهوة، والتزام المحبة، ثم التسمية، وترك النظر إلى الفرج، فإنه يورث العمى، والستر تحت الإزار، وترك استقبال القبلة.

آداب الرجل مع زوجته

حسن العشرة، ولطافة الكلمة، وإظهار المودة، والبسط فى الخلوة، والتغافل عن الزلة، وإقالة العثرة، وصيانة عرضها، وقلة مجادلتها، وبذل المؤونة بلا بخل لها، وإكرام أهلها، ودوام الوعد الجميل، وشدة الغيرة عليها.

آداب المرأة مع زوجها

دوام الحياء منه، وقلة المماراة له، ولزوم الطاعة لأمره، والسكون عند كلامه، والحفظ له فى غيبته، وترك الخيانة فى ماله، وطيب الرائحة، وتعهد الفم ونظافة الثوب، وإظهار القناعة، واستعمال الشفقة، ودوام الزينة، وإكرام أهله وقرابته، ورؤية حاله بالفضل، وقبول فعله بالشكر، وإظهار الحب له عند القرب منه، وإظهار السرور عند الرؤية له.

آداب الرجل فى نفسه

لزوم الجمعة والجماعة، ونظافة الملبس، وإدامة السواك، ولا يلبس المشهور ولا المحقور، ولا يطيل ثيابه تكبرًا، ولا يقصرها متمسكنًا، ولا يكثر التلفت فى مشيته، ولا ينظر إلى غير حرمته، ولا يبصق فى حال محادثته، ولايكثر القعود على باب داره مع جيرانه، ولا يكثر لإخوانه الحديث عن زوجته وما فى بيته.

آداب المرأة فى نفسها

أن تكون لازمة لمنزلها، قاعدة فى قعر بيتها، ولاتكثر صعودها ولا اطلاعها الكلام لجيرانها، ولا تدخل عليهم إلا فى حال يوجب الدخول، تسر بعلها فى نظره، وتحفظه فى غيبته، ولا تخرج من بيتها وإن خرجت فمتخبئة تطلب المواضع الخالية، مصونة فى حاجاتها، بل تتناكر ممن يعرفها، همتها إصلاح نفسها، وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصومها، ناظرة فى عيبها، متفكرة فى دينها، مديمة صمتها، غاضة طرفها، مراقبة لربها، كثيرة الذكر له، طائعة لبعلها، تحثه على طلبه الحلال، ولا تطلب منه الكثير من النوال،

ظاهرة الحياء، قليلة الخناء، صبورة شكورة، مؤثرة فى نفسها، مواسية من حالها وقوتها. وإذا استأذن بابها صديق لبعلها، وليس بعلها حاضرًا، لم تستفهمه، ولا فى الكلام تعاوده، غيرة منها على نفسها وبعلها منه.

آداب الاستئذان

المشى بجانب الجدار، ولايقابل الباب، والتسبيح والتحميد قبل الدق، والسلام بعده، وترك السمع إلى من فى المنزل، واستئذان بعد السلام، فإن أذن له وإلا رجع ولم يقف، ولا يقول: أنا، بل يقول: فلان، إذا استفهم.

آداب الجلوس على الطريق

غض البصر، ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وإرشاد الضال، ورد السلام، وإعطاء السائل، وترك التلفت، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالرفق واللطف، فإن أصر فبالرهبة والعنف، ولا يصغى إلى الساعى إلا ببينة، ولا يتجسس، ولا يظن بالناس إلا خيرًا.

آداب المعاشرة

إذا دخل مجلسًا أو جماعة سلم وجلس حيث امتنع وترك التخطى، وخص بالسلام من قرب منه إذا جلس، وإن بلى بمجالسة العامة ترك الخوض معهم، ولا يصغى إلى أراجيفهم، ويتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم، ويقل اللقاء لهم إلا عند الحاجة، ولا يستصغر أحدًا من الناس فيهلك، ولا يدرى لعله خير منه، وأطوع لله منه؛ ولا ينظر إليهم بعين التعظيم فى دنياهم؛ لأن الدنيا صغيرة عند الله، صغير ما فيها، ولا يعظم قدر الدنيا فى نفسه، فيعظم أهلها لأجلها، فيسقط من عين الله؛ ولا يبذل لهم دينه، لينال من دنياهم، فيصغر فى أعينهم؛ ولا يعاديهم، فتظهر لهم العداوة، ولا يطيق ذلك ولا يصبر عليه إلا أن تكون معاداة فى الله عز وجل، فيعادى أفعالهم القبيحة، وينظر إليهم بعين الشفقة والرحمة، ولا يستكثر إليهم فى مودتهم له، وإكرامهم إياه، وحسن بشاشتهم فى وجهه، وثنائهم عليه، فإنه من طلب حقيقة لك لم يجده إلا فى الأقل، وإن سكن إليهم وكله الحق إليهم فهلك، ولا يطمع أن يكونوا له فى الغيب كما له فى العلانية، فإنه لايجد ذلك أبدًا، ولا يطمع فيما فى أيديهم فيبذل لهم، ويذهب دينه معهم، ولا يتكبر عليهم، وإذا سأل أحدًا منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد، وإن لم يقضها فلا يذمه فيكتسب عداوته، ولا يعظ أحدًا منهم إلا أن يرى فيه أثر القبول، وإلا عاداه ولم يسمع منه.

وإذا رأى منهم خيراً أو كرامة أو ثناء فليرجع بذلك إلى الله عز وجل. ويحمده ويسأله أنه لا يكله إليهم. وإذا رأى منهم شراً أو كلامًا قبيحًا أو غيبة أو شيئًا يكرهه، فيكل الأمر إلى الله تعالى، ويستعيذ به من شرهم، ويستعينه عليهم. ولا يعاتبهم، فإنه لايجد عندهم للعتاب موضعًا، ويصيرون له أعداء، ولا يشفى غيظه، بل يتوب إلى الله تعالى من الذنب الذى به سلطهم عليه، ويستغفر الله منه، وليكن سميعًا لحقهم أصم عن باطلهم.

آداب الولد مع والديه

يسمع كلامهما ، ويقوم لقيامهما، ويمتثل لأمرهما، ويلبى دعوتهما، ويخفض لهما جناح الذل من الرحمة ولا يبرمهما بالإلحاح، ولايمن عليهما بالبر لهما، ولا بالقيام بأمرهما، ولا ينظر إليهما شزراً ولا يعصى لهما أمرًا.

آداب الوالد مع أولاده

يعينهم على بره. ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم، ولا يلح عليهم فى وقت ضجرهم ولا يمنعهم من طاعة ربهم، ولايمن عليهم بتربيتهم.

آداب الإخوان

الاستبشار بهم عند اللقاء، والابتداء بالسلام، والمؤانسة والتوسعة عند الجلوس، والتشييع عند القيام، والإنصات عند الكلام. وتكره المجادلة فى المقال. وحسن القول للحكايات، وترك الجواب عند انقضاء الخطاب، والنداء بأحب الأسماء.

آداب الجار

ابتداؤه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عليه السؤال، ويعوده فى مرضه، ويعزيه فى مصيبته، ويهنيه فى فرحه، ويتلطف لولده وعبده فى الكلام، ويصفح عن زلته، ومعاتبته برفق عند هفوته، ويغض عن حرمته، ويعينه عند صرخته، ولا يديم النظر إلى خادمته.

آداب السيد مع عبده

لايكلفه ما لايطيق من خدمته، ويرفق به عند ضجره ولا يكثر ضربه، ولا يديم سبه فيجرأ عليه، ويفصح عن زلته، ويقبل معذرته، وإذا أصلح له طعامًا أجلسه معه على مائدته، أو أعطاه لقمًا من طعامه.

آداب العبد مع سيده

يأتمر لأمره، وينصحه فى غيبته، ويبذل له خدمته، ويحفظه فى حرمته، ويرق على ولده، ولايخونه فى ماله.

آداب السلطان مع الرعية

استعمال الرفق، وترك التعنيف، والفكر قبل الأمر، وترك التكبر على الخاصة مع منع العدوان منهم، والتودد إلى العامة مع مزج الرهبة لهم، والتطلع على أمور الحاشية، واستعمال المروءة مع أهل العلم، والتوسعة عليهم وعلى الأصحاب والأقارب، والرفق فى الجناية، ودوام الحماية.

آداب الرعية مع السلطان

قلة الغشيان لبابه، وترك الاستعانة به إلا لشئ يلزم أمره، ودوام الهيبة له وإن كان ذا رفق، وترك الاستجراء عليه وإن كان ذا لين، وقلة السؤال وإن كان مجيبًا، والدعاء له إذا ظهر، وترك الكلام فيه والإنشاد إذا غاب.

آداب القاضى

إدمان السكوت، واستعمال الوقار، وهدوء الجوارح، ومنع الحاشية من الفساد والطغيان، والرفق بالأرامل، والاحتياط لليتيم، والتوقف فى الجواب، والرفق بالخصوم، ومنع الميل إلى أحد الخصمين، والمواعظة للمخالف، ودوام اللجإ إلى الله فى صواب القضاء.

آداب الشاهد

استشعار الأمانة، وترك الخيانة، والتثبت فى الشهادة، والتحفظ من النسيان، وقلة المجادلة للسلطان.

آداب الجهاد

صدق النية، والغيرة لله تعالى، وبذل المجهود، والسخاء بالمهجة، ونفى شهوة الرجوع، والقصد فى أن تكون كلمة الله هى العليا، وترك الغلول، وقضاء دينه قبل الخروج، واستصحاب ذكر الله عند القتال وفى كل حال.

آداب الأيسر

لا يؤمل فرجًا من غير الله تعالى، ولا يذل نفسه فى معصية الله تعالى، ولا ييأس من رَوْح الله تعالى، ويجمع همه بين يدى الله تعالى، ويعلم أنه بعين الله، ولا ينبسط فى مال العدو بما لايبيحه الله، ولا يفرغ إلى غير الله تعالى.

آداب جامعة

قال بعض الحكماء:

من الأدب: الق صديقك وعدوك بوجه الرضاء من غير ذلة لهم، ولا هيبة منهم، وتوقر من غير كبر، وكن فى جميع أمورك فى أوساطها، ولاتنظر فى عطفيك ولا تكثر الالتفات، ولاتقف على الجماعات، وإذا جلست فترفع وتحذر من تشبيك أصابعك، والعبث بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال يدك فى أنفك، وطرد الذباب عن وجهك، وكثرة التمطى والتثاؤب. وليكن مجلسك هادئًا، وكلامك مقسومًا، واصغ إلى الكلام الحسن ممن يحدثك، بغير إظهار عجب منك ولا مسكنة ولا إعادة، وغض عن المضاحك والحكايات، ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جارتك، ولا تتصنع كما تتصنع المرأة، ولا تتبذل كما يتبذل العبد.

وكن معتدلاً فى جميع أمورك، وتوقَّ كثرة الكحل والإسراف فى الدهن، ولا تلح فى الحكايات.

ولا تعلم أهلك وولدك - فضلاً عن غيرهم - عن مالك؛ فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عليهم، وإن رأوه كثيرًا لم تبلغ إلى رضاهم؛ وأحبهم من غير عنف، ولن لهم من غير ضعف.

وإذا خاصمت فتوفر، وتفكر فى حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا تجث على ركبتك، وإذا هدأ غضبك فتكلم.

وإن بليت بصحبة السلطان فكن منه على حذر، ولا تأمن من انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبى، وكلمه بما يشاء،وإياك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه ولو كان مستمعًا لذلك.

وإياك وصديق العافية، فإنه أحد الأعداء لك. ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك.

وإياك وكثرة البصاق بين الناس،فإن صاحبه ينسب إلى التأنيث، ولا تظهر لصديقك كل ما يؤذيك فإنه متى رأى منك وقعة أعقبك العداوة.

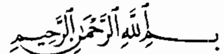
ولا تمازح لبيبًا فيحقد عليك، ولا سفيهًا فيجترئ عليك؛ لأن المزاح يخرق الهيبة، ويسقط المنزلة، ويذهب ماء الوجه، ويعقب الحزن، ويزيل حلاوة الود، ويشين فقه الفقيه، ويجرئ السفيه، ويميت القلب، ويباعد من الرب، ويعقب الذم، ويفسخ العزم، ويظلم السرائر، ويميت الخواطر، ويكثر الذنوب، ويبين العيوب.

نسأل الله تعالى أن يهدينا فيمن هدى، ويعافينا فيمن عافى ويتولانا فيمن تولى، ويبارك لنا فيما أعطى، ويقينا شَرَّ ما قضى، فإنه لا راد لما قضى، ولايعزّ من عادى، ولا يذلّ من والى.

تبارك ربنا وتعالى، نستغفره ونتوب إليه، ونسأله أن يصلى بأفضل الصلوات كلها على عبده المصطفى، وعلى آله وأصحابه أعلام الهدى، وسلم تسليمًا كثيراً.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى، آمين.

كيمياء السعادة



الحمد لله الذى أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة، وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة، وحلى ألسنة المؤمنين بالذكر، وجلى خواطر العارفين بالفكر، وحرس سواد العباد عن الفساد، وحبس مراد الزهاد على السداد، وخلص أشباح المتقين من ظلم الشهوات، وصفى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات، وقبل أعمال الأخيار بأداء الصلوات، وأيَّد خصال الأحرار بأسدّ الصِّلات.

أحمده حمد من رأى آيات قدرته وقوته، وشاهد الشواهد من فردانيته ووحدانيته، وطرق طوارق سرّه وبرّه، وقطف ثمار معرفته من شجر سجده وجُوده، وأشكره شكر من اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله.

وأؤمن به إيمان من آمن بكتابه وخطابه وأنبيائه وأصفيائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه لأصلاب الفسقة والفجرة قاصمًا، ولعُرَى الجاحدين والمارقين فاصمًا، ولباغى الشك والشرك قاهرًا، لأتباع الحق والإحسان ناصراً؛ فصلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

عنوان معرفة النفس

اعلم أن الكيمياء الظاهرية لا تكون فى خزائن العوام وإنما تكون فى خزائن الملوك، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا فى خزائن الله سبحانه وتعالى؛ ففى السماء جواهر الملائكة، وفى الأرض قلوب الأولياء العارفين، فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة

النبوة فقد أخطأ الطريق، ويكون عمله كالدينار البهرج، فيظن فى نفسه أنه غنىٌ وهو مفلس فى القيامة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. ومن رحمة الله سبحانه وتعالى لعباده أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبى يعلمون الناس نسخة الكيمياء، ويعلمونهم كيف يجلعون القلب فى كُور المجاهدة، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة، وكيف يؤدونه لطرق الصفاء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. أى يطهرهم من الأخلاق المذمومة ومن صفات البهائم، ويجعل صفات الملائكة لباسهم وحليتهم.

ومقصود هذه الكيمياء أن كل ما كان من صفات النقص يتعرى منه، وكل ما يكون من صفات الكمال يلبسه، وسر هذه الكيماء أن ترجع من الدنيا إلى الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٨]. وفضل هذه الكيماء طويل.

فصل فى معرفة النفس

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقال النبى ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» وليس شىء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟

فإن قلت إنى أعرف نفسى، فإنما تعرف الجسم الظاهرى الذى هو اليد والرجل والرأس والجثة، ولا تعرف ما فى باطنك من الأمر الذى به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب؛ والدواب تشاركك فى هذه الأمور، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدرى أى شىء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأى شىء خلقت، وبأى شىء سعادتك، وبأى شىء شقاوتك.

وقد جمعت فى باطنك صفات، منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الملائكة؛ فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف هذا وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة؛ فإن سعادة البهائم فى الأكل والشرب والنوم والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد فى إعمال الجوف والفرج. وسعادة السباع فى الضرب والفتك، وسعادة الشياطين فى المكر والشر والحيل، فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم. وسعادة الملائكة فى مشاهدة جمال الحضرة الربوبية وليس للغضب والشهوة إليهم طريق، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد فى معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة

والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأى شيء ركبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها ولكن خلقها حتى تكون أسراك، وتسخرها للسفر الذى قدامك، وتجعل إحداها مركبك والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك، فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك، وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة، فتحتاج إلى معرفة هذه المعانى حتى تعرف من نفسك شيئًا قليلاً، فكل من لم يعرف هذه المعانى فنصيبه من القشور، لأن الحق يكون عنه محجوبًا.

فصل

إذا شئت أن تعرف نفسك فاعلم أنك من شيئين: الأول هذا القلب، والثانى يسمى النفس والروح. والنفس هو القلب الذى تعرفه بعين الباطن. وحقيقتك الباطن؛ لأن الجسد أول وهو الآخر والنفس آخر وهو الأول؛ ويسمى قلبًا، وليس القلب هذه القطعة اللحمية التى فى الصدر من الجانب الأيسر، لأنه يكون الدواب والموتى، وكل شيء تبصره بعين الظاهر فهو من هذا العالم الذى يسمى عالم الشهادة، وأما حقيقة القلب فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب فهو فى هذا العالم غريب، وتلك القطعية اللحمية مركبة، وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة صفاته، والتكليف عليه والخطاب معه، وله الثواب وعليه العقاب، والسعادة والشقاء تلحقانه والروح الحيوانى فى كل شيء تبعه ومعه. ومعرفة حقيقته ومعرفة صفاته مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى، فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية، من ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود.

فصل

أما سؤالك ما حقيقة القلب، فلم يجئ فى الشريعة أكثر من قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]. لأن الروح جزء من جملة القدرة الإلهية وهو من عالم الأمر، قال الله عز وجل: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالإنسان من عالم الخلق من جانب، ومن عالم الأمر من جانب، فكل شيء يجوز عليه للمساحة والمقدار والكيفية فهو من عالم الخلق؛ وليس للقلب مساحة ولا مقدار، ولهذا لايقبل القسمة، ولو قبل القسمة لكان من عالم الخلق، وكان من جانب الجهل جاهلاً ومن جانب العلم عالمًا، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محال. وفى معنى آخر هو من عالم الأمر؛ لأن عالم الأمر عبارة عن شيء من الأشياء لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه. وقد ظن بعضهم أن الروح قديم فغلطوا. وقال قوم إنه عَرَضٌ فغلطوا، لأن

العرض لا يقوم بنفسه ويكون تابعًا لغيره. فالروح هو أصل ابن آدم، وقالب ابن آدم نبع له، فكيف يكون عرضًا! وقال قوم إنه جسم فغلطوا، لأن الجسم يقبل القسمة. فالروح الذى سميناه قلبًا وهو محل معرفة الله تعالى ليس بجسم ولا عرض بل هو من جنس الملائكة.

ومعرفة الروح صعبة جدًا، لأنه لم يرد فى الدين طريق إلى معرفته لأن لا حاجة فى الدين إلى معرفته، لأن الدين هو المجاهدة والمعرفة علامة الهداية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ومن لم يجتهد حق اجتهاد لم يجز أن يتحدث معه فى معرفة حقيقة الروح. وأول أس المجاهدة أن تعرف عسكر القلب، لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد.

فصل

اعلم أن النفس مركب القلب، وللقلب عساكر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلبًا لسعادته، وسعادته معرفة ربه عز وجل، ومعرفة ربه تعالى تحصل له من صنع الله وهو من جملة عالمه. ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس، والحواس من القلب والقالب مركبه، ثم معرفة صيده ومعرفة شبكته، والقالب لا يقوم إلا بالطعام والشراب والحرارة والرطوبة، وهو ضعيف على خطر من الجوع والعطش فى الباطن، وعلى خطر من الماء والنار فى الظاهر، وهو مقابل أعداء كثرة.

فصل

وتحتاج أن تعرف العسكرين؛ وذلك أن العسكر الظاهر هو الشهوة والغضب ومنازلهم فى اليدين والرجلين والعينين والأذنين وجميع الأعضاء؛ وأما العسكر الباطن فمنازله فى الدماغ وهو قوى الخيال والتفكر والحفظ والتذكر والوهم، ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص، فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم فى الدارين. وجملة هذين العسكرين فى القلب وهو أميرهما، فإن أمر اللسان أن يذكر ذكر، وإن أمر اليد أن تبطش بطشت، وإن أمر الرجل أن تسعى سعت، وكذلك الحواس الخمس حتى يحفظ نفسه كيما يدخر الزاد للدار الآخرة ويحصل الصيد وتتم التجارة ويجمع بذر السعادة، وهؤلاء طائعون للقلب، كما أن الملائكة طائعون للرب سبحانه وتعالى لا يخالفون أمره.

فصل فى معرفة القلب وعسكره

اعلم أنه قيل فى المثل المشهور: إن النفس كالمدينة، واليدين والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها، والقلب ملكها والعقل وزيرها. والملك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله، لأن الوالى وهو الشهوة، كذاب فضولى مخلط، والشحنة وهو الغضب شرير قتال خراب، فإن تركهم الملك على ما هم عليه هلكت المدينة وخربت. فيجب أن يشاور الملك الوزير ويجعل الوالى والشحنة تحت يد الوزير، فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة. وكذلك القلب يشاور العقل ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه حتى تستقر أحوال النفس ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية ولو جعل العقل تحت يد الغضب والشهوة هلكت نفسه وكان قلبه شقيًّا فى الآخرة.

فصل

اعلم أن الشهوة والغضب خادمان للنفس جاذبان، يحفظان أمر الطعام والشراب والنكاح لحمل الحواس. ثم النفس خادم الحواس شبكة العقل وجواسيسه يبصر بها صنائع البارئ جلت قدرته، ثم الحواس خادم العقل وهو القلب سراج وشمعة يبصر بنوره الحضرة الإلهية، لأن الجنة وهى نصيب الجوف أو الفرج محتقرة فى جنب تلك الجنة. ثم العقل خادم القلب، والقب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية. فمن اجتهد في هذه الصنعة فهو عبد حق من غلمان الحضرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]. معناه أنا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعسكر، وجعلنا النفس مركبه حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين، فإذا أراد أن يؤدى حق هذه النعمة جاس مثل السلطان فى صدر مملكته، وجعل الحضرة الإلهية قبلته ومقصده، وجعل الآخرة وطنه وقراره، والنفس مركبه، والدنيا منزله، واليدين والقدمين خدامه، والعقل وزيره، والشهوة عامله، والغضب شحنته، والحواس جواسيسه. وكل واحد موكل بعالم من العوالم يجمع له أحوال العالم. وقوة الخيال فى مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عنده أخبار الجواسيس، وقوة الحفظ فى وسط الدماغ مثل صاحب الخريطة يجمع الرقاع من يد النقيب ويحفظها إلى أن يعرضها على العقل، فإذا بلغت هذه الأخبار إلى الوزير يرى أحوال المملكة على مقتضاها.

فإذا رأيت واحدًا منهم قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب، فعليك بالمجاهدة، ولا تقصد قتلهما؛ لأن المملكة لا تستقر إلا بهما. فإذا فعلت ذلك كنت سعيدًا، وأديت حق النعمة، ووجبت لك الخلعة فى وقتها، وإلا كنت شقيًّا ووجب عليك النكال والعقوبة.

فصل

تمام السعادة مبنى على ثلاثة أشياء: قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العلم، فيحتاج أن يكون أمرها متوسطًا لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحمق فيهلك؛ فإذا توسطت القوتان بإشارة قوة العدل دل على طريق الهداية. وكذلك الغضب إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية فى الدين والدنيا، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة. وكذا الشهوة إذا زادت كان الفسق والفجور، وإن نقصت كان العجز والفتور، وإن توسطت كان العفة والقناعة وأمثال ذلك.

فصل

اعلم أن للقلب مع عسكره أحوالاً وصفات بعضها يسمى أخلاق السوء، وبعضها أخلاق الحسن، فبالأخلاق الحسنة يبلغ درجة السعادة، والأخلاق السيئة هلاكه وخروجه للشقاء، وهذه كلها تبلغ أربعة أجناس: أخلاق الشياطين، وأخلاق البهائم، وأخلاق السباع، وأخلاق الملائكة. فأعمال السوء من الأكل والشرب والنوم والنكاح هى أخلاق البهائم، وكذلك أعمال الغضب من الضرب والقتل والخصومة هى أخلاق السباع، وكذلك أعمال النفس وهى المكر والحيلة والغش وغير ذلك هى أخلاق الشياطين، وكذلك أعمال العقل التى هى الرحمة والعلم والخير هى أخلاق الملائكة.

فصل

واعلم أن فى جلد ابن آدم أربعة أشياء: الكلب، والخنزير، والشيطان، والمَلَك. والكلب مذموم فى صفاته، وليس بمذموم فى صورته. وكذلك الشيطان والملائكة ذمهم ومدحهم فى صفاتهم، وليس ذلك فى صورهم وخلقهم. وكذلك الخنزير مذموم فى صفاته، وليس بمذموم فى خلقته.

وقد أمر ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل خوفًا من الفتنة كما قال النبى ﷺ: **«مَا مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَلَهُ شَيْطَانٌ وَلِى شَيْطَانٌ، وَإِنَّ الله قَدْ أَعَانَنِى عَلَى شَيْطَانِى حَتَّى مَلَكْتُه»** وكذلك الشهوة والغضب ينبغى أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعلا شيئًا إلا بأمره، فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق، وهى صفات الملائكة وهى بذر السعادة، وإن عمل بخلاف ذلك فخدم الشهوة والغضب صح له الأخلاق القبيحة، وهى صفات الشياطين وهو بذر الشقاء، فيتبين له فى نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير، وكان مثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالاً مسلمين يحبسهم عند كافرين. فكيف يكون حالك يوم القيامة إذا حبست الملك وهو العقل تحت يد الشهوة والغضب وهما الكلب والخنزير؟

فصل

واعلم أن الإنسان فى صورة ابن آدم اليوم، وغدًا تنكشف له المعانى فتكون الصور فى معنى المعانى؛ فأما الذى غلب عليه الغضب فيقوم فى صورة الكلب، وأما الذى غلب عليه الشهوة فيقوم فى صورة الخنزير؛ لأن الصور تابعة للمعانى، وإنما يبصر النائم فى نومه ما صح فى باطنه. وإنما عرفت أن الإنسان فى باطنه هذه الأربعة، فيجب أن يراقب حركاته وسكناته، ويعرف من أى الأربعة هو، فإن صفاته تحصل فى قلبه وتبقى معه إلى يوم القيامة، وإن بقى من جملة الباقيات الصالحات شىء فهو بذر السعادة، وإن بقى معه غير ذلك فهو بذر الشقاء، وابن آدم لا ينفك ولا ينفصل عن حركة أو سكون، وقلبه مثل الزجاج. وأخلاق السوء كالدخان والظلمة، فإذا وصل إليه ذلك أظلم عليه طريق السعادة وأخلاق الحسن كالنور والضوء، فإذا وصل إلى القلب طهره من ظلم المعاصى كما قال رسول الله ﷺ: «**أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**». والقلب إما مضئ أو مظلم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

فصل

واعلم أن الشهوة والغضب اللتين فى البهائم جعلتا أيضًا فى ابن آدم، ولكنه أعطى شيئًا آخر زيادة عليها للشرف والكمال، وبذلك تحصل له معرفة الله تعالى، وجملة عجائب صنعه، وبه يخلص نفسه من يد الشهوة والغضب وتحصل له صفات الملائكة، ولذلك يظفر بالسباع والبهائم وتصير كلها مسخرة له كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [الجاثية: ١٣].

فصل فى عجائب القلب

اعلم أن للقلب بابين للعلوم: واحد للأحلام، والثانى لعلم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج؛ فإن نام غلق باب الحواس، فيفتح له باب الباطن، ويكشف له غيب من عالم الملكوت ومن اللوح المحفوظ فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشفه إلى شىء من تعبير الأحلام، وأما ما كان من الظاهر فيظن الناس أن به اليقظة وأن اليقظة أولى بالمعرفة مع أنه لا يبصر فى اليقظة شىء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر من طريق الحواس.

فصل

وتحتاج أن تعرف فى ضمن ذلك أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضًا؛ لأن فيه صورة كل موجود؛ وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صور ما فى إحداهما

فى الأخرى، وكذلك تظهر صور ما فى اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغًا من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولاً بها كان عالم الملكوت محجوبًا عنه، وإن كان فى حال النوم فارغًا من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت فظهر فيه بعض الصور التى فى اللوح المحفوظ، وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال، لذلك يكون الذى يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفًا. فإذا مات، أى القلب، بموت صاحبه لم يبق خيال ولا حواس، وفى ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق: ٢٢].

فصل

واعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل فى قلبه الخاطر المستقيم وبيان الحق على سبيل الإلهام، وذلك لا يدخل من طريق الحواس بل يدخل فى القلب لا يعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم، عالم الملك، فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغًا من شغل الحواس.

فصل

ولا تظنن أن هذه اللطافة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة. فإذا جلس فى مكان خال وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب فى مناسبة عالم الملكوت، وقال دائمًا: «الله الله الله» بقلبه دون لسانه، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئًا إلا الله سبحانه وتعالى، انفتحت تلك الطاقة، وأبصر فى اليقظة الذى يبصره فى النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وانكشفت له ملكوت السموات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه كما قال النبى ﷺ: «**زُوِيَتْ لِى الأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَها وَمَغَارِبَها**» وقال الله عز وجل: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأنعام: ٧٥]. لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق لا من طريق الحواس كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً**﴾ [المزمل: ٨]. معناه الانقطاع عن كل شئ، وتطهير القلب من كل شئ، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية؛ وهو طريق الصوفية فى هذا الزمان. وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء لأنه وقع فى قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥]. وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم؛ والواجب التصديق

بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصر لم يصدق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]. وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

فصل

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم فى أصل الخلقة موضوع لهذا كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذى صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جدب فيحتاج إلى صقل أو سبك، لأنه قد تلف، وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي لم يبلغ هذه الدرجة، وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ» وقال الله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [فصلت: ٦]. فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد. والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة ـ طلب شيخ بالغ عارف قد مشى فى هذا الطريق ـ وإذا حصل هذان الشيئان لأحد فقد أراد الله له التوفيق والسعادة بحكم أزلى حتى يبلغ إلى هذه الدرجة.

فصل
فى أن اللذة والسعادة لابن آدم فى معرفة الله سبحانه وتعالى

اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له؛ فلذة العين فى الصور الحسنة، ولذة الأذن فى الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة؛ ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى، لأنه مخلوق لها،وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها، ولو نهى عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها، ولم يصبر عن المشاهدة، لأن لذة القلب المعرفة وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر؛ ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم الملك لكان أعظم فرحًا.

وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى، لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته. وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهى تبطل بالموت، ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته أكثر وضوءه أكبر لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

فصل

واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم، وفيها من كل صورة فى العالم أثر منه؛ لأن هذه العظام كالجبال، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ورأسه مثل السماء وحواسه مثل الكواكب، وتفصيل ذلك طويل؛ وأيضًا فإن فى باطنه صناع العالم، لأن القوة التى فى المعدة كالطباخ، والتى فى الكبد كالخباز، والتى فى الأمعاء كالقصار، والتى تبيض اللبن وتحمر الدم كالصباغ. وشرح ذلك طويل، والمقصود أن تعلم كم فى باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك، وأنت فى غفلة عنهم، وهم لا يستريحون، ولا تعرفهم أنت ولا تشكر من أنعم عليك بهم.

فصل فى معرفة تركيب الجسد ومنافع الأعضاء التى يقال عنها فى علم التشريح

وهو علم عظيم، والخلق غافلون عنه، وكذلك علم الطب. فكل من أراد أن ينظر فى نفسه وعجائب صنع الله تعالى فيها، يحتاج إلى معرفة ثلاثة أشياء من الصفات الإلهية:

الأولى: أن يعرف أن خالق الشخص قادر على الكمال وليس بعاجز، وهو الله سبحانه وتعالى. وليس عمل فى العالم بأعجب من خلق الإنسان من ماء مهين، وتصوير هذا الشخص بهذه الصورة العجيبة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾ [الإنسان: ٢]. فإعادته بعد الموت أهون عليه؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء.

الثانية: معرفة علمه سبحانه وتعالى وأنه محيط بالأشياء كلها؛ لأن هذه العجائب والغرائب لا تمكن إلا بكمال العلم.

الثالثة: أن تعلم أن لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها، وأنها لا نهاية لها، لما ترى فى النبات والحيوان والمعادن فى سعة القدرة وحسن الصور والألوان.

فصل فى تفصيل خلقة بنى آدم لأنها مفتاح معرفة الصفات الإلهية وهو علم شريف

وذلك معرفة عجائب الصنائع الإلهية، ومعرفة عظم الله سبحانه وتعالى وقدرته، وهو مختصر معرفة القلب. وهو علم شريف إذ هو معرفة الصنائع الإلهية، لأن النفس كالفرس، والعقل كالراكب، وجماعهما الفارس، ومن لم يعرف نفسه وهو يدعى معرفة غيره فهو كالرجل المفلس الذى ليس له طعام لنفسه وهو يدعى أنه يقوت فقراء المدينة، فهذا محال.

فصل

إذا عرفت هذا العز والشرف والكمال والجمال والجلال، بعد أن عرفت جوهر القلب أنه جوهر عزيز قد وهب لك وبعد ذلك خفى عنك، فإن لم تطلبه وغفلت عنه وضيعته كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة؛ فاجتهد فى طلبه، واترك أشغال الدنيا كلها! وكل شرف لم يظهر فى الدنيا فهو فى الآخرة فرح بلا غمّ، وبقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، ومعرفة بلا جهل، وجمال وجلال عظيمان؛ وأما اليوم فليس شيء أعجز منه لأنه مسكين ناقص؛ وإنما الشرف غدًا إذا طرح من هذه الكيمياء على جوهر قلبه حتى يخلص منه شبه البهائم، ويبلغ درجة الملائكة، فإن رجع إلى شهوات الدنيا فضلت عليه البهائم يوم القيامة لأنها تصير إلى التراب، ويبقى هو فى العذاب. نعوذ بالله من ذلك، ونستجير به، وهو نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

القواعد العشر

الحمد لله الموفق، الذى وفق قلوب الأحباب لموافقة مراسيم السنة وأحكام الكتاب، الفتاح الذى فتح بصائر أبصارهم فأبصروا مواقع نبال الارتياب فى مقاتل أهل الحجاب، الملهم الذى ألهمهم الحجة البيضاء بالمحجة الخضراء فأصابوا أبكار الصواب، ناداهم بلسان شأن المحبة من جنان المودة كيف ينام المحب عن مشاهدة الأحباب! فأكحلوا نواظرهم بإثمد السهاد، وجفوا من مضاجعهم أطيب الرقاد، وجدُّوا فى أثر الإطلاب مع الطلاب، وجعلوا نهارهم ليلاً، وأفراحهم ويلاً، وأرخوا لعز مولاهم ذيلاً، وتذللوا على الأعتاب، فأقامهم فى الحاضرة والبادية، وأسمعهم أوامرهم ونواهيه، فيا سعادتهم بتوفيقهم لوقوفهم على الأبواب!

وكشف لهم الحجاب عن جماله، وكشط الضباب عن محاسن أثواب مقاله، فردُّوا حيارى بمحاسن الأتراب. أجروا مدامعهم جريان الأنهار، وأبدوا فجائعهم عن زمن تولى من جر الإزار على الأوزار، وطرقوا الباب فأتاهم الجواب يا عبادى أنا التواب على من أقلع عن الحَوْبة وإلىّ أناب.

روّق لهم فى دار الوصال شراب الاتصال، فناهيك به من شراب! فتلذذوا بمناجاته، وغابوا عن حضورهم فى حضراته، وعدا كل بعقله المصاب. فأين المهاجر فى الهواجر، ومن أكحل المحاجر بالحناجر. طوباه قد فاز بطيب الخطاب!

قَدْ كَشَفَ المَوْلَى مَنِيعَ الحِجَابِ
وَأَسْمَعَ الأَحْبَابَ طِيبَ الخِطَابِ
وَأَحْضَرُوا حَضْرَةَ أُنسٍ بِهَا
غَابُوا فَعَاشُوا بَعْدَ مَوْتِ العِقَابِ
وَفِي مَقَامِ القُرْبِ أَدْنَاهُم
لَمَّا سَقَاهُم فِي المَقَامِ الشَّرَابِ
وَأَتْحَفُوا مِنْ فَضْلِهِ بِالوَفَا
مَحْضًا مِنَ الأَمْنِ أَجَلَ الكِتَابِ
هُمُ المُلُوكُ الشُّمُّ مِنْ خَلْقِهِ
ضَنَائِنُ الحَقِّ لِعِزِّ الحِجَابِ
قَدْ تَبِعُوا نَهْجَ سَبِيلِ الهُدَى
وَاتَّبَعُوا حُكْمَ نُصُوصِ الكِتَابِ
وَاسْتَمْسَكُوا بِسُنَّةِ خَيْرِ الوَرَى
وَحَاسَبُوا مِنْ قَبْلِ يَوْمِ الحِسَابِ
وَنَاقَشُوا أَنفُسَهُم خِيفَةً
مِنْ غَضَبِ الحَقِّ وَهَوْلِ العِقَابِ
إِذَا أَتَى اللَّيْلُ تَرَاهُم بِهِ
فَرْحَى لِجَمْعِ الفَرْقِ تَحْتَ النِّقَابِ
يُحْيُونَهُ بِالذِّكْرِ كَيْ يُحْيِيَهُم
بِذِكْرِهِ فِي جَمْعِ أَهْلِ الثَّوَابِ
يَرَاهُمُ الحَقُّ يُبَاهِي بِهِم
بِهِمْ عَنِ الخَلْقِ يَزُولُ العَذَابِ
عَلَيْهِمِ مِنِّي سَلَامٌ سَمَا
مَا لَمَعَ البَرْقُ أَوْ أَهَلَّ السَّحَابِ

أحمده حمدًا أستوجب به الثواب، وأشكره شكرًا تزيد به زيادات أولى الألباب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنزيه عن الحلول والانحياز، والظهور، والبطون، والابتداء والانتهاء، والاشتهار والاحتجاب؛ وتقدست ذاته المقدسة عن مقالات أولى الجهالات من الكم والكيف والأين والمكان والزمان والإياب والذهاب، وأمجده بما أبرزه بحكمته من الأكوان عن التفكر والتدبر والمعاونة والمشاورة والراحة والنصب والانتصاب، وأعظمه عن التشبيه والتمثيل والتعديل والتحويل والتبديل والتركيب والارتكاب. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أشرف محبوب، وأعظم الأشراف،

وأخص الأحباب؛ أرسله بفضل الكتاب وفصل الخطاب، وأيده بأفضل كتاب وأجمل خطاب؛ أفصح الأعراب بالإعراب والاختصار والإسهاب، وأعجز بلغاء الأحزاب ببدائع النفى والإيجاب، فأنقذ الأحباب من مهاوى الارتياب ومغاوى الأعراب، بالعقاب على الأعقاب، وكشف عن وجه نور الإسلام مكفرات ظلمات الإشراك والضباب؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والأحباب، وعلى الخلفاء الراشدين الأقطاب: أبى بكر وأبى حفص وأبى عمرو وأبى تراب، صلاة تحلنا دار النعيم وتخرجنا عن دار العذاب.

أما بعد: نفحنا الله وإياك بنسائم قربه، وسقانا وإياك من كاسات حبه؛ فإن بيان كيفية طريقنا، وبرهان أهل تحقيقنا، مبنى على عشرة قواعد توقظ النائم وتقيم القاعد:

القاعدة الأولى

النية الصادقة الواقعة من غير التواء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**وَإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**».

والمراد بالنية عزم القلب، وبالصادقة إنهاؤها للفعل والترك للرب، وبالواقعة استمرارها على هذه الخلة الأثيرة؛ لأن التكرار تأثيرًا ليس لغيره، وعلامتها عدم تغيير جزمه بأعراض فانية وباقية فى عزمه، فإن العمل للحق ولا بد من الحق فلا يترك ما عزم عليه للخلق.

القاعدة الثانية

العمل لله من غير شريك ولا اشتراك لقوله عليه السلام: «**اعْبُد الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» وعلامته أن لا يرضى بغير الحق، ويرى ما سواه قاطعًا، فيجتنب الخلق لقول النبى المختار: «**تعس عبد الدينار**».

وليترك الله سبحانه وتعالى جميع أمانيه، لقوله عليه السلام: «**منْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنيه**» وآكدها الشبهات فاحذرها أن تصيبك، لقوله عليه السلام: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إلى مَا لا يُرِيبُكَ**».

فإذا صحت هذه الأصول الثلاثة أثمرت أغصانها لك القربى، فتكون بالصورة فى الدنيا وبالمعنى فى العقبى، وعلى قدر همك وثباتك على الفعل والترك تحظى من الحديث المشهور: «**كُنْ فى الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابرَ سَبِيل وَعُدَّ نَفْسَكَ منْ أَصْحَاب القُبُور**».

وعلامة القناعة الاكتفاء بما يذهب الحر والبرد والمسغبة لقوله ﷺ: «**حَسْبُ ابن آدمَ لُقَيْمَات يُقمْنَ بها صُلْبَهُ**» فلا يميل إلى صاحب القمح صاحب الشعير، وإلى النقرة صاحب النقير. والمستغنى بالحلال لايقصد المباح، ولا يخفض إلى الشبهة الجناح. وعلامة الغريب

الحمل الخفيف، وعدم الائتلاف بالثقيل، وترك السؤال فإنه يؤوى إلى ظل الدخيل. وعلامة عابر السبيل إسراع الإجابة، ورضاه بما سبق إليه واستطابه. وعلامة الميت إيثار مهمات دينه والمسألة فى غوالب حينه.

القاعدة الثالثة

موافقة الحق بالاتفاق والوفاق ومخالفة النفس بالصبر على الفراق والمشاق، وترك الهوى، وجفاء الملاذ والمكان والخلاف. ومن تعوده خرج عن الحجاب ودخل فى الانكشاف، فعاد نومه سهرًا، واختلاطه عزلة، وشبعه جوعًا، وعزته ذلة، ومكالمته صمتًا، وكثرته قلة.

القاعدة الرابعة

العمل بالاتباع لا الابتداع، لئلا يكون صاحب هوى، ولا يزهو برأيه زهوًا، فإنه لا يفلح من اتخذ لنفسه فى فعله وليًّا بقوله عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا**».

القاعدة الخامسة

الهمة العليا عن تسويف يفسدك؛ فقد جاء: لا تترك عمل يومك للغد؛ لأن بعض الأعمال من بعضها، وإلا فمن رضى بالأدنى حرم الأعلى. والكامل المتبع هو السنى لا المتشيع والمعتزل المبتدع، لقوله عليه السلام: «**يَا أَحِبَابِى عَلَيْكُمْ بِالسَّوادِ الأَعْظَمِ**» قالوا: يا رسول الله وما السواد الأعظم؟ قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِى**».

القاعدة السادسة

العجز والذلة؛ لا بمعنى الكسل فى الطاعات وترك الاجتهاد، بل عجزك عن كل فعل إلا بقدرة الحق الجواد، وأن ترى الخلق بعين التوقير والاحترام، فإن بعضهم وسائط بعض، إجلالاً لحضرة ذى الجلال والإكرام؛ لأن سنة الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا ما أضافه إليه بنفى الوسائط، وإن أراد جلال حضرته تعظيمًا أضافه لغيره رعاية للضوابط. فإذا علمت أن الكل بيد الله سبحانه وتعالى والمرجع إليه وتكبرت، فقد تكبرت عليه إلا بأمر وصل إليك من لديه. فاجعل عجزك فى جنبه ومسكنتك له بالاعتذار، ولا تتصور قدرة لك فإنها منازعة فى الاقتدار.

القاعدة السابعة

الخوف والرجاء معنى، وعدم الاطمئنان بجلال الإحسان إلا عند العيان، فحسن ظنك منك بالجواد الحسان.

القاعدة الثامنة

دوام الورد إما فى حق الحق أو حق العباد، فإن من ليس ورد فماله من الموارد إمداد، فالمديم يمل الحل بملاله بخلاف الذى يغيب بأعماله وأقواله، فإن النفس تنبسط بذلك جهراً وسراً، وتراعى حقوق العباد كما يتوقع منهم خيراً وشراً، فيحب ويبغض لهم ما يحب ويبغض لنفسه خيراً وشراً، ويعلم لله تعالى ما يرضى كما يحب أن يفعل الله ما يرضى.

القاعدة التاسعة

المداومة على المراقبة ولا يغيب عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين؛ فمن داوم على مراقبة قلبه لله سبحانه وتعالى ونفى غير الله وجد الله وإحسانه وعلم اليقين يحصل ذلك لك بجملته وهو أن ترى الحركات والسكنات والأعيان بتحريكه وتسكينه وقدرته سبحانه لا يستغنى عنه شئ. ثم تزيد مراقبته إلى أن تترقى إلى علم اليقين، ثم يفنى عن ذلك به، وذلك حقيقة اليقين فيقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله سبحانه وتعالى، هو القيوم على كل شيء بقيوميته، وذلك الشئ هو القائم بأمره وبقدرته على حسب المشاهدة والمحاضرة، فتأدب مع الخلق وعاشر أحسن المعاشرة؛ قال ﷺ: **«أَدَّبَنِى رَبِّى فأَحْسَنَ تَأْدِيبِى»**.

القاعدة العاشرة

علم ما يجب الاشتغال به ظاهراً وباطنًا اجتهاداً؛ لأن من ظن أنه استغنى عن الطاعة فهو مفلس معاداً لقوله سبحانه لا رب إلاسواه: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

فهذا ما بنيت على أعمدة قواعده قصوراً من غير قصور، وأسست عليه شرامخ الحجار لربات الحجور، وحرثته بمحراث فدن، وبذرته بصنوف حبوب السعادة، وغرست فى فرادسه الأذكار، وأجريب فى جناته من الأوراد والأنهار، وفرشته بشقائق نعمان المجاهدة، ومهدته بحدائق حقائق المكابدة؛ راجيًا حصاد زرعى بمناجل الهمم، وقاصداً غنيمة إنفاقى من مواهب الكرم، والله تعالى يزكيه ويُربيه، ويرتع فيه من ظهر فيه، ومن التحق به ممن يحييه، إنه الجواد الكريم البر الرحيم.

والسلام على من اتبع الهدى، فما ابتدع ونفع وانتفع ولحق بعباد الله الصالحين وحزبه المفلحين ورحمته وبركاته، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد نور أنوار المعارف وسر أسرار العوارف، وعلى آله وصحبه وتابعى سبيله وحزبه، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتعم البركات آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكشف والتبيين
فى غرور الخلق أجمعين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم آمين!!به ثقتى.

الحمد لله وحده، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد: فهذا كتاب الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين.

اعلم أن الخلق قسمان: حيوان وغير حيوان. والحيوان قسمان: مكلف وغير مكلف؛ فالمكلف من خاطبه والله بالعبادة، وأمره بها، ووعده بالثواب عليها، ونهاه عن المعاصى، وحذره العقوبة؛ وغير المكلف من لم يخاطبه بذلك. ثم المكلف قسمان: مؤمن وكافر. والمؤمن قسمان: طائع وعاص؛ وكل واحد من الطائعين والعاصين ينقسم إلى قسمين: عالم وجاهل.

ثم رأيت الغرور لازمًا لجميع المكلفين والمؤمنين والكافرين إلا من عصمه الله رب العالمين. وأنا إن شاء الله تعالى أكشف عن غرورهم، وأبين الحجة فيه، وأوضحه غاية الإيضاح، وأبينه غاية البيان، بأوجز ما يكون من العبارة، وأبدع ما يكون من الإشارة؛ فأقول وما توفيقى إلا بالله:

واعلم أن المغرورين من الخلق ما عدا الكافرين أربعه أصناف: صنف من العلماء، وصنف من العباد، وصنف من أرباب الأموال، وصنف من المتصوفة. فأول ما نبدأ به غرور الكفار، وهم فى غرورهم قسمان: منهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غره بالله الغرور. فأما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا: النقد خير من النسيئة، ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك، ولا يترك اليقين بالشك؛ وهذا قياس فاسد، وهو قياس إبليس لعنه الله فى قوله أنا خير منه، فظن أن الخيرية فى السبب.

وعلاج هذا الغرور شيئان إما بتصديق وهو الإيمان، وإما ببرهان. أما التصديق فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الحديد: ٢٠]. وتصديق الرسول فيما جاء به. وأما البرهان فهو أن يعرف وجه فساد قياسه أن قوله: «الدنيا نقد والآخرة نسيئة» مقدمة صحيحة، وأما قوله: «النقد خير من النسيئة» فهو محل

التلبيس، وليس الأمر كذلك، بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير، وإن كان أقل منها فالنسيئة خير منه؛ ومعلوم أن الآخرة أبدية والدنيا غير أبدية. وأما قولهم: «لذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك» فهو أيضًا باطل؛ بل ذلك يقين عند المؤمنين، وليقينه مدركان: أحدهما الإيمان والتصديق على وجه التقليد للأنبياء والعلماء كما يقلد الطبيب الحاذق في الدواء، والمدرك الثاني الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء. ولا تظن أن معرفة النبي ﷺ لأمور الآخرة ولأمور الدنيا تقليد لجبريل عليه السلام، فإن التقليد ليس بمعرفة صحيحة، والنبي ﷺ حاشاه من ذلك، بل قد انكشف له الأشياء وشاهدها بنور البصيرة كما شاهد المحسوسات بالعين الظاهرة.

فصل

والمؤمنون بألسنتهم وعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله، وهي الأعمال الصالحة، وتدنسوا بالشهوات، فهم مشاركون الكفار في هذا الغرور، فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعًا غرور.

فأما غرور الكافرين بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم بألسنتهم: إنه إن كان الله معيدنا فنحن أحق به من غيرنا؛ كما أخبر الله عنهم في سورة الكهف [الآيتان: ٣٥، ٣٦] حيث قال: ﴿**مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** ﴿٣٥﴾ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**﴾ وسبب هذا الغرور قياس من أقيسة إبليس لعنه الله، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعم الآخرة، ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم في الدنيا فيقيسون عليه عذاب الآخرة. كما أخبر الله عنهم أنهم يقولون: ﴿**لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ**﴾ [المجادلة: ٨]. ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء فيزدرونهم ويقولون: ﴿**أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا**﴾ [الأنعام: ٥٣]. ويقولون: ﴿**لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ [الأحقاف: ١١]. وترتيب القياس الذي نظم قلوبهم أنهم يقولون: «قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب وكل محب فهو محسن» وليس كذلك، بل يكون محسنًا ولايكون محبًّا، بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكه على التدريج؛ وذلك محض الغرور بالله تعالى، ولذلك قال ﷺ: «**إنَّ الله يَحمي عَبْدَهُ المُؤْمنَ منَ الدُّنْيا كَمَا يَحْمي أَحَدُكُمْ مَريضَهُ منَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَهُوَ يُحبُّهُ**». وكذلك كان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا، وإذا أقبل عليهم الفقر فرحوا وقالوا مرحبًا بشعائر الصالحين، وقد قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾ [الفجر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ** ﴿٥٥﴾ **نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وقال تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٢، القلم: ٤٤]. ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [الأعراف:

١٨٣، القلم: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. فلم يؤمن بالله من آمن بهذا الغرور. ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فمن عرف الله فلا يأمن من مكره. ولا ينظرون إلى فرعون وهامان والنمرود ماذا حل بهم مع ما أعطاهم الله من المال، وقد حذر الله من مكره فقال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]. فمن أولاه الله نعمة فليحذر أن تكون نقمة.

فصل

وأما غرور العصاة من المؤمنين فقولهم: «غفور رحيم وإنما نرجو عفوه». فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال ـ وذلك من قِبَلِ الرجاء محمود فى الدين ـ وإن رحمة الله واسعة، ونعمته شاملة، وكرمه عميم، إنا موحدون مؤمنون، ونرجو بوسيلة الإيمان، والكرم والإحسان. وربما كان منشأ حالهم التمسك بصلاح الآباء والأمهات، وذلك نهاية الغرور، فإن آباءهم مع صلاحهم وورعهم كانوا خائفين، ونظم قياسهم الذى سول لهم الشيطان: أن من أحب إنسانًا أحب أولاده، فإن الله قد أحب آباءكم فهو يحبكم، فلا تحتاجون إلى الطاعة، فاتكلوا على ذلك واغتروا بالله. ولم يعلموا أن نوحًا عليه السلام أراد أن يحمل ابنه فى السفينة، فمنع، وأغرقه الله بأشد ما أغرق به قوم نوح، وأن النبى ﷺ استأذن فى زيارة قبر أمه وفى الاستغفار لها، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ونسوا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]. فإن من ظن أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه أو يروى بشرب أبيه، والتقوى فرض عين لا يجزى فيها والد عن والده، وعند جزاء التقوى يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه إلا على سبيل الشفاعة. ونسوا قوله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]. وقال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. وهل يصح الرجاء إلا إذا تقدمه عمل؟ فإن لم يتقدمه عمل فهو غرور لا محالة، وإنما ورد الرجاء لتبريد حرارة الخوف واليأس، ولتلك الفائدة نطق به القرآن والترغب فى الزيادة لا محالة.

فصل

ويقرب منهم غرور طوائف لهم طاعات ومعاص، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أن ترجح كفة حسناتهم، وكفة سيئاتهم أكثر. وهذا غاية الجهل، فترى الواحد يتصدق بدراهم عديدة من الحلال والحرام، ويكون ما يتناوله من أموال الناس والشبهات أضعافه، فهو كمن وضع فى كفة الميزان عشرة دراهم ووضع فى الكفة الأخرى ألفًا. وأراد أن تميل الكفة التى فيها العشرة، وذلك غاية الجهل.

فصل

ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيها، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذى يستغفر الله بلسانه ويسبح بالليل والنهار مثلاً مائة مرة وألف مرة، ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار، ويلتفت إلى ما ورد من فضل التسبيح ويغفل عما ورد فى عقوبة الكذابين والنمامين والمنافقين؛ وذلك محض الغرور، فحفظ لسانه عن المعاصى آكد من تسبيحه، فسبحان من صدنا عن التنبيه.

فصل

بيان أصناف المغرورين وأقسام كل صنف

الصنف الأول من المغرورين: العلماء

وهم فرق:

(فرقة منهم) لما أحكمت العلوم الشرعية والعقلية، تعمقوا فيها، واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغًا لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل شفاعتهم فى الخلق ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم. وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة لعلموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة وهو العلم بالله تعالى وبصفاته؛ فلا بد من علوم المعاملة لتتم الحكمة المقصودة، وهى المعاملة بمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة. ومثلهم مثل طبيب يطبب غيره وهو عليل قادر على طب نفسه فلم يفعل، وهل ينفع الدواء بالوصف؟ هيهات لا ينفع الدواء إلا من شربه بعد الحمية؛ وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** ۝٩ **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. ولم يقل: «من يعلم تزكيتها وكتب علمها وعلمها الناس».

وغفلوا عن قوله ﷺ: «مَن ازدادَ علمًا ولم يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ منَ الله إلاَّ بُعْدًا»، وقوله ﷺ: «إنَّ أَشَدَّ النّاس عَذَابًا يَوْمَ القيامَة عَالمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ الله بعلْمه»، وغير ذلك كثير. وهؤلاء مغرورين نعوذ بالله من حالهم، وإنما غَلبَ عليهم حب الدنيا وحب أنفسهم وطلب الراحة العاجلة، وظنوا أن علمهم ينجيهم فى الآخرة من غير عمل.

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل الظاهر، وتركوا المعاصى الظاهرة، وغفلوا عن قلوبهم، فلم يمحوا منها الصفات المذمومة عند الله كالكبر والرياء والحسد وطلب الرياسة والعلو وإرادة السوء بالأقران والشركاء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد، وذلك غرور سببه غفلتهم عن قوله ﷺ: «الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» وقوله ﷺ: «الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسنات كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ» وقوله ﷺ: «حُبُّ المَال والشَّرَف يُنْبتَان النِّفَاقَ فى القَلْبَ كَمَا يُنْبتُ المَاءُ البَقْلَ»، إلى غير ذلك من الأخبار، وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. فغفلوا عن قلوبهم واشتغلوا بظواهرهم؛ ومن لايصغى قلبه لا تصح طاعاته، وهو كمريض ظهر به الجرب فأمره الطبيب بالطّلاء وشرب الدواء، فاشتغل بالطلاء وترك شرب الدواء، فأزال ما بظاهره ولم يزل ما بباطنه، وأصل ما على ظاهره مما فى باطنه، فلا يزال جربه يزداد أبدًا مما فى باطنه، فلو زال ما فى باطنه استراح الظاهر؛ فكذلك الخبائث إذا كانت كامنة فى القلب يظهر أثرها على الجوارح.

(وفرقة أخرى) علموا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لأجل تعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم، فأما هم فهم أبلغ عند الله من أن يبتليهم بذلك، وظهرت عليهم مخايل الكبر والرياسة، وطلب العلو والشرف، وغرورهم أنهم ظنوا أن ذلك ليس بكبر وإنما هو عز للدين وإظهار لشرف العلم ونصرة دين الله، وغفلوا عن فرح إبليس به، وعن نصرة النبى ﷺ بماذا كانت وبماذا أرغم الكافرين، وغفلوا عن تواضع الصحابة وتذللهم وفقرهم ومسكنتهم، حتى عوتب عمر رضي الله عنه على بذاذته عند قدومه الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام لانطلب العز فى غيره.

ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرفيعة، ويزعم أنه يطلب عز العلم وشرف الدين، ومهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيئًا من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ويقول: إنما هو غضب للحق، ورد على المبطل فى عداوته وظلمه، وهذا مغرور، فإنه لو طعن على غيره من العلماء من أقرانه ربما لم يغضب بل ربما يفرح، وإن أظهر الغضب عند الناس فقلبه ربما يحبه، وربما يظهر العلم ويقول: غرضى به أفيد الخلق؛ وهو به مُراء، لأنه لو كان غرضه صلاح الخلق لأحب صلاحهم على يد غيره ممن هو مثله أو فوقه أو دونه.

وربما يدخل على السلاطين ويتودد إليهم ويثني عليهم، فإذا سئل عن ذلك قال: إنما غرضي أن أنفع المسلمين وأدفع عنهم الضرر؛ وهو مغرور، فلو كان غرضه ذلك لفرح به إذا جرى على يد غيره، ولو رأى من هو مثله عند السلطان يشفع في أحد لغضب.

وربما أخذ من أموالهم، فإذا خطر بباله أنه حرام قال له الشيطان: هذا مالٌ بلا مالك، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم، وبك قوام الدين. وهذه ثلاث تلبيسات: أحدهما أنه مال لا مالك له، والثاني أنه لمصالح المسلمين، والثالث أنه إمام؛ وهل يكون إمامًا إلا من أعرض عن الدنيا كالأنبياء والصحابة وأفاضل علماء هذه الأمة؟ ومثله كما قال عيسى عليه السلام: العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع.

وأصناف غرور أهل العلم كثيرة وما يفسد هؤلاء أكثر مما يصلحونه.

(وفرقة أخرى) أحكموا العلوم، وطهروا الجوارح، وبينوها بالطاعات، واجتنبوا ظاهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبرى منها، وقلعوا من القلب منابتها الجلية القوية؛ ولكنهم مغرورون، إذ في زوايا القلب بقايا من خفايا مكايد الشيطان، وخبايا خدع النفس ما دقّ وغمض، فلم يتفطنوا لها وأهملوها. ومثلهم كمثل من يريد تنقية الزرع من الحشيش، فدار عليه وفتش عن كل حشيش فقلعه، إلا أنه لم يفتش عما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ويظن أن الكل قد ظهر وبرز، فلما غفل عنها ظهرت وأفسدت عليه الزرع؛ فهؤلاء إن غيروا تغيروا، وربما تركوا مخالطة الخلق استكبارًا عنهم، وربما نظروا إلى الخلق بعين الحقارة، وربما يجتهد بعضهم في تحسين منظره كيلا ينظر إليه بعين الركاكة.

(وفرقة أخرى) تركوا المهم من العلوم، واقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعايش، وخصصوا اسم الفقيه، وسموه الفقه وعلم المذهب، وربما ضيعوا مع ذلك علم الأعمال الظاهرة والباطنة، لم يتفقدوا الجوارح، ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة، والبطن عن الحرام، والرجل عن السعي إلى السلاطين، وكذا سائر الجوارح، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والرياء والحسد وسائر المهلكات.

وهؤلاء مغرورين من وجهين:

أحدهما: من حيث العلم؛ وقد ذكرنا وجه علاجه في كتاب الإحياء، وأن مثلهم كمثل المريض الذي تعلم الداء من الحكماء ولم يعلمه أو يعمله، فهؤلاء مشرفون على الهلاك من حيث إنهم تركوا تزكية أنفسهم وتخليها، واشتغلوا بكتاب الحيض والديات واللعان والظهار، وضيعوا أعمارهم فيها. وإنما غرهم تعظيم الخلق لهم وإكرامهم، ورجوع أحدهم قاضيًا ومفتيًا؛ ويطعن كل واحد منهم في صاحبه، فإذا اجتمعوا زال الطعن.

والثانى: من حيث العلم؛ وذلك لظنهم أنه لاعلم إلا بذلك وأنه الموصل المنجى، وإنما الموصل المنجى حب الله تعالى؛ ولايتصور حب الله تعالى إلا بمعرفته؛ ومعرفته ثلاث: معرفة الذات، ومعرفة الصفات، ومعرفة الأفعال. وهؤلاء مثل من اقتصر على بيع الزاد فى طريق الحاج ولم يعلموا أن الفقه هو الفقه عن الله، ومعرفة صفاته المخوفة والمزجرة، ليستشعر القلب الخوف، ويلازم التقوى، كما قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات، ولا يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزم وإفحام الخصم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش فى مناقضات أرباب المذاهب، والتفقد لعيوب الأقران، وهؤلاء لم يقصدوا العلم وإنما قصدوا مباهاة الأقران، ولو اشتغلوا بتصفية قلوبهم كان خيرًا لهم من علم لا ينفع إلا فى الدنيا والتكبر، وذلك ينقلب فى الآخرة نارًا تلظَّى.

وأما أدلة المذهب فيشمل عليها كتاب الله وسنة رسول ﷺ فما أقبح غرور هؤلاء!

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة، والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من علم المقولات المختلفة، واشتغلوا بتعليم الطريق فى مناظرة أولئك وإفحامهم، ولكنهم على فرقتين: إحداهما ضالة مضلة والأخرى محقة، أما غرور الفرقة الضالة فلغفلتها على ضلالتها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضًا؛ وإنما ضلوا من حيث إنهم لم يحكموا لشروط الأدلة ومنهاجها، فرأوا الشبهة دليلاً والدليل شبهة. وأما غرور الفرقة المحقة فمن حيث إنهم ظنوا الجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات فى دين الله، وزعموا أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله من غير بحث وتحرير لدليل فليس بمؤمن ولا بكامل ولا بمقرب عند الله تعالى. ولم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبى ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق ولم يطلب منهم الدليل. وروى أبوا أمامة الباهلى رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ قَطّ إلاّ أُوتُوا الجَدَلَ**».

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ، وإعلاء رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق. وهم مغرورون لأنهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد اتصفوا بها، وهم منفكون عنها إلا من قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين. وغرور هؤلاء أشد الغرور، لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما يبحروا فى علم المحبة إلا وهم من الناجين عند الله، وأنهم مغفور لهم بحفظهم لكلام الزهاد مع خلوهم من العمل.

وهؤلاء أشد غرورًا ممن كان قبلهم، لأنهم يظنون أنهم يحببون فى الله ورسوله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، ولا وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، وكذلك جميع الصفات، وهم أحب فى الدنيا من كل أحد،

ويظهرون الزهد فى الدنيا لشدة حرصهم عليها وقوة رغبتهم فيها، ويحثون على الإخلاص وهم غير مخلصين، ويظهرون الدعاء إلى الله وهم منه فارون، ويخوفون بالله وهم منه آمنون، ويذكرون بالله وهم ناسون، ويقربون إلى الله وهم منه متباعدون، ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون، ويصرفون الناس عن الخلق وهم على الخلق أشدهم حرصًا، لو منعوا عن مجالسهم التى يدعون فيها الناس إلى الله لضاقت عليهم الأرض بما رحبت. ويزعمون أن غرضهم إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقران أحدهم من أقبل الخلق عليه ومن صلحوا على يديه لمات غمًا وحسدًا، ولو أثنى واحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه. فهؤلاء أعظم غرورًا، وأبعد عن التنبيه والرجوع إلى السداد.

(وفرقة أخرى) عدلوا عن المهم الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة، إلا من عصمه الله، فاشتغلوا بالطاعات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعدل طلبًا للإغراق. وطائفة اشتغلوا بتيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، وأكثر همهم فى الأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق. وغرضهم أن يكثر فى مجلسهم التواجد والزعقات ولو على أغراض فاسدة. فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا، فإن الأولين إن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم؛ وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الأغراض والغرور بالله بلفظ الخرافة، جراءة على المعاصى ورغبة فى الدنيا، لاسيما إذا كان الواعظ متزينًا بالثياب والخيلاء والمرائى، ويعظهم بالقنوط من رحمة الله حتى ييأسوا من رحمته.

(وفرقة أخرى منهم) قنعوا بكلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا، فيعيدونها على نحو ما يحفظون من كلام من حفظوه من غير إحاطة بمعانيه، فيعظهم الواحد منهم بذلك على المنابر، وبعضهم يعظون الناس فى الأسواق مع الجلساء، ويظن أنه ناج عند الله وأنه مغفور له بحفظه كلام الزهاد مع خلوه من العمل. وهؤلاء أشد غرورًا ممن كان قبلهم.

(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث، أعنى فى سماعه، وجمع الروايات الكثيرة منه، وطلب الأسانيد الغريبة العالية. فَهَمُّ أحدهم أن يدور فى البلاد ويروى عن الشيوخ ليقول: أنا أروى عن فلان، ولقيت فلانًا، ومعى من الأسانيد ما ليس مع غيرى.

وغرورهم من وجوه: منها أنهم كحملة الأسفار، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم السنة وتدبر معانيها، وإنما هم مقتصرون على النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم؛ وهيهات! بل المقصود من الحديث فهمه وتدبر معانيه، فالأول فى الحديث السماع ثم الحفظ ثم الفهم ثم العمل ثم النشر، وهؤلاء اقتصروا على السماع ثم لم يحكموه، وإن كان لا فائدة فى الاقتصار عليه والحديث فى هذا الزمان يقرأه الصبيان، وهم غرة غافلون، والشيخ الذى يقرأ عليه ربما يكون غافلاً حتى يصحف الحديث ولا يعلم، وربما ينام ويروى عنه الحديث وهو

لا يعلم. وكل ذلك غرور، وإنما الأصل فى استماع الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ، فيحفظه كما سمعه ويؤديه كما حفظه، فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع، فإن عجز عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعه من الصحابة أو من التابعين، فيصير سماعه منهم كسماعه من رسول الله ﷺ، وهو أن يصغى ويحفظ ويرويه كما حفظه حتى لا يشك فى حرف واحد منه، وإن شك فيه لم يجز له أن يرويه أو يعلم به ويخطئ به إن أخطأ.

وحفظ الحديث يكون بطريقين: أحدهما بالقلب مع الاستدامة والذكر. والثانى يكتب ما يسمع ويصحح المكتوب ويحفظه كيلا تصل إليه يد من يغيره، ويكون حفظه للكتاب أن يكون فى خزانته محروسًا حتى لا تمتد إليه يد غيره أصلاً. ولا يجوز أن يكتب سماع الصبى والغافل والنائم، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الصبى فى المهد.

وللسماع شروط كثيرة، والمقصود من الحديث العمل به ومعرفته، وله مفهومات كثيرة كما للقرآن، وروى عن أبى سفيان بن أبى الخير المنهى أنه حضر فى مجلس زاهر بن أحمد السرخسى، فكان أول حديث روى قوله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**»، فقام وقال: يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره. فهكذا هو سماع الناس.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة، واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين والسنة بعلم النحو واللغة، فأفنوا أعمارهم فى دقائق النحو واللغة. وذلك غرور عظيم، فلو عقلوا لعلموا أن لغة العرب كلغة الترك، والمضيع عمره فى لغة العرب كالمضيع عمره فى لغة الترك والهند وغيرهم، وإنما فارقهم من أجل ورود الشرع. وكفى من اللغة علم الغريب فى الكتاب والسنة، ومن النحو ما يتعلق بالكتاب والسنة، وأما التعمق فيه إلى درجة لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه وصاحبه مغرور.

الصنف الثانى من المغرورين أصحاب العبادات والأعمال

والمغرورون منهم فرق كثيرة:

منهم من غروره فى الصلاة.

ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن.

ومنهم من غروره فى الحج.

ومنهم من غروره فى الجهاد.

ومنهم من غروره فى الزهد.

(ومنهم فرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل، وربما تعمقوا فيها حتى يخرجوا إلى السرف والعدوان، كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء، فيبالغ ولا يرتضى الماء المحكوم بطهارته فى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة؛ وإذا آل الأمر

إلى أكل الحرام، قدر الاحتمالات القريبة بعيدة، وربما أكل الحرام المحض. ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أولى، بدليل سير الصحابة ﷺ، فقد توضأ عمر ﷺ بماء فى جرة نصرانية مع احتمال ظهور النجاسة، وكان مع هذا يدع أبوابًا من الحلال خوفًا من الوقوع فى الحرام.

(وفرقة أخرى) غلبت عليهم الوسوسة فى نية الصلاة، فلا يدعه الشيطان يعقد نية صحيحة، بل يوسوس عليه حتى تفوته الجماعة، وربما أخرج الصلاة عن الوقت؛ وإن أتم تكبيرة الإحرام يكون فى قلبه تردد فى صحة نيته. وقد يتوسوس فى التكبير حتى يغير صفة التكبير لشدة الاحتياط ويفوته الاستماع للفاتحة، ويفعل ذلك فى أول الصلاة ثم يغفل فى جميعها، ولا يحضر قلبه ويغتر بذلك، ولم يعلم أن حضور القلب فى الصلاة هو الواجب، وإنما غره إبليس وزين له ذلك وقال له: ذلك الاحتياط تتميز به عن العوام وأنت على خير عند ربك.

(وفرقة أخرى) غلبت عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة من مخارجها وكذلك سائر الأذكار، فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء؛ لا يهمه غير ذلك، ولا يتفكر فى أسرار فاتحة الكتاب ولا فى معانيها؛ ولم يعلم أنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام؛ وهذا غرور عظيم. ومثلهم من حمل الرسالة إلى مجلس السلطان وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو مع ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس؛ فهذا لا شك أنه تقام عليه السياسة، ويرد إلى دار المجانين، ويحكم عليه بفقد العقل.

(فرقة أخرى) اغتروا بتلاوة القرآن، فيهدروا به هدرًا، ربما يختمون فى اليوم والليلة ختمة، وألسنتهم تجرى به وقلوبهم تتردد فى أودية الأمانى والتفكر فى الدنيا، ولا تتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره، ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار منه، ويتلذذ به من حيث المعنى لامن حيث النظم. فمن قرأ كتاب الله فى اليوم والليله مائة مرة ثم ترك أوامره ونواهيه، يستحق العقوبة. وربما كان له صوت طيب، فهو يقرأ ويتلذذ به ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله سبحانه وسماع كلامه، وهيهات ما أبعده! إذ لذته فى صوته، فلو أدرك لذة كلام الله ما نظر إلى صوته وطيبه، ولا تعلق خاطره به، ولذة كلام الله إنما هى من حيث المعنى؛ فهو فى غرور عظيم.

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر وصاموا الأيام الشريفة، وهم فى ذلك لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، ولا خواطرهم عن الرياء، ولا بطونهم عن الحرام عند الإفطار ولا من الهذيان بأنواع الفضول. فهؤلاء تركوا الواجب، واتبعوا المندوب، وظنوا أنهم يسلمون، وهيهات! إنما يسلم من أتى الله بقلب سليم؛ فهم مغرورون أشد الغرور.

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وربما ضيعوا الصلاة المكتوبة في الطريق، وربما عجزوا عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منه، ولا يحترزون في الطريق من الرفث والخصام. وربما جمع بعضهم الحرام فأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به الرياء والسمعة، فيعصي الله في كسب الحرام أولاً، وفي إنفاقه للرياء ثانيًا. ثم يبلغ إلى الكعبة ويحضرها بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه، وهو مغرور.

(وفرقة أخرى) أخذت في طريق الخشية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وينكر أحدهم على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة، وإذا باشر منكرًا وأنكره عليه أحد غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر عليّ! وقد يجمع الناس في المسجد، ومن تأخر عنه أغلظ عليه في القول. وربما عرض له الرياء والسمعة والرياسة، وعلامته أنه لو قام بالمسجد غيره تجرأ عليه، ومنهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله، ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال: لم أخذ حقي وزوحمت. ومنهم من يتقلد إمام مسجد يظن أنه خير، وغرضه أن يقال إنه إمام مسجد كذا وكذا؛ وعلامته أنه لو قدم غيره وإن كان أورع منه وأعلم ثقل عليه ذلك.

(وفرقة أخرى) جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بهما، ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظواهرهم وبواطنهم، وربما كانت قلوبهم متعلقة ببلادهم ومنازلهم. وتراهم يتحدثون بذلك ويقولون جاورت بمكة كذا وكذا سنة. وهذا مغرور، لأن الأقوم له أن يكون في بلده وقلبه متعلق بمكة. وإن جاور فليحفظ حق الجوار؛ فإن جاور بمكة حفظ حق الله، وإن جاور بالمدينة حفظ حق النبي ﷺ، ومن يقدر على ذلك. وهؤلاء مغرورون بالظواهر، فظنوا أن الحيطان تنجيهم، وهيهات! وربما لم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير. وما أصعب المجاورة في حق الخلق، فكيف مجاورة الخالق! وما أحسن مجاورته بحفظ جوارحه وقلبه.

(وفرقة أخرى) زهدت في المال، وقنعت من الطعام واللباس بالدون، ومن المسكن بالمساجد، وظنوا أنهم أدركوا رتبة الزهاد، وهم مع ذلك راغبون في الرياسة والجاه. والرياسة إنما تحصل بأحد أشياء: إما بالعلم، أو بالوعظ، أو بمجرد الزهد؛ فقد تركوا أهون الأمرين وبادروا إلى أعظم المهلكات؛ لأن الجاه أعظم من المال، ولو ترك أحدهم الجاه وأخذ المال كان إلى السلام أقرب.

وهؤلاء مغرورون، ظنوا أنهم من الزهاد في الدنيا وهم لم يعلموا معنى الدنيا، وربما يندم الأغنياء على الفقراء. ومنهم من يعجب بعلمه، ومنهم من يؤثر الخلوة والعزلة وهو عن شروطها خال، ومنهم من يعطى له المال فلا يأخذه خيفة أن يقال بطل زهده، وهو راغب في المال والناس، خائف من ذمهم. ومنهم من شدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى يصلي في

اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويختم القرآن، وهو فى جميع ذلك لا تخطر له مراعاة القلب وتفقده من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات. وربما يظن أن العبادات الظاهرة ترجح بها كفة الحسنات، وهيهات! ذرة من ذى تقوى، وخلق واحد من خلق الأكياس، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح. ثم قد يغتر بقول من يقول له: إنك من أوتاد الأرض، أو من أولياء الله وأحبابه؛ فيفرح بذلك ويظهر له تزكية نفسه، ولو شوتم يومًا واحدًا مرتين أو ثلاثًا لكفر وجاهد من فعل ذلك به، وربما قال لمن سبه: لا يغفر الله لك أبدًا.

(وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض؛ فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد لصلاة الفرض لذة ولاخيراً من الله تعالى، لشدة حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت، وينسى قوله ﷺ: **«مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ بِأَفْضَلَ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضَهُ الله عَلَيْهِمْ»**.

وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين على الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو نفلان: أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب كان مغروراً ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فإن المعصية ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات التى لا قائم بها على ما قام بها غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت مثل تقديم حق الوالدة على الوالد، وتقديم نفقة الأبوين على الحج، وتقديم الجمعة إذا حضر وقتها على العيد، وتقديم الدين على فروض غيره. وما أعظم العبد أن ينفذ ذلك ويتنبه، ولكن الغرور فى الترتيب دقيق خفى لايقدر عليه إلا العلماء الراسخون فى العلم.

الصنف الثالث من المغرورين أرباب الأموال

وهم فرق كثيرة:

(فرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر والصهاريج للماء وما يظهر للناس، ويكتبون أسماءهم بالآجر عليه ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم استحقوا المغفرة بذلك؛ وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم اكتسبوها من الظلم والشبهات والرشا والجاهات المحظورة؛ فهؤلاء قد تعرضوا لسخط الله فى كسبها، فإذا عصوا الله فى كسبها فالواجب عليهم التوبة ورد الأموال إلى أهلها إن كانوا أحياء، وإلى ورثتهم إن لم يبق منهم أحد وانقرضوا. فإن لم يبق لهم ورثة فالواجب عليهم أن يصرفوها فى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين؛ فأى فائدة فى بنيان يستغنى عنه ويموت ويتركه؟ وإنما غلب على هؤلاء الرياء والشهرة ولذة الذكر.

والوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق وعلو الأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً على مسكين لم تسمح نفسه بذلك، لأن حب المدح والثناء مستكين في باطنه.

(وفرقة أخرى) ربما اكتسبوا المال الحلال، واجتنبوا الحرام، وأنفقوا على المساجد. وهم أيضًا مغرورون من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب السمعة والثناء؛ فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم، فإن المساجد كثيرة والغرض منها الجامع وحده فيجزئ عن غيره، وليس الغرض بناء مسجد في كل سكة وفي كل درب؛ والمساكين والفقراء محتاجون. وإنما عليهم دفع المال في بناء المساجد لظهور ذلك بين الناس، ولا يسمع في الثناء عليه من عند الخلق، فيظن أنه يعمل لله وهو يعمل لغير الله (ونيته أعلم بذلك، وإنما نيته عليه غضب، وقال إنما قصدت الله عز وجل).

والثاني: أنه يصرف في زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش المنهي عنها الشاغلة قلوب المصلين، لأنهم ينظرون إليها فتشغلهم عن الخضوع في الصلاة عن حضور القلب وهو المقصود من الصلاة؛ فكل ما طرأ في صلاتهم وفي غير صلاتهم فهو في ميزان الذي بناه، إذ لايحل تزيين المسجد بوجه. قال الحسين ﷺ: لما أراد رسول الله ﷺ أن يبني مسجده بالمدينة أتاه جبريل وقال: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء فلا تزخرفه، ولا تنقشه، فهؤلاء رأوا المنكر معروفًا واتكلوا عليه فهم مغرورون في ذلك.

(وفرقة أخرى) ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر وإفشاء المعروف، فيكرهون التصدق في السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم خيانة عليهم وكفرانًا للمعروف، وربما تركوا جيرانهم جائعين؛ ولذلك قال ابن عباس ﷺ: في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب؛ يهوى لهم السفر، ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون مجرمين مسلوبين يهوى بأحدهم بعيره بين القفار والرمال، وجاره مأثور إلى جنبه فلا يواسيه ولا يتفقده.

(وفرقة أخرى) من أرباب الأموال؛ يحتفظون بالأموال ويمسكونها بحكم البخل، ويشتغلون بالعبادة البدنية التي لا يحتاجون فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن. وهم مغرورون، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فاشتغلوا بطلب فضائل وهم مشتغلون عنها. ومثلهم كمثل من دخلت في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك، فاشتغل بطلب السكنجبين ليسكن به الصفراء؛ ومن لدغته الحية كيف يحتاج إلى ذلك؟ وقيل لبشر الحافي: إن فلانًا كثير الصوم والصلاة؛ فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، إنما حال هذا إطعام الطعام للجائع والإنفاق على المساكين، فهو أفضل له من تجويع نفسه ومن صلاته مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء.

(وفرقة أخرى) غلب عليها البخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجونها من المال الخبيث الردئ الذين يرغبون عنه. ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حوائجهم، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستئجار له فى الخدمة، ومن لهم فيه على الجملة غرض، ويسلمونها إلى شخص يعينه واحد من الكبار ممن يستظهر بخشيته لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجته، وكل ذلك مفسد للنية ومحبط للعمل، وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله وهو فاجر، إذ يطلب بعبادة الله غرضًا من غيره. فهذا وأمثاله مغرورون بالأموال.

(وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء، اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، فاتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم أجرًا على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ؛ فهم مغرورون، لأن فضل مجالس الذكر إنما يحصل لكونها مرغبة فى الخير، فإن لم تهيج الرغبة فلا خير فيها. والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن لم تبعث على العمل فلا خير فيها. وربما يغتر بما يسمعه من الوعظ، وربما تداخله رقة كرقة النساء فيبكى، وربما يسمع كلامًا مخوفًا فلا يزال يصفر بين يديه ويقول: يا سلام سلم، ونعوذ بالله، وحسبى الله، ولاحول ولا قوة إلا بالله، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثله كمثل المريض الذى يحضر مجالس الأطباء ويسمع ما يصفونه من الأدوية ولايفعلها ولا يشتغل بها ويظن أنه يجد الراحة بذلك؛ وكذلك الجائع الذى يحضر عند من يصف الأطعمة اللذيذة، فكل وعظ لا يغير منك صفة تغييرًا تتغير به أفعالك، حتى تقبل إلى الله عز وجل وتعرض عن الدنيا وتقبل إقبالاً قويًا وإن لم تفعل بذلك الوعظ كان زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورًا.

الصنف الرابع من المغرورين المتصوفة

وما أغلب الغرور على هؤلاء! وما المتصوفة من أهل هذا الزمان إلا من عصمه الله. اغتروا بالزى والمنطق والهيئة، فشابهوا الصادقين من الصوفية فى زيهم، وهيئتهم، وألفاظهم، وآدابهم، ومراسمهم، واصطلاحاتهم، وأحوالهم الظاهرة فى السماع، والرقص، والطهارة، والصلاة، والجلوس على السجادة مع إطراق الرأس، وإدخاله فى الجيب كالمتفكر مع تنفيس الصعداء، وفى خفض الصوت فى الحديث، وفى الصياح، إلى غير ذلك. فلما تعلموا ذلك ظنوا أن ذلك ينجيهم، فلم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة، والرياضة، والمراقبة للقلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجلية والخفية؛ وكل ذلك من منازل التصوف. ثم إنهم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شىء من غرضه.

فهؤلاء غرورهم ظاهر، فمثلهم كمثل عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال والمقاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان، فتزينت بزيهم، ووصلت إلى الملك، فعرضت على ميزان العرض فوجدت عجوز سوء، فقيل لها: أما تستحي في استهزائك بالملك؟ اطرحوها حول الفيل! فطرحت حول الفيل فركضها حتى قتلها.

(وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء في الغرور، إذ صعب عليها الاقتداء في بذالة الثياب والرضا بالدون في المطعم والمنكح والمسكن، وأرادت أن تتظاهر بالتصوف، ولم تجد بدًّا من التزيي بزيهم، فتركت الخز والإبريسم وطلبت المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة والسجادات المصوغات، وقيمتها أكثر من قيمة الخز والإبريسم. ولا يجتنبون معصية ظاهرة فكيف بالباطنة! وإنما غرضهم رغد العيش وأكل أموال السلاطين، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير. وضرر هؤلاء على المسلمين أشد من ضرر اللصوص، لأنهم هؤلاء يسرقون القلوب بالزي، فيقتدي بهم غيرهم فيكونون سبب هلاكهم، فإن اطلع على فضائحهم فيظنون أن أهل التصوف كذلك، فيصرخون بذم الصوفية على الإطلاق.

(وفرقة أخرى) ادعت علم المكاشفة، ومشاهدة الحق، ومجاوزة المقامات، والوصل والملازمة في عين الشهود، والوصول إلى القرب؛ ولا يعرف ذلك والوصول إليه إلا باللفظ والاسم، فتلقف من الألفاظ الطامة كلمات، فهو يرددها وهو يظن أن ذلك من أعلى علم الأولين والآخرين. فهو ينظر إلى الفقهاء والمقرئين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك حياكته ويلازمهم أيامًا معدودة، فيتلقف تلك الكلمات الزائفة فتراه يرددها كأنه يتكلم عن الوحي، ويخبر عن أسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العباد: أجراء متعبون؛ ويقول في العلماء: إنهم بالحديث محجوبون، ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من القربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقاء الجاهلين؛ لم يحكم قط علمًا، ولم يهذب خلقًا، ولم يرتب علمًا، ولم يراقب قلبًا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان، ولو اشتغل بما ينفعه كان أحسن له.

(فرقة أخرى) جاوزت هؤلاء، فأحسنت الأعمال وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب، من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. فمنهم من يدعي الوجد ويحب الله، ويزعم أنه واله بالله، ولعله قد يخيل بالله خيالات فاسدة هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله قبل معرفته، وذلك لا يتصور قط. ثم إنه لا يخلو قط ما يفارقه ما يكرهه الله، وإيثار هوى نفسه على أوامر الله، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق؛ ولو خلا بنفسه لما تركها حياء من الله، وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب. وبعضهم يميل إلى القناعة والتوكل، فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم

تنقل عن الصحابة وسلف هذه الأمة، وقد كانوا أعلم بالتوكل منه، ما فهموا من التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به.

وما مقام من المقامات المنجية إلا وفيه غرور قد اغتر بها قوم؛ وقد ذكرنا مداخل الآفات فيها فى ربع المنجيات من كتاب الإحياء.

(وفرقة أخرى) ضيقت على أنفسها أمر القوت، حتى طلبت منه الحلال الخالص، وأهملت تفقد القلب والجوارح من غير هذه الخصلة الواحدة.

ومنهم من استعمل الحلال فى مطعمه وملبسه ومكسبه ويتعمق فى ذلك، ولم يدر أن الله لم يرض من العباد إلا بالكمال فى الطاعات، فمن اتبع البعض وأهمل البعض فهو مغرور.

(وفرقة أخرى) ادعت حسن الخلق والتواضع والسماحة، فقصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قومًا وتكلفوا خدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة لحطام الدنيا وجمعًا للمال؛ وإنما غرضهم التكثير والتكبير، وهم يظهرون الخدمة والتواضع، ويطلبون أن غرضهم الارتفاق وغرضهم الاستتباع، ويظهرون أن غرضهم الخدمة، وهم يجمعون الحرام والشبهات لينفقوا عليهم فتكثر أتباعهم وينتشر بتلك الخدمة ذكرهم. ومنهم من يأخذ من أموال السلاطين وينفق عليهم، ومنهم من يأخذ من أموال السلاطين والظلمة لينفق ذلك بطريق الحج على الصرفية، ويزعم أن غرضه البر والإنفاق. والباعث للجميع إنما هو الرياء والسمعة، وذلك إهمالهم لجميع أوامر الله ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه؛ ومثال الذى ينفق المال الحرام فى طريق الحج، كمن يعمر مسجدًا ويطينه بالعَذِرَة وغيرها من النجاسات ويزعم أن قصده العمارة.

(وفرقة أخرى) اشتغلت بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها، فصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علمًا وحرفة لهم؛ فهم فى جميع أحوالهم مشتغلون بالتحفظ من عيوب النفس باستنباط دقيق الكلام فى آفاتها، فيقولون: هذا فى النفس عيب، والغفلة عن كونه عيبًا عيب، ويستعفون فيه بكلمات مسلسلة، فضيعوا فى ذلك أوقاتهم، لأنهم وقعوا مع أنفسهم ولم يتعلقوا بخالقهم. ومثلهم من اشتغل بأوقات الحج وعوائقه ولم يسلك طريق الحج، وذلك لا يغنيه عن الحج؛ فهو مغرور.

(وفرقة أخرى) جاوزت هذه المرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتحت لهم أبواب المعرفة، فلما شموا من مبادئ المعرفة رائحة، تعجبوا منها وفرحوا بها أعجبتهم غرائبها، فتعلقت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وفى كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم. وذلك غرور، لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فمن وقف مع كل أعجوبة

وتقيد قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد، ومثال ذلك كمن قدم على ملك فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار، ولم يكن قد رآها قبل ذلك ولا رأى مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذى يكون فيه لقاء الملك، فانصرف خائبًا.

(وفرقة أخرى) جاوزت هؤلاء ولم تلتفت إلى ما يفيض عليها من الأنوار فى الطريق، ولا إلىّ ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يلتفتوا إليها ولا عرجوا عليها، بل أخذوا جادين فى السير، فلما قاربوا الوصول ظنوا أنهم وصلوا، فوقفوا ولم يتعدوا ذلك، فغلطوا؛ فإن لله سبحانه وتعالى سبعين حجابًا من نور وظلمة، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب إلا ويظن أنه قد وصل؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٦].

بسم الله الرحمن الرحيم
سر العالمين وكشف ما فى الدارين
خطبة الكتاب

الحمد لله الأول فى ربوبيته، والقديم فى أزليته، والحكيم فى سلطنته، والكريم فى عزته، لا شبيه له فى ذاته وصنعته، ولانظير له فى مملكته، صانع كل شىء مصنوع بقدرته، المتكلم بكلامه الأزلىّ ليس بخارج من صفته، أحمده على نعمته، وأستعين به على دفع نقمته، هو الله ربى وحده لا شريك له الواحد فى ربوبيته، الذى يختص من يشاء برحمته، ختم الأنبياء بمحمد ﷺ وعلى آله وعترته.

أما بعد:

فما رأيت أهل الزمان هممهم قاصرة على نيل المقاصد الباطنة والظاهرة، وسألنى جماعة من ملوك الأرض أن أضع لهم كتابًا معدوم المثل لنيل مقاصدهم واقتناص الممالك وما يعينهم على ذلك، استخرت الله فوضعت لهم كتابًا، وسميته بكتاب «سر العَالَمَيْن وكشف ما فى الدارين» وبوّبته أبوابًا، ومقالات وأحزابًا، وذكرت فيه مراتب صوابًا، وجعلته دالاً على طلب المملكة وحاثًا عليها، وواضعًا لتحصيلها أساسًا جامعًا لمعانيها، وذكرت كيفية ترتيبها وتدبيرها، فهو يصلح للعالم الزاهد، وشريك شرك المالك بتطييب قلوب الجند وجذبهم إليه بالمواعظ. فأول من استحسنه وقرأه على بالمدرسة النظامية سرًا من الناس فى النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر رجل من أرض المغرب يقال له محمد بن تومرت من أهل سلمية، وتوسمت منه الملك. وهو كتاب عزيز لا يجوز بذله، لأنه تحته أسرارًا تفتقر إلى كشف، إذ طباع العالم نافرة عنها، وتحته علوم عزيزة وإشارات كثيرة دالة على غوامض أسرار لا يعرفها إلا فحول الحكماء. فالله يوفقك للعمل به فإنه دال على كل ما تريد إن شاء الله تعالى.

ترجمة الأبواب وهى ثلاثون مقالة

فصل

اعلم أن الملك عظيم وعقيم، عليه وقع الاشتباك والمناقشة بين الصالح والطالح، والخاسر والرابح، فمنه يتشعب الحسد وكل عرض وغرض مزعزع. فلا بد من أصل ومرتبة، وتحصيل وصّبر، وجمع أموال لبلوغ الآمال. وأمّ الغرر فى تحصيله هو علو الهمة، كما قال معاوية ﷺ: همّوا بمعالى الأمور لتنالوها! فإنى لم أكن للخلافة أهلاً فهممت بها فنلتها. وقد سرت بك قصص الأولين، فانظر فى أخبارهم وآثارهم! فما بلغ أحد درجة الملك بأب وأم غير قليل، وكم نزع الملك من يد وارث مستحق مثل بيت نبينا محمد ﷺ.

وسنتلو عليك نُبَذًا من قصة ذى القرنين: وهو صعب بن جبل، وأبوه نساج واسم أمه هيلانة: كان يتيمًا فى بنى حمير، سمعت أمه ببيت الصنائع فى مدينة قسطنطين فحملت ابنها إلى ذلك البيت، فشاهد صورة الملك فوق الصنائع فقالت أمه: يابنى اختر منها ما تريد! فوضع يده على تاج الملك فانتهرته مرارًا فلم ينته، فنظر إليها يونان فقال لها: أنت هيلانة وهذا ابنك صعب بن جبل؟ فقالت: نعم، فقال: آخذ عهد ذى القرنين وزمامه على أنى وذريتى فى أمانك، فأنت الملك الذى تسحب ذيلك بطريق التملك شرقًا وغربًا. فحملته أمه إلى أرض بابل كاتمة أمره، فكان من بُدُوِّ أمره وشواهد سعادته ثلاث منامات رآهن فى ثلاث ليال: فأولهن أنه رأى كأن الأرض صارت خبزًا فأكلها، وفى الثانية رأى كأنه قد شرب البحار وأكل طينها، وفى الثالثة رأى كأنه رقى فى السماء فقد نجومها ورماهن إلى الأرض، وركب الشمس وسحب ناصية القمر، فما اجتمع بالخضر عليه السلام فسر، عليه فبشره بنيل الملك الأعظم، وستصحب نبيًّا وحكيمًا وكم من مثله إن اعتبرت، فاركب بسر علوِّ الهمة وحصل الانتهاء ليتم لك كيمياؤها، وصيِّر عندك نديمًا كاتمًا مطلعًا على كتبها - أعنى بها كتب سر العالمين - ثم حصل أرباب صناعة التقليب الذين هم علماء تقلب الكيمياء قادرين على صبغ الأحمر والأبيض، فإن كنت قليل الحجال ضعيف العضد وقليل المال فكن كثير الفضل والعلم، واتخذ لنفسك زاوية على طريق التزهد، واجذب إليك تلاميذَ وكثِّر عددهم، واتخذ طريق الكرامات لينصبوا إليك، واستهو الكبار، واسلك طريق الصلاح وزنها لنفسك، واختل فإذا هب نسيم سعادتك فاكشف لتلاميذك ما الناس عليه من الفسق والفجور وارتكاب ما لا يجوز من كل أمر منكر، وأمر أصحابك تستهوى وتجذب كل طائفة منهم لطائفة قوم آخرين، فإذا استقوت شرذمتك فخذ الخواص من الناس باللين والموعظة، والمعاندين بالجدل، وأولى الغلظة بالغلظة، ألم تَرَ إلى بدو الإسلام ﴿قُلْ

يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]. فلما وصل إلى قمة السعادة قر سيفه ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]. وعند الضعف والمسالمة أخذ الجزية والصلح ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وعند ربح السعادة، وارتفاع أطناب خيم الإرادة ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فكن أيها الطالب للملك على هذه الوتائر، وخاطب الناس على قدر عقولهم، وأظهر العدل، واحترم أولى الفضل، وأشبع الجند، واجبر الكسير، وأنصف ولو من نفسك، وأشبع حُجَّابك وحكامك وعمالك فإن لم تفعل سرت الرشوة إلى بطلان الحق وتعطيله، وفشا ظلمك فى الرعية، ومالت القلوب عنك، وربما ذهبت باطنًا وظاهرًا. واعلم أن المظلوم له همة تكون وافية فى عكس أغراضك، مثل همم أرباب الاستقامة، فإنها مؤثرة فى الفلك لاستجلاب ماء الغمام. وسأتلوا عليك قصة السلطان ابن سملتكين وقد نفذ رسولاً إلى ملك الهند وقال: ما سبب طول أعماركم مع جحودكم للصانع وتكذيبكم للرسل والوسائط، ونحن قصار الأعمار مع تصديقنا وإيماننا؟ فقال ملك الهند لرسوله: انظر إلى هذه الشجرة التى فوقها ثمرة، لا أعطيك الجواب حتى تنقطع. ثم أمر بالإدرار عليه وحسن الإقامة، فضاق صدره وتعلقت همته بقلعها، فلم يك إلا مدة قريبة إذ سمع هزة وقعت والناس يهرعون، ومشى معهم، فإذا الشجرة واقعة والملك مفكر، فلما بصر الملك بالرسول قال له: اذهب فهذا جوابك، وقل للسلطان هذه همة واحدة أثرت فى قلع شجرة مثمرة، فكيف همم جماعة من المظلومين لا تؤثر فى قلع الظالمين! إذ دعاء المظلوم محمول فوق الغمام، وقد ورد فى بعض الكتب السالفة: أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم. واعلم أن العدل وبسط باع السلطنة بالهيبة مثل القتل والصلب والقطع يثمر الأمن وتمهيد الأرض وطمأنينة قلوب الرعية، إذ السلطان ظل ربه فى الأرض وملجؤها، يأوى إليه كل مظلوم. ولا تستهب وضع الشىء فى مكانه إذ «القتل أنفى للقتل» ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وكان عمرو بن العاص صحابيًّا بدريًّا نبه معاوية ﷺ وجسره على فظائع الأفعال بقصائده اللامية والنونية التى قال فيها:

مُعَاوِىّ فِى الخلقِ لا نفد لَهُ

مُعَاوِىّ إنِّى لَمْ أُبَايِعْكَ فلته

فينًا وَلَوْ مَرَّةً فِى الدَّهْرِ وَاحِدَه

وَكَمْ للشَّيخِ عِنْدى مِنْ خَزَايا

تَدُلُّ لَهَا المَغَازِى وَالمَخَازِى

وطريق آخر فى استدعاء المملكة وترتيبها وهو بذل الأموال، وطريق آخر وهو

بالسيف معقود، لكنه مفتقر إلى ترك الشح مع الجند وإجلاء دعوة المظلوم، ولا يتعرض إلى الشقوص الموقوفة.

ولتجعل للرعية والسواد فى كل يوم لمطالعة أحـوالهم، فقد يتشعب الظلم مع الغفلة لا سيما مع الحجَّاب والعمال، ولتنظر فى مخـازى الكتاب فما كذبت بنت كسرى إذ سمته ديوانًا، ولتنظر فى وقت العشىّ ما كتبه الكتَّـاب بالنهار، لا يتم عليه حيل أرباب الدساتير، فكم من مظلوم عن حقه صُدَّ لغفلة المـلك عنه. فإذا أردت أن لا تنحجب عنك حال فامنع الكلام، وأمر بأخذ القصاص، ووقع فيها بما تراه والله تعالى أعلم.

باب الترتيب فى قعود الملك وسياسته ونومه وليلته

إذا صليت صبحك تـقعد فى ذكر الله تعالى إلى طلوع الشـمس، ثم تأمر أهل دارك ومن حولك بما تريده من حوائجك من مأكل ومشرب، ثم تركب لتسمع أو يلقاك محجوب أو تلبى مظلومًا أو تطلع على الحوادث، ثم تعود وأنت محفوف بالقعقعة والسلاح والتحرز من طمع الأعداء، ثم تقـعد فى دار عيـد لك لكشف المظالم وسمـاع الرسل: تترك الناس صفين يمينًا وشمالاً والوسط مـفتوح لئلا يحجب عنك منظورٌ وصاحب حـاجة وتسأل عمن تنكره، ولا تستـخدم من لا تعرفـه إلا بخبرة أو ضـمان أو تسليم إلى عقـيدة. وليكن لك جماعة من أرباب العلم والعقل والتجارب فى الرأى والمشـورة، ووزراء خير لا فسقة، فمن ليس بأمين لنفسه فكيف على سواه؟ ثم تنهض من مجلسك فى الظهر، وليكن للملك عين فى الديوان لما يجرى فإذا دخل منزله بسط الطعام ومد الخوان للجند والإخوان. وليكن كثير التعهد والتفقد وجبر القلوب المنكسرة. وليكن على الطبيخ أمينٌ ما أساء إليه، فإن القلع ثمر الإساءة، ثم يأخذ طعم الطبيخ طابخه، ثم حامـله، ثم واضعه عند الملك، يغمس اللقمة، فى جميعه، فقد مات شهـريار بن ذار بنصف تفاحة قطعت، وقد مات شاسان بنصف قدح شراب سلم شريكه مع عطبه، وقد سُمَّ النبى ﷺ بذراع مشوى للسر فى مـحبته له لقرب المشرع من المسعى، وقد سَمَّ أبو لؤلؤة السكِّينة التى قـتل بها ابن الخطاب ﷺ، وسَمَّ عبد الرحمن بن ملجم سـيفًا ضرب به قمـة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كـرم الله وجهه، وسَمَّت حصار بنت خوجة بنت كعب الـغسانى زوجها الحسن بن على ﷺ، وكان الأصل أنه شاء يومًا حَبَّ عنب غير مغسول.

وكم مثل ذا فى الدهر ما ليس يحصر

وتحتـرز من السمـوم فى طعامك وشرابك ولـباسك ومنامك حتى مـنديل فراشك، وليكن خارج العالم مجردًا مسودًا مداخلاً فى مـعرفة غوامض أحوالهم بالترسل والتجسس

وكشف علوم من البلاد بجواسيس شارحة متنكرة مختلفة مثل فقير وصوفيّ وتاجر وطبيب وكتبة، وقد كان المأمون له أصحاب خير يستجلبون له أخبارًا من الطرقية. هكذا سنن الملوك.

فصل وهو المقالة الثالثة

ويستحب للملك سهر أول الليل إلى نصفه لقضاء المهمات والقصص المستورات، ونوم النهار عون على سهر الليل يذهب تعب السهر، والحمامُ من غير إطالة محبوب، والتعهد بالأشربة الموافقة للأمزجة. وليحترز من تزوير العلائم ويمتحن ويستدرك، فالخطوط تشتبه، فأول داهية عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت من توقيع محمد بن أبى بكر رضي الله عنهما وهى مذكورة فى سير الناس يتداول بها القصاص. ولا يفضل السرارى والنساء، فقد يحصل من مراجيح الغيرة ما لا طاقة به، فكم محمول على الغيرة ثمرتها أعظم من ثمرة الحسد. ويجب على الملك أن يكون وحيدًا لا أحد له من حيث السياسة، ولا يركن إلى الأمن من خوف الذم، فبرهان الشعر ظاهر من قوله:

فَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإنْصافِ قَاطِعَةً
بَيْنَ الأَنامِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِى رَحِم

ويجب عليه التعهد لأصحاب أبيه ولو كان فقيرًا، ومراعاة أصحابه الذين كانوا معه قبل سلاسل التمليك، فمن لطافة رسول الله ﷺ أنه كانت تردد إليه امرأة يهودية فنهض لها قائمًا فقالت له فى ذلك عائشة رضي الله عنها: أتقوم لامرأة يهودية قائمًا؟ قال: «**هَذه كَانَتْ تَتَرَدَّدُ إلَيْنَا فِى زَمَنِ خَدِيجَةَ** رضي الله عنها **وَحُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الإيمان**» وبزيادة الشعر قادح.

لا تُلْقِ فى بئرٍ شربت زُلالَها
قَذَرًا فمته يقال إنك غادر

باب فى ترتيب الخلافة والمملكة

اختلف العلماء فى ترتيب الخلافة وتحصيلها لمن أمْرُها إليه، فمنهم من زعم أنها بالنص، ودليلهم قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**أَلِيمًا**﴾ [الفتح: ١٦]. وقد دعاهم أبو بكر رضي الله عنه إلى الطاعة بعد رسول الله ﷺ فأجابوه. وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا**﴾ [التحريم: ٣]. قال فى الحديث: «**إنَّ أَبَاكَ هُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِى**» وقالت امرأة: إذا فقدناك فإلى من نرجع؟ فأشار إلى أبى بكر رضي الله عنه ولأنه أمّ بالمسلمين على بقاء

رسول الله ﷺ، والإمامة عماد الدين. هذا جملة ما يتعلق به القائلون بالنصوص، ثم تألوا لو كان علىّ أول الخلفاء لانسحب عليه ذيل الفتى ولم يأتوا بفتوح ولامناقب. ولايقدح فى كونه رابعًا كما لا يقدح فى نبوة رسول الله ﷺ إذا كان آخرًا. والذين عدلوا عن هذه الطريق زعموا أن هذا تعلق فاسد جاء على زعمكم وأهويتكم، فقد وقع الميزان فى الخلافة والأحكام مثل داود وسليمان وزكريا ويحيى، قالوا لأزواجه: لمن الخلافة؟ فبهذا تعلقوا وهذا باطل، ولو كان ميراثًا لكان العباس، لكن أسفرت الحجة وجهها وأجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته فى يوم عيد غدير خُمٍّ باتفاق الجميع وهو يقول: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِىٌّ مَوْلاهُ**» فقال عمر: بخ بخ يا أبا الحسن لقد أصبحت مولاى ومولى كل مولى، فهذا تسليم ورضى وتحكيم. ثم بعد هذا غلب الهوى لحب الرياسة، وحمل عمود الخلافة وعقود النبوة وخفقان الهوى فى قعقعة الرايات واشتباك ازدحام الخيول وفتح الأمصار، وسقاهم كأس الهوى فعادوا إلى الخلاف الأول، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً. ولما مات رسول الله ﷺ قال قبل وفاته: «**ائتُوا بدَوَاة لأُزيلَ لَكُمْ إشْكَال الأمْر وأَذْكُرَ مَنِ المُسْتَحقُّ لَهَا بَعْدى**» قال عمر ﷺ: دعوا الرجل فإنه ليهجر، وقيل يهدر. فإذًا بطل تعلقكم بتأويل النصوص فعدتم إلى الإجماع: وهذا منصوص أيضًا، فإن العباس وأولاده، وعليًا وزوجته وأولاده لم يحضروا حلقة البيعة، وخالفكم أصحاب السقيفة فى متابعة الخزرجى. ودخل محمد بن أبى بكر على أبيه فى مرض موته فقال: يا بنى ائت بعمك لأوصى له بالخلافة! فقال: يا أبت أكتب على حق أو باطل؟ فقال: على حق، فقال: وَصِّ بها لأولادك إن كان حقًّا، أو لا فقد مكنتها بك لسواك، ثم خرج إلى علىّ. فجرى قوله على منبر رسول الله ﷺ: قومونى لست خيركم. أفقال هزلاً أو جدًّا أو امتحانًا؟ فإن كان هزلاً فالخلفاء منزهون عن الهزل، وإن قاله جدًّا فهذا نقض للخلافة، وإن قاله امتحانًا. . . ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾ [الأعراف: ٤٣]. فإذا ثبت هذا فقد صارت إجماعًا منهم وشورى بينهم. هذا الكلام فى الصدر الأول، أما فى زمن علىّ رضى الله عنه ومن نازعه فقد قطع المشرع ﷺ طول كُمِّ الخلافة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إذَا بُويعَ للْخَليفَتَيْن فَاقْتُلُوا الأُخْرَى منْهُما**» والعجب كل العجب من حق واحد كيف ينقسم ضربين، والخلافة ليست بجسم ينقسم، ولا بعرض يتفرق، ولا بجوهر يحد، فكيف يوهب ويباع. وفى حديث أبى حازم: أول حكومة تجرى فى المعاد بين على ومعاوية فيحكم الله لعلّى بالحق والباقون تحت المشيئة. وقول المشرع ﷺ لعمار بن ياسر: «**تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغيَةُ**» فلا ينبغى للإمام أن يكون باغيًا. والإمامة لا تليق لشخصين كما لا تليق الربوبية لاثنين. إنما الذين بعدهم طائفة تزعم أن يزيد لم يكن راضيًا بقتل الحسين، فسأضرب لك مثلاً فى

ملكين اقتتلا فملك أحدهما أفتراه يقتله العسكر على غير اختيار صاحبها إلا غلطًا؟ ومثل الحسين لا يحتمل حاله الغليظة لما جرى من القتال والعطش وحمل الرأس إجماعًا من جماهير المشيرين. وقالت الأَمَة المغنية حيث مدحت عليًّا فى غنائها، أفتراه قتلها بغضًا لعلى أم لها؟ وقول يزيد بن معاوية لعلى بن الحسين زين العابدين: أنت ابن الذى قتله الله، قال: أنا ابن الذى قتله الناس، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا**﴾ [النساء : ٩٣]. أفتراك يا يزيد تجعل لربك جزاء جهنم وتخلد فيها وتغضبه عليه وتلعنه وتعد له عذابًا أليمًا؟ فإن قلت إن هذه البراهين معطلة لا يحكم بصحتها حاكم الشرع، فنقول فى حججكم مثل ما تقولون. ثم إجماع الجماهير بشتم علىّ ألف شهر على المنابر أمركم الكتاب أم السنة أم الرسول؟ ثم الذين من بعدهم ممن غيرهم أخذوا نصًّا أم سنة أم إجماعًا؟ لكن قد أخذوها بسيف أبى مسلم الخراسانى، فانظروا إلى قطع أعمالكم بسيف المشرع حيث قال لكم: «**الخلافة بعدى ثلاثون ثم يتولى مُلكًا جبروت**» بقوله للعباس ﷺ: «**يا أبا الأربعين ملكًا**» ولم يقل خليفة. والملوك كثير واحد فى زمانه فيا أيها الطالب للملك حصل الإله وحمل الإله وابذل واصبر واحذر واقرب وطول واحتمل وصالح حتى تقدر والله تعالى أعلم.

فصل وهى المقالة الخامسة

إذا أردت ترتيب ملك فى الملك فاشتهر رجال الدول بعد تحصيلك المال، ثم تابع وشايع، وأدلك بعضًا على بعض للجذب فهو كما قال المتقدمون:

إِذَا هَبَّتْ رِياحُكَ فَاغْتَنِمْهَا
فَعُقْبَى كلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ

واجعل قواعد المملكة على الكبار على هيئة ترتيب الجسور والقناطر لتَّجوز عليها، أن تناول أغراضك، فإن وجدت مشاركًا فداوه بأنواع المعالجة وآخر الدواء الكىّ، ثم انظر إلى دستور عدد الجند وعدد القرباء ومعرفة الداخل والخارج والزيادة، واستعرض الجيش فى سنتك ثلاث مرات، واجعل طلائعك أربعمائة نفر من أمنائك. وإذا أردت الغزو فأشع الخبر، فإذا وجدت أو طفقت إلى مضاق ترتب جيشك صفوفًا وراء صفوف، وحمل مع أصحابك ليبذلوا السيف فى الصف المنهزم من أصحابك، وكن مشرفًا عليهم من نشز ولو نصبت أعلامك زورًا من غير حمل، وادخر لنفسك أجود الخيل والرجال، واعلم أن خامرك فى الأول هو يخامرك فى الآخر ويؤفك معك، وبددها وإن شئت فى العسكر، وأبرك كمينًا من أجود رجالك، فإذا وجدت الفئ فى القتال فاستَجرِّ الأعداء إلى قريب الكمين، وليكن بينكم علامة، فإذا عزمت إلى قتال قومك فعجل ولا تطل فى مُكْثٍ مكان خوف الفشل

والمفاسخة كما عمل ذو القرنين في عسكر دارا فأفشلهم وبذلهم وفسخهم وبرطلهم. فتقدم واعلم وكن بذالاً لا متأخراً، وانظر في دساتير الرحيل فكثّر إن شئت وقلّل، وليكن لك عين على معرفة القائلين والغم على من قاتل، واعزل عن الجبان على الهوينا، ثم احتسب على خزائنك وخزانك بمعرفة ما فيها وما ينقص ويزداد. وإن لم يكن لك بد من التزويج فاستبد إلى أموال ورجال ودين وجمال، وإن كان الشرع قد أمر بذات الدين. واعلم أن الملك بغير جواسيس وأخذ أخباره كالجسد الذي لاروح فيه. وحصل آلات الحصون مما يحتاج إليه في الضيق فإنك لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا. ولا تتم لهيئة الرعية واختلاف الجند. وامنع الفقهاء عن الكلام في الفتن، وأمر نوابك أن ينظروا ما عند الخلق من الأطعمة في المحل، ولا تمنع الناس من تحصيل الأطعمة فإنه لك وللناس عند الحاجة. وانظر فيمن امتنع عن الزراعة إن كان لفقر فقَوِّه وإن كان لظلم فانصره، كما قال ملك الهند: أنا أفرح لكثرة دجاج البلد، فإنه فرع الأمارة. واغتم لكثرة الخاطبين خوفًا من ظلم المقاطع، وقد كان ذو القرنين يحوى دساتيره على أعداء الغرباء وتسلم عليه المرأة بقدر من اللبن فإذا رآه سمنًا ضحك لجودة الربيع، وكان يقول أنا أمسك الفلاح إذا أخذ مثله وأميل المقطع فأخذ معناه إنما المقطع بالخير فإن لم يجده انتقل، والملك بفلاحه إذا هو خزّانه وبه يسطو ويجيد وينعم ويطلق وينظر في الخزائن والأمراء. وإذا قدر على تبديل الطعام بغيره فليفعل، فقد كان المأمون يستعرض السلاح والآلات مثل الخيم والمجانيق حتى قال لأمير دوابه: رتب مخاليك كما ترتب معاليك.

فصل وهو المقالة السادسة
في ترتيب الولاة

لا ترتب في الحصون إلا وليًّا شفيقًا رفيقًا بالخلق، ولا تكلفه ثقلاً فتستقضه من بلدك، وأشبعه وجند الحصن، وانظر في مراكز خيره ومائه وحرسه وسوره، وتذلل حراسك في البروج، وطُفْ بنفسك أيها الوالي على أعلى سورك، ولا تخالط جندك بالليل خوف المخامرة، واسأل عن أعدائك ولا تحقر القليل فإن الذبابة تقتل جملاً، وكم من عقرب أمات الأفعى لسعها كما قيل:

ولا تَحْقُرَنْ أبدًا صغيرًا فربما
تموت الأفاعي من سموم العقارب

واحذر من مكر ذي الإحن فقد قيل:

وَإِنَّ الجُرْحَ ينغض بَعْدَ حين
إِذَا كَانَ البِنَاءُ عَلَى فَسَاد

ولايكون الوالى شريب خمر، وهكذا الأمير، فلو حضر فى مجالسهم فليحاكم بالجلاد، ففى الخمر بلايا وآفات وزلازل عقل وحدوث بلايا وإظهار حقود، إذ صاحب الملك مرموق بالحسد، قال النجاشى لجعفر بن أبى طالب ﷺ: كيف سيرة نبيكم فى الأكل مع أصحابه؟ فقال: يأكل على الأرض، فقال: ذلك تواضع لجذب قلوب أصحابه، فقال النجاشى: لو كان ملكًا لأكل وحده على خوانه فى مجمع معروف له، وزبادى مخصوصة. ثم الورق إن كان مقطعًا فمعروف، وإن كان ذهبًا فشهر بشهر. ولا بأس بالسلام عليه وهو موصول بهم والمعاهدة لرسل الملك وإقامة ناموسه عند الغرباء والمنشدين والقصاد. وكان سليمان يقسم أسبوعه بعضه للجند وبعضه للقضايا وبعضه للعبادة وتذكار الحكم والنساء، كما يقول: يا أرباب المملكة عليكم بأهل العلم والصلاح، فإنهم يرشدونكم إذا ضللتم، ويعرفونكم إذا جهلتم، ويستعطفونكم إذا غضبتم، وينفقونكم إذا حرمتم. وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب:

فلا تَصْحَبْ أخا الجهلِ
وإياكَ وإياهُ

فكم من جاهل أرْدَى
حليمًا حين آخاه

يُقاس المرءُ بالمرء
إذا ما المرءُ ماشاهُ

وللشئ على الشىء
مقاييسٌ وأشباهُ

وللقلب على القلب
دليل حين يلقاهُ

وليقل الملكُ المنادمة والمسامرة والقليل من الهزليات والمضحكات، وليكن وزيره قابلاً قائلاً بالعلم والصلاح، مُنَزِّلاً للناس فى طبقاتهم، فلا تنظروا فى حسن البزة مع عموم الجهل، فقد نقل إلينا أن بهلولاً دخل إلى مجلس هارون فجلس فى أدنى المجلس فقال له هارون: ارفع رأسك إلى صدر المجلس! فقال البهلول: مجلسى يفنى فأين صدره؟ ثم أنشد:

كُنْ رجلاً وارضَ بصَفِّ النعالِ
لا يُطْلَبُ الصدرُ بغير الكمالِ

فإنْ تصدَّرتَ بلا آلة
جَعَلْتَ ذاك الصَّدْرَ صَفَّ النعالِ

ومن جملة قبول الملك أن يختار لنفسه طعامًا يخصه، وقد كان المأمون يحب المأمونية، ومهلب العراق يحب المهلبية، وكان بنو أمية يكثرون من أكل الهرايس والزلابيا، ولم يغسلوا اللحم، بل يكشفون الجلد فيأخذون من تحت الجلد ما يختارون فيتداوون الأيدى بزَفَر اللحم. وقد روى أبو طالب المكى أن النبى ﷺ قال: «**شَكَوْتُ إلى أَخى جبْريلَ حينَ ضَعفَ الوْقَاعُ فَأَمَرَنى بأَكْلِ الهَرَايسِ فَوَجَدْتُ لظَهْرِى بها خَيْرًا**». وقد كان ذو القرنين يحب الزرباح لتسكينها للخلط الصفراوى، ووجد بخارًا حارًا تولد عن صفراء، فانزعج له جبينه فمزج بالبطيخ ماءً وعسلاً وخلاً فشربه فقال: سكن جبينى، فسمى بذلك الاسم، وكان يخلط خشن الدقيق وناعمه فيتخذ له منه خبزًا، فقال الحكيم من جوشك:

أراد الخبز الجريش للمعدة الضعيفة أو الحلقة البلغمية أجود وأعود، والخبز السميد يورث الخفق وهذا مشاهد عيانًا من عمل القفاع.

فصل وهو المقالة السابعة
فى ترتيب حاشية الدولة

يستحب للفرَّاش أن يكون رشيقًا، خفيف النفس، ظاهر القوة، طيب الريح، عارفًا بترتيبه الخبز والخضروات، كامل العدة؛ وهكذا تقول فى الطباخ والشاربىِّ، ويكون دار شربة كامل المشَارب من الماء البارد والأشربة والقفاع السك السكنجبينى، وشربه نافع بإذن الله تعالى على الريق، وهو محمص للطعام مفتح للجوف. واعلم أن آداب أهل التصوف فى المآكل والمشارب هى آداب الملوك؛ وترك إبراهيم بن أدهم كِبْرَ الملك. ومسك آداب الطعام والائتدام بالحوامض أوْلى. والركابية والسعادة خفاف السرعة شباب، وهكذا جميع المقاتلين والشيوخ المعنية بالرأى. ويحط العسكر فى نَشَزٍ من الصدر أولى للتحصين واغتنام الأهْوية. والخمول فى الشتاء أجمل، والتهيئة لما يختاره فى الصيف، ورحل السلطان لقلاقل السفر عند نزول الشمس فى السرطان، وسكونه عند نزولها آخر القوس، إذ فصول السنة أربعة: فمن نصف حزيران إلى نصف أيلول صيف، ثم إلى نصف كانون الأول خريف، ثم إلى نصف آذار شتاء، ثم إلى نصف حزيران ربيع، وهكذا أقسام منازل الشمس، والخبر النبوى يؤيده: «**إِذَا انْتصَفَت الشهُورُ تَغَيَّرَت الدهُورُ**». فإن ركب بعد صلاة العصر وإلا قعد لكشف المظالم أو لكتب القَصص وهو يسمعهم فى عزلة، كان السابقون من الملوك إذا قعدوا للسلام يقعدون وراء شباك ويدخل من شاء إليهم خوف الاغتيال فى المزاحمة، ويفتش على غوامض ما يجرى حتى يكون له صاحب خبر فى البلد يرفع الغثَّ والسمين. ويستحب أن يطالع كتب الطب والتواريخ وشاهنامة العجم وقصص التابعين

للعجم والديلم مثل ما جرى للشهرباز درستم زاد وكان النبى يومئذ سليمان عليه السلام فأوقع الوقائع بينهم حتى هلك بعضهم ببعض. وليكن مع الملك جنود لحذر ما يجرى، وحفظه فى الحمّام فكثير هلكوا فيه، وحمّامُ داره أجمل. وعليكم بكتم مرضه وموته حتى يستقر الملك فيمن شاء الله من عباده بعد البيعة والمتابعة وتقرير القواعد. وكن أيها الملك مسارعًا فى الثناء والثواب فإنه الذكر المخلد، وأكثر ما تنظر فى كتب ابن أبى الدنيا، وتواريخ الطبرى، مذهب الشافعى، أو ما تختار من المذاهب. ولا تظهر البدعة ولو كانت فيك، كالأكاسرة وسوبويه هلكوا بمتابعة الأهواء. وللنعم أجنحة الأجر فقوّها بالشكر. واجعل بينك وبين الله طريقًا إلى الصلاح، فقد حكى أن ملكًا قمع مَلَك الموت عنانه فقبضه على ما يريد، وأن ملكًا صالحًا أتاه مَلَكُ الموت فأسرَّ إليه فى أذنه فقال: مرحبًا بك فأنت أطيب القادمين وأحب النازلين وأحب المنتظرين فافعل ما أمرت به! فقال ملك الموت: لا أقبضك إلا على ما تختار، فتوضأ وسجد فقبضه فى سجوده والله تعالى أعلم.

ومن لطائف الحكايات الملكية أن محمود بن بويه لما ملك أرض العراق أعطى ألف دينار لفرّاش له، وقال اذهب إلى مدينة أصفهان إلى شارع السلطان ففى صدر الدرب بيت فيه شيخ وعجوز، ادخل إليهما فسلم عليهما وقل لهما ابنكما يقول لكما كيف أنتما من وحشة فراقه! فلما وصل إليهما فأخبرهما قال: خذ ما جئت به لك، قال الغلام: أنتما فقيران وبكما حاجة إليه، فقال الشيخ: غنى النفس باق، ثم تنفس وتمثل بهذه الأبيات:

عليَّ ثيابٌ لو يقاسُ جميعُها
بفلسٍ لكان الفلسُ منهن أكثرا

وفيهن نفسٌ لو تقاسُ ببعضها
نفوسُ الورَى كانت أجلَّ وأكبرا

وما ضرَّ نصلَ السيف إخلاقُ عهده
إذا كان عضبًا حيث وجَّهتَهُ فرَى

ويستحب أن يكون مغنِّى الملك مغنيًا ندى الصوت شجيًّا، لا خارجًا ولحانًا، عالمًا بالأصوات ثقيلها وخفيفها وهزجها ورملها وصوفيها، وأصواتها الثقال مثل قول أبى الشيص:

أجِدُ الملامةَ فى هواك لذيذةً
حُبًّا لذِكْرك فلْيلُمْنى اللوم

ومثل قول أبى نواس فى الوزن:

شِرْكُ النفُوسِ وعصمةٌ ما مثْلها
للمُطْمَئِنِّ وعَقْلَةَ المُسْتَوْفِز

إنْ طَالَ لَمْ يَهْلَكْ وإنْ هِيَ أَوْجَزَتْ
وَدَّ المحدثُ أنَّها لَمْ تُوجِز

وفى المستهل والعمل شعر عاشق بنى عامر مجنون ليلى:

خَلِيلَىَّ قُوما فى عطالة فَانْظُرا
أَنَ......ارٌ......
فَإنْ تَكُ نَارًا فَهِيَ فى جنب مُلْتَقَى
منَ الرِّيح يَذْرُوها وَيَصْفقها صَفْقا
لأمّ عدىٍّ أَوْقَدتْها طَمَّاعة
لأوبة سَفَر أَنْ يكون لَهَا وفْقا
وَحَطَّ بها رَحْلِى قليلاً فَإنَّها
لأولُ أطلال عَرَفْتُ به العِشْقا

وليكن المغنى عالمًا بطريق الأغانى، مطلعًا على كتاب الموسيقى الموضوع للرئيس أبى على بن سينا، وقد شرحناه فى: «كتاب السبيل لأبناء السبيل» وسأذكر لك نكتة منه فأقول كما قيل: إن لدوران الفلك أصواتًا لو سمعها عاقل أو لبيب لما ثبت، ومنها أخذ موسى ترجيع النغمات من المربع والمسدس والمثمن، والنصارى عملوا ببعضه، فالألحان للروم، والتجنيس للعراق، والزقالق لـلعجم، والطبول للزنج أو الحبشة، والبوق لليهود، وهو سبعون دستًا مثل دستان الرحيل يقول فى وزنه: اركب فأنت المظفر. اركب فالله أكبر. ودستان الحرب والنزول وغيره. وقال سقراط: اشتباك نغمات الأصوات من هياكل العبادات تحل وتعقد فى الأفلاك الدائرة، مثل همة إصابة العين والسحر والاستسقاء وسنذكرها فى مواضعها. وكن مع الملك كما قال بعض الحكماء:

إذَا خَدَمتَ الملكَ فَالبسْ
من التَّوقِّى أشدَّ مَلْبَس
وَادْخُلْ إذَا مَا دَخَلْتَ أعمى
وَاخْرُجْ إذا مَا خَرَجْتَ أَخْرَس

فصل وهو المقالة الثامنة

يعقد الوزير فى دسته وحاجبه على رأسه، ولا يلاصقه أحد فى المنعة، وكتابه لديه والمجلس ملآن هيبة ووقارًا. والحوائج إلى الحاجب، والرفع إلى الكتاب، والاطلاع إلى الوزير، ورفع الأمر إلى الملك، فأول مايبدأ بمصالح الحاشية بعد الملك والوزير حتى إلى

التقليد، وقيل لايحضر الملك الجمعة إلا فى مكان معزول فى مقصورة له خاصة، وأصحابه فى دائرة المقصورة من خارج، والباب مغلق، وعنده من يكون إليه، ويخرج هو وأصحابه فى آخر الناس فى باب له. وليكن له يومان فى الأسبوع للختم والزيارة، ثم يقرأ له بعد الصبح فلا يعجلون حتى يفرغ الآخر، ثم يقرأ التوبة فإذا فرغوا وعظ وأنشد المنشد، ثم يقرءون: قل هو الله أحد، والمعوذتين، والفاتحة، والم إلى المفلحون. ثم يختم الإمام بتصديقه حقيقة ويدعو للملك والمسلمين. وليكن للملك فى الأسبوع خلوة عبادة وتذكار، والنظر فى الحساب والأموال، والنظر فى دساتير البلاد. والله أعلم.

فصل وهو المقالة التاسعة
فى ترتيب الخباز والطباخ والقصاب

لايكن القصاب عدوًا فى الدين فإنه لايتحرى من النجاسة، وهكذا الخباز والطباخ، ويتفقد المعاجن وآلات الطبخ والدقيق واللحم. وليكن الطباخ عالمًا بصناعته وعنده كتب الطبائخ لكشاجم، والأشربة والأدهان والحلاوات والريح الطيب والألوان الغريبة، وأحسن المآكل وأطيبها وأنفعها وأقواها للعافية،وهو لحم مرضوض مقلوّ مرشوش بالمياه الحامضة يحشى به العجين فيقلى. وأطيب الحلاوات ما كثر خبزه. وأنفع الهرايس لمن به حرارة المزاج، وهو اللون النونى من البزرة يقلى، وقد هجرت الألوان الظريفة باستيلاء الترك واتخاذهم السنبرشح والعرائس والسالة والطظماج والسسترك والبورك المعمول باللحم والحوائج الحادة المعمولة فى العجين.

فإذا كنت ذا فنون فى طلب الطبائخ فاتجه لكتبها، وقد ذكرنا طرفًا منها فى آخر كتاب السبيل، وإذا أردت العقلية فعليك بكتاب المقاصد وكتاب النجاة للرئيس، وإن شئت فيه الغاية القصوى فاطلع على الكتب الأصولية الدينية خاصة كتب شيخنا إمام الحرمين مثل «المحيط» «والإرشاد»، ومن كتبنا النافعة فى ذلك «كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد»، «وكتاب قواعد العقائد»، من أول «كتاب الإحياء» «والرسالة القدسية». وإذا أردت الطب فكثير، وأنفعها ما عمل به من الكتب. واطلع على جميع العلوم الشرعية لتعلم الحق من الغىّ والهوى والله تعالى أعلم.

ثم نرجع إلى تحرير مقامات العمال:

لا تستخدم فى العمالة إلا عارفًا بفنون الحساب والجبر والمقابلة والمساحة، بحيث لو قيل له: ما تقول فى أرض ذات زوايا لايقدر حفظها بحائط ولا قصب؟ قال: تذرع بالذراع والشبر. ويمتحن فى علم الحساب كما يمتحن الكتاب، والرسالة والأجوبة وكتب الدساتير،

فإن ولعت برسالة ابن عباد والصابى فلا بأس بأخذ الزبد. وليكن صاحب الإنشاء كثير الفضل والتوقف فى الديوان فى الزمان القصير وفى الزمان الطويل إلى النزول من الركوب، ثم يحاسبهم على ما إليهم، ويستوعب من كل القرباء، ويسأل عن المظالم، ولا يكن ملومًا ولا ضجورًا، ولاصخابًا ولا طياشًا ولا لقابًا، وقالوا يجوز له لعب الشطرنج ولايلعب بالزهر، لأنه يخرق الحرمة بالقمار، فقد ذكر أن أزدشير لما أخرج النرد قيل له: ما يستحق إلا قطع اليد، قال: سأقطعها بتركه. كما قيل للحجاج بن يوسف وقد شكى إليه من أكل التراب: ألق عليه من همتك وعزيمتك! فلم يأكله بعدها أبدًا.

واعلم أيها الملك أن علو الهمة مع الصبر حتى فى الصفوف واختلافه فى الثمن كل ذلك بالهمة والخدمة، ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه:

بقدر الكدِّ تكتسب المعالى
ومن طلب العلا سهر الليالى
تَرُومُ العِزَّ ثم تنام ليلاً
يخوضُ البحرَ من طلب اللآلى
لَنَقْلُ الصخر من قُلَل الجبال
أَحَبُّ إِلَيَّ من منن الرجالِ
وقالوا للفتى فى الكسب عارٌ
فقلت العارُ فى ذلِّ السؤالِ
إذا عاش الفتى ستين عامًا
فنصف العمر تمحقه الليالى
وربيع العمر يمضى ليس يُدْرَى
أَيُقْضَى فى يمين أو شمال
وربع العمر أمراض وشيب
وشغلٌ بالتفكر والعيال
فحب المرء طولَ العمر قبح
وقسمته على هذا المثال

فصل وهو المقالة العاشرة

اعلم أيها المَلِكُ إذا أردت معاندة الملك فاعتبر جيشك وخلصه من المواطأة والنفاق، ثم زن مالكَ فإن قدرت على مشاركته فلا تبدده بالغى، وقلل ذلك وافتح له أبوابًا موجبة،

وإن خفته ولا طاقة لك به فمل إلى مصالحته فالزمان يدور كالكواكب، وحبِّب من قدرت من أصحابه ولو برشوة، وفاسخهم وألق بينهم، وكاتب بعضهم على بعض، وإن خفت أحدًا من دولتك فداهن وسلم وتواضع، فربما تجد الأمل، وإذا كشر الزمان فاصبر لعضه فلابد أن يبتسم لك. وإن عزمت على حصار مكان فأوقع الخلاف فى الحصن، كتب سليمان إلى رُسْتم: «أما بعد فإنى لأخشى عليك من مخامرة الذين معك، فربما يسلمونك لأعدائك» ثم كتب إلى كبار أصحاب رستم: «خافوا على أنفسكم، وهذه خطة إلىّ فى اغتيالكم، وقد زعم أنكم نافقتموه، فإن سلم حصنه إلى شهرباز فلا تكون الدائرة إلا عليكم». فلما قام القتال بينها فروا جميعًا إلى شهرباز، وكمن سليمان عليها بعد الكسر، وسلم بأصحابه فقتل رستم وقبض على شهرباز، ومر السيف على الفئتين فأصابهم مثل نوبة بنى إسرائيل مع بختنصر: أوقع الخلاف فى الحصن، فتحمل النساء على فجأة المبارزة، ثم تسجن على ذلك أو أقطعه للذين لا خير لهم. ولا تنهبهم فتنصف بنفسك من نفسك، فتكون كالذى طابت له حلاوة العسل فعمد إلى خراب كوارة النحل، فتكون أشقى الثلاثة: يروح المظلوم بالثواب، والظالم بالانتهاب، وتظفر أنت بمرارة الحساب، ومتى يعم الخراب يا غراب. ثم تكتب إلى أهل الحصن ولو فى نشابة: من أراد خيره فلينزل إلينا! فى قدر فلك الحصار فيكون فى حزيران. واحفظ البلد بالمقطعين من السياسة واللائذين بالدواب، وليكن لك فى كل قرية علامة، وعاقب المخالف بأنواع ما تريد ما لم تجاوز النصفة، ومد المشترى، ثم انصب الأخواص، وشرع الثياب وصوانى فيها ذهب، وفرق القتال فى حنيات الحصن، وامنع خروجهم ودخولهم خوف الاغتيال، وقد كان ﷺ عام خيبر مكنهم من الخروج، أطعمهم، وخرج الأكثر منهم ثم منعهم من الدخول. فإن اتفق له جهة أخرى ترك على الحصن مقطعين مع طائفة من خواصه؛ فإن اتفق قتال نقب ورزق ومنجنيق، فافعل ورهب وغزغز رمحك وتقعقع، وليكن باطنك على أهل السواد سليمًا، والله تعالى أعلم.

فصل وهو المقالة الحادية عشرة

افتقد آلات سفرك قبل خروجك، وناد فى سفرك لعسكرك بالإعلام قبل الخروج بمدة، واترك بعدك من يتفقد الناس، وليكن عندك صناع فيما تحتاج إليه، وليكن لسوق عسكرك أمناء تحفظه بالتغليظ فى السياسة، وليكن وزيرك عالمًا بكتب أرباب السياسات مثل المماليك والمسالك وسياسات المعرى التى أودعها الرئيس فى آخر كتابه المسمى بالأدوية القلبية، وكتاب قوانين الملك لابن مرة. ويقتنى مثل كتب البيزرة لكشاجم، وكتب البيطرة لابن قتيبة، والمنهل الروى، فهذا يحتوى على أصناف البزاة وأدويتها ودائها. وأصناف

الخيول ستون صنفًا، وكان الإسكندر ينظر الدابة فيعرف مرضها، وهذا هو الطب الأصعب، إذ لا يمكن فيه من المساءلة. وكان يقف في شباك له أو خيمة مشرفة على الدواب وعلفها فقيل له: أتباشر هذا الأمر بنفسك؟ فقال: نعم، لأنها لنفسي. وأمغص له فرس فسقاه ماء الأشنان مبردًا فهدأ. ومن جملة الخواص تمشيتها على قبور أهل الذمة، فقد سئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «**تُسْمَعُ مِنْ قُبُورِ أَهْلِ الذِّمَّةِ صَعَقَاتُ الانْتِقَامِ وَصُرَاخٌ مِنْ تَحْتِ فَتَفْزَعُ وَتَشْفَى**» وهذه الخواص كثيرة من الحيوان والنبات والجماد، فقد ذكرنا أشياء منها في فصول هذا الكتاب، وقد روى أبو هريرة ﷺ قال: «لما فتح عمر بن الخطاب ﷺ مدينة القدس وأمر فيها عبد الله بن مسعود، فأتيته مهاجرًا إليها، فدخلت عليه فلم أر له حاجبًا ولا بوابًا، فسألته عن ذلك، فقال: سيظهرها عثمان ثم تسمعون بمنزلها، ثم رأيته ينقى شعير فرسه بيده فقلت له في ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من افتقد قضيم دابته بيده ونقاه بيده كان له بكل حبة عشر حسنات، أفتراني أعطى هذا الثواب لغيري! افتقد نفسك وما ينجيك هو خير لك من كبرك الذي يطغيك». ومثل هذا نقل عن أبي حازم قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فأخذ المصباح ينطفئ فقلت: أما أنبه غلامك؟ فقال لا، فقلت: أقوم أنا؟ فقال لا، ثم قام عمر وأصلحه ثم قعد وهو يقول: قمت وأنا عمر وقعدت وأنا عمر، قبحًا لوجوه المتكبرين! ثم أنشد:

إِذَا عَظُمَ الإِنسَانُ زَادَ تَوَاضُعًا ... وَإِنْ لؤمَ الإِنسَانُ زَادَ تَرَفُّعَا

كذا الغصن إن تقوى الثمار تناله ... وإن يَعْرَ عن حمل الثمار تَمَنَّعَا

فصل وهو المقالة الثانية عشرة
في ذكر صفات منامك

أيها الملك، إذا كنت في سفر فبرجًا أو حرسًا حادًا أو مشاعل، وكن متيقظًا لنفسك، واشبع بالنهار واسهر بالليل بالمنادمة والقصص والسير وتدبير الأشغال. وإن كنت في الحصن فشد حراسة الباب والسور، وليكن البواب من جملة البراني، ونم وحدك في مقصورة لطيفة، وأهلك خارجها والمفتاح عندك، فإذا استدعت نفسك بعض جواريك فلا تستدع الباردة الثقيلة، فمعاشرة الوحش الخفيف خير من حسن الثقيل، قيل لجعفر الصادق رحمه الله تعالى: لم تختار السود على البيض؟ فقال: مصيف ومشتى، وأخونة شتى. قال عبد الملك بن مروان: أطيب الجماع أفحشه. وقد شكا بعض الملوك من قلة الإنعاظ، وكان

يخاف الأدوية الحارة، فاتخذوا له كتاب الباه بطريق الحكايات فعلت فلانة وفعل بفلانة كما قال ابن الحجاج:

مَا كَرِهْنَ النِّسَاءَ للشَّيبِ إلاَّ
أَنَّهُ مُؤْذِنٌ بِنَوْمِ الذُّكُور

وانظر البيْت الذي في القصيدة اليتيمة:

ولها هَنٌ رَابَ مَجَسَّته
ضَيِّق المَسَالِك حره وَقْدُ
وَإِذَا طَعَنْتَ طَعَنْتَ في لَبَد
وإذا جَذَبْتَ يَكَادُ يَنْشَدُّ

واختلف جاريتان عند المأمون سوداء وبيضاء، فقال البيضاء: الثلج يصلح للدواء، وبياض الشمس عجب، وخير الثياب البيض، والبيض أحسن من الفحم. فقالت السوداء:

عَنْبَر أَشْهَب وعود قماري
يتعاطى عِنْدَ العنَاق لذيذا

وفحم الشتاء خير من حمأه الصيف الباردة، وعيب الشيب شديد، والبياض في العين عمى، وليلة القدر خير من ألف شهر:

وَسَوادُ الشَّبابِ يَطْلُبُهُ
الغَانيات حَقًّا عَجُولا

وسواد ثياب بني العباس أهيب، وعندنا مجامر الشتاء بساتين المصيف. ثم أنشدت:

أحب لحبها السودان حتى
أحب لأجلها سُودَ الكلاب

وهو لكثرة عزة.

وحكى لي من أثق به أن المنصور أغرى بقتل العلويين حتى نفر أكثرهم إلى اليمن، فلما وصلت النوبة إلى المأمون وكان يتولى محبة أهل البيت، فسأل عمن بقي من الأشراف الفاطميين، فأخبروه عن قوم منهم بأرض اليمن، فنفذ إليهم ليستعطفهم، فأجمعوا رأيهم على أن كل واحد منهم يبعث شخصًا يشبه به وكيله أو غلامه، فإن كان خيرًا فما يضره، وإن كانت الأخرى فلهم الأسوة بالسادات، فما وصلوا إلى المأمون أكرمهم وأعطاهم وتزوجوا وتوطنوا. فإذا وجدت شريفًا مفتخرًا غير ذاك ولأزكى فهو منهم، إذ هذا البيت المعظم لا انبساط للفحشاء على منازلهم، وهو معنى قوله: « نحن أهل البيت لا نفجر ولا يفجر بنا» والله أعلم.

فصل وهو المقالة الثالثة عشرة
في حيل اليمين

اعقد على نفسك عقد الدور لابن سريج، وقد كنت لا أقول به، ثم رأيت الخمر المغلى بالثوم له منفعة لأرباب القولنج البارد، وجماعة من أصحابنا يقولون به، وكل مسألة خلاف إذا حكم الحاكم بصحتها زال خلافها. ويشترط في نسخة اليمين معاني تؤول منهم إلى الفسخ بالتأويل، واليمين على نية المستحلف. واحترز في عقد الوكيل وأعم الألفاظ: كلما وقع عليك طلاقي وطلاق وكيلي فأنت طالق ثلاثًا. لا تمنع أيها الملك قول الحكماء والفتوى بها، وإذا اخترتها فليكن باطنًا، وخطوط الشهود والحكام عندك، وإن ادعى نفيه فسلم إليه ولا تسلم إلى العامي عنانه، فهو جهول باليمين والعنان. واحذر اليمين بكل ما يتعلق بالله وبكلماته وصفاته، واختلف العلماء فيما له حرمة غير هذا، وأما اليمين الغموس فإنها تذر الديار بلاقع، وذلك أن يحلف على ما يعلم كذبه. واقعد أيها الملك قعود المتأدبين، وكن قليل الكلام، إذ لا يصلح الكلام الكثير للملك ولا للزاهد، وقد يحصل إظهار الفوائد للعلماء بالكلام. ولا تخطئ المفتين، ولكن قابل بعضهم ببعض، وقد سمعت ما قال عليه الصلاة والسلام: «**استفت نفسك وإن أفتوك، فالحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات، فذر ما يريبك إلى ما لا يريبك**» وقال عليه الصلاة والسلام: «**من جعل الحلال له قوتًا أجيبت دعوته، وعلمت مروءته، وحسنت سريرته، وعلت كلمته، وحصلت أمنيته، وطابت هيئته، وطهرت ذريته، وتنورت نطفته، وذرفت دمعته، وظهرت حكمته، وقل غضبه، ورق قلبه، وخف ذنبه. يا علي رد درهم مظلمة أفضل عند الله من أربعة آلاف حجة مقبولة، يا علي من غضب غضب الله عليه، ومن ظلم ظلم، ومن أكثر من الصدقة نصر في ذريته**». في الحرام هو أن معاد النفوس واحد، ومرجعها إليه بعد القبض، فإذا ظلم بعضها سرى الظلم في كلها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢]. فإذا أوصلت إلى النفوس برًا وصدقة وخيرًا وعدلاً وإشفاقًا، سرى ذلك إلى جميع النفوس بعد القبض فصار خيرًا، فإذا وصل بهم كان ذلك خيرًا للجميع، ألا ترى قول الرجل لامرأته: بعضك طالق، كيف يسرى الطلاق في الكل؟ إذ الطلاق لا يتبعض.

وليكن لك أيها الملك إمام يؤم بك، وليكن عالمًا دينًا يعرف بذلك، وليكن شيخًا أو أعمى. وعلم مماليكك خطًا ورموزًا، فإن اتفق أن يكون المعلم خادمًا أو شيخًا فأولى. وللنساء امرأة دينة. واعلم أيها الملك أن أهل الزمان فاسدون لتشاغل الرجال بالرجال

والنساء بالنساء، وهو أعظم المقت والسخط، ومنه حصلت الإباحة لبعض الطوائف حتى بسطوا فيه وأقاموا لهم فيه شبهًا نقلية وعقلية: أما النقلية فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. قالوا: هكذا كان الناس على المنهج القديم ليس تحليل ولا تحريم، ولكن الأنبياء حللوا أشياء وحرموا أشياء. وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]. وقد تعلقوا بإباحة أبى بكر ﷺ أموال بنى حنيفة، وزعموا أن الخطاب من الرسل إما أن يكون لموجود أو لمعدوم، فالمعدوم لا يخاطب، والموجود المخاطب فى زمانهم فقد درج معهم. فمن هذه الشبهة تمسك أرباب الإباحة مثل النصيرية وغيرهم، وسنذكر تعلقاتكم فى أماكنها. وقد عرفتك أيها الطالب طريقك النفيسة مثل لبس النظيف والطيب وقلة الكلام بطريق الاختصار.

وأدب أصحابك أن لا يشكو منهم قريب ولا بعيد مثل قول الحكماء: ثلاثةٌ إن لم تظلمهم ظلموك: ولدك وزوجتك والمملوك. وإياك وقرب الملوك، فإن قربوك فتنوك، وإن بعدوك أحزنوك.

وهذه وصايا الملوك، فإن هممت بتحصيله فربما أعانتك السعادة، وإن أراد الله أمرًا هيأ أسبابه وحرك القضاء بتحريكه، وقد كان الله قادرًا على تحصيل الرطب لمريم من غير هز كما قال النظم البديع:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ قَالَ لِمَرْيَمَ
وَهزِّى إِلَيْكِ الجِذْعَ يَسَّاقطِ الرُّطَبُ
وَلَوْ شَاءَ أَحْنَى الجِذْعَ من غَيرِ هزِّها
وَلكنَّمَا الأَشْيَاءَ تَجرِى لها سَبَبُ

فإن وقع لك صناعة الحجرين الأحمر والأبيض فحصله، ولكن ذاك عنك بعيد، وبالهمة يفتح عليك بعض هذه الطريق، أما سمعت فى رموز أمير المؤمنين ﷺ أن فى الزئبق الرجراج مع الشب المصعد لمالاً هنيًّا؟ فذوو الهمم القصيرة يقصرونك عن نيل مقاصدك، وإلا فمن طلب وجد ومن جدّ وجد، ولهذه مثل، وهو أن بعض المتصوفة سمع هذا الحديث فقال: سأجرب نفسى فى طلب المملكة، وكان فيه آلة من علم وأدب، وكان محلاً قابلاً للملك، فتقرب إلى الفراشين فخدم معهم ففشا أمره فى السيرة الحميدة، ثم مات مهتارهم فصار مكانه، ثم عبث فى الديوان حتى انتقل إلى مكان زمامهم، فلما انتشر شكره وذاع خبره وذكره قُبض الوزير ورُتب مكانه، فساس الرعية وأظهر العدل واستراح الناس من ثقل ما كانوا فيه، حتى مات الملك فتصور مكانه وتزوج ابنته، فاجتهد فى التدريج والتطويل وحصل. وقد شاهدت محمد بن صباح إذ تزهد تحت حصن أَلَمُوْت وكان أهل الحصون

يشتهون أن يطلع إليهم فلم يفعل، وهو يحصل المريدين ويعلم طريق الإرادة والتلمذة وشيئًا من الجدل، ثم جعل يهذر بكلام على قدر عقولهم من جملته: ما تقول فى قائل لا إله الله هل هو محق أو غير محق؟ فإن قلت محق فليـزمونك باليهود والنصارى، وإن قلت غير محق، قالوا فلم تتعلق بها؟ ثم جذب الناس وجعل يقول للمريدين: أما ترون الناس قد تركوا الشريعة! فلما كبر الأمر خرج إليهم بطريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فصبا إليه خلق كثير، وخرج صاحب القلعة إلى الصيد والتلامذة أكثرهم أهل القلعة، فـفتحوا الحصن، ودخله وقتل الملك فى الصيد، وفشا أمره ومذهبه حتى صنفت فى الرد عليهم كتابًا وسميته قواصم الباطنية ومنتظرهم فلا بد فى آخر الزمان أن يهجروا الشرائع ويبيحوا المحرمات فانظر هذه الطريق التى شرعنا لك أيها الملك وجعلناها إشارة وسلمًا تنال بها مقاصدك.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ أمر الحطيئة أن يجمع حديث عبس وذبيان، ولا بأس بجمع هذه الكتاب، حتى تنور نيران النخوة، فتمد باع همتك إلى أسنى طلبتك وأقصاها وأعلاها. وقصص الأنبياء تكفيك إن غفلت، وقد علمت صبر الأنبياء على نيل المقاصد مع الأعداء حتى فازوا بالنيل. وقد سمعت حديث داود بن شعيا ولد سليمان عليهما الصلاة والسلام، وكان صبيًا، فلما حاول وعضدته يد السعادة فقتل جالوت حتى تزوج ابنة طالوت، وكان طالوت دباغًا. وهكذا سير الملوك، فانظر فى كتاب: «الأسباب والمعارف» لابن قتيبة ودع النظر فى الصغر، وانظر الشاعر كيف يقول:

لا تَأمَنن إذا ما كنتَ ذا أدب ... مَعَ الخُمولِ بِأنْ تَرْقَى إلى الفَلَكِ

بَيْنَا تَرَى الذَّهب الإبريزَ مُطَّرَحًا ... فى الأرضِ إذ صارَ إكليلاً على الملك

وبطعم الحديد وذوقه يتأدب الكرم عند كسحه، وإذا ترك عجمه سنة هلك، ألا ترى إلى الحيوان البهم كيف بالضرب والأدب يتعلم الرقص والتطاير؟ ولما مات هارون استخلف الأمين وفر المأمون إلى مدينة أصفهان ومعه الحسن بن سهل، وكان المأمون ذا فنون وعلوم وآداب، فقعد المأمون فى المسجد الجامع وقد فرشه باللبد زهدًا والناس يهرعون إليه لتعلم العلوم، وابن سهل يومىء إلى الطوائف ويقول لهم: أليس هذا هو الخليفة حقًا؟ فبايعوه! ويقول لهم: سنة هذا سنة الأولين الطاهرين، فلم يزل يستدرج الناس حتى حوى عسكره ثمانين ألفًا. وكانت الأعاجم تسمع بطريق الأمين الفاسد ففروا وطلبوا المأمون، حتى عقد

الجيوش لطاهر بن الحسين فدخل على الأمين فقتله، واستولى المأمون. فكم من هذه السير المنقولة! وإنما نسمعك بعضها تقوية وإعانة لهمتك.

والولع بكتب الأولين مثل كليلة ودمنة والمغازى وحديث عبد الوهاب، ولا يلزمك من سقمها وصحتها شيء قال الشافعي ﷺ: مسقط الرأس مسقط الإنسان. فكن وفيّ العهد والكلام، وليكن لك محتسب يحتسب عليك وعلى من في دارك من المسلمين، ثم ينظر في مشارع البلد ومصالحه والأسعار، وإن كان قد نهى عن التسعير لكنه ليس به بأس، فقد فسدت الناس وقلت الأمانات كما ذكر في كتب الملاحم لرسول الله ﷺ. وخطبة الإمام فيما يتجدد. ويكون للسعادة مباد وتناه، فقد نقل أن الله تعالى لما بعث نبيه موسى عليه الصلاة والسلام قيل لفرعون: تلميذك موسى يخاطب علة العلل، فأمر بإحضاره وقال: يا بنى تزعم أنك تخاطب علة العلل؟ قال: نعم، قال: بم نلت هذا؟ قال: بسهم السعادة، فقال: من أى جهاتك تسمع كلامه؟ فقال: من جهاتى الست، فقال: إن لكل نبى معجزة فما معجزتك؟ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين، فقال بعض الحسدة الحاضرين: إن عصيّ سرنديب إذا نقلت إلى هذه البلاد تكون حيات، فقال له موسى: خذها إليك، فإن كان كما تقول فستكون وإلا فتبطل، فبهت الرجل وبطل، فقال فرعون: اتبعوه فقد جاء بخرق العادات.

والسعادة الكلية هى من الفيض الأول، ثم يفيض من طريق التحرى إلى كل محل بما يقبله. والفيض الأول من العلة الأولى يتناشى بطريق الفيض الوهمى الذى عجزت العقول عن تحصيل كنهه. والذى صدر عن علة العلل من الفيض الأول هو العقل الفعال الصادر بالكلية عنه، والنفس الكلية هى التى تفيض النفوس عنها، والذى يتجلى للخلق من العقل هو بقدر نزول الشعاع للشمس فى النوافذ والنور. ومثل تجلى العقل للأنبياء كمثل الشمس المنخرقة فى الأرض الفلاة، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «**خلق الله الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم شيئًا من نوره، فمن أصابه شيء من ذلك النور اهتدى، ومن لم يصبه فظلمات بعضها فوق بعض**» وهو معنى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [الشرح: ١]. وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**﴾ [الزمر: ٢٢]. وهو الذى تجلى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكان فى بدئه ضعيف شاهد من نوره الكوكب، فلما تجلى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتقوى جناح همته بطريق المجاهدة، وانخرقت له الأنوار القدسية من رؤية حالة باطنه وسره، شاهد الشمس والقمر، فلما صفت العلة وخلصت الخلة شاهد بمقياس الحظ أصل العلة الأولى التى فيها مبدأ فيض السعادة، فقال عند وجود سهم السعادة والحظ ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ**

وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. فلما وجد انخراق النور الإلهى لم يلتفت إلى مال ولا ولد، فنهب يد الانتقاد ماله وولده، فجعل ذلك غرامة بطريق التصوف لوجود حاله فقال فى رفض ترك نقصه عند وجود حقه ورؤيته الكمال: ها هو ذا جسدى للنيران وولدى للقربان، ومالى للفيضان.

فكن أيها الملك على هذه الطريقة والوتيرة حتى ينكشف لك ستر الباطن عن منهج الحق، فتقعد على كرسى طب أحوال العالمين، فتجس بمقياس الفراسة طريق معرفة الظالم من المظلوم. واعلم أن الغنى والأموال هى مدخرة لتحصيل المملكة الدنيوية والأخروية، فإذا صح لك هذا الطريق غلبت بسهم السعادة من عصاك، ومنه يحصل لك تسخير الهمم العلوية. ولا يراد الخلق إلا للثواب والثناء وإلا فما هى إلا أرواح سائرة عن أجساد خالية. وقد ورد فى لطائف الحكايات أن الملائكة قال بعضهم لبعض: اتخذ ربنا من نطفة رديئة خليلاً وقد أعطاه ملكًا عظيمًا، فأوحى الله تعالى للملائكة اعهدوا إلى أزهدكم ورئيسكم! فوقع الاتفاق على جبريل وميكائيل فنزلا إلى إبراهيم فى يوم جمع غنمه عند رابية للحلب، وكان لإبراهيم أربعة آلاف راع، وأربعة آلاف كلب، فى عنق كل كلب طوق من ذهب أحمر، وأربعون ألف غنمة حلابة، وما شاء الله من الخيل والجمال، فوقف الملكان فى طريق الجمع فقال أحدهما بلذاذة صوت: سبوح قدوس، فجاوبه الآخر: رب الملائكة والروح، فقال: أعيداها ولكما نصف مالى! ثم قال: أعيداها ولكما مالى وولدى وجسدى! فنادت ملائكة السموات: هذا هو الكرم، فسمعوا مناديًا من العرش يقول: الخليل موافق خليله. فكن أيها الملك غير مبال بوجود المال وعدمه إذا سلمت لك نفس رياستك وقلة مملكتك. وسنذكر حكايات الكرم فى مواضعها من كتاب: «السلسبيل» وكتب «إحياء علوم الدين». فإذا أردت اقتفاء آثار السابقين فقد ذكر فى كتاب فتوح سيف الدين الكوفى أن أهل الشام لما أثقلهم الحصار وقالوا لا نسلم إلا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما علم عمر ذلك حصل فرسًا وحمارًا، فقال له كبار أهل المدينة: المملكة بناموسها، فأجابهم بأن المملكة معطيها صاحب السماء، فصفوا خواطركم وعلم هممكم لتبصروا السعادة بمقاييس الأنوار من وراء الأفلاك. ثم سار إلى الشام فاتفق له أن وقع به الحمار فى غدير ماء متغير وحمأة، فابتلت مرقعته، وكانت نوبته، فعرضوا عليه ركوب الفرس فأبى، وقالوا: قد أقبلت العساكر والرهابين لتسلم عليك، فغير ما عليك! فلم يلتفت حتى أقبل عليه جملة الشاميين بنواقيسهم وقبعاتهم، فلما رأوه فى تلك الحالة قالوا بأجمعهم: أنت عمر ولك نسلم ولك نطيع ونذين، كما قال المسيح: «إذا وصلكم صاحب المرقعة المبلولة بالماء والتراب فسلموا إليه». فهذا خبر سر معارف رسول الله ﷺ، كيف صفا ووفى،

فعرفه سر ما كان وما يكون. ومن تلك الأنوار اعتصر الناس ملاحم رسول الله ﷺ، وقمر النبوة الذى هو أخوه وشريكه فى نوره اعتصر كتيبًا مثل الجفر والجامعة وكتاب خطبة البيان وهى حاوية على أكثر ما يكون فى الزمان.

وإن طلب أحد الهدنة فهادنه إن كان مسلمًا، وإن كان كافرًا وقدرت عليه فلا تهاون كيلا تفوت الفرصة، ولتكن الهدنة إلى أمد معلوم وأقلها أربعة أشهر فإن صفت همتك وكانت روحانية لها مجانسة فى الملكوت الأعلى، وعلو همتك ظاهرة، فخذ طريقًا صالحًا من تثليث وتسديس من نجم ناظر إليك لا إلى سواك ويخر له، فإن تونست به صار لك وزيرًا، والأصل فى البخور هو علو الهمة، وتزكية النفس، وتقليل المأكل، والانقطاع فى الخلوة، ودوام الذكر، ينخرق لك من رؤية الغيب من علم الباطن أنوار المكاشفة، فتصير الأملاك والأفلاك حديثًا يغلب لاهوتك على ناسوتك، فتصير زيتًا لمصباح مشكاة الأنوار الإلهية كما قيل (شعر):

ثقلت زُجَاجَات أَتَتْنا فرغًا ... حَتَّى إذَا مُلِئَتْ بَصِرْفِ الرَّاح

خفَّت فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ ... وكَذا الجُسُومُ تَخفُّ بالأرْوَاح

وإذا حصل لك خمير السعادة من العلة الأولى التى هى مبدأ كل علة بطريق المجاهدة فى تحصيلها، أفرغت عليك أنوار المحبة، فصار الخلق لك طائعين بلا سيف يسيف بينهم، ثم يبسط باع فيهم كما كتب بعض الملوك على درع له (شعر):

عَلَىَّ درْعٌ تَلِينُ المُرْهَفَاتُ له ... من الشَّجاعة لا من نسج داود

وَإنَّنى فيه أمر الله صَيَّرنى ... نَاراً من البأس فى بحر منَ الجود

فإن انسد عليك باب المجاهدة وغلقت، ورأيت باب الطلب مسدودًا فلا ترض بالمناقصة، بل تميل إلى الزهد فإن الناس رجلان ناسك ومالك، كما تمثل عمر رضي الله عنه ببيت الفرزدق استشهادًا به ثم أنشد (شعر):

إمَّا ذُبَابًا فلا تعبأ بمَنْقصة ... أو قمَّة الرأْسِ وَاحذَرْ أَنْ تَقَعَ وَسطَا

ومثلها قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه (شعر):

إذَا مَا لَمْ تَكُنْ مطاعًا ... كما تَرْضى فَكُنْ عبداً مطيعًا

فَـإنْ لَـمْ تملـكِ الدُّنيـا جـمـيـعًـا
كـمـا تَخْـتَـار فَـاتْرُكْـهـا جـمـيـعـا
هـمـا شـيـئـان من نسك وملك
يُنيـلان الفَـتـىٰ شَـرَفًـا رَفـيـعـا
إذَا المـرءُ عَـاشَ بـكـلِّ شـىء
سـوى هذيـن عَـاشَ به وَضِـيـعـا

وكتب معاوية إلى ابنه يزيد: إن فاتك يابنى الملك فلا يفوتنك المحراب وبهذا الطريق نال الناس مطالبهم حتى رأينا الملوك متقاطرين على باب الزهاد، ولهذا قال القشيرى:

إذَا مـا الـفَـقـيـرُ لبـاب الأمـيـر
فَـبِـئسَ الأمـيـر وبِئْسَ الفـقـيـر
وأَمَّـا الأمـيـرُ بـبـاب الفـقـيـر
فنعمَ الأمـيـر ونـعمَ الـفـقـيـر

واعلم أنه إذا حصلت القلوب بمعرفة صمديتها، وانكشف لها نور الجلال بالبراهين الباطنة، وحصلت التخلية والتصفية، كوشف بالعالم العلوى والأخروى وعلم سر معانيها، فهو الذى كوشف بمعرفة الكيمياء الأكبر، فتصير الملائكة له خدامًا، فيشاهد أساور الجنة وأسرها كما قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟» قال: أصبحت بالله مؤمنًا حقًا، فقال عليه السلام: «إنَّ لكُلِّ حَقٍّ حَقيقَةً فَمَا حَقيقَةُ إيمَانكَ؟» فقال: أعرضت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها، وكأنى بأهل الجنة فى الجنة يتزاورون، وبأهل النار فى النار يتعاورون، وكأنى بعرش ربى بارزًا. فقال عليه السلام: «مؤْمِنٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ الآنَ عَرَفْتَ فَالْزَمْ! وَاقْسِمْ عُمْرَكَ وَأَيَّامَكَ وَدَهْرَكَ أَثْلاثًا: ثُلُثًا لنَفْسِكَ، وَثُلُثًا لرَعيَّتِكَ، وَثُلُثًا لرَبِّكَ».

واعلم أن الناس بك لائذون لطلب منافعهم، وكل أحد يريدك لنفسه إلا الله، فإنه يريدك لك، فكن معه ولازمه ولا تستهويك الأمانى، فالظل لا بد أن يزول ولو عمرت ما عاش آدم، أخبرنى الأستاذ الجوينى عن مشايخه: قيل لمحمود بن بويه: كيف عمدت إلى طلب المملكة ولم تكن لها أهلاً؟ فقال: سمعت امرأة تنقر دفًا وتقول بيتًا للعمر بن سبطى (شعر):

مَـنْ هَابَ خَـابَ وَجَـاسـرَ بَلَغَ المُنا
والـدَّهرُ فـيـه عُـذُوبـةٌ وَعَـذَاب

فحملنى ذلك على طلبها فطلبتها ونلتها.

وقد تحالى المتنبى حيث قال (شعر):

فَـثِـبْ واثـقًـا بـالله وثبـة حـازم
يَرَى المـوت فى الهـيـجـا جنا النَّحْلِ فى الـفم

وانظر إلى علو همة الحلاج، وإن كان قد قال الحاسدون فيه ورجموه بالحلول، وقد تلقى الموت غير خائف، ونطق ظاهره بما أعمى جهلتهم، حتى قيل لأبى العباس بن شريح: ما تقول فى الحلاج؟ قال: ما أقول فى رجل هو أفقه منى فى الفقه، وفى الحقيقة ما أفهم ما يقول، فقيل له: ما سمعت منه من جملة ما سمعت؟ قال: سمعت فى بعض كلامه وهو يشير إلينا: من حضر بطلت شهادته، ومن غاب صحت، وفى مثل هذا قال رسول الله ﷺ: «حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ سَيِّئاتُ المُقَرَّبِينَ» لأنهم واقعون مع صف التجلى، فما لهم والندم على ما كان والخوف مما يكون، صفت أحوالهم فى راووق المجاهدة، فامتنعوا بطريق الدلال لا عن الالتفات إلى غيره، فطاروا بأجنحة علومهم المجموعة فى المجاهدة والتصفية والتزكية فخرقوا حجاب الناسوت حتى وصلوا إليه، ضاقت بهم العبودية فخرجوا عن حيز العالمين، فمزجت الناسوتية بصفات اللاهوتية، ثم عادت النفوس الطاهرة إلى معادنها، فهبت عليهم نسمات واجب الوجود، فحلوا فى خيام الراحة بعد البعث فى مقعد صدق عند مليك مقتدر كما قال السكران من العشق (شعر):

إِنَّـمـا الحـبُّ فـنـاءٌ كُـلُّـهُ
رَحِـمَ الله امـرأً قـال بـه
إِنَّ مَـنْ أَضْـحَى بِـقَـلْبِـى سـالمًا
لَـمْ يـذرْ مـنه سـوى قـالبـه
فِـى ظِـلالِ الـشَّـوقِ قـلبـى راقـد
من هـجـيـر الـهـجـر قـد قـال به

فإن لم تكن أيها الملك الطالب لا بهمة علوية ولابيد باسطة سبعية فأنت كما قيل (شعر):

إِذَا كـنـت لا تُـرْجَـى لـدفـع مـلـمـة
ولا لـذوى الحـاجـاتِ عـنـدك مطـمـع
ولا أنـت ذو جـاه يُـعـاش بـجـاهـه
ولا أنـت يوم الحـشـر مِـمَّـنْ يَشْـفـع
فَـعَـيْـشُكَ فى الـدُّنـيـا وَمَـوْتُـك واحـد
وعـود خـلال من حـيـاتـكِ أنفـع

ومثله (شعر):

كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ علينا
وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ

وقد مر بك شعر آخر:

إنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ المَوْت فَمُتْ
تَحْتَ ظِلال الأسل الذوابل

وكن آخذًا بقلوب الناس بكتب وهدايا، واستجلاب مودات الكبار، والخدمة للأخبار، وإكرام العلماء، وإمدادات أحوال الناس، وسد خللهم، والصفح عن زلاتهم، وانظر كيف أدبك المصطفى عليه السلام حيث قال: «**أُمرْتُ أَنْ أَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنى وَأَصِلَ مَنْ قَطَعَنى وَأُعْطِى مَنْ حَرَمَنى، وَأَنْ أَجْعَلَ سُكُوتِى فِكْرَةً وَكَلامِى عِبْرَةً**». إن أردت الجواب فلا تعجل، واستعرض كلام الرسل متفرقين غير مجمعين، وأعط الجواب على تؤدة، وأرض الرسل ينبسط ثناؤك، فقد قيل إنه لما دخل حكيم العرب على كسرى أجزل له العطاء، فلامه بعض الكبار، فقال الملك: مملكة وجمع لؤم داءان ودواء فالغلبة للأكثر. واتعظ بقول الله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠]. فهكذا قد انتقلت من سواك إليك، وستنتقل منك إلى سواك، وانظر إلى الأمثال المضروبة فى شعر أمير المؤمنين عليه السلام (شعر):

النَّاسُ فى زمَنِ الإقبال كالشَّجرة
وَحَولَها الناس ما دامت لها ثمره
حَتَّى إذا ما عَرَتْ من حملها انْصَرفُوا
عنها عقوقًا وَقَدْ كانوا بها برره
وَحَاولُوا قطعها من بعد ما شفقوا
دهرًا عليها من الأرياحِ والغبره
قَلَّتْ مُرُوءاتُ أَهْلِ الأرْضِ كلهم
إلا الأقل فَلَيْسَ العشر من عشره
لا تَحْمدن امرأ حَتَّى تُجَرِّبهُ
فَرُبَّما لم يوافق خُبْرُهُ خَبَرَه

واصطف لك من الناس من تركن إليه فقد اصطفى الله من الناس رسلاً ومن الملائكة، والله أعلم حيث يجعل رسالته. واذا عزمت على دخول الحمام فالأفضل يوم الأربعاء، ففى الأثر «من دخل أربعين أربعاء الحمام أمن من الفقر» واخْلُ ليلة الخميس

والجمعة لطلب حاجاتك من الله الكريم، ففيها بلغ الأنبياء والعلماء وأرباب المقاصد والرياسة (شعر):

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ
فظنَّ خيراً ولا تسألْ عَنِ الخَبَرِ

وفي يوم الجمعة ساعة من أدركها بلغ حاجته، فقد قيل هي أول النهار، وقيل وسطه، وقيل آخره، وهكذا نقل عن فاطمة صلوات الله عليها أنها كانت تترك جارية لها لتعرفها غروب الشمس من يوم الجمعة. واقرأ فيها سورة الأنعام ولا تكلم فيها أحدًا، فإذا وصلت إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فاسأل، لأن الله ما ردَّ قسم من أقسم عليه من النبيين. وكل من الأنبياء كان له خاصية في يومه، مثل السبت لموسى، والأحد لعيسى، والاثنين لإبراهيم، وفي يوم الثلاثاء جاءت البشارات لنوح عليه السلام بالنصرة، وفي يوم الأربعاء انتصر زرادشت على أهل أرمينية، وكان الخميس والجمعة لرسول الله ﷺ. وقد قال المتجمون في أيام الأسبوع ما قالوا وجعلوا لكل كوكب يومًا: فالسبت عندهم لزحل، والأحد للشمس، والاثنين للقمر، والثلاثاء للمريخ، والأربعاء لعطارد، والخميس للمشتري، والجمعة للزهرة. وقد ذكر الجمهور منهم أن طالع رسول الله ﷺ تولاه الزهرة، وهم لم يطلعوا على الأسرار، ونحن نكشف نبذًا من ذلك فنقول بأن موسى دعا إلى المغرب لتحكيم زحل في تلك الجهة، وقبلة عيسى إلى المشرق نحو الشمس، وقبلة نبينا محمد ﷺ إلى جهة الكعبة وهذا سر لم يطلع عليه أحد إلا من شاء الله، وذلك أنه إذا قام مستقبل القبلة الحرام كان سهم زحل يمينًا، وسهم الشمس شمالاً، والجدي في مقابلة وسط الكتفين، والنسر الطائر وسعد يلغ في جهة العلوية، فتم مع السعادة ما تم، فأصيب بسهم السعادة مالم يصبه أحد سواه، فبلغت حجته، وعلت كلمته، ودامت دولته، وسعدت أمته، وعضدت شريعته، فنصرها الترك من المشرق وأهل الغرب حتى يبلغ أنهم آمنوا لا بالسيف بل بالكتب (شعر):

أوائل الركب ما لي منهم خبر

وهكذا البيت الثاني.

واسمع قصة عيسى عليه السلام مع جالينوس ملك الساحل وطبيبهم، حين نفذ إلى عيسى: إنا لا نطلب منك إحياء الموتى بل هذا الرجل المسلول اشفه لنا في هذا الشهر كانون وأنا أومن بك! قال المسيح: ائتوني ببطيخة، فسقاه منها، فقاء الرجل شيئًا أسود على هيئة الخبز المحرق، فقام بقدرة الله تعالى سليمًا لا مرض به. ثم قال عيسى عليه السلام: يهددني جالينوس، ثم دخل هيكل العبادة فما انتصف الليل إلا وثار على جالينوس علة

اساطوريا والكراثية، فمات بها قبل الصبح. وحدثنى يوسف بن على بأرض الهركان التى بنبات أرضها خواص عظيمة نذكر نبذًا منه فى أماكن من هذا الكتاب، وشيئًا فى كتاب «السلسبيل» قال يوسف شيخ الإسلام: دخلت المعرة على زمان المعرى وقد وشى به الوزير إلى الملك محمود بن صالح، وقال إن المعرى رجل برهمى لا يرى إفساد الصورة وأكل الحيوان، وإنه يزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل، ولم يزل الوزير جاهدًا حتى حمل الملك على إحضار الشيخ أبى العلاء المعرى، فأنفذ وراءه خمسين فارسًا، فدخل إلى الشيخ رجلان من أصحابه وأعلماه بالقصة، فدخل المعرى المسجد وأنزل الفرسان فى دار الضيافة، فدخل مسلم عم المعرى على الشيخ وقال: يا ابن أخى قد نزلت بنا حادثة، يطلبك الملك، فإن مانعنا عنك عجزنا، وإن سلمناك كنا عارًا عند ذوى الذمام وتكون الذمام على آل تنوخ، فقال المعرى: خفف عنك غمك وأكرم أضيافك، فلى سلطان يذب عنى ويحامى عمن هو فى حماه، ثم قال الشيخ لغلامه: قدم الماء! فقدمه إليه واغتسل به، فلم يزل يصلى حتى انتصف الليل ومر أكثره، ثم قال لغلامه: أين المريخ؟ فقال: هو فى منزلة كذا وكذا فقال: ارقبه واضرب وتدًا تحته، وعقد خيطًا فى يدى متصلاً بالوتد! ففعل به ذلك فسمعناه يقول: يا علة العلل، يا قديم الأزل، يا صانع المصنوعات، أنا فى حماك الذى لا يضام، ثم جعل يقول الوزير الوزير حتى برق بارق الصبح، فسمعنا هذة عظيمة، فسألنا عنها فقيل هى دار الضيافة وقعت على ثمانية وأربعين رجلاً. وعند طلوع الشمس جاءنا كتاب الطائر يقول فيه: لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير. ثم التفت الشيخ إلىّ وقال: من أى أرض أنت؟ فقلت: من أرض الله تعالى، فقال: أنت من أرض الهركاز، أنت يوسف بن على، حملوك على قتلى وزعموا أنى زنديق، وكان حجتنا بالشام، ثم قال لى: اكتب على صفة الحالة (شعر):

بَاتُوا وحتفى أمانى لنيتهم ... وبت لَمْ يَحْضُروا منى على بالِ

وفَوقُوا لى إشارات سهامهم ... فَأَصْبَحَتْ وقعًا منى بأميالِ

فَمَا ظنونك أَنَّ جُنْدى ملائكة ... وَجُنْدَهم بين طواف وحجالِ

لَقِيتُهم بعصا موسى التى مَنَعَتْ ... فرعون ملكًا ونجت آل إسرالِ

أقيم خمسين صوم الدهر ألفه ... واد من الذكر أبكارًا لآصالِ

عـــيـــديـنِ أفطرُ فـي عـــامـين إذا حـــضـــرا
عـــيـــد الأضـــاحي ويـقـفُـــو عـــيـــد شـــوالِ
إذَا تَـنَـافَـــــــست الجـــــــلاسُ فـي حـلـلٍ
رأيْتُـنى مـن خـــــسـيسِ الـقض ســـــربـالى
لا آكـل الحـــــيـــــوانَ الـدَّهـر مـــــأثـرة
أخـــافُ مـن ســـوءِ أعـــمـــالى وآمـــالى
نَهَـــيْـــتُـــهُمْ عن حـــرامِ الـشَّـــرع كلّـهم
ويَـأمـــــرونـى بـتـــــركِ المنزلِ الـعـــــالى
وأعْـــبُـــدُ الله لا أرجـــوا مَـــثُـــوبتـــه
لـكن تـعـــــبـــــد إكـــــرامٍ وإجـــــلالِ
أصُـــــــونُ ديـنـى عـن جُــــــعْـلٍ أؤمـلـه
إذا تـعـــــبـــــد أقـــــوام بـأجـــــعـــــالِ

فإذا كنت أيها الملك على هذا الوصف بلغت المقاصد، ووصلت إلى المشرب الهنى، ونكبت أعداءك، وتصير مثل دعاء القلنسوة والنجاشى، وربما تكون أنت الملك السفيانى يفتح لك الحصون من غير تعب، ويجود بك الذرع والضرع والزرع، إذ الناس بالمال، وربما نسعد بهذه الحالات كما سعد الإسكندر. فما قد كان يجوز أن يكون، وقد قال فى خطبة البيان: لا بد من ظهور ملك عادل زاهد خائف، يمهد البلاد ويحسن إلى العباد وهذا بعد ثلاث وسبعين بما شاء الله. وهذه من الخواطر الربانية كيف ظهرت فراشتها فى كشف الأمور المغيبة، فإذا رق حجاب القلب يرتفع السد، يتبين له ما فى اللوح المحفوظ فيخبر بما فى عالم الغيب من غير ريب، والله عالم الغيب يعلمه من يشاء، والملوك تودع سرها عند من تحبه وتختاره، وقد سمعت حكاية أيار مع السلطان محمود، فانتبه أيها الملك لهذه النكت والإشارات، وقد نصحت لكم إن كنتم تحبون الناصحين. والملك بالعلماء أليق من الفجرة الفاسقين، ولكن ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، ولا بد للأرض من ناصر ووارث يورثها من يشاء من عباده.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن الناموس هو مفتقر إليه فى بعض الأحيان كالدواء، لكن نكشف شرح مشقة الأحوال عند العوام، فإن الشرع خاطب الناس على قدر عقولهم، والمنزه ذكره خاطب كل أحد بما يستحقه ويعقله: فلقوم ولدان مخلدون، ولقوم سدر مخضود وطلح منضود، ولأرباب الهمم العالية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. والمنشد قد نبه فى نظمه (شعر):

إمَّا ذُبابًا فلا تَعْبَأْ بمنقصة
أو قمة الرَّأسِ وَاحْذَرْ أَنْ تَقَعَ وسطا

واعلم أن الزمان حبيب أهله، وطائفة تخترع لها مذهباً فى الناموس بطريق الزهد، كالسبح، والمرقعات، وجلود الغنم، والبرانس، وأذان الليل، والانقطاع فى الكهفان، وكبر الأمور بحيث أن يقول لصاحبه اذهب ففى الموضع الفلانى كذا وكذا. وطائفة تظهر النور، وأخرى تقعد بين القبور، وإظهار الخزعبلات والنيرنجيات بمعرض الكرامات، ودهن الأقدام، والخوض فى النور، وإظهار الخرق من سمندل الصين التى يذهب وسخها النار، وإظهار الخفف، ومد الشعبذة، وضرب طلسم على النعل فيعبر الماء، ووقوف السجادة فى الهواء، وشعلة القناديل، وإشعال السراج بالماء دون الدهن، وكثير من ذلك لا عدد لها. والفرق بين المعجزة والسحر والكرامة هو دواء الشئ وإظهاره للناس، كالقرآن المجيد، فهو المعجز الأكبر، والناموس الأعظم، فلا تطلى على الملك حالات المبرهن. وأما أرباب الكرامات والمكاشفات فهم الذين استخدموا وخدموا، واستعملوا وعملوا، فكشف لهم العمل سد الغفلة، وضرب جهة الذكر ما فى الشبه القلبية فأزال زرقها وسوادها، ووقعت المشاهدة عقيب المجاهدة، فتنورت القلوب بنور الصدق والتصديق، فهامت النفوس المقدسة فى مهامة المروج الصمدية، وانكشف سر اللوح المحفوظ من دار الديمومية، وظهرت الخواطر الصافية عن الأجسام الرذلة المعلومة فأغرقت فى قلب كمال الوجود، ووافت من صحبة أهل الجود، وبزغت لهم أقمار الحقائق من فلك الطرائق، فكان باب بدو البداية رؤية كوكب ضعيف، ثم انبسط النور الربانى من نقش عرش الإيمان فصار قمراً إبراهيمياً، ثم انبجست عيون المحبة الربانية عن فيض شمس الحقيقة البرهانية، ثم رق القلب الصادق الصافى الوافى على بُراق علوٍّ الهمة فصادفت فلكًا وملكًا، ثم صفقت أجنحة الاشتياق فصادفت عقار المحبة ممزوجًا بمياه الخوف، شربت لما قربت، وطربت وتقربت، وشقت ثياب البشرية والتحقت به بالكلية، وأنشدت فى سكرها (شعر):

وَلَقَــــدْ خَلَعْتُ علـى العـــــواذل سَلْوتى
وَحَلَفْتُ بِالحَـــرَمَـــيْنِ لا أنســــاكُمُ

ففتـحت أبواب مجالس الطرب، ونادى العاشق الصادق من عظيم الويل. والحرب عجز عن حمل حلاوة الخلاة فنادى بين شوارع دروب الكروب:

بـالله ربكـمـــا عُـــوجَـــا على سَكَنى
وَعَـــاتِبَـــاهُ لَعَلَّ العـــتبَ يعطفُــــه

وعَـــرِّضـــا بى وقــولا فى حـــديثكمـــا
مـــا بالُ عـــبـــدك بالهـــجـــرانِ تتلفُـــه

فَـــإِنْ تبـــسمَ قـــولا فى مـــلاطفـــة
مـــا ضَـــرَّ لو بوصـال منك تسـعـفُـــه

وإن بدا لكـمـــا من مـــالكى غـــضبٌ
فـــغـــالطاه وقـــولا لسنا نَعْـــرِفُـــه

فإذا شوهد منه ضعف الحـمل أماتته يد القدرة تحمل التنين، فهـو معروف فى البداية بالجنون، وفى النهاية بالفنون، فنراه فى حـال بدايته يتشبب بالنغمات والسـماع، إن اتخذه دأبه وعادته صـرف وجهه عن البـاب فضرب بينـهم بسور له باب، وإن جعل ذلك جسـرًا يجـوز به من العلم الأصـغر إلى الـعلم الأكبـر وهو علم المعـارف، فـيدخل فى حـالات العاشقين ومقامات الصادقين، فيقيل تحت أشجار الحكم اللاهوتية عند رب العالمين، فتنكسر زجاجات جسمانية ويدور به دولاب سعادته، فـأقل مقامه إظهار كرامته، فإذا رأى أحدًا من أحبائه وضع خـده تحت نعله وترابه، كما نقل فى الحكايات المجنونية فى ليلى العامرية أنه رُئى على كتفه كلب يطعمه ويسقـيه، وقيل له فى ذلك، فقال: رأيته يحرس باب ليلى، ثم أنشد حين تأود (شعر):

رأى المجنـونُ فى الفـلـوات كـلبًـــــا
فـــضَمَّ إليـــه بـالإحـــســـان ذَيْلا

فـــلامـــوه على مـــا كـــان منه
وقـــالوا لِمَ مَنَحْتَ الكلب نَيْـــلا

فـــقـــال ذروا مَـــلامَكُمُ فـــعـــينى
رأتـه مـــــرة فـى بـاب لـيـلـى

وهذا يعضـده ما روى «أن النبى صلى الله عليه وآله وسلـم قيل له: ألا تصلى على فلان وقد مـات؟ فقال: لا أُصَلِّى عَلَى مَنْ لَمْ يُصَلِّ، فـقال عمر: أنا رأيته يصـلى ركعتى

العيد، فقال عليه السلام: «كَيْفَ أُصَلِّي عَلَى مَنْ لَمْ يُصَلِّ إلاَّ نَافلَةً»! فجاءه جبريل عليه السلام أمين الحضرة وقال له: «**يا محمد أليس رأوه فى بابنا مرة إذاً رددته من بابى فبباب من يقف؟ يا محمد إنى قد غفرت له فصلت عليه ملائكتى، إن الله لغنى عن العالمين**».

المقالة الرابعة عشرة
فى المواعظ التى تجلب قلوب الناس إلى طاعة الملك

إنا قد عرّفناك بطريق ثلاثة داعية إلى الملك، وها نحن نعرفك بطريقة أخرى فنقول: يا أيها المعيب القائل مَنْ فلان حتى يثبت على الملك بماله وآله وملكه ومقاله وأبيه وأمه، فنقول له: من كان نمرود بن كنعان، وعاد صاحب الجنان؟ فإدريس مخيط الخيام، ونوح نجار الأيام، وإبراهيم راعى الضأن، وداود زراد ، وطالوت دباغ، وصالح تاجر، وسليمان خواص، وعيسى سراج، وآدم حراث، أما تتعظ بقوله تعالى: ﴿**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ**﴾ [آل عمران: ٢٦]. واعلم أنه لا بد لك من ملك تقتدى به وتميل إليه، فللحيوان أمير ومقدم كالنحل والنمل وغيره. إن فهمت بآذان العقل فكن أطوع من ضيف، وإلا هامتك والسيف. أما سمعت قول المشرع عليه السلام: «**أطيعوا أميركم ولو كان عبداً حبشياً**». قال الله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ منكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]. فإن فهمت المواعظ فقد قال رسول الله ﷺ: «**لا تشابكوا المساعيد فإنى سيدهم**» فإن عربد الجهل فانظر إلى البازى والعقارب والنسر والذباب كما نظمه ذوو الألباب (شعر):

يا طالب الرِّزْقِ السَّنيِّ بقوة
هيهات أنت بباطنٍ مشغوف
رَعَتِ النسورُ بقوة جِيَفَ الفَلا
ورَعَى الذبابُ الشهدَ وَهْوَ ضعيفُ

وأنت أيها العاقل لا تشابك الزمان والدول، ولا تفتن بما جرى للقوم الأُوَل، وإذا سمعت بالمرتاضين فكن بهم ملمًّا فإن خواص أنفاس القوم فيها جذب مغناطيسى، أما سمعت بذى القرنين لما سمع بأرباب الهمم الهندية، وهم أربعون رجلاً، اتخذ لهم ما أزعجهم وفرق هممهم، مثل زعجة الطبول والأبواق، فتفرقت هممهم فداسهم. وانظر إلى المعانى التى أودعناها فى كتاب الملك فإنها كافية، واستزد من الإشارات ولا تكذب الكلمات فإنها أخوات المعجزات، واعلم أنه لا يستقيم جسم من غير رأس، ولا سماء من غير شمس، ولا تَحْسُنُ أرضٌ من غير عمارة، وفلاحة وتجارة، وموت وحياة، وغنى وفقر، وملك وسياسة، وإمارة ووزارة، فالأمور منظومة بعضها ببعض، كما سنبين لك فيما بعد.

المقالة الخامسة عشرة
فى قطع دليل المستدل

مسـألة ما يقول فى الدليل: ما أخـذ منكم يا معاشـر المناظرين إلا وقد تمسك بدليل يصلح عقـده أن يكون دليلاً، فـيعارضـه مناظرة بما يناقضـه، والمنقوض كيـف يكون دليلاً والناقض إذا نقض بغيره فـقد دخلته العلة فبطل عن منهج الدليل، وعـارضه العلة بالنقض فصار كل دليل مزلزلاً معلومًا غير مقطوع، فإن كان منقولاً أو معقولاً وعارضه النقض فقد بطل حكمه أو قوله، فإن قلت بطل قوله فقد هدرت الشرع، لأن الحكم والقول معًا، فأين آثار فقه المستدل؟ وإن كان دليلك معقولاً قـياسًا فكيف يستند بالقياس إلى منقول منقوض؟ وإن كان غير قياس فكيف يمشى به السؤال؟ فبطل الكلام فى النظر، وإذا علمت أن كلامك مدخل تحت العلة والمعـلول، فما العلة التى تنفـصل عن المعلول؟ أم هى غيـر منفصلة عن المعلول؟ فإن كانت العـلة غير منفصلة عن المعلول فكيف يجـوز أن يكون دليلاً؟ وإن كانت داخلة فى المعلول فإما أن تكون جنسه أو غيره، فإن قلت إنها غيره فأين دليلك لتبيان القول؟ وإن قلت بأنها جنسـه فكيف يأتى بعد مبين من غيـر نتيجة بأنها عليـه ومعلول؟ وكل من فقهت نفسه لشئ فهو فقيه، فكيف خص الفقه؟ وأين آثار التخصيص به والدليل المقطوع له؟ وما النـظر وما معنى المـناظرة والمجاورة؟ فإن قـلت المجاورة هو زوال الإشكال من الحـجة بطريق التبيين، كما يقال التبعيـض إن فلانًا أعرب حين بين، وفلان بيض قصيدته ورسالته، فأين آثار تبيين حجتك إذا قطع الدليل والبـرهان؟ وإن قلت الجدال المتشابكة أو جدال الجيل حين حاستك بعضه ببعض، فما يـنفعك هذه المقالة اللغوية واللفظات الاصطلاحية إذا كان متن دليلك مقطوعًا بالنقض والعلة الداخلة عليه من الخصوم. فلا بد من جواب فخور يفهم الخاطر، فما هذا مقـام أو مقال يحتمل المغالطة والمدافعة، فإن كـان جوابك من غير السؤال فهو مـداخله ضعيفة به، وإن كـان من نفس المسألة فلا بد من برهان قاطع غـير منقوض، فالمنقوض مـعلول لا يصلح أن يكون جوابًا. وإذا سئلت عن الحجة والمعرفـة بالشئ فإما أن يكون معرفـتك برهان قاطع نقلاً أو عقـلاً غير منقوض، فمـشّه وكن به مستدلاً، فـالمعرفة بالشئ إما بنفسه أو بغيره، فإن كان بنفـسه فهو البرهان المقطوع به إذا لم يكن سبيل البعض داخلاً عليه، فالبرهان التصديقية كان برهانهـا تصديقها مثل ما تقول: هذا رجل، فلا تفتقر أن تبرهنه، وهذا ليل أو نهار، أو عشرة أكثر من خمسة، فهذا لايطرد عليه معنى فى بعض ولا ينعكس، لأن تصديقـه ينقسم ولا يفتقر إلى برهان، فـأت بدليل على مثل هذا المعنى! فقـد علمت أن هذه العلة لا تفارق معلولهـا، وأن المعل لا يكون لجهل أو لفهم أو قبـحه،

وإنما يكون براهين تصديقية أو براهين معلولة أو منقولة غير منقوضة، فإذا دخل النقض أزال حكم الدليل، فهذا معنى قولنا قطع الدليل. ثم تستدلون بأخبار الآحاد والمراسيل وقد علمتم بالملزم فيها من الطعن والتشكيك، ثم المتواتر بنفسه عندكم فهو دليل، ولا يعتبرون فيه العلم، إذ هممكم إنما هو وقائع وخصومات وإظهار مناقشات في رياسات، والباحث عن إظهار الحق قليل.

المقالة السادسة عشرة
في كتاب الطهارة وآدابها وأسبابها

واعلم أن الطهارة فرض ظاهرًا أو باطنًا، فأما الباطن فطهارة القلب من كل شيء سوى الله، فإذا وجدت من القلب هذه الطهارة الصافية الكاملة صار القلب محلاً للفيض الرباني والعلوم اللدنية الإلهية، وكشف أغطية الأسرار عن نير نهار القدس، فانبجست عيون الكرامات، وترقى العقل من حضيض الشهوات إلى سماء الخاصة ومعارفها، ثم إلى سماء كشف أسرار الربوبية، ثم يترقى العقل الجوهر الكامل إلى كرسي المراقبة، ثم إلى عرش حضرة القدس، ثم تقدم له موائد فوائد تحف المحبة فيشرق أنوارها على هياكل الطباع المظلمة، ويجرى قلم التوحيد فوق لوح التمجيد بطريق التأييد، فمنهم شقيّ وسعيد. وإذا كشفت لك هذه المملكة الباطنة لم تلتفت على الموت، فإن الموت هو جامع بين الأحباب، وفي الطباع المتنافرات مفرق بينهم ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. وقد سمعت النظم فيه شعرًا:

سَهِّل عليك الذّى تلقاهُ من ألم
إن كَانَ شَمْلُكَ بالأَحْباب يجتمع

فإذا طلعت عليك كاسات الوصال في دار التخلية، وهبت ريح النسيم، ونادى منادى التقديم ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. فعند ذلك تصير روحك ملكًا يضيء، ولو لم تمسسه نار.

واعلم أن الله تعالى خلق الخلق وصنفهم ثلاثة أصناف: فطائفة عقل مجرد وهم الملائكة، وطائفة شهوة مجردة وهم البهائم، وطائفة عقل وشهوة وهم بنو آدم وهم وسط بين الطائفتين. فمن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة، ومن غلبت شهوته عقله التحق بالبهائم ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

ثم نعود إلى الطهارة الظاهرة، قدم الماء الطاهر في الإناء المخمر، واغسل يديك قبل الوضوء ثلاثًا، واستقبل لوضوئك القبلة، وكن على نشز خوف النضح وعليك بالتسمية

والسواك والنية فى مبدأ الفرض، ففرض الوضوء ستة: النية عند أول جزء من الوجه، ثم غسل الوجه، ثم غسل اليدين إلى المرفقين، ومسح المقبل من الرأس، وغسل الرجلين مع الكعبين، ثم الترتيب فى الموالاة فى أصح الوجهين، ثم غسل الحيض والجنابة بوضوء، وغسل ثلاثًا ثلاثًا، ونية غسل الجنابة أو الحيض. ثم مناقض الوضوء وهى : النوم قاعدًا متمكنًا، ثم زوال العقل بأى فن كان، ثم لمس الرجل المرأة ولا حائل بينهما، وينتقض طهراللامس دون الملموس فى أصح الوجهتين، ولمس الفرج ثم آداب دخول المسجد بالقدم اليمنى فى الدخول واليسرى فى الخروج، ولا يستدبر ولا يستقبل القبلة ولا الشمس والقمر إلا من وراء ستر وحائل، وينحى ما عليه اسم الله من عليه، ويجوز الاستنجاء بكل طاهر إلا ما له حرمة كالمطعم وغيره، ولا يجوز الاستنجاء بعظم أو جارح أو بما يؤذى المحل، فقد قال ﷺ : «**لا تَسْتَنْجُوا بالعَظْمِ فَإِنَّهُ طَعَامُ إِخْوَانِكُمُ الشَّيَاطِين**» فإن الله يكسوه لحمًا فيأكلوه. والأفضل أن يعقب الاستجمار بالماء وهى طهارة أهل فناء، ويقول فى دخوله: «اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث، ومن الشيطان الرجس النجس» فإن خرج يقول: «غفرانك الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى وعافانى» ولا يجوز البول فى الماء الراكد، ولا ثقب أرض، ولا على قارعة طريق أو شاطئ، وتحت شجرة مثمرة وغيره. ثم يجوز التيمم من عذر طارئ، أو برد مخوف طارئ، أوجراح، أو حدوث ثمين، فيجوز التيمم بتراب وغبار تعلق باليد، ويجوز عن الحيض والجنابة مع الأعذار المخوفة الموجودة، بضربتين لوجهه ويديه. قال غيرنا: يجوز التيمم بكل ما صعد عن الأرض من حجر أو جدار، ولكن بعد دخول الوقت، ونزع الخاتم من اليد. ويجوز للمتيمم أن يصلى بالمتوضئ، فقد فعل ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، ويجوز المسح على الجبائر بشرط الطهارة.

كتاب الصلاة وهو مقالتان

مقالة فى الأحكام الظاهرة، والمقالة الأخرى فى الأحكام الباطنة وما يجد فيها العارفون

اعلم ان الصلوات الفرض هى خمس صلوات وركعاتها سبع عشرة ركعة، وأكمل سُنَّتها ثمانى عشرة ركعة. وأحكامها الظاهرة مثل كمال الوضوء بالماء الطاهر، وطهارة الثوب والبدن والمكان، واستقبال القبلة، والإتيان بتشديدات الفاتحة، والطمأنينة فى الركوع والسجود، والاعتدال بين السجدتين، والرفع من الركوع، وقولك فى الركوع ثلاث مرات: «سبحان ربى العظيم وبحمده» وتقول فى السجود: «سبحان ربى الأعلى وبحمده» مثلها، وهو أقل الكمال، ثم الاكتناف، ومعرفة الأوقات: فوقت الصبح إذا تبين الفجر الثانى ويبقى وقت الأداء إلى طلوع الشمس، ووقت الظهر إذا غربت الشمس من وسط الفلك

ويبـقى وقت الأداء إلى وقت العـصر إذا صـار ظل كل شىء مـثله وزاد عليـه أدنى زيادة، ويبقى وقت الأداء إلى غـروب الشمس والمغـرب مع طلوع الليل، ووقت العشـاء إذا غاب الشفق الأحمر، وعند أبى حنيفـة والمزنى إذا غاب الشفق الأبيض، وهو وقت صلاة المتقين والأبرار. والأذان شرط لا فـرض إلا على الكفاية. ثم تلزم قوانين الآداب، وتسـتحى من الله كما تستحى من سلطانك، أما سـمعت الخبر: لا تجعلنى أهون الناظرين إليك، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [البلد: ٧]. وتعظم شعائر الله وتأتى بهـا فى أوقاتها إلا الظهر فى شدة الحر كما قال: «أبردوا بالظـهر، ونوروا فى الفجر، وأخروا فى العصر». ثم تأتى بكوامل الـنوافل مـثل الضـحى، والتـراويح، والصـلاة بين المـغـربين، وأوراد الليل والسحر، وسنن يوم الجمعـة العشرة وآدابها مثل الاغتسال، والسـبق إليها، وقراءة الكهف، وكثرة الصـلاة على رسول الله ﷺ، وتواظب فيـها على الصلاة السـبعينيـة قبل الزوال، وتطلب فعلها فى الإحيـاء، وتأتى فيها بصلاة الحاجة من اثنتى عشرة ركـعة بست تسليمات تقرأ بعـد الفـاتحة آية الكرسى مـرة، وثلاث مرات: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإذا فرغت من جميع الصـلاة تسجد بعد السلام فتـقول فى سجودك: «سبحـان الذى لبس العز وقال به، سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به، سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه، سبحان الذى لا ينبغى التسـبيح إلا له، سبحان ذى الـعز والكرم، سبحان ذى الطول والرحـمة، أسألك اللهم بمعـاقد العز من عـرشك، ومنتهى الرحـمة من كـتابك، وباسمـك الأعظم، وجدك الأعلى، وبكلماتك التامات كلها التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر، أن تصلى على محمد وآل محمد» ثم يسأل حوائجك الجـائزة. ولا تصل فى المواضع النجسة والمواضع المغصوبة، ولا فى ثوب حرير، ولا فى خاتم ذهب. وتقوم بالمسكنة به والذل والصغار، فإذا اجتمع الناس تحسبه القيامة، وتحسب صوت المؤذن كنفخ الصور، فظهور الخطيب فى الموعظة كتجلى الحق بعتب الخلق والتوبيخ، وقيام الناس فى الصلاة كقيامهم فى الموقف ثم الانصراف فى المسجد كتفرقهم يوم المعاد: فريق فى الجنة، وفريق فى السعير.

والسر فى الوضوء هو طهارة الأعضاء وتنبيههـا. والشجرة الآدمية كغيرها من الشجر لا بد لها من خدمة، فتقليم فروعها كقص الأظافر والحلق، وشربها الماء كالوضوء والغسل، وتنظيفها وخدمـتها كحسن آدابها، وترك الفضلات الدنيـوية إنبات بقول العلوم عن سواقى الخدمة، وصون الـنفوس عن القبائح والرذائل سباطهـا وحرمتها، وجريان مـياه الفضل فى مجـارى أنهار العقول يكسـب فى الشجرة نوح حمـام المحبة وصفـير بلبل التوحـيد، وتمام المعرفـة وأنوار اليقين فى برك البـركات، وصفـاء نسيم الصـدق فى جواز أحداق المعـرفة. وأهداب الشجـرة مخاطبـة بأنوار الإيمان، ومنادى الأزل ينادى بقلوب المريدين: سـيروا من

قواليب الأغيار إلى الشجرة الزيتونة المباركة التى ليست بشرقية ولا غربية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]. هذا معنى قوله تعالى: «لا يزال عبدى المؤمن يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته صرت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، فبى يسمع وبى يبصر، فمن يبصر ويسمع بى أقل ما أعطيه أن أخرق بينى وبينه روزنة يرانى بها، وينظر من غير مثال، وأعطيه نوراً يفرق به بين حقائق معلومات». معناه تحمل قلوبهم فى صلاتهم إلى حظيرة القدس فيشاهدون جلال الربوبية من الديمومية، وتظهر لهم شموس المعرفة من صفاء سماء حقائق القلوب، وتنجلى لهم حالات الآخرة بذاتها مثل ميزان العقل وصراط اليقين، وهو معنى قوله عليه السلام: «**أَرِحْنَا بها يَا بِلالُ**» ومعنى قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. قال جعفر الصادق ﷺ: «عند سجود العارف لذى المعارج يرفع الحجاب فيرفع القلوب الطاهرة إلى سدرة المنتهى، فيتجلى لها أنوار القدس ويفتح لها أبواب جنات حرم الحق، فيعطى ما تريد لتابعتها لما تريد» كما تمثل فيه بعض أهل التوحيد (شعر):

أُريدُ عطاءَها وتريد منى
فَأَتركُ ما أريدُ لما تُريدُ

وإذا صفت القلوب فى الصلاة من الوساوس والمرذلة، حظيت بالمشاهدة لرفع غمام الغم وظلم الوساوس عن عرصات القلوب، فهناك نشاهد الأفلاك والأملاك مثل ما نظمه القاضى البستى:

رُؤيَة الحقِّ بالعمى عن سواهُ
وعيونٌ تَرنُو به سَتَراهُ
هو فى الكلِّ ظاهر غير أن الـ
لهوَ بالعيشِ والهوا سَتَرَاهُ

وسأضرب لك مثلاً فأقول: اعلم أن القلب كعرصة فيها شجرة أراد أحد أن يصلى تحتها فوجد فيها عشاش طيور بزقازق وهدير منعته عن لذه قراءته ومناجاته، فإن تشاغل بطرد الطيور فاته الوقت، فلا سبيل إلى وجود اللذة إلا قطعها، وأنت قد غرست فى قلبك شجرة حب الدنيا، وملأت الشجرة بوسواس اكتسابك وهمك وغمك، فإن قطعتها صفا حالك وعظم إجلالك وتجلى جلالك كما قال الجنيد:

تركت هَمَّ الدنيا فصفا عيشى
وتركت هَمَّ الآخرة فصفا قلبى

والسر فى الصلاة إنما هو كتقرب الخادم إلى المخدوم إذ يراه فى قواليب الذل والانكسار ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وهو معنى قول سقراط:

اشتباك نغمات الأصوات من هياكل العبادات، تحل ما يعقد في الأفلاك الدائرات. إذ باب خواص الأدعية مفتوح ترجم عنه القرآن: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ [فاطر: ١٠]. وصفة داود مع المزامير معروفة، كان إذا كان له حاجة جاء بزهاد المجاهدة، وأقامهم في محاريبهم، ووكل بكل واحد منهم صاحب مزمار ليقطع بلذة نغمه قلب المريد إلى حاجة داود، فتسرع الإجابة كإجابة الاستسقاء، والسحر المعول به متأثرة من الهمة.

واعلم أن الأوزان القلبية لا تظهر إلا بطهارة المحل، فإذا ارتفع السد من القلب بانت موازين معارف القلوب، وامتد فيها صراط الحق، وفتحت أبواب المعرفة بالله، وبانت أنفاس حميم حب الدنيا، كما قيل: هناك حميمها القاسي، حميمها جنة فيها الحمام. فإذا كان على هذه الوتيرة، فاجعل حوائجك من مولاك في خدمتك، وتطيب بطيب المعرفة، والبس ثياب شعار الندم، وضع خدك على تراب التواضع، واعلم أن لكل شيء وزنًا: ووزن الشعر بعروضه، وأوزان المميز بالنظر، وأوزان المأكول والمشروب بالكفتين والقبان، وميزان الصوفية بأوقات النهار، وميزان الخطب بتعديل الكلام، وميزان القيمة بقصاص الأفعال، فكفة ظلمة ظلمك وكفة نور طهارة أعمالك. فاعلم حالك واستقم في أحوالك، فإبراهيم لما بان له ميزان النظر قال بطريق التشكيك: هذا ربي، فلما استقام بين كفتي الأحوال قال: وجهت وجهي.

المقالة السابعة عشرة

اعلم أن الخواص غير محصورة وليس لها تأويل يحل فتؤخذ بذواتها، كالصبر المسهل، والسقمونيا، والشي المقبض، ليس علينا أن نسأل لم أسهل هذا أو قبض هذا، فكيف نعترض طبيب الشرع فيما جاء به من التحليل والتحريم، أوليس حجر يشم يذهب النفخة! فكيف تشك في شفاء خواص القرآن وما فيه من التحرير، وفيه قوارع مخصوصة لمعاني مخصوصة مثل سورة الواقعة للغَناء والمال، وإذهاب الغم بسورة الدخان، ورفع البلاء والتحرز بسورة الكهف، وخاصيتها ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]. ولا يجوز قراءة الآية وحدها إلا بإضافة السورة إليهم كما قلتم لا يجوز استعمال الأدوية المفردة.

مسألة في تعجيز المنجم

تقول: يا حكيم هذا النجم الفاعل المتصرف في العبد، المولد في نقطة الكرة، كيف تصرف فيه بطبعه أم بجنسه أم بخاصيته؟ فإن قلت بالطبع فالطباع مختلفة، وإن قلت

بالجنس فذاك سماوى وهذا ترابى، وإن قلت بالخاصية فالخاصية عَرَضٌ لا بقاء له، وإن سلمنا إليك بالخاصية فهل هى نفس النجم أم فى نفس الشخص؟ فلا بد من الكشف والتبيين وإقامة البرهان. أما السحر فهو عمل وكلام قد تداولوه بينهم فى أوقات معلومة وطوالع معروفة وطلسمات مضروبة، فإذا أردت أن تولد طلسمًا يصلح لما تريد فخذ من كل ثلاثة أحرف حرفًا، فإذا اجتمعت لك فى التأليف ثلاثة أحرف من تسعة فهو طلسم يصلح لما تريد، فانظر فى الأوسط لاب عند ساعة التأليف فهو يصلح لما دلت عليه الدقيقة من الساعة، ومثاله ا ب ت ث فتأخذ الجيم والثاء أليق عوضًا عن الجيم ج ح خ خذ الصاد ص ط ظ خذ العين فيصير عقربًا لتدوير الحروف فضع صورتها على خاتم والقمر فى العقرب، تكف خاصيتها عنك أذى النساء، ترمى الخاتم فى الماء فينفع سقياه الملسوع، وتلقى به سوءًا بين من أردت، وترش من مائه على سطح المبغض أو طريقه أو داره فإنه يستضر من سنة. وخذ صورة أسد والقمر فى الأسد، وانقشه على خاتم بسواد ومعه كلمة وهى: «أتينا طائعين»، فتدخل به إلى الملك فيذله الله لك.

ذكر كلمات تذل الملوك: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾ «ذل البحر لبنى إسرائيل». «شاهت الوجوه». فهم لا يبصرون ولايعقلون ولا يسمعون.

ذكر كلمات يأمن بها الخائف من السلطان بقدرة الله: لاتزال تقول وأنت داخل إليه أو قاعد عنده فى نفسك: يا قديم الإحسان بإحسانك القديم.

ذكر كلمات تصدق بها عند لسان السلطان: تقول عند الدخول عليه: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ**﴾ [يس: ٦٥]. ﴿**وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾ [المرسلات: ٣٦]. ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٨]. ولا يعقلون.

ذكر كلمات تفرق بها بين جماعة فاسدة تخافهم: تأخذ أفرادًا من شعير حزام وتقول عليه أربع مرات: هاطاش ماطاش هطاشنة ﴿**وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [المائدة: ٦٤]. وترميه من حيث لا يشعرون وتنظر ما يصنع الله.

ذكر ما يبغض بين الشخصين: يكتب على بيضة وتشوى وتطعم ﴿**وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ**﴾ [سبأ: ١٩]. ﴿**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ**﴾ [سبأ: ٥٤]. قطعًا، بغضًا. ويكتب على بيضة مخيط عليها بخام مضيق سبع ضادات وتوضع فى مجمرة ملة، فإنها تستوى ولا تحترق الخرقة، وتطعم البيضة للمحموم، وكثير مثل هذا. وقد حصرناها وشرحناها فى كتاب عين الحياة، وهو صغير الحجم كثير الفوائد، وفيه المقالة الإلهية التى هى سبب الجمع بين الأجساد والأرواح بطريق بعث الإكسير. اعلم أن الصناعة الإلهية لا تخلق، إن كانت فتكون وإن لم تكن فليس بصحيح، لأن جماهير الناس أجمعوا على: إن كانت فلا شك أن تكون.

ودلالات المنقول والمعقول قائمة دالة على الجواز، فالمنقول قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد: ١٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. وأما المعقود دل عليه عمل الصابون، فإنه جامع بين الأضداد، ماسك الطباع الدهنية والمائية والنارية، فلما حصل تجميده على تجميده، دل بتجميده على تجميده، ولو لم تكن صناعة صحيحة لما كان الإبريز كثيرًا لبعد المعدن، وهى حالة مصنوعة كسائر المصنوعات، وقد ضاع العالم فيها، وضيعت الأموال فى تحصيلها، فلم يظفر بها إلا الرجال الأفراد المطلعون على علوم خواص النبات وخواص الحيوان. ولكن يا موسى لا بدّ لك من خضر يعلمك معنى خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، مع معرفة الخصال الثلاثة حصل له كشف الكنز ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]. فإذا خرقت سفينة الصنعة، وقتلت غلام الزئبق الآبق حتى يصير ماء زلالاً، فأضف إليه جدار تصعيد الزرنيخ، فإذا صح لك قوامه وملكت إكسيره فهى الحالة الفضية، ولكن بشرط نشر الفلوس الرومية حتى تصير على هيئة التراب فتوضع وزنًا بوزن، فبعد حسن السبك وقوام التصعيد وصارت الأرض فضة يتخذ منها دراهم معدودة وكانوا فيها من الزاهدين. واعلم أن الزرنيخ اسم مركب فأوله زر بالعجمية، فإذا صح لك فأنِخْ بجمال غنائك على باب أستاذك ومعلمك، وسر بذى القرنين من عقلك إلى مغرب الشمس الذهبية عند عين حيوان من نبات طأطأ، فبياضها للأبيض، وصفارها للأصفر، هى دواء العيون إذا نامت العيون، ثم سر إلى مطلع شمس حرارة زئبق الآبق وحصله، فإذا بلغت بين السدين فانفخ عليه من نار لطيفة طيبة، فإذا صح إكسيرها أو لم يصح فارجع إلى حد الطلق، فإن صح لك فهو الإكسير اللؤلؤ الكبير فحصله فإنه موجود، وإن لم يقدر على تحصيله، والعمل بها قد ذكرناه فى كتاب عين الحياة، فعليك بمداراته والصبر على التطويل.

واعلم أن هذه الصناعة هى صناعة ربانية لا يقدر عليها إلا الأبدال والرجال والأبطال الذين كشف الله الرين عن عيون قلوبهم، وهذه لاتصح إلا للطلائع الذى يريد به عونًا على الآخرة أو وفاء دين أو دفع شين، وهى حريزة غريزة، ولها أربعون صناعة قبلها ليكون عونًا عليها: مثل عمل الأكحال والأبراد والأدوية والدوانيق، ونحن نذكر خواصًا دالة مظهرة لبدائعها وصناعتها مذكورة فى كتاب عين الحياة، وأعظم ملكها الأكبر هو تصاعد الزرنيخ، ومعرفة أجزائه، وزمانه المعتدل الصالح النافع للأبدان، غير مضر من حر وبرد، وهذه الصناعة الفضية التى يسميها أرباب الصنعة القمرية، فقد تعمل فيما يتصعد من إكسير بياض البيض، وأصلح ذلك هو الزرنيخ المصعد قوامًا معتدلاً ووزنًا واحدًا معروف الصفة. فافهم واعرف زمانه المعتدل وخَفْ عليه من الحر المحرق والبرد الممزق والمفرق، فتربيته

كتربية الأطفال مفتقر إلى الاعتدال. فابدأ أولاً بصنائع الأبرار والأكحال، مثل الغريزى الصغير والكبير، والجلاء الصدفى، وبرود الحسك، وبرود المياه، وهو أن يجتمع المياه مثل مياه التفاح والحصرم والرمان وتضيف إليه عرق الماميرون وعرق الريح ودواودى جعفران وبهمنى سهر وماء الرازيانج وتوتيا أخضر رقيق وهو المرادنى، فإذا صح هذا كله فاجبله بهذه المياه مع ماء الرازيانج وماء الحسك ثم نشفه بين الشمس والظل، فإذا أمسكت نفسه وزالت رطوبته فاعمل منه فصوصًا أو تصحنه جلا، فهذا هو التوتيا الهندى الذى يساوى مثقاله مثقالاً، ولا بأس معه بماء المامیثا. وماحى العالم هذا هو البرود الجامع والجلاء النافع والتوتيا الهندى القاطع، فإن عملت منه شيئًا فما يكون وهو رطب حار، هذا هو كيمياء الأبرار وبه يحصل لك إن شئت مكسبًا تستريح من تعب غيره.

إذا أردت عمل الأدن: خذ ما شئت من الأدن الخرق الصحيح وتضيف إليه لكل جزء ثلاثة أجزاء من شمع صافى، وتطبخه بنار لطيفة بقدر ما يمتزج وتحطه، فهو الادن. وكل مصنوع لا بد له من خمير خالص وهو إكسيره.

صفة عمل الزعفران: تأخذ أصفر لحم البقر. وليكن من فخذه لا سمينًا، وتطبخه بالخل والزعفران ثم تبرده وتغسله شعرات زعفرانية، ثم تضيف إلى كل أربعة أجزاء جزءًا من الزعفران الخالص.

فأما عمل المسك والزيادة: تأخذ من الخالص خمسة أجزاء وتضيف إليه مثله من الخبز المحترق، أو الكبد المشوية المحترقة، أو جزء فأرة مسكيّة، من كل واحد جزءًا يضاف إلى الجزء الأصلى من مسك أو زباد.

فهو الإشارة كافية إن عقلت بصدق العمل، فقد قالت الشطيات: لقمة من القدر تكفى لمن يشم الرائحة وفضل لقمة يتحتم لمن لم يكن شبعان، والصنائع مغطاة فإذا كشفت بان سرها. والعجائب ظاهرة فى كتاب عين ا لحياة.

واعلم أن المسك هو من دم غزال برى يأكل من أطايب الأفاوية البرية كالفلفل والقرنفل وغير ذلك، وقد قيل فى العنبر إنه ينبع من عين بأرض مدينة عنصوريا، والكافور هو من عين، فيعجن العنبر بأوراق بحرية بين أشهب وأبيض وما شئت من الألوان، وقد نزل من السماء عشرة أشياء كالمن والشيرخشك والترنجبين واللاذن، وقيل هو عين فى جبال مرعش، وينزل من السماء القطر مع السحاب، يضاف إليه شىء من الزوائد فيطبخ بماء الشعير فيسقى للمرأة التى لا لبن لها ولا حيض فتحيض هذه ويدر لبن هذه، وقد ينزل من السماء ضفدع أخضر يصلح للبواسير، وقد ينزل من السماء بأرض سقسين حنطة حمراء لينة باردة على طعم الزبد والعسل والثلج، إذا أخذ من دقيقها

وكحلت بها العيون المعيبة زال عيبها، ومن ههنا أخذ من أخذ، وإذا بخر بعضها تحت أحد أبصر الملائكة، وبه يبخر لعطارد فيكلمه. وقد قويت عزائم المنجمين بأن الأنبياء بخروا، فالكليم بخر لزحل أول ساعة من يوم السبت، والمسيح بخر للمشترى، وإبراهيم بخر يوم الأحد للشمس وللمريخ يوم الثلاثاء، وقد بخر زرادشت للمريخ وعطارد، وقد بخر محمد رسولنا للزهرة يوم الجمعة، واختفى فى غار حراء، فكانت تأتيه فى صورة جبرائيلية وهو تمثال لدحية الكلبى.

ومن أراد أن يبصر الجن مشاهدة ومصادقة ومخاطبة، ويسمع كلامهم ويعينونه على ما يريد، فليقرأ سورة الجن فى بيت خال من يوم بطالة فى أحد أو أربعاء، وبين يديه بخور اللبان، ويخط له مندلاً يقعد فيه ولا ينقطع عنه البخور وهو يقرأ ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ**﴾ أربعين مرة، وهو يمثلهم ويحدث إليهم، فإذا خرجوا إليه لايخافهم، ويستخدم منهم من شاء على ما يشاء من سحر وطلسم وهياج وتسخير وإظهار كنوز وحب وتبغيض.

واعلم أن من الخواص النباتية ما يطول شرحه، ونحن نشير إلى بعضه:

من أراد أن لا يبصره ولا تراه العيون فليزرع الخروع عند بدوّ زراعة القطن فى رأس سنور أسود، فإذا طلع يخيط عليه كيسًا، ويربيه حتى يجنى القطن، ثم يقطف العنقود كما هو بكيسه ويشقه حجرة، ويأخذ مرآة بيده، ثم يقطف منه حبة حبة ويضعها فى فمه وينظر صورته فى المرآة، فأى حبة لم يشاهد فيها نفسه عند نظر المرآة فليمسك عليها.

ولهم الأبهر الضم وهو نبت فى الأرض على صورة ابن آدم، فهذا يصلح لمن عقله على نفسه لو مر بحجر لتبعه الحجر.

ولهم حشيشة تسمى بحشيشة الراسن، تبخر من أوراقها على اسم من تريد فيأتيك وإن لم يرد، ولكن بشرط أن تقول هذه الكلمات على البخور، تقول: «يا جامع ياجن اجمعوا وقدموا لاق لاق عاجلاً عاجلاً اشروثا كبيبا ال صبى: ائتنا كرهًا أو طوعًا: قالتا أتينا طائعين». وليكن فى يوم الأحد أو أربعاء. وهذا حشيش الراسن يعمل منه شراب يسمى شراب الملائكة يصلح لأرباب الأخلاط المتساوية، ويصلح للنساء العجفاوات من شدة الحرارة، وتجفف ورقه ويعمل منه برود يصلح للعين التى ارتخت أجفانها، وقد يعمل منه دواء يقوى اللثة، وقد يبخر منه تحت صاحب الحمى فيبرأ، أو يبخر تحت النفساء ذات المشيمة المعلقة فتنزل، وقد يسلق ورقه بالخل مع ورق الزيتون فينفع الأسنان الضاربة.

ولهم نبات لا أصل له فى الأرض وهو على هيئة العنقود على شجر البطم والبلوط

ويسمى حب العصفور، ويسمى حب دبق صيد العصافير، يصلح بخوره للبيوت، خاصيته طرد الشيطان، ويبطل السحر المدفون مثل مشاقة الشعر المقعد، وبرادات الأمشاط والأوتار المعقدة، فبهذه دخل السحر على محمد ﷺ، ولهذا قال ﷺ: **«ضَيِّعُوا مَشَاقات الشّعُور فَبِها يُعْقَدُ أكْثَرُ السُّحُور، وأَعْظَمُ العبَرِ فى الأَوْلياء والإبَرِ الَّتى تُتْرَكُ قَريبَ النَّار يَاعَائشَة»**. وعزيمتها عشر آيات من آخر سورة الرعد. وهذا الحب يعمل منه الند فيؤخذ منه جزء، وجزء من عروق القسط وعروق الزعفران، وشئ من برادة العود القمارى، يدق ويطبخ جميعًا إلا حب العصفور، فيطبخ جميعًا بماء الورد الجيد العرق الغاية، فإذا تجبل وصار طينًا يحط إلى الأرض، وإذا برد عمل منه الند على ما تريد.

أما صفة عمل الدرانيق النافعة فقد سبقنا إلى ذكرها وعملها، ولكن أقرب ما تأخذه هو أن تضيف البندق المدقوق مع الجوز واللوز والسمسم القليل والفستق، فيعجن جميع هذا بالعسل الشهد مع قليل من ماء الورد ويرفع، ففيه منفعة وخاصية لسم العقرب، وفيه خاصية للوقاع.

وجوف اللوز الهندى الحديث على الهريسة والحنطة نافع فى الوقاع ويصلح لمن وثبت عليه الأرياح الباردة. أما الترياق الأكبر فهو أربعون حاجة مع لحوم الحيات مشروحة فى كتاب عين الحياة.

واعلم أن النبات والأدهان والحيوان ما يطول شرحه ولا يشغل كتابنا به، لكنى أذكر لك عمل إساءة وهى الظنبوث: تأخذ من بصاصات الربيع ما تريد على ما تريد واسم من تريد فى ساعة محمومة، فتضعها فى قارورة زيت بأعلى النار، فتعلمه ظنبوث إن شئت حبشية للبعض، وإن شئت قرشية للمحبة، وإن شئت فارسية للسلطان، وإن شئت كرمانية للخروج من المضرة والأمراض، وتعلقها فى الشمس وكلما نقصت تزيدها دهنًا، ثم تتركها فى نافذة ظاهرة وتربيها وتخدمها وتبخرها، وتقول عندها فى كل يوم هذه الكلمات «أيها الظنبوث الطاهر كونى لما أريد» وهو يبخرها، ولا يبخرها إلا طاهرًا لا حائضًا ولا جنبًا، فهى تنقص عند نقص الهلال وتزداد بزيادته. فهذا من جملة الخواص الدهنية، وفى الدهن ما يطلى به الجسم فلا يعمل فيه النار، وفى الأحجار ما يعمل منها فأس أو قدوم فإذا نقر به لا يسمع صوته، وفى الأحجار ما إذا وضع فى التنور سقط خبزه. وقد عرفت خاصية المغناطيس وأما خواص الحيوان فتطلبه فى كتابه.

المقالة الثامنة عشرة
فى عزائم التسخير

تقف أول ساعة من يوم السبت مستقبل الغرب بثياب سوداء وزرق بأبخرة مذكورة مثل اللبان والحرمل وقشور الزمان والخردل البرى، ثم تقول فى وقت سعيد من تثليث أو تسديس مناظ إلى شرف فتقول: «أيها السلطان الأعظم والملك العرمرم، مالك الفلك التابعة له النجوم، الخاسف المزلزل: زحل أنت أشرف الكواكب وسيدها وقائدها ومؤيدها، أسألك أن تعطينى وأن تمنحنى ما يصلح منك لى» وتقول يوم الأحد عند طلوع الشمس وأنت مستقبلها بهمة مصروفة إليها: «أيتها السيدة الرفيعة والملائكية المطيعة والمدبرة الكبيرة التى جادت بفيضها على الظلام فصارت نورًا، ذاتها طاهرة وسلطتها قاهرة، أسألك أن تعطينى ما يصلح منك لى، واصرفى همتك إلىَّ وأنت الملكة العزيزة والسلطانة الحريزة بحق من سخرك وهو الملك العظيم». وتقول أول ساعة من يوم الاثنين: «أيها الكوكب الأظهر، والقمر الأبهر، البارد الرطب الحال فى الفلك المعتدل البارد اللطيف، أسألك بحقك وبحق الملك المعطيك من نوره، أسألك أن تعطينى ما يصلح منك لى» وتقول فى يوم الثلاثاء مخاطب المريخ: «أيها السلطان الحاد النورى النار النورانى المزعج المدهش، أنت بهرم السلطان صاحب السيف والسفك، ذو الحربة النارية والفتن الأرضية، صاحب الحرب والصلاح والدم، أسألك بحق سلطتك ودولتك وقهرك أن تعطينى ما يصلح لى منك» وتخاطب يوم الأربعاء فتقول: «أيها الكوكب اللطيف الشريف، والكوكب الكاتب الحاسب العالم، ممازج الفلك ووزيره وملاطفه ومشيره بلطافة أخلاقك وطيب أعراقك وحسن سمعتك وصفاتك الحميدة وأخلاقك المجيدة الحسنة الطيبة أن تعطينى ما يصلح منك»، ولتكن على الماء فى فروج من حشيش أخضر وهواء لطيف بنفس فرحة وريح طيب وأنت متصف بصفات الكتاب وتبخر فى يوم الخميس للمشترى فتقول فى دعائك: «أيها الكوكب الدين الصالح التقى الرفيع البديع المطيع السميع السريع الذاكر الشاكر الناشر والحامد الباهر الخائف المستغفر عندك أكثر أحياء الأموات والذى يبرئ من كل داء أسألك بحق دينك وأمانتك ومودتك ومروءتك وطاعتك أن تعطينى مايصلح لى منك» وتقول فى يوم الجمعة مخاطبًا للزهرة: «أيتها النفس الطاهرة والزهرة الزاهدة الباهرة ذات اللهو والطرب والرقص واللعب والشرب والأكل، الفرحة النزهة الناظرة والمزينة الطائعة لربها الحرة الطاهرة، أسألك أن تعطينى ما يصلح منك لى» فأما يوم السبت فهو مخصوص عندهم لموسى لأنه زحلى، والأحد مخصوص بسليمان وجماعة من الأنبياء وصاحبة الشمس وفيه يتبخر الملوك لها،

ويوم الاثنين هو للقمر يصلح للوزارات والوزراء، ويوم الثلاثاء للمريخ وفيه بخر إبراهيم الخليل، ويوم الأربعاء لعطارد وفيه بخر زرادشت وهو نبى المجوس صاحب كتاب سبطا، ويوم الخميس مخصوص به عيسى، وأما يوم الجمعة فهو لمحمد ﷺ. فالذى يُطلب من زحل وهو كيوان مثل المنافع الأرضية وإظهار الكنوز وشق الأنهار والأشجار، وأما ما يخص الشمس فمثل الملك والملكة، والقمر لائق بالوزرات، والمريخ بالحروب والبأس، وعطارد للكتابة والنقش والحساب والهندسة والعلوم الدقائق والعزائم ومخاطبات الجن كما سبق ذكره، وأما المشترى فهو للزهد والديانة وحل الطلسمات السماوية، ثم الجمعة للزهرة. قالوا: إنما أمر باجتماع الخلق عند نصف النهار فى هيكل العبادات لاجتماع خواص الأنفاس ليؤثر ذلك فى حصول المطالب لشرف نفسه الفياض منه على تابعيه من قولهم فى لحظة واحدة اللهم صل على محمد وآل محمد.

واعلم أن الناس قد اختلفوا فى الخاصية كما ذكرناه فى أول الكتاب، وخواص النبات والحيوان كثيرة، وقد ذكرنا منها فصلاً طويلاً زائدًا خارجًا عن الحاجة. وكم فى الحيوان من خواص لا تعرفه مثل مرارة الدب للسمن وشحمها أيضًا ولحمها مع تحريمه يذهب بالأرباح، وأكباد الأرانب تنفع الأكباد، وعيونها للعيون، وشحمها للأرباح، ويصلح منه طلاً لمعنى. وشحم الخنزير فى علف الدواب، ودهن البيض للشعر، وما قطع من الكرم ينفع فى الشعر، ودهن الشوك والحنطة للثواليل. وشحم القنفذ للأرياح، وقصبه مع السكر للطحال وزنًا وسفًّا. ومخ الحمار قاتل. وفى الهدهد منافع ذكره صاحب كتاب الحيوان. والجوز الهندى فى الهرايس نافع للجماع، ومعاجين وأدهان للقيام. والحرارات الغالبة قاتلة، وهكذا البرودات والماء عقيب الطعام متلف، وحقن البول أتلف. والفصد محمود والحجامة أحمد. والقئ ينظف. والقليل من لباب الخيار نافع. والشواذج للمبرود أجمل. والحنطيات لصاحب الجماع يغنى. وأكل الهرايس أفضل. وشراب الرمان فى المعدة موحل. والبطيخ فيه فوائد: مطعم ومشرب، وريح طيب، ومقطع سال، ومدرّ البول، ومقطر لغسل المثانة، ويذهب مع القئ الخلط. وفيه مضار: ينشف الخلق، ويزيد الصفراء، ويورث الحكاك، ودفعه بالسكنجبين. والقبيت المحلى يقطع الشهوات، ويعصم ويسمن مع الريح الطيب. وخير الفواكه أنضجها، وأجودها قبل الطعام إلا الكمثرى فقليله نافع بعد الطعام. وتقليل النرد أجود لعينك: عن صفة الطيب فدت. والجائع درهم أو أقل. وقد تصعب مداواة المتخوم. ويكره تعجيل الماء عقيب الطعام، ويستحبّ امتصاصه، ويكره عَبُّه، وأكل الحوامض فى الصيف أنفع، والسوادج فى الشتاء. وأنفع الفواكه الغدى مثل التين والعنب، وأنفع الرمان الملاسى قليله بعد الطعام أو عند النوم، وهو مضر بأصحاب الجماع لا سيما حامضه.

فصل وهو المقالة التاسعة عشرة فى الأشربة

أما السكنجبين فهو أول ما صنع لذى القرنين، وأجود المعتد، وإبقاء المنعقد. وشراب الرمان يوحل المعدة وفيه تبريد الكبد. وشراب الخشخاش والبنفسج والنيلوفر فوائد عملها فى الرأس. وشراب المراسن يعمل فى الخلط السوداوى حتى زعم أبو نصر الفارابى أنه يغنى عن المفرح الصفير. وأما شراب التفاح وما يتخذ منه ففيه الفوائد القلبية. وأما شراب الورد فهو يسهل الخلط الصفراوى، فإن أعنته بدرهم ونصف ثريد، ودرهمين سورنجان، فيكون سفوفًا قبل شراب الورد أوبعده. وأما الأرباب فرب السفرجل يعصم المحرور، ورب التفاح يعمل فى النميجة الواردة عن ضعف القلب إذا كان من حرارة، ورب التوت فخاصيته فى الحلق. وجميع الأشربة والربوب فالغناء عنها بالحمية مع العود إلى العادة القديمة كما جاء فى حديث «**المَعدَةُ بَيْتُ الداَّء والحَميّةُ رَأسُ الدَّوَاء، وَعوِّدُوا كُلَّ بَدَن مَا اعْتَادَ**» ولابأس لمن اعتاد الشربة أن يتعهدها عند الحاجة إليها، قال أبو طالب المكى ﵁: لا تتعرضوا مع العافية إلى الدواء فربما يفضها. وشرب الدواء فى الخريف أولى من الربيع، لقربه من المآكل التى تحدث السهولة. وأما البقول فأنفعها الهليون والاسفناج. روى ابن قتيبة أن النبى ﷺ قال: «**أربع حشائش من الجبنة يقطر عليها فى كل ليلة قطرة من ماء الجنة، وهى الاسفناج والهندبا والهليون والخس، ففى الهندباء تبريد، وفى الاسفناج والهليون ترطيب، والخس يولد دمًا صالحًا**». وأنفع الهليون ما عمل بمخاض البيض والزيرباج، وأنفع البيض مخاخه، وأجود الخيار القليل من باطنه، وأما الكرفس فإنه يفتح السدد قليله، وقد يتبرك به الناس فى بعض البلاد. والسداب يورث الجذام إذ أصله من خرء الذباب. قال ﷺ فى التين: «**كُلِ التِّينَ رَطْبًا كَانَ أَوْ يَابِسًا فإنَّهُ يَنْفَعُ فى الجُذَامِ وَالنِّقْرِسِ وَالبَرَص**». زعم الأطباء أن فى التين خاصية قطع الناسور ويدر دم الحيض، وأنفعه الغدى الصغير الأزرق البالغ، وأكله على الريق أنفع وآخره أجود من أوله. وأول البطيخ أجود من آخره. وخيار الخريف حمى، وريحان الخريف زكام. والشرب فى كوز الجماعة يورث الآلام، وسره من أبخرة الأفواه. وحتن البول يورث حصاة المثانة. وشرب بذر البطيخ السقى يعمل فى عسر البول، وغديه إذا دُقّ مع الكشنة أو العدس ينعم البدن ويزيل الزهكة. ويكره الغسل فى الحمام بالعدس والمواضع النجسة، ويجوز الغسل بالعدس فى الأوانى، ودارك الأشنان ينشف رطوبات الأبدان ويسمى ويسمر الألوان. ومعجون السمسم فيه ترطيب الشعر وتنعم البدن وشقاق القدمين أمان من الجذام. وأكل اليقطين يعمل فى الخلط السوداوى. وحلاوة القرع تزيل التجفيف. والزيرباج فأعدل الألوان، لكن بشرط أن يضاف إليه الخشخاش المرضوض.

واللوز المحمص المرضوض من الدارجيني والزعفران يحل بالماء الورد والعسل يوضع في رأس البطيخ، هذه حيلتهم على السكنجبين. وأنفع الحلوة ما كثر خبزه، وأرطبها حلوة البيض، والقطايف أميرها. والمسير ثقيل في المعدة، وأجود السهل الناعم مثل الصابونية والكافورية. وأما خبيص اللوز فثقيل، وأجود الناضج الكثير الخشخاش. وأما الهرايس فأجودها أنضجها وأحقها بلحم الحديث من المعز والضأن قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«شَكَوْتُ إلى أخي جِبْرَائيلَ ضعفَ الوقَاعِ فَأَمَرَني بِأَكْلِ الهَرَايِس فَوَجَدْتُ لأمْرِي جَبراً»**. والإكثار من لحم الدجاج يورث الحرارة في الأطراف. والمأمونية بالخروف المشوي أجمل لكنها أثقل. هذا فصل إشارة في الأدوية والأطعمة وأنفعها ما دام وقل حسابه، فهذا طعام المترفين، فقد قدم عثمان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قطايفًا بالقند والفستق ودهن القرع، ففرك وجهه ﷺ ثم قال: **« آه منّ طَعَامِ المُتْرَفِينَ وَحِسَابِ المُتْرَفِينَ»** وقدم قعب من حليب وتمر إلى النبي ﷺ فقال: **«كليه يا عائشة بالسمن يكن أليق»**. وكان يأكل النيت بعسل العرفط والمعافير. فمن ترك شهوات الدنيا وهو قادر عليها كتب له من الأجر ما لا يعد، والسر فيه أنه أوقع بينه وبين نفسه فسكت عن اللذات والشهوات، فإذا فارقت هذا العالم الخسيس والحبس المظلم والجسد المعتم لم تتأسف على مفارقة المحقورات، رقت على عالمها وشرفت بعلمها، مثل العلوم المرسومة المتقشة فيها، مثل علم التوحيد، وهو العلم بالله وحده بالبراهين النقلية والعقلية، يحدث به لك جناح تخرق به عالم الملكوت، إذ الأرواح ثلاثة: نفس العارف، والناسك، والزاهد، إذا اجتمعت خلالها الثلاثة فلا يضرها الموت ولا الفوت، لأنها كاملة رقت إلى عالم الكمال فهي تحظى بما ليس في الجنة من المقامات العلوية والأنوار القدسية في الحضرة الصمدية، مجاورة للملائكة الروحانية، تجتمع إليها وتسمع عليها من العلوم المودعة عندها، فهي تنفصل عن عالم الكون والفساد وتلتحق بعالم البقاء الذي ليس فيه نقص ولا نفاد **«أعددت لعبادي في جنتي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»** اعلم أن هذا الحديث يدل على أن وراء نعيم الجنة نعيمًا لا تدركه النفوس إلا مع مشاهدة، فهذا يعجز عن صفة مشاهدة، لأنها لذة ذاتية تجوز عن حد التعبير والتفسير، كما لو قيل للعنين عن لذة الجماع لما عقل، ومدرك اللذة لا يقدر على تعبيره، فهذا لا يدركه إلا شاهده وهو النظر إلى الله الكريم. وأنت تريد أن تعرف لذة المشاهدة من غير إبصار، كما لا ينتفع الجبان بذكر الحرب من غير مشاهدة ولا مواقعة، وكيف تطمع مع الغفلة برفع الحجاب وقد سمعت أن زين العابدين عليه صلوات الله كان إذا قام في صلاته يرفع السد بينه وبين محبوبه فيطاف بقلبه في عالم الملكوت الأعلى؟ وهو معنى قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: سلوني عن طريق السموات فإني أخبركم بها.

وأنت أيها المبطل الغافل عبد نفسك وأسير شهوتك وتريد أن تلحق بالأبرار والمقربين، أو تطلع مع حجتك وجهلك في كرامات الصالحين! (شعر):

تُريدينَ إدْراكَ المعالى رَخيصة
ولَا بدَّ دونَ الشَّهد من إبر النحل

تُريدينَ أنْ أرْضَى وأنْت بَخيلة
فَمن ذا الذى يُرْضى الأحبة بالبخل

فجاهد ولا تجاهد، واركب فرس حسن ظنك، واقطع الغاية حتى تكون آية، والبس ثوب الشفاء إن أحببت اللقاء، وارض بالعيش الطفيف إن أحببت أن ترقى في عالم المجد إلى قُلة حمى الملكوت، قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«ظَفَرَ الزَّاهدونَ بعزِّ الدُّنْيَا ونَعيم الآخرَة»**، وسلم المجنون على ليلى فأبت رد السلام فقال لها: ولِمَ؟ فقالت: أخبرت أنك نمت البارحة لحظة، ولو كنت صادقًا لما نمت عنا، فقال: عسر عليَّ زيارتكم فأحببت أن أراكم في المنام فنمت، فقالت له ليلى: كأن شخصى قد زال عن قلبك ومثالى، فقال: عزمت عن المثال فاستفقت إلى التمثال، فأنشدت ليلى:

لَمْ يَكُنِ المَجْنُونُ في حالة
إلاَّ وَقَدْ كنت كما كانا

بل لى عليه الفضلُ من أجل ما
بَاحَ وإنى متّ كتمانا

قالوا: يا رسول الله إن بشرًا وهندًا ماتا في حبهما، فقال ﷺ: **«عجزوا عن حمل المحبة فماتا»**، ثم قالت عائشة: حتى لك يورثك شوقًا وفقرًا؟ فقالت: أو أبقى بعدك لا كنت إن بقيت، فقال: **«ستبقين ولكن تشقين حتى تلقين»**، ثم قال: **«يا عائشة إذا مات الزوجان المتحابان فلينظر أحدهما رفيقه كانتظار الغائب»**. (شعر):

نَرَى تَقَدُّم الغُيَّاب حتى نَرَاهُمُ
ونأخذُ شوقًا منهم حين نأنسُ

لقد ضاقَت الدُّنيا علينا ببعدكم
كَمنْ غَصَّ بالماء الفرات فييأسُ

لَئنْ غبتم عن ظاهر الأمر بيننا
فما أنا إلا للمحبَّة أدرسُ

إذا ما جلسنا نذكرُ البَيْنَ بيننا
تضيقُ القوافى منكم حيث أجْلسُ

ولما حضر الموت الصديق قالت زوجته: وافراقاه! فقال الصديق: بل أنا وافرحاه بلقاء الأحباب! فلا تخف الموت إن كنت مشتاقًا إلى أحبابك، فلا بدَّ من اللقاء فى دار البقاء، فشمر عليك، وقدم بين يديك عساك تظفر بسهرك، فمن أدلج بلغ المنزل، ومن جعل الليل له جملاً قطع عليه مفاوز الهلكات. (شعر):

فَثِبْ واثقًا بالله وَثْبَةَ ماجد
ترى الموت فى الهيجا جَنى النحل فى الفم

وشق الجنيد جبيبته لما سمع صبيًّا يترنم ويقول: أرى زمانى يمر بخشن وينقضى بالمغالطة، وقد تركنى زمانى بحال مالى حال، إذا صحت الأعمال وطينت الأجسام وسهر العاشقون وقللوا الزاد والرقاد، فتحت أبواب بساتين الاشتياق، ونزعت شموس المعرفة، وأزهرت مزاهر القرب من وراء الحجب، وأشرقت هياكل القلب من أنوار جمال الرب، ورفع الحجاب وقطعت الأمانى، ونادى العاشق بمعشوقه، كوشف بالكائنات، وشاهد حقائق الموجودات، وحظى بأنواع المكاشفات، ونثر عليه نثار الكرامات، وبشر بأعلى المقامات. وقال أبو الحسن النورى: دخلنا على أبى يزيد البسطامى فوجدنا لديه رطبًا، فقال كلوه فإنه هدية الخضر جاء بها من عند رسول الله ﷺ، وأنا ما طلبتها إلا من الله تعالى، ما طلبتها بواسطة الخضر، أكلها على يدى الخضر. ثم دخلنا عليه فى الجمعة الثانية فوجدنا بين يديه رطبًا فى طبق ذهب أحمر، فقلنا: ما تطعمنا منه؟ فقال لا هى لى ولا لكم، فقلنا: كيف حديثها؟ فقال: كنت قاعدًا بالليل أتلو القرآن فسمعت خذ الهدية منا لا واسطة بيننا. واعلم أيها الغافل المحجوب عن لذة المعرفة أن أحباب الله يتدللون عليه كما يتدلل المعشوق على عاشقه، كما قال رابعة: بحق ما كان بينى وبينك البارحة اجمع اليوم بينى وبين شيخنا يونس بن عبيد! فدخل يونس فقال: يا رابعة ضيعت دعوة فيما لا بد أن يكون، فقالت: يا شيخ دع عنك هذا فأين آثار دلال الأحباب وأنت تريد سببًا بلاش، فهذا طلب الأوباش. قال الجنيد لرجل يعطى أجرة الفعلة: أما تعطينى معهم يا شيخ؟ فقال الرجل: يا أحمق تمنى نفسك بالبطالة لو عملت لأخذت. وقد مر الشبلى بدار فسمع صاحبة الدار تقول لزوجها: لا تمن عليك إلا بقدر فعلك، تريد بلاش عناق وزقاق، فقال الزوج الكسل يعمل أكثر من هذا، وأنشد:

قد فَاتَنِى مَقْصَدِى فُذُبْتُ جَوًى
حطت لدينا مصائب الكسل
لو علمت لرضيت عنى خليلة

المقالة العشرون
فى المأكل والمشرب وآداب المائدة

اعلم أن الله تعالى خلق هذه الصورة الآدمية وجعل لها غذاء وهو سبب بقائها، فالناس فيه ضروبٌ: فطائفة تقنع بالقليل من المأكل، وهى المتقنعة التى يصلح أن يكون منها متعبدون، والتى هى شبيه الملائكة بخصالها وخلالها ونومها ومأكلها، فكلما قل الغذاء كنت مشبهًا لسكان السماء، وثمرته العافية والغناء عن الطيب، ومن قلة الأكل يحصل رقة القلب وقله المخرج، فمن كانت همته ما يدخل فى بطنه كانت قيمته ما يخرج منها، والإقلال من الأمراق والفواكه أسلم. واعلم أن كثرة المأكل ككثرة الرفاق لا تربح من كثرتهم خيرًا، ألم تر إلى رسول الله ﷺ ما كان يجمع بين الإدامين؟ فهذا فيه زهد وطب. وفى البطون بطون نارية تأكل ما يلقى إليها، والنار لها سبعة أبواب، وللبطون مثلها، مثل باب الحرص، وباب الشره، وباب النميمة، وباب شدة الجوع، وقلة المبالاة بالخطايا والمأكل الحرام أشد الذنوب وأعظمها. وللجسد سبعة أبواب دالة على أبواب جهنم، مثل السمع والبصر واللسان والبطن والفرج واليدان والقدمان. فهذه أبواب السعاية الدالة على القبائح وأعظمها البطون، وأعظم الأفعال القبيحة مظالم العبيد، وقال النبى ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ لُقْمَتَيْنِ منْ حَرَامٍ حَجَبْتُ دَعْوَتَهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَمَنْ مَلأَ بَطْنَهُ كَانَت النَّار أَوْلَى به**». والحرام هو مثل المغصوب والسرقة، وأخذ القصاص والجناية بغير إذن ربها، وقطع الطريق، وقبول الرشوة، والإجارات على الطاعات، وابتياع الحرام، وأجرة الحجامات، وأخذ ما لا يستحق حتى نوبة الماء، وأنواع كثيرة ذكرناها فى كتب «الإحياء» من الحلال والحرام. وأما المكاسب الحلال فأصلها الحلال مثل البيض والبلوط والمن والحشيش والحطب. وأما الصيد ففيه كلام بين العلماء فتركه أجمل، وعملك بيدك مع النصح أجل وأكسب. اجتمع أبو الحسين النورى وأبو يزيد وسفيان بن عيينة فأخذوا ببعض أجرتهم خبزًا وتصدقوا بالباقى، فلما قعدوا لأكل الزاد قال سفيان: هل تعلمون منكم النصح فى الحصاد؟ فقالوا: لا نعلم، فتركوا الخبز مكانه وراحوا. واعلم أن سر الحرام غامض نكشف بعضه فنقول: إن الصانع واحد والخلق من فيضه، فالمعتدى على بعض أجزاء الفيض يسرى بعدوانه إلى الكل كما قال تعالى فى القاتل: ﴿**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: ٣٢]. والقياس إذا قال: شعرك طالق، سرى الطلاق فى جميع جسدها، وهكذا إذا تصدقت فقد أرضيت به الصانع والمصنوع. واللقمة الطيبة وهى الحلال أفضل عند الله من صدقات كثيرة، فإذا أردت الأكل فكل ما دنا من الأرض بالأصابع الثلاثة بعد الجوع، وقم

قبل الشبع، واقعدوا كقعودك بين يدى شيخك للتعليم. واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد نزع البركة من الحار والحرام، وفى المأكل الحار أربع مضار: يهدم الأسنان، ويصفر الألوان، ويزيل الكبد، وربما يخاف عليه من أذى المصران. وغسل اليدين من الطعام وبعده. ولا يجوز أكل المنتن للزوجين إلا بإذن بعضهم بعضًا، والسر فيه أنه يورث النفرة بين الزوجين. والريح الطيب مؤلف ومحبب. وترك غسل اليدين يقمل الثوب ويولد رائحة كريهة وربما على ما ورد أن الشيطان يسترضع اليد ويستحسن الصورة فيألفها. ولما كان المقصود من الحلال تصفية القلوب وتقليل الذنوب، صار طلبه فرضًا كطلب العلم فإن العلم إذا لم يدل على خير فهو ضرر، وفى الحديث **«مَنْ أَكَلَ الحَلالَ سَنَةً كُشِفَ لَهُ عن طَرَازِ العَرْشِ وَصَفَتْ أَنْوارُ خَوَاطِره»**. وهو كيمياء السعادة الأبدية، ينشرح به الصدور، وتصفو به أنوار المعرفة، ويثبت فى القلب عين الحكم، وبه تكشف غشاوة الغفلة، وترفع سدود الغرور، فيبين صفاء سماء التوحيد، وينكشف له اللوح المجيد، وتسمع بأذن صفا خاطرك هدير تسبيح الملائكة المقربين.

واعلم أن النفوس لا تكون مرهونة بعد الموت إلا بمظالم العبيد، والسر مطالبة حاضرة بين غريمين بين يدى حاكم عدل عليم باق. والمساواة واقعة بين العبدين إلا من أتى الله بقلب سليم، تخلصت الذمم من المظالم، وانفك قيد النفوس، فصارت الأرواح أين تختار، ولهذا قال ﷺ: **«إنَّ الأَرْوَاحَ لَتَزُور بُيُوتَها وأَهْلَها، فَإِنْ رَأَتْهم بخَيْر شَكَرَتْ وَإِلاَّ نَفَرَتْ وَهِى تُنَادى يا أَهْلِى إِيَّاكُمْ وَالدُّنْيا فَلا تَغُرَّنَّكُمْ كَمَا غَرَّتْ بى»** وهذا هو سر نداء الندم وأما الأرواح الطيبة الطاهرة من الدنس والآثام والمظالم فهى تطير أين شاءت واختارت على صور ذكرها الناس، إما جوهر، أو هيئة ملك، أو جسم لطيف، والكل مدرك حساس عليم بمفارقة الجسد. فبقدر انتقاش علمك يا هادى سيرقى العلم فوق الجهول، وفى الحديث: **«إنَّ رَدَّ درهَم مَظْلَمَة أَفْضَلُ عنْدَ الله منْ أَرْبَعَة آلاف حجَّة مَقْبُولة»** فإذا كان حجتك واجتهادك خوفًا من الآثام فاقطع أصولها.

المقالة الحادية والعشرون
فى تهذيب النفوس

اعلم أن نفسك أشد عداوة لك كما فى الحديث: **«نفسك التى بين جنبيك هى أعدى عدوك تدعوك إلى الوبال، وترشدك على الضلال، وتوقعك فى الدناءة، وتركبك نفس الهوى، وتوقعك، وتطمعك، وتهلكك، وتملكك، فاقطع خصالها وخلالها وشرهها وشركها وطمعها وولعها وشبعها»**. وفى الحديث: **«أَنَّ الله تَعَالى لَمَّا خَلَقَ النَّفْسَ قَال لها:**

مَنْ أَنَا؟ فَقَالَتْ: وَأَنَا مَنْ أَنَا؟ فَعَذَّبَها بأَنْواعِ العَذَابِ، فَكُلَّما قَالَ لها مَنْ أَنَا فَتَقُولُ وَأَنَا مَنْ أَنَا، حَتَّى عَذَّبها بِالجُوعِ وَالتَّواضُعِ، فَقَالَتْ: أَنْتَ الله الَّذِى لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ» فنفسك زنجية تطالبك بالشهوات، فإذا شبعت طمعت، وإذا عصيت رفضت، هى الموقعة فى البلايا وهى أم الرزايا، هى الذئب الكلب، والأسد الحرب، والكلب النهم، والعدو القرم، داؤها كثير ودواؤها قليل، وأعظم وسائل السلامة منها الخلاف لها (شعر):

إذا طالبتكَ النفسُ يومًا بِشهْوَةٍ
وكانَ عليها للهواءِ طريقُ

فَخَالِفْ هواها ما استطعتَ فإنَّما
هَوَاها عَدُوٌّ والخلافُ صديقُ

ولا يجد المريض حسن الشفاء إلا بالصبر على مر الدواء، فعذبها بما تهذبها، فقد أنشد البستى لنفسه (شعر):

العاقل يهزا بى
والخلوة تهذيبى

ما أصعبَ أحوالى
ونفسى كالذِّيب

فإذا عزمت على تهذيبها فاضربها بسياط تعذيبها، واقمع بالتواضع كبرها، واطبخها بنار الامتحان، واجعل العلم لها سيد الأخدان، والعمل الصالح لها مولى الخلان. وتعلم الأخلاق اللطيفة، وتكسب الأعمال الصالحة، والطف واظرف، وتكايس ولا تتيابس. واعلم أن الله لطيف، وليس من شأن اللطيف أن يعذب اللطيف والمهذب لنفسه والمعذبها بنيران المجاهدة. واعلم أن الخير عادة والشر لجاجة. فربها بالنوافل، وهذبها بين يدى شيخك بالسمع والطاعة، واعلم أن حرمة الشيخ أعظم من حرمة الوالدين، والشيخ هو الوالد على الحقيقة، والمرشد إلى الطريقة، والمخرج للمريد من ظلم الجهل إلى نور المعرفة، وإلى السعادة الأبدية، والنجاة الحاصلة، والالتحاق بالملائكة، لأن الشيخ هو الطبيب للذنوب، وأما الوالدان فهاجت نيران شهواتهما لقضاء الوطر، وجنيت أنت من ثمار الشهوة ما تقدمت نيتها بإيجادك عند الوطء وكان سببًا لإخراجك من ظلم العدم إلى ظلم الجهل ودار المكايدة والعناء، فقد أجادا نقلاً وقصرًا وعقلاً. وأنشدنى المعرى لنفسه وأنا شاب فى صحبة يوسف بن على شيخ الإسلام:

أنا صائم طولَ الحياة وإنَّما
فِطْرى الحِمَامُ ويوم ذاك أُعَيِّدُ

قد فاز من صبح وليل أو دنا
شعرى وأيدنى الزمان الأيّدُ
قالوا فلانٌ جَيِّدٌ لصديقه
كَذِبًا أتَوْا ما فى البريّه جَيِّدُ
فأميرهُمْ نالَ الإمارة بالخَنَا
ونَقيبُهمْ بصَلاته يتصيَّدُ
كُنْ مَنْ تشاءُ مُهَجنًا أو خالصًا
فإذا رُزِقْتَ حِجًى فأنت السيِّدُ
والله ما سمعوا مقالَةَ صادق
إلا وَظَنُّوا أنَّه مُتَزَيِّدُ

هذا الشعر فى بحر لزوم ما لا يلزم.

ومن علامة علمك أنهم إذا مرجوا لا تلتفت، وإذا مزحوا لا تتزلزل، وإذا كابروك لا تحول. وكابد نفسك عن المزاعقة والمصايحة، فالكبر مطيب النفس، فإذا أردت الغاية الكبرى فى تهذيبها فاقصرها فى بيت أربعين صباحًا أو أربعة أشهر، وهو الأفضل، وانقطع كأنك ميت، ولا تبق لك حاجة، وحصل من الزاد ما وافقك وأعانك كما تحصل طريق مكة، ثم اركب مطية متابعة الشرع، ثم سر فى فلوات قمع النفس، وليكن البيت مظلمًا وزمان الشتاء أولى. ولا تأت بغير الفرائض من الصلوات، ولا تنم إلا غلبة، وكل ثلثى أكلك بعد الجوع، ومقداره من اللقم الوسيطة ستة وثلاثون لقمة. وليكن ذكرك لا إله إلا الله الحى القيوم، فإذا كَلَّ اللسان فقل بقلبك ولا تخف من الواردات عليك فقد يجيئك صورة قبيحة، وخيالات قاطعة، وجن وشياطين وملائكة ومعلمون، فواحد يقول أعلمك الكيمياء، وآخر يمنيك بالكنوز، وهذا يوعدك، وهذا يهددك، فلا تلتفت، فإنه سيظهر لك مع الصدق وترك التجربة عجائب وفنون، فعند ذلك تذوب كثائف الحجب عن القلب، وترفع ستور الغفلة بين قلبك وبين اللوح المحفوظ فتشاهد ما فيه، وتنتقل إلى الخلائق معاينة، وينكشف لك فى اليقظة، ما كنت تشاهده فى المنام، فيستنير القلب، وينشرح الصدر بأنوار الجلال، وتنخرق الكائنات، وتنكشف المستورات، وتظهر الكرامات التى هو أخوات المعجزات، وبينهما فرق فى التحدى والإظهار والاستتار، بل إذا وصل العبد إلى درجة التمكين صار الكل بحكمه، ما شاء فعل أو قال: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى: ١١]. وكل ما تجده فى الخلوة تعرفه شيخك، فالشيخ فى قومه كالنبى فى أمته، ومن ليس له شيخ فالشيطان شيخه، ومن مات بغير شيخ فقد مات ميتة الجاهلية، فيعلمه

ويدله ويعرفه طريق الوصول إلى الله تعالى وصاحب الخلوة يهب عليه نسيم القرب من دواخل الحجب، وينكشف له أسرار قلوب المخلوقين، ويزوره الأبدال، فتراه فرحًا طيب الخلق حسن العشرة، دَعِبٌ لَعِبٌ، لأن الله يكون قد تجلى بقلبه، فيسمع كلامه، ويبلغ منه مرامه، ويكاشف شموس المشاهدة، ويعلم المخفيات، ويطلع على الكائنات. ومن علامات الواصل بالله: حسن الخلق، وكثرة العلم، وحلاوة الكلام، والتواضع، وصاحب هذا الطريق مع علمه العزيز لا عبوس، ولا حقود، ولا متكبر، ولا ظالم، ولا متجبر، ولا أكول، ولا شروب، ولا نؤوم، نفسه ملكوتية، قَوَّى جبرائيل همته، ونَفَخَ إسرافيل سعادته في صور همته، فحدا به حادى محبته، وسار به في بيداء معرفته، حتى تجلى له بيت الجلال، فانكشف منه خاصيته يمشى بها على الماء والهواء ويطوى له بها البعيد. فاقربوا من هذا الرجل تكتسبون من قربه وفيض خاصيته ما اكتسبه الهلال من قرب الشمس. وربما ينتقل أحوال الأبدال إلى التلاميذ والمريدين كما انتقلت النبوة من موسى إلى يوشع بن نون.

واعلم أن الأحوال والمقامات لا يصدقها إلا من عرفها، كما لا يصدق علم الكيمياء إلا من عالجه وعرفه، فكل من يكلم عند الصانع الواصل العليم فقد هدى، فإن الأعمى لا يبصر القمر، والزمن لا يعدو خلف الطريدة. وأنت تغيب وليس فيك نصيب، ولا أنت محب ولا حبيب، بطنك ملاءة وعينك محيطة ولسانك معقود، وعملك قليل وأملك طويل، وذنبك عزيز وربك بصير. فاسمع مناديك في جانب واديك قال: لا تعب الحرائر حتى تكون مثلهم، واخش بمفلح نادى من وراء اللوح. فأحسن الظن فإنك قد طرحت فطرحت، وجرحت فجرحت، ولو أوصلت لوصلت، ولو خدمت لخدمت، لكنك متشبث تجعل ط م ع وهي خالية من النقط فهلكت وما ملكت، وما فاتك فاتك والندم تجده عند وفاتك. واعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون (شعر):

قل للكئيب المعنَّى ... إلى متى تتعنَّى
فلا حَيَاتُكَ تصفو ... ولا بنا تتهنَّا

المقالة الثانية والعشرون
في الأذكار

واعلم أن الآيات الدالات على الذكر والأخبار كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾

[الأحزاب: ٤١]. وقوله: ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وقوله: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. بين المراتب والأوقات. والذكر الخفى أجمل، إذ ليس فيه أذىً لسامعه، وهو خالص عن الرياء والنفاق، مثل صوم السر وصدقته، والحث عليه كثير. وقد سئل رسول الله ﷺ عن رجل يتصدق بمال حلال وآخر يذكر الله من صلاة الصبح إلى طلوع الشمس فأى الرجلين أفضل؟ فقال: «**ولذكر الله أكبر**». وفى الحديث: «**أنه من ذكر الله من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فله أجر من تصديق بمائة ناقة حمراء حملها من ذهب أحمر، وكأنه قد أعتق ثمانية رقاب من بنى عبد المطلب**». ثم الذكر له ثلاث وظائف: فذكر الظاهر بلقلقة اللسان، فهذا يستحب فى التلاوات من هياكل العبادات، والذكر الخفى أعلى ضروب العبادات والصدقات، وذكر القلب، ومنه يحدث الغناء من العالم والاشتغال بالمحبوب: «**أنا ذاكر من ذكرني، وجليس من شكرني، وحبيب من أحبني. من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ من قومه ذكرته في ملإ من ملائكتي**» ثم يحصل من الفناء الأول فناء ثان وهو أن يغيب عن النفس لمشاهدة حضرة القدس، فيصير الذكر لك عادة وعبادة. كشف الموت عنك أعباء الأثقال عدت فى عادة ذكرك مع الملائكة الذاكرين، إذ الخير عادة. ويطاف بك فى ساحة حظيرة القدس وتحظى بقرب من ذكرت، وهو قرب إكرام ومنزل احتشام. ومن هذا الذكر ما هو قرآن، ثم بعده تسبيح، ثم صلوات النبى ﷺ، ثم استغفار ودعاء. فهذه وظائفه، فواظب عليه فإنه يكشف لك من سر الربوبية ما يغنيك عن ملتمس كل حال، تشاهد الملائكة، ويخدمك مؤمن الجن، ويطيعك أعضاؤك ويزول وقر أذنك فتسمع تسبيح الجمادات ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقد يحصل من ثمر الذكر أكثر ما مر بك فى تهذيب النفوس، ويثمر عليك أيضًا ما أثمر على زين العابدين ذى الثفنات السجاد، فإنه كان يسجد بين الليل والنهار ألف سجدة فأثمر عليه، كان إذا قام فى صلاته يكشف له الكائنات فيطلع على حومة حظيرة القدس. وبه بلغ أصحاب المقامات درجات المكاشفات والسير على الماء والهواء، وبه سمت الملائكة إلى أعلى قُلل الشرف، واستحقوا دوام البقاء للتنزه عن المأكل والمشرب مع مداومات الذكر وشراب الفكر، وهو التنزيه والتسبيح من الملائكة، وبه تجذب الملوك إلى المتزهدين، وبه تنال مراتب العاشقين، ويحدث منه خاصة جذب القلوب، وقد يقف الذاكر الصادق على باب الآداب، وينحل بالذكر طريق الأسباب، فتخلع نعل حب الدنيا عن قدم إقدامه، ويقطع عوسج وساوسهم ببلوغ مرامه، ويقف على طور صفاء قلبه فى وادى تقديس لبه هناك فيسمع كلام ربه: ﴿ **إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [القصص: ٣٠].

ويكفيك ما مر بك من قصة أمية بن أبى الصلت الثقفى: كان يترشح إلى طلب النبوة فقال لأخيه: ها أنا أنا فاصطنع لى طعامًا! قال فبينا هو نائم إذ رأيت قد نزل طائران من النافذة فشق أحدهما صدره ثم أخرج منه نكتة سوداء، فقال أحدهما: أوعى؟ قال: نعم وعى علوم الأولين، فقال: أوَ زكى؟ فقال: لا، فقال: ردَّ فؤاده إليه فليست النبوة له إنما هى لسلالة آل عبدالمطلب. فلما انتبه أخبرته بالقصة فبكى وتمثل:

باتَتْ هُمُومِى تَسْرى طوارِقُها
أَغُضُّ عَيْنى والدَّمعُ سابِقُها

مما أتانى من اليَقين ولَمْ
أوتَ براءةً يقَصُّ ناطِقُها

إمّا لَظَى عليه واقدة
النَّار محيطٌ بهم سُرادِقُها

أمْ أسكنُ الجنةَ التى وُعِدَ الأبـ
ـرارُ وحُفَّت بهم حدائقُها

هما فريقان فرقةٌ تدخلُ الـ
ـجَنَّةَ مصفوفةٌ نمارِقُها

وفرقةٌ منهما قد أُدْخِلَت النـ
ـارَ وسيِّئاتهم مرافِقُها

لا يستوى المنزلان ثم ولا الـ
ـأعمال لا يستوى طرائقُها

تعاهدت هذه النفوس إذا
هَمَّتْ بخير عاقت عوائقُها

وصدّها للشقاء عن طلب الجنـ
ـة دنيا الله ماحقُها

عبدٌ وعى نفسه فعاتبها
يعلم أنَّ البصيرَ رامقُها

ما رغبةُ النَّفْسِ فى الحياة لتحـ
ـيا طويلاً فالموتُ لاحقُها

يوشك مَنْ فَرَّ مِنْ مَنيَّته
يومًا على غرةٍ يوافقُها

إن لم تمتْ غِبْطةً تَمُتْ هرمًا
الموت كأسٌ والمرءُ ذائقُها

وبها مات مصدوع الكبد: منعه شركه عن نيل مقصده، إذ الشهوات قاطعة، واللذات مانعة. ومن رام الماء صبر على الكدر، ومن قطع الليل خلص عن حر الطريق، ومن جعل نفسه ذات الشهوات كان مسقطه الكنيف والخلوات، ومن قطع العلو بهمة المجاهدات نال أعظم المراتب بالصبر على المصائب والنوائب. وما صاحب المأكل الكثير يحظى بسوء التدبير،وهو مستور لا يفلح أبدًا.

المقالة الثالثة والعشرون
فى جهاد النفس والتدبير

قال النبى ﷺ: «**رَجَعْنا من الجِهَاد الأَصْغَر إلى الجهاد الأَكْبَر**». قالوا: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ فقال: «**هى مُجَاهَدَةُ النَّفْس**» وقال ﷺ: «**أَعدَى عَدوِّكَ نَفْسُكَ الَّتى بَيْنَ جَنْبَيْكَ**». وقال ﷺ: «**بُعثْتُ لأُتَمِّمَ مكَارِمَ الأَخلاق**». واعلم أن النفس أخلاقها ذميمة غير مستقيمة، فإن فيها مع صغر حجمها. كما قلناه ما فى السموات والأرضين، وهى النار الموصدة فيها ذئاب الغيبة، وكلاب الشهوة، وسباع الغضب، ونمور المخالفة، وثعالب الحيلة، وكمين الشياطين بعسكر الهوى، ومناجيق الامتحان، ووساوس القبيح، كل هذا يكن تحت قلة قلعة النفوس محيط بربضها وحصنها. واعلم أن القلب مدينة وساكنها الملك، وهى النفس اللطيفة، المدركة، العالمة، الطاهرة، الربانية، الخارجة عن صفة النفخة المشار بها إلى الروح، وهى محجوبة بالأبخرة الظاهرة المتولدة من دم القلب الذى هو الشكل الصنوبرى واللحم المجوف. وما هذا هو القلب المخاطب وإنما العقل، فهو المخاطب من قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُون يَا أُولِي الأَلْبَاب**﴾ [البقرة: ١٩٧]. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق: ٣٧]. وهو معنى قوله: ﴿**أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٢]. والنفس المشار إليها هى أسيرة الشهوات، مقيدة بقيد الغفلات، مشوهة مستورة بالخيالات، عاشقة للدنيا قد أطمعت ببخسها، فأصبحت محبطة، سكرى، قلقة، حيرانة، مشغولة بخدمة الجسد الترابى تحمله للكنيف، مشغولة بتربيته وتغذيته، ألفته فعشقته، فإذا فرق بينها تأسف، حتى إذا مر عليها بمثل ما خدمته بطول المدة نسبته وأنكرته كأنها ما عرفته، فإذا ردت إليه نفرت حتى تسمع إشارة القدس ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ**﴾ [السورة: ٢٧، ٢٨]. هذا خطاب موجد لموجود غير مفقود إذ لا يجوز خطاب المعدوم، ومن شواهد ذلك قوله ﷺ: «**تُعْرَضُ عَلَىَّ أَعْمَالُ أُمَّتي فى كُلِّ اثْنَيْن وَخَميس، فَمَا كَانَ منْ حَسَنَة أُسَرُّ بهَا، وَمَا كَانَ منْ سَيِّئة أَسْتَغْفرُ لَهَا، اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى الزُّنَاة**». وقوله ﷺ: «**أَكْثرُوا منَ الصَّلاة علىَّ فَإنَّ صَلاَتَكُمْ عَلَىَّ مَعْرُوضَة**» فأيها المكذب المذبذب

الغافل المتأول، أتراك تعجز الصانع القادر؟ تزعم يا مسكين أن لا عود للأجسام والأرواح إلى الصانع القديم القادر، أهو ذاك أم غيره سواه؟ أتتجحد عليه وتتحكم وتعجزه فى قدرته وآيته ونبوته؟ أفمن رباك فى بطن أمك أفلا يربيك فى بطن قبرك؟ ثم تقول: تختلط العظام بعضًا ببعض، فكيف السبيل إلى تخليصها؟ فانظر إلى الصانع كيف يخلص التراب وبرادات الذهب والفضة والحديد، وهو أجزاء تعجز أنت خلاصها. فالصانع القادر ليس بمعجز ولا يدخل تحت طوق ما تريد، وإنما أنت عاجز تعجز وتغتر بمقالات أبى على بن سينا، أقد صار عندك أصدق من محمد ﷺ؟ فانظر إلى فعل هذا وهذا، ثم احكم بالفسق والعدالة، وارفع الحكومة إلى حاكم عقلك فى التصديق والتعديل واحسبها حكمين، فإن قلت هذا عقل وهذا نقل فانظر ما يذكرون لك من حوائج طلبك، ألا تسأله عن خواصها وبراهينها وتقول: لم يقبض هذا ويسهل هذا؟ فيكون جوابك عنده إنما أنت معارض أم مريض، فكيف تعارض طبيب آخرتك وقد كان الذين قبلك أكثر منك بصيرة وعقلاً، علموا أن الاعتراض والتعجيز كفر فأسلموا منه وآمنوا. فجاهد نفسك واتبع شرعك فلا تخالف نبيك، وأكرم كتابك فهو هدية الله إليك. وقبيح بمن أكرمه ملكه بهديته أن يستهين بها. وعن قليل تلتقى وتتواقف وتستحيى، وإن كانت الروح راجعة إلى مبادئها عند بارئها، فإن صدق الشرع فهناك يتبين غليظ التوبيخ. والجماهير أكثر منك، إذ أنت منخرط فى سلك نظام الآحاد لا التواتر. تبعت طاعة نفسك فأردتك إلى البلايا، وإلا فانظر الليل والنهار، والصيف والشتاء والربيع والخريف، وتنقل الأحوال فيهما، وإحياء الأرض بعد موتها، ونومك وانتباهك بغير اختيارك، وآيات كثيرة أنت عنها غافل، ثم ارجع إلى مجاهدة نفسك تمح صفاتها الذميمة وتثبيت صفاتها الحميدة المستقيمة. فاقمع الغضب بالرضا، والكبر بالتواضع، والبخل بالبذل، والإمساك بالصدقة، والصمت بالذكر، والنوم باليقظة، والشبع بالجوع، والغفلة بالانتباه، والخلطة بالخلوة، والاشتراك بالعزلة، والمداهنة بالصدق، والشهوة بالقمع، والباطل بالحق، فإذا محوت صفات آفاتك بان لك عند ستر الغفلة كيف يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير. لكنك شيطان مريد، وتزعم أنك لله مريد، فأين آثار حلاوة التوحيد؟ نام واحد من بنى إسرائيل فى موعظة داود عليه السلام، فأوحى الله تعالى أن يا داود من ادعى محبتى ثم ينام عند ذكرى فقد كذب. لما أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل عليه السلام فى منامه فقال: يا أبت هذا جزاء من نام عن خليله، وآدم لما نام خلقت حواء. قال الشاعر (شعر):

عَجَبًا لِلْمُحِبِّ كَيفَ ينامُ
كُلُّ نومٍ علَى الْمُحِبِّ حَرامُ

واعلم أن قلبك هو المدينة التى أشرنا، فيقدم شيطان نفسك إلى تعبئة جيوش الهوى، وعساكر حب الدنيا، ونقاب الوسواس، ونقاب التمنى، ومشاغل سوء الظن، ومناجيق المخالفة، وبوق الكبر، وطبول إساءة السمعة، وأسياف خيل الشره، وزحف رجل المكر ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]. فإذا أحاطت هذه الجيوش بهذه المدينة، ولم يكن لها زاد ولا رجال من الأخلاق الحميدة، هلكت المدينة إن لم يدفع عنها البلاء، وسلب الملك وخربت مدينته، ونام عنها حارس الذكر، وتهدمت أبراج الصدق، قعد شيطان الشمس على سدة أسرار القلب، وهتك أستار خزائن الأعمال، ودارت فى المدينة دوانية الشك، وقطعت أشجار المعاملة، ونهبت أموال الأعمال، وأكلت ثمار الآمال، ووقع الشك فى الكتاب، ونفرت النفوس عن مصاحبات الأصحاب، وعصى كل مولاه، وتبع كل منهم هواه، وكبكبوا على مناخرهم فى النار وقالوا يا ويلنا ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ [ص: ٦٢، ٦٣]. وكل ما الناس فيه من التشكيك والبلايا هى الشبه والحرام، وإلا تصفّ زادك وانظر لشرح نور الإيمان فى سرك وفؤادك ينكشف لك زادك ليوم بعثك ومعادك. هى النفس ما عودتها تتعود، واعلم أنك بنفس المجاهدة تهذب نفسك حتى تصير ملكًا روحانيًا، وبمتابعة الغفلة والشهوات تصير شيطانًا رجيمًا. فجاهد النفس الأمارة بالسوء تَمْحُ صفات آفاتها حتى تصير لوّامة، ثم انقل اللوامة إلى مقام المطمئنة كما ينقل السلطان فراشه إلى مقام الكاتب، ثم إلى مقام الوزير، ثم يتصرف مع نصحه فى ملكه فينظر إلى حسناته فيكون عنده سيئات هذا مقام حسنات سابقه كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. والطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، والمقامات تعلو مع الأنفاس، كان ﷺ يعلو من مقام إلى مقام، وهى مقامات الكشف والمعارف بها نبه حيث قال: «**إنه ليغان على قلبى، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة**» والرّين أشد من الغين. واسمع نظم أمير المؤمنين علىّ عليه السلام فى النفس:

صبرتُ عن اللذَّات حتى تولَّت
وألزمتُ نفسى صَبْرَها فاستمرَّتِ

وكانتْ على الأيامِ نفسى عزيزةً
فلمَّا رأت عزمى على الذلِّ ذَلَّتِ

وقلتُ لها يا نفسُ موتى كريمةً
فقد كانت الدنيا لنا ثُمَّ وَلَّتِ

فلا الجُود يُفْنيها إذا هىَ أقبلتْ
ولا البخل يُبقيها إذا ما تولَّتِ

وما النفس إلا حيثُ يجعلُها الفتى
فإنْ أطعمتْ تاقت وإلا تَسَلَّتِ

فهذبها وعذبها، وقربها من بابها، وانظر مقام الأنبياء والأولياء فيها، واغتنم الثواب والثناء فما ذكر الصادقين كذكر الفاسقين ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]. وقد سمعت مقالات اللعابات، وكم لى كرارًا، فلك لذا التوانى غائلة وللقبيح خميرة، يتبين بعد قليل والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. ولكنك كالعود النخر لا يحمل ثمرًا ولا يظل بشرًا، وكالمرأة القرعاء التى باهت صاحبات الشعور بشعرها الزور فإذا كشفت عن رأسها هتكت بين جلاسها، وأنت قد رضيت بقعقعة ثيابك ونذل ثوابك. غدًا ترحل القوافل، وتبقى على الطريق يا غافل، وتقعد بغير زاد وتقول لشاويش القافلة ارجعون لعلى أعمل صالحًا فيما تركت، هيهات غلق الرهن فلا يقال. قالوا: يارسول الله ما السر فى نقطة دمعة الميت على خده؟ فقال: «**أما الصغير لما يشاهد من حال أبوية فى اللوح، وأما الكبير فيكاشف بأعماله وانتقال زوجته وأمواله**» فبم تتنبه وهذا الحال أنت فيه وبه، كما قيل: عود نخر ما يحمل، وأقرع ما يمتشط وما يجئ من مربح مزبلة لسبيل. فأنا أرفعك وهمتك تضعك، لا شك أن الغلبة لك. فمن كانت همته ما يدخل فى بطنه كانت قيمته ما يخرج منها. إن فهمت فانتبه، وإلا فأنت بنفسك أخبر، ونصحت ولكن لا تحبون الناصحين.

المقالة الرابعة والعشرون
فى المحبة والشوق والمشاهدة والمكاشفة والمواعظ والزواجر النقلية والعقلية

اعلم أن المحبة جائزة وجارية أولاً بين الله وأوليائه وقد نوه بها القرآن من قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. فإن قلت وثارت نفسك الخبيثة: كيف تحب من تراه وليس من جنسك؟ فقد تحب الصانع لما يظهر من حسن صناعته، فانظر إلى بساطه وما فيه من بدائع النقوش والخضر والأشجار والثمار والأنهار، وإلى الفلك وما فيه من الليل والنهار وشموس وأقمار وكواكب كبار وصغار، فهذه آيات صناعة الصانع دالات على استمرار وجوده، فسبحان صانع المصنوعات! فترتيب نفسك إن عقلت أعظم مما رأيت وسمعت. والذى يدلك وهو من أقوى الدلائل فى محبته لذة سامع كلامه، إذ هو معجز لا نظير له، فبه يستدل على محبة المتكلم، أما سمعت نظم الشعراء:

وكاعبٍ قالتْ لأترابِها ... ياقَومُ ما أعْجَبَ هذا الضَّريرْ
أيَعْشَقُ الإنسانُ مَنْ لا يَرَى ... فقلتُ والدَّمعُ بعينى غَزِيرْ

إن كـان طَرْفى لا يَـرَى شَـخْـصَـهـا
فـإنَّـهـا قـد صُـوِّرَتْ فى الـضَّـمِـيـرْ

وقال جرير:

ياقـومُ أذنى لبـعضِ الحَىِّ عـاشـقـةٌ
والأذنُ تعـشقُ قـبلَ الـعَـيْنِ أحـيـانا
إن العـيـونَ التى فى طَـرْفـهـا مَـرَضٌ
قَـتَـلْنَـنَا ثم لـم يُحْـيِينَ قـتـلانـا
يَـصْـرَعْنَ ذا اللبِّ حـتى لا حـراكَ بـه
وهـنَّ أضـعـفُ خَـلْقِ الله أركـانـا

وأما الأخبار فكثيرة وقد ذكرناها فى كتب الإحياء، وإشارة من جملتها كافية مثل قوله: «**كذب من ادعى محبتى، وإذا جنَّ الليل نام عنى**» ومثل قوله: «**لا يزال عبدى المؤمن يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته صرت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به**» الحديث. واعلم أن الحب والعشق واحد، والأفضل فيه هو هيام العاشق بالمعشوق، وهو النظر لاستحسان بعض الصور بطريقة الولع به نار عن طريق بخار حاد من خاطرٍ ذكىّ لوذعىّ سبك نيران المجاهدة فظهرت أبخرة نيرانها من وراء مؤخرات الدماغ، وظهرت ملوحات الفكر فى العشق من متقدمات اليافوخ، وفتحت مصاريع خلوة القلب فأقعد خيال المعشوق قبالة عين اليقين والنفس تصقل مرآة المجاهدة فى نظر جمال المحبوب، والأصل فى المحبة هو المنادمة والألفة واستحسان كلام المعشوق، فعند ذلك تثور همة لطلب بقدح نيران الشوق، فتستغلب عليه حالة العشق فيصير فى الشوارع مجنونًا ما صارت نيران الماليخوليا، فخلط الكلام، واحتراق البلاغم والأخلاط، وصفقت سماء القلب لتجلى قمر المعشوق، فيبقى العاشق والهًا والعًا تائهًا فى تجلى جلال المعشوق، فإذا انكشفت البلاغم فارت عرائس القلب تحمل صوانى نثار الأشعار، ورقصت عرائس الآمال فى مجالس الأصوال، فزمر مزمار التمنى، وضرب مزهر التأنى كما قال سابق الرجال:

تمنيـتـهـا حـتى إذا مـا تمثَّلتْ
طُـربت كـأنى قـد دعـوتُ ولَبَّتِ
تمنيـتـهـا حـتى إذا مـا رأيتـهـا
رأيت المنـايا شُـرَّعًـا قـد أظَلَّتِ
تمنيت أحـاليبَ الـرعـايا وخـيـمـةً
بـنجـدٍ ومـا يُـقْضَ لـهـا مـا تمنتِ

فـــلا تنســيـــا أن يعـــفـــو الله عنكمـــا
ولومـــا إذا صَلَّيـــتـــمـــا حـــيث صَلَّت

فــيـــا ليـــتنى أحـــجـــارُ حـــائـط مَـسْـــجـد
لعَـــــزَّةَ إذ فـــــيـــــه تـصلّى وولـت

ثم هيج الغبـار فترى بخار الـتمنى، ويقوى بخار العنـاء، فترى التقـسيم الواقع فى القلوب، فـهناك لا نوح ولا قـرار، ويظهـر مـبـادئ النحـول والصـفار، ويبـرز أعـراض السهر، وتقدح نيران العشق لهزال سمان الأبدان، وينشد المغنى من غير توان:

وجـــه الـذى يَـعْـــشَقُ مـــعــــروفُ
لأنـه أصــــــفـــــر منحــــــوفُ

لـيس كـــمـن أضــحـى لـه جـــثــةٌ
كـــأنـه لـلـذبـح مـــعـلـوفُ

فى الحـديث «ينادى مُـنَاد فى كُلِّ لَيلَـةٍ: **ألا لَعَنَ الله الأكُـول النَّؤومَ**» ابن آدم لهـذا خلقت؟ تقنع ليخف حـسابك، ويصح جسدك، ويقل أمـراضك، وينصلح أغراضك ويقل منامك، ويكثر ذكرك، فيهديك محبوبك إليه، فيجذبك إلى طاعته ويعصمك عن معصيته. فأكثر من النوافل تفلح والسلام.

ذكر الشوق والمكاشفة

اعلم أن الشوق هو الداعى إلى حالـة المكاشفة، والشوق هو التمنى للقـاء المعشوق، ولقاء المعشـوق لا يحصل إلا بالمكاشفة، والمكاشـفة إما أن تكون عيانًا أو قـلبية وهو تجلى المعشوق بحالة يـحملها قلب العاشق، لكن العيان هو أفـضل، بل بشرط جامع بين القلب والعين كحـالة رسول الله ﷺ، فإنه كـاشفه ليلة إسـرائه بالتجلى القلبى والنظرى لصـحة الروايتين عن عـائشة وعلى وابن عـباس. واعلم أن حـقيقـة المكاشفـة هى عين النظر إلى المحبـوب، ولكن يتفاوت على قـدر درجات المحبين، وليس نظر الخلق كله واحـدًا، فأدنى درجات النظر القلبى، أما النظر البصرى فـهو عند قوم عَرَضٌ غير دائم، وأعظم المنزلين هو الجمع بين النظر والقلب، فإذا، رفـعت ستور الغفلة والهواء تجلى المحبـوب فتلاشى المحب حتى يخرج من الستور والبشرية والحجـاب الجسمانى فيرى الحجاب ويسمع الخطاب ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى: ٥١]. فعند ذلك يمتد له خطاب من الهواء فى جـميع ما يحدث فى الكائنات فـيصير عيـسوى الحال ﴿**وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**﴾ [آل عمران: ٤٩]. فيصيـر الملائكة ومؤمنو الجن بحكمه

بطاعته، وينخرق بينه وبين الله روزنة يعلم بها خلاصة صفاء أسرار الكائنات، ولكن بشرط خير العلم، والعمل بصدق من غير تجربة. فإذا هبت نسمات اللطف برفع حجاب الغفلة انقلبت له الكائنات على ما يريد، إذ الإرادتان امتزجتا واحدة كما سبق فى أحوال الصوفية من قولهم:

فإذا أبصرتنا أبصرتَهُ
وإذا أبصرتَهُ أبصرتَنا

فيصير الناسوت معنى لطيفًا يحدث له من الغيب قوة يقبل بها جميع الواردات عليه، فمنه ثمار الكرامات والتحدث بالأمور الغيبيات، يعرفه الباحث من جنسه وسائر الطير له منكر، فتتجوهر النفس بزوال الأعراض الفاسدة عنها، فتصير قدسية لا يخفى الأمور الغيبية. فإن قلت: هذا نوع مشاركة عزت على الأنبياء فكيف ينالها الأولياء؟ فاعلم أن أصل الغيب هو من الله القديم، فمنته عليهم إطلاعهم على شىء من علوم الغيب، أما سمعته يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. وقوله ﴿مِن رَسُولٍ﴾ وهو ستر على الحال لئلا يحسب أجلاف العامة أنها مشاركة غيبية، وهذا غير بعيد إذ خزائن الملوك يطلع عليها المملوك، والأمور المستورة من المعشوق فقد يشاهدها العاشق الصادق قياسًا بالصورة الحسناء يشاهدها مالكها وهى مستورة عن الغير ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وقد سمعت الجنيد يقول: كل أحد حلاج لكن ليس كل أحد خراج، وقال أبو يزيد البسطامى: من وصل درجة التمكين فهو طبيب يقعد على سرير أسرار الخلق، فيطلع بإذن مالكه على خواطر أسرار الملوك مثل اطلاع مملوك المحبوب عليك فى حالاتك، أليس فاطمة السلماسية كانت تخرج وقد أذن مؤذن الظهر من سلماس فتصلى الظهر جماعة فى بسطام؟ فإن قلت: هذا غير ممكن، فإنها حالة لم تنخرق للأنبياء فكيف لغيرهم؟ الجواب أنك تحكم على الله أو على نفسك، فإن كان على نفسك فأنت أخبر، وإن كان على الله فأنت أصغر. فمن عجز عن عدد عروقه وعظامه ولا يحصر عدد أدوار عمامته على هامته، فكيف يدخل بين الله وبين غلامه؟ ثم ما علمت ما أعطى الله للأنبياء، فإن علمت بعض علومهم من طريق النقل فالمعجز يكذب العقل ويحكم عليه، فبواطن أسرارك لا يطلع عليها ولدك ولا جارك، فكيف مليكك وجبارك، وقد قال لك ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]. وأنت غير واصل إلى كشف ستور الوصول، فإذا بلغت المنى والسؤال تعرف ما بين الله والرسول. وقد قلنا سابقًا: جاهد ولا تجاهد، فالمجاهدة تزيل غبار الشكوك مع المشاهدة، وأنت معصب العين بعصابة حطام الدنيا، وهمتك ضعيفة

خسيسة، فأين خنافسة الكنيف من المقام الشريف! وحسن الظن وهو الإكسير العظيم الذى به يقلب كل جهل علمًا، فمن تمسك به فقد استراح. فهذا نوع المحبة والشوق والمكاشفة على وجه الاختصار.

فصل

وأما الزواجر والوعظيات فمثل الآيات الرادعة المذكرة للوعد والوعيد، والأخبار المذكورة للفزعة، والحكايات الجاذبة والأشعار المخوفة والمشوقة، فخوفوا المبتدئ وشوقوا المنتهى، لأن المبتدئ هو قريب من خروج دار الجهل فيضرب، عليه سور من التخويف خوفًا من الزيغ والميل، وأما المنتهى فقد غفر الذنب ورق القلب وأصابه عناء المجاهدة، فلا بد للجمل من حادٍ لقطع الوادى. فالمجاهدة قلاشية، والنغمات تنشية، قياسًا بأرض ميتة تحيا بوابل المطر فتهتز وتربو وتنبت وتثبت وتنثر على المريد نثار الهمم. انظر كيف قال أبو حيان التوحيدى: إن كنت تنكر أن للنغمات فائدة ونفعًا، فانظر إلى الإبل اللواتى هن أغلظ منك طبعًا، تصفى إلى قول الحداة فتنقطع الفلوات قطعًا. فعليك بالخلوات الأربعينية التى يسميها مشايخ العجم جله، فهى عند العجم الجلاء، واعتد بها، وليكن زادك وزنًا تنقص كل يوم منه لقمة، أو تزن مأكلك بعود ندى فهو ينقص على قدر جفافه. فقلل ولا تتعلل، خفف وطفف فى مأكلك تلتحق بعالم الملائكة ففى الحديث «**أَكْثَرُكُمْ شبَعًا فى الدُّنْيا أَطْوَلُكُمْ جُوعًا يَوْمَ القيَامة**». وإذا فعلت ذلك تستغنى النفس بالقدس وتصير لك بها أنس، فلا تتخذ على محبة الدنيا والفلس، فينتقل إليك حالة الصفة المحمدية ﷺ من قوله: «**لست كأحدكم، أنا أظل وأبيت عند ربى فيطمعنى ويسقينى**» فهو حالات الصادقين ومنازل المتقين، فلا تكن من المكذبين الضالين، فإن عجزت عن مقام المقربين، فكن من أصحاب اليمين، والحمد لله رب العالمين.

المقالة الخامسة والعشرون
فى العلم والعمل

اعلم أن الخواص من خلق الله تعالى ثلاثة: عالم وعارف وناسك، فأما العالم فهو الذى علم واطلع على العلوم الظاهرة فعمل بها فورثه الله بعمله العلوم الباطنة: مثل علم المحبة، وعلم الشوق والرضى، وعلم القدر، وعلم المكاشفة والمراقبة، وعلم القبض والبسط. فهذه علوم الصوفية الصادقة الوافية، مثل الحسن، وسفيان، والفضيل بن عياض، وأبى يزيد البسطامى، وأبى الحسين النورى، وحبيب العجمى، ومعروف الكرخى، وشقيق

البلخيّ ومحمد بن خفيف وبشر بن سعيد وأحمد الخوارزمي وأحمد الداراني، وحارث المحسابي وسرى السقطي، وأبي الحسين بن المنصور الحلاج، والجنيد، والشبلي، وأبي نعيم القاضي. فهذه الطائفة الإلهية نبغ ذكرهم ليسوا كالطائفة المشغولة بالعلوم والشهوات، وصرفوا هممهم إلى الزيدية والقرصين فأتتهم المعاملات: بيضوا الثياب وسودوا الكتاب، صقلوا الخرق ولا نقلوا عن الخرق، وجعلوا المرقعات شركًا على الشهوات. فهؤلاء هم الزنابيل وأولئك هم القناديل، وأولئك تمسكوا بالواحد الشاهد، وهؤلاء انصبوا إلى محبة الشاهد. أولئك هجروا المناصب وهؤلاء دبوا إلى المناصب، أكثر كلامهم اذهبوا لمذهب حتى يذهب، والخلاف عندهم كورق الخلاف. الأصول عندهم فضول، والنحو عندهم محو. أكثر علومهم الرقص والشبابة، لا يفرقون بين القرابة والصحابة. فما أكثر عيوبهم، لقد نسوا محبوبهم. تشاغلوا بمأكل الدويرات، ونسوا مدارج الطاعات. نصبوا السجادات لأجل الخلق، ونسوا الله والحق. فهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث: «**إنّ الله يَنزع مرقعاتهم ويعلقها على أبواب الجنة ويكتب عليها مرقعات زور**». تركوها مناصب للاكتساب، ووهبوها لكلب أهل الكهف واقتسموا جلده عليهم عوضًا من مرقعاتهم. فهؤلاء صوفية الدنيا وأولئك صوفية الآخرى، جمعوا بين العلم والعمل، وسهروا حتى ظفروا فنالوا، صدقوا فحققوا، علموا ثم عملوا، فجمعوا بين المقال والحال، فهم أهل العلم والمغفرة، والنسك والزهادة، فأحدث لهم جميع هذه الحالات خاصية قوة الهيئة، فطاردوا بأجنحة الاشتياق إلى رياض القدس وحظيرة الصمدية، فاقتطفوا علوم الغيب، فقالوا هؤلاء فقراء الآخرة وصوفيتها الذين علموا أن النعمة هي من المنعم فتركوا الأسباب جوانب. وأما علماء الآخرة فمثل الحسن البصري، وسيفان بن عيينة، والثوري صاحب المذهب، والطائي الطاهري، وأبو سعيد الخدري، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، ومالك بن أنس المدني، ومحمد بن إدريس الشافعي المطلبي، وأحمد بن حنبل الشيباني، والمزني، وابن شريح، والحداد، والقفال، وأبو الطيب، وأبو حامد، وأستاذنا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، والشيخ الإمام أبو إسحاق إبراهيم الفيروزابادي المعروف بالشيرازي، فقد جرى له مع شيخنا نوبة عند السلطان وكنت أحضرها، فما رأيتهم طلبوا بالمناظرة غير إظهار الحق، لا غلبة ولا صقل كلام، ولا نقص في الخبر النبوي، ولا تأويل باطل في متن آية، ولا مزاعقة ولا مخاصمة، بل هو على طريق الفائدة والمباحثة. فأولئك من علماء الآخرة الذين شبهوا صحب رسول الله ﷺ بترديد الفتاوى من واحد إلى واحد، وقالوا أميركم أحق بالتقليد ونحن علماء السوء نشتغل بسواد الليقة وبرى القلم والتصدى والتحدى وذرب اللسان وسواد الطيلسان وقعقعة الثياب وطول الإردان وسعة الأكمام والصيحة والدهشة

وذكور إناث العجم ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. فانظر الفرق بين الطوائف والفرق: أليس فى الحديث «مَنْ تَرَكَ المراءَ وَهُوَ مُحقٌ بنى لَهُ بَيْتٌ فى أَعْلَى الجَنَّة». فنحن لا بيوت ولا تخوت، ولا حور ولا سخوت، رأى الشافعى منامًا وكان قد تكلم فى المسألة مع أبى يوسف، فرأى كأنه قد أدخل الجنة، فرأى حورًا وهى تشرق العرصة من نورها، قال: لمن أنت؟ فقالت: لمن ترك المراء وهو محق، ثم ولت وهى تتول:

خلطوا الحقَّ بالقبائح زورا ... ثم مالوا إلى المِراءِ نسورا

ثم راموا من الإله بُدُورا ... قد فجرتم من المقالِ قبورا

أيا مالكم تنالون دورا ... سوف تجزون فى المعاد فجورا

وطلبتم من الإله أجورا ... سوف تلقون فى الجحيم أجورا

ثم قالت: يا شافعى ما تُنال بالقال والقيل هذه الثياب والخلاخيل، إن كنت صادقًا وتريد أن تكون للجنة مالكًا فعليك بالعلم والعمل مثل مالك، فمن أراد الممالك يصير على المهالك. ثم انتبهت فعلمت أن مراء هؤلاء لا يقود إلا إلى الهوى، والآخرة عند ربك للمتقين. وفى الحديث «**إن العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب وإلا ارتحل**» فهؤلاء علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وفقراء الدنيا وفقراء الآخرة، وأنت مشغول بالكرم عن الكرامات، وبالقصور عن القصور العاليات، أنت مثل الذيب وهمك فى التشكيك والتكذيب.

سَوفَ ترى إذا انجلى الغُبارُ ... أسابقٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمارُ

أما العلوم فكثيرة، وأقربها ما دل على الآخرة: مثل علم الشريعة، وتفاسير الواحدى، وأمتان الصحاح، وقراءة القرآن، ومحافظات الأوراد المذكورة فى كتب الإحياء. وإن أردت حسن العقيدة على وجه الاختصار فعليك بلواقح الأدلة وهو لشيخنا إمام الحرمين، وإلا قواعد العقائد. وإن أردت سلوك طريق السلف الصالح فعليك بكتاب نجاة الأبرار، وهو آخر ما صنفناه فى أصول الدين. وقد ذكرنا لك التصانيف فى معرض هذا الكتاب، فاقرأ ما شئت واعمل ما شئت فإن اللقاء قريب. واعلم أن فصول السنة معروفة: مثل صيفها وخريفها، وشتائها وربيعها، فمن الحمل إلى الجوزاء ربيع، ومن السرطان إلى آخر السنبلة صيف، ومن الميزان إلى آخر القوس خريف، ومن الجدى إلى الحوت شتاء

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]. قال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام: هذا الهواء إذا أقبل فتلقوه، وإذا أدبر فتوقوه، فإنه يفعل بأبشاركم كما يفعل بأشجاركم، أوله وآخره محرق. ففى العلوم ما يضر مثل العمل بالسحر والكهانة، وصبغ الصفر فضة يضر فى الآخرة إذا قلبها فضة بالصناعة وباعها، وفى المكاسب مكاسب خسيسة تأباها النفوس؛ كالغسال، والحفار، والكناس، والحجام. والصنائع من جملة العلوم المفهومة التى تعينك على طلب العلم الأخروى، فكن عالمًا عاملاً تنال المقصد الأسنى فى دار الله الحسنى، هنالك تستقر نفسك من غير ضجر ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فصل فى أعاجيب الفنون والأسفار

قال صلى الله عليه وآله وسلم «**إنَّ بالمَغْرِبِ ههنا لأَرْضًا بَيْضَاءَ مِنْ وَرَاءِ قَافٍ لا تَقْطَعُها الشَّمْسُ فِى أَرْبَعِينَ سَنَةً**»، قالوا: يا رسول الله أوَ فيها خلق؟ قال: «**نَعَمْ، فِيهَا مُؤْمِنونَ لا يَعْصُونَ الله طَرْفَةَ عَيْنٍ، لا يَعرِفُونَ آدَمَ وَلا إِبْلِيسَ، بَيْنَهُمَا الملائكةُ يُعلِّمُونَهُمْ شَرِيعَتَنَا وَيَحْكُمُونَ بَيْنَهُم وَيُدَرِّسُونَهُمُ الكِتَابَ العزيز**»، قالوا يارسول الله زدنا من هذه الأعاجيب! فقال: «**إنَّ لى صَدِيقَةً مِنْ مُؤْمِنِى الجِنِّ غَابَتْ عَنِّى سنينَ فَسَأَلْتُها أَيْنَ كُنْت، فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ أُخْتِى مِنْ وَرَاءِ الأَرْضِ البَيْضَاءِ الَّتِى وَرَاءَ قَافٍ بِهَزَدَ، فَقُلْتُ: أوَ هُمْ مُؤْمِنُونَ؟ فَقَالتْ: نَعَمْ، قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ كتابَكَ فَآمَنَ به قَوْمُنَا. فَقُلْتُ: وَمَا وَرَاءَ تِلْكَ الأَرْضِ؟ فَقَالَتْ جِبَالُ ثَلْجٍ وَمَاءٍ وَهَوَاءٍ وَظَلْمَاءَ، ثُمَّ وَرَاءَ ذَلِكَ جَهَنَّمِ، فَقُلْتُ: أوَ تَصْعَدُ الشَّمْسُ فِى تِلْكَ البِلادِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ**».

وأما حديث تميم بن حبيب الدارى فعجب، حيث اختطفته الجن، فشاهد من عجائبها حتى رأى القصر الذى فيه الدجال مقيدًا، فقال له: من أى الأمم أنت؟ فقال: من أمة محمد ﷺ فقال: أوَقد بعث؟ فقال نعم، فقال: آن أوان خروجى.

وأما حديث جن العقبة فأعجب، قال عبد الله بن مسعود: «مشيت مع رسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب عليه السلام فى ليلة مظلمة حتى وقف بنا على ثقب، فظهر منه رجل فقال: انزل بنا يا رسول الله! فناولنى فاضل ثيابه، ثم أخذ بيده على عليه السلام ونزلا فى الثقب وأقعدنى مكانى فلما برق بارق الصبح عادا ومعهما رجال يشبهون الزط، فقال: هؤلاء إخوانك المؤمنون، وكان معى ماء فيه منبوذ شىء من التمر، فشرب منه ثم توضأ». صح ذلك من غير نزاع، وقد أوله أرباب الهوى على اختيار ما يريدون، فمن أراد أن يعلم حقيقة هذا وغيره فلينظرون فى كتاب «مغايب المذاهب» وهو من جملة تصانيفنا.

وأما قصة زعيم بن بلعام فهى عجيبة، قد أراد أن ينظر من أين منبع النيل؛ فلم يزل يسير حتى وجد الخضر فقال له: ستدخل مواضع، ثم أعطاه علائمها، فوصل إلى جبل وفيه قبة من ياقوت على أربعة أعمدة، والنيل يخرج من تحتها وفيه فاكهة لا تتغير، قال: فرقيت رأس الجبل فرأيت وراءه بساتين وقصورًا ودورًا وعالمًا غزيرًا، وكنت شيخًا أبيض الشعر، فهب على نسيم سوَّد شعرى وأعاد شبابى، فنوديت من تلك القصور: إلينا يا زعيم إلينا، فهذه دار المتقين! فجذبنى الخضر ومنعنى، فهذا سر قوله ﷺ سبعة أنهار من الجنة: جيحون وسيحون ودجلة وفرات ونيل وعين بالبردن وبالمقدس عين سلوان، لأن منها ماء زمزم. وأعجب من هذا الحديث حديث بلوقيا وعفان، فحديثهما طويل، وإشارة منه كافية، فقد بلغ من سفرهما حتى وصلا إلى المكان الذى فيه سليمان، فتقدم بلوقيا ليأخذ الخاتم من أصبعه، فنفخ فيه التنين الموكل معه، فأحرقه فضربه عفان بقارورة فأحياه، ثم مد يده ثانية وثالثة فأحياه بعد ثلاث، فمد يده رابعة فاحترق وهلك فخرج عفان وهو يقول: أهلك الشيطان أهلك الشيطان، فناداه التنين: ادن أنت وجرب، فهذا الخاتم لا يقع فى يد أحد إلا فى يد محمد ﷺ إذا بعث، فقل له إن أهل الملأ الأعلى قد اختلفوا فى فضلك وفضل الأنبياء قبلك، فاختارك الله على الأنبياء، ثم أمرنى فنزعت خاتم سليمان فجئتك به، فأخذه رسول الله ﷺ فأعطاه عليًا فوضعه فى أصبعه، فحضر الطير والجان والناس يشاهدون ويشهدون، ثم دخل الدمرياط الجنى، وحديثه طويل، فلما كانوا فى صلاة الظهر تصور جبرائيل عليه السلام بصورة سائل طائف بين الصفوف، فبينا هم فى الركوع إذ وقف السائل من وراء على عليه السلام طالبًا، فأشار على بيده فطار الخاتم إلى السائل، فضجت الملائكة تعجبًا، فجاء جبرائيل مهنيًا وهو يقول أنتم أهل بيت أنعم الله عليكم ﴿**لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فأخبر النبى بذلك عليًا فقال علّى عليه السلام: ما نصنع بنعيم زائل، وملك حائل، ودنيا فى حلالها حساب، وفى حرامها عقاب؟ فإن اعترض المفتى وقال: كيف قاتل معاوية على الدنيا، فالجواب أنه قاتل على حق هو له يصل به إلى حق، وأما التحكم فباطل غير صحيح، لأن التحكيم إنما يكون على موجود ومحدود ومعروف ومعلوم غير مجهول، هذا فقه وشرع، ثم قولوا ما تريدون، فمن أراد أن ينظر فى كشف ما جرى فيطلع فى كتاب صنفته وسميته «كتاب نسيم التسنيم»، وفى قصص ذى القرنين كفاية، وكتاب رياض النديم لابن أبى الدنيا، وانظر فى كتاب الأقاليم، وانظر فى كتاب المسالك والممالك، وكتب الماوردى الموصلى.

ثم إذا أردت أن تعرف سعة الأفلاك بعضها على بعض، فاعلم أن سعة الأرض قطع الكوكب فى ليلة واحدة، وأما الفلك الهوائى فقد يقطعه القمر فى شهر، فانظر الفرق فى

ليلة وشـهر. ثم الفلك النارى يقطعـة الشمس فى سـنة، ثم فلك زحل وهو الأعلى يقطع فلكه فى ست وثلاثين سنة، ثم فوقه الكرسى والعرش الذى هو سـقف الجنان الثمانية التى واحدة منهن بعرض السموات والأرضين. وخذ دليلك من هذا المسـاق المذكور، فما لهمتك ناقصـة لا ترفعهـا إلى درج المعالى، ولا تكسـوها سهم السعـادة، بل أنت مشـغول يعلف النفس وخدمتها. فأنت كـالذى عشق حمارة فاشتغل بها ففاته سـير القافلة، فظهر له قاطع الطريق. وهذه دار أحلام، والأنبياء مـفسرو المنام، فعند الانتباه يتـبين لك صحة التأويل. أما سمعت الإشارة: «**والناس نيام فإذا مـاتوا انتبهوا**»؟ ومثلك فى دنياك كـمثل طفلين فى بطن واحد قال أحدهمـا لصاحبه: أما أخرج، عسى أن أرى غـير هذا المكان والعالم! فلما خرج رأى سعـة الدنيا، هل يطيب له أن يعود إلى ضيق بطن أمـه؟ وهكذا إذا خرجت إلى سعـة آخرتك لا يطيب لك الـعود إلى دنيا حـملتك كضـيق حمل أمك. ومـثلك فى باب مولاك كـرجل أراد الدخول إلى ملـك وهو جائع، فوجـد على باب الملك كلبًـا ورغيـفًا، فالكلب يصده عن الدخول؛ فإن كان ذا همة عـالية آثر حضرة الملك على الرغيف، فيدخل إلى الملك فيـحظى بالمآكل اللينة وينسى جوعه، لأنه شغل الـكلب برغيفه فتـشاغل الكلب بالرغيف، ودخل الرجل إلى الملك، وإن كانت همته فى بطنه أكل رغيفه فصده الكلب عن دخول الملك، ثم يتعفن الرغـيف فى بطنه، فبعد ساعة رماه. فـدنياك هو الرغيف، والكلب هو الشيطـان يصادك عن دخول الملك، فـارم الرغيف إلى الكلب تسـتريح، واكـتسب من جواهر الأعـمال تشرف بهـا عند عرض البضـائع، ونيل المدخر الباقى فى دار زفـاف الحور وفتح أبواب القصـور، فأنت مثالك كجماعـة سافرت إلى وادى الظلمات فقال لـهم الخبير بالمكان: احملوا من حصـاها تظفروا! فصاحب حسن الظن حمل فـأوقر، والمتشكك بطل فتـحقـر، فلما خـرجوا من ضـياء الشـمس إلى الوادى وشاهدوا بضـائعهم، فـإذا هى در ويواقيت، فندم البطال وفاز الحمـال. فهذه صورة أعمالك فى دنياك، فإمـا أن تنادم فتصير غلامًا، وإمـا أن تعمل فتـحظى من الله تحية وسلامًـا. فدع كبرك، وقلل شـبعك، ونظف بطنك، ومن النوم عـينك، عسـاك أن تقطع شيـنك، وتوفى دينك، فـأنت الذى تنتنك العرقة، وتوهنك البقة، وتقتلك الشـرقة، وملابسك من قزة، وحلاوتك من نحلة، وخبزك من طينة، وأنت غدًا مستور باللبنة تؤاخذ بنعيمك، أما سمعت النبى حاسبه الله على شبعه مرة واحدة من خبز شعير وتمر وقال له: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾.

فصل فى علو الهمم ونيلها لمقاصدها

اعلم أن الهمة هى إجماع قلب المهتم وجمعه لنيل مـقصده بالتوجيه إليه دون غيره، من غير قلب قاصده لسواه. وصاحب الهمة لا يكون همه فى مقصده لنيل أغراض متفرقة،

كمن أراد أعمالاً لا يقع فى يده غير عمل واحد. الهمم فروع من فروع النفس على قدر وضع النفس وارتفاعها. إن همة كل أحد على قدر نفسه فى علوها وطهارتها، ألا ترى إلى أصحاب الصنائع الخسيسة كاكناس والزبال والإسكاف والدباغ والغسال، فهؤلاء هممهم على قدر خسائس أنفسهم النازلة، لسابق ما قدر لهم عند اعتصار خمير السعادة من عجين الطالع فى خمير الولادة، وهذا حال يتعلل به العاجز، إذ الملك معشوقك فلا تألف الخسائس؛ فليس هذا أنسابًا معروفة بأب وأم، وإنما هى بعلو الهمة كما كانت من أول الفيض الصادر عن النفس الكلية همم العلماء والملوك، ثم كلما تباعد الفيض عن النفس الكلية رذلت الهمم كما رذل الحيوان بعد فيض الإنسان، ألا ترى إلى همة الفيل والحمار فى المأكل والمشرب؟ فهذا همه بريح، وهذا تبن وشعير، وانظر إلى همة ذى القرنين وهو ابن هيلانة وأبوه نساج كيف تعرض بعلو الهمة إلى الملك ولم ينزل إلى الصنائع، فمثله فى العالم كثير. ومن جملة علو همته إظهار اليغزن الذى أشاع بذكره المسافرون، واتخذ المتقدمون ألحان الموسيقى التى زعموا أنها معتصرة من دورات ألحان الأفلاك حين تدور، ويسمع له نغمات بطرائق وأوزان غير خارجة نقلوها عن موسى وإدريس. وطائفة أخرى زعمت أن العود متخذ من شكل طائر معلق فى جبل، فى أنفه أنقاب مخارج العود. وهذا من جملة فروع الهمم، فنيل المقاصد من غير همة غم عمن تعلق بها، فاكتساب الهمم ونيل مقاصدها للعلماء بالدرس والمواظبة والجوع والصبر ونيل مقصد المملكة، هو بالاشتغال فيما يجذبها من التهاب وما يشاكلها. فإن قلت هذه سعادات أزلية، فمن قدر له فى السابق شىء أخذه وبلغه ولا يمحى ما سطر على جبين العبد، فقد صدقت، ولكن مت تحت غبار طلب العز لا على مزابل الشهوات بالذل كما مر بك الإنشاد السابق (شعر):

اطْلُبِ العِزَّ فى لَظى وذَرِ الذلَّ
ولو كان فى جِنَانِ الخُلُود

وقد سمعت كلامًا لمعاوية إذ قال: هموا بمعالى الأمور لتنالوها، فإنى لم أكن للخلافة أهلاً فهممت بها فنلتها. وقد ذكرت حكاية فى كتاب «سر خزانة الهدى والأمد الأقصى إلى سدرة المنتهى» أنه مات بعض الملوك، فغلقت المدينة وقالوا: لا نملكها إلا لملك كان فى ساعده علامة نور شعشعانى، فورد إليهم رجل فقير وفى ساعده نور كما كان فى ساعد الملك المتقدم، وكان ينظر إليه وزير المدينة بعين الدراية بعد أن ملكوه البلد، فدخل الوزير إليه بهدية وهى قشرة من عود قنارى كجفنة كبيرة، فقال الملك: من أين لك هذا؟ فقال الوزير: كثير مثل هذا يجئ فى نهرنا، فقال الملك: لا تستقر فى الوزارة حتى تأتينى بخبره وفى أى بلد يكون، فاتخذ الوزير له مركبًا فسار حتى دخل تحت جبل، فلما قطعه

بخروجه إلى جانبه الآخر رأى بلادًا أشجارها كلها مثل هديته، ثم رأى جماعة قائمة منقطعين فى جبل فقال: ما الذى يريد هؤلاء ويفعلون؟ فقالوا كلهم فى طلب الملك يتجرعون سنة مع أنواع المجاهدات فمن رقى على ساعده نور أبيض فهو مستحق الملك، فلما عاد الوزير أخبر الملك بقصة ما رآه فقال الملك: لا تحتقر فتحتقر، وسافر واعمل لتذكر، فهذا علو الهمة بالجوع والمجاهدات، ثم قال: لا يغرنك الجواشن والبيض.

وقد رأيت بعينك مشار علو الهمة فإن أردت ذلك فعليك بالجوع والعلم والخلوات يكشف لك العلامات بسرائر الكائنات، فاطلب وجد واجتهد، فنيل مقاصد الرجال من غير تعب هذيان. والحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه على سيد المرسلين آمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدُّرَّة الفاخِرة فى كشف علوم الآخرة

خطبة الكتاب

الحمد لله الذى خص نفسه بالدوام ، وحكم على من سواه بالانصرام، وجعل الموت حال أهل الكفر والإسلام، وفصل بعلمه بين تفاصيل الأحكام، وجعل حكم الآخرة خلفًا للمعهود من الأيام، وأنهج ذلك لمن يشاء من خلقه أهل الإكرام، وصلَّى الله على سيدنا محمد رسول الملك العلام، وعلى آله وصحبه الذين خصهم بجزيل الإنعام فى دار السلام.

أما بعد، فقد قال تعالى ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وثبت ذلك فى كتابه العزيز فى ثلاثة مواضع. وإنما أراد الله سبحانه وتعالى الموتات الثلاث للعالمين، فالمتحيز إلى العالم الدنيوى يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتى يموت، والمتحيز إلى العالم الجبروتى يموت. فالأول آدم وذريته وجميع الحيوانات على ضروبه الثلاث، والملكوتى وهو الثانى أصناف الملائكة والجن، وأهل الجبروتى فهم المصطفون من الملائكة. قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج: ٧٥]. فهم كروبيون وروحانيون وحملة العرش وأصحاب سرادقات الجلال الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه وأثنى عليهم حيث يقول: ﴿**وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ** ﴿١٩﴾ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]. وهم أهل حظيرة القدس المعينون المنعوتون بقول الله تعالى : ﴿**لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٧]. وهم يموتون على هذه المكانة من الله تعالى والقربى، وليس زلفاهم بمانعة لهم من الموت. فأول ما أذكر لك عن الموت الدنيوى فألق أذنيك لتعى ما أورده وأصفه لك بنقل عن الانتقال من حال إلى حال إن كنت مصدقًا بالله ورسوله واليوم الآخر، فإنى ما آتيك إلا ببينة، شهد الله على ما أقول ويصدق مقالتى القرآن، وما صح من حديث رسول الله ﷺ.

فصل

لما قبض الله القبضتين اللتين قبضهما عندما مسح على ظهر آدم عليه السلام، فكل ما جمعه في جمعه الأول إنما جمع من شقه الأيمن، وكل ما جمع في الآخر إنما جمع من شقه الأيسر، ثم بسط قبضته سبحانه فنظر إليهم آدم في راحتيه الكريمتين وهم أمثال الذر ثم قال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي فهم بعمل أهل الجنة يعملون وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فهم بعمل أهل النار يعملون. فقال آدم عليه السلام: يارب وما عمل أهل النار؟ قال الشرك بي، وتكذيب رسلي، وعصيان كتابي في الأمر والنهي. قال آدم عليه السلام: أشهدهم على أنفسهم عسى أن لايفعلوا! فأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا! وأشهد عليهم الملائكة وآدم أنهم أقروا بربوبيته ثم ردهم إلى مكانهم. وإنما كانوا أحياء أنفسًا من غير أجسام، فلما ردهم إلى صلب آدم عليه السلام أماتهم وقبض أرواحهم وجعلها عنده في خزانة من خزائن العرش، فإذا سقطت النقطة المتعوسة أقرت في الرحم حتى تمت صورتها والنفس فيها ميتة. فلجوهرها الملكوتي منعت الجسد من النتن، فإذا نفخ الله تعالى فيها الروح رد إليها سرها المقبوض منها الذي خبأه زمانًا في خزانة العرش فاضطرب المولود. فكم من مولود دب في بطن أمه فربما سمعته الوالدة أو لم تسمعه! فهذه موتة أولى وحياة ثانية.

فصل

ثم إن الله عز وجل أقامه في الدنيا أيام حياته حتى استوفى أجله المحدود ورزقه المقدور وآثار المكتوبة. فإذا دنت موتته، وهي الموتة الدنيوية، فحينئذ نزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى، وملك يجذبها من قدمه اليسرى، وملك يجذبها من يده اليمنى، وملك يجذبها من يده اليسرى. وربما كشف للميت عن الأمر الملكوتي قبل أن يغرغر، فيعاين الملائكة على حقيقة عمله على ما يتحيزون إليه من عالمهم، فإن كان لسانه منطلقًا تحدث بوجودهم، فربما أعاد على نفسه الحديث بما رأى، وظن أن ذلك من فعل الشيطان، فسكن حتى يعقل لسانه، وهم يجذبونها من أطراف البنان ورءوس الأصابع والنفس تنسل انسلال القذارة من السقاء، والفاجر تسلّ روحه كالسفود من الصوف المبلول، هكذا حكى صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام. والميت يظن أن بطنه ملئت شوكًا كأنما نفسه تخرج من خرم إبرة، وكأنما السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما، ولهذا سئل كعب ﷺ عن الموت فقال: كغصن شوك أدخل في جوف رجل فجذبه إنسان ذو قوة فقطع

ما قطع وأبقى ما أبقى. وقال عليه الصلاة والسلام: «**لسكرة من سكرات الموت أشد من ثلاثمائة ضربة بالسيف**». فعندما يرشح جسده عرقًا، وتزور عيناه، وتمتد أرنبته، وترتفع أضلاعه، ويعلو نفسه، ويصفر لونه. ولما عاينت عائشة رسول الله ﷺ فى هذه الحالة وهو مستلق فى حجرها وهى تكفكف الدمع جعلت تقول شعرًا:

بِنَفْسِيَ أفْدِي ما غصّكَ
من الهايعات وما توجعُ
وما مسَّك الجنُّ من قبل ذا
وما كنتَ ذا روعة تفزعُ
وما لى أنظر فى وجهك
كمثل الصِّباغ إذا ينقعُ
إذا شحب اللونُ من مَيِّت
فأنوارُ وَجْهِكَ قد تسطعُ

فإذا احتضرت نفسه إلى القلب خرس لسانه عن النطق، وما أحد ينطق والنفس مجموعة فى صدره لوجهين: أحدهما أن الأمر عظيم قد ضاق صدره بالنفس المجتمعة فيه. ألا ترى أن الإنسان إذا أصابته ضربة فى صدره بقى مدهوشًا، فتارة يتكلم وتارة لا يقدر على الكلام؛ وكل مطعون يطعن بصوت إلا مطعون الصدر فإنه يخر ميتًا من غير تصويت؟. وأما الآخر فإن السر الذى فيه حركة الصوت المندفعة من الحرارة الغريزية قد ذهب فصار نفسه متغير الحالتين: حال الارتفاع والبرودة، لأنه فقد الحرارة، فعند هذا الحال تختلف أحوال الموتى، فمنهم من يطعنه الملك حينئذ بحربة مسمومة قد سقيت سمًا من نار، فتقر النفس وتفيض خارجة فيأخذها فى يده ترعد أشبه شىء بالزئبق على قدر النحلة شخصًا إنسانيًا، ثم الملائكة تناولها الزبانية، ومن الموتى من تجذف نفسه رويدًا حتى تنحصر فى الحنجرة وليس يبقى فى الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب، فحينئذ يطعنها بتلك الحربة الموصوفة، فإن النفس لا تفارق القلب حتى يطعن. وسر تلك الحربة أنها تغمس فى بحر الموت، فإذا وضعت على القلب صار سرها فى سائر الجسد كالسم الناقع، لأن سر الحياة إنما هو موضوع فى القلب ويؤثر سره عند النشأة الأولى، وقد قال بعض المتكلمين: الحياة غير النفس، ومعناها اختلاط النفس بالجسد. وعند استقرار النفس فى الترقى والارتفاع يعرض عليه الفتن، وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة، واستعملهم عليه، ووكلهم به، فيأتون المرء وهو فى تلك الحال فيمتثلون له فى صورة من سلف من الأحباء الميتين الباغين له النصح فى دار الدنيا كالأب والأم والأخ والأخت والصديق

الحميم، فيقول له: أنت تموت يا فلان ونحن سبقناك فى هذا الشأن، فمت يهوديًّا فهو الدين المقبول عند الله تعالى! فإن انصرفوا عنه وأبى جاءه آخرون وقالوا له: مت نصرانيًّا فإنه دين المسيح ونسخ به دين موسى! ويذكرون له عقائد كل ملة. فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨]. أى لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا إلى الإيمان. فإذا أراد الله تعالى بعبده هداية وتثبيتًا جاءته الرحمة، وقيل هو جبريل عليه السلام، فيطرد عنه الشيطان ويمسح الشحوب عن وجهه فيبتسم الميت ضاحكًا لا محالة. وكثير من يرى مبتسمًا فى هذه الحالة فرحًا مسرورًا بالبشير الذى جاء رحمة الله من الله تعالى يقول: يا فلان ما تعرفنى؟ أنا جبريل وهؤلاء أعداؤك من الشياطين، مت على الملة الحنيفية والشريعة المحمدية! فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك، وهو قوله تعالى: ﴿**وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨]. ثم الموت على الفطرة. ومن الناس من يطعن وهو قائم يصلى، أو نائم، أو مار فى بعض أشغاله، أو منعكف على اللهو، وهو البغتة، فتقبض نفسه مرة واحدة. ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كشف له عن أهله السابقين، وأحدق به جيرانه من الموتى، وحينئذ يكون له خوار يسمعه كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق. وآخر ما يفقد من الميت السمع، لأن الروح إذا فارقت القلب بأسرها فسد البصر، وأما السمع فلا يفقد حتى تقبض النفس، لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إله إلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله**» ونهى عن الإكثار بها عليهم لما يجدونه من الهول الأعظم والكرب الأقصم. فإذا نظرت إلى الميت قد سال لعابه وتقلصت شفتاه واسود وجهه وازرقت عيناه فاعلم بأنه شقى، قد كشف له عن حقيقة شقوته فى الآخرة، وإذا رأيت الميت جاف الفم كأنه يضحك، منطلق الوجه، مكسورة عينه، فاعلم أنه بُشِّر بما يلقاه فى الآخرة من السرور، وكشف له عن حقيقة كرامته. فإذا قبض الملك النفس السعيدة تناولها ملكان حسان الوجوه، عليهما أثواب حسنة، ولهما روائح طيبة، فيلفونها فى حريرة من حرير الجنة وهى على قدر النحلة شخصًا إنسانيًّا ما فقد من عقله ولا من علمه المكتسب فى دار الدنيا، فيعرجون به فى الهواء، منهم من يعرف ومنهم من لا يعرف، فلا تزال تمر بالأمم السالفة والقرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى تنتهى إلى سماء الدنيا، فيقرع الأمين الباب، فيقال للأمين: من أنت؟ فيقول: أنا صلصيائيل. أى جبريل. وهذا فلان معى بأحسن أسمائه وأحبها إليه؛ فيقولون له: نعم الرجل كان فلان وكانت عقيدته حسنة غير شاك. ثم ينتهى إلى السماء الثانية فيقرع الأمين الباب فيقال: من أنت؟ فيقول مقالته الأولى فيقال: أهلاً وسهلاً بفلان،

كان محافظًا على صلاته وجميع فرائضها. ثم يمر حتى ينتهي إلى السماء الثالثة فيقرع الأمين الباب فيقال: من أنت؟ فيقول الأمين مقالته الأولى والثانية، فيقال: كان يرعى الله في حق ماله ولا يتمسك منه بشئ ثم يمر حتى ينتهي إلى السماء الرابعة فيقرع الباب فيقال: من أنت؟ فيقول كدأبه في مقالته، فيقال: أهلاً بفلان كان يصوم فيحسن الصوم ويحفظه من إدراك الرفث وحرام الطعام. ثم ينتهي إلى السماء الخامسة فيقرع الباب فيقال: من أنت؟ فيقول كعادته، فيقال: أهلاً وسهلاً به أدى حجة الله الواجبة عليه من غير سمعة ولا رياء. ثم ينتهي إلى السماء السادسة فيقرع الباب فيقال: من أنت؟ فيقول الأمين مقالته، فيقال: مرحبًا بفلان كان كثير الاستغفار بالأسحار ويتصدق بالسر ويكفل الأيتام. ثم يفتح له فيمر حتى ينتهي إلى سرادقات الجلال فيقرع الباب فيقول الأمين مثل قوله، فيقال: أهلاً وسهلاً بالعبد الصالح والنفس الطيبة، كان كثير الاستغفار وينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ويكرم المساكين. ويمر بملإ من الملائكة كلهم يبشرونه بالجنة ويصافحونه حتى ينتهي إلى سدرة المنتهى فيقرع الباب فيقول الأمين كدأبه في مقالته، فيقال: أهلاً وسهلاً ومرحبًا بفلان، كان عمله عملاً صالحًا لوجه الله تعالى. ثم يفتح له فيمر في بحر من نار، ثم يمر في بحر من نور، ثم يمر في بحر من ظلمة، ثم يمر في بحر من ماء، ثم يمر في بحر من ثلج، ثم يمر في بحر من برد، طول كل بحر منها ألف عام، ثم يخترق الحجب المضروبة على عرش الرحمن وهي ثمانون ألفًا من السرادقات، لكل سرادق ثمانون ألف شرافة، على كل شرافة قمر يهلل الله تعالى ويسبحه ويقدسه، ولو برز منها قمر واحد إلى سماء الدنيا لعبد من دون الله ولأحرقها نوره، فحينئذ ينادي مناد من الحضرة القدسية من وراء السرادقات: من هذه النفس التي جئتم بها؟ فيقول: فلان بن فلان، فيقول الجليل جل جلاله: قربوه فنعم العبد كنت يا عبدي! فإذا وقفه بين يديه الكريمتين أخجله ببعض اللوم والمعاتبة حتى يظن أنه قد هلك ثم يعفو عنه سبحانه. كما روى عن يحيى بن أكثم القاضي وقد رُئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وقفني بين يديه ثم قال ياشيخ السوء فعلت كذا وفعلت كذا، فقال يا رب ما بهذا حدثت عنك، قال: فبماذا حدثت عني يا يحيى؟ فقلت: حدثني الزهري عن معمر عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ عن جبريل عنك سبحانك أنك قلت إني لأستحي أن أعذب شيبة شابت في الإسلام. فقال: يا يحيى صدقت وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عروة وصدقت عائشة وصدق محمد وصدق جبريل، وقد غفرت لك. وعن ابن بنانة وقد رُئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وقفني بين يديه الكريمتين وقال أنت الذي تلخص كلامك حتى يقال ما أفصحه؟ قلت: سبحانك إني كنت في الدنيا أصفك، قال قل كما كنت تقول في دار الدنيا! قلت:

أماتهم الذى خلقهم، وأسكنهم الذى أنطقهم، وسيوجدهم كما أعدمهم، وسيجمعهم كما فرقهم. قال لى: صدقت اذهب قد غفرت لك.

وعن منصور بن عمار أنه رُئى فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وقفنى بين يديه الكريمتين وقال لى بماذا جئتنى يا منصور؟ قلت: بستة وثلاثين حجة، قال لى: ما قبلت منها ولا واحدة، ثم قال: بماذا جئتنى؟ قلت: بثلاثمائة وستين ختمة قرأتها لوجهك الكريم، قال: ما قبلت منها واحدة، ثم قال لى: بماذا جئتنى يا منصور؟ فقلت: جئتك برحمتك، قال سبحانه: الآن جئتنى، اذهب فقد غفرت لك! وكثير من هذه الحكايات تخبر بهذه الأمور. وإنما حدثتك شيئًا ليقتدى به المقتدى والله المستعان.

ومن الناس من إذا انتهى إلى الكرسى وسمع النداء ردوه، فمنهم من يرد من الحجب، وإنما يصل إلى الله تعالى عارفوه، ولا يقف بين يديه إلا أهل المقام الرابع فصاعدًا.

فصل

وأما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفًا، فإذا وجهه كآكل الحنظل، والملك يقول: اخرجى أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث! فإذا له صراخ أعظم ما يكون كصراخ الحمير، فإذا عزرائيل ناولها زبانيةً قباح الوجوه، سود الثياب، منتنى الريح، بأيديهم مسوح من شعر، فيلقونها فيه، فتستحيل شخصًا إنسانيًا على قدر الجرادة، فإن الكافر أعظم جرمًا من المؤمن، يعنى الجسم فى الآخرة. وفى الصحيح أن ضرس الكافر فى النار مثل أحد. قال فيعرج به حتى ينتهى إلى باب سماء الدنيا، فيقرع الأمين الباب، فيقال: من أنت؟ فيقول: أنا قيابيل، فيقال: من معك؟ فيقول: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه وأبغضها إليه فى دار الدنيا، فيقال: لا أهلاً ولا سهلاً! ولا يفتح له أبواب السماء ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠]. فإذا سمع الأمين هذه المقالة طرحه من يده فتهوى به الريح فى مكان سحيق، أى بعيد، وهو قوله عز وجل: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج: ٣١]. فيا له من خزى حل به! فإذا انتهى به الأرض ابتدرته الزبانية وسارت به إلى سجين وهى صخرة عظيمة تأوى إليها أرواح الفجار. وأما اليهود والنصارى فمردودون من الكرسى إلى قبورهم، هذا من مات منهم على شريعته ويشاهد غسله ودفنه، وأما المشرك فلا يشاهد شيئًا من ذلك لأنه قد هوى به، وأما المنافق فمثل الثانى يُرَد ممقوتًا مطرودًا إلى حفرته، وأما المقصرون من المؤمنين فتختلف أنواعهم: فمنهم من ترده صلاته، لأن العبد إذا

نقر فى صلاته سارقًا لها تلف كما يتلف الثواب الخلق ويضرب بها وجهه ثم تعرج وهى تقول ضيعك الله كما ضيعتنى. ومنهم من ترده زكاته، لأن إنما يزكى ليقال فلان متصدق، وربما وضعها عند النسوان فاستجلب بها محبتهن، ولقد رأيناه، عافانا الله مما حل به. ومن الناس من يرده صومه، لأنه صام عن الطعام ولم يصم عن الكلام، فهو رفث وخسران، فخرج الشهر عنه وقد لهوجه. ومن الناس من يرده حجه، لأنه إنما حج ليقال فلان حج أو يكون حج بمال خبيث. ومن الناس من يرده العقوق.

وسائر أحوال البر كلها لا يعرفها إلا العلماء بأسرار المعاملات وتخصيص العمل الذى للملك الوهاب. فكل هذه المعانى جاءت بها الآثار والأخبار كالخبر الذى رواه معاذ ابن جبل ﷺ فى رد الأعمال وغيرها. وإنما أردت تقريب الأمر، ولولا الاختصار لكنت ملأت الدواوين من تصحيح ذلك، وأهل الشرع يعرفونه صحة ذلك كما يعرفون أبناءهم.
فإذا ردت النفس إلى الجسد ووجدته قد أخذ فى غسله إن كان قد غسل، فتقعد عند رأسه حتى يغسل، فيكشف الله عن بصر من يشاء من الصالحين فينظرها على صورتها الدنيوية.
وقد حدث شخص ابنًا له فإذا هو بشخص قاعد عند رأسه، فأدركه الوهم، فترك الجهة التى رأى فيها الشخص وتحول إلى الجهة الأخرى، فلم يزل ينظره حتى أدرج الميت فى كفنه، فعاد إليه ذلك الشخص فشاهده العالم وهو على النعش. كما روى عن غير واحد من الصالحين أنه نادى ميتًا وهو فى النعش: أين فلان وأين الروح؟ فانتقض الكفن من تلقاه صدره مرتين أو ثلاثة. وعن الربيع بن خيثم أنه اضطرب فى يد غاسله. وقد علم أن الميت تكلم فى نعشه على عهد الصديق وذكر فضله وفضل الفاروق. وإنما هى النفس تشاهد أمرًا ملكوتيًا ويكشف الله عن سمع من يشاء، فإذا أدرج الميت فى أكفانه صارت الروح ملتصقة بالصدر خارجة ولها خوار وعجيج وهى تقول أسرعوا بى إلى أىّ رحمة ربى لو علمتم ما أنتم حاملونى إليه! فإن كان ممن يبشر بالشقاء يقول رويدًا بى إلى أى عذاب لو تعلمون ما أنتم حاملون إليه. ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ لا يمر به جنازة إلا قام لها قيامًا. وفى الصحيح أنه ﷺ مرت جنازة فقام لها تعظيمًا فقيل: يا رسول الله إنه يهودى، فقال: أليست نفسًا؟ وإنما كان يفعله لأنه كشف له عن أسرار الملكوت، فكان يسر بالميت إذا مر به لأنه من أهل فهمه ومعانيه. فإذا دخل الميت القبر وأهيل عليه التراب ناداه القبر كنت تفرح على ظهرى والآن تأكلك الديدان فى بطنى، ويكثر عليه مثل هذه الألفاظ الموبخة حتى يسوّى عليه التراب، ثم يناديه ملك يقال له رومان. وقد روى عن ابن مسعود ﷺ قال: يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت إذا دخل قبره؟ قال: «يا ابن مسعود ما سألنى عنه أحد إلا أنت، فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول: يا عبد الله اكتب

عملك! فيقول: ليس معي دواة ولا قرطاس، فيقول: هيهات! كفك قرطاسك، ومدادك ريقك، وقلمك إصبعك، فيقطع قطعة من كفنه ثم يجعل العبد يكتب، وإن كان غير كاتب في الدنيا فيكتب حينئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد، ثم يطوى الملك الرقعة ويعلقها فى عنقه. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتَّانا القبر وهما ملكان أسودان يخرقان الأرض بأنيابهما، لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض، كلامهما كالرعد القاصف، وأعينهما كالبرق الخاطف، ونفسهما كالريح العاصف، وبيد كل واحد منهما مقمع من حديد لو اجتمع عليه الثقلان ما رفعاه، ولو ضرب به أعظم جبل لجعله دكًّا، فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة، فتدخل فى منخر الميت، فيحيا الميت من الصدر ويكون كهيئته عند الغرغرة، ولا يقدر على حركة، غير أنه يسمع وينظر. قال: فيسألانه بعنف، وينهرانه بجفاء، وقد صار التراب له كالماء حيثما تحرك انفتح فيه ووجد فيه فرجة، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وما قبلتك؟ فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت قال: من وكلكما عليَّ ومن أرسلكما إليَّ؟ ثم يقول: الله ربى، ومحمد نبيِّي، والإسلام دينى، وهذا ما يقوله، إلا العلماء الأخيار فيقول أحدهما للآخر صدق لقد كفى شرنا ولقن حجته، ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة ويفتحان له بابًا إلى الجنة من تلقاء يمينه، ثم يفرشان له من حريرها وريحانها، ويدخل عليه من نسيمها وروائحها، ويأتيه عمله فى صورة أحب الأشخاص إليه يؤنسه ويحدثه ويملأ قبره نورًا ولايزال فى فرح وسرور ما بقيت الدنيا حتى تقوم الساعة فليس شيء أحب إليه من قيامها. ودونه فى المنزلة المؤمن القليل العلم والعمل، ليس معه حظه من العلم ولا أسرار الملكوت، يلج عليه عمله عقيب رومان فى أحسن صورة طيبة الريح، حسن الثياب، فيقول له: أما تعرفنى؟ فيقول: من أنت الذى منَّ الله عليَّ بك فى غربتى؟ فيقول: أنا عملك الصالح لا تحزن ولا توجل! فعما قليل يلج عليك منكر ونكير يسألانك فلا تدهش، ثم يلقنه حجته، فبينما هو كذلك إذ دخلا عليه كما تقدم ذكرهما فينهرانه ويقعدانه مستندًا ويقولان له. من ربك؟ فيسبق إلى القول الأول فيقول: الله ربى، ومحمد نبيِّي والقرآن إمامى، والكعبة قبلتى، وإبراهيم أبى، وملته ملتى، غير مستعجم، فيقولان له: صدقت! ويفعلانه به كالأول، إلا أنهما يفتحان له بابًا من النار من تلقاء شماله، فينظر إلى حيَّاتها وعقاربها وأغلالها وسلاسلها وحميمها وجميع ما فيها من صديدها وزقومها، فيفزع فيقولان له: لا عليك سوء، هذا موضعك كان من النار قد أبدله الله تعالى به موضعك هذا من الجنة، نم سعيدًا! ثم يغلقان عنه باب النار ولم يدر ما مرَّ عليه من الشهور والأعوام والدهور. ومن الناس من ينعجم فى مسألته، وإن كانت عقيدته

مختلفة امتنع أن يقول الله ربى، وأخذ يذكر غيرها من الألفاظ، فيضربانه ضربة يشتعل قبره منها نارًا، ثم يطفأ عنه أيامًا، ثم يشتعل عليه أيضًا، ثم دأبه ما بقيت الدنيا. ومن الناس من يعتاص عليه ويعسر أن يقول الإسلام دينى، بشك كان يتوهمه، أو فتنة تقع به عند الموت، فيضربانه ضربة واحدة فيشتعل عليه قبره نارًا كالأول. ومن الناس من يعسر عليه أن يقول القرآن إمامى، لأنه يتلوه ولا يتعظ به ولا يعمل بأوامره ولا ينتهى بنواهيه، يطوف عليه دهره ولا يعظ نفسه خيره، فيفعل به ما فعل بالأولين. ومن الناس من يستحيل عمله جروًا يعذب به فى قبره على قدر جرمه. فى الأخبار أن من الناس من يستحيل عمله خنَّوصًا وهو ولد الخنزير. ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول محمد نبيِّى، لأنه كان ناسيًا لسنته. ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول الكعبة قبلتى، لقلة تحريه فى صلاته، أو فساد فى وضوئه، أو التفات فى صلاته، أو اختلال فى ركوعه وسجوده، ويكفيك ما روى فى فضائلها أن الله لا يقبل صلاة ممن عليه صلاة ومن عليه ثوب حرام. ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول أبى إبراهيم، لأنه سمع كلامًا يومًا أوهمه أن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، فإذا هو شاب مرتاب، فيفعل به ما فعل بالآخرين. وكل هذه الأنواع كشفناها فى كتاب الإحياء.

فصل

وأما الفاجر فيقولان له: من ربك؟ فيقول: لا أدرى، فيقولان له: لا دريت ولا عرفت! ثم يضربانه بتلك المقامع الحديد حتى يتجلجل فى الأرض السابعة، ثم تنقضه الأرض فى قبره، ثم يضربانه سبع مرات، ثم تختلف أحوالهم فمنهم من يستحيل عمله كلبًا ينهشه حتى تقوم الساعة، وهم المرتابون، وهى أنواع تعترى أهل القبور، وإنما آثرنا الاختصار فى ذكرها، وأصلها أن الرجل إنما يعذب فى قبره بالشئ الذى كان يخافه فى الدنيا، فمن الناس من يخاف الجرو أكثر، وطبائع الخلق مفترقة. نسأل الله السلامة والغفران قبل الندامة.

وقد روى عن غير واحد من الموتى أنه رُئى فى المنام فقيل له: كيف كان حالك؟ فقال: صليت بلا وضوء فوكل الله علىَّ ذئبًا يروعنى فى قبرى، فحالى معه أسوأ حال. وآخر رئى فى المنام فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال دعنى فإنى لم أتمكن فى غسل يوم من الجنابة فألبسنى الله ثوبًا من نار أتقلب فيها إلى يوم القيامة. ورئى آخر فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: الغاسل الذى غسلنى حملنى بعنف فخدشنى مسمار كان فى المغتسل قائمًا فتألمت منه، فلما أصبح الصباح سئل الغاسل فقال: كان ذلك من غير اختيارى. ورئى آخر فى المنام فقيل له: كيف حالك أوَ لم تمت؟ قال نعم، وأنا بخير، غير أن الحجر كسر ضلعى

عندما سُوِّى علىّ التراب فـأضرنى. ففتح القبر فوجدوه كمـا قال. وآخر جاء إلىٰ ولده فى النوم فقال له: يا ولد السوء أصلح قبـر أبيك، لقد آذاه المطر! فلما أصبح بعث الرجل إلى قبـر أبيه فوجـد جدولاً من الماء وقد أتى عليـه من سيل، وإذا بالقـبر مملوء من الماء. وعن أعرابى أنه قال لولده: ما فـعل بك؟ قال ما ضرنى إلا أن دفنت بإزاء فلان وكان فـاسقًا قد روعنى ما يعذب به من أنواع العذاب.

وكثيـرًا ما جاء فى مثل هذه الأخـبار حكايات تبين أهل القبور يؤلمـون فى قبورهم، وكفى بالخبر دلالة حيث يقول صاحب الشرع ﷺ: **«يُؤْلَمُ المَيِّتُ فِى قَبْرِهِ كَمَا يُؤلَمُ الحَىُّ فى بَيْتِه»** وقد نهى رسول ﷺ عن كسر عظام الميت.

و قد مر برجل قاعد على فـناء قبر فنهاه وقال: **«لا تُؤْذُوا الموْتَى في قُبُورهِمْ»**. وقد زار النبى ﷺ قبر أمه آمنة فبكى وأبكى من كان معه ثم قال: **«استَأْذَنْتُ رَبِّى فِى الاسْتغْفَار لَهَـا فَلَمْ يَأْذَنْ لِى، ثُـمَّ استَـأْذَنْتُ أَن أَزُورَ قَـبْـرَها فَـأَذنَ لِى، فَـزُورُوا القُـبـورَ فَـإِنَّهـا تُذَكِّـرُ المَوْتَ»**. وكان إذا حضر إلى المقابر ليزورها يقول ﷺ: **«سَلامًا عَلَى أهْلِ الدِّيَار منَ المُسلمين، وَإِنَّا إِن شَـاءَ الله بِكُمْ لاحقُـونَ، أَنْتمْ لَنَا فَـرَطٌ ونَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ، اللهُمَّ اغْـفرْ لَنَا وَلَهُمْ وتَجَـاوزْ بعَفْـوكَ عَنَّا وعَنْهُمْ»** فكان يعلم نساءه ﷺ إذا خرج النساء إلى المقـابر يقول لهن قولوا هذا الكلام، ويعلمهن إياه. وقال صالح المزنى: سألت بعض العلماء لأى شىء نهى عن الصلاة فى المقبرة؟ فقال: ورد حـديث، فاستدل بحديث **«لا تُصَلُّوا بينَ القُبُور فَـإن ذَلكَ حَسْرَةٌ لا مُنْتَهـى لَهَا»**. وروى عن بعضهم أنه قـال: قمت أصلى ذات يوم فى المقابر وقد اشـتد الحر وقوى، إذ رأيت شخصًا يشبـه أبى جالسًا على ظهر قبره، فسجدت فزعًا، فـسمعته يقول: ضاقت عليك الأرض رحبًا حتى جئت تؤذينا بصلاتك منذ زمان. وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بيتيم يبكى على قبر أبيه فبكى رحمة له ثم قال: **«إنَّ المَيِّتَ ليعُذَّبُ ببُكاء أَهْله عَلَيْه»** أى إنَّ ذلك يحزنه ويسوءه. فكم من ميت رئى فى المنام فقيل له كيف حالك يا فلانَ فيقـول حال سوء ساء حالى من فلان وفـلانة كانا يكثران البكاء والنواح علىَّ. إلا أن الزنادقة ينكرون ذلك قبله. ورسول الله ﷺ قال: **«مَا منْ أَحَد منْكُمْ يَمرُّ بقَبْرِ أَخيه المُؤْمن ممَّنْ يَعْرِفُهُ فِى الدُّنْيا فَيُـسَلِّمُ عَلَيْه إلاَّ عَرَفَهُ وَردَّ عَلَيْه»** وكذا حدث عليه الصلاة والسلام وقد انصرف عن جنازة دفنوها أنه يـسمع قرع نعالهم وهم بـغيره أسمع وأسـمع. ومات بعض الفقهاء ولم يوص بشىء ثم طاف على أهل بيتـه بالليل وقال: أعطوا فلانًا كيت وكيت من الزرع! وادفعوا لفلان كتابه الذى كان عندى مودوعًا منذ زمان! فلما أصبحوا ذكر كل واحد منهم لأخيـه ما رأى، ثم إنهم وجدوه بعد زمـان فى زوايا البيت. عن بعضهم قـال: اتخذ أبونا لنا مؤدبًا يعلمنا الكتابة فى الدار فمات، فخرجنا إلى قـبره بعد ستة أيام وجعلنا نتذاكر

أمر الله عز وجل، فمر بنا طبق من تين فاشتريناه وأكلناه ورمينا الأذناب على القبر، فلما كان تلك الليلة رأى أبونا الشيخ فى المنام فقال له: كيف حالك؟ فقال: بخير، غير أن أولادك اتخذوا قبرى مزبلة، وتحدثوا علىّ بكلام هو كفر، فخاصمنا أبونا للشيخ وقال: إن الشيخ قال لى إنهم قالوا عند قبرى شيئًا يشبه الكفر، فقلنا: يا سبحان الله لا يزال يؤدبنا فى الدنيا والآخرة. ومن هذه الحكايات كثير إلا أنى ذكرت هذا القدر أمثالاً ومواعظ ليُعتبر بالأقل.

فصل

وأما أهل القبور فعلى أربعة أحوال: فمنهم القاعد على عقبه حتى تنتثر العين، وتورم الجثة، ويعود الجسم ترابًا، ثم لا يزال بعد ذلك طوافًا فى الملكوت دون سماء الدنيا، ومنهم من يرسل الله عليه نعسة فلا يدرى ما فعل حتى يتنبه مع النفخة الأولى ثم يموت، ومنهم من لا يقوم على قبره إلا شهرين أو ثلاثًا، ثم تركب نفسه على طير يهوى به فى الجنة، وهو الحديث الصحيح حيث يقول صاحب الشرع ﷺ: «**نَسَمَةُ المُؤْمن منْ طَائر يَعْلَقُ فى شَجَرَة الجَنَّة**» وفى المعنى الصحيح والوجه الحسن. وكذلك سئل عن أرواح الشهداء فقال: «**الشُّهَدَاءُ فى حَوَاصلِ طُيُور خُضْر تعلق بهمْ فى شَجَرَة الجَنَّة**». ومن الناس من إذا بادت عينه عرج به إلى الصور فلا يزال لازمًا له حتى ينفخ فى الصور. والنوع الرابع خص به الأنبياء والأولياء ولهم الخيار، فمنهم من يكون طوافًا فى الأرض حتى تقوم الساعة، وكثيرًا مايرى فى الليل، وأظن الصديق منهم والفاروق. والرسول ﷺ له الخيار فى طواف العوالم الثلاثة. وعن هذه الإرادة قال يومًا تنبيهًا وإشارة ﷺ: «**إنى أَكْرَمُ عَلى الله منْ أَنْ يَدعَنى فى الأَرْض أكْثَرَ منْ ثَلاث**» وكانت ثلاث عشرات، لأن الحسين قتل على رأس الثلاثين سنة فغضب على أهل الأرض وعرج إلى السماء، وقد رآه بعض الصالحين فى النوم فقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما ترى فى فتن أمتك؟ قال: زادهم الله فتنة! قتلوا الحسين ولم يحفظونى فيه. ثم جعل يعدد كلامًا اشتبه على الراوى. ومنهم من اختار السماء السابعة كإبراهيم عليه السلام، وفى الحديث أنه أمر به ﷺ وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور وقد أحدق به أولاد المسلمين. وعيسى عليه السلام فى السماء الخامسة، وفى كل سماء رسل وأنبياء لا يخرجون منها ولا يبرحون حتى الصعقة، وليس منهم من له الخيار إلا الخليل والكليم والروح والحبيب، هؤلاء ينتهون حيث أرادوا من العالمين، وأما الأولياء فمنهم من وقف على البعثة الدنيوية كما روى عن أبى يزيد أنه تحت العرش يأكل من مائدة. وعلى هذه الأنواع الأربعة حال أهل القبور يعذبون ويرحمون ويهانون

ويكرمون، فالذين هم منهم يُحدقون بالميت إذا احتضر حتى يضيق بهم رحاب المنازل، وربما كشف له فيراهم ويفطن بهم، وقد رأيت من حدث بهذا النوع، وقد رأيت بعض الأصحاب كشف عن بصيرته فنظر إلى ولده الميت قد ولج البيت والميت يفيق ويتصور. وهذه الفوائد الملكوتية إنما تكون لكريم أو نسيب. نسأل الله أن يجود لنا بمعرفة ما نخوض به بحر أسرارها حتى يرتفع الشك والارتياب.

ومع هذه الأنواع الموصوفة لا يعقل منهم تكوين الليل والنهار إلا من كان عينه باقية لم يعرج به علواً. فمنهم من يعرف الجمعة والأعياد وإذا خرج أحد من الدنيا اجتمعوا إليه وعرفوه، فهذا يسأل عن زوجته وهذا يسأل عن والده، وكل واحد يسأل عن أربه. وربما مات الميت فلم يلق أحد معارفه لزيغ يصيبه عند الموت، فيموت يهودياً أو نصرانياً فيصير إلى عساكرهم، فإذا قدم أحد من الدنيا سأله جيرانه: ما علمك بفلان؟ فيقول لهم: قد مات، فيقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ما رأيناه سلك به إلى أمه الهاوية. وقد رئى بعض الناس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أنا وفلان وفلان، وعد خمسة من أصحابه، فى خير كثير ونعمة، وكان قتله الخوارج مع أصحابه المعروفين. وسئل عن جار له ما فعل الله به، فقال: ما رأيناه، وإنما كان هذا المنكور ألقى نفسه فى اليم حتى مات غرقًا، وأظنه والله مع قاتلى أنفسهم.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بحَديدَة جَاءَ يَوْمَ القيامَة وَحَديدَتُهُ فى يَده يَتَوجَّأ بها فى بَطْنه فى بَطْن جَهَنَّمَ خَالداً مُخَلَّداً فيهَا أبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى منْ جَبَل فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فى نار جَهَنَّمَ**» الحديث. وكذلك المرأة تموت بحدّ، لا تزال تجد ذلك الألم حتى النفخة، فهذه حياة ثانية. وقد صح أن آدم عليه السلام لقى موسى عليه السلام فقال له: أنت الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته فلم عصيته؟ قال له: يا موسى نعم، فقال له: فى كم سنة وجدت الذنب قدر على قبل فعله؟ قال له: كتب عليك قبل أن تفعله بخمسين ألف سنة، قال: ياموسى أفتلومنى على ذنب قدر علىّ قبل أن أفعله بخمسين ألف عام؟ وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ صلّى بالمرسلين ليلة أسرى به ركعتين، وأنه سلم على هارون عليه السلام، فدعا له بالرحمة ولأمته، وأنه سلم على إدريس فدعا له بالرحمة ولأمته، وكان أولئك قد ماتوا وبادت أعينهم. وإنما هى الحياة الأنفس، وبعد هذا الإحياء حياة ثالثة، والحياة الأولية يوم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا! ولا يعتد بالحياة الدنيوية، فإنها مسخرة للتنعم. ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**النَّاسُ نيَام فإذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**».

فهذه أحوال الأموات إذا بادت أعينهم: منهم المستقر، ومنهم الطواف، ومنهم

المضروب عليه، ومنهم المعذب، والدليل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. واليوم بيان عذاب البرزخ.

فصل

فإذا أراد الله تعالى قيام الساعة دون النفخ فى الصور على السر الذى بيناه فى الإحياء، فإذا الجبال تتطاير وتسير مثل السحاب، وإذا البحار قد تفجرت بعضها فى بعض، وتكورت الشمس فعادت سوداء مزبرة، وسجرت الجبال على أمثال عالم الهواء، ودخل العالم بعضه فى بعض، وانتثرت النجوم كالسلك إذا انتثر من نظمه، وعادت السماء كدهن الورد تدور كدوران الرحى، والأرض قد زلزلت زلزالاً شديدًا تارة تنقبض وتارة تنبسط كالأديم، حتى أن الله يأمر بخلع الأفلاك، فلا يبقى فى الأرضين السبع ولا السموات السبع ولا فى الكرسى حىّ كائن إلا وقد ذهبت نفسه، وإن كان روحانيًّا ذهبت روحه، وقد خلت الأرض من عمارها، والسماء من سكانها على ضروب الموحدين. ثم إن الله جلّ جلاله يتجلى فى المقام فيقبض السموات السبع فى يمينه، والأرضين السبع الأخرى، ثم يقول الله عز وجل: يا دنيا يا دنية أين أربابك وأين أصحابك، منيّتهم ببهجتك وشغلتهم عن آخرتهم بزهوك، ثم يثنى على نفسه بما شاء، ويفتخر بالبقاء المستمر، والعز الدائم، والملك الباقى، والقدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، ثم يقول تعالى: لمن الملك اليوم، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بنفسه بأن يقول: لله الواحد القهار. ثم يفعل فعلاً أعظم من الأول وهو أن يأخذ السموات على إصبع والأرضين على إصبع ثم يهزها ويقول سبحانه: أنا الملك الديان أين عبدة الأوثان الذين عبدوا غيرى من دونى، وأشركوا بى وأكلوا رزقى، أين الذين تقووا برزقى على المعاصى، أين الجبابرة، أين من تكبر وافتخر، لمن الملك اليوم، كالمرة الأولى. ثم يمكث كذلك سبحانه وتعالى ما شاء الله وليس من العرش إلى المقام نسمة تلوح تعقل، وقد ضرب الله على آذان الحور والولدان فى جنتهم. ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عن بئر فى سقر، فيخرج منها لهيب النار، فتشتعل فى الأربعة عشر بحرًا كما تشتعل النار فى الصوف المنفوش، فما تدع منها قطرة واحدة، وتدع الأرضين جملة سوداء والسموات كأنها عكر الزيت والنحاس المذاب، فإذا دنا اللهيب أن يتعلق بعنان السماء زجر الله النار زجرة فخمدت، ثم لا يرفع لها لهيب، ثم يفتح الله سبحانه وتعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة، فتمطر الأرض، فإذا هو كمنى الرجال، فيلقى الأرض عطشى ميتة هامدة فتحيا

وتهتز ولا يزال المطر عليها حتى يعمها، ويكون الماء أربعين ذراعًا، فإذا جاء الأجسام تنبت من العصعص. وفي الحديث أن الإنسان يبدأ من عجب الذنب ومنه يعود، وفى رواية أخرى «**يَبْلَى المَرْءُ كُلُّهُ إلا عُجْبُ الذَّنَب منْهُ بُدِىءَ وَمِنْهُ يَعُودُ**» وهو عظم على قدر الحمصة ليس له مخ، فمنه تنبت الأجسام فى مقابرها كما ينبت البقل، حتى يشتبك بعضها فى بعض، فإذا رأس هذا عند منكب هذا، ويد هذا عند عجز هذا، لكثرة البشر. وفى معنى قوله عز وجل: ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ**﴾ [ق: ٤]. نبهنا عليه فى كتابنا الإحياء. فإذا تمت النشأة على حسبها: الصبى صبى، والشيخ شيخ، والكهل كهل، والفتى فتى، والشاب شاب، أمر الجليل جل جلاله أن تهب ريح من تحت العرش فيها نار لطيفة، فيكشف ذلك عن الأرض، وتبقى الأرض بارزة ليس فيها حدب ولا عوج ولا أمت، وقد عادت الجبال رمالاً، وهو الكثيب المهيل، ثم يحيى الله سبحانه وتعالى إسرافيل فينفخ فى الصور من صخرة ببيت المقدس، والصور قرن من نور له أربعة عشرة دارة، الدارة الواحدة فيها ثقوب بعدد أرواح البرية، فتخرج أرواح البرايا لها دوىٌّ كدوىّ النحل فتملأ ما بين الخافقين، ثم تذهب كل نسمة إلى جثتها. فسبحان ملهمهم إياها! حتى الوحش والطير وكل ذى روح، فإذا الكل كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ [الزمر: ٨٦]. والزجرة العظيمة هى الصيحة كما قال الله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ**﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]. والساهرة هى الأرض السفلى، لأنهم فتحوا أبصارهم عند قيامهم فنظروا إلى جبال منسوفة، وبحار منزوفة، والأرض لا عوج فيها ولا أمت، والأمت الشئ المرتفع كالربوة، والعوج الأرض المخفضة كالوهدة والأودية، وإنما صارت مستوية كأنها صحفة قاعدة. فتعجبوا لما نظروا من الساهرة وقعد كل واحد منهم على قبره عريانًا منتظرًا متعجبًا متفكرًا معتبرًا كما قال ﷺ فى الصحيح: «**عُرَاةً غُرْلاً**» أى غير مختونين، إلا قومًا ماتوا فى الغربة مؤمنين لم يكفنوا، فإنهم يحشرون وقد كسوا ثيابًا من الجنة، وأقوامًا ماتوا شهداء فيقومون وقد كسوا من الجنة، وأقوامًا أيضًا من أمة محمد ﷺ متحرين السنة ما خالفوا عنها سم الخياط، فإن رسول الله ﷺ قال: «**بَالغُوا فى أَكْفَان مَوْتَاكُمْ فَإن أُمَّتى تُحْشَرُ بـأَكْفَانها وَسَائرُ الأُمَم عُرَاةً**» رواه أبو سفيان مسندًا. وقال ﷺ: «**يُحْشَرُ المَيِّتُ فى ثيَابه**» وبعض الموتى لما احتضر قال: اكسونى الثوب الفلانى، فمنع منه حتى مات فى غلالة ليس عليه غيرها، فرئى فى المنام بعد أيام قلائل كأنه حزين فقال له: ما بالك؟ فأعرض عن خطابه ثم قال: منعتمونى ثوبى وجعلتمونى أحشر فى هذه الغلالة لا غير.

فصل فى الإقامة التى بين النفختين

وهى الموتة الثانية، لأنها منعت من الحواس الباطنة، والموت الجسمانى منع من الحواس الظاهرة، لأن الأجرام هى الفاعلة للحركة، ولأنهم لا يصلّون ولا يصومون ولا هم يتعبدون، ولو أدخل الله ملكًا فى جثة لأقام فيها، لأنه ذو حرص على التحيز إلى عالمه. والنفس جوهر بسيط، فإذا ركبت فى الجسد صحت حياته وأفعاله.

واختلف الناس فى هذه المدة الكائنة بين النفختين، واستقر جمهورهم على أنها أربعون سنة، وحدثنى من لا أشك فى علمه ولا معرفته أن أمر ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى لأنه من أسرار الربوبية، وكذلك حدثنى أن الاستثناء واقع عليه سبحانه وتعالى خاصة، فقلت: ما معنى قول النبى ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَإِذَا أَخى مُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةِ العَرْشِ فَلا أَدْرِى أَبُعِثَ قَبْلِى أَمْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ؟**» فلا يخرج من هذا الحديث على ما نقدره إلا غير أجسام، وإن كان موسى الآن لا جثة له، وبعد الاستثناء الذى عن رسول الله ﷺ فى أمر الفزع، لأن البرايا عند الصعقة وعند الفزعة كما قال كعب وقد حدث فى مجلس عمر بن الخطاب ﷺ عن هول المقام حيث قال: فلو كان ذلك يابن الخطاب عمل سبعين نبيًا لظننت أنك لاتنجو من ذلك اليوم إلا قومًا استثناهم الله فى هول الفزع والصعق وهم أهل المقام الرابع. لا شك أن موسى أحدهم والاستثناء من بلوغ الأمر، ولو كان هناك أحد لأجاب الله تعالى حين يقول لمن الملك اليوم لقال: لك يا واحد يا قهار.

فصل

فإذا استوى كل أحد قاعدًا على قبره فمنهم العريان والمكسو والأسود والأبيض، ومنهم من يكون له نور كالمصباح العظيم، ومنهم من يكون له نور كالشمس، إلا أن كل واحد منهم لا يزال مطرقًا برأسه ما يدرى ما يصنع ألف عام، حتى تظهر نار من المغرب لها دوىّ تسوق الخلق إلى المحشر، فيندهش لها رءوس الخليقة إنسًا وجنًا، ووحشًا وطيرًا، فيأخذ كل واحد عمله ويقول قم وانهض إلى المحشر، فمن كان له حينئذ عمل جيد تشخص عمله بغلاً، ومنهم من تشخص عمله له حمارًا، ومنهم من تشخص له عمله كبشًا، تارة يحمله وتارة يلقيه. ويجعل لكل واحد نور شعاعىّ بين يديه، وعن يمينه مثله، يسرى بين يديه فى الظلمات وهو قوله تعالى: ﴿**نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ**﴾ [التحريم : ٨]. وليس عن شمائلهم نور بل ظلمة حالكة لا يستطيع أحد ينظر فيها، يحتار

فيها الكفار ويتردد المرتابون، والمؤمن ينظر إلى قوة حلكها وشدة حندسها ويحمد الله على ما أعطاه من النور المهتدى به فى تلك الشدة، ويسعى بين أيديهم، لأن الله يكشف للعبد المؤمن المتنعم عن أحوال أهل الشقاء المعذبين ليستبين له سبيل الفائدة، كما فعل أهل الجنة وأهل النار حيث يقول: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٥٥]. وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧]. لأن أربعًا لا يعرف قدرها إلا أربعة: لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى، ولا يعرف قدر الشدة إلا أهل النعم، ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء، ولا يعرف قدر الصحة إلا المرضى. ومن الناس من يسعى على قدميه وعلى أطراف بنانه، ومنهم من له نور ينطفئ تارة ويشتعل أخرى، وإنما نورهم عند البعث على قدر إيمانهم، وسرعة خطواتهم على قدر أعمالهم. قيل لرسول الله ﷺ فى حديث صحيح: كيف نحشر يا رسول الله؟ قال: «اثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَخَمْسَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ» ومعنى هذا الحديث والله أعلم أن قومًا يتلاقون فى الإسلام فيرحمهم الله تعالى، خلق لهم من أعمالهم بعيرًا يركبون عليه، وهذا من ضعف العمل، لأنهم مشتركون معهم، فهم كقوم خرجوا فى سفر بعيد وليس معهم أحد، منهم من يشترى مطية توصله، فاشترك فى ثمنها رجلان أو ثلاثة، فاشتروا مطية يتعقبون عليها فى الطريق وقد يبلغ بعير مع عشرة. فهذا العجز فى العمل معناه قبض اليد فى المال، أى منع التصرف فيه، ومع هذا يحكم له بالسلامة.
فاعمل هداك الله عملاً يكون لك بعيرًا خالصًا من الشركة، واعلم أن ذلك هو المتجر الرابح، فالمتقون وافدون كما قال الجليل جل جلاله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]. وفى غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَثِيرًا مَا يَفْعَلُ الْخَيْرَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُحْشَرُ فِيكُمْ». قالوا له: وما كان يصنع؟ قال: «وَرِثَ مِنْ أَبِيهِ مَالاً كَثِيرًا فَاشْتَرَى بُسْتَانًا فَحَبَسَهُ لِلْمَسَاكِينِ وَقَالَ هذا بُسْتَانِى عِنْدَ الله، وَفَرَّقَ دَنَانِيرَ عَدِيدَةً فِى الضُّعَفَاءِ وَقَالَ بِهَذَا أَشْتَرِى جَارِيَةً مِنَ اللهِ تَعَالَى وَعَبِيدًا، وَأَعْتَقَ رِقَابًا كَثِيرَةً وَقَالَ هَؤُلاَءِ خَدَمِى عِنْدَ اللهِ، وَالْتَفَتَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى رَجُلٍ ضَرِيرِ الْبَصَرِ فَرَآهُ تَارَةً يَمْشِى وَتَارَةً يَكْبُو فَابْتَاعَ لَهُ مَطِيَّةً يَسِيرُ عَلَيْهَا وَقَالَ هَذِهِ مَطِيَّتِى عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَرْكَبُهَا. وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَكَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَيْهَا وَقَدْ جِىءَ بِهَا مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً لأَرْكَبَهَا فِى الْمَوْقِفِ». وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]. أنه مثل ضربه الله ليوم القيامة فى حشر المؤمنين والكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]. أى مشاة على وجوههم، هذا قول بعض المفسرين، وليس الأمر كما حكاه، وإنما السر فى ذلك أنه تارة يمشى وتارة يكبو

على وجهه، والذى تأوله بعيد، لأن الله تعالى ذكر الأرجل فقال تعالى ﴿وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]. وقوله ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]. تفسير غير المقصد الذى أرادوه، وترك الإشارة التى نبأك عليها، فقد رأيت العرب يتمثلون بها ويقولون: هذا يمشى على وجهه، إذا كان يكبو، ومعناه: عميًا عن النور الذى يشعشع بين أيدى المؤمنين وعن أيمانهم، وليس العمى الكلى إرادتهم، لأنه لا خلاف أنهم ينظرون السماء تنشق بالغمام، والملائكة تنزل، والجبال تسير، والكواكب تنثر. وكل أهوال يوم القيامة تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]. فمعنى العمى فى القيامة الخوض فى الظلمة والمنع عن النظر إلى الكريم، إذ نور الله سبحانه وتعالى تشرق به الأرض البيضاء، وهم قد ضرب على أبصارهم غشاوة لا ينظرون إلى شىء من ذلك. كذلك ضرب على آذانهم فلا يسمعون كلام الله تعالى والملائكة الذين ينادون ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]. وكذلك منعوا من الكلام كأنهم بكم، يفسره قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥،٣٦]. والممنوع من الشئ موصوف بالضعف عن قدرته وإن كانت الصفة فيه موجودة كأنها معدومة الوجود فى حال دون حال.

ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية، فقوم مفتونون بالعود وعاكفون عليه دهرهم، فعند قيام أحدهم من قبره يأخذ بيمينه فيطرحه من يده ويقول سحقًا لك شغلتنى عن ذكر الله! فيعود إليه ويقول أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. وكذلك يبعث السكران سكرانًا والزامر زامرًا وكل أحد على الحال الذى صده عن سبيل الله، ومثله الحديث الذى روى فى الصحيح «إِنَّ شَارِبَ الخَمْرِ يُحْشَرُ وَالكُوزُ مُعَلَّقٌ فى عُنُقِه وَالقَدَحُ بِيَدِه، وَهُوَ أَنْتَنُ مِنْ كُلِّ جِيفَةٍ عَلَى الأَرْضِ، يَلْعَنُهُ كُلُّ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْه مِنَ الخَلْقِ». والميت أيضًا يحشر بظلامته، وفى الصحيح أن المقتول فى سبيل الله يأتى يوم القيامة وجرحه يشخب دمًا. اللون لون الدم، والريح ريح المسك، حتى يقف بين يدى الله عز وجل. فإذا ساقتهم الملائكة زمرًا وأفواجًا تحت كل واحد ما قدر له، وجمعوا فى صعيد واحد من إنس وجن وشيطان ووحش وسبع وطير، تحولهم الملائكة إلى الأرض الثانية وهى أرض بيضاء من فضة نورية، وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات. ثم إن الله سبحانه وتعالى يأمر ملائكة السماء الثانية فيحدثون حلقة واحدة فإذا هم مثلهم عشرين مرة. ثم تنزل ملائكة السماء الثالثة فيحدقون من وراء الكل فتكون حلقة واحدة أكثر منهم ثلاثين ضعفًا. ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحدقون بالكل حلقة واحدة

فإذا هم مثلهم بأربعين ضعفًا. ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحدقون من ورائهم حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة. ثم تنزل ملائكة السماء السادسة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستين مرة. ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم سبعين مرة. والخلق تتداخل ويندرج بعضهم فى بعض حتى يعلو القدم ألف قدم لشدة الزحام، ويخوض الناس فى العرق على أنواع مختلفة إلى الآذان وإلى الصدر وإلى الحلقوم وإلى المنكبين وإلى الركبتين، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد فى الحمام، ومنهم من يصيبه البلل كالعطش إذا شرب الماء. وأصحاب الرأى هم أصحاب الكراسى، وأصحاب الكعبين قوم يموتون غرقى، والملائكة تناديهم ﴿**لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ [الأعراف: ٤٩]. وحدثنى بعض العارفين أنهم الأوابون كالفضيل ابن عياض وغيره إذ النبى ﷺ قال: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ**» فإن دليل ذلك قول مطلق.

وهذه الأصناف الثلاثة: أهل الرأى، والرشح، وأهل الكعب، هم الذين تبيض وجوههم ومن دونهم تسود وجوههم. وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رءوسهم حتى لو أن أحدًا مد يده يضاعف حرها سبعين مرة! وقال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض، وأذابت الصخر، ونشفت الأنهار. فبينما الخلائق يمرحون وهم فى تلك الأرض البيضاء التى ذكرها الله تعالى حيث يقول: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [إبراهيم: ٤٨]. وهم على أنواع فى المحشر، وملوك أهل الدنيا كالذر كما روى فى الخبر فى صفة المتكبر. وليس هم كهيئة الذر عينًا، غير أن الأقدام تطأ عليهم حتى صاروا كالذر فى مذلتهم وانخفاضهم.

وقوم يشربون ماء باردًا عذبًا صافيًا، لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكئوس من أنهار الجنة يسقونهم. وعن بعض السلف الصالحين أنه نام فرأى القيامة قد قامت وكأنه فى الموقف عطشان، ورأى صبيانًا صغارًا يسقون الناس، قال فناديتهم: ناولونى شربة ماء! فقال لى واحد منهم: ألك فينا ولد؟ قلت: لا، قال: فلا إذًا. وفى هذا فضل التزويج. ولهذا الولد الساقى شروط ذكرناها فى كتابنا «الإحياء».

وقوم قد دنا على رءوسهم ظل يمنعهم من الحر وهى الصدقة الطيبة، ولا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور الذى وصفناه فى كتابنا «الإحياء»، وهو من بعض أسرار القرآن، فتوجل له القلوب وتخشع له الأبصار لعظم نقره، وتساق الرءوس من المؤمنين والكافرين يظنون ذلك عذابًا يزداد فى هول القيامة، فإذا بالعرش يحمله ثمانية

أمـلاك يسيـر قدم الملك منهم مـسيـرة عشـرين ألف سنة، وأفـواج الملائكة وأنواع الغمـام بأصوات التسبيح لا تطيقه العقول، حتى يستقر العرش فى تلك الأرض البيضاء التى خلقها الله تعالى لهـذا الشأن خاصة، فـتطرق الرءوس وتحصر وتنحبس، وتشـفق البرايا، وترعب الأنبيـاء، وتخاف العلماء، وتفـزع الأولياء والشـهداء من عذاب الله الذى لا يطيـقه شئ. فبينـما هم كذلك؛ إذ غشيـهم نور غلب على نور الشمس التى كانوا فى حـرها، فلا يزالون يموج بعضهم فى بعض ألف عام والجليل لا يكلمهم كلمة واحدة، فحينئذ تذهب الناس إلى آدم عليه السلام فيقولون: يا آدم يا أبا البشر الأمـر علينا شديد. وأما الكافر فيقول: يا رب ارحمنى ولو إلى النار، من شدة مـا يرى من الهول. ويقولون: يا آدم: أنت الذى خلقك الله بيده، وأسجَد لك مـلائكته، ونفخ فيك من روحه، اشفع لنا فى فصل القضـاء! فيؤمر بكل حيث يشاء سـبحانه وتعالى فيفعل بـهم ما يشاء فيقول: عصـيت الله حيث نهانى عن أكل الشجرة، وأنا أستحى أن أكلمه فى هذه الحالة، ولكن اذهبوا إلى نوح عليه السلام فإنه أول المسلمين! فيقيـمون ألف عام يتشاورون فيما بينهم، ثم يذهبـون إلى نوح فيقولون له: أنت أول المرسلين، فيذكرون له مثل ذلك، ثم يطلبون منه الشفاعة فى فصل القضاء بينهم، فيقول: إنـنى دعوت دعوة أغرقت بها أهل الأرض، وإنى أستـحى من الله تعالى أن أسأله مثل ذلك، ولكن انطلقوا إلى إبراهيم خليل الله تعـالى، هو سماكم المسلمين من قبل فلعله يشفع لكم! فيتشاورون فيما بينهم ألف عام ثم يأتونه عليه السلام فيقولون له: يا إبراهيم يا أبا المسلمين أنت الذى اتخـذك الله خليلاً فاشـفع لنا إلى الله لعله يفصل فـيمـا بين خلقه! فيقـول لهم: إنى كذبت فى الإسلام ثلاث كذبات جادلت بهن عن دين الله، فـأنا أستحى من الله أن أسأله الشـفاعة فى مـثل هذا المقام، ولكن اذهبـوا إلى موسى عليه السـلام فإنه اتخذه الله كليمًا وقربه نجيًّا عسى أن يشفع لكم. فيتشـاورون فيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة والموقف ضـيقًا فـيأتون موسى فيـقولون له: يا بن عمـران أنت الذى اتخذك الله كليمًا وقربك نجيًّا وأنزل إليك التوراة، فاشـفع لنا فى فصل القضاء فقد طال المـقام واشتد الزحام وتراكمت الأقدام ونادى أهل الكفر الإسلام من طول المقام! فيقول لهم موسى: إنى سألت الله تعالى أن يأخـذ آل فرعون بالسنين وأن يجعلهم مثلاً للآخـرين، وأنا أستحى من الله تعالى أن أسأله الشفاعة فى مثل هذا المقام مع أسباب جرت بينى وبينه فى المناجاة يلوح فيهـا تعريض الهلاك، إلا أنه ذو رحـمة واسعة ورب غـفور، لكن اذهبوا إلى عيـسى عليه السلام فإنـه من أصح المرسلين يقينًا، وأكثرهم مـعرفة بالله تعالى، وأشـدهم زهدًا وأبلغهم حكمة، فلعله يشفع لكم! فيتشاورون فـيما بينهم ألف عام والحال يزيد شدة والموقف يزداد ضيقًـا، وهم يقولون: حتى متى نحـن من رسول إلى رسول ومن كريم إلى كـريم؟ فيأتون

عيسى عليه السلام فيقولون له: أنت روح الله وكلمته، وأنت الذى سماه الله وجيهًا فى الدنيا والآخرة، اشفع لنا إلى ربك فى فصل القضاء! فيقول إن قومى اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، فكيف أشفع عند من عبدت معه وسميت له ابنًا وسمى لى أبًا، ولكن أرأيتم لو كان لأحدكم كيس فيه نفقة وعليه خاتم أكان يبلغ إلى ما فى الكيس حتى يفض الخاتم؟ قالوا: نعم يانبى الله، قال لهم: اذهبوا إلى سيد المرسلين وخاتم النبيين أخى العرب، فإنه ادخر دعوته شفاعة لأمته، وكثيرًا ما آذاه قومه: شجوا جبينه، وكسروا زباعيته، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبًا، وإنه لأحسنهم فخارًا، وأكبرهم شرفًا، وهو يقول كما قال الصديق لإخوته: ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف: ٩٢]. وجعل يتلو عليهم من فضائله ﷺ ما لم تمجه آذانهم حتى امتلأت نفوسهم حرصًا على الذهاب إليه، فساروا حتى أتوا إلى منبره ﷺ وقالوا له: أنت حبيب الله والحبيب أوجه الوسائط، اشفع لنا إلى ربك! فقد ذهبنا إلى أبينا آدم فأحالنا على نوح، فذهبنا إلى نوح فأحالنا على إبراهيم، وذهبنا إلى إبراهيم فأحالنا على موسى، فذهبنا إلى موسى فأحالنا على عيسى، فذهبنا إلى عيسى فأحالنا عليك صلَّى الله عليك وسلم، وليس بعدك مطلب ولا عنك مهرب، فيقول ﷺ: أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى. ثم ينطلق ﷺ إلى سرادقات الجلال فيستأذن فيؤذن له، ثم يرفع الحجاب ويلج إلى العرش ويخر ساجدًا يمكث فيها ألفًا، ثم يحمد الله تعالى بمحامد ما حمده بها أحد قط. قال بعض العارفين: إن تلك المحامد التى أثنى الله بها على نفسه يوم فراغه من خلقه. فيتحرك العرش تعظيمًا وقد حاز صحيفة من الصحف التى تقدم ذكرها فى «الإحياء» والناس فى تلك المدة قد ضاق مكانهم، وساءت أحوالهم، وترادفت أهوالهم، وقد طوق كل واحد منهم ما بخل به فى الدنيا: فمانع زكاة الإبل يحمل بعيرًا على كاهله له رغاء وثقل يعدل الجبل العظيم، ومانع البقر يحمل ثورًا على كاهله له خوار وثقل يعدل الجبل العظيم. والرغاء والخوار كالرعد القاصف. ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالاً قد ملئت من الجنس الذى كان يبخل به، برًّا كان أو شعيرًا، أثقل ما يكون، ينادى تحته بالويل والثبور، ومانع زكاة المال يحمل شجاعًا أقرع له زبيبتان، وذنبه قد صب فى منخره، واستدار بجيده، وثقل على كاهله، حتى كأنه طوق به كل رحى فى الأرض. وكل واحد ينادى ما هذا فتقول لهم الملائكة: هذا ما بخلتم به رغبة فيه وشحًّا عليه، وهو قوله تعالى: ﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وآخرون قد عظمت فروجهم وهى تسيل صديدًا تتأذى بنتنهم جيرانهم، وآخرون قد صلبوا على جذوع النيران، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم أقبح ما يكون، وهم الزناة واللاطة والكاذبون، وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال الرواسى، وهم آكلوا الربا. وكل ذنب قد بدا سوء ذنبه ظاهرًا عليه.

فصل

فيناد‌ى الجليل جل جلاله يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، فيقول ﷺ: يا رب افصل بين عبادك! وقد أفصح كل واحد بقتبه في عرصات يوم القيامة. فيأتي النداء نعم يا محمد، ويأمر الله بالجنة فتزخرف ويؤتى بها ولها نسيم طيب أعبق ما يكون وأزكى، فيوجد ريحها مسيرة خمسمائة عام، فتبرد القلوب، وتحيا النفوس، إلا من كانت أعمالهم خبيثة فإنهم منعوا من ريحها، فتوضع عن يمين العرش. ثم يأمر الله تعالى أن يؤتى بالنار، فترعب وتفزع، وتقول للمرسلين إليها من الملائكة: أتعلمون أن الله خلق خلقًا يعذبني به؟ فيقولون: لا وعزته! وإنما أرسل إليك لتنتقمي من عصاة ربك، ولمثل هذا اليوم خلقت، فيأتون بها تمشي على أربع قوائم، تقاد بسبعين ألف زمام، في كل زمام سبعون ألف حلقة لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها حلقة واحدة، على كل حلقة سبعون ألف زباني لو أمر زباني منهم أن يدك الجبال لدكها وأن يهد الأرض لهدها، وإذا لها شهيق ودوي وشرر ودخان، تفور حتى الأفق ظلمة، فإذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام انفلتت من أيدي الزبانية حتى تأتي إلى أهل الموقف ولها صلصة وتصفيق وسحيق فيقال: ما هذا؟ فيقال: جهنم انفلتت من أيدي سائقيها ولم يقدروا على إمساكها لعظم شأنها، فجثوا الكل على الركب، حتى المتوسلون، ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى بالعرش، هذا قد نسي الذبيح، وهذا قد نسي هارون، وهذا قد نسي مريم، ويجعل كل واحد منهم يقول: يا رب نفسي لا أسألك اليوم غيرها. وهو الأصح عندي. ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول: أمتي سلمها ونجها يا رب! وليس في الموقف من تحمله ركبتاه وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨]. وعند تفلتها تكبو من الحنق والغيظ وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]. أي تعظيمًا وحنقًا، يقول سبحانه وتعالى تكاد تميز أي تكاد تنشق نصفين من شدة غيظها فيبرز ﷺ ويأخذ بخطامها ويقول لها ارجعي مدحورة إلى خلفك حتى تأتيك أفواجك! فتقول: خل سبيلي فإنك يا محمد عليّ حرام، فينادي مناد من سرادقات العرش: اسمعي منه وأطيعي له! ثم تجذب وتجعل على شمال العرش، ويتحدث أهل الموقف بجذبها، فيخف وجلهم وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فهناك ينصب الميزان، وهو كفتان: كفة من نور عن يمين العرش، وكفة عن يساره من ظلمة، ثم يكشف الجليل عن ساقه فيسجد الناس تعظيمًا له وتواضعًا، إلا الكفار فإن أصلابهم تعود حديدًا فلا يقدرون على السجود وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن

ساق ويُدعَون إلى السُّجود فلا يستطيعون﴾ [القلم: ٤٢]. وروى البخاري في تفسيره مسندًا إلى رسول الله ﷺ قال: «يكشفُ الله عن ساقه يوم القيامة فيسجدُ كلُّ مؤمن ومؤمنة» وقد أشفقت من تأويل الحديث وعدلت عن منكريه، وكذا أشفقت من ذكر صفة الميزان وزيفت قول واضعيه بالمثل وجعلته محيزًا إلى العالم الملكوتي، فإن الحسنات والسيئات أعراض، ولا يصح وزن الأعراض إلا بالميزان الملكوتي. فبينما الناس ساجدون إذ نادى الجليل بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب: أنا الملك أنا الديان - حكاه البخاري - لا يجاوزني ظلم ظالم، فإن جاوزني فأنا الظالم. ثم يحكم بين البهائم، ويقتص للجماء من القرناء، ويفصل بين الوحش والطير، ثم يقول لها: كوني ترابًا! فتسوى بها الأرض. ويتمنى الكافر فيقول يا ليتني كنت ترابًا! ثم يخرج النداء من قبل الله: أين اللوح المحفوظ، فيرى به هوج عظيم فيقول الله: أين ما سطرت فيك من توراة وإنجيل وفرقان، فيقول: سلبني الروح الأمين، فيؤتى به يرعد وتصطك ركبتاه فيقول الله: يا جبريل هذا اللوح يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحيي أصدق؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول له: فما فعلت فيه؟ فيقول: أنهيت التوراة إلى موسى، والإنجيل إلى عيسى، والفرقان إلى محمد ﷺ، وأنهيت إلى كل رسول رسالته، وإلى أهل الصحف صحائفهم. فإذا بالنداء: يا نوح! فيؤتى به يرعد وتصطك فرائصه فيقول له يا نوح زعم جبريل أنك من المرسلين، قال: صدق، فيقول له: ما فعلت مع قومك؟ قال دعوتهم ليلاً ونهارًا فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا. فإذا بالنداء: يا قوم نوح! فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقال هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة، فيقولون: يا ربنا كذب ما بلغنا من شئ، وينكرون الرسالة، فيقول الله: يا نوح ألك بينة عليهم؟ فيقول: نعم يا رب بينتي عليهم محمد وأمته، فيؤتى بالنبي فيقول الله عز وجل: يا محمد هذا نوح يستشهدك، فيشهد له بتبليغ الرسالة ويقرأ ﷺ ﴿إنَّا أرسلنا نوحًا﴾ [نوح: ١]. إلى آخرها فيقول الجليل: قد وجب عليكم الحق وحقت عليكم كلمة العذاب، فقد حقت على الكافرين، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب. ثم ينادي: أين عاد؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فعل قوم نوح مع نوح، فيشهد عليهم النبي وخيار أمته فيتلو ﴿كذَّبت عادٌ المرسلين﴾ [الشعراء: ١٢٣]. فيؤمر بهم إلى النار. ثم ينادي: يا صالح ويا ثمود! فيأتون فيستشهدون عندما ينكرون النبي ﷺ، فيتلو ﴿كذَّبت ثمودُ المرسلين﴾ [الشعراء: ١٤١]. إلى آخر القصة، فيفعل بهم مثلهم. ولا يزال يخرج أمة بعد أمة قد أخبر عنهم القرآن بيانًا، وذكرهم فيه إشارة، كقوله تعالى: ﴿وقرونًا بين ذلك كثيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]. وقوله: ﴿ثمَّ أرسلنا رسُلنا تترا كلَّ ما جاء أُمَّةً رسولها كذَّبوه﴾ [المؤمنون: ٤٤]. وقوله﴿والَّذين من بعدهم لا يعلمهم إلاَّ اللَّه جاءتهم رسُلُهم﴾ [إبراهيم: ٩]. وفي هذا تنبيه

على أولئك القرون الطاغية كقوم يارخ ومارخ ودوح وأسر وما أشبه ذلك، حتى ينتهى النداء إلى أصحاب الرسّ وتُبَّع وقوم إبراهيم، وفى كل ذلك لا يروج، أى يرتفع لهم ميزان، ولا يوضع لهم حساب، وهم عن ربهم يومئذ محجوبون، والترجمان يكلمهم، لأن من نظر إليه الله وكلمه لم يعذب. ثم ينادى بموسى فيأتى وهو كأنه ورقة فى ريح عاصف فيقول له: يا موسى إن جبريل زعم أنه بلغك الرسالة والتوراة، فتشهد له بالبلاغ؟ قال: نعم، قال: فارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك! فيرقى المنبر ويقرأ فينصت كل من فى الموقف، فيأتى بالتوارة غضة طرية على حسبها يوم أنزلت حتى يتوهم الأحبار أنهم ما عرفوها يومًا. ثم ينادى: يا داود! فيأتى وهو يرعد كأنه ورقة فى ريح عاصف، ويقول جل ثناؤه: يا داود زعم جبريل أنه بلغك الزبور، فتشهد له بالبلاغ؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول له: ارجع إلى منبرك واتل ما أوحى إليك! فيرقى ويقرأ وهو أحسن صوتًا. وفى الصحيح أنه صاحب مزامير أهل الجنة. فيسمع صوته أمام تابوت السكينة، فيقتحم الجموع ويتخطى الصفوف حتى يصل إلى داود، فيتعلق به فيقول: أما وعظك الزبور حتى نويت لى شرًا؟ فيخجله ويسكته مفحمًا، فيرتج الموقف لما يرى الناس من شأن داود عليه السلام. ثم يتعلق به فيسوقه إلى الله، فيرخى عليهم الستر، فيقول: يا رب أنصفنى منه! فإنه تعمدنى بالهلاك، وجعلنى أقاتل حتى قتلت، وتزوج امرأتى وعنده يومئذ تسع وتسعون امرأة غيرها، فيلتفت الجليل إلى داود فيقول له: أصدق فيما يقول؟ فيقول له: نعم يا رب، وهو منكس رأسه حياءً وتوقعًا لما ينزل به من العذاب، ورجاء فيما وعده الله من المغفرة، فكان إذا خاف نكس رأسه، وإذا طمع ورجا رفعه، فيقول الله تعالى: قد عوضتك عن ذلك كذا وكذا من القصور والولدان، فيقول: رضيت يا رب. ثم يقول لداود: اذهب قد غفرت لك(١).

وكذا شأنه سبحانه وتعالى مع من أكرمه، يعطى عنه من سعة رفده وعظيم عفوه، ثم يقول له: ارجع إلى منبرك واقرأ بما بقى من الزبور! فيفعل حينئذ، فيؤمر ببنى إسرائيل أن ينقسموا قسمين: قسم مع المؤمنين، وقسم مع المجرمين. ثم ينادى المنادى: أين عيسى ابن مريم؟ فيؤتى به فيقول له: أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دور الله؟ فيحمد ما شاء الله، ويثنى عليه كثيرًا، ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار ويقول: ﴿**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة: ١١٦]. فيضحك الله تعالى ويقول: ﴿**هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾ [المائدة: ١١٩]. صدقت يا عيسى ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل

---

(١) من الأفضل أن ننأى بالأنبياء عن هذه الإسرائيليات التى افتراها اليهود على الأنبياء ومنها هذه الرواية الكاذبة (الناشر).

الذى بلغك جبريل! فيقول: نعم، ثم يقرأ فتشخص إليه الرءوس من حسن ترديده وترجيعه، فإنه أحكم الناس به رواية، فيأتى به غضًا طريًا حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا منه آية قط. ثم ينقسم النصارى فرقتين: المجرمون مع المجرمين، والمؤمنون مع المؤمنين. ثم يخرج النداء: أين محمد؟ فيؤتى به ﷺ فيقول له: يا محمد هذا جبريل يزعم أنه بلغك القرآن، فيقول: نعم يا رب، فيقال له: ارجع إلى منبرك واقرأ! فيتلو ﷺ القرآن فيأتى به غضًا طريًا عليه حلاوة يستبشر بها المتقون، وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة، والمجرمين وجوههم مغبرة. ويستدل على السؤال المتقدم للرسل والأمم بقوله تعالى: ﴿**فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف: ٦]. وقيل بقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة: ١٠٩]. والأول أصح، حكيناه فى «الإحياء» لأن الرسل يتفاضلون والمسيح عليه السلام من أجلهم لأنه روح الله وكلمته. فإذا تلا النبى ﷺ القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط، وقد قالوا للأصمعى: تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله تعالى، قال: يا ابن أخى يوم أسمعه من النبى ﷺ كأنى ما سمعته قط. فإذا فرغت قراءة الكتب خرج النداء من قبل سرادقات الجلال: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يس: ٥٩]. فيرتج الموقف ويقوم فيه روع عظيم، والملائكة قد امتزجت بالجن والجن ببنى آدم. ولجَّ الكل لجة واحدة. ثم يخرج النداء: يا آدم ابعث من نبيك بعثًا إلى النار! فيقول: كم يا رب؟ فيقول له: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدًا إلى الجنة. فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة الرب كما قال الصديق: نحن حفنة من حفنات الرب. ثم يقرب اللعين بالشياطين فمنهم من يزيغ له الميزان فإذا سيئاته ترجح على حسناته؛ وكل من وصلت له الشريعة لا بدَّ له من الميزان. فإذا اعتزلوا وأيقنوا أنهم هالكون قالوا: آدم ظلمنا ومكن الزبانية من نواصينا، فإذا النداء من قبل الله تعالى: ﴿**لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [غافر: ١٧]. فيستخرج لهم كتاب عظيم يسد ما بين المشرق والمغرب فيه جميع أعمال الخلائق، فما من صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩]. وذلك أن أعمال الخلائق كل يوم تعرض على الله فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها فى ذلك الكتاب العظيم وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الجاثية: ٢٩]. ثم ينادى بهم فردًا فردًا فيحاسب كل واحد منهم، فإذا الأقدام تشهد، واليدان تشهدان وهو قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النور: ٢٤]. وقد جاء الخبر أن رجلاً منهم يوقف بين يدى الله تعالى فيقول له: يا عبد السوء كنت مجرمًا عاصيًا، فيقول: ما فعلت، فيقال له: عليك بينة فيؤتى بحفظته فيقول: كذبوا علىَّ،

ويجادل على نفسه وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]. ويختم على فيه وهو قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. فتشهد جوارحه عليه فيؤمر به إلى النار، فيجعل يلوم جوارحه فتقول له: ليس عن اختيارنا، أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ. ثم يدفعون بعد الفراغ إلى خزنة جهنم فترتج أصواتهم بالبكاء والضجيج، ويكون لهم رجة عظيمة حين يعرض الموحدون المؤمنون، فتحدق بهم الملائكة تلقى كل واحد منهم يقول: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. والفزع الأكبر فى أربعة مواضع: عند نقر الناقور، وعند تفلت جهنم من الخزنة، وعند إخراج بعث آدم، وعند دفعهم إلى الخزانة. فإذا بقى الموقف ليس فيه إلا المؤمنون، والمسلمون المحسنون، والعارفون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والمرسلون، ليس فيهم مرتاب ولا منافق ولا زنديق فيقول الله تعالى: يا أهل الموقف مَن ربكم؟ فيقولون: الله، فيقول لهم: تعرفونه؟ فيقولون: نعم، يسار العرش لو جعلت البحار السبعة فى نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول لهم: أنا ربكم، بأمر الله، فيقولون: نعوذ بالله منك! فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش لو جعلت البحار الأربعة عشر فى نقرة إبهامه ما ظهرت فيقول لهم: أنا ربكم، فيتعوذون بالله منه. ثم يتجلى لهم الله تعالى فى الصورة التى كانوا يعرفونها وسمعوه وهو يضحك فيسجدون له جميعهم فيقول أهلاً بكم، ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة فيتبعونه فيمر بهم على الصراط والناس أفواج، أعنى المرسلين ثم النبيين ثم الصديقين ثم المحسنين ثم الشهداء ثم المؤمنين ثم العارفين، ويبقى المسلمون منهم المكبوب على وجهه، ومنهم المحبوس فى الأعراف، ومنهم قوم قصروا عن تمام الإيمان، ومنهم من يجوز الصراط على مائة عام، وآخر يجوز على ألف عام، ومع ذلك كله لا تحرق النار كل من رأى ربه عياناً لا يضام فى رؤيته. وأما المسلم والمحسن والمؤمن فقد كشفنا عن مقام كل واحد منهم فى كتابنا المسمى «بالاستدراج» وهم فى زمرة الانطلاق قد كثر مرورهم وترددهم بالجوع والعطش، قد تفتتت أكبادهم، لهم نفس كالدخان، يشربون من الحوض بكئوس عدد نجوم السماء، وماؤه من نهر الكوثر، وقدره من إيلياء إلى صنعاء طولاً، وعرضه من عدن إلى يثرب، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «مِنْبَرِى عَلَى حَوْضِى» أى على أحد حافتيه فى المكيال والمقدار، والمذادون عنه هم المشتغلون فى حبس الصراط بمساوى قبائح ذنوبهم، فكم من متوضئ لا يحسن أن يسبغ وضوءه، وكم من مصلٍّ لم يسأل عن صلاته اتخذ صلاته حكاية قد عريت من الخضوع والخشوع لو قرصه نملة لالتفت، والعارفون بجلال الله لو قطعت أيديهم وأرجلهم ما ارتجوا، لذلك شغلتهم الهيبة والفكرة لعلمهم بقدر من قاموا بين يديه، فربما رُجل لسعته العقرب فى

مجلس أمير الأمراء لم يتحرك صبرًا عليها وتعظيمًا للأمير فى المجلس، فهذه حالة الآدميين مع المخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف حال من يكون قائمًا بين يدى الله عز وجل وهيبته وسلطانه وعظمته وجبروته! وحكى الظالم العارف أنه يؤتى به إلى الله تعالى فتخرج عليه المظالم ويتعلق به المظلوم فيقول له: التفت أيها المظلوم فوق رأسك! فإذا بقصر عظيم تحار فيه الإبصار فيقول: ما هذا يا رب؟ فيقول: إنه للبيع فاشتره منى! فيقول: ليس معى ثمنه، فيقول: إن ثمن هذا أن تبرئ مظلمة أخيك فالقصر لك، فيقول: قد فعلت يا رب. هكذا يفعل الله بالظالمين الأوابين وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]. والأواب الذى أقلع عن الذنب فلم يعد أبدًا، وقد سمى داود عليه السلام أوابًا وغيره من المرسلين.

فصل فى كيفية دعاء أهل الموقف وذكر الاختلاف فيما جاء فى تفسيره

وفى الصحيح أن أول ما يقضى الله تعالى فى الدماء، وأول من يعطى الله أجورهم الذين ذهبت أبصارهم. نعم ينادى يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم: أنتم أحرى، أى أحق من ينظر إليه، ثم يستحى الله منهم فيقول لهم: اذهبوا إلى ذات اليمين! ويعقد لهم راية، وتجعل فى يد شعيب عليه السلام، فيصير أمامهم ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصى عَدَدَهم إلا الله، يزفونهم كما تزف العروس، فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف، وصفة أحدهم فى الصبر والحلم كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة. ثم ينادى: أين أهل البلاء؟ ويريد المجذومين، فيؤتى بهم فيحييهم الله بتحية طيبة بالغة، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء وتجعل بيد أيوب عليه السلام فيصير أمامهم إلى ذات اليمين، وصفة المبتلى صبر وحلم: كعقيل بن أبى طالب ومن ضاهاه من هذه الأمة. ثم ينادى: أين الشباب المتعففون؟ فيؤتى بهم إلى الله فيترحب بهم ما شاء الله أن يقول، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية خضراء، ثم تجعل فى يد يوسف عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين، وصفة الشباب صبر وحلم كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه الأمة. ثم يخرج النداء: أين المتحابون فى الله؟ فيؤتى بهم إلى الله فيترحب بهم ويقول ما شاء الله، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وصفة المتحابين فى الله صبر وحلم لا يسخط ولا يسئ من/توارد الأحوال الدنيوية كأبى تراب أعنى على بن أبى طالب ﷺ ومن ضاهاه من هذه الأمة. ثم يخرج النداء: أين الباكون من خشية الله؟ فيؤتى بهم إلى الله فتوزن دموعهم ودماء الشهداء ومداد العلماء فيرجح الدمع، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين

ويعقد لهم راية ملونة لأنهم بكوا فى أنواع مختلفة: هذا بكى خوفًا، وهذا بكى طمعًا، وهذا بكى ندمًا، وتجعل بيد نوح عليه السلام فتهم العلماء بالتقدم عليهم ويقولون علمنا أبكاهم، فإذا النداء: على رسلك يانوح! فتوقف الزمرة ثم يوزن مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح دم الشهداء على مداد العلماء، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية مزعفرة وتجعل فى يد يحيى ثم ينطلق أمامهم، فهم العلماء بالتقدم، ويقولون: عن علمنا قاتلوا، فنحن أحق منهم بالتقدم فيضحك الله عز وجل ويقول: هم عندى كأنبيائى اشفعوا فيمن تشاءون! فيشفع العالم فى أهل بيته وجيرانه وإخوانه، ويأمر كل واحد منهم ملكًا ينادى فى الناس: ألا إن فلانًا العالم قد أمره الله أن يشفع فيمن قضى له حاجة أو أطعمه لقمة أو سقاه شربة ماء حين عطش، فيقوم إليه من فعل معه شيئًا من ذلك فيشفع له. وفى الصحيح «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَشْفَعُ المُرسَلُونَ ثُمَّ النَّبِيُّونَ ثُمَّ العُلَمَاءُ»، ويعقد لهم راية بيضاء تجعل فى يد إبراهيم عليه السلام فإنه أشد المرسلين مكاشفة. ونضرب عن هذا الفن. ثم ينادى مناد: أين الفقراء؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى، فيقول لهم: مرحبًا بمن كانت الدنيا سجنهم، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وتعقد لهم راية صفراء وتجعل فى يد عيسى عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين. ثم ينادى: أين الأغنياء؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى فيعدد لهم ما خولهم خمسمائة عام، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين وتعقد لهم راية ملونة وتجعل بيد سليمان عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين. وفى الحديث «إِنَّ أَرْبَعَةً يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِأَرْبَعَة: يُنَادى بالأَغْنيَاء وأَهْلِ الغبْطَة فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا شَغَلَكُمْ عَنْ عبَادَة الله؟ فَيَقُولُونَ: أَعْطَانَا مُلْكًا وَغبْطَةً شَغَلَتْنَا عَن القيَام بحقّه، فَيُقَالُ: مَنْ أَعْظَمُ مُلْكًا أَنْتُمْ أَمْ سُلَيْمَانُ؟ فَيقُولُونَ: سُلَيْمَانُ، فَيقَالُ: مَا شَغَلَهُ ذَلكَ عَن القيَام بحَقّي. ثُمَّ يُقَالُ: أَيْنَ أَهْلُ البَلاء؟ فَيُؤْتَى بهمْ فَيقُولُونَ لَهُمْ: أَيُّ شَيْءٍ شَغَلَكُمْ عَنْ عبَادَة الله؟ فَيَقُولُونَ: ابْتَلانا الله في الدُّنْيا فَشَغَلْنَا عَنْ ذكْره وَالقيَام بحقّه، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ أَشَدُّ بَلاءً أَنْتُمْ أَمْ أَيُّوبُ؟ فَيَقُولُونَ: أَيُّوب، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا شَغَلَهُ ذلكَ عَن القيَام بحَقّ الله. ثُمَّ يُنَادَى أَيْنَ الشّبَابُ وَالمَماليكُ؟ فَيُؤْتَى بهمْ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا شَغَلَكُمْ عَنْ عبَادَة الله؟ فَيَقُولُونَ: أَعْطَانَا جَمَالاً وَحَسَنًا فُتنًا به فكنا مَشْغُولينَ عَن القيَام بحَقّه، وَتَقُولُ المَماليكُ: شَغَلَنَا رقُّ العُبُوديَّة، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَكْثَرُ جَمَالاً أَمْ يوسُفُ؟ فَيَقُولُونَ: يُوسُفُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا شَغَلَهُ ذلكَ وَهُوَ فى الرّقّ عَن القيَام بحَقّ الله. ثُمَّ يُنَادَى: أَيْنَ الفُقَرَاءُ؟ فَيُؤْتَى بهمْ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا شَغَلَكُمْ عَن القيَام بحَقّ الله؟ فَيَقُولُونَ: ابْتُلينا فى الدُّنْيا بالفَقْر فَشَغَلَنَا عَن القيَام بحَقّ الله، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ أَشَدُّ فَقْرًا عيسى أَمْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: عيسى، فَيُقَالُ: مَا شَغَلَهُ عَنْ ذكْرنَا». فمن ابتلى بشئ من هذه الأربع فليذكر صاحبه. وقد كان ﷺ يقول فى دعائه: «اللَّهُمَّ إِنّى أَعُوذُ بكَ منْ فتْنَة الغنَى وَالفَقْر» فاعتبروا بالمسيح فقد صح أنه ما كان

يملك شيئًا قط، وقد لبس جبة صوف عشرين سنة، وما كان له فى سياحته إلا كوز وسبحة ومشط، فرأى يومًا رجلاً يشرب بيده فرمى الكوز ولم يمسكه بعد، ورأى رجلاً آخر يخلل لحيته بيده فرمى المشط من يده ولم يمسكه بعد. وكان يقول عليه السلام: دابتى رجلاى، وبيوتى كهوف الأرض، وطعامى نباتها، وشرابى أنهارها. وفى بعض الصحف المنزلة: يا ابن آدم حسنة وسيئة من أنواع الحياة والقتل متعمدًا والخطأ أيضًا إذا استهين بكفارته ولم يقتص، فاحذرهما فإنهما فعل عظيم، والكبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص، فأكرمهم يخرج من النار بعد ألف سنة وقد امتحش. وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول فى كلامه: ياليتنى ذلك الرجل! ولا شك أنه كان رحمه الله تعالى عالمًا بأحكام الآخرة. ويؤتى يوم القيامة برجل فلم يجد حسنة ترجح بها ميزانه أو قد اعتدلت بالسوية فيقول الله تعالى له رحمة منه: اذهب فى الناس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة، فيسير يجوس خلال الناس فما يجد أحدًا يكلمه فى ذلك، وكل من كلمه وسأله يقول: أخشى أن يخف ميزانى أنا أحوج إليها منك، فييأس فيقول له رجل: ما الذى تطلب؟ فيقول له: حسنة واحدة، فلقد مررت بقوم لهم منها ألوف فبخلوا علىَّ، فيقول له الرجل: لقد لقيت الله تعالى فما وجدت فى صحيفتى إلا حسنة واحدة وما أظن أنها تغنى عنى سيأخذها هبة منى إليك، فينطلق بها فرحًا مسرورًا فيقول الله له: كيف جاء لك؟ وهو سبحانه أعلم، فيقول ما كان منه مع الرجل، فيدعى بالرجل الذى أعطاه الحسنة فيقول الله تعالى: كرمى أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلق إلى الجنة! وإذا استوى كفتا الميزان لرجل فيقول الله: لا هو من أهل الجنة ولا هو من أهل النار، فيأتى الملك بصحيفة يضعها فى كفة السيئات فيها مكتوب «أف» فترجح على الحسنة لأنها كلمة عقوق، فيؤمر به إلى النار، فيلتفت الرجل ويطلب أن يرده الله إليه، فيقول: ردوه! ثم يقول له: أيها العبد العاق لأى شىء تطلب؟ فيقول: إلهى إنى رأيت أنى سائر إلى النار لا بد لى منها، وكنت عاقًا لأبى فضعف علىّ عذاب أبى وأنقذه منها! قال فيضحك الله ويقول: عققته فى الدنيا وبررته فى الآخرة، خذ بيد أبيك وانطلق به إلى الجنة! فما من أحد يذهب به إلى النار إلا والملائكة توقفه لعلمهم بسر أحكام الآخرة، حتى لقد ينادى بقوم لا خلاق لهم خلقوا حطبًا لها وحشوًا فيقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم: ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]. فيستسلمون ويعترفون بالذنب كما قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]. فيدفعون دفعة واحدة إلى النار. وكذا يؤتى بأهل الكبائر من الأمة شيوخًا وعجائز ونساء وشبابًا، فإذا نظر إليهم مالك خازن جهنم قال: أنتم معاشر الأشقياء ما لى أرى أيدكم لا تغسل ولم تسود وجوهكم؟ ما ورد

علىَّ أحسن حالاً منكم، فيقولون: يا مالك نحن أشقياء أمة محمد دعنا نبكى على ذنوبنا! فيقول لهم: ابكوا فلن ينفعكم البكاء، فكم من شيخ وضع يده على لحيته يقول واشيبتاه واطول حزناه! وكم من كهل ينادى وأطول مصيبتاه وأذل مقاماه! وكم من شاب ينادى واشباباه! وكم من امرأة قد قبضت على شعرها وهى تنادى واسوأتاه وافضيحتاه! فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا مالك أدخلهم النار من الباب الأول! فإذا همت النار أن تأخذهم يقولون بأجمعهم: لا إله إلا الله، فتفر النار منهم مسيرة خمسمائة عام، فيأخذون فى البكاء، وإذا النداء: يا نار خذيهم يا مالك أدخلهم الباب الأول! فعند ذلك يسمع صلصلة كصلصلة الرعد فإذا النار همت أن تحرق القلوب زجرها مالك وجعل يقول: لا تحرقى قلبًا فيه القرآن، وكان وعاء للإيمان، ولا تحرقى جباهًا سجدت للرحمن! فيعودون فيها، وإذا برجل يعلو صوته على صوت أهل النار فيخرج وقد امتحش فيقول الله له: مالك أكثر أهل النار صياحًا؟ فيقول: يا رب حاسبتنى ولم أقنط من رحمتك، وعلمت أنك تسمعنى فأكثرت الصياح، فيقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. اذهب فقد غفرت لك وكذا يخرج من النار فيقول الله له: خرجت من النار فبأى عمل تدخل الجنة؟ فيقول: يا رب ما أسألك منها إلا يسيرًا، فترفع له شجرة فيقول الله: أرأيت إن أعطيتك هذه الشجرة تسألنى غيرها؟ فيقول: لا وعزتك يا رب! فيقول الله: هى هبة منى إليك، فإذا أكل منها واستظل بظلها رفعت له شجرة أخرى أحسن منها فيجعل يكثر النظر إليها فيقول الله تعالى: مالك لعلك أحببتها؟ فيقول: نعم يارب، فيقول له: إن أعطيتك إيّاها هل تسألنى غيرها؟ فيقول: لا يا رب، فإذا أكل واستظل بظلها رفعت له شجرة أحسن منها فيجعل ينظر إليها فيقول الله له: إن أعطيتك إياها تسألنى غيرها؟ فيقول: لا وعزتك يا رب لا أسألك غيرها، فيضحك الله عز وجل فيدخله الجنة. ومن غريب حكم الآخرة أن الرجل يؤتى به إلى الله فيحاسبه ويوبخه وتوزن له حسناته وسيئاته وهو فى ذلك كله يظن يقينًا أن الله ما اشتغل إلا بحسابه ووزنه، ولعل فى تلك اللحظة حاسب فيها الآف ألوف ما لا يحصى عدتهم إلا الله، كل منهم يظن أن الحساب له وحده، وكذا لا يرى بعضهم بعضًا، ولا يسمع أحدهم كلام الآخر، بل كل واحد تحت أستاره. فسبحان من هذا شأنه وهو قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. وهو فى قوله سر عجيب من أسرار الملكوت، إذ ليس لملكه حد محدود، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن! وفى هذه الحالة يأتى الرجل إلى ولده فيقول له: يا بنى إنى كسوتك حيث لا تقدر تكسو نفسك، وأطعمتك طعامًا وسقيتك شرابًا حيث كنت عاجزًا عن ذلك، وكفلتك صغيرًا حيث كنت لا تستطيع دفع الضراء ولا جلب السراء، فكم من فاكهة تمنيتها

فابتعتها لك، حسبك ما ترى من هول يوم القيامة وسيئات أبيك كثيرة فتحمل عنى منها ولو سيئة فيخف عنى، وأعطنى ولو حسنة أزيدها فى الميزان! فيفر منه الولد ويقول له: أنا أحوج منك إليها. وكذا يفعل الفصيل مع الفصيلة والصاحب والأخ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦]. ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: ١٣]. وفى الحديث «يُحْشَرُ النَّاسُ عُرَاةً»، قالت عائشة رضي الله عنها: واسوأتاه ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقرأ النبى ﷺ: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ». لأن شدة الهول وعظم الكرب تشغلهم أن ينظر بعضهم إلى بعض. فإذا استقر الناس فى صعيد واحد طلعت عليهم سحابة سوداء فأمطرتهم صحفًا منشرة، فإذا صحيفتة المؤمن ورقة ورد، وإذا صحيفة الكافر ورقة سدر، والكل مكتوب، فتتطاير الصحف فإذا هى بالميامن والمياسر، وليس عن اختيار، وإنما هى تقع بيمينه وبشماله وهو قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وحكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد جواز الصراط، وهو غلط من قائله فإنه تعين أنه يَرِده من قد جاز الصراط، ففى السبعة جسور يهلك الناس. والسبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفًا، وإنما هى براءة مكتوب فيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله هذه براءة فلان بن فلان بدخول الجنة ونجاته من النار» فإذا غفرت له ذنوبه أخذ الملك بعضده وجاس به خلال الموقف ونادى: هذا فلان بن فلان قد غفر الله له ذنوبه وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام. والرسل يوم القيامة على المنابر والأنبياء والعلماء على منابر صغار دونهم، ومنبر كل رسول على قدره، والعلماء العاملون على كراسى من نوره، والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنون على كثبان المسك. وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسى هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم عليه السلام ونوح حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ، وقد جاء أن القرآن يأتى يوم القيامة فى صورة رجل حسن الوجه والخلق فيشفع، فيشفع الإسلام مثله، فيخصم ويخاصم عن صاحبه، وقد ذكرنا حكاية الإسلام مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى كتاب «الإحياء» بعد مخاصمته، فيتعلق به من شاء الله فيهوى بهم إلى الجنة. وكذلك تأتى الدنيا فى صورة عجوز شمطاء أقبح ما يكون فيقال للناس: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من هذه! فيقال لهم: هذه الدنيا كنتم تتحاسدون عليها وتتباغضون فيها. وكذلك يؤتى بالجمعة فى صورة عروس تزف، فيحدق بها المؤمنون، ويحوط بهم كثبان المسك والكافور، عليهم نور يتعجب منه كل من رآه فى الموقف، فلم تزل بهم حتى تدخلهم الجنة. فانظر إلى رحمة الله تعالى وجود القرآن والإسلام والجمعة، وكيف هم أشخاص: القرآن موجود جبروتى،

والإسلام ملكوتى كالصيام والصلاة والصبر. ولا يلتفت إلى من احتج فى تلاشى الأنفس عند الموت بقوله ﷺ يوم الخندق: «اللهُم رَبّ الأجْسَام البَالِيَة وَالأَرْوَاح الفَانِيَة» فإن ذلك كله يحوج إلى العلوم وقد نبهنا عليه فى غير هذا الكتاب وقصدنا الاختصار لسلوك طريق السنة، ولا يلتفت إلى البدع الطارئة على الشريعة من شياطين الإنس. فبشر المؤمنين بالرشاد وسلوك المراد.

نسأل الله العصمة والتوفيق بمنه وكرمه آمين. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب المنقذ من الضلال

المدخل

الحمد لله الذى يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة، والصلاة على محمد المصطفى صاحب النبوة والرسالة، وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلالة.

أما بعد: فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستفسار، وما استفدته أولاً من علم الكلام وما اجتويته ثانيًا من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام، وما ازدريته ثالثًا من طرق التفلسف، وما ارتضيته آخرًا من طريقة التصوف، وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من لباب الحق، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة، وما دعانى إلى معاودتى نيسابور بعد طول المدة، فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك بعد الوقوف على صدق رغبتك، وقلت مستعينًا بالله ومتوكلاً عليه، ومستوثقًا منه، وملتجئًا إليه:

اعلموا أحسن الله تعالى إرشادكم، وألان للحق قيادكم أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون. وكل فريق يزعم أنه الناجى، و ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. هو الذى وعدنا به سيد المرسلين، صلوات الله عليه، وهو الصادق الصدوق حيث قال: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِى ثَلاثًا وَسَبعِينَ فِرْقَةً، النَّاجِيَةُ مِنْها وَاحِدَةٌ» فقد كان ما وعد أن يكون.

ولم أزل فى عنفوان شبابى، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد

ناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجَسُور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة؛ لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيًّا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلّتى، لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد شرة الصبا؛ إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر؛ وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام. وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّ مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الفطْرَة فَأَبَواه يُهَوِّدَانه وَيُنَصِّرَانه وَيُمَجِّسَانه**» فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات، فقلت فى نفسى: إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى؛ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى يكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنًا لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهبًا والعصا ثعبانًا، لم يورث ذلك شكًّا وإنكارًا، فإنى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لى قائل: لا، بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانًا وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه فى معرفتى، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه؛ فأما الشك فيما علمته فلا.

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى.

(١) مداخل السفسطة وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسيات والضروريات. قلت: الآن بعد حصول اليأس لا مطمع فى اقتباس المشكلات إلا

من الجليَّات، وهى الحسيات والضروريات، فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أثقتى بالمحسوسات وأمانى من الغلط فى الضروريات، من جنس أمانى الذى كان من قبل فى التقليديات، ومن جنس أمانى أكثر الخلق فى النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها، فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضًا؛ وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسة البصر؟ وهى تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك، وتحكم بنفى الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل على التدرج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرًا فى مقدار الدينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار. وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل ويخونه، تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته.

فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضًا، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التى هى من الأوليات كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة، والنفى والإثبات لايجتمعان فى الشئ الواحد، والشئ الواحد لا يكون حادثًا قديمًا، موجودًا معدومًا، واجبًا محالاً. فقالت المحسوسات: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقًا بى، فجاء حاكم العقل فكذبنى، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكمًا آخر، إذا تجلى كذب العقل فى حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه، وعدم تجلى ذلك الإدراك لايدل على استحالته. فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلاً، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت: أما تراك تعتقد فى النوم أمورًا، وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتًا واستقرارًا ولا تشك فى تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؛ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها؛ لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نومًا بالإضافة إليها؟ فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم؛ إذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم، إذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالاً لا توافق هذه المعقولات؛ ولعل تلك الحالة هى الموت إذ قال رسول الله ﷺ: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**» فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن،

ويقال له عند ذلك: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. فلما خطرت لى هذه الخواطر وانقدحت فى النفس، حاولت لذلك علاجًا فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل. فأعضل هذا الداء، ودام قريبًا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقًا بها على أمن ويقين؛ ولم يكن ذلك بنظم دليل وتركيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر. وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة؛ ولما سئل رسول الله ﷺ عن «الشرح» ومعناه في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. قال: «هو نورٌ يَقْذِفُهُ الله تَعَالى فى القَلْب» فقيل: «وما علامته»؟ فقال: «التَّجافى عَنْ دَارِ الغُرور وَالإنَابة إلى دَارِ الخُلُود» وهو الذى قال عليه السلام فيه: «إنَّ الله تَعَالى خَلَقَ الخَلْقَ فى ظُلْمَة ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِه» فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف. وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحايين، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام: «إنَّ لربِّكُمْ فى أيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحات ألا فتعرضوا لها».

والمقصود من ذلك هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد فى الطب حتى ينتهى إلى طلب ما لا يطلب؛ فإن الأوليات ليست مطلوبة، فإنها حاضرة والحاضر إذا طلب فقد واختفى، ومن طلب ما لا يطلب فلا يتهم بالتقصير فى طلب ما يطلب.

القول فى أصناف الطالبين

ولما شفانى الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق:

١ـ **المتكلمون**: وهم يدعون أنهم أهل الرأى والنظر.

٢ـ **الباطنية**: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ـ **الفلاسفة**: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤ـ **الصوفية**: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت فى نفسى: الحق لا يعدو عن هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم، فلا يبقى فى درك الحق مطمع، إذ لا مطمع فى

الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته، إذ من شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده، وهو شعب لا يرأب، وشعث لا يلم بالتلفيق وبالتأليف، إلا أن يذاب بالنار ويستأنف لها صيغة أخرى مستجدة.

فابتدرت لسلوك هذه الطرق، باستقصاء ما عند هذه الفرق، مبتدئًا بعلم الكلام، ومثنيًا بطريق الفلسفة، ومثلثًا بتعليمات الباطنية، ومربعًا بطريق الصوفية.

١.علم الكلام مقصوده وحاصله

ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام، فحصلته وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علمًا وافيًا بمقصوده، غير واف بمقصودى؛ وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة؛ فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورًا مخالفة للسنة، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة؛ فمنه نشأ علم الكلام وأهله. فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الذب عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير فى وجه ما أحدث البدعة؛ ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع فى جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئًا أصلاً؛ فلم يكن الكلام فى حقى كافيًا، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيًا. نعم، لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة، تشوف المتكلمون إلى مجاوزة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور، وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها؛ ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلافات الخلق؛ ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى! بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة ولكن حصولاً مشوبًا بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات. والغرض الآن حكاية حالى، لا الإنكار على من استشفى به، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء، وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر!.

٢.الفلسفة

- محصولها.
- المذموم منها وما لا يذم.
- وما يكفر به قائله وما لا يكفر به.
- وما يبتدع فيه وما لا يبتدع.
- وبيان ما سرقه الفلاسفة من كلام أهل الحق.
- وبيان ما مزجوه بكلام أهل الحق لترويج باطلهم في درج ذلك.
- وكيفية عدم قبول البشر وحصول نفرة النفوس من ذلك الحق الممزوج بالباطل.
- وكيفية استخلاص الحق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم.

ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة، وعلمت يقينًا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غوره وغائله، فإذ ذلك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقًّا. ولم أر أحدًا من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك.

ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم، حيث اشتغلوا بالرد عليهم إلا كلمات معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بغافل عامي فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم. فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية، فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية وأنا ممنوّ بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد.

فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريبًا من سنة، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل، اطلاعًا لم أشك فيه.

فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم؛ فإني رأيتهم أصنافًا، ورأيت علومهم أقسامًا، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم سمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه.

أصناف الفلاسفة
واتصاف كافتهم بالكفر

اعلم أنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم، ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

الصنف الأول: الدهريون: وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان كذلك كان، وكذلك يكون أبدًا **وهؤلاء هم الزنادقة.**

الصنف الثاني: الطبيعيون: وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض فى تشريح أعضاء الحيوانات، فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بقادر حكيم، مطلع على غايات الأمور ومقصادها. ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع، إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان؛ لا سيما بنية الإنسان. إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عنهم. لاعتدال المزاج. تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضًا، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا؛ فذهبوا إلى النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام.

وهؤلاء أيضًا زنادقة؛ لأن أصل الإيمان حد الإيمان بالله واليوم الآخر، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وبصفاته.

الصنف الثالث: الإلهيون: وهم المتأخرون منهم، مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس. وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق، وهذب لهم العلوم، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل، وأنضج لهم ما كان فجًا من علومهم. وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعة، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾ بتقاتلهم. ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الإلهيين ردًا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم؛ إلا أنه استبقى أيضًا من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزع منها؛ فوجب تكفيرهم، وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الإسلاميين، كابن سينا والفارابى وغيرهما. على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين؛ وما نقله غيرهما

ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم، وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس، بحسب نقل هذين الرجلين، ينحصر فى ثلاثة أقسام:

١ـ قسم يجب التكفير به.

٢ـ وقسم يجب التبديع به.

٣ـ وقسم لا يجب إنكاره أصلاً.

أقسام علومهم

اعلم أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذى نطلبه ست أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية.

١ـ **أما الرياضية:** فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العلم، وليس يتعلق شىء منها بالأمور الدينية نفيًا وإثباتًا، بل هى أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها. وقد تولدت منها آفتان:

الأولى: من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده فى الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم فى الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسن، فيكفر بالتقليد المحض ويقول: لو كان الدين حقًّا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم فى هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم، فيستدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين. وكم رأيت ممن ضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقًا فى كل صناعة، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه والكلام حاذقًا فى الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق؛ وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم فى غيرها، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهانى، وفى الإلهيات تخمينى، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه، فهذا إذا قرر على هذا الذى اتخذ بالتقليد، لم يقع منه موقع القبول بل تحمله غلبة الهوى، وشهوة البطالة، وحب التكايس، على أن يصر على تحسين الظن بهم فى العلوم كلها.

فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض فى تلك العلوم، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، لكن لما كانت من مبادئ علومهم، يسرى إليه شرهم وشؤمهم، فقل من يخوض فى آفة إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى.

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم، فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع فيزداد للفلسفة حبًّا وللإسلام بغضًا. ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية. وقوله عليه السلام: «**إن للشمس والقمر آيتان من آيات ذكر الله تعالى لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة**» وليس في هذا ما يوجب إنكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص. أما قوله عليه السلام: «**لكن الله إذا تجلى لشئ خضع له**» فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً. فهذا حكم الرياضيات وآفاتها.

٢ـ وأما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه. وأن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان؛ وليس في هذا كل ما ينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات، ومثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل «أ» «ب» لزم أن بعض «ب» «أ» أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان. ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية. وأى لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر؟ فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المنكر، بل في دينه الذى يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار. نعم، لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطًا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل، وربما ينظر في المنطق أيضًا من يستحسنه ويراه واضحًا فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية.

فهذه الآفة أيضًا متطرقة إليه.

٣ـ وأما علم الطبيعيات: فهو يبحث عن عالم السموات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة: كالماء والهواء والتراب والنار، ومن الأجسام المركبة: كالحيوان والنبات

والمعادن، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها. وذلك يضاهى بحث الطبيب عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسية والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه.

وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضًا إنكار ذلك العلم إلا فى مسائل معينة ذكرناها فى كتاب «تهافت الفلاسفة» وما عداها مما يجب المخالفة فيها؛ فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها، وأصل جملتها: أن يعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها، بل هى مستعملة من جهة فاطرها؛ والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشئ منها بذاته.

٤- وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق؛ ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها، ولقد قرب أرسطاطاليس مذهبه فيها من مذاهب الإسلاميين، على ما نقله الفارابى وابن سينا. ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها، وتبديعهم فى سبعة عشر. ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين، صنفنا كتاب «التهافت»

أما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين، وذلك فى قولهم:

١- إن الأجساد لا تحشر، وإنما المُثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية.

ولقد صدقوا فى إثبات الروحانية، فإنها كائنة أيضًا، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به.

٢- ومن ذلك قولهم: «إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات» وهذا أيضًا كفر صريح، بل الحق أنه: ﴿**لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ**﴾ [سبأ: ٣].

٣- ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته؛ فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شىء من هذه المسائل. وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات وقولهم إنه عليم بالذات، لا بعلم زائد على الذات وما يجرى مجراه، فمذهبهم فيه قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك، وقد ذكرنا فى كتاب «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» ما يتبين فيه فساد رأى من يتسارع إلى التكفير فى كل ما يخالف مذهبه.

٥- وأما السياسيات: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية والإيالة السلطانية، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثور عن سلف الأنبياء.

٦- وإما الخلقية: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها، وكيفية معالجتها؛ ومجاهدتها؛ وإنما أخذوها من كلام الصوفية،

وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله تعالى وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا. وقد انكشف لهم في مجاهداتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم، توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم. ولقد كان في عصرهم، بل في كل عصر جماعة من المتألهين، لا يخلي الله سبحانه العالم عنهم، فإنهم أوتاد الأرض، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام: **«بهم تمطرون وبهم ترزقون، ومنهم كان أصحاب الكهف»**.

وكانوا في سالف الأزمنة، على ما نطق به القرآن، فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان: آفة في حق القابل، وآفة في حق الراد.

١ـ أما الآفة التي هي في حق الراد فعظيمة: إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذ كان مدونًا في كتبهم، وممزوجًا بباطلهم، ينبغي أن يهجر ولا يذكر، بل ينكر على كل من يذكره؛ لأنهم إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل، لأن قائله مبطل، كالذي يسمع من النصراني قول «لا إله إلا الله عيسى رسول الله» فينكره ويقول: «هذا كلام النصراني». ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول، أو باعتبار إنكاره نبوة محمد عليه السلام! فإن لم يكن كافرًا إلا باعتبار إنكاره، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه، وإن كان أيضًا حقًا عنده. وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق. والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ حيث قال: «لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله» والعاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقًا قبله، سواء كان قائله مبطلاً أو محقًا، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال عالمًا بأن معدن الذهب الرغام. ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج، مهما كان واثقًا ببصيرته؛ فإنما يزجر عن معاملة القلاب القروي دون الصيرفي البصير؛ ويمنع من ساحل البحر الأخرق، دون السباح الحاذق؛ ويصد عن مس الحية الصبي، دون المعزم البارع.

ولعمري! لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل وتمام الآلة في تمييز الحق عن الباطل، والهدى عن الضلالة، وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها أصلاً، وإن سلموا عن هذه الآفة التي ذكرناها.

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب

بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل، مع أن بعضها من مولدات الخواطر ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد فى الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية. وهب أنها لم توجد إلا فى كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً فى نفسه، مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغى أن يهجر ويترك؟ فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل، للزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن، وأخبار الرسول وحكايات السلف، وكلمات الحكماء والصوفية، لأن صاحب كتاب «إخوان الصفا» أوردها فى كتابه مستشهداً بها، ومستدرجًا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بإيداعهم إياه فى كتبهم. وأقل درجات العالم، أن يتميز عن العامى الغمر، فلا يعاف العسل، وإن وجده فى محجمة الحجام، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل، فإن نفرة الطبع منه مبنية على جهل عامى منشؤه أن المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر، فيظن أن الدم مستقذر لكونه فى المحجمة، ولا يدرى أنه مستقذر لصفة فى ذاته، فإذا عدمت هذه الصفة فى العسل فكونه فى ظرفه لا يكسبه تلك الصفة، فلا ينبغى أن يوجب له الاستقذار. وهذا وهم باطل، وهو غالب على أكثر الخلق. فمهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلاً، وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقًّا. فأبداً يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال! هذه آفة الراد.

٢ـ آفة القبول: فإن من نظر فى كتبهم «كإخوان الصفا» وغيره، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية، ربما استحسنها وقبلها، وحسن اعتقاده فيها، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه وذلك نوع استدراج إلى الباطل.

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر. وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب. وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات. وكما يجب على المعزم أن لا يمس الحية بين يدى ولده الطفل، إذا علم أنه سيقتدى به ويظن أنه مثله، بل يجب عليه أن يحذره: بأن يحذر هو فى نفسه ولا يمسها بين يديه، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله. وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم، فاستخرج منه الترياق وأبطل السم، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج إليه. وكذلك الصراف الناقد البصير، إذا أدخل يده فى كيس القلاب، وأخرج منه الإبريز

الخالص، واطرح الزيف والبهرج فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج إليه، كذلك العالم. وكما أن المحتاج إلى الترياق، إذا اشمأزت نفسه منه، حيث علم أنه مستخرج من الحية التى هى مركز السم، وجب تعريفه؛ والفقير المضطر إلى المال إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب، وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض، وهو سبب حرمانه عن الفائدة التى هى مطلبه، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفًا كما لا يجعل الزيف جيدًا؛ فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلاً، كما لا يجعل الباطل حقًّا.

فهذا مقدار ما أردناه من آفة الفلسفة وغائلتها.

٣.القول فى مذهب التعليم وغائلته

ثم إنى فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضًا غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، عنّ لى أن أبحث عن مقالاتهم لأطلع على ما فى كتبهم. ثم اتفق أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم، فلم يسعنى مدافعته، وصار ذلك مستحثًا من خارج، ضميمة للباعث الأصلى من الباطن، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم. وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة التى ولدتها خواطر أهل العصر لا على المنهاج المعهود من سلفهم، فجمعت تلك الكلمات، ورتبتها ترتيبًا محكمًا مقارنًا للتحقيق، واستوفيت الجواب عنها، حتى أنكر بعض أهل الحق منى مبالغتى فى تقرير حجتهم، وقال: «هذا سعى لهم، فإنهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك إياها» وهذا الإنكار من وجه حق، فلقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى رحمهما الله تصنيفه فى الرد على المعتزلة، فقال الحارث: «الرد على البدعة فرض» فقال أحمد «نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب، ولا يفهم كنهه؟».

وما ذكره أحمد حق، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر، فأما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية. نعم، ينبغى ألا يتكلف إيرادها، ولم أتكلف أنا ذلك، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى

المختلفين إليّ، بعد أن كان قد التحق بهم، وانتحل مذهبهم، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين فى الرد عليهم، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم. وذكر تلك الحجة وحكاها عنهم. فلم أرض لنفسى أن يظن فىّ الغفلة عن أصل حجتهم؛ فلذلك أوردتها، ولا أن يظن بى أنى وإن سمعتها لم أفهمها؛ فلذلك قررتها.

والمقصود أنى قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان.

والحاصل: أنه لا حاصل عند هؤلاء، ولا طائل لكلامهم. ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة. مع ضعفها. إلى هذه الدرجة؛ ولكن شدة التعصب، دعت الذابين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم فى مقدمات كلامهم، وإلى مجادلتهم فى كل ما نطقوا به، فجادلوهم فى دعواهم «الحاجة إلى التعليم والمعلم» ودعواهم «لا يصلح كل معلم، بل لا بد من معلم معصوم»

وظهرت حجتهم فى إظهار الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم، وضعف قول المنكرين فى مقابلتهم، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم، وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه؛ بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصومًا؛ ولكن معلمنا المعصوم هو محمد عليه الصلاة والسلام، فإذا قالوا: «هو ميت» فنقول «ومعلمكم غائب» فإذا قالوا: «معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل»، فنقول: «ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة: ٣]. وبعد كمال التعليم لا يضرّ موت المعلم كما لا يضر غيبته.

فبقى قولهم: «كيف تحكمون فيما لم تسمعوه؟ أبالنص ولم تسمعوه، أم بالاجتهاد والرأى وهو مظنة الخلاف؟» فنقول: «نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمين، إذ كان يحكم بالنص عند وجود النص وبالاجتهاد عند عدمه؛ بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد؛ إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية، ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتى قد مات وفات الانتفاع بالرجوع. فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة، لفات وقت الصلاة، فإذن جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن». ويقال: «إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران» فكذلك فى جميع المجتهدات، وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير، وربما يظنه فقيرًا باجتهاده وهو غنى باطنًا

بإخفاء ماله، ولايكون هو مؤخذًا به وإن أخطأ، لأنه لم يؤاخذ إلا بموجب ظنه. فإن قال: «ظن مخالفه كظنه» فنقول: «هو مأمور باتباع ظن نفسه، كالمجتهد فى القبلة يتبع ظن نفسه وإن خالفه غيره»، فإن قال: «فالمقلد يتبع أبا حنيفة أو الشافعى رحمهما الله، أم غيرهما» فأقول: «فالمقلد فى القبلة عند الاشتباه، إذا اختلف عليه المجتهدون كيف يصنع» ؟. فسيقول: «له مَنْع نفسه اجتهاد فى معرفته الأفضل الأعلم بدلائل القبلة، فيتبع ذلك الاجتهاد، فكذلك فى المذاهب».

فرد الخلق إلى الاجتهاد ضرورة. الأنبياء والأئمة مع العلم بأنهم قد يخطئون، بل قال رسول الله ﷺ: **«أَنَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِر وَالله يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ»** أى: أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود وربما أخطئ فيه. ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء فى مثل هذه المجتهدات فكيف نطمع فى ذلك؟

ولهم ههنا سؤالان: أحدهما قولهم هذا: وإن صح فى المجتهدات فلا يصح فى قواعد العقائد، إذ المخطئ فيها غير معذور. فكيف السبيل إليه؟ فأقول: «قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة وما وراء ذلك من التفصيل، والمتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم، وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه، وهى خمسة ذكرتها فى كتاب القسطاس المستقيم». فإن قال: «خصومك يخالفونك فى ذلك الميزان» فأقول: «لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه، إذ لا يخالف فيه أهل التعليم، لأنى استخرجته من القرآن وتعلمته منه. ولا يخالف فيه أهل المنطق، لأنه موافق لما شرطوه فى المنطق غير مخالف له. ولا يخالف فيه المتكلم، لأنه موافق لما يذكره فى أدلة النظريات، وبه يعرف الحق فى الكلاميات». فإن قال: «فإن كان فى يدك مثل هذا الميزان، فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق؟» فأقول: «لو أصغوا إلىّ لرفعت الخلاف بينهم؛ وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب «القسطاس المستقيم» فتأمله لتعلم إنه حق وأنه يرفع الخلاف قطعًا لو أصغوا، ولا يصغون إليه بأجمعهم! بل قد أصغى إلىّ طائفة فرفعت الخلاف بينهم وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم فلِمَ لم يرفع إلى الآن؟ ولم لم يرفع على ﷺ وهو رأس الأئمة؟ أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهرًا، فلم لم يحملهم إلى الآن؟ ولأى يوم أجله؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته إلا زيادة خلاف وزيادة مخالف؟ نعم! كان يخشى من الخلاف نوع من الضر لا ينتهى إلى سفك الدماء، وتخريب البلاد، وإيتام الأولاد، وقطع الطرق، والإغارة على الأموال. وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف ما لم يكن بمثله عهد» فإن قال: «ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين أهل المذاهب المتعارضة والاختلافات المتقابلة لم يلزمه الإصغاء إليك دون خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ولا فرق بينك وبينهم».

وهذا هو سؤالهم الثانى فأقول: هذا أولاً ينقلب عليك، فإنك إذا دعوت هذا المتحير إلى نفسك فيقول المتحير: بم صرت أولى من مخاليفك وأكثر أهل العلم يخالفونك؟ فليت شعرى بماذا تجيب! أتجيب بأن تقول إمامى منصوص عليه؟ فمن يصدقك فى دعوى النص وهو لم يسمع النص من الرسول؟ وإنما لم يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك. ثم هب أنه سلم لك النص، فإن كان متحيراً فى أصل النبوة فقال: هب أن إمامك يدلى بمعجزة عيسى فيقول: الدليل على صدقى أنى أحيى أباك، فأحياه فناطقنى بأنه محق، فبماذا أعلم صدقه؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلى؛ والنظر العقلى لايوثق به عندك، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده. وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور. فبماذا تدفع جميع ذلك؟ ولم يكن إمامك أولى بالمتابعة من مخالفيه! فيرجع إلى الأدلة النظرية التى تنكرها، فخصمه يدلى بمثل تلك الأدلة وأوضح منها.

وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً، لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه. وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ناظروهم فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب؛ وذلك مما يطول فيه الكلام، ولا يسبق سريعاً إلى الأفهام، فلا يصلح للإفحام.

فإن قال قائل: «فهذا هو القلب فهل عنه جواب؟» فأقول: نعم، جوابه أن المتحير لو قال أنا متحير ولم يعين المسألة التى هو متحير فيها، يقال له: أنت كمريض يقول أنا مريض، ولا يذكر عين مرضه، ويطلب علاجه، فيقال له: ليس فى الوجود علاج للمرض المطلق، بل لمرض معين من صداع أو إسهال أو غيرهما. فكذلك المتحير ينبغى أن يعين ما هو متحير فيه، فإن عين المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التى لا يفهمها أحد إلا ويعترف بأنه الميزان الحق الذى يوثق بكل ما يوزن به، فيفهم الميزان، ويفهم أيضاً صحة الوزن، كما يفهم متعلم الحساب نفس الحساب، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه. وقد أوضحت ذلك فى كتاب «القسطاس المستقيم» فى مقدار عشرين ورقة؛ فليتأمل!.

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم، فقد ذكرت ذلك فى كتاب «المستظهرى» أولاً، وفى كتاب «حجة الحق» ثانياً؛ وهو جواب كلام لهم عرض على ببغداد، وفى كتاب «مفصل الخلاف» الذى هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً؛ وهو جواب كلام عرض على بهمذان؛ وفى كتاب «الدرج» المرقوم بالجداول رابعاً، وهو من ركيك كلامهم الذى عرض على

بطوس؛ وفى كتاب «القسطاس المستقيم» خامسًا، وهو كتاب مستقل بنفسه مقصوده بيان ميزان العلوم وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به.

. بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام، طال ما جاريناهم فصدقناهم فى الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم المعصوم، وأنه الذى عينوه؛ ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها، فضلاً عن القيام بحلها؛ فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب وقالوا: إنه لا بد من السفر إليه. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم وفى التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئًا أصلاً، كالمتضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله وبقى متضمخًا بالخبائث.

ومنهم من ادعى شيئًا من علمهم، فكان حاصل ما ذكره شيئًا من ركيك فلسفة فيثاغورس، وهو رجل من قدماء الأوائل، ومذهبه أرك مذاهب الفلاسفة، وقد رد عليه أرسطاطاليس، بل استرك كلامه واسترذله؛ وهو المحكى فى كتاب «إخوان الصفا»، وهو على التحقيق حشو الفلسفة.

فالعجب ممن يتعب طول العمر فى طلب العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم! فهؤلاء أيضًا جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم، ومجادلتهم فى إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قوى مفحم، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال: هات علمه وأفدنا من تعليمه! وقف وقال: الآن إذا سلمت لى هذا فاطلبه، فإنما غرضى هذا القدر فقط. إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الإشكالات؛ بل عجز عن فهمه فضلاً عن جوابه.

فهذا حقيقة حالهم فاخبرهم تَقْلَهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضًا.

٤. طرق الصوفية

ثم إنى فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل؛ وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر علىّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبى طالب المكى رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبى، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام

مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقها بالتعليم والسماع، فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطهما، وبين أن يكون صحيحًا وشبعانًا، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكرانًا. بل السكران لا يعرف حد السكر، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شئ، والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء. والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة. فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا.

فعلمت يقينًا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك. وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر. فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرر بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها.

وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى؛ وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالى، فإذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من الجوانب، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة. ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أنى على شفا جرف هار، وأنى قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافى الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يومًا، وأحل العزم يومًا، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الهوى حملة فتفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من

العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول هذه حال عارضة إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبًا من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة؛ وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يومًا واحدًا تطييبًا لقلوب المختلفين إلىّ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة فى لسانى حزنًا فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لى ثريد، ولا تنهضم لى لقمة؛ وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتراوح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرًا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام؛ فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم ألا أعاود أبدًا. واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببًا دينيًّا؛ إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة؛ وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى والانكباب علىّ وإعراضى عنهم وعن الالتفات إلى قلوبهم، فيقولون: هذا أمر سماوى، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم. ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معى من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال، ترخيصًا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفًا على المسلمين؛ فلم أر فى العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه.

ثم دخلت الشام وأقمت به قريبًا من سنتين لاشغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية. وكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى.

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى. ثم تحركت فىّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة، وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه؛ فسرت إلى الحجاز.

ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه؛ فآثرت العزلة به أيضًا حرصًا على الخلوة وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير فىّ وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو لى الحال فى أوقات متفرقة؛ لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها، فتدفعنى عنها العوائق وأعود إليها. فدمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها. والقدر الذى أذكره لينتفع به: أنى علمت يقينًا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق؛ بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوا بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، فى ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريق طهارتها. هى أول شروطها. تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية فى الله، وهذا آخرها بالإضافة إلى ما لا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها، وهى على الحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المشاهدات والمكاشفات، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه. وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ، وقد بينا وجه الخطأ فى كتاب المقصد الأسنى. بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول:

وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ
فَظُنَّ خَيْرًا وَلا تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ!!

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئًا بالذوق، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم؛ وكرامات الأولياء على التحقيق هى بدايات الأنبياء؛ وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ حيث تبتل حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد، حتى قال العرب: «إن محمدًا عشق ربه». وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها، فمن يرزق الذوق فيتقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم الصحبة، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينًا. ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان، فهم القوم لا يشقى جليسهم. ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقينًا بشواهد البرهان على ما ذكرناه فى كتاب «عجائب القلب» من كتب «إحياء علوم الدين».

والتحقيق بالبرهان علم، وملابسة عين تلك الحالة ذوق، والقبول من التسامح والتجربة بحسن الظن إيمان؛ فهذة ثلاث درجات ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. ووراء هؤلاء قوم جهال، هم المنكرون لأصل ذلك، المتعجبون من هذا الكلام، يستمعون ويسخرون ويقولون: العجب! إنهم كيف يهذون! وفيهم قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]. فأصمهم وأعمى أبصارهم.

ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها ولا بد من التنبيه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها.

حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان فى أصل الفطرة خلق خاليًا ساذجًا لا خبر معه عوالم الله تعالى، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وإنما خبره عن العوالم بواسطة الإدراك، وكل إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات، ونعنى بالعوالم أجناس الموجودات.

فأول ما يخلق فى الإنسان حاسة اللمس، فيدرك بها أجناسًا من الموجودات كالحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واللين والخشونة وغيرها. واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعًا، بل هى كالمعدومة فى حق اللمس.

ثم تخلق له حاسة البصر، فيدرك بها الألوان والأشكال؛ وهو أوسع عوالم المحسوسات. ثم ينفخ فيه السمع، فيسمع الأصوات والنغمات.

ثم يخلق له الذوق. وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات، فيخلق فيه التمييز

وهو قريب من سبع سنين، وهو طور آخر من أطوار وجوده، فيدرك فيه أمورًا زائدة على عالم المحسوسات، لا يوجد منها شىء فى عالم الحس.

ثم يترقى إلى طور آخر، فيخلق له العقل، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات، وأمورًا لا توجد فى الأطوار التى قبله. ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل، وأمورًا أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز. وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أبى مدركات النبوة واستبعدها؛ وذلك عين الجهل، إذ لا مستند له إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد فى حقه، فيظن أنه غير موجود فى نفسه. والأكمه لو يعلم بالتواتر والتسامع الألوان والأشكال، وحكى لو ذلك ابتداء، لم يفهمها ولم يقرّ بها. وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجًا من خاصية النبوة وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب إما صريحًا وإما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير. وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه وقيل له: «إن من الناس من يسقط مغشيًا عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب» لأنكره، وأقام البرهان على استحالته وقال: القوى الحساسة أسباب الإدراك، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها، فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق. وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة؛ فكما أن العقل طور من أطوار الآدمى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعًا من المعقولات، والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضًا عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر فى نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل.

والشك فى النبوة إما أن يقع فى إمكانها، أو فى وجودها ووقوعها، أو فى حصولها لشخص معين. ودليل إمكانها وجودها، ودليل وجودها وجود معارف فى العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلمى الطب والنجوم؛ فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك إلا بإلهام إلهى وتوفيق من جهة الله تعالى، ولا سبيل إليها بالتجربة؛ فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا فى كل ألف سنة مرة، فكيف ينال ذلك بالتجربة؟ وكذلك خواص الأدوية. فتبين بهذا البرهان أن الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل؛ وهو المراد بالنبوة، لا إن النبوة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة، ولها خواص كثيرة سواها؛ وما ذكرناه قطرة من بحرها، وإنما ذكرناها لأن معك أنموذجًا منها وهو مدركاتك فى النوم، ومعك علوم من جنسها فى الطب والنجوم، وهى معجزات الأنبياء ولاسبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً.

وأما ما عدا من خواص النبوة إنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف؛ لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم، ولولاه لما صدقت به. فإن كان للنبى خاصة ليس لك

منهـا أنموذج فلا تفـهمـها أصـلاً، فكيف تصدق بهـا؟ وإنما التصـديق بعد الفـهم؛ وذلك الأنموذج يحصـل فى أوائل طريق التصـوف، فيحـصل به نوع من الذوق بالقـدر الحاصل، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليـه. هذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة.

فإن وقع لك الشك فى شـخص معين أنه نبى أم لا، فـلا يحصل اليقين إلا بمعـرفة أحواله، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسـامع، فإنك إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطبـاء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشـاهدهم، ولا تعجز أيضًا عن معرفة كون الشافعى رحمه الله فقيهًا، وكون جالينوس طبيبًا، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئًـا من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفـهما، فيحصل لك علم ضرورى بحالهما. فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر فى القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة، وعضـد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات وتأثيـرها فى تصفية القلوب، وكـيف صدق فى قوله: «**مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ وَرَّثَهُ الله علْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ**» وكيف صدق فى قوله: «**مَنْ أَعَانَ ظَالمًا سَلَّطَهُ الله عَلَيْه**» وكيف صدق فى قوله: «**مَنْ أَصْبَحَ وَهُمُومُهُ هَمٌّ وَاحدٌ كَفَاهُ الله تَعَالى هُمُومَ الدُّنْيَا وَالآخرَةِ**» فإذا جربت ذلك فى ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه.

فمن هذا الطريق اطلب اليـقين بالنبوة، لا من قلب العصـا ثعبانًا وشق القمـر، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، ربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله إضلال فإنه ﴿**يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [فاطر: ٨].

وترد عليه أسئلة المعـجزات، فإن كان مستنـدًا إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة، فـينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجه الإشكـال والشبهة عليهـا؛ فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن فى جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضرورى لا يمكنك ذكر مسـتنده على التعيين، كالذى يخـبره جماعـة بخبر متواتر لا يمكنـه أن يذكر أن اليقين مستـفاد من قول واحد مـعين بل من حيث لايدرى، ولايخرج عن جملة ذلـك ولا بتعيين الآحاد؛ فـهذا هو الإيمان القوى العلـمى. وأما الذوق فهـو كالمشاهدة والأخـذ باليد، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية.

فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف فى الغرض الذى أقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه.

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

ثم إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريبًا من عشر سنين، وبان لي في أثناء ذلك على الضروري من أسباب لا أحصيها، مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهاني، ومرة بالقبول الإيماني: أن الإنسان خلق من بدن وقلب، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيها هلاكه، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]. وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠، والمائدة: ٥٢، والأنفال: ٤٩، والتوبة: ١٢٥، الحج: ٥٣، والأحزاب: ١٢، ٦٠، ومحمد: ٢٠، ٢٩، والمدثر: ٣١]. وأن الجهل بالله سم مهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي، وأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية، كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلابذلك. وكما أنّ أدوية البدن تؤثر في كسب الصحه بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء، فكذلك بان لي، على الضرورة، أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل. وكما أن الأدوية تركبت من أخلاط مختلفة، وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو قبيل الخواص، فكذلك العبادات التي هي أدوية القلوب، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى أن السجود ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، ولا يخلو عن سر من الأسرار، هو من قبيل الخواص التي يطلع عليها إلا بنور النبوة. ولقد تحامق وتجاهل جدًا من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة، أو ظن أنها ذكرت على سبيل الاتفاق، لا عن سر إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصية. وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها، وزوائد هي متمماتها، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات.

وعلى الجملة: فالأنبياء أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه إن عرفنا ذلك، ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة، وأخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين.

وإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه. فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة، فى مدة الخلوة والعزلة.

ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة، ثم فىَ حقيقة النبوة، ثم فى العمل بما شرحته النبوة، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق؛ فنظرت إلى أسباب فتور الخلق، وضعف إيمانهم، فإذا هى أربعة:

١ـ سبب من الخائضين فى علم الفلسفة.

٢ـ وسبب من الخائضين فى طرق التصوف.

٣ـ وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم.

٤ـ وسبب من معاملة الموسومين بالعلم بين الناس.

فإنى تتبعت مدة آحاد الخلق، أسأل من يقصر منهم فى متابعة الشرع، وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره، وقلت له: «ما لك تقصر فيها؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا، فهذه حماقة! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد، فكيف تبيعُ ما لا نهاية له بأيام معدودة؟ وإن كنت لا تؤمن، فأنت كافر، فدبر نفسك فى طلب الإيمان، وانظر ما سبب كفرك الخفى الذى هو مذهبك باطنًا، وهو سبب جرأتك ظاهرًا، وإن كنت لا تصرح به تجملاً بالإيمان وتشرفًا بذكر الشرع!».

فقائل يقول: هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه، لكان العلماء أجدر بذلك، وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى، وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة! وهلم إلى أمثاله...

وقائل ثان يدعى علم التصوف، ويزعم أنه قد بلغ مبلغًا ترقَّى عن الحاجة إلى العبادةوقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة! وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف.

وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول: «الحق مشكل، والطريق إليه منسد، والاختلاف فيه كثير، وليس بعض المذاهب أولى من بعض، وأدلة العقول متعارضة، فلا ثقة برأى أهل الرأى، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له، فكيف أدع اليقين بالشك؟».

وقائل خامس يقول: «لست أفعل هذا تقليدًا، ولكنى قرأت علم الفلسفة، وأدركت حقيقة النبوة، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال فى الشهوات؛ فما أنا من العوام

الجهال حتى أدخل فى حجر التكليف، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغن فيها عن التقليد!؟».

هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبى نصر الفارابى هؤلاء هم المتجملون بالإسلام. وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن، ويحضر الجماعات والصلوات، ويعظم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر، وأنواعًا من الفسق والفجور! وإذا قيل له: «إذا كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلى؟» فربما يقول: «لرياضة الجسد، ولعادة أهل البلد، وحفظ المال والولد!» وربما قال: «الشريعة صحيحة، والنبوة حق» فيقال: فلم تشرب الخمر؟ فيقول: «إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتى محترز عن ذلك، وإنى أقصد به تشحيذ خاطرى». حتى إن ابن سينا ذكر فى وصية له كتب فيها: أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا، وأن يعظم الأوضاع الشرعية، ولايقصر فى العبادات الدينية ولايشرب تلهيًا بل تداويًا وتشافيًا، فكان منتهى حالته فى صفاء الإيمان والتزام العبادات، أن استثنى الخمر لغرض التشافى.

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم. وقد انخدع بهم جماعة، زادهم انخداعهم ضعف اعتراض المعترضين عليهم، إذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق، وغير ذلك مما هو ضرورى لهم، على ما بينا علته من قبل.

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسى لازمة مجتهدة ملبة بكشف هذه الشبهة، حتى كان فضح هؤلاء أيسر عندى من شربة ماء لكثرة خوضى فى علومهم وطرقهم، أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء، انقدح فى نفسى أن ذلك متعين فى الوقت محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك؟ ثم قلت فى نفسى: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل؟ ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق لعاداك أهل الزمان فى جمعهم. وأنّى تقاومهم، فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان الساعد وسلطان متدين قاهر؟ فترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة، تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة؛ فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج؛ فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفتنة، وبلغ الإلزام حدًّا كاد ينتهى لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة، فخطر لى أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغى أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، عن أذى الخلق، ولم ترخص نفسك لعسر مقاساة الخلق، والله تعالى يقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓمٓ ۝١﴾

أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ويقول عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١-١١]. فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد، قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة؛ فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات، ويسر الله تعالى الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وكان الخروج من بغداد فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة، وهذه حركة قدرها الله تعالى، وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما يخطر إمكانه أصلاً بالبال والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و «**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن**» وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى يكسب الجاه، وأدعوا إليه بقولى وعملى، وكان ذلك قصدى ونيتى؛ وأما الآن فأدعوا إلى العلم الذى به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا الآن هو نيتى وقصدى وأمنيتى، يعلم الله ذلك منى، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى، ولست أدرى أأصل إلى مرادى، أم أخترم دون غرضى؟ ولكنى أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، وأنى لم أتحرك لكنه حركنى، وأنى لم أعمل لكنه استعملنى، فأساله أن يصلحنى أولاً، ثم يصلح بى ويهدينى، ثم يهدى بى؛ وأن يرينى الحق حقًّا ويرزقنى اتباعه، ويرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه.

ونعود الآن إلى ما ذكرناه من أسباب ضعف الإيمان فيمن ذكر بذكر طريق إرشادهم وإنقاذهم من مهالكهم:

وأما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم، فعلاجه ما ذكرناه في كتاب «القسطاس المستقيم» ولا نطول بذكره في هذه الرسالة.

وأما ما توهمه أهل الإباحة، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في كتاب «كيمياء السعادة».

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة، بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرها، وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك، وإنما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم لأنه من نفس علمهم. ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم، كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلاً من نفس علمه برهان النبوة.

وأما من أثبت النبوة بلسانه وسوى أوضاع الشرع على الحكمة، فهو على التحقيق كافر بالنبوة، مؤمن بحكم له طابع مخصوص، يقتضي طابعه أن يكون متبوعًا؛ وليس هذا من النبوة في شيء، بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة والعقل معزول عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات؛ فإن لم يجوز هذا، فقد أقمنا البرهان على إمكانه بل على وجوده، وإن جوز هذا، فقد أثبت أن ههنا أمورًا تسمى خواص لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها؛ فإن وزن دانق من الأفيون سم قاتل، لأنه يجمد الدم في العروق لفرط برودته. والذي يدعي علم الطبيعة، يزعم أن ما يبرد من المركبات إنما يبرد بعنصري الماء والتراب، فهما العنصران الباردان. ومعلوم أن أرطالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن إلى هذا الحد، فلو أخبر طبيعي بهذا ولم يجربه لقال: «هذا محال، والدليل على استحالته أن فيه نارية وهوائية والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة، فنقدر الكل ماء وترابًا فلا يوجب هذا الإفراط بالتبريد، فإن انضم إليه حاران فبأن لا يوجب أولى». ويقدر هذا برهانًا. وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات مبني على هذا الجنس، فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه. وما لم يألفوه قدروا استحالته. ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة، وادعى مدع أنه عند ركود الحواس يعلم الغيب، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول. ولو قيل لواحد: «هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار حبة يوضع في بلدة ليأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه، فلا يبقى شيئًا من البلدة وما فيها ولا يبقى هو في نفسه» ؟ لقال: «هذا محال وهو من جملة الخرافات!» وهذه حالة النار ينكرها من لم ير النار إذا

سمعها؛ وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل. فنقول للطبيعى: «قد اضطررت إلى أن تقول: فى الأفيون خاصية فى التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة، فلم لا يجوز أن يكون فى الأوضاع الشرعية من الخواص فى مداواة القلوب وتصفيتها ما لا يدرك بالحكمة العقلية، بل لايبصر ذلك إلا بعين النبوة؟» بل قد اعترفوا بخواص هى أعجب من هذا فيما أوردوه فى كتبهم، وهى من الخواص العجيبة المجربة فى معالجة الحامل التى عسر عليها الطلق بهذا الشكل:

يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء، وتنظر إليهما الحامل بعينها، وتضعهما تحت قدميها، فيسرع الولد فى الحال إلى الخروج. وقد أقروا بإمكان ذلك وأوردوه فى كتاب «عجائب الخواص» وهو شكل فيه تسعة بيوت يرقم فيها رقوم مخصوصة، يكون مجموع ما فى جدول واحد خمسة عشر، قرأته فى طول الشكل أو فى عرضه أو فى جوانبه.

فيا ليت شعرى! من يصدق بذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين، والظهر بأربع، والمغرب بثلاث، هى لخواص غير معلومة بنظر الحكمة؟ وسببها اختلاف هذه الأوقات؛ وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة. والعجب أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين لعللوا اختلاف هذه الأوقات، فنقول: «أليس يختلف الحكم فى الطالع بأن تكون الشمس فى وسط السماء، أو فى الطالع أو فى الغارب، حتى يبنوا على هذا تسييراتهم اختلاف العلاج وتفاوت الأعمار والآجال، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس فى وسط السماء، وبين المغرب وبين كون الشمس فى الغارب، فهل لتصديقه سبيل؟» إلا أن ذلك يسمعه بعبارة المنجم، لعله جرب كذبه مائة مرة؛ ولا يزال يعاود تصديقه، حتى لو قال المنجم له: إذا كانت الشمس فى وسط السماء، ونظر إليها الكوكب الفلانى، والطالع هو البرج الفلانى، فلبست ثوبًا جديدًا فى ذلك الوقت، قتلت فى ذلك الثوب! فإنه لا يلبس الثوب فى ذلك الوقت، وربما يقاسى فيه البرد الشديد، وربما سمعه من منجم وقد عرف كذبه مرات.

فليت شعرى! من يتسع عقله لقبول هذه البدائه ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص، معرفتها معجزة لبعض الأنبياء، فكيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبى صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب! فإن أنكر فلسفى إمكان هذه الخواص فى أعداد الركعات ورمى الجمار وعدد أركان الحج وسائر تعبدات الشرع، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقًا أصلاً. فإن قال: «قد جربت شيئًا من النجوم وشيئًا من الطب، فوجدت بعضه صادقًا، فانقدح فى نفسى تصديقه، وسقط من قلبى استبعاده ونفرته وهذا لم أجربه، فبم أعلم وجوده وتحقيقه إن أقررت بإمكانه؟» فأقول: «إنك لاتقتصر على تصديق ما جربته، بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم، فاسمع أقوال الأنبياء فقد جربوا شاهدوا الحق فى

جميع ما ورد به الشرع، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض لك». على أني أقول: وإن لم تجربه فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعًا؛ فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب المرض فمرض، وله والد مشفق حاذق بالطب، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل، فعجن له والده دواء فقال: «هذا يصلح لمرضك، ويشفيك من سقمك» فماذا يقتضيه عقله، وإن كان الدواء مرًّا كريه المذاق، أيتناوله؟ أو يكذب ويقول: أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء، ولم أجربه؟ فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك! وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك! فإن قلت: فبم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ومعرفته بهذا الطب؟ فأقول: وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمرًا محسوسًا؟ بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علمًا ضروريًّا لا تتمارى فيه.

ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ودنياهم، حصل له علم ضروري بأن شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده. وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه القرآن على لسانه وفي الأخبار، وإلى ما ذكره في آخر الزمان فظهر ذلك كما ذكره، علم علمًا ضروريًّا أنه بلغ الطور الذي وراء العقل، وانفتحت له العين التي يتكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص، والأمور التي لا تدركها العقول. فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي عليه الصلاة والسلام. فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار تعرف ذلك بالعيان.

وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان.

وأما السبب الرابع. وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء. فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور:

أحدها: أن تقول إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام، معرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر ولحم الخنزير والربا، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة. وأنت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم إيمانك بأنه معصية، بل لشهواتك الغالبة عليك؛ فشهواته كشهواتك، وقد غلبته كما غلبتك، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك، لا يناسبه زيادة زجر عن هذا المحظور المعين. وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد، وإن زجره الطبيب عنه! ولا يدل على ذلك أنه غير ضار، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح، فهذا محمل هفوات العلماء.

الثاني: أن يقال للعامي: ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخرًا لنفسه في الآخرة، ويظن أن علمه ينجيه، ويكون شفيعًا له حتى يتساهل معه في أعماله لفضيلة علمه. وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له، وهو ممكن،

فهو وإن ترك العمل يدلى بالعلم. أما أنت أيها العامى إذا نظرت إليه، وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل، فتهلك لسوء عملك ولا شفيع لك.

الثالث: وهو الحقيقة، أن العالم الحقيقى لايصادف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصراً على المعاصى أصلاً؛ إذ العلم الحقيقى ما يعرِّف أن المعصية سم مهلك، وأن الآخرة خير من الدنيا، ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى منه. وهذا العلم لايحصل بأنواع العلوم التى يشتغل بها أكثر الناس؛ فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى. وأما العلم الحقيقى فيزيد صاحبه خشية وخوفًا ورجاء، وذلك يحول بينه وبين المعاصى، إلا الهفوات التى لا ينفك عنها البشر فى الفترات؛ وذلك لايدل على ضعف الإيمان، فالمؤمن مفتن تواب، وهو بعيد عن الإصرار والإكباب.

هذا ما أردت أن أذكره فى ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما، وآفات من أنكر عليهما لا بطريقة.

ونسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه، وأرشده إلى الحق وهداه، وألهمه ذكره حتى لا ينساه، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.



كتاب
حجة الإسلام الإمام الغزالى
المواعظ فى الأحاديث القدسية

الحمد لله تذكرة للعباد، وتقوية للمتقين من المسلمين إلى العبادة، والصلاة على صاحب الملَّة الطاهرة، والرضوان على آله وأصحابه وآلهم، وعلى من تبعهم بإحسان، وعلماء الأمة فى كل زمان.

كتاب الموعظة فيه حسنة نافعة، نفعنا الله بها.

الموعظة الأولى

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَجْمَعُ الْمَالَ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَبْرِ كَيْفَ يَضْحَكُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالآخِرَةِ كَيْفَ يَسْتَرِيحُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالدُّنْيَا وَزَوَالِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، وَعَجِبْتُ لِمَنْ هُوَ عَالِمٌ بِاللِّسَانِ جَاهِلٌ بِالْقَلْبِ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَطْهُرُ بِالْمَاءِ وَهُوَ غَيْرُ طَاهِرٍ بِالْقَلْبِ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ

يشتغل بعيوب النَّاس وهو غافلٌ عن عيوب نفسه، أو لمن يعلم أن الله تعالى مُطَّلعٌ عليه كيف يعصيه، أو لمن يعلم أنه يموت وحده، ويدخل القبر وحده، ويحاسب وحده، كيف يستأنس بالنَّاس، لا إله إلا أنا حقًا، وأنَّ محمدًا عبدى ورسولى».

المَوْعظَةُ الثَّانيَةُ

يقول الله تعالى: «شهدت نفسى، أنْ لا إله إلا أنا وحدى، لا شريك لى، مُحمَّدٌ عبدى ورسولى. مَنْ لم يرض بقضائى، ولم يصبر على بلائى، ولم يشكر على نعمائى، ولم يقنع بعطائى، فليعبد ربًا سواى، ومن أصبح حزينًا على الدُّنيا فكأنَّما أصبح ساخطًا علىَّ، ومن اشتكى على مصيبة فقد شكانى، ومن دخل على غنىٍّ فتواضع له من أجل غنائه ذهب ثُلُثا دينه، ومن لطم وجهه على ميت فكأنَّما أخذ رمحًا يقاتلنى به، ومن كسر عودًا على قبر فكأنَّه هدم باب كعبتى بيده، ومن لم يبال من أى باب يأكل، ما يبالى من أىّ باب يدخله الله تعالى جهنم، ومن لم يكن فى الزيادة فى دينه فهو فى النقصان، ومن كان فى النُّقصان فالموت خيرٌ له، ومن عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم، ومن أطال أمله لم يخلص عمله».

المَوْعظَةُ الثَّالثَةُ

يقول الله تعالى: «يابن آدم! اقنع تستغن، واترك الحسد تسترح، واجتنب الحرام تخلص دينك، ومن ترك الغيبة ظهرت له محبتى، ومن اعتزل النَّاس سلم منهم، ومن قلَّ كلامه كمل عقله، ومن رضى بالقليل فقد وثق بالله تعالى. يابن آدم! أنت بما تعلم لا تعمل، فكيف تطلب علم ما لا تعلم؟ يابن آدم! تعمل فى الدُّنيا كأنَّك لا تموت غدًا، وتجمع المال كأنَّك مخلَّدٌ أبدًا. يا دنيا احرمى الحريص عليك، وابتغى الزَّاهد فيك، وكونى حلوة فى عين النَّاظرين».

المَوْعظَةُ الرَّابعَةُ

يقول الله تعالى: «يابن آدم! من أصبح حزينًا على الدُّنيا لم يزدد من الله إلا بعدًا، وفى الدُّنيا إلا كدًّا، وفى الآخرة إلاَّ جهدًا، وألزم الله تعالى قلبه همًّا لا ينقطع عنه أبدًا، وشغلاً لا يفرغ عنه أبدًا، وفقرًا لا ينال غنى أبدًا، وآمالاً تشغله أبدًا. يابن آدم! تنقص كلَّ يوم من عمرك وأنت لا تدرى، وآتيك كلَّ يوم برزقك وأنت لا تحمد؛ فلا بالقليل تقنع، ولا بالكثير تشبع. يابن آدم! ما من يوم إلاَّ ويأتيك رزقك من عندى، وما من ليلة إلاَّ ويأتينى الملائكة من

عندكَ بعَمَلٍ قَبيحٍ؛ تَأْكُلُ رزقي وتَعْصِيني، وأَنْتَ تَدْعُونى فَأَسْتَجيبُ لَكَ، وَخَيْرِى إِلَيْكَ نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ واصلٌ؛ فَنِعْمَ الْمَوْلَى أَنَا لَكَ! وبِئْسَ العَبْدُ أَنْتَ لِي! تَسْتَلُنى مـا أُعْطِيك، وأَسْتُرُ عَلَيْكَ سَوْأَةً بَعْدَ سَوْأَة فَضِيحَة، وأَنَا أَسْتَحْيِي منْكَ وأَنْتَ لا تَسْتَحِي مِنِّى، تَنْسَانى وتَذْكُرُ غَيْرِى، وتَخَافُ النَّاسَ وتَأمَنُ مِنِّى، وتَخَافُ مَقْتَهمْ، وتَأْمَنُ غَضَبى».

الْموعظَةُ الخَامسَةُ

يقُولُ الله تَعَالَى: «يابْنَ آدمَ! لا تَكُنْ ممَّن يُقَصِّرُ التَّوْبَةَ، ويُطَوِّلُ الأَمَلَ، ويَرْجُو الآخرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ؛ يَقُولُ قَوْلَ العَابدين ويَعْمَلُ عَمَلَ الْمُنافقين. إِنْ أُعْطِيَ لَم يَقْنَعْ، وإِنْ مُنِعَ لَمْ يَصْبِرْ. يَأْمُرُ بالخَيْرِ ولاَ يَفْعَلُهُ. ويَنْهَى بالشَّرِّ ولَمْ يَنْتَه عَنْهُ. يُحبُّ الصَّالحين ولَيْس منْهُمْ، ويُبْغِض المُنَافقِينَ وَهُوَ منْهُمْ. يَقُولُ مَا لاَ يَفْعَلُ، ويَفْعَلُ مَا لاَ يُؤْمَرُ، ويَسْتَوْفِي مَا لاَ يُوفِى. يَابْنَ آدمَ! ما منْ يَوْم جَديد إلاَّ والأَرْضُ تُخَاطِبُكَ فِى قَولهَا تَقُولُ لَكَ: يَابْنَ آدَمَ! تَمْشى عَلَى ظَهْرِى، ثُمَّ تُخْزَنُ فِى بَطْنِى، وتَأْكُلُ الشَّهَوَاتَ عَلى ظَهْرِى، ويَأْكُلُكَ الدُّودُ فِي بَطْنِى. يَابْنَ آدَمَ! أَنَا بَيْتُ الوَحْشَةِ، وَأَنَا بَيْتُ الْمُسَاءلَة، وأَنَا بَيْتُ الوَحْدَة، وأَنَا بَيْتُ الظُّلْمَةِ، وأَنَا بَيْتُ الحَيَّاتِ وَالعقَارب، فَاعْمُرْنِى ولاَ تُخَرِّبْنِى».

الْموعظَةُ السَّادسَةُ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدمَ ما خَلَقْتُكُمْ لأَسْتَكْثِرَ بكُمْ منْ قلَّة، ولاَ لأَسْتَأْنسَ بكُمْ منْ وَحْشَة، ولاَ لأَسْتَعينَ بكُمْ عَلَى أَمْرٍ عَجزْتُ عَنْهُ، ولاَ لجَلْبِ مَنْفَعَة، ولا لدَفْعِ مَضَرَّة، بَلْ خَلَقْتُكُمْ لتَعْبُدُونى طَويلاً، وتَشْكُرُونى كَثيراً، وتُسَبِّحُونى بُكْرَةً وأَصيلاً. يَابْنَ آدَمَ! لَوْ أَنَّ أَوّلَكُمْ وآخرَكُمْ، وجِنَّكُمْ وإِنسَكُمْ، وصَغيرَكُمْ وكَبيرَكُمْ، وحُرَّكُم وعَبْدَكُمْ، اجْتَمعُوا عَلى طَاعَتِى مَا زَادَ ذَلكَ فِى مُلْكِى مثْقَالَ ذَرَّة. ومَنْ جاهَدَ فإِنَمَا يُجَاهدُ لنَفْسه، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ. يَابْنَ آدمَ! كَمَا تؤْذِى تُؤْذَى بكَ، وكَمَا تَعْمَلُ يُعْمَلُ بكَ»

الْموعظَةُ السَّابعَةُ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدمَ! يَا عَبِيدَ الدِّينَارِ وَالدَّرَاهِم! إِنِّى خَلَقْتُهُمَا لَكُمْ لتَأْكُلُوا بهمَا رزْقى، وتَلْبَسُوا بهمَا ثيَابى، وتُسَبِّحُونى وتُقَدِّسُونى؛ ثُمَّ تَأْخُذُونَ كتَابِى وتَجْعلونَهُ وَرَاءكُمْ، وتَأْخُذُونَ الدِّينَار وَالدَّرَاهمَ وتَجْعلُونهَا فوْقَ رءُوسكُمْ، ورَفَعْتُمْ بيُوتَكُمْ وخَفَضْتُمْ بيُوتِى، فَلاَ أَنْتُمْ أَخْيَارٌ ولاَ أَنْتُمْ أَحْرَارٌ؛ أَنْتُمْ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَاجْتمَاعُ مثْلكُمْ كَمثْلِ القُبُورِ المجَصَّصَةِ، يُرَى ظَاهرُهَا مَليحًا وبَاطنُهَا قَبيحًا، وكَذَا تُصْلحُونَ للنَّاسِ وتَحَبَّبُونَ إِلَيْهِمْ

بألسنتكم الحلوة، وأفعالكم الجميلة، وتباعدون بقلوبكم القاسية وأحوالكم الخبيثة. يابن آدم! أخلص عملك واسألني! فإني أعطيك أكثر مما يطلب السائلون».

الموعظة الثامنة

يقول الله تعالى: «يابن آدم! ما خلقتكم عبثًا، ولا خلقتكم سدى، وما أنا بغافل، وإني بكم خبير. ولن تنالوا ماعندي إلا بالصبر على ما تكرهون في رضائي، والصبر لكم على طاعتي أيسر لكم من الصبر على معصيتي، وترك الذنب أيسر لكم من اعتذاري من حر النار، وعذاب الدنيا أيسر لكم من عذاب الآخرة، يابن آدم! كلكم ضال إلا من هديته، وكلكم مسيء إلا من عصمته، وتوبوا إلى أرحمكم، ولا تهتكوا أسراركم عند من لا يخفى عليه سركم».

الموعظة التاسعة

يقول الله تعالى: « يابن آدم! لا تلعنوا المخلوقين فترد اللعنة عليكم. يابن آدم! استقامت السموات في الهواء بلا عمد باسم واحد من أسمائي، ولم تستقم قلوبكم بألف موعظة من كتابي. يا أيها الناس! كما لا يلين الحجر في الماء، كذلك لا تؤثر الموعظة في القلوب القاسية. يابن آدم! كيف تشهدون أنكم عباد الله ثم تعصونه؟ وكيف تزعمون أن الموت حق وأنتم له كارهون، وتقولون بألسنتكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم».

الموعظة العاشرة

يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور﴾ [يونس: ٥٧]. فلم لا تحسنون إلا لمن أحسن إليكم، ولا تصلون إلا من وصلكم، ولا تكلمون إلا من كلمكم، ولا تطعمون إلا من أطعمكم، ولا تكرمون إلا من أكرمكم؟ وليس لأحد على أحد فضل، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، الذين يحسنون إلى من أساء إليهم، ويصلون من قطعهم، ويعفون عمن حرمهم، ويأتمنون من خانهم، ويكلمون من هجرهم، ويكرمون من أهانهم، وإني بكم لخبير».

الموعظة الحادية عشرة

يقول الله تعالى: « يا أيها الناس! إنما الدنيا دار لمن لا دار له، ومال لمن لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وبها يفرح من لا فهم له، وعليها يحرص من لا توكل له، ويطلب شهواتها، من لا معرفة له؛ فمن أراد نعمة زائلة، وحياة منقطعة، فقد ظلم نفسه وعصا ربه، ونسى الآخرة وغرته دنياه، وأراد ظاهر الإثم وباطن هذا. ﴿إن الذين يكسبون

الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. يَابْنَ آدَمَ! رَاعُونِي وَتَاجِرُونِي، وَعَامِلُونِي وَأَسْلِفُونِي فِي رِبْحِكُمْ. عِنْدِي مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَلاَ تَنْفَدُ خَزَائِنِي وَلاَ تَنْقُصُ، وَأَنَا الوَهَّابُ الْكَرِيمُ».

الْمَوْعِظَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]. كَمَا لا تَهْتَدِي السَّبِيلَ إِلا بِدَلِيلٍ، كَذَلِكَ لا طَرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ إِلاَّ بِعَمَلٍ. وَكَمَا لا يُجْمَعُ الْمَالُ إِلاَّ بِنَصَبٍ، كَذَلِكَ لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ بِالصَّبْرِ عَلَى عِبَادَتِي. فَتَقَرَّبُوا إِلَى اللهِ بِالنَّوَافِلِ، وَاطْلُبُوا رِضَائِي بِرِضَا الْمَسَاكِينِ عَنْكُمْ، وَارْغَبُوا إِلَى رَحْمَتِي بِمُجَالَسِ الْعُلَمَاءِ، فَإِنَّ رَحْمَتِي لا تُفَارِقُهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا مُوسَى، اسْمَعْ مَا أَقُولُ، فَالْحَقُّ أَنَّهُ مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى مِسْكِينٍ حَشَرْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ الذَّرِّ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لَهُ رَفَعْتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ تَعَرَّضَ لِهَتْكِ سِرِّ مِسْكِينٍ حَشَرْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ مَسْتُورِ سِرِّهِ، وَمَنْ أَهَانَ فَقِيراً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي صَافَحَتْهُ الْمَلائِكَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

الْمَوْعِظَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! كَمْ مِنْ سِرَاجٍ قَدْ أَطْفَأَتْهُ رِيحُ الْهَوَى، وَكَمْ مِنْ عَابِدٍ قَدْ أَفْسَدَهُ الْعُجْبُ، وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَفْسَدَهُ الْغِنَاءُ، وَكَمْ مِنْ فَقِيرٍ أَفْسَدَهُ الْفَقْرُ، وَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ أَفْسَدَتْهُ الْعَافِيَةُ، وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ أَفْسَدَهُ الْعِلْمُ، وَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَفْسَدَهُ الْجَهْلُ؛ فَلَوْلاَ مَشَايِخُ رُكَّعٌ، وَشَبَابٌ خُشَّعٌ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ، لَجَعَلْتُ السَّمَاءَ مِنْ فَوْقِكُمْ حَدِيداً، وَالأَرْضَ صَفْصَفًا، وَالتُّرَابَ رَمَاداً، وَلَمَا أَنْزَلْتُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ قَطْرَةً، وَلَمَا أَنْبَتَتْ فِي الأَرْضِ مِنْ حَبَّةٍ، وَلَصَبَبْتُ عَلَيْكُمُ الْعَذَابَ صَبًّا».

الْمَوْعِظَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! اطْلُبُونِي بِقَدْرِ حَاجَتِكُمْ إِلَيَّ، وَاعْصُونِي بِقَدْرِ صَبْرِكُمْ عَلَى النَّارِ، وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى آجَالِكُمُ الْمُسْتَأْخِرَةِ، وَأَرْزَاقِكُمُ الْحَاضِرَةِ، وَذُنُوبِكُمُ الْمُسْتَتِرَةِ وَ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]».

الْمَوْعِظَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! إِنْ صَلَحَ دِينُكُمْ وَلَحْمُكُمْ وَدَمُكُمْ، صَلَحَ عَمَلُكُم

وَلَحْمُكُمْ ودَمُكُمْ، وإِنْ فَسدَ دينُكُمْ فَسدَ عملَكُمْ ولَحْمُكُمْ ودَمُكُمْ فلا تَكُنْ كالمصْبَاحِ يَحْرُقُ نَفْسهُ ويُضِيءُ للنَّاسِ، وأَخْرِجْ حُبَّ الدُّنْيَا منْ قَلْبك، فَإنِّي لا أَجْمَعُ حُبَّ الدُّنْيا وَحُبِّي فِي قَلْب وَاحد أَبدًا، وَارْفُقْ بنفْسكَ فى جمْعِ الرِّزْق، فَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ، والحَرِيص مَحْرُومٌ، والْبَخِيلُ مَذْمُومٌ، والنِّعْمَةَ لا تَدُومُ، والاسْتِقْصَاءَ شُؤْمٌ، والأَجَلَ مَعْلُومٌ، والحَقَّ مَعْلُومٌ، وَخَيْرَ حكْمَةَ الله الخُشُوعُ، وخَيْرَ الغِنَاء الْقَنَاعَةُ، وَخَيْرَ الزَّاد التَّقْوَى، وَخَيْرَ ما أَتَى فى القُلُوبِ اليَقِينُ، وَخَيْرَ ما أُعْطيتم العَافِيَةُ».

الْمَوْعظَةُ السَّادسةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ الله تَعالَى: ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنُوا لمَ تقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ١]. وَكَمْ تَقُولُونَ وتَتَخَلَّفُونَ، وكَمْ تَنْهَوْنَ عمَّا لَسْتُمْ عَنْهُ تَنْتَهُونَ، وكَمْ تَأْمُرُونَ ولاَ تَفْعَلُونَ، وكَمْ تَجْمعُونَ مَا لاَ تَأْكُلُون، وكَمْ تَوبَةً يومًا بعد يوم تُؤَخِّرُونَ، عامًا بَعْدَ عَامٍ ثُمَّ لم تُنْظَرُونَ، أَعِنْدَكُمْ من المَوْت أَمَانٌ؟ أَمْ بيدكُمْ بَرَاءَةٌ منَ النَّار؟ أَمْ تَحقَّقْتُمُ الفَوْزَ بالجنَان؟ أَمْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ الرَّحْمن رَحِمَةٌ؟ أَبْطَرَتْكُمُ النِّعَمُ، وأَفْسدَكُمُ الإحْسانُ، وغَرَّكُمْ منَ الدُّنْيا طُولُ الأَمَل. ولاَ تَغْتَنمُوا الصِّحَّةَ والسَّلامَةَ، فأَيَّامُكُمْ مَعْلُومَةٌ، وأَنْفَاسُكُمْ مَعْدُودَةٌ، وقَدِّمُوا لأَنْفسكُمْ لمَا بَقِيَ فى أَيْديكُم. يَابْنَ آدَمَ! إنكَ تَقْدُمُ على عَملك، وإِنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَهْدمُ منْ عُمرِك، منْ يَوْمِ خَرَجْتَ منْ بَطْنِ أُمِّكَ، وتَدْنُو كُلَّ يوْم منْ قَبْرِكَ حَتَّى تَدْخُلَهُ. يَابْنَ آدَمَ! مَثَلُكُمْ فى الدُّنْيا كَمثَلِ الذُّبَاب، كُلَّمَا وَقَعَ فى الْعَسلِ انْتَشَبَ فيه، فَكَذَلك أَنْتَ، لاَ تَكُنْ كَالحَطَبِ الَّذى يَحْرُقُ نَفْسهُ لغَيْره بالنَّار».

الْمَوْعظَةُ السَّابعةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ الله تَعالَى: «يَابْنَ آدَمَ! اعْمَلْ كَمَا أَمَرْتُكَ، وانْتَه عَمَّا نَهَيْتُكَ عَنْهُ، أَجْعَلْكَ حَيًّا لا تَمُوتُ أَبَدًا، وأَنَا حَيٌّ لا أَمُوتُ أَبدًا، وإِذَا قُلْت للشَّيْء كُنْ فَيَكُونُ. يَابْنَ آدَمَ! إنْ كَانَ قَوْلُكَ مَليحًا، وعَمَلُكَ قَبيحًا، فَأَنْتَ رَئِيسُ المُنَافقين؛ وإذَا كَانَ ظَاهرُكَ مَليحًا وبَاطنُكَ قَبيحًا، فَأَنْتَ منَ الْهَالكينَ. يُخادعُونَ الله وهُوَ خَادعُهُمْ، ﴿وما يخدعون إلاَّ أنفسهم وما يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]. يَابْنَ آدَمَ! لاَ يَدخُلُ الجنَّةَ إلاَّ مَنْ تَوَاضَعَ لعظمَتي، وقَطَعَ النَّهار بذكْرِى، وكَفَّ نَفْسهُ عَنِ الشَّهوَات منْ أَجْلي؛ فَإنِّي آوى الْغَرِيبَ وأُؤَمِّنُ الْفَقيرَ، وأُكْرمُ الْيَتيمَ، وأَكُونُ لَهُ كَالأَب الرَّحيم، وللأَرامل كَالزَّوْجِ الْعَطُوف الشَّفُوق. فَمَنْ كَانَتْ هذه صفَتهُ كُنْتُ مُجيبًا لَهُ، إذَا دعَانى شيْئًا أَسْتَجيبهُ، وإِذَا سأَلَنى أَعْطَيْتُهُ».

الْمَوْعظَةُ الثَّامنةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ الله تَعالَى: «يَابْنَ آدَمَ! إِلَى مَنْ تَشْكُونى ولَيْسَ لمثْلي تَشْكُو؟ وإِلَى مَتَى تَنْسَونى

وَلَمْ أَسْتَوْجِبْ مِنْكُمْ ذَلِكَ؟ وَإِلَى مَتَى تَكْفُرُونِى وَلَسْتُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ؟ وَإِلَى مَتَى تَجْحَدُ نِعْمَتِى؟ وَإِلَى مَتَى تَسْتَخِفُّ بِكِتَابِى، وَلَمْ أُكَلِّفْكَ مَا لا تُطِيقُ؟ وَإِلَى مَتَى تَجْفُونِى؟ وَإِلَى مَتَى تَجْحَدُونِى وَلَيْسَ لَكُمْ رَبٌّ غَيْرِى؟ وَإِذَا مَرِضْتُمْ فَأَىُّ طَبِيبٍ مِنْ دُونِى يَشْفِيكُمْ؟ فَقَدْ شَكَوْتُمُونِى وَسَخِطْتُمْ قَضَائِى، وَأَنَا الَّذِى أَرْسَلْتُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا فَقُلْتُمْ مُطِرْنَا بِهَذَا النَّجْمِ، فَقَدْ كَفَرْتُمُونِى وَآمَنْتُمْ بِالنَّجْمِ، وَأَنَا الَّذِى أَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ رَحْمَتِى قَدَرًا مَقْدُورًا مَكْيُولاً مَعْدُودًا مَوْزُونًا مَقْسُومًا، فَإِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ قُوتُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، قَالَ: أَنَا بِشَرٍّ وَلَسْتُ بِخَيْرٍ، فَقَدْ جَحَدَ نِعْمَتِى، وَمَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِهِ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِكِتَابِى، وَإِذَا عَلِمَ بِوَقْتِ الصَّلاةِ لَمْ يَفْرُغْ لَهَا فَقَدْ غَفَلَ عَنِّى».

الْمَوْعِظَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! اصْبِرْ وَتَوَاضَعْ أَرْفَعْكَ، وَاشْكُرْنِى أَزِدْكَ، وَاسْتَغْفِرْنِى أَغْفِرْ لَكَ، وَإِذَا دَعَوْتَنِى أَسْتَجِيبُ لَكَ، وَتُبْ إِلَىَّ أَتُبْ عَلَيْكَ، وَاسْأَلْنِى أُعْطِكَ، وَتَصَدَّقْ أُبَارِكْ لَكَ فِى رِزْقِكَ، وَصِلْ رَحِمَكَ أَزِدْ فِى أَجَلِكَ، وَاطْلُبْ مِنِّى الْعَافِيَةَ بِطُولِ الصِّحَّةِ، وَالسَّلامَةَ فِى الْوَحْدَةِ، وَالإِخْلاصَ فِى الرَّغْبَةِ، وَالْوَرَعَ إِلَى اللهِ فِى التَّوْبَةِ، وَالْغِنَاءَ فِى الْقَنَاعَةِ. يَابْنَ آدَمَ! كَيْفَ تَطْمَعُ فِى الْعِبَادَةِ مَعَ الشِّبَعِ؟ وَكَيْفَ تَطْمَعُ فِى حُبِّ اللهِ مَعَ حُبِّ الْمَالِ؟ وَكَيْفَ تَطْمَعُ فِى الْخَوْفِ مَعَ خَوْفِ الْفَقْرِ؟ وَكَيْفَ تَطْمَعُ فِى الْوَرَعِ مَعَ الْحِرْصِ عَلَى الدُّنْيَا؟ وَكَيْفَ تَطْمَعُ فِى مَرْضَاةِ اللهِ بِغَيْرِ الْمَسَاكِينِ؟ وَكَيْفَ تَطْمَعُ فِى الرِّضَا مَعَ الْبُخْلِ؟ وَكَيْفَ تَطْمَعُ فِى الْجَنَّةِ مَعَ حُبِّ الدُّنْيَا وَمَعَ الْمَدْحِ؟ وَكَيْفَ تَطْمَعُ فِى السَّعَادَةِ مَعَ قِلَّةِ الْعِلْمِ؟».

الْمَوْعِظَةُ الْعِشْرُونَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لا عَيْشَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلا وَرَعَ كَالْكَفِّ عَنِ الأَذَى، وَلاَ حُبَّ أَرْفَعُ مِنَ الأَدَبِ، وَلاَ شَفِيعَ كَالتَّوْبَةِ، وَلاَ عِبَادَةَ كَالْعِلْمِ، وَلاَ صَلاةَ كَالْخَشْيَةِ، وَلاَ ظَفَرَ كَالصَّبْرِ، وَلاَ سَعَادَةَ كَالتَّوْفِيقِ، وَلاَ زَيْنَ أَزْيَنَ مِنَ الْعَقْلِ، وَلاَ رَفِيقَ آنَسُ مِنَ الْحِلْمِ. يَابْنَ آدَمَ! تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِى أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنًى، وَأُبَارِكْ فِى رِزْقِكَ، وَأُحِلَّ فِى جِسْمِكَ رَاحَةً، وَلاَ تَغْفَلْ عَنْ ذِكْرِى، فَإِنْ غَفَلْتَ أَمْلأُ قَلْبَكَ فَقْرًا، وَبَدَنَكَ تَعَبًا وَنَصَبًا، وَصَدْرَكَ هَمًّا، وَلَوْ أَبْصَرْتَ مَا بَقِىَ مِنْ عُمْرِكَ لَزَهِدْتَ فِيمَا بَقِىَ مِنْ أَمَلِكَ. يَابْنَ آدَمَ! بِعَافِيَتِى قَوِيتَ عَلَى طَاعَتِى، وَبِتَوْفِيقِى أَدَّيْتَ فَرِيضَتِى، وَبِرِزْقِى قَوِيتَ عَلَى مَعْصِيَتِى، بِمَشِيئَتِى تَشَاءُ مَا تَشَاءُ، وَبِإِرَادَتِى تُرِيدُ مَا تُرِيدُ لِنَفْسِكَ، وَبِنِعْمَتِى قُمْتَ وَقَعَدْتَ وَرَجَعْتَ، وَبِكَنَفِى أَمْسَيْتَ وَأَصْبَحْتَ، وَفِى فَضْلِى عِشْتَ، وَفِى نِعْمَتِى تَقَلَّبْتَ، وَبِعَافِيَتِى تَجَمَّلْتَ؛ ثُمَّ تَنْسَانِى وَتَذْكُرُ غَيْرِى، فَلِمَ لا تُؤَدِّى حَقِّى وَشُكْرِى؟».

الْموْعظَةُ الحَادِيةُ وَالعشْرُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدمَ! الْموْتُ يكْشفُ أَسْرَارِكَ، والْقيَامَةُ تبْلُو أَخْبارَكَ، والْعذَابُ يهْتكُ أَسْرَارِكَ، فَإذَا أَذْنبْتَ ذَنْبًا فَلاَ تَنْظُرْ إلَى صغَره، ولَكن انْظُرْ إلَى منْ عصَيْتَ، وإذَا رُزقْتَ رزْقًا قَليلاً فَلا تَنْظُرْ إلى قلَّته، ولَكن انْظُرْ إلَى منْ رَزَقَكَ؛ ولاَ تحقِّر الذَّنْبَ الصَّغيرَ، فإنَّكَ لاَ تَدْرِي بأَيِّ ذَنْب عصيْتَهُ؛ وَلا تأمَنْ منْ مكْرِي، فَإنَّ مكْرى أَخْفَى علَيْكَ منْ دبيبِ النَّمْلِ علَى الصَّفا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلمَة. يَابْنَ آدَمَ! هَلْ عصَيْتَني فَذكَرْتَ غَضَبي؟ وَهَل انْتَهيْتَ عمَّا نَهيْتُكَ؟ وَهَلْ أَدَّيْتَ فَرِيضَتي كَمَا أَمرْتُكَ؟ وَهلْ وَاسَيْتَ الْمسَاكين منْ مَالكَ؟ وَهلْ أَحْسَنْتَ إلَى مَنْ أَساءَ إلَيْكَ؟ وهَلْ عفَوْتَ عمَّن ظَلَمكَ؟ وهَلْ وَصَلْتَ منْ قَطَعكَ؟ وهَلْ أَنْصَفْتَ منْ خَانَكَ؟ وَهلْ كَلَّمْتَ مَنْ هجَركَ؟ وهلْ أَدَّبْتَ وَلَدكَ؟ وَهَل أَرْضَيْتَ جيرَانَكَ؟ وهلْ سَأَلْتَ الْعُلَمَاءَ عَنْ أَمْر دينكَ ودُنْيَاكَ؟ فَإنِّي لا أَنْظُرُ إلَى صُورِكُمْ، ولا إلَى مَحَاسنكُمْ، ولَكنْ أَنْظُرُ إلَى قُلُوبكُمْ، وأَرْضَى بهَذه الخصَال منْكُمْ».

الْموْعظَةُ الثَّانيَةُ وَالعشْرُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدمَ! انْظُرْ إلَى نَفْسكَ وَإلَى جَميعِ خَلْقي، فإنْ وَجَدْتَ أَعزَّ علَيْكَ منْ نَفْسكَ، فَاصرفْ كرَامتَهُ إلَيْكَ، وإلاَّ أَكْرِمْ نَفْسَكَ بالتَّوْبَة وَالْعمَل الصَّالح إنْ كَانَتْ نَفْسُكَ علَيْكَ عَزيزةً. ﴿وَاذْكُروا نعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وميثَاقَهُ الَّذي وَاثَقكُم به إذْ قُلْتُمْ سَمعْنَا وَأَطعْنَا﴾ [المائدة: ٧]. وَاتَّقُوا الله قَبْلَ يوْم القيَامَة، يَوْم التَّغَابُن، يَوْم الحَاقَّة، ﴿يوْمٍ كَانَ مقْدَارُهُ خَمْسينَ أَلْفَ سَنَة﴾ [المعارج: ٤]. ﴿يوْمُ لا ينطقُونَ ﴿٣٥﴾ ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]. يوْم الطَّامة، يوْم الصَّيْحَة ﴿يوْمًا عبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]. ﴿يوْمَ لا تَمْلكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يوْمَئذٍ لِّلَّه﴾ [الانفطار: ١٩]. يوْم الدَّيْمُومة، يَوْم الزَّلْزلَة، يَوْم القَارعَة، يَوْم فيه تَرْجُفُ مَوَاقعُ الجِبَال، وحُلُول النَّكَال، وتَعْجيلَ الزَّوَال، يَوْم الصَّيْحة وَالدركَ، يَوْم فيه تَشيبُ الولْدَانُ، ﴿وَلاَ تكُونُوا كَالَّذينَ قَالُوا سَمعْنَا وَهُمْ لا يسْمعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

الْوعظَةُ الثَّالثةُ وَالْعشْرُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذكْرًا كَثيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]. يَامُوسَى بْنَ عمرانَ، يَاصَاحِبَ الْبَيَانِ، اسْمَعْ كلاَمى! فَأَنَا الله المَلكُ الدَّيَّانُ، لَيْس بَيْنى وبَيْنَكَ تُرجُمَانٌ، بَشِّرْ آكلَ الربَا بغَضَب الرحْمن، وَمُضَعَّفَات النِّيرَانِ. يَابْنَ آدمَ! إذَا وَجدْتَ قَسَاوَةً فى قَلْبك، وَسَقمًا فى بَدَنكَ، وحرمَانًا فى رزْقكَ، ونَقيصَةً فى مَالكَ، فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ تَكلَّمْتَ بمَا لا يَعْنيكَ. يَابْنَ آدَمَ! مَا يَسْتَقيمُ دِينُكَ حَتَّى يَسْتَقيمَ لسَانُك، وَلاَ يَسْتَقيمُ لسَانُكَ حَتَّى تَسْتَحيى مِنْ ربِّكَ. يَابْنَ آدمَ! إذَا نَظَرْتَ فى عُيُوب النَّاس ونَسيتَ عَيْبَكَ، فَقَدْ أَرْضَيْتَ الشَّيْطَانَ وَأَغْضَبْتَ الرَّحْمَنَ. يَابْنَ آدَمَ! لسَانُكَ أَسَدٌ، إنْ أَطْلَقْتَهُ قَتَلَكَ، فَهلاكُكَ فى إطْلاَق لسَانكَ».

المَوْعظَةُ الرَّابعَةُ وَالْعشْرُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدمَ! ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. اعْلَمُوا الْيَوْمَ الَّذى تُحْشَرُونَ فيه فَوْجًا فَوْجًا، وَتَقُومُونَ بَيْنَ يَدَى الرَّحْمَنِ صَفًّا صَفًّا، وتَقْرَءُونَ الْكتَابَ حَرْفًا حَرْفًا، وتُسْأَلُونَ عمَّا عَملْتُمْ سرًّا وَجَهْرًا. ﴿يوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقينَ إلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمينَ إلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. لَكُمْ وَعْدٌ وَوَعيدٌ، فَإِنى أَنَا الله لا شَبيهَ لى، ولَيْسَ سُلْطَانٌ كَسُلْطَانى. مَنْ صَامَ لى فى دَهْره خَالصًا أَفْطَرْتُهُ بأَلْوَانى، وَمَنْ بَاتَ فى لَيْله قَائمًا كَانَ لَهُ شَأْنٌ منْ شَأْنى، وَمَنْ غَضَّ عَيْنَهُ عَنْ مَحَارمى أَمَّنْتَهُ منْ نيرَانى. فَأَنَا الرَّبُّ فَاعْرِفُونى، وأَنَا الْمُنْعمُ فاشْكُرُونى، وَأَنَا الحَافظُ فَاحْفَظُونى، وَأَنَا النَّاصرُ فَانْصرُونى، وأَنَا الغَافرُ فَاسْتَغْفرونى، وَأَنَا الْمَقْصُودُ فَاقْصدونى، وَأَنَا الْمُعْطى فَاسْأَلُونى، وَأَنَا الْمَعْبُودُ فَاعْبُدُونى، وأَنَا العَالمُ فَاحْذَرونى».

المَوْعظَةُ الخَامسَةُ وَالعشْرُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! ﴿شهدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُوَ وَالْمَلائكَةُ وَأُولُوا الْعلْمِ قَائمًا بالْقسْط لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ ﴿١٨﴾ إنَّ الدِّينَ عندَ اللَّه الإسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩]. ﴿ومَن يَبْتَغ غَيْرَ الإسْلام دينًا فَلَن يُقْبَلَ منْهُ وَهُوَ فى الآخرَة منَ الْخَاسرينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وبَشِّرْ كُلَّ شَئ أَحْسَنَ بالجَنَّة. وَمَنْ عَرَفَ الله خَالصًا فَأَطَاعَهُ نَجَا، وَمنْ عَرَفَ الشَّيْطَانَ فَعصَاهُ سَلمَ، وَمنْ عَرفَ الحَقَّ فَاتَّبَعَهُ أَمنَ، وَمَنْ عَرَفَ البَاطلَ فَاتَّقَاهُ فَازَ، وَمَنْ عَرَفَ الشَّيْطَانَ وَالدُّنْيَا ثُمَّ رَفَضَهمَا سَعدَ، وَمَنْ عَرفَ الآخرَةَ ثُمَّ طَلَبَهَا هُدىَ. وإنَّ الله يَهْدى مَنْ يَشَاءُ وإلَيْه تُقْلَبُونَ. يَابْنَ آدمَ! إذَا كَانَ الله تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ لَكَ بالرِّزْق، فَطُولُ اهْتمَامكَ لمَاذَا؟ وَإذَا كَانَ الخَلَفُ منَ الله فَالبُخْلُ لمَاذَا؟ وإذَا كَانَ إبْليسُ عَدُوَّ الله تعَالَى فَالْغَفْلَةُ لمَاذَا؟ وَإذَا كَانَت الْعُقُوبَةُ بالنَّار، فَالاسْترَاحَةُ لمَاذَا؟ وَإذَا كَانَ ثَوَابُ الله الجَنَّة، فَالْمَعْصيَةُ لمَاذَا؟، وَإذَا كَانَ

كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَائِي فَالْجَزَعُ لِمَاذَا؟﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

المَوْعِظَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! أَكْثِرُوا مِنَ الزَّادِ فَإِنَّ الطَّرِيقَ بَعِيدٌ، وَجَدِّدِ الْقِيَامَ لله فَإِنَّ البَحْرَ عَمِيقٌ، وَحَقِّقُوا الْعَمَلَ فَإِنَّ الصِّرَاطَ دَقِيقٌ، وَأَخْلِصِ الْفِعْلَ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ. فَشَهَوَاتُكَ فِي الجَنَّةِ، وَرَاحَتُكَ إِلَى الآخِرَةِ، وَلَدَيْكَ الحُورُ الْعِينُ، وَكُنْ لِي أَكُنْ لَكَ، وَتَقَرَّبْ إِلَيَّ فِي هَوَانِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الأَبْرَارِ، فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

المَوْعِظَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! كَيْفَ تَعْصُونَ وَأَنْتُمْ تَجْزَعُونَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ، وَجَهَنَّمُ لَهَا سَبْعُ طَبَقَاتٍ، فِيهَا نِيرَانٌ يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فِي كُلٍّ مِنْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ شِعْبٍ مِنَ النَّارِ، فِي كُلِّ شِعْبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ دَارٍ، وَفِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ أَلْفَ بَيْتٍ، وَفِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ أَلْفَ بِئْرٍ، وَفِي كُلِّ بِئْرٍ سَبْعُونَ أَلْفَ تَابُوتٍ مِنْ نَارٍ، وَفِي كُلِّ تَابُوتٍ سَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ مِنْ نَارٍ، عَلَى كُلِّ تَابُوتٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شَجَرَةٍ مِنْ زَقُّومٍ تَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ قَائِدٍ مِنْ نَارٍ، مَعَ كُلِّ قَائِدٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ مِنْ نَارٍ، وَسَبْعُونَ أَلْفَ ثُعْبَانٍ مِنْ نَارٍ، طُولُ كُلِّ ثُعْبَانٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ مِنْ نَارٍ، فِي جَوْفِ كُلِّ ثُعْبَانٍ بَحْرٌ مِنَ السُّمِّ الأَسْوَدِ، وَلِكُلِّ عَقْرَبٍ أَلْفُ ذَنَبٍ، طُولُ كُلِّ ذَنَبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ذِرَاعٍ، فِي كُلِّ ذَنَبٍ سَبْعُونَ أَلْفَ رِطْلٍ مِنَ السُّمِّ الأَحْمَرِ، فَبِنَفْسِي أَحْلِفُ، ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ١- ٦]. يَابْنَ آدَمَ! مَا خَلَقْتُ النِّيرَانَ إِلاَّ لِكُلِّ كَافِرٍ، وَنَمَّامٍ، وَعَاقِّ الْوَالِدَيْنِ، وَالْمُرَائِي، وَمَانِعِ الزَّكَاةِ مِنْ مَالِهِ، وَالزَّانِي، وَآكِلِ الرِّبَا، وَشَارِبِ الْخَمْرِ، وَظَالِمِ الْيَتِيمِ، وَالأَجِيرِ الغَادِرِ، وَالنَّائِحَةِ، وَلِكُلِّ مُؤْذِي الجِيرَانِ، ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. فَارْحَمُوا أَنْفُسَكُمْ يَا عِبَادِي! فَإِنَّ الأَبْدَانَ ضَعِيفَةٌ، وَالسَّفَرَ بَعِيدٌ، وَالْحِمْلَ ثَقِيلٌ، وَالصِّرَاطَ دَقِيقٌ، وَالنَّاقِدَ بَصِيرٌ، وَالْقَاضِي رَبُّ الْعَالَمِينَ».

المَوْعِظَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَيْفَ رَغِبْتُمْ فِي دُنْيَا فَانِيَةٍ زَائِلَةٍ، وَحَيَاةٍ مُنْقَطِعَةٍ؟ فَإِنَّ لِلطَّائِعِينَ الجِنَانَ يَدْخُلُونَ مِنْ أَبْوَابِهَا الثَّمَانِيَةِ، فِي كُلِّ جَنَّةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ رَوْضَةٍ، فِي كُلِّ

رَوْضَة سَبْعُونَ أَلْفَ قَصْر منَ اليَاقُوت، فى كُلِّ قَصْر سَبْعُونَ أَلْفَ دَارٍ منَ الزُّمُرُّد، فى كُلِّ دَار سَبْعُونَ أَلْفَ بَيْت منَ الذَّهَب الأَحْمَر، فى كُلِّ بَيْت سَبْعُونَ أَلْفَ مَقْصُورَة منَ الْفضَّةِ الْبَيْضَاء، فى كُلِّ مَقْصُورة سَبْعُونَ أَلْفَ مَائدَة منَ العَنْبَر، عَلَى كُلِّ مائدة سَبْعُونَ أَلْفَ صَحْفَةَ منَ الجَوَاهر، فى كُلِّ صَحْفَة سَبْعُونَ أَلْف لَوْنٍ منَ الطَّعَام، حَوْلَ كُلِّ مَقْصُورة سَبْعُونَ أَلْفَ سَرير منَ الذَّهَب الأَحْمَر، عَلَى كُلِّ سَرير سَبْعُونَ أَلْفَ فرَاش منَ الحَرير والإسْتَبْرَق والدِّيبَاج، حَوْلَ كُلِّ سَرير سَبْعُونَ أَلْفَ نَهْر منْ مَاء الحَيَاة وَاللَّبَنِ والْعَسَلِ والخَمْر، فى وَسَط كُلِّ نَهْر سَبعُونَ أَلْفَ لَوْنٍ منَ الثِّمَار، فى كُلِّ بَيْت سَبْعُونَ أَلْفَ خَيْمة منَ الأُرْجُوَان، عَلى كُلِّ فرَاش حَوْرَاء منَ الحُور الْعين، بيْنَ يَدَيْهَا سَبْعُونَ أَلْف وَصيفَة كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ، عَلَى رَأْس كُلِّ قَصْر سَبْعُونَ أَلْفَ قُبَّة، فى كُلِّ قُبَّة سَبْعُونَ أَلْف هَديَّة منَ الرَّحْمن، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سمعَتْ، ولاَ خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَر ﴿ وفَاكهَة ممَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ولَحْم طَيْرٍ ممَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُون ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٠- ٢٤]. لا يمُوتُونَ فيهَا ولاَ يَهْرَمُونَ، وَلا يحْزَنُونَ ولاَ يَصُومُونَ، وَلاَ يُصَلُّونَ، ولاَ يمْرَضُونَ، ولاَ يَبُولُونَ ولاَ يتَغَوَّطُونَ ﴿ وَمَا هُم مّنْهَا بمُخْرَجينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]. فَمَنْ طَلَبَهَا وذَكَر كَرَامَتي، وَجوَاري وَنعْمَتي، فَلْيَتَقَرَّبْ إِلَيَّ بالصِّدْق، والاسْتهَانَة بالدُّنْيَا، وَالْقَنَاعَة بِالْقَليلِ».

الْموْعظَةُ التَّاسعَةُ والْعشْرُونَ

يَقولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدمَ! المَالُ مَالي وَأَنْتَ عَبْدي، فَمَا لكَ منْ مَالي إلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْت، أَوْ لَبسْتَ فَأَبْلَيْت، أَوْ تَصدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ. فَأَنَا وَأَنْتَ ثَلاثَةُ أَقْسَام: فَوَاحدٌ لي، وَوَاحدٌ لَكَ، وَوَاحدٌ بَيْني وَبَيْنَكَ؛ فَأَمَّا الَّذى لي فَرُوحُكَ، وَأَمَّا الَّذى لَكَ فَعَمَلُكَ، وَأَمَّا الَّذى بَيْني وَبَيْنَكَ، فَمنْكَ الدُّعَاءُ ومنِّي الإجَابَةُ. يَابْنَ آدَمَ! تورَّعْ واقْنَعْ تَرني، وَاعْبُدْني تَصرْ إِلَيَّ، واطْلُبْني تجَدْني. يَابْنَ آدَمَ! إذَا كُنْتَ مثْلَ الأُمَرَاء الَّذينَ دَخَلُوا النَّار بالْفُجُور، وَالْعَرَب بالْمَعْصيَة، وَالْعُلَمَاء بالحَسَد، وَالتُّجَّار بالخيَانَة، وَالجَبْريَّة بالجَهَالَة، وَالصُّنَّاع وَالْعُبَّاد بالرِّيَاء، وَالأَغْنيَاء بالْكبْر، وَالْفُقَرَاء بالْكَذب، فَأَيْنَ مَنْ يَطْلُبُ الجَنَّةَ؟».

الْموْعظَةُ الثَّلاثُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. يَابْنَ آدمَ! إنَّمَا مَثَلُ الْعلْم بلا عَمَل كَمَثَل الْبَرْق وَالرَّعْد بلاَ مَطَرٍ، ومَثَلُ الْعَمَل بلاَ علْم كَمَثَل شَجَرَة بلاَ ثَمرَة، ومَثَلُ الْعَالم بلاَ عَمَلٍ كَمَثَل قَوْس بلاَ

وتر، ومَثَلُ المال بلاَ زكَاة كَمثَلِ مَنْ يزرعُ المِلحَ علَى الصفَا، ومَثَلُ المَوْعظَة عنْدَ الأحْمَق كَمثَلِ الدّرِّ والجواهر عَنْدَ البَهائم، ومَثَلُ القَاسي مَعَ العـلْم كَمثَلِ حَجَر بَاقع. ومَثَلُ المَوْعظَة عنْدَ منْ لا يرْغَبُ فيهَا كَمثَلِ المزْمَار عنْدَ القُبُور، ومَثَلُ الصَّدَقة منَ الحَرَامِ كَمثَلِ مَنْ يَغْسلُ القَذَرَ علَى ثَوْبه ببوله، ومَثَلُ الصـَّلاة بلاَ زكَاة كَمثَلِ جُثَّة بلاَ روحٍ، ومَثَلُ العـالم بلا تَوْبَة كَمثَلِ البنَاء بلاَ أساس، ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

المَوْعظَةُ الحَاديَةُ وَالثَّلاثُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدمَ! بقَدْر ميْلكَ إلَى الدُّنْيَا ومَـحَبَّتي منْ قَلْبك، فَإنِّي لا أَجْمَعُ حُـبِّي وحُبَّ الدُّنْيـا في قَلْب واحـد أبدًا، يَابْـنَ آدمَ! تَورَّعْ تَعْـرفْني، وتَجـوَّعْ تَرني، وتَجـرَّدْ لعبَادَتي تَصلْ إلَيَّ، وأخْلصْ منَ الريَـاء عمَلَكَ، أُلْبسْكَ محَبَّتي، وتَفَـرَّغْ لذكْري، أذْكُرْكَ عنْدَ مَلائكَتي. يَابْنَ آدَم! في قَلْبكَ غَيْرُ الله، وتَرْجُو غَيْـرَ الله، إلَى مَتَى تَقولُ الله تَعَالَى وتَخافُ غَيْرَ الله؟ ولَوْ عرَفْتَ حَقـًّا لَمَا هَمَّكَ غَيْرُ الله، ولَمْ تَخَفْ إلاَّ الله، ولَمْ تَفْتُـرْ لسَانَكَ عَنْ ذكْر الله، فَإنَّ الاسْتيـصَال عَن الإصْرَار بتَوْبَة الكَاذبينَ. يَابْنَ آدَمَ! لَـوْ خفْتَ منَ النَّار كَمَا خفْـتَ منَ الفَقْر لأَغْنَيْـتُكَ منْ حَيْثُ لَمْ تَحْـتَسبْ. يَابْنَ آدم! ولَو رَغـبْتَ في الجَنَّة كَـمـا تَرْغَبُ في الدُّنْيـا، لأَسْعَدْتُـكَ في الدَّارَيْن، ولَوْ ذكَرْتُمُوني كَمـا يذْكُرُ بعْضُكُمْ بعْضـًا، لسَلَّمَتْ علَيْكُمُ المَلائكَةُ بُكْرَة وعشيـًّا، ولَو أَحْبَبْـتُمْ عبَادَتي كَمَا تُحبُّـونَ الدُّنْيَا لأكْرَمْتُكُمْ كرَامـةَ المُرْسَلينَ، فَلا تَمْلَئُوا قُلُوبكُمْ بحُبِّ الدُّنْيَا، فزَوالُهَا قَريبٌ».

المَوْعظَةُ الثَّانيَةُ وَالثَّلاثُونَ

يَقُولُ الله تَعَالَى: «صَبْرُكَ علَى قَليلٍ منَ المَعْصيَة أيْسَرُ عَلَيْكَ منْ صَبْركَ علَى كَثيرٍ منْ عذَاب جَـهنَّم، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥]. وصَـبْرُكَ علَى قَليلٍ منَ الطَّاعَـة يُعْقـبُكَ راحَةً طَويلَة فيهَـا نَعيمٌ مُقيمٌ. يَابْنَ آدم! علَـيْكَ بالثِّقَة بمَا ضَـمنْتُ لَكَ قَبْلَ أنْ أُطْعمَ رزْقَكَ لغَيْرك، وازْهَدْ في الدُّنْيـا منْ قَبْلِ أنْ أزْهَدَ فيكَ، وتَخَلَّصْ منَ الشُّبُـهَات قَبْلَ أنْ تَفْنَى حَسَنَاتُكَ يَوْمَ الحـسَاب، واعْمُرْ قَلْبَكَ بذكْر الآخـرَة، فَلَيْسَ لَكَ مَسْكَنٌ غَيْرُ الـقَبْر. يَابْنَ آدمَ! منِ اشْتَاقَ إلَى الجَنَّة سَارَعَ إلَى الخَيْـرَات، ومَنْ خَافَ النَّار كَفَّ عَن الشَّرِّ، ومَنْ نَهى نَفْسَه عنِ الشَّهوَات نَالَ الدَّرَجَـات العُلَى. ويَا مُوسَى بْنَ عمْرَانَ! إذَا أصَـابَتْكَ مُصيبَـةٌ وأنْتَ علَى غَيْرِ طَهَارة فَلاَ تَلُومنَّ إلاَّ نَفْسَكَ. يَامُوسَى! الفَقْرُ منَ الحَسَنَات هُوَ المَوْتُ الأكْـبَرُ. يَامُوسَى! مَنْ لَمْ يُشَاوِرْ نَدم، ومَن اسْتَخَارَ لا يَنْدَم».

المَوْعظَة الثَّالثَة وَالثَّلاثُون

يَقُولُ الله تَعَالَى عزَّ وجَلَّ: «مَنْ طَلَبَ السُّمْعَةَ بعَـمَله كَانَ كَمَنْ يَنْقُلُ المَاءَ علَى ظَهْره

إِلَى الجَبَل، يَنَالُهُ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ وَلا يُقْبَلُ مِنْ عَمَلِه شَيْءٌ، وَكُلَّمَا اتَّحَدَ بالمَاء لاَ يَلين. يَابْنَ آدَمَ! اعْلَمْ أَنِّى لَمْ أَقْبَلْ مِنَ الْعَمَلِ إلاَّ مَا كَانَ خَالصًا لوَجْهي، فَطوبَى للمُخْلصينَ! يَابْنَ آدَمَ! إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلاً فَقُلْ: مَرْحَبًا بشعَائر الصَّالحينَ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلاً فَقُلْ: ذُنُوبٌ عَجِّلَتْ عُقُوبَةً، وَإِذَا رَأَيْتَ الضَّيْفَ مَحْبُوسًا هُنَاكَ فَقُلْ: أَعُوذُ بالله منَ الشَّيْطَانِ الرَّجيم. يَابْنَ آدَمَ! المَالُ لى، وَأَنْتَ عَبْدى، وَالضَّيْفُ رَسُولى، أَمَا تَخْشَى أَنْ أَسْلُبَكَ نعْمَتى؟ الرِّزْقُ رزْقى، وَالشُّكْرُ لَكَ، وَنَفْعُهُ عَائدٌ عَلَيْكَ، أَفَلاَ تَحْمَدُنى عَلَى مَا أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ؟ يَابْنَ آدَمَ! ثَلاَثٌ وَاجِبَاتٌ عَلَيْكَ: زَكَاةُ مَالكَ، وَصلَةُ رَحمكَ، وَأَمْرُ عَائلَتكَ وَأَضْيَافكَ، فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ مَا أَوْجَبْتُهُ عَلَيْكَ، جَعَلْتُكَ نَكَالاً للْعَالَمينَ. يَابْنَ آدَمَ! إذَا لَمْ تَرْعَ حَقَّ جَارِكَ كَمَا تَرْعَى حَقَّ عيَالكَ، لَمْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ، وَلَمْ أَقْبَلْ عَمَلَكَ، وَلَمْ أَسْتَجبْ لدُعَائكَ. يَابْنَ آدَمَ! لا تَتَّكلْ عَلَى مَخْلُوق مثْلكَ فَأُتْكلُكَ إِلَيْه، وَلاَ تَتَكَبَّرْ عَلَى خَلْقى فَإِنَّ أَوَّلَكَ منْ نُطْفَة، وَإِنِّى أَخْرَجْتُهَا منْ مَخْرَجِ الْبَوْلِ، ﴿منْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧]. وَلاَ تَنْظُرْ إِلَى مَا حَرَّمْتُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الدُّودَ أَوَّلَ مَا يَأْكُلُ منْكَ عَيْنَيْكَ؛ وَاعْلَمْ أَنَّكَ مُحَاسَبٌ عَلَى النَّظْرَة وَالمحبَّة، وَاذْكُرْ مَقَامَكَ غَدًا بَيْنَ يَدَىَّ، فَإِنِّى لا أَغْفُلُ عَنْ سَرِيرَتكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ، إِنِّى عَليمٌ بذَات الصُّدُور».

المَوْعظَةُ الرَّابعَةُ وَالثَّلاثُونَ

يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: يَابْنَ آدَمَ! اخْدُمْنى، فَإِنى أُحبُّ مَنْ خَدَمَنى، وَأَسْتَخْدمُ لَهُ عبَادى، فَإِنَّكَ لا تَدْرى قَدْرَ ما عَصَيْتَنى فيمَا مَضَى مَنْ عُمْرِكَ، وَلا قَدْرَ مَا تَعْصيني فيمَا بَقىَ منْهُ؛ فَلا تَنْسَ ذكْرى، فَإنى فَعَّالٌ لمَا أُريدُ، وَاعْبُدْنى، فَإِنَّكَ عَبْدٌ ذَليلٌ وَأَنَا رَبٌّ جَليلٌ. لَوْ أَنَّ إخْوَانَكَ وَمُحبِّيكَ منْ بَنى آدَمَ وَجَدُوا رَائحةَ ذُنُوبكَ، وَاطَّلَعُوا منْكَ عَلَى ما أَعْلَمَه منْهَا، لمَا جَالَسُوكَ وَلاَ قَارَبُوكَ، فَكَيْفَ وَهىَ فى كُلِّ يَوْم زَائدَةٌ، وَعُمْرُكَ فى كُلِّ يَوْم فى نُقْصَانٍ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ! يَابْنَ آدَمَ! لَيْسَ مَن انْكَسَرَ مَرْكَبُهُ وَعَادَ عَلَى لَوْح منْ خَشَب، وَأَحاطَتْهُ الأَمْوَاجُ فى البحْرِ بأَعْظَمَ مُصيبَةً منْكَ؛ فَكُنْ منْ ذُنُوبكَ عَلَىٌّ وَحين وَمنْ عَمَلكَ عَلَى خَطَر. يَابْنَ آدَمَ! إِنِّى أَنْظُرُ إِلَيْكَ بالْعَافيَة، وَأَسْتُرُ عَلَيْكَ ذُنُوبَكَ، وَأَنَا غَنىٌّ عَنْكَ وَأَنْتَ إِلَىَّ بالمعَاصى مَعَ حَاجَتكَ إِلَىَّ. يَابْنَ آدَمَ! تُدَارى إلَى مَتَى؟ تَعْمُرُ الدُّنْيَا وَهىَ فَانيَةٌ وَتَخْربُ الآخرَةَ وَهى بَاقيَةٌ. يَابْنَ آدَمَ! تُدَارى خَلْقى وَتَخَافُهُمْ خَوْفًا منْ مَقْتهمْ. يَابْنَ آدَمَ! لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَوات وَالأَرْض اسْتَغْفَرُوا لَكَ لَكَانَ يَنْبَغى لَكَ أَنْ تَبْكى عَلَى ذُنُوبكَ، لأَنَّكَ لا تَدْرى عَلَى أَىِّ حَالٍ تَلْقَانى. يَاموسَى بْنَ عمْرَانَ! اسْمَعْ مَا أَقُولُ، وَالحَقَّ أَقُولُ: إِنَّهُ لا يُؤْمنُ بى عَبْدٌ منْ عبَادى حَتَّى يَأْمَنَ النَّاسُ منْ شَرِّه وَظُلْمه وَكَيْده وَنَميمَته وبَغْيه وَحَسَده. يَامُوسَى، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

المَوْعظَةُ الخَامسةُ وَالثَّلاثُونَ

يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: «يَابْنَ آدَمَ! إنَّكَ أَصْبَحْتَ بيْنَ نعْمَتَيْنِ، لا تَدْرِي أَيَّهُمَا أَعْظَمُ ضدَّكَ، أَذُنوبُكَ المَسْتُورةُ عن النَّاسِ أَمِ الثَّناءُ والحُسْنُ عَلَيْكَ وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا أَعْلَمُهُ، مَا سَلَّمُوا عَلَيْكَ، وأَعْظَمُ منْ ذَلكَ العَافيَةُ، وَغنَاكَ عَنْهُمْ، وحَاجَتُهُمْ إِلَيْكَ، وكَفُّ أَذَاهُم عَنْكَ. فَاحْمَدْنِي واعْرِفْ قَدْرَ نعْمَتِي عَلَيْكَ، وَأَخْلِصْ عَمَلَكَ منَ الرِّيَاءِ، وتَزَوَّدْ كَزَادِ المُسَافِرِ الخَائفِ، وَاجْعَلْ خَيْرَكَ تَحْتَ عَرْشِي. يَابْنَ آدَمَ! قُلُوبُكُمُ القَاسِيَةُ تَبْكِي منْ أَعْمَالكُمْ، وَأَعْمَالُكُمْ تَبْكِي منْ أَبْدَانكُمْ، وَأَبْدَانُكُمْ تَبْكِي منْ أَلْسنَتكُمْ، وَأَلْسنَتُكُمْ تَبْكِي منْ أَعْيُنكُمْ. يَابْنَ آدَمَ! خزَائنِي لاَ تَنْفَدُ أَبدًا، فَبقَدْرِ ما تُنْفقُ أُنْفقُ عَلَيْكَ، وَبقَدْرِ مَا تُمْسكُ أُمْسكُ عَلَيْكَ، وَإِنَّمَا بُخْلُكَ عَلَى المَسَاكينِ بمَا رَزَقْتُكَ لسُوءِ ظَنِّكَ وَخَوْفكَ الفَقْرَ، وَعَدَمِ ثقَتكَ فِيَّ، لأَنِّي جَعَلْتُ أَصْلَ خلْقَتكَ الاهْتمَامَ بالرِّزْقِ، فَإِذَا اهْتَمَمْتَ بالرِّزْقِ ورَزَقْتُكَ، فَأَنفقْ وَلا تَبْخَلْ برزْقِي عَلَى عبَادِي، فَقَدْ ضَمنْتُ لَكَ الخَلَفَ، ووَعَدْتُكَ الأَجْرَ، فَلمَ تَشُكُّ فِي كتَابِي؟ وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بوَعْدِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بأَنْبيَائِي، فَقَدْ جَحَدَ رُبُوبيَّتِي، وَمَنْ جحَدَ ربوبيَّتِي كَبَبْتُهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهه».

المَوْعظَةُ السَّادسَةُ وَالثَّلاثُونَ

قَالَ الله تَعَالَى: «يَابْنَ آدَمَ! أَنَا الله لا إله إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِي وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ. يَابْنَ آدَمَ! مَنْ عَادَى لِي وَليًّا، فَقَدْ بَارزَنِي بالمُحَارَبَة. وَاشْتَدَّ غَضَبِي عَلَى مَنْ ظَلَمَ منْ لَيْسَ لَهُ نَاصرٌ غَيْرِي؛ مَنْ رَضِيَ بمَا قَسَمْتُ لَهُ، بَارَكْتُ لَهُ فِي رزْقه، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا رَاغمَةً وَإِنْ كَانَ لا يُريدُهَا».

المَوْعظَةُ السَّابعَةُ وَالثَّلاثُونَ

يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: «يَابْنَ آدَمَ! ضَعْ يَدَكَ عَلَى صَدْرِكَ فَمَا أَحْبَبْتَهُ لنَفْسكَ، فَأَحبَّهُ لغَيْركَ. يَابْنَ آدمَ! جَسَدُكَ ضَعيفٌ، ولسَانُكَ خَفيفٌ وَقَلْبُكَ جَبَّارٌ. يَابْنَ آدَمَ! غَايَتُكَ المَوتُ، فَاعْمَلْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتيَكَ. يَابْنَ آدمَ! لَمْ أَخْلُقْ عُضْوًا منْ أَعْضَائكَ حَتَّى خَلَقْتُ لَهُ رزْقًا. يَابْنَ آدمَ! لَوْ خَلَقْتُكَ أَبْكَمَ لَتَحَسَّرْتَ عَلَى البَصَرِ، وَلَوْ خَلَقْتُكَ أَصَمَّ لَتَحَسَّرْتَ عَلَى السَّمْعِ؛ فَاعْرِفْ قَدْرَ نعْمَتِي عَلَيْكَ، وَاشْكُرْ لِي وَلاَ تَكْفُرْنِي. فَإِلَيَّ المَصيرُ. يَابْنَ آدمَ! مَا قَسَمْتُهُ لَكَ فَلا تَتْعَبْ فِي طَلَبه، وَكُلُّ مَا قَسَمْتُهُ لَكَ فَهُوَ يَطْلُبُكَ حَتَّى تَسْتَوْفيَهُ. يَابْنَ آدمَ! لا تَحْلفْ بِي كَاذبًا. فَمَنْ حَلَفَ بِي كَاذبًا أَدْخَلْتُهُ النَّارَ. يَابْنَ آدمَ! إِذَا أَكَلْتَ رزْقِي، فَاتَّبعْ طَاعَتِي. يَابْنَ آدمَ! لا

تُطَالِبْنِي برزْق غَد، فَإِنِّي لا أُطَالِبُكَ بعَمَلِ غَد. يَابْنَ آدَمَ! لَوْ تَرَكْتَ الدُّنْيَا لأحَدٍ منْ عِبَادي، لتَرَكْتُهَا عَلَى أَنْبِيَائي حَتَّى يَدْعُوا عِبَادي إلَىَّ طَاعَتي، وَإلَى إقامَةِ أَمْري. يَابْنَ آدمَ! اعْمَلْ لنفْسكَ قَبْلَ نُزُولِ المَوْت بكَ، وَلا تَغُرَّنَّكَ الخَطِيئَةُ، فَإن عَلَى آثَارِهَا السَّقَرَ، وَلاَ تُلْهكَ الحَيَاةُ وَطُولُ الأَمَلِ عَنِ التَّوْبَةِ، فَإنَّكَ تَنْدَمُ عَلَى تأخيرهَا حينَ لا يَنْفَعُكَ النَّدَمُ يَابْنَ آدَمَ! إذَا لَمْ تُخْرجْ حَقِّي منَ المَال الَّذي رَزَقْتُكَ إيَّاهُ، وَمَنَعْتَ منْهُ الفُقَرَاءَ، حُقُوقَهُمْ، سُلِّطَ عَلَيْكَ جَبَّارٌ يَأْخُذُهُ منْكَ، وَلاَ أُثيبُكَ عَلَيْه. يَابْنَ آدَمَ! إنْ أَرَدْتَ رَحْمَتي فَالْزَمْ طَاعتي، وَإنْ خَشيتَ عَذَابي فَاحْذَرْ منْ مَعْصيَتي. يَابْنَ آدمَ! رَضيتُ منْكَ بالْعَمَلِ القَلِيلِ، وَأَنْتَ لاَ تَرْضَى بالرِّزْقِ الْكَثير. يَابْنَ آدَمَ! إذَا كَسَبْتَ المَالَ فَاذْكُر الحسَابَ، وَإذَا جَلَسْتَ عَلَى الطَّعَام فَاذْكُر الجَائعَ، وَإذَا دَعَتْكَ نَفْسُكَ عَلَى القُدْرَة عَلَى الضَّعيف فَاذْكُرْ قُدْرَةَ الله عَلَيْكَ، وَلَوْ شَاءَ لَسَلَّطَهُ، وَإذَا نَزَلَ بكَ بَلاءٌ فَاسْتَعنْ بلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله الْعَليِّ العَظيم، وَإذَا مَرضْتَ فَعَالجْ نَفْسَكَ بالصَّدَقة، وَإذَا أَصَابَتْكَ مُصيبَةٌ فَقُلْ: إنَّا لله وَإنَّا إلَيْه رَاجعُونَ».

المَوْعِظَةُ الثَّامنَةُ وَالثَّلاثُونَ

يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: «يَابْنَ آدَمَ! افْعَلِ الخَيْرَ، فَإنَّهُ مفْتَاحُ الجَنَّة وَيَقُودُ إلَيْهَا، وَاجْتَنب الشَّرَّ فَإنَّهُ مفْتَاحُ النَّار وَيَقُودُ إلَيْهَا. يَابْنَ آدَمَ! اعْلَمْ أَنَّ الَّذي تَبْنيه للْخَرَاب، وَأَنَّ عُمْرَكَ للْخَرَاب وَجَسَدَكَ للتُّرَاب، وَمَا جَمَعْتَهُ للْوَرَثَة؛ فَالنَّعيمُ لغَيْركَ، وَالحسَابُ عَلَيْكَ، وَالعقَابُ لَكَ وَالنَّدمُ، وَالصَّاحبُ لَكَ فى القَبْر العَمَلُ؛ فَحَاسبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَن تُحَاسَبَ، وَالْزَمْ طَاعَتي، وَاحْذَرْ مَعْصيَتي، وَارْضَ بمَا آتَيْتُكَ، وَكُنْ منَ الشَّاكرينَ. يَابْنَ آدَمَ! مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَهُوَ ضَاحكٌ، أَدْخَلْتُهُ النَّارَ وَهُوَ بَاك، وَمَنْ جَلَسَ بَاكيًا منْ خَشْيَتي أَدْخَلْتُهُ الجَنَّةَ وَهُوَ ضَاحكٌ. يَابْنَ آدَمَ! كَمْ منْ غَنيٍّ يَتَمَنَّى الفَقْرَ يَوْمَ حسَابه، وَكَمْ منْ جَبَّارٍ أَذَلَّهُ المَوْتُ، وَكَمْ منْ حُلْوٍ مَرَّرَهُ المَوْتُ، وَكَمْ منْ مَسْرُورٍ بنعْمَته كَدَّرَهَا عَلَيْه المَوْتُ، وَكَمْ منْ فَرْحَة أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَويلاً. يَابْنَ آدَمَ! لَوْ تَعْلَمُ الْبَهَائمُ مَا تَعْلَمُونَ منَ المَوْت، لامْتَنَعَتْ منَ الأَكْلِ وَالشُّرْب حَتَّى تَمُوتَ جُوعًا وَعَطَشًا. يَابْنَ آدمَ! لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ عَلَيْكَ إلاَّ المَوْتُ وَشدَّتُه لَكَانَ يَجبُ عَلَيْكَ أَنْ لا تَهْدَأَ باللَّيْل، وَلاَ تَقَرَّ بالنَّهَار، فَكَيْفَ وَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ منْهُ؟ يَابْنَ آدمَ! اجْعَلْ سرَّهُ وَرَاءَكَ بمَا تَنَالُهُ منَ النِّعَم فى آخرَتكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ منْهَا خَيْرَات، وَمَا آتيكَ منْ دُنْيَاكَ فَلاَ تَفْرَحْ به، وَمَا فَاتَكَ منْهَا فَلا تَأْسَ عَلَيْه. يَابْنَ آدَمَ! منَ التُّرَاب خَلَقْتُكَ، وَإلَى التُّرَاب أُعيدُكَ، وَمنَ التُّرَاب أَبْعَثُكَ، فَوَدِّع الدُّنْيَا وَتَهَيَّأْ للْمَوت، وَاعْلَمْ أَنِّي إذَا أَحْبَبْتُ عَبْدًا زَوَيْتُ عَنْهُ الدُّنْيَا وَاسْتَعْمَلْتُهُ للآخرَة، وَأَرَيْتُهُ عُيُوبَ الدُّنْيَا فَيَحْذَرُهَا، وَيَعْمَل بعَمَلِ الجَنَّة فَأُدْخلُهُ الجَنَّةَ برَحْمَتي؛ وَإذَا بَغَضْتُ عَبْدًا أَشْغَلْتُهُ عَنّي بالدُّنْيَا وَاسْتَعْمَلْتُهُ بعَمَلهَا، فَيَكُونَ منْ أَهْل النَّار فَأُدْخلُهُ النَّارَ.

يَابْنَ آدَمَ! كُلُ عُمْر فَـان وإنْ طَالَ، وَالدنْيَا كَفَىْء الظِّلاَل، [يَمْكُثُ] قَليلاً ثُمَّ يَذْهَبُ فَلاَ يَعُودُ إلَيكَ. يَابْنَ آدمَ! أنَا الَّذي خَلَقْتُكَ، وأَنَا الَّذى رزَقْتُكَ، وأَنَا الَّذى أَحْيَيْتُكَ، وأَنَا الَّذى أُميتُكَ، وَأَنَا الَّذِى أَبْعَثُكَ، وأَنَا الَّذى أحَاسبُكَ، فَإنْ عَملْتَ شَرًّا رَأَيْتَه، مَعَ أَنَّكَ لا تَمْلكُ لنَفْسكَ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ولاَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً ولا نُشُورًا. يَابْنَ آدَمَ! أَطعْنى واخْدمنى ولاَ تَهْتَمَّ بالرِّزق، فَقَدْ كَفَيْتُكَ أَمْرَهُ، ولاَ تحملْ همَّ شَىْء قَدْ كفيتهُ. يَابْنَ آدَمَ! كَيْف تَحْمَلُ أَمْرَ شَىْء لَمْ يُقَدَّرْ لَكَ وَلَمْ تدْركْهُ، كَمَا أَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ ثَوابَ عَملٍ لَمْ تَعْمَلْهُ. يَابْنَ آدَمَ! مَنْ كَانَ سَبيلَهُ المَوْتُ فَكَيْفَ يَفْرَحُ بالدُّنْيَا؟ وَمَنْ كَانَ بَيْتَهُ القَبْرُ فَكَيْفَ يُسرُّ فـى بَيْته فى دارالدُّنْيَا؟ يَابْنَ آدَمَ! رِزْقٌ قَليلٌ وَأَنْتَ شَاكرٌ خَيْرٌ منْ كَثير [وَأَنْتَ] غَيْرُ شَاكر. يَابْنَ آدَمَ! خَيْرُ مَالكَ ما قَدَّمْتَهُ، وشرُّ مَالكَ ما خَلَّفْتَهُ فى الدُّنْيَا، فَقَدِّمْ لنَفْسكَ خَيْرًا تَجدْهُ عنْدى قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَكَ المَوْتُ. يَابْنَ آدَمَ! مَنْ كَانَ مَهْمُومًا، فَأَنَا الَّذى فَرَّجْتُ هَمَّهُ، وَمَنْ كَانَ مُسْتَغْفرًا، فَأَنَا الَّذى أَغْفرُ لَهُ، وَمَنْ كَانَ تَائبًا، فَأَنَا الَّذى نَهيْتُهُ، وَمَنْ كَانَ عَاريًا، فَأَنَا الَّذى كَسَوْتُهُ، وَمَنْ كَانَ خَائفًا، فَأَنَا الَّذى أَمَّنْ خَوْفَهُ، وَمَنْ كَانَ جَائعًا، فَأَنَا الَّذى أَشْبَعَهُ، وَإِذَا كَانَ عَبْدى عَلَى طَاعَتى وَأَرْضَى أَمْرى، يَسَّرْتُ لَهُ أَمْرَهُ وَشَدَدْتُ أَزْرَهُ، وَشَرَحْتُ صَدْرَهُ. يَامُوسَى! مَن اسْتَغْنَى بِأَمْوَال الفُقَرَاء وَالْيَتَامَى أَفْقَرْتُهُ فى الدُّنْيَا وَعَذَّبْتُهُ فى الآخرَة، وَمَنْ تَجبَّرَ عَلَى الفُقَرَاء وَالضُّعَفَاء أَعْقَبْتُ بنَاءَهُ الخَرَابَ، وَأَسكَنْتُهُ النَّارَ. ﴿إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]».

بسم الله الرحمن الرحيم

قانون التأويل

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد: فقد سئل الإمام الزاهد أبو حامد محمد بن محمد [بن محمد] الغزالى الطوسى رحمة الله عن بيان معنى قول رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم**»، هل هو ممازجة كالماء بالماء، أم هو مثل الإحاطة بالعود؟ وهل هو مباشرته للقلوب بتخايل من خارج تنقلها القلوب إلى الحواس فتثبت فيها فيكون منها الوسواس، أم يباشر جوهره جوهر القلوب؟ وهل يمكن جمع بين ما رسمته النبوة من هذا الوصف، ومثله فى ترائى الجن لبنى آدم فى صور الحيوانات، وفى أشكال سواها مختلفة، كترائى الملائكة عليهم الصلاة والسلام للأنبياء فى صور بنى آدم؟ أم صورتهم على تلك الأمثلة فينكشف الغطاء عنها لمن قدر له رؤيتها، ثم يحدث فيها كثافة جسمانية كما أحدث فى الملائكة؟

وهل من سبيل إلى الجمع بين هذا القول من الشرع فى الجن والشياطين، وبين قول الفلاسفة إنها أمثلة وعبارة عن الأخلاط الأربعة التى فى داخل الأجسام لتدبيرها، أم لا؟

وما يظهر من المصروعين هل هو كلام الجنى الذى يصرعه، أم هو لسان المصروع ببرسام يعتريه من شدة ما يناله منه؟

وكيف إخبارهم بالغوائب التى فى القوى ولم تخرج بعد إلى الفعل؟ والطبيعيون يقولون فى ذلك ما تعلمه من ثوران خلط السوداء وغلبته فيكون منه ذلك ويسمونهم بخلط الريح، وهل بينهما علة جامعة أم لا؟

وكيف المثل الذى أخبر به النبى ﷺ فى إدبار الشيطان عند الأذان وله حصاص؛ هل أريد بذلك المثل كما تقول العرب: مضرط الحجارة، وفلان يحدث من الشدة، أم يتصور فى ذلك الوقت جسم يكون عنه الحصاص؟ فإن الشيطان بسيط على علمه لا يتغذى، فكيف يكون منه ما يكون من التغذى؟ وكيف يكون أيضًا الروث والعظم لهم غذاء وقد يكون بالشم، والبسيط لا تصح فيه الحواس المركبة؟

وكيف يكون الحقيقة فى البرزخ؟ وهل أهله من قبيل أهل الجنة، أم من قبيل أهل النار؟ فليس هناك منزلة تتصور إلا فى الجنة والنار، وإن قيل إنه الفصل المشترك المعبر عنه بالسور الذى له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، هل هو صحيح، أم هو غيره؟

ومن المستوجب للبرزخ؟ فإن من رجع ميزانه صار إلى الجنة ومن خف ميزانه صار إلى النار، ومن استوى ميزانه كان فى المشيئة. فهل هو عبارة عن التوقيف إلى أن تنفذ له الكرامة، أو غلبته الشقاوة؟

والملائكة هل هم من المنعمين مع بنى آدم فى الجنة أم فى غيرها؟ وهل هم المعبر عنهم بالولدان أم الولدان صنف رابع غير الملائكة، وبنى آدم والجن والحور العين نوع خامس، أم كيف هم، وما صفتهم؟

وقد أفصح الكتاب أن عرض الجنة كعرض السماء والأرض، وفى هذا أيضًا ما يحتاج إلى النظر أن يكون السماء لها وعاء وظرف، ويزيد عرضها على عرضها.

وحوض رسول الله ﷺ هل هو الفوز فى أرض الموقف أم فى الجنة؟ والذى يظهر من الحديث أن من سبق له الفوز من النار شرب منه فى شدائد الموقف قبل الفصل، وقبل الشفاعة؛ وهل ماؤه من الجنة أو غيرها؟ ولا يصح أن يكون من غيرها لقوله ﷺ: «**من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا**» وهل يكون شىء من الجنة فى الأرض؟ وهل لجميع الأنبياء عليهم السلام حياض، أم هو من خصائص نبينا عليه السلام مع الشفاعة؟

فلينعم بالجواب المشروح عن هذه الأسئلة بطريق اللاستيفاء، مثابًا متطولاً إن شاء الله تعالى.

فقال مجيبًا عنها:

أسئلة أكره الخوض فيها والجواب، لأسباب عدة؛ لكن إذا تكررت المراجعة أذكر قانونًا كليًّا ينتفع به فى هذا النمط وأقول:

بين المعقول والمنقول تصادم فى أول النظر وظاهر الفكر؛ والخائضون فيه تحزبوا إلى مفرط بتجريد النظر إلى المنقول، وإلى مفرط بتجريد النظر إلى المعقول، وإلى متوسط طمع فى الجمع والتلفيق.

والمتوسطون انقسموا إلى من جعل المعقول أصلاً، والمنقول تابعًا، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل المنقول أصلاً، والمعقول تابعًا، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل كل واحد أصلاً ويسعى فى التألف والتوفيق بينهما. فهم إذن خمس فرق:

الفرقة الأولى: هم الذين جردوا النظر إلى المنقول، وهم الواقفون على المنزل الأول من منازل الطريق القانعون بما سبق إلى أفهامهم من ظاهر المسموع؛ فهؤلاء صدقوا بما جاء به النقل تفصيلاً وتأصيلاً، وإذا شوفهوا بإظهار تناقض فى ظاهر المنقول وكلفوا تأويلاً امتنعوا وقالوا: إن الله قادر على كل شئ. فإذا قيل لهم مثلاً: كيف يرى شخص الشيطان فى حالة واحدة فى مكانين، وعلى صورتين مختلفتين؟ قالوا: إن ذلك ليس عجبًا فى قدرة الله، فإن الله قادر على كل شئ. وربما لم يتحاشوا أن يقولوا: إن كون الشخص الواحد فى مكانين فى حالة واحدة مقدور لله تعالى.

والفرقة الثانية: تباعدوا عن هؤلاء إلى الطرف الأقصى المقابل لهم، وجردوا النظر إلى المعقول، ولم يكترثوا بالنقل، فإن سمعوا فى الشرع ما يوافقهم قبلوه، وإن سمعوا ما يخالف عقولهم زعموا أن ذلك صوره الأنبياء، وأنه يجب عليهم النزول إلى حد العوام، وربما يحتاج أن يذكر الشئ على خلاف ما هو عليه. فكل ما لم يوافق عقولهم حملوه على هذا المحمل. فهؤلاء غلوا فى المعقول حتى كفروا، إذ نسبوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الكذب لأجل المصلحة.

ولا خلاف بين الأمة أن من جوز ذلك على الأنبياء صلوات الله عليهم يجب حزُّ رقبته. وأما الأولون فإنهم قصروا طلبًا للسلامة من خطر التأويل والبحث، فنزلوا بساحة الجهل، واطمأنوا بها. إلا أن حال هؤلاء أقرب من حال أولئك، فإن تخلص هؤلاء عن المضايق بقولهم: إن الله على كل شيء قدير، ونحن لا نقف على كنه عجائب أمر الله؛ ومخلص أولئك بأن قالوا: إن النبى إنما ذكر ما ذكره على خلاف ما علمه للمصلحة. ولا يخفى ما بين المخلصين من الفرق فى الخطر والسلامة.

والفرقة الثالثة: جعلوا المعقول أصلاً، فطال بحثهم عنه وضعف عنايتهم بالمنقول، فلم تجتمع عندهم الظواهر المتعارضة المتصادمة فى بادئ الرأى، وأول الفكر المخالفة للمعقول، فلم يقعوا فى غمرة الإشكال؛ لكن ما سمعوه من الظواهر المخالفة للمعقول جحدوه وأنكروه وكذبوا راويه، إلا ما يتواتر عندهم كالقرآن، أو ما قرب تأويله من ألفاظ الحديث؛ وما شق عليهم تأويله جحدوه حذرًا من الإبعاد فى التأويل، فرأوا التوقف عن القبول أولى من الإبعاد فى التأويل. ولا يخفى ما فى هذا الرأى من الخطر فى رد الأحاديث الصحيحة المنقولة عن الثقات الذين بهم وصل الشرع إلينا.

والفرقة الرابعة: جعلوا النقول أصلاً، وطالت ممارستهم له فاجتمع عندهم الظواهر الكثيرة، وتطرفوا من المعقول ولم يغوصوا فيه، فظهر لهم التصادم بين المنقول والظواهر فى بعض أطراف المعقولات. ولكن لما لم يكثر خوضهم فى المعقول، ولم يغوصوا فيه، لم يتبين عندهم المحالات العقلية؛ لأن المحالات بعضها يدرك بدقيق النظر وطويله الذى ينبنى على مقدمات كثيرة متوالية، ثم انضاف إليه أمر آخر وهو: أن كل ما لم يعم استحالته حكموا بإمكانه. ولم يعلموا الأقسام ثلاثة: قسم علم استحالته بالدليل، وقسم علم إمكانه بالدليل، وقسم لم يعلم استحالته ولا إمكانه. وهذا القسم الثالث جرت عادتهم بالحكم بإمكانه؛ إذ لم يظهر لهم استحالته؛ وهذا خطأ، كمن يحكم باستحالته إذا لم يظهر إمكانه؛ بل من الأقسام ما لم يعلم إمكانه ولا استحالته، إما لأنه موقف العقل وليس فى القوة البشرية الإحاطة به، وإما لقصور هذا الناظر خاصة وعدم عثوره على دليله بنفسه وفقده لمن ينبهه عليه.

ومثال الأول من حس البصر: قصور الحس البصرى عن أن يعرف عدد الكواكب أنه زوج أو فرد، وأن يدرك عظم الكواكب مع بعدها على ما هى عليه.

ومثال الثانى، وهو القصور الخاص: قصور حس بعض الناس عن أن يدرك منازل القمر، وظهور أربع عشرة منها فى كل حال، وخفاء أربع عشرة مقابل درج المنازل فى الغروب والشروق، وغير ذلك مما وقف عليه بعض الناس بحس البصر دون بعض. كذلك يتطرق إلى إدراك العقل مثل هذا النوع من التفاوت.

وهؤلاء لما قل خوضهم فى المعقولات لم يكثر عندهم المحالات، فكفوا مؤونة عظيمة فى أكثر التأويلات، إذ لم ينتبهوا للحاجة إلى التأويل كالذى لم يظهر له أن كون الله بجهة محال، إذ استغنى عن تأويل الفوق والاستواء وكل ما يشير إلى الجهة.

والفرقة الخامسة: هى الفرقة المتوسطة الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول، الجاعلة كل واحد منهما أصلاً مهمًا، المنكرة لتعارض العقل والشرع وكونه حقًا؛ ومن كذب العقل فقد كذب الشرع، إذ بالعقل عرف صدق الشرع؛ ولولا صدق دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبى والمتنبى، والصادق والكاذب؛ وكيف يكذب العقل بالشرع، وما ثبت الشرع إلا بالعقل.

وهؤلاء هم الفرقة المحقة. وقد نهجوا منهجًا قويمًا؛ إلا أنهم ارتقوا مرتقى صعبًا، وطلبوا مطلبًا عظيمًا، وسلكوا سبيلاً شاقًا؛ فلقد تشوفوا إلى مطمع ما أعصاه، وانتهجوا مسلكًا ما أوعره. ولعمرى إن ذلك سهل يسير فى بعض الأمور، ولكن شاق عسير فى الأكثر.

نعم، من طالت ممارسته للعلوم، وكثر خوضه فيها، يقدر على التلفيق بين المعقول والمنقول فى الأكثر بتأويلات قريبة، ويبقى لا محالة عليه موضعان: موضع يضطر فيه

إلى تأويلات بعيدة تكاد تنبو الأفهام عنها، وموضع آخر لا يتبين له فيه وجه التأويل أصلاً، فيكون ذلك مشكلاً عليه من جنس الحروف المذكورة فى أول السور إذا لم يصح فيها معنى بالنقل. ومن ظن أنه سلم عن هذين الأمرين فهو إما لقصوره فى المعقول وتباعده عن معرفة المحالات النظرية، فيرى ما لا يعرف استحالته ممكنًا؛ وإما لقصوره عن مطالعة الأخبار ليجتمع له من مفرداتها ما يكثر مباينتها للمعقول. فالذى أوصيه به ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يطمع فى الاطلاع على جميع ذلك؛ وإلى هذا الغرض كنت أسوق الكلام، فإن ذلك فى غير مطمع، وليتلُ قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولا ينبغى أن يستعبد استتار بعض هذه الأمور على أكابر العلماء فضلاً عن المتوسطين. وليعلم أن العالم الذى يدعى الاطلاع على مراد النبى ﷺ فى جميع ذلك فدعواه لقصور عقله لا لوفوره.

والوصية الثانية: أن لا يكذب برهان العقل أصلاً، فإن العقل لا يكذب، ولو كذب العقل فلعله كذب فى إثبات الشرع، إذ به عرفنا الشرع. فكيف يعرف صدق الشاهد بتزكية المزكى الكاذب، والشرع شاهد بالتفاصيل، والعقل مزكى الشرع؟

وإذا لم يكن بد من تصديق العقل لم يمكنك أن تتمارى فى نفى الجهة عن الله، ونفى الصورة. وإذا قيل لك «إن الأعمال توزن» علمت أن الأعمال عرض لا يوزن فلا بد من تأويل. وإذا سمعت «أن الموت يؤتى به فى صورة كبش أملح فيذبح» علمت أنه مؤول؛ إذ الموت عرض لايؤتى به، إذ الإتيان انتقال ولا يجوز على العرض. ولا يكون له صورة كصورة كبش أملح؛ إذ الأعراض لا تنقلب أجسامًا. ولا يذبح الموت؛ إذ الذبح فصل الرقبة عن البدن، والموت ماله رقبة ولا بدن، فإنه عرض أو عدم عند من يرى أنه عدم الحياة. فإذًا لا بد من التأويل.

والوصية الثالثة: أن يكف عن تعيين التأويل عند تعارض الاحتمالات، فإن الحكم على مراد الله سبحانه، ومراد رسول ﷺ بالظن والتخمين خطر، فإنما تعلم مراد المتكلم بإظهار مراده، فإذا لم يظهر فمن أين تعلم مراده إلا أن تنحصر وجوه الاحتمالات ويبطل الجميع إلا واحدًا فيتعين الواحد بالبرهان.

ولكن وجوه الاحتمالات فى كلام العرب وطرق التوسع فيها كثير، فمتى ينحصر ذلك فالتوقف فى التأويل أسلم؛ مثاله: إذا بان لك أن الأعمال لا توزن، وورد الحديث بوزن الأعمال، ومعك لفظ الوزن، ولفظ العمل، وأمكن أن المجاز لفظ العمل، وقد كنى به عن صحيفة العمل التى هى محله حتى توزن صحائف الأعمال، واحتمل أن يكون المجاز هو لفظ الوزن، وقد كنى به عن ثمرته وهو تعريف مقدار العمل إذ هو فائدة الوزن،

والوزن والكيل أحد طرق التعريف؛ فحكمك الآن بأن المؤول لفظ العمل دون الوزن، أو الوزن دون العمل، من غير استرواح فيه إلى عقل أو نقل حكم على الله مراده بالتخمين.

والتخمين والظن جهل، وقد رخص فيه لضرورة العبادات والأعمال والتعبدات التى تدرك بالاجتهاد. وما لا يرتبط به عمل إنما هو من قبيل العلوم المجردة والاعتقادات، فمن أين يتجاسر فيها على الحكم بالظن؟ وأكثر ما قيل فى التأويلات ظنون وتخمينات، والعقل فيه بين أن يحكم بالظن، وبين أن يقول: أعلم أن ظاهره غير مراد؛ إذ فيه تكذيب للعقل، وأما عين المراد فلا أدرى ولا حاجة إلى أن أدرى؛ إذ لا يتعلق به عمل ولا سبيل فيه إلى حقيقة الكشف واليقين؛ ولست أرى أن أحكم بالتخمين.

وهذا أصوب وأسلم عند كل عاقل، وأقرب إلى الأمن فى القيامة؛ إذ لا يبعد أن يسأل فى القيامة ويطالب ويقال: حكمت علينا بالظن، ولا يقال له لم لم تستنبط مرادنا الخفى الغامض الذى لم يؤمر فيه بعمل؟ وليس عليك فيه من الاعتقاد إلا الإيمان المطلق، والتصديق المجمل، وهو أن تقول: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

فهذه المطالبة فى القيامة بعيدة، وإن كانت فالجواب عنها أسهل؛ ولأجله قال الإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

وبهذه الوصايا يستبين عذرى فى كراهيتى للجواب عن مثل هذه الأسئلة؛ لكن مع هذا أوثر مساعدته فى بعض ما أورده فأقول:

أما قوله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِى مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**» فإشارة إلى سريان أثره فى جميع باطن الإنسان كما تجرى أجزاء الدم وتسرى فى جميع باطنه، وليس المراد أن جسمه يمازج الإنسان ممازجة الماء للماء؛ وهذا قول عن تحقيق يطول شرح مقدماته وأدلتها عقلية. وأما كيفية مباشرته للقلوب فليس بتخايل يظهره الحس، فإنى أصادف الوساوس فى قلبى، ولست أتخيل شيئًا ولا أشاهده بعينى عند اختلاج الوساوس. وهذا الحكم مقدمات دليله أكثرها حسية، بل الوسواس من الشيطان كالإلهام من الملك. ونحن نصادف فى قلوبنا خواطر مختلفة، إذ يدعو بعضها إلى اتباع الهوى، وبعضها إلى مخالفته؛ وهذه خواطر مختلفة بدليل اختلاف مقتضياتها. وهى مفترقة إلى أسباب لأنها حادثة، والمختلفات أسبابها مختلفة، فسمى الشرع السبب الذى يحصل منه إلهام ملكًا، والذى منه يحصل الوسواس شيطانًا. والإلهام عبارة عن الخاطر الباعث على الخير، والوسواس عبارة عن الباعث عن الشر، والملك والشيطان عبارة عن أسبابهما. وكما أن النار يستنير بها جوانب البيت ويسود بها أيضًا سقفه، فنعلم أن النور يخالط السواد، ونعلم أن سببه مخالط لسببه، وأن سبب

النور ضوء النار، وسبب السواد دخانه، فبذلك يعلم أن سبب الوسواس غير سبب الإلهام؛ نعم، يبقى النظر في أن ذلك السبب عَرَضٌ أو جوهر قائم بنفسه؛ وقد ظهر أنه ليس بعرض بل هو جوهر، فبقى النظر فى أنه حى أو ليس بحى، وظهر أيضًا أنه حى بأدلة شرعية، وللعقل أيضًا فيه مدخل ما.

فأما قول الفلاسفة والطبيعيين إنه الأخلاط فهو جهل محض، لأن تأثير الأخلاط لا يعدو مقتضى الطبائع الأربع من الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة. والخواطر، والاعتقادات، والعلوم لا يجوز إن تكون من آثار الطبائع التى هى أعراض جمادات، بل هى نازلة من فوق الأرضيات بالرتبة؛ فينتج أنه جوهر غير متحيز، أو هو جسم متحيز، ويمنع أن يوجد غيره بحيث هو لطيف كالهواء، وكثيف كجسم آخر. وهذا النظر فى الملك والجن، والشيطان؛ فذهبت طائفة إلى أن كل ما هو قائم بنفسه جسم، ووصفوا به الخالق، تعالى الله عن قولهم، إذ لم يعقلوا إلا جسمًا.

وقالت طائفة: كل قائم بنفسه جسم إلا الله تعالى، وأحالوا أن يكون فى الوجود سواه جوهر قائم بنفسه لا يتخيل.

وقال قوم: إنَّ الملك والجن والشيطان، كل هؤلاء جواهر حسية قائمة بنفسها وليست بأجسام ولا متحركات؛ وإنما استعمال النزول والانتقال والمجئ والذهاب عليها استعارة كما فى حق الله؛ بل ثار هذا الخلاف بينهم أيضًا فى الجوهر العالم المدرك من الإنسان، فقال قوم: هو جزء لا يتجزأ ولا يتحيز. فلا هو داخل البدن، ولا هو خارجه، ولا هو متصل، ولا هو منفصل؛ بل لا يجوز عليه هذه الصفات. ولست أذكر ما انكشف لى فيه، فإن الصورة المجملة لا تفيد كشفًا بل تقليدًا؛ ولست بالتقليد أولى من غيرى؛ ولا منفعة فى التقليد فى المعقولات. وأما كشفه ففيه طول، ولو لم يطل أيضًا لكان الاقتداء برسول الله ﷺ فى الكف عن ذكره أولى، وأنه لم يذكر سر الروح وهذا بحث عنه، فلا ينبغى أن يزاد عليه فى الإيضاح.

وأما ما شاهده الأنبياء والأولياء من صورة الملائكة والشياطين فهى فى الأكثر أمثلة تنافى معانيها وتقوم مقام مشاهدة عين المعانى، كما يرى الأنبياء فى المنام ويستفاد منهم؛ وإنما المشاهد فى المنام مثلهم، فأما أشخاصهم فلم تنتقل عن مواضعهم، فذكرت تفصيل ذلك فى كتاب «عجائب القلب». وكذلك القول فى الجن؛ ولذلك ترى صورًا مختلفة، إذ التمثيلات لا تنحصر وجوهها، كما أن من يرى النبى ﷺ لا يراه على صورة واحدة. إلا أن هذه التمثيلات تكون للأنبياء والأولياء فى اليقظة، ولغيرهم تكون فى المنام فقط. وفى الصحيح أن النبى ﷺ لم ير جبريل على صورته إلا مرتين مع كثرة رؤيته له فى كل حين.

وأما الكلام المسموع من المصروع فهو كلامه، وقوله القائل تكلم الجنى بلسانه كلام غير معقول. نعم، الجن سبب لوقوع خواطر وتمثيلات وخيالات فى قلبه، تنبعث بسببه داعية الكلام والحركة؛ وكلامه مثل كلام النائم، والنائم هو المتكلم لا غيره. وأما إخبار المصروع بالغيب فسببه أن جميع ما كان وما يكون مسطور ثابت فى شيء خلقه الله، تارة يسمى لوحًا، وتارة إمامًا، وتارة كتابًا، كما قال الله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩، يونس: ٦١، هود: ٦، النمل: ٧٥، سبأ: ٣]. ﴿فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وثبوت الأشياء فيه كثبوت القرآن فى دماغ الحافظ للقرآن، وليس مثل الرقوم المكتوبة المرتبة فى جسم متناه؛ لأن غير المتناهى لا يمكن أن يكتب فى المتناهى كهذه الكتب الظاهرة. والقلب مثل مرآة، واللوح مثل مرآة، ولكن بينهما حجاب، فإذا ارتفع تراءى فى القلب الصور التى فى اللوح. والحجاب هو الشاغل، والقلب فى الدنيا مشغول، وأكثر اشتغاله التفكر فيما يورده الحس عليه؛ فإنه من الحواس فى شغل دائم. فإذا ركدت الحواس بالنوم أو الصرع، ولم يكن من فساد الأخلاط شاغل آخر فى الباطن، ربما يرى القلب بعض تلك الصور المكتوبة فى اللوح؛ وتحقيق هذا يطول، وقد أشرت إلى ملامح منه فى كتاب «عجائب القلب». وكذلك ما يظهر عند سكرات الموت حتى ينكشف للإنسان موضعه من الجنة فيكون بشرى، أو من النار والعياذ بالله فيكون نذيرًا؛ لأن الحواس تركد فى مقدمات الموت قبل زهوق الروح.

وأما حديث غذاء الشيطان من العظم، وحصاصه، وحديث الحوض، والبرزخ فما عندى فى تفصيل المراد به تحقيق؛ بل بعض ذلك مما أوصى بالكف فيه عن التأويل، وبعضه مدركه النقل المحض، وبضاعتى فى علم الحديث مزجاة، فموضع الحوض لا يعرف إلا بمجرد النقل فليرجع فيه إلى الأحاديث. والبرزخ يمكن أن يكون المراد به مرتبة بين الجنة والنار لمن ليست له حسنة ولا سيئة، كالمجنون، والذى لم تبلغه الدعوة. والحكم بأن المراد إحداهما دون الأخرى تخمين إلا أن يدل عليه النقل، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥